

150

100

100

100











جميع الحقوق محفوظة

---

المؤسسة العربية  
للدراسات والنشر

---

بناية برج الكالدون - ساقية الجوز - ت ٨٧٦-٨  
برقياً: موكيال - بيروت - ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت

---

الطبعة الأولى  
١٩٨٤

# موسوعة الفلاسفة

## الجزء الثاني

ي

الأ

ش

م

الدكتور عبد الرحمن بدوي

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
103	رقم التصنيف
٣٠٤٦٦	
٨٢٥٢٤	رقم التسجيل

المؤسسة  
العربية  
للدراسات  
والتحقيق









ش

قسمين: في الأول جمع الجوهر والكم والكيف والإضافة، وفي الثاني جمع المقولات الست الباقية. وهو يسمى كل للمقولات: صوراً لأنه أفلاطوني واقعي النزعة في مشكلة الكليات. ويعد القسم الأول من المقولات «صوراً محايثة» *formae assistentes* ويعني بها المبادئ التي هي إما الجوهر نفسه، أو محايثة في الجوهر بما هو جوهر، بصرف النظر عن علاقاتها مع غيرها. فالكم كم جوهر، والكيف كيف جوهر.

لكن آراءه الميتافيزيقية إنما توجد في شروحه على بوثيوس، خصوصاً في شرحه على رسالة «الثالوث» *De Trinitate* وفيه يميز بين الجواهر *substances* وبين القوائم *subsistances*: الأولى هي التي تعمل فيها أعراض، أما الثانية فلا تحمل أعراضاً ولا تحتاج إلى أعراض لكي تبقى. فالأفراد جواهر، أما الأنواع والأجناس فهي قوائم.

ويميز بين الصور، بللمعنى الأفلاطوني، والصور بالمعنى الأرسطي: الأولى ليست في أجسام، بينما الثانية هي في أجسام، الأولى عضة سرمدية، والثانية مرتبطة بأجسام. إن الثانية نسخ وأشباح من الأولى.

وقد خلفه على رئاسة مدارس شارتر: تيري دي شارتر *Thierry de Chartres* وهو الأخ الأصغر لبرنارد دي شارتر. وقد خلف لنا كتاباً عنوانه «الفنون السبعة» *Heptateuchon* وكان الأساس في تدريسه. ولا يعرف تاريخ وفاته بالدقة، لكنه توفي قبل سنة 1155.

وقد حاول تيري تفسير عليّة الخلق في «الأيام الستة» التي خلق فيها الله السماء والأرض وما بينهما فقال إن الله خلق المادة في اللحظة الأولى، واتخذ كل عنصر مكانه المناسب لطبيعته، وترتبت العناصر الأربعة: التراب، الماء، الهواء، النار على شكل كرات متداخلة بعضها في بعض. والنار، وهي أخفها، تحيط بسائرهما، وهي لا تستطيع التحرك إلى الأمام، ولهذا تدور

شارتر (مدرسة)

#### L'École de Chartres

كانت مدينة شارتر (في جنوب غربي باريس، على 91 كم) مركزاً عقلياً ممتازاً في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وأول اسم مشهور في الفلسفة بين رجال مدارس شارتر هو برنارد دي شارتر *Bernard de Chartres* (المتوفى بين سنة 1124، 1130) بيد أنه لم يصلنا شيء من كتاباته، وإنما نعرف طرفاً من نشاطه وآرائه عن طريق ما كتبه جان دي سالسيوري في كتابه *Metalogicon*. كان برنارد مدرساً ممتازاً، وكان يشبه حال المحدثين تجاه القدماء بحال أقرام يقفون على أكتاف عمالقة، فتكون نظراتهم أوسع وأنفذ، لا بسبب طول قامتهم، وإنما لأنهم مرفوعون على كواهل عمالقة سبقوهم. ومن حيث المنهج، كان برنارد يعدّ أعلى أنصار الأفلاطونية في عصره، لكننا لا ندري، بسبب افتقارنا إلى النصوص، أي نوع من الأفلاطونية كان يعتقد. بيد أننا نعلم أن أفلاطونيته استمدت من مصادر عديدة، بالإضافة إلى محاورات أفلاطون: مثل أوغسطين، وبوثيوس وسنكا.

وأهم منه تلميذه: جليبر دي لا بوريه *Gilbert de la Porrée* (1076-1154) الذي خلفه رئيساً لمدارس شارتر، ودرّس في باريس سنة 1141، وتوفي وهو أسقف على بواتيه. ويعد، هو وإيلارد، أقوى عقليتين في القرن الثاني عشر، وإذا كان إيلارد يتفوق عليه في المنطق، فهو يتفوق على إيلارد في علم ما بعد الطبيعة. وينسب إليه كتاب «في المبادئ الستة» *De sex principiis* وهو تفسير ميتافيزيقي لكتاب «المقولات» لأرسطو. وقد قسّم المقولات العشر إلى

Review, t. XXX (1920), pp. 321- 342.

. وعن سائر مفكري شارتر، راجع:

- Berthault: Gilbert de la Porrée et sa philosophie. Poitiers, 1892.
- J.M. Parent: La doctrine de la création dans l'école de Chartres. Paris et Ottawa, 1938.
- H. Flatten: Die philosophie des Wilhelm von Conches. Koblenz, 1929.
- R. Demimind: Jean de Salisbury. Paris, 1873.

### شبنجلر

#### Oswald Spengler

فيلسوف حضارة الماني، احدث تأثيراً هائلاً بكتابه «انحلال الغرب».

ولد في بلاكنبورج (اقليم الهرتس Harz في وسط المانيا)، في 29 مايو سنة 1880، وتوفي في 8 مايو سنة 1936 في منشن.

وكان ابوه يدعى برنهرد، اما امه فمن اسرة جرتسوف Grantzow وكلاهما كان مسيحياً بروتستنتياً. وامضى اوزفلد دراسته الثانوية في مدينة هله Halle. ثم دخل جامعة برلين حيث تخصص في العلوم الطبيعية وبعد ذلك دخل جامعة منشن (ميونخ). ثم عاد الى برلين ثم الى هله مرة اخرى. وكان الاساتذة الذين حضر دروسهم اساتذة ممتازين، تذكر منهم: برنشتين، ودورن، وارهرد، وهابيم، والويس ريل، وتيودور لپس Lipps، وهانز فاينجر.

وامضى حياته بعد ذلك في مدينة منشن وحيداً في عزلة هائلة وحرية كاملة منقطعاً للبحث والقراءة والتأليف، وكان كتابه «انحلال الغرب» مصدر ثروة كفلت له المعاش طوال حياته.

وتوفي شبنجلر في مدينة منشن في 8 مايو سنة 1936.

#### فلسفة التاريخ

تمثل اشبنجلر التطور الهائل في النظر الى فلسفة التاريخ، الذي احدثه فلهلم دلتاي، وتأثر بفلسفة الحياة التي سادت المانيا في اوائل هذا القرن. فرأى ان يحدث في فلسفة التاريخ ثورة

حول نفسها. وحركتها الدائرية الأولى الكاملة كونت اليوم الأول، الذي فيه بدأت النار في إضاءة الهواء، ومن خلال الهواء، أضاءت الماء والتراب. هكذا حدث في اليوم الأول للمخلوق. ويستمر تبيير في بيان ما تم في الأيام الخمسة الأخرى، محاولاً التوفيق بين تعاليم العلم الطبيعي (الفيزياء) وبين ما ورد في مطلع سفر «التكوين» من الكتاب المقدس معتمداً في فيزيائه على شرح خلقديوس Chalcidius على محاوره «طيماموس» لأفلاطون ويتجلى في تأويله لعملية الخلق تفسير ذو نزعة ميكانيكية جديدة بالتبويه.

ومن الشارترين أيضاً جيوم دي كونس Guillaume de Conches (1080 - 1145). وله كتاب بعنوان: «فلسفة العالم» philosophia mundi وهو دائرة معارف فلسفية وعلمية، وله حواش على «طيماموس» لأفلاطون وعلى «التعزية بالفلسفة» ليوتثيوس.

لكن ربما كان أجدر هؤلاء الشارترين بالذكر هو جان دي سالسبوري Jean de Salisbury (حوالي 1110 - 1180) وهو انجليزي لكنه تعلم في فرنسا، وتخرج في المناصب اللاهوتية فيها حتى صار أسقفاً لشارتر. وتوفي وهو في هذا المنصب. وله كتابان رئيسيان هما: Polycraticus وMetalogicon، وفيهما كشف عن ثقافة ممتازة عامرة بأوفى حب للوضوح الذهني، وكراهية للأسلوب الخطابي والتخمين اللفظي.

ونراه لا ينساق وراء طنطنات عصره: فهو في مشكلة الكليات يتوقف عن الحكم ويراها غير قابلة لأي حل.

#### مراجع

المصدر الرئيسي هو كتابات جان دي سالسبوري، وهي منشورة في مجموعة ميسي اللاتينية Migne: «الآباء اللاتين» Patrologia Latina ج 199. كذلك نشر C. G. Webb كتابيه نشرة نقلية:

a) Polycraticus, 2 vols. Oxford, 1909.

b) Metalogicon, Oxford, 1909.

أما عن مجموع حركة شارتر، فراجع:

- A. Clerval: Les Ecoles de Chartres au moyen âge, du V<sup>e</sup> au XVI<sup>e</sup> siècle. Paris, 1895.

- R.L.Poole: «The Masters of the Schools of Paris and Chartres in John of Salisbury's time» in Engl. Histor.

نفسى عما اذا كان هذا التحقيق يتم بالفعل او يمكن فقط ان يتم، فموقفى سيكون موقف العالم الطبيعى الذى يشتغل بالعلم البحت، ويتساوى دائماً بالنسبة الى الضرورة فى العلية الطبيعية - ولا توجد علية غيرها - ان تظهر هذه الضرورة غالباً او ان لا تظهر على الاطلاق، اى ان هذه الضرورة مستقلة عن المصير. فان هناك آلاف وآلاف من التركيبات الكيميائية التى لا تتم بالفعل ولن تتحقق بالفعل يوماً ما، ولكنه قد برهن على انها ممكنة الوجود، وبالتالي توجد - بالنسبة الى نظام الطبيعة الثابت، لا الى سبب الكون المتغير. وكل مذهب فى الطبيعة مكون من مجموعة حقائق، اما التاريخ فيقوم على وقائع والوقائع تتوالى، بينها الحقائق يستنبط بعضها من بعض. وهكذا يختلف «متى» عن «كيف» ابرقت السماء: تلك واقعة يمكن ان يشار اليها بالبنان دون ما حاجة الى الكلام. . . اذا ابرقت اعدت: تلك حقيقة تحتاج فى التعبير عنها الى قضية. وهكذا يمكن التجربة الحية ان تستغنى عن الألفاظ، بينما المعرفة العقلية المنظمة مستحيلة بدون اللفظ. وفي هذا المعنى قال نيتشه: إن «القابل للتعريف هو وحده الذى لا تاريخ له». وبينما التاريخ حادثة حاضرة ذات اتجاه نحو المستقبل ونظرة الى الماضى، نرى الطبيعة من وراء كل زمان مطبوعة بطابع الامتداد دون الاتجاه، وفيها تسود الضرورة الرياضية، بينما، فى التاريخ، تسود الضرورة الاسيانية.

ثم يميز شبنجلر ثانياً بين التاريخ والتاريخ أى كتابة التاريخ. فالتاريخ غير التاريخ بل إن الواحد لا يكاد يقوم الا على اساس انكار الآخر. وذلك لان التاريخ صيرورة خالصة، بينما التاريخ لا يمكن ان يقوم الا بتحويل شيء من هذه الصيرورة الخالصة الى ثابت. وكلما كان الجزء المتحول من التاريخ اكبر، كانت عملية التاريخ ايسر.

واكد شبنجلر التعارض بين فكرة الصيرورة وبين مبدأ العلية والح في هذا التوكيد، واخذ على السابقين انهم لم يعترفوا بهذا التعارض اعترافاً قوياً واضحاً بكل ما يحتويه من ضرورة عميقة.

ذلك ان الحياة - فى نظر شبنجلر - هي الصورة التى عليها يتم تحقيق الممكن. واذا كانت الحياة كذلك، فيجب ان تعتبر كأنها كائن موجه غير قابل للتقص فى اية لحظة من ملاحظه، وانه متقل بالمصير.

ان العلية هي المعقول والقانون وما يمكن التعبير عنه، وهي علامة وجودنا الواعى العقلي كله. اما المصير فاسم لهذا

كوبونيكية، وذلك باطراح النظرة التقليدية الى التاريخ كتيار مستمر متواصل من العصر القديم فالعصور الوسطى فالعصر الحديث، وان ينظر الى التاريخ بدلا من ذلك على اساس انه مؤلف من دوائر حضارة مغلقة. يقول شبنجلر: «لم يبق اذن إلا القيام مرة ثانية بما قام به كوبر نيكوس من قبل، حين حرر النظر باسم المكان اللامتناهى. ان الروح الغربية قد قامت بهذا التحرر منذ زمان طويل فيما يتعلق بالطبيعة، يوم ان تركت نظام الكون كما تصوره بطليموس الى نظام الكون كما تصوره اليوم صحيحاً وحده بالنسبة اليها. فلم نعد نرى فى الوضع الذى يتصافد ويوجد فيه انعكاس على كوكب من الكواكب الاساس للصورة التى عليها يتصور الكون.

«إن التاريخ العام قادر، بل فى حاجة الى التحرر من الوضع الذى تصادف ووجد المؤرخ نفسه فيه، وهو «العصر الحديث». فالقرن التاسع عشر يبدو لنا اغنى واهم بكثير جدا من قرن كالقرن التاسع عشر قبل الميلاد. ولكن القمر يبدو لنا ايضا اكبر من المشتري ومن زحل. وبينما نجد ان زمانا طويلا قد مضى منذ ان تحلص الفيزيائي من فكرة الابتعاد النسبي، لا نزال نرى المؤرخ حيث كان: فريسة لهذه الفكرة السابقة المتسلطة على وهمه».

الا فليتححر المؤرخ من هذا الوهم، بأن يجعل بينه وبين التاريخ الحديث مسافة كافية لان تجعله ينظر الى هذا التاريخ باعتباره «شيئا بعيداً كل البعد، غريباً كل الغرابة، وباعتباره مدة من الزمان ليس لها وزن أكبر مما لغيرها من مدد الزمان، دون ان يخضع لقاعدة من قواعد هذا المثل الاعلى او ذلك مما يشوهه ويؤثر فى طبيعته، ودون ان يرجعه الى نفسه ويدخل فيه رغباته وهمومه وعواطفه الشخصية التى تمليها عليه حياته العملية، مسافة اقرب - على حد تعبير نيتشه الذى لم يستطع مع ذلك ان يحققها تمام التحقيق - تسمح بادراك الواقع الانسانى من بعد شامع جدا، بالقاء نظرة عبر الحضارات كلها بما فيها الحضارة التى يتسبب اليها، وكأنه ينظر فيها وراء سلسلة من قمم الجبال تمتد فى الافق البعيد».

ويدأ شبنجلر ثورته الجديدة هذه بوضع تمييز بين «التاريخ» وبين «الطبيعة». ويلخص شبنجلر الفارق بين التاريخ وبين الطبيعة تلخيصاً عاماً فيقول: «إن التاريخ مطبوع بطابع الحدوث مرة ما، اما الطبيعة فمطبوعة بطابع الامكان باستمرار. فطالما كنت انظر صورة الكون المحيط بي كي اعرف تبعاً لاية قوانين يجب ان تتحقق هذه الصورة، دون ان اسائل

الذي يوهنا بان تاريخنا بعيدا حافلا بالأحداث ممتداً الى عدة آلاف من السنين، كتاريخ مصر أو الصين، يركّز ويضغط. في بضعة حوادث عارضة مشتتة، بينما تاريخ قريب تافه الأحداث لا يكاد يمتد إلى عشرات قليلة من السنين، كتاريخ عصر نابليون، يتفخ ويتضخم كما تتضخم الأشباح فيبدو أحفل من التاريخ الأول بمرات ومرات! وبينما لم نعد نتوهم أن السحابة البعيدة تسير بسرعة أقل من السحابة القريبة، وأن القطار يزحف بطيئاً وهو يخترق منطقة بعيدة، لا زلنا مع ذلك نتخيل بل ونؤمن بأن سرعة التاريخ القديم: من هندي وبابلي ومصري - أقل في الواقع من سرعة ماضيينا القريب»

هذا هو الوهم الأول الذي كشف عنه اشبنجلر لدى المؤرخين الاوروبيين المحدثين.

ووهم ثان لا يقل أثرأ في تشويه صورة التاريخ عن الوهم الأول، وهو ذلك الوهم الذي يُجَيِّلُ الينا ان التاريخ العلم يسير على خط اقضي ممتد يمثل «انسانية» واحدة تتقدم باستمرار. وفي تيار هذا الوهم انساق نفر من المفكرين والفلاسفة والمصلحين الذين رأوا فيه تحفيقا وتأييدا ومعيناً على تصور ما يملحون به من مثل عليا.

فعلينا ان نتخلص من هذين الوهين. هنالك سري ان التاريخ يتكون من كائنات عضوية حية هي الحضارات، وكل حضارة منها تشبه الكائن العضوي تمام الشبه، فتاريخ كل حضارة هو كتاريخ الانسان او الحيوان أو الشجرة سواء بسواء. والتاريخ العلم هو ترجمة حياة هذه الحضارات.

وعلينا ان نعين سياق الحضارات، لتدرك كيف تنبتق فجأة، وتمتد في خطوط رائعة، وتتصلق، واخيرا تختفي وتغوص من جديد في الوحدة والنوم.

وهاك بيان كيف تولد حضارة من الحضارات:

يقول اشبنجلر: «تولد الحضارة في اللحظة التي فيها تستيقظ روح كبيرة وتتفصل عن الحالة الروحية الاولية للطفولة الانسانية الابدية كما تتفصل الصورة عما ليس له صورة، وكما ينبتق الحد والفناء من اللامحدود والبقاء. وهي تنمو في تربة بيثة يمكن تحديدها تمام التحديد، تظل مرتبطة بها ارتباط النبتة بالأرض التي تنمو فيها. وتموت الحضارة حينها تكون الروح قد حققت جميع ما بها من امكانيات على هيئة شعوب ولغات ومذاهب دينية وفنون ودول وعلوم. ومن ثم تعود الى الحال الروحية الاولية».

اليقين الباطن الذي يجب على الانسان ان لا يصفه وان لا يعبر عنه.

### فلسفة الحضارة

وقد وصف اشبنجلر الصورة التي يتجلى عليها التاريخ العالمي بعبارات جميلة فقال: «فيض لا نهائي من الصور اللانهائية التي تظهر ثم تختفي، وترتفع ثم من جديد تغوص، وخليط هائل فيه ترف الآف الالوان والاصواء يدور فريسة لاشد انواع الاتفاق والصدقة نزاء وسورة. تلك هي الصورة الاولى للتاريخ العالمي كما تتراعى متشعبة على شكل كل واحد امام اعيننا الباطنة. ولكن العين المرهفة النفاذة الى اعماق اعماق الاشياء لا تلبث ان تميز في هذه القوضى المطلقة صوراً ظاهرة وان عليها غشاء ثقيل لا تريد التخلص منه الا بعناء، صوراً يفيض من ينبوعها كل صيرورة وكل تطور انساني».

وهذه الصور هي الظواهر الاولية لتاريخ الانسانية.

وقد اخذ اشبنجلر فكرة الصورة الاولية (او الظاهرة الاولية) هذه عن جيته.

وقد تجلّت الصورة الاولية للرجل الاوروبي اول ما تجلّت على شكل «كتلة هائلة لا يمحصرها المدى من الكائنات الحية الانسانية، وسيل جارف ينبع من هاوية الماضي السحيق حيث يفقد شعورنا بالزمان كل قدرة على التنظيم، وحيث قذف بنا الخيال الجامح - او الجزع - في شيء يشبه السحر، إلى صور العصور الجيولوجية الارضية كي يخفى من ورائها سراً لا يمكن النفوذ اليه، وتيار زاخر يضل في بيداء مستقبل مظلم كهذا الاظلام ليس فيه ثمة مجال للزمان، - وامواج من الاجيال العديدة راتبة الحركة تهدر صاحبة على السطح الهائل، ونصال برامة تمر متشعبة في الفضاء المحيط، واصواء خاطفة ترجح وترقص من فوقها، محدثة تشويشا واضطرابا في المرآة الصافية، تتحول وتستحيل، وتبرق ثم تختفي. ثم حاول ان ينظمها فتصورها متقسمة الى ثلاثة اقسام سماها: العصور القديمة، والعصور الوسطى، والعصور الحديثة. فأخذ من حضارته محوراً ثابتاً من حوله يدور التاريخ. ولم لا، وحضارته هي المركز الذي منه ينظر، والاقى الذي يجد، في الواقع، بصره، والشمس المركزية التي منها يتشع الضوء على كل الوجود! أي أن الذي يتحدث هنا هو الغرور الذي تملك الرجل الاوروبي، فلم يردعه شك ولا تواضع، بل اندفع يلوك في عقله هذا الشبح، شبح «التاريخ العام» - واي «تاريخ عام»! إنه ذلك التاريخ

في اواخر القرن الثامن عشر بأوروبا. وتشعر الروح حينئذ بالحنين، في شيء من الحزن، الى طفولتها الاولى - كما هو واضح في الترتبة الرومانيكية.

واخيراً، وبعد ان اصبحت منهوكة القوى، خالية من العسارة، قد نصب منها دم الحياة، تفقد الحضارة الرغبة في الوجود فتطمح، كما هي الحال في ايام الرومان بالنسبة الى الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) - الى النور الباهر الذي غمرها منذ ميلادها حتى ذلك الحين، الى حيث تجدد ملاذاً لها في الظلمة التي تكشف حياة الارواح الاولى وفي بطن امها الاولى التي فيها نشأت، في القبر. فهي روح اوشكت على الفناء، فلا تمنح الا لما هو تعبير عن الموت والفناء، الى الظلال الخزينة الشاحبة، والى الليل المظلم المشرف على الهاوية، والى الاحلام التي تملئها الكهوف المعتمة الفاترة، فتستهويها حينئذ نزعاً دينية صوفية غامضة، شامها شيء من الجزع العقيم والقشعريرة الجوفاء - كما كانت حال الروح القديمة (اليونانية - الرومانية) في اواخر ايامها حينما استهوتها ديانات مترا وايزيس والشمس، فاندفعت تنشد السلوى والراحة في ظلها الزرقاء، وتشعر بالنشوة تغمرها من فيض الحانها الخافتة خفوت الموت.

ولكل حضارة اسلوبها المتمايز من اسلوب غيرها تمام التمايز، اسلوب نستطيع ان نتلمسه في كل مظهر من مظاهرها فتجده واضحاً فيه كل الوضوح: من فن ودين وعلم وسياسة وتركيب اجتماعي.

ويستعمل شينجلر منهج التماثل، المستخدم في علم الحياة، لبيان ان كل الظواهر والصور الدينية والفنية والعلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية «متعاصرة» بين جميع الحضارات في نشأتها وتطورها وفنائها، - وان التركيب الباطن لاية حضارة هو عينه التركيب الباطن لكل الحضارات، بل ولا توجد ظاهرة واحدة ذات قيمة عميقة في الصورة التاريخية لحضارة ما دون ان يوجد ما يتاظرها تماماً في غيرها من الحضارات ولهذا الأمر نتيجتان على جانب كبير من الأهمية: الأولى انه سيصبح في وسعنا ان نتجاوز حدود الحاضر وان نتنبأ تنبؤاً دقيقاً يقينياً بما ستكون عليه حال الأدوار التي لم تمر بها الحضارة الغربية بعد، من حيث صورتها الباطنة وعمرها وسياق تطورها، ومعناها، ونتائجها، كما يستطيع الكيميائي ان يحدد سابقاً بالدقة ما سيحدث لمركب من المركبات لو اجريت عليه كذا وكذا من العمليات، او كما يعرف الفيزيائي ما سيجري للاجسام ابتداءً من نقطة معلومة.

ولما كانت الحضارة كالكائن العضوي الحي فانها تمر بنفس الادوار التي يمر بها هذا الكائن الحي ابان تطوره: فلكل حضارة طفولتها وشبابها ونضجها وشيخوختها، او ان شئت فعمل ادوار الحضارة بأدوار السنة وقل حينئذ ان لكل حضارة: ربيعها، وصيفها، وخريفها، وشتاءها.

ولكل دور من هذه الادوار من الخصائص ما للفصول السنوية التي تناظرها من خصائص، او ما لأدوار حياة الانسان المناظرة لها من خصائص ومميزات. فحضارة كالحضارة الغربية (او الأوروبية الاميركية) تبدو لأول مرة على الاضواء الخافتة الاولى في فجر العصر الروماني القوطي حوالي سنة ٩٠٠ ميلادية، تبدو طفلة لم تشعر بعد بقواها. فتقدمت الى النور في خوف واستحياء. ولكن كانت تشع من نظراتها تعبيرات عن قوى كامنة زاخرة في باطنها، مؤذنة بنمو فذ سريع، ومرعان ما اهتزت تربة بيتها وهي تشمل اقلها يمتد من بروفانس الترويادور حتى كاتدرائية الاسقف ونفرد في هيلديسهيم Hildesheim فزكت وترعرعت وابتدت الحضرة في كل مكان وهكذا رقت روح الربيع على هذه البيئة، فأشاعت فيها قشعريرة الخلق والحياة المليئة، فأصبح كل شيء يؤذن بميلاد روح جديدة، روح استيقظ حينئذ شعورها، في شيء من الغموض والقلق والاستحياء والجزع، فبدأت «تنازل كل العناصر الشيطانية المظلمة التي فيها وفي الطبيعة الخارجية، وكأنها تنازل خطيئة، كي تسمى قليلاً قليلاً في نضوج مستمر الى التعبير الواضح المضيء عن وجود استطاعت اخيراً ان تظفر به وان تتركه». وكلما نمت واقتربت شيئاً فشيئاً من صيفها تحددت ملامحها واستقرت اللغة التي تعبر بها عن نفسها، وتمايز الطابع الخاص بها في الاوضاع التي تحققها، واصبحت كل لحظة من لحاتها مختارة دقيقة، فيها خفة وفيها وضوح، كما نراه واضحاً في الآثار الفنية التي تعبر عن هذه الفترة من تطور الحضارة، مثل رأس اميمحمت الثالث (في التمثال المنسوب الى الهكسوس بتانيس) في الحضارة المصرية، وكاتدرائية ايا صوفيا في الحضارة العربية، ولوحات تسيانو في الحضارة الغربية.

فإذا ما وصلت الحضارة إلى قمة تطورها وحققت كل ما فيها من امكانيات واستنفدت قواها الخالقة، بدأت شيخوختها وانتقلت من حالة الحضارة بمعناها الدقيق الى حالة المدنية، فينطفئ النور الذي كان متوهجاً بها من قبل، شيئاً فشيئاً، ولا يرسل الا شعاعاً فيه من القوة الحقيقية اقل مما يدل عليه المظهر، يحاول ان يخلق أثراً عظيماً - كما هي الحال في النزعة الكلاسيكية

يجمعوا منها وحدة شعورية تامة، وأن يكونوا منها اسباطورية محددة، وأن يبلغوا بها أعلى درجة قنر لها الوصول إليها.

وتمت حضارة اخرى، توسطت في الزمن بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، وتلك هي الحضارة المكسيكية، وهي حضارة سيئة الحظ، قد عانت موتاً مبكراً قاسياً على يد الحضارة الغربية، فلم يقدر لها أن تكشف عن كل إمكاناتها.

واخيراً جاءت الحضارة الغربية، أو الأوروبية الأميركية، ابتداءً من عهد أوتو Otto الأكبر. فحوالي سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد شعرت الشعوب الأوروبية بجنسيتها: هذا ألماني، وذاك إيطالي، وآخر فرنسي الخ. بعد ان كانت هذه الشعوب لا تشعر بجنسيتها باعتبارها فرجة أو لباردين أو قوطاً.

أما الرموز الأولية لهذه الحضارات العليا فهي كما يلي بالنسبة إلى أربع منها:

- ١- الحضارة الأوروبية الاميركية رمزها: المكان اللامتاهي الخالص؛
- ٢- الحضارة العربية رمزها: الكهف أو السرداب أو التجويف الداخلي؛
- ٣- الحضارة المصرية رمزها: الطريق.
- ٤- الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) ورمزها: الجسم المتكامل.

ويتابع اشينجلر- في تحليل أوفى على الغاية من العمق والبراعة - تجلّي هذا الرمز الأولي في مختلف مظاهر كل حضارة من هذه الحضارات الأربع.

#### مؤلفاته

١٩٠٤: «هيرقليطس. دراسة في الأفكار الرئيسية الديناميكية في فلسفته» Heraklit. Eine Studie über den energetischen Grundgedanken seiner Philosophie. وقد طبع أولاً في هله على الزالة عند الناشر كيمرر C. A. Kämmerer. ثم طبع مرة اخرى في مجموع خطبه ومقالاته التي ظهرت سنة ١٩٣٧ عند الناشر بك C. H. Beck

هي الحضارة الصينية على نهر هونجهاوالأوسط حوالي سنة ١٤٠٠ ق. م. ، والثالثة هي الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) على بحر ايجه حوالي سنة ١١٠٠ ق.

٠٢

ولكن الاكتشاف الخطير الذي قام به اشينجلر في ميدان الحضارات هو اكتشافه وجود حضارة ذات رقعة موزعة بعض التوزع، حدتها الشمالي مدينة الرها، والجنوبي سوريا وفلسطين وهما موطن «العهد الجديد» (من الكتاب المقدس) وكتاب «المشناه» عند اليهود، وتقوم لها الاسكندرية بمثابة الطليعة. وتحد من الشرق بتلك المنطقة التي سيطرت عليها الديانة المزدكية بعد يقظتها، تلك اليقظة التي تشهد عليها بقايا الآثار الأقسية (الابستاقية)، والتي ولدت فيها الديانة المانوية، وفيها كُتب «التلمود». وفي أقصى الجنوب توجد المنطقة التي ستكون مهد الاسلام في المستقبل والتي مرّت بعصر فروسية بلغ أوجه من التضوج. ولا تزال نجد حتى اليوم في هذه البيئة أطلال القصور والحصون التي فيها حدثت حروب ومعارك حاسمة بين دولة «أكسوم المسيحية على الشاطئ الأفريقي، ودولة الحميريين اليهودية على الساحل العربي المقابل، وهي حروب زاد أوارها السلاح السياسي الذي استخدمته كل من روما وفارس. وأخيراً نجد في أقصى الشمال مدينة بيزنطة التي كانت خليطاً عجيباً من الحضارة القديمة (اليونانية الرومانية) المتأخرة، والفروسية القديمة التي لا نجد لها غير صورة غامضة في النظام الحربي البيزنطي.

هذا العالم المخلط المشتت التشعب الأطراف لم يستطع أن يشعر بوحدة إلا على يد الاسلام. وهذا هو سر نجاحه الهائل السريع، فإن العلة في هذا النجاح هي ان الاسلام هو وحدة الذي استطاع أن يجعل هذه البيئة الشاسعة الموزعة تشعر بأنها تكون وحدة، وهي وحدة الحضارة التي تربطها كلها في ذلك الزمان.

وعن الاسلام، نشأت الحضارة العربية التي بلغت أوج نضوجها الروحي حينها أغار المتبربرون الأوروبيون على هذه البيئة قاصدين بيت المقدس: فالمدنية الاسلامية حتى الحروب الصليبية تمثل الصورة العليا لهذه الحضارة، التي سماها اشينجلر باسم «الحضارة العربية». ولعل السبب في تسميته إياها بهذا الاسم الذي لا ينطبق إلا على جزء منها أن العرب هم الذين استطاعوا، على يد الاسلام، أن



القدم هي بيئة الحضارة البابلية القديمة، التي أصبحت منذ ألف سنة مسرحاً لكثير من الغزاة حتى سادها الشعب الفارسي، وهو شعب فطري، فلما جاءت سنة ٣٠٠ قبل الميلاد بدأت في هذه البقعة بقطة هائلة لدى الشعوب الشابة، التي تقطن فيما بين سينا وجبال ايران، وتكلم باللغة الآرامية، حيث قامت صلة جديدة بين الله والانسان وشعور كوني جديد نحو كل الأديان القائمة، أديان أهرمن ومزدان، وبعث، واليهودية، ودفع إلى الخلق والتجديد. لكن حدث في هذه اللحظة أن ظهر المقلدون، وهم طائفة من المغامرين، فغزوا هذه المنطقة؛ وتكونت حينئذ طبقة رقيقة من الحضارة القديمة على سطح هذه البقعة كلها حتى الهند والتركستان. وهنا حدث التشكل الكاذب: فقد جاءت موقعة اكتيوم بين انطونيو واوكتافيوس، وكان الواجب أن يتصر انطونيو، لا اوكتافيوس. وعلى كل حال فإن هذه المعركة كانت في الواقع معركة «بين الروح الأبلونية (اليونانية الرومانية) وبين الروح العربية (أو السحرية كما يسميها شبنجلر)، بين الآلهة المتعددة وبين الله الواحد، بين الإمارة وبين الخلافة.

ولكل حضارة رمز أولي يطبع بكامله جميع مظاهر هذه الحضارة. ولتذكر الآن الرموز الأولية لأشهر الحضارات.

وهنا يتحدث شبنجلر عن أشهر الحضارات التي ظهرت في التاريخ وسمى ظهرت، وفي أية بيئة ولدت.

وشبنجلر في تأمله للتاريخ العام قد اكتشف وجود ثمان حضارات عليا رئيسية هي:

(١) الحضارة المصرية، (٢) الحضارة البابلية، (٣) الحضارة الهندية، (٤) الحضارة الصينية، (٥) الحضارة القديمة (اليونانية - الرومانية) (٦) الحضارة العربية، (٧) الحضارة المكسيكية، (٨) الحضارة الغربية (الأوروبية الأمريكية).

فحوالي سنة ٣٠٠٠ ق. م. قامت على شاطئ نهرين في بقعة صغيرة حضارتان: إحداهما على شاطئ النيل هي الحضارة المصرية، والأخرى على شاطئ الفرات هي الحضارة البابلية.

وحوالي سنة ١٥٠٠ ق. م. ولدت ثلاث حضارات جديدة: أولاها الحضارة الهندية في بنجاب العليا، والثانية

والنتيجة الثانية هي أنه سيكون في مقدورنا أن نكون من جديد عصوراً بأكملها قد مضت منذ أمد بعيد ولم نعد نعلم عنها شيئاً، بل وإن نعرف أحوال حضارات بأكملها هوت في الماضي السحيق.

### دوائر الحضارة

الحضارات اذن كائنات عضوية. وتبعاً لذلك فانها تتمايز بتلك الصفات التي يمتاز بها كل كائن عضوي حي. فلكل حضارة كيانها المستقل المنعزل تمام العزلة عن كيان غيرها من الحضارات. ولا سبيل إلى اتصال حضارة بحضارة أخرى ما دامت كل حضارة، باعتبارها كائناً عضوياً ووجوداً حقيقياً، تكون وحدة مغلقة على نفسها. وما يشاهد من تشابه في الموضوع بين حضارة وحضارة، لو بين تشابه في أسلوب التعبير عن حضارتين مختلفتين، إنما هو وهم فحسب. انه تشابه في الظاهر ولا يتعدى إلى الجوهر، لأن كل حضارة تعبير عن روح، والروح تختلف بين الحضارة والحضارة الأخرى تمام الاختلاف في جوهرها واسلوبها وممكنات وجودها.

ولهذا لا يوجد اتصال بين الحضارات بعضها وبعض، ولا تأثير وتأثر من بعضها في البعض الآخر. وإذا تبنا الحضارات المتوالية، وجدنا ان الحضارات اللاحقة لم تأخذ من الحضارات السابقة غير أشياء ضئيلة جداً، ولم ترتبط وياها الا بطائفة لا تذكر من الروابط.

لكن قد يحدث بين حضارة وحضارة تالية ما يسميه شبنجلر بظاهرة «التشكل الكاذب» وذلك حين تنتشر حضارة قديمة على البقعة التي تولد فيها حضارة جديدة انتشاراً قوياً يحول بين الحضارة الجديدة وبين التنفس والنمو الطبيعي، فلا تستطيع الحضارة الجديدة أن تمي صور تعبيرها الخالصة، بل يحال بينها وبين نضوج شعورها بذاتها. فان «كل ما ينبثق من أعماق هذه الروح الغضة لا يلبث أن ينصب في القوالب الفارغة التي تركتها هذه الحياة الأجنبية عنها. وانواع الشعور الشابة الزاهرة تتحجر في الآثار الهرمة القانية، وبدلاً عن أن تصاعد بفضل ما لها من قدرة ذاتية على النمو بنفسها، لا ينمو فيها غير الحقد الهائل الذي تحمله ضد القوة الأجنبية.

ويضرب شبنجلر هذه الظاهرة في تكوين الحضارات مثلين: الحضارة العربية، والحضارة الرومية.

الحضارة العربية قد نشأت في بيئة لها ماضٍ موغل في

- الاشتراكية. وظهر عند نفس الناشر بك Beck .
- 1924 : «البناء الجديد للريش الألماني» Neubau des deutschen Reich عند نفس الناشر بك في 104 صفحة، ويتضمن: الفوضى؛ خدمة الدولة والشخصية؛ الحق كنتيجة للواجبات؛ التربية - نظام أم تعليم؟؛ البقاء الألماني؛ ضد بلشفية الضرائب؛ العمل والملكية؛ الموقف العالمي.
- «الاقتصاد» Die Wirtschaft عند نفس الناشر في د + 49 صفحة. ويحتوي على: (١) النقد: الزراعة والتجارة؛ الطبقة الاجتماعية والطبقة الاقتصادية؛ وتعبئة الأموال بواسطة النقد؛ النقد والعمل؛ الرأسمالية؛ التنظيم الاقتصادي. (٢) الآلة: روح الصناعة الفنية؛ الصناعة الفنية في الحضارة القديمة؛ الصناعة الفنية الفأوستية؛ الإنسان كعبد للآلة؛ صاحب العمل والعامل والمهندس؛ الصراع بين النقد والصناعة؛ الكفاح النهائي بين النقد والسياسة؛
- «واجبات الشباب الألماني السياسية» Politische Pflichten der deutschen Jugend وهي محاضرة القيت في 1924/2/26 في جماعة المدارس العليا للفن الألماني في فورتسبرج، عند نفس الناشر في 32 صفحة.
- «فرنسا وأوروبا» Frankreich und Europa، مقالة ظهرت في «مجلة كيلن (كولونيا)» Kölnische Zeitung في 26 / 1 / سنة 1924. ثم ظهرت في مجموع «خطبه ومقالاته» من ص 80 - ص 88.
- «واجبات النبالة» Aufgaben des Adels، محاضرة القيت في 1924/5/16 في يوم النبالة الألماني في برمسلاو، وظهرت في «مجلة النبالة الألمانية» Deutsche Adelsblatt، السنة الثانية والأربعين، رقم 13. ونشر ثانياً في «خطبه ومقالاته» ص 89 - ص 95.
- «مشروع أطلس قديم» Plan eines neuen Atlas antiquus محاضرة ألقيت في 1924/10/3 في يوم المستشرقين في منش.
- في منش بعنوان: «خطب ومقالات لأوزفلد شينجلر» Oswald Spengler: Reden und Aufsätze من ص 1 - ص 47.
- 1910 : «الظافر». صورة إجمالية Der Sieger. Eine Skizze، وهي قصة صغيرة، والوحيدة الكاملة بين المشروعات القصصية والأدبية التي فكر فيها اشينجلر.
- 1920 : «انحلال الغرب: صورة إجمالية لهيئة تاريخ العالم». Der Untergang des Abendlandes. Umriss einer Morphologie der Weltgeschichte وقد ظهر الجزء الأول سنة 1920 عند الناشر بك C. H. Beck في منش في 615 + ٦٦٥ صفحة. وهذا هو كتابه الرئيسي الضخم الذي أودع فيه كل فلسفته.
- 1922 : وظهر الجزء الثاني منه في 635 + ز صفحة عند نفس الناشر.
- 1920 : «أفكار حول الشعر الغنائي» Gedanken zur lyrischen Dichtung وقد كتب هذه المقالة كمقدمة لديوان شعر ارنست دريم Ernst Droem بعنوان «أغاني» Gesängen؛ وظهرت عند نفس الناشر، ثم طبعت عند نفس الناشر، ثم طبعت مرة أخرى في مجموع «خطبه ومقالاته» الذي أشرنا إليه آنفاً من ص 54 - ص 63.
- 1921 : «تسلؤم؟» Pessimismus. وقد نشرت هذه المقالة في «الحواليات البروسية» Preussische Jahrbücher سنة 1921 ج 184 الكراسة رقم 1، ثم في «سلسلة كتب الحواليات البروسية»، رقم 4، عند الناشر جيورج اشتلكه Georg Stilke في برلين. ثم أعيد نشرها في مجموع «خطبه ومقالاته» من ص 63 - ص 79، وقد قصد منها إلى الدفاع عن الجزء الأول من «انحلال الغرب» ضد سوء التأويل السياسي الذي عاناه هذا الكتاب.
- 1922 : «البروسية والاشتراكية» Preussentum und Sozialismus في د + 99 صفحة، ويحتوي على: مقدمة؛ ثورة سنة 1918؛ الاشتراكية كصورة للحياة؛ الإنجليز والبروسيون؛ ماركس؛ الدولية

وتحتوي: الصناعة الفنية كأسلوب للعمل (تكتيك) في الحياة؛ أكلوا النبات والحيوانات المفترسة؛ نشأة الإنسان؛ اليد والآلة. الدور الثاني: الكلام والنهوض بالأعمال. النهاية: علو الحضارة الآلية وانحدارها.

١٩٣٣: «السنوات الحاسمة. ألمانيا وتطور التاريخ العالمي» Jahre der Entscheidung، في يد + ١٦٥ صفحة. وفيه يعرض آراءه التطبيقية في السياسة، ويحلل ثورة الشعوب الملونة، ومصير الشعوب البيضاء.

«عمر الحضارات الأميركية» Das Alter der Amerikanischen Kulturen. وقد نشرت هذه المقالة في - Festnummer des Ibero - amerikanisches Archiv، ج ٧، عدد ٢، سنة ١٩٣٣، عند الناشر فرنتند ديميلر Dümmler في برلين. وأعيد نشرها في «خطبه ومقالاته» ص ١٣٨ - ١٤٧.

١٩٣٤: «عربة القتال ومدلولها بالنسبة الى سير تاريخ العالم» Der Streitwagen und seine Bedeutung für den Gang der Weltgeschichte القيت في ١٩٣٤/٢/٦ في جماعة أصدقاء الفن الآسيوي والحضارة في منش، ونشرت في «أبحاث جماعة فن شرقي آسيا» السنة التاسعة رقم ١ / ٢. وأعيد نشرها في «خطبه ومقالاته»، ص ١٤٨ - ١٥٢.

١٩٣٥: «قصيدة ورسالة» Gedicht und Brief، لذكرى فلي اشميد، كلمة ملحقة بكتاب «سمفونية لم تتم» لفي اشميد Willy Schmid، عند الناشر أولدنبورج في منش و برلين. وأعيد نشرها في «خطبه ومقالاته»، ص ١٦٣ - ١٥٧.

«في التاريخ العالمي للآلاف سنة الثاني قبل الميلاد» Zur Weltgeschichte des zweiten vor-christlichen Jahrtausends نشر في مجلة «العالم» بتاريخ السنة الأولى سنة ١٩٣٥، الكرامة ١ - ٥، الناشر كوهمر، في اشتوتجرت. وأعيد نشرها في «خطبه ومقالاته»، ص ١٥٨ - ص ٢٩١.

ونشرت في مجلة «العالم» بتاريخ Die Welle Als Geschichte، السنة الثانية سنة ١٩٣٦، الكرامة رقم ٤، الناشر: ف. كوهمر، W. Kohlhammer. في اشتوتجرت. ونشر ثانية في «خطبه ومقالاته»، ص ٩٤ - ١٠٤.

«آسيا القديمة»، من مؤلفاته المتروكة، نشرت في مجلة «العالم» بتاريخ، السنة الثانية سنة ١٩٣٦، الكرامة رقم ٤. ونشرت ثانية في «خطبه ومقالاته»، ص ١٠٥ - ص ١٠٩.

«نيتشه وقرنه» Nietzsche und sein Jahrhundert، محاضرة القيت في ١٩٢٤/١٠/١٥، بمناسبة مرور ثمانين سنة على ميلاد نيتشه، في دار محفوظات نيتشه في فيمار. ونشر لأول مرة في «خطبه ومقالاته»، ص ١١٠ - ص ١٢٤.

١٩٢٦: «في تاريخ تطور الصحافة الألمانية» Zur Entwicklungsgeschichte der deutschen Presse، مقال في «نشرة الصحف» سنة ١٩٢٦ رقم ٢٥. وأعيد نشرها في «خطبه ومقالاته»، ص ١٢٥ - ص ١٢٨.

١٩٢٧: «مشروع لإجراء مسابقة بين رجال القضاء»، نشرت لأول مرة في «خطبه ومقالاته»، ص ١٢٩ - ١٣٠.

«طبيعة الشعب الألماني» Vom deutschen Volkscharakter مقال في المجلة السنوية الموسومة باسم: «ألمانيا» Deutschland

«مقدمة لمقالة رتشارد كورهر عن تناقص السكان» Einführung zu einen Aufsatz Richard Korherr über den Geburtenrückgang، ظهر في «الكراسات الشهرية لجنوب ألمانيا» Süddeutsche Monatsheften، السنة ٢٥ رقم ٣، ديسمبر سنة ١٩٢٧. وأعيد نشره في «خطبه ومقالاته»، ص ١٣٥ - ص ١٣٧.

١٩٣١: «الإنسان والصناعة الفنية. مساهمة في إيجاد فلسفة في الحياة» Der Mensch und die Technik، في ز + ٧٩ صفحة عند الناشر بك في منش،

الحقيقة، وفي مقابل رجال الاكاديمية الافلاطونية في عصرها الأوسط الذين يقررون أنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة. وأول من ذهب فلسفي بني على الشك التام في امكان المعرفة الانسانية هو من مذهب فورون (٣٦٥-٢٧٥ ق.م) Pyrrhon d'Elée وتلاميذه: نوسيفان Nausiphane استاذ أيفور، وتيمون الفليونتي Timon de Philionte، ومينقلس Menecles. وان كان من غير المعلوم ييقن ما ادلى به هؤلاء من حجج ضد امكان المعرفة، ولا نستطيع ان ننسب اليهم ما ستره فيما بعد عند انسيداموس، وسكستوس من حجج.

وخير وسيلة لعرض آراء الشكك اليونانيين دون تحديد تاريخي دقيق لتصيب كل منهم في صياغتها. ان نعرض هذه الحجج بحسب ما ذكره سكستوس امبريكوس في كتابه:

(١) «الجمال الثورونية» Hypotyposes

(٢) «ضد المعلمين» Contra Mathematicos

لم يختلف الشكك في شيء، فيما يتصل بالغاية، عن الرواقين والأبيقوريين، فكل هذه المدارس تنفق في غاية واحدة هي أن يجعل الانسان قصده من الفلسفة أن تكون مؤدية إلى أن يحيا المرء حياة سعيدة. فكما أن الرواقين والأبيقوريين قد اتجهوا في فلسفتهم إلى الأخلاق وإلى الناحية العملية منها، كذلك اتجه الشكك إلى الناحية العملية من الفلسفة، فطالباها بما طالبها به الرواقيون والأبيقوريون سواء بسواء؛ وكل ما هنالك من خلاف بين الطرفين، أوبين كل هذه الأطراف جميعاً، هو في الوسيلة المؤدية إلى تحقيق هذه السعادة المنشودة من الأخلاق والفلسفة جميعها: فالرواقيون والأبيقوريون قد ظنوا أن تحصيل هذه السعادة يكون بالإيمان اليقيني ببعض المبادئ الميتافيزيقية الطبيعية الأصلية، أي بتوكيد إمكان المعرفة وبناء الأخلاق على أساس ما يعتقد المرء مما تؤكده له معرفته، بينما نجد الشكك يقولون: إنه لكي يصل الانسان إلى الحياة السعيدة، يجب عليه أن يرفض كل إمكان للمعرفة، وبهذا يصل إلى حالة الظمأنينة السلبية التي ينشدها. ولهذا نجد الشكك يتسبون إلى نفس العصر الذي ينسب إليه الرواقيون والأبيقوريون، لأن هؤلاء وأولئك قد وضعوا غاية واحدة، واتجهوا إتجاهاً واحداً، ولم يكن موقف الشكك غير نتيجة ضرورية للموقف الذي وقفته المدرسة الرواقية، والمدرسة الأبيقورية. بل وليس الشكك في مذهبهم غير تطور منطقي لما أدت إليه الفلسفة اليونانية من قبل منذ عصر أفلاطون وأرسطو. فإنا نجد أولاً أن المدرسة الميغارية قد عنيت

١٩٣٦: «هل السلم العالمي ممكن؟» Ist Weltfriede Möglich? رد بالتلغراف على سؤال امبركي. نشر بالانكليزية في Hearst's International Cosmopolitan؛ يناير سنة ١٩٣٦ ونشر بالألمانية لأول مرة في «خطبه ومقالاته»، ص ٢٩٢ - ص ٢٩٣.

### مراجع

- عبد الرحمن بدوي: «اشينجلر»، القاهرة سنة ١٩٤١.
- R.G. Collingwood: «Oswald Spengler and the theory of historical cycles», in *Antiquity*, sept. 1927.
- A. Fauconnet: *Un philosophe allemand contemporain Oswald Spengler (Le prophète du déclin de l'Occident)*. Paris, 1925.
- Lucien Febvre: «De Spengler à Toynbee, quelques philosophes opportunistes de l'histoire.» *RMM*, oct. 1935.
- H.S. Hughes: *Oswald Spengler, a critical estimate*. New York. London, 1952.
- E Meyer: *Spenglers Untergang des Abendlandes* Berlin 1925.
- M. Schroter: *Metaphysik des Untergangs. Eine Kulturelle Studie über Oswald Spengler*. München, 1949.
- P. A. Sorokin: *Social philosophy of an age of crisis*. Boston, 1950.
- *Spenglerstudien. Festgabe für Manfred Schröter* München, 1966.

### الشك والشكك

#### Scepticisme et Sceptiques

كلمة «شكك» *skepticos* في اليونانية تطلق على «من ينظر بإيمان، من يفحص باهتمام» قبل ان يصدر حكماً على شيء أو قبل أن يتخذ أي قرار.

ولهذا نجد سكستوس امبريكوس يضع «الشكك» *skepticos* بين الفرق الفلسفية بوصفهم «الذين يواصلون البحث والتحرّي»، في مقابل «الدوجماتيين» الذين هم مثل أرسطو والأبيقوريين والرواقيين يعتقدون أنهم اكتشفوا

للحياة قد مثل الشك أصلق مما ورد لنا من أقواله خاصة بهذا الشك، وعلى كل حال فما ورد قد ورد إلينا عن طريق تيمون، ولن نستطيع أن نفرق بين ما يقوله تيمون وبين ما قاله فورون. يقول تيمون في عرضه لآراء المدرسة الفورونية إن الفلسفة الشكية تدور حول مسائل ثلاث: المسألة الأولى: مسألة طبيعة الأشياء في ذاتها من حيث إمكان معرفتها، والمسألة الثانية مسألة الموقف الذي يجب أن يقفه الحكيم بأزاء طبيعة المعرفة التي لدينا عن طبائع الأشياء، والمسألة الثالثة: الموقف العملي الذي يستخلصه الانسان من هذا الموقف الفكري.

أما فيما يتصل بمسألة طبائع الأشياء من حيث إمكان معرفتها، فإننا نجد فورون ومدرسته ينكرون أن يكون للمعرفة الحسية أو للمعرفة العقلية أدنى قيمة في إيصالنا لمعرفة حقائق أو حقيقة الأشياء. فسواء النظر العقلي والادراك الحسي لا يستطيع أحدهما إلا أن يخدمنا ذاتها، فتحسن لا ندرك من الأشياء في الواقع إلا ما يبدو لنا، وكأن كل شيء في الخارج هو بالنسبة إلى الذات المدركة مظهر فحسب، أما طبيعة الشيء في ذاته فلا سبيل إلى الوصول إلى معرفة كنهها. وإذا كانت المعرفة النظرية أو النظر العقلي يقوم على الحس فما ينطبق على الحس ينطبق بدوره على المعرفة العقلية إن لم يكن بالأحرى والأولى، لأن النظر العقلي سيكون غير مباشر، وكلما تعددت الوساطة، بعد الانسان عن الأصل، فما ينطبق على الحس من حيث أنه لا يستطيع أن يتأذى بنا إلى فهم ماهيات الأشياء، ينطبق كذلك بطريقة أولى على النظر العقلي. ولم يفصل فورون ولا مدرسته القول في هذا الشك، فلم يقيموا حججاً دقيقة تبين استحالة المعرفة الحقيقية لطبائع الأشياء، ولم يكشفوا شيئاً فيما يتصل بطبيعة الاحتمال وشروط المعرفة الحقيقية واستحالة وجود هذه الشروط بالنسبة إلى الانسان، وإنما الحجج المشهورة، وخصوصاً الحجج العشر المعروفة التي تمثل أعلى صورة بلغها الشك في العصر القديم، إنما ترجع لأول مرة إلى أنسيلموس. ولهذا، وعلى الرغم من آثاراً من هذه الحجج العشر لعله أن يكون قد قال بها فورون ومدرسته، لهذا كله لا نستطيع أن نقول إن فورون أو مدرسته قد وضحت المسألة أكثر من هذا.

وعلى أساس النتيجة التي انتهينا إليها فيما يتصل بهذه المسألة الأولى يجب علينا أن نقف فيما يتعلق بالمسألة الثانية؛ لأنه إذا كان كل شيء ظاهرياً فحسب، وكنا لا ندرك من الأشياء إلا مظهرها الخارجي دون أن نعلم شيئاً عن طبيعتها وحقيقتها الخاصة، لم يكن أمامنا غير الاحتمال، أو بتعبير أدق، الظن

بالجمل وبرفض تكوين التصورات على النحو السقراطي، وحللت وبحث كثيراً للدرجة تؤدي إلى سبيل الشك، إن لم يكن إلى الشك فعلاً. والفلسفة الأفلاطونية والأرسطية قد أدت هي الأخرى إلى نوع من الشك، لأن المشاكل التي أثارها هذه الفلسفة لم تجد حلاً شافياً عند تفكير أفلاطون وأرسطو، بل تركت كثيراً من المشاكل معلقة، لا تدعو إلى الثقة واليقين. ثم جاء الرواقيون والأبيقوريون فزادوا الموقف حرجاً على حرج، بأن رفضوا الفلسفة التصورية الأفلاطونية وشكوا في قيمة الكلبيات واتجهوا إلى الحس، مع أن الحس قد رفض عند أفلاطون وأرسطو على أساس أنه لا يؤدي إلى العلم اليقيني، فكان نظرية المعرفة عند الأبيقوريين والرواقين كانت استمراراً شكياً لما بدأه الميغاريون، مزوداً بالمشاكل التي أثارها أفلاطون خصوصاً في «تيتانوس» وأرسطو في نظريته العامة في المعرفة. ولهذا لم يكن غريباً أن ينشأ تيار جديد يكون في الواقع مركب موضوع للموقفين المتعارضين: موقف الأبيقوريين، وموقف الرواقين. فإن التعارض الذي قام بين هاتين المدرستين قد تبين أنه تعارض لا يمكن أن نجد متغذاً فيه للتوفيق: فكيف نوفق بين النظرة الذرية والنظرية الكلية الكونية؛ وكيف نوفق بين العلو وبين وحدة الوجود، وكيف نوفق بين الضرورة الموجودة في الطبيعة عند الرواقين وبين الحرية وجانب الاتفاق الكبير عند الأبيقوريين؟ كل هذا كان من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة واحدة هي أن المعرفة ليست ممكنة، وبالتالي يجب على الانسان أن يشك وأن يرتب حياته العملية على أساس هذا الشك، فقامت في هذا العصر مدرستان رئيسيتان تقومان على الشك: الأولى مدرسة فورون، والثانية مدرسة الأكاديمية الجديدة.

مدرسة فورون: فورون من مدينة إيليس، وقد رحل مع الاسكندر في إحدى رحلاته إلى الهند، وأعجب بالفقراء الهنود. ولكننا لا نستطيع أن نقول: إنه قد أخذ شكه عن المذاهب الهندية: أولاً لأن منطق الفلسفة اليونانية يقتضي أن يكون هذا الشك محلياً عند اليونان، كما أننا لا نعلم على وجه التدقيق هل عرف فورون شيئاً عن المذاهب الشكية عند الهنود. ولما عاد إلى بلاد اليونان، كون مدرسة أو شبه مدرسة لم تستمر طويلاً ولا يستحق أن يذكر من بين أعضائها غير شخص واحد، هو تيمون.

لم يكتب فورون شيئاً، ولذا لا نعلم في الواقع عن مذهبه شيئاً يقينياً، كما أن الأرجح أن ينظر إليه من ناحية كونه شخصية، قبل عده مفكراً بمعنى الكلمة. فهو في طريقة أخذه

ولن نستطيع أن نضيف شيئاً غير هذا إلى فورون ومدرسته. فقد كانت مدرسة قصيرة العمر ولم يكن مؤسسوها من ذوي العقول الفلسفية المفكرة، وإنما كانوا أقرب ما يكونون إلى الحكماء الذين يجيئون وبواسطة حياتهم يعبرون عن اتجاههم الفكري.

**الأكاديمية الجديدة:** وإنما قلم الشك على أسس فلسفية، وإنما وتطور من الناحية النظرية بفضل الاتجاه الجديد الذي أخذته الأكاديمية ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد. فقد بدأت الأكاديمية منذ ذلك الحين تتجه إتجاهاً علمياً، وأصبحت ابعد ما تكون عن الأفكار التوجيهية الرئيسية عند أفلاطون واسبوسيبوس وإكسينوقراط، كما أن الطابع العلمي قد بدأ يغزو تفكير الأجيال التالية لأكسينوقراط، فأصبحوا لا يفترون في شيء، من حيث الهدف الأصلي الذي ترمي إليه الفلسفة، عن الأبيقورية والرواقية. هذا إلى إنهم وإن عنوا عناية كبيرة بالناحية العلمية، فإنهم لم يتجهوا بهذه الناحية العلمية الاتجاه القديم القائم على التيقن، وإنما اتجهوا بها إتجاهاً آميل إلى الشك، فأصبحوا يشكون في الأسس الرئيسية التي تقوم عليها المعرفة الإنسانية. وزاد هذا الاتجاه وتوطد طوال القرن الثالث حتى أصبحت الغاية التي يتجه إليها أتباع الأكاديمية أن يجربوا كل التيارات اليقينية، سواء أكانت هذه التيارات ممثلة في شخصية الأقدمين، أم كانت ممثلة في شخصية معاصرين، خصوصاً فيما يتصل بهؤلاء الأخيرين، فإن الأكاديمية في هذا الدور قد وجهت عناية كبرى إلى معارضة الرواقية، على الأخص في نظرية المعرفة. أما فيما يتصل بالناحية العلمية أو الأخلاق، فلا فرق في الواقع في الاتجاه وفي الأهداف، ولهذا، نستطيع أن نجزم بأنه كان للرواقية نصيب ضخم في نشأة هذا التيار الجديد، ولو أن هذا النصيب كان نتيجة للمعارضة لا للأخذ والتأثر، فمهما قيل اذن فيما يتصل بالاتصال المباشرين زينون الرواقي وبين مؤسس الأكاديمية الثانية أو الأكاديمية الجديدة وهو أرسيزيلاس، فإنه من غير المشكوك فيه أن الرواقيين قد أثروا تأثيراً كبيراً في نشأة هذا الاتجاه الجديد، حتى لنرى ان ما بقي لنا من عرض لمذهب أرسيزيلاس يكاد ينحل في النهاية الى نقد لنظرية المعرفة عندهم (أي عند الرواقيين). ويظهر أثر هذا التعارض المستمر والنقد الدائم من جانب الأكاديمية ضد الرواقية - كما سيظهر فيما بعد - في الطور الثالث للأكاديمية أي في الأكاديمية الثالثة، وهو الطور الذي يتزعمه كرنيداس، حتى إن كرنيداس يقول: إنه لولا كريسيفوس لما كان كرنيداس.

بدأ أرسيزيلاس بأن بين أن كل المذاهب السابقة إنما

الذاتي، لأن كل شيء سينحل بعد ذلك إلى أن يقول الانسان: «هكذا يبدو لي شيء من الأشياء». وهذا القول يدل أولاً على أن كل شيء ظاهري ولا نستطيع أن نعرف حقائق الأشياء، ويدل ثانية على أن المسألة مسألة حالة ذاتية يكون فيها الشخص بإزاء هذه الظواهر الخارجية. فكان اليقين - إن كان ثمت مجال للتحدث عن اليقين - إنما يقوم على الاعتقاد الذاتي بأن شيئاً ما هو كذا أو ليس كذا - وبهذا، ولكي يكون الانسان آمناً من تضارب الآراء مما من شأنه أن يحدث قلقاً في النفس - والغاية من الفلسفة عند هؤلاء أن يظل المرء مطمئن النفس - لا يمكن إذن إلا أن يرجع الانسان على نفسه وينحصر في داخلها، وإذا طلب إليه أن يحكم، أو إذا طلب إلى نفسه أن يحكم على حقيقة شيء من الأشياء، فليس عليه حينئذ إلا أن يتوقف فلا يحكم بشيء، لأنه لن يستطيع التيقن من شيء وهذا ما يسمى باسم «تعليق الحكم» أو التوقف *ἐπιποχή* لأن الانسان إذا ما حكم على شيء، فإنه يستطيع في نفس الآن أن يحكم على الشيء نفسه بضد ما حكم به عليه أولاً، وإذا كان لكل رأي ما يعارضه، وينفس الدرجة من الاحتمال، فلن يخرج الانسان من هذا التناقض المستمر الذي لا بد أن يجد فيه نفسه، إذا ما رأى أنه مضطر إلى الحكم أو حينها يحكم أيّاً ما كان هذا الحكم، لم يكن أمام الحكم من سبيل إلا أن يتوقف عن كل حكم، وهذا هو تعليق الحكم. وتعليق الحكم معناه في هذه الحالة كذلك أن ينصرف الانسان عن أي كلام هو حكم من حيث أنه معبر عنه في الخارج، ولهذا فالوسيلة النهائية التي يجب أن يلجأ إليها الانسان هي أن يصوم عن الكلام فيصبح في حالة صمت تطلق، مما يسميه الشكك *ἀναπαύειν* النتيجة العملية التي يستخلصها الانسان بالنسبة لسلوكه بإزاء هذا الموقف الفكري؟ كل ما على المرء في هذه الحالة هو أن يتشد ما تشده من قبل الرواقيون والأبيقوريون من أن يظل الانسان في حالة طعانية سلبية باستمرار، فالغاية إذن من الناحية الأخلاقية هي الوصول إلى حالة الأتركيا. ولكن، هل يستطيع الانسان أن يظل على هذه الحالة لا ينطق ولا يفعل؟ هنا نجد أن فورون وأتباع مدرسته يميلون إلى نوع من «الفعالية» (برجماتزم) مما سيظهر بوضوح فيما بعد في الأكاديمية الجديدة عند أرسيزيلاس. فهم يقولون إنه لا حاجة للحكيم من أجل أن يفعل إلى المعلومات اليقينية، بل يستطيع أن يكفي، من أجل الحاجة العملية، بالأقوال المحتملة والظنيات، فكانهم لا يريدون إذن أن ينكروا كل معرفة، بل يضطرون من الناحية العملية إلى القول بالظنيات، مما من شأنه أن يؤدي إلى إمكان العمل.



ولا وجود لها في الواقع. وكذلك ما يراه الانسان في الأحلام والالهامات والتنبؤات القائمة على السحر أو العرافة. فكل هذا يدل على أن الحس خداع وأن الإدراك الحسي لا يقوم على صورة حقيقية موجودة في الخارج. ثم يضيف أرسيزيلاس إلى هذا النقد أنواعاً أخرى من الحجج، تبين طابع الديالكتيك الذي كان واضحاً جداً في الأكاديمية في هذا الدور. والحجج، التي تذكر لنا عنه وهو لم يترك شيئاً من المؤلفات، لأنه لم يكتب شيئاً تدلنا على أنه اتبع كل قواعد الديالكتيك في نقده للرواقين أو للتوكيديين بوجه عام. وينسب إليه كثير من هذه الحجج الجدلية الشائعة المعروفة، خصوصاً ما يتصل بما هو معروف في المنطق باسم «القياس المركب مفصول النتائج» مثل القياس المركب مفصول النتائج المشهور المعروف باسم «كومة القمح» أو «تعريف الأصلح» - ففي هذه الأحوال كلها نرى أن أرسيزيلاس يقصد من وراء هذه الحجج أن يبين عن طريق الجدل استحالة التعريفات والحدود، واستحالة المعرفة من هذه الناحية.

وهكذا رمى أرسيزيلاس من وراء هذا إلى بيان استحالة نوع المعرفة الوحيد الذي قال به الرواقيون. وهنا يختلف المؤرخون فيما يتصل بالغاية من هذا النقد. هل يقصد أرسيزيلاس من وراءه أن يبين أن المعرفة الحسية وهمية فيجب بالتالي الالتجاء إلى المعرفة النظرية فحسب، وبهذا يكون مؤيداً لمؤسس الأكاديمية الأول أفلاطون؟ أو هل يقصد من وراء هذا النقد للدراك الحسي أن يكون ذلك في الآن نفسه نقداً لكل معرفة؟ الواقع أن النصوص تدل، والاتجاه العام لكل أقوال أرسيزيلاس يؤذن، بأنه لم يقصد مطلقاً إلى الأمر الأول، وإنما قال إن نوع المعرفة الوحيد الممكن هو الإدراك الحسي الذي قال به الرواقيون، ثم وجه نقده من بعد هذا إلى النظر العقلي، فإذا كان النظر العقلي يقوم على الإدراك الحسي، فما يصيب الأساس يصيب البناء. وهكذا يكون أرسيزيلاس قد قصد من وراء نقده للدراك الحسي أن ينقد في الآن نفسه ما يقوم عليه الإدراك الحسي، وهو النظر العقلي، وتبعاً لهذا كله نستطيع أن نقول إنه قصد من وراء هذا إلى إنكار كل معرفة، سواء الحسية منها والعقلية. ولما كان قد رأى استحالة المعرفة الحسية، فقد رأى نفسه مستغنياً عن أن ينقد المعرفة النظرية على حدة، ولهذا لم يبق لنا شيء يذكر عن نقده للعلم أو المعرفة النظرية.

اتجهت دائماً إلى عدم التيقن، بعكس الرواقية. وهو هنا يهيب بيرميندس وسقراط وأفلاطون وأرسطو، فضلاً عن كثير من الطبيعيين الأقدمين، فهؤلاء جميعاً ينظر إليهم أرسيزيلاس بحسبانهم ميالين إلى عدم التيقن من شيء، وإلى عدم التوكيد فيما يتصل بأية مسألة من المسائل الرئيسية، وهو لهذا يحاول دائماً أن ينقد كل المذاهب التيقنية والتوكيدية السابقة والمعاصرة. ويعنى خصوصاً بنظرية المعرفة عند الرواقين، فيقول إن هذه النظرية مملوءة بالتناقض وذلك لأن الرواقين يفرقون أولاً بين نوعين من المعرفة: بين العلم، وبين الظن. أما العلم فيضيفونه إلى الحكيم، وليست للحكيم وسيلة من وسائل المعرفة غير العلم، أما الظن فيضيفونه إلى الجاهل. وهناك نوع ثالث وسط بين الاثنين، هو الإدراك الحسي أو التصور، وهذا يقولون عنه إنه من شأن الحكيم والجاهل، فأتى أرسيزيلاس فأنكر عليهم هذا القول وقال: إنكم تقولون إن الحكيم لا يتصف إلا بصفة الظن، فكيف تقولون بعد ذلك إنها يشتركان معاً فيما يتصل بالإدراك الحسي أو التصور؟ فإما أن يكون الإدراك الحسي علماً فيضاف إلى الحكيم، وإما أن يكون ظناً أو جهلاً فيضاف إلى الجاهل، فلا مجال إذن للتحدث عن موقف وسط بين العلم والظن، هذا إلى أن تعريف الرواقين للدراك الحسي تعريف غير صحيح أو متناقض، لأنهم يقولون عن الإدراك الحسي إنه الاقتناع بتصوير ما، ولكنهم يقولون من ناحية أخرى إن الاقتناع هو الاعتقاد بقول من الأقوال، أعني أن الإدراك الحسي سيرجع في النهاية إذن إلى الأقوال، وهذه الأقوال قد شك فيها الرواقيون وأنكروا إمكانها من حيث أنها تعبر حقيقة عن طبائع الأشياء، فعلى هذا لا يستطيع الرواقي إلا أن يتناقض مع نفسه حين يقول إن الإدراك الحسي ممكن بحسبان مؤدياً إلى المعرفة الصحيحة. ولهذا ينكر أرسيزيلاس الإدراك الحسي تمام الإنكار كما ينكر التصور الذي ينشأ عن الإدراك الحسي، أي الصورة التي تنطبع في الذهن صادرة عن الأشياء الخارجية. وهو هنا يورد تلك الحجج التقليدية التي نجدتها مستمرة في نقد الإدراك الحسي والتصوير الحسية، حتى «التأملات الأولى» لديكارت، وهي حجج عرضها بوضوح شيشرون ثم القديس أوغسطين، وتقوم كلها على أساس أن الاحاسات تصور لنا الأشياء أحياناً كثيرة بخلاف الواقع، كما يحدث في الأشباح التي تتراءى أمام الانسان في الظلام

كرنيادس يعد بحق للمؤسس الفلسفي الحقيقي للشك في الأكاديمية.

ونجد منذ اللحظة الأولى أن هناك اختلافاً كبيراً في طريقة عرض مذهب كرنياوس الشكي: فالبعض من الأقدمين، وهم هنا يقولون إنهم يعتمدون مباشرة على كليتوماخوس، يذكرون أن كرنياوس قد ظل مخلصاً لمبدأ أرسيزيلاس من حيث تعليق الحكم، وإنما هو توسع فقط في شرح هذه النظرية، ولم يكن من شأن هذا التوسع أن يغير كثيراً في المبدأ الأصلي، وهو تعليق الحكم، ولكننا نجد على العكس من ذلك بعضاً من الأقدمين يذكرون عن كرنياوس أنه قد تحلى عن مبدأ تعليق الحكم لما رأى فيه من شدة وغلو، وحاول أن يحل مشكلة المعرفة على طريقة احتمالية مخففة، ولهذا عني عناية كبيرة بنظرية «الاحتمال» ودرجات المعرفة، لكي لا يرفض نهائياً أن يحكم على شيء. وأغلب المؤرخين المعاصرين على أن هذا الاتجاه الثاني لم يكن الاتجاه الصحيح الذي اتخذه كرنياوس، وإنما يميلون إلى القول بأن كرنياوس ظل مع ذلك مخلصاً لمبدأ تعليق الحكم، ويسوقون للدلالة على هذا سبباً تاريخياً هو أن الأكاديمية بعد كليتوماخوس قد تغيرت وأخذت اتجاهاً قريباً من الاتجاه التوكليدي عند الرواقين. فلم يكن غريباً إذن، وهم يعرضون مذهب كرنياوس، أن يقربوا هذا المنهج من اتجاههم الجديد، أي أن يشوهوا الاتجاه الأصلي الحقيقي عند كرنياوس. فلا يجعلونه مخلصاً لمبدأ أرسيزيلاس.

وأياماً ما كان الأمر فإن أبحاث كرنياوس في المعرفة تتجه كلها إلى نقد نظرية الأبيقوريين في المعرفة: ذلك أن كرنياوس ينكر أولاً الإدراك الحسي، كما ينكر النظر العقلي، ويستخدم هنا البراهين التقليدية الخاصة بخداع الحواس، وبأن المعرفة النظرية تقوم على الحواس، فما يجري على الحواس يجري بالتالي على المعرفة التقليدية. وهكذا ترى أنه في هذا كله لم يأت كرنياوس بشيء جديد، وإنما الجديد عنده أنه جاء بالناحية الإيجابية فيما يسمى باسم معيار الحقيقة، فهذا المعيار يحاول أن يضعه على أساس إيجابي فيقول: إن المشكلة الحقيقية في الواقع ليست مشكلة الصلة بين الامتثال وبين الموضوع الخارجي، وإنما هي مشكلة الصلة بين التصور وبين الذات المدركة. ذلك لأننا لو بحثنا في التصورات من حيث صلتها

ثم ترى بعد ذلك أن أرسيزيلاس لا ينكر من ناحية العمل كل معرفة، بل يقول إن على الإنسان في هذه الحالة أن يلجأ إلى الظن كما قال فوروون من قبل. وأن ينبع في هذه الحالة ما هو تقليدي أو متبع. ثم يقيم هذا الرأي على أساس فلسفي فيقول إن القدماء كانوا يظنون دائماً أن المعرفة متصلة بالعمل، وأنه لا عمل، أو لا إرادة، إلا إذا سبقت ذلك معرفة وعلم. أما أرسيزيلاس فينكر عليهم هذا القول، ويقول بل لعمل العكس أن يكون دائماً الصحيح، فنحن نعمل أولاً، ثم نبحث بعد فيما يبرر هذا العمل. والفعل الخير هو هذا الذي يفعله الإنسان أولاً، ويرى من بعد أن هذا العمل معقول، فالفكرة بنت الحركة، والعلم ابن العمل؛ فلا حاجة بنا إذن فيما يتصل بالناحية العملية إلى أن نكون عالمين، سواء أكان هذا العلم يقيناً أم كان ظناً.

كرنيادس: ولا بد لنا أن نعبّر فترة طويلة حتى نستطيع أن نصل إلى مثل رئيسي للشك في داخل الأكاديمية، وهذا الممثل يعد أهم شخصية أوجدتها الأكاديمية في ميدان الشك، ومن أهم الشخصيات التي ظهرت في الشك القديم، ونعني به كرنياوس الذي ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد. وفي هذا القرن وفي القرن السابق عليه مباشرة، أي في الفترة بين أرسيزيلاس وبين كرنياوس، قد حدثت أحداث ضخمة من الناحية السياسية أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة اليونانية عموماً، وأثرت كذلك في تطور الفلسفة وانطباعاتها بطابع خاص، لأن السيادة الرومانية قد بدأت في القرن الثاني، وانتهت تقريباً بأن بسطت سلطانها على بلاد اليونان سنة ١٤٦ ق. م، وقد صادفت الأكاديمية في هذا الدور انتعاشاً على يد كرنياوس، الذي لا نعرف على وجه التدقيق إلا تاريخ وفاته سنة ١٢٩. إلا أن كرنياوس لم يكتب شيئاً وكل ما نعرفه عن مذهبه، وإنما نعرفه بواسطة تلميذه كليتوماخوس الذي رأس الأكاديمية بعده، وكذلك لم يبق لنا كلام كليتوماخوس نفسه، وإنما بقيت لنا شذرات قليلة وعرض معتمد على كليتوماخوس لمذهب استأخه كرنياوس، وذلك في كلام سكستوس أمبريكوس، وفي كلام شيشرون خصوصاً في كتابه المسمى «الأكاديميات: الأولى والثانية». بل إن العرض الكامل الذي وضعه شيشرون في الأكاديميات الثانية لمذهب كرنياوس، قد فقد هو الآخر، ولم يبق لنا إلا عرض ناقص في خلال كتاب شيشرون هذا. وعلى كل حال فإن

الكومة أو حجة الكذاب، وبواسطة هذه الحجج وأمثالها يبين أن الحدود بين الخطأ والصواب حدود قلقة عائمة، وبالتالي لا وجه في الواقع للوصول إلى اليقين المطلق، وإنما كل ما يجب على الإنسان أن يفعله هو أن يأخذ ببعض الآراء المحتملة لكي يستخدمها من بعد في العمل. ثم يذكرون بعد ذلك عن كرنيداس أنه حاول أن يقيم فلسفة طبيعية مشابهة تماماً لفلسفة هرقليطس. والصلة بين طابع فلسفة هرقليطس في التغير الدائم وبين نظرية الاحتمال كما عرضناها هنا واضحة، ولكن يعنينا خصوصاً فيما يتصل بالطبيعات نقد كرنيداس للنظريات الرئيسية للرواقيين في الطبيعات خصوصاً فيما يتصل باللاهوت، ولذا سنسعى بأن نذكر نقد كرنيداس لفكرة الله عند الرواقيين.

يقول الرواقيون إن الله يتصف بالحياة وبالفضيلة، فيقول كرنيداس اعتماداً على مبادئ الرواقيين أنفسهم إن هذا يؤدي إلى تناقض. لنبحث في هذا التعريف لله، فنجد أولاً أن الله يتصف بالحياة، وما هو متصف بالحياة يتصف قطعاً بالاحساس، لأن كل حي حساس، ويكون لله من الاحساسات ما للإنسان على الأقل، أعني أن الله مثلاً حس الذوق فهو يشعر تبعاً لهذا بالمر والعذب، وشعوره بالمر والعذب من شأنه أن يحدث تغيراً فيه، إذ يحدث العذب أثراً هو اللذة والمر يحدث الألم. فمن هذا يتبين أن الله، ما دام متصفاً بالحياة، فهو متصف بالتغير من حيث أنه خاضع للتأثر، وكذلك الحال بالنسبة إلى بقية أنواع الحس. هذا إلى أننا إذا نظرنا إلى الحس من حيث طبيعته وجدنا أنه عبارة عن تغير استحالة يحدث في الذات الحاسة، أي أن كل إحساس يتضمن من هذه الناحية كذلك تغيراً، فإذا كان الله متصفاً بالحياة فهو قابل للتغير، ولكن ما يتغير لا يمكن أن يكون أزلياً أبدياً، ولهذا فإن فكرة الحياة تتناقض مع طبيعة الله الأولى وجوهره الأصلي وهو أنه أزلي أبدي. والنتيجة عينها نصل إليها إذا ما نظرنا إلى الصفة الثانية التي يتصف بها الله وهي صفة الفضيلة، فنجد أن الله إذا ما اتصف بالفضيلة وتبعاً لمبدأ الرواقيين الذي سبق أن ذكرناه من أن الفضيلة واحدة، والحاصل على فضيلة حاصل على كل الفضائل. نقول تبعاً لهذا لا بد أن يكون الله حاصلًا على جميع الفضائل، ومن بين هذه الفضائل لا بد أن يكون متصفاً بفضيلة العفة أي مقاومة الشر، ولا يمكن هذه الفضيلة أن توجد إلا إذا كان الإنسان خاضعاً للتأثر بالشر، ولا يكون الشيء قابلاً لهذا

بالموضوعات الخارجية لما أمكننا أن نجد شيئاً يشهد لنا إن بالاتفاق أو بالاختلاف، أعني أن الامتثال بوصفه امتثالاً ليس في طبيعته ضمان لكونه منطبقاً على الموضوع الخارجي، فإن المقارنة لا يمكن أن تتم لأن أحد طرفي المقارنة غير موجود وهو حقيقة الموضوع الخارجي في ذاته، ومن هنا لا نستطيع أن نقول أمثالك اتفاق أم اختلاف، أي صحة أو بطلان، فيما يتصل بتعبير الامتثال عن الموضوع الخارجي. وإنما نستطيع أن نتبين هذه الصلة فيما يتعلق بالامتثال والذات المدركة، فلدينا الطرفان هنا حاضران، لأننا نجد من ناحية أثراً يأتي إلينا من الخارج صادراً عن موضوع ما، ونجد من ناحية أخرى ذاتاً تهب هذا الأثر صفة الرفض أو الموافقة والتيقن، وبلرجة ما تكون هذه الموافقة أو الاقتناع أو التيقن يكون بالنسبة إلى الإنسان مقدار الصواب في الشيء الخارجي. فكان المسألة ترجع في نهاية الأمر إلى الذات المدركة لأنها وحدها التي تقرر ما إذا كانت الأشياء قابلة للموافقة (التيقن) أو الرفض. ولكننا نجد من ناحية أخرى أن الذات تكون قبل أن تعلم شيئاً جاهلة بهذا الشيء والإنسان الجاهل لا يستطيع أن يحكم على شيء حكماً ما، فإن الشخص الذي يريد أن يعلم شيئاً يحكم عليه لأن التيقن ليس شيئاً آخر غير الحكم، أو الحكم كما قلنا من قبل، هو التيقن. نقول إن التيقن سيقوم على الجهل، أي أننا لا يمكن أن نصل إلى معرفة صحيحة، ليس فقط بحقيقة الأشياء، بل ما تبدو عليه بالنسبة إلينا في الخارج، وهكذا نجد أن المعرفة غير ممكنة.

لكن يلاحظ مع ذلك أننا هنا بعيدون عن ذلك التعارض الشديد الذي وضعه أرسيزيلاس والشكك المتقدمون بين اليقين المطلق والجهل المطلق، لأن المسألة هنا ليست على هذا النحو من التطرف، إذ يفرق كرنيداس بين درجات مختلفة من اليقين، وبالتالي لا ينظر إلى المعرفة على أنها تقوم على قطبين متعارضين بينهما هوة، هما اليقين المطلق والجهل المطلق. قالهم إذن فيما أتى به كرنيداس في مذهبه الجديد قوله بتدرج الحقائق، وبأن الانتقال من اليقين إلى الجهل ومن الجهل إلى اليقين يتم بطريقة تدريجية قد لا يمكن الشعور بها، أعني أنه لا يمكن التفرقة بدقة بين الخطأ والصواب.

ثم نراه يستخلص، من أجل هذا، تلك الحجج التقليدية التي استخدمها أرسيزيلاس فيما يتصل براهين

والحرية أو الجبر والحرية، فإن كريسيفوس قد حاول أن يبين أن ليس تمت تناف بين الحرية وبين المصير أو الجبر، فقال كرنيداس بأنه إذا كان تمت قدر ومصير فلا يمكن التحدث عن الحرية. كما أنه نقد نظريتهم فيما يتصل بالصلة بين المصير وبين العلية، فإن الرواقين يقولون إن العلية المطلقة تؤذن بالمصير المطلق، فإننا إذا نظرنا إلى الحوادث بحسبانها متسلسلة تسلسلا دقيقا عليا كانت الأشياء كلها مرتبة معينة بطريقة لا تقبل شيئا من الاتفاق. ولكن كرنيداس يقول لهم: قد يكون هناك مصير ولا تكون هناك عليا مطلقة على هذا النحو، إذ هناك أنواع من العلة قد تأتي من خارج فتدخل فضولية على سلسلة العلة وتحدث الأثر المطلوب. أي أنه، بعكس ما يقوله الرواقيون من الترابط التام الدقيق بين العلة بعضها وبعض، يقول هو إن الطبيعة لا تخضع لهذه العلية المطلقة، بل تخضع كذلك لنوع من التدخل الخارجي والانفصال بين الأشياء عليا.

وهذا كل ما يعيننا من مذهب كرنيداس. ومنه نرى أن كرنيداس كان دافعا إلى تحديد صفات الله تحديداً دقيقاً، وإلى فهم كثير من المسائل الأصلية في العلم، كالعلية، على النحو الصحيح. أما تلميذه كليتوماخوس، فلم يفعل شيئا أكثر من أنه عرض أقوال استاذة؛ ولم يأت بشيء جديد مطلقا، فلا داعي إلى الكلام عنه.

الشكاك المحلثون: أخذ الشك عند اليونان في القرن الثاني بعد الميلاد وجهاً جديداً يختلف كثيراً عن الوجه الذي كان عليه الشك القديم. فقد أصبح هذا الشك مدرسة قائمة بذاتها وأصبح أصحابه يلجأون إلى البرهنة الدقيقة والتفصيل للحجج التي يقوم عليها موقفهم هذا في نظرية المعرفة. وأشهر الشكاك الذين يمثلون هذا الشك الجديد أنسيداموس، ولحسن الحظ بقي لنا كتاب الأقوال الفورونية. فقد أبقاه لنا فوتيوس البيزنطي في مجموعة كتبه، تحت رقم ٢١٢. وفي هذا الكتاب يحاول أنسيداموس أن يبين أن موقف فورون هو الموقف الوحيد الذي يؤدي إلى الحياة المطمئنة السعيدة التي ينشدها كل إنسان. والحجج المشهورة التي قيلت ضد إمكان المعرفة، تكاد ترجع إلى الحجج التي صاغها أنسيداموس. ونستطيع أن نقسم أنواع الحجج المختلفة التي قدمها في هذا الصدد إلى أنواع متعلقة بفكرة العلة، وأنواع أخرى متعلقة بنظرية

إلا إذا كان قابلاً للتغير أي للتكيف بأحوال مختلفة من خير وشر، أعني أن الله سيكون إذن قابلاً للتغير وإذا كان قابلاً للتغير فلن يكون حينئذ أزلياً أبدياً، وهذا يتناقض مع جوهر الله. وكذلك الحال بالنسبة إلى كثير من الصفات التي ننسبها إلى الله، فمثلاً لا يمكن أن ننسب إلى الله صفة اللاتناهي ولا صفة التناهي، فلا يمكن أن يكون لا متناهياً، لأنه إذا كان كذلك فلن يكون ذا روح، وإذا كان متناهياً فسيكون هناك شيء يحتويه أكبر منه يخضع له، أي لن يكون إلهاً. كما لا يمكن أن يكون متصفاً بأنه لا جسمي، كما لا يمكن أن يتصف بأنه جسمي. إذ لا يمكن أن يكون لا جسمياً، لأن اللاجسمي تبعاً لمبادئ الرواقين أنفسهم أو اللاجسمي عند الرواقين هو الذي لا يفعل مثل الزمان والمكان (كما رأينا من قبل)، فهو إذن لن يفعل، وهذا يتناقض مع صفة أولى من صفات الله وهي الفعل. كما أنه لا يمكن أن يكون جسماً لأن الجسم فإن، والله غير قابل للفناء كما لا يمكن كذلك أن تضاف إليه صفة الكلام ولا عدم الكلام: فلا يمكن أن تضاف إليه صفة عدم الكلام لأن الناس يشهدون جميعاً بالوحي، كما لا يمكن أن يكون الله متصفاً بصفة الكلام لأن كل كلام يستدعي استحالة وتغيراً في الذات المتكلمة، أعني أنه لا بد في هذه الحالة من أن نفترض في الله تغيراً، وهذا يتناقض مع الأزلية والأبدية. وهكذا نجد كرنيداس قد عني ببيان التناقض الذي يقع فيه الإنسان إذا ما حاول أن يصف الله بصفات إيجابية كالحياة والعلم والكلام، إلا إذا فهمنا هذه الصفات بأنها ليست كصفات البشر، فكأنه كان مبشراً إذن، عن طريق هذا النقد، بمنهج اللاهوت السلمي الذي سيأتي فيما بعد سواء في المسيحية وفي الإسلام، وهو منهج إضافة صفات كلها سلوب، إلى الله.

وكذلك نجد كرنيداس قد وجه كثيراً من النقد إلى بعض المذاهب الأخرى الرواقية خصوصاً مذهبهم في العرافة، وقد كان للعرافة أثر كبير جداً عند الرواقين، وكانوا يؤمنون بها أشد الإيمان. فنجد كرنيداس يرد عليهم فيقول: إن الحادث المستقبل إما أن يكون اتفاقاً فلا يمكن تحديده ومعرفة ابتداءً، وإما أن يكون ضرورياً فنستطيع أن نعرفه عن طريق العلم، ولا حاجة بنا في هذه الحالة إلى العرافة والمفالة... الخ.

ثم يقدمهم مرة أخرى فيما يتصل بفكرة المصير

إلا أن الصورة الكاملة الدقيقة للحجج التي قال بها الشكك ضد إمكان المعرفة تتمثل على وجه الدقة، لا عند أنسيداموس بل عند أجريا وكل من أنسيداموس وأجريا قد عاشا معا تقريبا في حوالي القرن الأول قبل أو بعد الميلاد. فقد صاغ أجريا الحجج الخمس المشهورة ضد إمكان المعرفة فقال: الحجج الأولى: إن كل قول يمكن أن نضع بإزائه قولا آخر مضادا له وفي نفس الدرجة من اليقين، وهذا ما يسمى باسم التعارض، أو التناقض. والحجة الثانية: أننا لو قلنا إن المبادئ يمكن أن تعرف، فلا يمكن أن يتم ذلك إلا عن طريق المصادر، أعني أن كل قول يتصف بصفة «الافتراضية». والحجة الثالثة أنه لكي يبرهن على قول، فلا بد أن يستخدم قول أسبق منه، وهكذا باستمرار إلى غير نهاية، فكأننا سنتهي إلى تسلسل غير منقطع. والحجة الرابعة: أنه لكي يبرهن على شيء، لن يبرهن عليه إلا بنفس الشيء، وهذا ما يسمى باسم «الدور». والحجة الخامسة والأخيرة، هي المعروفة باسم «حجة الدائرة المغلقة»، ومعناها أن كل إثبات لإمكان المعرفة، ينطوي قطعاً على دور وذلك لأنني حينما أثبت إمكان المعرفة أو قدرة العقل على المعرفة لن أستطيع أن أثبت ذلك إلا بالاعتماد على قدرة العقل، فكأنني أثبت الشيء بنفسه، وهذا تحصيل حاصل.

وقد ظلت هذه الحجج الخمس الصورة النهائية للشك في العصر القديم، وأصبحت فيما بعد النموذج الأعلى لكل شك في نظرية المعرفة، وما أتى بعد هذا من شكك في القرون التالية، خصوصا في القرن الثاني بعد الميلاد، لم يضيفوا شيئا جديداً، وإنما عرضوا فقط ما قاله المحدثون والأقدمون. ومن أهم من يستحق الذكر من هؤلاء الشكك المتأخرين سكستوس أمبريكوس. ففي كتابه «ضد التوكيديين»، وكتابه «ضد المعلمين» نجد سكستوس قد عرض مذهب الشكك خصوصا من خلال بيان التناقض الموجود بين المذاهب الفلسفية بعضها وبعض. وقد أصبحت هذه الحجج حجة بيان تناقض المذاهب الفلسفية بعضها وبعض، من أهم الحجج التي يستخدمها الشكك إبان ذلك الدور. ولهذا فإن أهمية سكستوس أمبريكوس ليست في أنه أتى بشيء جديد، وإنما فيما خلقه لنا من عرض، إن لمذهب الشكك القدماء والمحدثين سواء بسواء، أو لمذاهب فلاسفة قد ضاعت كتبهم.

المعرفة عموما. ففينا يتصل بفكرة العلة، فراه يوجه نقده في هذه الناحية خصوصا إلى الأبيقوريين، وهو يقول من أجل هذا، أولا: هل يمكن أن تتصور العلة بوصفها خفية؟ إذ كان الأمر على هذا النحو، فهل يمكن العلامات الظاهرة أن تكون دليلا على علل خفية؟ ثم إن العلامات يمكن أن تفسر تفسيرات مختلفة، فالعلامة الواحدة قد تدل، أو يفهم منها الانسان أنواعا من الفهم عدة. فالأطباء مثلا، الذين يجسسون نبض إنسان ما يؤولون هذا النبض تأويلات مختلفة، هذا إلى أن الأبيقوريين يضطرون فيها يتصل ببعض المسائل إلى الاختصار على مصادرات يُسلم بأنها هي العلل لشيء ما، كما أنهم في أحيان أخرى يقولون بعلة لا يستخلصون منها كل ما تقتضيه، كما أنهم لا يفرقون بين الأثر المختلفة التي تنشأ عن شيء واحد. ومن هذا كله يتبين أن فكرة العلية فكرة غير صحيحة.

ويضاف إلى هذه الحجج ضد العلية حجج أخرى ضد المعرفة بوجه عام، وهي الحجج العشر المعروفة باسم «المواقف الشككية». فالحجة الأولى تقول أولا بأن الانسان يختلف عن الحيوان، فما ينطبق على الحس الحيواني لا ينطبق على الحس الانساني، وبالتالي يختلف الاحساس بالنسبة إلى كل من الانسان والحيوان. وهنا نجد أن سكستوس أمبريكوس في عرضه لهذه الحجج يضيف إلى ذلك أن الحيوان أرفع مقاما من الانسان!

والحجة الثانية هي أن الاحساسات تختلف باختلاف الأفراد، إن فيما يتعلق بالنفس أو بالبدن. والحجة الثالثة أن الاحساسات في ادراكها لشيء ما تختلف فيما بينها وبين بعض في إدراكها لهذا الشيء، فهذا الحس بصورة على نحو غير الذي يصوره عليه الحس الآخر. والحجة الرابعة، هي أنه في داخل الحس الواحد تختلف الاحساسات التي من نوع واحد، بحسب اختلاف حالة الشخص أثناء الحس. والحجج الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة، تتعلق بالأحوال المختلفة التي بها لا يكون الاحساس صحيحا في الواقع من حيث الاختلاف في الادراك الحسي بالنسبة إلى البعد، أو صلة شيء بشيء، أو مقداره... الخ. ففي هذه الأشياء يلاحظ دائما أن هناك اختلافا بين الحواس بحسب هذه الإضافات أو النسب. والحجة العاشرة والأخيرة تتعلق بما هناك من أخطاء كثيرة في المعرفة التقليدية، التي يأخذها الخلف عن السلف



لشيء واحد: واحدهما إيجابي والآخر سلبي. ولكن ليس لنا أن نقر بصحة شيء إلا إذا ثبتت لنا صحته بالفحص التقليدي. ومعيار هذا الفحص هو النتائج العملية. ولهذا فإن «الحق» يتوقف على النتائج» (الكتاب نفسه، ص ٤٠١). وهكذا نفرض نزعة الإنسانية إلى نزعة برجماتية. والخطأ إذن هو الاختلاق، أعني اختلاق النظرية أو المبدأ والحكم في أن يحقق عملياً النتائج المقصودة منه.

ويرى شلر أن نظريته هذه ذات فوائد عديدة: (١) أولها أنها تمشي مع منهج العلم الوضعي، والثانية أنها تفسر الخطأ كما تفسر الصواب وتضعها على نفس المستوى العقلي: «فالخطأ ينظر إليه على أنه موضوع حكمي تقويي ييسل اختلاقاً (نسبياً) لمجهود في المعرفة، وأنه قبول لقيمة دنيا في الوقت الذي يتيسر فيه الحصول على قيمة عليا. وهكذا يصبح «الصواب» و«الخطأ» كلاهما أمرين عارضين في نمو للمعرفة متقدم ولم يعودا بعد متقابلين في عداوة مستحكمة. ولربما صار «الخطأ» بهذا هو أفضل نال لما هو حق، وخطوة نحو بلوغ الحق.

لكن - هكذا يدافع شلر عن نفسه - لا يقصد من قوله إن الحق هو النافع truth must be useful أن الحقيقة ترد إلى النفع usefulness. بل يجب فهم كلمة «النافع» useful فهماً جيداً، وذلك بتفسيرها في نطاق مقولة «الوسائل والغايات»: «فكل وسيلة لغاية تكون مفيدة لتلك الغاية. فما هو مفيد هو أولاً مسألة واقعة نفسية. إنه يتوقف على الغاية المنشودة والوسائل المختارة. لكن لما كان يوجد دائماً الكثير من النقد الاجتماعي والمراقبة على نشاط الفرد وذوقه فإن غاياته ووسائله لا تلقى دائماً استحساناً. ولهذا فإن ما يراه الفرد جيداً بالفعل من أجل غاية منشودة يمكن أن يدان اجتماعياً بوصفه غير مفيد، بل ومضر. ولهذا ينبغي، حين مناقشة معنى «النفع»، الانتباه إلى هذا الاشتراك والغموض وإيضاح ليس فقط من أجل ماذا، بل وأيضاً من أجل من تطلب هذه الصفة، صفة النفع» (الكتاب نفسه، ص ٤٠٥).

وكان من نتائج هذه الفكرة الأساسية في اتجاه شلر الفلسفي أن نظر إلى المذاهب الفلسفية على مدى تاريخ الفلسفة على أنها تعبيرات أخلاقية - بل وجمالية - عن أمزجة شخصية لدى الذين أبدعوها.

كذلك نجد في كتابه «المنطق المفيد» Logic for use يميز بين سبعة أنواع من دعاوى اليقين، هي:

## شلر، الفيلسوف البرجماتي

### Ferdinand Canning Scott Schüller

فيلسوف برجماتي انجليزي. ولد في شلزفنج هولشتين (شمال ألمانيا) سنة ١٨٦٤. وتعلم في رجبيل (انجلترا) وفي كلية باليول بجامعة اكسفورد (انجلترا). ثم قام بتدريس اللغة الألمانية في مدرسة ايتون Eton. وفي سنة ١٨٩٣، عين مدرساً في جامعة كورنل. ثم عاد إلى كلية جسد المسيح في جامعة اكسفورد حيث تقلب في مناصب هيئة التدريس، وفي أثناء ذلك حصل على دكتوراه في العلوم D. Sc. من نفس الجامعة في سنة ١٩٠٦. وصار زميلاً في الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٢٦. وابتداء من هذه السنة صار يتردد أستاذاً زائراً في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، وابتداء من سنة ١٩٣٥ صار فيها أستاذاً دائماً. وتوفي سنة ١٩٣٧.

نعت شلر اتجاهه الفلسفي بأنه نزعة إرادية إنسانية humanistic voluntarism: إرادية لأنها تغلب جانب الإرادة على جانب العقل النظري في الإنسان، وإنسانية لأنها جعلت من عبارة بروتاجوراس المشهورة («الإنسان مقياس كل شيء») المبدأ الأساسي. إن هذه النزعة «تفضل أن تأخذ العقل» بحسب ما هو في التجربة الواقعية، وأن تدرسه في الحياة الفعالة الحرة، لا كما هو «محفوظ في قارورة» ومخزون في أرواح. وبالمثل لا تعني بـ «الإرادة» أي معنى ميتافيزيقي (على نحو ما فعل شوبنهاور) ولا تلزم نفسها بأي توهم لوجود «ملكة مستقلة» (هي ملكة الإرادة) وإنما تستخدم اللفظ «إرادة» Will للدلالة على سمة سائدة جوهرية في الحياة الإنسانية، وأعني بها الجانب الفعال الموجود في طبيعتنا، والذي أغفل ظلاً وعلى نحو مخرب للأسباب التي ذكرناها (في البنود من ٢ إلى ٦). وتعتقد (هذه النزعة) أن في الاعتراف «بالإرادة» نتائج مفيدة وموضحة في كثير من المشاكل الفلسفية التي تحللت الحبل حتى الآن. (ولذا النزعة الإنسانية؟) في كتاب «الفلسفة البريطانية المعاصرة» ص ٣٩٦. لندن سنة ١٩٦٥).

ذلك أن شلر كان يعتقد أن كل الأفعال والأفكار هي من نتاج الإنسان وتتعلق جوهرياً بالإنسان وحاجاته. وكل ما يسمى «بدييات» أو «حقائق» أو «قوانين» إنما هي فروض لتيسير فعل الإنسان. ويتبني شلر إلى رفض فكرة «الحقيقة المطلقة» لأنه يرى فيها مجرد وهم ومراب. وبدلاً منها، ينبغي على الإنسان أن ينظر إلى الحقيقة والبطلان على أنها وجهان



## شلتج

Friedrich Wilhelm Schelling

فيلسوف مثالي ألماني.

ولد في ليونبرج بمقاطعة فورتمبيرج بجنوب غربي ألمانيا في ٢٧ يناير سنة ١٧٧٥. وكان أبوه شماساً وعلى علم باللاهوت ويعرف بعض اللغات الشرقية وآدابها، وصار أستاذاً في بينهاوزن بالقرب من تونجن. فالتحق ابنه فريدرش بمعهد ديراني لإعداد الطلاب للالتحاق بجامعة تونجن للدراسة اللاهوت. وظهر نبوغه المبكر في الدراسة. وفي أكتوبر سنة ١٧٩٠ التحق فريدرش بجامعة تونجن، فأمضى خمس سنوات من ١٧٩٠ إلى ١٧٩٥: القسم الأول منها في دراسة الفلسفة، والقسم الأخير في دراسة اللاهوت. هنا في تونجن تعرف إلى شخصين سيكون لهما مستقبل عظيم في الأدب والفلسفة في ألمانيا وهما: الشاعر هيلدرن، والفيلسوف هيجل وكانا يكبرانه بخمس سنوات. وتأثير أبيه ولع بدراسة اللغات الشرقية، وخصوصاً السامية والعبرية على وجه الخصوص.

وفي سبتمبر سنة ١٧٩٢ حصل على درجة ماجستر Magister في الفلسفة، وفي يوليو سنة ١٧٩٥ حصل على نفس الدرجة في اللاهوت.

وبعد أن أتم دراسته في جامعة تونجن، أمضى صيف سنة ١٧٩٥ في بيت أهله. لكنه طمح إلى التنقل، وهو أمر لا يتعباً لمثله إلا بأن يكون معلماً ومرافقاً لأبناء النبلاء الذين يسافرون إلى الخارج كجزء من تثقيفهم. ومنحت له الفرصة في نوفمبر سنة ١٧٩٥، أن صار مرافقاً لولدين لأحد النبلاء لكن للظروف السياسية، اقتضت الرحلة على مختلف بلاطات ألمانيا. فسافر إلى ليتسك في مارس سنة ١٧٩٦ وبقي فيها حتى أغسطس سنة ١٧٩٨. وكان لهذه الإقامة أثر كبير في تطوره الروحي، إذ تحول من نظرية العلم عند فشته إلى نظرية الطبيعة، وبهذا بدأ طريقه الخاص.

فبدأ يتطلع إلى منصب أكاديمي، أي أن يكون أستاذاً في إحدى الجامعات ومنحت الفرصة بأن عين في جامعة بينا، وكانت بينا آنذاك مركز الفلسفة في ألمانيا كلها. فارتحل إليها شلتج في شهر أغسطس سنة ١٧٩٨، وبلغها في أكتوبر وأمضى فيها تسعة فصول دراسية، وبقي في بينا أربع سنوات. وفي جو بينا وفيما هو الروحي، استطاع شلتج أن يلتقي بوجه وخصوصاً

١ - المصادرة قول مرغوب فيه إن كان صحيحاً، ونحن نحاول إثبات صحته.

٢ - والمصادرة التي تتحقق تماماً على أساس الوقائع تعد بديهية.

٣ - الفرض المنهجي (مثل فرض الحتمية في العلوم الفزيائية) هو المبدأ المرشد لنا والمفيد في تفسير مجرى الظواهر والأحداث.

٤ - الفرض المحدود الفائدة، مثل الهندسة الإقليدية فيما يتعلق برسم الخرائط، هو فرض وهمي fiction.

٥ - دعاوى الحقيقة إما أن تكون أوهاماً اصطلاحية fictions

٦ - أو أنواعاً من المزاح jokes.

٧ - أو أكاذيب. والأكاذيب قد تفيد، كما هي الحال في الدعاية propaganda

وينقد مثل المنطق الصوري على أساس أنه كان تلاعباً بالألفاظ ولأنه ارتبط بالميتافيزيقيا بدلاً من الارتباط بالعلوم الفزيائية ويعلم النفس. إذ إنه كان يرى، كما يرى جون ديوي، أن للمنطق أساساً بيولوجياً، بمعنى أنه مرتبط بالحياة، بالأغراض، بالفائدة، بالحاجيات الإنسانية.

وفي الدين نظر إلى العقائد الدينية على أنها مجرد مصادرات postulates. والله - في نظره - هو مبدأ الخير السائد، وهو متناه.

## مؤلفاته

- Riddles of the Sphinx. Revised edition, 1910, London
- Axioms as Postulates in Personal Idealism, 1902.
- Humanism, 2<sup>nd</sup> edition, 1912, London.
- Studies in Humanism, 2<sup>nd</sup> ed. 1912, London.
- Formal Logic, 1912, London.
- Problems of Belief, 1924, London.
- Must philosophers disagree? 1934, London.
- Our human truths. New York, 1939.
- Logic for use. London, 1929.

## مراجع

- Reuben Abel: The Pragmatic Humanism of F.C.S. Schiller, New York, 1955.

الموضوع الأساسي في محاضراته في جامعة برلين يدور حول فلسفة الأساطير والوحي. ولقي نجاحاً عظيماً، كان هو السبب فيما لقيه من هجوم وعنت من حشاده ومنافسيه، كما هو الشأن دائماً فاضطر إلى ترك عمله، وألقى آخر محاضراته شتاء سنة ١٨٤٥/١٨٤٦.

وبعد سنة ١٨٤٦ عاد شلتج إلى حياة العزلة، وكانت قد تجمعت حوله في برلين دائرة حميمة من الأصدقاء.

وأضى سنوات عمره الأخيرة في برلين مع زوجته الثانية، ثم توفي في رجنس Ragaz في سويسرة في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٥٤.

#### فلسفته

##### ١ - مهمة الفلسفة:

يقول شلتج في تحديده لموضوع الفلسفة ومهمتها: «ليس للفلسفة أساساً موضوع مختلف عن موضوعات سائر العلوم. كل ما في الأمر أنها تنظر في موضوعات العلوم كلها على ضوء علاقات أعلى، وتنظر إلى الموضوعات الجزئية للعلوم، مثلاً النظام الكوني، عالم النبات والحيوان، الدولة، تاريخ العالم، الفن - على أنها مجرد أعضاء في جهاز عضوي واحد أحد يرتفع من هاوية الطبيعة - التي يمتد فيها بجنوره - إلى عالم الأرواح» (مؤلفات شلتج، ج ٩ ص ٢٦١).

ومن هنا كان على الفلسفة أن تطلع على آخر وأحدث اكتشافات علوم الطبيعة، وعلوم الروح، وأن تنظر في علاقاتها العليا، وتصعد إلى المبادئ الأولى ولكن ليس معنى هذا أن الفلسفة تتلقى موضوعها من العلوم الأخرى، كلا. إنها تعطي لنفسها موضوعها، وتؤسسه، لأنها لا تستطيع أن تستمد من التجربة مثل سائر العلوم، ولا من أي علم آخر أعلى منها.

والفلسفة كلها من عمل الحرية. ولهذا فإنها في أصلها إرادة. «ولهذا فإن البرهان هو فقط برهان من أجل أصحاب الإرادة الساترين قديماً المواصلين التفكير». «والفلسفة الإيجابية هي الفلسفة الحرة حقاً. والإرادة هي أصل الفلسفة. فالإنسان خلق للفعل والتأمل».

ويرى شلتج أن الفلسفة السابقة عليه كانت كلها فلسفة سلبية. ولا يرى بنوراً للفلسفة الإيجابية إلا عند أفلاطون في محاوره «طيمائوس»، وفي الأفلاطونية المحدثة، وعند الثيوصوفيين ولدى اسبينوزا.

بأقطاب الحركة الرومبكية: الأخوين اشليجل، وكارولينا التي تزوجها فيما بعد. كما استطاع في هذا الجو الروحي العظيم أن يضع أساس مذهبه الفلسفي، يضعه من خلال محاضراته في جامعة بينا.

وانتهت فترة تعيينه أستاذاً في جامعة بينا في ربيع سنة ١٨٠٣. فدعته حكومة بايرن ليكون أستاذاً في جامعة فورتسبورج، فعين فيها وبدأ محاضراته في الفصل الثنوي سنة ١٨٠٣، واستمر فيها حتى أبريل سنة ١٨٠٦، حيث عين في منصب مزوج: كان عضواً في أكاديمية العلوم، وأميناً عاماً لأكاديمية الفنون التشكيلية. وبعد ذلك بعشر سنوات عين أميناً لقسم الدراسات الفلسفية في أكاديمية العلوم، ومنح لقب فارس، وصار من طبقة النبلاء. وعاش هنا هادئاً في مركز مرموق، ولم يشغل نفسه بالقاء للمحاضرات.

لكنه ما لبث أن اشتاق إلى التدريس والعودة إلى كرسي الأستاذية. فدعته جامعة إيرلنجن في أواخر خريف سنة ١٨٢٠ فأقام في إيرلنجن سبع سنوات محوياً بالتقدير.

وحدث أن تولى عرش بافاريا ملك مستير جديد هو لودفيج، وكان محباً للعلوم والآداب والفنون، وكان ذلك في ١٣ أكتوبر سنة ١٨٢٥. فأراد أن يجعل منش (ميونخ) كعبة العلوم والآداب والفنون، فأنشأ جامعة منش التي افتتحت في خريف سنة ١٨٢٦ وكان طبيعياً أن يفكر في شلتج خصوصاً وأن هذا كان لا يزال موظفاً في حكومة بافاريا، ولم يكن في إيرلنجن إلا على سبيل الإعارة. فعينه الملك الجديد في ١١ مايو سنة ١٩٢٧ محافظاً عاماً لمجموعة الدولة العلمية، واختارته أكاديمية بافاريا رئيساً لها، إلى جانب تعيينه أستاذاً في الجامعة الجديدة، جامعة منش. وكان نشاطه الرئيسي في الجامعة، فكان يلقي المحاضرات في بيان مذهبه، خصوصاً في فلسفة الأساطير وفلسفة الوحي ولاقت محاضراته نجاحاً منقطع النظر على الرغم من عمقها وصعوبتها. وقد توزعت موضوعات ثلاثة تاريخ الفلسفة الحديثة، والتجريبية الفلسفية، وفلسفته هو في الأساطير والوحي.

وحدث أن توفي هيجل في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١، فتطلعت أنظار كبار القوم في برلين إلى دعوة شلتج ليملا الفراغ الذي تركه هيجل. وعين شلتج في جامعة برلين، وبدأ محاضراته في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٤١، بعد أن ذلت العراقيل التي حالت دون تعيينه طوال هذه السنوات العشر. وكان

للغائية إلى الطبيعة يرغم الطبيعة على الوقوع تحت سلطان فكرة غريبة عنها، وبالتالي يرفع الطبيعة نفسها. ولهذا فإن السبب الوحيد للغائية هو وحدة الطبيعة والروح. إن الطبيعة والروح ليستا جوهرين مختلفين، بل هما جوهر واحد.

ووحدة الطبيعة والروح (العقل) معناها هو مبدأ التطور المستمر للأشياء، ووحدة الطبيعة والعالم الشاملة.

والتعارض الأساسي في الطبيعة هو بين العضوي واللاعضوي. وشلتج في دراسته للطبيعة اللاعضوية، اهتم خصوصاً ببيان وحدة القوى الفيزيائية، ووحدة القوة بوجه عام. ورأى في هذا البحث الغائية التي يجب أن تسعى الفيزياء إلى بلوغها.

أما في الطبيعة العضوية فنجد التقابل بين النبات والحيوان، بين أنواع النبات بعضها وبعض، بين أنواع الحيوان بعضها وبعض. وحلّ هذه المتقابلات يقتضي القول بالتطور التدريجي المتواصل، ونشأة الأشكال العضوية من شكل أولي بطريقة طبيعية تدريجية. وكان شلتج يمين أكدوا - ويكل وضوح ولأسباب فلسفية - مبدأ التطور العضوي الذي أصبح فيما بعد أساساً للداروينية.

إن مبدأ وحدة الطبيعة يقتضي رفع التقابل بين المتقابلات الظاهرة في الطبيعة، واستخلاص الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية كليهما من مبدأ واحد. ولهذا فإن شلتج يرفض المذهب الحيوي أي النظرية القائلة بقوة الحياة، ويريد أن يفسر الحياة تفسيراً فيزيائياً. ويؤكد أن السلسلة المتدرجة لكل الكائنات العضوية قد تكوّنت تدريجياً خلال تطور نظام عضوي واحد.

ومذهب شلتج في فلسفة الطبيعة موزع بين مجموعة من الكتب والأبحاث التي ألّفها في السنوات من ١٧٩٧ إلى ١٨٠٦. لكنها لا تؤلف كلا متدرجاً أو متصلاً، بل ويكرر بعضها بعضاً أحياناً، وتتغاير أوجه النظر أحياناً أخرى، بحيث لا تؤلف نظاماً مشيداً محكم البناء.

وكان عام ١٨٠١ فاصلاً بين عهدين في فلسفة الطبيعة عند شلتج.

ويختلف كلا العهدين من حيث الروح العامة في مذهب فلسفة الطبيعة. فالعهد الأول يغلب فيه على فلسفة الطبيعة النزعة «الطبيعية»، والعهد الثاني تغلب عليه النزعة «الدينية»

ما هي الفلسفة الإيجابية في نظر شلتج؟ إنها تنطوي على عدة أمور، هي: إرادة الخروج من الذاتية إلى الموضوعية، وذلك ما قام به هو ضد فشته بأن أنشأ أولاً فلسفة الطبيعة، ثم فلسفة الفن، حتى وصل إلى فلسفة الأساطير والوحي، ثم فلسفة التاريخ، كذلك تنطوي الفلسفة الإيجابية على إرادة الحرية، وعلى إرادة إيجاد دين جديد حق، دين فلسفي.

إن الفلسفة السلبية هي فلسفة ماهية، أما الفلسفة الإيجابية فهي فلسفة وجود. الفلسفة السلبية تتطلع إلى المثل الأعلى - أما الإيجابية فتتطلع إلى الواقع. الفلسفة الإيجابية تعنى بالحرية، أما السلبية فتعنى بالضرورة.

والمبدأ الأول عند شلتج هو الهوية Identität المطلقة. والوجود الأول هو العقل، أي السوية التامة بين الذاتي والموضوعي وكل ما هو موجود هو في العقل. ولا شيء خارج العقل. إن العقل هو المطلق.

## ٢ - فلسفة الطبيعة:

والطبيعة هي إذن من نتاج العقل، وهي أول ما يتأمله. والطبيعة هي سلسلة تطورية ضرورية في تاريخ الشعور بالذات. ولهذا ينبغي أن تكون فلسفة الطبيعة جزءاً ضرورياً من المثالية المتعالية.

ومهمة فلسفة الطبيعة، في نظر شلتج، هي أن نستبط من مبادئ إمكان الطبيعة، أي مجموع العالم المؤسسة على التجربة. والفكرة الأساسية التي تقوم عليها فلسفة الطبيعة عنده هي القول بوحدة الطبيعة والعقل وقد اعتمد في ذلك على كنت وليست معاً. كنت من حيث فكرة الغائية، وليست من حيث فكرة التدرج في الأشياء والتطور في نظام العالم.

وهذه الفكرة بدورها تقوم على ثلاثة معانٍ رئيسية: (١) الغائية الباطنة في الطبيعة، أو التنظيم، (٢) حياة الطبيعة، أو التطور، (٣) إمكان معرفة الطبيعة.

والغائية الباطنة في الطبيعة تستند إلى وحدة الطبيعة والروح، والمادة والعقل. إذ لو فصلنا بينهما، فلا يمكن تصور غاية الطبيعة إلا على نحوين: إما بواسطة الانسجام بين عالمين مستقلين: عالم الطبيعة وعالم الروح، أو أن ننقل إلى الطبيعة تصورنا للغائية. لكن الانسجام بين الطبيعة والروح ليس إلا تعبيراً آخر عن غائية الطبيعة. فهذا الانسجام إذن لا يفسر في شيء، بل هو الأمر الذي يحتاج إلى تفسير. ونقلنا تصورنا

لكن كليهما معاً يتسم بتزعة وحدة الوجود.

والسبب في هذا الاختلاف بين المهديين يرجع إلى الفارق في طريق التأسيس: ففي العهد الأول وحّد بين الطبيعة وبين الحياة الإلهية، وفي الثاني ساد تجلّي عالم الصور الإلهي. في الأول كان الله بمثابة الطبيعة الطابعة (الفاطمة)، وفي الثاني الله هو المطلق، وهو إرادة تجلّي ذاته بذاته. في العهد الأول كانت الطبيعة بمثابة حياة الله وتطوره، وفي العهد الثاني عدل عن هذا التصور، لأنه يرى أن الله كائن وليس صائراً، ولهذا نظر إلى الطبيعة على أنها تجلّي الله، وضرورة معرفة الله، وعيان الله، الذي تتحد فيه كل العلوم، وتجتمع فيه الفلسفة مع الدين والفن، وتكتمل فيه حياة العالم الروحي. ولما كان نظام العالم صورة من عالم الصور، فلا بد أن يكون عالم الصور.

والفلسفة الطبيعية الحقة، التي تجمع بين العلم والدين والفن، وحدة ورابطة بين الأرواح والصور الصادرة لوحدة العالم الروحية. وصار شلتج ينظر إلى التطور على أنه تطور مراد منذ الأزل، وأن وحدته وانسجامه هما منذ الأزل، وأن تمت انسجاماً أزلياً.

### ٣ - الفلسفة المتعالية:

«الطبيعة» هي مجموع ما هو «موضوعي» في معارفنا. و«الأنا» أو «العقل» هو مجموع ما هو «ذاتي» فيها. وكلتا الفكرتين متعارضتان مع الأخرى. فالعقل ينظر إليه على أنه هو ما يُمثّل، والطبيعة على أنها ما يُمثّل. والأول ينظر إليه على أنه الوعي، والثاني على أنها ما لا وعي له. ولكن كل معرفة تقتضي تداخلاً بين الوعي واللأوعي. وكل معرفة تقوم على اتفاق بين الذاتي والموضوعي، لأننا لا نعرف غير الحق، والحق يقوم على الاتفاق بين الامتالات وبين موضوعاتها.

ونحن في المعرفة بين أمرين: (أ) فلما أن نعطي الأولوية للموضوعي على الذاتي - وهذا ما فعله فلسفة الطبيعة، (ب) أو نعطي الأولوية للذاتي على الموضوعي، وهذا ما فعله الفلسفة المتعالية Transcendentalphilosophie. وهما متعارضتان من حيث المبادئ والاتجاهات، ولكنها مع ذلك يسعيان للتلاقي والاستكمال أي أن يكمل كل منهما الآخر.

ولما كانت الفلسفة المتعالية تعطي الأولوية للذاتي وترى فيه الأساس الوحيد لكل حقيقة واقعية، والمبدأ الوحيد لتفسير الكل، فإنها ينبغي أن تبدأ بالشك العام في حقيقة ما هو موضوعي.

وكما أن فلسفة الطبيعة تسمى بكل وسيلة لمنع تدخل الذاتي في معارفها، كذلك الفلسفة المتعالية لا تحشى شيئاً قدر خشيتها من نفوذ الموضوعي في المبدأ الذاتي الخالص الخاص بمعارفها هي. والسبيل إلى إبعاد الموضوعي هو الشك المطلق ليس فقط فيما يتعلق بالأحكام السابقة الشائعة بين الناس الذين لا يمضون إلى أعماق الأشياء، بل وأيضاً الشك في الحكم السابق الأساسي الذي يسند سائر الأحكام السابقة Vorurteile والذي يجرّ القضاء عليه إلى القضاء على سائرها.

والحكم السابق الأساسي الذي تستند إليه سائر الأحكام السابقة هو الذي يزعم أنه توجد أشياء خارجاً عنا. وهو حكم سابق لا يستند إلى أي سبب أو برهان، إذ لا يوجد دليل عليه لا يقبل التفتيد. ولكنه أيضاً لا يفند ببرهان مضاد.

والفلسفة المتعالية تختلف عن المعرفة العادية في نقطتين:

الأولى: المعرفة المتعالية ترى أن اليقين المتعلق بوجود الأشياء الخارجية هو مجرد حكم سابق بسيط تحاول هي أن تتجاوزه للكشف عن أسبابه. فالفيلسوف المتعالي سعى، لا إلى البرهنة على وجود الأشياء، بل فقط إلى بيان أنه بفضل حكم سابق طبيعي وضروري نحن نعلم بواقعية الأمور الخارجية.

الثانية: المعرفة المتعالية تفصل بين القضيتين التاليتين وهما: «أنا موجود»، «ثم أشياء خارجاً عنا»، اللتين تحتلطان في الشعور المعتاد. وذلك من أجل بيان هويتها وربطتها المباشرتين اللتين لا توجدان في الشعور المعتاد إلا على هيئة عاطفة. وهذا الفصل، حين يكون كاملاً، يؤلف شروط طريقة النظر المتعالية التي ليست أبداً طبيعية، بل صناعية فقط.

ولما كان الذاتي هو وحده الذي له حقيقة مباشرة عند الفيلسوف المتعالي فإن الذاتي هو الذي سيكون الموضوع المباشر لمعرفته. أما الموضوعي فلن يجعل منه إلا موضوعاً غير مباشر. وبينما في المعرفة العادية يختفي فعل المعرفة أمام الموضوع، فإنه في المعرفة المتعالية الموضوع، بما هو موضوع يختفي أمام فعل المعرفة. إن المعرفة المتعالية ليست إذن معرفة المعرفة، بقدر ما هي ذاتية خالصة.

وتتلخص مميزات الفلسفة المتعالية فيما يلي:

- ١ - أن موضوعها هو الذاتي وحده.
- ٢ - المعرفة المتعالية هي «علم العلم» والفكر المتعالي هو «تصور التصور».

الأحداث، كما تنبأ بالظواهر الفلكية من خسوف وخسوف. ولكن مثل هذه القانونية مفقودة في التاريخ. ودعوى وجود قانون بمقتضاه يسير التاريخ هي دعوى يدحضها أدق تأمل في مجرى التاريخ. والسبب في هذا أن الحرية، لا الضرورة، هي التي تسود في التاريخ. ولهذا يقول شلتج إن «الهوى هو رب التاريخ». ولكن التاريخ موضوعاً للفلسفة لا بد له ألا يكون العوبة في يد الهوى، بل لا بد أن تجمع بين القانونية والهوى. فهل هذا الجمع موجود، وبالتالي هل يمكن إيجاد فلسفة للتاريخ؟

إن التطور في التاريخ يختلف عن التطور في الطبيعة من حيث أن الأول ليست له مراحل ثابتة، ولا يصل إلى هدف نهائي، بل هو يمضي إلى غير نهاية. إنه في تقدم متواصل. الأفراد والأجيال تمضي وتتغير، ولكن النوع الإنساني باق، وهو الذي يتقدم ويتخذ من كل مرحلة تكافة للارتقاء إلى مرحلة أعلى. فالنوع هو الذي يتقدم قديماً في تواصل الأجيال، والملاحق يقوم على السابق، ويتسلم نتائج أفعاله ويجعل منها سنة وتقاليد. فالتاريخ يتميز بالتقدم، ويكون النوع هو الذي يقوم على استمرار هذا التقدم.

لكن هذا التقدم لا يعني استمرار اكتمال الإنسان إلى غير نهاية. فهذا أمر لا نستطيع أن نقرره.

ويرى شلتج أن المميز للتقدم في التاريخ هو الاقتراب شيئاً فشيئاً من دستور واحد ونظام قانوني واحد للعالم بأسره. يقول: «إن النشوء التدريجي للدستور عالمي هو الأساس الأوحيد للتاريخ، والموضوع الحق الوحيد للتاريخ» (مذهب المثالية المتعالية، ص ٥٩).

وموضوع التاريخ هو الحرية التي تريد أن تكون مؤمنة عن طريق النظام بحيث يظل راسخاً رسوخ الطبيعة. وبدون هذا التأمين تكون الحرية مزعزعة. ولا ضمان للحرية إلا بالقانون العام.

وكلما تقدم التطور، اتضح التوفيق بين القانونية والحرية، وصارت الحرية أكثر سيراً بمقتضى القانون، وصار عالم الإنسان أكثر نظاماً وقلت الانحرافات والاضطرابات الناشئة عن الأهواء الفردية.

والوعي الإنساني يقف من تحلي القوة الإلهية في العالم ثلاثة مواقف. فهو إما أن يؤكد هذه القوة في الطبيعة والعالم الموضوعي ويجعل الإلهي مساوياً للقدر. وهذا موقف الجبرية.

٣ - إن الذات تفعل وتترك نفسها في هذا الفعل.

٤ - الفلسفة المتعالية ينبغي عليها ألا تدع الفعل يخضع في الموضوع، بل عليها أن تجعل فعلها نفسه موضوعاً.

٥ - ونظراً إلى هذا الازدواج المستمر بين العمل والفكر، فإن تطور الفلسفة المتعالية هو تاريخ مستمر للوعي الذاتي.

٦ - وهذا التطور يتم على ثلاث مراحل: والمرحلتان الأولى والثانية تتحددان باليقين النظري والعمل. ولا كان اليقين النظري يتحقق باتفاق الامتالات مع الموضوعات، ويمكن بذلك تأسيس «إمكان التجربة» فإن اليقين العملي يقتضي «إمكان كل فعل حر».

ولهذا ينبغي حل هذا النزاع بين الفلسفة النظرية والفلسفة العملية في مرحلة ثالثة، وهذا تتحدد المهمة العليا للفلسفة المتعالية.

ومهمة المثالية المتعالية هي أن تبين كيف أن العقل يبلغ الموضوعات التي يتوافق وإياها. وهذا التوافق مزدوج لأن صلة الامتالات بالموضوعات (الأشياء) إما أن تكون صلة النسخ بالأصل، أو صلة الأصل بالنسخ. وفي الحالة الأولى تكون الامتالات وفقاً للأشياء، وفي الحالة الثانية يكون الأمر بالعكس.

ومهمة الفلسفة المتعالية أن تفسر هذين النوعين من التوافق.

ولهذا تنقسم إلى نوعين: فلسفة نظرية، وفلسفة عملية.

والمشكلة الرئيسية في الفلسفة النظرية هي تفسير «مثالية الإطارات» التي في العقل.

والمهمة العليا للفلسفة العلمية هي الوصول إلى تصور التاريخ. فكما أن فلسفة الطبيعة تتأمل تطور الطبيعة، كذلك الفلسفة العملية تتأمل التطور التاريخي للحرية الإنسانية. وكما تسلك الفلسفة النظرية مع الطبيعة، كذلك تسلك الفلسفة العملية مع التاريخ.

٤ - فلسفة التاريخ:

ويرى شلتج أن التاريخ ليس موضوعاً نظرياً، ولا يوجد بالمعنى المحدود الدقيق - نظرية في التاريخ، لأن النظرية لا تكون ممكنة إلا بالنسبة إلى موضوعات يمكن خضوعها لقانون، بحيث يمكن مقلماً ووفقاً لهذا القانون، أن تنبأ بمجرى

ذاتي، وهو من حيث الصورة علم ذاتي حي، وتطور ذاتي للعقل. وأساس العالم هو العقل.

وشelling ينظر إلى العالم على أنه عمل في إلهي، وكان في هذا متأثراً بجوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠). وقد ألف شelling محاضرة بعنوان «برونو» تدور حول وحدة العالم. وخلصه الحوار الجاري فيها هي أن المعرفة الحقة هي المعرفة المستقلة عن الزمان، أي تلك التي تكون موضوعاتها أزلية أبدية، ثابتة، مساوية لنفسها، غير خاضعة لتغير زمني ولا لقانون الآلية. وهذه صفات لا تنطبق إلا على التصورات الأزلية الأبدية، أي المثل *Ideen*، بالمعنى الأفلاطوني. فهي الموجودات حقا، الفعالة حقا، وما عداها ظواهر. أن الصور هي النماذج السرمدية، وما الظواهر إلا نسخ عنها وهذه النماذج هي موضوعات المعرفة الحقة. ولهذا فإن الحق والجمال شيء واحد بالضرورة، لأن الجمال منشؤه التطابق بين الأشياء المحاكية وبين النماذج (الصور) التي تحاكيها هذه الأشياء.

#### مؤلفاته

- Vom Ich als Prinzip der Philosophie, 1795.
- Ideen zu einer Philosophie der Natur, I, 1797.
- Von der Weltseele, 1798.
- Erster Entwurf eines Systems der Natur philosophie, 1797.
- System des tranzendentalen Idealismus, 1800.
- Bruno. oder über das natürliche und göttliche Prinzip der Dinge, 1802.
- Philosophie und Religion, 1804.
- Philosophische Untersuchung über das Wesen der menschlichen Freiheit, 1809.
- Einleitung in die Mythologie,

وقد نشر ابنه مجموع مؤلفاته في اشتونجرت وأوجسبرج بين سنة ١٨٥٦ وسنة ١٨٦٦ في قسمين الأول في عشرة مجلدات، والثاني في أربعة مجلدات. والأول يشمل ما نشر إبان حياة أبيه.

#### مراجع

- Rosenkranz: Schelling, 1843.
- Ed. von Hartmann: Schellings philosophisches System, 1897.

أو ينكر هذه القوة العليا، على أساس شعوره بحريته الذاتية وأهوائه، فلا يرى غير الصدفة والبخت. وهذا موقف الإلحاد. ولكن كلا الموقنين - في نظر شelling - فاسد، وكلاهما ناشيء عن تفكير واحد محدود. والموقف الصحيح في نظره هو الموقف الثالث الجامع بين الأضداد والذي يرى في الإلهي الهوية بين الضرورة والحرية، ويعترف بوجود قوة تكشف عن تطور منظم وفق خطة لهذا العالم. فالمطلق عندها ليس هو القدر أو المصير، بل هو العناية. وهذا موقف الدين. وفي التاريخ، بوصفه التجلي التدريجي للذات الإلهية يمكن أن يميز ثلاثة عصور: في الأول يسود القدر، وفي الثاني يسود القانون، وفي الثالث تسود العناية. وسيادة القدر أسيانته، وسيادة القانون آلية، وسيادة العناية دينية. ويتسبب إلى العصر الآسياني عالم الحضارة القديمة، وانهار تلك الامبراطوريات العظيمة التي بقيت آثارها وأطلالها. وعصر سيادة القانون الآلية يبدأ باتساع الامبراطورية الرومانية. وفي العصر الثالث مستضح العناية كقوة سائدة. متى يبدأ هذا العصر الثالث؟ هذا أمر لا نعلمه. ولكن حين يأتي هذا العصر، يكون ثم الله أيضاً.

#### ٥ - مذهب الهوية المطلق:

يرى شelling أن الجوهر الأعمق للأشياء هو الواحد. وهذا الواحد الكل هو المعرفة. وهذه هي الفكرة الأساسية في مذهب شelling. فان سميت وحدة الأشياء هوية، فإن المذهب الفلسفي سيكون «مذهب الهوية المطلق»، وان سمي القول بأن كل الأشياء تصدر عن المعرفة: مثالية، فقد تقررت المثالية المطلقة.

ولكن الواحد يقوم في المعرفة، وفي المعرفة الذاتية على وجه أدق. وخارجها لا يوجد شيء قابل لأن يعرف. ولهذا ينتهي إلى القول بأن العقل *Vernunft* هو والهوية المطلقة والمطلق شيء واحد وان العقل ينظم كل شيء، وهو الكل الدائم، أو الكون. والمعرفة الذاتية هي تعبيره الضروري وصورته. والهوية المطلقة ليست فقط ماهيته، بل هي صورته وقانونه. إن المطلق واحد أحد، ماهية واحدة هي هي عينها. ولهذا يعتنه أحياناً بقوله إنه هوية الهوية *Identität der Identität*.

والأشياء تكون سلسلة من القوى، أساسها الثابت هو الهوية المطلقة في وقت معاً وفي مجموعها. وكل شيء يعبر عن الشمول *Totalität*. وهذا هو ما ينتمه شelling باسم «الكلية النسبية» في مقابل «الكلية المطلقة» التي تولف مجموع القوى.

وإخلاصة هي أن الكون في جوهره عقل ومعرفة وعلم



العظيم كلويستوك أبي الشعر الألماني الحديث، والرسام تشين Tishbein، ورعارس. وازدان هذا النادي في فيمار بفضل جيته وأعلام الفكر والأدب الذين كانوا في فيمار.

ولم يشأ شوبنهاور الاستمرار في الأعمال التجارية. وبعد كثير من التشكي ترك التجارة ودخل المدرسة الثانوية في جوتا .Gotha

وفي سنة ١٨٠٩ دخل جامعة جيتينجن Göttingen، فبني بدراسة الطب والعلوم الطبيعية والتاريخ، كما درس الفلسفة على يدي الفيلسوف الشاك جوتلوب ارنت شولتسه Schulze الذي وجهه إلى دراسة أفلاطون وكنت وحدهما، ونصح به بعد قراءة أي فيلسوف غيرهما، خصوصا أرسطو واسينوزا، قبل اتقان دراسة أفلاطون وكنت، وهي نصيحة لم يندم شوبنهاور على العمل بها.

وفي سنة ١٨١٠ ذهب إلى جامعة برلين، وقد جذبه إليها شهرة الفيلسوف فشته Fichte لكنه سرعان ما تبرم بمحاضراته وتبدل الإعجاب به إلى سخيرية واحتقار.

وفي سنة ١٨١٣ حاول تحضير الدكتوراه في جامعة برلين، لكن الحرب حالت دون ذلك. فارتحل إلى جينا Jena، وظفر بالدكتوراه الأولى من جامعتها برسالة الموسومة باسم: «الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية».

وفي الشتاء التالي عاد إلى فيمار وتوثقت صلته بجيته، وتأثر به في نظرية الألوان. وهنا أيضا عرف فريدرش ماير، المستشرق الذي أدخله في معهد الفكر الهندي. فبني بدراسة الفكر والدين عند الهنود.

وفيا بين سنة ١٨١٤ و١٨١٨ عاش في درسدن، وعكف على المتاحف والمكاتب ودور الفن للدراسة الآثار الفنية فيها.

وهنا كتب أولاً «نظرية الابصار والألوان» الذي أخذ فيه جانب جيته ضد نيوتن. كذلك كتب وهو في درسدن كتابه الرئيسي: «العالم إرادة وامثال» الذي نشره سنة ١٨١٩ غير أن الكتاب لم يلق نجاحاً يذكر.

وأضى في إيطاليا عامين بين سنة ١٨١٨ و١٨٢٠ وتقل في ربوعها، خصوصا في روما ونابلي والبندقية.

وفي سنة ١٨٢٠ عاد إلى برلين، ونال من جامعتها دكتوراه التأهيل للتدريس. ثم صار مدرّسا، لكنه لم يلق أي

— Kuno Fischer: Schellings Leben, Werke und Lehre, 4. Aufl. 1928.

— Nicolai Hartmann: Die philosophie des deutschen Idealismus, I, 1923.

— J. Gibelin: Esthétique de Schelling d'après la philosophie de l'art. Paris 1934.

— V. Jankelevitch: L'Odyssée de la conscience dans la dernière philosophie de Schelling, Paris, 1933.

— Susanna de Bocca: La filosofia di Schelling, Firenze, 1848.

— Karl Jaspers: Schelling: Grosse und Verhängnis. München, 1955.

## شوبنهاور

### Arthur Schopenhauer

فيلسوف ألماني متشائم.

ولد في ٢٢ فبراير سنة ١٧٨٨ بمدينة دانتسج Dantzig، من والد كبير الثراء، كان صاحب مصرف في هذه المدينة. ووالدته هي حنة شوبنهاور، بنت المستشار تروزينر Trosiener وقد عرفت كاتبة مشهورة، ألقت قصصا وأوصاف رحلات.

وبعد أن فقدت دانتسج حريتها في سنة ١٧٩٣، لم تشأ الأسرة البقاء في المدينة فغادرتها إلى همبورج في تلك السنة.

وفي سنة ١٧٩٧ انتقل به والده إلى مدينة الهافر طوال ستين عند أحد أصدقائه التجار في المدينة. ثم عاد إلى همبورج في سنة ١٧٩٩ وبقي بها حتى سنة ١٨٠٣.

وفي علمي ١٨٠٢ و١٨٠٤ قام برحلة إلى سويسرة وفرنسا وبلجيكا وإنجلترا، وبقي في لندن ستة أشهر، عرف فيها من طباع الانجليز ما بغضهم إليه.

وفي سنة ١٨٠٤ عاد إلى همبورج فوضعه أبوه في عمل تجاري يملكه ينش Jenisch. لكنه لم يظهر أي ميل إلى الأعمال التجارية، بل صرف كل همه إلى الدراسة النظرية.

وفي أبريل سنة ١٨٩٥ توفي والده فغادرت الأسرة همبورج إلى فيمار. وهنا استأنفت والدته ناديا الأدبي الذي كان يضم في همبورج نخبة من الأدباء والفنانين الممتازين مثل الشاعر

وفي سنة ١٨٥٥ وضعت جامعة ليبتيك مسابقة حول فلسفته.

وزادت شهرته في كل أصقاع أوروبا، وصار له العديد من المتحمسين والمعجبين به والأتباع.

وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٦٠ توفي شوبنهاور محاطاً بأكاليل الشهرة بعد إنكار طويل، توفي إثر سكتة رئوية، وهو في سن الثانية والسبعين.

فلسفته

١ - العالم امتثال:

تأثر شوبنهاور في فلسفته بثلاثة مصادر: كنت، أفلاطون، وكتاب الأوبانيشاد الهندي.

وتقوم فلسفة شوبنهاور كلها على قاعدتين: الأولى أن العالم امتثال، والثانية أن العالم إرادة.

وفيما يتصل بالقاعدة الأولى وهي أن «العالم من امتثالي» يقول شوبنهاور أن كل وجود خارجي مرتبه في الواقع إلى الذات. وتبعاً لذلك أستطيع أن أستنتج كل قوانين العالم من الذات. ويتساءل شوبنهاور هل العالم يسير على نظام؟ وجوابه عنه أن العالم يسير على قانون. ما هو هذا القانون؟ انه مبدأ «العلة الكافية». فكل امتثالاتنا مرتبة فيما بينها وبين بعض على نحو من شأنه أن يجعل الواحد منها مرتبطاً بالآخر، ولا شيء منها يقوم مستقلاً بنفسه أو منفصلاً عن غيره. وهذا الارتباط ارتباط منتظم نستطيع أن نعيته قبلها، أعني قبل التجربة بوصفه مركزاً في طبيعة الذات ومع ذلك فإن من الأيسر علينا أن نعين هذا القانون على وجه الدقة بطريقة بعدية، أي بواسطة النظر في مضمون التجربة، وتمييز أنواع ما فيها من موضوعات، وما يخضع له كل نوع من مبادئ. وبعد تصنيفنا لكل هذه الموضوعات، أو الامتثالات نرتفع بطريقة قبلية إلى أصول هذه المبادئ، أعني الملكات العقلية التي تخضع لها الموضوعات وتستمد منها المبادئ.

فإذا اتبعنا هذا المنهج، وصلنا إلى أربعة أنواع من الامتثالات أو الموضوعات: التأثيرات الحسية، والتصورات، والعيانات المجردة (الزمان والمكان)، وأخيراً المشيئات. أما التأثيرات الحسية فيناظرها مبدأ «الصبورة» أو المبدأ الفيزيائي، أي العلية بالمعنى العادي، والتصورات يناظرها «مبدأ المعوق»

نجاح في التدريس، حتى ان عدد الطلاب الذين كانوا يحضرون محاضراته لم يزد على تسعة. ومع ذلك ظل - رسمياً - يدرس في جامعة برلين حتى سنة ١٨٣٢.

وفي ربيع سنة ١٨٢٢ بعد تجربة التدريس المرة هذه، عاد إلى إيطاليا وتوسع في دراساته في الجمال والأخلاق وبقي بها ثلاث سنوات.

ولما عاد من إيطاليا في سنة ١٨٢٥ حاول استئناف التدريس بجامعة برلين، عساه أن ينجح هذه المرة، لكنه مني أيضاً بخيبة الأمل والاختفاق، فكان اسمه مسجلاً في برنامج المحاضرات، لكنه لم يقم بإلقائها.

وعاش في مدينة برلين وحيداً لا يحفل به إنسان، فيما يرى حواله ألوياً الشهرة ومشاعل المجد تحوم على رؤوس من وصفهم بـ «الدجالين والمهرجين من المفكرين». فحمله هذا على التفكير في مغادرة هذه المدينة البغيضة إليه - برلين - فانتهاز فرصة انتشار مرض الكوليرا فيها سنة ١٨٣١ وأوى إلى مدينة فرنكفورت على نهر الماين حيث أمضى البقية الباقية من حياته.

وفي سنة ١٨٣٩ بدأ اسم شوبنهاور يشتهر بين الناس. فقد أعلنت الجمعية الملكية للعلوم في النرويج عن مسابقة في موضوع الحرية، فتقدم شوبنهاور برسالة بعنوان «حرية الإرادة» ففاز بالجائزة، وعين في أثر ذلك عضواً في هذه الأكاديمية.

وفي سنة ١٨٤٠ قدم رسالة أخرى إلى الجمعية الملكية للعلوم في الدانمارك، بعنوان: «أساس الأخلاق»، لكنها لم تحصل على جائزة، لأن الأكاديمية جزعت من عنف الهجمات التي صبها على فشته وهيجل. لكن نجم شوبنهاور بدأ في التألق.

وفي سنة ١٨٤٨ كانت الثورات تعم أوروبا كلها، ومدينة فرانكفورت نفسها. فلما كان شوبنهاور محباً للنظام، لا يريد أن يعكر عليه صفو حياته الهادئة شيء، فقد أيد إخماد هذه الاضطرابات بكل قوة وعنق، حتى أنه أوصى بثروته لصندوق مساعدة الذين دافعوا عن النظام في سنة ١٨٤٨ و١٨٤٩، ثم ولأبنائهم اليتامى، وهو الصندوق الذي أسس في برلين.

ومن سنة ١٨٥٣ بدأت شهرة شوبنهاور في الاستفاضة في أوروبا كلها، فنشرت «مجلة وستمنستر» مقالة عنه ترجمها لندنر Lindner إلى الألمانية ونشرها في مجلة فوس Voss.

وفي سنة ١٨٥٤ نشر فراونشتيت عرضاً كاملاً لمذهبه.



صنع العقل. والمادة من ناحية هي العلية، وبالتالي هي شكل من الشكول القبلية للعقل أو الشكل الوحيد القبلي له. ويقول عنها بصراحة أنها «بالنسبة إلى العقل فحسب، وبواسطة العقل وحده ولا وجود لها إلا في العقل».

يبد أنه من ناحية أخرى ينظر إليها بعين العالم الطبيعي أو الفيزيائي، فيصور لها وجوداً مستقلاً، وكأنها الشيء في ذاته.

ولهذا فإن في فكرة شوبهور عن المادة تناقضاً واضحاً.

## ٢ - العالم إرادة:

ويتجلى هذا التناقض أوضح حين نرى شوبهور يقوم بطفرة فينتقل مباشرة من «الذات» باعتبارها عقلاً يفكر ويمثل تبعاً لمبدأ العلة الكافية، وبالتالي يصنع الوجود الخارجي بأكمله. نقول أنه ينتقل إلى «الموضوع» باعتباره «الإرادة» التي هي - في نظره - الجوهر الباطن والسر الأعظم لهذا الوجود. وما الوجود في الواقع إلا التحقق الموضوعي للإرادة.

ذلك أن الإنسان ليس عقلاً فحسب، بل هو فرد في هذا العالم يمتد بجذوره فيه على هيئة بدن (جسم).

والبدن هو «الإرادة» منظورا إليه من باطن، و«الإرادة» بدورها، البدن منظورا إليه من خارج. ولهذا فإن كل حركة للبدن هي حركة للإرادة، والعكس بالعكس. إن الإرادة والبدن سيان، أو شيء واحد له مظهران: مظهر مباشر هو الإرادة، ومظهر غير مباشر هو البدن. وفعل الإرادة هو بعينه فعل الجسم، أي أن الإرادة والفعل أمر واحد، وإنما النظر العقلي هو الذي يفصل بينهما. لأن فعل البدن (أو الجسم) ليس إلا فعل الإرادة بعد أن تحقق موضوعاً، أعني أصبح منظورا إليه من جانب الامتثال. وتبعاً لهذا فإنه ليس بين البدن والإرادة صلة العلية، لأن هذه الصلة لا تقوم إلا بين شيئين متمازين، وليست الحال ها هنا كذلك.

والإرادة هي جوهر وجود الإنسان. ففيها يجد الإنسان بالتأمل الباطن المباشر الجوهر الباطن الحقيقي للإنسان، والذي لا يمكن أن يفنى، وهي البذرة الحقيقية الوجودية في الإنسان، وبالجملة، فإن الإرادة هي «الشيء في ذاته». والإرادة هي الجوهر الخالد غير القابل للفناء عند الإنسان، ومبدأ الحياة فيه.

والآن بأي معنى يفهم شوبهور «الإرادة»؟ إذ يبدو من وصفه لها أنها تختلف عما نفهمه عادة من معنى هذه الكلمة. فنحن نفهم من الإرادة أنها قوة نفسية تأتمر بالعقل وتصدر في

أو المبدأ المنطقي، أي القوانين المنطقية للذهن. والعيان المجرده يتأخرها مبدأ «الوجود»، أو المبدأ الرياضي، أي الزمانية والمكانية. والمشيئات يتأخرها مبدأ «الفعل» أو المبدأ الأخلاقي، أي الباعث. وكل مبدأ من هذه المبادئ الأربعة مستمد من ملكة عقلية خاصة: فمبدأ الصيرورة له ملكة «الذهن»، ومبدأ المعرفة له ملكة «العقل»، ومبدأ الوجود له ملكة «الحساسية». ومبدأ الفعل له ملكة «الحس الباطن» أو «الوعي الذاتي».

لكن هذه المبادئ ليست مستقلة الواحد عن الآخر، بل هي أشكال مختلفة لمبدأ واحد هو مبدأ العلة الكافية. ولهذا لا يسميها شوبهور باسم المبادئ الأربعة، بل يقول عنها: «الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية» وبهذا الاسم سمي رسالته للدكتوراه. فشم مبدأ - أو أصل واحد اذن، له أربعة فروع لكن أهم هذه المبادئ هو مبدأ الصيرورة (أو التغير). ولهذا كرس له كثيراً من التدقيق والنظر، فقال ان الظواهر مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً حتى ان كل شيء يتعين بشيء آخر، وكل ظاهرة تسبقها علة أو ظاهرة هي السبب في حدوثها. فكل تغير يجيل إلى آخر سابق عليه، وهكذا إلى غير نهاية، سلسلة العلل متصلة. ومعنى هذا أنها بالضرورة أزلية أبدية، أي لا بدء لها ولا نهاية. لهذا يسخر شوبهور من كل هذه التعبيرات التي استخدمها الفلاسفة المتأهلون مثل: العلة الأولى، علة ذاته، المطلق، وما شابه ذلك من عبارات فيها إنكار للتسلسل العلي المتصل.

وللعلة أنواع ثلاثة: علية لا عضوية، وعلية عضوية، وعلية حيوانية إنسانية. والأولى هي العلية بالمعنى الأصيل، والثانية هي المنهج أو المؤثر، والثالثة هي الباعث. وتمتاز العلية التي من النوع الأول بالتناسب بين العلة والمعلول في الدرجة، أعني أن العلة في حالة الأشياء اللاعضوية: من آلية وفيزيائية وكيميائية، تتج من الأثر بقدر ما فيها، فيحدث في العلة من التغير بقدر ما في المعلول مما تحدثه هي، ولذا يمكن قياس درجة التأثير بحسب درجة المؤثر، وبهذا تختلف العلية العضوية عن العلية اللاعضوية. إن مقدار العلة وقوتها في حالة العلية العضوية لا يتناسب ومقدار المعلول وقوته، ولا يمكن قياسه به، وإنما تؤدي قوة العلة إذا كبرت إلى القضاء على المعلول أو التأثير الذي يمكن أن ينتج. ومن كلتا العليتين تتميز العلية الحيوانية الإنسانية. ففي هذه الحالة الأخيرة لا حاجة إلى التماس بين العلة والمعلول من أجل إنتاج الأثر.

ونظرة شوبهور إلى المادة نظرة مثالية، إذ يجعل المادة من

على نظرة العقليين إلى العقل باعتبار أنه هو الواقع الموجود، وهو قال عن «الشيء في ذاته» أنه «فكرة» أي مسألة نظرية فحسب.

وثمة خاصية أخرى للإرادة، إلى جانب اللامعقولية، هي الوحدة. وشوبهور يمضي في تأكيد وحدة الإرادة في الوجود كله، إلى حد القول بوحدة الوجود على طريقة الفيدا والايالين واسينوزا، ثم معاصريه من الألمان، خصوصاً شلنج. وقد كانت مقدمات مذهب شوبهور تقضي بالضرورة إلى وحدة الوجود. إن الإرادة - عند شوبهور - وحدة، لكن لا بالمعنى العددي، ولكن بالمعنى الوجودي، والمعنى العددي هو الذي يقال في مقابل الكثرة، أما المعنى الوجودي فيقال على سبيل الإطلاق، لا نسياناً، وبدل على البساطة وعدم القابلية للتجزئة والانقسام، وهي الحضور في كل مكان ونسبة واحدة في الشيء الضئيل كما في الشيء العظيم، إذ لا معنى لهذه التفرقة بالنسبة إليها، فإن هذه التفرقة لا تقوم إلا بالنسبة إلى الممتد في المكان، والإرادة ليست ممتدة ولا متميزة فلا يمكن أن يقال إذن أن مقداراً صغيراً منها يوجد في الحجر، ومقداراً أكبر في الإنسان. وإنما هي حاضرة في كل جزء ونسبة واحدة وبلا تجزئة ولا انقسام.

فشوبهور إذن من القائلين بوحدة الوجود بالمعنى الفلسفي الخالص، لا بالمعنى الديني، أعني بمعنى أن هذا الوجود له مبدأ واحد ووحدة مطلقة في ذاته، وإن تعددت المظاهر التي يتحقق عليها موضوعياً. وهذا المبدأ هو الإرادة، الإرادة العمياء المنطفعة. ونراه ينكر وحدة الوجود بالمعنى الديني، أي بمعنى أن العالم هو الله الواحد وما الأشياء الحسية إلا مظاهر متعددة لوحده المطلقة. ويسوق البراهين التالية: (الأول) أن «الله» غير الشخص ليس بالله، بل هذا تناقض في الحدود غير معقول ولا مفهوم. ولهذا فإن وحدة الوجود بالمعنى الديني هي في نظر شوبهور «تعبير مؤدب» ولفظ مهذب لكلمة: «الحاد». (الثاني) لأن وحدة الوجود بالمعنى الديني تتناقض مع الكمال الواجب لله، وإلا فما هذا الإله الذي يظهر في صورة هذا العالم الفاسد الرهيب، وفي شخص الملايين التعسة المعذبة وكأنهم زنوج عبيد محكوم عليهم بأشق الأعمال بلا غاية ولا فائدة؟! (الثالث) لأن الأخلاق لن يكون هناك مبرر لوجودها داخل مذهب يقول بوحدة الوجود. فلم يكن في وسع شوبهور، واتجاهه الأصلي أخلاقياً، أن يقول بمثل هذا المذهب.

فهو إذن يقول بوحدة الوجود، ولكن بمعنى خاص، هو المعنى الفلسفي الخالص.

أفعالها عن بواعث يملها العقل بأحكامه. ولكن «الإرادة» عند شوبهور غير عاقلة، أو إن شئت فقل أن العقل ثانوي بالنسبة إليها. فما عسى هذه الإرادة العمياء إذن أن تكون؟.

هنا يجب أن نفرق بين الإرادة بالمعنى العام، وبين الإرادة المحدودة بالبواعث والتي يسمونها «الاختيار» - فهذه الأخيرة هي وحدها العاقلة، أما الأولى فليست عاقلة، لأن الإرادة المختارة تؤدي عملها تبعاً لبواعث والبواعث امتثالات، والامتثالات مركزها المخ، والأجزاء التي تتلقى أعصاباً من المخ هي وحدها إذن التي تخضع للبواعث. والحركة التي يقوم بها الإنسان على أساس هذه البواعث هي وحدها المتسببة إلى الإرادة المختارة. أما الأفعال التي لا تصدر عن بواعث فتتسبب إلى الإرادة بوجه عام. ولهذا فإننا نضيف الإرادة، بهذا المعنى، إلى الكائنات التي لا امتثالات لها، أي إلى الجمادات، أعني أن في وسعنا التوسع في معنى الإرادة لدرجة أن نضيفها إلى كل موجود. فالقوة التي بها ينمو النبات، ويتطور المعدن، والتي توجه الأبرة المغنطة صوب الشمال، والتي بها تتجذب الأجسام، أو تتناثر، أو تنجذب إلى مركز الأرض في الجاذبية، هذه القوة هي الإرادة وقد تحققت في مظاهر متعددة.

ويؤكد شوبهور أولوية الإرادة على العقل لأسباب عديدة لا مجال هنا لحصرها (راجع كتابنا «شوبهور» ص ١٩٤ - ٢٠٣) ويقول عن نفسه أنه أول من قال بالترعة الإرادية، أي تلك التي تجعل من الإرادة، لا من العقل والمعرفة، الجوهر الحقيقي الباطن للشخصية. وقبله كان ينظر إلى العقل على أنه هو الجوهر.

وينزعه المتطرفة هذه في تغليب الإرادة على العقل، بدأ شوبهور تياراً جديداً قوياً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وهو التيار الذي قضى على سيادة العقل، وجعل للإرادة السيادة في الحياة النفسية وفي الوجود كله بوجه عام. فلم يعد الوجود تطوراً للفكرة المطلقة أو اللوغوس (العقل) كما هي الحال عند هيجل، الذي كان في تعارض حادٍ مع شوبهور. وفي هذا تفسير لكراهية هذا الأخير لهيجل كراهية متطرفة. ولم يعد النظر إلى الوجود على أنه يسير على قواعد منطقية عقلية محكمة، باعتبار أن العقل يحكمه ويسوده، كما كان الميل إلى هذا واضحاً كل الوضوح عند العقليين ومن بينهم كنت الذي كان مع ذلك نقطة ابتداء اللامعقول حينها جعل «الشيء في ذاته» غير خاضع للعقل، وإن لم يستخلص المضمون النهائي لهذا القول، بل ظل

## ٣ - ارادة الحياة:

الارادة إذن اندفاع أعمى بلا غاية ولا هدف، لكن نحو ماذا؟

تأمل هذا العالم وما يجري فيه . فماذا ترى؟ ترى اندفاعا إلى الوجود، وتدافعا من أجل البقاء، وكائنات تتوثب في نشوة وحماسة فائضة مؤكدة لذاتها في العيش، وصائحة ملء فيها: الحياة، الحياة! إنها تعبر إذن عن شعور واحد هو الشعور بالحياة، وتنساق في تيار واحد هو سياق الحياة، ومجدوها ويدفعها دافع هو دافع الحياة. فهي إذن لا تمثل غير إرادة واحدة، ألا وهي: إرادة الحياة، وإن تعددت المظاهر التي تتخذها والشكول التي تعلن بها عن نفسها، واللغات التي تتحدث بها. وإلا، فعلام كل هذا الجزع ولماذا كل هذا العذاب والألم، والصراع والدفاع، والعطف والاشفاق - لماذا هذا كله يرتبط بحادث أو ظاهرة في غاية البساطة هي شعور حياة فردية بأنها مهددة بالفناء؟ انه لسبب واحد هو إرادة الحياة. وإذا قلت ان هذا شعور ذاتي، فما الدليل على أنه شعور موضوعي عام في كل الوجود؟ والجواب هو أن أدعوك للتأمل ببصرك موضوعيا في الطبيعة بجميع درجاتها، فسترى حينئذ في الطبيعة كلها غاية واحدة هي حفظ النوع. فما نشاهد من إفراط شديد في إنتاج البذور، وعنف قلق في الغريزة الجنسية، ومهارة فائقة في تكييف هذه الغريزة مع جميع الأحوال والظروف والتجائها إلى أغرب الوسائل وسلوكها أوعر السبل من أجل مقاصدها، وما يبرز في حب الأمومة من إثارة يكاد أن يصل عند بعض الأنواع الحيوانية حد تفضيل الابن على الذات - كل هذا يدل على أن غاية الطبيعة في كل سيرها ونضالها غاية واحدة هي حفظ النوع. أما الفرد فلا تكاد الطبيعة أن تحفل به في ذاته، وإنما كل قيمته عندها أنه وسيلة من أجل الاحتفاظ بالنوع، حتى إذا ما أصبح غير قادر على تحقيق ذلك، قلقت به إلى الفناء.

تلك هي العلة في وجود الفرد. فما العلة في وجود النوع؟ هذا سؤال لا تقدم لنا الطبيعة عنه أي جواب. فمن العبث أن ينشد المرء في هذا التدافع المستمر والاضطراب المتصل في حومة الحياة - غاية يمكن أن يوفض إليها شيء من هذا الصراع، لأن زمان الأفراد وموتهم يتفقان بأسرها في الاحتفاظ بالبقاء، بقاء الفرد في نفسه، وفي ذريته من بعده، أي في الاحتفاظ بالنوع.

وإن شئت دليلا أوضح، فانظر إلى حياة كل نوع في الطبيعة تر أنها لو كانت لغاية معقولة لأمرع كل نوع في

الخلاص منها بكل قواه. وإلا فأية غاية تلك التي ينشدها حيوان مثل الخلد، تلك الدابة العمياء التي تعيش تحت الأرض، ولا عمل لها طوال حياتها غير أن تحفر - بمشقة - الأرض بواسطة أقدامها الضخمة القلطاحة، ولحيا في ليل مستمر، لأن عيونها الجنيبية لا غاية منها إلا الفرار من الضوء، حتى أنها لتمد الحيوان الليلي الأول؟! انها لا هدف لها سوى الغذاء والجماع، أي ما يحفظ النوع فحسب.

فما مصدر هذا التعلق الشديد بالحياة؟

ليس مصدره العقل والتفكير. فقليل من التأمل كاف لإقناعنا بأن الحياة ليست خليقة بشيء من الحب والاستمرار. وليس من المؤكد أن الوجود خير من اللاوجود، بل لعكس العكس أن يكون هو الصحيح، كما يبدو لنا لو أمعنا النظر بعض الامعان. ولو استطعت أن تسمى إلى قبور الموتى وتقرع أبوابها سائلا إياهم: هل يريدون العودة إلى الحياة؟ إذن لرأيهم ينفضون إليك رؤوسهم رافضين وإلا فعلام التعلق بهذه النزعة القصيرة التي يقضيها المرء في الوجود، والتي لا تبدو شيئا وسط تيار الزمان اللانهائي؟ وإنما هذا التعلق بالحياة حركة عمياء غير عاقلة، ولا تفسير لها إلا أن كياننا كله إرادة للحياة خالصة، وأن الحياة، تبعاً لهذا، يجب أن تعدّ الخير الأسمى، مهما يكن من مرارتها وقصرها واضطرابها، وأن هذه الإرادة في ذاتها وبطبيعتها عمياء خالية من كل عقل ومعرفه. أما المعرفة، فعل العكس من ذلك أبعد ما تكون عن هذا التعلق بالحياة. ولهذا تفعل العكس: تكشف لنا عما لهذه الحياة من ضالة قيمة. وبهذا نحارب الخوف من الموت. وأصلق شاهد على ذلك أننا نمجد من يقبلون على الموت في شجاعة وثبات، بعد أن أقنعهم العقل أن الحياة عبث لا يليق بالعاقل الاستمرار فيه، وننكر فعل من لا يتغلب العقل عنده على إرادة الحياة فيتعلق بها بأي ثمن، ويمتلئ جزعاً وخوراً واضطراباً حينها يتعرض له، بله لخطره.

ويتناول شونهور مشكلة الموت فيقرر أن الموت لا يصيب إرادة الحياة، وإنما يتعلق بمظاهرها العرضية الزائلة كي يحددها باستمرار. أما إرادة الحياة فخالدة أبد الدهر. والطبيعة قد ضمنت لها الخلود بواسطة أداة قوية تلعب الدور الأكبر في الحياة العضوية، وهذه الإرادة هي الغريزة الجنسية. ففيها مظهر من أوضح وأعنف مظاهر توكيد إرادة الحياة لنفسها، لأن معناها هو أن الطبيعة مهمومة بحفظ النوع باستمرار. وإن في شدة هذه الغريزة وكونها أقوى الغرائز، ما يدل بجلاء على أن توكيد إرادة الحياة هو سر السر في الطبيعة. أجل، انها ليست الأساس في

هذا الوجود هو الشقاء؟ أجل، فإن السعادة النسبية التي قد يجتدل إلى البعض أنهم يشعرون بها إن هي الأخرى إلا وهم، فما هي إلا الإمكانية المعلقة التي تضعها الحياة أمامنا، على سبيل الإغراء بالبقاء في هذا الشقاء، وهي السراب الكاذب الذي يجتأ على الحرص عليها ويحدونا إلى التعلق بما فيها. إنها تعبت بنا عبثاً منكرأ مروعاً، تعد ولا ترعى العهود، وتغري لكن تشعر بخيبة الأمل، وتلوح بالسعادة حياشة لنا إلى مهاوي الشقاء.

فإن كنت في شك من هذا، فتأمل أولاً: الزمان ليس الزمان هو الذي ينشب أظفار الفناء في كل موجود؟ أو لا يجعل كل سرور وكل سعادة إلى عدم وفقدان؟ يقول شوبهور: «إن الزمان هو الصورة التي تعطي لهذا العدم المائل في الأشياء مظهر البقاء الزائل، وهو الذي يقضي على ما بين أيدينا من مسرة واغتياب، بينما نحن نتساءل مذهولين: إلى أين ذهبنا؟ ألا أن هذا العدم نفسه هو العنصر الموضوعي الوحيد في الزمان، أعني ما يقابله في الجوهر الباطن للأشياء، وهو بهذا الجوهر الذي يعبر هو عنه».

ولنتظر ثانياً في طبيعة هذه السعادة التي يتحدثون عنها. فماذا نرى؟ ونحن نحس بالألم، لا بالخلو من الألم، وباهم، لا بالخلو من الهم، وبالجزع لا بالأمن. ونحن نشعر بالرغبة، كما نشعر بالجوع والعطش. لكن ما تلبث الرغبة أن تشبع حتى تصبح مثل تلك القطع من الحلوى التي تتلوق طعمها في الفم، ثم لا يكون لها وجود بالنسبة إلى الاحساس حينما يتلغ. ونحن نعاني في أشد الألم الخلو من الملاذ والمسرات، فنأسف عليها في الحال. أما زوال الألم فعلى العكس من ذلك: لا نحس به مباشرة حتى لو لم يعاودنا إلا بعد مدة طويلة. وكل ما نقدر عليه هو أن نفكر فيه لأننا نريد التفكير فيه عن طريق التأمل. فالألم والحزن هما وحدهما إذن اللذان يمكنهما أن يجدينا تأثيراً إيجابياً، وبالتالي أن يكشفنا عن ذاتيهما بنفسيهما. أما التمتع فعلى العكس من ذلك سلبياً خالصاً. ولهذا لا نستطيع أن نقدر الخيرات العظمى الثلاثة التي نحظى بها في الحياة، وهي: الصحة، والشباب، والحرية - طالما كنا مالكين لها. ولكي ندرك قيمتها، لا بد لنا من فقدها أولاً، لأنها هي الأخرى سلبية».

وكل لذة تتذبذب بين حالتين: حالة الألم قبل أن تدرك، وحالة الملل بعد أن تشبع. وكلتا الحالتين عذاب. ففي الملل يشعر الإنسان بالخلو، وعدم الاكتراث، والضجر. ونضال الملل أشق من نضال الألم، لأنه مجهول الموضوع فلا يعرف

الارادة ومصدرها، ولكنها العلة المهيمنة لظهورها وتحققها في الأعيان والموضوعات. ومن هنا كانت أهميتها الكبرى، وكان حرص الطبيعة على أن ييسر لها الأشباع بكل الطرق، حتى إذا حققت الكائنات غاية الطبيعة منها، وهي حفظ النوع، لم تكثر لوجودهم أو لفنائهم، لأن ما يعينها هو النوع، لا الفرد.

ونتيجة لهذا فإن شوبهور نظر إلى الحب نظرة جنسية خالصة لأنه يراه مرتبطاً كل الارتباط بالغريزة الجنسية، وهذه بدورها ترتبط بلادة الحياة على هيئة حفظ النوع. وقد كرس شوبهور لموضوع الحب فصلاً من أروع فصول كتابه الرئيسي: «العالم إرادة وامثال» وأكد فيه أن الحب مهما تسمى وتلطف ينبع من الغريزة الجنسية أو هو الغريزة الجنسية نفسها واضحة مشخصة. والزواج هو الآخر لا يقوم إلا من أجل تحقيق تلك الغاية، أعني حفظ النوع. وواهم كل الوهم من يزعم أنه يقوم أو يمكن أن يقوم على الحب الخالص الذي يؤدي إلى السعادة الشخصية لكلا الطرفين.

#### ٤ - الوجود خطيئة

شوبهور هو فيلسوف التشاؤم الذي اكتشف أن الوجود في جوهره شر، وحلول أن يفسر كل ما في الوجود من مظاهر تبعاً لهذا الأصل.

ذلك أن الوجود، كما قلنا، إرادة، والارادة مصدر الخطيئة. قال شوبهور: «لما انبثقت الارادة من عمائق اللاشعور كي تستيقظ على الحياة، وجدت نفسها، كفرد في عالم لا نهاية له ولا حدود، وسط حشد هائل من الأفراد المجتهدين المتألمين الضالين، ولما كانت منساقاة خلال حلم رهيب فاتها تفرع كي تدخل من جديد في لا شعورها الأصيل. وحتى تصل إلى هذه الغاية، كانت رغباتها غير متناهية ودعاواها لا تنقضي، وكل اشباع لشهوة يولد شهوة جديدة، ولا مرضاة أرضية قادرة على تهدئة جموحها ونوازعها، أو القضاء نهائياً على مقتضياتها أو تملة هاربة قلبها السحيقة».

فالإنسان يسعى جهده طوال عيائه، محتملاً أشد صنوف العذاب والالام، محضوفاً بالتعاب والمراقيل، باذلاً كل ما في وسعه من طاقة - وكل ما يحصله بعد هذا العناء كله هو أن يحافظ على هذه الحياة البائسة التافهة، بينما الموت مائل أمام عينه في كل فعل وفي كل آن. ألا يؤذن هذا كله بأن السعادة الدنيوية وهم يجب الاعتراف به، وبأن الحياة بطبعها شر، وبأن جوهر

## مراجع

عبد الرحمن بدوي: «شونهور» ط ١، القاهرة سنة ١٩٤٢، ط ٤ الكويت وبيروت سنة ١٩٧٩.

## شيشرون

## Marcus Tullius Cicero

فيلسوف وسياسي وخطيب روماني

ولد بالقرب من Arpinum في ٣ يناير سنة ١٠٦ قبل الميلاد. وظهر هو وأخوه كونتس Quintus منذ نعومة اظفارهما ولما شديدا بالمعركة جعل أباهما ينتقل بهما إلى روما حيث درس على يد كبار المعلمين فيها، وتذكر منهم أرخيلاس Archias الأنطاكي، الشاعر والنحوي اليوناني (ولد حوالي سنة ١٢٠ ق.م) وقد تولى شيشرون الدفاع عنه حين اتهم سنة ٦٢ ق.م بأنه ادعى كذبا أنه مواطن روماني. وبعد أن تلقى شيشرون، (صاحبنا هنا)، توجا الرجولة وهو الرداء الرسمي للمواطن الروماني وكان من الصوف الأبيض، درس على يدي اسقفولا Q. Mucius Scaevola، وبعد ذلك بسنوات، إبان الحرب الأهلية، درس على يد فدرس Phaetrus الابيقوري. وفيلون الذي من لارسا Philo of Larissa رئيس الأكاديمية الرابعة، وديودوتس الروافي وأبولونيوس مولون Molon. وبعد هذا التكوين الممتاز، ولدى انتهاء الحرب الأهلية بهزيمة حزب ماريوس، بدأ شيشرون في ممارسة مهنة الدفاع (المحاماة) في القورم الروماني. وأول خطبة باقية لدينا ألقاها في سنة ٨١ ق.م دفاعا عن P. Quintus

وفي سنة ٧٩ ق.م سافر إلى بلاد اليونان تحاشيا للقائد سولا Sulla وكان قد هاجمه، ثم لأنام دراساته، وفي أثينا عقد أواصر الصداقة مع أتيكوس Pomponius Atticus، تلك الصداقة التي استمرت حتى وفاته. ثم عاد إلى روما في سنة ٧٧، أي بعد عامين من إقامته في أثينا وبلاد اليونان. فاستأنف الخطابة في القورم بنجاح.

وفي سنة ٦٦ صار بريطور Praetor وفي أثناء توليه هذا المنصب ألقى الكثير من خطبه الشهيرة، ومنها خطبة في الدفاع عن قانون ماتليا الذي بمقتضاه عين بومبي قائدا للحرب المترداتية. ثم اختير فنصلا مع أنطونيوس C. Antonius في أول

الانسان كيف يصنئه، ولأنه مثير للتراخي وعدم الاقبال على شيء، فلا يقوى الانسان على الخلاص منه. وان تخلص منه فما ذلك إلا بإثارة رغبات جديدة تولد بدورها ألم الحرمان: فنحن ندور إذن في عجلة الألم باستمرار.

## مؤلفاته

سنة ١٨١٣: «حول الجذر الرباعي لمبدأ العلة الكافية».  
Über die vierfache Wurzel des Satzes vom zureichenden Grunde.

سنة ١٨١٦: «في الابصار والألوان»  
Ueber das Sehen und die Farben.

سنة ١٨١٩: «العالم إرادة وامثال»  
Die Welt als Wille and Vorstellung.

سنة ١٨٣٦: «حول الارادة في الطبيعة»  
Über den Willen in der Natur.

سنة ١٨٤١: «المشكلتان الرئيسيتان في الأخلاق»  
Die beiden Grundprobleme der Ethik.

سنة ١٨٥١: «الحواشي والبواقي»  
Parerga und paralipomena.

وبعد وفاته نشرت له الأبحاث التالية، نشرها يوليوس فراونشتيت في ليبسك سنة ١٨٦٤:

١ - «حول النساء» Ueber die Weber

٢ - «حكم في الحياة» Aphorismen zur Lebensweisheit.

٣ - «حول الموت» Ueber den Tod

٤ - «ميتافيزيقا الحب الجنسي» Metaphysik der Geschlechtsliche

٥ - «حول القراءة والكتب» Ueber Lesen und Bucher

٦ - «حول الكتابة والأسلوب» Ueber Schriftstellerei und Stil

٧ - «ترجمة كتاب جراتيان» Gracians Handorakel

وله مراسلات وأحاديث مع بكر وفراونشتيت وفون دورن وغيرهم.

لما مجموع مؤلفاته فالنشرة النقدية الجديدة لها هي التي نشرها دويسن Deussen في ١٤ مجلدا، وابتدأ نشرها في سنة ١٩١١ عند الناشر R. Piper في ميونيخ.

جميل واضح. وبعض آراء الفلاسفة أو المفكرين اليونانيين إنما وصلتنا عن طريق كتب شيشرون هذه.

كان شيشرون في اتجاهه الفلسفي أقرب إلى الشك، وكانت تلك نتيجة لمعرفة العميقة بتضارب المذاهب الفلسفية اليونانية لكنه لما كان أخلاقي النزعة، عملي الاتجاه، شأنه شأن كل أو جل المفكرين الرومان، فقد أدرك ما في نزعة الشك من خطر على الأخلاق والحياة العملية. لهذا جنح إلى المذهب الرواقي في الأخلاق، وألم بطرف من المذهب المشائي (الأرسطي).

فأخذ عن الرواقية قولها أن الفضيلة تكفي لتحصيل السعادة. وأخذ من المشائية تقديرها للخيرات الخارجية (من ثروة وصدقة وجاء الخ). ووافق الرواقية على ما ذهبوا إليه من أن الرجل الحكيم يجب أن يكون هادئ النفس خاليا من الانفعال، كما اعتق تعريف المشائية للفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين. وقال مع الرواقية أن الفضيلة العليا هي العمل، وليس النظر والفكر كما قال أرسطو.

وفي أمور الدين، كان شيشرون يرى المحافظة على الدين الشعبي لما في ذلك من فائدة للعامة من الناس. لكنه في الوقت نفسه دعا إلى تطهير الدين من الخرافات الغليظة، خصوصا تلك التي تنسب إلى الآلهة (وشيشرون كان مشركا وثنيا) أفعالا قبيحة.

كذلك دعا إلى المحافظة على الإيمان بالعناية الإلهية، وبخلود النفس الانسانية.

### مؤلفاته في الفلسفة والخطابة

إلى جانب خطب شيشرون ومراسلاته، يهمننا أن نذكر هنا كتبه في الفلسفة والخطابة:

١ - «في الحدود القصوى للخيرات والشروع» De Fini- bus bonorum et malorum له ترجمة فرنسية في مجموعة Les Belles Lettres في جزئين مع النص اللاتيني.

٢ - «التسكليات» Tusculanae Disputationes

له ترجمة فرنسية في نفس المجموعة، في جزئين مع النص

اللاتيني

٣ - «تقسيم الفن الخطابي»

له ترجمة فرنسية في نفس المجموعة مع النص

بناير سنة ٦٣ ق.م، وهو أرفع منصب سياسي في روما. فترك الحزب الشعبي، وانضم إلى الحزب الارستقراطي. وفي أثناء قنصليته وقعت مؤامرة كاتيلينا Catilina، وقد قضى عليها شيشرون بحزمه وحصافته. فلما انتهت مدة قنصليته، كان عليه أن يدافع عن نفسه ضد الحزب الشعبي وأصدقائه المتأمرين في مؤامرة كاتيلينا. وتحمل عنه قيصر ويومي وكراسوس. فاضطر إلى ترك روما قبل أن يتكلم به، وذلك في سنة ٥٨. لكن أصدقائه في روما سعوا إلى إعادته إلى روما، فعاد إليها في سنة ٥٧، لكنه عاش بعيدا عن أوار السياسة. وفي سنة ٥١ أرغم على الذهاب إلى قيليقية Cilicia حاكما عليها، لكنه عاد إلى إيطاليا قرب نهاية سنة ٥٠ ووصل إلى نواحي روما في ٤ يناير سنة ٤٩، أي في الوقت الذي اشتعلت فيه الحرب المدنية بين قيصر ويومي وبعد تردد، انضم إلى جانب يومي وعبر البحر إلى بلاد اليونان في يونيو سنة ٤٩. لكن قيصر هزم يومي في فرسالوس في سنة ٤٨. غير أن قيصر عفا عن شيشرون، ولما عبر قيصر إلى إيطاليا عند برنديزي عامل شيشرون بمودة كبيرة، وسمح له بالذهاب إلى روما.

وهنا اعتزل شيشرون الحياة العامة تماما، وانصرف إلى التأليف في الفلسفة والخطابة طوال ثلاث أو أربع سنوات، كتب فيها معظم إنتاجه الفلسفي.

لكن لما اغتيل يوليوس قيصر في ١٥ مارس سنة ٤٤ ق.م، عاد شيشرون إلى الحياة العامة، فصار على رأس الحزب الجمهوري، وراح يلقي الخطب النارية ضد انطونيوس. فكانت السبب في هلاكه، فلما تولت السلطة حكومة ثلاثية مؤلفة من أوكتافيان، وأنطونيوس وليديوس Lepidus في ٢٧ نوفمبر سنة ٤٣ ق.م، كان شيشرون على رأس قائمة المطلوبين. فحاول الفرار، لكن الجنود المرسلين في أثره لحقوا به في الطريق، وحاول عبيده الذين كانوا معه الدفاع عنه، لكنه طلب منهم الكف عن ذلك، وأسلم رقبته لهؤلاء الجنود فاحتزوا رأسه ويديه وبعثوا بها إلى روما، فأمر أنطونيوس بتعليقها في الميدان. وكان مصرع شيشرون في ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق.م.

### آراؤه الفلسفية

ليس لشيشرون آراء فلسفية أصيلة، ولا مذهب مبتكر. وإنما أهميته ترجع إلى قدرته على عرض الأفكار والمذاهب الفلسفية اليونانية للمقاريء الروماني (اللاتيني) بأسلوب مشرق



أويكن Rudolf Eucken. وافر تخرجه عين في سنة ١٩٠١ مدرساً حراً Privatdozent في تلك الجامعة.

وفي سنة ١٩٠٧ انتقل للتدريس في جامعة منشن. وهنا اتصل بفرائنس برنتانو ويكثير من تلاميذ هسرل، فبدأ يتأثر بمذهب الظاهريات، وظل متأثراً إلى حد كبير بهذا المذهب إلى أوائل العشرينات مع تضال مع هذه التأثير في السنوات الأخيرة من حياته.

وفي سنة ١٩١٠ ترك مهنة التدريس في جامعة منشن، ليكون كاتباً حراً، وأقام في مدينة برلين. فشرع في كتابة العديد من أبحاثه ومنها: «في الذحل والحكم التقوي الأخلاقي» (سنة ١٩١٢) وكتابه المشهور «في ظاهريات ونظرية مشاعر التعاطف وفي الحب والكراهية» (سنة ١٩١٣). كذلك أنجز في تلك الفترة، فترة برلين، كتابه الضخم: «الصور في الأخلاق وأخلاق القيم الموضوعية» (في مجلدين سنة ١٩١٣-١٩١٦).

ولما قامت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ أبدى حماسة قومية عارمة، وراح يمجّد الحرب ويمجّد ألمانيا وانتصاراتها، وفي سنة ١٩١٥ نشر كتاباً بعنوان: «عبقرية الحرب والحرب الألمانية»، وقد ذاع الكتاب ذيوماً هائلاً. وفي عام ١٩١٨ قام بمهمة دبلوماسية في جنيف، مكلفاً من وزارة الخارجية الألمانية، ومهمة مماثلة في لاهاي (هولندا) في سنة ١٩١٨.

فلما هزمت ألمانيا، اتبأت نفسه أزمة حادة دينية وسياسية. فتخل عن البروتستنتية وتحوّل إلى الكاثوليكية، وبدأ يشعر بنفور شديد من الحرب وأهوالها. وقد برر هذا التحول إلى الكاثوليكية في كتابه «في الخالد في الانسان» (سنة ١٩٢١).

وفي سنة ١٩١٩ عاد إلى التدريس في الجامعة، كما دعه جامعة كيلن Köln (كولونيا) ليكون أستاذاً ذا كرسي فيها. وبدأ يتجه خصوصاً إلى علم الاجتماع، ووسميولوجيا المعرفة على وجه أخص. فأصدر كتابه «دراسات في علم الاجتماع وفي نظرية النظريات في العالم» (سنة ١٩٢٣-١٩٢٤) وقد أصبح عنوانه في سنة ١٩٢٦: «أشكال المعرفة وعلم الاجتماع».

وفي سنة ١٩٢٤ حدث تحول ثالث في تطوره الروحي: إذ أطرح الكاثوليكية، وأطرح مذهب المؤلثة، وجنح إلى مذهب وحدة الوجود. وقد عبر عن اتجاهه الجديد في كتابه: «مكانة الانسان في الكون» (سنة ١٩٢٨)، وفي كتابه الذي صدر بعد

٤ - «في الخطيب» De Orature له ترجمة فرنسية مع النص في نفس المجموعة في ثلاثة أجزاء.

٥ - «الأكاديميات» Academica

٦ - «في طبيعة الآلهة» De Natura Deorum

٧ - «في القوانين» De legibus

٨ - «في القدر» De Fato

٩ - «في الصداقة» De Amicitia

١٠ - «في الشيخوخة» De Senectute

١١ - «في الكهانة والتنبؤ بالغيب» De Divinatione

١٢ - «في الفضائل» De Virtutibus

١٣ - «في الجمهورية» De Republica

١٤ - «في الواجبات» De Officiis

١٥ - «حلم شيبون» Somnium Scipionis

وقد نشر مجموع مؤلفاته C.F. Müller من سنة ١٨٨٠

إلى سنة ١٨٩٦، كما نشرت في مجموعة Oxford Classical Textes

### مراجع

— Cicéron et ses amis

— F.R. Cowell: Cicero and the Roman Republic 1948.

— Pauly-Wissowa Real-Enzklopädie, Vol. VII A, Stuttgart, 1939.

— H.A.E. Hunt: The Humanism of Cicero. Melbourne, 1945.

### شيلر

#### Max Scheler

فيلسوف ألماني برز في فلسفة القيم.

ولد في ٢٢ أغسطس سنة ١٨٧٤ في مدينة منشن (ميونيخ) عاصمة إقليم بافاريا في جنوبي ألمانيا. وكان أبوه مسيحياً بروتستنتياً ينحدر من أسرة عريقة مقامها الأصلي في كويرج (في بافاريا) برز فيها رجال دين بروتستنت ورجال قانون. أما أمه فكانت يهودية.

درس الفلسفة في جامعة بينا على يد الفيلسوف رودلف



وفي تصوره للشخصية يعارض شيلر تصور الشخصية كجوهر عند الاسكلايين، كما يعارض فكرة الشخصية عند كنت، اذ يأخذ على كلا الموقفين أن تصورهما للشخصية تصور صوري (شكلي) محض. فكنت يتصورها نشاطاً عقلياً، والاسكلايون يتصورونها جوهرًا عاقلًا. وبدلاً من ذلك يرى شيلر أن نقطة الارتكاز في مفهوم الشخصية هي الفعل. والشخصية هي وحدة الأفعال المتنوعة التي يؤديها الانسان. وحيث لا تتنوع الأفعال لا توجد مشكلة للشخصية. ولهذا فإن إله أرسطو، وهو الفعل المحض الواحد، لا يوصف بالشخصية.

## ٢ - فلسفة القيم:

وهذا يقودنا إلى فلسفة القيم عند ماكس شيلر.

إن القيم - في نظر شيلر - تعطى لنا في تجربة عاطفية قبلية. ففي التجربة المباشرة أدرك، بالوجدان، الجمال في لوحة فنية، أو السحر في شخص، أو حُسن المذاق في فاكهة. ولا أحتاج إلى توسط لأدرك أن سلوكاً ما هو سلوك شجاع، أو أن موقفاً ما يتسم بالنبل. لكن ينبغي أن نميز هذا اللون من التجربة للقيم - من التجربة الحسية. فما أحسه في اللوحة الفنية من جمال ليس حصيلة الابصار فحسب، بل هو أكثر من مجرد إدراك ألوان وأضواء. وما أدركه في شجاعة المحارب ليس هو حركات يديه وجسمه، بل السورة (الوثبة) التي ينطلق بها في القتال. وهذا لا يتنافى مع كون القيمة لا بد أن توجد في حامل يحملها: الشجاعة في الشجاع، الجمال في اللوحة، النبل في النفس، الخ. لكن ليس معنى هذا أن تجربة القيمة هي بعينها تجربة حامل هذه القيمة. فالأولى ليست تجربة حسية، بينما الثانية تجربة حسية. ولهذا ينبغي أن نقرر أن القيم في وجودها مستقلة عن حواملها. والدليل على ذلك أننا نستطيع أن ندرك أن لهذا الشيء قيمة أعلى من ذلك الشيء، دون أن نعرف كليهما بالدقة والتفصيل. وصفات القيم لا تتغير بتغير الأشياء. فكما أن الأزرق لا يصير أحمر إذا دهنا كرة زرقاء باللون الأحمر، كذلك القيم ونظامها الترتيبي لا تتأثر إذا غيرت حواملها من قيمتها. فالغذاء يظل غذاءً، والسّم سماً، على الرغم من أن بعض الأجسام يمكن في آن واحد أن تكون سامة بالنسبة إلى هذا التركيب العضوي، ومغذية بالنسبة إلى ذلك التركيب العضوي الآخر. وقيمة الصداقة لا تهدر بسبب كون صديق معلوم قد تبين أنه صديق زائف وأنه خاني، (الشكلية في الأخلاق) ص ١٤، ترجمة فرنسية ص ٤٣، باريس سنة ١٩٥٥).

وفاته بعنوان: «الانسان في عصر البشرية» (سنة ١٩٢٩).

ثم انتقل من كيلن ليكون أستاذاً في جامعة فرنكفورت في سنة ١٩٢٨. وتوفي في ١٩ مايو سنة ١٩٢٨ وهو دون الرابعة والخمسين من عمره.

## فلسفته

كان شيلر بطبعه قوى الانفعال، مرهف الاحساس، غني العواطف. وهذه الطبيعة القوية الانفعالات جعلت أفكاره متقلبة كثيرة التحول، مع نظرة نفسانية نافذة في أعماق النفس البشرية. وكان للمنهج الفينومينولوجي تأثيره البالغ في تحليلاته النفسية العميقة. وفي نفس الوقت كانت فلسفة القيم تحتل مركز الصدارة، إلى جانب الفلسفة الحيوية، في الفكر الألماني. فخاض شيلر في تيارها وأسهم بنصيب وافر في تشييدها وإتمامها.

ويمكن تقسيم تطور شيلر الروحي إلى ثلاث مراحل:

١ - المرحلة الظاهريّة

٢ - المرحلة الكاثوليكية

٣ - المرحلة التي تسودها وحدة الوجود.

ونعرض فيما يلي المعاني الأساسية في فلسفة ماكس شيلر:

## ١ - الشخصية:

يدور الكثير من أفكار ماكس شيلر حول الشخصية الانسانية، باعتبار أن الفرد هو الذات الأصلية الحقيقية الحافلة بالمعاني. لكنه سرعان ما يتبين الرابطة الوثيقة بين الشخصية الفردية وبين الله، لكن لا على أساس «أن يحب الله» Amare Deum، بل «أن يحب في الله» Amare in Deum ومن ثم يقع الفرد بين خطرتين: الأولى هو تأليه الانسان، والثاني انزال المطلق إلى مستوى المتناهي، والمتعالي إلى مستوى المحايث. وفي الكفاح بين، أو مع، هذين الخطرتين تقوم مأساة الانسان.

وشيلر يؤكد في الانسان جانب الانفعال والعاطفة، ويريد أن يتجاوز به نطاق العقل المنطقي. وفي سبيل ذلك يحلل طائفة من الظواهر الروحية العاطفية مثل الاستشعر المتابع Nachfühlen والاستشعار النافذ Einfühlen، والحب والكراهية، والزهة والتوبة، والاهتمام، الخ. ومن ثم تنشأ مهمة وضع «ظاهريات للعواطف مرتبطة بالقيم Werte، وهي أخلاقية في المقام الأول.

ويرى شير أن القيمة الأخلاقية مرتبطة بسلم القيم ويتحقق كل واحد منها. فالفعل يكون خيراً إذا حقق قيمة إيجابية، أو إذا حقق قيمة عليا، ويكون شريراً إذا حقق قيمة سلبية أو قيمة دنيا. كذلك يكون الفعل خبيراً إذا منع من تحقيق قيمة سلبية أو عليا، ويكون شريراً إذا اعترض تحقيق قيمة إيجابية أو عليا.

والقيمة توجد في ذاتها، حتى لو لم تتحقق في العالم المحسوس. وتحققها إذن لا يغير شيئاً من وجودها الحق، بل يخلق قيمة جديدة هي الخير. فالعمل الفني يظل جميلاً، سواء تحقق في المرمر أو الحجر أو بالألوان المائية أو بالفحم من ناحية أو ظل مجرد فكرة في ضمير الفنان. ولا يقال أنه أجل في الفكر منه في التحقيق، أو العكس. لكن الفنان يصير فاعلاً أخلاقياً بالقدر الذي به ينتقل إلى الواقع المحسوس الفكرة التي تمثلها في خاطره، إنه بهذا يحقق قيمة أخلاقية. ومعنى هذا أن الخير والشر لا يقالان إلا على فعل التحقيق. وبدون الفاعل - الذي هو العلة الأولى للفعل الطيب أو الخبيث - لن تكون ثم قيمة أخلاقية.

كيف نترك أن قيمة أعلى من أخرى؟ يجيب شير قائلاً إن ذلك يتم في تجربة عاطفية. والعاطفة الممتازة التي فيها نترك سمو قيمة على أخرى هي التفضيل. يقول شير: «إن مملكة القيم تخضع بأسرها لنظام خاص بها. وللقيم ترتيب تصاعدي hiérarchie بفضلها تكون قيمة ما «أسمى» أو «أحط» من قيمة أخرى».

ويقدم شير ثبناً بمراتب القيم مصنفاً على النحو التالي:

(أ) قيم الشخصية وقيم الأشياء: ويقصد بقيم الشخصية كل القيم التي تتعلق مباشرة بالشخصية نفسها. ويقصد بقيم الأشياء كل القيم المتعلقة بالأشياء ذات القيمة.

(ب) قيم الذات وقيم الغير: وينبغي عدم الخلط بينه وبين التقسيم السابق، إذ قيم الذات وقيم الغير يمكن أن تكون قيم شخصية وقيم أشياء.

(ج) قيم الفعل، وقيم الوظيفة، وقيم رد الفعل. ويلاحظ أن قيم الفعل أسمى من قيم الوظيفة، وأن هذه وتلك هي أسمى من قيم رد الفعل والاستجابة المحض.

(د) قيم حال النفس، وقيم السلوك، وقيم النجاح.

(هـ) قيم القصد، وقيم الحال.

(و) قيم الأساس، وقيم الشكل، وقيم العلاقة.

(ز) القيم الفردية، والقيم الجماعية.

(ح) القيم بذاتها، والقيم بالتبعية.

وتدرج شير في ترتيب القيم على النحو التالي:

١ - قيم الملأتم أو اللذيذ.

٢ - قيم الحساسية الحيوية.

٣ - القيم الروحية مثل القيم الجمالية، وقيم العدالة،

وقيم المعرفة

٤ - قيم ما هو مقدس. والقيم المتدرجة تحت هذه

الكيفية ذات طابع خاص وهو أنها لا توجد إلا في الأمور التي يقصد منها أن تكون موضوعات مطلقة.

٣ - فلسفة الدين:

يُميّز ماكس شير بين ثلاثة أنواع من العلم بالله وهي:

المعرفة الميتافيزيقية العقلية بالله، المعرفة الطبيعية بالله، المعرفة الوضعية بالله.

وتقوم المعرفة الميتافيزيقية العقلية على التمييز بين الوجود

النسبي والوجود المطلق أي الموجود بذاته *ens a se* والأول يجمع

بين الوجود والعدم، وهو يتوقف على الوجود المطلق والوجود

المطلق هو العلة الأولى، وعلة العالم، بينما الوجود النسبي وجود

ممكن عارض *Kontingent*.

أما المعرفة بالله الطبيعية والوضعية فتقومان على الفعل

الديني، وهو فعل نسيج وحده، لا يمكن رده إلى أية ظاهرة

نفسية، ولا يستطيع المرء تعريفه إلا بواسطة سرد أنواع

الموضوعات المعطاة في هذا الفعل، وهي موضوعات من نوع ما

هو الهي، والالهي مطلق ومقدس.

وفينومينولوجيا الدين تسعى لفهم الطبيعة النهائية لما هو

الهي ومقدس. ودراسة تجليات الألوهية في الشؤون الإنسانية،

وتحليل فعل الايمان. الانسان بطبعه يبحث عن الله، إنه

باحث عن الله *Gottesucher* الشعائر الدينية مثل الصلاة

والتضحية، تنبع من صميم الانسان. والله يقابل الانسان في

منتصف الطريق إليه.

٤ - نظرية المعرفة وسوسولوجيا المعرفة:

أما فيما يتعلق بنظرية المعرفة، فإن شير يقرر أنه لا توجد

معرفة محضة وذلك أن المعرفة لا توجد لذاتها، أي لمجرد المعرفة

والتأمل، بل هي تهدف دائماً إلى الفعل، إلى بناء الوجود

- Leipzig, 1900.
- *Der Formalismus in der Ethik und die materiale Wertethik.*
- *Vom Umsturz der Werte* 2 Bde, Leipzig, 1919.
- *Wesen und Formen der Sympathie*, Halle, 1923.
- *Vom Ewigen in Menschen.* Leipzig, 1921.
- *Schriften zur Soziologie und Weltanschauungslehre*, 3 Bde, Leipzig, 1924.
- *Die Wissensformen und die Gesellschaft*, Leipzig, 1926.
- *Die Stellung des Menschen im Kosmos*, Darmstadt, 1928.
- *Mensch und Geschichte*, 1929.
- *Nachgelassene Schriften*, Bd. 1 *Zur Ethik und Erkenntnistheorie.* Berlin, 1933.
- وقد أشرفت ماريا شيلر على طبع مجموع مؤلفاته بعنوان: *Gesammelte Werke*, 10 Bde. وقد ظهرت في برن Bern بسويسرة.

## مراجع

- *Erich Przywara: Religionsbegründung: Max Scheler*, J.H. Newman, Freiburg in Breisgau, 1923.
- *J. Heber: Das problem der Erkenntnis in der Religionsphilosophie Max Schelers.* Hamburg, 1931.
- *G. Kraenzlin: Max Schelers phänomenologische systematik.* Leipzig, 1934.
- *T. Krsack: Max Scheler*, Berlin, 1949.
- *Maurice Dufour: La philosophie de Max Scheler.* Paris. P.U.F.
- *Maurice Dufour: La philosophie de la religion chez Max Scheler*, Paris P.U.F.

الانساني. وليست المعرفة علاقة ثابتة بين الانسان والوجود، بل ينبني أن تفسر على أنها نوع من السلوك المتكيف الاجتماعي والتاريخي، بل والبيولوجي.

وتبعاً لذلك، يقسم شيلر المعرفة إلى ثلاثة أعماق، وفقاً لوظائفها:

١ - النمط الأول هو المعرفة العلمية، وهي تهدف إلى السيطرة على الطبيعة وضبطها واستغلالها تكنولوجياً. وهذه المعرفة تتناول الجزئيات.

٢ - والنمط الثاني يشبه ما يسميه أرسطو بـ «الفلسفة الأولى»، أي معرفة الماهيات ومقولات الوجود التي هي أعمّ المفهومات. ولا تقوم هذه المعرفة بالضرورة على موضوعات واقعية، بل قد تتناول أيضاً موضوعات خيالية: كما هي الحال في الرياضيات.

٣ - والنمط الثالث هو معرفة الوجود بما هو موجود، والنجاة والخلاص، وتبدأ هذه المعرفة بالسؤال عن طبيعة الانسان، وهي ليست ممكنة إلا بفضل النمطين الأول والثاني. والانسان يتصور على خمسة أنحاء:

١ - الأول لا يقوم على العلم ولا على الفلسفة، بل على الدين.

٢ - والثاني هو تصور الانسان على أنه عاقل *homo sapiens* . . .

٣ - والثالث هو الانسان الصانع *homo faber*، وتلك هي نظرية الوضعيين والبرجماتيين.

٤ - والرابع النظرة إلى الانسان المستمدة من تشاؤم شوبنهاور وتنظر إلى الانسان على أنه كائن مضمحل تخلى عن الحياة.

٥ - الخامس النظرة إلى الانسان على أساس الانسان الأعلى، وهي نظرة مستمدة من نيتشه.

## مؤلفاته

- *Die Transzendente und die psychologische Methode*





## الصانع

## Δημιουργός , Demiurge

اللفظ اليوناني معناه: صانع، صاحب مهنة؛ أو حرفه. أما أول من أدخله في الاصطلاح الفلسفي فهو أفلاطون في محاوره طيماوس حيث يتحدث عن «صانع» ينظم ويرتب العالم وفقاً لخطة كاملة وهو الذي يحول الفساد والقوضى الأزلية إلى كون منظم محكم. وشأنه شأن أي صانع إنساني، نجده ينظم مادة موجودة من قبل، ولا يتخلقها من العدم. وهو يشكل هذه المادة الأولى وفقاً لنموذج المصدر السرمدني المعقول. وأول ما يصنعه هو الآلهة الأخرى ونفس العالم والجزء الخالد في النفس الإنسانية. وهؤلاء الآلهة يتمتعون حيثئذ سائر الأعمال المحتاج إليها لترتيب العالم، بما في ذلك صنع الأبدان الإنسانية.

الصانع في صنعه هذا يصادف صعوبات بسبب الضرورة *ἀναγκη*، تماماً مثلما يلقي الصانع الإنسان صعوبة من جانب المادة التي يستعملها في صناعته.

ويقول Paul Shore «إن الأداة الفنية الرئيسية في محاوره «طيماوس» هي الصانع. إنه ليس مبدأ ميتافيزيقياً مجرداً. بل هو في وقت واحد تجسيد لتصور أفلاطون الأخير عنده، وهو تصور غاية فنية في مقابل الصدفة الخالية من القانون أو الاتفاق الاصطلاحي التحكيمي وتجسيد للترعة المرجوة الخالصة التي ربطها الشعراء المتدينون الكبار في الجيل السابق بالإله زيوس. إنه الصانع العلمي في محاوره «قراطيلوس»، وهو تجسد مبدأ العلة في محاوره «فيلا بوس». . . . لكنه لم يعد ينظر إليه على أنه تجريد، بل على أنه

الله الحقيقي الذي سحق القهر والظلم الذي كان يسود العالم. وهو ربّ السموات والأرض، والباقي في وحدة ثابتة لا تتغير، غير متأثر بتجديفات الشعراء المشبهة» (ماذا قال أفلاطون، ص ٣٤٩، جامعة شيكاغو سنة ١٩٣٣).

وقد استعمل الفلاسفة الإسلاميون لفظ «الصانع» للدلالة على الله، دون أن يكون هناك أي ارتباط في المعنى بين مفهومهم للصانع ومفهوم الصانع عند أفلاطون. ومن النصوص الدالة على استعمالهم هذا قول الغزالي في أول المسألة الثالثة من كتاب «تهافت»: «اتفقت الفلاسفة - سوى الدهرية - على أن للعالم صانعاً، وأن الله تعالى هو صانع العالم، وأن العالم فعله وصنعه». (تهافت الفلاسفة، ص ١٣٤، القاهرة، طبعة دار المعارف).

وفي الفلسفة اليهودية نجد فيلون يستخدم لفظ «الصانع» *Δημιουργός* على نحو ما يستعمله أفلاطون، مع أن الترجمة السبعينية «للعهد القديم» من الكتاب المقدس تحاشت استعمال هذا اللفظ للدلالة على الله. ونجده يشبه صنع العالم ببناء البيت (راجع كتابه *De Opificio mundi* ص ٥).

وفي كتب الغنوص يرد أن «النوس» (= العقل) بوصفه أقنوم تجلي الإله الأعلى - هو «الصانع».

ويكيز نوميوس الأمامي (القرن الثاني بعد الميلاد) بين الإله الأعلى، ويتلوه «الصانع»، ويتلوه العالم.

في الفلسفة اليونانية، وخصوصاً عند أفلاطون يطلق هذا اللفظ *Δημιουργός* على الله أو بالأحرى على المبدأ المنظم للكون. فهو الذي يشكل المادة، ويعطيها صورة. إنه لا يخلق

بتلك القائمة بين الشمس وما يصدر عنها من أشعة، لكن أفلوطين يوضح هذا المعنى بأن هذا الصدر عن الواحد لا يترتب عليه تغير ولا كثرة في الواحد. (راجع تحديدنا للصدر عند أفلوطين في كتابنا: «خريف الفكر اليوناني» ص ١٣٢ ط ٥ سنة ١٩٧٩).

وقد قال بالصدر الغنوصيون، كما نجد بنور مذهب الصدر عند أفلوطين و فيلون اليهودي وإن تجنبنا استعمال كلمة ἀκρόρρα على أن أفلوطين هو الآخر نادراً ما يستعمل التعبير ἀκρόρρα أو ἀκρόρρη (في التساع الثاني: ١، ٣، ٢٦، ٢٧، ٢٨؛ التساع الثاني: ١، ٤، ٢، ٤، الثاني: ٣، ٢، ٧، وكثيراً ما يستعمل التعبير (يفعل، يصنع) للدلالة على فعل «الواحد». ويحدد مبدأ الصدر بأنه لا يعاني أي نقص ولا زيادة في عملية الصدر بل هو تام منذ البداية وإلى الأبد. وهو في وحدة تامة وبساطة تامة.

وعن أفلوطين أخذ الفلاسفة الإسلاميون فكرة الصدر، ويسمونها أيضاً «الفيض». والفارابي يقول في الفصل السابع من «آراء أهل المدينة الفاضلة» وعنوانه: «القول في كيفية صدور جميع الموجودات عنه»: «الأول هو الذي عنه وجد. ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات التي وجودها لا بإرادة الإنسان واختياره، على ما هو عليه من الوجود الذي بعضه يشاهد بالحس، وبعضه معلوم بالبرهان. ووجود ما يوجد عنه إنما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر، وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو... ولا... يحتاج في أن يفيض عن وجوده شيء آخر - إلى شيء غير ذاته يكون فيه، ولا عرض يكون فيه... ولا يمكن أيضاً أن يكون له عائق من أن يفيض عنه وجود غيره، لا من نفسه ولا من خارج أصلاً» (آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ٥٥-٥٦، بيروت سنة ١٩٧٣).

وقد أخذ بمذهب الصدر هذا ابن سينا، وعارضه ابن رشد بشدة، (راجع خصوصاً «تهافت التهافت») أما ابن سينا فقد قال به على أساس المبدأ القائل بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحداً؛ وأما ابن رشد فيرى، على العكس، أن الواحد ما دام له القدرة، فإنه تصدر عنه كثرة.

ومن ثم، وفي العصور الوسطى الأوروبية، أصبح

المادة، وإنما يشكلها فقط على نموذج الصور أو المثل («طيماموس» ٢٨ ج).

وفي الفلسفة الإسلامية، خصوصاً عند ابن سينا، يستعمل لفظ «الصانع» للدلالة على الله الخالق المدبر.

وقد انتقلت فكرة الصانع من أفلاطون إلى الأفلاطونية المحدثة وإلى التيارات الغنوصية، وفي كليهما ينظر إلى الصانع على أنه الوهية خاضعة لإله أعلى، وعلى أنه وسيط بين الإله الأعلى وبين العالم.

والغنوصيون، وعلى رأسهم قائلتان، يضعون الصانع في مرتبة أدنى من الأيونات الخيرة، ويزعمون أنه في أفعاله هو علة الشرور في العالم. ونومينوس Numenius يصفه بأنه إله ثانوي، وإله صانع (راجع شرح برقلس على «طيماموس» ٢: ٩٣، ويوسيبوس: «التمهيد إلى الانجيل» ١٤: ١٥).

لكن أفلوطين يحاجم تصور الغنوصية هذا لأنهم ينسبون إلى علة إيجابية، هي الصانع، وجود الشر وهو سلبى - في العالم، ولأنهم يعدون الصانع أقنوماً، إلى جانب الواحد و«النوس» والنفس (راجع «التساعات»، التساع الثاني ٩: ٦، ١٨: ٣).

#### مراجع

راجع الكتب الرئيسية عن أفلاطون. وكتراسات خاصة راجع:

- K. F. Doherty: «The Demiurge and the Good in Plato», in N. Schol. 1961, pp. 510-24.
- M. Legido Lopez. El Problema de Dios en Platon. La Teología del demiurgo. Salamanca, 1963.
- K. Ambelain: La notion gnostique du Demiurge dans les Ecritures et les Traditions judéo- Chrétiennes. Paris, 1959.

#### الصدر = الفيض

( Emanation (G. ἀκρόρρα )

هو العلاقة بين الواحد وبين الموجودات المنبثقة عنه؛ وهو أيضاً العلاقة بين الموجودات العليا وبين الموجودات الدنيا في نظام ترتيبي للموجودات. وأفلوطين يشبه هذه العلاقة



وبالمعنى المحدود هي الكمالات التي تطلق على الله.

وقد اهتم المتكلمون المسلمون اهتماماً بالغاً بمسألة صفات الله ودار جدلهم حول نقطتين رئيسيتين هما: (١) ما هي هذه الصفات؟ (٢) وهل الصفات هي عين ذات الله، أو زائدة عليها؟

ففي ما يتعلق بالنقطة الثانية قالت المعتزلة إن «الله تعالى قديم، والقدم أحصى وصف ذاته. ونفوا الصفات القديمة أصلاً، فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا يعلم وقدرة وحكمة، هي صفات قديمة ومعان قائمة لأنه لو شاركته الصفات في القدم - الذي هو أحصى الوصف - لشاركته في الإلهية» (الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١ ص ٥٥، بهامش «الفصل» لابن حزم). وقال أبو الهذيل العلاف - من كبار المعتزلة «إن صفات الله هي ذات الله: فعلمه هو ذاته، وقدرته هو ذاته، وإن الله عالم بعلمه هو هو».

وعلى عكس ذلك يرى الأشاعرة - أتباع أبي الحسن الأشعري - إذ يرون أن صفات الله قائمة بذاته، أي أنها ليست ذاته، ولا غير ذاته، إذ لا يتصور أن يكون الذات حياً بغير حياة، أو عالماً بغير علم، أو قادراً بغير قدرة، أو مريداً بغير إرادة. بل الله عالم بعلم، وقادر بقدرة، وحي بحياة. إن صفات الله قائمة بذاته، وأزلية. يقول الأشعري - كما أورده الشهرستاني (الكتاب نفسه ج ١ ص ١٣٢) - إن صفات الله «أزلية قائمة بذاته. لا يقال: هي هو، ولا غيره، ولا لا هو، ولا لا غير».

ويقسم أبو المعالي الجويني صفات الله إلى نوعين: نفسية ومعنوية، فالصفة النفسية هي اللازمة لذات الشيء، أي الصفة الذاتية، المنبثقة عن الذات، وهي غير معللة بعلة قائمة بذات الموصوف. أما الصفة المعنوية فهي الحكم الثابت للموصوف بها، وهو معلل بعلة قائمة بالموصوف. مثال الصفة النفسية: كون الجسم متحيزاً، أي يشغل حيزاً، فهذه الصفة غير معللة بعلة زائدة على الجوهر. ومثال الصفة المعنوية: كون العالم عالماً، فهذه الصفة معللة بالعلم القائم في العالم.

وكان المعتزلة يقسمون الصفات إلى: صفة ذات، مثل الحياة؛ وصفة فعل، مثل أن الله جواد، كريم، خالق، إلخ.

[راجع تفصيل هذا كله في كتابنا: «مذاهب

التعارض حداً بين نظرية الصلور ونظرية الخلق. وقد قال بالصلور من بين هؤلاء، يوحنا اسكوت اريوجنا (De de- vision e naturae III, 17). وفسر توما الأكويني الصلور على أساس فكرة المشاركة (راجع شرحه على كتاب «السماع الطبيعي» لأرسطو VIII, L.II). ونفس التفسير نجده عند السيد أكهوت (Lateinische Werke, 3, 218, 13 f.).

والصلور يقال إذن في مقابل:

١ - الخلق، لأن المخلوق منفصل تماماً عن الخالق، ولأن الخلق يتم إما من العدم، أو من مادة سابقة موجودة منذ الأزل إلى جانب المبدأ الخالق.

٢ - والتطور، لأن التطور عملية تجري في زمان وتمضي من الأقل كمالاً إلى الأكمل، فالتطور يضاد تماماً الصلور لأن الصلور يمضي من الأكمل إلى الأنقص، كما أنه في التطور يجري التغير على المبدأ، بينما في الصلور يظل المبدأ في كماله وتمامه.

وتم تشابه بين الصلور وبين الحلول Panthéisme، لكن بينهما فارقاً جلياً يقوم في كون المبدأ باطناً ومحايثاً هو نفسه في الكون عند أصحاب مذهب الحلول، بينما الأمر ليس كذلك في الصلور كما بينا من قبل، ولهذا فإن من الأفضل التمييز الواضح بين الصلور والحلول.

### مراجع

- I. Ratzinger: «Emanation», in *Reallexikon für Antike und Christentum*, Stuttgart, 1959, pp. 1219- 1228.
- H. Dörrie: art. «Emanation», in *Religion in geschichte und Gegenwart*, II (1958), p. 449 f.
- Colpe, art. «Inosis», in *Rel. Gesch. Gegen*; II (1958), p. 1648- 1661.
- T.P. Roeser: «Emanation and Creation», in *New Scholasticism*, 19 (1945), p. 85- 116.

### صفات الله

#### Attributs de Dieu

صفات الله هي كل ما يمكن أن يوصف به الله.

## صورة

forme (F), forma (L.) εἶδος (G.)

أ- في الطبيعة وما بعد الطبيعة.

الصورة هي الشكل الباطن غير المرئي لشيء ما، أعني ماهيته، أي ما يجعل الشيء هو هو. وبهذا المعنى يستعمل أفلاطون لفظي εἶδος و ἰδέα بيد أنه يرى أن الصورة ليست صادرة عن باطن الشيء، بل هي هابطة إليه من ملكوت الصور العالي على العالم السفلي. وما يكون هوية الشيء أو ماهيته هو مشاركته في الصور أو المثل. (عن نظرية الصور أو المثل راجع من محاورات أفلاطون: «فيدون»، «ندرس»، «السياسة» (م° - م°)، «طيمائوس»). فأفلاطون يقول إذن ان الصور مفارقة.

وفي هذا يختلف مع أرسطو الذي يؤكد اقتران الصورة بالهولي بحيث لا يفترقان. والصورة عند أرسطو هي إحدى العلل الأربع للشيء: الصورة، الهولي (المادة)، الفاعل، الغاية. فالمتضدة: صورتها هي الشكل الذي يعطيه إياها التجار، ومادتها هي الخشب، وقاعها هو التجار، والغاية منها إمكان وضع أشياء على سطح مرتفع.

وعند أرسطو أيضاً أن الصورة هي موضوع العلم. ثم إن التغيير يقتضي القول بوجود الصورة، إذ التغيير يفترض دائماً غاية يتجه إليها، وهذه الغاية هي الصورة، فالصورة هي غاية كل تغير أو الكمال لكل تغير.

وفي العصور الوسطى الأوروبية اهتم الاسكلاسيون بالبحث التفصيلي في مختلف أصناف «الصور» (formae)، فميزوا:

- ١) الصور الصناعية، مثل صورة المتضدة أو التمثال،
- ٢) الصور الطبيعية، مثل النفس بوصفها صورة الجسم العضوي.
- ٣) الصور الجوهرية وهي تلك التي تقوم الجواهر المادية.
- ٤) الصور العَرَضِيَّة، وهي التي تضاف إلى الجواهر المادية لتميزها ظاهرياً، مثل الألوان.
- ٥) الصور المحضة أو المفارقة، وتتميز بأنها أفعال محضة.

الإسلاميين، ج١، بيروت ط١، سنة ١٩٧١).

كذلك تناول مسألة صفات الله فلاسفة العصور الوسطى الأوروبية. ونجتزئها هنا بذكر رأي القديس توما. يرى توما أن من المستحيل على العقل الإنساني أن يعرف ماهية الله، لأن الله محقول صرف. ولكن يمكن معرفة صفات الله بطريق سلمي، بأن تنفي عن الله كل ما لا يليق بمقام الألوهية من صفات، فتتفي عنه الحركة والتغير والانفعال والتركيب، وفي مقابل ذلك نصفه بأنه ثابت، وأنه فعل محض، بسيط، ويمكن معرفة صفات الله عن طريق آخر، هو قياس النظر Per analogiam ذلك أن كل علة لا بد من أن تترك أثراً في معلولها، لأن المعلول صادر عن العلة. لكن يجب أن نلاحظ مع ذلك أن المعلول يشبه فقط العلة، لكنه لا يساويها في درجة الشبه. كما أن كل صفة في المعلول ليس من الضروري أن توجد في العلة، لأن المعلول يحكم مرتبته في الوجود بتصف بصفات لا تليق بالعلة.

ومن هنا ينبغي - في نظر توما - أن ننظر في صفات الموجود، وأن نستخلص منها ما يمكن أن يليق بكمال الألوهية. وتبعاً لهذا نصف الله بقياس النظر، لكن بنسبة أكبر جداً مما يتحقق للمعلول، فتنسب إلى الله صفات الكمال الموجودة في المخلوق، لكن نضيف إليها بعد ذلك حرف الجر: «فوق»: فله عالم بعلم فوق العلم، حي بحياة فوق الحياة، قادر بقدرته فوق القدرة، إلخ.

[راجع «الخلاصة اللاهوتية» لتوما - Sum. Theolog. Iq. 3-

[14, 18- 26]

## مراجع

عبد الرحمن بدوي: مذاهب الإسلاميين، ج١، بيروت سنة ١٩٧١.

عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطى، ط١، القاهرة سنة ١٩٦٢.

أبو حامد الغزالي: المقصد الاسمي في شرح أسماء الله الحسنى، القاهرة سنة ١٣٧٤هـ.

- Harry Wolfson «Avicenna, al-Gazzali and Averroes on divine attributes», in Homenaje Millas Vallicrosa II, 1956, pp. 545- 571.

Et Gilson: Le Thomisme.

Et Gilson: La Philosophie de St. Bonaventure.

## ب) في المنطق:

يفرق المنطق في العصور الوسطى الأوربية بين «صورة الحكم» و«مادة الحكم». فمادة الحكم هي ما يتغير فيه، فمثلاً في الحكم: «سقراط هو حكيم» نجد أن «سقراط» و«حكيم» يتغيران، بينما الرابطة «هو» تبقى في حكم حملي موجب، فهذا الذي يبقى يسمى «صورة الحكم». فالرابطة في الحكم الحملي وكذلك في الحكم الشرطي تنتسب إلى صورة الحكم.

وفي المنطق الرياضي تطلق «الصورة» على الجزء «الثابت» في القضية، و«المادة» على الجزء «المتغير» في القضية؛ وبعبارة أخرى: الصورة هي «الثوابت» والمادة هي «المتغيرات» في القضايا فمثلاً في القضية: «كل إنسان هو إنسان» يقال عن «كل» و«هو» إنها «ثابتان»؛ ويقال عن «إنسان» و«إنسان» إنها «متغيران»، أو الأولان هما صورة القضية، والأخيران هما مادة القضية.

## الصيرورة

## Devenir (F. E.), Werden, (G.), Becoming (E)

هو كون الموجود في حال تغير مستمر.

ومشكلة الصيرورة أثرت في الفكر اليوناني قبل سقراط على هذا النحو: هل الوجود في حال ثبات، أو في حال صيرورة؟ قال بالرأي الأول الإيليون، وبالرأي الثاني هيرقليطس. وحاول الفيثاغوريون الجمع بين الرأيين فقالوا إن الموجودات في حال صيرورة، لكنها في صيرورتها تخضع لقوانين رياضية ثابتة.

والاتجاه العام عند أفلاطون هو النظر إلى المحسوسات على أنها في حال صيرورة، بوصفها نسخاً من الصور أو المثل. والوجود المضاد عنده ليس موجوداً بالمعنى الحقيقي؛ وإنما وجود الصور، وهو وجود ثابت، هو الحقيقي والأحق باسم الوجود.







# ض

## الضرب

[راجع كتابنا: «المنطق الصوري والرياضي»، ط ٤، الكويت سنة ١٩٧٧].

### في المنطق:

١- في القياس: الضرب هو الهيئة الحاصلة عن اجتماع الصغرى والكبرى في القياس باعتبار الأسوار، أي اعتبار الكم والكيف في المقدمات.

وعدد الأضرب المتجة هي: أربعة في الشكل الأول، أربعة في الشكل الثاني، ستة في الشكل الثالث، وخمسة في الشكل الرابع.

### ٢- في المنطق الرياضي:

ضرب صنف في صنف آخر هو استخراج الصنف المشترك بينهما، فإذا ضربنا مثلاً الصنف «أساتذة» في الصنف «شعراء»، فإن الناتج هو الصنف الجامع بين الأستاذية وقول الشعر، أي صنف: «الشعراء الأساتذة» أو «الأساتذة الشعراء».

### ويعرف حاصل الضرب المنطقي هكذا:

حاصل الضرب المنطقي لصنفين هو الصنف المتضمن في كل منهما، والمتضمن لكل صنف متضمن في كل منهما.

### أو بعبارة أخرى:

حاصل الضرب المنطقي لصنفين هو الصنف الذي يكون جزءاً من كل واحد منهما، ويعمُّ كل صنف يكون جزءاً من كل واحد منهما.

## الضرورة

### Nécessité

١- تطلق الضرورة أولاً على القوانين: فإن كان القانون مدنياً أو أخلاقياً سميت الضرورة إلزاماً Obligation. وإن كانت الضرورة فيزيائية كان القانون قانوناً طبيعياً، مثل قانون سقوط الأجسام، قانون الجاذبية، إلخ. فالقانون الطبيعي (أو العلمي) يفرض نفسه بدقة وبحكم الظواهر التي تتعلق به، فلا يمكنها الإفلات منه.

ب- انتقال الضرورة في اللاهوت على واجب الموجود. ذلك أن الموجود إما واقعي أو ممكن، أو ضروري. والضروري هو الذي لا يمكن أن يكون بخلاف ما هو كائن. والله هو وحده الموجود الذي يتصف بهذه الصفة. يقول ابن سينا: «كل وجود للشيء إما واجب، وإما غير واجب. فالواجب هو الذي يكون له دائماً، وكل ذلك إما بذاته، وإما له بغيره. كل ما يجب لذاته وجوده فيستحيل أن يكون وجوده يجب بغيره. وينعكس: كل ما يجب وجوده لا عن ذاته، فإذا اعتبرت ماهيته بلا شرط لم يجب وجودها، وإلا لكان لذاته واجب الوجود؛ ولم يمتنع وجودها، وإلا لكان ممتنع الوجود لذاته فلم يوجد إلا عن غيره. فإذا وجد لذاته ممكن.» (عيون الحكمة ص ٥٥ بشرتنا، القاهرة سنة ١٩٥٣).

ويقال عن شيء أو عن موقف إنه ضروري بشرط إذا



المتحيل.

وتقال الضرورة أحياناً على المحتمية.

وفيا يتصل بالله ينعت بأنه واجب الوجود. ذلك أن الموجودات كلها ممكنة، أما الله فهو وحده واجب (= ضروري) الوجود، لأنه لو كان وجودها ضرورياً من ذاتها، لما كانت في حاجة إلى الله كي توجد. والقديس توما يعرف وجوب وجود الله على أسس الهوية بين ماهيته ووجوده. أما ديكارت واسبينوزا فيتصورون أن الله واجب (ضروري) الوجود على أساس أن ماهيته هي بحيث تقتضي وجوده بالضرورة. ويؤكد ديكارت أن وجود الله لا يتميز من ماهيته.

وعلى أساس التفرقة بين الواجب والممكن أقام الفلارابي برهاناً على وجود الله، صاغه ابن سينا في كتاب «النجاة» هكذا: «لا شك أن هنا وجوداً. وكل وجود فلما واجب، وإما ممكن. فإن كان واجباً، فقد صح وجود الواجب وهو المطلوب. وإن كان ممكناً، فإننا نوضح أن الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود» («النجاة» ص ٢٣٥، القاهرة سنة ١٩٣٨).

راجع تفصيل ذلك في مادة: ابن سينا

مراجع

- Platon: Lois, liv. X.
- Aristote: Physique, l. VIII, e. 1-6.
- Aristote: Métaphysique, l. IX, c. 8; l. XII, e. 6-7.
- St. Thomas d'aquin : Summa Theologica, Partie I, Q2; Q8, A1; Q19, A5, resp. 3; Q44, A1; Q65; Q104, AA, 1-2.
- Descartes: Discours, partie IV
- Descartes: Méditations
- Descartes: Objectons et réponses
- Spinoza: Ethique, partie I, déf. 1, 3, 78; prop. 5-11; 19-20, 34.

كان من الضروري وجوده أو حدوثه متى ما تحقق شرط. فمثلاً في القياس: متى ما وضعنا مقدماتين لزم عنها قول لا محالة؛ فهذا اللازم ضروري بشرط وضع المقدمات على النحو الذي تقتضيه قواعد القياس. مثال آخر: غليان الماء في درجة مائة عند مستوى سطح البحر ضروري بشرط الدرجات المائة المثوية.

وقد عرض فكرة ضرورة قوانين الطبيعة اميل بوترو في رسالته المشهورة وعنوانها: «في عدم ضرورة قوانين الطبيعة» (سنة ١٨٧٤).

الضروري

Nécessaire

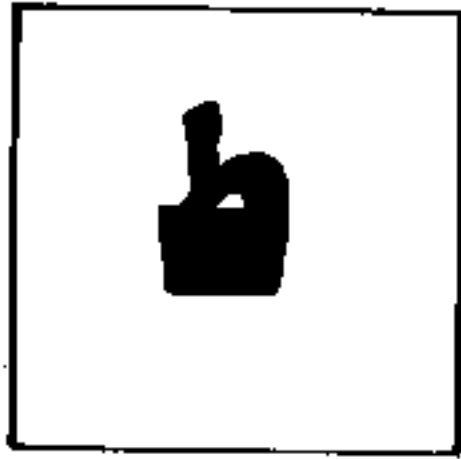
ينقسم الضروري إلى: ضروري عقلاً، وضروري طبعاً. أما الضروري عقلاً أو الضرورة المنطقية فهو النتيجة المستخلصة من مقدمات، والضروري طبعاً أو فزيائياً هو الضروري بالغير، أي المشروط بشيء خارج عنه، وينشأ عن طريق العلية، وسبب وجوده ليس من ذاته، بل من غيره، ولهذا فإن ضرورة نسبه إلى هذا الغير.

والضروري يفترض مقلماً: الامكان والواقع.

والضروري هو ما لا يمكن أن يكون بخلاف ما هو كائن.

ويقول كنت إن «كل شيء ضروري اما مطلقاً واما بشرط» (تعليق رقم ٥١٩٦). ويقول أيضاً «إن كل ضرورة هي إما منطقية، أو واقعية. فالأولى عقلية، والثانية تجريبية» (تعليق رقم ٣٧٦٧). «والضرورة إما ضرورة الأحكام، وإما ضرورة الأشياء» (رقم ٤٠٣٥) «والضرورة هي في كل النواحي شرط لإمكان الأشياء» و«الضرورة المطلقة تصور حتمي، إذ بدونها لا يمكن حدوث أي تمام في سلسلة العرضيات» (رقم ٤٠٣٣).

والضروري يقال في مقابل الممكن، ويقال في مقابل





تطلق في الفيزياء على قدرة الجسم؛ أو نظام فيزيائي، على إنجاز شغل أو التغلب على عائق.

وكان أرسطو يطلق كلمة *ἐνέργεια* على الحالة الفعلية التي ينتقل إليها الموجود من حيث كان بالقوة أي على سبيل الإمكان في هذه الحالة. (الطبيعة) ص ١٩١ ب س<sup>٢٨</sup>، ص ٢٥٥ أ س<sup>٣٥</sup>؛ وما بعد الطبيعة ص ١٠٤٨ أ س<sup>٢٥</sup>، ص ١٠٤٩ ب س<sup>٥</sup>). وهذا التقابل هو بين «ما يقال بالقوة، وما يقال بالفعل».

أما الاستعمال الحديث لكلمة *énergie* فيرجع إلى G. Bernoulli الذي استخدمها بمناسبة الكلام عن توازن القوى الممكنة فقال: «في كل توازن قوى فإن مجموع الطاقات الموجبة *énergies affirmatives* سيكون مساوياً لمجموع القوى السالبة» ومن ثم صارت من المفهومات الشائعة في الميكانيكا.

ولم تأخذ فكرة الطاقة مكانتها الهامة إلا خلال القرن التاسع عشر، حينما اكتشف مبدأ حفظ الطاقة.

وأسهم في تعميق مفهوم الطاقة أربعة عوامل:

- ١- البحث في حقيقة الحرارة،
- ٢- دراسة تبادل (تغير) المادة في الكائنات العضوية الحية؛
- ٣- التوسع في البحث الفيزيائي إلى ميادين غير فيزيائية.
- ٤- فلسفة الطبيعة عند شلنج واستيفنز Steffens وأوكن Oken.

هذا اللفظ مشترك المعاني غامض جداً، مما دعا بعض علماء الطبيعة في القرن السابع عشر إلى تجنب استعماله.

لقد استعمله علماء الطبيعة بمعنى «كل ما هو مشاهد».

واستعمله السوفسطائيون في مقابل القانون، فوضعوا التقابل *Φύσις-νόμος* للتعبير عن القهر (القانون) في مقابل الطبع (الطبيعة)، وقالوا إن كل قانون يقهر ما هو طبيعي أو بالطبع.

وجاء أرسطو فقال إن «الإنسان مدني بالطبع» أي أنه موجود يحقق طبيعته في المدينة (المجتمع)، وذلك لأن الإنسان موجود ناطق بالطبع، أي أنه مقدر عليه أن يتفاهم مع أشباهه من الكائنات. لكن أرسطو يضع أحياناً تقابلاً بين الإنسان والطبيعة، على أساس أن الطبيعة هي ما لم يصنعه الإنسان. كذلك يضع تقابلاً بين الطبيعة والفسر، فيتحدث عن حركات طبيعية وحركات قسرية: فالأولى مثل تحرك الحجر الساقط نحو مركز الأرض، والثانية مثل رفع هذا الحجر إلى أعلى بواسطة اليد أو بواسطة أية آلة.

وشيشرون، وبعض فلاسفة العصور الوسطى يضعون الطبيعة في مقابل الإرادة *voluntas*. ولكن توماس الأكويني يميز في الإرادة نفسها بين «الميل الطبيعي» *naturalis inclinatio* وبين الميل الحرّ فيها، ويقول: «لا بد أن ما هو للموجود بالطبيعة وعلى نحو لا يتغير هو الأساس والمبدأ لسائر الأمور»

وعند اسينوزا تصبح الطبيعة هي الله؛ لكنه يميز بين الطبيعة الطابغة *natura naturans* والطبيعة المطبوعة *natura naturata*. وسلوك الإنسان عنده ينبغي أن يفسر على نحو طبيعي: فحرية الفعل لا تقوم في التحرر من الجبرية، التي تسود الطبيعة، بل في إدراك الإنسان لعبوديته وقبوله لما يجري.

وفي القرن الثامن عشر ساد التقابل بين الطبيعة وبين الوضع القائم. فكتب هولباك *Holbach* كتابه: «نظام الطبيعة» وصاغ مورلي *Morelli* «قانون الطبيعة». وأخذت فكرة «القانون الطبيعي» في مقابل «القانون الوضعي»، و«الدين الطبيعي» في مقابل «الدين الوضعي» تسود الفكر القانوني واللاهوتي في ذلك القرن وفي القرن التالي له. وبتفسر الروح دعا روسو إلى العودة إلى الطبيعة في مقابل المدنية. وهكذا نظر إلى الطبيعة على أنها الخبرة، وأن الحضارة والأوضاع المتوارثة هي الشر.

ولكن كان في مقابل هذا التيار تيار آخر بدأه هوبز حين جعل الخروج عن حال الطبيعة شرطاً أولياً للتحرر ومطلباً أساسياً للعقل. وفي نفس الاتجاه قال كنت إن على الإنسان أن يخرج من حال الطبيعة الأخلاقي ابتغاء أن يصير عضواً في الهيئة الأخلاقية (كنت: «الدين في حدود العقل المحض»، نشرة كاسيرر، ج ٦ ص ٢٤١). ويؤكد في الوقت نفسه أن إيجاد هذه الحالة الأخلاقية هو «غرض الطبيعة نفسها» (أفكار من أجل تاريخ عام بالمعنى العالمي»، مجموع مؤلفاته، طبعة الأكاديمية، ج ٨ ص ٢٧). والشاعر شلر يسير في نفس الاتجاه حين يرى أن الطريق إلى دولة القانون الذاتية هو انتقال من «دولة الطبيعة»، إلى «دولة العقل». (شلر: «رسائل عن التربية الجمالية للإنسان»، الرسالة رقم ٣).

لأن طبيعة الشيء هي الأول فيه، وكل حركة تنشأ عن شيء لا يقبل التحرك، (الخلاصة اللاهوتية (I, qu. 82, a. 1). ومعنى هذا أن توما يقول بوجود أصل ثابت في إرادة الإنسان عنه تصدر أفعاله الحرة؛ أي أن الأفعال الإرادية مزيج من أفعال الطبيعة الثابتة والإرادة الحرة.

لكن أرسطو كان يرى أن للطبيعة نزوعاً أو ميلاً. فجاه فلاسفة العصر الحديث فأنكروا ذلك وكان وراء انكارهم اهتمامهم بالسيطرة على الطبيعة. وأسقطوا التفرقة بين الحركة الطبيعية، والحركة القسرية. كذلك أسقطوا التقابل بين الطبيعي والصناعي. وفي هذا يقول فولتير ساخراً في حوار بين الفيلسوف والطبيعة: تقول الطبيعة: «لقد أعطوني اسماً لا يناسبني: سموني طبيعة، وأنا فن حقا» (فولتير: «المعجم الفلسفي»). ومن قبله قال بسكال: «العادة طبيعة ثانية. أو ليس الأولى أن يقال إن الطبيعة ما هي إلا عادة ثانية؟» (الأفكار، مجموع مؤلفاته، طبعة لافون، ص ٥١٤).

وابتداءً من القرن السادس عشر احتل تقابل آخر مكان الصدارة: هو التقابل بين الطبيعة وبين اللطف *gratia*، بين ما هو طبيعي وبين ما هو فوق الطبيعي *Supernaturale*. والتفرقة بين الطبيعة واللطف الإلهي هي محاولة لرد التقابل: الطبيعة العمل، إلى تقابل بين منعب القديس بولس ومذهب القديس يوحنا كما وردا في العهد الجديد من الكتاب المقدس، ومفاده أن الإنسان من حيث الواقع هو جسد، أي أنه لا يستطيع أن يصبح بنفسه ما يجب أن يكون مصيره. إنه يستطيع أن يريد، لكن تحقيق ما يريد ليس في استطاعته. وترك الإنسان لإرادته يسلم لها نفسه يؤدي إلى الشر. فلكي يكون الإنسان خيراً يحتاج إلى تدخل إلهي خاص يتم بتوسط يسوع؛ وهذا التدخل هو اللطف الإلهي.





# ظ

## الظاهريات

### Phänomenologie (D), Phénoménologie (F)

كان J.H.Lambert هو أول من استعمل هذا اللفظ Phänomenologie وذلك في سنة ١٧٦٤، وتلاه أمانويل كنت ثم هيجل في عنوان كتابه الرئيسي Phän. des Geistes (سنة ١٨٠٧).

لكنه صار يطلق في بداية القرن العشرين على مذهب في الفلسفة أسسه هُسرل Husserl (١٨٥٩ - ١٩٣٨) وكان من أنصاره ماكس شيلر في ألمانيا، وجان بول سارتر في فرنسا، وتأثر به مارتن هيدجر والوجودية بعامة.

والفكرة العامة التي يقوم عليها مذهب الظاهريات هي: «الرجوع إلى الأشياء نفسها zu den Sachen selbst»، أي الرجوع إلى الوقائع المحضة دون التأثير بالأحكام السابقة المتعلقة بها.

وعلى هذا الأساس يعارض مذهب الظاهريات المذهب التجريبي، خصوصاً ذلك القائم على النزعة النفسانية، بحجة أن هذا المذهب التجريبي يخضع الوقائع إلى مقولات فقيرة وغير ملائمة.

كما يعارض المذهب العقلي ذا النزعة الرياضية لأنه مجرد عالم الحياة ويضعه في صيغ شكلية جافة.

ويعارض المذاهب المثالية لأنها لا تستند إلى رؤية للواقع.

ويعارض القطعية ذات الصبغة الأفلاطونية لأنها تجعل

من المعاني حقائق خارجة عما هو عيني.

ولكن مذهب الظاهريات كان منهجاً أكثر منه مذهباً. وهذا المنهج يقوم على «رؤية الماهية» Wesensschau في الشعور. في سبيل ذلك يستقري كل المعاني التي ترتبط بمفهوم ما، ابتغاء أن يستخلص منها هذه الماهية التي يسعى إلى رؤيتها. وقد استهدف هذا المذهب تحقيق الأغراض التالية:

١) استعادة الفلسفة بوصفها علماً دقيقاً Strenge Wissenschaft وذلك بالتفكير الدقيق لمصادراتها المنطقية النقدية، ابتغاء انقاذ الفلسفة من الأزمة التي أوقعتها فيها النزعة الانسانية الاوربية.

٢) والمنهج الواجب اتباعه يشتمل على خطوتين معياريتين، إحداهما سلبية، والأخرى ايجابية. وتقوم الأولى في التخلص من الأحكام السابقة Voraussetzungslosigkeit، وذلك باستبعاد كل الأمور المفسدة لصفاء الرؤية: بين قطعية، وتراكيب فوقانية، ومفاسد لغوية، وفروض وأساليب، وعادات علمية أو عملية من شأنها أن تفسد المعطيات الواقعية. - وتقوم الخطوة الثانية في الالتجاء إلى العيان المباشر بوصفه الوسيلة الوحيدة القادرة على إدراك الواقع في كل صفاته المحض. وعن هذا الطريق يستطيع الباحث الظاهري أن يواجه المعطيات وأن يتأمله بتميز ووضوح ونزاهة ومتابعته بعرونة، وتحديد معالمه ومفاصله وأحواله.

٣) القصدية Intentionalität: والشعور يقوم في القصدية، أعني في التبادل ما بين الذات والموضوع. فالشعور وعي ذاتي، لكنه يحيل دائماً إلى مضمون واقعي موضوعي.



## ظن

**opinion (F. E.), Opinio (L.)**

كلمة «دوكسا» δόξα اليونانية مشتقة من الفعل δόκεω = يبدو، يلوح، يشبه أن يكون...

وفي الفلسفة تدل على الرأي الذاتي القائم على الإدراك الحسي؛ وتدل على ظلال المعاني للإدراك ابتداءً من الوهم حتى الرأي المشترك بين عامة الناس...

ويعزى أفلاطون بين الـ δόξα (= الظن) وبين المعرفة اليقينية، νοησις على أساس أن «الظن» يتعلق بعالم المحسوسات وهو محتمل وغير يقيني بينما الـ تتعلق بالمعقولات أو الصور، وهي معرفة يقينية. (راجع «السياسة» م<sup>٢</sup> ص ٥٣٣ هـ، م<sup>٦</sup> ص ٥١١ د).

واستعملها أرسطو بمعنى الوهم في مقابل ما هو «حق» (راجع ما بعد الطبيعة) ص ١٠٧٤ ب ٣٥، «التحليلات» ٤٦ أ).

و«المظنونيات»، هي أمور يقع التصديق بها، لا على الثبات، بل مع خطوط إمكان نقيضها بالبال، ولكن النفس إليها أميل، كقولنا: «إن فلاناً إنما يخرج بالليل لريبة» - فإن النفس تميل إليه ميلاً ينبئ عليه التدبير للأفعال، وهي مع ذلك تشعر بإمكان نقيضه (الغزالي: «معيير العلم» ص ١٩٨، القاهرة، مطبعة المعارف).

## الظاهر، الظاهرة

**Erscheinen, Erscheinung (G.); le paraître, le phénomène (F.)**

الظاهر هو ما يبدو لي. وقد تناول أفلاطون مشكلة الظاهر في محاوره «ثايتاتوس» (١٥٢ أ). فلم يجعل منه مشكلة في المعرفة فحسب، بل وأيضاً مشكلة في الوجود. ومن ثم صارت مشكلة العلاقة بين الوجود والظاهر (أو الظهور) من المشاكل الابستمولوجية والانطولوجية في آن واحد.

وكان جورج بيركلي أول فيلسوف في العصر الحديث أعاد البحث في مشكلة الظاهر على نحو مفصل حاد. فهو يقول على لسان هيلاس في مستهل الحوار الثالث في كتابه

وهذا يتم التوفيق بين المحاثة النفسانية والعلو المنطقي.

٤) الوضع بين أقواس أو تعليق الحكم epoché: وينطوي المنهج الظاهري على تعليق الحكم بالنسبة إلى وجود العالم أو الأشياء، وهو تعليق لا يتناول فقط الوقائع الفزيائية أو النفسية، بل وأيضاً المقولات، والمعاني، والماهيات والقيم والموضوعات القرنية، إلخ.

٥) ويسمى المنهج الظاهري إلى غاية ميتافيزيقية هي المثالية المتعالية. لكن هذه المثالية المتعالية تتميز بالموضوعية الدقيقة تجاه المحطات، وينبغي عليها ردّ هذه المعطيات إلى النشاط البنائي للشعور.

راجع المزيد في مادة: هسرل.

## مراجع

- F. Kreis: Phänomenologie und Kritizismus, Tübingen, 1930.
- G. Misch: Lebensphilosophie und Phänomenologie, Bonn, 1931.
- E. Fink: Studien Zur Phänomenologie (1930-1939). Den Haag, 1966.
- L. Landgrebe: Phänomenologie und Metaphysik. Hamburg, 1949.
- A. Reinach: Was ist Phänomenologie? München, 1951.
- J. F. Lyotard: La phénoménologie. Paris, 1954.
- H. Spiegelberg: The Phenomenological Movement, 2 vols. Den Haag, 1960; 2 nd ed. 1966.
- P. Valori: Il metodo fenomenologico e la fondazione della filosofia. Roma, 1959.
- F. Costa: Cosa è la fenomenologia. Milano, 1962.
- E. W. Strauss: Phenomenology: Pure and Applied. Louvain, 1964.
- L. Landgrebe: Der Weg der Phänomenologie. Gutersloh, 1964.
- C. Sini: Introduzione alla fenomenologia come scienza. Milano, 1965.

معنى الظواهر؟ وهذا السؤال ينبغي حله دون أن تترك ميدان الظواهر. ومن هنا انتهى بيركلي إلى قوله المشهورة: «أن يكون موجوداً هو أن يكون مدركاً بالحس» *esse est percipi*. وهذا القول لا ينكر الوجود، بل يضعه في الإدراك. إنه لا يقول إننا أدركنا الوجود إدراكاً زائفاً، بل يقول إن الوجود لشيء هو أن يكون مدركاً، إن ماهيته تقوم في كونه مدركاً. إن الوجود ليس شيئاً مجرداً قائماً في ذاته.

وجاء كنت فقرر أن عالم الوعي الإنساني هو عالم ظواهر.

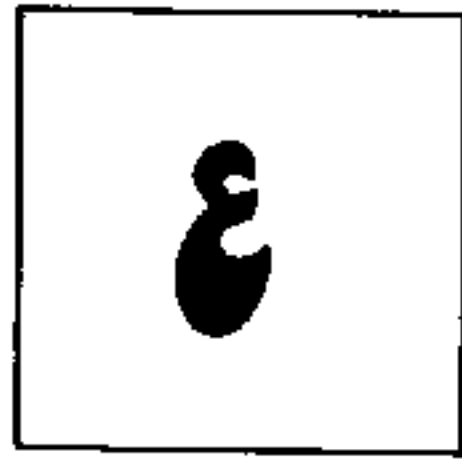
#### مراجع

- E. Boirae: L'idée de phénomène. Paris, 1894.
- N. Goodman: The Structure of Appearance. Cambridge (Mass.), 1951.
- H. Barth: Philosophie der Erscheinung, 2 Bde. Basel, 1947, und 1959.

«مخاورات بين هيلاس وفيلونوس»: «كل ما تعرفه هو أن هذا الانتشار أو الظاهر موجود في عقلك. أما ما هو هذا في مواجهة الحجر الحقيقي أو الشجرة الحقيقية، أقول لك: إن اللون والشكل والصلابة التي ندركها ليست الطبيعة الحقيقية، للأشياء، أو على الأقل مساوية لها. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن سائر الأشياء أو الجواهر الجسمية التي يتألف منها العالم لا شيء منها له ما يشبه هذه الصفات التي أدركها بالحس» (جورج بيركلي: «ثلاث مخاورات بين هيلاس وفيلونوس»، المحاورات الثلاثة في بدايتها).

وكان لوك قد ميز بين الصفات الأولية والصفات الثانوية للأشياء التي ندركها بالحس: فالصفات الأولية ترجع إلى الأشياء ذاتها، أما الصفات الثانوية فنحن الذين نعزوها إلى الأشياء بقدر ما ندركها بالحس. فجاء بيركلي فأنكر هذه التفرقة، لأنها لا تتفق مع التجربة، لأنه ما دامت الصفات الأولية لا تظهر لنا إلا على شكل الصفات الثانوية، فإنها لا تكشف لنا شيئاً سوى ما تكشف عنه الصفات الثانوية. إن ما ينكشف لنا هو مجرد ظواهر. ولهذا فإن السؤال الباقي هو: ما







## (مصطفى) عبد الرازق

## أستاذ الفلسفة الإسلامية في الجامعة المصرية.

هو مصطفى بن حسن بن أحمد بن محمد بن عبد الرازق. وكان أبوه رأس أسرة عبد الرازق، التي كان جدها قد ولي قضاء البهنسا. وتعلم أبوه حسن في الأزهر نحواً من ثمانين سنين أو تسع، وكان من شيوخه الشيخ الحضري الدمياطي، والشيخ الأشمونني، والشيخ نصر الهوريني، وهو من أفاضل علماء الأزهر. وكان مجيداً لعلوم الأدب والنحو وعلوم اللغة، وكان يقرض الشعر، واستطاع «أن ينمي ثروة العائلة ويرفع اسمها، فكبر شأنه وعلا مقامه بين أهالي مديرية المنيا» (من مقدمة علي عبد الرازق لنشرته: «من آثار مصطفى عبد الرازق» ص ١١، القاهرة سنة ١٩٥٧). وانتخب عضواً في مجلس النواب في عهد الخديوي اسماعيل نائباً عن مديرية المنيا. ولما حل مجلس النواب وانشأ ببلده مجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٤ انتخب عضواً فيه أيضاً عن مديرية المنيا وبقي فيه أكثر من ١٨ عاماً. واشترك مع محمد عبده في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية بالقاهرة، وقاموا بالدعوة إلى جمع التبرعات لإنشاء مدرسة في بني مزار تابعة للجمعية الخيرية وأنشئت فعلاً. واشترك مع محمد باشا سليمان وعلي باشا شعراوي وإبراهيم باشا سعيد وغيرهم في إنشاء حزب الأمة في أوائل سنة ١٩٠٧، وصار هو وكيل هذا الحزب، وكان حزب الأمة حزباً سياسياً معتدلاً بين حزب الوطنيين وبين المتعاونين مع الانجليز ومع الخديوي. وتوفي حسن باشا عبد الرازق في ١٩٠٧/١٢/٢٥.

أما للشيخ مصطفى ابته فقد ولد في أبو جرج مركز بني

مزار (مديرية المنيا في صعيد مصر الأوسط) «ولا يعرف على وجه قاطع يوم مولده ولا شهره ولا سنة. وتدل القرائن وما تتداوله العائلة من أخبار وأحاديث على أن مولده كان حوالي سنة ١٨٨٥ م. والتحق بكتاب من كتّيب البلد... ثم باجر والده فارسله إلى الجامع الأزهر ليتلقى العلم فيه، وسنه بين العاشرة والحادية عشرة.» وبدأ يمارس الكتابة الأدبية وقرض الشعر، ونشر مقالات في جريدة «المؤيد». ونظراً إلى الصداقة المتينة بين والده والشيخ محمد عبده، فقد نشأت العلاقة بين الإمام محمد عبده والشيخ مصطفى، ولما عاد محمد عبده من أوروبا، هنأه الشيخ مصطفى بقصيدة نشرت في مجلة «المنار» (١٩٠٣/١٠/٢٢).

وحصل الشيخ مصطفى على العالمية، وهي الدرجة النهائية في الدراسة بالأزهر، ويتقدير الدرجة الأولى، وذلك في يوليو سنة ١٩٠٨. في أثر ذلك انتدب في ١١ أغسطس سنة ١٩٠٨ للتدريس في مدرسة القضاء الشرعي، لكنه ما لبث أن استقال منها في ١٩٠٩/٣/١٦.

وقرر أن يسافر إلى فرنسا لإتمام دراسة اللغة الفرنسية التي كان قد بدأها في مصر في مدرسة عمل على إنشائها الشيخ عبد العزيز جاويز. فسافر إلى فرنسا في يونيو سنة ١٩٠٩، وكان يرافقه في سفره الأستاذ أحمد لطفي السيد (باشا). وأمضى الشيخ مصطفى في باريس «ثلاث سنوات متتابعات، فلم يعد إلى مصر إلا في شهر يوليو سنة ١٩١٢. ولا شك في أن حياته في تلك السنوات قد غيرت فيه كثيراً، وأنها كانت ذات أثر خطير في تاريخه». (الكتاب نفسه ص ٤٩). وقد كتب محمد كرد علي في مذكراته عن حياة الشيخ مصطفى في فرنسا فقال: «وسافر إلى باريس سنة ١٩٠٩، فتعلم

«السفور» طوال أكثر من عامين. وفي أوائل أكتوبر سنة ١٩١٥ عين موظفاً في المجلس الأعلى للأزهر، فلم يرق ذلك للأزهريين نظراً إلى تحرر الشيخ مصطفى ومقالاته الحرة في مجلة «السفور»، وازداد له عداوة لما أن عين سكرتيراً للمجلس الأعلى للأزهر، فاضطر بسبب دسائسهم إلى الاستقالة، لكنه ما لبث أن عدل عنها بتدخل من حسين رشدي باشا رئيس الوزراء.

ولما قامت ثورة سنة ١٩١٩ تألف الحزب الديمقراطي وكان أكثر رجاله من جماعة مجلة «السفور»، فكان فيه الشيخ مصطفى من الأعضاء البارزين الشيطيين. وطلب إليه سعد زغلول أن يشترك في الوفد المسافر إلى فرنسا لعرض قضية مصر على مؤتمر فرساي، لكن أسرته رفضت هذا العرض.

ولإبعاده عن الأزهر، صدر قرار من مجلس الوزراء في ١٩٢٠/٩/٤ بتعيينه مفتشاً للمحاكم الشرعية.

وفي أواخر عام ١٩٢٧ عرض عليه أن ينقل من تفتيش المحاكم الشرعية إلى وظيفة أستاذ مساعد للفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية، فنقل إليها من أول نوفمبر سنة ١٩٢٧.

ثم صار أستاذاً ذا كرسي للفلسفة الإسلامية في أول أكتوبر سنة ١٩٣٥، وظل في هذا المنصب حتى ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ حين عين وزيراً للأوقاف في وزارة يرئسها محمد محمود باشا. واستمر وزيراً للأوقاف من ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ حتى يونيو سنة ١٩٣٨. ثم أعيد تأليف وزارة محمد محمود في ٢٥/٦/٣٨ فبقي فيها وزيراً للأوقاف مرة ثانية إلى ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٩. ثم تألفت وزارة حسن باشا صبري في ٢٨ يونيو سنة ١٩٤٠ فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة ثالثة. وتألفت وزارة حسين سري في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة رابعة لغاية ٣١ يوليو سنة ١٩٤١. ثم سقطت وأعيد تأليفها في اليوم نفسه، فدخل وزارة الأوقاف مرة خامسة إلى ٥ فبراير سنة ١٩٤٢. وفي سنة ١٩٤١ منح رتبة الباشوية، وكان قد منح رتبة البكوية من الدرجة الثانية في ٢ فبراير سنة ١٩٣٧. وتألفت في ٩ أكتوبر سنة ١٩٤٤ وزارة أحمد ماهر فدخل فيها وزيراً للأوقاف مرة سادسة. وتألفت على أثرها وزارة محمود فهمي النقراشي في أول مارس سنة ١٩٤٥ فصار فيها وزيراً للأوقاف مرة سابعة، وبقي فيها إلى أن عين شيخاً للجامع الأزهر في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٥.

الفرنسية، وحضر دروس الأستاذ دركهيم في الاجتماع، ودرساً في الآداب وتاريخها. وفي سنة ١٩١١ تحول إلى مدينة ليون ليشتغل مع الأستاذ أدوارد لامير في دراسة أصول الشريعة الإسلامية. وحضر في جامعة ليون دروس الأستاذ جويلو في تاريخ الفلسفة ودرساً في تاريخ الأدب الفرنسي. وتولى تدريس اللغة العربية في كلية ليون مكان مدرّسها الذي كان قد ندب للتدريس في الجامعة المصرية.

وجاء في ملف خدمته بالحكومة المصرية ما نصه: وكلف، أثناء إقامته بمدينة ليون، بالتدريس بدلاً من جناب الأستاذ قبيت، الذي كان متديباً للتدريس بالجامعة المصرية القديمة. وقد أعد رسالة للتقدم بها لامتحان الدكتوراه في الآداب موضوعها الإمام الشافعي، أكبر مشرعي الإسلام. وقد أخرج بالاشتراك مع المسيو برنار ميشيل ترجمة دقيقة بالفرنسية لكتاب الشيخ محمد عبده موضوعه والعقيدة الإسلامية.

وعاد من جديد إلى فرنسا في ١٢/١٠/١٩١٢ فأقام في باريس وفي ليون بخاصة. وفي ١٩/٢/١٩١٤ أصيب بحالة بسيطة من حالات السل، فدخل مستشفى للأمراض الصدرية في ضواحي ليون. وانصرف إلى تجميع مذكراته اليومية يودع فيها ذات نفسه ودخائل حياته وحوادث يومه. وفي هذه الأثناء بدأ يكتب مقالات (بعنوان) «صفحات من سفر الحياة».

لكنه لم ينشر من «مذكراته» هذه إلا صفحات قليلة أثناء حياته، وتركها مخطوطة لدى أسرته بعد وفاته. ولم ينشر أخوه علي عبد الرازق هذه المذكرات لأنه رأى وأن ذلك حق خلاص لأولاده وذريته (ص ٥١ من مقنة كتاب «من آثار مصطفى عبد الرازق»). ورغم مرور أكثر من ٣٥ عاماً على وفاته لم ينشرها أحد من أولاده حتى الآن، وهو أمر يدعو إلى الأسف الشديد. ولو كنت علمت بوجودها أثناء حياته لتلقت إليه ودفعته إلى نشرها كما فعلت مع كتابه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» الذي لولاي لظل حبيس المخطوط حتى الآن.

واستمر في المستشفى إلى أواخر عام ١٩١٤ حين اضطر إلى العودة إلى مصر بعد قيام الحرب العالمية الأولى في يوليو سنة ١٩١٤ وعودة معظم المصريين المقيمين في أوروبا.

ولما عاد إلى مصر أخذ يكتب مقالات أدبية في مجلة

٢- «فيلسوف العرب والمعلم الثاني» ط١، القاهرة، سنة ١٩٤٥.

والكتاب الأول ويشتمل على بيان لمنازع الغريبيين والإسلاميين ومناهجهم في دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها. والباحثون من الغريبيين كأنما يقصدون إلى استخلاص عناصر أجنبية في هذه الفلسفة، ليردوها إلى مصدر غير عربي ولا إسلامي، وليكشفوا عن أثرها في توجيه الفكر الإسلامي. (من مقدمة الطبعة الأولى). أما الشيخ مصطفى فيريخ إلى منهج آخر في درس تاريخ الفلسفة الإسلامية «فهو يتوخى الرجوع إلى النظر العقلي الإسلامي في سذاجته الأولى، وتتبع مدارجه في ثنايا العصور وأسرار تطوره. ويولي بيان هذا المنهج، تطبيق له وتوضيح بما هو أشبه بالنموذج والمثال.». وقد أضاف إلى هذا «التمهيد» وضميمة في علم الكلام وتاريخه، ليست مقطوعة الصلة به، إذ هي لا تعدو أن تكون نموذجاً أيضاً من نماذج المنهج الجديد.

والجديد في هذا المنهج هو تلمس الفلسفة الإسلامية في أصول الفقه. ولهذا نراه يتبع «الرأي» - أي الاجتهاد - في الفقه منذ عهد النبي حتى الشافعي. ومن البين أن الاجتهاد في الفقه لا شأن له بالفلسفة بالمعنى المحدود المفهوم والمتفق عليه بين المشتغلين بالفلسفة. وقصارى أمره أن يكون من أبواب «فلسفة القاتون»، أو بحثاً في المنهج المستخدم في استنباط الأحكام الفقهية.

أما الكتاب الثاني فيحقق بعض الجوانب المتصلة بحياة الكندي والفارابي وابن الهيثم.

#### مراجع

- «من آثار مصطفى عبد الرازق: صفحات من سفر الحياة، ومذكرات مسافر، ومذكرات مقيم، وآثار أخرى في الأدب والاصلاح»، صدرها بنيلة عن تاريخ حياته: شقيقه علي عبد الرازق، مع مقدمة بقلم طه حسين. دالر للمعارف بمصر سنة ١٩٥٧ في ٥٠٢ ص.

#### عدالة التعويض وعدالة التوزيع

##### Justice commutative et Justice distributive

في المقالة الخامسة من «الأخلاق إلى نيقوماخوس» يميز

وتوفى في يوم السبت ١٥ فبراير سنة ١٩٤٧، ودفن بمقابر الإمام الشافعي في مدفن الأسرة في اليوم التالي.

وقد تلمذت عليه طوال أربع سنوات في كلية الآداب بالجامعة المصرية من أكتوبر سنة ١٩٣٤ حتى أبريل سنة ١٩٣٨.

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق المثل الكامل للفضيلة والمروعة والإنسانية. وكان كثير الإحسان، رقيق الطبع، عياً للخير، يرعى طلابه والمتصلين به وكل من قصده أجل رعاية، ويسعى لهم في قضاء ما يستطيع قضاءه من حوائجهم. وكان عالي النفس، حريصاً على كرامته، ينصف المظلوم من الظالم بحصافة وحزم.

أما في التدريس فكان يعتمد أساساً على النصوص والتون، ويطلب في شرحها وفي استخراج ما تطوي عليه. ولعل ذلك بتأثير نشأته الأزهرية. وهو منهج يدرّب الطالب على فهم عميق للنصوص أكثر مما يهيئه للبحث المستقل وإبداء النظرات الشاملة وتلمس الآراء الجديدة. وعلى الرغم من إقامته الطويلة في فرنسا - أكثر من خمس سنوات - فقد كان نادراً ما يمزج بين المناهج الأوروبية في البحث العلمي وبين الطريقة الأزهرية في التعلق بالنصوص. وحتى حين يعرض آراء الأوربيين في الفلسفة الإسلامية، كان يكفي بالسرردون المناقشة، مكثفاً في الخاتمة يعرض موقفه المحافظ الأقرب إلى المنقول. لقد كان محافظاً في آرائه العقلية، رغم أنه كان منفتحاً في آرائه الاجتماعية إلى حد بعيد، بل ويعيد جداً بالنسبة إلى نشأته الأزهرية.

فهو من دعاة تحرير المرأة، ومن دعاة الديمقراطية. وهو يسخر مرّ السخرية من رجال الدين الأزهريين، وما يترك فرصة حتى يتهمهم فيها بالجهل، والتناق، والفساد، والطمع في المال والتوسل بالفتاوى لاجتلاب المنافع لدى أصحاب الجله أو أصحاب النفوذ أو أصحاب الشركات والتجار ورجال الأعمال (راجع مثلاً صفحة ٤٧٤ - ٤٧٦)، وحققتهم وطيشهم في تكفير الناس لشهوات في أنفسهم هم (ص ٤٣٠، ص ٤٣٤: «هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين في مصر»، إلخ).

ومؤلفاته في تاريخ الفلسفة الإسلامية كتابان:

١- «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»، ط١، مطبعة

لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٤٥.



تفسر عدالة التوزيع، بسبب تنوع الأموال التي يمكن تبادلها بين الناس؛ لكن أسوأها هي تلك التي تقوم في أن تأخذ دون أن تعطي في مقابل ما تأخذ، وأخطر أحوال هذا الضرب من فساد العدالة هو أن تأخذ من شخص آخر ما يجرمه من كل شيء، أعني حياته. أما تضحية النبات للحيوان، والحيوان للإنسان فهو - في نظر القديس توما - أمر طبيعي. أما قتل إنسان ظمناً فهو أشنع أنواع الظلم. صحيح أن هناك قتلاً مشروعاً، وهو الذي يحكم به القاضي المعين بطريقة قانونية، إذ لا يحق لأي إنسان كائناً من كان أن ينصب نفسه قاضياً، بل المحاكم المشكلة بطريقة قانونية، معترف بها قانوناً هي وحدها صاحبة الحق في إصدار حكم الإعدام على شخص ارتكب جريمة يستحق عليها الإعدام، Sum. Theol. II<sup>a</sup>, II<sup>a</sup>, art. 1 (63,3 ad Resp. et Quodlib. X, qu 6, art. 1).

### العدم

Néant (F.) Nothingness (E.), Nichts (G), Nulla (I.)

العدم انتفاء الوجود، ولهذا لا يتصور إلا بالوجود، وذلك بتصور الوجود أولاً ثم نفي هذا التصور بعد ذلك. ولهذا فإن تصور العلم تصور حقيقي. صحيح أنني لا أستطيع تصور العلم المطلق، بسبب بساط وهو أن تصوري إياه معناه في الوقت نفسه وجودي أنا الذي أتصوره، وبالتالي هناك وجود هو وجودي أنا الذي أحاول تصور عدم مطلق.

ومشكلة العلم أثبتت في الفلسفة اليونانية منذ وقت مبكر جداً، خصوصاً في المدرسة الإيلية، إذ قرر برميندس أنه ليس هناك إلا الوجود، أما اللاوجود فليس بوجود. ومن ثم قالوا إنه من العلم لا ينشأ شيء، وتقرير عكس ذلك معناه القضاء على مبدأ العلية. ويعكس هذا قال فلاسفة العصور الوسطى في أوروبا إذ قالوا إن الأشياء خلقت من العلم. أما المتكلمون المسلمون فقالوا إن الله خلق العالم «لا من شيء». غير أننا لا نجد في الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى، ولا

في القرآن، التعبير: الخلق من العلم (أو ما يقابله في اللغات الأخرى)؛ وكل ما هنالك عبارة وردت في سفر المكابيين الثاني (اصحاح ٧ عبارة ٢٨) تقول إن الله خلق السموات والأرض وكل ما فيهما «ولا من موجودات» οὐκ ἐξ ὀντων، وإلى هذه العبارة استند بطرس الهرماسي ومن بعده من آباء الكنيسة، من أجل تقرير

لرسلو بين نوعين من العدالة: عدالة التعويض وعدالة التوزيع: الأولى تختص بالمبادلات بين الأفراد، والثانية تتعلق بتوزيع الثروة المشتركة في المجتمع أو الدولة بين أفراده. الأولى تتم بين فرد وفرد، والثانية بين الكل والأفراد المؤلفين لهذا الكل.

وقد توسع القديس توما الأكويني في بيان هذا التمييز In V. Eth., Lect. 4 éd. Piritta n. 927-937, pp. 308-311 وراجع أيضاً Sum. Theologiae, I<sup>a</sup>, II<sup>a</sup>, 61, 1 ad. Resp. فلاحظ أن الدولة حين توزع الخيرات بين أعضائها تراعي مركز الأفراد في الدولة. وهذه المراكز ليست متساوية، لأن كل مجتمع يتألف من بنية ترتيبية كما أنه من طبيعة كل هيئة سياسية منظمة ألا يكون كل أعضائها في نفس المركز والمستوى. وهكذا الحال في النظم السياسية: ففي النظام الاستقرائي تتحدد المراتب وفقاً للقيمة والفضل؛ وفي النظام الأوليغاركي، تقوم الثروة مقام النبالة، وفي الديمقراطية تحدد الخيرات التي يستمتع بها الأفراد مراتب هؤلاء. وهكذا نرى أن كل فرد في الدولة يتلقى من المزايا ما يتناسب مع المكانة التي يمتلكها إما بحسب نباله، أو بحسب ثرائه، أو بحسب الحقوق التي استطاع اكتسابها. ومثل هذه العلاقات لا تقوم إذن على مساواة حسابية، بل كما يقول أرسطو على أساس تناسب هندسي. ويكون من الطبيعي حيثئذ أن يحصل البعض على أكثر مما يحصل عليه البعض الآخر لأن التوزيع يتم وفقاً للمراتب. والعدالة تتحقق إذا حصل كل واحد على النصيب الذي تؤهله له مكانته.

أما في العدالة بين الأفراد بعضهم وبعض، فالأمر على خلاف هذا. إذ يتعلق بأن يرد كل واحد للآخر جزء ما تلقاه منه. وهذه حال عمليات البيع والشراء، وهما النمط النموذجي للتبادل. والعدالة تقوم حيثئذ في تنظيم عمليات التبادل بحيث لا يعين فرداً فرداً آخر في التبادل، بل يتلقى كل واحد بحسب ما أعطى الآخر. فالعدالة هنا مساواة حسابية (Sum. Theolog. II<sup>a</sup> II<sup>a</sup>, 61, 2, ad. Resp.).

والعدالة التوزيعية تفسد بالمحاباة؛ وليست المحاباة أن تخص أبناءك وأقربائك بالميراث؛ وإنما المحاباة هي أن تعين - مثلاً - أستاذاً فلاتاً من الناس لأنه قريبك أو محسوبك؛ لا لأن علمه يرشحه هذا المنصب.

وتفسر عدالة التعويض بعوامل كثيرة أكثر من تلك التي

إلى التحدّد، الذي للوجود». وأخذ بقول امينوزا إن «كل تحديد سلب» *Omnis determinatio est negativo*، لأن احتمال تصورات محددة يتضمن نفي صفات أخرى، لأن هذه التصورات لا يتحدّد معناها إلا بأضدادها. وهذا الارتباط بين السلب والوجود العيني (Dasein) هو تجلّ للسلب القائم جوهرياً والمقوم للوجود العيني.

ثم جاء برجونون فذهب إلى أن العلم وهم، نشأ عن كوننا ننقل إلى النظر العقلي مسلماً يستخدم في العمل. ذلك أن كل فعل إنما يهدف إلى الحصول على موضوع سيحرم منه الإنسان، أو إلى إيجاد شيء لم يوجد بعد. وهذا بجلاء خلاء، ويمضي من الخلاء إلى الملاء، ومن الغياب إلى الحضور، وما هو غير واقعي إلى ما هو واقعي. واللاواقعية هي سلبية خالصة بالنسبة إلى الاتجاه الذي اندرج فيه انتباهنا، لأننا غائصون في وقتل ولا نستطيع الخروج منها. لكن إذا كان الواقع الحاضر ليس هو ذلك الذي نبحت عنه، فإننا نتحدث عن الخلو من الثاني هناك حيث نشاهد حضور الأول، وهكذا نعبر عما لدينا بحسب ما نودّ الحصول عليه. وهذا أمر مشروع جداً في ميدان العمل. لكن شئنا أو أيننا، فإننا نحفظ بينه الطريقة في الكلام والتفكير حين ننظر في طبيعة الأشياء مستقلة عن الفائدة التي لها بالنسبة إلينا. وهكذا ينشأ وهم العلم، ويرجع إلى عادات استاتيكية يتخلها عقلنا حين يحضّر لفعالنا في الأشياء. وكما أننا نمر بالثابت من أجل الوصول إلى المتحرك، فكذلك نستخدم الخلاء لنفكر في الملاء. إننا نمضي من الغياب إلى الحضور، ومن الخلاء إلى الملاء، بفضل الوهم الأساسي لعقلنا. [راجع برجونون: «التطور الخلق» ص ٢٩٦-٢٩٨؛ وراجع «الفكر والمتحرك» ص ١٢٢-١٢٤]. وفي إثره قال إدوار لوروا: «على أي نحو كان، فإن فكرة العلم المطلق لا يمكن تصورها عقلياً ولا تخيلها بالخيال. لأن العلم ليس بشيء، لا بد من التفكير في شيء أو عدم التفكير مطلقاً، حتى إن الفكر في العلم لن يكون إلا عدماً للفكر». (إدوار لوروا: «بحث في فلسفة أولى» ط ١ ص ٨٩. باريس سنة ١٩٥٦).

وعلى النقيض تماماً من برجونون جاء هيدجر فأكد حقيقة العلم، فقال: «إن في تركيب السقوط *Verfallen*، كما في تركيب الاشتراع، يقوم العلم جوهرياً. وهذا العلم هو الأساس لإمكان الأنية الزائفة في سقوطها؛ وكل أنية زائفة هي في واقعها سقوط. والمهم *Sorge* هو في حقيقته يشيع فيه العلم

مذهب الخلق. (كتب الآباء اليونان، نشرة ميني PG ج ٢ عمود ٩١٣).

وقد تناول المتكلمون مشكلة العلم على النحو التالي: هل المعلوم هو لا شيء أو هو شيء؟ وقد اختلف حيالها المعتزلة، وأهل السنة: (١) فقال جميع المعتزلة، باستثناء هشام ابن عمرو الفوطي (المتوفى سنة ٢٢٦ / ٨٤٠م) إن المعلومات أشياء [ابن حزم: «الفصل» ج ٤ ص ٢٠٢ س ٢-٣]. وكان أول من قال منهم بهذا القول الشحام (المتوفى ٢٣٦هـ / ٨٥٠م) [راجع الشهرستاني: «نهاية الإقدام في علم الكلام» ص ١٥١ س ٢-٣]. ٢٢١ وقال أهل السنة والجماعة، أعني الأشاعرة، إن المعلوم ليس بشيء.

أما عند الفلاسفة المسلمين فإننا نجد في ترجمات مؤلفات أرسطو استعمال كلمة «الليس» في مقابل «اليس» للدلالة على اللاوجود في مقابل الوجود. ومن هذه الترجمات انتقلت الكلمة إلى الكندي (راجع رسالته «في حدود الأشياء»). لكن يبدو أن كلمة «الليس» قد هجرت فيما بعد، ربما تحت تأثير المتكلمين، وصار المستعمل لدى الفلاسفة المسلمين هو كلمة «المعلوم» بمعنى «العدم». يقول ابن سينا عن المعلوم: «المعلوم على الإطلاق لا قوة فيه يقبل بها الوجود من موجده، فلا يوجد ألبتة؛ وليس كذلك: الممكن، فإن فيه قوة، فلذلك يوجد، ولولاها لما كان يوجد» (ابن سينا: «التعليقات» ص ١٧٦، نشرة د. عبد الرحمن بدوي، القاهرة سنة ١٩٧٣). ويقول عن إعادة المعلوم: «إعادة المعلوم لا تصح، فإنه لا يكون للمعلوم عين ثابت مشار إليه في حالة العلم حتى يمكن إعادته بعينه، بل إن كان فالذي يقال إنه أعيد هو مثل المعلوم، لا عينه» (الكتاب نفسه ص ١٤٩). وهو في هذا يرد على قول بعض المعتزلة إن المعلوم موجود في الأعيان الثابتة (راجع شرح الجرجاني على «العقائد»).

أما في العصر الحديث فإن أول فيلسوف اهتم بمشكلة العلم هو هيجل؛ وقد تناوّلها خصوصاً تحت معنى السلب. ذلك لأنه قرر أن في كل موجود سلباً. وهو يربط السلب بالذات، إذ من طبيعة الذات أن تعود إلى نفسها (الوعي الذاتي) من خلال مقابلتها، ولهذا يقول («ظاهريات العقل»، ٢٠) إن الجوهر، بوصفه ذاتاً، هو سلب بسيط محض. ولهذا يقرر أيضاً أنه «لا شيء في السماء ولا على الأرض لا يحتوي في ذاته على الوجود والعلم» («المنطق الأكبر» الفصل الأول). وعنده أن «العدم نفس التحدّد، أو بالأحرى نفس الافتقار

غَدماً للعالم، أي إذا كان في إعدامه يتجه صراحة إلى هذا العالم لكي يتكون كرفض للعالم. إن العدم يحمل في قلبه الوجود. لكن بماذا يفسر الانبثاق هذا الرفض للعدم؟ ليس العلو، الذي هو «مشروع ذاته من وراء...» هو الذي يمكنه أن يؤسس العدم، بل بالعكس: العلم هو الذي يوجد في جِصن العلو ويقوم شرطاً له. (ص ٧٢ من ترجمتنا، بيروت، سنة ١٩٦٦).

ويتساءل (ق'، ف'، بنده) عن الأصل في العدم. إنه يرى أن الوجود مليء، متكامل. فمن أين جاء هذا الشق الذي هو العدم؟ ويحيب بأن الشق الذي لولج العدم في الوجود هو الوعي (الشعور) الإنساني، أو الحرية لأن الإنسان بجوهره حر.

#### مراجع

- Hegel: Logik
- Bergson: L'Evolution créatrice, pp. 298- 322.
- Bergson: La Pensée et le mouvant, pp. 122- 124.
- Heidegger: Sein und Zeit, 58.
- Heidegger: Was ist Metaphysik?
- J.P.Sartre: L'Etre et le néant, pp. 46- 80.

#### العقل

يمكن تعريف العقل بعدة تعريفات:

الخفوه في المقام الأول: ملكة إدراك ما هو كلي وضروري سواء أكان ماهية أو قيمة.

ويعبر عن نفس المعنى تقريباً بطريقة أخرى، فيقال إن العقل هو «ملكة الربط بين الأفكار وفقاً لمبادئ كلية».

لكن مجرد «الربط» بين الأفكار لا يكفي لتحديد العقل، إذ الحيوان يربط بين الصور الحسية فيتوقع تعاقب صورة بعد صورة، بحسب ما اعتاد عليه من رؤيتها متعاقبة. أما الإنسان العاقل فيدرك أن هذا التعاقب يتم وفقاً لبداً ضروري كلي.

ومن هنا أيضاً يمكن أن نحدد العقل بأنه «قوانين الفكر

شيوياً شاملاً. وهكذا فإن المهم وهو وجود الآنية. يعني، بوصفه اشتراعاً مقنوقاً به، الوجود أساساً للعدم (وهذا الوجود أساساً هو نفسه عدم). ومعنى هذا أن الآنية بما هي كذلك خاطئة، إذا صح تعريفنا الوجودي للخطيئة بأنها «الوجود أساساً للعدم».

والعدم، بالمعنى الوجودي، ليس له أبداً طابع عدم الحصول، حيث يتفحص شيء بالمقارنة مع مثل أعلى موضوع لكنه لم يتحقق في الآنية. بل الأولى أن يقال بأن وجود هذا الموجود هو معدوم بوصفه اشتراعاً، وهو عدم قبل أي شيء من الأشياء التي يمكنها أن تشرعها وفي الغالب تحصلها. ولهذا فإن هذا العلم ليس شيئاً ينبثق في الآنية مصادفة، ويلصق نفسه بها كصفة غامضة يمكن الآنية أن تنبذها لو قامت بمجهود كافٍ.

وعلى الرغم من هذا، كان المعنى الانطولوجي لعدم Nichtheit هذا العدم الوجودي لا يزال غامضاً. لكن هذا نفسه يصدق أيضاً على الماهية الانطولوجية: «ليس» nicht بوجه عام. صحيح أن الانطولوجيا والمنطق اقتضيا الكثير من «ليس»، وهذا جعلوا إمكانياتها مرتبة على نحو متقطع؛ لكنها هي نفسها لم يكشف عنها انطولوجيا. لقد التقت الانطولوجيا بـ «ليس» واستخلفتها. لكن هل من البين أن كل «ليس» تعني شيئاً سلباً بمعنى النقص؟ وهل إيجابها يستنفذ بكونها تؤلف «مروراً فوق» شيء؟ لماذا يتخذ كل ديالكتيك ملاذاً له في السلب، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يأتي بأسباب ديالكتيكية لهذا النوع من الشيء، أو حتى يصوغ منه مشكلة؟ هل جعل أحد من المصدر الانطولوجي للعدم مشكلة، أو قبل ذلك، بحث في الشروط (الأحوال) التي على أساسها يمكن إثارة مشكلة الـ «ليس» وليسيتها وإمكان علمها؟ وكيف يمكن العثور على هذه الشروط (الأحوال) دون اتخاذ معنى الوجود بعامة موضوعاً و«ابضاحه؟» (هيدجر: «الوجود والزمان» § ٥٨ ص ٢٨٥-٢٨٦)

والذي يكشف عن العدم في الوجود هو القلق.

وفي إثر هيدجر جاء سارتر في كتابه «الوجود والعدم» (القسم الأول، الفصل الأول § ٥-٣) وانتهى إلى أن «العدم هو الأصل في الحكم السالب لأنه هو نفسه سلب. وهو يؤسس السلب كفعل، لأنه هو السلب بوصفه وجوداً. والعدم لا يمكن أن يكون عدماً، إلا إذا انعدم صراحة بوصفه

وهذان المعنيان يستبدل بهما الآن: العيان العقلي -intui-  
intuition، والعيان التجريبي intuition empirique (راجع كوفيه  
Cuviller: Traité de Philosophie (t. 2).

والقديس توما يقول إن العقل النظري والعقل العملي  
ليسا ملكتين متميزتين، وإنما يتميزان بالغاية التي يهدفان  
إليها.

٣- ويشير الفارابي إلى استعمال للفظ «العقل» عند  
الجدليين، ويقصد بهم المتكلمين من رجال الدين والفقهاء،  
وذلك حين يقولون: إن هذا يوجه العقل، أو يتفيه العقل-  
فإنهم يعنون به: المشهور في بادئ الرأي عند الجميع، فإن  
بادئ الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمونه: «العقل»  
(الكتاب نفسه، ص ٨٩).

والعقل بهذا المعنى هو ما يسمى في الفرنسية le bon  
sens وفي الانجليزية common sense، وهو الذي وصفه  
ديكارت في بدء «مقاله عن المنهج» فقال إنه «أعدل الأشياء  
قسمة بين الناس».

٤- والعقل عند أفلاطون، وكذلك عند أرسطو، قوة أو  
ملكة أو جزء من النفس، ويتميز بين سائر قوى النفس التي  
هي الإحساسات والخيال والشهوة والانفعال. ويميزان بين  
النفس والعقل أحياناً، على أساس أن النفس هي مبدأ الحياة  
وكل ألوان النشاط الحيوي، بينما العقل هو مبدأ المعرفة  
والرؤية والتقدير. وفي هذا المجال يستخدم أرسطو التعبير  
«النفس الناطقة» للدلالة على العقل. وهذا عينه نجده بعد  
ذلك عند ديكارت، بيد أنه يدرج بين وظائف العقل:  
الإحساس، والتخيل، والانفعال، والشهوة. وبالمثل يقول  
لوك إن للعقل قوى مختلفة للمعرفة، ليس فقط قوة الفكر  
المجرد والبرهنة، بل وأيضاً الإحساس والتخيل، والإرادة.  
وفي نفس الاتجاه سار هيوم فقال: «لا شك في أن العقل مزود  
بقوى وملكات عديدة، وأن هذه القوى متميزة بعضها عن  
بعض».

٥- ومحمد برونشيج («كتابات فلسفية» ج ٢ ص ٨٤ وما  
يليه، باريس سنة ١٩٥٤) ثلاث وظائف للعقل هي:  
(أ) التجريد والتصنيف؛ (ب) التفسير؛ (ج) التنظيم.

٦- ويستعمل كنت العقل Vernunft بمعنىين أحدهما

الضرورية الكلية. والسؤال عن ذلك هو: هل هذه القوانين  
مستمدة من التجربة، أو هي سابقة عليها مغروزة في طبيعة  
العقل؟ بالأول قال التجريبيون: مثل لوك وهيوم؛ وبالثاني قال  
أفلاطون، وديكارت وكنت، وهيغل.

وسؤال آخر: هل هناك عقل كلي، أو لا يوجد غير  
عقول فردية لكل فرد من أفراد الإنسانية، وإن اتحدت في  
كيفية إدراكها؟ وهنا نجد من يقول- مثل هيغل- بوجود عقل  
كلي واحد، وإن التاريخ ليس إلا معرض تجلي هذا العقل  
الواحد.

٢- والعقل بوصفه ملكة، يقسم عند المشائية بعامة إلى  
عقل نظري، وعقل عملي. وقد عرفها الفارابي بدقة فقال:  
«العقل النظري هو قوة يحصل لنا بها بالطبع -  
لا يبحث ولا بقياس- العلم اليقين بالمقدمات الكلية  
الضرورية التي هي مبادئ العلوم، وذلك مثل علمنا أن  
الكل أعظم من جزئه، وأن المقادير المساوية لمقدار واحد  
متساوية، وأشباه هذه المقدمات. وهذه هي التي منها نبتدىء  
فنصير إلى علم سائر الموجودات النظرية التي شأنها أن تكون  
موجودة، لا يصنع انسان.. وهذا العقل قد يكون بالقوة،  
عندما لا تكون هذه الأوائل حاصلة له، فإذا حصلت له صار  
عقلاً بالفعل، وقوي استعداداً لاستنباط ما بقي. وهذه القوة  
لا يمكن أن يقع لها خطأ فيما يحصل لها، بل جميع ما يقع لها من  
العلوم صادق يقيني لا يمكن غيره» (الفارابي: «نصوص  
متزعة» ص ٥٠-٥١، بيروت سنة ١٩٧١).

والعقل النظري بهذا المعنى هو إدراك الأمور البديهية  
فقط.

أما والعقل العملي فهو قوة بها يحصل للإنسان، عن  
كثرة تجارب الأمور، وعن طول مشاهدة الأشياء المحسوسة-  
مقدمات يمكن بها الوقوف على ما ينبغي أن يؤثر أو يجتنب  
شيء من الأمور التي فعلها إلينا. وهذه المقدمات بعضها  
تصير كلية ينطوي تحت كل واحدة منها أمر، مما ينبغي أن يؤثر  
أو يجتنب؛ وبعضها مفردات وجزئية تستعمل أمثالات لما يريد  
الإنسان أن يقف عليه من الأمور التي لم يشاهدها. وهذا  
العقل إنما يكون عقلاً بالقوة ما دامت التجربة لم تحصل. فإذا  
حصلت التجارب وحفظت، صار عقلاً بالفعل. وتزيد هذا  
العقل الذي بالفعل بازدياد وجود التجارب في كل سن من  
أسنان الإنسان في عمره» (الكتاب نفسه، ص ٥٤-٥٥).

والعقل يكون نظرياً إذا تعلق بالمبادئ القبلية للمعرفة، ويكون عملياً إذا تعلق بالمبادئ القبلية للعمل أو الفعل.

وتنقد العقل المحض، هو الفحص عن حدود المعرفة العقلية المحض، وهذا الفحص هو الذي يجنبنا الوقوع في الدوغماتية الفكرية.

لكن العقل Vernunft عند هيجل يتخذ معنى مختلفاً تماماً: إنه الهوية بين الفكر وبين الوجود.

وهو في «التمهيد» Propädeutik وفي «دائرة المعارف» يفهم العقل بمعنى أنه الحقيقة في ذاتها وبذاتها؛ أما في «ظاهريات العقل» فإنه ينظر إلى العقل من حيث يتجلى في تاريخ المعرفة. وهو الثمرة الأولى لتوسط الضمائر بين بعضها وبعض، هذا التوسط الذي يوجد كلية الشعور بالذات. يقول هيجل في «التمهيد»: «العقل هو التوحيد الأعلى بين الشعور وبين الشعور بالذات، بين معرفة للوضوع ومعرفة بالذات. إنه اليقين بأن تحديداته موضوعية أي تحديدها لماهية الأشياء كما أنها أفكارنا نحن. إنه اليقين بالذات، إنه ذاتيته، كما أنه الوجود والموضوعية، وهذا يتم في نفس الفكرة الواحدة» (نشرة لسون، المجلد ٢١، ص ٢١٠) إن العقل يدل على مضمون ليس يوجد في امثالاتنا فقط، لكنه يحتوي على ماهية الأشياء، التي هي بدورها من نتاج الأنا.

وفي «ظاهريات العقل» ينظر إلى العقل على أنه لحظة خاصة أو جزئية في تطور الوعي أو الشعور بالمعنى الأوسع. إنه يناظر «شكل» (أو «صورة») الجوهر، لكن العقل هو ذلك الجوهر الذي يصير ذاتاً؛ ونصل إلى شكل الجوهر هذا حين يصبح الشعور بالذات كلياً، ويحمل في داخله عنصر المعرفة التي هي الهوية بين الوجود وفي الذات والوجود للشعور. وهيجل في «ظاهريات العقل» (أو «الروح») يصنف التاريخ العيني، للوعي الإنساني. وفيه يقدر أن الانتقال من الشعور الباكر إلى العقل شبيه بالانتقال من كنيسة العصور الوسطى إلى عصر النهضة، والعصر الحديث.

أوفي مقابل العقل يضع برجون: الوجدان intuition؛ ويقرر أن العقل أداة العلم، بينما الوجدان أداة الفلسفة. إن العقل لا يدرك إلا الصفي، والمنفصل، والكمي، والعدد، وما يوزن ويقاس، والمتجانس، وبالجملة:

واسع، والآخر ضيق محدود. والعقل بالمعنى الواسع يشمل الذهن Verstand، والعقل بالمعنى المحدود. والعقل بالمعنى الواسع هو ملكة المعرفة القبلية a priori، وهو ينبوع القبلي النسبي والقبلي المحض. ويتحقق في وظائف التفكير العقلية، وفي التصورات، والأحكام، وخصوصاً في أسس المعرفة.

إن العقل هو بالمعنى المحدود، وامتيازاً من الذهن. هو الملكة العليا للمعرفة، وهو الذي يحقق الوحدة العليا للتفكير. إنه «ملكة المبادئ». وملكة وحدة قواعد الذهن تحت المبادئ. وهو لا يتناول التجربة، بل الذهن، كما يوحد المعارف التي يدركها الذهن.

وكل معرفتنا تبدأ من الحواس، ومن ثم تنتقل إلى الذهن، وتنتهي في العقل. وليس فيما هو أسمي من العقل لمعالجة مادة العيان وردها إلى الوحدة العليا للفكر» (تنقد العقل المحض، ط ١ ص ٢٩٨ ط ٢ ص ٣٥٥).

ويمكن تلخيص خصائص العقل، بالمعنى المحدود، عند كنت، فيما يلي:

أ- إنه موجه نحو ما هو عالٍ transcendant، أي نحو ما يقع خارج نطلق التجربة الحسية؛

ب- إنه ينشد الكلية (الشمولية)، وهو سعي لا ينتهي إلا عند اللامشروط المطلق؛

ج- والمعرفة التي يدعيها لنفسه هي معرفة عن طريق المبادئ، وهي تختلف عن تلك المتحصلة عن طريق قواعد الذهن في أنه فقط بواسطة النشاط العقلي بعض الجزئيات يعرف أنها متضمنة في بعض الكليات، ويمكن استنباطها منها مباشرة. وبعبارة أبسط: العقل هو ملكة استنباط الخاص من العام.

فولما كان العقل لا يعني إلا بالذهن وأحكامه، فإنه ليس على علاقة مباشرة بموضوعات العيان الحسي.

أما الذهن Verstand فهو ملكة القواعد، لأنه ينزع إلى ربط كل ما هو معطى تحت قوانينه. وبوصفه محضاً، فإنه ينبوع التصورات القبلية (المقولات) والمبادئ. وهو «ملكة» ايجاد الامثالات، أو تلقائية المعرفة. وهو «ملكة التفكير في موضوعات العيان الحسي». والذهن هو ملكة التصورات والأحكام، والقواعد.

أو الواقع أو هو الإدراك المباشر لحقيقة أو واقعة ما.

ويطلق العيان بعلة معان متباينة، نحصر منها ما يلي:

٢- العيان الحسي *intuition sensible*: وهو الإدراك المباشر للمحسوسات، مثل إدراكي الألوان والأصواء الصادرة عن تفاعلة أراها أمامي، وإدراكي لطعمها إذا ذقتها، ولرائحتها إذا شممتها، إلخ. والإحساس الخالص لا وجود له، بل كل إحساس يختلط بمعرفة سابقة.

ب- العيان التجريبي *intuition empirique*، وهو الذي يسميه الفارابي وابن سينا باسم: العقل المستفاد. وهو الإدراك المباشر الناشئ عن الممارسة المستمرة، مثل إدراك الطبيب الماهر لداء المريض من مجرد مشاهدته، وقيل إجراء فحوص وتحاليل طبية.

٣- العيان العقلي *intuition intellectuelle*: وهو الإدراك المباشر دون براهين - للمعاني العقلية المجردة التي لا يمكن إجراء تجارب عملية عليها، مثل إدراك أن العدداً متناه، وإدراك لا نهائية المكان والزمان.

٤- العيان التنبؤي أو الحدسي *intuition devinatrice*: يحدث أحياناً في الاكتشافات العلمية أن تكون نتيجة لمحة ولا معة تطرأ على ذهن العالم بعد طول التجارب، كما يحدث في محاولة حل المسائل الهندسية أن يخطر بالبال فجأة الحل المطلوب، بعد محاولات عديدة غير مثمرة. وهذا نوع من العيان، الذي نستشعر فيه الحل وتنبأ بالنتيجة قبل إتمام سلسلة البراهين والتجارب.

٥- الوجدان، وهو العيان الميتافيزيقي. وبواسطته ندرك الأشياء من الداخل، بنوع من المشاركة الوجدانية. ولهذا عرفه «برجسون» بأنه «ذلك النوع من المشاركة الوجدانية العقلية الذي بواسطته ننفذ إلى باطن شيء لنكون شيئاً واحداً مع ما فيه من أمر مفرد نسج وحده، وبالتالي غير قابل للتعبير عنه». إنه نوع من الغريزة الموسعة المصفاة، إنه الغريزة وقد صارت تزيهة، واعية لنفسها. وقد رأينا التعارض الذي وضعه برجسون بين العقل (← العقل) وبين الوجدان. وهذا الوجدان هو وحده القادر على فهم الحياة في حركتها الدائمة وتغيرها المستمر؛ وهو يدرك اللامتجانس، والمتوالي الكيفي، والمتصل، والمتداخل المتبادل، وما لا يمكن التنبؤ به؛ والحرية، والحياة.

المادة. وعلى عكس ذلك يسلك الوجدان: إنه يضعنا فوراً في داخل الواقع ويجعلنا تشهد الصيرورة الخالقة. إن العقل يتجه دائماً نحو الفعل، نحو ما هو مفيد عملياً، ولهذا لا يعطينا إلا معرفة جزئية؛ أما الوجدان فيدرك الأشياء تحت مظهر المنة، ويزودنا بمعرفة شاملة. ولهذا فإن العقل لا يتصور بوضوح إلا المنفصل والساكن الثابت؛ وبالجملة فإن «العقل يتميز بعدم فهم طبيعي للحياة». (التطور الخالق ص 179).

### مراجع

- F. Alquie: Solitude de la raison. Paris, 1966.  
E. Barbotin, J. Trouillard, R. Vermaux, etc: la crise de la raison dans la pensée contemporaine. Bruxelles, 1960.  
Brand Blanshard: Reason and analysis. London, 1962.  
L. Brunschvicg: Le Progrès de la conscience dans la philosophie occidentale, 2 vols. Paris, 1927, 2e éd. 1953.  
L. Brunschvicg: Ecrits philosophiques, t. 2, Paris 1954.  
E. Cassirer: Das Erkenntnisproblem in der philosophie und wissenschaft der neueren Zeit, 4 vol. 1957.  
Ewing, A.C.: Reason and intuition, Oxford 1942.  
E. Husserl: Formale und transzendente Logik, 1929.  
A.E. Murphy: The uses of reason. New-York, 1943.  
E. Nagel: Sovereign Reason. Glencoe, Illinois, 1954.  
C. Perelman: Justice et raison. Bruxelles, 1963.  
B. Russell: Skeptical Essays. New York, 1928.  
J. Santayana: The life of reason. rev. ed. New York 1954.  
P. Thévenaz: La condition de la raison philosophique Neu châtel, 1960.  
Walsh, W.H.: Reason and Experience. Oxford, 1947.  
A.N. Whitehead: The function of reason. Princeton, N. J. 1929.

### العيان

العيان *intuition* بوجه عام هو الرؤية المباشرة للحقيقة



ويعز كنت أيضاً بين عيان باطن. *innere Ansch.* وهو عيان باطنا وأحوالنا الباطنية، (نقد العقل المحض)، الحساسية المتعالية، بند ٦ب) وبين العيان الخارجي الذي هو العيان الحسي.

والعيان المحض عنده هو الخالي من الإحساس، ولا يحتوي إلا على شكل الحساسية، وهو ينشأ من قانونية الوعي المعين، وهو ضروري وكلي، وقبلي، وأصيل، وشرط للعيان التجريبي. بيد أن العيان المحض لا يتناول الأشياء في ذاتها، وإنما يتناول فقط شكل إدراكنا للأشياء، شكل الظاهرة. «بيد أن العيان المحض ليس تصوراً كلياً أو منطقياً تحته يدرك كل ما هو حسي، بل هو نوع خاص تحته يدرك ما هو حسي: ولهذا يحتوي على تصوري المكان والزمان». وهو يسبق موضوعات الإدراك.

ويعز هيرل بين عيان الماهيات *Vesenschau* وبين عيان المقولات *Katégorienschau*. الأول يدرك الماهيات المحضة المعطاة لهذا العيان. أما عيان المقولات فهو عيان بعض المحتويات غير الحسية، مثل التراكيب والأعداد.

والعيان عند ديكارت فعل بسيط وحيد، بعكس القول المنطقي فإنه مؤلف من سلسلة من الأفعال العقلية. والعيان، عند ديكارت، هو الذي يدرك الطبائع البسيطة، والعلاقات المباشرة بين هذه الطبائع. وللعيان اسند ديكارت ثلاث خصائص: (أ) أنه فعل تفكير محض، في مقابل الإدراك الحسي؛ (ب) أنه معصوم من الخطأ، لأنه أبسط من الاستنباط؛ (ج) وأنه يتطبق على كل ما يمكن أن يقع تحت فعل بسيط للفكر.

أما كنت فيستعمل كلمة العيان *Anschauung* بمعان عدة: عيان عقلي، وعيان تجريبي، وعيان محض. فالعيان العقلي هو ذلك النوع من العيان الذي يدعي البعض أن بواسطته يمكن إدراك الحقائق القائمة خارج إطار التجربة الممكنة. وكنت يرفض هذا النوع من العيان. ولكنه يقر بالعيان التجريبي وهو الذي يتم بواسطة الحساسية ويتعلق بموضوعات عن طريق الإحساسات. أما النوع الثالث، وهو العيان المحض، فهو الذي لا يوجد فيه شيء يتسبب إلى الإحساس؛ ويتم على نحو قبلي *a Priori* كشكل من أشكال الحساسية، ودون موضوع واقعي للحس.









## الغائية (مبدأ)

### Finalité

الغائية هي تطابق مجموع من الأشياء أو الأحداث مع غاية معينة، فغائية تركيب جسم الإنسان هي تطابق أعضائه ووظائفها مع الغاية منه وهي الحياة.

والغائية، بوصفها مذهباً، تدل على النزعة إلى تصور غايات للموجودات تتجاوز مجرد وجودها المباشر.

ومبدأ الغائية يعبر عنه في الفلسفة بالصيغة: «كل فاعل يفعل من أجل غاية» *omne agens agit propter finem*. وهذا المبدأ ينظر إليه بوجه عام على أنه مبدأ بديهي، يدرك مباشرة بالعيان دون حاجة إلى برهان. وقد أكده أرسطو بقوله: «لا شيء يحدث عبثاً» *οὐδεν μάλιστα* («في السماء» م<sup>١</sup> ف<sup>٢</sup> ص ٧١ ٣٣١).

ويعبر عن الغائية أيضاً «بمبدأ العلة الكافية» الذي أكده لبتس (راجع *Monadologie, § 32-39; Théodicée, § 7-8*; *Principes de la nature et de la grâce, § 7-8*) ومفاده أنه «لا يحدث شيء بدون سبب» (مؤلفات لبتس، نشرة جرهرت Gerhardt ج٧ ص ٣٠٠ وما يليها) وعبارة لبتس هي: *une raison suffisante pour qu'une chose existe* (= سبب كاف كما يوجد شيء). ويوضح هذا المبدأ في كتاب «مونودولوجيا» هكذا: «لا يمكن واقعة أن تكون حقيقية أو موجودة ولا أي حكم صحيحاً، إلا إذا كانت هناك علة كافية تفسر لماذا كان الأمر هكذا وليس على نحو آخر» («مونودولوجيا»، بند ٣٢).

ويرى كنت في «مبدأ العلة الكافية»: «الأساس في التجربة الممكنة، أعني في المعرفة الموضوعية للظواهر، فيما يتعلق بحدوثها في الزمان» («نقد العقل المحض» ط<sup>١</sup> من ص ٢٠١ / ط<sup>٢</sup> ص ٢٤٦). ويقرر أنه «صادق بدون استثناء فيما يتعلق بكل الأشياء بوصفها ظواهر في المكان والزمان، لكنه لا يصدق بالنسبة إلى الأشياء في ذاتها» (نشرة الأكاديمية لمؤلفات كنت ج ٢ ص ٢١٣).

ويحتل مفهوم «الغائية» في علم الحياة في الفيزياء مكانته تلك منذ عهد أرسطو، الذي أكد هذا المبدأ في كتبه في الحيوان (راجع تفصيل ذلك في المقدمة التي صدرنا بها نشرتنا لترجمة العربية القديمة لكتاب «أجزاء الحيوان» لأرسطو، الكويت سنة ١٩٧٨) وظل رأيه هذا سائداً في العصر الوسيط - الإسلامي والمسيحي على السواء - إلى عصر النهضة. لكنه حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بفضل تقدم الفيزياء وعلوم الحياة، أن هوجم مبدأ الغائية لصالح مبدأ الآلية *mecanisme* في الطبيعة. وبدأ هذا الهجوم دينكارت في الفيزياء، وما لبث أن امتد إلى علوم الحياة على يد بونيه Bonet وهالر Haller لكنه استمر يؤيده بيولوجيون كبار مثل هارفي Harvey واشتال Stahl.

لكن تحت تأثير المذهب الوضعي انصرف العلماء عن القول بالغائية. وجاء مذهب التطور فاستبعد مبدأ الغائية من ميدان علوم الحياة، وسيطر على النظر العلمي في هذه العلوم التصورات الآلية المادية المحضة. وتجلى ذلك عند روه Roux وهكل Hacckel ولوب Loeb ورايو Rahoud.

وفي أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن جاء دريش

الأكوميني في الفلسفة المسيحية، وعلى أساسها قام برهانه أو طريقه *via* الخامس على وجود الله. وقد امتد بها تواما إلى الموجودات غير العاقلة. لكن جاء أوكام Ocam فقصر الغائية على الكائنات العاقلة وحدها، وشك في إمكان وجودها بالنسبة إلى الكائنات غير العاقلة. (راجع كتابه، *Summulae* (in libros physicarum, 2, 6).

وفي عصر النهضة الأوربية نجد جوردان برونو Bruno وكامبانلا يؤكدان الغائية في الطبيعة.

لكن جاء كل من فرانسيس بيكون وديكارت فاعتبرا الغائية أمراً من أمور الإيمان، لا من أمور الفلسفة والعلم. ولهذا طالبا باستبعاد استخدام العلة الغائية في التفسير العلمي.

وسار في نفس الاتجاه اسبينوزا، فأكد أن كل العلة الغائية هي تخيلات إنسانية (Huma- (Ethica, P. I, append) na figurata.

وعلى العكس جاء لبيتس فأكد الغائية من جديد وأخضع لها الآلية إخضاعاً تاماً. وقال بفكرته المشهورة في «الانسجام الأزلي» الذي بموجبه أوجد الله انسجاماً سابقاً بين كل الموجودات في الكون. وقرر أن هذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، وبالتالي تسوده غائية مطلقة، أو بما في إرادة الله من خير وما في قدرته من قوة لإبداعه، نشأ هذا الكون (راجع «المونودولوجيا»، بنود ٣٣-٣٥).

أما مرقف أماتويل كنت فيتجمل في معالجته للمحنة الغائية لاثبات وجود الله - فراجع رأيه تحت مادة: كنت.

وفي خلال القرن التاسع عشر نجد حملة شعواء على الغائية لدى شوبنهاور (راجع كتابنا عنه) وادورد فون هرتمن.

### أبو حامد الغزالي

#### لوحة حياته

السنه الهجرية: ٤٥٠ (= سنة ١٠٥٨ - سنة ١٠٥٩ ميلادية). ولد أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام وزين الدين، في مدينة طوس التي كانت ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور، وكانت تتألف من مدينتين توأمتين هما الطابران ونوقان، وكانت نوقان أكبر في القرن الثالث، أما في الرابع وما بعده

Driesch ورهشيه Richet ورينانو Rignano وكوينو Cuenot فوضعوا مكان الغائية مبدأ الحيوية vitalisme وهو وسط بين الغائية والآلية المادية. إذ قرر مبدأ الحيوية أن الحي لا يمكن أن يكون مجرد ناتج لعوامل وعناصر ميكانيكية: كيميائية وفزيائية.

### الغائية (الفلسفة)

#### Teleologie

الفلسفة الغائية هي الباحثة في الغايات النهائية للعالم ككل وللموجودات كأفراد.

وتقوم على أساس القول بأن الكون، أو بعض أجزائه على الأقل، يتجه نحو تحقيق غاية معلومة.

وعلى الرغم من أن الاصطلاح Teleologie حديث، ابتكره فولف في القرن الثامن عشر، فإن للمعنى قديم، نجده خصوصاً عند أفلاطون في محاوره «فيدون» (ص ٩٨ ب وما يتلوها). وبعد ذلك نجد عند أرسطو تأكيداً لوجود غاية للكون. وعنده كما عند أفلاطون، أن غاية الكون هي الخير. (راجع «ما بعد الطبيعة» لأرسطو م<sup>١</sup> ف<sup>٢</sup> ص ٩٨٢ ب ٤-٧) وحين قرر أن العالم يتحرك بعشقه للمحرك الأول (وما بعد الطبيعة م<sup>١٢</sup> ف<sup>٢</sup> ص ١٠٧٢-٣٧). والغائية شعور كل ما يجري في الطبيعة. (راجع ما قلناه في: مبدأ الغائية). ويقرر أنه ليس الصلف أو البخت هي التي تتحكم في أحداث الطبيعة («أجزاء الحيوان» لأرسطو م<sup>١</sup> ف<sup>٢</sup> ص ٦٤٥ أس ٢٣-٢٥).

وفي مقابل أفلاطون وأرسطو اللذين أكدا الغائية في الكون والحياة، نجد ديموقريطس وأبيقور ولوكرتيوس ينكرونها تماماً، ويردون كل الحوات إلى الاتفاق (الصدفة) والبخت. وحتى «الانحراف» (الميل) Cinamen الذي أتى به أبيقور لا ينطوي على أية غائية. (راجع لوكرتيوس: «في طبيعة الأشياء» م<sup>١</sup> الأبيات ١٠٢١-٢٣).

لكن عادت للغائية مكانتها في الفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية في العصور الوسطى. وأصبحت من الحجج الرئيسية لإثبات وجود الله. ويظهر هذا جلياً عند القارابي وابن سينا، في الفلسفة الإسلامية، وعند توما

الجوزي وسبطه، الصفدي، ابن كثير، السبكي ١٠٣/٤ - [١٠٤].

٤٨٥ هـ (١٠ من رمضان = ١٤ من أكتوبر سنة ١٠٩٢ م) قُتل نظام الملك، قتله شاب من الباطنية.

وفي ١٥ من شوال مات ملكشاه.

٤٨٦ أو ٤٨٧ هـ أفق الغزالي فتواه ليوسف بن تاشفين بحقه في عزل الأمراء العصاة [ابن خلدون، تاريخه ج ٦ ص ١٨٧، بولاق سنة ١٨٢٤ هـ].

٤٨٧ هـ (في المحرم) شهد الاحتفال ببيعة الخليفة المستظهر بالله.

٤٨٨ هـ (في رجب) بدأت أزمته الروحية التي استمرت ستة أشهر، أي حتى أوائل سنة ٤٨٩ هـ [«المنقذ من الضلال» ص ١٢٧، طبعة دمشق سنة ١٩٣٤].

- (في ذي القعدة) ترك التدريس في نظامية بغداد، وسلك طريق التزهّد والانقطاع [ابن كثير والصفدي حددا هذا التاريخ؛ وذكر ترك التدريس ولم يذكر التاريخ: ابن عسّكر، وابن الجوزي وسبطه، والذهبي، والسبكي].

- (في ذي الحجة) خرج إلى الحج واستتاب أخاه أحمد في التدريس بنظامية بغداد [السبكي ١٠٤/٤؛ وذكر الحج ولم يذكر تاريخه: ابن عسّكر، ابن الجوزي وسبطه، والذهبي]. هذا على قول من يجعلون الحج قبل الرحيل إلى دمشق، ولكن الغزالي في «المنقذ» (ص ١٣٠) ينص صراحة على عكس ذلك، إذ قال إنه رحل إلى دمشق ثم بيت المقدس والتحليل ثم حج.

٤٨٩ هـ قدم دمشق وأقام بها مدة قصيرة.

ورحل من دمشق إلى بيت المقدس («المنقذ» ص ١٣٠) وأخذ في تصنيف كتاب «الإحياء في القدس»، ثم أتمه في دمشق [«المنتظم» لابن الجوزي]. وفي بيت المقدس كتب «الرسالة القدسية في قواعد العقائد» وجعلها قسماً من ربيع العبادات في كتاب «الإحياء» وقد كتبها لأهل بيت المقدس، ومن هنا جاء اسمها. ومن القدس توجه إلى التحليل لزيارة مقام إبراهيم [«المنقذ» ص ١٣٠].

وهنا تقع الرواية القائلة بأنه زار مصر. قال الصفدي: «قصد مصر، وأقام بالإسكندرية مدة، ويقال إنه عزم منها على

فكانت الطابران أكبر من نوقان. وكان بطوس قبر الإمام الرضا وقبر هارون الرشيد إلى جواره، وفي سنة ٦١٧ هـ (سنة ١٢٢٠ م) دمرت جحافل المغول مدينة طوس تدميراً لم تنهض منه بعد ذلك أبداً. وإنما نشأ بعد ذلك عمارة إلى جوار مشهد الرضا وقبر هارون الرشيد. ومن ثم ظهرت مدينة ومشهد مدينة كبيرة منذ القرن الثامن، تحيط بها قبور عظيمة من بينها قبر الغزالي إلى شرقي ضريح الإمام الرضا، وقبر القردوسي.

[ابن الجوزي، وسبطه وابن كثير، والسبكي ١٠٢/٤، وابن قاضي شهبه، والعيّني - فيما يتصل بميلاد الغزالي؛ وياقوت ومستوفي، وابن بطوطة، ولوسترانج «بلاد الخلافة الشرقية» ص ٣٨٨ - ص ٣٩١، كمبردج سنة ١٩٣٠ - فيما يتصل بطوس].

قرأ شيئاً من الفقه في طوس على أحمد بن محمد الراذكاني [الصفدي، السبكي ١٠٣/٤، العيني].

سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلق عنه «التعليقة» في الفقه [السبكي ١٠٣/٤].

رجع إلى طوس [السبكي ١٠٣/٤].

قدم نيسابور في رفقة جماعة من الطلبة من طوس، ولازم إمام الحرمين، ومن زملائه في الدراسة عليه: الكيا الهراسي (المتوفى في أول المحرم سنة ٥٠٤ هـ) وأبو المظفر الخوافي (المتوفى بطوس سنة ٥٠٠ هـ) [ابن عسّكر، ابن الجوزي وسبطه، السبكي ١٠٣/٤].

٤٧٨ هـ (٢٥ ربيع الثاني) توفي إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبدالله بن يوسف الجويني المولود في ١٨ من المحرم سنة ٤١٩ (١٠٢٨/٢/١٢ م)، ووفاته في ١٠٨٥/٨/٢٠ م.

بعد وفاته خرج الغزالي إلى المعسكر قاصداً الوزير نظام الملك [السبكي ١٠٣/٤، الذهبي، الصفدي]، فناظر الأئمة وقهرهم، ولقي التعظيم من نظام الملك. والمعسكر كان ميداناً فسيحاً بجوار نيسابور أقام فيه نظام الملك معسكراً. [ابن عسّكر، الذهبي، الصفدي، السبكي ١٠٣/٤].

٤٨٤ هـ (جمادى الأولى) توجه للتدريس بالمدرسة النظامية ببغداد بتكليف من نظام الملك [ابن عسّكر، ابن

إليها الغزالي هنا هي الأحداث السياسية والفتنة التي أحدثتها الباطنية وفضائنها، وانشغال فخر الملك بالحرب ضدهم، وكان وزيراً لسنجر. ونذكر هنا بعض الأحداث السياسية التاريخية:

٤٩٠ هـ (٣ جمادى الأولى): انتزع سنجر مدينة نيسابور من عمه أرسلان أرغون أخي السلطان ملكشاه. وجعل وزيره أبا الفتح علي بن الحسين الطغرثي ثم عزله سنة ٤٩٧ هـ، وفي ربيع الآخر سنة ٤٩٨ هـ ولي فخر الملك علي بن نظام الملك الذي قتل سنة ٥٠٠ هـ، قتله أحد الباطنية كما قتل أبوه، وكان مقتله يوم عاشوراء. أما سنجر فقد أصبح حاكماً على خراسان منذ ٥ جمادى الأولى سنة ٤٩٠ هـ وأصبح سلطاناً في ٢٤ ذي الحجة سنة ٥١١ هـ واستقام أمره إلى أن أسره العز، ثم أفرج عنه وكاد يعود إليه ملكه، لولا أن عاجلته المنية في ربيع الأول سنة ٥٥٢ هـ.

٤٩٨ هـ عين سنجر، في ربيع الآخر، فخر الملك علي ابن نظام الملك وزيراً له في خراسان فألح على الغزالي في معاودة التدريس، فلم يجد بداً من الإذعان، وعاد إلى التدريس في نظامية نيسابور، لا في نظامية بغداد، إذ كان فخر الملك وزيراً في نيسابور لسنجر حاكم خراسان من قبل أخيه محمد بن ملكشاه [عبد الغافر الفارسي وعنه نقل ابن عساکر، وابن الجوزي وسبطه، وابن كثير، والذهبي، والصفدي، والسبكي ١٠٨/٤].

ولم يجد أي مصدر إلى متى استمر الغزالي في التدريس بنظامية نيسابور، ونحن نعلم أن فخر الملك قد قتله أحد الباطنية في اليوم العاشر من المحرم سنة ٥٠٠ هـ فلعل الغزالي فكر بعد وفاته في ترك التدريس بنظامية نيسابور.

ثم عاد إلى بيته واتخذ في جواره مدرسة للطلبة وخانقاه للصوفية، ووزع أوقاته على وظائف الحاضرين: من ختم القرآن، ومجالسة ذوي القلوب (عبد الغافر الفارسي وعنه نقل: ابن عساکر، والذهبي، والسبكي ١٠٩/٤).

٥٠٥ هـ (يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة ١٨ ديسمبر سنة ١١١١) توفي أبو حامد الغزالي بطوس، ودفن بظاهر قصبة الطابران، ولم يعقب إلا البنات (ابن عساکر، ابن الجوزي وسبطه، الصفدي، الذهبي، ابن كثير. الخ).

#### آراؤه في الفلسفة والتصوف

الغزالي مفكر ومتكلم وفقه وصوفي ولديه قدرة على

ركوب البحر للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراکش... قبله نعي المذكور (أي نعي يوسف بن تاشفين)، فعاد إلى وطنه بطوس؛ وقال السبكي ١٠٥/٤: «فارق دمشق وأخذ يجول في البلاد فدخل منها إلى مصر وتوجه منها إلى الإسكندرية فأقام بها مدة؛ وقيل إنه عزم على المضي إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله، فبلغه موته؛ وقال العيني: «ثم قصد مصر، وأقام بالإسكندرية مدة، ويقال إنه قصد الركوب منها في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف... بن تاشفين، صاحب مراکش، فبينما هو كذلك إذ أبلغ إليه نعي يوسف المذكور، فصرف عزمه عن تلك الناحية». - وهذه الرواية زائفة كلها، لأن يوسف بن تاشفين توفي يوم الاثنين ٣ من المحرم سنة خمسائة! فهي تفترض إذن أن الغزالي كان في الإسكندرية سنة ٥٠٠ هـ وجميع الرويات تؤكد أنه كان في تلك السنة في خراسان، وعلى وجه التخصيص في نيسابور للتدريس في نظاميتها. لهذا يجب عد مسألة رحلة الغزالي إلى مصر والإسكندرية أسطورة زائفة.

٤٨٩ هـ (في أواخرها) عاد إلى دمشق من رحلته إلى القدس والخليل. واعتكف بالثارة الغربية من الجامع الأموي (السبكي ١٠٤/٤)، فكان يصعد المنارة الغربية طول النهار ويغلق بابها على نفسه [«المنقذ» ص ١٢٩ - ص ١٣٠] واستمر في دمشق حتى ذي القعدة سنة ٤٩٠ هـ وصحب الفقيه نصر بن إبراهيم. وأتم كتاب «الإحياء» [«المنقذ» ص ١٣٠].

٤٨٩ هـ (ذو الحجة أو أواخر ذي القعدة) تحركت فيه داعية الحج، فسافر إلى الحجز [«المنقذ» ص ١٣٠].

٤٩٠ هـ (في الشهور الخمسة الأولى منها) مر ببغداد في طريقه إلى خراسان. وهنا اجتمع به أبو بكر بن العربي في جمادى الآخرة [«القواصم والعواصم» - راجع «مؤلفات الغزالي» الملحق رقم ١٨]. ونزل رباط أبي سعيد النيسابوري المواجه لنظامية بغداد، ولكنه لم يستأنف التدريس بالنظامية. ولم يقم طويلاً في بغداد. بل مضى منها إلى خراسان ودرس مدة بطوس، ثم ترك التدريس والمناظرة واشتغل بالعبادة [«السبكي» ١١١/٤] وأثر العزلة وتصفية القلب للذكر، لكن حوادث الزمان ومهملات العيال وضرورات المعاش كانت تغير فيه وجه المراد وتشوش صفو الخلوة، ودام على هذه الحال قرابة ٩ سنين [«المنقذ» ص ١٣٠] وحوادث الزمان التي يشير

## - رده على الفلاسفة:

وقد خصص الغزالي للرد على الفلاسفة أهم كتبه في الفلسفة وهو «تهافت الفلاسفة».

وقد ألف هذا الكتاب - كما صرح في مقدمته - رداً على الفلاسفة القدماء مبيناً تهافت عقيلتهم وتناقض كلمتهم فما يتعلق بالالهيات، كاشفاً عن غوائل مذهبهم وغوراته (ص ٣٨ - ٣٩، طبع بيروت، المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٦٢ وإلى هذه الطبعة استشير في كل ما يلي).

لكنه في الواقع لا يقتصر على الرد على «الفلاسفة القدماء» وحدهم، بل يرد أيضاً وفي أكثر القول على أقوال الفلاسفة المسلمين، خصوصاً ابن سينا، وبلدوجة أقل: الفارابي. لكن يبدو أنه ظن أن كل ما أتى به ابن سينا والفارابي إنما جاء به من الفلاسفة اليونان ولم ينفردا بآراء خاصة بهما.

ويصرح الغزالي أيضاً بأنه في هذا الرد سيحكي «مذهبهم على وجهه» ثم يرد عليه بعد ذلك.

ويريغ من وراء هذا إلى أن يبين «اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر على الإيمان بالله واليوم الآخر، وأن الاختلافات راجعة إلى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين اللذين لأجلهما بعث الأنبياء المؤيدين بالمعجزات، - وأنه لم يذهب إلى إنكارهما إلا شرفمة بسيرة من ذوي العقول المنكوسة والآراء المعكوسة» (ص ٣٩).

وعلى الرغم من قوله هذا، فإنه ينعت آراء الفلاسفة - ولا يحدد أيهم يقصد - بأن بينها اختلافاً طويلاً، «وأن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير وآراءهم متشعبة وطرقهم متباعدة متناقرة». لهذا رأى أن يقتصر في رده على فلسفة أكبرهم، وهو أرسطوطاليس، فقال: «فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقلّمهم، الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول، فإنه رتب علومهم وهذبها بزعمهم، وحذف الحشو من آرائهم، وانتقى ما هو الأقرب إلى أصول أهوائهم، وهو رسطاليس. وقد ردّ على كل من قبله، حتى أستاذة الملعب عندهم - «أفلاطن الألهي»؛ ثم اعترض عن مخالفة أستاذة بأن قال: «أفلاطن صديق، والحق صديق، ولكن الحق أصدق منه» (ص ٤٠).

ويزعم الغزالي أن أرسطو والفلاسفة بعامة «يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين» وذلك في الأمور

الحجاج منقطعة النظر. لكنه ليس بصحيح مطلقاً ما يذهب إليه البعض من أن هجومه على الفلاسفة والفلسفة بعامة كان له اثر في صرف المسلمين عن الفلسفة، وآية ذلك، أن كل فلاسفة الأندلس إنما عاشوا وازدهروا بعده، كما أن الفلسفة الإسلامية في المشرق تابعت مسيرتها القوية الخصبة دون أن نعبأ بما قاله الغزالي، ويكفي أن نذكر اسماء: السهروردي المقتول، وفخر الدين الرازي في القرن السادس ثم الايجي والدواني وملاصدرا.

## الغزالي والفلسفة:

بدأ الغزالي في قراءة كتب الفلسفة حوالي سنة ٤٨٤ هـ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. فأخذ فكره يتغير مجراه، وحدثت له أزمة روحية، كان من نتائجها أن شك في اعتقاداته الموروثة. وهذا الشك كان أول دافع له إلى النظر العقلي الحر. وهو يعترف في «ميزان العمل» (ص ٢١٦، القاهرة سنة ١٩٢٦) بما لهذا الشك من فائدة حتى قال إن من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والخيرة والضلال، ولا خلاص للانسان إلا في الاستقلال.

وهذا الشك المنهجي الذي دعا إليه الغزالي إنما كان ثمرة مطالعته لكتب الفلسفة. وبلغ هذا الشك أوجه حوالي سنة ٤٨٧ هـ. لكنه أحس بأنه لا يستطيع المضي في هذا الشك لأن طبيعته تميل إلى اليقين، ولأنه بعد دفاعه المجيد عن الإسلام ضد الباطنية بكتاب: «المستظهر» = فضائح الباطنية» وكتاب: «حجة الحق» حتى أصبح حجة الإسلام، قد صار لزاماً عليه أن يؤدي دوره الجديد الذي أحس بأنه دوره الحقيقي ورسالة أعني الدفاع عن الإسلام، لا دفاع المتكلم أو الفقيه، بل دفاع المشارك في الفلسفة، فقارن في ذهنه بين عقائد الإسلام كما تصورهما أصحابه من الأشاعرة ولقنه إياها أستاذة أبو المعالي الجويني، وبين إلهيات الفلاسفة المسلمين، وبخاصة الفارابي وابن سينا. وسرعان ما تبين له التعارض بين هذه وتلك. فكان عليه، وهو المدافع عن الإسلام، أن يبدأ بضرب الفلاسفة بعضهم ببعض ليثبت تهافتهم، فكان عن ذلك كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي ألفه في مستهل سنة ٤٨٨ هـ ومهد له بتأليف كتاب يشرح فيه آراء الفلاسفة بشكل موضوعي في أقسام الفلسفة الثلاثة: المنطق، الطبيعيات، الإلهيات، وسماه باسم «مقاصد الفلاسفة».

- ٨ - في ابطال قولهم إن الأول موجود بسيط بلا ماهية .  
 ٩ - في تعجيزهم عن بيان أن الأول ليس بجسم .  
 ١٠ - في بيان ان القول بالدهر ونفي الصانع : لازم لهم .  
 ١١ - في تعجيزهم عن القول بأن الأول يعلم غيره .  
 ١٢ - في تعجيزهم عن القول بأنه يعلم ذاته .  
 ١٣ - في ابطال قولهم إن الأول لا يعلم الجزئيات .  
 ١٤ - في قولهم إن السماء حيوان متحرك بالإرادة .  
 ١٥ - في ابطال ما ذكره من الغرض المحرك للسماء .  
 ١٦ - في ابطال قولهم إن نفوس السموات تعلم جميع الجزئيات .  
 ١٧ - في ابطال قولهم باستحالة خرق العادات .  
 ١٨ - في قولهم إن نفس الانسان جوهر قائم بنفسه ليس بجسم ولا عرض .  
 ١٩ - في قولهم باستحالة الفناء على النفوس البشرية .  
 ٢٠ - في ابطال إنكارهم لبعث الأجساد مع التلذذ والتألم في الجنة والنار باللذات والآلام الجسمانية .  
 ويختتم الغزالي كتابه بالحكم على الفلاسفة في مواقفهم من هذه المسائل العشرين على النحو التالي :  
 ١ - فهو يحكم على الفلاسفة بالكفر في ثلاث مسائل هي :  
 أ - قولهم بأن العالم قديم (أزلي أبدي) وأن الجواهر كلها قديمة .  
 ب - قولهم إن الله لا يحيط علمًا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص .  
 ج - إنكارهم بعث الأجساد وحشرها .  
 «فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه، ومعتقدنا معتقد كذب الأنبياء، وأنهم ذكروا ما ذكروا على سبيل المصلحة تمثيلًا لجمهير الخلق ونفسيها . وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقد أحد من فرق المسلمين .» (ص ٢٥٤).

الالهية . لكنهم يوهمون الناس أن علومهم الالهية متقنة البراهين مثل علومهم الحسائية والمنطقية . ثم يبين أن الاختلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام :

١ - وقسم يرجع النزاع فيه الى لفظ مجرد، كسميتهم صانع العالم - تعالى عن قولهم! - «جوهراً» مع تفسيرهم الجواهر بأنه : «الموجود لا في موضوع» أي القائم بنفسه الذي لا يحتاج الى مقوم يقومه . . . ولسنا نخوض في إبطال هذا .»

٢ - «القسم الثاني : ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسول . . . كقولهم إن الكسوف القمري عبارة عن انحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس . . . وكقولهم إن كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعها في العقدين على دقيقة واحدة . - وهذا الفن أيضا لسنا نخوض في إبطاله، إذ لا يتعلق به غرض» (ص ٤١ - ٤٢).

٣ - «القسم الثالث بما يتعلق النزاع فيه بأصل من أصول الدين، كالقول في حدث العالم، وصفات الصانع، وبيان حشر الأجساد والأبدان . وقد أنكروا جميع ذلك . فهذا الفن ونظائره هو الذي ينبغي أن يظهر فساد مذهبهم فيه، دون ما عداه» (ص ٤٢)

وهذا النوع الأخير من الآراء هو الذي يحاول الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» بيان فساد . فنتناول مذهبهم في الأمور التالية وحاول بيان تهافتها - وهي :

- ١ - ابطال مذهبهم في أزلية العالم .  
 ٢ - ابطال مذهبهم في أبدية العالم .  
 ٣ - بيان تليسهم في قولهم إن الله صانع العالم وأن العالم صنعه .  
 ٤ - في تعجيزهم عن اثبات الصانع .  
 ٥ - في تعجيزهم عن إقامة الدليل على استحالة إلهين .  
 ٦ - في ابطال مذهبهم في نفي الصفات .  
 ٧ - في ابطال قولهم إن ذات الأول لا تنقسم بالجنس والفصل .

- ١٢ - شفاء العليل في القياس والتعليل  
 ١٣ - فتاوى الغزالي  
 ١٤ - فتوى ( في شأن يزيد بن معاوية )  
 ١٥ - غاية النور في دراية الدور  
 ١٥ - مقاصد الفلاسفة  
 ١٧ - معيار العلم في فن المنطق  
 ١٨ - تمهات الفلاسفة  
 ١٩ - معيار العقول  
 ٢٠ - محك النظر في المنطق  
 ٢١ - ميزان العمل  
 ٢٢ - المستظهري في الرد على الباطنية (= فضائح الباطنية)

- ٢٣ - حجة الحق  
 ٢٤ - قواصم الباطنية  
 ٢٥ - الاقتصاد في الاعتقاد  
 ٢٦ - الرسالة القلمية في قواعد العقائد  
 ٢٧ - المعارف العقلية ولباب الحكمة الإلهية  
 ٢٨ - إحياء علوم الدين  
 ٢٩ - المفضنون به على غير أهل  
 ٣٠ - الوجيز في الفقه  
 ٣١ - المقصد الاسفي في شرح أسماء الله الحسنى  
 ٣٢ - القسطاس المستقيم  
 ٣٣ - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة  
 ٣٤ - كيميائي سعادتي (باللغة الفارسية)  
 ٣٥ - أيها الولد  
 ٣٦ - نصيحة الملوك  
 ٣٧ - الرسالة اللدنية  
 ٣٨ - مشكاة الأنوار

٢ - «فأما ما عدا هذه المسائل الثلاث: من تصرفهم في الصفات الإلهية واعتقاد التوحيد فيها - فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة. ومذهبهم في تلازم الأسباب الطبيعية هو الذي صرح به المعتزلة في التولد. وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الإسلام؛ إلا هذه الأصول الثلاثة. فمن ير تكفير أهل البدع من فرق الإسلام، يكفرهم أيضا به، ومن يتوقف عن التكفير، يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل الثلاث.

ويصرح الغزالي (ص ٤٥) بأنه في إبطاله لأراء الفلاسفة في هذه المسائل العشرين إنما يستعمل المنطق العقلي، ملتزما وبما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم «البرهان» من المنطق، وما شرطوه في صورته في كتاب «القياس»، وما وضعوه من الأوضاع في «إيساغوجي» و«قائميغورياس» التي هي من أجزاء المنطق ومقدماته.

#### مؤلفاته

في كتابنا: مؤلفات الغزالي، [ ط ١ القاهرة سنة ١٩٦١ في ٥٦٨ صفحة، ط ٢، الكويت سنة ١٩٧٧، أو في بيان عن مؤلفات الغزالي ومخطوطاتها وما ترجم منها إلى اللغات الأخرى وما كتب عن كل واحد منها من دراساته فنحيل القارئ إليه. ونجتزئ هنا بذكر أهم ما رجحنا أنه صحيح النسبة إلى أبي حامد الغزالي مرتبة بحسب تاريخ تأليفها:

- ١ - التعليقة في فروع المذهب  
 ٢ - المنحول في الأصول  
 ٣ - البسيط في الفروع  
 ٤ - الوسيط  
 ٥ - الوجيز  
 ٦ - خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر  
 ٧ - المتحل في علم الجدل  
 ٨ - مأخذ الخلاف  
 ٩ - لباب النظر  
 ١٠ - تحصيل المأخذ (في علم الخلاف)  
 ١١ - المبادئ والغايات



٣٩ - المستصفي من علم الأصول  
٤٠ - المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال

٤١ - الجوامع العوام عن علم الكلام

٤٢ - منهاج العابدين

مراجع

- Wensinck: La Pensée d'al- Ghazzali Paris, 1935.
- Miguel Asin Palacios: Algazel: dogmatica, moral, ascetica: Zaragoza 1911.
- J. Obermann: Die Philosophie und religiöse Subjectivismus Ghazalis. Leipzig, 1921.
- Carra de Vaux: Ghazali.. Paris, 1902.

### الغنوصية

الغنوصية، من الكلمة اليونانية *γνώσις* (= معرفة، عرفان)، ويمكن أن تترجم بـ «العرفانية» نزعة فلسفية دينية صوفية معاً. وسميت بهذا الاسم لأن شعارها هو أن: «بداية الكمال هي معرفة (غنوص) الإنسان، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية» (V 7, 78; V 8, 24). واهتمام الغنوصيين إنما هو بالكمال *τελειωσις*. ويمكن بلوغ الكمال بواسطة الغنوص (=العرفان، المعرفة). والغنوص يتم بوصفه عرفاناً بالإنسان، وهذا العرفان يفضي الى عرفان الله. والعرفان بالله هو المؤدي الى النجاة او الخلاص، لأن الله هو الإنسان. ولهذا فإن أساس الغنوص هو معرفة الإنسان بنفسه بوصفه إلهاً، وهذه المعرفة تؤدي الى نجاة الإنسان.

وقد تنوعت اتجاهات أصحاب هذه النزعة، لكن يمكن اعتبار الخصائص التالية مميزة لها جميعاً:

(١) الخلاص أو النجاة بوصفه معرفة الإنسان بذاته، وفيها تتحد الذات مع الألوهية اتحاداً جوهرياً.

٢ - الثنوية الدقيقة. والثنوية هي أساس الزرادشتية. وقد ثبت الآن بعد اكتشاف أوراق بردى نجح حمادي بالدليل القاطع تأثر الغنوصية بزرادشت، فأحد الكتب الغنوصية في هذه الأوراق (رقم ٩ بحسب ترقيم وتصنيف Puech) عنوانه: «زرادشت»، ومؤلف سفر يوحنا المتحول يذكر العنوان:

٣ - تجلي الألوهية من خلال صاحب وحي أو مخلص  
وقد ازدهرت حركة الغنوصية في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. وقد زعم بعض آباء الكنيسة (أوريجانوس وهيبوليت خصوصاً) أن النزعة الغنوصية وليدة تراوح بين المسيحية وبين حركات روحية أخرى، أبرزها: اليونانية، والارثانية، واليهودية. فذهب أدولف فون هرنك Ad.V.Harnack الى أن العنصر الأجنبي فيها عن المسيحية هو اليونان، ووصف الغنوصية بأنها حركة تهلين حاراً للمسيحية (تهلين = اعطاء صبغة هيلينية أي يونانية). ورأى ف. بوست W. Bousset. أنه عنصر شرقي إيراني. وأيد الرأي الأول هانز ليزجاتج H. Leisegang فقال إن الغنوصية ضرب من التفكير اليوناني الصوفي المعقل المنحل؛ ذلك لأن «طريقة التفكير والنظر، والتركيب والتفكير، والشكل الباطن والبنية الروحية للمذاهب الغنوصية تتجلى أنها يونانية ممزوجة جزئياً بعناصر شرقية». H. Leisegang : Die Gnosis, S. 5 (1924) وأكد الرأي الثاني ريتسنشتين فقرر أن «الغنوصية هي الاستمرار الضروري للاديان الشرقية في شتى المعمورة، والنقطة العليا لتطورها الفردي العالمي معاً... ومعنى ما هي المرحلة الأخيرة للهلينية أو الهلينية R. Reitzenstein: Die hellenistischen Mystiken religionen, S. 69, 1927) ويؤكد ريتسنشتين انتشار هذه النزعة في كل العالم الهليني: ذلك في التيارات الداعية الى الاتصال المباشر بالألوهية، وفي طقوس أديان الأسرار، وفي فكرة «الناس الإلهيين» *θειοι άνθρωποι* عند فيلون اليهودي والقديس بولس.

وكل هذه الآراء تجعل من النزعة الغنوصية مزيجاً غير أصيل من أفكار دينية، متباينة الأصول، مما يجعلها تبدو كمذهب تلفيقي. لكن جاء هـ. يونا H. Jonas - وهو من تلاميذ مارتن هيلجر - في كتابه «الغنوصية وروح أواخر العصر القديم» (ج ١ سنة ١٩٣٤؛ ج ٢ سنة ١٩٥٤) فقرر أن الغنوصية ليست ثنوية إيرانية، ولا واحدية يونانية، ولا مزاجاً من كليهما، بل هي نزعة قائمة برأسها، فيها يتجلى فهم جديد تماماً للعالم وللمعرفة الانسان لنفسه. وهي نزعة الى انتزاع الصفة الدنيوية عن العالم، مما اسلف له في العالم القديم..

وأ. هيلجنفيلد A. Hilgenfeld وأتولف فون هرنك A. v. Hamak.

ثم خطا البحث خطوة أوسع باكتشاف كتابات أصلية للماتوية والمنداعية، بعد بقائها فترة طويلة في ظل الاعتقال، وذلك حين كشف عنها م. ليزبارسكي M. Lidzbarski. واكتشفت نصوص مانتوية في موضعين متقابلين: في آسيا الوسطى (طرقان، سنة ١٩٠٤)، وفي مصر (في القيوم، سنة ١٩٣١)، حيث اكتشفت كمية كبيرة من المخطوطات. وقد كان نشرها بطيئاً جداً، ولا يزال دون التمام حتى اليوم.

لكن النصوص الأصلية لكتابات المؤلفين الغنوصيين أنفسهم لم تكتشف لأول مرة إلا في سنة ١٩٤٥ أو سنة ١٩٤٦ بالقرب من مدينة نجع حمادي بصعيد مصر، أو بناحية قصر الصياد (وهي مدينة Chenoboskon القديمة)، ضمن مجموعة من المخطوطات القبطية كانت موجودة في جرة. وممرت المجموعة بأيد مختلفة، لأنها مسروقة، حتى وصل الجزء الأكبر منها في سنة ١٩٥٢ إلى حوزة المتحف القبطي بمصر القديمة (في القاهرة)، بعد أن كان قد بيع جزء منها (المخطوط رقم ٣) في سنة ١٩٤٦ وقطعة من المخطوط رقم ١ وصل بطريقة ملتوية في سنة ١٩٥٢ إلى معهد يونغ C. G. Jung في زيورخ (مخطوط يونغ). وأول من وصف هذه المجموعة وصفاً علمياً هو H. Ch. Puech وذلك في مقال له بعنوان «الكتابات الغنوصية الجديدة في مصر العليا» نشر ضمن سفر تذكاري على شرف W.E. Crum (بوستون سنة ١٩٥٠ ص ٩١ - ١٥٤) وأعاد نشره في «الانسكلوبيديا الفرنسية» (ج ١٩ سنة ١٩٥٧).

وفي هذه المجموعة المكتوبة على ورق البردي والمؤلفة من ١٣ مخطوطاً، يوجد ٥١ كتاباً، لم يكن معروفاً منها من قبل غير عدد قليل. راجع عنها خصوصاً:

a) J. Doresse : Les livres secrets des gnostiques d'Egypte , I , Paris 1958

b) W. C. van Unnik : Evangelien aus dem Nilsand , 1960

c) H. Ch. Puech : Les gnostiques.

ومنذ سنة ١٩٥٦ بدأ نشر هذه النصوص، واشترك في ذلك ياهور ليب ويسي عبد المسيح من المصريين، وبويش

كذلك جاء كوسيل G. Quispel في كتابه: «الغنوصية بوصفها ديناً عالمياً» (اتسورش) سنة ١٩٥١، ص ٧٩) قهر «أن الغنوصية اسقاط اسطوري لتجربة الذات»، وأنها امكانية دينية للانسان بجانب إمكانياته الدينية الأخرى».

وعحصل التزعة الغنوصية أن الإنسان العادي لا يستطيع أن يعرف من هو الانسان. صحيح أن لدى كل إنسان الاستعداد لمعرفة من هو، ولهذا يمكن أن يقال إن كل إنسان غنوصي بالقوة. أما بالفعل فقليلون هم الذين يسلكون طريق الغنوصية. وهذا ما يؤكده مؤسس المذهب، سيمون الساحر Simon Magus (راجع Hippolyt, Refut. VI : 12)، وكذلك يرد في الخطبة النحسانية Nassenerpre digt فإن إدراك سر الإنسان ليس من شأن الجاهل أو اللاصق بالأرض، ولا أولئك الذين لا يعرفون إلا النفس، ولا العميان بالطبيعة، بل هو من شأن أولئك الذين يملكون الروح، والذين هم أرواح *πνευματικοί*، ويستطيعون التأويل عن طريق الروح، وبالجملة: الكمل *τελειοί*. وهؤلاء هم صفوة الانسانية، وأعمال العالم تستند إليهم.

وهناك مرتبة أعلى من هؤلاء، هي مرتبة من صار العرفان (الغنوص) عندهم وحياً ويسجلون عرفانهم في كتب موحى بها. ولما كان الغنوصي ليس شيئاً بالنسبة إلى غنوصه (عرفانه)، فإن معظم المصادر الغنوصية غفلت من أسماء المؤلفين. بيد أننا نجد في بعضها أحياناً ذكر المؤسس المذهب، سيمون الساحر، بوصفه الموحى. فيذكر مثلاً اسم كتاب بعنوان: «الوحي العظيم»، وفيه يتكلم سيمون الساحر على النحو التالي: «أخاطبكم بما أخاطبكم به وأكتب هذا الكتاب». ثم يتلو ذلك عرض لنشأة الكل (الكون، العالم كله) عن الصمت *στυγή* أو العقل *νοῦς* وعن الفكر *ἔννοια* (راجع Hippolyt Refut. VI, 18: 2) وفي رسائل فلنتينوس Valentinus نجد أن العقل الأبدي *νοῦς* هو الذي يتكلم. وفي موضع آخر يقول إنه حظي برؤيا اللوغوس Logos

وهذا يسوقنا إلى التحدث عن كتب الغنوصية. لقد اعتمد الباحثون حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في عرضهم لأراء الغنوصية، على ما أورده آباء الكنيسة المسيحيون في ثنايا ردودهم عليهم من نصوص لهم. وعن هذا الطريق وحده عرض مذهبهم ف. ك. باور F. Ch. Baur

الإنسان بافه هو المعرفة أو العرفان. إن معرفة الإنسان لنفسه هي البداية، ومعرفة بافه هي نهاية الكمال. إن الإنسان لا يستطيع بنفسه أن يبلغ الدرجة العليا من المعرفة، لهذا لا بد من قوة علوية هي التي تلهمه هذه المعرفة العليا.

لهذا فإن كل الفرق الغنوصية تدعى أنها استودعت رسالة أو وحيًا سرياً أوحى به من السماء.

#### ٤ - الخلاص:

نظراً للتزاع بين النور والظلمة في العالم، فلا بد للإنسان من الخلاص. والخلاص هو النجاة من العالم المادي، الظلماني الذي هو بطبعه شرير. ويمتزج بهذه الفكرة فكرة اللياذ بعالم آخر يتحرر فيه الإنسان من اغلال الظلمة والمادة. لكن هذا الخلاص لن يتحقق إلا لعدد قليل من المختارين، ومن الأرواح المصطفاة. وهؤلاء هم وحدهم القاترون على بلوغ العرفان، «الغنوص». ولهذا فإن الغنوصيين الأوائل لم يعرفوا إلا بوجود طبقتين: طبقة الروحانيين *πνευματικοί*، وطبقة الهيلولانيين *ψυχικοί* (ويسمون أيضاً: نفسانيين *ψυχικοί* و *χουκοί*)؛ وبعض المتأخرين منهم يميزون ثلاث طبقات: الروحانيين، والنفسانيين والهيلولانيين، والطبقة الوسطى منها هي طبقة أولئك الذين لا يملكون عرفاناً *γνωσις*، بل علمياً *πίσις*. أما الروحاني فهو الغنوصي الحقيقي، لأنه يمتلك العرفان («الغنوص»): إنه يشاهد، ويتلقى النور، نور البهاء المعقول.

#### أبرز شخصيات الغنوصية:

فلذا انتقلنا من هذه الملامح العامة المشتركة بين مختلف الفرق الغنوصية إلى الآراء المميزة لأبرز الشخصيات الغنوصية وجدنا أن:

١ - سيمون الساحر Simon Magus هو الذي يذكر دائماً في المصادر على أنه أولهم. وربما كان السبب في ذلك هو أن يوستينوس الشهيد Justin Martyr وهو أول من كتب عن «الهرطقة» كان من السامرة (في فلسطين قرب نابلس) وسيمون هو من السامرة. والمقول أن سيمون الساحر هذا كان تلميذاً للدموشوس Dositheos صاحب فرقة كانت موجودة في عهد المكابيين. ويقول يوستينوس إن سيمون كان يمجله أتباعه بوصفه الإله الأعلى، وأن صاحبه هيلانة كانت الفكرة

Puech، وكوسيل Quispel، وتل Till، وكراوزه Krause وويلنج Böbling من غير المصريين، كما ترجم بعضها إلى لغات أوربية عديدة.

وقد أحدث اكتشاف هذه النصوص الأصلية الغنوصية ثورة في تصورنا للمذهب، لكن لا يمكن بيان نتائجها إلا بعد نشرها كلها ودراستها دراسة مستفيضة ومقارنتها بما أورده من ردوا على الغنوصية من آباء الكنيسة المسيحية.

ولهذا نجتزئها هنا بذكر بعض المعاني الأساسية في الغنوصية:

#### ١ - الثنوية: dualisme:

من الأفكار الأساسية في الغنوصية: الثنوية، أي القول بوجود مبدئين هما الروح والمادة، تجري أحداث الكون حسب ما بينها من نزاع وتعارض. إن العالم يجري حسب التعارض بين هذين العنصرين المؤلفين له، ودرجة تغلب الواحد منها على الآخر. فإذا كانت الغلبة للمادة، كان الشر هو الغالب، وإذا كانت الغلبة للروح، كان الخير هو الغالب. إن المادة من مملكة الظلام، وفيها نزعة طبيعية للعدواة ضد مبدأ النور. أما إذا كانت السيادة لمبدأ الروح في عملية تطور العالم، فإن العملية الكونية يسودها الخير والنور. ونزعة الروح هي إلى معرفة ذاتها. والمادة تحمّد من سلطان الروح: ولما كانت المادة لا تستطيع أن تسمو إلى الروح، بينما الروح تعبر عن نفسها في المادة، فإن صدورات الروح تهدف إلى ملء الهوة بين الروح والمادة. وتشخصات الروح تسمى الأيونات Aonen، التي هي نماذج ومثل العالم اللامتناهي في صورة مشخصة.

#### ٢ - الصانع Demiurge:

والفكرة الأساسية الثانية هي فكرة الصانع: لما كانت الروح والمادة هما المبدآن الأعلىان، فإن فكرة الخلق غير واردة في مذهب الغنوصيين. ولهذا لا يقولون بخالق للعالم، بل بصانع للعالم، وهي فكرة نجدها عند أفلاطون.

#### ٣ - العرفان:

والعرفان لا يتم بالفكر والتعلم، بل يتم في الجماعة وبالجماعة عن طريق الطقوس والمراسم والاحتفالات الخ. إن الغنوص (= المعرفة، العرفان) ليس معرفة بالأحوال الخارجية، بل بالحقائق الباطنة، خصوصاً ما يتعلق بالتمييز بين الخير والشر. وغاية المعرفة جعل الإنسان إلهاً. واتحاد

المسيح، وليس يسوع المسيح نفسه - هو الذي ينجو من سلطان الملائكة الدنيويين.

أما هيوليتوس Hippolytus فيقدم لنا عرضاً مخالفاً تماماً لما قدم إيرينوس. فهو تصور باسيليس عدواً لفكرة الصدور عن الله، وهي فكرة متشرة في مذهب الغنوصيين بوجه عام، ويؤكد أنه قال بمذهب الخلق من العدم. كما أنكّر أن يكون ابن الله قد غادر مكانه ونزل خلال السموات الى الدنيا، لأن هذا يناقض مذهبهم في أن الوجود في صعود، لا في نزول.

### ٣ - فالنتينوس Valentinus

وأهم منه فالنتينوس الذي ولد في إحدى مدن الساحل الشمالي من مصر، وتعلّم في الاسكندرية في بداية القرن الثاني بعد الميلاد. وبعد أن اشتغل بالتعليم في الاسكندرية، رحل الى روما حيث عاش في عهد أسقفية هوجينوس Hyginus وأنيكينوس Anicetus (١٣٧ - ١٦٦ ميلادية). وله مؤلفات عديدة ضاعت كلها، فيما عدا شذرات قليلة واردة في الردود عليه. وتتضمن هذه المؤلفات: أناشيد دينية، خطباً وعظية، رسائل، وكتاباً يسمى «صوفيا».

وخلاصة ملهيه أن الايون acon الأعلى قد دفعه الحب الى الافاضة، فصدرت عنه سلسلة من الايونات التي تؤلف البليروما Pleroma. فصدر النوس (=العقل) والاليتيا (الحقيقة)، ومن هذين صدر زوج آخر، وهكذا على شكل أزواج. وقد حاول التغلب على هذه الثنائية، لكن عبثاً، لأنها تقوم في أساس الغنوصية نفسها.

ενοια الخلاقة، الإلهية. ولا تعثر في مذهب على آثار للمسيحية إلا قليلاً ومن تلاميذه Ménandre .

٢ - باسيليس Basilides : وأهم منه باسيليس الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد، في مدينة الاسكندرية (مصر) وخلاصة مذهبهم كما عرضه القديس إيرينوس Irenaeus أن الأب القديم غير المخلوق قد وُلد أولاً: العقل («نوس»). والنوس وُلد اللوغوس Λογος، واللوغوس وُلد فرونيسيس Phronesis وفرونيسيس وُلد صوفيا Sophia ودوناميس Dunamis. ومن هذين الآخرين وُلدت السلسلة الأولى من الملائكة والقوى؛ والملائكة وُلدوا السماء الأولى. ومن هذه صدرت السلسلة الملائكية الثانية الذين خلقوا السماء الثالثة وهكذا الى أن وجدت ٣٦٥ سماء والملائكة في السماء الدنيا خلقت العالم الأرضي، وتقاسموه فيما بينهم. وكان زعيمهم هو إله اليهود الذي أثار البغضاء بمحاياته للشعب اليهودي. وهكذا صارت سائر الأمم أعداء للامة اليهودية. هنالك تدخل الإله الأعلى لينقذ العالم من الدمار، فأرسل ابنه الأول: «النوس» (العقل) - أي المسيح، لكي ينقذ من يؤمنون - من ملائكة العالم. فظهر النوس في شكل انسان، وبشر بدعوته، لكنه عند الصلب اتخذ شكل سيمون القورينائي Simon de Cyrene، بحيث أن الذي صلب هو هذا الأخير على شكل المسيح، أما المسيح نفسه فكان واقفاً هناك يسخر من أعدائه، ثم عاد إلى الأب. ولهذا فإن من يعرف حق المعرفة لا يقر بأن المسيح صلب، وإلا لكان معنى ذلك أن المسيح عبد الملائكة الدنيويين. ومن يفهم أن هذا هو ما حدث فعلاً في عملية الصلب - أعني أن الذي صلب هو سيمون القورينائي على شكل







## ف

### قال

« فلسفات الوجود » (باريس سنة ١٩٥٤) ؛ « الوجود الإنساني والعلم » (سنة ١٩٤١). وله محاضرات عن هيدجر غير مطبوعة .

أما من الناحية النظرية ، فأهم كتبه هو « بحث في الميتافيزيقا » - *Traité de métaphysique* (باريس ، سنة ١٩٥٢) ، وفيه يستعرض الكثير من المشكلات الكبرى في ما بعد الطبيعة ، لكن يعوزه الترتيب والعرض المحكم .

### الفارابي

#### ١ - حياته<sup>(١)</sup>

ثاني فيلسوف ذي شأن في الفلسفة الإسلامية هو أبو نصر الفارابي ، الملقب بـ « المعلم الثاني » في مقابل أرسطوطاليس الملقب بـ « المعلم الأول » .

وأبو نصر الفارابي تركي العنصر والبيئة . كان أبوه قائداً تركياً فيما يروي بعض المؤرخين . وولد أبو نصر في مدينة وسيج ، إحدى مدن قاراب . وقاراب - أو باراب كما تنطق في لهجتها الأصلية - ولاية في حوض سيرداريا ، دخلها الإسلام في عصر السامانيين بعد أن غزا نوح بن أزد مدينة أسبجانب سنة ٢٢٥ هـ ( ٨٣٩ أو ٨٤٠ م ) ، أي قبل مولد

### Jean Wahl

مؤرخ فلسفة فرنسي . ولد في مرسليا في ٢٥ مايو سنة ١٨٨٨ ، وتوفي في باريس في ١٨ يونيو سنة ١٩٧٤ .

أتم دراسته العليا في مدرسة المعلمين العليا والسوريون بباريس ، حيث تتلمذ على ليفي بريل ، وفردريك روه ، ومليو ، ولاناند ، كما تابع محاضرات برجسون في الكوليج دي فرانس ، وصار من المدافعين عنه ضد هجمات جوليان بندا وعين أستاذاً للفلسفة في جامعات بيزانسون ونانسي وديجون والسوريون .

ولما احتل الألمان فرنسا في سنة ١٩٤٠ ، سجنوه . لكنه أفلح في الفرار من فرنسا ، وسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقام بالتدريس في *Mount Holyoke College* وكلية اسمث في نيويورك . وعاد إلى فرنسا بعد انتهاء الحرب في سنة ١٩٤٥ ، واستأنف التدريس في السوريون .

وقد عني قال في مطلع حياته التعليمية بهيجل ، وخصوصاً بمؤلفات الشباب وتمخض عن ذلك كتابه : « شفاء الضمير ( أو الشعور ) في فلسفة هيجل » (باريس سنة ١٩٢٢ ، ط ٢ سنة ١٩٥١) .

لكنه انصرف بعد ذلك إلى دراسة الوجودية ، فأصدر في سنة ١٩٣٨ كتاباً ضخماً بعنوان : « دراسات كيركجوردية » ( ط ٣ سنة ١٩٦٧ ) . كما كتب عدداً من مؤلفات صغيرة عن الوجودية ، منها : « تاريخ موجز للوجودية » (باريس سنة ١٩٤٧) ؛ « الفكر في الوجود » (باريس سنة ١٩٥١)

(١) راجع عنها : الفطحي ص ٢٧٧ ؛ البيهقي : « ستة صوان الحكمة » ١٦ - ٢٠ ؛ ابن خلكان ج ٤ ص ٣٣٩ - ٢٤٣ ، القاهرة . سنة ١٩٤٨ ؛ الصفي ، ط ٢٠ ، ص ١٠٦ - ١١٢ ؛ صاعد الانطلس : « طبقات الأمم » ص ٨٥ ؛ ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥ ؛ ابن المعتاد : « شذرات الذهب » ج ٢ ص ٣٥٠ - ٣٥١ ؛ وراجع مقالنا في مجلة « الكتاب » سنة ١٩٥٠ ص ٨٩١ - ٨٩٤ .



خلط فيها بين شخصية ابن عباد وشخصية سيف الدولة الحمداني .

ولعل عدم بروز مكانته في بغداد هو الذي حمله على الانتقال عنها إلى بلاط سيف الدولة في حلب ، حيث كان هذا الأمير الممتاز يرمي صفوة من أهل الأدب والعلم . وكان ارتحال الفارابي إلى حلب في سنة ٢٣٠هـ ( سبتمبر سنة ١٩٤٢ م ) . وظل يتنقل بين حلب ودمشق ، ويطلق المقام في دمشق حيث الرياض الزاهرة والبساتين العاطرة والينابيع المتدفقة . وقد كان هذا خير إطار لمزاج الفارابي .

إلى أن خرج من دمشق في جماعة إلى عسقلان على الساحل الجنوبي من فلسطين ، فهاجته عصابة من اللصوص ، ووقع قتال بين الطائفتين قتل فيه صاحبنا الفارابي سنة ٢٣٩هـ في شهر رجب ( ديسمبر سنة ٩٥٠ م أو يناير سنة ٩٥١ م ) . فنقل جثمانه إلى دمشق . وصل عليه سيف الدولة في جملة من خواصه ، ودفن بظاهر دمشق ، خارج الباب الصغير .

ويبدو من بعض الأخبار أنه ورد مصر وأقام بها زمناً . إذ يروي ابن خلكان أن الفارابي ذكر في كتابه الموسوم بـ « السياسة المدنية » أنه ابتداء تأليفه في بغداد وأكمله بمصر ( « وفيات الأعيان » ج ٤ ص ٢٤٠ ) . وفي تعليقه خاصة بكتاب « المدينة الفاضلة » خير يقول إن بعض الناس سأله أن يجعل لهذا الكتاب « فصلاً تدل على قسمة معاينة ، فعمل الفصول بمصر » . وهذا يقطع بأن الفارابي أقام بمصر حيناً ، وأنه كتب فيها صفحات من مؤلفاته .

ويصف ابن خلكان طريقة عيشة الفارابي فيقول إنه كان زريّ الملبس ، يلبس أحياناً قنسوة بلقاء . « وكان مكباً على التحصيل ، زاهداً في أمور الدنيا ، لا يجفل بأمر مكسب ولا مسكن . وأجرى عليه سيف الدولة - كل يوم من بيت المال أربعة دراهم . . . اقتصر عليها لقناعته . وكان مؤثراً للوحدة » لا يجالس الناس . وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض ، ويؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه المشتغلون عليه . ولعل هذا هو الذي يفسر لنا طريقته في التأليف ، فقد جاء « أكثر تصانيفه فصلاً وتعليق ، ويوجد بعضها ناقصاً مبتوراً » ( ابن خلكان : « وفيات الأعيان » ج ٤ ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ) .

الفارابي بقراءة ثلاثين سنة . وهي منطقة مسبعة ، ولكن فيها غياضاً ومزارع في غربي الوادي ، ولها منعة ويأس . أما مدينة وسبج فعلى الشاطئ الغربي من سيرداريا ، على مسافة فرسخين جنوبي كدر ، عاصمة هذا الإقليم الذي تسكنه قبائل تركية من أجناس الغزية والخزلية .

وعن هذه البيئة ارتحل الفارابي في سنّ ناضجة ، انتجاعاً لمواطن الثقافة في ذلك العهد ، وأشهرها في ذلك الحين موضعان : حرّان ( في الجنوب الشرقي من تركيا الآن ) ، التي انتقلت إليها مدرسة الإسكندرية بعد أن مكثت قرابة مائة وأربعين سنة في أنطاكية . وكان ذلك في خلافة المتوكل التي استمرت من سنة ٢٣٢هـ ( ٨٤٧ م ) إلى سنة ٢٤٧هـ ( ٨٦١ م ) ، فأصبحت حرّان بذلك وريثة الثقافة اليونانية ؛ وإن لم تستمر بها الدراسة أكثر من أربعين سنة ، فقد تخرّج فيها - برغم ذلك - نفر ممتاز صاروا أساتذة العلوم اليونانية في بغداد التي طوت في داخلها معاهد الثقافة الكبرى في ذلك العهد .

ويغلب على الظن أن الفارابي قد طرق أبواب مدرسة حرّان أولاً ، فتلقى أطرافاً من علوم الأوائل على يد شخصية لا يزال الغموض يحيط بها هي شخصية يوحنا بن حيلان ، وقد كان ذا قدم راسخة في المنطق ، فقرأ عليه الفارابي من المنطق حتى آخر البرهان .

ثم ارتحل الفارابي إلى بغداد . ولعله ارتحل مع رؤساء مدرسة حرّان ، الذين انتقل جمعهم إلى بغداد في خلافة المعتضد ( التي استمرت من سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م ، إلى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢ م ) . وفي بغداد أم خصوصاً حلقة أبي بشر متى بن يونس الذي احتل مركز الصدارة في دراسة المنطق آنذاك ، وكان واسع الاطلاع على فلسفة أرسطو ، كما كان مترجماً غزير الانتاج ، وإن كان سقيم العبارة ، مما سيكون له أثره في عبارة الفارابي .

ويلوح أن الفارابي لم يكن ملحوظ المكانة في بغداد بالرغم من مهارته في العلوم الحكمية وتفوقه على أستاذه أبي بشر ، لأننا لا نجد فيما بين أيدينا من الوثائق التاريخية ما عساه أن يكشف عن هذه المكانة . والقصة التي رواها البيهقي في « نعمة صوان الحكمة » ( الذي نشره كرد علي بعنوان : « تاريخ حكماء الاسلام » ص ٣٢ - ٣٣ ، دمشق ، سنة ١٩٤٦ ) عما حدث بينه وبين صاحب بن عباد قصة زائفة

أراء الشروع في صناعة المنطق وهي خمسة فصول  
٤ - رسالة صدر بها أبو نصر محمد بن محمد الفارابي  
كتابه في المنطق - وهذه الرسائل الأربع نشرتها - نشرة في غاية  
السوء - السيدة مباحات تركز ضمن منشورات جامعة أنقرة  
سنة ١٩٥٨ ، المجلد رقم ١٦ ، ص ١٦٥ - ٢٨٦

٥ - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق  
نشره د . محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ، سنة  
١٩٦٨

٦ - شرح الفارابي لكتاب أرسطوطاليس في العبادة  
نشره فلهلم كوتش واستانلي مرو ، بيروت ، سنة  
١٩٦٠

ب) مدخل إلى فلسفة أرسطو :  
٧ - مقالة في أغراض أرسطوطاليس وكل مقالة من  
كتابه الموسوم بالحروف  
نشره ديتريشي في نشرته لبعض رسائل الفارابي  
بعنوان : « الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية » (لين  
سنة ١٨٩٠)

٨ - تجريد رسالة الدعوي العلمية  
نشر في حيدرآباد سنة ١٣٤٩  
ج) في الدفاع عن أرسطو :  
٩ - الرد على يحيى النحوي فيما رده على أرسطوطاليس  
١٠ - كتاب الرد على جالينوس فيما تأوله من كلام  
أرسطوطاليس على غير معناه وقد نشرناهما في كتابنا : « رسائل  
فلسفية ... » بنغازي ، سنة ١٩٧٣ .

د) عن أفلاطون  
١١ - جوامع كتاب النواميس لأفلاطون  
نشره فرنشكو جيريلي في لندن ، سنة ١٩٥٣ ؛  
ونشرناه نحن في كتابنا : « أفلاطون في الإسلام » ، طهران  
سنة ١٩٧٤ .

١٢ - الألفاظ الأفلاطونية وتقويم السياسة الملوكية  
والأخلاق

نشرناه في « أفلاطون في الإسلام »  
١٣ - كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين  
نشره ديتريشي في نشرته المذكورة ، ص ١ - ٣٣

ويمكن رسم خريطة أسفار الفارابي على النحو التالي :

ارتحل من بغداد في نهاية سنة ٣٣٠ هـ ، ووصل إلى  
حلب في نهاية سنة ٣٣٠ هـ ؛ ثم رحل إلى دمشق في سنة  
٣٣١ ، حيث غشي بلاط سيف الدولة من سنة ٣٣٤ إلى  
٣٣٦ ؛ ورحل إلى مصر في سنة ٣٣٧ ، وهي السنة التي  
كانت فيها حكومة دمشق تتبع سلطان مصر ؛ ثم عاد إلى  
دمشق في سنة ٣٣٨ ، حيث توفي فيها في رجب سنة  
٣٣٩ هـ ، إن قلنا بوفاته في دمشق كما ذكر ابن أبي أصيبعة  
(ج ٢ ص ١٣٤ س ١٥) .

### (١) مؤلفاته

ألف الفارابي عدداً ضخماً من الرسائل والكتب  
والشروح - ويمكن تصنيفها وحصرها باختصار على النحو  
التالي :

#### أ) في المنطق :

١ - رسائل : ٢٥ رسالة

٢ - شروح على منطق أرسطو : ١١ شرحاً

ب) شروح على سائر مؤلفات أرسطو : ٧

ج) مدخل إلى فلسفة أرسطو : ٤

د) دفاع عن أرسطو : ٢

ز) عن أفلاطون : ٦

ح) عن بطليموس وأقلينس : ٢

ط) مدخل إلى الفلسفة بعامة : ٥

ي) تصنيف العلوم ١

يا) ما بعد الطبيعة ١٥

يب) الأخلاق والسياسة ٦

يج) علم النفس ومتنوعات : ٣

يد) الموسيقى وفن الشعر ٧

ومعظم هذه المؤلفات مفقود ، وبعضه لا يوجد إلا في  
ترجمات عبرية .

ونجزيها هنا بإيراد بعض الكتب المهمة مما نشر :

#### أ) في المنطق :

١ - كتاب القياس - وهو القياس الصغير

٢ - التوطئة في المنطق

٣ - فصول تشتمل على جميع ما يضطر إلى معرفته من

(١) راجع عناياتها ولما كان مخطوطاتها وما نشر منها في كتابنا Histoire de la Philosophie en Islam, II, pp. 484-496.

- ٢٥ - تعليقات  
طبعت في حيدر آباد سنة ١٣٤٦هـ  
٢٦ - رسالة في مسائل متفرقة  
طبعت في حيدر آباد سنة ١٣٤٤هـ  
٢٧ - رسالة في فضيلة العلوم والصناعات  
طبعت في حيدر آباد سنة ١٣٦٧ هـ
- ط ( في الموسيقى وفن الشعر  
٢٨ - كتاب الموسيقى الكبير  
نشره ر. ارلانجيه في كتابه la Musique Arabe ج ١  
سنة ١٩٣٠ ؛ باريس ؛ وترجمه إلى الفرنسية ، في باريس سنة  
١٩٣٥ . وأعاد نشره د. الحفني ، الهيئة العامة للكتاب ،  
القاهرة .  
٢٩ - رسالة في قوانين صناعة الشعر  
نشره لأول مرة آريري في RSO ج ٢٧ ص ٢٦٦ ؛  
ونشرناه نحن في كتابنا : «أرسطوطاليس : فن  
الشعر . . . » ، ص ١٤٧ - ١٥٨ ، القاهرة سنة ١٩٥٣ .
- تمهيد إلى فلسفته  
أ - الفارابي والفلسفة اليونانية  
كان الفارابي أوسع الفلاسفة المسلمين اطلاعاً على  
الفلسفة اليونانية : عرف الكثير من نصوصها في ترجماتها إلى  
العربية ، وعرف تاريخ مدارسها ، وكان أول مفسر مسلم  
لبعض مؤلفات أرسطو .  
وهو قد عرض لنا عرضاً موجزاً لتاريخ الفلسفة اليونانية  
فقال (١) :  
« إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين ، وبعد  
وفاة ارسطوطاليس ، بالاسكندرية إلى آخر أيام المرأة (٢) ، وإنه  
لما توفي بقي التعليم بحاله فيها ، إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكاً  
وتوالى - في فترة ملكهم - من معلمي الفلسفة اثنا عشر معلماً ،  
أحدهم المعروف باتلدرونيقوس (٣) . وكان آخر هؤلاء الملوك  
المرأة (٢) ، فقلبها أوغسطس الملك من أهل رومية ، وقتلها
- (١) هذا النص ورد في ابن أبي عميرة ( ج ٢ ص ١٣٥ ) عن كتاب مفقود للفارابي  
(٢) يقصد الملكة كليوباترة ( ٦٩ - ٣٠ ق. م )  
(٣) لتدرونيقوس الرومسي ، الذي تولى رئاسة المدرسة للشالية بعد سنة ٧٠ ق. م بقليل .  
وهو الذي نشر مؤلفات أرسطو وتوفرسطس .

- هـ ( تصنيف العلوم :  
١٤ - احصاء العلوم وترتيبها  
نشر لأول مرة في مجلة « العرفان » بصيدا في سنة  
١٩٢٠ وما تلاها ؛ ونشره نشرة أخرى د . عثمان أمين للمرة  
الأولى في سنة ١٩٣٠ ، والثانية في ١٩٤٩ ؛ ونشره نشرة ثالثة  
أنجيل جونثالث بالثيا في مدريد سنة ١٩٣٢ ، وأعيد طبعه في  
مدريد سنة ١٩٥٣ .
- و ما بعد الطبيعة :  
١٥ - عيون المسائل  
نشره ديتريصي في النشرة المذكورة ، ص ٥٦ - ٦٥  
١٦ - كلام في اللثة  
نشره محسن مهدي في بيروت سنة ١٩٦٨  
١٧ - نصوص في الحكمة  
نشره ديتريصي في الكتاب المذكور ص ٦٦ - ٨٣ ؛  
ونشر في حيدرآباد سنة ١٣٤٥هـ  
١٨ - رسالة في الحروف  
نشره محسن مهدي ، بيروت ، سنة ١٩٧٠
- ز ( الأخلاق والسياسة :  
١٩ - المدينة الفاضلة ، أو : مبادئ آراء أهل المدينة  
الفاضلة  
نشره لأول مرة ديتريصي في ليدن سنة ١٨٩٥ ؛ وأعاد  
طبعه د . البير نصري نادر في بيروت سنة ١٩٧٣ .  
٢٠ - السياسات المدنية  
نشره فوزي متري النجار ، في بيروت سنة ١٩٦٤  
٢١ - الفصول المتزعة  
طبعه أولاً دتلوب طبعة رديئة تحت عنوان اقتعله هو :  
« فصول المدن » (!) ؛ ثم نشره من جديد فوزي متري  
النجار ، في بيروت سنة ١٩٧١ تحت عنوان « فصول  
متزعة » .
- ح ( في علم النفس ومتفرقات :  
٢٢ - رسالة في معاني العقل  
نشره موريس بويج في بيروت سنة ١٩٣٨  
٢٣ - النكت فيها يصح ولا يصح من أحكام النجوم  
نشره ديتريصي في المجموع المذكور ، ص ١٠٤ -  
١١٤
- ٢٤ - شرح رسالة زينون الكبير  
طبعت في حيدرآباد سنة ١٣٤٩

تصنيفاً لمدارس الفلسفة اليونانية إلى سبع مدارس بحسب  
سبعة أمور :

(١) بحسب اسم مؤسس المدرسة ، وهذه هي المدرسة  
الفيثاغورية ؛

(٢) بحسب اسم البلد التي جاء عنها الفيلسوف ، وهي  
المدرسة القورينائية ، مدرسة أرسطيفوس الذي من قورينا  
( قرية شحات حالياً في برقة بليبيا ) ؛

(٣) بحسب الموضوع الذي كانت تُدرّس فيه  
الفلسفة ، وهي المدرسة الرواقية ، لأن التعليم كان موضعه  
في رواق بمعبد مدينة أثينا ؛

(٤) بحسب السلوك في الحياة ، وهذه هي المدرسة  
الكلية ، لأن سلوك رجالها في الحياة كان يشبه سلوك  
الكلاب ؛

(٥) بحسب الآراء التي يقول بها أصحابها ، وهي  
المدرسة التي ترعّمها فورون مؤسس مدرسة الشك ، وكان  
يصرف الناس عن العلم .

(٦) بحسب الآراء التي يقول بها أصحابها فيما يتعلق  
بالغاية المنشودة من دراسة الفلسفة ، وهي مدرسة « أصحاب  
اللمنة » ، أي الايقورية .

(٧) بحسب الأفعال التي يقومون بها وهم يدرّسون  
الفلسفة ، وهي المدرسة المشائية ، إذ كان أفلاطون وأرسطو  
يدرّس الفلسفة للناس وهما يتمشيان .

وقد أخذ الفارابي هذا التخصيم بحروفه عن شرح  
سنبلقيوس على كتاب « المقولات » لأرسطو ( ص ٣ - ٤ ،  
نشرة Kalbfleisch ) ، أو عن حنين بن أسحق ( راجع القنطلي  
ص ٢٥ - ٢٦ ) .

#### ب - التوفيق بين أفلاطون وأرسطو

وعن سنبلقيوس أيضاً أخذ الفارابي بعض ما أورده في  
كتابه « الجمع بين أربي الحكيمين » الذي حاول فيه التوفيق  
بين أفلاطون وأرسطو .

وفي هذا الكتاب يبدأ فيقدر منزلة هذين الحكيمين  
واتفاق الآراء على الإشادة بهما . قال : « ونحن نجد الالتمة  
المختلفة متفقة في تقديم هذين الحكيمين . . . وإليهما يُساق  
الاعتبار ، وعندهما ينتهي الوصف بالحكم العميقة ، والعلوم  
اللطيفة ، والاستنباطات العجيبة ، والخصوص في المعاني  
الدقيقة ، المؤدية في كل شيء إلى الحقيقة » . ثم أشار إلى ما

واستحوذ على الملك<sup>(١)</sup> . فلما استقر له ، نظر في خزائن الكتب  
وصنعها ، فوجد فيها نسخاً لكتب أرسطوطاليس قد نسخت  
في أيامه وأيام ثاوفرسطس ، ووجد المعلمين والفلاسفة قد  
عملوا كتباً في المعاني التي عمل فيها أرسطو . فأمر أن تُنسخ  
تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه ، وأن  
يكون التعليم منها ، وأن ينصرف عن الباقي ، وحكّم  
أندونيقيوس في تدبير ذلك ، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه  
إلى رومية ، ونسخاً يبقيا في موضع التعليم بالاسكندرية .  
وأمره أن يستخلف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية ، ويسير  
معه إلى رومية . فصار التعليم في موضعين<sup>(٢)</sup> . وجرى الأمر  
على ذلك ، إلى أن جاءت النصرانية ، فبطل التعليم من  
رومية ، وبقي بالاسكندرية إلى أن نظر ملك النصرانية في  
ذلك ، واجتمع الاساقفة وتشاوروا فيما يترك من هذا  
التعليم ، وما يُبطل . فراءو أن يُعلّم من كتب المنطق إلى آخر  
الأشكال الوجودية ، ولا يُعلّم ما بعده ، لأنهم رأوا أن في  
ذلك ضرراً على النصرانية ، وأن فيها أطلقوا تعليمه ما يستعان به على  
نصرة دينهم . فبقي الظاهر من التعليم هذا المقدار وما ينظر فيه  
من الباقي مستوراً ، إلى أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة فانتقل  
التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية ، وبقي بها زمناً طويلاً ، إلى أن  
بقي معلم واحد ، فتعلّم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب :  
فكان أحدهما من أهل حرّان ، والآخر من أهل مرو . فلما  
الذي من أهل مرو فتعلّم منه رجلان أحدهما ابراهيم  
الروزي ، والآخر يوحنا بن حيلان . وتعلم من الحرّاني  
اسرائيل الأسقف وقويري ، وساروا إلى بغداد فتشاغل ابراهيم  
بالدين ، وأخذ قويري في التعليم ، وأما يوحنا بن حيلان فإنه  
تشاغل أيضاً بدينه . وانحدر ابراهيم الروزي إلى بغداد فأقام  
بها . وتعلّم من الروزي متى بن يونان .

وهذا العرض - رغم الأخطاء التاريخية في التفاصيل -  
يقرب من الحقيقة التاريخية في مجموعه .

كذلك يقدم لنا الفارابي في رسالته : « فيما ينبغي أن  
يقدم قبل تعلم الفلسفة » ( نشرة ديتريصى ص ٤٩ - ٥٥ )

(١) « لونغسطنس » هو اللقب الذي أطلقه مجلس الشيوخ الروماني على أول امبراطور وهو  
جايوس أوكتافيوس ( ولد في روما في ٦٣/٩/٢٣ ق. م وتوفي في نولا في ١٤/٨/١٩ بعد  
الميلاد ) . وقد انتصر على انطونيوس وكليطيرة في معركة بحرية عمه اكتوبر في ٣١/١٢/٢١  
ق. م ، وصار امبراطوراً في سنة ٢٧ ق. م .

(٢) الذي فعل ذلك هو سولا Sylla القائد الروماني ( ١٣٨ - ٧٨ ق. م )

(٣) في روما وفي الاسكندرية .

رفض القسمة الثنائية ، لو أن أفلاطون أنكر قيمة القياس والبرهان . وسيعود الفارابي إلى فضل بيان هذه النقطة .

ب) والفرض الثاني باطل أيضاً . ذلك لأن الاتفاق بين معظم العقلاء دليل على الحق ، بشرط ألا يكون هذا الاتفاق ناتجاً عن التقليد ، بل عن البرهان العقلي الدقيق . « ونحن نجد الألسنة المختلفة متفقة في تقديم هذين الحكيمين ، وفي التغلسف بهما تضرب الأمثال ، وإليهما يساق الاعتبار » .

ج) فلم يبق إلا الفرض الثالث وهو أن معرفة من ظنوا أن بينها خلافاً هي معرفة تتصف بالقصور .

فلنذكر أولاً الأسباب التي دعت إلى ظن من ظن أن بينها خلافاً ؛ ولنحاول بعد ذلك التوفيق بين هذه الخلافات المزعومة .

١ - أول نقط الخلاف هي في السلوك في الحياة . فإن أفلاطون قد تحلى عن كثير من الأسباب الدنيوية ، بينما أرسطو قد انغمس في علائق الدنيا ، ونال الكثير من مفاخرها ، وحاز المال الوفير ، وتزوج وأنجب أولاداً ، واستوزر لالاسكندر . ومن هذا يبدو لأول وهلة أن بين الرجلين خلافاً في النظر إلى السلوك الواجب على الفيلسوف اتخاذه في الحياة .

ويرى الفارابي أن الأمر ليس هكذا . فإن أفلاطون اهتم بشؤون الدنيا و«دون السياسات وهذبا ، وبين السيرة العادلة والعشرة الانسية المدنية ؛ وأبان عن فضائلها ، وأظهر الفساد العارض لأفعال من هجر العشرة المدنية وترك التعاون فيها » . وكتب في هذا الباب معروفة ، ومختلف الأمم تدرسها منذ أيامه حتى عصرنا هذا . لكنه لما رأى أن المهمة الأولى للإنسان هي تقويم ذاته ، ثم تقويم غيره بعد ذلك « على أنه متى فرغ من الأهم الأولى ، أقبل على الأقرب الأدنى » . لكنه « لم يجد في نفسه من القوة ما يمكنه الفراغ مما حمله من أمرها ، ( لذا ) أفنى أيامه في أهم الواجبات عليه » أي تقويم نفسه .

وأرسطو اتبع تعاليم أفلاطون كما وجدها في مؤلفاته . ولما عاد إلى ذاته ، وجد في نفسه قوة على تقويم نفسه ثم التعاون مع الآخرين والانشغال بكثير من الأمور السياسية .

فمن « تأمل هذه الأحوال ، علم أنه لم يكن بين الرايين والاعتقادين خلاف ، وأن التباين الواقع لها كان سببه نقصاً في القوى الطبيعية في أحدهما ، وزيادة في الآخر » .

ذهب إليه الناس من اختلاف آرائها في بعض الأمور فقال : « زعم بعضهم أن بين الحكيمين اختلافاً في إثبات المبدع الأول ، وفي وجود الأسباب عنه ، وفي أمر النفس والعقل ، وفي المجازاة على الأفعال : خيرها وشرها ، وفي كثير من الأمور المدنية ( = السياسية ) والحلقية ، والمنطقية » . ولهذا رأى أن يوفق - أو على حد تعبيره : يجمع - بين رأييهما . قال : « أردت في مقالتي هذه أن أشرع في الجمع بين رأييهما ، والابانة عما يدل عليه فحوى قوليهما ، ليظهر الاتفاق بين ما كانا يعتقدانه ، ويزول الشك والارتباب عن قلوب الناظرين في كتبهما ، وأبين مواضع الظنون ومداخل الشكوك في مقالاتيهما » .

ثم يقدم تعريفاً للفلسفة ليكون أساساً في الفصل في هذه الأمور فيقول إن الفلسفة « هي العلم بالوجودات بما هي موجودة » . والمذهب يكون صحيحاً إذا انطبق على الموجود .

لكن هذين الحكيمين - أفلاطون وأرسطو - اختلفا في بعض أمور الفلسفة . ولا بد أن يكون هذا الاختلاف راجعاً إلى واحد من الأسباب الثلاثة التالية :

أ) فيما أن الحد المين عن حقيقة الفلسفة غير صحيح ؛

ب) وإما أن يكون رأي الجميع أو الأكثرين واعتقادهم في تغلسف هذين الرجلين فاسداً وبغير أساس ؛

ج) وإما أن معرفة أولئك الظانين بأن بينها خلافاً هي معرفة مقصرة . فإن فحصنا عن هذه الاحتمالات الثلاثة تبين لنا :

أ) أن الحد الذي ذكرناه للفلسفة صحيح ، كما هو بين لمن يفحص عن أجزاء هذا العلم . إذ موضوعات العلوم إما إلهية ، أو طبيعية ، أو منطقية ، أو رياضية ، أو سياسية . « والفلسفة هي المستنبطة لهذه العلوم جميعاً ، حتى إنه لا يوجد شيء من موجودات العالم إلا ولللسفة فيه مدخل ، وعليه غرض ، ومنه علم » .

وهنا تتجلى أولى نقط الخلاف في الظاهر - بين هذين الحكيمين : أفلاطون ، وأرسطو . ذلك أن أفلاطون في دراسته لعلوم الفلسفة ، فضل استعمال القسمة الثنائية من أجل انتظام مجموع الأحوال الجزئية ، بينما فضل أرسطو استخدام القياس والبرهان . لكن هذا لا يعني أن أرسطو

والتركيب .

والفارابي يشبه هذا بَسْمُ يصعد عليه وينزل منه ، فالمسألة واحدة ، ولكن الاتجاه مختلف بين من ينزل وبين من يصعد . وبين أنه لا خلاف بينها ها هنا ، بل كلاهما يستهدف نفس الهدف ولكن في اتجاهين مختلفين . ذلك أن من يلجأ إلى القسمة ينبغي عليه أن يمر بالتركيب بين الجنس والفصل النوعي ؛ ومن يستخدم القياس يجب عليه أن يلجأ إلى القسمة . فالسلطان متكاملان ، وليس متناقضين .

٥ - مسائل منطقية : القياس ، تقابل القضايا :

وبين الفارابي ما قيل من خلافات بين أرسطو وأفلاطون في بعض مسائل المنطق الصوري ، وخصوصاً القياس ، وتقابل القضايا . ويفصل أوجه الخلاف ، وينتهي إلى نوع من التوفيق ، مما لا مجال ها هنا لذكره ، لطوله وتعقده .

٦ - مسائل في الطبيعيات : الابصار :

ويشير الفارابي ها هنا إلى الخلاف بين أرسطو وأفلاطون في مسألة الابصار : فأفلاطون يقول إنه يكون بخروج شيء من العين يلقي موضوع الابصار . أما أرسطو فيرى أن الابصار يتم بانفعال يحدث في العين .

ويحاول الفارابي ، بعد عرض حجج أنصار كليهما في هذا الموضوع ، أن يدلي برأي وسط بينهما ، لكنه رأي مقتضب لا يوفق بين رأيي أرسطو وأفلاطون .

٧ - الأخلاق :

يرى أفلاطون في كتاب « السياسة » ( المعروف خطأ بـ « الجمهورية » ) أن الطبع يغلب العقل ، وأن الكهول الذين يطبعون على خلق يعسر زواله منهم . أما أرسطو فقد صرح في « الأخلاق إلى نيقوماخوس » أن الأخلاق كلها عادات تتغير ، وأن ليس شيء منها بالطبع ، وأن في استطاعة المرء أن يتقل من خلق إلى غيره بالاعتقاد والتدربة .

ويلاحظ الفارابي أنه ليس في هذا خلاف . وإنما أرسطو يتكلم ها هنا في الأمور الدنيوية « والكلام القانوني يكون أبداً كلياً مطلقاً . . . ومن البين أن كل خلق إذا نظر إليه مطلقاً عليم أنه يتقل ويتغير ، ولو بعسر ؛ وليس شيء من الأخلاق ممتنعاً على التغيير والتبدل ، وأما أفلاطون فإنه ينظر في أحوال

٢ - طريقة التأليف : وثاني نقط الخلاف - الظاهري -

هي في طريقة كل منها في التأليف . فإن أفلاطون - هكذا يزعم الفارابي خطأ - كان يوصي بعدم التأليف ، لأنه كان يفضل أن يث الحكمة في القلوب الطاهرة والعقول الصحيحة . ولما خاف من ضياع علمه وكلمته بسبب النسيان ، عمد إلى الرموز والألغاز لتدوين معرفه وحكمته ، بحيث لا يفهمها إلا القادرون عليها .

أما أرسطو فكان مذهبه التدوين والوضوح والترتيب .

ويبدو للوهلة الأولى أن بين كليهما خلافاً في طريقة التدوين . لكننا إذا تعمقنا الأمر وجدنا أرسطو كثيراً ، ما يلجأ إلى الغموض والتعقيد هو الآخر . ويسوق الفارابي أمثلة على ذلك . ويؤيد رأيه بكلام لأرسطو يقول فيه : « إننا وإن توّنت هذه العلوم والحكم ، فقد رتبنا بحيث لا يخلص إليها إلا أهلها ، وعبرت عنها بعبارات لا يحيط بها إلا بنوها » .

٣ - مشكلة الجواهر : ونقطة خلاف ثالثة تدور حول

مسألة الجواهر أيها الأشرف : الكلي ، أم الجزئي ؟ .

ومعظم الذين درسوا مؤلفات أفلاطون وأرسطو يعتقدون بوجود خلاف بينهما في هذه المسألة . إذ يجدون في كثير من مؤلفات أفلاطون ما يدل على أنه يرى أن الجوهر الأشرف والأقدم هو الأقرب إلى العقل والنفس ، والأبعد عن الحسّ والفرد . بينما يجدون أرسطو في كتبه ، خصوصاً في كتاب « المقولات » وكتاب « الأقيسة الشريطية » ( ؟ ) ، يقرر أن الجوهر الأولي بالأشرف والتقديم هو الجوهر الأول أي الفرد ، لا الجوهر الثاني أي الكلي . لهذا زعم هؤلاء أن بين كلا الحكيمين خلافاً في هذه المسألة . .

والفارابي يقر بوجود هذا الخلاف ، ولكنه يعزوه إلى اختلاف السياق . فأرسطو يجعل المفرد هو الجوهر الأشرف حين يتحدث في المنطق والطبيعيات ، لأنه يتم حينئذ بأحوال الموجودات القريبة من الحس ؛ بينما أفلاطون يؤكد أن المفرد هو الأشرف حين يتحدث في الأمور الإلهية وما بعد الطبيعة . فكلمها كان السياق مختلفاً ، والغرض ليس واحداً ، وقع الخلاف في الظاهر ، أما في الواقع فلا خلاف ، بل مرجعه إلى اختلاف سياق الكلام .

٤ - القسمة والبرهان : يرى أفلاطون أن الحد التام

يكون بالقسمة ، بينما يرى أرسطو أنه يكون بالبرهان

في الطبيعة والفلسفة الأولى أن الزمان هو مقدار حركة القللك وحادث عنه ؛ وما هو حادث عن شيء لا يحتوي على هذا الشيء . فمن يقول إن العالم ليس له بدء في الزمان ، فهو يقصد بذلك أن العالم لم يتكون جزءاً بعد جزء مثل البيت .

وهكذا ينكر الفارابي أن يكون أرسطو قد أكد أن العالم قدم ! ومن الغريب أن يتجاهل الفارابي ما أكده أرسطو بكل وضوح في المقالة الثانية من كتاب « الطبيعة » لاثبات أزلية الحركة وأبديتها !

#### ١٠ - المثل الأفلاطونية :

ونقطة الخلاف العاشرة بين الحكيمين تتعلق بالمثل التي أكدها أفلاطون ، وهاجها أرسطو بشدة .

وهنا يلجأ الفارابي ، من أجل التوفيق بينهما في هذا المجال ، إلى ما ورد في كتاب « أثولوجيا » المنسوب خطأً إلى أرسطو ، بينما هو في الواقع تلخيص « للتساعات » من ٤ إلى ٦ ، لأفلوطين . وما كان أسهل على الفارابي أن يقوم حيثئذ بمهمة التوفيق إذ مذهب أفلوطين هو في جملة مذهب أفلاطون . ويجد الفارابي عوناً مسعفاً له في مسعاه في الموضوع المشهور من « أثولوجيا » حيث يقول صاحبه : « إني ربما خلوت بنفسي ، وخلعت بدني جانياً ، وصرت كأي جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلاً في ذاتي ، راجعاً إليها ، خارجاً من سائر الأشياء - فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً ، فأرى في ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقي له متعجباً مهتماً ، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الشريف الفاضل الإلهي ذو حياة فعالة . فلما أيقنت بذلك ، ترقيت بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي ، فصرت وكأني موضوع فيها متعلق بها ، فأكون فوق العالم العقلي ، فأرى كأني واقف في ذلك الموقف الشريف الإلهي ، فأرى هناك من النور والبهاء ما لا تقدر الألسن على صفته ولا تعيه الأسماع »<sup>(١)</sup> .

#### ١١ - الثواب والعقاب في العالم الآخر :

والنقطة الأخيرة متعلقة بمسألة الثواب والعقاب في العالم الآخر . يقول الفارابي إن البعض يزعم أنه لا أفلاطون ولا أرسطو يعتقدان في وجود عالم آخر ، ولا في الثواب والعقاب في عالم آخر . لكن الفارابي يرى أن هذا الزعم غير صحيح :

قابل السياسات وفاعليها ، وأنها أسهل قبولاً ، وأنها أعسر . ولعمري إن من نشأ على خلق من الأخلاق وانصفت له تقويته ، فإن زوال ذلك عنه يعسر جداً . والعسير غير المتع .

والفارابي يشير هنا فيما يتعلق بأرسطو إلى قوله في « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ( المقالة الثانية ، فصل ١ ، ص ١١٠٣ أس ١٦ وما يتلوه ) . أما فيما يتعلق بأفلاطون فمن الصعب أن نجد في كتاب « السياسة » ما يشير إليه ، وأقرب موضع إلى ذلك ما ورد في المقالة السابعة ( فصل ٤ ، ص ٥١٨ ) .

#### ٨ - تحصيل العلم :

كذلك يختلف الحكيمان في تفسير تحصيل العلم - فأفلاطون في محاوره « فيدون » يبين أن كل علم تذكر . أما أرسطو فيرى أن الحواس مصدر العلم ، وأن من فقد حساً فقد علماً .

والفارابي يوفق بين الرأيين بأن يذكر الناس بما قاله أرسطو في أول كتاب « البرهان » : « كل تعليم وكل تعلم فإنما يكون عن معرفة سابقة متقدمة الوجود . ويقول : أليست هذه هي نظرية التذكر عن أفلاطون بعينها !!

ولم نجد هذا النص في كلام أرسطو في كتاب « البرهان » . فلنسا ندرى من أين استغاه !

#### ٩ - مسألة أزلية العالم وأبديته :

يظن الناس أن أرسطو يؤكد أن العالم أزلي أبدي ، بينما يقول أفلاطون إن العالم مخلوق في الزمان .

ويرى الفارابي أن الذي ساق الناس إلى هذا الظن من أرسطو هو ما قاله في « الطويقا » على سبيل المثال . لكن هذا مجرد مثال ، وما يقال على سبيل المثال لا يعبر بالضرورة عن اعتقاد من يذكر المثال ؛ فضلاً عن أن أرسطو في « الطويقا » لم يكن بصدد الكلام عن العالم ، بل هو يتكلم في الأقيسة التي تتألف مقدماتها من قضايا معروفة بوجه عام .

كذلك دفعهم إلى هذا الظن ما قاله أرسطو في كتاب « السماء والعالم » من أنه ليس لكل بلد في الزمان فاستتجوا من هذا أنه يقول إن الزمان أزلي . وهذا غير صحيح ، هكذا يقول الفارابي - لأنه يبين في هذا الكتاب نفسه وفي كتب أخرى

(١) راجع كتابنا : « أفلوطين عند العرب » ط ٢ ص ٢٢ المقامة سنة ١٩٦٦ .



يمكن أن يكون استفاد وجوده عن شيء أصلاً ، - وأن ذلك الواحد هو الأول والمتقدم على الإطلاق وحده . - ويبين أن سائر الموجودات متأخر عنه في الوجود ، وأنه هو الموجود الأول الذي أفاد كل واحد سواه الوجود ، وأنه هو الواحد الأول الذي أفاد كل شيء سواه : الوحدة ، وأنه هو الحق المسمى أفاد كل شيء حقيقة سواه : الحقيقة ، وعلى أي جهة أفاد ذلك ، - وأنه لا يمكن أن يكون فيه كثرة أصلاً ولا بوجه من الوجوه ، بل هو أحق باسم الواحد ومعناه ، وباسم الموجود ومعناه ، وباسم الحق ومعناه من كل شيء يقال فيه إنه واحد أو موجود أو حق سواه . وثم يبين أن هذا الذي هو هذه الصفات هو الذي ينبغي أن يعتقد فيه أنه هو الله عز وجل وتقدس أسمؤه . ثم يعين بعد ذلك في باقي ما يوصف به الله ، إلى أن يستوفيها كلها .

ثم يُعرّف كيف حدثت الموجودات عنه ، وكيف استفادت عنه الوجود . ثم يفحص عن مراتب الموجودات ، وكيف حصلت لها تلك المراتب ، وبأي شيء يستأهل كل واحد منها أن يكون في المرتبة التي هو فيها . ويبيّن كيفية ارتباط بعضها ببعض وانتظامه ، وبأي شيء يكون ارتباطها وانتظامها . ثم يعين في إحصاء باقي أفعاله عز وجل - في الموجودات ، إلى أن يستوفيها كلها ، ويبيّن أنه لا جور في شيء منها ولا خلل ولا تنافر ولا سوء نظام ولا سوء تأليف ، وبالجملة : لا نقص في شيء منها ولا شر أصلاً .

ثم يشرع بعد ذلك في إبطال الفنون الفاسدة التي ظنّت بالله - عز وجل - في أفعاله بما يدخل النقص فيه وفي أفعاله وفي الموجودات التي خلقها - فيبطلها كلها ببراهين تفيد العلم اليقيني الذي لا يمكن أن يداخل الإنسان فيه ارتياب ولا يخالجه فيه شك ، ولا يمكن أن يرجع عنه أصلاً<sup>(١)</sup> .

وهذا العرض المستقصي لموضوع العلم الإلهي يستدعي الملاحظات التالية :

١ - أولاً غموض التقسيم المذكور إلى ثلاثة أجزاء : إذ لا يوجد فارق بين الجزء الأول ، وبين الجزء الثالث ، فلا محل للتمييز بينهما . والجزء الثاني يلفت النظر ، لأنه أدخل في العلم الطبيعي منه في العلم الإلهي ، أو يدخل بالتعبير المصري في فلسفة العلوم ومناهجها . وربما الذي دعا الفارابي إلى وضع هذا الجزء الثاني ضمن موضوعات العلم

(١) الفارابي : إحصاء العلوم ، ص ٩٩ - ١٠١ ، ط ٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ .

فبالنسبة إلى أرسطو يستشهد الفارابي بالرسالة التي بعث بها أرسطو إلى أم الاسكندر الأكبر يعزها في ولدها والرسالة منحولة . وبالنسبة إلى أفلاطون يشير الفارابي إلى كلام أفلاطون في نهاية كتاب « السياسة » مما يدل على البحث والحساب والميزان والثواب والعقاب . والفارابي إنما يشيرنا هنا إلى أسطورة Ete الواردة في المقالة العاشرة من كتاب « السياسة » ( ص ٥٦١٠ ؛ ١٦١٢ ؛ ٥٦١٣ - وما يتلوها ) .

### منهج الفارابي

#### أ - العلم الإلهي

في كتاب « إحصاء العلوم » يقسم الفارابي العلم الإلهي إلى ثلاثة أجزاء :

« أحدها : يفحص فيه عن الموجودات والأشياء التي تعرض لها بما هي موجودات .

والثاني يفحص فيه عن مبادئ البراهين في العلوم النظرية الجزئية وهي التي يتفرد كل علم منها بالنظر في موجود خاص - مثل المنطق والهندسة والعدد ، وباقي العلوم الجزئية الأخرى التي تشاكل هذه العلوم - فيفحص عن مبادئ علم المنطق ، ومبادئ علوم التعاليم ( = الرياضيات ) ، ومبادئ العلم الطبيعي ، ويلتمس تصحيحها ، وتعريف جواهرها وخواصها ؛ ويحصي الفنون الفاسدة التي كانت وقعت للقدماء في مبادئ هذه العلوم ، مثل ظن من ظن في النقطة والوحدة والخطوط والسطوح أنها جواهر ، وأنها مفارقة ، والفنون التي تشاكل هذه في مبادئ سائر العلوم ، فيصححها ويبيّن أنها فاسدة .

والجزء الثالث : يفحص فيه عن الموجودات التي ليست بأجسام ، ولا في أجسام : فيفحص عنها أولاً : هل هي موجودة ، أم لا ، ويبرهن أنها موجودة . ثم يفحص عنها : هل هي كثيرة أم لا ، فيبين أنها كثيرة . ثم يفحص عنها : هل هي متناهية أم لا ، ويبرهن أنها متناهية ، ثم يفحص هل مراتبها في الكمال واحدة أم مراتبها متفاضلة ، ويبرهن أنها متفاضلة في الكمال ، ثم يبرهن أنها على كثرتها ترتقي من عند انقضاءها إلى الأكمل فالأكمل ، إلى أن تنتهي في آخر ذلك إلى كمال ما ، لا يمكن أن يكون شيء هو أكمل منه ، ولا يمكن أن يكون شيء هو أصلاً في مثل مرتبة وجوده ، ولا نظيره ولا ضد ؛ - وإلى أول لا يمكن أن يكون قبله أول ، وإلى متقدم لا يمكن أن يكون شيء أقدم منه ، وإلى موجود لا



فلنجتريءها هنا بهذه الرواية الأخيرة الموجزة . يقول الفارابي :

« إن الموجودات على ضربين : أحدهما إذا اعتبر ذاته لم يجب وجوده ، ويسمى ممكن الوجود . والثاني إذا اعتبر ذاته واجب وجوده ، ويسمى واجب الوجود . وإن كان ممكن الوجود إذا فرضناه غير موجود لم يلزم عنه محال ، فلا غنى بوجوده عن علة . وإذا وجد ، صار واجب الوجود بغيره . فيلزم من هذا أنه كان مما لم يزل ممكن الوجود بذاته ، واجب الوجود بغيره . وهذا الإمكان إما أن يكون شيئاً فيما لم يزل ، وإما أن يكون في وقت دون وقت . والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمرّ بلا نهاية في كونها علة ومعلولاً ، ولا يجوز كونها على سبيل الدور ، بل لا بد من انتهائها إلى شيء واجب ، هو الموجود الأول .

والواجب الوجود متى فرض غير موجود ، لزم منه محال . ولا علة لوجوده . ولا يجوز كون وجوده بغيره . وهو السبب الأول لوجود الأشياء .»

### ج - صفات واجب الوجود

ويعتد الفارابي صفات واجب الوجود - أي : الله - في رسائل عديدة :

فيقول عنه في كتاب « السياسة المدنية »<sup>(١)</sup> : « أما الأول فليس فيه نقص أصلاً ولا بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون وجوده أكمل وأفضل من وجوده ، ولا يمكن أن يكون وجوده أقدم منه ولا في مثل مرتبة وجوده لم يتوفر عليه . فلذلك لا يمكن أن يكون استفاد وجوده عن شيء آخر غيره أقدم منه . وهو من أن يكون استفاد ذلك عما هو أنقص منه أبعد . ولذلك هو أيضاً مابين بجزوهه لكل شيء سواء مباينة تامة . ولا يمكن أن يكون ذلك الوجود الذي هو له لأكثر من واحد ، لأن كل ما وجوده هذا الوجود ، لا يمكن أن يكون بينه وبين آخر - له أيضاً هذا الوجود بعينه - مباينة أصلاً ؛ لأنه إن كانت بينهما مباينة ، كان الذي تباينا به شيئاً آخر غير ما اشتركا فيه : فيكون الشيء الذي به باين كل واحد منها الآخر جزءاً من قوام وجوديهما ؛ فيكون وجود كل واحد منها متنسباً بالقول . فيكون كل واحد من جزئيه سبباً لقوام ذاته ، فلا يكون أولاً ، بل يكون هناك موجوداً

الإلهي تناول أرسطو لمشكلة الصور الأفلاطونية في مقالتي « المور » و« النور » ( المقاتلين ١٤٩١٣ من كتاب « ما بعد الطبيعة ») ونقد تصور أتباع أفلاطون المباشرين للمثل على أنها رياضية ، والدليل على ذلك ما أشار إليه كمثال لمباحث هذا الجزء الثاني : ابطال ظن من ظن في النقطة والوحدة والخطوط والسطوح أنها جواهر ، وأنها مفارقة « وهو رأي اسهوسيميوس واكسينوقراط خلفي أفلاطون المباشرين على راسة الأكاديمية .

٢ - وثانياً يلاحظ أن موضوعات القسم الثالث قد تجاوزت ما قصده أرسطو بالإلهيات وما بعد الطبيعة ، وهذه نتيجة طبيعية لاستخدام البراهين العقلية لتأييد العقائد الدينية لدى آباء الكنيسة في المسيحية ، ولدى رجال مدرسة الاسكندرية وبخاصة يحيى النحوي ، ثم لقيام علم الكلام في الإسلام خصوصاً في القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) . وهذا حنّد الفارابي للإلهيات موضوعات لم تكن بارزة في إلهيات أرسطو والمشائين : مثل العناية الإلهية ، صفات الله وإثبات وجوده ، وذلك « ببراهين تفيد العلم اليقين الذي لا يمكن أن يداخل الإنسان فيه اوتياب ولا يتخلجه فيه شك » على حد تعبير الفارابي ، أي بالبراهين العقلية المؤدية إلى اليقين الضروري .

والفارابي يتناول موضوعات العلم الإلهي في كتبه كلها تقريباً ، ويكرّر نفسه باستمرار من كتاب إلى آخر ، وربما كان السبب في ذلك أن كتاباته معظمها تعاليق وفصول متناثرة ، ولم يعمد إلى تأليف كتاب في موضوع محدد بعينه ، اللهم إلا في القليل النادر مثل رسالة « في معاني العقل » ورسائله في المنطق .

### ب - البرهان على وجود الله :

#### برهان الممكن والواجب

ولإثبات وجود الله يقدم الفارابي برهاناً أصيلاً يقوم على أسس التفرقة بين الممكن والواجب . وهو برهان سيأخذه عنه ابن سينا في « النجاة » ( ص ٢٢٤ - ٢٢٧ ) و« الشفاء » والإلهيات « ج ١ ص ٣٧ - ٤٢ ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ) ، كما سيأخذه القديس توما .

وصورة البرهان ترد مفصلة في « رسالة زينون الكبير »<sup>(١)</sup> وفي رواية أكثر إيجازاً في كتاب « عيون المسائل » -

(١) الفارابي : « شرح رسالة زينون الكبير » ص ٣ - ٥ . جيليلد ، سنة ١٣٤٩ هـ . ( سنة ١٩٢٠ ) .

(١) الفارابي : « السياسة المدنية » ص ٤٢ - ٤٦ . بيروت سنة ١٩٦٤ .

ولأنه لا مادة له - ولا بوجه من الوجوه - فإنه بجوهره عقل، لأن المانع للشيء من أن يكون عقلاً وأن يعقل بالفعل هو اللاتية. وهو معقول من جهة ما هو عقل، فإن الذي هو فيه عقل معقول لذلك الذي هو منه عقل. وليس يحتاج، في أن يكون معقولاً، إلى ذات أخرى خارجه عنه تعقله، بل هو نفسه يعقل ذاته، فيصير بما يعقل من ذاته: عاقلاً، وبأن ذاته تعقله: معقولاً. وكذلك ليس يحتاج في أن يكون عقلاً وعاقلاً إلى ذات أخرى وشيء آخر يستعمله من خارج، بل يكون عقلاً وعاقلاً بأن يعقل ذاته، فإن الذات التي تعقل هي التي تعقل.

وكذلك الحال في أنه عالم: فإنه ليس يحتاج في أن يعلم إلى ذات أخرى يستفيد بعلمها الفضيلة خارجاً عن ذاته، ولا في أن يكون معلوماً إلى ذات أخرى تعلمه، بل هو مكتمل بجوهره في أن يعلم ويعلم. وليس علمه بذاته غير جوهره، فإنه يعلم، وإنه معلوم، وإنه علم ذات واحد وجوهر واحد.

وكذلك في أنه حكيم: فإن الحكمة هي أن يعقل أفضل الأشياء بأفضل علم. وبما يعقل من ذاته ويعلمها يعلم أفضل الأشياء بأفضل علم. والعلم الأفضل هو العلم التام الذي لا يزول لما هو دائم لا يزول. فلذلك هو حكيم: لا بحكمة استفادها بعلم شيء آخر خارج عن ذاته، بل في ذاته كفاية في أن يصير حكيماً بأن يعلمها.

والجمال والبهاء والزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل ويبلغ استكماله الأخير. وإذا كان الأول وجوده أفضل الوجود، فجماله إذن فائق لجمال كل ذي جمال. وكذلك زينه وبهائه وجماله: له بجوهره وذاته.

وفي «عيون المسائل» يلخص الصفات الإلهية فيقول عن واجب الوجود إنه: «لا ماهية له مثل الجسم - إذا قلت إنه موجود فحد الموجود شيء، وحد الجسم شيء - سوى أنه واجب الوجود، وهذا وجوده».

ويلزم من هذا أنه لا جنس له، ولا فصل له، ولا حد، ولا برهان عليه بل هو برهان على جميع الأشياء.

ووجوده بذاته أبدي أزلي، لا يمازجه العلم، وليس وجوده بالقوة.

ويلزم من هذا أنه لا يمكن أن لا يكون؛ ولا حاجة به

أقدم منه؛ قوامه. وذلك محال فيه، إذ هو أول. وما لا تباين بينهما لا يمكن أن يكونا كثرة: لا اثنين، ولا أكثر.

وأيضاً إن أمكن أن يكون شيء غيره له هذا الوجود بعينه، أمكن أن يكون وجود خارجاً عن وجوده لم يتوفر عليه وفي مثل رتبته. فإذا وجد وجوده دون وجود ما يجمع له الوجودان معاً. فوجوده إذن وجود فيه نقص، لأن التام هو ما لا يوجد خارجاً عنه شيء يمكن أن يكون له. فإذا وجد وجوده لا يمكن أن يكون خارجاً عن ذاته لشيء ما أصلاً.

ولذلك لا يمكن أن يكون له صفة أصلاً، وذلك أن وجود ضد الشيء هو في مثل مرتبة وجوده، ولا يمكن أن يكون في مثل رتبته وجوداً أصلاً لم يتوفر عليه، وإلا كان وجوده وجوداً ناقصاً. وأيضاً فإن كل ما له ضد، فإن كمال وجوده هو بعدم ضده. وذلك أن وجود الشيء الذي له ضد إنما يكون مع وجود ضده بأن يحفظ بأشياء من خارج وبأشياء خارجه عن ذاته وجوهره، فإنه ليس يكون في جوهر أحد الضدين كفاية في أن يحفظ ذاته عن ضده. فإذا يلزم أن يكون للأول سبب ما آخر، به وجوده. فلذلك لا يمكن أن يكون في مرتبته، بل يكون هو وحده فرداً. فهو واحد من هذه الجهة.

وأيضاً فإنه غير منقسم في ذاته بالقول، وأعني أنه لا ينقسم إلى أشياء بها تجوهره. وذلك أنه لا يمكن أن يكون القول الذي يشرح ذاته يدل كل جزء من أجزاء القول على جزء مما يتجوهر به. فإنه إذا كان كذلك، كانت الأجزاء التي بها تجوهره هي أسباب وجوده، على جهة ما تكون المعاني التي تدل عليها أجزاء الحد أسباباً لوجود الشيء المحلود، وعلى جهة ما تكون المادة والصورة أسباباً لوجود ما يتقوم بهما، وذلك غير ممكن فيه إذ كان أولاً، فإذا كان لا ينقسم هذا الانقسام - وهو من أن ينقسم انقسام الكم وسائر أنحاء الانقسام أبعد - فهو أيضاً واحد من هذه الجهة الأخرى ولذلك لا يمكن أيضاً أن يكون وجوده الذي به ينحاز عما سواه من الموجودات غير الذي هو به في ذاته موجود، فلذلك يكون انحيازه عما سواه بوحدة هي ذاته: فإن أحد معاني الوحدة هو الوجود الخاص الذي به ينحاز كل موجود عما سواه، وهي التي بها يقال لكل موجود واحد من جهة ما هو موجود: الوجود الذي يخصه. وهذا المعنى من معانيه يساوق الموجود. فالأول أيضاً بهذا الوجه واحد، وأحق من كل واحد سواه باسم الواحد ومعناه.

بوجوده من الوجوه، ولا على أنه غاية لوجود الأول، كما يكون وجود الابن - من جهة ما هو ابن - غاية لوجود الابوين، من جهة ما هما أبوان. يعني أن الوجود الذي يوجد عنه لا يفيد كمالاً ما، كما يكون لنا ذلك عن جُل الأشياء التي تكون منا، مثل أننا باعطائنا للمال لغيرنا نستفيد من غيرنا كرامة أو لذة أو غير ذلك من الخيرات، حتى تكون تلك فاعلة فيه كمالاً ما. فالأول ليس وجوده لأجل غيره، ولا يوجد به غيره حتى يكون الغرض من وجوده أن يوجد سائر الأشياء، فيكون لوجوده سبب خارج عنه فلا يكون أولاً؛ - ولا أيضاً - بإعطائه ما سواه الوجود، ينال كمالاً لم يكن له قبل ذلك، خارجاً عما هو عليه من الكمال، كما ينال من يوجد بماله أو بشيء آخر فيستفيد بما يبذل من ذلك لذة أو كرامة أو رئاسة أو شيئاً غير ذلك من الخيرات. فهذه الأشياء كلها محال أن تكون في الأول، لأنه يسقط أوليته وتقدمه، ويجعل غيره أقدم منه وسبباً لوجوده، بل وجوده لأجل ذاته. وتلحق جوهره ووجوده ويتبعه أن يوجد عنه غيره. فلذلك وجوده الذي به فاض الوجود إلى غيره هو في جوهره. ووجوده الذي به تجوهره في ذاته هو بعينه وجوده الذي به يحصل وجود غيره عنه. - وليس ينقسم إلى شيئين يكون بأحدهما تجوهر ذاته، وبالأخر حصول شيء آخر عنه، كما أن لنا شيئين نتجوهر بأحدهما وهو النطق، ونكتب بالأخر وهو صناعة الكتابة. بل هو ذات واحدة، وجوهر واحد، به يكون تجوهره، وبه بعينه يحصل عنه شيء آخر.

ولا أيضاً يحتاج في أن يفيض عن وجوده وجود شيء آخر إلى شيء غير ذاته يكون فيه، ولا غرض يكون فيه، ولا حركة يستفيد بها حالاً لم تكن له، ولا آلة خالصة عن ذاته، مثلما تحتاج النار - في أن يكون عنها وعن الماء بخار - إلى حرارة تبخر بها الماء، وكما تحتاج الشمس - في أن تسخن ما لدينا - إلى أن تتحرك هي ليحصل لها بالحركة ما لم يكن لها من الحال، فيحصل عنها - وبالحال التي استفادتها بالحركة - حرارة فيما لدينا، أو كما يحتاج التجار إلى الفأس وإلى المنشار حتى يحصل عنه في الخشب انفصال وانقطاع وانشقاق.

وليس وجوده، بما يفيض عنه وجود غيره، أكمل من وجوده الذي هو بجوهره، ولا وجوده الذي بجوهره أكمل من الذي يفيض عنه وجود غيره، بل هما جميعاً ذات واحدة. ولا يمكن أيضاً أن يكون له عائق من أن يفيض عنه

إلى شيء يمد بقاءه. ولا يتغير من حال إلى حال.

وهو واحد بمعنى أن الحقيقة التي له ليست لشيء غيره. وواحد بمعنى أنه لا يقبل التجزؤ، كما تكون الأشياء التي لها عظم وكمية. وإذن ليس يقال عليه: كم، ولا متى، ولا أين. وليس بجسم. وهو واحد بمعنى أن ذاته ليست من أشياء غيره كان منها وجوده، ولا حصلت ذاته من معان، مثل المادة والجنس والفصل.

ولا ضد له.

وهو خير محض، وعقل محض، ومعقول محض، وعاقل محض. وهذه الأشياء الثلاثة كلها فيه واحد.

وهو حكيم، وحي، وعالم، وقادر، ومريد. وله غاية الجمال والكمال والبهاء. وله أعظم السرور بذاته. وهو العاشق الأول والمعشوق الأول.

لكن أوسع عرض لصفات الله عند الفارابي هو الذي نجده في كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» (ص ٣٧ - ٥٤، ط ٣، بيروت، دار المشرق، سنة ١٩٧٣). والغريب أنه يتطابق حرفياً في كثير من المواضع مع ما ورد في كتاب «السياسة المدنية»، إلى درجة يترجح معها القول بأن هذا الكتاب الأخير نصوص منتزعة بحروفها من الكتاب الأول.

#### د) كيفية صدور جميع الموجودات عن الأول : نظرية الفيض

أما كيف توجد الموجودات عن الأول، فالفارابي يفسره تفسيراً أفلوطينياً، على أساس فكرة الصدور أي صدور الموجودات عن الأول على جهة الفيض.

يقول الفارابي في كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة»: «والأول هو الذي عنه وجد. ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات التي وجودها لا بإرادة الإنسان واختياره، على ما هي عليه من الوجود، الذي بعضه مشاهد بالحس، وبعضه معلوم بالبرهان».

ووجود ما يوجد عنه إنما هو على جهة فيض وجوده لوجود شيء آخر، وعلى أن وجود غيره فائض عن وجوده هو. فعمل هذه الجهة لا يكون وجوداً ما يوجد عنه سبباً له

وجود غيره ، لا من نفسه ولا من خارج أصلاً<sup>(١)</sup>.

فالموجودات تفيض عن الأول لا عن قصد منه يشبه قصدنا ، ولا عن طبع بحيث لا تكون له معرفة ورضى بصدورها ، وإنما ظهرت الأشياء عنه لكونه عالماً بذاته ، وبأنه مبدأ لنظام الخير في الوجود على ما يجب أن يكون عليه . وإنما علمه هو العلة لوجود الأشياء . وعلمه للأشياء ليس علماً زمانياً . ووجوده هو بعينه وجوده الذي به يحصل وجود غيره عنه .

وإذا فاضت الموجودات عنه ، كانت بترتيب مراتبها ، فحصل عنه لكل موجود قسطه الذي له من الوجود ومرتبته منه . فيبتدي من أكملها وجوداً ، ثم يتلوها ما هو أنقص منه قليلاً . ثم لا يزال بعد ذلك يتلو الأنقص ، إلى أن ينتهي إلى الموجود الذي إن تخطي عنه إلى ما دونه تخطي إلى ما لا يمكن أن يوجد أصلاً ، فتقطع الموجودات من الوجود<sup>(٢)</sup>.

#### هـ - ترتيب الموجودات المفارقة

وعن وجود الأول يفيض وجود الثاني . وهذا الثاني جوهر غير جسمي ولا هو في مادة . وهو يعقل ذاته ، ويعقل الأول . وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود ثالث ؛ وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه ، يلزم عنه وجود السماء الأولى . والثالث أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو بجوهره عقل . وهو يعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الكواكب الثابتة ؛ وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود رابع ؛ وهذا أيضاً لا في مادة ، فهو يعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته التي تخصه يلزم عنه كرة زحل . وبما يعقله من الأول عنه وجود خامس .

وهذا الخامس أيضاً وجوده لا في مادة . فهو يعقل ذاته ، ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة المريخ . وبما يعقله من الأول يلزم عنه وجود سابع . وهذا أيضاً وجوده لا في مادة . وهو يعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة الشمس ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود ثامن ، وهو أيضاً وجوده لا في مادة . ويعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته

التي تخصه يلزم عنه وجود كرة الزهرة ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود تاسع ، وهذا أيضاً وجوده لا في مادة . ويعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به في ذاته يلزم عنه وجود كرة عطارد ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود عاشر ، وهذا أيضاً وجوده لا في مادة . وهو يعقل ذاته ويعقل الأول : فيما يتجوهر به من ذاته يلزم عنه وجود كرة القمر ، وبما يعقل من الأول يلزم عنه وجود حادي عشر . وهذا الحادي عشر هو أيضاً وجوده لا في مادة ، وهو يعقل ذاته ويعقل الأول . ولكنه عنده ينتهي الوجود الذي لا يحتاج ما يوجد ذلك الوجود إلى مادة وموضوع أصلاً ، وهي الأشياء المفارقة التي هي في جواهرها عقول ومعقولات . وعند كرة القمر ينتهي وجود الأجسام السماوية ، وهي التي بطبيعتها تتحرك دوراً<sup>(٣)</sup>.

والخلاصة أن صدور الموجودات عن الأول يتم في ترتيب تنازلي من ثمان إلى حادي عشر . وصدور التالي عن السابق يتم دائماً بأن يعقل الأول ، وذلك في جميع المراتب ، أما عقل كل واحد منها لذاته فيتبع عنه فلك على الترتيب التالي : السماء الأولى ، فالكواكب الثابتة ، فزحل ، فالشعري ، فالمریخ ، فالشمس ، فالزهرة ، فعطارد ، فالقمر . وعند فلك القمر تنتهي الموجودات المفارقة التي هي في جواهرها عقول ومعقولات ، وينتهي وجود الأجسام السماوية .

والأساس في هذا الترتيب هو أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد .

بيد أن المشكلة هي : هل العقل الأول هو واجب الوجود أو الله - أو هو أول ما صدر عن الله ؟

يتجلى بوضوح من كلام الفارابي في هذا النص الذي أوردناه نقلاً عن كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » أن العقل الأول هو الله نفسه ، ومن هنا كانت العقول عنده أحد عشر عقلاً . وهذا طبيعي منطقي ، لأن الأول أو الله أو واجب الوجود عقل وعقل ومعقول ، كما قال الفارابي في مواضع عديدة من رسائله<sup>(٤)</sup> . ولهذا لا نجد عبارة «العقول العشرة» عند الفارابي ، إلا حين يقصد كلامه على العقول العشرة التالية للعقل الواحد<sup>(٥)</sup>.

(١) الفارابي : « آراء أهل المدينة الفاضلة » ص ٥٥ - ٥٦ ، ط ٣ بيروت سنة ١٩٧٣ . وقد رددنا النص في بعض المواضع إلى أصله الموثق بالمخطوطات ، إذ معظم تصحيحات بيرس كرم تحكي لا تبررها المخطوطات ، ولا داعي إليها .

(٢) الكتاب نفسه ص ٥٧ .

(٣) الكتاب نفسه ص ٦١ - ٦٢ .

(٤) انظر مثلاً كتاب « المبسطة للفنية » ص ١٥ س ٥ - ٩ .

(٥) انظر مثلاً « آراء أهل المدينة الفاضلة » ص ٦٨ س ٢ - ١١٢ ص ٧١ س ٩ ، ص ٩

الأجسام: مثل البخارات وأصنافها مثل الغيوم والرياح وسائر ما يحدث في الجو، وأيضاً مجانساتها حول الأرض وتحتها، وفي الماء والنار. ويحدث في الاسطقات، وفي كل واحد من سائر تلك، قوى تتحرك بها من تلقاء أنفسها إلى أشياء شأنها أن توجد لها أولها، بغير محرك من خارج؛ وقوى يفعل بعضها في بعض، وقوى يقبل بها بعضها فعل بعض. ثم تفعل فيها الاجسام السماوية ويفعل بعضها في بعض فيحدث من اجتماع الأفعال - من هذه الجهات - أصناف من الاختلاطات والامتزاجات كثيرة، ومقادير كثيرة: مختلفة بغير تضاد، ومختلفة بالتضاد، فيلزم عنها وجود سائر الأجسام.

فتختلط أولاً الاسطقات بعضها مع بعض، فيحدث من ذلك أجسام كثيرة متضادة. ثم تختلط هذه المتضادة بعضها مع بعض فقط، وبعضها مع بعض ومع الاسطقات، فيكون ذلك اختلاطاً ثانياً بعد الأول، فيحدث من ذلك أيضاً أجسام كثيرة متضادة الصور. ويحدث في كل واحد من هذه أيضاً قوى يفعل بعضها في بعض، وقوى تقبل بها فعل غيره فيها، وقوى تتحرك بها من تلقاء نفسها بغير محرك من خارج ثم تفعل فيها أيضاً الأجسام السماوية، ويفعل بعضها في بعض، وتفعل فيها الاسطقات، وتفعل هي في الاسطقات أيضاً؛ فيحدث من اجتماع هذه الأفعال بجهات مختلفة اختلاطات آخر كثيرة تبعد بها عن الاسطقات والمادة الأولى بعداً كثيراً. ولا تزال تختلط اختلاطاً بعد اختلاط قبله، فيكون الاختلاط الثاني أبداً أكثر تركيباً مما قبله، إلى أن تحدث أجسام لا يمكن أن تختلط؛ فيحدث من اختلاطها جسم آخر أبعد منها عن الاسطقات، فيقف الاختلاط.

فبعض الأجسام يحدث عن الاختلاط الأول، وبعضها عن الثاني، وبعضها عن الثالث، وبعضها عن الاختلاط الآخر. فالمعدنيات تحدث باختلاط أقرب إلى الاسطقات وأقل تركيباً ويكون بعدها عن الاسطقات بترتيب أقل. ويحدث النبات باختلاط أكثر منها تركيباً، وأبعد عن الاسطقات بترتيب أكثر. والحيوان غير الناطق يحدث باختلاط أكثر تركيباً من النبات. والإنسان وحده هو الذي يحدث عن الاختلاط الأخير<sup>(١)</sup>.

والأجسام السماوية تفعل في كل واحد منها بأن ترفد البعض، وتضاد البعض، مما يحدث عنه امتزاجات

وقد أخذ الفارابي فكرة «الفيض» أو «الصدور» عن أفلوطين الذي تحدث عن الفيض أو الصدور على حد تعبير المترجم العربي لهذا الموضوع من تسامعات أفلوطين («التساعات، التاسع الخامس: ١: ٦») وقد نشرنا هذه الترجمة العربية في كتابنا «أفلوطين عند العرب» (ص ١٨٤-١٨٥، ط ١، القاهرة سنة ١٩٥٥).

أما نظام العقول المفارقة الاحد عشر فلم نعثر له سابقة في الفلسفة اليونانية حتى الآن. وأفلوطين. إنما يتكلم عن ثلاثة مبادئ هي: الواحد، العقل (نوس) والنفس الكلية. ولهذا نستطيع أن نقرر - إلى أن يأتي دليل مضاد - ان هذا النظام من وضع الفارابي نفسه. ولم يسبقه إليه أحد.

#### و- ترتيب الموجودات تحت فلك القمر

وما تحت فلك القمر هو عالم الكون والفساد. وكل موجود فيه قوامه من شيئين: المادة، والصورة. ولا قوام للصورة بدون المادة لكن وجود المادة هو لأجل الصورة، فلو لم تكن صورة ما موجودة لما كانت المادة.

وترتب الموجودات التي تحت فلك القمر (أي على الأرض) بحسب الأحسن فالأفضل منه، إلى أن تنتهي إلى أفضلها الذي لا أفضل منه. «فأحسنها المادة الأولى المشتركة، والأفضل منها الاسطقات (= العناصر)، ثم المعدنية، ثم النبات، ثم الحيوان غير الناطق، ثم الحيوان الناطق (= الإنسان)؛ وليس بعد الحيوان الناطق أفضل منه»<sup>(١)</sup>.

#### كيف توجد هذه الموجودات؟

عن الطبيعة المشتركة للأجسام السماوية تصدر المادة الأولى المشتركة لكل الموجودات الكائنة تحت فلك القمر، وعن اختلاف جواهر هذه الأجسام السماوية ينشأ وجود أجسام كثيرة مختلفة الجواهر، وعن تضاد نسبها وإضافاتها تحدث الصور المتضادة؛ وعن حصول نسب متضادة وإضافات متعادلة يحدث أجسام فيها اختلاط في الأشياء ذات الصور المتضادة وامتزاجاتها، وعن أصناف تلك الامتزاجات المختلفة تحدث أنواع كثيرة من الأجسام.

فيحدث أولاً الاسطقات، ثم ما جانسها وقارنها من

(١) الفارابي: دراهم لعل المدينة الفاضلة، ص ٧٧-٧٨.

(١) الفارابي: دراهم لعل المدينة الفاضلة، ص ٦٦.

واختلاطات أخرى كثيرة. وتلك هي أسباب وجود الأشياء الطبيعية التي تحت السماوية.

والموجودات التي دون الأجسام السماوية في نهاية النقص في الوجود، لأنها لم تُعطَ من أول الأمر جميع ما تتجوهر به على التمام، بل إنما أعطيت جواهرها التي لها: بالقوة البعيدة فقط، لا بالفعل، إذ كانت إنما أعطيت مادتها الأولى فقط. ولذلك هي أبداً ساعية إلى ما تتجوهر به من الصورة<sup>(١)</sup>. وهي قد بلغت ومن تأخرها وتخلّفها ونخاسة وجودها أن صارت لا يمكنها أن تنهض وتسمى من تلقاء أنفسها إلى استكمالها، إلا بمحرك من خارج. ومحركها من خارج هو الجسم السماوي وأجزاؤه، ثم العقل الفعّال: فإن هذين جميعاً يكملان وجود الأشياء التي تحت الجسم السماوي. والجسم السماوي فإن جوهره وطبيعته وفعله أن يلزم عنه أولاً وجود المادة الأولى. ثم من بعد ذلك يعطي المادة الأولى كل ما في طبيعتها أو إمكانها واستعدادها أن تقبل من الصور، كائنة ما كانت. والعقل الفعّال مُعَدُّ بطبيعته وجوهره أن ينظر في كل ما وطأه الجسم السماوي وأعطاه. فأَيُّ شيء منه قبل بوجوه من التخلص من المادة ومفارقتها، رام تخليصه من المادة ومن العدم فيصير في أقرب مرتبة إليه، وذلك أن تصير المعقولات التي هي بالقوة معقولات بالفعل. فمن ذلك يحصل العقل - الذي كان عقلاً بالقوة عقلاً بالفعل، وليس يمكن أن يصير كذلك شيء سوى الإنسان: فهذه السعادة القصوى التي هي أفضل ما يمكن للإنسان أن يبلغه من الكمال. فمن هذين يكمل وجود الأشياء التي بقيت متأخرة واحتيج إلى إخراجها إلى الوجود بالوجوه التي شأنها أن تخرج إلى الوجود بها، وبالوجوه التي شأنها أن يدوم وجودها بها<sup>(٢)</sup>.

والموجودات الممكنة هي أنقص وجوداً، وهي مختلطة من وجود ولا وجود، لأنه وسط بين ما لا يمكن أن يوجد، وما لا يمكن ألا يوجد. ولهذا يخالطها العدم، إذ العدم هو لا وجود ما يمكن أن يوجد.

## ز- علم النفس

### ١- قوى النفس-

يُمَيِّز الفارابي بين ثلاثة أنواع من النفوس هي: أنفس الأجسام السماوية، وأنفس الحيوان الناطق، وأنفس الحيوان

غير الناطق.

أما نفس الحيوان الناطق فتشتمل على أربع قوى: القوة الناطقة، القوة النزوعية، القوة التخيلية، القوة الحساسة. والقوة الناطقة هي التي بها يحوز الإنسان العلوم والصناعات، وبها يُمَيِّز بين الجميل والقيح من الأفعال والأخلاق، وبها يرزى فيما ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، ويدرك بها مع هذه: النافع والضار، الملمذ والمؤذي. والناطق منها نظرية، ومنها عملية. والعملية منها مهنية، ومنها مَرُوبية. فالنظرية هي التي بها يحوز الإنسان علم ما ليس شأنه أن يعمله إنسان أصلاً. والعملية هي التي بها يعرف ما شأنه أن يعمله الإنسان بإرادته. والمهنية منها هي التي منها تحاز الصناعات والمهن. والمروبية هي التي يكون بها الفكر والرؤية في شيء مما ينبغي أن يُعْمَلَ أو لا يُعْمَلَ. - والنزوعية هي التي يكون بها النزوع الإنساني بأن يطلب الشيء أو يهرب منه، ويشتاقه أو يكرهه، ويؤثره أو يتجنبه. وبها يكون البغضة والمحبة، والصداقة والعداوة، والخوف والأمن، والغضب والرضا، والقسوة والرحمة. ومائر عوارض النفس. والتخيلية هي التي تحفظ رسوم المحسوسات بعد غيبتها عن الحس، وتركب بعضها إلى بعض، وتفصل بعضها عن بعض، في اليقظة والنوم، تركيبات وتفصيلات بعضها صادق وبعضها كاذب. ولها مع ذلك إدراك النافع والضار، واللذية والمؤذي، دون الجميل والقيح، من الأفعال والأخلاق. والحساسة بين أمرها، وهي التي تدرك المحسوسات بالحواس الخمس المعروفة عند الجميع، وتدرك الملمذ والمؤذي، ولا تُمَيِّز الضار والنافع، ولا الجميل والقيح.

وأما الحيوان غير الناطق فبعضه يوجد له القوى الثلاث الباقية، دون الناطقة. والقوة التخيلية فيه تقوم مقام القوة الناطقة في الحيوان الناطق. وبعضه يوجد له القوة الحساسة والقوة النزوعية فقط. وأما أنفس الأجسام السماوية فهي مبيّنة لهذه الأنفس في النوع، مفردة عنها في جواهرها، وبها تتجوهر الأجسام السماوية، وعنها تتحرك دوراً. وهي أشرف وأكمل وأفضل وجوداً من أنفس أنواع الحيوان التي لدينا، وذلك أنها لم تكن بالقوة أصلاً ولا في وقت من الأوقات، بل هي بالفعل دائماً، من قبل أن معقولاتها لم تزل حاصلة فيها منذ أول الأمر، وأنها تعقل ما تعقله دائماً. وأما أنفسنا نحن فإنها تكون أولاً بالقوة ثم تصير بالفعل، وذلك أنها تكون أولاً هيئات قابلة معدة لأن تعقل المعقولات، ثم من بعد ذلك

(١) الفارابي: السعادة المنية، ص ٥٤.

(٢) الكتاب نفسه ص ٥٤ - ٥٥.



كرّس له الفارابي رسالة خاصة مستحظى بعناية بالغة عند فلاسفة العصور الوسطى الأوربية<sup>(١)</sup>.

يبدأ الفارابي بحثه هذا ببيان معاني العقل. يقول: «اسم العقل يقال على أشياء كثيرة:

الأول: الشيء الذي به يقول الجمهور في الإنسان إنه عاقل.

الثاني: العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم، فيقولون: هذا مما يوجب العقل، وينفيه العقل.

الثالث: العقل الذي يذكره أرسطوطاليس في كتاب «البرهان».

الرابع: العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب «الأخلاق».

الخامس: العقل الذي يذكره في كتاب «النفس».

السادس: العقل الذي يذكره في كتاب «ما بعد الطبيعة».

١- أما العقل الذي يقول به الجمهور في الإنسان إنه عاقل، فإن مرجع ما يعنون به هو إلى التعقل... ويعنون بالعاقل من كان قاضلاً جيّد الروية في استنباط ما ينبغي أن يؤثر من خير، أو يجتنب من شر.

٢- وأما العقل الذي يردده المتكلمون على ألسنتهم، فيقولون في الشيء: هذا مما يوجب العقل أو ينفيه العقل، أو يقبله العقل أو لا يقبله العقل فإنما يعنون به المشهور في بادي الرأي<sup>(٢)</sup> عند الجميع، فإن بادي الرأي المشترك عند الجميع أو الأكثر يسمونه: العقل.

٣- وأما العقل الذي يذكره أرسطوطاليس في كتاب «البرهان»<sup>(٣)</sup> فإنه إنما يعني به قوة النفس التي بها يحصل للإنسان اليقين بالمقدمات الكلية الصادقة الضرورية، لا عن قياس أصلاً، ولا عن فكر، بل بالفطرة والطبع، أو من صباه ومن حيث لا يشعر من أين حصلت وكيف حصلت. فإن هذه القوة جزء ما من النفس يحصل لها المعرفة الأولى، لا

تحصل لها للمعقولات وتصير حينئذ بالفعل. وليس في الأجسام السماوية من الأنفس: لا الحساسة ولا المتخيلة، بل إنما لها النفس التي تعقل فقط، وهي مجانسة في ذلك بعض المجانسة للنفس الناطقة. والتي تعقلها الأنفس السماوية هي المعقولات بجواهرها، وتلك هي الجواهر المفارقة للملئة. وكل نفس منها تعقل الأول، وتعقل ذاتها، وتعقل من الثواني ذلك الذي أعطاهما جوهرها. أما جُلّ المعقولات التي يعقلها الإنسان من الأشياء التي هي في مواد، فليست تعقلها الأنفس السماوية لأنها أرفع رتبةً بجواهرها عن أن تعقل المعقولات التي هي دونها. فالأول يعقل ذاته، وإن كانت ذاته يوجهه مد هي الموجودات كلها، لأن سائر الموجودات إنما اقتبس كل واحد منها الوجود عن وجوده. والثواني فكل واحد منها يعقل ذاته «ويعقل الأول»<sup>(٤)</sup>.

ولكننا نجد في كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» تقسيماً خماسياً لقوى النفس، وهي:

- ١- القوة الغاذية، وهي التي بها يتغذى الإنسان.
- ٢- القوى الحساسة.
- ٣- القوة المتخيلة.
- ٤- القوة الناطقة.
- ٥- القوة النزوعية.

وهذا التقسيم الخماسي هو الذي نجده عند أرسطو في كتاب «النفس» (صفحة ٤٣٧ أ ٢٩ - ٤٣٢ ب ٤؛ ٤١٣ ب ١٣) حيث يقول إن النفس تتميز بقوى: التغذية الذاتية، الاحساس، التفكير (= النطق)، والحركة (أو النزوع) [ص ٤١٣ ب ١٣]؛ ويقسمها إلى أجزاء هي: (١) الغاذية، وهي تنتسب إلى النبات وإلى كل أنواع الحيوان؛ (٢) الحساسة، ولا يمكن تصنيفها بسهولة إلى نطقية أو غير نطقية؛ (٣) المتخيلة، وهي في وجودها مختلفة عن سائرهما؛ (٤) النزوعية [ص ٤٣٢ أ ٢٩ - ٤٣٢ ب ٤].

وقد أحسن الفارابي حين سماها «بالقوى»، لا «بالنفس» كما سيفعل ابن سينا.

## ٢ - العقل

وصمنا من هذه القوى القوة الناطقة، أي العقل. وقد

(١) نشر الترجمة اللاتينية أين جيلسون في مجلة Archives d'Histoire doctrinale et littéraire du moyen âge, année 1929, pp. 122 et 599.

(٢) بعبارة الرأي = Common sense, bon sens.

(٣) راجع كتاب التحليلات الثانية لأرسطو (وهو البرهان) المقالة الثانية، الفصل ١٩.

(٤) الفارابي: «السياسة المدنية» ص ٣٢-٣٤. بيروت، سنة ١٩٦٤. ونجد هذا التقسيم الخماسي أيضاً في كتاب الفارابي: «فصول مترجمة» ص ٢٧، بيروت سنة ١٩٧١.

مبصراً بالفعل وبصيراً بالفعل، وتصير الألوان بذلك الضوء مبصرة مرئية بالفعل بعد أن كانت مبصرة مرئية بالقوة. كذلك هذا العقل الذي بالفعل يفيد العقل الهولاني شيئاً ما، يرسمه فيه. فمنزلة ذلك الشيء من العقل الهولاني منزلة الضوء من البصر. وكما أن البصر بالضوء نفسه يبصر الضوء الذي هو سبب إبطاره، ويبصر الشمس التي هي سبب الضوء به (= بالبصر) بعينه، ويبصر الأشياء التي هي بالقوة مبصرة فتصير مبصرة بالفعل، كذلك العقل الهولاني: فإنه بذلك الشيء الذي منزلة من منزلة الضوء من البصر. يعقل الشيء نفسه، وبه يعقل العقل الهولاني العقل بالفعل الذي هو سبب ارتسام ذلك الشيء في العقل الهولاني، وبه تصير الأشياء التي كانت معقولة بالقوة معقولة بالفعل، وبصير هو أيضاً عقلاً بالفعل بعد أن كان عقلاً بالقوة. وفعل هذا العقل المفارق في العقل الهولاني شبيه بفعل الشمس في البصر، فلذلك سمي العقل الفعال. ومرتبته من الأشياء المفارقة التي ذكرت، من دون السبب الأول المرتبة العاشرة. ويسمى العقل الهولاني العقل المتفعل<sup>(١)</sup>.

وإذن فالعقل الذي بالقوة هو العقل الهولاني، وهو العقل المتفعل. وبصير عقلاً بالفعل إذا ارتسمت فيه صور المعقولات، ويتم ذلك بواسطة العقل الفعال. والعقل بالفعل متى عقل المعقولات بواسطة العقل الفعال صار عقلاً مستفاداً. فالعقل للتفعل يكون شبه المادة والموضوع للعقل المستفاد، والعقل للمستفاد شبه المادة والموضوع للعقل الفعال. فحينئذ يفيض من العقل الفعال على العقل المتفعل القوة التي بها يمكن أن يوقف على تحديد الأشياء والأفعال وتسليدها نحو السعادة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نجد ترتيباً في العقول يتصاعد من أدناها وهو العقل بالقوة، وفوقه يوجد العقل بالفعل، وفوقه العقل المستفاد، وفوقه العقل الفعال.

### ٣- العقل الفعال

ولا يتضح بجلاء من كلام الفارابي في كل رسائله مكانة هذا العقل الفعال: فهو أحياناً يتحدث عنه كما لو كان مجرد جزء هو الأعلى. من أجزاء العقل، أو لحظة من لحظاته،

بفكر ولا بتأمل أصلاً، واليقين بالمقدمات التي صنعتها الصفة التي ذكرناها؛ وتلك المقدمات هي مبادئ العلوم النظرية.

٤- وأما العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب «الأخلاق» فإنه يريد به جزء النفس الذي يحصل اليقين بقضايا ومقدمات في الأمور الإرادية التي شأنها أن تؤثر أو تجتنب...

٥- أما العقل الذي يذكره أرسطوطاليس في كتاب «النفس» فإنه جعله على أربعة أنحاء: عقل بالقوة، وعقل بالفعل، وعقل مستفاد، وعقل فعال.

فالعقل عند عامة الناس هو الروية، وعند المتكلمين: هو بلدى الرأي أو الإدراك العام، وعند أرسطو في كتاب «البرهان» هو: الإدراك الطبيعي للمبادئ الأولية الضرورية، وعنده في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» (المقالة السادسة) هو: الفطنة الأخلاقية التي تمكن الإنسان من تمييز الخير والشر، وعند أرسطو في كتاب «النفس» (المقالة الثالثة) يشتمل على أربعة أنواع: العقل بالقوة، العقل بالفعل، العقل المستفاد، العقل الفعال.

والعقل بالمعنى الرباعي الأخير هو المهم في نظرية العقل عند الفارابي، فلنفضّل القول فيه:

العقل الإنساني «هيئة ما في مادة معدنة لأن تقبل رسوم المعقولات: فهي بالقوة عقل وعقل هولاني، وهي أيضاً بالقوة معقولة<sup>(١)</sup>. وهذا العقل الهولاني يصير إلى عقل بالفعل إذا حصلت فيه المعقولات... ويحتاج ذلك إلى شيء ينقله من القوة إلى الفعل. وهذا الشيء ذات ما جوهرها عقل ما بالفعل، ومفارق للمادة. وهذا العقل الفاعل يعطي العقل الهولاني الذي هو بالقوة عقل، شيئاً ما بمنزلة الضوء الذي تعطيه الشمس البصر، لأن منزلته من العقل الهولاني منزلة الشمس من البصر: فإن البصر هو قوة وهيئة ما في مادة، وهو من قبل أن يبصر: فيه بصير بالقوة، والألوان من قبل أن تبصر مبصرة مرئية بالقوة. وليس في جوهر القوة الباصرة التي في العين كفاية في أن يصير بصراً بالفعل، ولا في جوهر الألوان كفاية في أن تصير مرئية مبصرة بالفعل فإن الشمس تعطي البصر ضوءاً يضاء به، وتعطي الألوان ضوءاً تضاء به، فيصير البصر بالضوء الذي استفادته من الشمس-

(١) الكتاب نفسه ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) الفارابي: السياسة المدنية ص ٧٩، بيروت سنة ١٩٦٤.

(١) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ١٠١. بيروت سنة ١٩٧٣.



واشارة الفارابي هنا إلى أرسطو في المقالة الثالثة من كتاب «النفس» تحتاج إلى مزيد تدقيق، ليس ها هنا موضعه، فنحيل القارئ إلى ما كتبناه في هذا الموضوع في تصدير تحقيقنا للترجمة العربية القديمة لكتاب «في النفس» لأرسطو<sup>(١)</sup>.

### ح- السياسة

#### علم السياسة

كان الفارابي أشد الفلاسفة المسلمين عناية بالسياسة، رغم أنه لم يشارك فيها عملياً لكن مشاركة.

وهو يسمي السياسة بـ«العلم المدني» وهو الترجمة الحرفية للكلمة اليونانية *πολιτεία* المأخوذة من كلمة *πολιτής* أي ساكن المدينة، مدني، وهي بدورها من كلمة *πόλις* (= مدينة). وكلمة *πολιτεία* تعني في اليونانية: (١) صفة وحقوق المواطن في المدينة؛ (٢) حياة المواطن في المدينة؛ (٣) مجموع المواطنين في المدينة؛ (٤) دستور الدولة، شكل الحكومة، النظام السياسي بوجه علم.

وقد عرّف علم السياسة أو العلم المدني بأنه العلم الذي «يفحص عن أصناف الأفعال والسنن الإرادية، وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم التي عنها تكون تلك الأفعال والسنن؛ وعن الغايات التي لأجلها تفعل؛ وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان؛ وكيف الوجه في ترتيبها فيه على النحو الذي ينبغي أن يكون وجودها فيه؛ والوجه في حفظها عليه. ويميّز بين الغايات التي لأجلها تفعل الأفعال وتستعمل السنن. ويبين أن منها ما هي في الحقيقة سعادة، وأن منها ما هي مظهر أنها سعادة من غير أن تكون كذلك؛ وأن التي هي في الحقيقة سعادة لا يمكن أن تكون في هذه الحياة، بل في حياة أخرى بعد هذه الحياة، وهي الحياة الآخرة؛ والمظنون به سعادة مثل الثروة والكرامة واللذات، إذا جعلت هي الغايات فقط في هذه الحياة. ويميّز الأفعال والسنن، ويبين أن التي ينال بها ما هو في الحقيقة سعادة من الخيرات والجميلة<sup>(٢)</sup> والفضائل، وأن ما سواها هو الشرور والقبائح والنقائص؛ وأن وجه وجودها في الإنسان أن تكون الأفعال والسنن الفاضلة موزعة في المدن والأمم على ترتيب

ويندرج ضمن النطاق الإنساني؛ وفي أحيان أخرى كثيرة يندفع في تمجيد بحيث يجعله في مرتبة أعلى من الإنسان وأقل من مرتبة العقول السماوية.

فهو يقول في موضع: «العقل الفعّال فعله العناية بالحيوان الناطق والتماس تبيغته أقصى مراتب الكمال الذي للإنسان أن يبلغه وهو: السعادة القصوى، وذلك أن يصير الإنسان في مرتبة العقل الفعّال. وإنما يكون ذلك بأن يحصل مفارقة للأجسام، غير محتاج في قوامه إلى شيء آخر مما هو دونه من جسم أو مادة أو عرض، وأن يبقى على ذلك الكمال دائماً. والعقل الفعّال ذاته واحدة أيضاً، ولكن رتبته تحوز أيضاً ما تخلص من الحيوان الناطق وفاز بالسعادة. والعقل الفعّال هو الذي ينبغي أن يقال إنه الروح الأمين وروح القدس، ويسمى بأشبه هذين من الأسماء، ورتبته تسمى الملكوت وأشبه ذلك من الأسماء»<sup>(٣)</sup>.

وفي موضع آخر يقرنه بالعقول الثواني العشرة، فيقول: «ثم من بعد الأول يوجد الثواني والعقل الفعّال» (الكتاب نفسه ص ٥٢ س ٥).

كذلك نجد في «آراء أهل المدينة الفاضلة» يصفه بأنه «مفارق» (ص ١٠٣ س ٥، بيروت سنة ١٩٧٣).

ويؤكد هذا على نحو أكثر تفصيلاً في رسالته في «معاني العقل»، فيقول: «وأما العقل الفعّال الذي ذكره أرسطوطاليس في المقالة الثالثة من كتاب «النفس» فهو صورة مفارقة لم تكن في مادة، ولا تكون أصلاً. وهو جنوع مد عقل بالفعل، قريب الشبه من العقل المسخاد. وهو الذي جعل تلك الذات، التي كانت عقلاً بالقوة، عقلاً بالفعل؛ وجعل المعقولات، التي كانت معقولات بالقوة، معقولات بالفعل. ونسبة العقل الفعّال إلى العقل الذي بالقوة كنسبة الشمس إلى العين التي هي بصر بالقوة، ما دامت في الظلمة... وكما أن الشمس هي التي تجعل العين بصيرة بالفعل، والمبصرات مبصرات بالفعل، بما تعطىها من الضياء، كذلك العقل الفعّال هو الذي جعل العقل الذي بالقوة عقلاً بالفعل بما أعطاه من ذلك المبدأ، وبذلك بعينه صارت المعقولات معقولات بالفعل»<sup>(٤)</sup>.

(١) أرسطوطاليس: في النفس... حقه وقدم له عبد الرحمن بدوي، القاهرة سنة ١٩٥٤.

(٢) أي والأمور الجميلة.

(٣) الفارابي: السياسة النسيئة ص ٣٢.

(٤) الفارابي: في معاني العقل، نشرة وترجم، ص ٤٦-٤٧.

والسُنن والملكات الإرادية وسائر ما تفحص عنه القوانين الكلية؛ وتعطي الرسوم في تقديرها بحسب حالٍ حالٍ ووقتٍ ووقتٍ، كيف، وبأي شيء، وبكم شيء، تقدر، ثم تتركها غير مقدرة، لأن التقدير بالفعل لقوة أخرى غير هذا الفعل، وسيلها أن تضاف إليه. ومع ذلك فإن الأحوال والعوارض، التي بحسبها يكون التقدير، غير محدودة ولا يحاط بها.

وهذا العلم جزءان:

١- جزء يشتمل على تعريف السعادة، وتمييز ما بين الحقيقية منها والمظنون به، وعلى إحصاء الأفعال والسير والأخلاق والشيم الإرادية الكلية التي شأنها أن توزع في المدن والأمم، وتمييز الفاضل منها من غير الفاضل.

٢- وجزء يشمل، على وجه الترتيب، الشيم والسير الفاضلة في المدن والأمم، وعلى تعريف الأفعال الملكية التي بها تمكن السير والأفعال الفاضلة، ويرتب في أهل المدن الأفعال<sup>(١)</sup> التي بها يحفظ عليهم ما رتب ومكن فيهم. ثم يحصي أصناف المهن الملكية غير الفاضلة كم هي وما كل واحدة منها، ويحصى الأفعال التي يفعلها كل واحد منها، وأي سنن وملكات يلتمس كل واحد منها أن يمكن في المدن والأمم التي تكون تحت رياستها، وهذه في كتاب «بوليطيقي» وهو كتاب السياسة لأرسطوطاليس، وهو أيضاً في كتاب «السياسة» لأفلاطون وفي كتب لأفلاطون غيره<sup>(٢)</sup>. ويبين أن تلك الأفعال والسير والملكات هي كلها كالأعراض للمدن الفاضلة.

أما الأفعال التي تخص للمهن الملكية منها وسيرتها: فأعراض المهنة الملكية الفاضلة. وأما السير والملكات التي تخص مدنها فهي كالأعراض للمدن الفاضلة<sup>(٣)</sup>.

ثم يحصي كم الأسباب والجهات التي من قبلها لا يؤمن أن تستحيل الرياضات الفاضلة وسُنن المدن الفاضلة إلى السُنن والملكات الجاهلية. ويحصى معها أصناف الأفعال التي بها تضبط المدن والرياضات الفاضلة لئلا تفسد وتستحيل إلى غير الفاضلة. ويحصى أيضاً وجوه التداير والحيل والأشياء التي سيلها أن تستعمل إذا استحالت إلى الجاهلية، حتى ترد إلى ما كانت عليه.

ومستعملة استعمالاً مشتركاً. ويبين أن تلك ليست تتأق إلا برياسة يمكن معها تلك الأفعال والسُنن والشيم والكلمات والأخلاق في المدن والأمم؛ ويجتهد في أن تحفظها عليهم حتى لا تزول؛ وأن تلك الرياسة لا تتأق إلا بمهنة وملكة تكون عنها أفعال التمكين فيهم وأفعال حفظ ما مكن فيهم عليهم. وتلك المهنة هي الملكية والملك، أو ما شاء الإنسان أن يسميها.

والسياسة هي فعل هذه المهنة. وأن الرياسة ضربان:

١- رياسة تمكن الأفعال والسُنن والملكات الإرادية التي شأنها أن ينال بها ما هو في الحقيقة سعادة، وهي الرياسة الفاضلة. والمدن والأمم المتقادة لهذه الرياسة هي المدن والأمم الفاضلة.

٢- ورياسة تمكن في المدن الأفعال والشيم التي تتال بها ما هي مظنونة أنها مسعادات، من غير أن تكون كذلك، وهي الرياسة الجاهلية.

وتنقسم هذه الرياسة أقساماً كثيرة، ويسمى كل واحد منها بالفرض الذي يقصده ويؤتمه، ويكون على عدد الأشياء التي هي الغايات والأغراض التي تلتمس هذه الرياسة؛ فإن كانت تلتمس اليسار، سُميت رياسة الحسنة، وإن كانت الكرامة، سُميت رياسة الكرامة؛ وإن كانت بغير هاتين سميت باسم غايتها تلك.

وتبين أن المهنة الملكية الفاضلة تلتمس بقوتين: أحدهما القوة على القوانين الكلية، والأخرى القوة التي يستفيدها الإنسان بطول مزاولته الأعمال المدنية، ومزاولته الأفعال في الأخلاق والأشخاص في المدن التجريبية<sup>(١)</sup>، والخنكة فيها بالتجربة وطول المشاهدة، على مثال ما عليه الطب؛ فإن الطبيب إنما يصير معالجاً كاملاً بقوتين: إحداهما القوة على الكليات والقوانين التي استفادها من كتب الطب؛ والأخرى القوة التي تحصل له بطول المزاولته لأعمال الطب في المرضى، والخنكة فيها بطول التجربة والمشاهدة لا بدان الأشخاص. وبهذه القوة يمكن الطبيب أن يقدر الأدوية والعلاج بحسب بدن بدن في حالٍ حالٍ. كذلك المهنة الملكية إنما يمكنها أن تقدر الأفعال بحسب عارضٍ عارضٍ وحالٍ حالٍ في وقتٍ وقتٍ بهذه القوة وهذه التجربة.

والفلسفة المدنية تعطي- فيما تفحص عنه من الأفعال

(١) في المطبوع: «والأفعال». وهو خطأ لا يستقيم معه الفهم

(٢) في المطبوع: «وغيره». وهو خطأ لا يستقيم معه الفهم.

(٣) يبدو في النص المطبوع هنا محريف وتكرار ونقل من موضع إلى آخر.

(١) وصف والأفعال.

يرى كلاهما أن غاية السياسة المدنية هي السعي إلى توفير الكمال الأخلاقي لأبناء المدينة بمعونة القوانين والتربية ، وأن على الدولة أن تعمل على تمكين الفضائل الأخلاقية في نفوس المواطنين . ذلك أن الغاية من المدينة ( = الدولة ) هي السعادة ، تماماً مثلها هي غاية الفرد .

٢ - أنه يجعل موضوع علم السياسة ( العلم المدني ) هو نفسه ذلك الذي وضعه أرسطو . فإن أرسطو في المقالة الرابعة ( الفصل الأول ص ١٢٨٨ ب ٢١ - ١٢٨٩ أ ٢٥ ) . يقرر أن علم السياسة يجب عليه أن يدرس : ( أ ) المدينة المثل ؛ ( ب ) المدن التي يمكن أن تكون أفضل ما يمكن تحقيقه في ظروف معينة ، ( ج ) والمدن الجاهلة أي الشريرة بطبيعتها .

٢

### الحاجة إلى الاجتماع الإنساني

وما يدعو الناس إلى الاجتماع في مجتمع هو احتياجهم بعضهم إلى بعض . وذلك أن كل واحد من الناس مفطور على أنه يحتاج ، في قوامه وفي أن يبلغ أفضل كماله، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها وحده ، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه . وكل واحد من كل واحد بهذه الحال . فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال - الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية - إلا باجتماع جماعة كثيرة متعاونين يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه ، فيجتمع ، مما يكون به جملة الجماعة لكل واحد ، جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال . ولهذا كثرت أشخاص الإنسان ، فحصلوا في المعمورة من الأرض ، فحدثت منها الاجتماعات الإنسانية .

فمنها الكاملة ، ومنها غير الكاملة . والكاملة ثلاث : عظمى ، ووسطى ، وصغرى . فالعظمى : اجتماعات الجماعات كلها في المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ؛ والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة .

وغير الكاملة : اجتماع أهل القرية ، واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ، ثم اجتماع في منزل . وأصغرهما : المنزل . والمحلة والقرية هما جميعاً لأهل المدينة ؛ إلا أن القرية للمدينة على أنها خادمة للمدينة ؛ والمحلة للمدينة على أنها جزؤها . والسكة جزء المحلة ؛ والمنزل جزء السكة ؛ والمدينة جزء مسكن أمة ، والأمة جزء جملة أهل

ثم يبين بكم شيء تلتزم المهنة الملكية الفاضلة، وأن منها العلوم النظرية والعملية، وأن تنضاف إليها القوة الحاصلة عن التجربة الكائنة بطول مزاولة الأفعال في المدن والأمم، وهي القدرة على جودة استنباط الشرائط التي تقدر بها الأفعال والسير والملكات، بحسب جمع جمع، أو مدينة مدينة، أو أمة أمة، وبحسب حال حال، وعارض عارض.

ويبين أن المدينة الفاضلة إنما تدوم فاضلة ولا تستحيل متى كان ملوكها يتوالون في الأزمان على شرائط واحدة بأعيانها، حتى يكون الثاني الذي يخلف المتقدم، على الأحوال والشرائط التي كان عليها المتقدم، وأن يكون تواليهم من غير انقطاع ولا انفصال. ويعرف كيف ينبغي أن يعمل حتى لا يدخل توالي الملوك انقطاع.

ويبين أي الشرائط والأحوال الطبيعية ينبغي أن تعتقد في أولاد الملوك وفي غيرهم، حتى يؤهل بها من توجد فيه للملك بعد الذي هو اليوم ملك. ويبين كيف ينبغي أن يتشأ من وجدت فيه تلك الشرائط الطبيعية، وبماذا ينبغي أن يؤدب حتى تحصل له المهنة الملكية ويصير ملكاً تاماً.

ويبين مع ذلك أن الذين رياستهم جاهلية لا ينبغي أن يكونوا ملوكاً أصلاً، وأنهم لا يحتاجون في شيء من أحوالهم وأعمالهم وتدابيرهم إلى الفلسفة: لا النظرية، ولا العملية. بل يمكن كل واحد منهم أن يصير إلى غرضه، في المدينة والأمة التي تحت رياسته، بالقوة التجريبية التي تحصل له بمزاولته جنس الأفعال التي ينال بها مقصوده، ويصل إلى غرضه من الخيرات، متى اتفقت له قوة قريحة جبلية جيدة لاستنباط ما يحتاج إليه في الأفعال التي ينال بها الخير الذي هو مقصوده: من لذة أو كرامة أو غير ذلك، ويضاف إلى ذلك جودة الإلتساء بمن تقدم من الملوك الذين كان مقصدهم مقصوده<sup>(١)</sup>.

ومن هذا النص الطويل تبين ما يلي:

١- أن الفارابي يخلط بين الأخلاق والسياسة، ولا يميز البحث في أحد العلمين عن البحث في العلم الآخر، ولا موضوعات كلا العلمين، ولا الغاية منها.

وهذه النظرة هي نفس نظرة أفلاطون وأرسطو، إذ

(١) الفارابي: داحياء العلوم ص ١٠٢-١٠٧، ط٢، القاهرة سنة ١٩٤٩. وقد صححت ما رأينا ونجوت تصحيحه في نص هذه النشرة.

المعمورة»<sup>(١)</sup>.

والفارابي يأخذ بما أخذ به اليونانيون عامة وأكده أرسطو ( « السياسة » ص ١٢٧٢ أس ٥ ) من أن المدينة هي أفضل هذه المجتمعات ، رغم أن هذا إن انطبق على بلاد اليونان فإنه لم يكن ينطبق على العالم الإسلامي الذي كان يعيش فيه ولا على الشرق بعامة ، حيث لم توجد الدولة - للمدينة ، بل الدولة - الأمة أو الدولة الملة . يقول الفارابي إن « الخير الأفضل والكمال الأقصى إنما ينال أولاً بالمدينة ، لا بالاجتماع هو أنقص منها . ولما كان شأن الخير في الحقيقة أن يكون ينال بالاختيار والإرادة ، وكذلك الشرور إنما تكون بالإرادة والاختيار ، أمكن أن تجعل المدينة للتعاون على بلوغ بعض الغايات التي هي شرور ؛ فلذلك كل مدينة يمكن أن ينال بها السعادة . فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة . والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل » ( الكتاب نفسه ص ١١٨ ) .

لكنه مع ذلك يتجاوز نطاق المدينة فيتحدث عن الأمة ويقول : « والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة » ثم يتجاوز الأمة الواحدة إلى الجماعة الإنسانية العالية كلها فيقول مباشرة : « وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها تتعاون على بلوغ السعادة » ( الكتاب نفسه ص ١١٨ ) .

وهكذا تجاوز الفارابي نظرية أرسطو المحدودة بالمدينة اليونانية ، بل تجاوز النظرية القومية المحدودة بالأمة ، واستشرف ببصره إلى الإنسانية كلها بوصفها مجتمعاً واحداً تتعاون أمتها على بلوغ السعادة .

والفارابي في هذه النظرية إلى العالمية والدولة - العالم ربما يكون قد تأثر بأراء الرواقين ونحن نعلم أن الفلسفة الرواقية تنظر إلى الكون كله على أنه وحدة واحدة يسودها العقل ؛ وما الاعتقاد الرواقي في العالم - الدولة أو الدولة - العالم إلا المظهر السياسي لهذه النظرية الفلسفية في الكون . وعند الرواقية « أن الكون بأسره جوهر واحد ، طبيعة واحدة » . والكون كله مجتمع كوني واحد ، ودولة واحدة . ويقول فلوطرخس عن زينون الرواقي ( ٣٣٥ - ٢٦٣ ق . م ) إن زينون كان يقرر أنه

« ينبغي علينا ألا نعيش في مدن وأقاليم ( لو أمم ) ، يتميز بعضها عن بعض بقواعد خاصة للعدالة ، بل يجب أن نعتبر كل الناس أبناء أمة واحدة وأبناء مدينة واحدة ، ويجب أن تكون هناك حياة واحدة ونظام *KOONOMOS* واحد كأهم جميعاً قطيع واحد يرعى في مرعى مشترك *POLOS* »<sup>(١)</sup> . وقد عمل زينون وحلقته الرواقيون على تحطيم فكرة « المدينة » وصاروا دعاة لفكرة أن العالم يجب أن يكون دولة واحدة .

ولكن من المؤسف أن الفارابي لم يتوسع في فكرة الدولة العالم هذه ولم يشر إليها إلا في ذين السطرين اللذين أوردناهما عن « آراء أهل المدينة الفاضلة » .

### ٣

#### المدينة الفاضلة

ويتحدث الفارابي عن المدينة الفاضلة ، لا عن المدينة المثلى أو اليوتوبيا *utopia*

وعنده أن « المدينة الفاضلة تشبه البدن الثام الصحيح ، الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه . وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب ، وأعضاؤه تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله ، ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس ، وأعضاءه أحر فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيس واسطة - وهذه في المرتبة الثانية - ، وأعضاءه أحر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية ، ثم هكذا إلى أن ينتهي إلى أعضاء تخدم ولا تترس أصلاً . وكذلك المدينة : أجزؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الميثلت . وفيها إنسان هو رئيس ، وأخر تقرب مراتبها من الرئيس . وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس . وهؤلاء هم أولو المراتب الأولى . ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . ثم هكذا ترتب أجزاء المدينة ، إلى أن تنتهي إلى آخر يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم ، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ، ويكونون في أدنى المراتب ، ويكونون هم الأسفلين .

(١) Plutarch: de alex. Fort. i.6. وكلمة *KOONOMOS* معناها النظم، والكون، وكلمة

تدل على «التقرب»، كما تدل على «الرعي».

(١) الفارابي: «آراء أهل المدينة الفاضلة» ص ١١٧-١١٨.

يكون لديه استعداد فطري للرياسة؛ وأن تتكوّن لديه الملكة الإرادية لتولي أعمال الرياسة .

ويرى الفارابي أن رئيس المدينة الفاضلة « ينبغي أن تكون صناعته صناعة لا يمكن أن يخدم بها أصلاً ، ولا يمكن فيها أن ترثسها صناعة أخرى أصلاً ، بل تكون صناعته صناعةً : نحو غرضها تؤمّ الصناعات كلها ، وإياها يقصد بجميع أفعال المدينة الفاضلة . ويكون ذلك الإنسان إنساناً لا يكون يرثسه إنساناً أصلاً ، وإنما يكون ذلك الإنسان إنساناً قد استكمل فصار عقلاً ومعقولاً بالفعل »<sup>(١)</sup> . وهنا يخرج الفارابي عن وصف الرئيس الإنسان ، إلى وصف الرئيس الذي هو فوق الإنسان ، أو يكون إنساناً يوحى إليه الله بتوسط العقل الفعّال ، « ويكون بما يفيض منه إلى عقله المتفعل حكماً فيلسوفاً ومتعقلاً على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخيّلة نبياً منيراً بما سيكون وخبراً بما هو الآتي من الجزئيات . . . . وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية ، وفي أعلى درجات السعادة ، وتكون نفسه كاملة متحلة بالعقل الفعّال . . . وهذا الإنسان هو الذي يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة . فهذا أول شرائط الرئيس »<sup>(٢)</sup> .

وبهذه الصفات يصف الفارابي رئيساً مثالياً للمدينة الفاضلة ، بل للامة الفاضلة ، بل للمعمورة من الأرض كلها .

#### خصال رئيس المدينة الفاضلة

وهذه حال لا تكون « إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها .

أحدها: أن يكون تامّ الأعضاء ، قواها مؤاتية أعضاءها على الأعمال التي شأنها أن تكون بها ؛ ومتى همّ عضو<sup>(٣)</sup> من أعضائه بعمل يكون له أذى عليه بسهولة<sup>(٤)</sup> .

<٢> ثم أن يكون بالطبع جيّد الفهم والتصور لكل ما يقال له ، فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ، وعلى

غير أن أعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التي لها « هي » قوى طبيعية . وأجزاء المدينة ، وإن كانوا طبيعيين ، فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية ، بل إرادية . على أن أجزاء المدينة مقطورون بالطبع بفطر متفاضلة يصلح لها إنسان بشيء دون شيء . غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها ، بل بالملكات الإرادية التي تحصل لها ، وهي الصناعات وماشاكلها . والقوى التي هي أعضاء البدن بالطبع فإن نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيئات إرادية<sup>(١)</sup> .

وتشبه للمدينة بالبدن نجد نظيراً له عند أرسطو ، حين يشبه أجزاء المدينة بأجزاء الحيوان<sup>(٢)</sup> ، بيد أن الفارابي توسّع في المقارنة والتشبيه أكثر مما فعل أرسطو .

#### ٤

#### رئيس المدينة ( رئيس الدولة )

ورئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه ، وله أفضل ما يشاركه فيه غيره من أعضاء المدينة ، شأنه شأن العضو الرئيس في البدن - وهو القلب - إذ هو بالطبع اكمل الأعضاء ، وأتمها .

ورئيس المدينة هو « السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها ، والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها وفي أن ترتب مراتبها ؛ وإن اختلف منها جزء كان هو المرقد له بما يزيل عنه اختلاله »<sup>(٣)</sup> .

كذلك يقول الفارابي عن رئيس المدينة إن نسبه إلى سائر أجزاء المدينة كنسبة السبب الأول (= الله ) إلى سائر الموجودات . ولهذا ينبغي على أجزاء المدينة الفاضلة أن تحتذي بأفعالها جنو مقصد رئيسها الأول .

ومعني إلى بيان صفات رئيس المدينة الفاضلة فيقول: إن « رئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن أن يكون أي إنسان اتفق ، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين : أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها ، والثاني : بالهيئة والملكة الإرادية<sup>(٤)</sup> . يعني أنه ينبغي أن يتوافر فيه شرطان : أن

(١) الفارابي: دراهم أهل المدينة الفاضلة، ص ١١٨-١١٩. بيروت سنة ١٩٧٣.

(٢) أرسطو: السياسة، ص ٢٥-٢٩.

(٣) الفارابي: دراهم أهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٠.

(٤) الكتاب نفسه، ص ١٢٢.

(١) الكتاب نفسه، ص ١٢٣.

(٢) الكتاب نفسه، ص ١٢٥-١٢٦.

(٣) الكتاب نفسه، ص ١٢٦.

(٤) ... هكذا ينبغي تصحيح النص الولد في المخطوطات.

أفلاطون في كتاب «السياسة». والواقع أن الفارابي ينقلها هنا عن كتاب «السياسة» لأفلاطون (م ص ٦ ١٤٨٤ - ١٤٨٧)، حين يتحدث سقراط عن الحاكم الفيلسوف أو الفيلسوف الحاكم وما ينبغي أن يتوافر فيه من صفات؛ وهي في نظر سقراط - أفلاطون :

١ - أن يكون حريصاً على تذوق كل العلوم ومهتماً بالدراسة ، وشليداً الاستطلاع ؛

٢ - أن يتعلق في كل شيء بالجواهر والماهية ؛

٣ - أن يكون محباً للصدق ، ولا يقرّ أبداً بالكذب ؛

٤ - أن يكون معتدلاً المزاج ، غير شره مطلقاً ؛ وغير متعطش للثروات ؛

٥ - أن لا يطلب إلا لذة النفس وحدها ، مطرحاً لذات البدن ؛

٦ - أن يكون كبير النفس ، مترفعاً عن الصغائر ؛

٧ - أن يكون شجاعاً لا يخاف الموت ؛

٨ - أن يكون جيد الحفظ لما يتعلمه ، ذا ذاكرة قوية .

٩ - أن يسهل عليه فهم ما يتعلمه ؛

١٠ - أن يكون طبعه ذا ذوق وأناقة واتزان ؛

١١ - أن يكون محباً للعدالة ؛

١٢ - أن يكون ذا فطنة ، أي حكمة عملية .

وواضح تماماً من بيان صفات الفيلسوف الحاكم عند أفلاطون كما عرضها في كتاب «السياسة» أن الفارابي في كتابه «تحصيل السعادة» و«آراء أهل المدينة الفاضلة» إنما نقل ما ذكره أفلاطون دون أن يضيف إليه شيئاً ذا بال، كما اعترف هو نفسه في كتاب «تحصيل السعادة» .

ويعترف الفارابي بأن من العسر اجتماع هذه الخصال الشنتي عشرة في إنسان واحد، وإنما توجد في «الواحد بعد الواحد، والأقل من الناس» («آراء أهل المدينة الفاضلة» ص ١٢٩ من ٤). ولهذا يرى أن يكفى في الرئيس الذي من المرتبة الثانية بالشرائط التالية الست :

وأحدها: أن يكون حكيماً .

والثاني: أن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسُنن والسُير

حسب الأمر في نفسه .

<٣> ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه ، وفي الجملة : لا يكاد ينساه .

<٤> ثم أن يكون جيد الفطنة ، ذكياً ، إذا رأى الشيء يأنس دليل فطن له على الجهة التي دلّ عليها الدليل .

<٥> ثم أن يكون حسن العبارة ، يؤتبه لسانه على إبانة كل ما يضمه إبانة تامة .

<٦> ثم أن يكون محباً للتعليم والاستفادة ، منقاداً له ، سهل القبول ، لا يؤله تعب التعلم ، ولا يؤذيه الكذب الذي يناله منه .

<٧> ثم أن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، متجنباً بالطبع للعب ، مبغضاً للذات الكائنة عن هذه .

<٨> ثم أن يكون محباً للصدق وأهله ، مبغضاً للكذب وأهله .

<٩> ثم أن يكون كبير النفس ؛ محباً للكرامة ؛ تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها .

<١٠> ثم أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيئةً عنده .

<١١> ثم أن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله ، ومبغضاً للجور والظلم وأهلها ، يعطي النصف من أهله ومن غيره ويبحث عليه ؛ ويؤتي من حل به الجور مؤثماً لكل ما يراه حسناً وجيلاً ؛ ثم أن يكون عدلاً غير صعب القياد ، ولا جوحاً ولا لجوجاً إذا دُعي إلى العدل ، بل صعب القياد إذا دُعي إلى الجور وإلى القبيح .

<١٢> ثم أن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ، جسوراً عليه ، مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس<sup>(١)</sup> .

ويكرّر الفارابي ذكر هذه الخصال في كتابه «تحصيل السعادة»<sup>(٢)</sup> ، ويذكر أن هذه هي الشروط التي ذكرها

(١) الفارابي: وآراء أهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٧-١٢٩ .

(٢) الفارابي: وتحصيل السعادة، ص ٤٤-٤٥؛ جداريات، سنة ١٣٤٥هـ .



جميع ما تنال به السعادة أن تكون المهنة الملكية التي فيها هي الفلسفة على الإطلاق، وأن الفلاسفة يكونون أعظم أجزائها، ثم يليهم سائر أهل المراتب»<sup>(١)</sup>.

ومن هذا كله يتبين أن الفارابي في نظرياته السياسية إنما اعتمد على أفلاطون. ولهذا تراه يلخص محاوره «النواميس» لأفلاطون تلخيصاً وافياً في رسالته التي بعنوان «تلخيص نواميس أفلاطون» والتي قمنا بنشرها (في كتاب: أفلاطون في الإسلام، ص ٣٤-٨٣؛ طهران، سنة ١٩٧٤).

## ٦

## مضادات المدينة الفاضلة

ويضاد المدينة الفاضلة:

١- المدينة الجاهلة (أو الجاهلية)

٢- المدينة الفاسدة

٣- المدينة المتبذلة

٤- المدينة الضالة.

١- أما المدينة الجاهلة فهي التي لم يعرف أهلها السعادة، ولا خطرت بياهم. وإن أرشدوا إليها لم يفهموها ولم يعتقدوها. وإنما عرفوا من الخيرات بعض ما يظن في الظاهر أنها خيرات مثل سلامة الأبدان والثراء والاستمتاع باللذات، وأن يكون المرء غملياً وهواهياً، وأن يكون مكرماً معظماً. فتلك هي السعادة في نظر أبناء هذه المدينة، والسعادة العظمى الكاملة هي اجتماع هذه كلها. وأضدادها هي آفات الأبدان والفقر وعدم التمتع باللذات، وأن لا يكون غملياً وهواهياً وأن لا يكون مكرماً.

وهذه المدينة الجاهلة على أنواع منها:

٢- المدينة الضرورية، وهي التي قصد أهلها الاقتصاد على الضروري مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والملبوس والسكن والمنكوح، والتعاون على استفادتها.

٣- المدينة البدالة هي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة، ولا يتفجعوا باليسار في شيء آخر، لكن على أن اليسار هو الغاية في الحياة.

التي دبرها الأولون للمدينة، محتلياً بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها.

والثالث: أن تكون له جودة استنباط فيما لا يحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيها يستنبط من ذلك محتلياً حذو الأئمة الأولين.

والرابع: أن يكون له جودة روية وقوة استنباط لما سبيلُه أن يعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التي تحدث، مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون، ويكون متحريراً فيما يستنبطه من ذلك صلاح المدينة.

والخامس: أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين، وإلى التي استنبط بعلمهم من احتلى فيه حذوهم.

والسادس: أن يكون له جودة تلت بيدنه في مباشرة أعمال الحرب، وذلك أن تكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة»<sup>(٢)</sup>.

الصفة الأولى أهم هذه الصفات، حتى إنه «إذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط، ولكن وجد اثنان: أحدهما حكيم، والثاني فيه الشرائط الباقية، كانا هما رئيسين في هذه المدينة. فإذا تفرقت هذه (أي: الشرائط) في جماعة، وكانت الحكمة في واحد، و(الشرط) الثاني في واحد، و(الشرط) الثالث في واحد، و(الشرط) الرابع في واحد، و(الشرط) الخامس في واحد و(الشرط) السادس في واحد، وكانوا ثلاثين كانوا هم الرؤساء الأفاضل فمضى اتفاق في وقت ما أن لم تكن الحكمة جزء الرياسة وكانت فيها سائر الشرائط، بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك، وكانت المدينة تعرض للهلاك. فإن لم يتفق أن يوجد حكيم تضاف الحكمة إليه، لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك»<sup>(٣)</sup>.

إذن الحكمة هي الشرط الذي لا غنى عنه لوجود رئيس في المدينة الفاضلة. وهذا أيضاً متأثر بما ذهب إليه أفلاطون في كتاب «السياسة». ويتأيد هذا من ناحية أخرى بما قاله الفارابي في تلخيصه لمحاوره «السياسة» فقال إن أفلاطون يرى أن المدينة الفاضلة «يلزم من فيها إن كان مزماً أن يوجد فيها

(١) الفارابي: «فلسفة أفلاطون وأجزاؤها» في كتابنا: «أفلاطون في الإسلام» ص ٢٣. طهران، سنة ١٩٧٤.

(٢) الفارابي: «آراء أهل المدينة الفاضلة» ص ١٢٩-١٣٠.

(٣) الكتاب نفسه ص ١٣٠.

وربما كان هذا الوصف أقرب ما يكون انطباقاً على ما يسمى وحكومة الأغنياء.

٢- والصعوبة الثانية في عبارة: المدينة «الجماعية». ولكن الوصف الوارد في «السياسة المدنية» (ص ٩٩) يوضح المعنى المقصود منها، إذ ورد فيه: «فأما المدينة الجماعية فهي المدينة التي كل واحد من أهلها مطلق غلى لنفسه يعمل ما يشاء وأهلها متساوون، وتكون ستهتم أن لا فضل لإنسان على إنسان في شيء أصلاً. ويكون أهلها أحراراً يعملون ما شئوا، ولا يكون لأحد على أحد منهم ولا من غيرهم سلطان إلا أن يعمل ما تزول به حريتهم. فتحدث فيهم أخلاق كثيرة وهم كثيرة وشهوات كثيرة والتذاذ بأشياء كثيرة لا تحصى كثرة، ويكون أهلها طوائف كثيرة متشابهة ومتباينة لا تحصى كثرة. فتجتمع في هذه المدينة تلك التي كانت متفرقة في تلك المدن كلها الخسيس منها والشريف وتكون الرئاسات بأي شيء اتفق من سائر تلك الأشياء التي ذكرناها. ويكون جمهورها الذين ليست لهم ما للرؤساء مسلطين على أولئك الذين يقال فيهم إنهم رؤسؤهم، ويكون من يرأسهم إنما يرأسهم بإرادة المرعوسين، ويكون رؤسؤهم على هوى المرعوسين. وإذا استقصى أمرهم لم يكن فيهم في الحقيقة لا رئيس ولا مرعوس»<sup>(١)</sup>.

وربما كان هذا الوصف أقرب إلى تصوير النظام الديمقراطي لأنه يؤكد الحرية والمساواة وكون الرؤساء على هوى المرعوسين، وهذه خصائص النظام الديمقراطي، وسائر الصفات هي صفات الديمقراطية كما شاهدنا أفلاطون في أتينا في القرن الخامس والنصف الأول من القرن الرابع. فقد كانت هذه الديمقراطية كما قال عنها ثوكوديدس (الكتاب الثاني ٢: ٦٥) «تقوم على إسلام إدارة شؤون المدينة إلى أهواء الدماء». ويقول أفلاطون في كتاب «السياسة» (ص ٥٥٧ وما يليها) إن الديمقراطية تنشأ حين يكسب الفقراء ويقتلون أو ينفون خصومهم، ويعطون باقي الناس حقوقاً متساوية وفرصاً متكافئة لتولي المناصب، ويكون اليقين فيها عادة بالقرعة «وفي الديمقراطية حرية في القول كبيرة موفوزة، وكل فرد له الحرية في أن يفعل ما يشاء... ويرتب حياته كما يحلو له... وتختلف الأخلاق إلى أقصى درجة... وتنوع الأخلاق، مثل تنوع الألوان في ثوب مزركش، يجعلها تبدو جذابة... وهي

ج- ومدينة الخسة والسقوط، وهي التي قصد أهلها التمتع باللذة: من المأكول والمشروب والمنكوح، وبالجملة: اللذة من المحسوس والتخيّل وإثارة الهزل واللعب بكل وجه، ومن كل نحو.

١- ومدينة الكرامة، وهي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرّمين بمدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم، مجلدين معظمين بالقول والفعل، ذوي فخامة وبهاء، إما عند غيرهم وإما بعضهم عند بعض، كل إنسان على مقدار محبته لذلك، أو مقدار ما أمكنه بلوغه منه.

هـ- ومدينة التغلب، وهي التي قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم، الممتنعين أن يقهرهم غيرهم، ويكون كدّهم اللذة التي تنالهم من الغلبة فقط.

و- والمدينة الجماعية هي التي قصد أهلها أن يكونوا أحراراً يعمل كل واحد منهم ما شاء لا يمنع هواه في شيء أصلاً<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا النص صعوبتان لغويتان هما:

١- «المدينة البدالة» ماذا يقصد بها؟ لقد وردت في طبعتي كتاب «السياسة المدنية»<sup>(٣)</sup> بصورة: البدالة (بالذال وقبلها نون) وهو تحريف صارخ إذ وصفها بعد ذلك لا يسمح بذلك. ولعل الصواب أن تكون: مدينة البدالة، أي مدينة التجار؛ ويؤيد ذلك وصفها بأن هدف أهلها هو التعاون على نيل الثروة واليسار والاستكثار من اقتناء الضروريات وما قام مقامها من الدرهم والدينار وجمعها فوق مقدار الحاجة إليها، لا شيء سوى محبة اليسار فقط والشحّ عليها، وأن لا يتفق منها إلا في الضروري مما به قوام الأبدان: وذلك إما من جميع وجوه المكاسب، وإما من الوجوه التي تنال في ذلك البلد. وأفضل هؤلاء عندهم أيسرهم وأجودهم احتيلاً في بلوغ اليسار. ورئيسهم هو الإنسان القادر على جودة التدبير لهم فيما يكسبهم اليسار، وفيما يحفظه عليهم دائماً. واليسار ينال من جميع الجهات التي منها يمكن أن ينال الضروري وهي: الفلاحة والرعاية والصيد واللصوصية، ثم المعاملات الإرادية مثل التجارة والإجارة وغير ذلك<sup>(٤)</sup>.

(١) الفلاوي: «آراء أهل الفقه الفاضلة» ص ١٣٢ - ١٣٣.

(٢) ص ٨٨ من ١٠١٤ بيروت سنة ١٩٦٤.

(٣) الفلاوي: «كتاب السياسة المدنية» ص ٨٨ - ٨٩. بيروت، سنة ١٩٦٤.

(٤) الكتاب نفسه ص ٩٩.



أولى بالرياسة من أحد؛ فعنى سلّمت الرئاسة فيها إلى أحد فإما أن يكون أهلها متطولين بذلك عليه، وإما أن يكونوا قد أخذوا منه أموالاً أو عوضاً آخر<sup>(١)</sup>.

وبفصل الفارابي هذه الأنواع تفصيلاً أوسع وأوضح في كتاب «السياسة المدنية» فليرجع إليه القارئ لمزيد من التفصيل. على أنه في هذا الباب كله لا يكاد يخرج عما أورده أفلاطون في المقالة الثامنة من «السياسة» (ص ٥٤٣-٥٩٢).

#### خاتمة

بفضل الفارابي توطدت أركان الفلسفة في العالم الإسلامي، واتخذت طابعها الذي سيكون لها بعد ذلك حتى ابن رشد، وهو المزج بين الأفلاطونية والأفلوطينية من ناحية، والفلسفة الأرسطية والمشائية من ناحية أخرى، في نظرة في العالم على حظ كبير من الأصالة في التركيب.

وإذا كان الفارابي لم يخلف تلامذة مباشريين، لأنه عاش وحيداً، فإن الفلاسفة التاليين، وعلى رأسهم ابن سينا، سيحتمدون عليه ليس فقط في فهم الفلسفة اليونانية، بل وأيضاً في وضع كثير من الآراء والنظريات.

#### فابيل

##### Valentin Weigel

صوفي وفيلسوف ألماني. ولد في Naundorf (بالقرب من Gnossenbain في سكسونيا في سنة ١٥٣٣، وتوفي في Zschopau (في ارتسبيرج) في ١٠ يونيو سنة ١٥٨٨.

عاش في رحلة واعتزال. ودرس الصوفية، واشتاز من المجادلات اللاهوتية، ومن تزايد الطابع الشكلي والسياسي في المنهج الرسمي للبروتستنتية اللوترية، ورأى في ذلك خيانة لروح لوتر.

وخوفاً من الرقابة التي فرضها البروتستنت، لم ينشر شيئاً من كتبه. ومن هنا ثار الخلاف حول صحة نسبة بعضها إليه. ومن أبرز مؤلفاته، وقد نشرت بعد وفاته:

١ - «الحياة الدائمة»، هله سنة ١٦٠٩

(١) الفارابي: «السياسة المدنية» ص ١٠١.

تحتوي على كل غمط ممكن، بسبب ما تهيئه من حريات... وليس في الديمقراطية لزغام على ممارسة السلطة إذا كنت قلداً عليها، أو على الخضوع للسلطة إذا كنت لا تريد الخضوع لها؛ وتستطيع أن تمتنع من المشاركة في الحرب، إذا نشبت الحرب، كما أن في استطاعتك أن تثير حرباً خاصة في وقت السلام إذا كنت لا تحب السلام؛ وإذا وجد قانون يمنعك من تولي منصب سياسي أو قضائي، ففي وسعك مع ذلك أن تتولى أيها شئت إن مرّ بك.

وواضح كل الوضوح أن ما هنا تشابهاً تاماً بين المدينة الجماعية، والديمقراطية كما وصفها أفلاطون ولهذا يجب أن نقرأ: الجماعية (بفتح الجيم)<sup>(١)</sup>، نسبة إلى الجماعة δῆμος (الشعب، الجماعة).

وتتابع ذكر باقي مضادات المدينة الفاضلة:

٢- المدينة الفاسقة: وتتفق في الآراء على الآراء الفاضلة، أما في الأفعال فتسلك سلوك أهل المدن الجاهلة.

٣- المدينة المتبدلة: وهي التي كانت آرائها وأفعالها في القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك، واستحالت أفعالها إلى غير تلك<sup>(٢)</sup>.

٤- المدينة الضالة: هي التي نُصبت لها مبادئ غير حقيقية، ونصبت لها سعادة غير التي هي في الحقيقة سعادة وحوكيت لها سعادة أخرى غيرها، ورسمت لها أفعال وآراء لا تنال بشيء منها السعادة<sup>(٣)</sup>. ويكون قد استعمل في ذلك التمويهات والمخادعات والغرور<sup>(٤)</sup>.

وملوك المدن المضادة للمدينة الفاضلة مضادون للملوك هذه الأخيرة، ورياستهم مضادة للرياسات الفاضلة.

وكل رئاسة جاهلية إما أن يكون القصد منها التمكن من الضروري، وإما اليسار، وإما التمتع باللذات، وإما الكرامة والذكر والمديح، وإما العلبة، وإما الحرية. فلذلك صارت هذه الرئاسات تشرى شراءً بالمال وخاصة الرئاسات التي تكون في المدينة الجماعية: فإنه ليس أحد هناك

(١) من العار أن يقرأ يوسف كرم وكذلك د. نجار تاشر «السياسة المدنية» بكسر الجيم على أنها نسبة إلى الرقاع الجسري!

(٢) الفارابي: «آراء أهل الحية الفاضلة» ص ١٣٣.

(٣) راجع الفارابي: «السياسة المدنية» ص ١٠٤. بيروت سنة ١٩٦٤.

(٤) الفارابي: «آراء أهل المدينة الفاضلة» ص ١٣٣. بيروت ١٩٧٣.

## قائل

## Eric Weil

مفكر فرنسي من أصل ألماني.

ولد في سنة ١٩٠٤، وتوفي في سنة ١٩٧٧ في نيس.

تعلم في الجامعات الألمانية، وكان تلميذاً لإرنست كاسيرر. ثم اضطر إلى مغادرة ألمانيا مع مجيء النازية إلى الحكم، وارتحل إلى فرنسا وتجنس بالجنسية الفرنسية. وأخذ أسيراً في سنة ١٩٤٠ عقب استيلاء الألمان على فرنسا، ثم أفرج عنه بعد الحرب. وحصل على الدكتوراه من جامعة باريس برسالتين: الكبرى بعنوان: «منطق الفلسفة» (عند الناشر قران، سنة ١٩٥٠)، والصغرى بعنوان: «هيجل والدولة» (قران، سنة ١٩٥٠). وصار أستاذاً في جامعة ليل Lille ثم في جامعة نيس Nice.

كان من أنصار الليبرالية، ولهذا قام بتحليل الماركسية وبيان مناقصها وملزقتها، وبين ذلك في كتابه «الفلسفة السياسية» (قران، سنة ١٩٥٦).

ومن كتبه الأخرى نذكر:

«مقالات ومحاضرات» Essais et Conférences (عند الناشر Plon في جزئين، سنة ١٩٧٠، سنة ١٩٧١).

«مشاكل كتيبة» (قران، سنة ١٩٦٣) Problèmes Kantiens.

## تجشنتين

## Ladwig Wittgenstein

منطقي ومن فلاسفة اللغة.

ولد في فيينا في ٢٦ أبريل سنة ١٨٨٩، وتوفي في كامبردج في ٢٩ أبريل سنة ١٩٥١.

درس الهندسة في برلين ومانشستر. وعني بدراسة الرياضيات والأسس المنطقية التي تقوم عليها، فالتحق بجامعة كامبردج حيث درس المنطق الرياضي على يد برترند رسل في سنة ١٩١٢. فكان لتعاليم رسل تأثير بارز في تفكيره وفي الأفكار التي سجلها تجشنتين في بحث له بعنوان:

٢ - «رسالة في الحياة السعيدة» هله سنة ١٦٠٩

٣ - «رسالة جميلة في الصلاة» هله سنة ١٦١٢

٤ - «في مكان العالم» هله سنة ١٦١٣

٥ - «محاورة في المسيحية» هله سنة ١٦١٤

٦ - «حوار حول المسيحية الصحيحة» هبورج سنة

١٦٢٢

٧ - «اعرف نفسك» Newenstadit سنة ١٦١٥

يندرج فايجل في سلسلة كبار الصوفية الألمان من السيد اكهت حتى يعقوب ييمه الذي كان فييا يبدو من تلاميذه.

ومذهبه في التصوف روحاني عميخ. وعنده أن الله وحده لا يمكن وصفها، وهي غير مخلوقة، ولا مخلوقة. والمخلوق هو كشف الله عن نفسه. وكل مخلوق هو أكثر من مجرد صورة لله، إن ماهيته إلهية. ولا موجود خارج الله، بل كل موجود موجود في الله. وحضور الله في كل المخلوقات يربط بينها برابطة ضرورية لا انفصام لها. وليس فقط كل الناس، بل وكل الموجودات سواء؛ وإنما يأتي التفاوت بما هو قزياتي - وبالتالي بما هو ظاهري. ولما كانت ماهية كل شيء إلهية، فلا يوجد كائن هو شرير في جوهره. والانسان هو من جهة: سلبى تجاه الله من حيث انه يفنى فيه، ومن جهة أخرى: ايجابى من حيث هو يشارك في الطبيعة الفعالة لله.

والانسان مختصر شريف جامع لكل الكون، وفي هذا نجد ما يذكرنا بكلام محي الدين بن عربي إن الانسان عالم صغير. ولما كان محتوي على كل الحقيقة الواقعية في مراحل ذاته، فهو ليس في حاجة إلى البحث عنها في خارج ذاته.

وفعل المعرفة هو انطواء على الذات، والواقع الخارجى هو مجرد مناسبة ودافع إلى المعرفة.

## مراجع

- H. Maier: Der mystische Spiritualismus V. Weigels. Götersloh, 1926.
- W. Zeller: Die Schriften V. Weigels, eine literarkritische Untersuchung, Berlin, 1940.
- A. Koyré: Mystiques, spirituels, alchimistes du XVI<sup>e</sup> siècle allemand. Paris, 1955.

ونيو يورك سنة ١٩٥٨؛ ثم 16-1914 Notebooks في نيو يورك سنة ١٩٦١؛ ثم: «محاضرات ومحادثات في علم الجمال وعلم النفس والإيمان الديني في باركلي- أكسفورد سنة ١٩٦٦؛ و«رسائل من لودفيج فجنشتين»، أكسفورد سنة ١٩٦٧.

ويمكن تمييز مرحلتين واضحتين في تطور فكره:

أ) مرحلة «الرسالة المنطقية الفلسفية».

وب) مرحلة تدريسه في كامبردج، ويتجلى خصوصاً في كتابه الثاني الرئيسي: «مباحث منطقية».

في المرحلة الأولى عمل في أثر مور ورسل على تعمق التحليل اللغوي والتصورات المنطقية الفلسفية، عند كل من ج. إي. مور ورسل. وجمع فيها بين التجريبية والعقلية.

وفي المرحلة الثانية اتجه إلى النظر إلى الفلسفة على أنها تحليل لغوي يتحرر من الأساليب الحاضرة التي لجأت إليها الوضعية الجديدة. وأسهم بذلك في تكوين وتوجيه المدارس التحليلية الانجليزية الناشئة في جامعتي كامبردج وأكسفورد.

أ) مرحلة الرسالة المنطقية الفلسفية:

صاغ فجنشتين أفكاره الأساسية في «الرسالة...» في سبع قضايا أساسية يتوجها قضايا أخرى ميزها بأرقام عشرية. وهذه الأفكار الأساسية تدور حول موضوعين: (الأول): تحليل طبيعة اللغة وقدرتها على التمثيل الرمزي والبحث عن الطابع الخاص للغة المنطقية والرياضية. واللغة التي يبحث فيها فجنشتين هي اللغة المثالية الكاملة التي ينبغي عليها بغض النظر عن نحو اللغات الخاصة الجزئية المتكلم به أن تعكس في تركيب المنطقي للحقيقة الواقعية. وهذه اللغة تكون ذات معنى من حيث هي صورة للعالم: فالعلامات البسيطة (الأسماء) في القضايا تناظر أشكال الموضوعات (الأشياء) في الموقف الواقعي. وتبعاً لذلك فإن معنى القضية هو القدرة على وصف الوقائع الممكنة. ومعنى هذا أنه توجد وقائع بسيطة (وقائع ذرات) تناظرها قضايا بسيطة جداً (أولية أو ذرية)، ولو لم توجد وقائع ذرات، لتوقف معنى القضية دائماً على حقيقة قضية أخرى، ولن يكون هناك صورة للعالم. ويقصد من «الوقائع-الذرات»: المعطيات المباشرة، أي وقائع الإحساس بوصفها عناصر واحدة لا هي ذاتية ولا هي موضوعية. وعلى أساس القضايا الذرية يقوم كل بناء اللغة. أما القضايا غير الأولية (الجزئية) الناشئة عن ربط

«بحث منطقي فلسفي» (بالألمانية) Logisch-Philosophische Abhandlung (نشر في «حوليات فلسفة الطبيعة» Ann. d. Naturphilosophie في سنة ١٩٢١ ص ١٨٥-٢٦٢). وقد أعاد نشر هذا البحث بعد ذلك بعام، في سنة ١٩٢٢، في لندن مع مقدمة ليرترند رسل وترجمة انجليزية بعنوان Tractatus logico-philosophicus (وله طبعة ثانية منقحة، ظهرت في سنة ١٩٣٣).

ثم عاد إلى وطنه، النمسا، حيث قام بالتدريس في المدارس الأولية. وعاد بعد ذلك في سنة ١٩٢٩ إلى كامبردج، حيث حصل على منحة بحث research fellowship. وفي سنة ١٩٣٩ خلف ج. إي. مور Moore أستاذاً للفلسفة في جامعة كامبردج. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية عمل مساعداً صحياً في مستشفى بلندن. وفي سنة ١٩٤٧ ترك التدريس نهائياً.

ولم ينشر في حياته، إلى جانب «الرسالة المنطقية الفلسفية» سوى بحث آخر صغير بعنوان: «تعليقات على الشكل المنطقي» (في «أعمال الجمعية الأرسطية»، ملحق المجلد التاسع، سنة ١٩٢٩ ص ١٦٢-١٧١). لكنه ترك بعد وفاته عدداً كبيراً من المؤلفات المخطوطة، منها:

- ١- «تعليقات على المنطق»، كتبه سنة ١٩١٣
  - ٢- «محاضرة عن الأخلاق»، كتبها سنة ١٩٢٩ أو سنة ١٩٣٠.
  - ٣- «الكتاب الأزرق»، كتبه سنة ١٩٣٣، سنة ١٩٣٤
  - ٤- «الكتاب الأصفر»، كتبه سنة ١٩٣٤، سنة ١٩٤٥
  - ٥- «أساس الرياضيات»، كتبه سنة ١٩٣٩
- وبعد وفاته قام R. Rhees و G.E.M. Anscombe و G.H.V. Righty بنشر كتابه الثاني الرئيسي وهو:
- ٦- «مباحث فلسفية» Philosophische Untersuchungen (أوكسفورد سنة ١٩٥٣) مع ترجمة إلى الإنجليزية.

ثم كتب

- ٧- «ملاحظات عن أساس الرياضيات» Bemerkungen über die Grundlagen der Mathematik (أوكسفورد ونيويورك سنة ١٩٥٤).

وبعد ذلك نشر رقماً ٣، ٤ في مجلد واحد، في أكسفورد

الفلسفة «معركة ضد اعتلال عقولنا بسبب من لغتنا» (ص ٤٧). ويحاول فتجنشتين في «المباحث الفلسفية» أن يعالج «الأمراض اللغوية».

وقد رفض فتجنشتين دائماً أن يُعدَّ من أعضاء «دائرة فينا» التي انشأها مورتنس اشلك وكان من أكبر رجالها رودلف كرنپ R. Carnap.

### مراجع

- N. Malcolm: L. Wittgenstein. London, 1958.
- D. Pole: The later philosophy of L. Wittgenstein. A Short introduction - London, 1958.
- E. Stenius: Wittgenstein's «Tractatus». a critical exposition of the main lines of thought. Oxford- Ithaca, N.Y., 1960
- A. Maslow: A study of Wittgenstein's «Tractatus». Berkely, 1961.
- J.P. Griffin: Wittgenstein's logical atomism- Oxford-New York, 1964.
- F. Barone: art. Wittgenstein», in *Enciclopedia filosofica*, Vol. 6.

### فرنك (أدولف)

#### Adolphe Franck

عالم بالفلسفة ذو نزعة روحية.

ولد في Liacourt (Meurthe) بشرفي فرنسا في ٩ أكتوبر سنة ١٨٠٩، وتوفي في باريس في ١١ أبريل سنة ١٨٩٢. وكان أستاذاً في الكوليج دي فرانس، وعضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية.

وقد اشتهر بكتاب «قاموس العلوم الفلسفية»- Dictionnaire des sciences Philosophiques (ظهر أولاً في ٦ أجزاء، باريس سنة ١٨٤٤ - سنة ١٨٥٢؛ وطبع طبعة ثانية في مجلد واحد في باريس سنة ١٨٧٥؛ وطبعة ثالثة في مجلد واحد سنة ١٨٨٥) وفي حرر عدة مواد؛ وعلى الرغم من قلّعه فلا يزال مرجحاً يعتدّ به لما فيه من معلومات وفيرة، وقد كتب فيه مونك مواد الفلسفة الإسلامية واليهودية.

القضايا الذرية بواسطة الثوابت المنطقية («واو»، «أو»، «إذا... حينئذ»، إلخ) فهي دوالٌ لحقيقة هذه القضايا، لأن قيمتها كحقيقة تتوقف على قيم حقيقة هذه. وجماع القضايا الذرية والجزئية ذوات المعنى التجريبي يؤلف العلم، وخارجها لا محل لقضايا من نمط آخر.

والثاني هو البحث في طبيعة تقريرات المنطق الصوري والرياضيات. فينتهي إلى القول بأن مثل هذه التقريرات ليست سوى قضايا زائفة pseudo-propositions خالية من المعنى sinnlos: إنها مجرد تحويلات لعلامات لغوية، صيحتها لا تتوقف على تحقيق تجريبي، بل على الشكل الباطن الجوهرى للعلامات. والقوانين والاستدلالات المنطقية هي مجموعات من تحصيل الحاصل tautologies وقضايا الفلسفة التقليدية (التي لا تنسب إلى العلم ولا إلى المنطق) هي أيضاً قضايا زائفة ليست فقط خالية من المعنى sinnlos بل وأيضاً غير معقولة unsinnig. والفلسفة ليست مذهباً doctrine، بل نشاط activité يقوم في بيان التناظر بين الوقائع والصور القضية، وهو تناظر يمكن بيانه، لكنه لا يمكن التعبير عنه. ومن هنا ختمت «الرسالة...» بهذه العبارة: «وعما لا يمكن الكلام عنه بعد ينبغي السكوت» (القضية السابقة). وإلى ميدان ما لا يمكن التعبير عنه تنسب القيمة أيضاً. والنشاط الوحيد الجائز للفيلسوف هو توضيح الأفكار المعتمة أو الغامضة.

ب) إن لغتنا تشبه مدينة عتيقة هي مشتبك من الأزقة والميادين، ومن المنازل المبنية في عصور مختلفة، وتحيط بها ضواح جديدة أكثر انتظاماً وتشابهاً في الشكل. وكل قطاع من القطاعات اللغوية له طريقة خاصة في الدلالة على المعنى، يمكن فهمها بواسطة بناء نموذج لغوي (أو لعبة لغوية sprachspiel) ابتغاء إيضاح استعمال الألفاظ. ومعنى اللعبة اللغوية هو نمط استعمالها. ولا ينبغي رد أشكال اللغة إلى جنس واحد، بل يجب تحليل الأنساب التي تربط بينها وتجعل منها أسرة.

ويتج عن هذا نتائج مهمة في نظرم بالنسبة إلى التفلسف. يقول: «إن غلطتنا هي أن نبحث عن تفسير هناك حيث ينبغي أن نرى الوقائع بوصفها ظواهر أصلية، أعني حيث ينبغي أن نقول: إنه تُلعب هذه اللعبة اللغوية. والأمر ليس أمر تفسير لعبة لغوية بواسطة نماذجنا المباشرة، بل إيضاح لعبة لغوية» («مباحث فلسفية» ص ١٦٧). وهذا تصبح

ولد في ١٨٥٦/٥/٦ في فرايرج Freiberg (في إقليم مورافيا، وكان آنذاك ضمن الامبراطورية النمساوية، وصلر بعد الحرب العالمية الأولى جزءاً من تشيكوسلوفاكيا) من أسرة يهودية، انتقلت إلى فينا وهو في الثالثة من عمره. وفي سنة ١٨٧٣ التحق فرويد بجامعة فينا حيث درس الطب، وتخصص في طب الأعصاب، وقام في ميدانه بأبحاث جيدة عملية، نشرها سنة ١٨٨٥ وسنة ١٨٨٦. وكجزء من تدريبه سافر إلى فرنسا، حيث اتصل بعدد من الأطباء الفرنسيين المتخصصين في الأمراض النفسية وعلى رأسهم شاركو (Charcot) وبيير جانيه (Pierre Janet) وكانوا في علاجهم للأمراض العقلية يستعملون التنويم المغناطيسي. فاهتم فرويد بهذه الطريقة وأجرى تجارب مستعينة بالتنويم المغناطيسي، أولاً في فرنسا، وبعد ذلك في النمسا. فاكشف حينئذ أن من الممكن في أحوال كثيرة جعل المريض، تحت التنويم المغناطيسي، يتذكر حوادث ومشاعر يبدو أنها كانت سبباً في إحداث أعراض مرضية عصبية أو نفسية. فاستنتج من هذا أن استعادة مثل هذه الذكريات وما صاحبها من تجارب انفعالية تفيد في علاج المريض، لأنه وجد أن أعراض المرض كانت تختفي غالباً متى ما كان التذكر ممكناً.

وبالتعاون مع بروير Breuer سعى فرويد لتكميل هذه الطريقة لكنه تبين لها أن التنويم المغناطيسي لا يفيد إلا في مساعدة المريض على التذكر واستعادة التجارب التي أدت إلى المرض. وبمزيد من التجارب تبين لبروير أن من الممكن الاستعاضة عن التنويم المغناطيسي بما سماه أحد مرضاه: «العلاج بالمحادثة»، وذلك بأن يتحدث مع المريض في موضوعات انفعالية دون الاستعانة بالتنويم المغناطيسي، لكن بروير ما لبث أن انصرف عن هذه الطريقة في العلاج، لما وجدته في المناقشات مع المرضى حول تفاصيل شخصية وجنسية من أمور محيرة وغير واضحة. أما فرويد فقد وجد في تصريحات مرضاه وما يصحبها من ردود فعل انفعالية وسيلة يمكن استخدامها في العلاج. وهذه الملاحظة أدت به إلى فكرة التحويل Transference وهي من الأدوات الأساسية في التحليل النفسي.

انفصل بروير عن فرويد، لكن هذا الأخير استمر وحده في هذا الطريق، وجمع بين التنويم المغناطيسي وبين العلاج بالمحادثة. لكنه تبين له بعد ذلك أن التنويم غير فعال في بعض الأحوال، لأن بعض المرضى لا يمكن تنويمهم، ولأن

ومن مؤلفاته أيضاً: «القبالة أو فلسفة العبرانيين الدينية» (باريس سنة ١٨٤٣؛ ط ٢ سنة ١٨٨٩)؛ «الفلسفة والدين» (باريس، سنة ١٨٦٧).

### فرنك (سيمون)

#### Semen Frank

مفكر روسي، ولد في موسكو في ١٦ يناير سنة ١٨٧٧، وتوفي في لندن في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٠ درس الاقتصاد والقانون في موسكو. ثم انتقل إلى برلين حيث بدأ يهتم بالفلسفة. وفي سنة ١٩٠٧ بدأ في تدريس الفلسفة في مدينة بطرسبرج، وشغل كرسي الفلسفة في جامعة ساراتوف في سنة ١٩١٧.

ونفي من روسيا في سنة ١٩٢٢، فارتحل إلى برلين، وقام بالتدريس في جامعتها حتى سنة ١٩٣٧، حيث انتقل إلى باريس. وبعد الحرب العالمية الثانية عاش في لندن. وفلسفته ميتافيزيقا متأثرة بهيرل والظاهرية. ومن أهم مؤلفاته:

- ١- الفلسفة والحياة، بطرسبرج سنة ١٩١٠
- ٢- موضوع المعرفة، بطرسبرج، سنة ١٩١٥ (ترجمة فرنسية بعنوان: «المعرفة والوجود»، باريس سنة ١٩٣٧).
- ٣- مناهج العلوم الاجتماعية، برلين سنة ١٩٢١
- ٤- المعرفة الحية، باريس سنة ١٩٢٣
- ٥- النظرة الروسية، برلين سنة ١٩٢٦
- ٦- الله معنا، لندن سنة ١٩٤٦
- ٧- والنور في الظلمة: بحث في الأخلاق المسيحية والفلسفة الاجتماعية، باريس سنة ١٩٤٩.

#### مراجع

- N.O. Lossky: Histoire de la philosophie russe, pp. 276-306. Paris, 1934.

### فرويد

#### Sigmund Freud

مؤسس التحليل النفسي.

إلى حلوث عدم التكيف النفسي فيه. وباستمرار العملية، عملية ترك الخواطر الحرة تفصح عن نفسها دون رقيب، وقيام المحلل بتفسير المادة المتحصلة عن ذلك، يكشف المريض والمحلل أن ثم علاقة بين التجارب الماضية وبين الأحوال الراهنة غير السوية التي يعانها المريض.

#### مبادئ الحياة النفسية كما يراها فرويد:

الفكرة الأساسية التي يقوم عليها مذهب فرويد هي أن الغرض الأساسي من كل فعل يقوم به الإنسان هو تحصيل أكبر لذة وجعل الألم أقل ما يمكن. ذلك لأنه رأى أن السلوك يتجه نحو السعادة بمعنى تحصيل أكبر لذة، أو إشباع الحاجات الحسية.

والطفل يسعى إلى تحصيل اللذة بغض النظر عن نتائجها. وفي هذه النقطة يسترشد سلوكه «بمبدأ اللذة». وكلما كبر تعلم كيف يضبط سلوكه بما يواجهه من حقائق. فيحقق أكبر لذة مع أقل ضرر ناجم عنها. وهذا الاتجاه يسمى «مبدأ الواقع» وهو ثمرة نضوج قدرته على ضبط نفسه. وعملية الضبط، والتخطيط، والتكيف مع الواقع هي «الأنات» Ego.

وكلما تقدم الطفل في السن وصلر مراعياً تغيير قيمه الأخلاقية، فينشأ ما يسميه فرويد بـ «الأنات الفوقاني» الذي هو ثمرة محاكاة الطفل لسلوك أبويه.

وكل سلوك ذو غرض، وغرضه هو تحصيل أكبر لذة وتقليل الألم الضروري إلى أقل درجة. وفي العادة يوجد أكثر من دافع لتوجيه أي فعل، ومن الدوافع ما هو حاضر ومنها ما هو ناشئ عن تجارب ماضية. وتنشأ المنازعات حين يقع أحد هذه الدوافع في تناقض وتنازع مع باقي الدوافع. وفي عملية النضوج البيولوجي تحدث عدة صعوبات. والتطور يتضمن العثور على بعض وسائل للتكيف مع هذه الصعوبات. ولما كانت مشاكل التطور ذات أصل بيولوجي، فينبغي مواجهتها وحلها بواسطة كل طفل على حدة.

والدوافع، وتجارب الحياة، والموقف الحالي، والقيم الأخلاقية، وضروب بذل الطاقة، والتحريرات كلها تتفاعل معاً لتكوين الشخصية.

وغط هذا التفاعل يتكرر في الطفولة على أنه ناتج النضوج الفزيائي (الطبيعي) والاجتماعي.

من يتوهم ويعانون تغييراً في الأعراض التي ظهرت عليهم أولاً نتيجة للإيجاء التنويم قد تظهر عليهم فيما بعد أعراض أخرى. ومن هنا انصرف فرويد إلى طريقة «العلاج بالمحادثة» أكثر فأكثر، وقلل اعتماده على التنويم حتى لم يعد يفيد إلا في جعل المريض يسترخي ويطلق العنان لعقله. لكنه كان من الضروري القيام بنوع من الرقابة على انطلاق المريض في سرد المعاني المترابطة. ووجد فرويد أن تحليل أحلام المريض هو وسيلة نافعة في إحداث هذه الرقابة.

وخلال هذا كله كان فرويد يولي أهمية خاصة لما يرد في هذه المحادثات العلاجية من تصريحات المرضى عن مشاكلهم الجنسية بخاصة، مما جعله يرجع إلى الغريزة الجنسية الأصل في كثير- إن لم يكن في كل- الأمراض العصبية والنفسية. وهو الاتجاه الذي أنكره عليه زميله يوسف بروير فانفصل عنه.

وقد رأى فرويد أن اهتمام عالم النفس وعالم الأمراض النفسية يجب أن ينصب على طبيعة تجارب الشخص في الحياة، وكيف حدثت كل واحدة من هذه التجارب، وكيف تفاعلت مع تجاربه السابقة. واقترض أن التجارب الأولى في حياة الطفل ذات أثر كبير في تكوين أساس الشخصية، وأن ما يحدث للإنسان بعد سن المراهقة لا يؤثر إلا قليلاً في غط الشخصية الذي تكون قبل ذلك. ولئن كان اهتمام فرويد قد اتجه في المقام الأول إلى ذوي الأمراض العقلية، فإنه اعتقد أن من الممكن تعميم النتائج التي يصل إليها في دراسة المرض لتشمل أيضاً كل أنواع السلوك الإنساني.

والمنهج الذي استخدمه هو كما قلنا ترك خواطر المريض تتثال عليه في حرية، مع قيام المحلل النفسي بملاحظة المريض وتفسير خواطره. فكان يطلب من المريض أن يصرح له أو للمحلل النفسي بكل ما يجول بخاطره، بغض النظر عما عسى أن يكون فيها من فحاشة أو عته أو عدم معقولة أو مخالفة لقواعد الأخلاق والمعاملات، وذلك على أساس أن مجرى التفكير هو سلسلة من الخواطر المترابطة التي فيها ترتبط كل خاطرة بما يسبقها. والإنسان، في الأحوال العادية، يكتم الأفكار السيئة إما بسبب المخاوف أو القيم الأخلاقية المرعية أو التهذيب والآداب السائدة؛ ويريد فرويد بترك الخواطر تنطلق دون حسيب ولا رقيب، أن يصل إلى ما كتم في غور اللاشعور من خواطر وأفكار ورغبات. وتسلسل الترابطات يؤدي إلى المشاعر والأفكار والدوافع التي تسيب في مشاكل نفسية عند المريض، ثم من وراء ذلك إلى التجارب الأصلية التي أدت



## الشعور:

يميز فرويد بين ثلاث مناطق داخل الشخصية: المنطقة الأولى يسميها «الهو» Id و«الهو» Id يتألف من دوافع بيولوجية متعددة تكون كلها في أحوالها الأولية غير المتكيفة اجتماعياً. ويمكن أن يسمى ذلك الجانب الحيواني في الإنسان. والمنطقة الثانية يسميها فرويد باسم «الأنا». والأنا هو الجزء من الشخصية الذي ينشد العثور على مخارج واقعية لدوافع «الهو»، وفي نفس الوقت يؤمن الشخص من الوقوع في نزاع مع محيطه ويجنبه التجارب الأليمة. و«الأنا» Ego هو مصدر ضبط النفس، والوسيلة للإبقاء على الاتصال مع المحيط. وهو حاكم يصدر قرارات. أما المنطقة الثالثة، وتسمى «الأنا الفوقاني» Super Ego فهي تشمل القيم الأخلاقية التي يتلذذ بها الشخص، أعني ضميره.

ولكل منطقة من هذه المناطق الثلاث علاقة محددة مع الوعي (الشعور). ومهمة الأنا في التوفيق بين مطالب «الهو» Id و«الأنا الفوقاني» وبين الواقع مهمة واعية (شعورية) لا عمالة، كما هو الشأن أيضاً في تعامله مع العالم الخارجي وكذلك بعض القيم الشخصية واعية، وإن كان فرويد يعتقد أن «الأنا الفوقاني» كثيراً ما يؤثر في الشخص دون أن يكون واعياً بهذا التأثير. والسبب في هذا أن كثيراً من القيم الاجتماعية قد تعلمها الطفل قبل أن يستطيع فهمها وتعلّمها.

والهو، بدوافعه الوحشية، لا شعوري. وهذه المادة اللاشعورية تسمى للتعبير عن نفسها على نحو غير مباشر. فمثلاً الأحلام وهفوات اللسان هي تجليات مقننة لمضمونات لا شعورية افلتت من «الأنا» وصارت علنية. وفي حالة الأحلام، فإن التخلف غير المباشر من المواد الاندفاعية تصرف مواد كان من شأنها لو بقيت حبيسة أن تحدث اضطراباً في النوم وفي نشاطات أخرى.

وإلى جانب الشعور واللاشعور هناك ظاهرة يسميها فرويد باسم «ما قبل الشعور» präconscious، وهو المادة التي يستطيع الشخص أن يتذكرها بحسب إرادته، لكنها لم تكن في وعيه وانتباهه طوال الوقت. وهذه المادة لا تبرز من أجل مراقبة الجهاز العضوي، بل بالأحرى من أجل التمكين له من العمل على نحو أكثر فاعلية. ذلك لأن وعي الإنسان بكل قصد وكل ذاكرة باستمرار قد يتدخل في نشاط الإنسان ويعيقه؛ لكنه لا بد من أن تكون هذه المعلومات ميسورة للجهاز العضوي حين

## يحتاج إليها.

وهكذا كان فرويد يرى أن العقل يتأثر بدوافع حيوانية أولية، ويراقب من قبل قيم أخلاقية، ويتكيف وفقاً لمتطلبات الواقع.

## التفكير والمعرفة والذاكرة:

وفي بداية الأمر، الطفل لا يفكر، بل يرد الفعل باندفاع وينشد لذات مباشرة. وسلوكه هذا يتفق مع مبدأ اللذة الذي ذكرناه من قبل. وبعد عام أو عامين، يتعلم الطفل أن عليه أن ينظر في نتائج ما يفعله حتى يتجنب ما قد يحدث من ألم يتبع عن مباشرة اللذة، وهذا هو مبدأ الواقع. واعتبار النتائج على هذا النحو هو التفكير. والتفكير أمثال رمزي للموضوعات والأحداث والمشاعر. وكثير من هذه الرموز قد تعلمها الطفل من أبويه أو بيئته، وبعضها هي مفهومات لا شعورية تكون جزءاً من وراثته التكوينية. والأحلام غنية بهذه الرموز؛ ولما كانت تتحدد أساساً بقوى لا شعورية، فإنها تكشف عن نوازع ونزاعات مستورة.

## السلوك والشخصية:

وتوالى الشخصية بمرحلة مراحل. وكل مرحلة منها تتضمن التفاعل بين البنية النفسية القائمة، والحاجات البيولوجية (خصوصاً الجنسية منها)، والبيئة المحيطة. وبسبب هذا التفاعل، فإنها تسمى مراحل نفسية جنسية PsychoSexuel. ويعين النمو بيولوجياً، وكل مرحلة تجلب دوافع جديدة لا بد من التوفيق بينها وبين الآخرين في المجتمع.

والمرحلة الأولى للنمو تقوم في العبلولة التي تتميز بتركيز الانتباه على الأفعال الشفوية والاكل ومن هنا سميت بالمرحلة الشفوية، لأن الشفتين تلعبان فيها دوراً رئيسياً.

ويتلو ذلك فترة تسود فيها العادات المتعلقة بالبراز والمثانة، ويزداد فيها التوكيد على أفعال الاست، ولهذا يسميها فرويد باسم «المرحلة الاستية».

ويتلو ذلك المرحلة التي يسميها باسم المرحلة «الاحليلية» phallic وتتميز بمحاولة الطفل حل مشاكله الجنسية مع أبويه (نزاعات عقلة أوديب). وفي أثناء هذه المرحلة يؤدي خوف الطفل من الانتقام (بالخصي) بسبب تنافسه مع من في مثل جنسه من أبويه إلى أن يشعر الطفل بالتأحد identity مع هذا الوالد (أو الوالدة)، بحسب

سنة ١٩٣٩ بعد أن جاوز الثالثة والثمانين.

#### نشرة مؤلفاته

النشرة المعتمدة لكل مؤلفات فرويد قام بها جيمس استراتشي James Strachey بالتعاون مع بنت فرويد، أنا فرويد Anna Freud، في ٢٤ مجلداً، ونشرت في ترجمة انجليزية في لندن، من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٤، عند الناشر Hogarth.

ونشرت مؤلفاته الأساسية، في ترجمة انجليزية أيضاً، بعنوان

- The Basic Writings of Sigmund Freud, ed. by A.A. Brill. New York, Random House, 1938.

ونذكر من أهم كتبه التي ظهرت على حدة:

- Introductory Lectures to Psychoanalysis. New York, 1920.
- Beyond the Pleasure Principle. London 1922.
- Group Psychology and the Analysis of the Ego, London, 1922.
- The Ego and the Id. London, 1927.
- Civilization and its Discontents. New York, 1930.
- New Introductory Lectures on Psychoanalysis. New York, 1933.
- The Problem of Anxiety. New York, 1936.

#### مراجع

- Ann F. Neel: Theories of Psychology, pp. 181- 210. London, 1969.
- Clara Thompson: Psychoanalysis: Evolution and Development. New York, 1950.
- Philp Rièff: Freud: The Mind of the Moralist. New York, 1959.
- E. Jones: The Life and Work of Sigmund Freud, 3 vols. 1953- 55.
- O. Monnom: Freud. Paris, 1968.
- M. Robert: La Révolution Psychanalytique, 2 Vols. Paris, 1964.

الأحوال)، بما في ذلك قيمه (أو قيمها) الأخلاقية. وهذا يتقرر «أنا فوقاني» Superego، ويدخل الطفل في مرحلة كمن فيها تكبت كل دواخله الجنسية حتى بداية عهد المراهقة.

فإن مضت المراهقة بدون مشاكل، يقترب الشخص من المرحلة التناسلية genital stage، وإن كان من النادر تحقيق شخصية تناسلية كاملة لأن القليل من الأشخاص هم القادرون على أن يمروا بالمراحل السابقة دون أذى.

وإذا وقع الطفل في مشاكل خطيرة خلال أية مرحلة من هذه المراحل، فإن المهارات الاجتماعية التي يكون قد تعلمها فقيرة أو معدومة بتاتاً. وقد يحدث أن يتوقف عن النمو ويثبت على حال معينة، وربما يتعثر ويعرج خلال المراحل الأخرى ويرتد إلى الخلف، وربما يعود إلى مهارات أتقنها من قبل على نحو أفضل حين كان واقعاً تحت ضغط. والتوقف في حال معلوم نتج عن نوع خاص من التكيف المرضي (الباثولوجي)، مثل العيلولة dependancy في ثبوتات شفوية أو جنسية كاذبة، أو دون جوانية، ونشاطات شيطانية في ثبوتات fixations اإحليلية.

والعصابات neuroses والأمراض النفسية psychoses هي ارتدادات في أوقات الضغط إلى مراحل سابقة في النمو أمكن حلها على نحو أفضل. والضغط المؤدي إلى الارتداد ينشأ عن نزاعات بين الأشخاص حول قهر دوافع محرمة. إن الدافع كالممكن مقبولاً فإنه اندفع خلفاً إلى اللاشعور، وعبر عن نفسه، بطريق غير مباشر فقط، بواسطة سلوك وسط compromise يمكن من شكل مقنع من أشكال الإرضاء، وفي الوقت نفسه يرضي التحريمات الأخلاقية والاجتماعية.

وكل مرحلة من مراحل النمو تحمل معها مهارات يمكن أن تستعمل وسائل حماية defenses مثل التخيلات في المرحلة الشفوية، والاسقاطات في المرحلة الاستية، وألوان الكبت وردود الفعل في المرحلة الإحليلية.

والطريق الذي سلكه فرويد سلكه فرويد وحده. فبعد أن فارقه بروير، انفصل عنه الفرد أدلر في سنة ١٩١١، ثم قلهم اشتكل Wilhelm Stekel في سنة ١٩١٢، ثم كارل يونج في سنة ١٩١٤، ثم أوتورانك Otto Rank في سنة ١٩٢٤.

ولا احتل النازي النمسا في مارس سنة ١٩٣٨ ارتحل فرويد إلى لندن، حيث توفي في السنة التالية في ٢٣ سبتمبر



## Gottlob Frege

رياضي ومنطقي ألماني. ولد في قسمار Wismar في ٨ نوفمبر سنة ١٨٤٨، وتوفي في بادكلين Bad Kleinen (في إقليم مكلنبورج) في ٢٦ يوليو سنة ١٩٢٥ وكان أستاذاً مساعداً في بينا منذ سنة ١٨٩٦. وبعد من كبار مؤسسي المنطق الرياضي. وقد أسهم في منطق الرياضيات، ابتغاء وضع نظرية في الاستدلال الخالي من كل عنصر عياني. ولهذا سعى إلى استنباط المعاني (المفاهيمات) الرياضية من المعاني المنطقية واستمدادها من المنطق العام.

ذلك أنه وجد أن من الضروري إحكام التعريفات في الرياضة، وهذا لا يتم إلا بتخليصها من الاشتراك اللفظي المقترن باللغة العادية. ولهذا عني بالمنطق الصوري وسعى إلى إيجاد كتابة خاصة تجنبنا لشبهات اللغة العادية. لكن الرموز التي وضعها كانت من التعقيد بحيث اطرحنا فيها بعدد، وحل محلها تلك التي اقترحها بيانو ورسل وهوايتهد.

وفي كتابه «أسس الحساب» حاول أن يبين أن الحساب يمكن أن يُعد فرعاً من المنطق وأنه ليس في حاجة إلى التجربة كما زعم بل، ولا إلى العيان كما ذهب إلى ذلك أمانويل كنت.

## مؤلفاته

- Begriffsschrift, Halle, 1879; neue Aufl., Begriffsschrift und andere Aufsätze, Hildesheim, 1964.
- Die Grundlagen der Arithmetik, eine logisch-mathematische Untersuchung über den Begriff der Zahl. Breslau, 1884 (2. Aufl. 1934; neue Aufl. Hildesheim, 1961).

- «أسس الحساب: بحث منطقي رياضي في تصور العدد»
- Grundgesetze der Arithmetik, begriffsschriftlich abgeleitet, 2 vols, Jena, 1893-1903 (neue Aufl. 1 vol., Hildesheim 1962)
- «القوانين الأساسية للحساب، مستنبطة بالكتابة التصويرية»
- Kleine Schriften, hrg. von I. Angelelli, Darmstadt, 1967.

يشتمل على مجموع مقالاته في المنطق والرياضة.

## مراجع

- J.D.B. Walker: A Study of Frege. Oxford, 1965.
- Ch. Thiel: Sinn und Bedeutung in der Logik Frege's Meisen- Heim Glan, 1965.
- I. Angelelli: Studies on G. Frege. Dordrecht, 1967.

## فريس

## Jakob Friedrich Fries

فيلسوف ألماني من أنصار نقدية كنت ضد مثالية فشته وشلنج وهيجل.

ولد في باربي Barby (إقليم سكسونيا في ألمانيا) في ١٧٧٣/٨/٢٣، وتعلم في الأكاديمية المورافية في نيسكي، مما جعله يتأثر بنزعة التقوى التي نلدى بها الإخوة المورافيون، وعني خصوصاً بالرياضيات، والعلوم الطبيعية، كما درس فلسفة كنت بحسب تفسير رينهولد لها. وفي سنة ١٧٩٥ سافر إلى ليبتيغ حيث درس على يدي أرنت بلتزر Plattner. وتابع، منذ سنة ١٧٩٧ دراساته للرياضيات والفيزياء في بينا، حيث حضر أيضاً محاضرات فشته، وقد قال عن نفسه: «كنت أستمع إلى محاضرات فشته، وأكتب مذكرات، ثم أهرع إلى البيت وأكتب ردوداً عليها». وهذه الردود قد أدمجت في كتاباته التي هاجم فيها مثالية فشته وشلنج وهيجل.

وبعد اتمام دراسته في بينا، صار مدرساً لأولاد في سويسره؛ ثم عاد إلى بينا في سنة ١٨٠١ حيث عين مدرساً في جامعته، وحصل على الدكتوراه المؤهلة للتدريس برسالة عن العيان العقلي. واستطارت شهرته لما أصدر في سنة ١٨٠٣ (في ليشيج) رسالة هجومية بعنوان: «رينهولد وفشته وشلنج». وانتقل إلى هيدلبرج أستاذاً للفلسفة والرياضيات في سنة ١٨٠٥؛ وفي نفس السنة أصدر كتابه «العلم والإيمان والتنبؤ» (بينما سنة ١٨٠٥) وهو عرض سهل لمذهبه في الواقع. وفي العامين التاليين ١٨٠٦ - ١٨٠٧ أصدر مؤلفه الرئيسي بعنوان: «نقد جديد للعقل» في ثلاثة أجزاء، وفيه حاول تصحيح نقد كنت للعقلين النظري والعملي، وعرض فيه برنامجاً للاستبطان الفسائي.

ثم عاد في سنة ١٨١٦ أستاذاً للفلسفة النظرية في

المتعالي للمعرفة إلى بحث نفسي، إلى عملية استبطان ذاتي نفسي. ذلك أنه وجد عدم اتفاق منطقي ودوراً فاسداً في محاولة كنت تحقيق المقولات وإثبات مبادئ الذهن بإحالتها إلى «إمكان التجربة». إذ لو كانت هذه مبادئ حقاً، فلا حاجة بها إلى برهان، وأي برهان يساق لن يكون كافياً. ويرى فريس أن كنت وقع فريسة دعوى قديمة للعقلية، هي أن كل شيء يمكن أن يبرهن عليه وكل الحقائق يمكن أن ترد إلى مبدأ واحد، هو عند كنت: فكرة التجربة الممكنة.

ولبلوغ المبادئ الميتافيزيقية لا بد من عملية استبطان ذاتي، لأن هذه المبادئ تكمن «غامضة ومستترة» في أعماق العقل البشري. وشبه هذا الاستبطان الذاتي في الميتافيزيقا بالتجريب في الفيزياء. ولهذا يرى فريس أن كنت أساء فهم وظيفة الفلسفة النقدية والأحكام الخاصة بها، لأنه بينا الحقائق التي تسعى الفلسفة النقدية إلى الكشف عنها هي غير تجريبية وهي ضرورية، فإن النقد نفسه تجريبي وقابل للخطأ.

ويميز فريس ثلاثة أنواع من البرهان:

- ١ - البرهان، أورد معرفة مباشرة إلى عيان (محض أو تجريبي)
- ٢ - الدليل، أورد معرفة مباشرة إلى معرفة أخرى مباشرة.
- ٣ - الاستنباط، أو القيام بتحليل ارتدادي يرجع بمعرفة معينة إلى أصلها في المعرفة الميتافيزيقية المباشرة.

وفي نظريته في الطبيعة هاجم تنازلات كنت للنزعة الغائية، وقال بوجود آلية محضة في أحداث الطبيعة، بل وفي أمور الحيلة والعلوم البيولوجية.

وفي دراساته النفسية مضى إلى البحث في الظواهر النفسية المرضية. وأكد التفرقة بين ما هو موروث وما هو مكتسب في أحوال النفس. وقرر وجود أسس فيسيولوجية للأمراض العقلية والنفسية.

ومن تلاميذه المباشرين ينبغي أن نذكر E.F. Apelt (١٨١٢ - ١٨٥٩) الذي دافع عن تفسير فريس النفسي لفلسفة كنت. وقد أصدر في سنة ١٨٤٧ مجلة دورية بعنوان: «أبحاث مدرسة فريس» استمرت عامين وكانت تهدف إلى نشر أبحاث في الفلسفة ذات نزعة علمية ونقدية. ثم قامت حركة إحياء لمذهب فريس قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة، قام بها ليونرد نلسون في جتنجن (← نلسون).

جامعة بينا. ونشر في سنة ١٨١٨ (في هيدلبرج) كتابه: «الأخلاق»، وفيه أكد الحرية الفردية والمسواة السياسية بوصفها نتيجتين ضروريتين لمذهب كنت في احترام الشخصية الإنسانية. وفي رسائله ومحاضراته في الاجتماعات الطلابية كان يدعو إلى قيام حكومة دستورية نيابية، ويهاجم النزعة المحافظة التي كانت تحتفظها الجماعات الطلابية السرية، كما كان يناهز بتوحيد ألمانيا. وبلغ هذا النشاط أوجه في احتفال فارتبورج Wartburg الذي أقيم في ١٨ أكتوبر سنة ١٨١٧، وكان مظاهرة سياسية قلم بها الطلاب الأحرار، وأحرقوا فيها الكتب «الرجعية» - فجر عليه هذا التصرف غضب الحكومتين النمساوية والبروسية، ودفع هيجل إلى السخرية منه ووصفه بأنه «زعيم جماعات السطحية والتفاهة»؛ وهاجم هيجل أيضاً الخطبة التي ألقاها فريس في ذلك الاحتفال فقال عنه انه «زبد التفكير الضحل». ولما انتصرت المعارضة المحافظة، وتسلمت على الملك كارل وأوجست، بدأت حركة قمع للأحرار، وكان فريس من ضحاياها، فأوقف عن عمله أستاذاً في جامعة بينا.

لكنه أعيد إلى منصبه هذا في سنة ١٨٢٤ وعاد أستاذاً للعلوم في سنة ١٨٢٤ والفلسفة في سنة ١٨٢٥ واستمر في منصبه حتى وفاته في بينا في ١٨٤٢/٨/١٠. وفي هذه الفترة ألف الكتب التالية: «فلسفة الطبيعة الرياضية» (هيدلبرج سنة ١٨٢٢)، «مذهب الميتافيزيقا» (هيدلبرج سنة ١٨٢٤) «متن مدرسي في الأنثروبولوجيا النفسية» (في مجلدين سنة ١٨٢٠، سنة ١٨٢١ في بينا)، و«تاريخ الفلسفة» (في جزئين، هله، سنة ١٨٣٧ - سنة ١٨٤٠).

### فلسفته

ميز فريس بين ثلاثة مواقف من الواقع هي: المعرفة، الإيمان، التنبؤ ahdung. إننا نعرف الأشياء كمظاهر تبدو للحسامية الإنسانية والفهم الإنساني. لكننا نؤمن بواقعية عالم من الفاعلين الأخلاقيين الحقيقيين الخاضعين لقوانين أخلاقية سرمدية. لكن ذهننا يدرك هذا العالم سلباً بوصفه تحديداً للعالم التجريبي، من خلال أفكار العقل. وعن طريق التنبؤ (أو الاستشعار) وهو شعور نزيه محض قريب من الشعور بالجميل والسامي نتحقق أن عالم المظاهر والعالم الواقعي الحقيقي ليسا عالمين منفصلين، بل هما عالم واحد، وأن الأول تجل للثاني - إنه اسقاط متناهٍ للامتاهي في المتناهي.

لكنه بعد أن سار هكذا في إثر كنت حول نقد كنت

وقد كان يمتلئ حياً عنيفاً للتفكير النظري وفي نفس الوقت يمتلئ شهوة عنيفة للعمل في مسرح العالم. فلو قارنا فشته بالمفكرين النظريين أمثال ديكارت واسينوزا وليبتس فإننا نجد فشته يمتاز بأنه كان مدفوعاً إلى جانب الدوافع النظرية بدوافع عملية حتى كان بطبعه أميل إلى العمل والنشاط العملي ولو قارناه بليبتس نجد أن حماسه كانت بالغة إلى حد لا يمكن تطبيق مبادئه على الواقع العملي، ذلك لأن مثاليته المتحمسة باعدت بينه وبين المهارة العملية المؤدية إلى النجاح في الحياة، فليبتس كان من الذكاء العملي المتلائم مع الظروف بحيث استطاع أن ينال مكانة ممتازة من الناحية السياسية إلى جانب مكانته الفلسفية. أما فشته فكان من التعلق بأهداب المثل العليا في السياسة والعمل بحيث لم يستطع أن يلائم بين السياسة والعمل ولذا لم يظفر بالمكانة التي كان يشدها.

قال فشته عن نفسه: «إنني لست من ذلك النوع من العلماء المحترفين. إنني لا أستطيع الاقتصار على التفكير فحسب بل أريد العمل». وهو حين تلقى مذهب كنت لم يتلقه كتلميذ يتلقاه من أستاذه معداً من قبل، عليه أن يكيف نفسه وفقاً له، بل تلقاه فتي امتلاً إيماناً بأن له رسالة وأن لديه القدرة على تحقيق هذه الرسالة.

### حياته

ولد فشته Johann Gottlieb Fichte في ١٩ مايو سنة ١٧٦٢ في قرية Ramenau من مقاطعة Oberlausitz. وكان أبوه وجده نساكاً للصوف كما كانت أمه ابنة تاجر في الصوف. وأمضى طفولته كما يمضيها أي طفل ألماني في قرية فتعلم القراءة والكتابة وساعد أباه في العمل في نول الصوف، وفي رعي بعض الحيوانات. ولكن نبوغ الطفل المبكر لفت الأنظار إليه وأطلق شهرته في القرية فالتفت إليه قسيس القرية واهتم بتوفير التعليم له. وابتداءً من هذه اللحظة بدأ فشته يستعد لتعليم عال فدرس في مدرسة «مايسن» ثم في مدرسة «شوليفورتا» عام ١٧٧٤. وفي هذه القرية كان يحيا حياة منعزلة لأن معهد الشوليفورتا كان أقرب ما يكون إلى المدارس الدينية. وأحس فشته بسوء المعاملة من زملائه ولم يستطع البقاء. فمكر في الهرب للتخلص من قيود هذه المدرسة الرهبانية. فهرب منها متجهاً إلى هيمبورج؛ ولكنه في الطريق فكر فيما فعل. فعاد من جديد بعد أن بدأ الهرب، وأفضى لمدير المدرسة بالدوافع التي دفعت به إلى الهرب. وسرعان ما انتظم في المدرسة وبدأت الحياة فيها تلائم نفسه.

### مؤلفاته

- System der Metaphysik, 1824.
- Philosophische Rechts Lehre und Kritik aller positiven Gesetzgebung, 1803; Neudruck, 1914.
- System der Philosophie als evidenten Wissenschaft, 1804.
- Wissen, Glauben und Ahndung, 1805; Neudruck, 1905.
- Neue oder anthropologische kritik der vernunft, 3 Bde, 1807
- System der Logik, 1811; Neudruck, 1914.
- Handbuch der psychischen Anthropologie, 2 Bde, 1820/21.
- Mathematische Naturphilosophie, 1822.
- Geschichte der Philosophie, 2 Bde, 1837- 40.
- Politik oder Philosophische Staatslehre, 1848.

### مراجع

- T. Elsenhans: Fries und Kant, 2 Bde, 1906.
- L. Nelson: J.F. Fries und seine jüngsten Kritiker, 1904.
- A. Kastil: Fries Lehre von der unmittelbaren Erkenntnis, 1912.
- G. Weiss: Fries' Lehre von der Ahndung, 1912.
- R. Otto: Die Kantisch- Friesesche Religionsphilosophie und ihre Anwendung auf die Theologie, 2 Aufl. 1921.
- M. Hasselbatt: J.F. Fries, seine Philosophie und seine Persönlichkeit, 1922.

### لشته

### Johann Gottlieb Fichte

#### فيلسوف مثالي ألماني

يمتاز فشته من كنت وسائر الفلاسفة المحدثين بأنه جمع بين النزعة النظرية الفكرية وبين النشاط العملي في الحياة.

من سبتمبر سنة ١٧٨٨م بدأ حياة التنقل والرحلات. فرحل إلى «زيورخ» في ١ سبتمبر سنة ١٧٨٨ ليكون مدرساً في أحد البيوت ثم ما لبث أن صادفته مشقات في هذه الوظيفة، فتركها واضطر إلى تغييرها. ولكنه استطاع في هذه الفترة القصيرة أن يعقد بعض الصلوات التي عوضت عما لقيه من المتاعب في عمله التعليمي هذا. ومن بين هؤلاء الذين اتصل بهم لاهوتي اللاتي هو أخيلس Achetis، كان هو الآخر معلماً خصوصياً في زيورخ، ثم شاعر سويسري هو Escher وأقاربه فشته من هذه الصلوات فائدة بالغة. غير أن أهم شخصية عرفها في زيورخ هي لاقتار Lavater المفكر اللاهوتي السويسري الشهير صديق جيته ومن أكبر الأعلام في ذلك العصر. فبدأت في هذه الجواء الروحية تتكون شخصية فشته، ولكنه غادر زيورخ في مارس سنة ١٧٩٠ وانتقل منها إلى ليطسك حيث أقام بها علماً. عاد فشته إلى ليطسك في ربيع سنة ١٧٩٠م ورأسه مليء بالأفكار والموضوعات المتصلة بمسيره. وهذه السنة، سنة ١٧٩٠، كانت حاسمة في تطوره الروحي: فقد بدأ يشعر بنقص في تكوينه الفكري، وبدأ يشعر في الوقت نفسه بقواه الروحية وبالأتجاه الحقيقي لتفكيره، وبدأ يفحص عن نفسه ووجد أن اتجاهه الحقيقي إلى الفلسفة. وبعد أن كانت علوم البلاغة تستحوذ على نفسه، خصوصاً وقد عرف منذ الصغر بملكة في الخطابة خارقة، سرعان ما أدرك خلو الخطابة من مضمون فلسفي يملؤها.

ما هي الفلسفة التي بدأ يتأثر بها؟ إنها الفلسفة الكنتية التي بدأت تسيطر على نفس فشته في النصف الثاني من عام سنة ١٧٩٠. كتب إلى صديق له في زيورخ يقول: ولقد وجدت الآن الراحة والمتعة لنفسي، ووجدت الطريق الحقيقي الذي ينبغي علي أن أسلكه. لقد أسلمت نفسي كلها لدراسة فلسفة كنت، إنها فلسفة من شأنها أن تروض ملكة الخيال وتكبح جنوح الخيال عندي. إنها تعطي الأهمية للعقل وترفع الروح كلها فوق كل الشؤون الأرضية؛ لقد اتخذت أخلاقاً نبيلة بدلاً من أن أتعلق بأمر خارجة عن نفسي، فأصبحت أعني أولاً بذاتي، وهذا هو الذي أعطاني الراحة، راحة لم أشعر بمثلها من قبل؛ لقد انقضى العهد الذي كانت فيه ذاتي مترنحة تحت ظروف الأيام، وسأكرس لهذه الفلسفة (فلسفة كنت) بضع سنوات مقبلة من عمري على الأقل. وكل ما سأكتبه، لعدة سنوات، سيكون متعلقاً بهذه الفلسفة. إنها فلسفة صعبة فوق كل تصور، وتحتاج إلى من يسرها.

وكانت سنة ست عشرة سنة حينما بدأ السنج يكتب مقالاته ضد جيته الراعي في همبورج فوقعت هذه الأبحاث بين يدي فشته وهو في مدرسة شوليفورتا، فكان لها تأثير بالغ في التطور الروحي لفشته. ثم بدأ يهتم بالمناقشات التي كانت تدور والمساجلات التي كانت تثور بين كبار المفكرين في ذلك العصر. ثم تراسى إلى مسمعه شيء من أخبار فلسفة كنت فبدأ يهتم بها. وفي خريف سنة ١٧٨٠م انتهى فشته من دراسته الثانوية وبدأ دراسته الجامعية في جامعة جينا Jena ابتغاء دراسة اللاهوت. ولا ندري الكثير عما تم خلال السنوات التالية الثمان، وكل ما نعلمه أنه درس اللاهوت على يدي Griesbach كما درس الفيلولوجيا على يد شولتس Schultz؛ واستمع إلى محاضرات عن أسخيلوس الشاعر المسرحي المشهور. ثم انتقل إلى جامعة ليطسك وتابع دراساته هناك وتأثر خصوصاً بالمحاضرات التي ألقاها في اللاهوت Pezold وإن كانت هذه المحاضرات ذات نزعة جبرية واضحة. وبذلك ابتدأت دراساته الفلسفية الصحيحة، وقد قال له أحد القسوس الذين أفضى إليهم فشته بأرائه إنه على الطريق بأن يصبح إسبينوزياً. فعليه أن يدرس ميتافيزيقا «ولف» Wolf كعقار مضاد للسم الذي دخل فيه من النزعة الإسبينوزية. وبهذا بدأ الاهتمام بذهب «ولف» ودراسته بعناية.

والذي دعا ذلك القسيس أن يظن في فشته نوازع إسبينوزية هو أن فشته كان يتزع نزعة جبرية إذ كان ينكر في ذلك الوقت حرية الإرادة. والواقع أن رسائل فشته في تلك الفترة تدل على أنه كان يؤمن بنوع من الجبرية، وأن هذا المذهب يتهويه؛ ولكن هذه الجبرية لا تدل على أنه كان إسبينوزياً. وفضلاً عن ذلك فإن بضاعته الفلسفية، في ذلك العهد، كانت من الضالة بحيث لا يمكن أن نعلمه ذا نزعة واضحة في أية ناحية. أما من الناحية الخارجية فقد أحس في هذه الفترة بمرارة الفقر مرارة بالغة، وقد كان بلا عون وسند محروماً من كل الموارد المالية التي تهيم لأمثاله العيشة السهلة، فلم يكن يستطيع شراء الكتب؛ ولهذا كانت تنقصه المراجع والفترة على إكمال دراسته في الموضوعات التي تهيم.

#### مرحلة التنقل

ولقد بدأ حياته العملية بأن كان مدرساً خصوصياً سنة ١٧٨٤ في أماكن كثيرة من إقليم «سكس». ولا ندري بالدقة المواضيع التي قام فيها بمهته هذه المملة الثقيلة ولكنه ابتداء

سنة ١٧٩١ إلى مغادرة وارسو. وكان يهدف من هذه الرحلة حينها غادر وارسو أن يزور كونجسبرج Königsberg، ليعرف شخصياً ذلك الرجل الذي يدين له بتغيير حياته تغييراً شاملاً. فوصل إلى كونجسبرج في أول يوليو، وزار كنت في ٤ يوليو. وكان كنت في ذلك الحين في أوج شهرته وفي آخريات عمره، يقد إليه الناس من جميع أنحاء العالم ولكنه مع ذلك استقبل هذا الشاب المغرور دون مراسم، مما أثر في نفسه بعض التأثير. وحضر محاضرات كنت، فشعر بخيبة أمل لأنه وجد محاضراته مدعاة إلى النعاس.

ولكن فشته استطاع بفضل هذه المقابلة أن يعرف الطريق، الذي يجب أن يبدأ بالسلوك فيه. لقد دله كنت على مذهبه الأخلاقي وعلى أهمية العقل العملي بالنسبة إلى الحقائق الدينية، لأنه عن طريق هذا العقل العملي يمكن إثبات العقائد الدينية، فكان لهذا أثر في توجيه فشته في هذا الاتجاه خصوصاً ويجب أن لا ننسى أن تكوينه حتى الآن كان تكويناً دينياً.

ولقد كان على فشته أن يطبق نتائج الفلسفة النقدية على علم اللاهوت وعلى الوحي الديني وكانت فكرة الوحي لم تشغل بال كنت حتى ذلك الحين ولم يكن مذهب كنت في الدين قد ظهر، وإن كان مشغولاً في ذلك الوقت بهذه المسألة، وكان العالم ينتظر رأيه في الدين بصبر نافذ. فوجد فشته في هذا الموضوع ما يوجه اهتمامه إلى هذه الناحية، إذ كان يستطيع فيها أن يبين أنه استطاع أن يفهم روح فلسفة كنت، وأن يسلك سبيله قديماً على الدرب الذي اختطه كنت بفلسفته النقدية. فاستقر عزمه على أن يقيم موقفاً في كونجسبرج. وفي خلال أربعة أسابيع استطاع أن يكتب بحثاً عن «نقد الوحي» أرسله إلى كنت في ١٥ أغسطس سنة ١٧٩١. وقراءه كنت ونظر إلى هذا البحث على أسس أنه كتب بروح الفلسفة الكنتية. ولكنه رأى فيه طريقة في الكتابة أدهشته. فاهتم بهذا الفتى اهتماماً بالغاً ودعاه إلى أن يحضر مجلسه الخاص. وكتب فشته في يومياته عن هذه الفترة يقول: «الآن، والآن فقط تعرفت في كنت القسمة التي تجعل من كنت ذلك الفيلسوف العظيم». وبدأ يتعرف أصدقاء كنت، وذاعت شهرته بينهم. خصوصاً وقد تعرف إلى أول شارح لنقد كنت وهو Borowski ولكن ضيق ذات يده اضطره إلى أن يترك كونجسبرج.

وبدأ التنقل من جديد فانتقل إلى «كركوف» حيث استأنف حياة التدريس الخاص. غادر «كونجسبرج» في ٢٦

ويردد فشته برسائله في ذلك العهد هذا المعنى مراراً، ويبين التأثير العجيب الذي أحدثته فلسفة كنت في نفسه. إنه جامع الخيال، فما أحوجه إلى هذه الفلسفة القادة الكابحة التي هي فلسفة كنت! ولم تكن دراسة فشته للمذهب كنت مجرد تحول في حياته، بل كانت في نفس الوقت اعتناقاً للمذهب فلسفي. فقد تغيرت تصوراتها تغيراً جذرياً، ومشكلة الحرية قد وجدت الحل وأصبح يؤمن إيماناً جازماً بإمكان الحرية بعد أن كان ينكرها في العهد الأول تحت تأثير النزعة الجبرية التي استولت على نفسه. وفي رسائله إلى أصدقائه في ذلك العهد ومنهم «أخيلس» يعبر عن الثورة الحاسمة التي انتابت أفكاره وتصوراته، وعن تخلصه من النزعة الجبرية. قال:

«لقد أتيت من زيورخ إلى ليتسك برأس حافل بالمشروعات. وكلها أخفقت وتطائرت مثل فقاعات الصابون، ولم يبق في رأسي شيء. وألقيت بنفسي في الفلسفة وكان ذلك في فلسفتي الكنتية. وهنا وجدت الدواء لمصدر العلة عندي، وشعرت بلذة بالغة. وما أعمق الأثر الذي أحدثته هذه الفلسفة وخصوصاً الجانب الأخلاقي منها، وهو جانب يظل مع ذلك غير مفهوم دون دراسة نقد العقل المجرد!»

«والثورة التي أحدثتها في كيائي وفي طريقي في التفكير، كل هذا أمر يتجاوز كل تعبير». وكتب إلى Weissshulm يقول: «إني أعيش في عالم جديد منذ أن قرأت نقد العقل العملي. إن الأمور التي كانت تبدو لي غير قابلة للإنكار قد أصبحت الآن منكرة، والأمور التي كنت أؤمن بها قد بدت لي أنها كانت بغير دليل، بينما اتضح لي المعاني الكبرى مثل: معنى الحرية المطلقة، والواجب... إلخ».

وكل هذا قد أشاع اليهجة في نفسي، وما أروع ما في هذا المذهب من احتفال بمعنى الإنسانية! وما أعظم قوة هذا المذهب! وكانت أولى ثمار هذه العناية بفلسفة كنت أن بدأ في وضع شرح لكتاب «نقد العقل» كتيبه في شتاء سنة ١٧٩٠ / سنة ١٧٩١م وكان عليه أن يظهر في أبريل عام سنة ١٧٩١م مما سبقت الانتباه إليه ككتاب في الأمور الفلسفية قبل أن يعود إلى زيورخ، ولكن لم يتيسر نشره في ذلك الموعد، واضطر من أجل هذا إلى أن يؤجل عودته إلى زيورخ لمدة طويلة. واضطر إلى اتخاذ مهنة مدرس خصوصي مرة أخرى في مدينة «وارسو»، ولكنه لم يستمر في هذه الوظيفة لمدة طويلة. فبعد أن غادر ليتسك ووصل إلى وارسو في مايو اضطر في ٢٥ يونيو

التأج الدعوية. وأخذ فشته مكان الصدارة بين الكتاب. وكان بطبعه الحماسي الخطابي ذا ميل إلى التفكير السياسي، فبدأ يكتب مقالات من أجل تصحيح أحكام الجمهور المتعلقة بالثورة الفرنسية. وطالب أمراء أوروبا بالسماح لحرية الفكر بعد أن ضغظوا على هذه الحرية فحرموا الناس من التفكير الحر. وأصدر كتبين في هذا الموضوع ظهرا غفلين من اسمه وسيكون لها فيما بعد أثرهما في تفكير فشته السياسي. وفي نفس الوقت كانت تنضج أفكاره الفلسفية. وكان مشغولا بنظريته في العلم؛ تلك النظرية التي رأى أنها الصورة الوحيدة التي يمكن أن تستخرج من الفلسفة التقليدية. وفي شتاء سنة ١٧٩٣-١٧٩٤م ألقى أول محاضراته في زيورخ عن هذا الموضوع أي «نظرية العلم كما ينبغي أن تستنبط من فلسفة كنت النقدية» ألقاها أمام جمهور كبير كان من بينهم الكاتب الكبير Lavater. وقد كتب إليه في إبريل سنة ١٧٩٤م رسالة يمجدها فيها هذه المحاضرة؛ ويصف فشته بأنه ألمع مفكر عرفه حتى الآن. وبهذا انتهت إقامته في سويسرا، وانتهى ما يمكن أن يسمى عهد التنقل في حياته.

#### مرحلة الأستاذية

وبدأت المرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة الأستاذية. ذلك أنه حينما دعى رينهولد Reinhold إلى شغل كرسي الأستاذية في جامعة كيل Kiel خلا كرسي الأستاذية في Jena واتجهت الأنظار إلى فشته لشغل هذا المنصب على أساس أن سلفه كان كتباً فينفي منح هذا الكرسي لكنني آخر. فاقترح المشرع Hufeland تعيين فشته لكرسي الفلسفة في جامعة «ينا» واهتم بهذا الاقتراح الشاعر العظيم «جيت» وحمل جيته أمير فايمار على إسناد هذا الكرسي إلى «فشته».

ومن هنا بدأ التدريس في الجامعة ابتداء من شهر مايو سنة ١٧٩٤ وفي هذا المنصب بدأ يلقي محاضراته مهتما كل الاهتمام بفلسفة كنت. ولكنه استطاع أن يعطيها طابعه الخاص، فكانت دورسه الأولى عن فكرة نظرية العلم، ودورسه الثانية عن أساس نظرية العلم الشاملة. وفي نفس الوقت كان يلقي محاضرات متنوعة في الأخلاق وفي نظرية العلم. وظفر عن طريق هذه المحاضرات بمكانة علمية رفيعة في جميع الأوساط العلمية في ذلك الوقت. وفي تلك الفترة بدأ يكتب مؤلفاته الأولى التي وضع بها الأساس لنظرية العلم. فالمؤلفات التي كتبها في سنة ١٧٩٤ كانت الأساس في نظرية العلم أما السنوات ما بين ١٧٩٦-١٧٩٨ فقد أقام فيها نظرية

سبتمبر سنة ١٧٩١ متجها إلى كركوف ومن هنا بدأ يكتب أولى مؤلفاته ذات الشهرة؛ فكتب كتابا بعنوان «محاولة لتقد كل وحي» وظهر هذا الكتاب في إبريل سنة ١٧٩٢م. ومن المصادفة العجيبة أن اسم المؤلف لم يظهر على صفحة العنوان! لكن هذا الكتاب أثار هياجاً شديداً في جميع الأوساط في Jena: وكان الناس كما قلنا يتظنون ظهور كتاب كنت عن الدين. فبدأ لهم والمؤلف يصرح بذلك. أن هذا الكتاب محاولة لتقد كل وحي وقد كتب بروح كنت. فخيّل إلى الناس. وقد ظهر هذا الكتاب دون اسم المؤلف. أن مؤلف هذا الكتاب لا يمكن إلا أن يكون كنت نفسه. وكل الذين كتبوا عنه في ذلك الحين أكلوا هذا بكل ثقة ومجدوا الكتاب تمجيداً بالغا تحت وهم أن الكتاب لكنت. ولكن كنت اضطر إلى أن يصدر تصريحاً رسمياً يعلن فيه أنه ليس مؤلف هذا الكتاب، وظهر تصريحه في ٣ يوليو سنة ١٧٩٣ وأعلن في هذا البيان أيضاً أن مؤلف هذا الكتاب هو فشته.

وهذا اشتهر فشته. ولكن يمكن القول، تبريراً لإمكان وقوع الخلل، هو أن هذا الكتاب ألف فعلا بروح كنت. وقد كان لهذا الكتاب أثر بالغ، وأحدث دويماً في مختلف الأوساط فلم تمض سنة واحدة حتى طبع مرة أخرى وبدأ الجمهور يؤيده. والمهم أن فشته بدأ يشعر بمكانته، وبأن صفحة جديدة من حياته قد بدأت، وبأن قواه الفكرية في المستوى العالي الذي يضارع مستوى كنت.

ثم رحل فشته من «كركوف» وعاد إلى سويسرا فوصل إليها سنة ١٧٩٣. وفي صيف تلك السنة، وفي الشتاء التالي تجمعت في نفسه كثير من المشروعات العلمية. وفي نفس الوقت امتلأت نفسه حماسة لما كان يضع به العالم في ذلك الحين من المثل العليا السياسية التي أطلقتها الثورة الفرنسية. وفي تلك السنة، سنة ١٧٩٣م، كان النضال على أشده بين القائمين بالثورة الفرنسية. وفي نفس الوقت كانت بروسيا مشغولة بالمراسيم الدينية التي أثارت ضجة سياسية، وانتشر مد الثورة الفرنسية في ألمانيا وبدأ الشباب يتحمس لها. وفي هذه الفترة اشتعلت حماسة هيغل وصديقه الشاعر هيلدرلن. لكن على إثر حركة الأرهاب التي أطاحت برؤوس الكثيرين، وعلى رأسهم زعماء الثورة الفرنسية أنفسهم إذ قتل بعضهم بعضاً، بدأ المد ينحسر في سائر أنحاء العالم لما رأوا الأفكار السياسية قد تحولت إلى مجزرة دعوية. فأخذ الكتاب المتحمسون يعيدون النظر في هذه الثورة التي أدت إلى هذه



ألمانيا. ولعب فشته في هذه المعركة الوطنية دوراً خطيراً. فقد أحس بدوره في هذه المعركة ضد الغاصب الغازي، وهو نابليون. وبدأ يوجه خطاباً إلى الأمة الألمانية، خطباً أصبح فيما بعد من المؤلفات المشهورة جداً لفشته. واستمر في هذا الكفاح حتى انتصرت ألمانيا سنة ١٨١٣. ثم توفي فشته في ٢٧ يناير سنة ١٨١٤.

### مؤلفاته

بحسب الترتيب التاريخي لظهورها:

- ١- محاولة نقد كل وحى. ظهر في كونجسبرج، ١٧٩١؛
- ٢- مطالبة أمراء أوروبا بإقرار حرية الفكر، سنة ١٧٩٣؛
- ٣- تصحيح آراء الناس في الثورة الفرنسية، سنة ١٧٩٥؛
- ٤- نقد لكتاب «أنسيديموس» وهذا الكتاب في غاية الأهمية لأنه الأساس لمذهب العلم عند فشته، سنة ١٧٩٤؛
- ٥- فكرة مذهب العلم أو الفلسفة، سنة ١٧٩٤؛
- ٦- أساس مذهب العلم، سنة ١٧٩٤؛
- ٧- أساس خصائص مذهب العلم، سنة ١٧٩٥؛
- ٨- المدخل الأول إلى مذهب العلم، سنة ١٧٩٧؛
- ٩- المدخل الثاني إلى مذهب العلم، سنة ١٧٩٧؛ وقد وجهه إلى القراء الذين لديهم مذهب فلسفي من قبل؛
- ١٠- محاولة لعرض جديد لمذهب العلم، سنة ١٧٩٧؛
- ١١- أساس الحق الطبيعي وفقاً لمبادئ مذهب العلم، سنة ١٧٩٦؛
- ١٢- مذهب الأخلاق وفقاً لمبادئ مذهب العلم، سنة ١٧٩٨؛
- ١٣- في كرامة الإنسان، سنة ١٧٩٤؛
- ١٤- محاضرات في مصير العالم (يكسر اللام)، سنة ١٧٩٤؛
- ١٥- حول الأساس لاعتقادنا في حكم الله للعالم، سنة ١٧٩٨؛

القانون والأخلاق على أساس نظرية العلم التي وضعها من قبل. فتيقن للناس من هذه المؤلفات الأولى أن فشته هو خير خلف لكتنت. وسرعان ما أقر له بالفضل كثير من كبار العقول في ذلك العصر. وفريتهولده أصبح من أنصار نظرية العلم عند فشته. وشلنج بدأ طريقه الفلسفي نصيراً لنظرية العلم عند فشته. وقام فريدرش اشليجل FR.Schlegel بمجد مؤلفات فشته بوصفها من أعظم إنتاج القرن الثامن عشر؛ وعدها نظيراً للثورة الفرنسية في أهميتها. وبدأت للمجلات في Jena تجمل نفسها متبراً للدعوة لفلسفة فشته. وأصبح شغل الناس الشاغل في ذلك العهد أي في السنوات الست الأخيرة من القرن الثامن عشر، نظرية العلم عند فشته. لكن هذه الشهرة نفسها كانت السبب بلحلب خصومات لا تنتهي، كما هو طبيعي.

فلقي مذهب فشته الكثير من المعارضات، وولد العديد من العداوات الشخصية وغير الشخصية. ومن هنا قامت المشاكل والمنازعات بينه وبين سائر الكتاب والمفكرين. وكان كقولاً لها جميعاً، لأن مزاجه المناضل كان ولوعاً بالدخول في المساجلات والسير فيها حتى النهاية: ولم يكن يبدأ بالهجوم ولكن إذا هوجم فهو الليث عاديًا يسعى للقضاء على الخصم قضاء مبرماً. وقد بدأت هذه المساجلات في صورة خفيفة مع كاتب يدعى إيرهارد شميد Schmid ولكنها كانت مسجلة ناقهة إذ أن خصمه كان ضئيل القيمة، وما لبثت الخصومات الأشد والأهم أن بدأت.

لقد سبق أن اتهم فشته بنوع من الإلحاد، ولكن هذه التهمة ما لبثت أن تبددت. أما هذه المرة سنة ١٧٩٤ فقد تدخلت السلطات فعلاً ووجه الاتهام إليه بأنه يعمل على تقويض دعائم الشعائر الدينية واضطر، لما صدر الحكم ضده، لتبديد هذه التهمة إلى الخضوع كما قال للسلطة. فمرت هذه العاصفة، ولكن كان لها تأثير كبير في نفسه فيما بعد. ثم ثارت المشكلة الكبرى المسماة باسم مشكلة الإلحاد بعد ذلك بقليل وذلك في سنة ١٧٩٨. وبدأت النشرات الحالية من التوقيع تترى ضد فشته وصدر الحكم بإدانته. وعلى الرغم من استثنائه لهذا الحكم، فإنه لم يفلح في تبرئة نفسه على الرغم من تدخل كثير من الشخصيات الكبيرة المعاصرة لصالحه. فاضطر إلى مغادرة جينا Jena. وذهب بعد ذلك إلى برلين في ٣ يوليو سنة ١٧٩٩ ثم كانت الحرب بين بروسيا ونابليون، وبدأت الحركات الوطنية في بروسيا من أجل طرد نابليون من

Jena وتؤلف النواة التي نمت فيما بعد فكونت مذهب العلم، وتنتهي في سنة ١٧٩٩.

الثالثة: من سنة ١٧٩٩م حتى وفاته في سنة ١٨١٤: وفيها يتغير مذهب العلم تغيراً ظاهراً، وتقع هذه المرحلة في المدة التي قضاها في جامعات إيرلنجن وكونجسبرج ثم برلين. وواضح من هذا كله أن جوهر فلسفة فشته هو مذهب العلم. ولهذا سنكرس له الجزء الرئيسي من الحديث عن فلسفته.

### مذهب العلم عند فشته

قال فشته في مقدمة المدخل الأول لمذهب العلم في سنة ١٧٩٧:

«إن مؤلف مذهب العلم بعد معرفة سريعة بما كتب في الفلسفة بعد ظهور كتب كنت النقدية اقتنع اقتناعاً تليماً بأن الهدف الذي استحدثه هذا الرجل العظيم (كنت) لإحداث ثورة في أفكار العصر فيما يتصل بالفلسفة وكل العلوم قد أخفق إخفاقاً تليماً، وأنه لا واحد من خلفائه العديدين قد فهم شيئاً مما قصده كنت. ولكن مؤلف مذهب العلم يعتقد أنه عرفه، ولهذا عزم أن يكرس حياته لعرض الاكتشاف الذي قام به هذا المفكر كنت وسيفذل كل ما في وسعه في هذا السبيل». ويقول في موضع آخر:

«ولقد قلت مراراً وأكرر أن مذهبي ليس شيئاً آخر غير مذهب كنت أي أن مذهبي يعبر عن نفس وجهة النظر، وإن كان في سيره مستقلاً تمام الاستقلال عن عرض كنت لمذهبه. ولم أقل هذا لأتستر وراء شخصية كبيرة أو لكي أجد لمذهبي سنداً خارجة وإنما أقول هذا إقراراً للحق وإنصافاً للحقيقة».

ومن هذا يتبين أن فشته كان يؤمن ويقرر صراحة أن مذهب هو مذهب كنت، ولكن كما فهمه هو، وفهمه له هو الفهم الحقيقي الذي يتفق مع الهدف الأصلي الذي استهدفه كنت من فلسفته. وإذا كان قد تواضع وقال إن مذهب عرض جديد فقط لمذهب كنت، فإنه أراد أن يقول في نفس الوقت إن هذا العرض هو وحده الصحيح لمذهب كنت. أي أنه هو الذي فهم المغزى الوحيد الذي قصده كنت من وراء الفلسفة. وكنت لم يعرض إلا خطوطها الأولية أما فشته فهو الذي سيعرضها عرضاً تليماً. ولكن هل هذا صحيح؟ أي هل مذهب فشته هو مجرد عرض واضح صريح لحقيقة مذهب كنت؟

١٦- في مصير الإنسان، سنة ١٨٠٠

١٧- تقرير واضح وضوح الشمس إلى الجمهور حول حقيقة الفلسفة الجديدة، سنة ١٨٠١؛

١٨- ملامح العصر الحاضر، سنة ١٨٠٦؛

١٩- التنبه على الحياة السعيدة؛ وهي محاضرات ألقاها في برلين سنة ١٨٠٦.

٢٠- خطب موجهة إلى الأمة الألمانية، سنة ١٨٠٨.

ثم محاضرات عديدة تتعلق بمذهب العلم نذكر منها:

٢١- عرض لمذهب العلم، سنة ١٨٠١؛

٢٢- مذهب العلم: محاضرات ألقيت عام سنة ١٨٠٤.

٢٣- تقرير عن فكرة مذهب العلم، سنة ١٨٠٦.

٢٤- مذهب العلم بشكل إجمالي، سنة ١٨١٠.

٢٥- وقائع الشعور، محاضرات ألقيت في برلين في شتاء سنة ١٨١٠-سنة ١٨١١.

٢٦- مذهب العلم، محاضرات ألقيت سنة ١٨١٢.

٢٧- مذهب العلم، محاضرات ألقيت سنة ١٨١٣.

### مراحل تطور فشته الروحية:

تطور فشته الفلسفي يستغرق السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة في حياته منذ ابتداء دراسته لفلسفة كنت حتى محاضراته الأخيرة في مذهب العلم أي من سنة ١٧٩٠ حتى سنة ١٨١٣ ومن هذه الفترة أمضى قرابة تسع سنوات يحاضر في الجامعات، في جينا Jena من ربيع سنة ١٧٩٤ حتى ربيع سنة ١٧٩٩؛ وأمضى صيف سنة ١٨٠٥ في جامعة «إيرلنجن»؛ وفي شتاء سنة ١٨٠٦ إلى سنة ١٨٠٧ في كونجسبرج. وأمضى السنوات الباقية حتى وفاته في جامعة برلين، منذ إنشاء هذه الجامعة حتى وفاته. ونستطيع أن نميز في حياته ثلاث مراحل وفقاً لحياته الخارجية:

الأولى: تبدأ بدراسة فلسفة كنت، وتستمر حتى دعوته أستاذاً في جامعة Jena من سنة ١٧٩٠، سنة ١٧٩٤.

الثانية: تبدأ من سنة ١٧٩٤ وقد أمضاها في جامعة



العملية ، بين الطبيعة المحسوسة ، والحرية النوميائية<sup>(١)</sup> فإن هذا الفصل مرده إلى تصور عقلنا لا إلى حقيقة هذه المبادئ نفسها . لهذا قرر كنت في قرارة نفسه أن العقل واحد وليس ثنائياً والذي حمله على أن ينظر إلى العقل على أنه عقلان هو أن عقلنا قاصر لا يستطيع أن يدرك الوحدة القائمة بين العقل النظري والعقل العملي . وكنت في نقد الحكم بقرر وحدة الحرية والطبيعة ويتحدث عن الحرية التي تنشأ الطبيعة وتحقق نفسها عن طريق هذا الإنشاء . ومبدأ الغائية ليس مبدأ لتعيين الأشياء بل هو مبدأ للحكم المتعين أي هو مجرد وجهة نظر للحكم على الأشياء . ولكن وجهة النظر هذه تتفق مع ميل العقل بالطبيعة إلى أن يجعل نفسه في هوية مع المطلق . وهكذا نجد أنه ليس ثم تعارض جذري بين روح مذهب كنت وفلسفة فشته ولقد قال فشته : « إن المثالية النقدية التي هي الأساس في مذهب كنت ومذهبه يمكن أن تتخذ أحد منهجين : أ إما منهج كنت القائم على الارتداد التحليلي ؛ ب ) أو منهج فشته القائم على البناء التركيبي . وهكذا نجد أنه ليس ثمة تعارض أساسي بين منهجي كليهما .

وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذوا على مذهب فيشته أنه خيالي وديالكتيكي وعابث وأنه مجرد تلاعب بالتصورات يفترض مقدماً ما يريد تفسيره ، فإن فشته يرد على هذا بقوله : إن الاتفاق بين الفلسفة أو المثالية وبين التجربة والقول بأن الاستنباط القبلي الخالص يقدم نتائج هي معطيات تحققها فيها بعد الملاحظة البعدية . نقول : إن هذا الاتفاق الذي طالما سخر منه البعض ليس أمراً منافياً لما يجري عليه الواقع ، حتى لو اتخذنا الطريق الآخر ، أي طريق التحليل ، للارتداد منه إلى التركيب .

والسبب في عدم إدراك الناس لهذه الحقيقة ، أي إمكان الاستنباط من المبدأ للوصول إلى تقرير الحقيقة الواقعية ، هو جهلهم بحقيقة الفلسفة . ذلك لأن الفلسفة ليست علماً يدخل في ميدان الإدراك العام ، ولا هي علم مثل الرياضيات يمكن كل إنسان أن يتقن منها ، وإنما الفلسفة طريقة للنظر أخرى ، لو أدركنا الأشياء من خلالها لتبين لنا هذا الارتباط بين ما يفرض إليه الاستنباط القبلي ابتداءً من

بجمل إلينا بادي الرأي أنه لا شيء أبعد عن مذهب كنت من مذهب فشته . مما جعل كنت نفسه يصرح بأن مذهب فشته ليس من مذهبه ولا من روح مذهبه في شيء ، لأننا لو نظرنا نظرة خارجية إلى مذهب فشته لوجدناه تحدياً لروح كنت النقدية . إن مذهب فشته محاولة جريئة لإعادة تلك الميتافيزيقا التي سعى كنت طوال حياته إلى هدمها . فكيف نقول إذن إن فشته يمثل روح مذهب كنت؟! إن الخلاف بين كليهما من كل النواحي . فمن حيث نقطة الابتداء نجد فشته يؤكد وجود مبدأ واحد مطلق هو الأساس لمادة المعرفة وشكلها . ومن حيث سير المذهب نجد أن مذهب فشته يعتمد على الاستنباط القبلي . ومن حيث الغاية التي يمضي إليها نجد فشته ينتهي إلى العودة إلى هذا المبدأ الواحد المطلق . إن منهج فشته يقوم على أساس «ديالكتيكي» يدعي أنه يستطيع أن يبني العالم كله استنباطاً من مبدأ واحد مطلق . وعلى العكس من هذا نجد نقد كنت .

إن كنت يبدأ لا من مبدأ بل من معطيات واقعية للشعور ولئن كانت هذه المعطيات ليست تجريبية عرضية ، فإنها معطيات ضرورية كلية تؤلف الملك العام لكل أنواع الشعور . ثم يرتفع كنت من هذه المعطيات عن طريق التحليل إلى مبادئ تفسيرها . وتبعاً لذلك وما دام قد بدأ من المعطيات الكثيرة فإنه لا يستطيع أن يعرف مقدماً عدد وطبيعة هذه المبادئ : فربما كانت كثيرة وربما لم تكن مطلقاً . ولا يستطيع نقد كنت أن يؤكد قبلياً هل هذه المبادئ عديدة مستقلة أو يمكن ردها إلى الواحد؟ وهل هي نسبة أو يمكن الوصول إلى مبدأ مطلق؟ بل إن كنت ينتهي من تحليل هذه المعطيات الضرورية للشعور إلى القول باستحالة الصعود إلى مبدأ واحد مطلق للأشياء ، وينتهي إلى القول بضرورة التوقف عند عدد متكرر من المبادئ لا يمكن ردها إلى أبسط منها . وهكذا نجد أن نقطة الابتداء والسير والانتهاج تختلف في كل من مذهبي فشته وكنت .

لكن هذا الاختلاف ليس اختلافاً جوهرياً كما يبدو لأول وهلة ذلك أنه إذا صح أنه لا يوجد لمذهب كنت نقطة انتهاء واحدة ، وأن الكنتية تبدو أنها تنتهي إلى ثنائية لا يمكن ردها إلى الوحدة ، فإن هذه الثنائية نفسها في نظر كنت ليست إلا علامة من علامات نقص عقلنا ؛ ولكن عقلنا في جوهره ينبذ هذا الفصل بين وجهة النظر النظرية ووجهة النظر

(١) أي العلاقة بالشيء في ذاته Noumenale

المواقف التي إتخذها خلفاء كنت أنفسهم . إن هذا الموقف يتخذ نقطة إبتدائه من كنت ومجد سلفاً له عند رينهولد . وقد انتهى رينهولد إلى الاتفاق مع فشته في المرحلة الثانية من مراحل تطوره . كما نجد في موقف « أنسيداموس » موقف التشكك المعارض لمذهب كنت وفي موقف سالمون ميمون النصير التشكك للفلسفة النقدية . فكان ثمة موقفان : موقف رينهولد من ناحية وهو الذي تأدى برينهولد إلى فلسفة في المبدئي أو العناصر *Elementarphilosophie* ومن ناحية أخرى نجد موقف ميمون وأنسيداموس التشكك في قيمة الفلسفة النقدية .

ولقد كان دور رينهولد أن يحدد الواجب على كل شارح لكنت أن يقوم به على نحو إيجابي ، بينما كان موقف أنسيداموس وميمون أن يبينوا الموقف السلبي الذي يمكن أن يتخذ بإزاء نقد كنت . ومن هنا كان من الممكن أن يتعلم الإنسان من أنسيداموس وميمون ما هو الاتجاه الذي ينبغي على الفلسفة النقدية أن تتخذه . وهذا أمكن فشته أن يحدد موقفه سلبياً عن طريق أنسيداموس وميمون وإيجابياً عن طريق رينهولد . وكان لا بد ، تبعاً لهذا ، من تنفيذ موقف أنسيداموس من أجل إمكان الاستمرار في الفلسفة النقدية . وبعد هذا يمكن وضع الفلسفة النقدية على أساس سليم . وهذا ما فعله فشته سلبياً بالهجوم على أنسيداموس ، وإيجابياً بوضع مذهب العلم :

العلم كمذهب : نظر كنت إلى الفلسفة على أساس أن واجبها هو الوصول إلى كل محكم الأجزاء لا يقبل أي ثغرات ، ولا أية زعزعة . ومن أجل بيان مهمة الفلسفة كتب رسالة عنونها : « حول فكرة مذهب العلم أو الفلسفة » فإذا كان على الفلسفة أن تصبح علماً يقينياً لا يقبل الجدل والمعارضة فينبغي عليها أن تحمل كل ألوان التناقض والتعارض بين المذاهب الفلسفية . أما التعارض بين المذاهب « الدوجماتيكية » فقد حلتها الفلسفة النقدية ؛ ولكن التعارض بين المذهب النقدي والمذهب « الدوجماتيكي » فإنه لم يحل حتى الآن فلا بد من البحث عن مذهب يستطيع أن يحل التعارض بين المذهب التوكيدي « الدوجماتيكي » وبين المذهب النقدي . ولم يتم أحد بهذه المهمة بعد - هكذا يقول فشته ؛ فالأعمال التي تمت حتى الآن عرضية موقوتة . وكنت العبقري ، ورينهولد المنظم ، وميمون « الفائق » هم الأسلاف المهتمون على هذا الطريق . فلتساءل أولاً : كيف

مبدأ وما يشاهد في واقع التجربة . ومذهب العلم يريد به فشته أن يؤلف العناصر الضرورية للتجربة دون أن يحسب حساباً لمحتوى التجربة نفسها . إنه يسعى إلى الكشف عن المبدأ الذي هو الأساس في التجربة . فإذا ما كشف عن هذا المبدأ استطاع ابتداءً منه أن يبين محتوى التجربة ، وأن يستنبطه كله بطريقة قبليّة . ومنهج فشته يقتضي وجود مذهب كلي كامل مقفل في داخل العقل ، ابتداءً منه يستطيع أن يستتج كل العناصر المكونة للعالم ، وبدون هذا المذهب القائم في العقل لن تصبح المعرفة الفلسفية الحقيقية كلية ، بل تصبح المعرفة في نسيئة إلى غير نهاية ، ولن تبلغ اليقين أبداً . كذلك ستتهي بدون هذا المذهب الواحد القائم - ستتهي إلى مذاهب متعددة مغلق بعضها على بعض ، وتؤدي إلى معارف جزئية لن تكون تلك المعرفة الكلية التي فيها التضمير الكلي للكون ، أعني الفلسفة ، لأن الفلسفة هي التضمير الكلي للكون . وفكرة معقولة الأشياء لا تفصل عن فكرة وحدة الأشياء . فرد الاختلاف والكثرة إلى الوحدة المطلقة هو الذي يجعل الأشياء معقولة . ولا بد أن نبين اعتماد الأشياء وتوقفها بعضها على بعض حتى تكون معقولة فالمعقولة لا يمكن أن تنتج إلا نتيجة لتوقف الأشياء بعضها على بعض ، أي بوحدها وترابطها وتسلسلها .

#### بداية مذهب فشته

موقف فشته من أ - رينهولد : ب - وأنسيداموس : ج - وميمون

لقد اهتم فشته بمعالجة موضوعات ثلاثة هي التي تكون سير مذهبه الفلسفي . أما الموضوعان الأولان فهما : الايمان الوضعي في الدين ، والحق الوضعي في الدولة . والموضوع الثالث هو المعرفة الوضعية أو التجريبية . وهذا الموضوع الثالث هو الأساس في الفلسفة النقدية ، ويقصد به تفسير وتأسيس العلم : أي كيف تفسر إمكان العلم وكيف نقيمه على أساس حقيقي ، لأن الفلسفة النقدية هي امتحان لقوى العقل ، من أجل معرفة طاقة العقل على الإدراك ومدى الصحة واليقين في تقديرات العقل . ولهذا كان الهدف الأساسي لمذهب كنت ومذهب خلفائه تأسيس المعرفة الكلية ابتداءً من مبدأ واحد أحد .

والموقف الذي إتخذه فشته في هذا الموضوع لم يكن هو وحده صاحبه في ذلك العهد . بل أدت إليه كما رأينا من قبل

الأول : المبدأ الأساسي ، وهو الذي يتوقف عليه سائر المبادئ ، ومن يقينه يستمد يقين سائر المبادئ ، ويفضله نحكم سائر المبادئ .

الثاني : مذهب العلم أي ارتباط المبادئ بعضها ببعض ارتباطاً ضرورياً محكماً يقينياً يستمد ارتباطه وإحكامه ويقينه من يقين المبدأ الأساسي . ويمكن التعبير إذن عن هذين السؤالين الأساسيين بعبارة أخرى مثل : كيف يمكن قيام المحتوى والشكل للعلم ؟ وحل هذا السؤال علم هو الآخر ، إنه العلم الذي يبين إمكان العلم ، وعبارة أخرى ، إنه العلم بالعلم بوجه عام ؛ وفي كلمة واحدة : إنه مذهب العلم . وعلى هذا فإن مذهب العلم عند فشته هو العلم الباحث في إمكان العلم بوجه عام ، ويدون مذهب العلم لن تقوم الفلسفة بوصفها علماً واضحاً بيناً . ومهمة مذهب العلم تأسيس المعرفة وفقاً للمحتوى وللشكل ، أي تأسيس كل العلوم المحدودة التي يؤلف كل منها كلاً متوقفاً على مبدأ أساسي . فلا واحد من هذه العلوم الجزئية قادر على أن يبرر مبدأه الأساسي ولا شكله المذهبي ، بل كلاهما يتسبب إلى الشروط السابقة والتي تحتها يقوم كل منها بحل مهمته ؛ أي أن لكل علم مذهباً ؛ ولكن هذا المذهب يتوقف على المبادئ السابقة . وهذه المبادئ السابقة تتوقف على مبدأ واحد أساسي هو الذي تستمد منه مذاهب العلوم الجزئية يقينها وقيامها . ومذهب العلم وظيفته تحديد هذه المبادئ السابقة التي تقتضيها هذه العلوم الجزئية . فمذهب العلم عليه أن يبرهن على الشروط التي تعتمد عليها سائر العلوم من حيث الشكل ومن حيث المحتوى دون أن تكون هذه العلوم الجزئية قادرة على البرهنة عليه ؛ وعبارة أرسطية : إن العلوم تستمد مبادئها من علوم أسبق منها ، والبحث في مبادئ هذه العلوم الجزئية لا يتم في داخل هذه العلوم الجزئية ، بل يتمسب إلى علوم أسبق منها . ولكن أرسطو لا يتحدث عن مبادئ العلوم بل عن موضوعاتها ، وعن كون هذه الموضوعات مبرهنات عليها في علوم أسبق منها . ولكن مذهب العلم علم هو الآخر ؛ ولهذا يحتاج أيضاً إلى محتوى وإلى شكل ؛ وإلى أن يكون له مبدأ أساسي وارتباط تنظيمي منهجي . ولكن هذا المبدأ الأساسي والشكل والمحتوى لمذهب العلم لا يستمد من الغير كما في سائر العلوم ؛ بل يجب أن يستمد من نفسه . وهذا هو الفارق بين مذهب العلم بوصفه علماً ، وبين سائر العلوم . فكيف يصل مذهب العلم

يمكن أن تكون الفلسفة علماً ؟ إن العلم أمر واحد ؛ العلم كلي . ولا يمكن أن يكون العلم محكماً بغير هذا الترابط بين القضايا التي تؤلف كلاً يقينياً ثابت اليقين . وإذا لم يكن أحد هذه المبادئ أو القضايا يقينياً ، فإن الكلي يصبح هو الآخر غير يقيني وبالتالي لن يكون ثمة ارتباط محكم بين مبادئ العلم ؛ وبالتالي لن يكون ثمة علم . ففكرة العلم تقتضي إذن أن يكون لكل المبادئ ارتباط محكم ، ويكون لها جميعاً نفس اليقين ؛ لأنه لو حدث عدم اتفلق بين يقين أحد المبادئ ويقين مبدأ آخر ، فإن ارتباط هذه المبادئ لن يكون كلاً ، أي لن يكون علماً .

إن طابع العلم هو اليقين الشامل المنظم في كل أجزائه . وتبعاً لهذا يقتضي العلم الارتباط المحكم الواحد بين جميع المبادئ والقضايا . وما دام الأمر كذلك فيقن المبدأ الواحد يتوقف عليه يقين سائر المبادئ ؛ فإن كانت قضية يقينية فإن سائر القضايا تكون يقينية ، ولن تكون يقينية إلا بهذا الارتباط المحكم بين جميع الأجزاء . وهذا المبدأ الذي يتوقف عليه يقين الباقي ينبغي إذن أن يكون واحداً ، لأنه لو كانت هذه المبادئ كثيرة فلن يبقى إذن طابع الارتباط الضروري أو طابع الكلية المحكمة قائماً . ولو لم يكن هذا المبدأ يقينياً لما أصبح شيء بعده يقينياً . وينبغي أن يكون هذا المبدأ الأول يقينياً قبل ارتباطه بالباقي ؛ لأن الباقي يستمد يقينه من هذا المبدأ الأول . فإن لم يكن يقينياً تمام اليقين لسرت في باقي المبادئ شائعة عدم اليقين . وهذا المبدأ الذي قلنا إن منه يستمد يقين سائر المبادئ والذي قلنا إنه يجب أن يكون يقيناً يسمى بالمبدأ الأساسي Grundsatz . ويدون هذا المبدأ الأساسي لن يكون ثمة علم ؛ ويدون وحدة المبدأ الأساسي الثابت اليقين فلن يكون هناك يقين في سائر المبادئ وبالتالي لن يكون ثمة علم ؛ لهذا ينبغي الإجابة عن السؤالين الآتين ابتغاء تأسيس العلم بوجه عام .

أولاً : كيف يقوم يقين المبدأ الأساسي ؟

ثانياً : كيف يتصل يقين المبدأ الأساسي إلى سائر المبادئ ؟

حقاً إن المبدأ الأساسي الذي يتوقف عليه سائر المبادئ هو المحتوى والداخلي للعلم ، والتسلسل الضروري لسائر المبادئ هو الارتباط أو المذهب أو الشكل الخاص بالمبادئ . وعلى هذا فنحن بإزاء فلسفة فشته أمام امرين رئيسيين :

عن طريق الشكل فحسب . أما سائر المبادئ بخلاف هذين المبدأين فتتحدد بالأول : إن من حيث الشكل ومن حيث المحتوى لهذا فإن توالي سائر المبادئ ونظام الكل يتوقف بأكمله على المبدأ الأساسي الأول المطلق وهذا النظام هو الشكل التنظيمي الذي يتحلل به مذهب العلم ، ويستمد لا من الخارج بل من نفسه . إن مذهب العلم يستمد من نفسه محتواه وشكله ، وهو بالتالي يتأسس بنفسه في نفسه ولا يتأسس لدى أي علم آخر ، بل سائر العلوم تتأسس في مذهب العلم . صحيح أن لكل منها مبادئها الخاصة ، ولكن هذه المبادئ الخاصة هي مبادئ لمذهب العلم أي أنها متضمنة في المبدأ الأساسي الأول ومؤسسة فيه . فهذا المبدأ الأساسي الأول ينبغي إذن أن يحمل محتوى كل العلوم في داخله ، وإذن فمحتواه هو المحتوى بمعنى الكلمة لو هو المحتوى المطلق للعلم بوجه عام .

واضح من هذا أنه ما دامت العلوم الأخرى تستمد مبادئها من مذهب العلم فهي متضمنة في مذهب العلم . وعلى هذا فإن مذهب العلم هو المحتوى حقاً وفعلاً ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وإذا لم يوجد مبدأ له هذه الصفة فإنه لن يوجد مذهب في العلم ، وبالتالي لن يوجد أساس ولا مذهب للعلم الإنساني . وبالجملة فإنه بدون هذا المبدأ الأساسي لا تقوم للعلم أية قائمة ، لأننا إذا افترضنا عدم إمكان وجود مثل هذا المبدأ في العلم فنحن بين إحدى خصلتين :

( أ ) إما أنه لا يوجد مبدأ مطلق أول واحد له يقين مباشر وعليه تتوقف سائر المبادئ - وبالتالي سيكون العلم سلسلة لا تنتهي ؛

( ب ) أو توجد مبادئ أساسية ، لا واحدة بل كثيرة لا ارتباط بينها ، أي توجد مبادئ أساسية منعزلة ، وفي هذه الحالة يتسلسل العلم في سلاسل عديدة لا نهاية لها ، متفصلة عن بعضها كل الانفصال . وإذا كانت السلسلة غير متناهية ، فاتها لا تكمل أبداً ، وتصبح بغير أساس ، وبالتالي تصبح غير يقينية ، لأن من الممكن في توالي السلسلة أن يوجد مبدأ يقضي على يقين كل المبادئ السابقة .

لقد تبين لأنصار كنت أن « نقده » يؤدي إلى كثير من سوء الفهم نظراً لأصالة فكرته وجدة اصطلاحاته ، على الرغم من حرص كنت البالغ على تحديد ألفاظه . فقد فهم

إلى مبدئه الأساسي وإلى منهجه ؟ وأين يقوم مبدؤه الأساسي ونظامه ؟؟

إن مذهب العلم - كما قلنا - لا يمكن أن يبرهن على مبدئه الأساسي بالاستناد إلى مبدأ آخر وإلا لم يكن مبدأً أساسياً ، لأن المبدأ الأساسي هو الذي لا يستمد قيمته من غيره بل من نفسه ، وكذلك لا يستمد مذهب العلم من علم أعلى منه ، وإلا لم يكن مذهباً في العلم . والنتيجة المنطقية لهاتين القضيتين هي : أن المبدأ الأساسي في مذهب العلم لا يقبل البرهنة ضرورية ، ولكنه مع ذلك يقيني كل اليقين ، ولا يمكن أن يستمد يقينه من مبدأ آخر بل يستمد يقينه من نفسه ؛ ويقينه ليس يقيناً غير مباشر ، أو بوسائل ؛ بل يقينه مباشر ، وبغير وسيط ، فكيف يتيسر هذا ؟ إن كل مبدأ يتحدد بواسطة محتواه [ الموضوع والمحمول ] وشكله أي الإرتباط أو الرابطة . فإذا كان المبدأ يتعين أن يكون يقينياً بنفسه ، فلا يمكن أن يتحدد محتواه أو شكله بواسطة مبدأ آخر ، بل ينبغي أن يكون يقينياً بنفسه . وهو المبدأ الأول المطلق وهو المبدأ الأساسي لمذهب العلم . ولو وجب أن يوجد مبادئ أخرى أساسية غير هذا المبدأ الأساسي ، فإن هذه المبادئ لن تكون أساسية بمعنى مطلق بل بمعنى نسبي . وكونها أساسية بمعنى نسبي أي أنها جزئياً تتحدد بالمبدأ الأساسي وجزئياً تستمد يقينها من نفسها .

والمبادئ الأساسية النسبية هي تلك المبادئ التي يتحدد فيها إما المحتوى وإما الشكل عن طريق المبدأ الأساسي ، وهذه المبادئ الأساسية النسبية لو كانت ممكنة لا يمكن أن تكون غير مبدأين . أحدهما يتعلق بالشكل والآخر يتعلق بالمضمون . ولهذا فإن مذهب العلم لا يمكن أن يكون له غير مبادئ ثلاثة رئيسية :

( أ ) مبدأ أساسي مطلق .

( ب و ج ) ميدانان نسبيا أولان أساسيان .

والمبدأ الأول الأساسي المطلق لا يمكن إلا أن يكون واحداً فحسب .

تعيين المبدأ الأساسي ووحده :

وعلى هذا المبدأ الأساسي الأول المطلق يتوقف سائر المبادئ ، ويتحدد تبعاً له الميدانان النسبيان التاليان له . وهذان كما قلنا يتحدد أحدهما عن طريق المحتوى ، والآخر

توكيد هذين الشكلين يتوقف على توكيد هذه الضرورة من قبل أما الالتجاء إلى التمييز بين العيان والتصور فلا يحل المسألة في شيء . فمن يفكر في ٣،٥ يفكر في الوقت نفسه في ٨ ولا حاجة به إلى عيان خاص .

كذلك نجد كنت ، في الحساسية المتعالية من « نقد العقل المحض » يقرر أن للكان والزمان شكلان للعيانات الخالصة الحسية ، مسنداً إلى قبلية هذه العيانات قبلية تستند بدورها إلى ضرورتها وكتلتها . فهنا أيضاً دور . إن نقد العقل يقول إن ضرورة المكان ناشئة عن كون الإدراك التجريبي لشيء خارج عنا يفترض إمكان امتثال المكان . لكن طالما كانت فكرة الامتثال والشكل الخاص بالامتثال البسيط غير محددتين وطالما لم نبرهن على أن المكان يجب أن يكون شكل امتثال الحس الخارجي فيما يتصل بامتثال الموضوعات الخارجية عنا ، فإن خصوم الفلسفة النقدية يقولون إنه لما كان امتثال المكان ضرورياً لامتثال الأشياء الخارجية ، فإن إمكان امتثال المكان في العقل يتحدد بهذه الأشياء نفسها التي تقع خارجاً عنا . وبعبارة أخرى . ضرورة المكان ناشئة عن الأشياء ، لا عن العقل .

ولا سبيل إلى حل هذه الصعوبات التي يحفل بها مذهب كنت إلا بالكشف عن مبدأ أساسي من شأنه أن يجلد بقية المذهب . ومذهب كنت النقلي يفترض اكتشاف هذا المبدأ لأنه مهد له بالنقد .

لهذا جاء رينولد فكشف عن هذه النقاط في مذهب كنت وبين ضرورة إيجاد مبدأ أساسي لا بد أن يكون ذا قيمة كلية ، وأن يكون بينا بنفسه ، ولا يفسر إلا بنفسه ، أعني مبدأ واحداً واحداً ، يصلح لكل علم ، وعليه تقوم « فلسفة العناصر » Elementarphilosophie التي رأى فيها رينولد الفلسفة المنشودة . هذا المبدأ ضروري ، وضرورته مستمدة من نفسه ، ولذا يعبر عن واقعة Faktum يدركها الناس جميعاً من مجرد التأمل . وهذا إنما يتحقق في الشعور . ومبدأ فلسفة العناصر إذن هو الشعور Conscience, Bewusstsein . والشعور مرتبط ارتباطاً لا ينفصم بالامتثال . ولهذا يمكن صياغة هذا المبدأ الأول والأساسي هكذا : « الامتثال هو في الشعور متميز من الممثل والشيء الممثل ، وفي نفس الوقت على علاقة بهما » . وهذه القضية يقول رينولد إنها قضية صادقة صدقاً كلياً لا يمكن أي شاك أن يشكك فيها . ومن يشكك فيها يفقد الشعور ذلك أن الشعور بالذات لا يتم إلا

الميتافيزيقيون من عبارة كنت : « المكان والزمان شكلان » أن المكان والزمان امتثالان ، ومن قوله : « الأشياء خارجنا لا نعرفها إلا كظواهر » أن الأشياء في ذاتها هي ظواهر لأننا لا نملك أن نعرف غير الظواهر . كذلك فهموا من قول كنت إن « الحقائق الأساسية في الأخلاق والدين لا تقبل البرهان » فهموا من هذا أن هذه الحقائق ليس لها مبدأ صحيح صحة كلية<sup>(١)</sup> . والأفكار الجديدة التي أتت بها كنت قد أفضت هي الأخرى إلى عدم إدراك صحيح لمدلولها ، لأن كنت لم يوضحها الايضاح الكافي الحاسم .

فتميزه بين الأحكام التركيبية القبلية والأحكام التركيبية البعدية ، وكذلك فرقه بين الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية كل هذا لا يبرره كنت تبريراً يقنع غير الكنتيين . إنه يقول إن الربط بين الموضوع والمحمول في الحكم التركيبي لا يقوم على المعطيات ، بل على شكول قبلية فينا هي التي تجعل التجربة ممكنة ، وأن وجود هذه الشكول يبرهن ويفسر أن التجربة هي امتثال لإدراكات مرتبطة ارتباطاً ضرورياً . ولكن هذا القول لا يقنع غير أولئك الذين تصوروا التجربة على هذا النحو ، مع أننا نجد كثيراً من الفلاسفة يرون أن التجربة ليست إلا مجموع الإدراكات الحسية المتغيرة ولا تقدم لنا غير امتالات لما هو متغير وما هو نسي . أما الكلية والضرورية اللتان يعزوهما كنت إلى موضوعات التجربة فلا يمكن الكشف عنها إلا ببرهان تقوم به القوة المفكرة التي تصور الأشياء كما هي في ذاتها . ومعنى هذا أن التجريبيين التقليديين - لوك ومدرسته - لا يمكن أن يقتنعوا بدعوى كنت هذه عن التجربة . صحيح أن كنت يلجأ إلى الرياضيات يستمد من أحكامها تأييداً لتعريفه للأحكام التركيبية القبلية ، لكن هذا اللجوء أيضاً يمكن الاعتراض عليه بأن الرياضيات نفسها ليست من الضرورية والكلية كما يزعم كنت وقد أثبتت فقد الرياضيات في أواخر القرن الماضي والنصف الأول من هذا القرن أنه ليس ثم ضرورة ولا كلية في الأحكام الرياضية . بل هناك تحصيل حاصل مستعر ، وأن القضايا الرياضية إن هي إلا فروض ميسرة ويليها تعريفات مقنعة . ومعلوم أن التعريف من وضع العقل . ولا يستمد في هذه الحالة صدقه من الأشياء نفسها . والخلاصة إذن أنه لا يمكن الاستدلال على ضرورة الحكم التركيبي من شكل الحساسية ولا من شكل الذهن لأن

(١) F. Reinhold: Versuch einer neuen Theorie. Vorrede, P.P 17-51.

بالامتثال الذي تميز من الذات الممتثلة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يشعر المرء بامتثاله إلا بواضحة ما يمثله . ولا سبيل إلى إنكار الذات التي تمثل ، والموضوع الممثل . وأشد الناس إيغالاً في النزعة الذاتية مضطرون إلى التمييز في امتثالاتهم بين الأنا الذي يمثل ، وبين الشيء الذي يمثله هذا الأنا ، حتى لو كان هذا الشيء مجرد شيء متصور ، لأننا لا نقصد بالشيء الممثل أنه شيء يوجد خارج الذات ، بل كل ما نقصده هو أن عملية الامتثال تقتضي ذاتاً تمثل شيئاً يمثل ، سواء كان هذا الشيء خارج الذات أو داخلها . والتمييز بين الذات والموضوع الممثل يتم في داخل الشعور نفسه . ويمكن تعريف كليهما بقولنا إن الذات هي ما يمثل ؛ والموضوع هو ما يمثل ؛ وكلاهما متميز من عملية الامتثال نفسها . وفلسفة العناصر ينبغي عليها أن تبدأ من الامتثال بصرف النظر عن الذات والموضوع ؛ ومن الامتثال تستنبط ماهية ملكة المعرفة . إن الامتثال كما قلنا ينبغي أن يتضمن عنصرين : أحدهما هو مادة الامتثال وينظر الموضوع ؛ والثاني هو شكل الامتثال ينظر الذات أو يتعلق بها . لكن ينبغي ألا نخلط بين المادة وبين الموضوع ، فالموضوع الذي يتعلق به الامتثال يظل هو هو بغير تغيير ؛ بينما المادة تتغير . إن الموضوع خارجنا ، أما المادة فهي داخلنا . ولكن مادة الامتثال ليست الامتثال نفسه ؛ بل تصبح امتثالا بتطبيق الشكل عليها . فمثلا بالنسبة إلى هذه القاعة : مادة الامتثال هي المعطيات الحسية اللونية والضوئية والسمعية واللمسية والشمية الخ التي ترد إلى حواسي من الأشياء الموجودة فيها ؛ ولكن هذه للمعطيات خليط غامض غير مرتب ، فيأتي الشكل ويرتبه في المكان والزمان ويربط بين أجزائه ربطاً عالياً . وهذا يتم الامتثال . ولهذا فإن لكل امتثال مادة وشكلا : وإن كانت هذه المادة لا يراها شيء حقيقي ، لأنها مجرد خليط من الإحساسات . وحتى الامتثالات نفسها ليست صوراً للأشياء ؛ لأن الأشياء في ذاتها لا يمكن امتثالها ، بل امتثالاتي هي مجرد صور لكيفية إدراكي للأشياء . لكن لماذا أتحدث إذن عن أشياء في ذاتها ؟ السبب في هذا أن الذات لا يمكن أن تقدم غير شكل ، ولا تستطيع أن تقدم مادة ، بل لا بد من أن تكون المادة معطلة لها . من أين تعطى لها ؟ من الأشياء في ذاتها . وحتى في امتثال الذات لذاتها ثم مادة معطلة ، فلو لم تعط مادة لكانت للذات قدرة على الخلق ، وإذا كان الشكل معطى هو الآخر فإن الذات صاحبة الامتثال ستصبح لا شيء ، ولهذا ينبغي الإقرار بوجود عنصرين في الامتثال : أحدهما معطى ؛ والثاني يحدده

العقل .

الشعور إذن هو الذي يقدم لنا الوسيلة لتحديد المبدأ الأساسي .

ومن هنا بدأ فشته فلسفته كلها . فقد أثر فيه رينهولد تأثيراً بالغاً ، حتى إن مذهب العلم عند فشته نجد بنوره في « فلسفة العناصر » لرينهولد . لقد أخذ فشته عن رينهولد فكرة الاستبطان التركيبي ابتداء من مبدأ أول ، ووحدة الفلسفة كلها وحدة تامة ثابتة ، ونظرية الميول التي هي تؤلف نظرية العقل العملي والعلاقة بين الميل والامتثال منظوراً إليها على أنها علاقة الواقع بالممكن . كذلك أخذ عنه نظرية العيان العقلي التي تسمح بأعلى مراتب الشعور بالذات ، والقول بفاعلية متأملة معاينة هي المصدر لكل الأشكال ابتداء من العيان حتى الأفكار .

عرف فشته أفكار رينهولد حوالي سنة ١٧٩١ أو سنة ١٧٩٢ ، وانعقدت أواخر الصلة بينهما في سنة ١٧٩٣ . وفي نوفمبر من هذه السنة الأخيرة كتب إليه مادحاً كتابه عن « أساس المعرفة الفلسفية » خصوصاً مبداء الأول ، قائلاً إنه كتب أشياء مشابهة تماماً قبل أن يقرأ كتابه هذا ويستمر تأثير رينهولد في تزايد ، خصوصاً في محاولة فشته وضع نظام فلسفي كامل استبطاناً من مبدأ أول .

ما هذا المبدأ الأول الذي اكتشفه فشته ؟ إن المبدأ الأول عنده هو الأنا المطلق ، أو بلفظ آخر طالما استعمله فشته : Ichheit الذي هو الصفة المعنوية من « الأنا » ويمكن أن نستخدم له اللفظ : « الأنا » الذي استعمله محي الدين ابن عربي بمعنى مقارب ، إذ ورد في رسالته عن الاصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية : « الأنا : قولي أنا أنا » . ولكن فشته يفهم هذا الاصطلاح بمعنى ديناميكي ، أي يفهمه بأنه فعل العقل . ذلك أن فشته قد استوحى فكرة مبدئه الأول من القانون الأخلاقي . لقد رأى أن الالتزام الأخلاقي هو القضية الأساسية التي يمكن بها إثبات الوجود ، حتى ليجوز لنا أن نستعمل عبارة مشهورة بالصورة التالية للتعبير عن موقف فشته : « إن علي واجباً ، فأنا إذن موجود » . والحق أن نقطة انطلاق فشته ليست من نظرية المعرفة ، بل من نظرية الأخلاق .

الأنا يضع نفسه ، لكنه لا يضع نفسه فحسب ، بل



التجربة : سواء الداخلية والخارجية . فعل الفلسفة إذن -  
بتعبير آخر - أن تقدم لنا الأساس لكل تجربة .

السؤال الأساسي إذن في الفلسفة في نظر فشته هو : ما هو الأساس في كل تجربة ؟ إن الفلسفة لا تسلك غير سبيل التجريد ، أي أنها ينبغي عليها - بحرية الفكر - أن تعزل ما هو متحد في التجربة ، أعني ما إليه نتسب معرفتنا ، والعقل ، أي ما يقوم بالمعرفة . والفيلسوف يرتفع فوق التجربة بأن يعزل أحد هذين العنصرين المرتبطين الواحد عن الآخر بواسطة التجريد ، وهذا يقوم الفيلسوف بمهمته . فإن مجرد العقل من التجربة جعل منه مبدأ أول هو العقل في ذاته ، وهذا يقرر المثالية ، وإن جرد الشيء من التجربة جعل منه مبدأ أول هو الشيء في ذاته وهذا ينتهي إلى النزعة التوكيدية . فالمثالية والتوكيدية هما المذهبان الممكنان ، ولا بد من التعارض بينهما لأن المبدأ الذي يبدأ منه كل منهما مضاد للآخر . وليس في وسع أحدهما أن يقضي على الآخر ، لأن كلا منهما ينمو باحكام . والتوكيدية تقول إن كل ما يحدث في الشعور ناشئ عن شيء في ذاته ، حتى قراراتنا الحرة ، بل وحتى قولنا إننا أحرار . وهي تنكر استقلال الأنا ، وتجعل الأنا من نتاج الأشياء وعرضاً من أعراض العالم . ولهذا تقضي النزعة التوكيدية إلى المادية وإلى الجبرية .

أما المثالية فتستطيع تفسير التجربة على نحو آخر ، وذلك بأن ينظر العقل إلى الشيء في ذاته على أنه وهم وخيال . وتبعا لذلك يكون كل ما يستنبطه التوكيدي من الشيء في ذاته عديم القيمة .

وهنا تصبح المسألة على النحو التالي : هل ينبغي أن نضحى بحقيقة الأنا في سبيل حقيقة الشيء ؟ أو بالعكس نضحى بحقيقة الشيء في سبيل حقيقة الأنا ؟

والسبيل إلى الفصل في هذه القضية لا يمكن أن يكون العقل نفسه ، لأن القرار في ذلك لا يمكن أن يكون غير فعل إرادي يتحدد بالميل والمصلحة . والمصلحة العليا التي هي شرط لكل مصلحة أخرى هي فيما يتعلق بنا . وهذا بين عند الفيلسوف نفسه . فالمصلحة التي تفقد كل فكر هي أن لا يفقد أنه في البرهان ، بل يؤكد ويحافظ عليه . والناس صنفان : صنف لا يرتفعون إلى الشعور الكامل بحريتهم واستقلالهم ، ولا يتعرفون أنفسهم إلا بقدر ما تعكسها الأشياء ، ولا يرون

يضع اللا - أنا ، لأن الواجب ليس واجبا في الخلاء ، بل واجب نحو الغير ، والالتزام الخلقى يفترض الغير ، ولهذا فإن الأنا يضع الأنا ويضع في الوقت نفسه اللا - أنا بوصفه عالم التجربة الذي يتضمن ذوات أخرى وفي مجاله يقوم الأنا بواجباته . وفي هذا يختلف كل الاختلاف عن رينهولد لأن البحث عن مبدأ أول عند رينهولد يتشأ عن ضرورات إيجاد فلسفة متعالية ، أي عن اعتبارات متصلة بنظرية المعرفة . فالامثال هو الذي يزودنا بالمبدأ .

يقول فشته في مستهل « المدخل الأول إلى مذهب العلم » :

« تأمل في نفسك ، واصرف نظرك عن كل ما يحيط بك إلى باطنك ، هذا هو المطلب الأول الذي تقتضيه الفلسفة من مرئيتها . الأمر لا يتعلق بشيء خارج عنك ، بل يتعلق بك أنت وحده .

« وأدى نظرة في الذات تتكشف عن تمييز رائع بين مختلف التعينات المباشرة للشعور ، والتي يمكن أن نسميها أيضاً امثالات : فبعضها يبدو لنا مستندا كله إلى حريتنا ، ولا نستطيع أن نعتقد أن ثمة شيئا خارجا عنا يناظرها . بل يبدو لنا خيالا وإرادتنا حزين . وبعضها الآخر نعزوها إلى حقيقة مستقلة عنا ينبغي أن نقررها ، وكان هذه الحقيقة نموذج لها ، ونعتقد أننا ملزمون بالإقرار بهذه الامثالات ما دامت تتفق مع تلك الحقيقة . ولا نرى أنفسنا في المعرفة أحراراً بالنسبة إلى محتويات هذه الامثالات . ونقول بإيجاز : إن بعض امثالاتنا يصحبها شعور بالحرية ، وبعضها الآخر يصحبها شعور بالضرورة .

« ولا عمل - عقلا - للتأول عن السبب في كون الامثالات المتوقعة على الحرية هي على هذا النحو وليست على نحو آخر ، لأن مجرد القول إنها متوقعة على الحرية ينبغي السؤال عن السبب ، إنها هكذا لأنني حددتها كذلك ، ولو حددتها على نحو آخر لكانت على نحو آخر .

« لكن السؤال الجدير بأن يسأل هو : ما هو الأساس (أو السبب) في نظام الامثالات المصحوبة بالشعور بالضرورة ؟ وما هو السبب في هذا الشعور بالضرورة نفسه ؟ والجواب عن هذا السؤال هو مهمة الفلسفة ، وليست الفلسفة شيئا غير العلم الذي يحل هذه المشكلة . ونظام الامثالات المصحوبة بالشعور بالضرورة يسمى أيضاً :

جملة، بل بفعل، هو فعل الشعور الذاتي الذي فيه تدرك الذات ذاتها إدراكاً متواصلًا لا ينقطع. ومن هنا كان شعار فلسفة فشته هو ذلك الذي اتخذته فاوست في رواية جيته: «في البدء كان الفعل».

ولا بد من التفرقة بين الأنا بوصفه فرداً، وبين الأنا بوصفه شعوراً بالذات. فأنا بوصفي فرداً تحدّد من حيث ميلاده وتكوينه الجسماني والعقلي إنما أنا كذلك نتيجة أسباب ليست هي إنا، لأنها ليست فصاليتي الشعورية الخاصة، إنما أمور تتعلق بالأنا والعالم الخارجي والظروف المحيطة. أما أنا بوصفي شعوراً بالذات، فأنا من فعل نفسي وذاتي. وهذا الفعل يغيّر أحوالي، ويجعل مني كائناً آخر غير الذي كنته، إنه يحيل احتمالي إلى حرية وهذا التغيير ليس تغييراً في الظروف الخارجية، بل تغيير في أعماق عمائق جوهرية، ورجوع إلى الأصل الأصيل في نفسي، إنه مولد جديد لذاتي.

والعقل من شأن الإرادة: العقل قرار وتصميم. وهذا العقل الذي تقوم به الذات هو تصميم من ذاتي، لا يمكن أن يبرهن عليه لي، بل لا بد من أن يثبت من نفسي. ولهذا يطلب فشته بالمطلب التالي: «ضع ذاتك، وكن على وعي بها، وارغب في أن تكون مستقلاً بذاتك، واجعل نفسك حراً، هنا لك يصبح كل ما هو أنت وكل ما تفكر فيه وكل ما تفعله، كل هذا يصبح في الحقيقة فعلك أنت».

العقل هو مبدأ الحرية وغايتها، وفكرة الحرية هي مبدأ مذهب فشته وغايتها. ولهذا كتب إلى رينولد يقول: «إن مذهبي من بدايته إلى نهايته ليس إلا تحليلاً لفكرة الحرية، ولن يدخله أي عنصر آخر يمكن أن يتعارض مع الحرية»<sup>(١)</sup>. والحرية عند فشته ليست حالة Zustand، بل حياة حافلة وفعالية متّجة.

ومع الأنا ترتبط سلسلة من الأفعال التي تعد بمثابة شروط للشعور الذاتي وكل الأفعال التي يسطها مذهب العلم عند فشته تتسبب إلى الشعور بالذات كما تتسبب الشروط المتعالية للمعرفة عند كنت إلى التجربة. وارتباط هذه بالشعور الذاتي ارتباط ضروري، حتى إنك لو رفعتها لرفعت في الوقت نفسه الشعور الذاتي. ولهذا يقرر فشته أن كل فعل يؤدي إلى الشعور بالذات هو فعل ضروري. وبعد أن كان كنت يتساءل: ماذا يتسبب إلى التجربة؟ أتى فشته فتساءل: ماذا يتسبب إلى الشعور بالذات؟ تلك هي مسألة المسائل في مذهب العلم.

في أفعالهم غير آثار للعالم الخارجي: وهؤلاء هم التوكيديون بالفطرة. والصف الثاني مقتنعون باستقلال أناهم وكفايتهم، ولا يسمون لسنده بالعالم الخارجي، ففي باطنهم الغيبة والكفاية: وهؤلاء هم المثاليون بالفطرة. الصف الأول يؤمنون أولاً بالأشياء، وبعد ذلك يؤمنون بأنفسهم والصف الثاني يؤمنون أولاً بأنفسهم، وبعد ذلك يؤمنون بالأشياء. وما يختاره المرء من فلسفة يتوقف على ماهية الإنسان. لأن المذهب الفلسفي ليس أدلة ميتة يمكن أن نأخذها أو أن ندعها كما نشاء، بل هو أمر يتخذه الإنسان وتعتقه نفسه.

ولنبرهنه على عدم كفاية موقف التوكيدي يقال له: إنك لا تستطيع أن تفسر الامتثال بواسطة الشيء في ذاته. إن من شأن العقل أن يدرك ذاته بذاته. فسواء لنيه أحدث الأحوال أم عاناها ففي كلتا الحالتين يشعر بأنه يحدث أو يعاني، أي أن العقل يوجد لذاته، وفيه سلسلة مزدوجة مؤلفة من الوجود والإدراك، من الواقع والمثال. أما الشيء فلا يوجد لذاته، إذ ليس فيه غير سلسلة واحدة هي سلسلة الواقع، سلسلة ما هو موضوع. ومبدأ العلية الذي يربط به التوكيدي لا يفسر شيئاً. إنه يفسر كيف تنتقل القوة من حد إلى حد آخر في سلسلة واقعية، ولكنه لا يستطيع أن يفسر الانتقال من الوجود إلى الامتثال. إن الوجود يمكنه على أحسن تقدير أن يفسر الوجود ولكنه لا يستطيع أن يفسر ما يقابله وهو العقل. ولهذا لم يبق من سبيل للفلسفة غير المثالية.

والمثالية تفسر أحوال الشعور عن طريق فعل العقل. والعقل فعال وليس منفعل. لأنه أولي أصيل. إن العقل في جوهره الأصيل فعل Tun بل لا ينبغي أن نسميه ذاتاً فعالة (ein tätiges) لأن هذا يجعلنا نفترض وجود شيء العقل خاصته. إن العقل فعل خالص.

والشعور بالذات فعل لا يقوم به أحد غير الذات نفسها، بل ينبغي على الذات أن تقوم به هي نفسها، ولا تقوم به مرة لكي يصبح فعلاً واحداً حدث مرة في الماضي، بل هو شعور متجدد باستمرار، على الذات أن تقوم به على الدوام. هذا الفعل هو الذي به يصبح الإنسان بوصفه إنساناً كما هو بذاته: إنه تعبير عن الذات الأصيلة المستقلة الحرة وهو الفعل الأصيل الأول، اليقيني إلى أقصى درجة، ومن يقينه تستمد سائر الأمور يقينها، ولهذا فإنه مبدأ الفلسفة. ومن هنا تبدأ الفلسفة حقاً، وكل نقطة ابتداء أخرى تقود إلى مصاعب لا تنتهي. وهكذا يتبين لفشته أن الفلسفة لا تبدأ بقضية أو



أنه: لكل الأفعال للعقل الانساني، وتبعاً لذلك أيضاً فهو طابعه الخالص: الطابع الخالص للنشاط في ذاته: بصرف النظر عن الشروط التجريبية الخاصة به.

وعلى هذا فإن وضع الأنا لنفسه هو نشاطه الفعال. إن الأنا يضع نفسه، وهو موجود بفضل هذا الوضع الخالص لنفسه بنفسه، وبالعكس: الأنا موجود، ويضع وجوده، بعض وجوده الخالص. إن الأنا هو نفس الوقت الفاعل، وتنتج الفعل، هو الفعال، وما ينتج عن النشاط الفعال والفعل ونتائج الفعل شيء واحد، ولهذا فإن: «أنا موجود» تعبير عن فعالية، تعبير عن الفعالية الوحيدة الممكنة كما سيستبين ذلك من مذهب العلم كله<sup>(١)</sup>.

إن الأنا لا يمكن أن يوضع إلا بنفسه: أي أنه أصيل، يضع نفسه بنفسه، ولا يرجع إلا إلى نفسه. الأنا بالضرورة هو للأنا.

ومن هنا يمكن صياغة المبدأ الأساسي في العبارة التالية الأنا يضع أصلاً وجوده هو فقط.

ذلك أن الشعور هو شعور بشيء. ما فئمة ذات تشعر، وموضوع يشعر به. ولا يمكن إدراك الشيء إلا بإدراك أن فئمة ذاتاً هي التي تقوم بعملية الإدراك. فكيف تضع الذات شيئاً إن لم تكن الذات موضوعاً من قبل؟ «تفسير الأساس في كل وقائع الشعور التجريبي هو أنه قبل كل وضع في الأنا يوضع الأنا نفسه»<sup>(٢)</sup>.

ولما كان الأنا يضع نفسه بنفسه ومن أجل نفسه فعليه يرتد على نفسه. وعلى هذا فإن اتجاهه إلى المركز، لكن الاتجاه إلى المركز لا يتم إلا إذا افتراضنا أيضاً اتجاهها إلى الخارج. وهذا الفعل المتجه إلى الخارج هو القوة الباطنة الخالصة المؤلفة لكل جسم مادي. ولكن الجسم لا يوضع إلا بالنسبة إلى عقل خارجه، بينما الأنا ينبغي أن يوضع نفسه من أجل نفسه كأنه موضوع بنفسه، أي أنه فعل متجه إلى الداخل. فالعقل المتجه إلى الداخل (الأنا الذي يتأمل) والفعل المتجه إلى الخارج (الأنا الذي يجري عليه التأمل) مختلفان، ولكنها

## المبدأ الأول

المبدأ الأول والاساسي لا يمكن أن يبرهن عليه، إنه الأساس لكل تجربة ولكل شعور. ونحن نصل إليه بالتأمل في حقيقة الشعور وتجربته من كل ما لا يرتبط به ارتباطاً ضرورياً.

والواقعة البسيطة من وقائع الشعور التي يجعلها التأمل هي القضية:  $A=A$  وهي يقينية واضحة لكل شعور. ولكن ليس معنى هذه القضية أن  $A$  موجودة، إنما نقول فقط: إذا وضعنا  $A$  فقد وضعناها. ووضعها ليس ضرورياً. فإذا جردنا من  $A$  ما ليس ضرورياً فلا يبقى إلا صورة لوضع، أي الارتباط الضروري وهو: إذا وضعت  $A$  فقد وضعناها. وهذا الارتباط الضروري لا يقوم في  $A$ ، لأن وضعها ليس ضرورياً بل يقوم فيها يتم به الارتباط: إنه موضوع في «الأنا» وإذا وضع شيء في الأنا، مثل  $A$ ، فإن القضية  $A=A$  أو أن هذا الشيء (الموضوع في الأنا) مساوٍ لنفسه. وهذا لا يكون ممكناً إلا إذا كان ما وضع فيه  $A$  مساوياً لنفسه، أي فقط بشرط أن يكون أنا = أنا. والقضايا التالية متساويات: أنا = أنا = أنا هو أنا = أنا موجود.

وإذا لم تصح القضية  $A=A$  فلن يصبح أي حكم ممكناً. فالقضية  $A=A$  لا تصح إلا بشرط صحة لقضية: أنا = أنا (أنا هو أنا). ومعنى هذا أن القضية «أنا موجود» هي الشرط الأساسي لكل حكم. وهكذا فإننا إذا تأملنا في حقيقة الشعور وجردناه من كل ما ليس ضرورياً له لبقيت لدينا كواقعة أساسية القضية: «أنا موجود» ونحن نترك هذه القضية أولاً على أنها تعبير عن واقعة، إذا ما نظر فيها بإمعان أكبر تبين أنها فعل الوضع الذي يضع نفسه بنفسه، لأنه لا يمكن أن يكون من نتاج أي شيء آخر غير نفسه. فالفعل ونتائج الفعل هنا شيء واحد ولهذا فإننا نقول عن القضية: «أنا موجود» أنها فعل فاعل.

(أ) إننا نحكم بواسطة القضية  $A=A$ . وكل حكم، وفقاً للشعور التجريبي، هو فعل من أفعال العقل الإنساني، لأنه يملك كل شروط الفعل في الشعور الذاتي التجريبي، الواجب توافرها في التأمل.

(ب) وهذا الفعل أسامه شيء لا يقوم على أساس أعلى، هو  $S=A$  أنا موجود.

(ج) وتبعاً لذلك فإن الموضوع وضعاً بسيطاً، القائم على نفسه هو أساس لفعل ما (وسيتبين من مذهب العلم كله

(١) J. G. Fichte. Grundlage der gesamten Wissenschaftslehre. Felix Meiner, 1956, S. 15—16

(٢) الكتاب نفسه، الفقرة المذكورة، من ١٥

يقومان معاً في جوهر الأنا.

إن المبدأ الأول لا يقدر وحده على إيجاد تعينات الشعور الواقعي، إذ للشعور الواقعي لا يمكن استنباطه بالضرورة من الشعور الخالص، ولهذا فلا بد من القول بفعل آخر بخلاف وضع الأنا لنفسه، وهذا الفعل هو وضع الأنا لغيره.

ذلك أن الفعل لا يستطيع أن يفكر في ذاته دون أن تكون ثمة علاقة مع شيء معقول، فلا أنا بدون لا- أنا يكون موضوعاً للتفكير. والسبب في هذا أن الامتثال يقتضي وجود الأنا والللا- أنا معاً. ووظيفة الللا- أنا هي أن يمكننا من تشييد نظام التجربة.

وهذا المبدأ الثاني، وهو الللا- أنا، مطلق هو الآخر، ولا يمكن البرهنة عليه ولا استنباطه. ولهذا يبحث عنه بنفس المسلك الذي بحثنا به عن المبدأ الأول، أعني التأمل الباطن المباشر الذي يصنع القضية الاتساوي (لا) هي ليست = أ. فإذا جردنا من محتوى أ ما ليس بضروري، فلا يبقى غير وضع المقابل أي صورة المقابلة. فهذه القضية ضرورية لا بسبب محتواها، بل بسبب صورتها؛ ولهذا فإن صورة المقابلة أصيلة مثل صورة الوضع، إنها تشير إلى فعل أصيل للأنا لا يمكن اشتقاقه من غيره. إن فعل المقابلة معناه وضع مقابل للشيء ولا بد أن يكون الشيء موجوداً أو مفروضاً من قبل حتى يمكن وضع مقابله. والمبدأ الذي يعبر عن فعل المقابلة هو المبدأ الأساسي الثاني، ويمكن صياغته هكذا:

الأنا يضع الللا- أنا<sup>(١)</sup>

وقد أدى هذا الللا- أنا إلى كثير من سوء الفهم لفلسفة فشته. لأن هذه العبارة: «الأنا يضع الللا- أنا» تختمل عدة أنواع من الفهم. إذ يتبادر لأول وهلة أن المقصود فيها بالأنا هو نحن، والللا- أنا هو الأشياء الخارجة عنا أي الطبيعة أو العالم. ومعنى هذا بصريح العبارة أن الأنا يخلق العالم! أي أن فشته يقول عن الأنا إنه خالق الأشياء. ومن هنا صرخ الناس: إن هذا تجديف وإلحاد. والحملة على فشته في أزمة الإلحاد المشهورة إنما انصبت على هذا المبدأ الثاني مفهوماً على النحو الذي ذكرناه.

وفضلاً عن ذلك قالوا: ما دام الللا- أنا هو الأشياء

الخارجة عنه، أي الأشياء في ذاتها، أليس من التناقض إذن أن نعزو إلى الأنا شيئاً لا يضعه الأنا؟ أليس معنى هذا أن فشته يقول: الأنا يضع شيئاً لا يمكن الأنا أن يضعه أبداً؟ وأن الأنا يتوقف عليه شيء هو بحسب حقيقته مستقل كل الاستقلال عن الأنا؟ أليس هذا خلفاً وإحالة؟!.

ولكن فشته كما أوضح كونو<sup>(٢)</sup> فشر- لم يقصد هذا المعنى أبداً ولا يمكن أن يقصده. لأن مذهب العلم قد قضى منذ البداية على فكرة الشيء في ذاته بوصفه جوهرًا متميزاً من الأنا. ولا يتحدث فشته أبداً عن الشيء في ذاته بهذا الوصف. إن كل ما يتميز من الأنا هو الللا- أنا، كما أن كل ما يتميز من أ هو لا- أ. ولكن لكي يمكن تمييز شيء من أ فلا بد أن يكون لدى فكرة عن أ. فليس ثم لا- أ بدون أ. وبالمثل: موقف لا- أ من أ هو بعينه موقف الللا- أنا من الأنا. فليس ثم لا- أنا بدون أنا. وعلى هذا فإنه إذا لم يوضع الأنا، فلا يمكن وضع الللا- أنا. وإذن فالللا- أنا مشروط بالأنا. ولكن الأنا يوضع بنفسه فقط. وعلى هذا فإن ما لا يكون يمكننا إلا بشرط الأنا، لا يمكن أيضاً أن يوضع إلا بواسطة الأنا ولهذا فإن المبدأ القائل: «بغير أنا لا يكون ثم لا- أنا» يساوي المبدأ القائل: «الأنا يضع الللا- أنا».

ويقول كونو فشر إنه لا يحق للمرء أن يفكر في أشياء وموضوعات وامتنالات فيما يتصل بهذا المبدأ الثاني، بمعنى أن ثمة أشياء في ذاتها موجودة خارجنا. ولهذا فينبغي أن نأخذ الأشياء كما يمكن أن نفهم، وعلى هذا النحو فقط، أي على أساس أنها ما يتميز من الأنا. «إننا نفهم من الأشياء: الطبيعة بوصفها موضوعاً، والعالم بوصفه امتثالاً، العالم الموضوعي. وهنا يتساءل المرء: بآية شروط تكون الأشياء بهذا المعنى، وهو الوحيد الذي ينبغي أن نفهم به تكون الأشياء ممكنة؟ وبأي شروط توجد الطبيعة، بوصفها موضوعاً، والعالم الموضوعي، عالم الامتثال؟ إن لم توجد موضوعات، لم توجد طبيعة بوصفها موضوعاً، ولا أي عالم موضوعي. تحت أي شرط تكون الموضوعات ممكنة؟ تحت شرط الذات، التي لها وحدها يمكن وجود الموضوع. إذ الموضوع هو ما هو موضوع في مقابل الذات، أي ما يتميز منها. وهكذا نجد أن الموضوع هو الللا- أنا بشرط الأنا. فبلون الأنا لا يوجد لا- أنا وبدون الأنا

(١) Kuno Fischer: Fichtes Leben, Werke und Lehre 4. Aufl. S. 322— (٢) 324. Heidelberg, 1914

(١) Grundlage der gesamten Wissenschaftslehre. Teil, I, S 2, S. 101— 105. Ed. 1834— 1846 (26— 25 ed. 1956)

فينبغي وضع كل شيء في الأنا عما هو موضوع فيه. والمبدأ الثاني الموضوع في الأنا ينبغي في نفس الوقت أن يوضع وأن لا يوضع فيه. وتبعاً لذلك لا يعود الأنا هو الأنا وتكون لدينا المتساويتان التاليتان:

الأنا = اللا أنا      اللا أنا = الأنا

إن الأنا واللا أنا يرفع كلاهما الآخر، ولكنها لا يرفع كلاهما الآخر فعلاً، وإلا لأمكن رفع الأنا نهائياً، وهذا يناقض المبدأ الأول القائل أن الأنا يوضع الأنا. ذلك لأنه إذا رفع الأنا لانتفى الشرط الذي به وحده يكون اللا أنا موجوداً، وإذا رفع الأنا لانتقض ذلك للمبدأ الثاني. فإذا تقرر أنه لا يمكن رفعها كلية، لم يبق إلا إمكان رفعها جزئياً، أي أن يجد كلاهما من الآخر، والحد رفع جزئي. ولهذا فإن الصورة الوحيدة للرفع بين الأنا واللا أنا هي التحديد. ولكن التحديد يفترض إمكان التقسيم حتى يجد جزء دون جزء. فهذه القابلية للتقسيم وحدها يمكن التوحيد بين الأنا واللا أنا. وعلى هذا فإن الفعل الثالث هو التوحيد بين الأنا واللا أنا. ولهذا يمكن صياغة المبدأ الثالث هكذا<sup>(١)</sup>:

«الأنا يوضع في الأنا أنا قابلاً للقسم في مقابل الأنا القابل للقسم»:

فالمبادئ الثلاثة لمذهب العلم هي:

- ١- «الأنا يوضع الأنا».
- ٢- «الأنا يوضع اللا أنا».
- ٣- «الأنا يوضع في الأنا لا أنا قابلاً للقسم في مقابل الأنا القابل للقسم».

بناء مذهب العلم

وهذه المبادئ الثلاثة يمكن استنباط مذهب العلم كله، فما عداها من مبادئ إن هي إلا استنباطات منها.

فالمبدأ الثالث يقتضي التوحيد بين الأنا واللا أنا بتجديد متبادل لكليهما للآخر وفي هذا التحديد المتبادل فعلاً: ١- اللا أنا يتحدد بالأنا؛ ٢- الأنا يتحدد باللا أنا؛ أو بتعبير آخر: «الأنا يجد اللا أنا، واللا أنا يجد الأنا»؛ ويتعبير أكثر

ليس ثم موضوع، ولا طبيعة بوصفها موضوعاً، ولا عالم موضوعي. إن الأنا يوضع اللا أنا من أجل إمكان وجود الموضوعات، ومن أجل إمكان الأشياء بوصفها موضوعات، أي إمكان وجود عالم موضوع<sup>(١)</sup>.

المبدأ الثالث

إن الأنا يوضع نفسه ويضع مقابله وهو اللا أنا. واللا أنا ليس شيئاً في ذاته، وليس شيئاً خارج الأنا، لأن حدود الأنا حدود مطلقة لا يمكن تجاوزها. فما يوضع يوضع بواسطة الأنا وفي داخل الأنا. ومن هنا أمكن صياغة ذلك في المبدأ التالي:

إن الأنا يوضع نفسه، ويضع مقابل نفسه، وكلا الوضعين في داخل الأنا، ومعنى هذا أن الأنا يوضع نفسه كوحدة لتقابلين هما الأنا واللا أنا. وهذان المتقابلان متقابلان بالسلب والإيجاب، أي بالتناقض. ولهذا يمكن أن نقول أيضاً: إن الأنا يوضع نفسه كتناقض. ولكن التناقض يقتضي حلاً له. ولهذا لا بد من حدوث فعل في الأنا به يحل هذا التناقض.

ويمكن تمثيل هذا في مراحل:

١- اللا أنا يتفي الأنا. واللا أنا موضوع في الأنا، ولهذا فإن الأنا ليس موضوعاً في الأنا بالقدر الذي به اللا أنا موضوع فيه.

٢- واللا أنا لا يمكن أن يوضع إلا بالقدر الذي فيه يحتوي هذا الأنا على أنا موضوع يعارضه. وهكذا فلا بد أن يوضع الأنا في الأنا، بقدر ما اللا أنا موضوع فيه.

٣- وهذان النقيضان يستنبطان بالتحليل من المبدأ الثاني: فهذا المبدأ يناقض نفسه إذن ويقضي على نفسه بنفسه.

٤- ولكنه لا يقضي على نفسه بنفسه إلا بالقدر الذي به المقابل يقضي على الموضوع أي من حيث أنه يحافظ على قيمته ولا يتنفي.

فالمبدأ الثاني يتنفي ولا يتنفي.

٥- وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة إلى المبدأ الثاني، فهو كذلك أيضاً بالنسبة إلى المبدأ الأول. فإذا كان الأنا هو الأنا،

(١) Grundlage der gesamten Wissenschaftslehre, S. 36 (= I, 110). Hamburg, 1956.

(١) Kono Fischer, Fichtes Leben, S. 323. Heidelberg, 1914.

## الفلسفة النظرية

-١-

## استنباط المقولات

إن المبادئ الثلاثة الأساسية هي الأفعال الضرورية الأساسية للعقل: الوضع، المقابلة، التوحيد بين المتقابلات ويسمى أيضاً التوحيد. ويمكن التعبير عنها بالمعاني التالية: موضوع، نقيض موضوع، مركب موضوع. وهذا يتبين أن المنهج هو إيجاد وحل كل النقاظ القائمة في الأنا وفي أفعاله الضرورية، والسير فيها هو التقدم من موضوع ونقيض موضوع إلى مركب موضوع باستمرار، ومن نقاظ جديدة باستمرار إلى ارتباطات جديدة باستمرار.

والمبدأ الثالث هو أول مركب موضوع. وكل ما هو متضمن فيه ومستمد منه من قضايا هو نتائج مستنبطة منه هي بدورها تركيبية. وعلينا إذن أن نجد في المركب الأول نقاظ جديدة تريد أن تتحد، وفي اتحادها نجد نقاظ جديدة، وهكذا باستمرار، حتى تنحل كل النقاظ أو نصل إلى نقاظ لا يمكن بعد أن نوحدها بينها. ولهذا فإن فشته بقول عن المبدأ الثالث إنه المركب الأساسي Grundsynthesis

ومنهج مذهب العلم مستمد من ذاته، لأنه عبارة عن كشف وحل النقاظ القائمة في الأنا، وهذه النقاظ وحلها هي الأفعال الضرورية للعقل أو للأنا.

وهذه الدعوى كان لها أثر بالغ جداً في خلفاء كنت وخصوصاً هيغل وهربرت. لقد اهتمت هيغل بهذا المنهج وجعله منهجه الفلسفي الذي أقام على أساسه كل بناء فلسفته، ذلك لأن هيغل رأى أن مهمة الميتافيزيقا هي كشف وحل كل النقاظ الموجودة في التصورات الضرورية للمعرفة، أي المقولات. ورأى هربرت أن مهمة الميتافيزيقا هي كشف وتجنب النقاظ الموجودة في تصورات التجربة، وبينها يحتل الأنا موضعاً مهماً<sup>(١)</sup>.

ومن هذه المبادئ يمكن إذن استنباط المقولات. لقد كانت الأفعال الأصلية هي: الوضع، نقيض الوضع، تركيب الوضع. والأول هو الأساس لكل الأحكام الوضعية أي المثبتة؛ والثاني هو الأساس لكل الأحكام الناقضة أي النافية؛

تفصيلاً: ١- الأنا يضع اللا- أنا بوصفه محدوداً بالأنا؛ ٢- الأنا يضع نفسه بوصفه محدوداً باللا- أنا.

والقول بأن الأنا يحدد اللا- أنا معناه، أن الأنا يفعل، أي أنه عملي، فالأنا إذن أنا عملي: وهذا يتأسس المذهب العملي للعلم. والأنا يتحدد باللا- أنا، أي أن شيئاً يقوم في مقابل الأنا، والأنا ذو موضوع، أي أنه يمثل أي أنه نظري؛ والأنا يضع نفسه بوصفه متحدداً باللا- أنا، يضع نفسه كأنه نظري: وهذا يتأسس للمذهب النظري للعلم.

وهكذا وكتيجة للمبدأ الثالث ينقسم مذهب العلم إلى قسمين: عملي ونظري. لكن ليس معنى هذا أن المذهب ينقسم إلى نصفين متكافئين، بل هما يكونان كلا واحداً مترابطاً مقللاً محكماً.

ونظام مذهب العلم يؤلف دورة تعود فيها البداية إلى النهاية، والنهاية إلى البداية. وتطور الأنا النظري يسبق تطور الأنا العملي. ويقول فشته عن مبدأ المذهب العملي للعلم إنه احتمالي، لأن حقيقة اللا- أنا حقيقة احتمالية. ولهذا يظل مبدأ المذهب العملي للعلم غير مستقادم منه طالما لم يبرهن على حقيقة اللا- أنا.

وعلى هذا فيمكن تلخيص الموقف هكذا:

١- الأنا يضع اللا- أنا بوصفه محدوداً بالأنا، وهذا مبدأ العلم العملي، وفيه الأنا يدرك اللا- أنا على أنه ناتج عليه.

٢- الأنا يضع نفسه محدوداً باللا- أنا، وهذا مبدأ العلم النظري، حيث الأنا يدرك اللا- أنا على أنه خارج عنه ويحدث فيه فعلاً عالياً.

إن الأنا العملي هو الأساس الحقيقي للشعور، والأنا النظري هو الأساس المثالي للشعور. لكن لما كنا لا نستطيع الارتقاء إلى الشعور بعمليتنا دون الأنا النظري، فينبغي أن تكون نقطة ابتداء الاستنباط هي الأنا النظري، وستكون نقطة الوصول هي الأنا العملي الذي هو الأساس الحقيقي لكل الاستنباط، بل هو الأساس الحقيقي للأنا النظري نفسه<sup>(١)</sup>.

وبالتالي يرفع كل منها الآخر: والمبدأ الذي فيه يندرجان يرفع نفسه بنفسه. والأمر كذلك بالنسبة إلى المبدأ الذي قررناه من قبل. ولهذا فإنه يرفع نفسه بنفسه.

ولكنه ينبغي ألا يرفع نفسه بنفسه، إذ كان من الواجب ألا ترفع وحدة الشعور: ولهذا ينبغي علينا أن نسعى لتوحيد المتقابلات المذكورة.

#### فلنأخذ في حل المشكلة.

إنه يؤكد في أحد المبدأين ما ينكر في المبدأ الآخر. وإذن فالواقع والسلب يرفع كلاهما الآخر. ولكن ينبغي ألا يرفع كل منهما الآخر بل أن يتحد، وهذا يتم بفضل التحديد.

فلذا ما قيل إن الأنا يحدد نفسه، فإننا بهذا نعزو إلى الأنا كلية الواقع المطلقة. إن الأنا لا يمكن أن يتحدد إلا على أنه واقع، لأنه وضع على أنه واقع فحسب، ولم يوضع فيه أي سلب. وعلى هذا فإن قولنا إنه ينبغي أن يحدد نفسه ليس معناه: إنه يرفع واقعاً في نفسه. وإلا لكان بذلك يضع نفسه في تناقض مباشرة. بل ينبغي أن يكون معناه: الأنا يحدد الواقع ويرتبه لنفسه إنه يضع كل الواقع على أنه كم مطلق. وخارج هذا الواقع لا يوجد أي واقع آخر. وهذا الواقع موضوع في الأنا وتبعاً لذلك فإن الأنا يتحدد بقدر ما يتحدد الواقع.

كذلك ينبغي أن نلاحظ أن هذا فعل مطلق للأنا، وكذلك الفعل الذي يضع فيه الأنا نفسه كما، وينبغي من أجل الاستنتاج أن يوضع هنا واضحاً جلياً.

إن الأنا في مقابل اللا-أنا، وفيه سلب، كما أن في الأنا واقعاً. فإن وضع في الأنا كلية مطلقة للواقع، فلا بد أن يوضع في اللا-أنا كلية مطلقة للسلب.

وكلاهما: الكلية المطلقة للواقع في الأنا، والكلية المطلقة للسلب في اللا-أنا ينبغي توحيدهما عن طريق التحديد. وتبعاً لذلك فإن الأنا يحدد نفسه جزئياً، ويتحدد جزئياً. وبعبارة أخرى: إن المبدأ ينبغي أن يؤخذ بمعنى مزدوج، وكلا المعنيين ينبغي أن يبقى إلى جانب الآخر<sup>(١)</sup>.

الخلاصة أن مبدأ العلم النظري يقول:

الأنا يضع نفسه محمداً باللا-أنا

والثالث: هو الأساس لكل الأحكام المركبة.

ومن المبدأ الأول يستنبط مبدأ الهوية (أ=أ)، ومن الثاني يستنبط مبدأ التباين، ومن الثالث مبدأ التوحيد الذي هو في وقت واحد ربط وفصل معاً، وبالتالي يحتوي على أساس الربط والفصل، ومن هنا فإن مبدأ التوحيد هو في نفس الوقت مبدأ الأساس أو مبدأ العلية. والمبدأ الأول يعطينا مقولة الواقع، والثاني مقولة السلب، والثالث مقولة التحديد<sup>(٢)</sup>.

#### مبدأ العلم النظري

يقول فنته: «إن المبدأ القائل بأن الأنا يضع نفسه على أنه محدد باللا-أنا هو مبدأ مستنبط من المبدأ الأساسي الثالث: فإن صدق ذلك صدق هذا؛ ولكن الأول صادق، طالما كان من اليقيني عدم ارتفاع وحدة الشعور، وأن الأنا لا يتوقف عن أن يكون أنا. ولهذا ينبغي أن يكون يقينياً على أساس أن وحدة الشعور لا يمكن أن ترفع.

وعلينا أولاً أن نقوم بتحليله، أي أن نشاهد هل فيه متقابلات، وما هي.

إن الأنا يضع نفسه على أنه محدد باللا-أنا. ولهذا فإن الأنا ينبغي ألا يحدد، بل أن يحدد، واللا-أنا ينبغي أن يحدد، أن يضع لواقع الأنا حدوداً ولهذا ينطوي المبدأ الذي قررناه على ما يلي:

«اللا-أنا يحدد (فعال) الأنا (متفعل إذن). الأنا يضع نفسه على أنه محدد، بواسطة الفعلية المطلقة. ولا بد لكل فعلية، كما رأينا حتى الآن على الأقل، أن تصدر عن الأنا. والأنا وضع نفسه، ووضع اللا-أنا، ووضع كليهما في الكمية. ولكن كون الأنا يضع نفسه على أنه محدد: معناه أن الأنا يحدد نفسه. ولهذا ينطوي المبدأ الذي قررناه على ما يلي أيضاً:

الأنا يحدد نفسه، (بواسطة الفعلية المطلقة).

وبغض النظر مؤقتاً عن إمكان مناقضة كليهما لنفسه واحتوائه على تناقض داخلي وبالتالي كونه يرفع نفسه بنفسه من الواضح فوراً أن كلا منهما يناقض الآخر، وأن الأنا لا يمكن أن يكون فعالاً إذا كان ينبغي أن يكون متفعلاً، والعكس...

والمبدأان المندرجان في مبدأ واحد يناقض كلاهما الآخر

(١) الكتاب نفسه ص ٤٨ - ٥٠ [١ = ١٢٧ - ١٢٩ من الطبعة الأصلية].

وفي هذا التركيب يتدرج مبدآن متنازعان ومرتبطان وهما :

- ١ - الأنا يتحدد باللا - أنا ، أي أنه متفعل .
- ٢ - الأنا يحدد نفسه ، أي أنه فاعل .

أي أن الأنا فاعل ومتفعل معاً في وقت واحد : ومهمة العلم النظري حل هذا التناقض .

إن الفعل والانفعال تحديداً يعارض كل منهما الآخر . فأحدهما هو السبب السلمي للآخر . وكلاهما يرفع الآخر فلو رفع كلاهما رفعاً تاماً ، أصبح الأنا غير فاعل ولا متفعل ، أي لن يكون موجوداً أبداً . ولو أن أحدهما رفع الآخر رفعاً تاماً ، فإن الأنا سيكون إما فاعلاً فقط ، أو متفعلاً فقط : وفي الحالة الأولى سيكون الأنا النظري غير ممكن . وفي الحالة الثانية سيكون الأنا بوجه علم غير ممكن ، فلا يبقى إلا أن يرفع كل منهما الآخر رفعاً جزئياً فحسب . فالأنا فاعل جزئياً ، ومتفعل جزئياً إنه فاعل جزئياً فقط . ولهذا فهو غير فاعل جزئياً فقط . وبمقدار ما يكون الأنا غير فاعل ، يكون اللا - أنا فاعلاً . أي يكون الأنا متفعلاً والأمر بالعكس . إن فاعلية الأنا تتحدد باللا - أنا ، والعكس . وبعبارة أخرى : الأنا واللا - أنا يحدد كلاهما الآخر على التبادل . ويفضل هذا التحديد للتبادل وحده يمكن أن يكون الأنا فاعلاً ومتفعلاً معاً . وهذا فقط يمكن الربط بين هذه المتقابلات في الأنا ، أي يمكن قيام الأنا النظري بوجه عام .

وهذا يمكن استنباط مقولة التحديد المتبادل ( التأثير المتبادل ) من الشعور<sup>(١)</sup> .

ولكن هذه المقولة تعارض مع المبدأ الأول الأساسي في مذهب العلم ، المبدأ القائل بأن الأنا . يضع الأنا ومعنى هذا أن الأنا فعال فقط ، وهو كل الفعالية بينها مقولة التحديد المتبادل تقول إنه فعال جزئياً . إن المبدأ الأول ينفي عن الأنا كل سلب ، وبالتالي يجعل الأنا كل الواقع ، وبالتالي لا وجود حقيقياً للا - أنا . فهل من الحق أن اللا - أنا ليست له أية واقعية ، أي ليست له أية فاعلية ؟ وإن كان كذلك فكيف يحدد الأنا ؟

### فاعلية اللا - أنا

قلنا إن الأنا هو كل الفاعلية ، كل الواقعية . وإذا كان الأمر كذلك فلا محل لفاعلية اللا - أنا ولا لواقعيته ، وإلا لم يكن الأنا هو كل الفاعلية ، وكل الواقعية . وإذن فإن اللا - أنا لا حقيقة له غير تلك التي يضمها الأنا فيه ، واللا - أنا لا واقعية له إلا بقدر ما يتأثر الأنا - وبعبارة أخرى لا يمكن أن نغزوا إلى اللا - أنا من الواقعية إلا بقدر ما نرفع من الأنا . وواقعية أو فاعلية الأنا ترفع ( جزئياً ) أي تتضاءل أو يتفعل الأنا . وعلى هذا فإن اللا أنا له من الواقعية بمقدار ما يتفعل الأنا . وخارج انفعال الأنا فلا يكون للا - أنا أية واقعية . فلتطلق على هذا الانفعال اسم « تأثر الأنا » *Affektindes Ich* . وبهذا تنتهي إلى القضية التالية : « خارج شرط تأثر الأنا لا واقعية للا - أنا »<sup>(٢)</sup> .

وعلى هذا فإن انفعال الأنا هو فعل اللا - أنا ، أي أن كل تأثر يخضع له الأنا سببه هو اللا - أنا . وهذا ينفي بنا إلى التركيب ج - ويتضمن مقولة العلية .

وعلى هذا فالتركيبات ثلاثة :

التركيب أ : هو التوحيد بين الأنا واللا - أنا بوجه عام .

ب : هو التحديد المتبادل .

ج : هو العلية .

### جوهرية الأنا

كيف يتأتى للأنا إذن أن يتفعل ؟ هنا مشكلة يثيرها تركيب العلية وتتضمن حلاً . إن ما يوضع في الأنا يوضع بواسطة الأنا ، ويفضل فاعليته . فكذلك انفعالية الأنا لا يمكن أن تتحدد إلا بواسطة فاعليته . فكيف يتم ذلك ؟ إن فاعلية الأنا مطلقة ، وليس خارجها شيء ؛ ولهذا ينبغي أن ننظر إلى انفعال الأنا على أنه فاعلية مقلدة أو مرفوعة جزئياً ، أي درجة مخفضة من الفاعلية ، « كم من الفاعلية » *Ein quantum Tätigkeit* .

وبعبارة أخرى إن انفعال الأنا لا يمكن إلا بتقليل فاعليته أو الحد منها ، وهذا لا يمكن إلا بواسطة فاعلية الأنا نفسه ، أي

(١) راجع كونوفشر، الكتب المذكور ، ص ٣٣١ - وراجع نقشه . أساس ... ٢٥١  
٤ من ٥٠ - ٥٢ طبعة سنة ١٩٥٢ (= ١٣٩ - ١٣٦ من الطبعة الأصلية)

(٢) نقشه : أساس ... ٤ ج - ص ٥٢ - ٥٦ (= ١١ - ١٤ من الطبعة الأصلية)



## بواسطة تحديده لذاته Selbstbestimmung

وعلى هذا فلدينا في الأنا فاعلية وانفعال ، فاعلية مطلقة وفاعلية مخلوطة ، أو - مادام الأنا = الفاعلية - أنا مطلق وأنا مخلود . والأنا المخلود لا يكون ممكنا إلا كتحديد ذاتي للأنا المطلق . ولهذا فإن السؤال : لماذا يتفعل الأنا ؟ - يعود إلى السؤال : لماذا يحد الأنا من فاعليته ؟ لماذا يحدد الأنا نفسه ؟ ومن أين أتى تحديد الأنا لذاته ؟<sup>(١)</sup>

## مقولات الإضافة

نتين لنا أن الأفعال الضرورية للعقل هي على النحو التالي :

إن الوعي الذاتي يقوم بفعلين متقابلين : فالأنا يضع الأنا ، والأنا يضع مقابل الأنا أي اللا - أنا ، وهذا الوعي الذاتي يقتضي التوحيد بين هذين المتقابلين في الأنا ، وهذا التوحيد يقتضي الفعل المتبادل . والفعل المتبادل بين الأنا واللا - أنا يقتضي من أجل مزيد من التحديد اللا - أنا وجوهية الأنا . وبهذا نكون قد استنبطنا المقولات التالية :

- ١ - الأنا الواضع يعطي مقولة الواقع .
- ٢ - الأنا الواضع للمقابل يعطي مقولة السلب .
- ٣ - التوحيد بين المتقابلين يعطي مقولة التحديد أو ما يسمى باسم الإضافة .

والتحديد الأدق للإضافة هو الفعل المتبادل ، وأنواع الفعل المتبادل هي العلية والجوهية . وعلى هذا فإن الفعلين الأولين للعقل أحدهما يضع والثاني يضع مقابلا والثالث والرابع يركبان ويربطان . ومن هنا يتلخص الموقف فيما يلي :

المركب الأول أ هو التوحيد بين الأنا واللا - أنا ، والمركب الثاني ب هو الفعل المتبادل ، والمركب الثالث ج هو عليه اللا - أنا ، والمركب الرابع د هو جوهية الأنا .

فلنأخذ في بيان هذه المركبات بالتفصيل . ولنبدأ بتحديد النوعين الأولين من التأثير المتبادل .

لقد نشأ عن هذا الموقف تقابل جديد وواجب جديد ، ذلك أن العلية تحدد فاعلية اللا - أنا ، والجوهية تحدد

الفاعلية الشاملة للأنا ، وتبعاً لهذا فإن انفعال الأنا في حالة العلية هو فعل للا - أنا ، وانفعال الأنا في حالة الجوهية يتحدد فقط عن طريق فاعلية الأنا ، فلذا قلنا فقط بالجوهية فعلينا أن نقول إن الأنا يتحدد فقط بالجوهية ، وإن قلنا بالعية فإن الأنا يتحدد عن طريق اللا - أنا .

على أنه من الواجب أن نقول بكتيبتها ، أي بالعية والجوهية ، والشعور الذاتي يقتضي التأثير المتبادل بين الأنا واللا - أنا ، وهذا هو الأنا النظري ، وهذا الفعل المتبادل نفسه يقتضي عليه اللا - أنا ، أي يقتضي جوهية الأنا والتناقض القائم بين كليهما محتوي في الأنا نفسه . وهذا يقتضي منا مهمة حل هذا التناقض ، وهذا الحل يقتضي تركيباً جديداً هو التوحيد التركيبي بين العلية وبين الجوهية . وهذه المسألة عقدة العقد في مذهب العلم عند فشته : فكلمة تقدمت التركيبات ازدادت تأليفات العناصر البسيطة ، والمسألة هنا : كيف يمكن حل التناقض القائم بين جوهية الأنا وعليه اللا - أنا ؟ هذا التناقض قائم بين هذين النوعين من التأثير المتبادل وهو بالتالي يقوم في تصور فكرة التأثير المتبادل نفسه . فالتأثير المتبادل يقول :

بقدر ما هنالك من فاعلية في الأنا يكون ثمة انفعالية في اللا - أنا ، والعكس بالعكس .

إن الفعل والانفعال في الأنا واللا - أنا يحدد كل منهما الآخر على التبادل بحيث أن كل فعل في جانب هو بنفس المقدار انفعال في الجانب الآخر ، أي أن كل فعل في جانب يناظره انفعال في الجانب الآخر . ومن هنا فإن هذا التأثير المتبادل يسمى باسم تبادل الفعل والانفعال . فالأنا من حيث دخول الانفعال فيه يضع فاعلية في اللا - أنا ، والعكس بالعكس . فإن لم يصدق هذا المبدأ فإن الأنا المضعل ، أي الأنا النظري ، ومعه الأنا نفسه يرتفعان .

إن مبدأ التحديد المتبادل مبدأ ضروري إذن ، وينبغي ألا يكون محلاً للنقد والاعتراض .

وإنما الذي ينبغي أن نسأل عنه هو : كيف كان هذا المبدأ ضرورياً ومقبولاً ؟

إن الفاعلية في اللا - أنا مشروطة بانفعال في الأنا ، والانفعال في الأنا مشروط بالفاعلية في اللا - أنا . ومعنى هذا أن الفاعلية في اللا - أنا تفترض نفسها مقدما ، والانفعالية في

(١) سلسل... ٤... ٤١... ٥٧... ٦١... (٢) من ١٣٦ - ١٣٩ من الطبعة الأصلية -  
راجع كونوفتشر: الموضع نفسه من ٣٣٣.



فعالية مستقلة . ومثل هذه الفعالية المستقلة ضرورية ، وإلا لما كان من الممكن حل التناقض الذي اكتشفناه في التحديد المتبادل .

ولكن هذا الحل نفسه ينطوي على تناقض جديد ، ذلك لأن التحديد المتبادل يقتضي الفعالية المستقلة ، كما أنه يناقضها في نفس الوقت لأن مبدأ الأساس يقول : إن كل فعالية في الأنا وفي اللا- أنا يقابلها انفعالية في الجانب المقابل ؛ وإن الفعل والانفعال يحدد كل منهما الآخر في الأنا واللا- أنا على التبادل بالضرورة . وهناك إذن ، كما أشرنا ، تبادل دائماً بين الفعل والانفعال . وهذا التحديد المتبادل أي التبادل بين الفعل والانفعال ثم الفعالية المستقلة ، كلاهما يناقض الآخر . وهذا التناقض بحاجة إلى حل . والحل يتم وفقاً لمبدأ التحديد . وعلى هذا فلدنا الآن مهمات ثلاث :

١ - تبادل الانفعال والفعل يحدد فاعلية مستقلة .

٢ - الفعالية المستقلة تحدد تبادل الفعل والانفعال .

٣ - كلاهما يحدد الآخر على التبادل .

وهذه المهمة الثالثة تنقسم من جديد إلى ثلاث مهمات جديدة :

( أ ) إن المضمون والشكل في الفعالية المستقلة يحدد كل منهما الآخر على التبادل ، والفعالية المستقلة تؤلف وحدة تركيبية تجمع بين الشكل والمضمون .

( ب ) المضمون والشكل للتحديد المتبادل يحدد كل منهما الآخر على التبادل ، فالتحديد المتبادل هو وحدة تركيبية مؤلفة من الشكل والمحتوى .

( ج ) الفعالية المستقلة بوصفها وحدة تركيبية ، وفعل التبادل وانفعال التبادل بوصفها وحدة تركيبية يحدد كل منهما الآخر على التبادل .

والتحديد المتبادل يتضمن العلية والفاعلية للا- أنا والجوهرية الأنا . وما بيناه فيما يتعلق بالتأثير المتبادل بوجه عام ينبغي أن نبيته على الخصوص فيما يتعلق بكل النوعين أعني - العلية والجوهرية ، ومن هنا فإن كل مهمة من المهمات الثلاث تنقسم مرة أخرى إلى اثنتين ؛ أو بطريقة أخرى ينبغي تطبيق الحل العام في كل مرة على كلا نوعي التحديد المتبادل ، ونقصد بالنوعين كما قلنا العلية والجوهرية .

الأنا مشروطة بالفاعلية في اللا- أنا . وهذه الأخيرة مشروطة بالانفعالية في الأنا .

وعلى هذا فإن الانفعالية في الأنا تفترض نفسها مقدماً ، وإذا كان عليّ أن أقوم بعمل ما تحت شرط ما وهو أن أكون قد فعلته من قبل ، فمن الواضح أنني لا أستطيع أن أفعله إن الأنا ينبغي عليه أن يضع الانفعال في ذاته تحت شرط أن يضع في نفس الوقت الفاعلية في اللا- أنا ، وهذه الفاعلية نفسها مشروطة ، بواسطة الانفعال في الأنا ، فلا بد إذن من فعالية في اللا- أنا بشرط انفعال في الأنا ، وهذا الانفعال في الأنا مشروط بالفاعلية في اللا- أنا .

وهكذا نرى أن الأنا لا يملك أن يضع انفعالا في نفسه ولا فاعلية في اللا- أنا .

وهكذا أيضاً نرى أنه تبعاً للتحديد المتبادل ينبغي أن يوجد كلاهما ، بينما تبعاً للتحديد المتبادل نفسه ينبغي ألا يوجد كلاهما .

### الفاعلية المستقلة

فلننظر الآن في هذا التناقض الذي ينبغي حله : إن الانفعال في الأنا ضروري ، وهو لا يكون ممكناً إلا بواسطة الفاعلية في اللا- أنا . وليس ممكناً بواسطة الفاعلية في اللا- أنا ، لأن الفاعلية في اللا- أنا لا تكون ممكنة إلا بواسطة الانفعالية في الأنا . وهذا هو التناقض الذي يتطلب الحل .

يتبين من هذا أن الانفعال في الأنا يوضع ولا يوضع بفعل فاعلية اللا- أنا . ولكن هذا التقابل في الأنا لا يكون ممكناً إلا بالتحديد ، أي بالرفع الجزئي ، لأن القاعدة تقول : إن ما يرفع الآخر على التبادل دون أن يرفعه نهائياً كاملاً لا بد أن يرفع كل منهما الآخر جزئياً . فهذا هو مبدأ التحديد : فمبدأ التحديد بعبارة أوضح هو : إن كلا المتقابلين يرفع الآخر ، ولما كان رفع الواحد للآخر لا يمكن أن يكون كلياً فلإذن ينبغي أن يكون هذا الرفع جزئياً . وهكذا نجد أن حل التناقض القائم أمامنا الآن هو بأن نقول : إنه بفضل فاعلية اللا- أنا فإن انفعال الأنا يوضع جزئياً ولا يوضع جزئياً . وكذلك الحال : فاعلية اللا- أنا توضع في الأنا جزئياً ولا توضع جزئياً . فإذا كانت فاعلية اللا- أنا تناظرها انفعال في الأنا جزئياً فإنه يتبع عن هذا وجود فاعلية في اللا- أنا لا تناظرها انفعال في الأنا ، وبالعكس توجد في الأنا واللا- أنا

العلم النظري تقوم في هذين السؤالين المتعلقين بالقدرة الأساسية النظرية وبالمبدأ النظري وهما :

١ - ما هي تلك الفاعلية المستقلة التي بدونها لا يقوم التحديد المتبادل أو الفعل الذي يفضله يوجد الأنا نظرياً؟ نقول : ما هي هذه الفاعلية المستقلة التي بدونها لا يقوم هذا التحديد المتبادل؟ هذا هو السؤال الأول . ويمكن إيضاحه بالتساؤل : كيف يمكن إيجاد القدرة الأساسية النظرية تحت الشروط الموضوعية؟

٢ - السؤال الثاني : كيف ينشأ عن غو القدرة الأساسية النظرية المبدأ الأساسي النظري؟ وهذا يؤدي بنا إلى البحث في الخيال المنتج بوصفه القدرة الأساسية النظرية . وللبحث في هذه المسألة يبدأ فشته فيبحث في كيفية استنباط ملكة الخيال ويندرج ذلك في فصول:

١ - الفاعلية المستقلة كتصور باطن لكل الحقيقة المستقلة

لقد أفضى بنا مذهب العلم إلى هذه الحقيقة ، وهي أن الفعل المتبادل الذي اقتضاه الشعور بالذات لا يمكن أن يقوم إلا تحت شرط وجود فاعلية مستقلة . وهذه الفاعلية المستقلة هي التي تؤلف القدرة الأساسية النظرية ، أي :

الشعور بالذات يقتضي التحديد المتبادل بين الأنا واللا - أنا .

التحديد المتبادل يشترط لإمكانه وجود فاعلية مستقلة . الفاعلية المستقلة هي التي تؤلف القدرة الأساسية النظرية .

أما ما هي هذه الفاعلية فيمكن تبين ذلك من شكل ومضمون التحديد المتبادل .

إن مضمونه يتألف من التقابل بين الأنا واللا - أنا ؛ والتحديد المتبادل يقوم على أساس أن ثمة من الواقعية بقدر ما يوضع في أحد العاملين ويرفع في العامل الآخر بالضرورة والعكس أي بعبارة أخرى التحديد المتبادل معناه أن يوجد من الحقيقة في أحد العنصرين ( الأنا واللا - أنا ) بقدر ما يرفع من الآخر ؛ ومجموع هذه الحقيقة الواقعية لا يزيد ولا ينقص إذن بواسطة التحديد المتبادل ، بل يظل كما هو .

ومن هنا فإن المضمون في هذا المجموع مستقل عن

وخلصة هذا كله أن المهمات التي ينبغي على مذهب العلم القيام بها فيما يتعلق بتحديد الفعل المتبادل والتحديد المتبادل هي على النحو التالي :

( أ ) الفاعلية المستقلة كأساس واقعي للتحديد المتبادل فيما يتعلق :

( ١ ) بفاعلية أو عليّة اللا - أنا ، ( ٢ ) فيما يتعلق بجوهرية الأنا .

( ب ) الفاعلية المستقلة بوصفها مبدأ التحديد المتبادل الواهب للشكل أو الصورة ، وذلك فيما يتعلق : ( ١ ) بفاعلية أو عليّة اللا - أنا ؛ ( ٢ ) فيما يتعلق بجوهرية الأنا .

( جـ ) وحدة الفاعلية المستقلة والتحديد المتبادل فيما يتعلق : ( ١ ) بفاعلية أو عليّة اللا - أنا ؛ ( ٢ ) فيما يتعلق بجوهرية الأنا .

وهذا نكون قد أعطينا فكرة عن المهمة التي ينبغي على التركيب هـ أن يقوم بها .

وهذا التركيب هـ هو أصعب المهمات جميعاً وأصعب النقط في مذهب العلم . والموضوع الحقيقي في كل هذه المهمة بسيط ، فال المطلوب هو أن نستنبط من فكرة الفعل المتبادل والشروط الموجودة فيه ، نستنبط طابع الفاعلية المستقلة التي بدونها لا يمكن أن يقوم للتحديد المتبادل أية قائمة ، وبالتالي لا يمكن أن تقوم للأنا أية قائمة بدون هذا النشاط . ومن أجل أن نحدد بالدقة كيف يمكن أن تقوم هذه الفاعلية وما هي قدرتها فإن من الواجب علينا أن نمتحن كل الشروط التي تظهر عليها ، وأن نستبعد كل الظروف التي لا يمكن أن تقوم فيها .

وهذا نكون قد حددنا الشروط التي بها وحدها يقوم الأنا النظري لوضع ذاته بوصفه محمداً بواسطة اللا - أنا وعلى هذا فقد بقي على مذهب العلم النظري أن ينمو من المبدأ الذي أنشأه حتى يصل إلى الشرط الذي تحته يقوم هذا المبدأ أي أن ينمو من مبدئه إلى قدرته الأساسية . وعليه أن يبدأ من هذه القدرة الأساسية النظرية ، وأن ينميها ، وأن يقيم هذا النمو إلى أن تبدي لنا من جديد القدرة الأساسية النظرية لهذا العلم النظري . فإن حُلّت هذه المشكلة ، فإن مذهب العلم النظري يكون بذلك قد ختم دورته وحقق نفسه .

وابتغاء الوصول إلى هذه النتيجة نجد أن مهمة مذهب

الأنات ، والتسبجة لهذا إذن أن انفعالية اللات - أنا من وضع الأنا ، وما انفعالية الأنا إلا فاعلية مقللة أو محدثة ؛ والفاعلية المقللة أو المحدثة هي أيضاً اللات - أنا ، فكيف يمكن إذن الآن أن نميز بين الأنا المحدود وبين اللات - أنا ؟ .

إن من الواجب أن نميز بين كليهما ، لأن كلا منهما في مقابل الآخر . والجواب هو أن التمييز بين الأنا المحدود وبين اللات - أنا يجب أن يتم على أساس أن لا نعزو إلى اللات - أنا ما ليس له ، أي أن لا نعزو إليه فاعلية مقللة أو مستقلة . وعلى هذا فيجب أن نعد الفاعلية المقللة للأنا في نفس الوقت فاعلية مقللة ولكن ما هذه الفاعلية التي هي في نفس الوقت مقللة ومحدثة معاً ؟ إنها مقللة أو مستقلة إذا كانت غير مشروطة بشيء أي تلقائية : تلقائية خالصة . وهي مقللة حينما تكون متعلقة بموضوع فالأمر يتعلق إذن بفاعلية تتعلق بموضوع بكل ما لها من تلقائية . وهذه الفاعلية هي قوة الخيال . وفكرة الخيال أو القوة المخيلة لم نبرهن عليها بعد . وإنما نحن افترضناها كغاية ينبغي أن نمثلها منذ الآن حتى نفهم هذا الجانب الصعب من مذهب العلم .

#### الامتثال والتخيل - الذات والموضوع

إن الأنا يضع مقابله ، أي انه يضع مقابلاً لنفسه . وهذا المقابل هو الموضوع واللات - أنا ليس أساساً واقعياً حقيقياً ولا شيئاً في ذاته بل هو موضوع ، والموضوعات لا توجد إلا بالنسبة إلى ذات ، والذات لا تكون ممكنة إلا في تمايزها من موضوع . ولهذا لا توجد ذات بغير موضوع ، ولا موضوع بغير ذات ، والفاعلية المستقلة أو الوضع المباشر هو وضع للذات والموضوع معاً . وكلا هذين الطرفين مرتبط بالآخر لأنه موضوع في مقابله فالموضوع يوضع لرفع الذات والعكس . والأنا إما أن يضع مباشرة موضوعاً أو ذاته ، إنه يضع ذاته موضوعاً ، وتبعاً لهذا ينبغي عليه أن يرفع ذاته ، وبالتالي ينبغي عليه أن يرفع الذات ، وبالتالي أيضاً أن يرد فاعليته أو انفعاليته .

وهذه الانفعالية تتعلق بالموضوع بوصفه أساساً حقيقياً ، أي لا بد أن يكون ثمة امتثال من جانب الأنا لشيء هو اللات - أنا مستقل عنه . إنه يضع الذات وينبغي من أجل هذا أن يرفع الموضوع وأن يجد من فاعلية الموضوع أو أن يضع الانفعال في الذات . وهذا الانفعال يتعلق بفاعلية الذات كأساس حقيقي أي لا بد من امتثال حقيقة الأنا مستقلة عن اللات - أنا أي تصور الحرية .

التحليل المتبادل ، والحقيقة الواقعية هي فاعلية ، ومجموع المضمون الواقعي هي إذن فاعلية مستقلة بوصفها الأساس الواقعي للتحديد المتبادل ، فإن لم توجد مثل هذه الفاعلية المستقلة بوصفها كلية مطلقة ، فلا يمكن أن يقوم تحديد متبادل فيه يكون ثم من الواقعية في أحد العنصرين بقدر ما يرفع من العنصر الآخر وبالعكس . وإذن فالفاعلية المستقلة هي التصور الباطن لكل الواقع ، أو هي الكلية المطلقة للواقع .

#### ٢ - أساس الفاعلية المستقلة

والأنا إذن هو التصور الباطن لكل فاعلية . فإن رفعنا من الأنا فاعليته أو قلنا منها فإن الأنا لن يصبح بعدها التصور الباطن لكل فاعلية ولن يكون إذن كما يجب أن يكون من حيث جوهره ، بل يصبح بفضل هذه الانفعالية ، شيئاً آخر من الناحية الكيفية . وأساس ما هو كفي أساس واقعي ، وهذا الأساس الواقعي للكيفية المتغيرة الخاصة به لا يمكن أن يكون الأنا نفسه ، ولهذا ينبغي أن يكون هذا الأساس الواقعي شيئاً مختلفاً عن الأنا نفسه ، أي يجب أن يكون لا - أنا . فإن كان اللات - أنا هو الأساس الواقعي للإنفعال في الأنا ، فيجب أن نعزو إلى اللات - أنا فاعلية مستقلة سابقة على هذا الانفعال .

وهنا نجد أن اللات - أنا هو السبب الذي يحدث الانفعال في الأنا وعلى هذا فيكون اللات - أنا هو الأساس في الامتثال ، وهو الأساس المطلق ، وهو الشعور الباطن لكل نشاط منتج ، وسيكون هو العلة الوحيدة الفعالة ؛ وتبعاً لذلك سيكون اللات - أنا هو الجوهر والأنا سيكون مجرد عرض .

فإن تحدثت الفاعلية المستقلة ، على هذا النحو ، أي على أساس أن اللات - أنا هو الأساس الواقعي المطلق ، فنسكون بلزاة مذهب الواقعية الدوجماتيقية ، وهي التي يمثلها أكمل تمثيل مذهب إسبينوزا ، لكن مثل هذا التصوير للفاعلية المستقلة معناه القضاء على الأنا واعتبار الأنا غير منتج ، ولكننا قد أثبتنا مراراً أن الأنا ضروري ، فالنتيجة الحتمية لهذا أن ما افترضناه من فاعلية مستقلة للات - أنا وتسبق الأنا هو أمر غير ممكن . وإنما الصحيح الذي يجب أن يتقرر هو أن الأنا هو التصور الباطن لكل فاعلية وفيه ترفع الفاعلية أو توضع الإنفعالية .

ولا يمكن وضع هذا الانفعال عن طريق فاعلية مستقلة للات - أنا . وإنما هذه الانفعالية توضع فقط بفضل فاعلية

كذلك، أي ينبغي ألا يكون مجرد موجود بل وأيضاً أن يعرف ما هو وهذان - وهما أمر واحد بالنسبة إلى ماهية الأنا - هما الشرطان والتفسيران للتطور النظري الضروري. والطبقة الدنيا في هذا التطور هي طبقة الانفعال، لكن إنتاج الأنا لا يبدو للأنا على أنه إنتاجه، بل يبدو له أنه شيء موجود بدونه أو كأنه معطى من خارجه ولكن ما يعطى للأنا لا يمكن إلا أن يكون معطى في داخل الأنا. وما يعطى في الأنا بدون فعل الأنا لا يمكن إلا أن يكون مجرد رفع أو تحديد لفاعليته أي مقابل لفاعليته أي مجرد حال وانفعال، حال متفعل. وإذن فالأنا يكون منفعلاً، ولكن من تلقاء ذاته فإنه يجد أمامه حالة يشعر فيها بأنه متفعل أي يحس بالانفعال. وعمل هذا فإن المرتبة الدنيا في التطور العقلي هي أن يجد الأنا في نفسه أنه في حالة كذا (أي متفعل).

وحيثما نحلل واقعة الإحساس نستطيع بسهولة أن نعرف ما هي الشروط التي بها يتم الإحساس. إن الإحساس فينا عملية ذاتية. إنه انفعال، إنه انطباع تلقاه، وهو لهذا انفعال. ولكن مجرد الانفعال، أو مجرد الانطباع ليس شيئاً يعد إحساساً، بل لا بد أن يضاف إلى ذلك أن تتمثل نحن هذا الانفعال أن نجعله من أنفسنا وبدون هذا الفعل لا يمكن الإحساس أن يكون ولهذا فإن كل إحساس هو نتاج لعاملين متقابلين: للفعل والانفعال. إنه نتاج لهذا التزاع القائم في الأنا. والإنتاج المشترك لهذين العاملين المتقابلين لا يمكن أن يكون إلا شيئاً: لا هو مجرد نشاط، ولا هو مجرد فاعلية، ولا مجرد انفعال. وإنما هو فاعلية في حال الانفعال. إنه فاعلية كقدرة، أي فاعلية ساكنة أو مادة وموضوع للقدرة فإن وضعنا في الأنا التزاع بين الفعل والانفعال، فينبغي أن لا يرفع كلاهما الآخر، بل ينبغي أن يتحد كلاهما بالآخر، وهو ما لا يمكن أن يحدث حينما يحدد كل منهما الآخر على التبادل. فإذا وضعنا الأنا في حالة هذا التحديد فإنه لا يكون ثم شيء آخر غير الإحساس.

والخلاصة أن الإحساس - وهو معتمد أهل المذهب الحسي في دعواهم التجريبية - نقول إن الإحساس لا يتم بمجرد التلقي والانطباع، بل لا بد أن يضاف إلى ذلك قيام الذات أو الأنا بفعل يحول به هذه الانطباعات إلى ذاته، وبعبارة أخرى - وإن لم تكن متفقة تماماً مع صياغة فشته - نقول إن الألوان والأصوات مثلاً ليست هي الإحساس، بل لا بد أن يقوم العقل بتحويلها بفاعليته هو إلى أشياء تصبح من

وهكذا نجد أن الوضع المباشر هو امتثال أو تصور أو تخيل، وعلينا أن نلاحظ أن اللا - أنا ليس هو الأساس الحقيقي للانفعال القائم في الأنا وإلا لكان شيئاً في ذاته بل لا بد أن يمثل على أنه خيال، ولا ينظر إليه على أنه أساس حقيقي، فهذا الأساس ليس شيئاً في ذاته بل هو امتثال ضروري من جانب الأنا. وهذا الامتثال ينبثق عن الأنا بالضرورة، ولهذا ينبغي أن نحدد الفاعلية المستقلة أو الوضع المباشر بأنه القدرة على إنتاج امتثال، أو نحدده بأنه: قوة الخيال المنتجة.

وبدون هذه القوة أو القدرة لا يوجد امتثال حقيقة اللا - أنا وبالتالي لن يكون ثمة وضع مباشر للذات والموضوع ولا نشاط أو فاعلية مستقلة تقوم على أساس الوضع للمباشر، ولن يقوم أيضاً تحديد متبادل بين الأنا واللا - أنا، ذلك التحديد الذي يشترط شرطاً له هذه الفاعلية المستقلة. ولن يكون أيضاً اتحاد بين الأنا، ذلك الاتحاد الذي لا يمكن أن يتم بدون التحديد المتبادل، ولن يكون ثمة تقابل بين الأنا واللا - أنا، ولن يكون ثمة أنا واضح، وأنا واضح للمقابل، ولن يكون ثم أنا أصيل. وبوجه علم لن يكون ثم أنا ولا ذكاء ولا عقل، ولهذا فإن ملكة الخيال المنتجة هي القوة النظرية الأساسية. وبدون هذه القوة العجيبة كما يقول فشته لا يمكن تفسير أي شيء في العقل الإنساني. وجماع جهاز التفكير في العقل الإنساني إنما يقوم على هذه الملكة.

وخلاصة هذا كله أن ثمة ذاتاً تتمثل وموضوعاً يمثل. ولكن هذا الموضوع الممثل ليس هو الشيء في ذاته، وإنما هو من وضع الأنا. وانفعال الأنا باللا - أنا ليس ناتجاً عن شيء في ذاته يؤثر ويفعل وبه الأنا يتفعل. بل الأنا هو الذي يفعل ويتفعل معاً وهذا إنما يتم بفضل ملكة الخيال التي هي القدرة الأساسية التي للأنا على أن يتصور خلاف نفسه. ومن هنا كانت الأهمية الكبرى للخيال. وهو يريد من ورائها أن يبين أننا لا نزال في نطاق المثالية، لأن الموضوع هو من إنتاج الأنا، وليس شيئاً موجوداً في الخارج يؤثر في الأنا كشيء قائم بذاته يؤثر في شيء آخر. فبملكة الخيال هذه يظل إنتاج الموضوع من شأن الذات ويبقى في داخل الذاتية المطلقة.

### تطور العقل النظري

١ - الانفعال: إن فاعلية الأنا لا يمكن كما رأينا أن تكون إلا بواسطة الأنا. وما هو الأنا ينبغي أن يكون لذاته

التحديد وهذا الانفعال. إنه يشعر بأنه محدود. وهذا الشعور بأنه محدود هو في الوقت نفسه شعور بعدم القدرة أو بالقصر. وإن كل إحساس ليصبح دائماً بهذا الشعور بالقصر.

والخلاصة: أن المرتبة الأولى في تطور العقل هي مرتبة التأمل الذي فيه وبه يتوقف نشاط العقل عن الاستمرار إلى غير نهاية. ولكن هذا التأمل ليس تأملاً شاعراً بذاته لأنه لا يتم عليه تأمل فهو مجرد تأمل بغير تأمل للتأمل، ولهذا نشعر في هذه الحالة وكأننا مكرهون على هذا الشعور؛ ولذا نجد أن الإحساس مصحوب دائماً بشعور القصر أي بالشعور بأننا مضطرون إلى تقبل هذه الانطباعات الواردة إلينا.

### العيان - التخيل

الأنات هو ما هو، وينبغي أن يكون لأجل ذاته، وينبغي عليه أن يضع ذاته باعتبار ما هو من حيث أنه يتأمل في ذاته، ولقد رأينا أن الأنات يشعر بأنه محدود، ولهذا ينبغي عليه أن يضع نفسه محدوداً، وبالتالي أن يتأمل في حدوده، وعن هذا الطريق أيضاً يتجاوز حدود نفسه، والتأمل في الفعالية اللامحدودة هو بالضرورة تحديد لها، والتأمل في التحديد هو بالضرورة تجاوز عن التحديد، وعبر الحد لا يمكن أن يوضع شيء غير ما يحده. وعلى هذا فإنه بيننا الأنات يعلو على حدوده، فهو بالضرورة يضع حداً. يقول فشته: إن الأنات يتأمل بحرية ولكن لا يستطيع أن يتأمل وأن يضع حدوداً دون أن يتج في نفس الوقت شيئاً بوصفه حداً. إن الأنات يضع بالضرورة الحد بوصف أنه محدود به، ويستبعده أي يستبعد الحد من نفسه، ولكن ما يوضع في مقابل الأنات وما يستبعد منه لا يمكن أن يكون إلا اللا-أنات. إن التأمل في الإحساس، أي التحديد، هو إذن فعالية نتاجها بالضرورة شيء يحده الأنات ويضع شيئاً في مقابله أي لا-أنات، وبيننا الأنات يتأمل في إحساسه فإنه لا يتأمل في هذا التأمل، بل هذا التأمل فاعلية لا يرى فيها الأنات نفسه إنه لا يرى نفسه يفعل، أي أنه يفعل دون وعي بذاته. ونتاج فاعليته لا يبدو له إذن على أنه نتاجه بل على أنه موضوع خارج عنه قائم هناك بغير فعله هو.

في هذا الموضوع لا يكون الأنات شاعراً بفاعليته، وكما أنه ليس على شعور بفاعليته هو فكأنه إذن قد ضاع بكل فاعليته في الموضوع وهذا الضياع والنسيان للفاعلية والضياع في الموضوع هو العيان، وهو العيان الأول الأصيل وهو على حد تعبيره «نظرة أحرص، غير شاعر بذاته». والأنات في تحديده

ذات الأنات، لكي تتحول من مجرد انطباعات وانتقشات إلى إحساسات. وهكذا يتضح دور فاعلية العقل في الإحساس إلى جانب انفعاليته بالانطباعات. ولا يعترف فشته بأن هذه الانطباعات صادرة عن أشياء في ذاتها، بل هذه الانطباعات تكاد لا تكون شيئاً وإنما هي تصبح شيئاً بتبسيط الأنات لفاعليته عليها. فالأمر في النهاية يرتد في الواقع إلى فاعلية الأنات. ولكن كيف يستتبط من ماهية الأنات ضرورة التحديد؟

هذه المسألة لم يستطع نقد كنت أن يعطي جواباً عنها، وجاء فشته لأول مرة فحاول أن يجلبها فقال: إن الأنات فاعلية خالصة غير محدودة بشيء، وما هو ينبغي أن يكون لأجله، أي أنه «أنات» هو فاعلية، وفي نفس الوقت تأمل في فاعلية. فإذا استحال الفاعلية إلى تأمل فإن هذا لا يستمر إلى غير نهاية، بل تأمل يحده انقطاع وتحديد للفاعلية. وترجع هذه على هذا النحو إلى الأنات نفسه. وهكذا نجد أن الأنات بفضل تأمله يصبح فاعلية عائدة على نفسها. إن الأنات بفضل هذه الفاعلية العائدة على نفسها ترجع إلى نفسها وتجد نفسها وتشعر بنفسها. ولو كان الأنات فاعلية غير محدودة وبدون تأمل، فلن يكون ثمة أنات. وإذن بفضل التأمل الذي يعوق امتداد الفاعلية إلى غير نهاية، ويرجع بالذات إلى ذاتها يقوم الأنات وينشأ لنفسه، وبهذا ينشأ بنفسه ويصبح نتاج نفسه، ولكن لا يعرف بعد أنه هو الأساس في إنشائه لنفسه هذا، إنه ليس بعد «أنات» مدركاً لنفسه، فما هو هذا الأنات الذي نشأ على هذا النحو؟

إن الأنات يجد من فاعليته من حيث أنه يتأمل فيها. فهذا التأمل إذن فاعليته هو ذاته، لكنه بيننا يتأمل في فاعليته فإنه لا يتأمل في نفس الوقت في تأمله، فلا يتبدى هذا التأمل في الشعور، بل تكون فاعليته غير شاعرة بذاتها. وما تتجه هذه الفاعلية لا يبدو أنه شيء مستخرج من الأنات بل على أنه شيء معطى من الخارج. والنتاج لهذا التأمل الأول هو التحديد، وهذا التحديد يبدو كأنه موضوع من خارج، ولا يبدو هنا على نحو آخر، وهكذا يمكن الأنات أن يبدو على أنه منفعل، أي أنه يتقبل. وهكذا، فإن الأنات بفضل تأمله الأول لا يمكن أن يكون غير مجرد إحساس في هذه الطبيعة أو المرحلة الأولى من مراحل تطوره، إن تحديد الأنات ناتج عن فاعلية لا يتأمل فيها الأنات، أي عن فاعلية غير مشعور بها، ولهذا السبب فإن هذا التحديد ليس من البداية ناتجاً له، بل حالة وضع فيها يشعر بانفعاله فيها بأنه منفعل، وشعوره بالذات يتم مع هذا

اللا - أنا وهكذا يكون لدينا الأنا واللا - أنا، وكلاهما في فاعلية وكلاهما مستقل في نشاطه عن الآخر، لكن نتاج كليهما ينبغي أن يكون بمثابة نسبة الصورة المحاكية إلى النموذج المحاكي، أي ينبغي أن يتفقا، فنشاط الأنا واللا - أنا مستقل كل منهما عن الآخر، ومع ذلك فهما متفقان منسجمان، فكيف يتم هذا الاتفاق أو الانسجام؟

لدينا هنا الأنا كما يتأمل نفسه من الناحية الدجماطيقية، إنه يتناول الموضوعات على أنها أمور مستقلة عنه تمام الاستقلال، ويتناول تأملاته على أنها ناشئة بواسطة فاعلية تلقائية خاصة مستقلة عن الأشياء، ويضع معرفته في انسجام كليهما أي في التصورات أو الامتثالات المطابقة للأشياء، فلو كان الشيء الحقيقي مستقلاً كل الاستقلال عن الأنا، أي شيئاً في ذاته، فإنه لا يمكن أن يكون نموذجاً له، لأن النموذج صورة امتثال أي شيء موجود في الأنا، وعلى هذا فإن الصورة وإن كانت من نتاج الأنا فهي تتبدى له على أنها شيء غريب مستقل عنه، أي على أنها موضوع قائم خارجي يضيع الأنا فيها، في عيانها وقد نسي أو لم يتبته لنشاطه هو.

إن الشيء الحقيقي ليس شيئاً آخر غير عياننا لأولي الأصل المباشر، إنه هو الأنا الضائع في العيان، فإذا كان الأنا يحاكي الشيء الحقيقي في ذاته فإنه يحاكي عيانه ويتج نتاجه، أي أنه ينتج بوعي ما أنتجه قبل ذلك بدون وعي، وبهذا يفسر تلمحاً ذلك التوافق بين الشيء والامتثال.

والخلاصة أن العيان هو الأساس في التوافق بين امتثالاتنا وبين الأشياء.

وختلاصة ما يريد فشته قوله هنا هو أن يفسر أمراً لافتاً للمنظر في نظرية المعرفة وهو هذا التوافق بين تصورات الأشياء وبين الأشياء. كيف يمكن إذن تفسيره؟

يقول التجريبيون إن هذا التوافق ناشئ عن أن العقل بمثابة شمع أو لوحة بيضاء يتشمس فيها ما تطبعه الأشياء الخارجية في هذه اللوحة أو الشمع ولكنهم لم يستطيعوا تفسير هذه العملية لأن العقل لا يمكن أن يوصف أنه مرآة تطبع فيها الأشياء. ولهذا كان لا بد من تفسير هذه العملية، أي التوافق بين الأشياء وبين تصوراتها، تفسيراً يتفق مع حقيقة العقل.

فجاء فشته وحل هذه المسألة على الصورة التي رأيناها وهي أن السبب في هذا التوافق هو أن العقل المحيّد

أي بوصفه محدوداً هو شعور أو إحساس، ولكنه بوصفه أنا فإنه ليس مجرد إحساس وإنما هو ما هو من أجل ذاته، إنه يضع نفسه كحاس وبتمييز من المحسوس، أي أنه يضع نفسه بوصفه محدوداً بحاد موضوع في مقابله ومستبعد عنه، والموضوع في مقابله هو اللا - أنا. وفي عيان اللا - أنا يشعر الأنا بأنه محدود، وللحدود والحاد والإحساس والعيان والشعور بالمحدودية وبعدم القدرة أو بالقسر وعيان اللا - أنا، كلها مرتبطة فيما بينها في الأنا، فلا عيان بغير شعور بالقسر، ولا شعور بالقسر بدون عيان، والشعور بالقسر ينشأ عن محدودية الأنا. وهذه المحدودية نفسها تنشأ عن التأمل الأصيل. أما العيان فينشأ حينما يتأمل الأنا في محدوديته وبالتالي يرتفع فوق حدوده، أي أن ذلك يتم من خلال الفاعلية التلقائية للأنا، إن العيان والشعور بالقسر يتعلق أحدهما بالآخر مثل تعلق التلقائية بالتأمل، والحرية بالمحدودية، والإنتاج بالتحديد، ولا بد من التوحيد بينهما، فكيف يتيسر هذا التوحيد؟

إن الأنا في عيانه للأنا - أنا يكون مرتبطاً وحرراً معاً. إنه كلاهما معاً بينما هو يتأمل في العيان. في أي شيء يتأمل؟ هذا شيء معطى للأنا وموجود بغير فعله، ولهذا فإن الأنا يتحدد تحديداً كاملاً بفاعلية اللا - أنا وعلى الأقل يبدو المعان للأنا من وجهة نظره هذه على أنه نتاج لللا - أنا ولا بد أن يبدو له، أما أنه يتأمل فيه فهذه فاعليته الخاصة الحرة، إنه لا يستطيع أن يتأمل إلا في التميزات الموضوعية في العيان، ولكنه يسلك خلالها بحرية - يتأمل - ويطبعمها بطبيعته. ويفضل هذا النشاط يضع العيان في ذاته ويصوره وفقاً لذلك، إن الأنا في حالة التأمل في العيان هو فاعلية مضورة نتاجها الصورة، والصورة ترسم بحرية، ولكنها في نفس الوقت مخلوقة تحديداً كاملاً، ولا بد أن تناظر موضوعات مستقلة كل الاستقلال، أي ينبغي أن توضع على أنها صورة محاكية. وهكذا فإن الموضوع الذي هي محاكية له يوضع على أنه صورة نموذجية. فالصورة نتاج للفاعلية الخاصة بالأنا، ويبدو للأنا على أنه نتاجه.

فالصورة نموذجية إذن مستقلة، إنها ليست من نتاج فاعلية الأنا، بل هي موجودة بدون فعل الأنا أي أنها توضع بوصفها شيئاً قائماً حقيقياً مستقلاً عن الأنا، وهكذا يتبدى للأنا الفارق بين المثالية والواقعية.

الامتثالات والأشياء - الذات والموضوع

إن الصورة نتاج فاعلية الأنا والشيء الفاعلي نتاج نشاط



فإن المكان يبدو أنه كرة مشتركة ممتدة متصلة منقسمة إلى غير نهاية فيها تستريح الأشياء بعضها بعضاً.

أما عن الزمان فيقول فشته إنه سلسلة من النقاط، يتوالى بعضها الواحدة بعد الأخرى توالياً ضرورياً.

فإن اتحاد الأنا واللأنا - أنا يتم في سلسلة من النقاط، والعلاقة بين هذه النقاط محدودة بدقة، فلو نظرنا في توالي نقاط الزمان التي لا يتوقف أحدها على غيره فإن هذه النقطة هي الحاضر، أما سلسلة الزمان التي لا يتوقف أحدها على غيره فإن هذه النقطة هي الحاضر، أما سلسلة الزمان التي يتوقف عليها الحاضر فتحمل نسميتها الماضي.

ولما كان الزمان ليس بشيء خارج الأنا، ولما كان الأنا نفسه لا يمضي ولا يقف، فإذن لا يوجد ماضٍ حقاً أبداً لأن وضع الماضي على أنه شيء حقيقي معناه وضع زمان مستقل عن الأنا، أي وضع شيء في ذاته. والسؤال هل لم يمض زمن؟ هو بعينه السؤال: هل يوجد شيء في ذاته أو لا يوجد؟

إن الماضي بالنسبة إلينا الزمان الذي مضى أي هو الزمان الذي نتصوره في الحاضر، أي أنه هو الزمان الذي نضعه ماضياً، ولا مناص من أن نضع زماناً على أنه ماضٍ لأننا لا نستطيع بغير ذلك أن نضع زماناً على أنه حاضر، وإذن فالماضي ضروري لنا لأنه الشرط في الحاضر، والحاضر هو الشرط للوعي أو الشعور، فبدون الماضي ليس ثم حاضر، وليس ثم وعي، والوعي لا يكون ممكناً إلا بواسطة التأمل في فعاليتنا الحرة.

### الأنا بوصفه فاعلية مُفكِّرة

١ - **الذهن: Verstand:** إن الأنا عيان وتخييل، تخيل مبدع منتج، ويفضل الخيال المنتج يصبح العيان حقاً في الأنا، ويوضع من أجل الأنا، ويفضل العيان يتحقق الإحساس عند الأنا، ويفضل الإحساس يتحدد الأنا ويعود إلى نفسه أي يجد نفسه بوصفه الأنا، وبعبارة أخرى الأنا فعالية غير محدودة، ولهذا فإن الفعالية اللامحدود تساوي الأنا، إن الأنا إحساس، كذلك ينبغي أن يكون الإحساس مساوياً للأنا، والأنا عيان. لهذا ينبغي أن يكون العيان مساوياً للأنا، والأمر الأول هو مهمة الإحساس، والأمر الثاني هو مهمة العيان، والأمر الثالث هو مهمة الخيال.

للموضوع هو المحدث للصورة عن النموذج. فما دام الفاعل في كليهما واحداً فقد ضمنا أن يكون ثم اتفاق بين الصورة ونموذجها.

فموقف المثالية عند فشته هو الكفيل وحده إذن بتفسير الانطباق بين التصورات العقلية وبين ما هي تصورات لها.

إن الأنا فاعلية أصيلة غير محدودة وهي حينها تتأمل في هذه الفاعلية فإنها تكون محدودة بانقطاع الفاعلية، كما أنها تشعر بأنها محدودة، ويفضل هذا التأمل في حالة الإحساس يضع الأنا نفسه على أنه امثال أي تصور. وهكذا نجد أن نفس الموضوع قد وضع مرتين: (أ) قد وضع على أنه نموذج؛ (ب) قد وضع على أنه صورة محاكية؛ على أنه عيان وعلى أنه صورة؛ على أنه شيء حقيقي وعلى أنه امثال، ولا بد أن يرتبط كلا الطرفين الواحد بالآخر.

وهكذا نجد أننا قد وصلنا إلى تقرير أن النموذج والصورة كليهما من وضع الأنا، وضمنا بهذا اتفاقهما، وليس النموذج إذن كما يدعي التجريبيون.

وبعبارة غير دقيقة نستطيع أن نقول إن الشيء الخارجي هو من صنع الأنا، وتصوره من صنع الأنا، وبهذا إتفقا، وبهذا قررنا المثالية التامة.

### الزمان - المكان

إن أسلم العيان هو الأنا بوصفه قوة متخيلة، والمكان هو نتاج هذه القوة المتخيلة، فلما كان الأنا في عيانه يضيغ؛ أو لا يتأمل في فعاليتيه المعانية، فإن المكان لا يبدو له أنه نتاجه، بل يبدو أنه معطى له، إنه لا يستطيع أن يستنبط علامات المكان من نفسه، وإنما يعزو هذه الروابط إلى الأشياء نفسها، ولكن الأنا ليس مجرد كيان فحسب وإنما هو أيضاً تأمل في العيان. وفي هذا التأمل يكون الأنا حراً ويمكنه أن يتأمل في هذا الموضوع وفي العيان أيضاً. ويستوي إلى أين يتجه التأمل في تأمله، ويستوي أن يكون الموضوع أي موضوع كان، لأنه لا واحد منها يرتبط بالضرورة بالمكان، ولهذا يستطيع الأنا أن يفصل عن أي مكان معين أي موضوع، أي يمكن إذن فصل المكان عن كل الموضوعات أي يمكن تصور المكان الخاوي. والأنا لا يستطيع أن يميز بين الموضوعات والعيانات إلا في المكان، ولكنه يستطيع تصور المكان خالياً من الموضوعات. وما يميز في المكان هو أمكنة يمكن فيها التمييز بين أمكنة، وهكذا نجد أن المكان يمكن تقسيمه إلى غير نهاية. وبالجملة



التجريد. ويتبين له أنه حين يستطيع أن يفصل نفسه عن كل موضوع ويكون شاعراً بقدرته المطلقة على التجريد ويتبين له أنه حين يستطيع أن يفصل نفسه عن كل موضوع، وأن يتبين أنه لا موضوع يتسبب إليه وكأنه لا يفصل عنه، أي أنه بهذا يكون على شعور بماهيته الأصلية المحضة. والأنا في هذه الذاتية الخالصة غير المشروطة هو العقل. والشعور بالذات؛ وكلما قويت هذه المقدرة، كانت قدرتها على الإدراك أكبر، وكان تحرر الأنا من الموضوعات أكثر، وزاد بذلك امتلاء الشعور الذاتي بما هو خالص.

ويستطيع الإنسان أن يتبين نحو حرية الشعور بالذات ابتداءً من الطفل الذي يغادر مهده لأول مرة، حتى الفيلسوف الشعبي الذي لا يزال يتمسك بالصور المادية للأشياء ويتساءل عن مكان النفس، حتى نصل تدريجياً إلى مذهب العلم الذي هو - في نظر فثته - أوج الفلسفة.

#### نشرات مؤلفاته

##### Texts

- *Sämtliche Werke*, edited by I.H. Fichte. 8 vols. Berlin, 1845- 6.
- *Nachgelassene Werke*, edited by I.H. Fichte. 4 vols. Bonn, 1834- 5.
- *Werke*, edited by F. Medicus. 6 vols. Leipzig, 1908-12. (This edition does not contain all Fichte's works.)
- *Fichtes Briefwechsel*, edited by H. Schulz. 2 vols. Leipzig, 1925.
- *Die Schriften zu J.G. Fichte's Atheismus- streit*, edited by H. Lindau. Munich, 1912.
- *Fichte und Forberg. Die philosophischen Schriften zum Atheismus- streit*, edited by F. Medicus. Leipzig, 1910.

#### مراجع

- Adamson, R. Fichte. Edinburg and London, 1881.
- Bergmann, E. Fichte der Erzieher. Leipzig, 1928 (2nd edition).
- Engelbrecht, H.C.J.G. Fichte: A study of His Political Writings with special Reference to His Nationalism. New York, 1933.

وكذلك ينبغي أن يكون الخيال مساوياً للأنا، والخيال مثل العيان يمكن أن يستمر دون توقف عند إنتاج محدد، فلو وضع مثل هذا الإنتاج ينبغي تحديد الفاعلية أي العيان والخيال، أو أن يثبت مضمونها.

وهذا التحديد يتم عن طريق التأمل، وهذا التأمل يقتضيه الأنا نفسه، لأن الفاعلية التي لا تتأمل ذاتها ليست أنا، فإذا كان ينبغي أن يكون الخيال = الأنا، فينبغي على الأنا أن يتأمل في فاعليته المصورة، وأن يحدد هذه الفاعلية هي أو نتاجها، وهذا التحديد هو تثبيت، والأنا يجعل أن نتاج الخيال يثبت، أي يجعله يقف، وبالتالي قابلاً للوقوف والاحتفاظ به، وفعل التثبيت وهذه القدرة على التوقيف هي الذهن.

#### ب - ملكة الحكم:

إن الأنا على شعور بهذه الامتثالات، وبأن هذه الامتثالات هي من نتاج فاعليته، وأنها موضوعات ناشئة عن تأمله الحر وما يفعله الأنا ينبغي عليه أن يتأمل فيه، وبوصفه تأملاً في الخيال وفي نتاجه فإنه يسمى باسم الذهن. لكن ماذا نقول عن تأمله في الذهن وفي الموضوعات الموجودة في الذهن؟

إن تأمله حر، وهو لهذا يستطيع أن يتأمل في الموضوع المحدود وأن لا يتأمل، يستطيع أن يتأمل في (أ) كما يستطيع أن يتأمل في (لا - أ)، إنه يخلق بين الإدراك وعدم الإدراك وهو هذا الوصف فاعلية غير محدودة، ولا يمكن أن يتحدد إلا بفضل هو، وذلك بأن ترتبط حرية التأمل أو عدم التأمل بموضوعات محدودة، وعدم التأمل في موضوع محدد هو التجريد. وهكذا نجد أن الأنا فيما يتعلق بالامتثالات أو موضوعات العقل يقوم بالتأمل وبالتجريد فيربط علامات أو يفصل بينها، والربط أو الفصل معناه الحكم. وعلى هذا فإن الذهن وملكة الحكم يحدد كلاهما الآخر على التبادل.

#### ج - العقل Vernunft:

إن الأنا بوصفه ملكة للحكم لديه الحرية أن يوجه تأمله إلى موضوع معين أو لا يوجهه. ويستطيع أن يتجرد عن موضوع معين، ويستطيع أن يجرد من هذا الموضوع المعين، أي أن قدرته على التجريد قدرة مطلقة. إن الأنا، كما قلنا، ملكة للحكم. وما هو ينبغي أن يكون لأجله، أي أنه يتأمل في قدرته على الحكم فإنه لا يتوجه إلى موضوع معين، بل يتجرد عن كل موضوع، ويكون شاعراً بقدرته المطلقة على

على « العلم الكلي » الذي هو بمثابة الشجرة التي تنضج منها العلوم الجزئية ، وموضوعها هو للمبادئ المشتركة بين العلوم : وعند هوبز (De Corpore) يطلق اللفظ بمعنى قريب مما نجده عند بيكون .

### فلسفة التاريخ

**Philosophie de l'histoire (F.), Geschichtsphilosophie (G.), Philosophy of History (E.)**

موضوع فلسفة التاريخ هو البحث في المسائل الرئيسية

التالية:

- ١ - ما معنى التاريخ ؟
- ٢ - هل لأحداث التاريخ علية ؟ وهل تحكمها قوانين ؟
- ٣ - هل للتاريخ اتجاه ؟ وما هو هذا الاتجاه ؟

١ - وفيما يتصل بالمسألة الأولى علينا أن نفرق بين التاريخ Geschichte أي توالي أحداث العالم على مر الزمان، وبين علم التاريخ Historie الذي يصف تلك الأحداث ويرتبها على نحو معين.

أما الصفة: تاريخي historique, geschichtlich فتدل في اللغة العادية والعلمية على معان متباينة، إذ تدل على ما هو: نسبي أو مشروط، كما تدل على ما هو عملي Concret وعلى ما هو شرعي أو مشروع légitime (في العبارة: حقوق تاريخية، مثلاً)، وعلى ما هو موضوعي objectif، وغير ذلك. وتطلق هذه الصفة على: النظريات، التجارب، الأعمال، الأحداث، المواقف، إلخ.

ويقترض التاريخ استمراراً واتصالاً في التطور، بحيث يكون الماضي داخلياً في تكوين الحاضر والمستقبل؛ ويتقسم التاريخ إلى تاريخ عام للعالم، أو تاريخ خاص ببلد أو أمة أو منطقة أو فترة من فترات الزمان. لكن أياً كان الأمر، فالتاريخ ينظر إليه أساساً على أنه يؤلف وحدة.

ومن هنا قام السؤال: هل لهذه الوحدة معنى ؟

وهنا نلتقي أولاً بمعنى التاريخ عند المفكرين المسيحيين، وأولهم القديس أوغسطين الذي تصور التاريخ الإنساني كله على أنه فترة من الزمان تتحقق فيها خطة الله في خلاص الإنسان منذ أن وقع آدم في الخطيئة: وأهم سمات

- Fischer, K. Fichtes Leben, Werke und Lehre. Heidelberg, 1914 (4 th edition).
- Gogarten, F. Fichte als religiöser Denker. Jena, 1914.
- Gueroult, M. L'évolution et la structure de la doctrine de la science chez Fichte. 2 vols. Paris, 1930.
- Heimsöth, H. Fichte. Munich, 1923.
- Hirsch, E. Fichtes Religionsphilosophie. Göttingen, 1914. Christentum und Geschichte in Fichtes Philosophie. Göttingen, 1920.
- Léon, X. La philosophie de Fichte. Paris 1902. Fichte et son temps. 2 vols. (in 3). Paris, 1922- 7.
- Pareyson, L. Fichte. Turin, 1950.
- Rickert, H. Fichtes Atheismusstreit und die Kantische Philosophie. Berlin, 1899.
- Ritzel, W. Fichtes Religionsphilosophie. Stuttgart, 1956.
- Stine, R. W. The Doctrine of God in the Philosophy of Fichte. Philadelphia, 1945 (dissertation).
- Thompson, A.B. The Unity of Fichte's Doctrine of Knowledge. Boston, 1896.
- Turnbull, G.H. The Educational Theory of Fichte. London, 1926.
- Wallner, F. Fichte als politischer Denker. Halle, 1926.
- Wundt, M. Fichte. Stuttgart, 1937 (2nd edition).

### الفلسفة الأولى

#### F. philosophie première

أطلق أرسطو هذا اللفظ على الفلسفة الباحثة في الموجود بما هو موجود، وسمّاها أيضاً « اللاهوت »، وذلك تمييزاً لها عن الفزياء (الفلسفة الثانية) ومن الرياضيات (راجع « السماع الطبيعي » م ١ ف ٩ ص ١٩١ ٣٦٤؛ « ما بعد الطبيعة » م ٦ ف ١ ص ١٦١ ٢٢٠٦، إلخ). وهي ما أصبح يعرف باسم ما بعد الطبيعة.

وأطلق بيكون (De Augm. Scient. II,1) هذا اللفظ

لأن الإنسان كائن عاقل، والعقل يدعوه إلى تحسين أحواله وتمكينه من الحياة السعيدة، ويتجلى هذا التقدم في تطور العلوم والفنون، وفي تهذيب الأخلاق، وفي إصلاح القوانين، وفي انتشار التجارة والصناعة. لكن ليس معنى هذا أن مسار التاريخ العالمي خط مستقيم متصل من التقدم، بل وجدت عصور مظلمة انتشرت فيها الخرافات، وعمّ القهر والاستبداد والفساد، وصارت فيها الأخلاق أكثر وحشية وضراوة. لكن هذه فترات عابرة؛ أما بالنظر الكلية إلى تاريخ الإنسانية، في مجموعه، فإنه يُشاهد تقدم مستمر: من الوحشية إلى الحضارة، ومن الإظلام إلى التنوير؛ وفي «العصور السعيدة» للتاريخ تلالاً نور التقدم. وهكذا نُظِر إلى التاريخ العلمي على أنه سير متواصل في سبيل التقدم بقيادة العقل الإنساني.

وصارت هذه النظرة ليس فقط نظرة المؤرخين في عصر التنوير وما تلاه، بل وأيضاً فكرة سائدة في أذهان المثقفين بوجه عام. وصارت نقطة انطلاق للمعايير الأخلاقية، وللمساعي الحضارية، وللأهداف السياسية. إذ نجد هذه الفكرة، فكرة التقدم المستمر للإنسان واضحة في مقالات توجو Turgot (١٧٥٠) وهو في شبابه وفي «تاريخ الإنسانية» (سنة ١٧٦٤) لاسحق ازلين Iselin، وفي «مجموع لوحات تاريخية لتقدم العقل الإنساني» (سنة ١٧٩٤) تأليف كوندورسيه Condorcet.

وسواء اتخذ هذا التقدم بوصفه بدءاً للتنظيم صورة طبيعية وتمجيداً للنوازع الطبيعية، أو اتخذ صورة عقلية على أساس أنه نمو للعقل على مدى الزمان أو توكيد العقل لذاته خلال الزمان، فإن النظرات المختلفة في فلسفة التاريخ في عصر التنوير وما تلاه مباشرة تتوافق فيما بينها مع هذه الفكرة وهي أن التاريخ العالمي هو التحقيق الكلي المتقدم دائماً للحضارة العقلية. وصار موضوع فلسفة التاريخ هو تحقيق الإنسان للكمال، لا بوصف ذلك مجرد إمكانية، بل بوصفه عملية تتحقق فعلاً، بعد أن كان موضوعها لدى اللاهوتيين هو تحقيق الخلاص.

وفي الفترة التالية المباشرة لنزعة التنوير نجد تعميقاً وتعديلاً لفكرة التقدم العقلي وتحقيق العقل لنفسه هذه. فأصبح ينظر إلى تطور العقل على أنه يجري وفقاً لمبادئ العلم والوعي بوجه عام. وبهذا تحول التقدم والتطور إلى أشكال من التأمل الفكري. وهذا يظهر عند فشته Fichte في مذهبه في الدولة وفي القانون، كما تجلده في فلسفة التاريخ وفلسفة القانون

هذه الخطة هي: خلق العالم، خطيئة آدم، فناء الدنيا، القيامة ويوم الحساب. وهذه القسّمات تعطي للتاريخ معنى إلهياً عالياً. فصار تاريخ الإنسان في نظر اللاهوت المسيحي هو تاريخ الخلاص. وقد سادت هذه النظرة مفكري العصور الوسطى، وقال بها أيضاً بوسويه في القرن السابع عشر في كتابه «مقال في التاريخ الكوني» (سنة ١٦٨١).

لكن جاء عصر النهضة الأوربية (القرن السادس عشر) وعصر التنوير (القرن الثامن عشر) فثار على هذه النظرة اللاهوتية، فقال رجال هذين العصرين إن موضوع التاريخ ليس الله العلي على الكون والذي يدبر بعناية مجرى أحداث العالم، بل موضوع التاريخ هو الإنسان نفسه: المجتمع بنظمه وقوانينه كما صنعها الإنسان. لقد أدركوا أن سلوك الإنسان على مدى الزمان يكشف عن ثوابت معينة، شارك في إيجادها الإنسان من ناحية، والطبيعة من ناحية أخرى. فنجد مكيافلي يستنبط من التاريخ الروماني كما كتبه ليفيوس ثوابت معينة تتجلى في الموقف التاريخي آنذاك. وقد شبه هذه الثوابت بقوانين الطبيعة؛ فكما أن قوانين الطبيعة تتكرر آثارها بانتظام، فكذلك تتكرر المواقف التاريخية وآثارها بانتظام.

وجاء فولتير في كتابه «بحث في أخلاق الأمم وروحها» (سنة ١٧٥٦) فثار على النظرة اللاهوتية، خصوصاً كما تمثلت في كتاب بوسويه: «مقال في التاريخ الكوني» (سنة ١٦٨١). فقال فولتير إن مهمة المؤرخ أن يفكر في تاريخ الإنسانية بوصفه كلاً يؤلف وحدة، وأن يتساءل عن معنى التاريخ. لكن اللجوء إلى الوحي لا يؤدي إلى نظرة في شمول التاريخ، لأنه يقتصر على اتباع دين واحد، كما لا يكشف عن معنى التاريخ، لأن التاريخ يتقوم من أفعال الناس ومسايعهم، ومن تقدم الحضارة. لقد اقتصر بوسويه وأمثاله على تاريخ الأمم المسيحية، أما فولتير فقد شمل في نظريته إلى التاريخ: الصين التي اعتبرها قمة في الأخلاق الإنسانية والحضارة العقلية، وإيران والهند والعرب، وميز تمييزاً حاداً بين هذه الشعوب وبين الشعب اليهودي ومسيحية العصور الوسطى. ورأى في الأديان القطعية عرفيل في سبيل حرية العقل الإنساني، كما رأى في التعصب للتولد عن هذه الأديان قوة مضادة للتقدم.

وفكرة التقدم صارت هي الفكرة السائدة في تصور التاريخ العام للإنسانية لدى أصحاب نزعة التنوير: إذ رأوا أن التقدم هو القانون الباطن والمعنى الجوهرى لتاريخ العالم،

تحقيق الإنسان للكمال وترتيب أموره في هذه الدنيا على النحو السليم. وفي كتاباته التربوية («إميل») والسياسية («العقد الاجتماعي» إلخ) بين روسو كيف يكون التقدم الإنساني سليماً وحقيقياً.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين على وجه الخصوص، ازدادت المعارضة لفكرة التقدم كلما صارت العملية الصناعية هي مضمون فلسفة التاريخ وأصبحت أيديولوجية في الصراع بين الطبقات. واتخذ هؤلاء المعارضون من الأزمات العديدة التي وقعت في القرن العشرين دلائل على صواب رأيهم فأذكروا أن تكون ألوان التطورات الجارية في العالم: سواء زيادة القدرة التكنولوجية، أو زيادة التحرر والديمقراطية، أو التغييرات الثورية في أحوال الملكية. دلائل على التقدم الحقيقي، بل أكدوا أنها ستؤدي إلى الفوضى والمزيد من العبودية والقهر والدكتاتورية الشمولية خصوصاً في المجتمعات الجماهيرية. وهذه النظرة المضادة تجدها أولاً عند جوزف دي ماستر de Maistre الذي هاجم هجومياً حاداً مبادئ الثورة الفرنسية وما زعمته من تحقيق للتقدم بفضلها. وهاجم ثورة سنة ١٨٤٨ دونوسو كورتيس Donoso Cortés المفكر السياسي الأسباني. وطوال القرن التاسع عشر قام مفكرون عديدون، لم يكونوا من ذوي النظرات الرجعية أو اللاهوتية، بمهاجمة فكرة التقدم المبني على نمو الصناعة والتكنولوجيا، وعدوه انحطاطاً وسقوطاً للإنسان. ونذكر من هؤلاء يعقوب بوركهردت Jacob Burckhardt مؤرخ الحضارة المشهور.

ونعود إلى أنصار فكرة التقدم فنقول إن تصوراتهم لمعنى التقدم وللعوامل الفعالة فيه ولأدوار مختلف الشعوب في تحقيقه - هي تصورات متفاوتة.

إذ نجد أولاً هرردر Johann Gottfried Herder في كتابه «أفكار في فلسفة تاريخ الإنسانية» (١٧٩١-١٨٧٤) يرى أن التاريخ العام بوصفه كلاً له هدف وهو: التحقيق الكامل للإنسانية. لكن الشعوب، والحضارات، والعصور ليست مجرد معالم على طريق التقدم، بل هي في الوقت نفسه أشكال للإنسانية لها قيمها الذاتية، حتى الأولية منها: فإن قيمتها الذاتية تقوم في قربها من الطبيعة، ومذاجتها وقوتها الخلاقة المستمرة في الخلق؛ إنها بمثابة الطفولة ومطلع الشباب للإنسانية في سيرها نحو النضوج. ولهذا استعمل تشبيهه «الحياة» بدلاً من فكرة التقدم المجردة. وقال إن الشرق

عند هيجل. وصار الأساس التنظيمي لهذه التأملات منطقاً متعالياً ومذهباً في العلم، أي منطقاً دياكتيكياً نظرياً. والفكرة الموجهة في هذه التأملات هي الهوية بين الذات (العقل الإنساني) وبين الموضوع (العالم)؛ وهي بدورها أدت إلى إزالة التفرقة بين الفعل والتأمل العقلي.

وقد أنتجت هذه النظرة إلى التاريخ نتائج عملية إذ هي تهيء إمكان تحديد خطط للمستقبل ووضع أهداف للمجتمعات والنظم، وخصوصاً تعطي مضمونات للحركات الثورية وتبريرات لقيامها بوصفها وسائل ناجحة في تحقيق التقدم. ورسخ الاعتماد بفضل هذه النظرة في فلسفة التاريخ، بأن للحاضر، في مجرى التاريخ العالمي، دوراً بارزاً، هو أن مهمته هي دفع عجلة التقدم بعد أن صار الإنسان واعياً بالأهداف. وتأكدت هذه الفكرة في عصر الثورات البورجوازية. وأصبح ينظر إلى الحاضر على أنه «الأزمة الكبرى، التي ينبغي فيها تصفية النظم التقليدية والقوى المتوارثة القديمة، ابتغاء تمكين المستقبل من البروغ». وهذا ما نجده في كتابات كلود هنري دي سان سيمون، ثم في كتابات وتحركات كارل ماركس وأتباعه. لكن بينما كانت فكرة التقدم في عصر التنوير تعني تقدم الإنسانية عقلياً وروحياً وأخلاقياً، صار التقدم عند كارل ماركس وأتباعه يعني التقدم الاقتصادي المادي، وخصوصاً الثورة الصناعية. وارتبط عندهم تحرير الإنسان والمجتمع بتقدم وسائل الانتاج الصناعي. وهكذا لا تزال فكرة التقدم أساساً لفلسفة التاريخ، مع اختلاف المضمون الذي يعطى للتقدم. وهكذا صارت فلسفة التاريخ سلاحاً أيديولوجياً في الحروب الأهلية في داخل الدول، وبين المعسكرات الدولية المختلفة، بعضها وبعض.

لكنه في مقابل فكرة التقدم هذه وجد في القرن الثامن عشر نفسه، وفي القرن التاسع عشر فكرة مضادة، بدأ في إبرازها جان جاك روسو في كتابه: «مقال في الفنون والعلوم» (سنة ١٧٥٠) ثم في كتابه: «مقال في أصل وأسس التفاوت بين الناس» (سنة ١٧٥٤). فمن رأي روسو أن تقدم العلوم والفنون لم يؤد إلى تحسين الأخلاق، بل إلى إفسادها، ولم يؤد تقدم نظم الملكية والقانون إلى الحرية والإخاء، بل أدى إلى المزيد من التفاوت والقهر بين الناس. وهكذا اتخذ التاريخ طريقاً زائفاً منذ أن ترك الإنسان حال الطبيعة التي كان عليها واتخذ طريق المدنية. لكن روسو كان مع ذلك يؤمن بإمكان

إنسانية، بل إلهية، وموضوعه ليس الإنسان، بل روح العالم أو الـ *Idee* (بالمعنى الذي لهذا اللفظ عند هيجل). فانبثقت عن هذا الجيل الثاني فكرة المادية التاريخية التي ترى أن الإنسان وهي تقصد به الإنسان المتحرر بظروف العمل في مجتمعه - هو موضوع التاريخ. وأوضاع الانتاج المحددة بالوسائل التكنولوجية هي بالنسبة للإنسان الوقائع التاريخية الأولية، وتناقضاتها الداخلية هي التي تعين الديالكتيك الواقعي الذي يدفع مسيرة التاريخ. ولما كان التاريخ - في زعمهم - قد كان حتى الآن ومنذ نشوء الكلية الفردية مجالاً للنظم الاستغلالية والاستعبادية، فإنه تاريخ عبودية الإنسان ومغايرته. وإفقار البروليتاريا في النظام الرأسمالي يمثل أدنى درجات سقوطه، بينما الثورة البروليتارية الناشئة هي نقطة التحول إلى تاريخ الحرية!

٢ - والمسألة الثانية في فلسفة التاريخ هي البحث في التركيب المنطقي للمعرفة التاريخية التي تسجل في علم التاريخ.

وقد بدأ الاهتمام بهذا اللون من البحث كرد فعل ضد النزعة (التي كانت منتشرة في عصر التنوير) التي أرادت أن تجعل التاريخ كسائر العلوم الطبيعية، بدعوى أن العلوم الطبيعية هي النموذج لكل معرفة بالمعنى الحقيقي. ومن أبرز من قالوا بهذه الدعوى في القرن الثامن عشر ديشيد هيوم، وكذلك قال بها في القرن التاسع عشر العديد من المؤرخين والفلاسفة من ذوي النزعة الوضعية.

لكن في نهاية القرن التاسع عشر ظهر فلاسفة ينكرون هذه الدعوى، ومن أبرزهم جورج زمل وهينرش ركرت *Rickert*، ثم خصوصاً فلهم دلتاي في ألمانيا، ويندو كروتشه في إيطاليا.

أدرك هؤلاء أن أهداف المؤرخ تختلف تماماً عن أهداف العالم الطبيعي. ذلك أن المؤرخين لا يُعنون باكتشاف القوانين الكلية أو اكتشاف نظريات يمكن منها التنبؤ وتصلح مرشداً للإنسان في العمل أو في الصناعة، بل مهمة المؤرخ الأولى هي تحديد ما حدث في الماضي، ولماذا حدث. وهذا الأمر يقتضي بالضرورة التركيز على الأحداث الجزئية وخصائصها الفردية الوحيدة غير القابلة لأن تتكرر أبداً. أما تصورات العلم الطبيعي - ويصفها كروتشه بأنها تصورات كاذبة - فإنها ترمي إلى هدف مختلف تماماً؛ إن ميدان تطبيقها الحقيقي هو ميدان

القديم، والعصر اليوناني والروماني، والعصر الوسيط المسيحي، والعصر الحديث تمثل أطوار حياة الإنسانية في تاريخها حتى عصره.

ثم جاء جوفني باتستا فيكو *Giovanni Battista Vico* في كتابه «مبادئ علم جديد يدور حول الطبيعة المشتركة للأمم» (سنة ١٧٢٥) فقرر أن للشعوب طبيعة مشتركة، وأن تاريخ العالم هو تطور الإنسانية نحو العقل. لكن القوى الخلاقة للطبيعة الإنسانية ومعونة العناية الإلهية يحققان أشكالاً للحياة وأعمالاً حضارية ذوات قيمة ذاتية على كل درجات التطوير، حتى في التاريخ السحيق للشعوب. ويقول فيكون إن كل شعب يمر بثلاث مراحل هي: المرحلة الإلهية، والمرحلة البطولية، والمرحلة الإنسانية. وهذا هو «التاريخ المثالي الأبدى للشعوب». وفي كل حالة يُنتهى إلى «بربرية المدينة» لكن في هذه المرحلة نفسها - مرحلة بربرية المدينة - يبدأ العود *ricorso*، أي تبدأ حلقة جديدة في تاريخ الإنسانية.

ومن ثم شغلت مسألة: على أي نحو يسير تقدم التاريخ؟ أذهان الفلاسفة، وخصوصاً فلاسفة المثالية الألمانية: فشته، هيجل، شلنج. وصارت على أيديهم فلسفة التاريخ جزءاً رئيسياً من أجزاء الفلسفة، أما فشته في كتابه «الملاحم الرئيسية للعصر الحاضر» (سنة ١٨٠٦) فيفسر تاريخ الإنسانية على أنه تطور ديالكتيكي ذو خمس درجات تبدأ من حالة البراءة الأولى الغريزية، وتتم من خلال سلبية والخطيئة الكاملة حتى تصل إلى الحضارة العقلية الواعية.

وهيجل في كتابه «ظاهريات العقل» (سنة ١٨٠٦) ومحاضرات في فلسفة التاريخ» (نشر بعد وفاته) أقام فلسفة كاملة في التاريخ على أساس الديالكتيك، فقد نظر إلى التاريخ على أنه المعرض الذي يفض فيه العقل عن مضمونه على مدى الزمان. ولما كانت ماهية العقل هي الحرية، فإن التاريخ هو التقدم في الشعور (أو الوعي) بالحرية. وهذا التقدم يحقق في سلسلة من الشعوب التاريخية ولكل شعب منها صورة للحرية تتلاءم مع عصر معين. والتاريخ هو في كل لحظة حقيقة واقعية مليئة بالقيمة، ولكنه رغم ذلك انتقال. ومعناه لا يتحقق إلا بالعملية الديالكتيكية كلها على مدى الزمان.

لكن الهيجليين في الجيل التالي رفضوا نظرة هيجل هذه وقالوا إن التاريخ الذي وضع هيجل فلسفته هذه ليس عملية

وأهم من هذا أن العلية في الطبيعة تقضي بأنه إذا توافرت مقدمات معلومة حدثت عنها بالضرورة نتائج معلومة. لكن هذا ليس هو ما يحدث في التاريخ. فقد تكون المقدمات متشابهة، لكن لا تحدث نفس النتائج: فيكون هناك حاكم مستبد، لكن لا تقوم ثورة بالضرورة. وقد يكون هناك رخاء اقتصادي، ومع ذلك يحدث انقلاب أو تمرد. والسبب في هذا أن العامل في الأحداث التاريخية أساساً هو الإنسان، والإنسان حر متقلب الرأي، وبالتالي لا يمكن التنبؤ بسلوكه.

٣ - وأما فيما يتصل بالمسألة الثالثة والأخيرة وهي: هل للتاريخ اتجاه؟ فقد رأينا في المسألة الأولى بعض الإجابات عنها: النظرة اللاهوتية التي ترى أن التاريخ هو تاريخ خلاص الإنسان من لدن خطيئة آدم حتى يوم الحساب الأخير، ونظرة عصر التنوير القائلة بالتقدم المستمر للعقل الإنساني.

لكننا نجد في القرن العشرين اتجاهاً مضاداً، يصرف النظر عن البحث في اتجاه التاريخ إلى البحث في تركيب التاريخ، وأصبحت فلسفة التاريخ «نظرية في الوجود التاريخي» وفي الحدوث Geschem. وبهذا تحول الاهتمام إلى التركيب الأساسي للصور التاريخية وإلى أنماط المجري التاريخي أو «الظواهر الأولية» Urphänomene كما سماها يعقوب بوركهوت. هذا مع استمرار الوعي بكون الأحداث التاريخية وحيدة عابرة.

وأسهم في تكوين هذه النظرة إلى التاريخ الكشف عن آلاف السنين السابقة على التاريخ، وعن الحضارات غير الأوربية. وبينما كانت فلسفة التاريخ الكلاسيكية تقتصر في نظرها على الشرق القديم (مصر، بابل وآشور، إيران، الهند) والعصر اليوناني والروماني، والحضارات الأوروبية، اتسع النظر إلى حضارات أخرى وأماكن أخرى في العالم وشمل تاريخ العالم كله وتجل ذلك فيما سماه أوزفولد اشينجلر باسم «مورفولوجيا تاريخ العالم»، وفي «الدراسة المقارنة للحضارات» التي قام بها أرنولد توينبي والفكرة الرئيسية في هذه النظرية هي أن ظاهرة «الحضارة العليا» وجدت منذ بداية التاريخ حتى الآن، وأنه في جميع الأحوال ساد نفس قانون توالي الحضارة. وأصبح ينظر إلى التاريخ العالمي على أنه مؤلف من وحدات - أو حضارات، أو دوائر حضارية؛ لكن البعض مثل اشينجلر أنكر أن تكون بين هذه الوحدات وحدة، وقال إن كل حضارة مستقلة عن سائر الحضارات تمام الاستقلال، ونعت التعبير: «التاريخ العالمي» بأنه خرافة. واقتصر توينبي على بيان أنساب

ما هو كلي وثابت، ولهذا لا يمكن أن تقوم بدور في علم التاريخ لأن المؤرخ لا يعنى بالظواهر بوصفها نماذج لحقائق عامة؛ وفي اللحظة التي تعدّ فيها الوقائع التاريخية قوانين، يزول التاريخ.

كذلك ميز دلتاي وكروتشه بين موضوع العلم الطبيعي وموضوع التاريخ فقالا إن الأول موضوعه الطبيعة، والثاني موضوعه العقل (أو الروح). فمن المستحيل أن ننظر إلى أفعال الفاعلين في التاريخ على أنها مجرد أفعال سلوك قابلة للملاحظة ويمكن ردها (أو تفسيرها) إلى عوامل فزيائية عضوية. ويتبع عن هذا أن مبادئ المعرفة والفهم المناسبة للتاريخ لا يمكن أن تكون تلك التي يفترضها التفسير العلمي للعالم. إن من المهم أن يكون المؤرخ قادراً على أن يفهم «من الداخل» الأسباب والأغراض والانفعالات التي عملت في نفوس الأشخاص الذين يدرس أفعالهم.

وتوسّع في هذا المعنى وتعمّق كل من فنلبند (التاريخ والعلوم الطبيعي) سنة ١٨٩٤) وهينرش وكرت (وحدود تكوين التصورات العلمية الطبيعية)، سنة ١٨٩٦ - سنة ١٩٠٢) وأرنست تريلتش Troeltsch (والنزعة التاريخية ومشاكلها) ج١ سنة ١٩٢٢).

وجاء كولنجوود فدعا إلى فهم كلمة «علة» cause في التاريخ بمعنى يختلف تماماً عما يقصد بها في العلوم الطبيعية. فلفهم العلة في حدوث واقعة في التاريخ لا يجوز أن ندرجها تحت قوانين علمية أو تعميمات تجريبية؛ بل علينا أن نوضح «جانبها الباطن» its inner side، أي أن نكشف عن الأفكار التي تبيّن أن ما حدث كان استجابة كائن عاقل ووجه بموقف يحتاج إلى حل عملي.

وهذا يقودنا إلى الكلام عن تفسير أحداث التاريخ، وهل يمكن أن يكون ذلك على أساس وجود قوانين عامة مشابهة لتلك التي يستنبطها علماء الطبيعة. لكن يقولون ذلك أن الحادث التاريخي هو بطبيعته أمر مفرد نسيج وحده، لا يتكرر هو نفسه أبداً، بينما الظواهر الطبيعية تتكرر هي نفسها. فكيف يمكن التحدث عن قانون عام لحوادث هي بطبيعتها وحيدة مفردة؟! وحتى لو وصفنا الحادث التاريخي بوصف عام، فإن ذلك ليس من التفسير في شيء: فأن نقول إن هذه «ثورة سياسية» أو أن هذه «حرب توسعية» لا يقدم تفسيراً.



- Fritz Kaufmann: *Geschichtsphilosophie der Gegenwart*. Berlin, 1931.
- Johannes Thysen: *Geschichte der Geschichtsphilosophie*. Berlin, 1936.
- Karl Jaspers: *Vom Ursprung and Ziel der Geschichte*. Zürich, 1949.
- Karl Löwith: *Weltgeschichte und Heilgeschichte*. Stuttgart, 1950.
- Hanno Kesting: *Geschichtsphilosophie und Weltbürgerkrieg*. Heidelberg, 1959.
- Raymond Aron: *Introduction à la philosophie de l'histoire*. Paris, 1938.
- Cairns, Grace E.: *Philosophy of History: Meeting of East and West in Cycle-pattern Theories of History*. New York, 1962.
- Carr, Edward H.: *What is History?* New York, 1961.
- Collingwood: *The Idea of History*. Oxford, 1946.
- Croce, Benedetto: *Teoria e storia della storiografia*. Bari, 1917.
- Danto, Arthur C.: *Analytical philosophy of History*. Cambridge, 1965.
- Dray, William: *Laws and Explanantion in History*. Oxford, 1957.
- Gardiner, Patrick: *The Nature of Historical Explanantion*. Oxford, 1952.
- Kahler, Erich: *Meaning of History*. New York, 1964.

### الفلسفة التحليلية

#### Analytical philosophy

يقصد بهذا اللفظ شكلان من أشكال النزعة التجريبية المعاصرة هما: تجريبية أكسفورد، التي تلور أبحاثها حول تحليل اللغة العادية، والوضعية المنطقية أو الوضعية الجليدية التي تهتم أساساً بتحليل اللغة العلمية.

وقد قامت تجريبية أكسفورد تحت تأثير فنتجنتين (كما يتجلى في كتابه «أبحاث فلسفية»، لا كما يبدو في «الرسالة المنطقية الفلسفية» Tractatus) الذي جعل الفرض من

Filiations فردية بين بعض هذه الحضارات وبعض. بيد أن كارل يسيرز قال بنوع من الوحدة حين تحدث عما سماه باسم «الزمان المحوري» Achsenzeit، وهو الفترة حوالي سنة ٥٠٠ قبل الميلاد، التي فيها بذرت بذور الأديان العليا في كل العالم من الصين حتى العالم اليوناني. ومن «الموجات الكبرى» الشبيهة بهذه الفترات المحورية نذكر: انتقال الإنسان من الوجود الرحال إلى الوجود المستقر، ميلاد الحضارات العليا على أساس أنظمة واسعة المدى في المكان ابتداءً من القرن الرابع قبل الميلاد - بزوغ المدنية الصناعية التي تتجه نحو وضع الأرض كلها في وحدة ذات مجال متوتر.

وعلى شبيه هذه الصورة قلم ألفرد فيبر Weber علم اجتماع حضاري يقوم على أساس النظر إلى تاريخ العالم على أنه مؤلف من «عصور كبرى»، وذلك في كتابه: «تاريخ الحضارة بوصفه علم اجتماع حضاري» (سنة ١٩٣٥).

#### مراجع

- راجع كتابينا: (١) «مدخل جديد إلى الفلسفة»، الملحق: «أحدث النظريات في فلسفة التاريخ»، الكويت، ط ١ سنة ١٩٧٥، ط ٢ سنة ١٩٧٩.
- (٢) «النقد التاريخي»، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٣؛ ط ٣، الكويت سنة ١٩٧٨.
- Robert Flint: *History of the Philosophy of History*. Edinburg and London, 1874.
- Georg Simmel. *Die Probleme der Gerchichtsphilosophie*. Leipzig, 1892.
- Kurt Breysig: *Der Stufenbau und die Gesetze der Weltgeschichte*. Stuttgart, 1905.
- Karl Lamprecht: *Moderne Geschichtswissenschaft*. Freiburg in Breisgau und Berlin, 1905.
- Wilhelm Dilthey: *Gesammelte Schriften*, 12 Bde. Leipzig und Berlin, 1914- 36; neue Ausgabe Stuttgart und Göttingen 1957- 1960.
- Georg Mehlis: *Lehrbuch der Geschichtsphilosophie*. Berlin, 1915.
- Erich Rothacker: *Emleitung in die Geisteswissenschaften*. Tübingen, 1920.
- Haering, Theodor: *Die Struktur der Weltgeschichte*. Tübingen, 1922.



Bodin (١٥٢٠ - ١٥٩٦) في كتابه عن «الجمهورية» (في ست مقالات، سنة ١٥٧٦) فوضع قواعد السياسة.

لكن لو شئنا أن نحدّد بالدقة تاريخ وضع نظرية سياسية فلسفية في العصر الحديث، فعلينا أن نذكر سنة ١٦٥١، وهي تاريخ نشر كتاب «لوايانان» لتوماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩)، وفيه بين - وهو الفيلسوف المادي القائل بالترعة الآلية - الرغبات التي توجه سلوك الإنسان في الدولة. وقد وجد أن الإنسان يربح إلى تحقيق كل رغباته. لكنه وهو في المجتمع، يصطدم بالآخرين. وتلك هي حال الطبيعة، وفيها يجارب كل إنسان سائر الناس. لكن هذا موقف غير محتمل، لأن الإنسان يخاف من الموت. فلن يضمن البقاء في قيد الحياة، ولكي يعيش في أمان، كان عليه أن يخال لذلك، وهذه الخيلة هي الدول ذات السيادة، التي تملك السلطان المطلق لإصدار القرارات وتنفيذها على الجميع، وعلى هؤلاء أن يتنازلوا للدولة عن حريتهم الطبيعية.

وهكذا وضع هوبز المسائل السياسية الرئيسية: الدولة وسيادتها، سلطة الحكومة، العلاقة بين الحاكم والمحكومين، السلطات المنظمة للمجتمع، إلخ. ومن بعده جاء جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) فتناول النظام النيابي والحكومة الممثلة للشعب ودعا إلى الليبرالية. وتلاه جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) في كتابه «العقد الاجتماعي» وكتاب «مقال في أصل وأسس عدم المساواة بين الناس».

وفي القرن التاسع عشر ظهرت نظريتان في الدولة: إحداهما نظرية الدولة - الأمة، والأخرى الدولة العلمية. والأولى وضعها هيجل، والثانية وضعها كارل ماركس.

فقد أصدر هيجل في سنة ١٨٢١ كتابه «مبادئ فلسفة الحق (أو القانون)». وقد بين فيه أن المجتمع إنما يقوم على أساس الأسرة والملكية الخاصة؛ والمجتمع هو أيضاً تنظيم اقتصادي يتعاون فيه نظام الحاجات مع نظام العمل ابتغاء تكوين شمول ديناميكي منتج للثروات. وهذه الديناميكية تنجم عن هذه الواقعة وهي أن هذا الشمول يتخلله، بطبعه، تناقضات قائمة بين الأفراد، وقائمة بين الجماعات الاجتماعية المهنية، وقائمة بين الأغنياء والفقراء. وهذه التناقضات الضرورية يمكن أن تضر بوحدة المجتمع. ومن هنا كان من الضروري أن يتدخل مبدأ يعترف له بالسلطان الكامل تكون وظيفته هي اتخاذ القرارات التي تنظم - عقلياً وبطريقة ملائمة - بنية المجتمع وديناميكيته: وتلك هي الدولة. إن الدولة هي العقل

الفلسفة لإيضاح الفكره وزعم أنه ليس للفلسفة موضوع خاص، وإنما مهمتها هي أن تحقق في كل علم - رياضيات، منطق، ميتافيزيقا، أخلاق - هل استعملت اللغة ورموزها استعمالاً صحيحاً.

## فلسفة السياسة

### Philosophie politique

عني الفلاسفة بالسياسة، أعني بوضع نظرية في سياسة المدينة أو الدولة، ولا تكاد نجد فيلسوفاً واحداً ذا شأن إلا وتأمل في الدولة وسياستها. فأفلاطون خصص غالبية محاوراته للسياسة (خصوصاً محاورات: «السياسة»، «السياسي»، «التواميس» إلخ) وأرسطو خصّ السياسة بعدة مؤلفات منها كتاب «السياسة» ثم دساتير المدن اليونانية، وقد وصلنا منها «دستور الأثينيين». والفلارابي في كتابه الرئيسي في الفلسفة: «آراء أهل المدينة الفاضلة» قد مزج بين السياسة والفلسفة العامة. وتوما الأكويني كرس للسياسة فصلاً عديدة في «الخلاصة اللاهوتية». واسينوزا وضع «رسالة لاهوتية سياسية». وكنت تعرّض للسياسة في كتابه «نحو سلام دائم» وفي مواضع متناثرة من كته الأخلاقية. وهيجل تناول السياسة في كتابه «فلسفة القانون» حيث عرض رأيه في النظام الاجتماعي والسياسي، وهو بمثابة تطبيق للعالم المطلق الذي عرضه في كتابه «علم المنطق».

والمبادئ السياسية التي وضعها هؤلاء قد استنبطوها من مبادئهم النظرية الفلسفية: فمبادئ الحكم العادل أو التنظيم المناسب للجماعة مستنبطة، على نحو متفاوت في الدقة والإحكام، من آرائهم في الوجود، أو في الله، أو في الفرد، أو في الصيرورة.

لكن علم السياسة استقل بنفسه، إلى جانب الفلسفة، عند نهاية العصر الوسيط وبداية عصر النهضة. إذ حلول مارسيل بادوقاتي (١٢٧٥ - ١٣٤٣) في كتابه «المدافع عن السلام» (سنة ١٣٢٤) تحليل النظم والمبادئ التي ينبغي أن تقوم عليها الدولة العلمانية في مواجهة السلطة البابوية. وجاء مكيافالي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) في كتابه «الأمير» (١٥١٣) فدرس السلطة القادرة على تأسيس الدولة والمحافظة عليها ضد النزاعات الداخلية والأعداء الخارجيين. وجاء جان بودان J.

الحر والتجارة الحرة والعلاقات الحرة بين أصحاب الأعمال والعمال، أنظمة صار نموذجها هو نموذج الولايات المتحدة الأمريكية. وعمن فلسفوا هذا النظام الليبرالي القائم على العلم والتكنولوجيا والصناعة: جيمس بورنهام James Burnham وجون جلبرت John K. Galbraith اللذان ناديا بالمبادرة الفردية الحرة، والمنافسة، ودعوا إلى وضع العلم وتطبيقاته في خدمة تنمية الثروات للجميع، وهذا لن تكون ثم حاجة إلى الثورة التي دعا إليها ماركس وأنجلز ولينين، بل سيتطور المجتمع وفقاً لقوانين يسنها هذا المجتمع نفسه.

### الفلسفة اليونانية

- ١ -

أراد نيتشه أن يسمي الحضارة اليونانية باسم يعبر عن خصائصها العلة كلها فأعطى لها اسم الحضارة أو الروح الأبولونية نسبة إلى الإله أبولو الذي يمثل الروح اليونانية، من بين جميع الآلهة، أصدق تمثيل. إلا أنه لم يقتصر على هذه التسمية، بل عارضها بتسمية أخرى هي الروح الديونيزوسية نسبة إلى الإله ديونيزوس، أو باخوس كما يسميه اللاتينيون. وهذه التفرقة بين الروح الأبولونية والروح الديونيزوسية تقوم على أساس أن الروح الأبولونية هي روح الانسجام، بينما الروح الديونيزوسية هي روح الاختلاط والفوضى. وعلى هذا فبينما فضيلة الاعتدال «سوفروسونية» σωφροσύνη تسود الروح الأبولونية، نجد أن صفة الجرأة أو القحة ὕβρις تسود الروح الديونيزوسية. وقد أخذ اشينجلر التسمية باسم أبولونية، وقصر هذه التسمية وحدها على الروح اليونانية، وذلك في مقابل روح الحضارة الغربية التي سماها باسم الروح الفلوسفية. فلتحدث الآن عن خصائص الروح اليونانية، أو الأبولونية، كما عرضها اشينجلر.

نجد هذه الروح تظهر في جميع مرافق الحياة الروحية اليونانية، من علم وفن ودين وسياسة وفلسفة. وأول ما يمتاز به هذه الروح هو أنها كانت مرتبطة باللحظة الحاضرة، لا تعرف الماضي، ومرتبطة بالجسم، بوصفه حاضراً في المكان. وعلى هذا الأساس نراها لا تعرف الماضي؛ وبالتالي لا تستطيع التأريخ ولا الترجمة حياة الأشخاص. وذلك كله يرجع إلى أن فكرة السكون كانت تسود هذه الروح، بينما كانت تجهل فكرة الصيرورة والحركة المستمرة. ولهذا كانت نظرتها

وهو يفعل، وهي بحكم ماهيتها: ذات سيادة؛ وتتجسد في حاكم؛ وهذا الحاكم يصدر قوانين تخضع لها ممارسته هو نفسه للحكم؛ ويتولى موظفون يعينون بحسب كفاءتهم إدارة الدولة على نحو يتم معه التوفيق بين مصالح المجموع ومصالح الأفراد الجزئية.

ويلاحظ هيجل أن الدول في الوضع الراهن متعددة ومتنافسة فيما بينها. وهذا التباين يتضمن أن الدولة لم تبلغ بعد نضوجها التام. إن عمرك التغيير في الإنسانية هو الحرب، التي تمكن من ولادة العقل، على نحو درامي. وبواسطة المنازعات الدولية تنشأ دول أكبر وأوسع، وفي خاتمة اللطاف تنشأ الدولة العالمية، التي هي غاية التاريخ، فإذا ما نشأت أصبحت الشافية ممكنة ووصل الإنسان إلى الكلّي.

لكن منذ سنة ١٨٤٣ قام فيلسوف شاب، هو كارل ماركس، وكان متأثراً بالهيجلية من البداية، لكنه سرعان ما انقلب على نظرية هيجل في الدولة وأخضعها لنقد حاد. فقال إن من الغلط تصور الحاكم متجسداً للسيادة وتصور الموظفين غائبين عن التنظيم الاقتصادي، منذ أن تقلدوا وظائفهم إذ الواقع - هكذا يقول ماركس - هو أن هؤلاء الموظفين مصالحهم الشخصية الخاصة؛ ومن الوهم الظن أنهم مجرد حلة لقرارات عقلية معقولة. ومن ناحية أخرى نقد رأي هيجل في ضرورة الملكية الخاصة وكونها الأساس في كل مجتمع؛ ورأى ماركس أن هذا النمط من تنظيم الدولة غرضه إقرار نظام للسيطرة السياسية مزود بجهاز ثائوي وقوة شرطة، من شأنه أن يسمح باستغلال قوة العمل عند أولئك الذين لا وسيلة لهم للبقاء إلا العمل لدى أولئك الذين يملكون رؤوس أموال، أي وسائل للإنتاج.

ويرى ماركس أن الدولة كما يصورها هيجل هي ناتج النظام الاقتصادي البورجوازي الذي يهدف إلى الإبقاء على الحال الموجودة من قبل وبالتالي إلى الوقوف في وجه ثورات العمال والفلاحين وإلى إخضاع مجموع السكان.

ورأى ماركس أن العلم يزودنا بصناعات فنية (تكنيك) تزيد من سلطتنا على الأشياء. ومن هنا دعا إلى العلم والتكنولوجيا والصناعة.

لكن في مقابل ذلك، وبالاعتماد على هذه الأمور الثلاثة نفسها: العلم والتكنولوجيا والصناعة، قامت أنظمة سياسية مضادة تماماً للماركسية، أنظمة ليبرالية أي تدعو إلى الاقتصاد

بحسبانها شيئاً منسجماً ، نظراً إلى أنه إذا ارتكز عليها يمكن بالفرجار أن ترسم أشكالاً جملة . وثانياً بالنسبة إلى النقطتين من حيث ان للمستقيم الواصل بينهما هو أقصر خط يصل بين الاثنتين . كذلك الحال في الثلاث نقط ، التي ليست على خط واحد ، فإن لها محلاً هندسياً واحداً هو المحيط . فإذا ما انتقلنا من الهندسة إلى الحساب ، وجدنا أنه لم يكن يعينهم من العدد ١٠ مثلاً أنه مفيد من حيث العدد ، لأن الوحدة العشرية هي الأساس في كل عد ، بل كان يُنظر إلى هذا العدد نظرة خاصة ، لأنهم كانوا يرون أنه يشتمل على خصائص ثلاث تدل على الانسجام : أولاً ، لأنه يحوي مقداراً متساوياً من الأعداد الأولية والأعداد غير الأولية ؛ وثانياً ، لأننا لو جمعنا الأعداد الأربعة الأولى لوجدنا أنها تسوي عشرة ؛ وثالثاً ، لأن به من الأعداد الزوجية قدر ما به من الأعداد الفردية . لهذه الخصائص الثلاث كان اليونانيون يعنون عناية خاصة بالعدد ١٠ - فالغاية إذاً أو المثل الأعلى للرياضيات عند اليونانيين - كما قال بيير بوترو - هو الانسجام أي أنهم لم يكونوا يعنون من الرياضيات إلا بما فيه انسجام . ومن هنا يمكننا أن نفهم الصلة القوية التي وضعوها بين الأعداد والوجود ، كما يظهر ذلك جلياً في فلسفة فيثاغورس . وذلك لأنه لما كانت الأعداد ، في نظرهم ، هي المثل الأعلى للانسجام ، ومن حيث ان الوجود - من ناحية أخرى - لا بد أن يفهم من جهة الانسجام ، فلا بد أن تكون تمت رابطة أولية بين الأعداد والوجود . والمغالاة في تقدير هذه الرابطة تؤدي حتماً إلى القول بأن الوجود أعداد ، كما قال الفيثاغوريون .

ومن هنا نستطيع أن نفهم الفارق الكبير بين تصور الفيثاغوريين للوجود ، بوصفه أعداداً ، والتصورات الأخرى التي قد تقول بهذا ، والتي يشير بعض علماء الاجتماع إلى وجودها لدى بعض القبائل البدائية الممجيبة . كما أشرنا إلى هذا من قبل .

وهذه الفكرة تتمثل في الفن بأجلى مظاهرها ، فالانسجام بين الأجزاء هو المثل الأعلى الذي يتشده الفنان اليوناني ، وسيظهر هذا جلياً عند كلامنا عن خصائص التراجيديا اليونانية والمعبد الدوري هو أوضح مثال لتجلي الانسجام في هذا الفن .

وفي الفلسفة اليونانية نرى فكرة الانسجام قد سادت كل التفكير اليوناني ، وكل فيلسوف يحاول أن يحقق فكرة

إلى الكون نظرة مكوّنة لا نظرة حركية . وبهذا الطابع انطبع الرياضيات عند اليونان ، كما انطبع الفن ، لأن هذه الفكرة - التي أوضحناها - من شأنها ألا توجد فكرة اللامتاهي ، وإنما هي تستلزم قطعاً فكرة النهائية . ومن ثم فقد عجزت الرياضيات اليونانية عن الوصول إلى فكرة الأعداد الصماء ( اللامعقولة ) ، لأن العدد الأصم أو اللامعقول هو عدد لا نهائي ، فمثلاً الجذر التربيعي للعدد ٢ لا يمكن أن ينتهي ، ولهذا لم يستطع اليونانيون أن يؤمنوا بمثل هذه المسائل في الرياضيات التي أنشأوها .

ومع هذا فإنهم لم يستطيعوا في الرياضيات نفسها أن يستمروا على ذلك ، أي أنهم لم ينجحوا نهائياً في القضاء على فكرة اللامتاهي . فإننا نرى النظرية المنسوبة إلى فيثاغورس يمكن أن تؤدي إلى فكرة اللامتاهي أو اللامعقول في الأعداد ، فإننا إذا أخذنا مثلاً قائم الزاوية متساوي الساقين ، ثم قدرنا أن أحد هذين الساقين هو الرحلة فإن الوتر يساوي ٢٧ ، وفي هذه الحالة قد اضطررنا إلى أن نستخرج وتر هذا المثلث على أنه عدد لا متناه ، أي أنه عدد أصم . وهذا قد يدعونا إلى القول بأن مثل هذه النظرية - إن كان حقاً قال بها فيثاغورس - قد أتت من تأثره بالروح الشرقية ؛ وكان فيثاغورس - كما سنرى فيما بعد - قد خضع خضوعاً كبيراً للروح الشرقية .

وإذا انتقلنا من الرياضيات إلى الفن وجدنا أن المثل الأعلى للفن اليوناني هو في النحت ، لأن النحت يمثل شيئاً ساكناً ، كما أننا لا نجد في هذا الفن فكرة المنظور لأنها فكرة توحى باللانهاية .

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة ، وجدنا أن الروح اليونانية لم تستطع أن تصور الزمان والمكان على أنها لا نهائيان . وكذلك الحال في الدين ، لم يكونوا يتصورون الله كما تصورته المسيحية فيما بعد ، بحسبانها لا نهائياً أو هو اللانهاية ، بل كانت تمثل الألهة على صورة إنسانية ، أي على صورة نهائية ( على أساس أن الإنسانية متناهية ) .

والخاصية الثانية التي تمتاز بها الروح اليونانية هي خاصية الانسجام ، وهي الخاصية الرئيسية لهذه الروح ، والتي تعبر عنها لفظة أبولونية . فإذا ما بحثنا الآن في المظاهر المختلفة للحياة الروحية ، نجد تأثير هذه الفكرة باستمرار في كل ناحية من نواحيها : فنجده أولاً في الرياضيات من حيث أهم - أي اليونانيين - كانوا ينظرون إلى النقطة في الهندسة

تلك الطبيعة الخارجية ، وإنما لاحظ اليونانيون كلتا الناحيتين : فالروح اليونانية هي أول روح تحررت من نير الطبيعة الخارجية . ومعنى هذا أنها في محاولتها إيجاد فلسفة أو فن أو علم ، حاولت دائماً أن تؤكد كيانها بإزاء الطبيعة الخارجية ، حتى إنها اضطرت إلى النظر إلى الطبيعة الخارجية على أنها مماثلة في صورتها للطبيعة الداخلية الإنسانية . فالنظرة إلى الكون والنظرة إلى الحياة العملية والنظرة إلى الدين - كل تلك النظرات كانت الروح اليونانية تحاول فيها أن تتحرر من قيود الطبيعة الخارجية . فنراها في الدين مثلاً تنزل الآلهة ، الذين هم قوى طبيعية فوق الإنسان ، إلى جبل الأولمب ، وهذه الآلهة - كما سنرى فيما بعد - آلهة إنسانية صرقة تخضع لما يخضع له الإنسان ، وتتأثر في وجودها بما يتأثر به الوجود الإنساني .

بيد أن هذا التحرر من الطبيعة الخارجية لم يصل إلى حد التعارض بين كلتا الطبيعتين والنزاع المستمر بين الواحدة منهما ضد الأخرى : كما سيكون الحال كذلك فيما بعد عند المسيحية . وإنما كان على هذه الروح اليونانية أن تجعل ثمت مجالاً في تصوراتها للطبيعة الخارجية إلى جانب الطبيعة الإنسانية ، وفي هذا يقوم الفارق الضخم بين الروح اليونانية من جهة ، والروح المسيحية والروح الغربية الحديثة من ناحية أخرى ، فالروح المسيحية أولاً كانت تنظر إلى الصلة بين الإنسان والطبيعة ، أو بين الروح والجسم - على حد تعبيرها - نظرتها إلى شيئين متعارضين متضارين ، وأن الخلاص هو بالقضاء على أحد الطرفين وهو هنا بالطبع الطرف الثاني .

كذلك الحال في الروح الغربية الحديثة ؛ إذ نجد التضال شديداً بين كلتا الطبيعتين ، وإن كان التضال قد انتهى إلى ما انتهت إليه الروح اليونانية من الجمع بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الإنسانية ، فإن الفارق بين موقف الروح اليونانية والروح الحديثة هو في أن ذلك كان صلباً طبيعياً عن الروح اليونانية ، بينما صدر عن الروح الغربية الحديثة تبعاً للتضال الذي قامت به ضد الروح المسيحية . وتبعاً لهذا نشاهد أن الأخلاق ستكون أخلاقاً طبيعية ، وسيكون المثل الأعلى للفضيلة كما هو عند أرسطو في الانسجام بين مقتضيات الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية . فالأخلاق ستكون أخلاقاً طبيعية من ناحية ، روحية من ناحية أخرى .

وهذا الأزواج في الطابع ظهر في كل الأخلاق

الانسجام في كل مذهب يقول به وكل نظرية يضعها . ففي الأخلاق نجد فضيلة الاعتدال هي الأولى والرئيسية . ومعنى هذه الفضيلة الانسجام بين مختلف قوى النفس . وكذلك الحال في الصورة التي يضعها المفكرون للكون ، يلاحظ فيها دائماً فكرة الانسجام . ولهذا أدخلوا ، منذ زمن مبكر ، فكرة العقل بوصفه المنظم للفوضى التي كان العالم عليها في الأصل . وفكرة النظام هذه ، بحسبانها موجوداً في الكون ، يعبر عنها أجلى تعبير في الكلمة التي تدل على الكون عند اليونانيين ، وهي *κόσμος* (كوسموس) . فالعنى الاشتقاقي لهذه الكلمة هو النظام ، ومن هذا المعنى انتقلت فأصبحت دالة على الكون نفسه ، على أساس أنه تحقيق النظام في أجل صورته .

## - ٢ -

كل حضارة تنشأ بأن يقوم ثمت تبادل بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية ، بين الإنسان وبين الطبيعة ، بين ما يسمونه العالم الأصغر وما يسمونه العالم الأكبر ، وعلى أساس هذا التبادل بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية تكون الصورة التي تتخلها حضارة ما من الحضارات . ومن هنا فلا بد لنا ، لكي نفهم جوهر الحضارة اليونانية ونستطيع أن نتيقن الخصائص الذاتية للروح اليونانية ، نقول إنه لا بد لنا أن نتحدث عن العلاقة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر ، كما تصورتها الحضارة اليونانية .

وهنا نلاحظ أن هذه العلاقة مرتبطة بالصفة الأساسية التي قررتها من قبل وهي صفة الانسجام ، تلك التي كانت الروح اليونانية تنشدها في كل ما تحاول تفهمه أو عمله . وذلك تابع بالضرورة لخصائص الروح الأبولونية كما قدرناها ، ولهذا فإننا نرى أن الصلة بين الطبيعة الخارجية الإنسانية هي صلة الانسجام ، وأنه ليس ثمت تعارض بين كلتا الطبيعتين . ولكن يجب ألا نفهم من هذا أن ذلك الانسجام كان على حساب إحداهما دون الأخرى ، وإنما كان ذلك التوفيق توفيقاً حقيقياً يقوم على أساس أن لكلتا الناحيتين حقها في النظر والعمل : فلم تكن الصلة إذناً بين الاثنين صلة عدم تفرقة مطلقة ، كما هي الحال لدى الروح الشرقية .

فهذه الروح الأخيرة كانت تصور الطبيعة الخارجية على أنها كل شيء ، محاولة إقناء الطبيعة الداخلية إقناء تاماً في

كما تصورتها الروح الغربية الحديثة . وذلك راجع إلى شيئين : الأول والرئيسي أنها لا يقومان إلا على أساس حياة باطنة قوية غنية ، وهذا ينطبق على كلا الفنين . والأمر الثاني هو أن الموسيقى تعتمد بالذات على فكرة اللانهاية وفكرة الصيرورة وذلك لأن الموسيقى في تعبيرها الأصلي إنما تعبر عن اللانهاية ، لأنها لا تعبر عن هذه العاطفة الخاصة أو تلك الأخرى ، وإنما هي تعبير عام عن إرادة الحياة كما هي ، أي بوصفها شيئاً لا متنهاياً .

أما في الفن التراجيدي ، فإنه على الرغم مما هتلك من تراجيديات أو مأس عظيمة كمآسي سوفوكليس فإنه يلاحظ أن الصراع الذي يقوم بين البطل وبين الطبيعة الخارجية ليس صراعاً بالمعنى الحقيقي ، وإنما يخضع البطل للطبيعة الخارجية ، فليس ثمت مجال للصراع : « فأوديب ملكاً » هو « أوديب في كولونا » بينما نلاحظ في التراجيديات الحديثة أنها تقوم كلها على أساس صراع مستمر وفضائل مجالين بين البطل ، أي بين الإنسانية ، وبين القدر ، أو الطبيعة الخارجية . فالملك لير وهملت لا وجود لهما في تلك المآسي إلا بكونهما في نزاع مستمر مجال مع القدر .

والخلاصة أن الصورة في الفن اليوناني كانت مساوية للمضمون ، ولم يكن يوجد مضمون إلا وجدت معه الصورة التي تعبر عنه تعبيراً كاملاً . أي أنه كان ثمت توافق تام بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الإنسانية .

وطبعي أن نجد جميع هذه الخصائص التي ذكرناها عن طبيعة الروح اليونانية في الفلسفة بوصفها الفلسفة هي المظهر الحقيقي الواضح الذي تتجل فيه روح كل شعب أو روح كل حضارة : فالفلسفة هي الشعور الواضح بالروح القوية السائدة في شعب ما من الشعوب أو في حضارة ما من الحضارات . والخاصية الرئيسية التي استخلصناها فيما يتصل بطبيعة الروح اليونانية هي التوفيق والانسجام بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية ، أي إعطاء كل قسم من هذين القسمين نصيبه في النظرة إلى الحياة . وهذه النزعة الموضوعية - على حد تعبير هيجل - التي تتأمل الأشياء تأملاً خالصاً بصرف النظر عن أن تكون مخلوقة للوعي الإنساني أو للذات ، تقول إن هذه الصفة تطبع الفلسفة اليونانية بطابعها إلى حد بعيد . إذ نشاهد أن الفلاسفة اليونانيين كانوا ينظرون إلى الأشياء على أنها أشياء حقيقية طالما كان العقل يؤمن

اليونانية ، حتى في العصور التي تفهقت فيها الروح اليونانية أمام الروح الشرقية المعارضة لها . فالأخلاق ، سواء عند ابيقور وعند الرواقين ، لم يكن في استطاعتها أن تتحرر نهائياً من الطبيعة الخارجية أو من الطبيعة الإنسانية ، بل كان لا بد لها أن تحسب حساباً لكلا الطرفين .

وهذا الذي نراه في الأخلاق نراه في السياسة أيضاً . والواقع أن الأخلاق والسياسة لم يكونا مفترقين الواحد عن الآخر ، لأن اليوناني لم يتصور الطبيعة الخارجية بوصفها مجتمعاً عاماً يشمل إلى جانب شعبه شعباً أخرى ، وإنما اقتصر على شعبه ، وجعل الصلة بينه وبين الشعب هي التي تحدد موقفه السياسي . وعلى هذا الأساس لم يكن في عصر الروح اليونانية الحقيقية تفرقة بين المدينة وبين العالم الخارجي ؛ وإنما حدث هذا في العصر الذي انحطت فيه الروح اليونانية وخضعت للمؤثرات الشرقية ، وذلك عند الرواقين وعند أقلوطين .

وهذا الطابع الذي نراه في تصور اليونانيين للحياة الأخلاقية أو للسياسة يظهر بأجلى صورته في الفن اليوناني . فالفن اليوناني - كما يقول فشر - فن يجمع بين الصورة والمضمون ، ولا يستطيع أن يفرق بين ما يشعر به الفنان في داخل ذاته وبين الصورة الخارجية التي سيرض فيها هذا الذي يشعر به . وهو لم يكن يعبر مطلقاً إلا عن الأشياء التي تظهر أمامه في معرض خارجي يستطيع أن يحتوي بأكمله على المضمون الروحي الباطن الذي يريد أن يودعه هذه الصورة . وكان موقفه موقفاً هادئاً تجسيمياً ، لأن الاضطراب أو موقف القلق الذي يقفه الفنان الحديث إنما هو ناشئ من عدم الانسجام بين المضمون الروحي الانفعالي أو العاطفي ، وبين الصورة التي استطاع بها أن يعبر عن هذا المضمون الباطن . ولهذا نرى اليونانيين لم يبرعوا إلا في الفنون التجسيمية ، أو الفنون التي يتيسر فيها الجمع والتوفيق بين الطبيعة الخارجية ، والطبيعة الإنسانية ، أو بعبارة أوضح بين الصورة والمضمون الروحي .

لهذا لم يبرع اليونانيون في فنين رئيسيين لا يمكن مطلقاً أن يقوموا إلا على أساس استخلاص الطبيعة الداخلية وحدها في مقابل أو في تعارض مع الطبيعة الخارجية . وهذان الفنان هما : الموسيقى ثم الشعر التراجيدي . وما وجد عندهم من هذين الفنين مختلف تمام الاختلاف عن طبيعة هذين الفنين



هذا الموقف ، موقف من ينظر إلى الصلة بين الذات المدركة والموضوع المدرك على أنها صلة تنازع ، ومن هنا يلاحظ أن الفلسفة الحديثة قد بدأت بأن شك بكون في العلم كما وصل إليه ، وشك ديكرات في المعرفة الإنسانية بوجه عام ، وخصوصاً كما تصورها رجال العصور الوسطى أي كما صورتها الحياة الدينية . وهذا الشك الديكارتي إذا شك شامل تام ، يشمل الحقيقة كلها ، ومثل هذا الشك لا يمكن أن يقوم إلا حين يدرك الإنسان إدراكاً حقيقياً واضحاً أن ثمت تفرقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك ، أي بين الوعي أو الطبيعة الداخلية ، وبين الكون أو الطبيعة الخارجية .

حقاً إن أرسطو قد عني بالبحث في كل المعارف الإنسانية ، أي في كيفية تكوين المعاني والتصورات أو المفاهيم عن طريق حس من المحسوسات . إلا أنه لم يبين الشروط التي يكون بها المدرك صحيحاً ، أي أنه لم يبحث في نظرية المعرفة بحثاً حقيقياً ، يتجه أولاً وبالذات إلى بيان الشروط التي بها ، وبها فحسب ، تكون المعرفة صحيحة .

فمثل هذه المسائل لم توجد إلا في العصر الحديث ابتداءً من لوك وهيوم ، وهي التي توسع فيها كنت من بعد ووضعها في أعلى صورة بلغتها . ومن أجل هذا ، أي بسبب أن الفلاسفة اليونانيين لم يبحثوا في شروط المعرفة الصحيحة نجدهم كثيراً ما يستتجون استنتاجات سريعة دون أن يكون في سير البرهان ما يسمح بهذا الاستنتاج . وعلى أساس ما يستتجون يضعون من المذاهب ما يشاؤون ، فتجارهم إذا كانت تجارب ناقصة ، ومعرفتهم لم تكن معرفة قائمة على الاستدلال الحقيقي الذي يمتاز بالدقة . ولهذا يمتاز الفلاسفة المحدثون وتمتاز الروح الحديثة بعنايتها بهذه التفرقة الدقيقة ، بين الذات المدركة والأشياء المدركة . ولذا فإن المثالية الحقيقية لم توجد بمعناها الحقيقي إلا في العصر الحديث .

حقاً إن رجلاً مثل أرسطو حينما كان يرد على السابقين أو يناقش الفلاسفة الأفلاطونيين ، كان يستعمل أحياناً من البراعة والذكاء أكثر مما فعله الفلاسفة المحدثون . لكن هذا راجع إلى ضعف أو نقص في الفلاسفة المحدثين لا إلى طبيعة روح الفلسفة الحديثة نفسها . فإن روح الفلسفة الحديثة بمعناها العام هي النقد والتفرقة المطلقة بين الذات التي تدرك الأشياء التي هي موضوع الإدراك .

وهذه الخاصية الثانية تقودنا إلى وضع خاصية ثالثة ،

بذلك ؛ أي أن التفكير الفلسفي اليوناني اتجه مباشرة إلى الأشياء كما هي ، صراحةً النظر ، إلى حد بعيد ، عن الصلة بين إدراك الأشياء والأشياء كما هي .

وهذا هو الاختلاف الضخم بين نزعة الفلسفة اليونانية ونزعة الفلسفة الحديثة . ففكرة الذاتية - بمعنى أن للذات النصيب الأكبر في تصورنا للأشياء الخارجية - هذه الفكرة كانت غير موجودة لدى الفلاسفة اليونانيين ، أو على الأقل لم تكن واضحة كل الوضوح عندهم . وهذه الخاصية نفسها تقودنا إلى خاصية أخرى ، وتلك هي أنه تبعاً لما كان عليه الفلاسفة اليونانيين من عدم التفرقة بين الذات والموضوع أو بين إدراكنا للطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية كما هي ؛ أي إنكار القدر الكبير الذي للوعي في تصور الأشياء وتصوير وجود الأشياء - نقول إنه تبعاً لذلك لم يُعَن الفلاسفة اليونانيون بمشكلة المعرفة بمعناها الحقيقي ، وهذا طبيعي ومفهوم ، أولاً بسبب الخاصية الرئيسية التي ذكرناها من قبل ، وهي التوفيق والانسجام بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية . وثانياً لأن اليونانيين لم تكن معرفتهم بعد كاملة ، بل كانت معرفة ناقصة تقوم على تجربة ضئيلة وحياة روحية غير راقية ومجموعة من المعلومات لم تكن كافية . فلم يكن لديهم إذاً - كما سيكون لدى روح الفلسفة الحديثة من بعد - محصول ضخم من المعلومات الخاصة بالأمور العلمية . ولم يكن لديهم مذهب لاهوتي ( ديني ) مثل هذا الذي كان على الروح الحديثة من بعد أن نقف بإزائه موقفاً خاصاً . فموقف النقد بالمعنى الحقيقي لكلمة النقد - كما هو عند كنت ( أي امتحان العقل الإنساني من حيث قدرته على الإدراك وإلى أي مدى تكون هذه القدرة ) - موقف النقد هذا ، لم يكن ميسوراً إلا إذا كانت هناك من ناحية طائفة كبيرة من المعلومات العلمية ، ومن ناحية أخرى تجربة روحية خلقها الدين . وفي كل عصر وجدت فيه هذه النزعة إلى النقد كان ذلك إيداناً بأن ثمت ثورة على العلم كما وصل ، وعلى الدين كما صور حتى ذلك الحين .

ففي الفلسفة اليونانية نفسها لم تقم النزعة إلى النقد إلا حين تكونت معلومات عديدة على يد الفلاسفة السابقين على سقراط . وحينئذ بدأت الروح الجديدة ، روح التنوير ، تور على ما وصل حتى الآن أو على التجربة الروحية الدينية كما نقلت إليهم ، وهذا الدور قد قامت به السوفسطائية .

فلم يكن لنا إذاً أن نتوقع من الفلسفة اليونانية أن نقف

الفلسفة اليونانية - بين السياسة والأخلاق . وأرسطو الذي يحاول أن يفرق بينهما بعض التفرقة لم يستطع أن يتخلص من هذا الطابع الذي امتازت به الفلسفة اليونانية كلها - في كتابه « في السياسة » . إذ نراه يتعلق بنفس الأشياء التي توحى بالروح الفردية من جهة ، والروح الصادرة عن المجتمع من جهة أخرى . فالشاهد من هذا كله إذاً أن الخاصية الرئيسية التي وجدناها متمثلة في كل مرافق الحياة الروحية في الحضارة اليونانية - وهي خاصية عدم التفرقة بين العالم الخارجي والعالم الداخلي - نجدتها متمثلة أجلى تمثل في الفلسفة اليونانية .

- ٤ -

فلنتقل الآن إلى الكلام عن وجوه هذا الاختلاف بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الحديثة من حيث تطور كل واحدة منهما . فنشاهد أولاً أن تطور الروح اليونانية كان من شأنه أن يوجد بعض التغيير في طبيعة هذه الروح اليونانية في الفلسفة ، أي أن يتخذ هذا الطابع صوراً متعددة تبعاً لتطور العصور . ولكتنا نستطيع مع ذلك أن نتبين الطابع الرئيسي في كل عصر من هذه العصور ، مهما خيل إلينا في بعض الأحيان أنه غير موجود . فالطور الأول من أطوار الفلسفة اليونانية ، وهو طور الفلاسفة السابقين على سقراط ، طور يمتاز بأنه كان يبحث في الطبيعة الخارجية مباشرة بصرف النظر عن الطبيعة الداخلية . ومع ذلك نراهم - كما قلنا من قبل - يتصورون الطبيعة الخارجية على أنها كائن حي . ومعنى هذا أنهم حاولوا أن يوقفوا بين كلتا الطبيعتين ، الخارجية والداخلية ، ولو أن ذلك التوفيق كان إبان هذا الطور على حساب الطبيعة الداخلية . فلما غالى هؤلاء في هذه التزعة إلى تقليد الطبيعة الخارجية ، ثارت الروح اليونانية ، وكانت هذه الثورة ما يسمى باسم التزعة السوفسطائية . فبدأت العناية تتجه إلى الطبيعة الداخلية ، وخصوصاً لدى سقراط الذي بدأ الطور الثاني من أطوار الفلسفة اليونانية ، وهو الطور الذي ختم بأرسطو . وهنا نلاحظ أن توجيه سقراط النظر إلى الطبيعة الداخلية لم يكن من شأنه أن يصرفه عن الطبيعة الخارجية . حقاً إن الطبيعة الداخلية كادت تستأثر بكل تفكير سقراط ، إلا أنه يلاحظ مع هذا كله أن تفكير سقراط كان يحتوي على بذور فلسفة في الكون ، ولو أن هذه البذور لم تصل إلى درجة مذهب . أما الذي كون المذهب فهو أفلاطون .

هي في الواقع المقابل الوجودي للخاصية الثانية . فالتفرقة بين الذات وبين الموضوع في نظرية المعرفة يقابلها في نظرية الوجود التفرقة بين الروح وبين الجسم . وهنا نلاحظ كما لاحظنا فيما يتصل بالذات والموضوع أن التفرقة بين الروح والجسم لم تكن تفرقة واضحة قوية عند الفلاسفة اليونانيين في تصورهم للكون . فنحن نجد من جهة أن الفيلسوف اليوناني أنكساغورس قد فرق بين العقل وبين المادة ، كما نلاحظ أيضاً أن أفلاطون قد عني دائماً بأن يفرق بين الحياة الروحية والحياة الجسمية ، بين عالم غير الحس وعالم الحس ، بين المثل أو الصور وبين الأشياء . كذلك الحال عند أرسطو ؛ فعنده تصل هذه التفرقة إلى قمتها .

لكن ، ومع هذا كله ، نلاحظ من جهة أخرى أنهم لم يكونوا يفرقون تفرقة واضحة بين تصورهم للطبيعة الخارجية على غرار الروح ، وتصورهم للروح على غرار الطبيعة الخارجية . فهم كانوا يفسرون الظواهر النفسية تفسيراً طبيعياً صرفاً ، كما أنهم كانوا يتصورون الطبيعة من ناحية أخرى بحسبانها كائناً حياً . وعلى هذا النحو نشاهد أولاً أن الفلاسفة السابقين على سقراط كانوا من أتباع المذهب الذي يقول بأن المادة حية - وهو ذلك المذهب الذي يؤمن بأن الطبيعة أو الكون ليس مادة فحسب بل هو مادة حية . وهذا المذهب قال به ، إلى جانب السابقين على سقراط ، أفلاطون ثم الرواقيون الذين قالوا إن الكون كائن حي ، بينما قال أفلاطون إن الكواكب حية . ومن ناحية أخرى تشاهد أن الظواهر النفسية كانت تفسر تفسيراً مادياً صرفاً ، ليس فقط عند الليريين والأبيقوريين ، بل أيضاً عند كبار الفلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو . فالأولون كانوا ينظرون إلى الحس مثلاً نظرة مادية صرفة على أساس أنه تقابل الذرات . كذلك نلاحظ أن أفلاطون لم يكن ينظر إلى الصور على أنها أشياء ذهنية ، بل كان يتصورها باستمرار تصوراً وجودياً على أنها أشياء لها وجود خارجي ، وهذه هي التزعة إلى التجسيم التي رأيناها من قبل واضحة في الفن .

كذلك الحال في الأخلاق - وقد عرضنا لذلك من قبل - نرى الفلاسفة اليونانيين لم يكونوا يفرقون بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية . فالأخلاق واحدة : أخلاق الفرد هي أخلاق الفرد بوصفه عضواً في المجتمع ، وأخلاق المجتمع هي أخلاق الفرد بوصف أنه وحدة تضم عدة أفراد . ومن هنا لم يكن لديهم كفى تفرقة - أو على الأقل كان ذلك في بدء



المعرفة لا ينتظر إلى الأصل الذي نشأت عنه المعرفة ، أي لا يبحث في الذات ، وإنما يبحث في المعرفة من حيث هي متصلة بالوجود ، أي يبحث بحثاً موضوعياً خالصاً لا صلة له بالذات المدركة . فإلى جانب اعترافه بالماهيات ، لا يريد أن يفصل هذه الماهيات فصلاً تاماً عن الأشياء أو الذوات المقابلة في الخارج .

كذلك الحال فيما يختص بالأخلاق ، فإن الأخلاق عند أفلاطون أخلاق طبيعية ، بمعنى أنها تعنى بالصلة بين الفرد والمجتمع الذي وجد فيه ، وتنتظر إلى هذه الصلة على أساس أن هذا الفرد لا يمكن أن يفهم إلا على هذا الأساس . أي أن هذه الأخلاق لا تفصل بين الأخلاق والسياسة .

ومن ناحية المذهب الطبيعي ، نجد أن أفلاطون لم يصل إلى تصورات العصر الحديث فيما يتصل بالطبيعة الخارجية . فلم ينتظر إلى الطبيعة الخارجية على أنها آلة لا حياة فيها ، وإنما خاضعة لقوانين آلية صرفة ؛ بل نظر إلى هذه الطبيعة كما نظر إليها الفلاسفة اليونانيون السابقون على سقراط بوصفها شاملة للحياة ، أي على أساس أن الروح أو النفس تشيع في الطبيعة . ولهذا يلاحظ أن أفلاطون قد قال إن هناك نفساً كلية هي نفس العالم ، وأن الكواكب أجسام حية ، ولها نفوس خاصة بها : فالطبيعة إذن روحية ومادية في آن واحد . وعلى هذا الأساس لا نستطيع مطلقاً إلا أن نفرق تفرقة كبيرة بين الطبيعة كما تصورها أفلاطون ، والطبيعة كما تصورها العصر الحديث .

حقاً إننا نلاحظ أن هناك شيئاً من الثنائية يمكن أن يستخلص كنتيجة ثنائية لمذهب أفلاطون . لكن الواقع هو أن التعارض بين الروح وبين المادة لا يظهر ظهوراً جلياً ، أولاً يبلغ حد التعارض والتناقض . كما يلاحظ أيضاً أن أفلاطون ، في مثل هذه الأحوال ، لا نراه ابناً حقيقياً للروح اليونانية ، بل نراه متأثراً بالعناصر الشرقية التي تأثر بها خصوصاً عن طريق تأثره بالفيشاغوريين .

والحال كذلك بالنسبة إلى أرسطو . فعلى الرغم من الدقة العلمية الشديدة التي أظهرها وعلى الرغم من قرب الصلة بين مذهبه في البحث وبين منهج البحث الحديث والتأثير التي وصلت إليها الطبيعة في العصر الحديث . على الرغم من هذا كله ، فإن أرسطو كان يونانياً ، أي أنه لم

يأتي بعد هذا مذهباً أرسطو وأفلاطون . وهذان المذهبان هما أعلى صورة بلغتها الفلسفة اليونانية . وفيهما نجد الطابع الأساسي للروح اليونانية قد تجل بأجلى مظاهره . وعلى الرغم مما هنالك من قرب كبير بين طابعي هذين المذهبين وبين طابع الفلسفة الحديثة ، فإن الاختلاف ظاهر واضح نستطيع أن نلمسه في شيء من السهولة . فمع أن أرسطو وأفلاطون قد قالا بوجود فرق حسي ، ومع أنها قد قالا بأن هذا الوجود اللاحسي أعلى وأسمى من الوجود الحسي ، وأن عالم الظواهر ليس غير صورة مشوهة لعالم الحقائق ، وهذا الآخر فوق الطبيعة والحس ؛ ومع أنها انتحيا في الأخلاق ناحية القول بأن الفضيلة هي العلم والتفكير ، أي إلى جعل الذاتية الأساس في هذا كله . نقول إنه على الرغم من هذا كله نشاهد أنها لم يجعلوا الجانب الروحي مضاداً للجانب المادي وأنها لم يعضوا نزاعاً واختلافاً جوهرياً بين كلا العالمين .

فلنأخذ أولاً أفلاطون . فلذا كان أفلاطون قد قال بعالم الصور وبالحقائق الأبدية فإن هذه الصور ليست في الواقع صوراً ذهنية ، سواء أكان هذا الذهن ذهن الله أم ذهن الإنسان . فكل من أرسطو وأفلاطون لم يته إلى القول بأن العالم الخارجي من صنع عقولنا وأنه لا وجود له ، إلا على أساس أن ثمت ذاتاً تضعه وتفترضه : ففكرة الذاتية كما هي عند كنت أو عند قشته . على أساس أن هناك وجوداً روحياً هو الأساس في كل تصور أو أن الوجود كله هو قوة روحية تمتل وتتصور كما يقول لبيتس . هذه الفكرة لم تكن موجودة عند أفلاطون ، بل إن الصور الأفلاطونية تستمد وجودها من الأشياء ذاتها ، كما أن الأشياء ذاتها تستمد وجودها من هذه الصور وعلى هذا فيجب ألا تفسر الصور الأفلاطونية كما حاول الآخرون أن يفسروها . إذ قال البعض وبخاصة الفلاسفة الأفلاطونيون المحدثون ، إن الصور في عقل الله ، وتبعهم في ذلك آباء الكنيسة وبعض رجال العصر الحديث مثل أبليت ولوتسلافسكي ، كما أن هناك آخرين قد فسروا هذه الصور على أنها في عقل الإنسان ؛ والذي يمثل هذا الاتجاه هو مدرسة مار بورج ، وأشهر رجالها هرمن كوهن وباول ناتورب . فهذا الاتجاه إلى تفسير الصور الأفلاطونية على أنها صور ذهنية أو صور في ذهن الله ، ليس هو الاتجاه الحقيقي الذي يجب أن يتخذ في تفسير الصور الأفلاطونية .

ثم نلاحظ بعد هذا أن أفلاطون في كلامه عن نظرية

هذه النزعة الذاتية كانت مشوبة أيضاً بنزعة موضوعية ، لأن الرواقين كانوا يتصورون الطبيعة الخارجية على غرار الطبيعة الداخلية أو الذاتية . ولهذا كان المثل الأعلى في الأخلاق لديهم هو الحياة بمقتضى الطبيعة ، وهذه هي القاعدة الرئيسية التي تلخص مذهبهم . فمن ناحية الأخلاق نجد أن الأخلاق الرواقية أخلاق طبيعية صرفة ، بمعنى أنها كانت ترى أن السير بمقتضى الطبيعة هو الخير الأسمى والغاية العليا في الأخلاق . ومن ناحية النظرة إلى الطبيعة ، يلاحظ أن الرواقين كانوا يعدون الطبيعة كلها كائناً حياً يسمى باسم «بنيبا» *πνευμα* وعلى هذا كانت الطبيعة الخارجية روحاً أو نفساً أي لم تكن مادة صرفة . ومن ناحية نظرية المعرفة ، نشاهد أن الرواقين كانوا يقولون إن النفس المدركة هي نار ، ومعنى هذا أن الشيء الروحي هو شيء مادي هو النار . وعلى هذا لم يكن ثمت انفصال شديد بين الروح وبين المادة في رأي الرواقين .

أما الأبيقوريون ، فعلى الرغم من ماديتهم الصرفة ، فإن النتيجة الأخيرة للأخلاق عندهم كانت نتيجة روحية . فإلى جانب قولهم إن الأصل هو الذرات الفردية ، وإن الأصل في المعرفة هو اتصال الذرات وإن السكون نشأ عن اجتماع الذرات ، وإن الدين ليس غير وهم ، وإن الأخلاق يجب أن تكون أخلاقاً طبيعية صرفة خالصة - إلى جانب هذا كله ، جعلوا ثمت مكاناً ومجالاً للأمور الروحية في داخل هذه التوكيدات المادية الصرفة . فمن ناحية نظرية المعرفة أولاً ، نجدهم ماديين تقريباً ، لم يحاولوا أن يضيفوا شيئاً روحياً إلى التفسير المادي . لكنهم في الطبيعة اضطروا إلى القول بعنصر روحي هو ذلك الميل *clinamen* الموجود في طبيعة الذرات ، والذي يجعل بعضها يتحد ببعض . فإن هذا الميل هو عنصر نزوع ، أي أنه عنصر روحي . ثم يلاحظ في الأخلاق أن النتائج الأخيرة الأبيقورية تكاد أن تكون روحية صرفة : فالمثل الأعلى ، وهو الأتركسيا ، يكاد يكون مقارباً للمفضيلة العليا عند أرسطو ، فضيلة التأمل والتعقل .

فإذا ما انتقلنا من الأبيقورية إلى الشكك نرى الشك اليوناني لم يكن كالشك الحديث الذي يمثله خصوصاً هيوم ، فالشك الحديث مختلف تمام الاختلاف عن الشك اليوناني القديم . وذلك لأن الشك القديم يمتاز بالهدوء الصادر عن الجهل الصرف ، بينما يمتاز الشك الحديث بالقلق الصادر عن الإنكار من ناحية ، والرغبة الملحة في التوكيد من ناحية أخرى . فالشك الحديث رجل متردد بين ضرورة إنكار المعرفة

يتخلص من ضرورة التوفيق بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية . ولهذا نرى أنه لم يشأ مطلقاً أن يجعل الصورة مفارقة للهوى ، إنما تصور الاثنين مرتبطتين ببعضهما بعضاً في الوجود ارتباطاً لا انفصال له ، ولا توجد الصورة مفارقة إلا في الذهن فحسب ، ومن هنا يتبين أنه ليس ثمت تعارض في الوجود بين الصورة التي هي الجانب الروحي ، وبين الهوى التي هي الجانب المادي . وفي الإدراك أو نظرية المعرفة ، نشاهده يقول دائماً إن الكلي لا وجود له إلا في الذهن ، والوجود الحقيقي هو وجود الأفراد لا الأجناس والأنواع . وفي هذا تعبير واضح عن ضرورة الجمع بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية ، بين الروح والمادة ، بين الحسي واللاحي .

كذلك في الأخلاق . فعلى الرغم من أن أرسطو قد فصل بين الأخلاق والسياسة ، فإنه كما لا حظنا من قبل : لم يجعل الفصل تاماً بين الاثنين : فالأخلاق الأرسططالية مصبوغة بصيغة السياسة ، بكل ما للسياسة من محاسن ومساوىء .

كذلك الحال أيضاً في الطبيعة عند أرسطو . فإنه يقول إن المادة أو الهوى تصير إلى الصورة ، أي أن في الهوى نزوعاً نحو الاتحاد بالصورة ، ومعنى هذا أن في الهوى نفسها شيئاً من الروحية ، لأن هذا النزوع هو شيء روحي صرف . ولهذا أيضاً نرى أرسطو في نظريته في الكواكب يشاطر أفلاطون رأيه فيقول إن للكواكب نفوساً ، بل يقول أيضاً إن للكواكب عقولاً . ونظرية عقول الكواكب من النظريات المشهورة المأثورة عن أرسطو ، على الرغم مما أثير حولها من اختلافات .

فإذا ما انتقلنا من هذا العصر الثاني من عصور الفلسفة اليونانية - وهو العصر الذي ابتداء من سقراط أو السوفسطائيين وانتهى بأرسطو - إلى العصر التالي والثالث للفلسفة اليونانية ، نجد أنه على الرغم مما نراه من ضعف شديد في الروح اليونانية من جراء ما أصابها من انحلال باطن ومؤثرات خارجية كادت تقضي على جوهرها وطبيعتها ، على الرغم من هذا كله نستطيع أن نتبين خصائص الروح اليونانية في المذاهب التي ظهرت إبان ذلك العصر .

فبعد الرواقين أولاً - ولو أنهم كانوا ينصرفون انصرافاً شبه تام عن الطبيعة كي يقتصروا على الذات - يلاحظ أن

كلا العالمين . فالوحدة في الروح اليونانية وحدة لا أجزاء فيها ، بينما الوحدة في الفلسفة الحديثة وحدة منقسمة . ولئن كانت الروح اليونانية قد خضعت في عصورها الأخيرة لنوع من الثنائية ، بل وأيضاً في عصور الفلسفة اليونانية الزاهرة ، فإنه حينها تكونت هذه الثنائية حدثت هوة في النظر الفلسفي ، لم تستطع الروح اليونانية أن تعبرها ، ومن هنا كان عجزها عن التوفيق ، وقدرة روح الفلسفة الحديثة على هذا التوفيق . ولكننا رأينا ، على الرغم من هذا كله ، أن الروح اليونانية قد ظلت بطريقة مباشرة حيناً ، وغير مباشرة حيناً آخر ، مغلصة لنقطة ابتدائها وهي الانسجام التام بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية .

### عصور الفلسفة اليونانية

- ١ -

للتاريخ وجهان : فالتاريخ حياة ، والتاريخ فكر . هو حياة بوصفه شيئاً حيّ أناس معينون في عصر معين ونحت ظروف معينة ؛ وهو من ناحية أخرى وثائق تركتها لنا هذه الحياة التي حيّها هؤلاء الناس ، يقوم التفكير بالنظر فيها . ففي التاريخ إذاً ثنائية بين الحياة وبين الفكر . وهذه الثنائية هي الصعوبة الكبرى التي يجدها المؤرخ حين يريد أن يؤرخ تاريخاً حقيقياً صحيحاً . وذلك لأن الفكر بطبيعته مضاد للحياة ، كما أثبت لنا ذلك برجسون إذ التفكير لا يتم إلا عن طريق مقولات أو إطارات ثابتة ، بينما الحياة تقتضي التطور ، ومعنى هذا أن الفكر ، حينها يطبق على الحياة ، يحيل الحياة إلى شيء مادي آلي . ومن هنا اختلف الناس في تصورهم للتاريخ ، وبالتالي اختلفوا في تصورهم للزمان الذي يقوم عليه التاريخ . فهناك زمان آلي هو زمان الساعات ، وهناك زمان حقيقي لا يقاس بالساعات ، وإنما يقاس بالقدر الذي نحيا به الأحداث والتجارب . فهناك اختلاف إذاً بين الزمان الآلي والزمان الحيوبي - إن صح هذا التعبير - ؛ والأول لا بد من اللجوء إليه إذا ما فكرنا في التاريخ . أي أن الحياة ، وهي جوهر التاريخ ، حينها تصبح شيئاً مسروداً مسجلاً لا بد أن تنطبع بطابع التفكير ، الذي هو الآلية .

ومن هنا لن نستطيع مطلقاً أن نتخلص من مقتضيات الفكر ، أي من النظرة الآلية إلى التاريخ ، خصوصاً إذا لاحظنا أنه لا بد لنا من الالتجاء إلى هذه النظرة الثابتة كي يسهل الفهم ، والفهم لا يتم إلا في هذا الوضع البسط

وبين ضرورة تأكيد المعرفة ، بينما نجد الشك اليوناني يحسب أن الشك صادر عن شيء طبيعي ، هو قصور طبيعتنا عن المعرفة . وهذا القصور الطبيعي ليس علينا إلا أن نتقبله كما هو ، غير محاولين الثورة على هذه الطبيعة . فإذا كان الشك الحديث يمتاز بالقلق ، فإن الشك القديم يمتاز بالهدوء ، لأنه صادر عن طبيعة الأشياء ذاتها ، بينما الشك الأول صادر عن الطبيعة من جهة ، والثورة على الطبيعة من جهة أخرى .

وأخيراً نصل إلى الأفلاطونية المحدثة . وهنا - وعلى الرغم من أن الأفلاطونية المحدثة قد توارت فيها الروح اليونانية إلى حد كبير - فإننا نستطيع أن نلمح أثر هذه الروح في هذا المذهب . يشاهد هذا أولاً في الصراع الذي قام به الأفلاطونيون المحدثون ضد الدين المسيحي ، بسبب أن الدين الأخير يفرق تفرقة تامة بين الروح وبين المادة ، ويجعل ثمت تعارضاً مطلقاً بين الاثنين ، وما كان للأفلاطونيين المحدثين أن يقوموا يمثل هذا الصراع لو أنهم اتفقوا مع أصحاب الدين المسيحي في نظرتهم نحو الطبيعة . ونحن نشاهد أن أبرقلس وفورفوروريوس قد قلما بحملة عنيفة على الدين المسيحي في نظرتهم إلى الطبيعة ، مؤيدين الدين الوثني . والتزاع بين الروح وبين المادة عند أفلوطين ليس نزاعاً كبيراً ؛ بل إن ثمت صلة كبيرة بين المادة وبين الروح ، فلا يحاول أن يرفض الأولى رفضاً تاماً .

والخلاصة هي أنه إذا كانت روح العصور الوسطى أو الروح المسيحية قد فرقت تفرقة تامة بين الجسم والروح ، بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الداخلية ، وإذا كانت العصور الحديثة قد حاولت أن ترجع إلى إثبات وحدة بين الاثنين ، مع الاعتراف أيضاً بأن كلا العالمين مفترق عن الآخر متميز ، فإن الروح اليونانية قد نظرت من أول الأمر إلى الصلة بين الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية على أنها صلة انسجام ، وصلة وحدة لا تفرقة فيها . ومن هنا كان الاختلاف بين نظرة الروح القديمة ونظرة روح الفلسفة الحديثة .

فلئن كان كل منها قد حاول الوحدة ، فإن نقطة البدء قد جعلت النظر إلى هذه الوحدة أو إلى الصلة بين كلا العالمين ، عاملاً في اختلاف طبيعة هذه الوحدة . فنقطة البدء في الفلسفة اليونانية أو الروح اليونانية - كما قلنا - هي النظر إليها على أنها وحدة لا ثنائية فيها ، بينما قد أدت نقطة البدء في الفلسفة الحديثة إلى النظر إلى هذه الوحدة على أنها توفيق بين

بدأوا بتقسيم الفلسفة اليونانية على أساس فكرة الجنسية . فالليونانيون ينقسمون إلى فرعين هما : الأيونيون والدوريون أما الأيونيون فيمتازون - على حسب رأي هؤلاء - بالواقعية ، بينما الدوريون يمتازون بالمثالية . وعلى أساس هذا قسم الأولون أدوار الفلسفة اليونانية إلى ثلاثة : فهناك العصر الأيوني ، ثم العصر الدوري ثم العصر الحليط بين الاثنين وهو العصر الأتيكي . كذلك قال برانس إن تطور الفلسفة اليونانية قد تم بوجود العنصرين معاً . ففي العصر الأول نجد من ناحية ، المدرسة الأيونية وهرقليطس وهؤلاء أيونيون ، وفي الجانب الآخر نجد برمنيدس وفيثاغوس ، وهؤلاء دوريون . وكان الاتجاه السائد النظر في الطبيعة الخارجية .

وفي العصر الثاني كان النظر متجهاً نحو إيجاد الروح الكلية . ويمثل هذه النزعة أنكساغورس وديموقريطس من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنبادوقليس وذيوجانس . ثم يأتي العصر الثالث وفيه تبدأ محاولة إيجاد روح جديدة مقابلة للروح التي هدمتها السوفسطائية ، وهكذا تكون العصر الثالث والأخير ، ويبتدىء من سقراط وينتهي بانتهاء الفلسفة اليونانية .

ويرد تشر على هؤلاء ، فيقول إن الفلسفة في العصر الأول لم تكن أيونية خالصة كما لاحظ برانس بحق ، ولكن هذا الأخير يخطئ أيضاً حينما يصور ذيوجانس وديموقريطس وأنكساغورس على أنهم قد حاولوا إيجاد الروح الكلية ( المطلقة ) ، لأن أنكساغورس ، وكذلك زميلاه ، كان بحثه متجهاً كالأولين تماماً ، أي أصحاب العصر الأول ، إلى الطبيعة الخارجية وحدها ، ولنا نستطيع أن نشين فرقاً كبيراً بين فلاسفة الدور الأول ، وفلاسفة هذا العصر الثاني ؛ بل إن النظرة في الاتجاه واحدة .

وعلى هذا فليس ثمت من مبرر للفصل بين هذين العصرين .

ثم إنه يلاحظ أيضاً أن هذا التقسيم غير متناسب ، فالبعد كبير بين مقدار العصر الأول والعصر الثاني من جهة ، والعصر الثالث من جهة أخرى . فالعصر الثالث يشمل شخصيات ضخمة كبيرة لا تتناسب مطلقاً مع أصحاب العصر الأول والثاني ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا نستطيع أن نقول إنه كان ثمت اتجاه واحد طوال هذا العصر

الألي . ومعنى هذا كله أنه لا بد من أن نطبع تاريخ أي شيء ، سواء أكان تاريخاً روحياً أم تاريخ حوادث ، بهذا الطابع العام للتفكير وهو طابع الآلية . فالتاريخ - على حد تعبير كروتشه - فيه طابع الفكر من حيث إن الفكر يشتمل على عصور وفترات . وعلى هذا فلن نستطيع مطلقاً أن نتخلص من فكرة تقسيم التاريخ إلى فترات وعصور . والنقص الذي يحدث من هذه النظرة إلى التاريخ نستطيع أن نتلافاه ، إلى حد بعيد ، لو نظرنا إلى الزمان بحسبانه زماناً حيويًا ، ومعنى هذا أننا في تقسيمنا فترة ما إلى عصور ، أو حضارة ما من الحضارات إلى أدوار ، أو حركة روحية إلى أطوار ، يجب أن يكون مبدأ التقسيم ، ليس هو التقسيم الخارجي للسنوات ، وإنما التقسيم الباطن للمضمون الروحي لهذه الحركة الروحية فنقسم الحركة الروحية التي ندرسها إلى اتجاهات ، ونجد الصلة بين الاتجاه والاتجاه من ناحية المضمون الروحي الخاص بكل اتجاه . فإذا وجدنا أن المضمون الروحي قد انتهى وبدأ يتكون مضموناً روحياً جديداً ( ذو اتجاه جديد ) ، فمعنى هذا أنه قد بدأ طور جديد . وقد يكون الانتقال بين الطور والطور واضحاً على شكل ثورة يكون فيها قلبٌ للنظرة السائدة في الاتجاه السابق ، من أجل إيجاد نظرة جديدة غالباً ما تكون متعارضة ، وفي تناقض تام تقريباً ، مع النظرة التي سادت الطور السابق .

فإذا بحثنا الآن في فلسفة التاريخ من هذه الناحية ، وجدنا أن هذه الفترة التي يكون فيها انتقال مفاجيء أو شبه مفاجيء ، من اتجاه ضخم إلى اتجاه آخر ضخم ، توجد حينما يتم الانتقال مما يسميه الفلاسفة الألمان - وبخاصة اشبنجلر - الحضارة إلى المدنية ، وتسمى فترة الانتقال هذه باسم التنوير . وستحدث عن خصائص التنوير حينما نصل إلى عصر التنوير عند اليونان ، ونعني به عصر السوفسطائية .

فيجب علينا إذا أن نقسم تاريخ الفلسفة اليونانية إلى أدوار . فما هي هذه الأدوار؟ لن نجيب عن هذا السؤال إجابتنا الخاصة ، إلا بعد أن نعرض الإجابات التي ساقها المؤرخون السابقون للفلسفة اليونانية .

الرأي السائد في القرن التاسع عشر هو أن الفلسفة اليونانية تبدأ بطاليس ، ويبدأ بعد ذلك الاختلاف في تحديد الأدوار . فنجد أولاً آست وركينسر، وبرانيس، قد

إلى السوفسطائية على أنها حركة انتهاء ، لا حركة ابتداء . وعلى هذا يبدأ القسم الثاني من العصر الأول بالسوفسطائية ، ويدخل في هذا القسم سقراط وأنصاف السقراطيين والمدارس السقراطية الصغيرة المختلفة . أما القسم الثالث فيسكوّن حينئذ القسم الخاص بأفلاطون وأرسطو . وهذا التقسيم الفرعي يقوم على أساس أن الروح المطلقة الكلية قد وصلت إلى أول درجة من درجات كمالها على يد أنكساغورس لما قال بفكرة العقل ثم بدأت هذه الفكرة المطلقة تنحل على يد السوفسطائيين وسقراط ، ثم سارت إلى الوحدة من جديد وبلغت أوجها من الوحدة على يد أفلاطون وأرسطو .

## - ٣ -

بيد أن اتسار لا يشاء أن يأخذ بهذا التقسيم . فيقول أولاً إن النسب غير متساوية ، كما هي الحال من قبل عند برانس . فطول العصر الأول لا يتناسب مطلقاً مع قصر كل من العصورين الآخرين ، ولو أنه من الناحية التاريخية يمكن أن يكون هذا التقسيم متناسباً ، فإنه من ناحية المضمون ، أي من ناحية الأفكار الفلسفية التي وجدت في كل عصر من هذه العصور الثلاثة ، غير متناسب تماماً . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أنه لا يجب أن تبدأ بالسوفسطائية عصرًا جديدًا للفلسفة اليونانية ، وذلك على أساس المقياس الذي اتخذه من قبل وهو أنه لا يمكن أن تبدأ عصرًا جديدًا إلا إذا بدأ تيار جديد قد تحدت معالمه وأصبح شاعرًا بنفسه . والسوفسطائية في رأي اتسار ليست بدءاً لفلسفة جديدة ، وإنما هي محاولة للقضاء على الفلسفة القديمة . نعم إنهم وجهوا عنايتهم إلى الذات أو الطبيعة الداخلية ، بدلا مما كان عليه الحال من قبل حينما كان الفكر متجهًا بكلية إلى الطبيعة الخارجية فحسب . ولكنهم نظروا إلى الذات لا على أنها الإنسان أي لا بحسبانها معنى كلياً ، وإنما نظروا إلى الإنسان على أنه هذا الإنسان أو ذاك ، أي لم ينظروا إلى الإنسان كفكرة كلية ، بل كفرد محدد معين . وهم في نظريتهم في المعرفة لم يقولوا مطلقاً إن الوجود الذهني هو الوجود الجدير بالبحث أو هو الوجود الحقيقي ، كما سيقول سقراط . وعلى هذا فإن السوفسطائية لا تمثل اتجاهًا ، فلا يمكن إذن أن تبدأ بها عصرًا جديدًا .

ورأي اتسار في هذا مخالف للبحوث التي كتبت من بعده وفي أيامه أيضاً بل وقبله ، والتي انتهت إلى القول بأن

الثالث ، كما يزعمان . وذلك لأننا سنرى أنه سيبدأ اتجاه جديد بعد موت أرسطو . ولا بد من الفصل بين الفلسفة المبتدئة بسقراط والمنتية بأرسطو ، وبين الفلسفة التي جاءت بعد أرسطو حتى آخر الفلسفة اليونانية . فعدم التناسب هذا يكفي وحده للقضاء على نظرية برانس .

وعدم التناسب هذا نجده كذلك في نظرة هيجل الذي رأى أن الفلسفة تنقسم إلى عصور ثلاثة أيضاً ، وأن العصر الأول كان عصر الوحدة ؛ ثم جاء العصر الثاني فكان ثورة على هذه الوحدة ؛ وجاء العصر الأخير فكان محاولة للتوفيق بين الاثنين .

قسم هيجل عصور الفلسفة اليونانية على هذا الأساس ، فجعل هذه العصور ثلاثة: العصر الأول ويتلىء من طاليس كما هو متفق عليه بين الجميع ، وينتهي هذا العصر الأول بأرسطو ، ثم يبدأ العصر الثاني ابتداء من المدارس التي تلت أرسطو ، وهي الرواقية والأبيقورية والشكاك سواء منهم القدماء والمحدثون ، والعصر الثالث هو عصر الأفلاطونية المحدثه . والأساس في هذا التقسيم هو منهج هيجل الذي تصور على أساسه التطور الروحي للإنسانية . فإنه يقول إن الفكرة المطلقة قد وصلت إلى أعلى درجة من درجات تحققها عند أرسطو . وبعد أرسطو بدأت الوحدة تنحل إلى شيئين متعارضين : إلى موضوع ، ونقيض موضوع . فمن ناحية نرى المذاهب التوكيدية وهي الرواقية والأبيقورية ، ومن ناحية أخرى يضاد هذه المذاهب مذهب الشكاك الذي هو نقيض لكل توكيد . وتبعاً لسير التاريخ من موضوع إلى نقيض موضوع ، ثم إلى مركب موضوع ، كان لا بد بعد انفصال الصورة الكلية إلى نقيض موضوع ، وموضوع ، أن تمت وحدة هي مركب الموضوع بين الموضوع ونقيض الموضوع ، وهنا سيكون هذا المركب سلباً للسلب أي إيجاباً . فأصبحت الفكرة المطلقة وحدة من جديد ، وهذا قد تم على أيدي الأفلاطونية المحدثه .

ولهذا لا بد أن نقسم التاريخ الفلسفي لليونان على هذا الأساس . ومع هذا فنستطيع أن نجعل تمت تقاسيم في داخل العصر الأول ، فنقسمه حينئذ إلى قسمين أو ثلاثة أقسام . وهنا ينظر هيجل نظرة جديدة إلى السوفسطائية فيجعل ابتداء القسم الثاني من العصر الأول بالسوفسطائية ، بدلا مما كان يفعله المؤرخون الأسبقون الذين كانوا ينظرون

التفرقة بين عالم الصور وعالم الموضوعات المناظرة لها أو المشابهة لهذه الصور . وعلى العكس من هذا يقول أرسطو : إن الصور لا توجد منفصلة عن الموضوعات المناظرة لها . ولكنه يرى مع ذلك أن الصورة هي الماهية وأن الماهية هي الوجود الحقيقي ، وأن المادة ليس لها وجود حقيقي ، وإنما كل وجودها بالقوة ، أما الصور فوجودها بالفعل باستمرار .

فمن هذا كله نشاهد أن ثمت تياراً واحداً قد صاد هذا الفكر الجديد . وعلى هذا فإنه لما لم يكن السوفسطائيون قد بدأوا هذا الاتجاه ، فإن نقطة البدء ستكون إذن سقراط . وبعد هذا يتعين علينا أن نحدد نقطة الانتهاء . وهنا نتخذ نفس المعيار الذي اتخذناه من قبل وهو استمرار التيار . فإذا اتخذنا هذا المعيار ، وجدنا أنه بعد أرسطو وقف هذا التيار وقوا يكاد يكون تاماً : فالمدارس التي تلت أرسطو قد اتجهت نحو الذات اتجاهاً جديداً تاماً ، ولم تعد تُعنى مطلقاً بالوجود أيًا كان ، سواء أكان ذلك الوجود الذهني أم الوجود الخارجي ، وإنما اتجهت إلى العمل وإلى كل ما يفيد . فبينما كان الفكر والنظر هما الأساس في الحياة وفي الوجود بالنسبة إلى أصحاب التيار الثاني ، نجد أن أصحاب التيار الجديد ينظرون إلى الفكر من ناحية قيمته العملية فحسب ، أي أن الفكر ثانوي بالنسبة إلى العمل . ولهذا لم يوجهوا أدنى عناية إلى البحث في الطبيعة الخارجية وإلى البحث فيما وراء الطبيعة ، وكل ما عملوه في هذا الباب هو أنهم اقتطفوا من هنا وهناك بعض المذاهب التي تفيدهم في تحقيق غايتهم التي ينشدونها . فأخذوا عن الفلاسفة السابقين على سقراط مذاهبهم في الطبيعة الخارجية : فأبيقورس يأخذ عن المذهب الذري ، والرواقيون يأخذون عن هرقلطس : ولو أن هؤلاء الآخرين قد عنوا بعض العناية بالبحث في الطبيعيات ، فإن هذا لم يكن مطلقاً يقصد لذاته ، بل كان نتيجة لقاعدتهم الأخلاقية الرئيسية وهي : « عش بمقتضى الطبيعة » ، وكل ما يعني الإنسان من البحث الطبيعي هو أن يعرف عن الطبيعة كل ما يفيد في تحقيق هذه القاعدة . فعلى الإنسان أن يعرف - على هذا الأساس - أن في العالم روحاً كلية واحدة ، وعلى هذا ستكون الأخلاق أخلاقاً عالمية .

وفي نظرية المعرفة لم يكن يعنيه من البحث فيها إلا أن يطمئنا على أنفسهم ، وعلى هذا الأسس اتخذ أبيقورس المذهب الحسي الذري في تصوره للطبيعة الخارجية ، وإذا كان الرواقيون قد عنوا بالأبحاث الدينية ، فلم تكن تلك

السوفسطائية يجب أن تُعدَّ عصرًا جديداً . وذلك لأن السوفسطائية هي ، كما يسمونها ، نزعة التنوير عند اليونان ؛ وليست حركة سلبية كما ظن اتسلسر ، وإنما هي ثورة ناتجة عن شعور قوي برغبة ملحة ونزعة قوية نحو إيجاد نظرة جديدة في الكون وفي الوجود . فمن قبل اتسلسر أشار إلى هذه النزعة هيغل وأست ومن بعده أعطى لهذه الكلمة كل مضمونها وكل ما تشمله من معان جومبرتس . وتوالت الأبحاث بعد هذا وكلها تسير في هذا الاتجاه فتراها خصوصاً عند بيجر في كتابه عن التربية أو الثقافة « بيليا » . وأخيراً جاء في عام ١٩٣٨ جوزيه ستينا في كتابه « نزعة التنوير عند السوفسطائية اليونانية » فرد للسوفسطائية كل اعتبارها ، ونظر إليها على أنها النزعة الحقيقية للفكر اليوناني وعدها تماثل كل نزعة تنوير وجدت في الحضارات الأخرى ، وبخاصة في الحضارة الغربية في القرن الثامن عشر .

وعلى كل حال ، فإن رأي اتسلسر هو كما عرضناه . ولهذا لا يشاء أن يبدأ العصر الجديد وهو العصر الثاني ، بالسوفسطائية ، بل يبدوه بسقراط ، ويرى أن التيار الجديد الذي سرى في الفلسفة هو جعل الموجودات الذهنية الموجودات الحقيقية ، فقال سقراط إن المعرفة الحقيقية هي معرفة الذات لنفسها وهي معرفة المدركات أو التصورات . ولا بد أن يتجه الإنسان - لا إلى تحليل الموضوعات الخارجية - بل إلى تحليل مُدْرَكَاتنا المماثلة لهذه الموضوعات الخارجية . فالمرء لا بد له إذاً لا أن يبدأ بمعرفة الطبيعة الخارجية ، بل بمعرفة الطبيعة الداخلية أو الذات . والشعور بهذه النزعة الجديدة واضح قوي لدى سقراط ، فهو لم يُعنَ أدنى عناية بالطبيعة ، بل وجَّه كلُّ همِّه نحو الإنسان ولو أنه لم يتقدم كثيراً بالبحث في المدركات ، فإنه أعطى القوة الدافعة الكبرى لهذا التيار الجديد .

وجاء من بعده تلميذه أفلاطون ، فجعل الوجود الذهني هو الوجود الحقيقي ، وقال إن ما عداه من وجود ليس وجوداً حقيقياً . فالصُّور أعلى درجة في الوجود من الأشياء المناظرة التي هي مشاركة للصُّور في الوجود . وجاء أرسطو فقال بمثل ما قال به هؤلاء . وإذا كان قد حمل على الأفلاطونية ، فإن حملته هذه لا تخرجه عن التيار الجديد . فعند أرسطو أيضاً الصورة هي الوجود الحقيقي . وإنما الاختلاف بينه وبين أفلاطون هو في وجود هذه الصورة : هل توجد مفارقة للمادة أو لا توجد كذلك ؟ فأفلاطون يفرق تمام



كذلك الحال بالنسبة إلى الكليين . فقد كانت نظرتهم نظرة لا تتصل بالفكر بل تتصل بالمذهب الخارجي فحسب ، ومعنى هذا أنها نزعة غير نظرية ، بينما نجد النزعة الرواقية نزعة نظرية إلى جانب كونها عملية ، بمعنى أن الأخلاق قد بحث الرواقيون في أسسها النظرية بينما لم يُعْنِ الكليون بشيء غير تغيير المظاهر الخارجية ، دون أن يحس الداخل بشيء .

ثم يلاحظ إلى جانب هذا أن هذه التيارات التي كانت موجودة إبان عصر السوفسطائية وعصر سقراط كانت ضئيلة القيمة لم تؤثر تأثيراً حقيقياً في حياة اليونان ، لأن التيار الأكبر الذي أتى إبان ذلك الحين ، وهو تيار سقراط وأفلاطون وأرسطو ، قد قضى تقريباً على هذا التيار الضئيل . وكان لا بد من مرور هذا الدور الثاني لكي يأخذ هذا التيار الضئيل سَعته وكل مدى تطوره .

فمن هذا كله يتبين أنه لا بد من الوقوف عند أرسطو فيما يتصل بالدور الثاني وأنه بعد أرسطو لا بد أن يبدأ دور جديد من أدوار الفلسفة اليونانية . وهذا الدور الجديد يمكن أن يقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

الأول يشمل الأبيقورية والرواقية والشكاك ، والثاني يشمل نزعة التلفيق ثم الرواقية الرومانية والشكاك المتأخرين ثم المبكرين من أشياع الفلسفة الأفلاطونية المحدثه ، والقسم الثالث يشمل الأفلاطونية المحدثه .

وهذه التفرقة في داخل هذا الدور الأخير لها مزيتهما كما أن لها عيبها ، فلها تلك المزية وهي أنه إذا قسمنا تاريخ الفلسفة اليونانية على هذا النحو وجدنا أن العصور متقاربة من الناحية التاريخية في طولها ، لكنها من ناحية أخرى غير متناسبة تماماً من ناحية المضمون الفلسفي . بل إن هذا العصر بأكمله ، ويشمل قرابة تسعة قرون ، لا يساوي في إنتاجه الفلسفي قرناً واحداً هو قرن أفلاطون وأرسطو . والعللة في هذه التفرقة هي أن ثمت تياراً واحداً يسود هذا الدور بأكمله ولا محل للتفرقة بين هذه الأقسام المختلفة على أساس من اختلاف التيار في كل قسم عنه في القسم الآخر . فإذا كنا نريد أن نظل مخلصين للقاعدة الأساسية التي اعتمدنا عليها في تقسيمنا لتاريخ الفلسفة اليونانية ، وذلك على أساس التيارات ، كان علينا أن نجعل هذا الدور الأخير دوراً واحداً هو الدور الثالث والأخير من أدوار الفلسفة اليونانية .

العناية متجهة إلى البحث في الإلهيات ، بل إلى الاطمئنان إلى عدم غضب الآلهة ، وإلى أن الآلهة لا يحدثون شيئاً مضراً بالإنسان ! وكذلك الحال في نظرة أبيقورس إلى الدين ، وكان طبيعياً من أجل هذا أن تتخذ الأخلاق المكان الرئيسي ، ومع هذا فقد كانت الأخلاق مختلفة كل الاختلاف في طابعها عن الأخلاق كما هي عند أرسطو وأفلاطون ، وكما كانت من قبل . فالأخلاق الجديدة لن تكون متصلة بالسياسة لأن الفرد قد انطوى على نفسه فلم يعد يعنيه من الجماعة شيء ، وأصبح ثمت فصل تام بين أخلاق الدولة وأخلاق الفرد ، وبدأ نزاع جديد ، إذ هنا بدأت لأول مرة المشكلة التي يسمونها مشكلة الفرد والمجتمع .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن هناك تياراً جديداً قد بدأ يحل محل التيار القديم . لكن تعترض هذا القول صعوبة جديدة علينا أن نحلها قبل أن نتقل إلى تحديد انتهاء هذا العصر . ذلك أنه قد يتبادر إلى الذهن أن ثمت شيئاً قوياً بين هذه المدارس الجديدة وبين المدارس التي وجدت إبان عصر السوفسطائية وسقراط : فالميجاريون يناظرون في شكهم الشكاك اليونانيين ، والكليون يناظرون الرواقيين ، والقورينائيون يناظرون الأبيقوريين . لكن يجب أن يلاحظ الاختلاف بين كلا النوعين من المدارس : فالشك الميجاري يختلف أشد الاختلاف عن الشك كما مثلك الأكاديمية . فإن الشك الميجاري يقوم على فحولة في التصكير ، بينما يقوم شك الشكاك على انحلال وضعف تام في الروح اليونانية ؛ الشك الأول شك يريد أن يعرف ، أما الشك الجديد فشك يريد أن يجهل . فهما إذا مختلفان .

كذلك الحال في النزعة الحسية اللذنية عند كل من الأبيقوريين والقورينائيين : فاللذة التي ينشدها أرسطوس لذة إيجابية تريد أن تأخذ بكل ما في الحياة ؛ بينما اللذة التي يصبو إليها أبيقورس لذة سلبية خالصة معناها الخلو من الألم : فكل ما يريده الفرد هو أن يكون هادئاً آمناً في سربه ، ليس من شيء يعكر عليه صفو حياته الداخلية ، وعلى العكس من ذلك كان القورينائي ينشد التخير والتعدد في اللذة ، وينشد الألم ، لأن اللذة لا تُدْرَك بدونها . وعلى هذا كانت اللذة كما يفهما القورينائي مختلفة جد الاختلاف عن اللذة كما يفهما رجال العصر الذي نحن بصدده التحلث عنهم ، وهم الأبيقوريون



داخلة أيضاً في التيار الثالث .

لكن الباحثين المحدثين الذين أتوا بعده قد زادوا من أهمية الأفلاطونية المحدثه حتى جعلها البعض ، أو جعل رأسها على وجه التخصيص ، وهو « أفلوطين » - أكبر فيلسوف فيها وراء الطبيعة في الفلسفة اليونانية كلها ، وفي هذا الاتجاه الجديد سار أولاً إنج في كتابه « فلسفة أفلوطين » الذي ظهر في جزأين عام ١٩١٨ ثم نُسخت في كتابه « أفلوطين » ( سنة ١٩١٩ ) ثم مورسلي في كتابه عن أفلوطين ( ١٩٢٧ ) ثم برييه في كتابه « فلسفة أفلوطين » ( عام ١٩٢٨ ) . كذلك لم تنحصر العناية فقط بأفلوطين ، مؤسس المدرسة ، بل ازدادت بالنسبة للتلميذ الثاني والأكبر وهو أبرقلس ، خصوصاً عند الإيطاليين .

والنتيجة النهائية التي تستخلص من هذا كله عند اتسلر هي أن الفلسفة اليونانية تنقسم إلى ثلاثة أدوار رئيسية . الدور الأول هو الدور الطبيعي التوكيدي : هو طبيعي ، لأنه يبحث في الطبيعة ولا يفرق بعد بين الروحي والمادي ؛ وهو توكيدي ، لأنه يفترض افتراضاً سابقاً أن المعرفة الإنسانية - ما دامت تتجه إلى الموضوع - صحيحة ، ولم يبحث مطلقاً في ماهية المعرفة والمقاييس التي تقاس بها صحتها وبطلانها . وحيث شعرت الروح اليونانية - على يد السوفسطائيين - بأن هذا التوكيد يجب ألا يكون ، لأن المعرفة متغيرة ؛ فالجس متغير ، وتبعاً لهذا لا نستطيع أن نتق وثوقاً تاماً بالمعرفة الإنسانية كما هي ، بل لا بد من إقامة القواعد والبحث في المفهومات والأشياء الذهنية . وتلبية لهذه الحاجة ، جاء سقراط فقال إن الشيء الموصل للحقيقة هو البحث في المعرفة . فالبحث في المعرفة هو نقطة الابتداء . ثم جاء أفلاطون من بعد فقال إن الوجود الحقيقي هو هذا الوجود العقلي الذهني الذي يقوم على الديالكتيك ؛ ثم يمتد بفكرة الديالكتيك إلى بقية العلوم ، فينشئ الطبيعة والأخلاق . ويأتي أرسطو فيجعل المعرفة الحقيقية هي معرفة الصورة ، ويقول إن الصورة كمال الأشياء ؛ ويقوم على هذا الأساس مذهباً شاملاً في الفلسفة والعلم .

ثم يقف هذا الاتجاه ويأتي اتجاه جديد هو متعالة في النتيجة التي انتهى إليها أرسطو وأفلاطون ، لأن هذين قد قالاً بأن الوجود الذهني هو الوجود الحقيقي ، ومعنى هذا أن الوجود الحقيقي هو الوجود الذاتي ، ومعنى هذا أيضاً أن

لكن هذا يحتاج إلى شيء من البيان ، لأنه ليس من المسلم به بين الجميع أن الأفلاطونية المحدثه تشبه في مضمونها واتجاهها الرواقية والأبيقورية والمذاهب التي كانت سائدة أثناء ذلك الدور . فلكي تأخذ بهذا الرأي الذي ارتأيناه ، لا بد أن نيين أن التيار واحد ، إن في الرواقية والأبيقورية ( أو في إحداهما على الأقل ) أو في الأفلاطونية المحدثه ، فنقول إن الأفلاطونية المحدثه لم توجه عنايتها مطلقاً إلى الطبيعة ولم تحاول بحثها ؛ وكل ما هنالك من مباحث طبيعية - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - ضئيلة ومتشابهة تماماً مع الطبيعة عند الرواقية . والأخلاق في الأفلاطونية المحدثه هي بعينها الأخلاق في الرواقية ، بل إن علم ما بعد الطبيعة نفسه - في رأي اتسلر - عند الأفلاطونيين المحدثين يشابه علم ما بعد الطبيعة عند الرواقين . فالصنوع عند الأفلوطينيين هو بعينه العقل عند الرواقين . وكل ما هنالك من فارق هو أنه وإن كان كلا المذهبين يقول بوحدة الوجود ، فإن وحدة الوجود عند الرواقين باطنة عجيبة ، بينما هي عند الأفلاطونيين المحدثين صدورية أو عالية ، إن صح الجمع بين وحدة الوجود والعلو ؛ لأن هذا الصدور عند الأفلاطونيين المحدثين يفترض الله عالياً بعض الشيء على الكون ، وعلى الإنسان أن يتحد بالله عن طريق الوجد وعلى هذا فالأفلاطونية المحدثه - حتى في هذا الجزء الذي يكون الأهمية الكبرى لها - متفقة مع الرواقية ، أي مع مدرسة من المدارس السائدة في ذلك العصر الثالث . ثم يلاحظ أن العلو هنا ليس علواً كاملاً ، وإلا فإن ذلك سيكون خروجاً تلاماً على الروح اليونانية وعلى روح فلسفة هذا الدور الثالث ، وإنما اضطرت الأفلاطونية المحدثه إلى القول بالعلو تحت تأثير التطور الجديد الذي أخذ مجرى الفلسفة اليونانية على يد الشكاك . فالشكاك قد أثبتوا أنه لا حقائق في داخل الذات ، فاستنتج الأفلاطونيون المحدثون من ذلك أنه ما دامت لا توجد حقائق داخل الذات ، فالحقيقة توجد خارج الذات . ولكن هذا الشيء الذي هو خارج الذات هو فوق الموضوعات أيضاً ، فهو عالٍ على الوجود . ومن هنا فلا بد أن يتصف هذا الشيء الجديد بالعلو فهذا المبدأ العالي على الكون إننا هو الله . لكن إذا فصل فصلاً تاماً بين هذا المبدأ العالي وبين الذات فستفقد الروح اليونانية كل صفاتها ، فلا بد إذاً من شيء من التوفيق بين هذا العلو وتلك الذاتية . وهذا يجيء عن طريق الاتحاد والكشف والوجد .

فلهذه الأسباب كلها يرى اتسلر أن الأفلاطونية المحدثه

الحضارات ، ونريد الآن ان نلخص تقسيمه للعصور الروحية .

يرى اشبنجلر ان العصور الروحية متوافتة ، بمعنى ان لكل عصر من العصور في حضارة معينة عصراً مماثلاً له في حضارة أخرى . وعلى هذا الأساس تنقسم الحضارات من الناحية الروحية إلى عدة أقسام أو عصور رئيسية ، عددها في الأصل أربعة ، بحسب ربيع وصيف وخريف وشتاء الحضارة . وفي داخل كل قسم من هذه الأقسام توجد أقسام أخرى هي بدورها تكاد تكون متناظرة بين هذه الأقسام الرئيسية بعضها وبعض . فنلاحظ أنه في ربيع الحضارة تنشأ أولاً النظرة إلى الوجود المستمدة من إدراك جديد لله ، وهذا قد ظهر في الفلسفة اليونانية عند هوميروس . وبلي هذا النظرة الميتافيزيقية التصوفية ، وهذه قد ظهرت عند هزويد . ثم يأتي صيف الحضارة فيكون أولاً الإصلاح ، وهو ثورة عنصرية ( أي متعلقة بالأجناس ) ، وهذا يمثل في الفلسفة اليونانية الأورفيون ؛ وبلي ذلك النظرة الفلسفية الخالصة إلى الكون ، وهذه يمثلها الفلاسفة السابقون على سقراط في كل من القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وثالثاً تأتي النظرة إلى الرياضة وإلى العدد بوصفه اقنوماً ، أي بمعنى أن العدد هو أصل الوجود ؛ وهذه النزعة يمثلها الفيثاغوريون ابتداء من سنة ٥٤٠ ق. م . وتأتي رابعاً روح الزهد الديني ، وقد وجد ذلك خصوصاً عند الفيثاغوريين، ابتداء من سنة ٥٤٠ ق. م . وبهذا ينتهي دور الحضارة .

ويتلوه دور المدنية أي الخريف . وهنا نرى أن أول نظرة هي نزعة التنوير ، والنظرة إلى الطبيعة نظرة تقديس ، وعَدَّ العقل هو الأساس في الوجود والحكم الأكبر الذي يرجع إليه . ويمثل نزعة التنوير هذه السوفسطائيون وسقراط وديقوريطس . وبعدها يكون إنشاء الرياضيات إنشاءً قوياً وهو ما تم على يد أرخوطاس وأفلاطون ، وفي هذه النزعة توجد أيضاً فكرة القطاعات المخروطية ، ثم يأتي بعد ذلك تكون المذاهب الفلسفية الشائخة ، وهي مذاهب مثالية نظرية منطقية متصلة بنظرية المعرفة . ويمثل هذه النزعة أفلاطون وأرسطو ، وبهذا ينتهي دور الخريف .

وأخيراً يأتي دور الشتاء ، وهنا نجد أن النظرة السائدة هي العناية بالأخلاق والناحية العملية ، ثم عبادة العلم والاتجاهات الجاهلاً كلياً نحو الواقع العملي . ويمثل هذه النزعة

الكمال هو في الذات ، وأن للموضوع ليس شيئاً من شأنه أن يكمل الذات . فالنتيجة إذاً أن ينعكف الإنسان على الذات ويصرف النظر نهائياً عن الموضوعات الخارجية ، ومن هنا كان الدور الثالث .

ونستطيع أن نلخص هذا كله بعبارة أوجز فنقول إن الذات كانت هي والموضوع في الدور الأول مختلطين لا تفرقة بين الواحد والآخر . وفي الدور الثاني تحللت الذات من الموضوع بعض الشيء ، وانتهت إلى الوجود الحقيقي هو وجود أعلى من الذات ومن الموضوع معاً . وجاء الدور الثالث ففرق أكثر وأكثر بين الموضوع وبين الذات ، حتى جعل الذات مستقلة استقلالاً تاماً ، مكفية بنفسها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اضطرت هذه الفلسفة إلى وضع ( افتراض ) وجود عال هو الوجود الحقيقي . فهناك الذات منحصرة في نفسها ، وهناك المبدأ العالي البعيد كل البعد عن الذات ؛ فنشأ عن هذا تناقض ، لأن الذات لا تستطيع أن تتصل بهذا المبدأ العالي ؛ وفي هذا التناقض وقعت الفلسفة اليونانية فكان به فنلؤها .

- ٤ -

عل هذا النحو الذي بيناه قسم اتسلر تاريخ الفلسفة اليونانية إلى عصور . ويلاحظ في هذا التقسيم أنه متأثر بالمنهج الفيلولوجي إلى حد كبير ، لأنه يرجع في غالب الظن إلى الوثائق التي اعتمد عليها في كتابته لتاريخ الفلسفة اليونانية ، ولم تكن بعد قد ظهرت النزعات الجديدة المضادة للنزعة التاريخية من جهة ، والنزعة الخاصة لتطور الحضارات من ناحية أخرى . ولهذا اختلف معه المؤرخون الذين جاؤوا بعده في تقسيمهم لعصور الفلسفة اليونانية . لكن هذه الاختلافات ترجع غالباً إلى الاهتمام بناحية معينة على حساب نواح أخرى . فمثلاً نجد تقسيم جوميرتس يختلف عن تقسيم اتسلر في أنه يوجه عناية كبيرة إلى السوفسطائية بوصفها نزعة التنوير الرئيسية في الفلسفة اليونانية . والمؤرخون الذين سيمون بالأفلاطونية المحلقة هم الذين تأثروا بالنزعة الإنسانية الجديدة وهي النزعة التي أسسها فرنريجر وسار عليها كتاب مجلة « الحضارة القديمة » Die Antike التي يشرف عليها . ولكن أهم رأي أو نظرة قد أثرت في تصور تاريخ الفلسفة - ولو ان ذلك لم يتم حتى الآن - فتلك هي نظرة أوزفلد اشبنجلر . وقد عرضنا من قبل لنظرية اشبنجلر في

ويبدأ العصر الجديد تبعاً لأن النظرة الكونية قد تغيرت ، فأصبحت نظرة عملية تجعل الأخلاق والعلم هما الأساس . فالعصر الذي يمثل هذه النظرة هو عصر الأبيقوريين والرواقيين والشكاك ثم المتأخرين من الشكاك والموفقين والملففين والمشائين المتأخرين .

وهنا لا بد أن ينتهي هذا العصر ولا بد أن يبدأ عصر جديد - بخلاف ما يقوله اشبنجلر - لأننا نريد أن ندخل الأفلاطونية المحدثة في داخل الحضارة اليونانية . والأفلاطونية المحدثة مختلفة في طابعها تمام الاختلاف عن المذاهب التي ذكرناها منذ قليل ، لأنها تمثل الميتافيزيقا وعلم الوجود أكمل تمثيل ، فالميتافيزيقا تبلغ أوجها في هذا الدور الأخير الذي يناظر ما نريد أن نسميه باسم دور التناهي ، وفيه يعود الإنسان من جديد إلى أصل الوجود لكي يستمد منه معنى الوجود ، ومن استمداده لهذا المعنى يؤسس نظرة شاملة كاملة في ماهية الوجود . ومعنى هذا أن هناك عصرًا رابعًا مستقلاً بذاته ، هو عصر الأفلاطونية المحدثة .

### خصائص الفلسفة اليونانية في العصر الأول

- ١ -

اعتاد المؤرخون الأقدمون أن يقسموا هذا العصر الأول تقسيماً يقوم إما على أساس الأجناس ، وإما على أساس الروح العامة التي انطبعت بها المذاهب الفلسفية التي نشأت إبان ذلك العصر . فمن الناحية الأولى قُسمت الفلسفة في العصر الأول من عصور الفلسفة اليونانية إلى فلسفة أيونية ، وفلسفة دورية، ومن الناحية الثانية قُسمت إلى : فلسفة طبيعية ، وفلسفة أخلاقية ، وفلسفة ديالكتيكية ، تبعاً للمذاهب الرئيسية التي ظهرت في ذلك العصر . فالفلسفة الأيونية فلسفة طبيعية ، والفلسفة الفيثاغورية فلسفة أخلاقية ، والفلسفة الإيلية فلسفة ديالكتيكية .

فلنتظر الآن في هذه التقسيمات ، ولنبدأ أولاً بالتقسيم الأخير .

لكن لا يفوتنا قبل أن نذكر هذا التقسيم أن نشير إلى تقسيم آخر أهم من هذين التقسيمين ، هو تقسيم الفلسفة في ذلك العصر إلى فلسفة واقعية ، وفلسفة مثالية .

العصر الهليني وخصوصاً أبيقور وزينون الرواقي . ثم يأتي بعد ذلك تكوين الرياضيات تكويناً كاملاً ، وذلك على يد إقليدس . وأخيراً النزعة العالمية ، فتكون النظرة ممتدة إلى العالم بأكمله ، ولا تكون محصورة في الحضارة التي نشأت فيها - ثم تأتي النظرة إلى الفلسفة بوصفها مهنة وبوصفها جماعاً للمعلومات ، ويمثل ذلك الشكاك المتأخرون ثم الأكاديمية في عصرها الأخير ، ثم أصحاب نزعتي التوفيق والتلقيح . وهنا يلاحظ أن اشبنجلر لا يدخل الأفلاطونية المحدثة في عالم الحضارة اليونانية ، بل يدخلها في الحضارة التي يسميها باسم الحضارة العربية أو الحضارة السحرية .

فإذا أردنا الآن أن نكون رأياً نهائياً عن تقسيم تاريخ الفلسفة اليونانية فإننا نستطيع أن نستفيد إلى حد كبير مما قاله اشبنجلر . وعلى هذا تتلخص نظرتنا إلى تاريخ الفلسفة اليونانية على النحو التالي :

لا بد لنا أولاً أن نربط بالتفكير الديني عند هوميروس وعند هزيبود نشأة الفلسفة اليونانية ، وذلك لأن الفلسفة تأخذ رموزها الأولى من الدين . فإن المشاهد دائماً أن الفلسفة تولد في أحضان الدين ، ولو أن ولادته هله من أجل أن تكون ضد الدين . فلا بد إذن من تقديم للفلسفة اليونانية يعني بيان النظرة الكونية كما وجدت عند هوميروس وعند هزيبود ، ثم بالمقولات الدينية ، وهي هنا عند اليونان مقولة العدالة ثم مقولة الخطيئة وبعد هذا تبدأ الفلسفة اليونانية الحقيقية ، فيبدأ العصر الأول من القرن السادس ، وينتهي بانكساغورس ، لأنه لا بد من أن نجعل من النزعة السوفسطائية - إن لم يكن دوراً خاصاً قائماً بذاته - فعلى الأقل بدءاً لروح جديدة ، لأن عصرهم عصر انتقال ، هو عصر الانتقال من دور الحضارة إلى دور المدنية ، وهو العصر المسمى في تاريخ الحضارات باسم عصر التنوير . وسقراط لا يفتقر مطلقاً عن السوفسطائين في هذا الصدد ، فلا بد إذن أن ندرس سقراط مع السوفسطائين .

فإذا أن نجعل هؤلاء عصرًا مستقلاً بذاته ، أو أن نجعلهم مقدمة للدور الجديد وهو دور المدنية . ويبدأ العصر الجديد حيثئذ إما بأفلاطون أو أرسطو وينتهي بهذا الأخير . وذلك لأن خريف الحضارة ينتهي بهذه المذاهب الميتافيزيقية المثالية المنطقية الباحثة في نظرية المعرفة .

الصور يختلف اختلافاً كلياً عن وجود الموجود عند الإيليين ، وهو قائم على أساس الفصل بين عالمين عند أفلاطون : العالم العلوي والعالم المادي . أما عند الإيليين ، فإن الموجود هو الأجسام حالةً في المكان ، أي أنه والأجسام المادية شيء واحد . والأعداد عند فيثاغورس غيرها عند أفلاطون ؛ فالأعداد عند أفلاطون - كما سترى فيما بعد - وسط بين الوجود الحسي والوجود العقلي ، بينما عند فيثاغورس وجود الأعداد هو الوجود المحسوس . وفيثاغورس وفي وصفه للروح يصفها بما يصف به الأشياء الحسية . وكذلك الحال عند برمنيدس . فإذا كان هذا الأخير يجعل الفكر والوجود ، أو الماهية والوجود - على حد تعبيرنا الحديث - شيئاً واحداً ، فلا يجب أن نفهم من هذا ما فهمه رينج من قبل ، حين قال إن في هذا القول مبدأ المثالية . ذلك أن برمنيدس يقول عن هذا الطريق إن الفكر داخل تحت الوجود ولا يقول كما تقول المثالية الحديثة ، خصوصاً عند كنت وفشته ، إن الفكر هو الذي يضع الوجود . والاختلاف بين هذين القولين : بين قول القائل إن الفكر داخل تحت الوجود ، وقول القائل إن الفكر أصل الوجود - هذا الاختلاف إنما هو الاختلاف بين المثالية والواقعية . فالذي يقول بأن الفكر داخل تحت الوجود - وهو القول الأول - واقعي وليس مثالياً .

فستخلص من هذا إذاً أنه لا يمكننا أن نقسم الفلسفة اليونانية السابقة على سقراط إلى فلسفة واقعية وفلسفة مثالية ، لأن الفصل بين العالم المادي والعالم الروحي لم يتم بعد . ولهذا لم يكن أرسطو مخطئاً حينها وضع بروتاغوراس وديموقريطس مع برمنيدس في فلسفة واحدة . أما أول الفلاسفة الذين بدأ لديهم هذا الفصل بين العالم الروحي والعالم المادي فهو أنكساغورس ، ولذا لا نستطيع أن نقول إن الفلاسفة السابقين على سقراط تردُّ فلسفتهم إما إلى المثالية أو إلى الواقعية .

فإذا ما انتقلنا إلى التقسيم الثالث ، وهو الذي يقوم على أساس العنصر - لاحظنا أولاً أن هذا التقسيم أكثر توفيقاً من تقسيم الفلاسفة السابقين على سقراط إلى فلاسفة أيونيين وفلاسفة إيتاليين . وقد جعل برانس من بين الدوريين فركليس والفيثاغوريين والإيليين وأنيادوقليس . لكن يلاحظ أن هذا التقسيم أيضاً لا يقوم على أساس صحيح ، لأننا لا نفهم لماذا يعدُّ فركليس من بين الدوريين ، كما أن الفيثاغوريين كان مؤسس مذهبهم أيونياً ولد في شامس .

فلاحظ أولاً أن تقسيم هذا العصر إلى فلسفة طبيعية وأخلاقية وديالكتيكية ليس تقسيماً صحيحاً ، لأن الأخلاق والديالكتيك لم يكن الواحد منها منفصلاً عن الطبيعيات ، فلا الأخلاق كانت منفصلة عن الطبيعيات ، وكذلك لم يكن الديالكتيك . ولذا فإن أرسطو كان مصيباً حينما قال إن الفلاسفة حتى سقراط كانوا طبيعيين ، بينما الأخلاق والديالكتيك لم يبدأ إلا بسقراط . كما يلاحظ أيضاً أن مثل هذا التقسيم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس أن الفيثاغوريين كانوا حقاً فلاسفة أخلاقيين فحسب ، وأن الفلاسفة الإيليين كانوا معنيين بالمنطق أو الديالكتيك وحده ، أو على الأقل كانت معظم عنايتهم متجهة إليه .

يلي هذا تقسيم الفلسفة في ذلك العصر إلى فلسفة واقعية وفلسفة مثالية . وهنا يلاحظ أن المؤرخين الذين قالوا بهذا القول يريدون أن يجعلوا الفلسفة الأيونية فلسفة واقعية ، بينما الفلسفة الفيثاغورية والفلسفة الإيلية فلسفتان مثاليتان . وهو تقسيم لا يقوم في الواقع على أساس صحيح ؛ لأنه يفترض مقدماً أن هناك فصلاً بين الجسمي والروحي أو بين المادي والروحي . والمثالية أو الواقعية لا يمكن أن تقوم إحداهما إلا على أساس الشعور شعوراً قوياً بالتمييز بين ما هو حسي جسمي ، وبين ما هو نفسي روحي . أجل ، إن الفلسفة الفيثاغورية والفلسفة الإيلية قد ارتفعتا حقاً فوق الظواهر الحسية ، وقالت أولاهما بفكرة العدد ، وقالت الثانية بفكرة الموجود ؛ إلا أنه يلاحظ أنها في هذا الصدد ليسا بنسبة واحدة . فالفلسفة الفيثاغورية أقل تجريداً من الفلسفة الإيلية ، أي أن هذه الأخيرة أقرب إلى المثالية من الأولى . ولا يمكن وضع الاثنين في مستوى واحد . فعلياً أن نقول إذاً بأن ثمت ثلاث فلسفات : فلسفة واقعية ، وفلسفة مثالية وفلسفة بين بين .

فإذا بحثنا الآن فيما ينسب من مثالية إلى الفيثاغورية والإيلية ، وجدنا أولاً أن الفيثاغوريين كانوا يجعلون الأعداد أساس الأشياء ، بمعنى أن الأجسام المادية هي نفسها أعداد . وكذلك فعل الإيليون ، وعلى رأسهم برمنيدس ؛ فإنه قال إن الوجود هو الوجود في المكان ، أو هو الأجسام موجودة في المكان ، ومعنى هذا كله أن العدد عند الفيثاغوريين كالوجود عند الإيليين مادي وليس فيه شيء من مفهوم الروحية - كما هو لدينا في مثالية العصر الحديث ، أو في العصر القديم عند أفلاطون وأرسطو : فعند أفلاطون مثلاً نشاهد أن وجود

ونستطيع من هذه الناحية أن نعلم مفيداً لنا في الدراسة ، دون أن نجعله أساساً للتقسيم . ولهذا مال المؤرخون - وعلى رأسهم اتسلا - إلى علم التقسيم إطلافاً ، محاولين فقط أن يبينوا الخصائص الرئيسية التي تسود هذا العصر .

- ٢ -

أول خاصية لهذه الفلسفة هي أنها فلسفة طبيعية ، فهي تتجه مباشرة نحو الظواهر الطبيعية . ولا أقصد من هذا أنها تقصر بحثها على عالم الأجسام ، فالطبيعة هنا ليست عالم الأجسام الطبيعية ، وإنما يقصد بذلك أنها لم تفرق بين طبيعة داخلية وطبيعة خارجية . وتبعاً لهذا اتجهت إلى الطبيعة الخارجية وحدها وإلى الظواهر التي تصدر إليها من الخارج فحسب ، وعُدت هذه الظواهر مادية وروحية معاً ، لأنها لم تفرق بين عالم روحي وعالم مادي . وإذا كنا نرى مع ذلك أن بعض الفلاسفة قد حاول أن يرتفع فوق الظواهر الحسية ليكتشف وجوداً أرقى من الوجود الحسي ، فإن هؤلاء أيضاً قد بدأوا من الظواهر الحسية ، وانتهوا إلى هذا النوع من الظواهر . أي أنهم لم يقولوا بوجود مستقل للظواهر الروحية أو لعالم روحي منفصل عن العالم الطبيعي . فتشاهد مثلاً أن فيثاغورس قد وصل إلى فكرة العدد بحسابه أصل الوجود ، وفوق الظواهر الحسية ، من تأمله في الانسجام بين النغمات وتأمله في مواضع الأجرام السماوية وحركاتها . وهذا يدل على أنه لم يقل مباشرة بعالم روحي ، وإنما الظواهر قد أدت به إلى الارتفاع قليلاً فوق الظواهر الحسية ، ولو أنه لم يستطع أن يتصور هذا الشيء الجديد على أنه غير حسي . كذلك الحال لدى برمنيدس ، فإنه لم يقل بفكرة الوجود إلا من نظرتة في الوجود المتغير . ولم يقل هرقليطس بفكرة القانون أو اللوغوس إلا من نظرتة في الأشياء على أنها تظهر ثابتة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الفلسفة السابقة على سقراط كانت تتجه إلى الموضوع مباشرة ، بمعنى أنها لم تكن تبدأ بالمعرفة الباطنة لتصل إلى المعرفة الخارجية ، ولم تكن تفرق بين عالَمين في نظرية المعرفة . وعلى هذا ، فإذا رأينا بعضاً من الفلاسفة قد حملوا على الحس والمعرفة الحسية ، وفرقوا بين المعرفة الحسية وبين المعرفة العلمية الصحيحة ، فإنهم لم يفعلوا ذلك نتيجةً لتقدمهم للمعرفة أو لتأملهم في الذات من حيث قدرتها على إدراك الموضوع

وكذلك الحال في الفلسفة الإيلية : فقد كان مؤسسها إكسينوفان من آسيا الصغرى ، كما أن هذه المدرسة قد انتهت في أواخر أيامها على يد كبير من أتباعها وهو ميليسوس بأن كانت أيونية . أما الذي يمكن أن يقال عنه حقاً إنه دوري فهو أنبادوقليس . ولكن يلاحظ أيضاً أن أنبادوقليس كان أيوني النشأة وكتب باللغة الأيونية ولم يكتب باللغة الدورية . فإذا اعترض علينا مثلاً بأنه ليس المقصود من هذا التقسيم ، التقسيم من حيث المولد بل من حيث النشأة والتربية ، قلنا أيضاً إن تربية هؤلاء كانت في الغالب تربية أيونية ، لأن التربية الأيونية كانت التربية الرئيسية الحققة ، وعليها نشأ معظم (أركل) الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط . فظاهر إذاً أن هذه التقسيمات كلها ليست تقسيمات حقيقية ، فعلى أن نرفضها وأن نبحت عن تقسيم آخر إن كان لا بد من تقسيم .

هنا يحاول بعض المؤرخين أن يعود إلى نظرية هيجل في التناقض وفي الديالكتيك التاريخي ، فيقولون إنه قد ظهرت أولاً فكرة البحث في نشأة الأشياء ثم تفرعت عن هذه الفكرة فكرتان متعارضتان : إحداهما تقول بالحركة والسيلان والأخرى تقول بالثبات ؛ فعل أساس التعارض بين هاتين النظرتين ، اللتين تقوم إحداهما على الصيرورة وتقوم الأخرى على الوجود الثابت ، نشأت فلسفتان جديدتان . وبعد هذا كان لا بد أن يتكون من هذا الموضوع ونقيض الموضوع مركبٌ موضوع يحاول الفلاسفة فيه أن يرتفعوا فوق التناقض بين الصيرورة والثبات ، فكانت مذاهب أنبادوقليس وديموقريطس وأنكساغورس . وتبعاً لهذا تنقسم الفلسفة السابقة على سقراط إلى عصر تكوّن فيه الموضوع وهو الفلسفة الأيونية الأولى عند طاليس وأنكسمندرس وأنكسمانس . وإلى عصر انقسم فيه هذا الموضوع إلى نقيض موضوع ونقيض آخر ، فكانت فلسفة هرقليطس القائلة بالصيرورة ، وفي الجانب الآخر فلسفة الإيليين القائلة بالوجود الثابت . وجاء عصر ثالث كان فيه مركبٌ موضوع حاول فيه الفلاسفة التوفيق بين الصيرورة والوجود الثابت ، فكانت مذاهب أنبادوقليس وديموقريطس ، أو المذهب النُري على وجه العموم ، وأنكساغورس .

لكن هذا التقسيم أيضاً لا يعطينا صورة تاريخية حقيقية ، وأكثر ما يعطينا إياه هو وضع العلاقة أو بيان الصلة بين المذاهب المختلفة التي نشأت إبان ذلك العصر . فنحن

الاتصال أو التخلخل ، وأن الفيثاغوريين قد قالوا إن الأشياء تفصل عن الوحدة العددية . لكن هؤلاء جميعاً لم يوضحوا الكيفية التي بها يتم الاتصال والانفصال أو الانقسام بالنسبة إلى الوحدة العددية . وإذا كان الإيليون قد أنكروا التغيير وأنكروا الكثرة فهم لم يكونوا في ذلك إلا ممثلين لهذه النزعة إلى تفسير مصدر الأشياء لا إلى كيفية صدور الأشياء ، نقول إنهم يمثلون هذه النزعة في أقصى نتيجة يمكن أن تصل إليها ، وهم بذلك يعدون أيضاً متشابهين كل التشابه إن مع الفيثاغوريين أو مع الأيونيين . والخلاصة هي أن المدارس الثلاث قد بحثت في الأصل الذي ترجع إليه الأشياء ، دون أن تبحث في الأشياء نفسها من حيث صورتها عن الأصل ، ولذا لا نستطيع أن نقول إنهم بحثوا في الحركة أو التغيير بحثاً حقيقياً .

وإذا كان الإيليون قد بدأوا البحث في هذا المعنى ، فلم يكن بحثهم هذا مُنصباً على الحركة بوصفها مبدأ الكون والفساد . وإنما الذي بحث في الحركة لأول مرة بحثاً حقيقياً هو هرقليطس الذي قال إن الأشياء كلها دائمة السيلا ، وإنه لا شيء ثابت غير القانون الذي يسير عليه هذا السيلا الدائم للأشياء ، فكانه يبدأ بهرقليطس اتجاه جديد في تطور الفلسفة اليونانية في الدور الأول من أحوارها . ويظهر من البحوث الجديدة أن هرقليطس كان شاعراً شعوراً قوياً بأنه يختلف في تطوره الفلسفي عن المدارس السابقة ، فهو في الواقع لم يضع مذهبه إلا كرد على مذهب الإيليين . إذا فبهرقليطس ينشأ قسم ثان في الفلسفة اليونانية في الطور الأول ، ويبدأ بالقول بأن الفلاسفة السابقين قد جعلوا فكرة التغيير فكرة مسلماً بها لم تبحث بحثاً عقلياً ، فجاء هرقليطس ونظر في التغيير وأرجع هذا التغيير إلى المادة كذلك .

وبعد هذا يتطور الفكر اليوناني على النحو التالي : بعد هرقليطس يأتي أنبادوقليس والنريون ، فيقولون بوجود مبادئ متعددة ويقولون أيضاً بالتغيير ، فأنبادوقليس يقول بأكثر من مبدأ ، والاختلاف بين هذه المبادئ هو اختلاف في الكيف ؛ ويقول النريون إن المبادئ أكثر من واحد ، وهي لا تختلف من ناحية الكيف ، وإنما تختلف من ناحية الكم فحسب ، أي من ناحية الشكل الرياضي . ولكي يفسروا الحركة ، قال أنبادوقليس بمبدأ آخر مخالف للمبادئ الأولى ، فما دامت هذه المبادئ الأولى لا تتغير بالكيف ، فلا بد من وجود عامل آخر ، مخالف للعامل الأول من شأنه أن يحدث التغيير . وهذا المبدء الآخر ( أو المبادئ الأخرى ) هو مبدأ

الخارجي ، وإنما هم فعلوا ذلك لأن برمنيدس - مثلاً - قد شك في الحس ، لأن الحس يُظهر لنا الأشياء متغيرة ، بينما الوجود الحقيقي وجود ثابت . كما شك هرقليطس في المعرفة الحسية لأنها تُظهر لنا في الوجود ثباتاً بينما الوجود الحقيقي دائم السيلا كما أن أنبادوقليس لم يشأ أن يعتمد على المعرفة الحسية ، لأنها تظهر لنا الانفصال والاتصال بحسبانها كوناً وفساداً ، أي تعد تجمع الأشياء وتفرقها بحسبانها خلقاً من العدم أو فناء بعد وجود . وهكذا لم يكن عند هؤلاء الفلاسفة تفرقة بين العالم الباطن والعالم الخارجي ، ولم يكن بالتالي هناك عدم ثقة في قدرة الإنسان على المعرفة ، فلم يكن من شأنهم إذاً أن يبحثوا في القواعد التي يجب أن تقوم عليها المعرفة العلمية الصحيحة .

وثالثاً يلاحظ - كما ذكرنا مراراً من قبل - أنه لم تكن لديهم أدق تفرقة بين العالم الحسي والعالم الروحي . فإذا وجدنا أنكساغورس يقول بشيء من هذا ، فإننا نلاحظ من ناحية أن أنكساغورس هو آخر هؤلاء الفلاسفة ، ومن ناحية أخرى أنه نظر إلى العقل المنظم للكُل على أنه أيضاً شبة مادي ، لأنه عنده مكوّن من مادة لطيفة .

تلك إذن الخصائص الرئيسية الثلاث التي نستطيع أن نتبينها في الفلسفة الأيونية في العصر السابق على سقراط .

وهذه الخصائص تُظهر لنا بوضوح مدى الصلة القوية التي توجد بين المدرسة الأيونية والمدرسة الفيثاغورية والمدرسة الإيلية . فهذه المدارس لا تتفق من ناحية الزمان والعصر فحسب ، بل تتفق قبل هذا كله في المذهب والاتجاه الفلسفي . فهي كلها قد بحثت في الجوهر الذي إليه ترجع الأشياء : لكنها لم تبحث في كيفية صدور الأشياء المختلفة عن الجوهر الواحد ، وكيفية تغير الجوهر الواحد إلى عدة أشياء مختلفة ، سواء كان ذلك بالكيف أو بالكم أو بهما معاً . فطاليس قد أرجع أصل الأشياء إلى الماء وأنكسمندريس إلى الجوهر اللا محدود ، وأنكسمانس إلى الهواء ؛ والفيثاغوريون أرجعوا أصل الوجود إلى العدد ؛ والإيليون إلى الوجود بما هو موجود ( أي بحسبان أنه موجود فحسب ) . ولكنهم لم يبحثوا في الكون والفساد ، أي في إيجاد الأشياء وفنائها ، ولم يبحثوا في التعدد ، وبالجملة هم لم يبحثوا في التغيير والحركة .

نعم ، نحن نرى الأيونيين قد قالوا بأن الأشياء تنشأ عن الجوهر الأول بالانفصال أو التكاثر ، وتفتى عن طريق



### نشأة الفلسفة اليونانية

مشكلة نشأة الفلسفة اليونانية من المشاكل الخطيرة جداً في البحث التاريخي في الفلسفة اليونانية . وهي مشكلة تتضمن بدورها مشكلتين : المشكلة الأولى : هل نشأت الفلسفة اليونانية متأثرة بأفكار أجنبية كانت الدافع الذي دفع إلى إيجاد الفلسفة اليونانية ؟ والمشكلة الثانية هي : إذا كانت الفلسفة اليونانية قد نشأت بطبيعتها من تربة يونانية بحتة ، فمن أي نوع من أنواع التربة نشأت هذه الفلسفة ؟ .

أما المشكلة الأولى فقد تعرضنا لها من قبل عند كلامنا عن نشأة الفلسفة ، وقلنا رأينا النهائي فيها وهو أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ متأثرة بأفكار شرقية ، وإنما نشأت نشأة طبيعية من خصائص الشعب اليوناني نفسه ، ومن الظروف الحضارية التي وجدت في القرن السادس قبل الميلاد في بلاد اليونان . ولا نستطيع أن نبحث بحثاً مفصلاً من أجل تأييد هذه الفكرة لكننا نستطيع فقط أن نشير إشارة عابرة إلى أنه حتى متهى القرن التاسع عشر ، خصوصاً في النصف الثاني من هذا القرن ، كاد الرأي أن يستقر على أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ متأثرة بعناصر شرقية بل نشأت من تربة يونانية خالصة ، وعلى رأس أصحاب هذا الرأي اتسلر . ولكن في عشرات السنين الأولى من القرن الحالي ( القرن العشرين ) بدأت النزعة الجديدة في شكلها ، القديمة في جوهرها ، نحو إرجاع التفكير اليوناني إلى تفكير شرقي ؛ ومن أشهر من يمثلون هذا الرأي في أواخر سنوات الأخيرة ، أبل ريه في كتابه الموسوم باسم « شباب العلم اليوناني » ثم في المناقشة التي حدثت في الجمعية الفرنسية للموضوع الذي قدمه وهو « العلم عند الشرقيين في العصر السابق على العلم عند اليونان » ومن أنصاره أيضاً موندلغو في التعليقات التي كتبها على ترجمته لكتاب اتسلر إلى الإيطالية . وأصحاب هذا الرأي الأخير قد جعلوا المشكلة أكثر تعقيداً لأنهم وسعوا نطاق البحث واعتمدوا على المنهج الفيلولوجي ، مما جعل القطع برأي نهائي في هذا الموضوع اعتماداً على هذا المنهج غير متيسر الآن . فإلى أن يتمكن المنهج الفيلولوجي من القطع برأي نهائي في هذه المشكلة ، فإننا لا نزال عند رأينا وهو أن الفلسفة اليونانية لم تنشأ عن فلسفة شرقية مزعومة .

ونتقل من هذا إلى المشكلة الثانية ، فنجد أنها قد أخذت وضعاً جديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الحب والكراهية . أما الذريون فقد ساروا على طريقتهم الآلية ولم يعترفوا بشيء آخر يحدث التغيير غير العوامل الآلية ، فقالوا إن الكون والفساد يحدثان عن طريق انفصال الذرات واتصالها . وجاء بعد هؤلاء انكساغورس فقال أولاً بمبدأين متعارضين ، وجعل المبدأ المادي فيها يحتوي على عناصر كثيرة ؛ فكانه إذا قد قال بالكثرة في المبدأ المادي . ولكي يفسر الحركة قال بالمبدأ الآخر وهو المبدأ العقلي . وهذا المبدأ العقلي هو العقل . فمن ناحية إذا شاهد الملاحظة بما تحتوي من بذور ، ومن ناحية أخرى العقل بوصفه المبدأ الذي يُخرج الأشياء من اللاحركة إلى الحركة أي من اللا وجود إلى الوجود . وتفسير أنبادوقليس للتغير تفسير ديناميكي ، بينما تفسير الذريين تفسير ميكانيكي ، أما انكساغورس فيرتفع فوق هذين التفسيرين إلى تفسير عقلي أو شبه عقلي .

وهنا يلاحظ أن انكساغورس بقوله بالمبدأ العقلي قد وضع تفرقة كبيرة الخطر بين ما هو روحي وبين ما هو مادي . ولما كانت هذه التفرقة غير واضحة لديه ، ومن ناحية أخرى كانت غير معلومة لدى الفلاسفة السابقين عليه ، فإننا نستطيع من ناحية أن نعلمه خاتمة للعصر الأول ، ومن ناحية أخرى يمكن أن نعلمه مبدأ لتطور جديد ، لأن النظرة التي قال بها ، ونعني بها التفرقة بين الروحي والمادي ، من شأنها أن تقلب الاتجاه الفلسفي الذي كان سائداً منذ البدء حتى الآن وأن تعطي اتجاهاً جديداً للتطور الفلسفي . وتبعاً لهذا فلا بد لكي ينتقل الإنسان من الاتجاه الأول إلى الاتجاه الجديد أن تحدث أزمة روحية وهذه الأزمة الروحية هي السوفسطائية .

ومن هذا كله نستطيع أن نستخلص خصائص الفلسفة اليونانية في العصر الأول ، وهي ثلاث : الاتجاه نحو الطبيعة الخارجية ، وعدم البحث في الطبيعة الداخلية ، وعدم التفرقة بين الروحي والمادي .

كذلك نستخلص أيضاً أنه إذا كان لا بد من وضع تفرقة أو من عمل تقسيم لهذا العصر الأول ، فإن هذا العصر الأول سيقسم حينئذ إلى قسمين : القسم الأول يبدأ من طليس وينتهي بانتهاج المدرسة الإيلية ، ويشمل المدرسة الأيونية والمدرسة الفيثاغورية والمدرسة الأيلية ، والقسم الثاني يبدأ بهرقلطس وينتهي بانكساغورس ، وأشهر الشخصيات فيه هرقلطس أولاً ثم أنبادوقليس ، ثم المدرسة الذرية ، وأخيراً انكساغورس .



ما يقوله يوتل وبين ما يقوله نيتشه . فنيشه يعتقد أن التطور جاء من التشبيه إلى الموضوعية ، بينما يوتل يرى أن التطور حدث عن طريق العكس ، أي عن طريق الانتقال من الفناء في الأشياء الخارجية إلى الشعور بالذاتية ، وجعل هذا الشعور هو الأساس الذي عليه تُصوَّر الأشياء . ويوتل يشبه عصر الفلسفة الطبيعية عند اليونان بعصر النهضة وبالعصر الرومانيكي ؛ فيقول إن الروح التي أملت فلسفة عصر النهضة هي التي أملت الفلسفة الطبيعية عند الفلاسفة السابقين على سقراط ، وهذه الروح تجعل الإنسان نواة الطبيعة . فعند رجال عصر النهضة ، الإنسان هو كتاب الطبيعة الأصغر كما يقول كوزاتو ؛ وهو مركز الطبيعة كما يقول رويشلمن ؛ وهو نموذج الطبيعة كما يقول ليوناردو دافنتشي ؛ وهو الصورة الكاملة للطبيعة كما يقول أجزتافون نتسهم . فالطبيعة في نظر هؤلاء هي الإنسان ، لأن الإنسان نواة الطبيعة .

وعلى هذا النحو تصور الفلاسفة السابقون على سقراط الطبيعة الخارجية ، وهذه الطبيعة الخارجية يجمع بينها وبين الروح الإنسانية ، الله ؛ فهناك وحدة إذاً بين الطبيعة وبين الروح الإنسانية وبين الله : فطاليس وأتكسيمانس يقولان بأن الإنسان هو الذي بصور الطبيعة الخارجية ، وعلى أساسه تفهم الطبيعة ؛ وهرقليطس يقول بالقانون الذي يسود التغير ، وهذا القانون يشابه قانون الحياة الروحية الإنسانية . والفيثاغوريون قد أخذوا فكرتهم عن الأعداد بحسبانها أصل الأشياء من فكرة الانسجام ، لأن الانسجام يقوم على الأعداد ، وهذا الانسجام تدركه الروح الإنسانية ؛ فتصور الطبيعة على أنها قائمة على الأعداد هو في الآن نفسه تصور إنساني . والإيليون في قولهم بالواحد الكل ، وفي قولهم بأن الوجود هو الفكر ، قد جعلوا الفكر الإنساني ، أي النفس الإنسانية ، الأساس الذي يقوم عليه الوجود . وأنيادوقليس حينما قال بمبدأي المحبة والكراهية قال بمبدأين أصلهما في النفس الإنسانية ؛ وقد تصورهما على أساس توارد العواطف في النفس ، فهذه العواطف تأتي الواحدة بعد الأخرى مضادة لها ، وهي إما أن تكون عواطف محبة أو عواطف كراهية . فقول أنيادوقليس إذاً صادر عن تصور النفس الإنسانية . وكذلك فعل أنكساغورس في قوله بمبدأ الذرات الحية ، فهو إنما تصور الطبيعة الخارجية على نحو الطبيعة الإنسانية . وفي قوله بالعقل قد أدرك الطبيعة من خلال العقل الإنساني ، من حيث عمل هذا العقل في الطبيعة الداخلية . كذلك الحال في

وفي السنوات الأولى من القرن العشرين وهذا الوضع الجديد هو الذي يريد أن يرجع نشأة الفلسفة اليونانية إلى التصوف . وأول القائلين بهذا الرأي تقريباً - ولو أن رجال العصر الرومانيكي في أوائل القرن التاسع عشر قد أشاروا إلى مثل هذا الرأي ، ولكنها كانت إشارة غامضة لأن التزعة القديمة كانت متغلبة في كتابة تاريخ الفلسفة إبان هذا النصف الأول من القرن التاسع عشر - نقول إن أول من قال بهذا الرأي هو نيتشه في كتابه « الفلسفة في العصر التراجيدي من عصور اليونان » ( من سنة ١٨٧٣ إلى سنة ١٨٨٠ ) . وجاء بعد نيتشه ، وسار في هذا الاتجاه ، صديقه إرفن روده ، فكتب كتابه المشهور « النفس : عبادة النفس وخلودها عند اليونانيين » وقد ظهر عام ١٨٩٤ . وجاء أخيراً « كارل يوتل » فلخص كل البحوث السابقة ، وأعطى لها لوناً جديداً في كتابه : « نشأة الفلسفة عن روح التصوف » وقد ظهر سنة ١٩٠٣ .

يرى نيتشه أن الفلسفة اليونانية قد نشأت عن مصدر صوفي ، لأن الروح اليونانية كانت من قبل روحاً تشبيهية ، فكانت تصور الأشياء الخارجية على غرار الإنسان دائماً . لكنها تحررت من هذه النظرة على يد الفلاسفة ، فأصبحت في تفكيرها موضوعية ، وقببت في الموضوعات الخارجية . فيها كانت تجعل الأفكار كأنها أشخاص ، وتجعل الآلهة أشخاصاً أيضاً ، وتجعل الطبيعة حية كالإنسان . جاء طاليس فجعل الأشياء وحدة ، وقال إن أصل الأشياء الماء ، فارتفع بهذه الأشياء المجردة إلى المقام الأول وجعلها الأساس في تفسير الطبيعة . وبينما كانت النظرة القديمة نظرة تفرقة وقصل ، أي تنظر إلى الأشياء على أنها مختلفة متفرقة ، جاء طاليس فجعل الأشياء وحدة ، وقال إن الكل هو الماء . فهذه النظرة الواحدة إلى الأشياء كلها ، وهذه النظرة المتدنة من الذات نحو الموضوع مباشرة بفناء الذات في الموضوع ، لم يصل إليها طاليس والفلاسفة الطبيعيون عن طريق المشاهدة والملاحظة ، بل عن طريق نظرة وجدانية في الوجود ، أو بعبارة أخرى نظرة صوفية .

فكان نيتشه إذاً يريد أن يقول إن أصل النظرة الفلسفية ومصدرها نظرة صوفية ، فبدلاً من التشبيه قام التصور الموضوعي . ثم جاء كارل يوتل فقال إن الروح اليونانية والفلسفة ابتدأت من الذات الباطنة وعن طريقها انتقلت من الأشياء المتفرقة إلى الوحدة الكلية . فكان هناك إذاً فرقاً بين

في نشأتها وهو التصوف أو الدين . ويجب هنا أن نلاحظ أن الدين لم يكن في نظر هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين منفصلاً عن الفلسفة ، بل كانا - وعلى الأخص في البدء - شيئاً واحداً ، والفلسفة تنشأ دائماً - كما يشاهد في التاريخ الروحي - في أحضان الدين ، كما أثبت ذلك كارل يَسْبِرُز . ويؤيد هذا ما نراه من أن الفلاسفة في الدور الأول للتخلف يستخدمون المصطلحات الدينية ويتكلمون لغة الدين ، والدين أيضاً هو التصوف هنا ، فأخذهم عن التصوف وأخذهم عن الدين شيئاً واحداً . وقد كتب برجسون صفحات رائعة في هذا الموضوع في كتابه « ينبوع الأخلاق والدين » . ولهذا فلا بد لنا من أن ننظر إلى هذا العامل ، عامل الدين ، بعين الاعتبار ، ونحن نبحث في نشأة الفلسفة اليونانية . إلا أن الخطأ في كلام يوثل هو أنه جعل النظرية الصوفية أو التصوف المصدر الوحيد للفلسفة . فإن البحث التاريخي قد أثبت من بعد ، أو أثبت من قبل أيضاً ، أنه إلى جانب الدين وجدت عناصر أخرى في أحضانها نشأت الفلسفة اليونانية ، هي أولاً التفكير السياسي ، وثانياً التفكير الأخلاقي . فهذه العوامل مجتمعة أي : العامل الديني ، والعامل السياسي ، والعامل الأخلاقي - هي المصادر الرئيسية التي نشأت عنها الفلسفة اليونانية .

**التفكير السياسي :** ظهر من بين اليونانيين قبل القرن السادس للميلاد رجال سياسة اشتهروا بالحكمة وكانت أقوالهم مصدراً من مصادر التفكير عند اليونان ، ومن أشهر هؤلاء صولون . ويظهر من هذه الأقوال أنهم لم يكونوا يفرقون بين الأخلاق السياسية والأخلاق الفردية ، وأن الواجب نحو الدولة أسبق من الواجب نحو الذات ، أو بالأحرى ليس ثمة تعارض بين الاثنين . وهذا التفكير السياسي قد طبع بطابعه كثيراً من الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط ممن كانوا عنوا بالسياسة في المدن التي نشأوا فيها ، بل قد وصل بعضهم إلى السلطة كما فعل الفيثاغوريون في اليونان الكبرى بجنوب إيطاليا . ولم يكونوا جميعاً يعلِّون الحياة السياسية منفصلة عن التفكير الفلسفي الخالص .

**التفكير الأخلاقي :** لم يشأ اتسار أن يعترف بأن الأخلاق يمكن أن تكون سابقة على الطبيعة ، ولهذا لم يكن من رأيه أن تكون الفلسفة الطبيعية نتاجاً للتفكير الأخلاقي وذلك

ديمقريطس ، حينما قال بعقل كلي ، فإنه قد تصور الطبيعة على غرار الإنسان .

ومن هذا كله يتبين في رأي يوثل كيف أن الفلاسفة الطبيعيين قد تصوروا الطبيعة الخارجية على أساس الطبيعة الإنسانية . ولكن لكي تتم النظرية الصوفية لدى هؤلاء جميعاً ، جمعوا بين الطبيعة الإنسانية والطبيعة الخارجية عن طريق الله . فقال طاليس بوجود إله هو الطبيعة عينها ، ووحد بين الألهة ، أو على الأقل جعل زيوس فوق الألهة . وفعل هذا بشكل أظهر منه أنكسندريس ، حينما جعل اللا محدود هو كل الوجود ، وهذا اللا محدود هو الله تقريباً . وظهرت هذه النزعة إلى التوحيد بين الطبيعة وبين الألهة في أجل صورتها عند إكسينوفان الذي حمل حملة شديدة على الألهة المتعددة المنظور إليها نظرة إنسانية خالصة وحاول أن يجعل الألهة هي الطبيعة ، فقال بنوع من وحدة الوجود . كذلك فعل هرقليطس في قوله باللوغوس ، على أساس أن اللوغوس هو العقل السائد في الكون ، وهو الله . وظهر هذا من بعد عند بقية الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط . فكأنهم بهذا كله قد وحدوا بين الطبيعة الخارجية والطبيعة الإنسانية والله . ويسمى يوثل هذه النزعة باسم panentheismus أي أن الكل في الله ( من  $\pi\alpha\sigma$  أي كل ، و  $\epsilon\iota\sigma$  في ، و  $\theta\epsilon\acute{o}\varsigma$  الله ) . وهذه النزعة كانت مرتبطة أشد الارتباط بالنزعة الأورفية . فهما نزعتان قد سارتا جنباً إلى جنب ، فكان جميع الفلاسفة السابقين على سقراط أورفيين في نفس الآن ، لأن نظرهم كانت نظرة صوفية . فطاليس مثلاً يحسب أن الطبيعة حية ، وأن المغناطيس حي كذلك . وهذا كله استطاع يوثل أن يقول إن الفلسفة اليونانية صدرت عن مصدر صوفي .

ورأي يوثل هذا كان يمثل نزعة سادت في عصر ما من العصور ، أعني في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر والعشرين سنة الأولى من القرن العشرين ، حين كان التفسير الحيوي لكل الأشياء هو السائد ، سواء عند الفلاسفة وعند المؤرخين ؛ أي في ذلك الدور الذي أصبحت فيه النظرة إلى الوجود نظرة إلى الحياة ، وعلى حد تعبير هينرش ركرت كانت فلسفة الحياة هي البدع السائد في الفلسفة .

وليس من شك في أن هذه النظرة الحيوية قد انقضت عصرها من سنة ١٩٢٠ تقريباً ، ولكن بقي لها مع ذلك كثير من القيمة ، لأنها دللتنا على مصدر حقيقي تصدر عنه الفلسفة

يخضع لها ، وهذه الضرورة بصورها اليونانيون على نحوين : فهناك الضرورة العملية التي يخضع لها الناس والآلهة على السواء والكائنات الحية والكائنات غير الحية أيضاً ؛ وزيوس نفسه ، وهو كبير الآلهة ، خاضع لهذا القدر . ولكن القدر قد تُصوّر على نحو آخر ، وهو أنه القانون الأخلاقي السلمي الذي يجب أن يخضع له الإنسان لكي يسير في حياته سيراً مستقيماً . فهو القانون الكلي العام الذي يجب أن تخضع له الحياة الإنسانية ، وإلا فلإنها ستكون إذا معارضة للآلهة ، وهذا ما يسمى المهريريس أو القحة .

وهذا التفكير مصدره فكرة التوحيد ، أي الرغبة في إيجاد قانون كلي واحد يعترف به الجميع ، ولا يستطيع الإنسان أن يخضع له . وهذا القانون إذا تُصوّر من ناحية أنه الضرورة المطلقة التي تسير الإنسان دون أن يكون مخيراً في أفعاله ، يؤدي إلى نظرة تشاؤم في الوجود . وهذه النظرة تجد لها وضحة عند ثيوجنيس ، وهي نزعة تميل إلى التشاؤم وتعد الحياة كلها شراً . وأكبر ممثل لهذه النزعة التصورات التي قبلت خاصة بالإله ديونيزوس . وكانت الوسيلة للخلاص من هذا التشاؤم ، أي للخلاص من هذه الضرورة ، الالتجاء إما إلى الطقوس الديونيزوسية أو إلى الطقوس الأورفية ، وهي طقوس تقوم خصوصاً على إمكان نسيان التشاؤم وآلام الحياة عن طريق السكر . أما إذا تصوّرت الضرورة على النحو الثاني بحسبانها قانوناً عاماً يسير الأشياء في الطريق المستقيم ، فإن فكرة القدر تنقلب إذاً إلى فكرة هي فكرة العدالة δίκη وهذه العدالة تقتضي بدورها العقاب لأن الذي لا يخضع للقدر بوصفه عدالة يكون مُذنباً وهذا الذنب لا بد أن يكفر عنه ، وهذا التكفير هو عقاب الآلهة للشخص : فالجرمة والعقاب هنا مرتبطان أشد الارتباط . ولذا فإذا كان في العالم شر - كما دعانا إلى القول بذلك تصور القدر على النحو الأول - فإن هذا الشر ضروري أيضاً في الوجود ، لأنه عبارة عن التفكير الذي يكفر به إنسان عن خطاياها : فوجود الشر طبيعة في الوجود من حيث إنه يمثل العقاب .

لكن يلاحظ مع هذا أن هناك - إلى جانب الشر - يوجد الخير ، وهو اتباع القانون العام ، قانون العدالة . فهذه النظرة الجديدة إذا تخالفة للنظرة الأولى من حيث إنها نظرة تفاؤل ، بينما الأولى نظرة تشاؤم . وفكرة العدالة هذه فكرة لعبت دوراً خطيراً في التطور الفلسفي طوال العصر السابق

لأن الفكر ينتج أول ما ينتج إلى الطبيعة الخارجية ويتجه من بعد إلى الطبيعة الإنسانية : لكنه مع ذلك قد عدّ من بين المصادر المحلية التي صدرت عنها الفلسفة الطبيعية التفكير الأخلاقي الذي وجد عند الحكماء السبعة وعند بعض الشعراء . والواقع أن التفكير الأخلاقي الذي كان في بلاد اليونان يقدم لنا أول صورة من صور التفكير الفلسفي . وهذا ظاهر في جميع الحضارات : فهي تبدأ بأفكار خاصة بالحياة الإنسانية يرتفع بها الإنسان عن مستوى العرف والتقاليد ، ويكون في هذه الاعتبارات الأخلاقية عنصر تفكير عقلي ظاهر .

لكن هناك محاولات قام بها بعض الباحثين منذ عهد غير قليل أرادوا بها أن يثبتوا أن التفكير الطبيعي سابق على التفكير الأخلاقي ، وأن حوادث الطبيعة الخارجية هي التي تحدد وتعطي المقياس والقيم لحوادث الطبيعة الإنسانية بوصفها حياة ومجتمعاً ومن أشهر من قالوا حديثاً بهذا الرأي رينه برتلو . ففي البحوث التي كتبها في «مجلة الميتافيزيقا والأخلاق» سنة ١٩٢٣ والتي ظهرت فيها بعد تحت هذا العنوان : «الفلك الحيوي والفكر الآسيوي» قد حاول أن يثبت أن التفكير الطبيعي والمسائل الرئيسية في الطبيعيات هي التي حددت الأوضاع الأخلاقية التي ظهرت فيما بعد ، بيد أنه يلاحظ على هذه المحاولة وعلى كل المحاولات المماثلة لها أنها لم تستطع أن تصل إلى تحديد نقطة الابتداء : أي أخلاقية أم طبيعية . والواقع أن نقطة الابتداء دائماً في كل الحضارات هي النقطة الأخلاقية ، لا المسألة الطبيعية .

فنحن نشاهد مثلاً في الحضارة اليونانية التي نحن بصدد البحث فيها الآن أن التفكير الأخلاقي ظاهر ظهوراً واضحاً في القصائد الهومرية وقد قال ماكس فنت في كتابه «تاريخ الاخلاق» (الجزء الأول ، الفصل الأول) إن التطور الأخلاقي في بلاد اليونان قد سار بأن انتقل الإنسان من الانفعالات التي لا ضابط لها ، إلى الحكمة وإلى الجرأة - هوبيريس - ، أي انتقل من الاخلاق الفردية التي يسودها الهوى ، إلى الاعتراف بقانون كلي ، وهذا القانون الكلي هو الذي يجب أن تسير على أساسه الحياة الإنسانية . وأول مظهر هذا القانون ظهر على صورة فكرة القدر ، وهذه الفكرة بدورها قد جرت علة أفكار إلى جوارها . فالقدر - مويرا - قد أصبح الضرورة التي لا بد لكل إنسان أن

( باريس سنة ١٩٠٦ ) حيث يقول إن كتاب « في الطبيعة » لأنكسمنديس أولى به أن يُعدّ بحثاً في الأخلاق من أن يعدّ بحثاً في الطبيعة . وإلا فإننا إذا حسيناها بحثاً في الطبيعة أخطأنا فهم المقصود من الكتاب خطأ تاماً . ويأتي بعد هذا هرقليطس فيقول إن العدالة أو الضرورة هي القانون الذي يسير عليه الوجود ، وإن هذا القانون يخضع له كل شيء ويسمى هذا القانون باسم اللوغوس ، ويصوره تصويراً حسيّاً ، على شكل النار . كذلك الحال عند برمينيس : تشهد أن العدالة هي الحارسة لباب الحقيقة في قصيدته « في الطبيعة » ونشاهد أيضاً عنده أن الضرورة هي الأسس في كل الوجود ، ويسمونها « هيمرنيه » . وقصيدته التي تكوّن هذا الكتاب تقوم كلها على أفكار أخلاقية صرفة ، وهذه الأفكار هي التي تكوّن مذهبه الطبيعي كله .

ثم يجعل أنبادوقليس من مبدئين رئيسيين من المبادئ الأخلاقية ، هما المحبة والكراهية المبدئين اللذين يكوّنان الوجود ؛ فمن طريق المحبة تتكون الأشياء ، وعن طريق الكراهية تنفصل الأشياء ؛ والعالم يخلق من الخليط بأن تؤثر الكراهية فيه ، وهذه الكراهية هي التي تفرق أجزاءه ، فينشأ عن هذه التفرقة هذا الوجود . ويأتي بعد ذلك الحب ، فيجمع هذه الأشياء المتفرقة ، ويرجعها إلى الوحدة الأولى . وهكذا تتعاقب مملكتا المحبة والكراهية وبين مملكة الواحد والآخر فترة سكون ، كما سنرى ذلك مفصلاً فيما بعد عند كلامنا عن مذهب أنبادوقليس .

والذي يعيننا من هذا كله هو أن التصورات الأخلاقية هي التي أعطت لأنبادوقليس فكرة المبادئ الطبيعية ، أي أن المبادئ الطبيعية كانت على غرار المبادئ الأخلاقية ، فالأخلاق عنده كانت إذاً المصدر الذي عنه صدرت الأفكار الطبيعية . وليوقس يقول أيضاً بالضرورة ويجعل من هذه الضرورة القانون الذي بسببه انفصلت الذرات من الخليط الأول وانحدرت في الكون من أجل تكوين الأشياء .

وهكذا نجد دائماً عند هؤلاء الفلاسفة السابقين على سقراط أن التفكير الأخلاقي كان المصدر الذي صدرت عنه تصوراتهم للطبيعة ، أي أن الفلسفة عندهم قد نشأت عن مصدر أخلاقي . بل استمرت هذه الأفكار الأخلاقية حتى عند أفلاطون ، فإننا نجد مثلاً أن أسطورة الإز في المقالة العاشرة من « الجمهورية » تقوم على فكرة أخلاقية صرفة ؛

لسقراط ، بل نجدها عند أفلاطون وعند أرسطو كذلك . والشيء الرئيسي الذي يجب علينا أن نستخلصه من هذا كله هو أن الغرض من إيجاد هذه الأفكار وهي القدر والعدالة . . . الخ هو إيجاد نظرة واحدة في طبيعة الحياة الإنسانية بدلا من أن تُترك إلى الاعتبار الشخصي وإلى المهوى الفردي . ولقد كان اليونانيون ، وبخاصة الأيونيون ، يشعرون شعوراً قوياً حين نشأت الفلسفة ، وقبل هذا عند ما نشأ التفكير الأخلاقي ، إلى إيجاد الوحدة ، بعد أن رأوا أن الوجود كله تغير . فأرادوا عند هذا التغير أن يطلبوا وحدة في الوجود ، وكان هذا التغير الذي استرعى انتباههم موجبا للدهشة ، والدهشة كما يقول أفلاطون وأرسطو هي أول التفكير الفلسفي أو هي الدافع إلى التفكير الفلسفي بوجه عام ، فنفعت أول ما دفعت إلى هذا التفكير الأخلاقي فنشأت الوحدة في الحياة الأخلاقية ؛ ودفعت ثانياً عند طاليس ومن يليه من الفلاسفة السابقين على سقراط إلى نشأتان وحدة في الطبيعة كما رأينا ذلك من قبل حين قلنا إن الفلسفة لا تبدأ حقاً بطاليس إلا من أجل أن طاليس قال إن الأشياء واحدة ، أي من حيث إن مرجعها جميعها إلى شيء واحد .

ومن هنا نستطيع أن نعدّ أن هذا النوع من التفكير الأخلاقي كان هو العنصر الأساسي الذي دفع أو الذي عمل على إيجاد الفلسفة . فإلى جانب العنصر الصوفي الذي ذكرناه من قبل ، يجب أن نعدّ أيضاً العنصر الأخلاقي بوصفه عنصراً أساسياً ومصدراً نشأت عنه الفلسفة . وظاهر من كل الأقوال التي بقيت لنا من الفلاسفة السابقين على سقراط أن تفكيرهم كان مطبوعاً بهذا الطابع الأخلاقي إلى أبعد حد . فنحن نجد أولاً أن ديوجانس اللايرسي ينسب إلى طاليس أنه قال إن كل شيء خاضع للضرورة ، ويأتي بعد طاليس أنكسمنديس فيقول إن الوجود نشأ من الانفصال أو الابتعاد ، من حيث إن نوعاً من النزاع قد نشأ في الوحدة الأولى التي هي اللا محدود أو الأبيرون *ἀπειρον* . فأصل الوجود إذاً عند أنكسمنديس هو هذا العامل الأخلاقي ، أي النزاع ؛ ولو أنه يجب أن يلاحظ هنا أن الاتفاق اتفاق شكلي أو في اللفظ فحسب ، أكثر من أن يكون اتفاقاً في المعنى ؛ فإن هؤلاء الفلاسفة لم يصلوا إلى درجة من التجريد تسمح لهم بأن يستخدموا ألفاظاً غير هذه الألفاظ الحسية . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نأخذ بالرأي الذي قال به ألبير ريفو - في كتابه « مشكلة الصيرورة وفكرة المادة في الفلسفة اليونانية منذ البدء حتى ثاوفرسطس »

تتطور تطوراً هائلاً في القرن الخامس قبل الميلاد : إذ أخذت المعتقدات الدينية تفقد ما لها من ثقة ونفوذ عند الطبقة المثقفة بأسرها ، واتسع مدى الإنكار عند الكثيرين حتى شمل وجود الآلهة أنفسهم . فلم يعودوا بهم يؤمنون . ثم إن مطالب الحياة ، من الناحية الأخلاقية ، قد اتسعت وتشعبت حتى أصبحت تلك القواعد الساذجة التي وضعها من يسمون باسم الحكماء غير كافية لإشباع الحاجات الجديدة التي وجد اليونانيون أنفسهم فيها إبان تلك الفترة . وإنما نلاحظ أن الكثيرين من الفلاسفة السابقين لم ينسوا أن يحملوا على هذه العادات الشعبية ، وأن يكونوا دعاة إقامة مذهب في الأخلاق على أساس من العلم الصحيح ومنهج في البحث مستقيم ، ولكنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يقيموا هذا المذهب ، بل ولا أن يضعوا صورة له إجمالية . هذا إلى أنه كان من شأن التغييرات الجديدة في تركيب الدولة أن تجعل النظر إلى مكانة الفرد ومكانة الدولة تختلف عما كانت الحال عليه من قبل .

فجاء السوفسطائيون وعبروا أحسن تعبير عن هذه الحال التي وجد فيها اليونانيون أنفسهم إبان ذلك الحين ، وكانوا يعانيتها بمشاكل الإنسان وانصرافهم عن دراسة مشاكل الطبيعة الخارجية ممثلين لهذا الإنكار الذي شعر به الناس بإزاء المذاهب الطبيعية القديمة ؛ وكانوا بهذا أيضاً المنادين أو المهملين لقيام نوع آخر من الأبحاث تختلف كل الاختلاف ، موضوعه الإنسان . كما أنه ، من ناحية نظرية المعرفة ، كانت مصادر المعرفة التي وثق بها السابقون قد تززع أساسها إلى حد كبير : فالمعرفة الحسية التي كانت المصدر الأول للمعرفة قد ثار عليها فلاسفة كثيرون من قبل أمثال هرقلطس وبرمينيلس وديموقريطس وأنكساغورس . ولم تكن حركة السوفسطائية - كما رأينا في « ربيع الفكر اليوناني » - حركة هدم بقصد الهدم المجرد ، وإنما كانت حركة هدم لبناء جديد ؛ لأنها كانت تعبر عن روح العصر ، وروح العصر لم تكن تمثل ارتخاء ونفاداً في قوة الروح اليونانية ، بل كانت تمثل ، على العكس ، قوة جديدة شاعت في هذه الروح ، فشعرت برغبة ملحة في إيجاد نظرة جديدة في الوجود ؛ ومن هنا نفهم لماذا تختلف النزعة السوفسطائية عن نزعة الشكك في العصر الثالث من عصور الفلسفة اليونانية . فإن نزعة السوفسطائيين تمثل فيضاً قوياً الروح اليونانية ، بينما نزعة الشكك تمثل ، على العكس من ذلك ، نفاد هذه القوى واضمحلالها .

و « طيماوس » تلعب فيها التصورات الأخلاقية أخطر دور، ومعروف أن « طيماوس » هذه هي التعبير الكامل عن مذهب أفلاطون في الطبيعة .

والخلاصة التي نستخلصها من كل ما قلناه ، هي أن المصادر التي نشأت عنها الفلسفة اليونانية مصادر متعددة من ناحية ، ومعقدة من ناحية أخرى . فهي متعددة سواء نظرنا إلى نشأة الفلسفة اليونانية على أنها نشأة عملية خالصة ، أو على أساس أن هذه النشأة قد عملت فيها أيضاً أفكار اجنبية . فإذا نظرنا إليها على أنها نشأت عن مصادر عملية فحسب ، فإننا نرى أن نشأة هذه الفلسفة لم تكن عن مصدر واحد كما قال يوتل الذي أرجع هذا المصدر الواحد إلى التصوف ، وإنما كان هناك إلى جانب التصوف مصدر هام ، لا يقل أهمية عن المصدر الأول ، هو التفكير الأخلاقي ، لأن الأفكار الرئيسية في الأخلاق قد نقلها الفلاسفة الطبيعيون من ميدان الحياة الإنسانية إلى ميدان الحياة الخارجية فصوروا الطبيعة الخارجية على أساس الطبيعة الإنسانية . ولهذا فإن نشأته كان محققاً كل الحق حين قال إن الفلسفة بدأت بأن انتقلت التصورات الذاتية فأصبحت تصورات موضوعية .

### خصائص الفلسفة اليونانية

#### في العصر الثاني

خلف العصر الأول من عصور الفلسفة اليونانية للعصر الثاني طائفة من المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية والمذاهب الطبيعية . إلا أن هذه المعتقدات الدينية كانت لا تقوم على علم حقيقي بالآلهة ودراسة صحيحة لمذاهب الدين وأوضاعه ؛ كما كانت القواعد الأخلاقية عادات وتقاليد أكثرها شعبي ، أو عبارات استخلصت عرضاً على يد بعض من يسمون باسم الحكماء ، ولم تكن تكون مذهباً أخلاقياً بالمعنى الصحيح ، لأنها لم تقم على قاعدة من العلم ولا منتج من مناهج البحث العلمي . والفلسفة الطبيعية كانت هي الأخرى فلسفة ذات وجه واحد : إذ كان رجال هذا العصر يكتبون بالنظر إلى صفة واحدة من صفات الوجود ، ثم يعممون هذه الصفة ويحملونها الأساس في كل شيء ؛ كما أنهم كانوا واحدين - إن صح هذا التعبير بالنسبة إليهم - أي يقولون مبدأ واحد يرجعون إليه كل شيء في الوجود .

ولكن الحياة الفكرية والروحية في بلاد اليونان بدأت



عند سقراط ، فإن هذا لم يبحث في شيء غير التصورات والماهيات والفضائل . وكذلك الحال بالنسبة إلى أكثر المدارس السقراطية الصغيرة مثل الميغاريين والقرينيين . وأرسطو نفسه الذي جعل للطبيعات أهمية كبيرة ، وتوسع فيها الكثير من التوسع - يذكر صراحة في المقالة الأولى من كتاب « ما بعد الطبيعة » ( ف ٢ ص ٨٩٢ ب ٤ - ١١ ) أن الطبيعات ثانوية بالنسبة إلى ما بعد الطبيعة ، لأن هذه أرفع العلوم من حيث الموضوع وهو الله ، وشرف كل علم بشرف موضوعه .

فمن هذه النواحي الثلاث إذن سنجد الفلسفة الجديدة مختلفة كل الاختلاف عن الفلسفة القديمة . وهذا في الواقع ما فعله سقراط وأفلاطون وأرسطو أجمعون . فإن فلسفتهم متجهة إلى الإنسان وإذن ستكون أخلاقية ؛ ونحو الماهيات في نظرية المعرفة ، فهي إذن معنية بالبحث في نظرية المعرفة بوجه عام ؛ ونحو وجود الماهيات بوصفه الوجود الحقيقي ، فستكون إذن فلسفة مثالية وعلى الرغم من كل الاختلافات الجزئية التي نشهد لها لدى هؤلاء الفلاسفة الثلاثة ، فإنه من الواضح أنهم متفقون جميعاً في هذه الصفة ، صفة المثالية : فأرسطو لا يقل مثالية عن أفلاطون لأن الوجود الحقيقي عنده هو أيضاً ليس وجود المادة بل وجود الصورة وكل ما هنالك من خلاف بينه وبين أفلاطون في هذا الصدد هو في أن أفلاطون جعل الصور مفارقة ؛ أما أرسطو فقد جعل الصورة والهوى توجدان معاً غير منفصلتين ، بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول : إن هذا يؤذن بأن أرسطو كان مثالياً مغالياً ، لأنه لم يقل إن وجود الصورة يجب أن يكون ملازماً لوجود الهوى إلا لأنه يريد أن يجعل الوجود الحقيقي دائماً هو وجود الصورة أو الماهيات . إذا سيكون كل وجود - في هذه الحالة - مرتبطاً بوجود الماهية ، مما يضفي على الماهية قوة أعظم في الوجود .

وهكذا نرى أنه بينما كان اتجاه الفلسفة اليونانية في العصر الأول إلى البحث في أصل الأشياء وجوهرها وعد هذا الجوهر جوهرًا ماديًا صرفاً ، كان اتجاهها في العصر الثاني إلى البحث في الماهيات أولاً ، وإلى حساب أن الماهية الحقيقية أو الوجود الحقيقي ليس الوجود المادي بل الوجود الروحي أو وجود الماهيات . وبعد أن كانت المعرفة في العصر الأول ساذجة لم تحاول أن تفتح نفسها وأن تعرف القواعد التي يجب أن تسير عليها والمصادر التي يجب أن تصدر عنها ، نرى البحث

فكان لا بد إذن ، تبعاً لهذا ، من أن يتخذ الناس مذهباً جديداً في الأخلاق والدين والمعرفة بوجه عام . ولما كان المصدر الأول لفساد المذاهب الموروثة في هذه النواحي كلها هو المنهج الذي سار عليه السابقون - ففساد الدين كان مرجعه عدم قيامه على العلم الصحيح ، وفساد الأخلاق يرد إلى عدم وضعها على أساس من النظر المستقيم ، وفساد الفلسفة الطبيعية راجع إلى عدم إحاطتها بكل ما يقتضيه الموجود - نقول إنه نظراً إلى هذا كله ، كان لا بد أن تبدأ الفلسفة الجديدة من طريق مخالف للطريق الأول ، أي كان عليها أن تبدأ من الإنسان كي تصل إلى الطبيعة ، لا من الطبيعة كي تصل يوماً ما إلى الإنسان .

ومن أجل هذا كانت الخاصية الأولى من خصائص الفلسفة الجديدة أنها بدأت بالبحث في العلم والمدرجات أو التصورات : من حيث قيمة هذه التصورات ، وإمكان المعرفة ، والمنهج الذي يجب أن يسير عليه الإنسان كي يصل إلى المعرفة . أما نقطة الابتداء في العلم فيجب أن لا تكون الأشياء الخارجية بما هي خارجية ، بل ماهيات الأشياء : فيتجه البحث أولاً إلى الماهيات وبعد الوجود الخارجي ثانوية بالنسبة إليها ، أما الوجود الأول والحقيقي فهو وجودها ؛ ولهذا ستكون الفلسفة الجديدة إذن فلسفة ماهيات ، بدل أن كانت قبل فلسفة طبيعيات . أما المنهج فيجب أن لا يكون منهجاً قاصراً ، كما كانت الحال عند الفلاسفة السابقين ؛ بل لا بد للإنسان أن يراعي جميع النواحي للشيء الواحد ويختلف الصفات التي تتضمنها الماهية . فلا مناص إذن من تحليل الماهية من أجل استخراج كل الصفات التي تدخل تحتها . وهذا هو ما يسمى باسم المنهج الديالكتيكي .

أما من ناحية موضوع العلم ، فإن العلم يجب أن يتجه إلى الإنسان في كل مظاهره أولاً وقبل كل شيء . ومن أجل هذا سيكون للأخلاق المقام الأول . أما الطبيعيات ، فعلى الرغم من العناية بها ، فإنها ستأتي في مكان ثانوي ، لأنه لما كان الوجود الحقيقي عند الفلسفة الجديدة هو وجود الماهيات ، فإن هذا الجزء الخاص بالماهيات سيكون الجزء الرئيسي ، وستكون الطبيعيات في مركز ثانوي بازائه . وهذا الجزء من الفلسفة المتعلق بالماهيات هو ما بعد الطبيعة ؛ أعني من هذا كله أن الطبيعيات ثانوية بالنسبة إلى ما بعد الطبيعة . أما الأخلاق فسيكون لها ، كما قلنا المقام الأول بل والوحيد

الفصل بين السياسة والأخلاق ، ولم يفعل كما فعل رجال العصر الثالث حين انتهى بعضهم ، وهم الأبيقوريون ، إلى أن الفضيلة العليا هي الاكتفاء بالذات والانصراف التام وعدم التأثر بالطبيعة الخارجية أو بأي شيء خارجي ، كما هو واضح في الفكرة المعروفة عندهم باسم عدم الاكتراث ، وكما فعل البعض الآخر وهم الرواقيون حين قالوا إن الفضيلة الكبرى هي الخضوع والتسليم لكل ما تأتي به الطبيعة ، وهذا ما يسمى باسم الأتركسيا ؛ كما أن النزعة العالمية نزعة التحليل من الوطن وحسبان الوطن هو العالم ، وهي التي ظهرت جلياً في العصر الثالث ، هذه النزعة كانت مجهولة تقريباً لدى رجال العصر الثاني .

ومن هذا كله نستطيع أن نجد خصائص الروح اليونانية ظاهرة كل الظهور في العصر الثاني ، وإن كانت تلك الخصائص قد بدأت تضمحل شيئاً فشيئاً حتى في هذا العصر نفسه . وفلسفة العصر الثاني يمثلها ثلاثة فلاسفة عظام : أولهم سقراط ، وثانيهم أفلاطون ، وثالثهم أرسطو . وهؤلاء جميعاً يرتبطون برابطة التلمذة كما أن الخصائص التي ذكرناها عن العصر الثاني نجدها واضحة لدى هؤلاء الثلاثة جميعاً . فسقراط يقول إن المعرفة الحقيقية هي معرفة الماهيات ويرجع الفضيلة إلى المعرفة ، فيقول إن الأخلاق نفسها تقوم على الماهيات بمعنى أن الفضيلة هي العلم ، والعلم هو علم بالماهيات ، فالفضيلة مرجعها في النهاية إذن إلى الماهيات . وأفلاطون يرتفع بهذه الماهيات عن الوجود الحسي فيجعل لها وجوداً مستقلاً مفارقاً للموجودات ، قائلاً إن صلتها بالموجودات الحسية هي صلة مشاركة فحسب . وأرسطو يقول إن وجود الصورة هو الوجود الحقيقي ، أما وجود الهيولى فوجود من الدرجة الدنيا . والفارق بينه وبين أفلاطون ، هو أن أفلاطون يجعل الصورة مفارقة للموجودات المحسوسة ، بينما أرسطو يجعل الصورة والهيولى متصلتين ، وهو إنما يلجأ إلى هذا لأنه وجد أن الهيولى لا يمكن أن يكون لها وجود إلا إذا كانت الصورة موجودة معها ، لأنها المصدر لوجودها وماهيتها ، فإذا ذهب الماهية ذهب الباقي أو العرض ؛ والهيولى عند أرسطو هي انفعال صرف تجري فيها التغيرات ، فلا يمكن إذن أن يكون لها وجود حقيقي ، إلا عن طريق الصورة ؛ ولهذا نرى أن وجود الصورة يجب أن يكون متصلاً دائماً بأبداً بوجود الهيولى .

وهكذا نجد أن الخصائص التي ذكرناها عن هذا

في العصر الثاني يتجه إلى أصول المعرفة ، وأي هذه الأصول جدير بالثقة فيه ، وأي منهج يجب أن يسلكه الإنسان لكي يصل إلى معرفة الحقائق . فهناك إذن من ناحية ، مثالية تعارض تلك المادية المتغلغلة في العصر الأول ، ومن ناحية أخرى بحث في نظرية المعرفة يقابل الثقة العمياء بالחס كما كانت موجودة في العصر الأول أيضاً .

إلا أنه يجب ألا نفهم - من كون فلاسفة هذا العصر الثاني يقولون بأن الوجود الحقيقي هو وجود الماهيات أو التصورات أو المدركات - أن هؤلاء الفلاسفة نزعوا نزعة مثالية مطلقة وحسبوا الوعي أو « الأنا » هو كل الوجود - كما سنرى ذلك فيما بعد في الفلسفة الحديثة في المثالية الألمانية وبخاصة عند فشته - فإن مثل هذه المثالية المطلقة لم تظهر في بلاد اليونان ، كما أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن هذه المثالية أو هذه النزعة الذاتية في مقابل للوضوعية ، التي ظهرت جلياً عند فلاسفة هذا العصر الثاني تختلف اختلافاً بيناً عن الذاتية كما ظهرت في العصر الثالث : فإن الذاتية في هذا العصر الثالث جعلت النظر تابعاً للعمل وجعلت القيمة العليا للنظرات الأخلاقية أو للمسائل العملية ، بينما على العكس من ذلك نجد أن ذاتية هذا العصر الثاني كانت تجعل النظر قبل العمل ، بل إنها أرجعت العمل كثيراً إلى النظر ، فنجد أن أرسطو يحسب أن الفضيلة الكبرى أو فضيلة الفضائل هي النظر ، وكذلك الحال سواء عند أفلاطون أو عند سقراط .

كما أنه يلاحظ أن فلاسفة العصر الثالث لم يعنوا بالطبيعيات أية عناية ، أما في العصر الثاني فإننا نرى أنه - على الرغم من أن سقراط لم يعن إلا بنظرية المعرفة والأخلاق - فإن أفلاطون قد جعل الطبيعيات جزءاً مكملًا للأخلاق ولنظرية المعرفة ، ولذنبه في الوجود . ثم إن أرسطو امتد بالطبيعيات فأعطى لها أعظم صورة وصلت إليها حتى العصر الحديث . - كما أن فلاسفة العصر الثالث : إما أنهم أرادوا أن ينصرفوا عن العالم الخارجي ، وإما أنهم لم يجدوا من وسيلة إلا الخضوع التام لما تقتضيه الطبيعة ، وإما أن يكونوا متصوفة زهاداً . وعلى العكس من ذلك كان فلاسفة العصر الثاني لا يفرقون تفرقة كبيرة بين السياسة وبين الأخلاق ، فأفلاطون يعني كثيراً ببيان الصلة بين الأخلاق الفردية وواجبات الدولة ، ويبحث كثيراً في واجبات الدولة ، وأرسطو يكرس جزءاً كبيراً من بحوثه للسياسة ، ويجعل السياسة مرتبطة بالأخلاق تمام الارتباط ، ومعنى هذا أن العصر الثاني لم يحاول



يعد للواحد وجود دون الآخر ؛ ونظرية المعرفة قد أخذت وضعها الصحيح ، وأضيف إليها - خصوصاً عند أرسطو - تحديد دقيق لمعاني الألفاظ ، ونظر إلى كثير من المشاكل الميتافيزيقية نظرة ثابتة واسعة تقوم على أساس الإدراك العقلي الصرف - بالقدر الذي استطاعوا به ذلك - لظواهر الوجود وما يخضع له من قوانين ؛ وبذا بلغت الفلسفة - بالمعنى الدقيق - أعلى درجة قُدِّر لها أن تبلغها في هذه الحضارة . ثم أضيف إلى الفلسفة البحث العلمي بمعناه الدقيق : فإلى جانب فلسفة التصورات التي بدأت بسقراط وبلغت نهايتها عند أرسطو ، نجد أن المنهج العلمي القائم على الملاحظة ، بل وعلى شيء من التجربة ، قد أخذ مكانة إلى جانب منهج التصورات أو المنهج الديالكتيكي .

إلا أنه إذا كانت الفلسفة قد بلغت عند أرسطو أعلى ما قُدِّر لها أن تبلغه ، فإن هذا ليس معناه أن المشاكل التي عرضت للفلاسفة اليونانيين قد وجدت حلها النهائي ، بل ظلت هناك عدة مشاكل تركتها هذه الفلسفة دون حل ، أو حلتها على نحو غير مُرضٍ . فهذه الثنائية بين الروح وبين المادة ، أو بين الهيولى والصورة ، وهي الثنائية التي أكدها أفلاطون إلى أقصى حد ، لم يستطع أرسطو - على الرغم مما قام به من نقد للمذهب أفلاطوني - أن يقضي عليها ، بل ولا أن يخفف منها ، فأصبحت الفلسفة تبدأ دائماً من التصورات ، وتنتهي دائماً إلى التصورات . ثم إن الصلة - تبعاً لهذا - بين الجواهر المتحققة في الخارج ، وبين التصورات المناظرة لها في الذهن لم تحل عند أرسطو على نحو مقنع . هذا إلى أن المنهج العلمي كان في الغالب مقصوراً على المنهج الديالكتيكي ، وهو منهج له من العيوب ما لكل فلسفة تصورية من عيوب التجريد المطلق ، وعدم إمكان الرجوع إلى التجربة ، وقيام تعارض شديد بين التجربة وبين التصور .

هذا إلى أن الفلاسفة اليونانيين جميعاً قد صدروا في كل أبحاثهم ونظراتهم في الوجود عن ثقة مطلقة في الموجودات الخارجية ، أي أنهم لم يشعروا بعد بما هناك من تضاد بين العقل - أو القوة المدركة - وبين الأشياء التي هي موضوع الإدراك ، وإنما كانوا يوقنون ، أو بتعبير أدق - لأن التوفيق لا يأتي إلا بعد التمييز - كانوا لا يميزون بين الذات والموضوع ، مما جعل فلسفتهم خليطاً من الموضوعية والذاتية . ثم إن البحث العلمي ، إذ قام على أساس فلسفة التصورات ، لم يكن من المستطاع أن يؤدي إلى نتائج ثابتة ؛ فالتقدم العظيم

العصر توجد كلها عند ممثلي هذا العصر جميعاً . إلا أن هناك مدارس صغيرة وجدت إلى جانب هؤلاء ، وانحرفت بعض الإنحراف عن رؤساء المدارس التي هي تابعة لها . وهذه المدارس أشهرها ثلاثة بالنسبة إلى سقراط ، وواحدة بالنسبة إلى أفلاطون ، وواحدة أخرى بالنسبة إلى أرسطو . والمدارس الأولى الثلاث تسمى باسم المدارس نصف السقراطية وهي الميغارية والكلية والقورينائية . أما مدرسة أفلاطون فهي الأكاديمية ، ومدرسة أرسطو هي المشائية . والشيء الذي يفرق بين هذه المدارس من ناحية وبين رؤساء هذه المدارس من ناحية أخرى هو أن هذه المدارس اتجهت مندفعة في تيار معين انحرف بها عن مؤسس المدرسة ، فجعلها أقرب إلى مدارس العصر الثالث منها إلى مدارس أو رجال العصر الثاني : فبعضها اتجه نحو ذاتية مغالية كما فعل الكلبيون مثلاً والقورينائيون ، واتجه بعضها إلى الأبحاث المنطقية وانصرف بها كثيراً عن الأبحاث الأخلاقية ، كما فعلت المدرسة الميغارية . أما مدرسة أفلاطون فقد تأثرت كثيراً بالمدرسة الفيثاغورية وانحرفت انحرافاً كبيراً عن روح مؤسسها . كذلك الحال في المدرسة المشائية ، فقد اتجه بعضها نحو الطبيعيات ولم يجمع بين الطبيعيات وبين المنطقيات والأخلاقيات كما فعل رئيس المدرسة ، وانصرف بعضها الآخر إلى الأخلاق واللاهوت على حساب بقية الفلسفة . ومن هذا كله نستطيع أن نقول إن هذه المدارس جميعاً كانت تياراً جانبيّاً إلى جانب التيار الكبير الذي مثله كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو .

### خصائص الفلسفة اليونانية في العصر الثالث

وصلت الفلسفة اليونانية إلى أعلى درجة استطاعت أن تبلغها عند أرسطو وأفلاطون . فالفلسفة الطبيعية قد أقيمت على قواعد ميتافيزيقية وأصبحت تكون نظرة شاملة في الوجود ، ولم يقتصر النظر على الناحية المادية من الطبيعة ، بل اعترف بوجود ثنائية مطلقة لا سبيل إلى القضاء عليها في داخل نظام الوجود ، وهي الثنائية بين الروح وبين المادة ، أو بين الهيولى وبين الصورة . والفلسفة الأخلاقية قد تكونت وأصبحت ذات أساس ثابت بالنسبة إلى هذه الحضارة اليونانية ، إذ أكمل ما بدأه سقراط ، ولم تعد الأخلاق مجموعة من الأقوال المتناثرة التي لا تسري فيها وحدة ولا تقوم على قواعد ميتافيزيقية محدّدة ؛ وارتبط ما بينها وبين السياسة ، فلم

واضحاً إلا في دور المدنية ، فما يقوم من أبحاث حول الشخصية لا يوجد بالتالي إلا في الدور الأخير .

والحياة السياسية اليونانية كانت تؤذن بهذا أيضاً ، فبعد موقعة كيرونيا سنة ٣٣٨ ، فقد اليونانيون استقلالهم وفقدوا حريتهم الفردية ، وارتفعت بذلك الحواجز التي كانت تفصل فصلاً دقيقاً بين اليونانيين وبين المتبريرين أو الأجانب . ثم جاء الإسكندر ففتح أبواب الثقافة اليونانية للشرق ، وفتح بذلك أبواب الثقافة الشرقية لليونانيين ، فحدث عن هذا الامتزاج بين الثقافتين مزيج جديد هو ما يسمى باسم « الهلينية » . وهذا التزاوج بين الثقافة اليونانية والثقافة الشرقية حدث نوع مما يسميه اشينجلر باسم « التشكل الكاذب » . فقد تقابلت هنا حضارتان ، أو بالأحرى تقابلت حضارة واحدة قد بلغت أوجها ، مع حضارة أخرى أو ثقافة قد انحلت منذ زمن طويل ، ولم تبقى فيها إلا حياة ضئيلة . وحينئذ استطاعت الثقافة اليونانية في بادئ الأمر ، أن تفرض سلطانها : فبعد أن كان كانت الثقافة الشرقية قائمة ، انتصرت الثقافة اليونانية على الثقافة الشرقية . لكن - كما يحدث دائماً من امتزاج جنس أعلى بجنس أدنى - حدث فساد وانحطاط في مستوى الجنس الأعلى لحساب الجنس الأدنى . وهكذا حدث بالنسبة إلى الحضارة اليونانية : إذ غزتها الحضارة الشرقية بما فيها من تهويل وأمور تتصل بالخرافق والسحر ، وما فيها من أديان - بالمعنى السحري الصوفي - فخصعت الثقافة اليونانية لهذه العناصر الأجنبية السحرية ، ومن ثم أخذت في الاضمحلال حتى أتت على نهايتها . وهكذا كان الاسكندر الأكبر - بفتح بلاد الشرق - حنة شديدة على الروح اليونانية ، لأنه أدخل فيها عناصر شرقية ، فمسخ تفكير الحضارة اليونانية ووضعها في قوالب لا تتلاءم مطلقاً مع طبيعتها ، فكانت نتيجة هذا التغير في الوضع السياسي أن تحولت النظرة من الوجود ومن الفكر ، إلى السلوك والعمل . فلم يعد المفكر ينشد من وراء تفكيره أن يدرك مظاهر الوجود ، وأن يتبين ما فيه من قوى ، وأن يفسر ما تخضع له الطبيعة من قوانين ، وإنما أصبح كل هم - ما دام هذا كله لا يعنيه في شيء - أن يوجد لنفسه قواعد للسلوك . وللقصود بالسلوك هنا ، المعنى الضيق للكلمة ، أي سلوك الفرد بإزاء نفسه - إن صح هذا التعبير - بمعنى انعكاف الفرد على ذاته ، ومحاولة إيجاد طمأنينة سلبية بالنسبة إلى نفسه . لأنه لما كان قد فقد حريته في العالم الخارجي ، فقد راح ينشد نوعاً من الحرية في العالم الباطن ؛ ولما كان قد فقد استقلاله

الذي لقيه العلم في العصر الحديث ، إنما يقوم على أساس إدخال التجربة والملاحظة في كشف الحقائق العلمية ، أما التصورات وتحليلها فهي خطوة ثانوية تأتي بعد التجربة والملاحظة . ومرجع هذا كله من ناحية إلى فلسفة التصورات ، ومن ناحية أخرى إلى عدم إدراك التعارض بين الذات وبين الموضوع .

إلا أن هذا التعارض بين الذات والموضوع كان بطبعه غريباً عن الروح اليونانية ، لأن من خصائص هذه الروح القول بالانسجام بين العالم الخارجي والعالم الباطن ، وبين العالم الأكبر وبين العالم الأصغر ، فلم يكن من الممكن إذاً ، ما دام هذا في طبيعة الروح اليونانية أن يجد ما يخرجها عن هذا الوضع . ولهذا لم يكن مقدراً لهذا النقص أن يصلح بعد أرسطو . أما المنهج العلمي ، فقد كانت تعوزه الأجهزة التي يمكن بواسطتها أن تعين الظواهر تعيناً دقيقاً . ولم يكن من شأن الروح اليونانية أن تدخل صناعة فنية بالمعنى الحقيقي ، ولهذا لم يكن مقدراً لها كذلك أن تتج شيئاً ذا بال في الناحية العلمية ، أعني أن الذين تلو أرسطو ما كان لهم أن يزيدوا شيئاً يعتد به ، على ما فعله أرسطو ومن سبقه .

فهذان العيبان إذاً - ونعني بهما عدم إدراك التعارض بين الذات والموضوع ، مما أدى إلى عدم تحليل طبيعة المعرفة ، وبالتالي طبيعة الوجود ، تحليلاً دقيقاً ؛ ثم عدم إقامة البحث العلمي على أساس الملاحظة والتجربة - ، نقول إن هذين العيبين إذاً كان مقدراً لهما أن يظلا كذلك . فإذا كانت فلسفة التصورات قد وصلت عند أرسطو إلى أعلى درجة ، فلم يكن من المنتظر إذاً أن يقوم الفلاسفة الذين أتوا بعده بكشف جديد لا في الفلسفة العلمية ، ولا فلسفة الوجود ، ولا نظرية المعرفة . إنما كان عليهم أن يعنوا بدراسة مسألة لم تكن في الواقع بذات أهمية كبرى بالنسبة إلى دور الحضارة ، في الحضارة اليونانية ، ونعني بها مسألة الأخلاق . ويفهم من الأخلاق هنا ، الأخلاق الفردية ، أي المتعلقة بتحقيق السعادة للفرد أو للمجموع بوصفه مجموعة أفراد . فمثل هذه الفلسفة الأخلاقية التي تعتد بالفردية وتنشد الخلاص ، لا يمكن أن توجد بشكل واضح في دور الحضارة ، لأن الإنسان في هذا الدور لا يستطيع أن يميز تمييزاً كبيراً بين الحياة العملية الخارجية ، وبين الفكر والحياة الباطنة . ومثل هذا التمييز هو الأساس في كل بحث أخلاقي فردي ، لأن الشعور بالشخصية - وتقصد بالشخصية هنا الذات المفردة - لا يكون

هو الفضيلة الأخلاقية ! وهكذا نرى أنه حتى الذين عنوا بشيء من الطبيعيات ، قد جعلوا مركز الطبيعيات ثانوياً بالنسبة إلى مركز الأخلاق .

والخاصية الثانية - وهي انطباع الأخلاق بطابع جديد - نراها كذلك واضحة في هذه التيارات الثلاثة : فهذه الأخلاق الجديدة لم تكن أخلاقاً إيجابية - كما كانت الحال عند سقراط وأفلاطون وأرسطو من قبل - وإنما كانت أخلاقاً سلبية ، كل ما ترجوه أن تحقق للفرد شيئاً من الطمأنينة السلبية على صورة الأتركسيا عند الأبيقوريين ، وعلى صورة الخلو من الانفعال ( أو الأباتيا ) عند الرواقين ، ثم على صورة التوقف وتعليق الحكم والفعل عند الشكاك . وتمتاز هذه الطمأنينة السلبية أولاً بمرجع الإنسان إلى نفسه وانعكافه على ذاته ، وعدم عنايته بشيء يتصل بالخارج وبالكون الأكبر . وتمتاز ثانياً بأنها تنشأ من الخلو من الانفعال وصفاء النفس من كل تأثيرات وجدانية ؛ كما تمتاز ثالثاً بأنها سلبية ، أقرب ما تكون إلى الصوفية الأخلاقية . وهذه الصفات نجدها واضحة كل الوضوح في هذه التيارات الثلاثة جميعاً .

هذا فيما يتصل بفقدان اليونانيين استقلالهم السياسي . وأما فيما يتصل بنفوذ الأفكار والثقافة الشرقية إلى الحضارة اليونانية ، فإننا نجد أن هذا قد أنتج آثاراً عدة في التفكير الفلسفي . فقد امتاز هذا التفكير أولاً بميل إلى الدين ، وليس المقصود بالدين هنا ، الدين كما كان يفهم من قبل في دور الحضارة اليونانية ، وإنما الدين هنا هو الأخلاق ( اليونانية ) منظوراً إليها من ناحية ضيقة ، بمعنى أن الدين هو وسيلة الخلاص . وفكرة الخلاص هذه من الافكار التي تلعب الدور الأكبر في الدين على النحو الجديد ، ذلك لأن الدين بالمعنى القديم قد فقد ، لأن الدور الذي نحن بصدده هو دور الإلحاد الملازم دائماً لدور المدنية . فلم يعد واحد من الفلاسفة يؤمن بالألهة القدماء أو يؤمن بقوة عليا هي المثل الأعلى الذي يضع فيه الإنسان كل آماله . وإنما أصبح هؤلاء - تبعاً لنظريتهم الأخلاقية - ينظرون إلى الله بحسبانه وسيلة أو بوصفه محققاً للخلاص الأخلاقي ، أعني أن الدين قد طبع بطابع أخلاقي صرف : وكان طبعاً من أجل هذا أن نجد الأفكار الشرقية المتصلة بالمتوسطات مجالاً واسعاً في تصورات هذا العصر الدينية . وعلى هذا بدأ الاعتراف بوجود هوة بين المتناهي واللامتناهي يظهر .

السياسي ، فقد انصرف عن السياسة انصرافاً تاماً ، وأصبح يفرق بين السياسية والأخلاق ، فلم تعد السياسة واجبات المواطن وحقوقه . وإنما أصبحت مجموعة القواعد التي يصل الإنسان باتباعها إلى السعادة الفردية ؛ والسعادة هنا إنما هي الاطمئنان الشخصي .

وبذهاب الروح القومية ، وفقدان الاستقلال السياسي ، لم يعد للمفكر أو الفيلسوف ينظر إلى الوطن بحسبانه الوحدة الأولى التي يتجه إليها كل تفكيره ، ولم يعد يفرق بالتالي بين نفسه وبين الأجانب ، أي بين اليوناني والمصري ، لكي يحافظ بهذا على الأبعاد - على حد تعبير نيتشه ؛ وإنما أصبح المفكر اليوناني - بعد أن فقد كل شخصيته - ينظر إلى جميع الناس بحسباتهم إخواناً ومواطنين عالمين - إن جاز مثل هذا التناقض في الحدود - أي أن اليوناني قد أصبح يعد نفسه غير مرتبط بمدينة ، وبالتالي خاضعاً لقوة خارجية لا يتبين مداها ، وهذا معناه أنه قد فقد بوجه عام كل شخصيته السياسية ولم يعد من الممكن أن يعنى بالسياسة بمعناها الحقيقي ، لأن السياسة بمعناها الدقيق لا يمكن أن يشتغل بها إلا من عرف الحرية واستطاع أن يوفق بين الأخلاق والسياسة ، وبالتالي أن يجعل الاثنين شيئاً واحداً ، فمن هنا نرى أن الاتجاه في التفكير قد انصرف من النظر إلى العمل أولاً ، ثم إن هذا العمل قد امتاز بصفة جديدة وطابع خاص لم يكن معروفاً من قبل . وهاتان الخاصيتان نجدتهما واضحتين كل الوضوح في المذاهب الفلسفية التي نشأت بعد أرسطو ، من رواقية وأبيقورية وشككية لأن هذه المدارس كلها قد انصرفت عن النظر الفلسفي الصرف وعن التفكير المجرد العاري عن العمل ، إلى الأخلاق العملية والسلوك .

وهذا ظاهر جداً بالنسبة إلى الأبيقوريين والشكاك . فالأبيقوريون لم يمنوا عناية صحيحة بالمسائل الطبيعية ونظرية المعرفة ، والشكاك كانوا أولى الناس بالآلا يعنوا بشيء من هذا ، نظراً إلى أنهم كانوا يشكون في إمكان المعرفة المجردة ، ويقولون إن مقياس المعرفة هو العمل والتحقق في الواقع ، فكانوا تبعاً لهذا لا يقيمون أي وزن للتفكير النظري بمعناه الصحيح . أما الرواقيون ، فلتن عنوا بشيء من الطبيعيات ومن نظرية المعرفة وخصوصاً المنطق ، فما كان ذلك إلا مقدمة ووسيلة للغاية الأولى وهي الفضيلة والأخلاق العملية ، لأن المعرفة الطبيعية أو المنطقية كانت عند الرواقين دائماً وسيلة إلى إيجاد الفضيلة الأخلاقية ، حتى إن المعيار في المنطق قد أصبح

## ١٩٤

«السلوى بالفلسفة». فيميز فلا بين علم الله السابق، وهو لا يمكن أن يقال عنه إنه سبب إرادتنا، من إرادة الله. وتنبؤ الله تنبؤاً دقيقاً بأن يوداس الاسخريوطي سيخون المسيح ليس غدرًا ليوداس. لكن فلا لا يخوض في مسألة: هل إرادة الله، ولا سبيل إلى إنكارها، تقضي على حرية اختيار الإنسان. إن مشيئة الله لا يعرفها الناس ولا الملائكة؛ ونحن نستند إلى الإيمان، لا إلى احتمالات البراهين العقلية.

والكتاب الثالث الجدير بالذكر هو كتابه: «الجدل» *Dialectica*، وهو كتاب مهم من حيث انه هاجم منطق أرسطو. وقد طبع بعد وفاة فلا بنصف قرن. فهو يطالب بالتخلص من التشقيقات الجوفاء في المنطق والمشاحات اللفظية العابثة. ويقول: «دعنا نسلك مسلكاً أبسط وأكثر اتفاقاً مع الحس الطبيعي والاستعمال الشائع». إن علي الفلسفة والديالكتيك ألا ينحرفا عن أكثر طرق الكلام شيعاً وبساطة. فمثلاً بدلاً من استعمال كلمة *entitas* نستعمل كلمة *res* (= شيء). ولا معنى لقول أرسطو إن موضوع ما بعد الطبيعة هو «الموجود بما هو موجود» لأن هذا يوهم أن الموجود يمكن ألا يكون موجوداً. واختار مقولات أرسطو العشر إلى اثنتين فقط هما: الكيف، والفعل. وانتقد كثيراً من الفروق التي وضعها المدرسيون في العصور الوسطى مثل: عيني ومجرد، هيولى وصورة، إلخ.

وفي كتابه «أناقات اللغة اللاتينية» يحلل استعمال كثير من الألفاظ اللاتينية.

## مجموع مؤلفاته

نشر Eugenio Garin مجموع مؤلفاته مع مقدمة، في تورينو سنة ١٩٦٢.

## مراجع

- Girolamo Maucini: Vita di Lorenzo Valla. Firenze, 1891.

- F. Gaeta: Lorenzo Valla, Filologia e storia nell'umanesimo italiano, 1955.

- J. Sandys: History of Classical Scholarship from the Sixth Century B. C. to the End of the Middle Ages, Vol. II, pp. 66-70, 1908.

## Lorenzo Valla

من رجال النزعة الانسانية في ايطاليا في عصر النهضة.

ولد حوالي سنة ١٤٠٧، وتوفي سنة ١٤٥٧ في روما.

كان ذا نزعة عقلية جريئة، كانت إرهافاً بكثير من الآراء التي ظهرت في الفكر الأوربي فيما بعد: في الدين، والمنطق، والقانون، وتطبيق النقد في الفلسفة والدراسات الكلاسيكية والتاريخية.

وقد تعلم في روما، ثم في فرنسه. وقام بالتدريس في أماكن كثيرة في ايطاليا. ووجد في نابلي في الملك ألفونس الخامس، ملك أرغون وصقلية حامياً وراعياً له، واتخذته كاتباً له، وكلفه بمفاوضات سياسية وهو الذي أنقله من برائن محاكم التفتيش. وفي سنة ١٤٤٨ عينه نقولاً الخامس، البابا الذي اعتلى عرش البابوية في سنة ١٤٤٨، سكرتيراً رسولياً، وجنّد تعيينه البابا الذي خلصه.

وأول كُتبه المعروفة لنا هو حوار «في اللذة» *De voluptate* (وقد اشتهر بهذا الاسم وإن كان المؤلف عنوانه بعنوان: «في الخير الحقيقي») وفيه يبين آراء الرواقيين، والأبيقوريين والمسيحيين. وفيه يبين أن الأخلاق المسيحية أسمى من الأخلاق الرواقية والأخلاق الأبيقورية، لكنه في نفس الوقت يدافع عن آراء الأبيقوريين التي أساء الناس فهمها، وأبدى إعجاباً وتعاطفاً مع مذهب اللذة الأبيقوري. والمحاوّر الممثل للرواقية يدافع عن فكرة الشرف أو الأمانة *honestas* أو الفضيلة عند الرواقيين. والمحاوّر الأبيقوري يجيبه بشكل مسهب مدافعاً عن الطبيعة وعن المتعة ويقول إن المتعة هي اللذة. واللذة سيدة بين وصيقاتها، أما الفضيلة فهي مومس بين زوجات. ويدخل المحاوّر الثالث، الممثل للأخلاق المسيحية، في الحوار وينتقد رأي سابقه: الرواقي والأبيقوري، ويقرر أن المسيحي الحقيقي ينبغي عليه أن يزدري أعراض هذه الحياة الدنيا وأن يركّز على المسرات التي تنتظره في السماء، ولهذا فإن اللذات التي ينبغي على المسيحي أن ينشدها ليست لذات هذه الدنيا.

وفي أثناء وجوده في بلاط ألفونسو الخامس في نابلي (١٤٣٥ - ١٤٤٨) ألف فلا محاوراً بعنوان «في حرية الإرادة»، فيها يناقش آراء: بؤتيوس في حرية الإرادة التي عرضها في كتابه

## فلوطرخس

## Plutarchus

مفكر ومؤرخ وفلسفة ومؤرخ سياسي يوناني، ولد في خيرونيه Cheronia (بإقليم بوثيا في اليونان) حوالي سنة ٤٦ بعد الميلاد، وتوفي حوالي سنة ١٢٧ بعد الميلاد.

تعلم الفلسفة على يد أمونيوس في أثينا وصار من أتباع الأفلاطونية. وفي الاسكندرية اتقن مناهج الفيلولوجيا. وزار روما مرتين على الأقل، لكنه أمضى معظم حياته في مسقط رأسه، خيرونيه، حيث تولى بعض الوظائف المحلية. وحوالي سنة ٩٥ بعد الميلاد صار كاهناً مدى الحياة في معبد دلف.

ويحتوي ثبث المؤلفات المنسوبة إليه على نحو من مائتي كتاب أو رسالة، لكن البعض منها منحول، كما أنه فقدت بعض مؤلفاته. وتأتي أهمية بعض مؤلفاته من كونها حفظت مراداً ماخوذة عن مؤلفات مفقودة لكتاب قديما. ومؤلفاته كلها باليونانية.

أما من الناحية الفلسفية والدينية فقد كان فلوطرخس خصماً للمخرافات والأساطير وتولى الدفاع عن العبادات الوثنية بتأويلها تأويلاً فلسفياً وكان خصماً للرواقية وللأبيقورية، على السواء. والنزعة الغالبة عليه هي الأفلاطونية، لكنه مع ذلك تأثر ببعض آراء أرسطو والفيثاغوريين. واهتم بمشكلة الشر، فوجد الأصل فيه راجعاً إلى المادة. وأقر بوجود الجن وبتدخلهم في شؤون العالم والناس.

وهنا من مؤلفاته كتيبة التالية في الفلسفة وتاريخها:

- ١ - «جني سقراط» De genio Socrate.
- ٢ - «الآراء الطبيعية التي يرضى بها الفلاسفة» De Placitis philosophorum وقد ترجمه إلى العربية قسطنطين لوقا، ونشرناه ضمن كتابنا: «في النفس» لأرسطو، ويعد من الكتب المنحولة على فلوطرخس.
- ٣ - «المسائل الأفلاطونية»
- ٤ - «مقارقات الرواقيين» De Stoicorum repugnantii.
- ٥ - «في الفضيلة الأخلاقية».
- ٦ - «في الفضيلة والرذيلة».
- ٧ - «في أنه يمكن تعلم الفضيلة».
- ٨ - «مأدبة الحكماء السبعة»
- ٩ - «ولا يمكن المرء أن يعيش سعيداً إذا اتبع مذهب

## أيقور

١٠ - «في العلاج من العصب».

## نشرات ومراجع

طبع مجموع الرسائل الأخلاقية تحت عنوان «أخلاقيات» Moralia في باريس سنة ١٨٤١ (الأصل اليوناني مع ترجمة لاتينية)؛ كما طبع الأصل اليوناني في مجموعة توينر Teubner في ليبسك في ٦ مجلدات كما طبع مع ترجمة انجليزية في مجموعة Loeb Classical Library في لندن.

- R.M. Jones: The Platonism of Plutarch. Menasha, Wisconsin, 1916.

- D. Bussi: Il pensiero morale, pedagogico, religioso di Plutarco. Firenze, 1927.

- K. Ziegler: «P. von Chaironea», in Pauly-Wissowa, XXI, Coll. 636-962.

## فن

## John Venn

منطقي انجليزي، ولد في دريبول Drypool (في إقليم Hull) في سنة ١٨٣٤، وتوفي في سنة ١٩٢٣. تعلم في كلية Casius في كمبرج من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٧. وصار زميلاً وبقي في هذه الكلية طوال ٦٦ سنة، إلى يوم وفاته، وكان رئيساً لها في العشرين سنة الأخيرة من إقامته بها. ورأس كاهناً في سنة ١٨٥٨ وعمل كاهناً في نواح قريبة من لندن. لكنه عاد إلى كمبرج مدرساً في كلية Casius في سنة ١٨٦٢، وقام بتدريس العلوم الأخلاقية. وتزوج في سنة ١٨٦٧. لكنه تأثر بعلاقاته مع هنري سدجوك ولأدريين آخرين في جامعة كمبرج، كما تأثر بكتابات أوجستيس دي مورجن، ويول، وأوستن Austin وجون استورت مل، فتحول اهتمامه من اللاهوت إلى المنطق. وفي سنة ١٨٨٣ تخلى عن وظيفته الدينية، لكنه لم ينسحب نهائياً من الكنيسة.

وأهم مؤلفاته هي:

١ - «منطق الحظ» The Logic of chance، لندن سنة

١٨٦٦؛

وقام بالدفاع عن ظاهريات هسرل ضد هجوم أتشار الكنتية الجديدة، وذلك في مقال نشره في سنة ١٩٣٣ بعنوان: «فلسفة الظاهريات عند هسرل في مواجهة النقد المعاصر».

ثم أخذ يشق طريقه الخاص: فعني بتحليل فكرة الصورة، وذلك في بحث بعنوان: «الامتثال والصورة» (سنة ١٩٣٠)، ثم في تقفه نظرية أفلاطون في المحاكاة وموضوع المرأة، وذلك في بحث بعنوان: «اللعب بوصفه رمزاً للعالم» (سنة ١٩٦٠).

وأصدر بحثاً عن «فلسفة نيتشه» (سنة ١٩٦٠)، وفيه قرر أن محور فلسفة نيتشه هو «التقابل بين الوجود والضرورة» وحول هذا المحور تدور الموضوعات الأساسية في فكر نيتشه: موضوع المعادلة الانطولوجية الأساسية وهي: الموجود = القيمة، وموضوع إرادة القوة، وموضوع العود الأبدي، وموضوع موت الله، وموضوع الإنسان الأعلى.

وأشرف على سمينار عن هيرقليطس، بحضور هيدجر، خلال شتاء سنة ١٩٦٦ - سنة ١٩٦٧ في جامعة فرايبورج. وقد ميز هيدجر بين الطريق الذي اتخذته هو، والطريق الذي اتخذته فك في تفسير هيرقليطس، فقال مخاطباً فك: «إن طريقك في تفسير هيرقليطس يبدأ من النار ويمضي إلى اللوغوس، أما الطريق الذي اتبعه أنا فيبدأ من اللوغوس ليمضي إلى النار».

(«هيرقليطس» ترجمة فرنسية ص ١٥٧، باريس، جاليمار، سنة ١٩٧٣).

وله في الظاهريات وهسرل دراستان أخريان: دراسة في «التحليل القصدي» (نشر في مجموع بعنوان: «المشاكل الحالية في الظاهريات»، سنة ١٩٥٢ عند الناشر دكلية دي براوفرن)، ودراسة بعنوان: «فلسفة هسرل الأخيرة في فترة فرايبورج» [نشر في كتاب: «ادموند هسرل (١٨٥٩ - ١٩٥٩)»].

ونذكر من مؤلفاته الأخرى:

- «الميتافيزيقا والموت»، اشتوتغرت، سنة ١٩٦٩ ويحتوي على محاضراته في الفصل الدراسي الثاني سنة ١٩٦٤.
- «المكان، والزمان، والحركة»
- «الوجود، والحقيقة، والعالم»
- «الكل واللاشيء».

- ٢- «المنطق الرمزي» Symbolic Logic، لندن سنة ١٨٨١؛
- ٣- «مبادئ المنطق التجريبي أو الاستقرائي» The Principles of Empirical or inductive Logic، لندن سنة ١٨٨٩.

وإسهامه الرئيسي هو في المنطق ومناهج البحث العلمي. وفي كليهما تابع جورج بول، وجون استورت مل، وقد دافع عن كليهما ضد هجوم استانلي جفونز من ناحية، وهجوم المناطقة المثاليين من ناحية أخرى (برانلي، بوزنكيت). ويذكر له خصوصاً ابتكاره لأشكال هندسية للتعبير بها عن القضايا، ومنها ما يعرف بشكل فن (راجع كتابنا: «المنطق الصوري والرياضي»).

وفي «منطق الخط» يقرر أن احتمالية الأحداث لا تقوم في مقدار الاعتقاد الذي من المعقول أن نوليه للأحداث، بل في الوفرة الإحصائية لحلوئها في الصنف الجنسي للأحداث التي تنسب إليها. ومعنى آخر يقرر أن العالم يشتمل على سلسلة من الأحداث المتشابهة التي يمتزج فيها عدم الاطراد في تلك الخواص مع الانتظام «في نهاية المطاف». فالقول باحتمال نمط ما من الأحداث مرده إلى القول بوفرة حلوث تميل إليها هذه الأحداث. ولهذا فإن هذا الاحتمال ليس أمراً ذاتياً، بل هو أمر موضوعي تجريبي.

### مراجع

- J.A. Passmore: A Hundred Years of philosophy. London, 1957, pp. 134- 6.
- J.M. Keynes: Treatise on Probability. London, 1921.

فك

### Eugen Fink

من أتباع ظاهريات هسرل، ألماني.

ولد في كوتستانس في سنة ١٩٠٥، وتوفي في يوليو سنة ١٩٧٥.

تلمذ على هسرل في جامعة فرايبورج - ان - بريسجاو (جنوبي ألمانيا)، وصار مساعداً له. وقام بالتدريس في جامعة كيلن، ثم عاد أستاذاً في جامعة فرايبورج - ان - بريسجاو.



وعنده أن «الواقع هو التحقيق الذاتي للقيمة المطلقة» والميتافيزيقا ينبغي ألا تقتصر على الفروض المستمدة من نتائج العلم، بل عليها أن تضع فروضاً من المبادئ الكلية للواقع وأن تتلدى إلى المطلق.

ومن مؤلفاته: «نظرية المعرفة عند كنت محللة وفقاً لمبادئها الأساسية» (ليبتسك، سنة ١٨٧٩)، «حول إمكان الميتافيزيقا» [مهرج وليبتسك سنة ١٨٨٤]، «التجربة والفكر» تأسيس نقدي لنظرية المعرفة (ليبتسك، سنة ١٨٨٦)؛ «مشاكل عصرية في علم الجمال» (منشن، سنة ١٨٩٥)؛ «علم جمال ما هو مأساوي» (منشن، سنة ١٩٠٠)؛ «منهج علم الجمال، في ٣ أجزاء» (منشن، ١٩٠٥-١٩١٤).

#### مراجع

- Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellungen, I, Leipzig, 1921.
- O. Hallesby: Joh. Volkelt's Erkenntnistheorie. Erlangen, 1969.

#### فورليندر

##### Karl Vorländer

مؤرخ للفلسفة ألماني. ولد في ماربورج في ٢ يناير سنة ١٨٦٠، وتوفي في مونستر في ١٢/٦/١٩٢٨. وكان أستاذاً للفلسفة في مونستر منذ سنة ١٩١٩.

وكان اشتراكياً. ولهذا حاول إثبات وجود ارتباط ضروري بين كنت - وكان هو ينزع منزع الكنتية الجديدة - وبين كارل ماركس. وسعى إلى انتماء الاشتراكية الماركسية بأخلاق مستمدة من فلسفة كنت، إذ في ذلك الأساس لأخلاق اشتراكية بالمعنى العلمي.

ومن أهم مؤلفاته:

- «إماتويل كنت»، في جزئين، ليبتسك، سنة ١٩٢٤.
- «كارل ماركس، ليبتسك، سنة ١٩٢٩.
- «تاريخ الفلسفة»، في مجلدين، ليبتسك، سنة ١٩٠٣.

#### مراجع

- Claude Roëls: «Eugen Fink (1905- 1975)», in Les Etudes Philosophiques, Janvier- Mars 1976, pp. 117-118.

#### فوجت

##### Karl Vogt

عالم حيوان ألماني، ولد في جيسن في ٥ يوليو سنة ١٨١٧، وتوفي في جنيف في ٥ مايو سنة ١٨٩٥ كان من غلاة اللادعية، وهو القائل إن الملح يفرز الفكر، كما يفرز الكبد الصفراء. ووقع في مسجلة حادة مع R. Wagner. فجنر مسجلها في كتابه «إيمان الفحام والعلم. مسجلة ضد ر. فجنر» (جيسن، سنة ١٨٥٤). ومن مؤلفاته الأخرى: «رسائل فيسيولوجية» (اشتوتجرت سنة ١٨٤٥ - سنة ١٨٤٧)؛ «صور من حياة الحيوان»، فرنكفورت سنة ١٨٥٢؛ «محاضرات في الإنسان»، جيسن سنة ١٨٦٣؛ «من حياتي»، اشتوتجرت سنة ١٨٩٦.

#### مراجع

- J. Jang: Karl Vogts Weltanschauung. Paderborn, 1915.
- H. Mistelli: Karl Vogt. Zürich, 1938.

#### فولكلت

##### Johannes Volkelt

فيلسوف ألماني ولد في Biala-Bielitz (في إقليم غاليسيا) في ٢١ يوليو سنة ١٨٤٨، وتوفي في ليبتسك في ٩ مايو سنة ١٩٣٠.

تعلم في فينا وينا وليبتسك، وصار مدرساً للفلسفة في جامعة فينا في سنة ١٨٧٦، ثم أستاذاً في جامعة بازل (١٨٧٩ - ٨٩)، وفورتسبورج (١٨٨٩ - ٩٤)، ثم في ليبتسك حتى سنة ١٩٢١.

تأثر بهيجل وأدوردفون هرتمن في الميتافيزيقا، وبشوبنهاور والروميتيك الألمان في علم الجمال، وبكنت في نظرية المعرفة.



## فورييه

## Charles Fourier

## مصلح اجتماعي فرنسي

ولد فرانسوا - ماري - شارل فورييه في مدينة بيزانسون (في شرقي فرنسا قرب سويسرة) في ٧ أبريل سنة ١٧٧٢، وكان أبوه تاجراً في الأجواخ والعطور، واختير في سنة ١٧٧٦ رئيساً للمحكمة التجارية في بيزانسون، وتوفي هذا الوالد في سنة ١٧٨١

وتعلم شارل في مدرسة بيزانسون الثانوية، وبعد ذلك أودع عند تاجر في ليون للتمرين على الأعمال التجارية، وواصل التمرين في باريس وروان. وفي إثر ذلك عين مستخدماً لدى تاجر كبير في ليون في سنة ١٧٩١. وهياً له عمله فرصة الأسفار في شتى أنحاء فرنسا: فزار مرسلية ويوردو، وخرج فرنسا: فزار هولنده وألمانيا. وفي سنة ١٧٩٣ وقد بلغ سن الرشد (٢١ عاماً) عاد إلى بيزانسون ليستلم ميراثه من أبيه ومقداره أربعون ألف فرنك، وكان أبوه قد نص في وصيته على أن يتسلم ابنه هذا المبلغ بشرط أن يعمل في التجارة. وبعد استلامه ميراثه سافر إلى ليون وأراد أن يشتغل بتجارة خاصة به. فاشترى بالمبلغ قطناً وأرزاً وسكراً ونياً. وكان في ليون في ذلك الوقت اضطراب سياسي شديد. وكانت الطبقة الوسطى تنسب إلى حزب الجيرونديين، ولها السيادة على المدينة، بينما كان الحزب الآخر المتطرف ضعيفاً، فقامت حكومة «الميثاق» Convention المتحكمة آنذاك في باريس بمحاصرة المدينة، وصادر أهل ليون المتاجر في المدينة، ومنها متجر فورييه، للاستعانة بالبيضائع في الدفاع وتموين المستشفيات والمحاربين المحاصرين. وكان هذا هو سبب خراب فورييه وإفلاسه، بحسب ما يقوله مترجم حياته Pellarin وهناك رواية أخرى تقول إن السبب في ضياع معظم ثروة فورييه هو غرق سفينة في ليفورنو كانت محملة ببيضائع لحسابه، وذلك في سنة ١٧٩٩.

ومهما يكن السبب الحقيقي في خرابه، فإنه لما دخلت قوات حكومة «الميثاق» Convention مدينة ليون، صار فورييه في خطر أكيد لأنه كان متهاً بأن ميوله مع أعداء الثورة الفرنسية. ولهذا السبب تكونت لدى فورييه كراهية شديدة عميقة للثورات وأعمال العنف والإرهاب وأصبح يؤمن إيماناً جازماً بأنه لا سبيل إلى «تغيير الحياة» و«إصلاح المجتمع» إلا

## بالاقتناع والبرهان العلمي.

وانتقاء النجاة فر إلى بيزانسون Besançon مسقط رأسه، وقام بحمايته زوج أخته وكان رئيساً للجنة الثورية في بيزانسون. واضطر فورييه إلى الانخراط في سلك الجندية في الفرقة الثامنة للفرسان المطاردين Chasseurs à cheval، وفي في الخدمة العسكرية بضعة أشهر سيتذكرها حين يصف الأعمال الكبيرة للجيش الصناعي في مدينته الفاضلة، الفالانستير Phalanstère.

ولما سُرح من الجندية بعد أشهر قليلة بسبب اعتلال صحته، وضع مشروعاً لتغيير المصالح المالية في الجيش (وكان الكثيرون قد كوّنوا ثروات طائلة على حسابها). وقدم هذا المشروع إلى حكومة الإدارة Directoire، لكن مشروعه لم يُلغت إليه.

وفي سنة ١٧٩٦ عمل فورييه مندوباً لبقال في مرسلية، كلفه بمهمة غريبة هي أن يلقي في البحر شحنة من الأرز، مضارباً على حلول أزمة غذائية. وفي سنة ١٨٠٠ نراه يعمل سمساراً في ليون Lyon. وبدأت حينئذ شهرته، لأنه كان يكتب مقالات في جريدة Bulletin de Lyon. وفي ١٧ ديسمبر سنة ١٨٠٣ تكهن في إحدى المقالات بحلوث اضطرابات سياسية كبيرة وبقامة تحالف ثلاثي أوروبي من فرنسا والنمسا وروسيا، من الممكن أن يتهي بحرب بين فرنسا وروسيا.

وفي هذه الفترة بدأ فورييه يخطط لمشروعه الإصلاحية الكبير. فأرسل في ٤ نيفوز nivose سنة ١٢ (بتقويم الثورة الفرنسية) رسالة مطوّلة إلى وزير العدل، عُرفت باسم «رسالة إلى القاضي الأكبر» عرّض فيه الخطوط الجوهرية لمشروعه الطوباوي الفالانستير.

وقد صلق ميشليه Michelet حين قال إن «ليون Lyon هي التي ضيعت فورييه». ذلك أن مدينة ليون كانت في ذلك الوقت تعج بالعمال الفقراء البائسين إلى أقصى حد فقد كان أجر العامل اليومي آنذاك لا يزيد عن خمسة عشر سنتياً، بينما كان الكيلو من الخبز يساوي عشرة سنتيمات. وفي نفس الوقت كثرت فيها الجمعيات المتقاوتة في السرية: من دعاة الإصلاح، والثيوصوفيين و«الإشراقين» illuministes من كل نوع. والناس «التمدينون» على حد تعبير فورييه: «يزدادون غنى بالأوهام كلما زاد فقرهم في القدرة». إن الشقاء

الكونيات إلى نقد المجتمعات المتمدنية، إلى التكهنات الاشتراكية، إلى النظريات الاقتصادية، أو تنبؤات غريبة عن تغيرات شديدة في أحوال الجوف في مختلف الأصقاع، وعن خلق أنواع جديدة من الحيوان، كل هذا إلى جانب الإعلان عن اصلاحات جنسية في المجتمعات البشرية ووصف رؤى طوباوية لما سيجري في «المدن الخيالية المثالية» التي سماها باسم: الفلنستيرات Phalanstères.

وتقوم آراء فورييه في الاصلاح على أساس نقده للمدنية فقد رأى في المدنية نقائص عديدة وعنيفة، النزاع بين الجنسين: فالمرأة ضحية، ولكنها بدورها تنقم لنفسها من الرجل بالكذب وعدم الأمانة الزوجية مما يولد ألواناً جديدة من الاضطرابات في حياة الإنسان؛ والنزاع بين الآباء والأبناء وعلى وجه العموم: النزاع بين الأجيال مما يولد منازعات وانفعالات، وشهوات: فالشباب يطلبون الغرام، والرجال يطلبون المجد، الأولون تحركهم العواطف الغرامية، والآخرون تحركهم المطمح والمطامع. والرجال يريدون فرض سلطانهم على الشباب، فيحاول هؤلاء الانتقام عن طريق التمرد والثورة والعنف.

وفضل فورييه هو في محاولة دراسة «مغايرة» *aliénation* الإنسان من كل النواحي في المدنية: خصوصاً في النواحي العاطفية، والنواحي الاقتصادية. ويتساءل فورييه: كيف يمكن التخلص من تناقضات هذه المدنية؟ وكيف يمكن وضع حد لهذه الآلام وهذه الحرب الضروس المستمرة بين الفقراء والأغنياء، بين الشباب والشيوخ، بين الآباء والأبناء، بين النساء والرجال؟

ليس هناك إلا أحد حلين: الحل الذي يقترحه الأخلاقيون؛ والحل الذي يقترحه العلم الديني والاجتماعي الذي أسسه (أو خلقه) فورييه. فالأخلاقيون يطالبوننا بكبت الوجدانات وضبط الشهوات ابتغاء علم الإصرار بالغير، ويطالبوننا بالتضحية بالذات في سبيل الآخرين، وبلحتمال الألم بدلاً من إحداث الألم في الآخرين. وهم يهدفون من هذا إلى إقرار السلام بين الناس. لكن ليس من المفارقة أن نطلب السلام بين الناس عن طريق حرقنا لأنفسنا؟! إن الأخلاق - هكذا يقول فورييه - ليست إلا «عنفاً مزوقاً» *une violence fardée* والقيمة التي نعزوها إلى الأخلاق ليست إلا إقراراً بأننا لم نستطع حتى الآن أن نحدث الانسجام بين الوجدانات. ويرد فورييه على اتهام الأخلاقيين له بالطوباوية بأن يرده عليهم

الاجتماعي الذي ولده التقدم الصناعي في مدينة ليون قد دفع البائسين والمحرومين إلى نشدان السلوى في التهاويل الثيوصوفية والأحلام الطوباوية.

ويقترض بعض الباحثين أن بعض هذه الجمعيات السرية أو شبه السرية كانت تضم فساقاً *Libertins* يمارسون حرية الجنس. ويفسرون بذلك كون فورييه، في «فلنستيره» يدعو إلى الحرية الجنسية، وأنه عرض مثل هذه الآراء في كتابه «دنيا الغرام الجديدة».

وفي سنة ١٨٠٨ نشر فورييه كتاباً ضخماً بغير ذكر اسم مؤلفه والتمويه في مكان طبعه (إذ ورد على الغلاف، ليبستك، سنة ١٨٠٨) ويقع في ٤٨٥ صفحة (من قطع الثمن) - عنوانه: «نظرية الحركات الأربع والمصائر العامة». وهو أول كتاب كبير يؤلفه ويعرض فيه مذهبه بالإسهاب والتفصيل. بيد أن هذا الكتاب الغريب لم يحظ بأي نجاح.

وإبان الأيام المائة (وهي الفترة التي عاد فيها نابليون بعد نفيه إلى البنا إلى هزيمته النهائية في ووترلو - الفترة من أول مارس سنة ١٨١٥ إلى ٢٢ يونيو سنة ١٨١٥) كان فورييه موظفاً صغيراً في عمدة ليون.

وخلال السنوات الأولى من إعادة الملكية (ابتداء من سنة ١٨١٥)، كان فورييه نشطاً في الانتاج العقلي. فأنتم تحرير كتابه «البحث في التجمع الأهلي الزراعي» الذي سينشره بعد ذلك في سنة ١٨٢٢ في بيزانسون، وسيعيد طبعه في سنة ١٨٣٤ تحت عنوان جديد هو: «نظرية الوحدة الكونية».

وفي سنة ١٨٢٩ أصدر كتاباً آخر بعنوان: «العالم الجديد الصناعي والجماعي» *le nouveau monde industriel et sociétaire*. وإبتداء من سنة ١٨٣٠ وثق صلته مع أتباع سان سيمون؛ بيد أنه كان يكره فيهم «جهلوانياتهم الكهنوتية» وما لبث بعض أنصاره أن أحدثوا انشقاقاً داخل الحركة السان سيمونية. ويفضل هؤلاء التلاميذ حظي فورييه في أخريات عمره ببعض الشهرة. وتوفي فورييه في ٩ أكتوبر سنة ١٨٣٧.

### آراؤه الفلسفية

مؤلفات فورييه - إلى جانب غرابة عنواناتها - غريبة التصنيف: فهي سبئة التأليف، حافلة بالتكرار، رديئة العبارة، مشوشة الموضوعات: يتوالى فيها الكلام من

٤ - ويفضّل التفاوت في الثروات لأنه حافظ على المزيد من الانتاج ولتحسين لنوعه، فهذا أفضل من المساواة في الفقر. لكنه في الوقت نفسه يدعو إلى تأمين حد أدنى من مستوى المعيشة لكل الناس على السواء.

٥ - ويشجع على بقاء حافظ الربح، إشباعاً لشهوة الطموح عند الإنسان، ودافعاً لزيادة الإنتاج وتحسينه. ويجب ضبط عملية الربح على نحو يؤدي إلى زوال التنازع بين المصالح المتباينة (للمستهلكين وللمستهلكين، لأرباب العمل والعمال). فمثلاً الأطباء في فلنستير يتقاضون نسبة مئوية من دخل الفلنستير، وتزايد هذه النسبة بقدر ما يقل عدد المرضى، نتيجة لتطبيق الطب الوقائي.

ويكفي هذا بياناً حاسماً لكون مذهب فوريه يختلف اختلافاً تاماً عن الماركسية وعن الاشتراكية بعامة.

#### تنظيم الفلنستيريات:

اشتهر فوريه بأنه الداعي إلى تقسيم المجتمع إلى تجمعات مستقلة أطلق عليها اسم Phalanstères. وكلمة فلنستير - وقد نحتها فوريه من الكلمتين: Phalange = تجمع، جماعة + monastère = دير - تدل على الوحدة الاجتماعية التي سيتألف منها المجتمع الجديد الذي يتبادى به.

فقد رأى أن «الدولة» مفهوم واسع جداً ومؤسساتها سرعان ما تتخذ سلطاناتاً هائلةً مجهول الهوية خالياً من الإنسانية.

ومن ناحية أخرى وجد أن الأسرة خلية اجتماعية ضيقة جداً من شأنها أن تولد العصبية والحزازات، وفي الوقت نفسه ليس لها من السعة والموارد ما يكفل لها المعاش وحماية أبنائها ضد الأخطار الكبيرة التي تتعرض لها.

لهذا رأى أن من الواجب تصور خلية اجتماعية أوسع من الأسرة وأضيق من الدولة، وهذه الجماعة هي التي سماها phalange (= تجمع). وقام فوريه بحسابات علمية دقيقة - لم يكشف لنا عن سرّها! - بموجبها قرر أن كل «فالانج» أو «تجمع» يجب أن يتألف من ١٦٠٠ فرد تقريباً، وهذا العدد قد تحدد بحسب المهنة وبعض الخصائص الناجمة عن التراكم الوجدانية التي تؤلف الطابع الأصلي لكل فرد!

والفكرة الأساسية في مشروعه هذا هي إمكان إشباع كل الأنواق حتى الشائقة منها. ويلج فوريه في تأكيد اختلاف

حجتهم فيقول: «بل الأخلاق هي الطوبى utopic... لأنها هي الحلم بالخير دون تقديم الوسيلة لتحقيقه ودون منهج فعال». والقاعدة الأخلاقية لا تترك لها في النهاية إلا الخيار بين أمرين: اليأس، أو النفاق. «إن الأخلاق تقود إلى الممار كل من يحاول تطبيق مبادئها بدقة، بينما هي تؤدي إلى نجاح من يتخذ منها قناعاً ولا يتخذ منها مرشداً ودليلاً». ويبيان ذلك أن من المستحيل القضاء على الفرائز والشهوات. وتجربة الثورة الفرنسية دليل قاطع على إخفاق الحل الأخلاقي. والنتيجة لهذا أنه يجب ألا تفرض على الطبيعة الإنسانية بالقهر والقوة نظم المجتمع «المتعلمين». (وكلمة «متعلمين» لها دائماً عند فوريه معنى مستهجن) بل ينبغي تغيير نظم المجتمع لتساير الطبيعة الإنسانية. إن فوريه لا يريد أن تغير الطبيعة الإنسانية، بل يريد أن تغير النظم الاجتماعية لتتواءم مع هذه الطبيعة الإنسانية.

ولهذا فإن الحل الثاني، وهو الذي يدعو إليه «العلم الديني أو الاجتماعي» يقوم في إشباع شهوات الجميع في إطار الانجم الكوني. ومن هنا يستهدف التنظيم الفلنستيري إلى إشباع الشهوات الأساسية الاثني عشرة وهي: خمس شهوات حسية تتعلق بالحواس الخمس، - وأربع شهوات عاطفية وهي: الصداقة، والحب، والطموح، والمواطف الأسرية، - وثلاث شهوات توزيعية هي: شهوة الدس التي هي مصدر للتنافس وبالتالي للثراء، وشهوة المزج (مثل المزج في الحب بين الشهوة الجنسية والمتعة الروحية)، وشهوة الفراشة Papillon أي شهوة التخبير (مثلاً من نظام العمل في فلنستير أن تشغل المجموعة في النجارة لمدة ساعة، وبعدها تشغل في حرفة أخرى، وهكذا).

وها هنا ينبغي أن نؤكد أن المجتمع الذي يدعو إلى إجماع فوريه لا يشبه في شيء المجتمع الذي تدعو إليه الماركسية، أو الاشتراكية بوجه عام:

١ - فإن فوريه يقر بالملكية الخاصة لأدوات الانتاج.

٢ - ويطلب بتوزيع الأرباح بين المساهمين في الانتاج بنسبة مئوية محددة. وهؤلاء المساهمون هم الرأسماليون المساهمون في تمويل الإنتاج، والمخترعون العلميون، والعمال المتفنون للأعمال.

٣ - وهو يطلب بزيادة الانتاج باستمرار ابتغاء رفع مستوى المعيشة.

## مراجع

- Ch. Pellarin: Charles Fourier, Sa vie et sa théorie Paris, 5<sup>e</sup> édition augmentée, 1871.
- H. Bourgin: Fourier. Contribution à l'étude du socialisme français, Paris, 1905.
- H. Bourgin: Études sur les sources de Fourier, Paris, 1905.
- Emile Lehon: Fourier aujourd'hui. Paris, 1966.
- Ondré Vergez: Fourier. Paris, P.U.F., 1969.

## قولتير

## François Marie Arouet de Voltaire

كاتب ومفكر فرنسي شهير.

ولد في باريس في ٢٤ نوفمبر سنة ١٦٩٤، وكان أبوه موظفاً في غرفة المحاسبات. ولما بلغ التاسعة من عمره دخل كلية لوي - لو - جران، التي كانت تابعة للطريقة اليسوعية. وبعد تخرجه فيها وهو في السابعة عشرة أرادته أبوه أن يدرس القانون ليصبح محامياً، لكنه تبرم بدراسة القانون. وعمل في حاشية مركيز دي شاتونيف Marquis de Châteauneuf، سفير فرنسا في هولنده. لكنه وقع في غرام فتاة فرنسية بروتستنتية مهاجرة كانت تعيش في لاهاي (هولنده)، مما أدى إلى إرجاعه إلى باريس، فاستأنف دراسة القانون في مكتب محام، لكنه لم يمكث هناك طويلاً. ودخل في مسابقة شعرية لنيل جائزة الأكاديمية الفرنسية، فلم يفز بها، لكنه هجا الفائز هجاءً لاذعاً بقصيدة أذاعت شهرة قولتير. واتهم بهجاءه الوصي على العرش، دوق دورليان، فنفي من باريس طوال عدة أشهر، وذلك في سنة ١٧١٦. وفي سنة ١٧١٧ - سنة ١٧١٨ هجا الوصي هجاءً مقذعاً واتهمه بأبشع الجرائم، فأودع في سجن الباستيل لمدة عشر شهراً. وخلال سجنه أعاد كتابة مسرحية «أوديب»، وشرع في نظم قصيدة تلوح حول هنري الرابع؛ واتخذ اسماً مستعاراً هو الذي عرف به فيما بعد: قولتير. ومثلت مسرحية «أوديب» في سنة ١٧١٨ فنالت نجاحاً هائلاً. لكن مسرحياته التالية لم تنظر بالنجاح. وأتم ملحمة الشعرية عن هنري الرابع، لكن السلطات رفضت الإذن بنشرها لأن فيها تمجيداً للبروتستنتية وللتسامح الديني.

الأذواق في الطعام ولهذا نراه يقرر أنه لا بد لكل «فلايتج» (= تجميع) من الحصول على ما لا يقل عن سبعة وعشرين نوعاً من الخبز من أجل إرضاء كل الأذواق في «عشاء منسجم».

وفي الفلنستير يلعب الإشباع الجنسي دوراً لا يقل أهمية عن دور لذائذ المائدة. ويسترسل فوريه في هذا الموضوع ويخوض في تفاصيل تتناقى مع القوانين المرعية - آنذاك واليوم أيضاً - ليتمكن أعضاء الفلنستير من تحقيق شهواتهم الجنسية وحتى تلك التي ينجحون من الإفصاح عنها، ولكنهم ينطلقون إلى تحقيقها سراً. فنجده يشير إلى اللواط والسحاق والاستمتاع بالرؤية الجنسية، والسادية، والمازوخية، والعريضة الجماعية orgies الخ الخ. والناس الذين يشاهدون ما يجري في مجتمع «الترخص» الحالي لا يدهشون مما قاله فوريه ولا ينظرون إليه على أنه تمهيلات إنسان شاذ مصاب بداء الجنس. أما في ذلك الوقت وإلى وقت قريب جداً لا يتجاوز عشرين سنة، فقد كان ينتظر إلى كتابات فوريه في هذا الباب على أنها هلوسة مجنون بالجنس. ولو قورن ما قاله بما يقوله في هذه الأعوام الأخيرة «مفكرون» و«أطباء» مثل هريوت مركوزة والدكتور كرس الرستام Dr. Lars Ullerstam الطبيب السويدي (في كتابه: «الأقليات الجنسية» ترجمة فرنسية، باريس سنة ١٩٦٥) لبدأ عتساً عفيفاً محافظاً!

ويعتقد فوريه أن الإنسان الذي يستمتع بكل ما يهوى من ملذات وينتقل من شهوة إلى شهوة، يشعر طوال حياته بالانسجام، وبالحضور العيني للموسم للعناية الكلية. وعند فوريه أن البرهان الوحيد المقنع على وجود الله هو السعادة، والسعادة هي الاستمتاع بإشباع كل الشهوات.

## مؤلفاته

- Théorie de quatre mouvements et des destinées sociales, Lyon, 1808.
- Traité de l'association domestique agricole. Paris, 1822- réédité en 1834 sous le titre: Théorie de l'Unité Universelle.
- Le Nouveau Monde industriel et sociétaire, ou invention du procédé d'industrie attrayante et combinée, distribuée en séries passionnées. Paris, 1829.

لكنه أفلح في طبعها سرّاً في روان Rouen (مدينة في شمالي فرنسا) سنة ١٧٢٣ وهربها إلى باريس، وكان عنوانها: «العصابة أو هنري الكبير».

واشتهر فولتير وصار ذا حظوة في البلاط الملكي، لكن الفارس روهان - شابو Chevalier de Rohan-Chabot شهر به على أساس أنه عدت نعمة، وليس من سلالة نبيلة. فردّ عليه فولتير بأهاجي لاذعة انتشرت بين الناس، فانتقم منه هذا الفارس بأن استأجر رجالاً لضرب فولتير. فتحداه فولتير، لكن هذا الفارس استطاع أن يعمل على سجن فولتير في الباستيل، للمرة الثانية، ولم يفرج عنه إلا بشرط مغادرة فرنسا في الحال إلى إنجلترا، فوصل إنجلترا في مايو سنة ١٧٢٦. وهنا في إنجلترا تعرّف إلى الشاعر الإنجليزي الكبير الكسندر بوب Pope وأصحابه، كما تعرّف إلى شخصيات عظيمة المكانة في إنجلترا آنذاك. وبدأ في قراءة شكسبير وملتون ودايدن وبتلر ومؤلفات بوب وأدسون ومسرحي عصر الإعادة Restoration (إعادة الملكية إلى إنجلترا). كذلك اهتم بفلسفة لوك وفزياء نيوتن، وأفاد من المؤهفة الانجليزي English Deists في نظراته الدينية. وقبّلت الملكة كارولينا إهدامه إياها ملحمة «هنرياد» Henriade، وهي تحرير جديد للمحمته الأولى: «العصابة أو هنري الرابع». وبدأ في كتابة «تاريخ شارل الثاني عشر» وفي إعداد المادة لكتابه «رسائل عن الانجليزية». وعاد إلى فرنسا في سنة ١٧٢٩.

واشترى قسائم في بانصيب حكومي وضارب في تجارة القمح، فوفّر له كلاهما الأساس لثروة طائلة. وتوثقت علاقته مع مدام دي شاتليه، وأقام معها فترات في قصر زوجها في إقليم شمبانز، منذ سنة ١٧٣٤. وهنا كتب مسرحيات: «محمد» (سنة ١٧٣٤) و«ميروب» (سنة ١٧٤٣)، كما كتب «رسالة في الميتافيزيقا»، و«شظراً كبيراً من كتابه «عصر لويس الرابع عشر» (سنة ١٧٥٤) وكتاب «أخلاق الأمم وروحها»، وكتاب «عناصر فلسفة نيوتن» (سنة ١٧٣٨). واستطاع بمسرحية «أميرة نيرة» التي ألفها بمناسبة زواج وليّ العهد (في فبراير سنة ١٧٤٥) أن يستعيد رضا القصر عنه لما فيها من تملق بارع للملك لويس الخامس عشر، بعد أن فقد عطفه لما أن أصدر «رسائل عن الانجليزية». ولهذا السبب، ويفضل رعاية مدام دي بومبادور، حظية الملك، حين مؤرخاً رسمياً للملك، وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

وسبب هفوة في الحديث أثناء دور لعب ورق في سنة ١٧٤٧، اضطر إلى الالتجاء إلى حماية دوقة مين Duchesse de Maine، ومن أجل تسليتها كتب قصة «صديق» Zadig وقصصاً شرقية أخرى. ولما سمح له بالظهور في القصر الملكي من جديد، أثار مديحه لمدام دي بومبادور غيرة الملكة فكان على فولتير أن يترك القصر. وتوفيت مدام دي شاتليه في سبتمبر سنة ١٧٤٩، فصار في وسعه أن يقبل دعوة من فريدرش الكبير، ملك بروسيا. فسافر إلى برلين في سنة ١٧٥٠ وقبل أن يكون أحد الأمناء في بلاط فريدرش بمرتب قدره عشرون ألف فرنك مع السكن في أحد القصور الملكية. ودخل في عمليات مالية مشبوهة مع أحد يهود برلين، فاستاء الملك فريدرش، وازداد استيأؤه بسبب هجائه لموبرتوي Maupertuis. وفي مارس سنة ١٧٥٣ غادر فولتير الملك فريدرش الأكبر، ولم يلتقيا بعد ذلك أبداً. وفي أثناء مقامه في بروسيا، نشر فولتير كتابه «عصر لويس الرابع عشر» (سنة ١٧٥١).

وفي أثناء عودته قبض عليه في فرتكفورت مثلوا الملك فريدرش ليستردوا من فولتير ديواناً من دواوين شعر الملك. واستقر المقام به في سنة ١٧٥٥ بالقرب من جنيف، وبعد سنة ١٧٥٨ استقر في فرنيه Ferney على مسافة أربعة أميال من جنيف.

وفي الفترة من ١٧٥٦ إلى ١٧٥٩ نشر كتابه «أخلاق الأمم وروحها»، وقصيدته الشهيرة عن زلزال لشبونة التي سخر فيها من تغاؤل لبيتنس، وقصته الرائعة «كانديد» التي سخرت من تغاؤل لبيتنس أيضاً وقوله «كل شيء هو للأحسن في أحسن عالم» (ليس في الإمكان أبدع مما كان» على حد تعبير أبي حامد الغزالي).

وكتب مواد فلسفية ودينية في «الانسكلوبيديا الفرنسية» التي كان يشرف على تحريرها ديدرو ودالمبير، لكن الحكومة الفرنسية أوقفت صدور «الانسكلوبيديا»، كذلك أدانت محكمة (برلمان) باريس قصيدة له عن الدين الطبيعي. فأثار هذا ثأرتة وطالب بسحق «المتعصين» L'infâme. وشرع في نشر كتابات ضد التعصب الديني، وضد الدين بوجه عام، منها مسرحيات تعليمية، ورسائل، وخصوصاً «القاموس الفلسفي» (سنة ١٧٦٤).

وقام بالدفاع عن ضحايا التعصب الديني في فرنسا، وهما لهم ملجأ في ضيعته في فرنيه. غير أن حكومة جنيف

للسلوك أعطيت للناس على الأرض كلها أجل من تلك التي أعطها؟

«دبروا الدولة كما تدبرون الأسرة؛ ولا يمكن تدبير الأسرة إلا بإعطائها المثل والقُدوة.

«الفضيلة يجب أن تعمّ الحراث والحاكم.  
«اهتم بالوقاية من ارتكاب الجرائم ابتغاء التقليل من الاهتمام بالمعاقبة عليها.

«في أيام حكم الملكين الطيبين ياو وكسو كان الصينيون طيبين؛ وفي أيام حكم الملكين الفاسدين كي وشو كان الصينيون سيئين.

«عامل الآخرين بما تعامل به نفسك.  
«أحبّ الناس عامة، لكن أعزّ أهل الخير. إنس الإساءة، لكن لا تنس الإحسان أبداً.  
«رأيت أناساً عاجزين عن العلم، لكنني لم أر أبداً أناساً عاجزين عن الفضيلة.»

فلنعترف بأنه لم يوجد مشرع أعلن حقائق أكثر فائدة للجنس البشري من هذه الحقائق.

إن عدداً كبيراً من الفلاسفة اليونانيين قد قالوا بعد ذلك بأنخلاق طاهرة مثل هذه. ولو كانوا قد اقتصروا على مذاهبهم الزائفة في الفزياء، لما كانت أسملوهم تذكر اليوم إلا للسخرية منها، فإذا كنا لا نزال نجلبهم حتى اليوم، فما ذلك إلا لأنهم كانوا عادلين، وعلموا الناس أن يكونوا عادلين.

ولا يمكن المرء أن يقرأ مواضع معينة في (معاورات) أفلاطون، وخصوصاً الاستهلال الرائع للقوانين بلسان زالويكس Zaleucus، دون أن يستشعر في قلبه حب الأفعال الشريفة الكريمة. وكان عند الرومان: شيشرون الذي ربما يساوي وحده كل فلاسفة اليونان. ومن بعد جاء قوم أجل منه، لكن يكاد المرء يئس من محاكاتهم: ابكتاتوس في العبودية، والأباطرة الأنطونينيون وبيليانس على العرش.

فمن هو المواطن من بيننا الذي يحرم نفسه، مثل بليانس Julien، وأنطونينوس Antonin، وماركس أورليوس من كل أطايب حياتنا الرخوة المختنة؟ من مثلهم يرضى بالنوم على الحشيش؟ من ذا الذي يفرض على نفسه الكفاف الذي فرضوه على أنفسهم، ويمشي مثلهم راجلاً عاري الرأس في مقدمة الجيوش، مُعَرَّضاً حيناً لحرارة الشمس الشديدة،

منعت فولتير من تمثيل مسرحياته ومن إنشاء مسرح فيها. وأيد جان جاك روسو موقف الحكومة السويسرية، فتسبب هذا في قطع الصداقة بين هذين الكاتبين المفكرين الكبارين، وحدث ذلك في سنة ١٧٥٨.

وسافر إلى باريس في سنة ١٧٧٨ لمشاهدة تمثيل مسرحيته الأخيرة: «أرين» Irène، فاستقبل استقبالاً حافلاً تأثر له فولتير تأثراً تسبب في مرضه ثم وفاته في ٣٠ مايو سنة ١٧٧٨ في باريس.

### آراؤه الفلسفية

ونبدأ برأيه في «الفلسفة» كما عرضه في «القاموس الفلسفي». يقول فولتير تحت مادة «فيلسوف»: «الفيلسوف، «حُب الحكمة» أي الحقيقة. وكل الفلاسفة اتصفوا بهاتين الصفتين؛ ولا يوجد أحد منهم في العصر القديم لم يعط الناس المثل على الفضيلة، ودروساً في الحقائق الأخلاقية. وربما كانوا قد أخطأوا جميعاً في الفزياء، لكن الفزياء قليلة التأثير على السلوك في الحياة بحيث لم يكن الفلاسفة في حاجة إليها. وكان لا بد من قرون من الزمان لمعرفة جزء من قوانين الطبيعة. لكن يوماً واحداً يكفي الحكيم كي يعرف واجبات الإنسان.

والفيلسوف لا يتحمس، ولا ينصب نفسه نبياً، ولا يقول عن نفسه إن الألهة توحى إليه. ولهذا فإنني لا أضع في مرتبة الفلاسفة: زردشت، ولا هرمس، ولا أورفيوس القديم، ولا أي واحد من أولئك المشرعين الذين افتخرت بهم أرم: كلدنيا، وفلس، وسوريا، ومصر، واليونان. إن الذين قالوا عن أنفسهم إنهم أبناء الألهة إنما كانوا أبناء الخداع، وقد استخدعوا الكذب من أجل تعليم حقائق؛ لقد كانوا غير جديرين بتعليمها؛ إنهم لم يكونوا فلاسفة، بل قصاراهم أنهم كانوا كذابين ذوي فطنة.

لا مناص - وهذا أمر ربما يدعو إلى سربلة الشعوب الغربية بالجنل والعار - من الذهاب إلى نهاية المشرق للعثور على حكيم بسيط، بغير مظاهر ولا خداع، كان يعلم الناس أن يعيشوا سعداء، وذلك قبل ستة قرون من الميلاد، في وقت كان فيه كل (بلاد) الشمال يجهل كيفية استعمال الحروف (الكتابة)، وكاد اليونانيون فيه يبدأون في التميّز بالحكمة. وهذا الحكيم هو كونفوشيوس، الذي لم يشأ - وكان هو الوحيد في هذا بين المشرعين - أن يخدع الناس أبداً. أية قاعدة



الرُضْع، حتى لا يوجد أحد يمكن أن يكشف ذات يوم عن فظائعه هذه، كما لو كان العفل الرضيع قادراً على فضح جرائمه؛ ولأنه أهلك كل السكان في بعض القرى الأخرى، إما بالنشر، أو ذوات الأسنان *berses* الحديدية، أو عصي الحديد أو في أفران الأجر؛ ولأنه اغتصب العرش من اسبوسيث *Isboseth*، ابن شلؤل (جالوت) غدراً؛ ولأنه جرد وأهلك ميفيوشيث *Miptibosech* حفيد شلؤل وابن صديقه وحاميه يوناثاس *Jonathas*؛ ولأنه سلم للجبعونيين *Gabaonites* ولدين آخرين من أولاد شلؤل، وخمسة من أحفاده، أعدوا شتقاً.

وأنا لا أتحدث عن شهوة داود المفرطة الهائلة، وعن خليلاته، وعن زناه ببشايه *Bethsabée* وقتله لأوريا *Urie*.

ماذا إذن! هل كان أعداء بيل يريدون منه أن يمدح كل هذه الفظائع والجرائم؟ هل كان عليه أن يقول: «يا أمراء الأرض، قلدوا هذا الرجل الذي هو على وفق قلب الله؛ إذبحوا بلا رحمة حلفاء أولياء نعمتكم؛ اذبحوا، أو اعملوا على ذبح كل أسرة ملككم؛ ضاجعوا كل النساء بيننا أنتم تأمرن بإهراق دماء الناس؛ وستكونون نموذج القضيعة، حين يقال إنكم نظمتهم مزامير؟».

ألم يكن بيل على حق كامل حين قال إنه إذا كان داود على وفق قلب الله، فإنما كان ذلك بتوحيته؛ لا بجرائمه؟ ألم يُسد بيل خلعة عظيمة للجنس البشري حين قال إن الله - الذي أملى كل التاريخ اليهودي من غير شك، - لم يرض عن كل الجرائم المذكورة في هذا التاريخ؟

وبالرغم من ذلك فقد اضطهد بيل؛ ومن الذي اضطهده؟ أولئك المضطهدون في مكان آخر، أولئك الهاربون الذين كانوا سيسلمون للنار في أوطانهم؛ وهؤلاء الهاربون كان يجارهم هاربون آخرون يسعون الجنسينيين *Jansénistes* الذين طردهم من بلادهم اليسوعيون الذين طردوا هم الآخرون بلورهم.

وهكذا حارب المضطهدون بعضهم بعضاً حرباً قاتلة، بينا الفيلسوف، الذي اشتركوا جميعاً في اضطهاده، اكتفى بالثناء لهم.

وليس من المعلوم عند الكثيرين أن فونتينيل *Fontenelle* في سنة ١٧١٣ كان على وشك أن يفقد معاشه، ومنصبه، وحرته، بسبب أنه قيل ذلك بعشرين سنة حرراً في

وتارة لصيلة القر؟ من الذي يضبط مثلهم كل شهواته؟ نعم إن من بيننا أتقياء، لكن أين الحكماء؟ وأين النفوس التي لا يهزها شيء، النفوس العادلة للتسامحة؟

لقد كان في فرنسا فلاسفة مكاتب *Philosophes de Cabinet*؛ وكلهم، باستثناء مونتاني، أصابهم الاضطهاد. وعندي أن هذا هو أدنى درجات الخسة في طبيعتنا: أعني أن نريد اضطهاد هؤلاء الفلاسفة وهم الذين يريدون إصلاح طبيعتنا.

أنا أتصور جيداً أن متعصين يتسبون إلى فرقة يذهبون المتحمسين المتسبين إلى فرقة أخرى، وأن يكره الفرنسيون اللومينيكان، وأن يتأمر قنان للقضاء على فنان آخر متفوق عليه؛ أما أن يمدد الحكيم شارون *Charon* بالقضاء على حياته، وأن يقتل العالم الكريم راموس *Ramus*، وأن يضطر ديكاروت إلى الفرار إلى هولنده ليفلت من غضب الجهلاء، وأن يرغم جسندي *Gassendi* عدة مرات على الاعتزال في ديني *Digne* بعيداً عن وشايات باريس - فذلك هو العار الدائم الذي يطلع أمة.

ومن الفلاسفة الذين لقوا أشد اضطهاد كان بيل *Bayle*، شرف الطبيعة الانسانية. سيقال لي إن اسم جوريه *Jurieu* الذي وشى به واضطهده، قد صار مكروهاً ملعوناً. وأنا أقر بذلك؛ وإن اسم اليسوعي لوتليه *Le Tellier* صار أيضاً مكروهاً ملعوناً. لكن هل منع هذا من كون الرجال الكبار الذين اضطهدهم قد أمضوا أعمالهم في النفي والشقاء؟!.

ومن بين الأعذار التي انتحلت لسحق بيل والإلقاء به في الفقر والبؤس، مقالة عن «داوود» في قلموسه المقيد. لقد لاموه على أنه لم يمدح أفعالاً هي في ذاتها ظالمة، دعوية، فظيعة، تتعارض مع الإيمان السليم أو تُخجل الحشمة والحياء.

والواقع أن بيل *Bayle* لم يمدح داود لأنه - بحسب ما تقول الأسفار العبرية - حشد ستمائة متشرد منقل بالديون والجرائم، ولأنه نهب موطنه وهو على رأس قطاع الطريق هؤلاء، ولأنه جاء من أجل ذبح نبال *Nabal* وكل أسرته، بدعوى أنه لم يرد دفع الضرائب؛ - ولم يمدح داود لأنه ذهب لبيع خلعته للملك أخيس *Achis* عدو أمته، ولأنه خان أخيس هذا ولي نعمته، ولأنه نهب القرى المتحالفة مع هذا الملك أخيس، ولأنه ذبح في هذه القرى الجميع حتى الأطفال



٣- أن الفضيلة الرئيسية هي التسامح الديني

ولفولتير «رسالة عن التسامح»، تعد من أجل ما كتب في تمجيد التسامح، ونورد منها ما يلي (الفصل ٢٢):

« لا أتوجه بدعائي هذا إلى الناس، بل إليك أنت، يا إله الكائنات وإله العالمين، وإله الأزمنة: إن أذنت لمخلوقات ضعيفة ضائعة في الفضاء الشاسع، لا يدركها سائر الكون، أن تتجاسر فتسألك شيئاً، أنت يا من أعطيت كل شيء، ويا من أولمته ثابتة سرمدية - تفضل فانظر بعين الرحمة إلى الخطايا الناجمة عن طبيعتنا، ولا تجعل هذه الخطايا مصدراً لهصابتنا. إنك لم تعطنا قلباً ليكره به بعضنا بعضاً، وأيدياً ليذبح بها بعضنا بعضاً. اجعلنا بحيث يعاون بعضنا بعضاً لاحتمال أعباء حياة أليمة عابرة، واجعلنا بحيث الفروق الضئيلة بين الملابس التي تستر أجسامنا الضعيفة، وبين لغاتنا القاصرة، وبين عاداتنا المضحكة، وبين كل قوانيننا وشرائعنا الناقصة، وبين كل آرائنا الخمقاء، وبين كل أحوالنا التي تبدو في عيوننا متباينة ولكنها أمامك متساوية - اجعلنا بحيث كل هذه الفروق الضئيلة - التي تميز الذرات التي تسمى بني الإنسان - لا تكون علامات وشارات لإثارة الكراهية والاضطهاد. واجعل أولئك الذين يوقدون الشموع في راحة النهار احتشالاً بك، يتحملوا أولئك الذين يكتفون بضوء شمك. واجعل أولئك الذين يغطون أثوابهم بقماش أبيض، ويقولون إنه يجب أن نحبك، لا يكرهون أولئك الذين يقولون الشيء نفسه وهم يتدثرون برداء من الصوف الأسود. ولتكن سواء: عبادتك بلغة قديمة وبلغة حديثة. واجعل أولئك المصبوغة ثيابهم بالأحمر أو البنفسجي وسيطرون على قطعة صغيرة من كومة صغيرة من هذا العالم، ويملكون بعض الشذرات المستديرة من معدن معين - يتمتعون دون كبرياء بما يسمونه عظمة وثروة. واجعل الآخرين ينظرون إليهم دون حسد، لأنك تعلم أنه ليس في كل هذه الأباطيل ما يستحق الحسد عليه، أو التباهي به.

يأليت الناس جميعاً يتذكرون أنهم إخوة أو أن يخضوا الطغيان على النفوس كما يكرهون النهب الذي يسلب بالقوة ثمرة العمل والنشاط الهادئ! وإذا كانت بلايا الحرب لا مفر منها، فلا يكرهن بعضنا بعضاً، ولا يمزقن بعضنا بعضاً في جفن السلام. ولتستعمل لحظة وجودنا في حمدك بآلاف اللغات المختلفة من سيام حتى كاليفورنيا، حمدك على كرمك الذي وهبنا هذه اللحظة».

فرنسا (بالفرنسية) «رسالة في الوحي» للعالم فان دال Van Dale بعد أن احتاط فحذف منها كل ما يمكن أن يفزع منه التعصب. كتب يسوعي ضد فونتيل، فلم يتنازل هذا للرد عليه، وكان هذا كافياً كي يقوم اليسوعي لوتلييه Le Tellier، متلقي اعتراف لويس الرابع عشر، باتهامه عند هذا الملك بالإلحاد.

ولولا السيد دارجنسون M. d'Argenson لكان الابن الجدير لمزئف، مدعي فير Procureur de Vire، ومعترف بأنه هو نفسه مزئف، قد أفسد شيخوخة ابن أخي كورني.

ومن السهل التفرير بالنائب، حتى إنه يجب علينا أن نحمد الله لأن لوتلييه هذا لم يفعل المزيد من الشرور. ذلك أن في العالم مكانين لا يمكن فيها مقاومة الإغواء والوشاية، وهما: السرير، ومكان الاعتراف.

لقد شاهدنا دائماً الفلاسفة يضطهدهم المتعصبون؛ لكن هل من الممكن أن يشترك في هذا أهل الأدب، وأن يقوموا هم أنفسهم بشحن السلاح مراراً ضد اختواتهم، السلاح الذي سينفذ فيهم جميعاً الواحد بعد الآخر؟

يا لشقوة أهل الأدب! أنتموون أنتم أيضاً بالوشاية؟ هل وجدتم بين الرومان أمثال جراس Garasse وشومكس Chaumeix، وهائر Hayer، قد اتهموا لوكرتيوس ريوستونيوس وقارون، وبلنيوس؟!

أن يكون المرء منافقاً، يالها من جنة! لكن أن يكون منافقاً وشريراً، يالها من فظاعة! لم يوجد في روما القديمة منافق واحد، روما التي كانت تعدنا (بلاد الغال) جزءاً صغيراً من رعاياها. أنا أقر بأنه كان فيها ماكرون fourbes، لكن لم يكن فيها منافقون في الدين، وهم أجبن وأقسى فئة بين الجميع. ولذا لا ترى منهم أحداً في إنجلترا، وما السبب في أنه لا يزال يوجد نفر منهم في فرنسا؟

أيها الفلاسفة! سيكون من السهل عليكم حل هذه المشكلة. («القاموس الفلسفي») ص ٣٤٢ - ٣٤٧. باريس، طبعة جارتية، سنة ١٩٦٧).

وواضح من هذا الفصل:

١- أن الفلسفة عند فولتير تنحصر في الأخلاق  
٢- أن حكمة الصين - وهي أخلاقية محضة - هي النموذج الأول للحكمة أي للفلسفة.

في المسيحية هي في جوهرها وأساسها نفس المبادئ الأخلاقية الموجودة في سائر الأديان. أما ما عدا هذا فإن فولتير يرفضه: إذ يرفض العقائد المسيحية الرئيسية: التثليث، الوهية المسيح، التجسد، وكلها مندرج تحت معنى واحد؛ ويرفض المعجزات المنسوبة إلى المسيح، وبالأحرى إلى القديسين. وقد اشتدت حملته على المسيحية خصوصاً في السنوات الخمس عشرة الأخيرة من حياته، بعد أن شعر أن كل فكرة في الإصلاح وفي تحرير الإنسان، وفي التسامح بين الناس قد لقيت معارضة شديدة من جانب رجال الكنيسة. ومن ثم جعل شعر نضاله هو: «اسحقوا الخسيس» *Ecrasez l'infâme* (أو «انسحق الخسيس» *Ecrasons l'infâme*) وكان يجتم بهذه العبارة معظم رسائله إلى رجال «الانسكلوبيديا»، وخصوصاً إلى دالمبير. ويقصد «بالخسيس» *L'infâme* كل ما كان يراه خرافة أو تعصباً دينياً. وكان يقول: «إن من يجعلونكم تؤمنون بأمور غير معقولة يمكنهم أن يجعلونكم ترتكبون فظائع».

لقد كان فولتير يؤمن بوجود إله للكون، لكن إلهه لا يشبه إله اليهود ولا إله المسيحية. إن إلهه موجود علوي غامض لا يعني بشؤون الناس، إذ لا توجد عناية في الكون. وقد اهتم فولتير بمشكلة وجود الشر في العالم، وعبر عن رأيه في هذا الموضوع في قصصه الفلسفية: «صديق» *Zadig* (سنة 1748)، «العالم كما يسير» (سنة 1748)، «عنون» (سنة 1749)، وخصوصاً قصة «كاتبديد: أو التنازل» (سنة 1759)، ثم في قصيدة عن الزلزال الذي أصاب لشبونة في يوم عيد جميع القديسين في (سنة 1755)، وعنوانها «قصيدة في كارثة لشبونة» (سنة 1756).

وقد رفض فولتير تفؤل لبيتس الذي زعم أن «كل شيء هو للأحسن في أحسن عالم ممكن» ميثاً ما في العالم من شرور. ورفض عقيدة الخطيئة الأصلية، وقول اللاهوتيين إن الله ترك الإنسان حراً في الاختيار بين الخير والشر من أجل امتحان الإنسان. وفي مادة: «الخير» في «القاموس الفلسفي» أورد رأي أبيقور - كما رواه لاكتانتيوس - في مسألة العناية الإلهية والشر وهو: «الله إما أن يكون قادراً على إزالة الشر من العالم، ولكنه لا يريد ذلك؛ وإما أنه يريد إزالة الشر من العالم ولكنه غير قادر على ذلك؛ وإما أنه لا يريد ولا يقدر، وإما أنه قادر ويريد معاً. فإن كان مريداً وغير قادر، فإنه سيكون عاجزاً. وإن كان قادراً لكنه لا يريد، فإنه غير محسن. وإن كان غير مريد ولا قادر، فإنه ليس قادراً ولا محسناً. وإن كان يريد ويقدر، فمن أين جاء الشر على وجه الأرض 179».

٤ - كذلك يتجلى في هذا الفصل عن «الفيلسوف» أن من مهمة الفيلسوف أن يقوم بتقد الكتب المقدمة. وفولتير قد خاض مراراً في هذا التقدي، خصوصاً في كتابه «القاموس الفلسفي». وقد عني بهذا الأمر خصوصاً أثناء مقامه في سيرى Ciray لدى مدام دي شاتليه. وقد ظل خلال أحد عشر عاماً يشتغل معها على الكتاب المقدس، مستعيناً بحواشي دوم كاتيه ونص عليه Meslier، ليستخلص حججاً ضد الكنيسة وللدفاع عن اتجاهه التلبيهي. وكانت ثمرة تاملاته هذه «موعظة الخمسين» (سنة 1749) وفيه يبرز ما في العهد القديم من الكتاب المقدس من فضائح ومخازي؛ عبر عنها بقوله: «كم من جرائم ارتكبت باسم الرب!... يا إلهي! لو نزلت بنفسك على الأرض، وأمرتني بالإيمان بهذا الخليط من سفك الدماء، والفسق، والقتل، والزنا بالمحارم، وكلها ارتكبت بناء على أمرك وباسمك، لقلت لك: كلا، إن قدامتك لا تريد مني أن أوافق على هذه الأمور الفظيعة التي تهينك؛ ولا بد أنك تريد امتحاني». إن في «العهد القديم» من التناقضات ما يؤذن بالكذب والافتراء والخداع.

ويهاجم الأنابيل ويقول: «أنتم تعرفون كم يتناقض المؤلفون الأربعة (للأنابيل) تناقضاً فاحشاً؛ إن هذا دليل قاطع على الكذب».

وقد كتب فولتير هذه «الموعظة» في سنة 1749 (وهي سنة وفاة صديقه مدام دي شاتليه) ولكنه لم ينشرها إلا في سنة 1760 في الوقت الذي توقف فيه عن الكتابة «للانسكلوبيديا». ومنذ ذلك العام، سنة 1760، اهتم اهتماماً شديداً بتقد أسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وتمخض عن ذلك كتابه «الكتاب المقدس وقد صار مفسراً» *Bible enfin expliquée* وقد نشره في سنة 1776. ونحن نجد خلاصة آرائه في هذا الموضوع في مادة: «المسيحية». أبحاث تاريخية عن المسيحية، في كتابه: «القاموس الفلسفي» (ص 109 - 134 من النشرة المذكورة) كذلك نجد في المواد التالية: ابراهام - آدم - الملك - داود - حزقيال - سفر التكوين - يفتاح - أيوب - المسيح - موسى - نقداً لادعاء لماورد في «العهد القديم» بشأنهم.

لقد كان فولتير ذا نزعة دينية، ولكنها غير مرتبطة بأي دين. وقد أخذ عن المؤلفة *Deists* الانجليز أن ما هو صحيح في المسيحية موجود في كل الأديان وأمنت به الإنسانية قبل مجيء المسيحية بعدة آلاف من السنين. إن المبادئ الأخلاقية

إنه عرف التاريخ بأنه «جِبَلٌ ومكائد يدبّرها الأحياء للأموال».

وفي الاقتصاد أكد حرمة الملكية الفردية، وقرر أنه لا يجوز المساس بها. ودعا إلى حرية التجارة والشراء، وبين فوائد التجارة في زيادة ثروة الأمم ورفاهية أبنائها، وقال إن حرية الإثراء مهمة للدولة أهمية سائر الحريات. وفي مادة «الترف» Luxe في «القاموس الفلسفي» صرح بأن الترف ضروري لرفع مستوى الحياة وزيادة التقدم الإنساني.

### مراجع

- Gustave Lanson: Voltaire. Paris, 1910.
- Georges Pellissier: Voltaire Philosophe. Paris, 1908.
- René Pomeau: La Religion de Voltaire. Paris, 1956.
- Norman L. Turey: Voltaire and The English Deists. New Haven, 1930; reprinted, Oxford, 1962.

### قولف

#### Christian Wolff (Wolf, Wolfius)

الممثل الأكبر للفلسفة الألمانية في عصر التنوير في ألمانيا. ولد في برسلاو في ٢٤ يناير سنة ١٦٧٩، وتوفي في هله Hallé في ٤ أبريل سنة ١٧٥٤. درس أولاً اللاهوت، لكنه سرعان ما بدأ لديه الميل إلى دراسة الرياضيات والفيزياء حتى يفيد من مناهجها في حسم المشاكل اللاهوتية بين اللوتريين والكاثوليك.

وتعلم في بينا Jena (١٦٩٩-١٧٠٢) فتعمق في دراسة مؤلفات ديكارت. وحصل على الدكتوراه من جامعة ليبسك في سنة ١٧٠٣ برسالة عنونها: «نحو فلسفة عملية كلية وفقاً للمنهج الرياضي». ولقنت هذه الرسالة نظر ليبس، فاعتقدت صلات وثيقة بينها وجرت بينها مراسلات (نشرها جبهرت في هله سنة ١٨٦٠). وفضل ليبس دعي لتدريس الرياضيات في جامعة هله، حيث ألقى محاضرات في سائر فروع الحكمة العالية. وكانت ثمرة هذه الدروس عدة متون كتبها باللغة الألمانية، أدت إلى نشر الفلسفة باللغة الألمانية على نطاق واسع في ألمانيا وتكوين مصطلح فلسفي بالألمانية، بعد

وفي قصة «صادق» Zadig، وهي ذات طابع شرقي، نجد أن المغزي الرئيسي فيها هو أنه لا يوجد عدل في العالم: فالأخبار كثيراً ما يتعذبون، والأشهر كثيراً ما يسهلون ويظفرون بالنجاح والمكافأة. فإن قيل إن عدل الله يختلف عن عدل الناس، رد قولتير قائلاً: «كيف تتوقع مني أن أحكم بغير عقلي أو أن أمشي ببلون أقدامي؟!».

لكن قولتير مزيين نوعين من العناية: العناية الكلية، والعناية الجزئية. وقد أنكر العناية الجزئية، أو الجزئيات، لأنه يعتقد أن الله خلق الكون كله وفقاً لقوانين ثابتة لا يمكن أن تتغير بالدعوات والصلوات التي ترفعها إليه الكائنات الفانية. أما العناية الكلية فيقصد بها وجود نظام كوني قائم على قوانين كلية ثابتة.

أما في الأخلاق فاهتمام قولتير ينصب على الأخلاق في المجتمع وفي العلاقات بين الناس: فدعا إلى توفير سعادة كل فرد في المجتمع، وإلى التسامح في العقائد، وإلى توفير العدل بين الناس قدر المستطاع وإلى نيل كل ألوان التعصب، وإلى توفير الحرية: السياسية، والفكرية.

وفي العلاقة بين الدولة والدين أكد وأنه لا يجوز سريان أي قانون نضمه الكنيسة إلا إذا صادقت عليه الحكومة صراحة، وأن كل رجال الدين يجب أن يكونوا تحت الرقابة التامة للحكومة، لأنهم من رعايا الدولة، ويجب على رجال الدين أن يسهموا في نفقات الدولة.

وطالب الحاكم بتهدئة المنازعات الدينية التي تعكر صفو السلام الاجتماعي (أو السلام في المجتمع). إن التجار والصناع ورجال الدين والجنود هم جميعاً وبتدرج متساوية أعضاء في الدولة، وكلهم سواء أمام القوانين التي تسنها الدولة. وقد تحقق ندوّه هذا في المادة الأولى من «إعلان حقوق الإنسان». إذ تقول هذه المادة: «يولد الناس، وبقون، أحراراً ومتساوين أمام القانون»، وكذلك في المادة الثالثة التي تقول: «مبدأ كل سيادة يقوم في الأمة ولا يجوز لأية هيئة أو فرد أن يمارس سلطة لا تكون مستمدة صراحة من الأمة».

ولقد عني قولتير بالتاريخ وأسهم فيه بكتابين أساسيين هما: «تاريخ شارل الثاني عشر» (سنة ١٧٣١) و«عصر (حرفياً: قرن) لويس الرابع عشر» (سنة ١٧٥١). لكنه كان يعتقد أن التاريخ ليس مرشداً كافياً للسلوك الأخلاقي، حتى

أجزاء، هله سنة ١٧٥٠ - ١٨٥٣ *Philosophia moralis sive ethica*.

١٢ - (الاقتصاد)، هله سنة ١٧٥٠ (في مجلدين سنة ١٧٥٤ - ١٧٥٥) *Oeconomica* وجمعت مؤلفاته الصغرى ونشرت في هله في ٦ مجلدات (سنة ١٧٣٦ - ١٧٤٠).

أراد قولف أن يؤكد حق العقل في البحث في كل الأمور وفقاً لمنهج دقيق يقوم على التحليل العقلي. وقد عبّر أمانويل كنت عن فضل قولف على تقدم الفلسفة في ألمانيا، وذلك في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه «نقد العقل المحض» (نشرة كاسيرر جـ ٣. ص ٢٨ - ٢٩) على النحو التالي: قال كنت: «في تنفيذ الخطة التي يدعو إليها النقد، أعني في نظام الميتافيزيقا المقبل، علينا ذات يوم أن نتبع المنهج الدقيق الذي سلكه قولف هذا (الفيلسوف) الشهير، وهو أعظم سائر الفلاسفة الدوجمائيين، وأول من أعطى المثل (وصار بذلك في ألمانيا الخالق لروح التعمق *Geist der Gründlichkeit* التي لم تُصعِّع بعد) على كيفية سلوك الطريق السليم للعلم، من خلال التحديد المنظم للمبادئ، والتحديد الواضح للمعاني، والفحص الدقيق عن البراهين، والامتناع من الوثبات الجريئة إلى النتائج، ولهذا كان قادراً - على نحو رائع - على وضع علم مثل الميتافيزيقا على هذا الطريق، لو أنه كانت لديه فكرة تمهيد الأرض مقدماً، وبواسطة نقد العضو، أعني نقد العقل المحض».

وقد حاول المؤرخون لفلسفته أن يتقصوا من أصالتها: فقالوا إن مؤلفاته ما هي إلا عرض شعبي لفلسفة ليبنتس، وأنه أساء فهم مذهب ليبنتس في الأحاديث، بأن فسرها على نحو مشوي يخالف الروح المثالية الروحية التي تميز بها مذهب ليبنتس؛ وأنه لم يلوك الأصالة في أبحاث ليبنتس المنطقية، ولهذا اقتصر على عرض منطلق صوري تقليدي لم يستفد من محاولات ليبنتس الجريئة من أجل إيجاد منطلق رياضي.

ولهذا قالوا إن أصالة مؤلفات قولف لا تقوم في الأفكار، بل في طريقة العرض والوضوح في المنهج.

وعلى كل حال فإن قولف في المنطق يؤكد أهمية مبدأ عدم التناقض، ويرى أنه الأساس لكل المنطق، وهذا المبدأ ليس فقط قانون الفكر، بل هو أيضاً قانون كل موضوع ممكن. ومن ثم يؤكد أهمية الاستنباط لأنه يقوم على مبدأ عدم التناقض، ويستعين بالاستقراء لأنه لا يلتزم بهذا المبدأ.

أن كانت معظم المؤلفات الفلسفية تكتب باللاتينية. لكن نجاح محاضراته أثار حسد زملائه من الأساتذة: خصوصاً، أ. هرمن فرنكه *A. Hermann*، ودانييل اشتربلر *Strübler* ورواقيم لانجه *Lange* فعملوا على إبعاده عن جامعة هله، وتم ذلك في سنة ١٧٢٣. فانتقل إلى جامعة ماربورج فكتب متوناً باللغة اللاتينية هي:

- ١ - «الفلسفة العقلية، أو المنطق معروضاً بحسب منهج علمي»، فرنكفورت وليبتسك سنة ١٧٢٨؛ ط ٣ سنة ١٧٤٠. *Philosophia rationalis, sive logica*.
- ٢ - «الفلسفة الأولى أو الأنطولوجيا»، فرنكفورت وليبتسك سنة ١٩٢٩ *Philosophia prima, sive ontologia*.
- ٣ - «علم الكونيات العامة»، في نفس الموضوع، سنة ١٧٣١ *Cosmologia generalis*.
- ٤ - «علم النفس التجريبي»، في نفس الموضوع سنة ١٧٣٢ *Psychologia empirica*.
- ٥ - «علم النفس العقلي»، في نفس الموضوع سنة ١٧٣٤ *Psychologia rationalis*.
- ٦ - «اللاهوت الطبيعي» في جزئين، نفس الموضوع سنة ١٧٣٦ - سنة ١٧٣٧ *Theologia naturalis*.
- ٧ - «الفلسفة العملية الكلية»، في نفس الموضوع، في جزئين سنة ١٧٣٨ - ١٧٣٩ *Philosophia practica universalis*.

وقد أعيد طبعها مراراً، وأسهمت في نشر شهرة قولف خارج ألمانيا، وخصوصاً في فرنسا وإيطاليا.

ولما اعتلى فريدرش الثاني عرش بروسيا - وكان من المعجبين بقولف - عاد قولف إلى هله في سنة ١٧٤٠. وصار قولف الممثل الأكبر لزرعة التنوير في ألمانيا؛ وحصل في سنة ١٧٤٥ على لقب *Reichsfreiherr* وعين مديراً لجامعة هله. وأتم مجموعة مؤلفاته بالمتون التالية:

- ٨ - «القانون الطبيعي معروضاً علمياً ومنهجياً» في ٨ مجلدات، فرنكفورت وليبتسك سنة ١٧٤٠ - سنة ١٧٤٨.
- ٩ - «قانون الأمم» (القانون الدولي)، هله سنة ١٧٤٩ *Jus gentium*.
- ١٠ - «نظم القانون الطبيعي»، هله سنة ١٧٥٠ *Insti-tutiones iuris nature*.
- ١١ - «الفلسفة الأخلاقية أو علم الأخلاق» في ٥

أساس أن كل نفس تمثل العالم وفقاً لخصائص أداها الجسمية المتحدة بها بواسطة الله .

وفي الأخلاق يؤكد فولف أن الخير والشر عقليان، وليس مجرد مشيئة الله .

وفي السياسة والاقتصاد يضع فولف نظرية الدولة البروسية والامتداد التنويري .

### مراجع

- C.G. Ludovici: Ausführlicher Entwurf einer vollständigen Historie der Wolffsichen Philosophie, 3 vols. Leipzig, 1736- 37.

- W. Arnspenger: Christian Wolffs Verhältnis zu Leibniz. Heidelberg, 897.

- P.A. Heilemann: Die Gotteslehre des Chr. Wolff. Leipzig, 1907.

- H. Levy: Die Religionsphilosophie Chr. Wolffs. Würzburg, 1928.

- E. Utitz: Chr. Wolff. Halle, 1929.

وعلى أساس التمييز بين المعرفة العقلية والمعرفة التجريبية، وكذلك التمييز بين المعرفة والإرادة بوصفها نشاطين أساسيين للعقل الانساني، يقسم فولف جماع المعرفة إلى:

١- علوم عقلية نظرية، وتشمل الانطولوجيا، وعلم الكون، وعلم النفس العقلي، واللاهوت الطبيعي .

٢- وعلوم عقلية عملية وهي: الفلسفة العملية والقانون الطبيعي: وتشمل: الأخلاق، السياسة، الاقتصاد .

٣- وعلوم تجريبية نظرية وهي: علم النفس التجريبي، واللاهوت أو علم الغايات التجريبي، والفيزياء التوكيدية .

٤- وعلوم تجريبية عملية وهي: التكنولوجيا، والفيزياء التجريبية .

أما الانطولوجيا فليست مجرد سرد لصفات الوجود، بل هي البرهان على أنه لا توجد أشياء غير محدثة تماماً، وعلى أن المادة محدثة وأنها مجموع من الجواهر البسيطة التي لها في داخلها مبدأ تغيرها .

وعلم الكون يبرهن على أن العالم جماع كل الموجودات المتناهية وهذه في علاقات تبادلية، وعلى أن الأجسام تتألف من عناصر بسيطة (ذرات الطبيعة)، وأنه لا يموت في العالم شيء اتفاقاً وبالصدفة، بل كل شيء خاضع فيه لنظام ضروري كالآلة . ولما كان العالم من حيث هو كل هو ممكن عرضي، فإن النظام فيه من صنع الله . والحجة الكونية أي القائمة على فكرة وجود نظام في العالم هي الأساس في اللاهوت الطبيعي .

واللاهوت الطبيعي يقال في مقابل اللاهوت الوضعي القائم على الوحي .

والنفس الإنسانية جوهر بسيط ذو قوة على الإدراك . وعلم النفس العقلي يبحث في الأمور الممكنة بواسطة هذه القوة . وعلم النفس التجريبي يتولى وضع المبادئ التي على أساسها يفسر - بواسطة التجربة - حدوث الظواهر في النفس الإنسانية . والعلاقة بين علم النفس التجريبي وعلم النفس العقلي تناظر العلاقة بين الفيزياء التجريبية والفيزياء التوكيدية، من حيث أن الأولى تزود الثانية بمبادئ الاستدلال . وفيما يتصل بالعلاقة بين النفس والجسم يأخذ فولف بمذهب الانسجام الأزلي (وهو مبدأ رفضه في ميدان علم الكون)، لكن هذا الانسجام لا يتوقف على الله وحده، بل وأيضاً على

### فويرباخ

#### Ludwig Feuerbach

فيلسوف ناقد للمسيحية، من اليسار الميخيلي .

ولد في ٢٨ يوليو سنة ١٨٠٤ في لندسهوت Landshut (بأقليم بافاريا في جنوبي ألمانيا)، وتوفي في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ .

وكان أبوه بول يوهان أنسلم Paul Johan Anselm أستاذاً للقانون مشهوراً، ونقل إلى جامعة لندسهوت المنشأة حديثاً . وأمضى لودفيج دراسته الابتدائية والثانوية في مدرسة لندسهوت . وقرر بعد ذلك التخصص في اللاهوت البروتستنتي، لأنه كان يميل إلى دراسة العاطفة الدينية وظل طوال حياته يعني بهذا الموضوع . وقد قال عن نفسه انه منذ بلوغه الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان مولعاً بدراسة الدين، ولم يكن مولعاً بالعلم ولا بالفلسفة .

وفي سنة ١٨٢٣ التحق بجامعة هيلبرج ليحضر

العقل الواحد ، الكلي ، اللامتناهي .» وبعث بهذه الرسالة إلى هيجل ومعها خطاب إهداء يصف نفسه فيه بأنه تلميذ هيجل المباشر الذي حاول أن يأخذ من روح أستاذه كل ما استطاع . لكن هيجل لم يرد على تزلّف هذا التلميذ .

وقد نشر فويرباخ هذه الرسالة في سنة ١٨٢٨ . وفي إثر ذلك عين مدرساً حرّاً Privatdozent في جامعة إيرلنجن ؛ حيث ألقى محاضرات في المدة من سنة ١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٢ ، وهذه المحاضرات جمعت في كتابه : « تاريخ الفلسفة الحديثة منذ بيكون حتى امينوزا » ، وقد طبع سنة ١٨٣٣ .

لكن الانتاج الرئيسي في تلك الفترة كان كتابه : « أفكاري عن الموت والخلود » ، الذي نشره سنة ١٨٣٠ . وسيعود إلى تناول الموضوع نفسه في كتابين هما : « مسألة خلود النفس من وجهة نظر الاثنولوجيا » ، و« حول أفكاري عن الموت والخلود » . وفويرباخ في مقدمة كتابه : « أفكار عن الموت والخلود » يصرّح بأنه يريد إلى تحويل الهيجلية إلى اتجاه أقوى وأشد واقعية ، وأن الإنسانية بسبيل أن يتحول تاريخها تحولاً عظيماً ، وأن هذا العصر ( عصره ) بداية عهد جديد من تاريخ الإنسان .

وتجلى هذا الانحراف بفلسفة هيجل أول ما تجلّى في إنكاره لخلود النفس الفردية ، لأن التعقل الكلي يمتص العقول الفردية ، فالخلود إذن هو للعقل الكلي ، للروح الموضوعية ، لا للنفس الفردية . ويتجلى ثانياً في إلحاده الشديد ، وفي عداوته القويّة للدين بوجه عام .

وعلى الرغم من أن فويرباخ نشر هذا الكتاب دون ذكر لاسم مؤلفه ، واحتاط كيلاً يعرف من هو ، فلم يورد اسم هيجل في الكتاب كله ، فإن السرّ ما لبث أن هتك في مدينة ارلنجن الصغيرة ، وعرف الناس أن مؤلف الكتاب هو المدرس الجديد في جامعة ارلنجن ، لودفيج فويرباخ . فاستشاط أساتذة الجامعة غضباً ضده وتنبأ له أبوه أنه لن يحصل أبداً على كرسي الأستاذية . وفعلاً تحققت نبوءة أبيه . فقد حاول فويرباخ الحصول على كرسي أستاذ في جامعة ارلنجن المرة بعد المرة ، فلم يفلح . وفي المرة الأخيرة ، وكان ذلك في سنة ١٨٤٥ ، أي بعد ظهور كتابه هذا بخمس عشرة سنة ، رشح نفسه من جديد . فقال له مدير الجامعة إنه مستعد لترشيحه إذا أثبت أن كتاب : « أفكار عن الموت والخلود »

محاضرات داوب Daub وباولس Paulus أما الثاني فلم يثر إعجاب لودفيج بسبب نزعة العقلية المغالية في فهم اللاهوت . أما داوب فكان مثلياً لهيجل ومتحمساً للتوفيق بين الفلسفة والدين ، بين العقل والايقان ، فمال إليه فويرباخ ، وسعى أن يوجه دراسته في هذا الاتجاه .

ثم انتقل إلى جامعة برلين في سنة ١٨٢٤ ، حيث كان هيجل يلقى محاضراته ، وحيث كان اللاهوت البروتستنتي يتولى تدريسه اشليرماخر ومارهينكه ويناندر . يقول فويرباخ في رسالة بتاريخ سنة ١٨٤٦ : « وصلت إلى جامعة برلين وأنا في حال من التمزق الشديد والشقاء والتردد وشعور في داخل نفسي بالتزاع بين الفلسفة واللاهوت ، وبأن عليّ إما أن أضحي بالفلسفة في سبيل اللاهوت ، وإما أن أضحي باللاهوت في سبيل الفلسفة » .

وقد حرص خصوصاً على حضور محاضرات هيجل . وقد أفاد منها أجزاء فائدة ، إذ مكنته من فهم كثير مما أشكل عليه حتى الآن ، فكتب إلى أبيه يقول : « لم تبدأ المحاضرات التي أ حضرها ( في برلين ) إلا منذ أربعة أسابيع - بيد أنني حصلت في هذه الأسابيع القليلة ربما أكثر مما كان عساني أن أحصله في أربعة أشهر في إيرلنجن Erlangen أو في أية جامعة أخرى . وكثير من المشاكل التي غمضت عليّ وأنا أدرس على داوب ؛ أو كانت غير مفهومة ، أو مثارة بالصدفة ومنعزلة ، صرت أفهمها بفضل بعض محاضرات ألقاها هيجل Hegel ، وأصبحت أدركها في ارتباطها وضرورتها » .

وأداه ذلك إلى الانصراف عن دراسة اللاهوت وتكريس نفسه لدراسة الفلسفة ، خصوصاً فلسفة هيجل . يقول في رسالة إلى أبيه بتاريخ ١٨٢٥/٣/٢٢ : « لا أستطيع بعد دراسة اللاهوت . صرت مثل نفسٍ متعطشة للامتلاك والقدرة : تريد أن تمتلك الكل وتلتهمه ، لا بوصفه مجموعاً تجريبياً ، بل بوصفه شمولاً تنظيمياً . ورجبتي ليس لها حدود ، بل هي مطلقة . أريد أن احتضن الطبيعة بقلبي ، تلك الطبيعة التي يتراجع أمام عمقها اللاهوتي الجبان ، والتي يسيء فهم معناها صاحب الفزياء ، ولا يستطع تحقيق النجاة لها إلا الفيلسوف » .

وتفرغ فويرباخ للفلسفة وحدها . وظل يتابع محاضرات هيجل في جامعة برلين من سنة ١٨٢٤ إلى سنة ١٨٢٦ . وأنهى دراسته في جامعة برلين برسالة بعنوان : « في



وفي سنة ١٨٤١ أصدر فويرباخ كتابه الرئيسي وهو : « ماهية المسيحية »؛ الذي يعتبر الكتاب المقدس للترعة الانسانية الملحقة. ولقي الكتاب رواجاً منقطع النظير ، فطبع للمرة الثانية في السنة التالية ، ( سنة ١٨٤٢ ) وللمرة الثالثة في سنة ١٨٤٨ .

وتلا ذلك ببعثين متكاملين هما : « الأقوال الموقوتة من أجل إصلاح الفلسفة » ، و « مبادئ فلسفة المستقبل » . وأولها قد حرره في سنة ١٨٤٢ وأراد نشره في « الحوليات الألمانية » ، لكن الرقابة منعت نشره فيها ، فنشره في العام التالي سنة ١٨٤٢ في (Anecdota) وكانت تصدر في أكثر من عشرين ورقة ، مما يعفيها من الخضوع للرقابة السابقة على النشر . . . أما البحث الآخر : « مبادئ . . . » فقد نشره في كتيب صغير من ٨٤ صفحة . وهذان البحثان يمثلان تطوراً بالغ الأهمية في فكر فويرباخ ، وسيكون لهما تأثير كبير في تطور الفكر اليساري .

وهكذا كانت الفترة من سنة ١٨٣٩ إلى سنة ١٨٤٣ أوج نضوج فكر فويرباخ . ومن ثم بدأ في الانحدار والانحلال فكتابه « ماهية الدين » الذي صدر في سنة ١٨٤٥ يكشف عن بدء انحلال فكره : إذ فيه تحلّي عن النزعة الانسانية وانحج إلى النزعة الطبيعية .

وقامت ثورة سنة ١٨٤٨ في كل بلاد أوروبا تقريباً ، وتبدت كما لو كانت انتصاراً للمبادئ السياسية والاجتماعية التي نادى بها اليسار الهيجلي . لكن فويرباخ تجنب الخوض فيها ، وظل بعيداً عنها . وليس هذا الموقف جليداً عليه ، فإنه لما طلب منه زميله في اليسار الهيجلي : أرنولد روجر Ruge وكارل ماركس أن يكتب مقالاً في سنة ١٨٤٣ لينشر في مجلتهما : « الحوليات الفرنسية الألمانية » التي كانت منبر حركتهم ، رفض فويرباخ محتجاً بأن الشعب الألماني لم يعد بعد الأعداد الايديولوجي الكافي .

لكنه لم ييخل بالاسهام النظري في ثورة سنة ١٨٤٨ ، حين طلب إليه بعض الطلاب في جامعة هيدلبرج أن يحاضرهم في الدين . فألقى سلسلة من المحاضرات ، في مبنى البلدية ، أمام حوالي مائة من الطلاب المتظمين ومثل هذا العدد من المستمعين العابرين ، وكانت تدور حول كتابه « ماهية الدين » .

وفي سنة ١٨٥٧ نشر آخر كتبه المهمة وهو كتاب :

ليس بقلمه . ولم يستطع فويرباخ طبعاً أن يقدم الدليل على ذلك ، فكان مصير طلبه الاخفاق .

إزاء هذا ، ماذا يفعل فويرباخ وقد حُرِم من الكرسي في الجامعة ، وما يستتبع ذلك من عدم اتصال بالشباب الحيوي وتبعد عن الجوّ العلمي ، وسوء الحال المالية ؟ ظل حائراً بين الثورة ، والاستسلام . وراح يعزّي نفسه في رسالة كتبها في سنة ١٨٤٦ : « لما كنت أشعر بالتقابل المطلق بين روحي والروح التي تنال المكافأة والحظوة ، فإنني لم أمل ، في أعماق قلبي ، في أن أعيّن أستاذاً . ولم أطلب شيئاً غير أن أكون في مكان أستطيع فيه أن أكون حراً لا يزعجني شيء ، وأن أتفرغ للدراسة ولتنمية وإظهار الأفكار والافتقاعات التي ترقد في نفسي » .

وتلقى الأمر برباطة جأش ، كما عبّر عن حاله في « يومياته » فقال : « إني لا أكون شيئاً إلا طالما كنت لست بشيء . وكما تمحور عقلي من الكنيسة ، كذلك يجب أن يتحرر الآن من الدولة . إن الموت المدني هو الثمن الذي ينبغي دفعه من أجل أن أحصل الآن على خلود الروح » .

أما أحواله المالية فقد تحسنت جداً بفضل زواجه في سنة ١٨٣٦ من برتاليف Bertha Löw التي كانت وريثة لقصر بروكبرج Bruckberg ولصنع للخزف والصيني بالقرب منه . وسكن الزوجان في جناح من هذا القصر ، وعاشا في هذا الجوّ الريفي الصافي الصحي في رفاهة ونعيم بين أحضان الطبيعة الفسيحة .

أما من الناحية الفكرية ، فقد انضم فويرباخ إلى جماعة اليسار الهيجلي . وكان أنصار هيجل قد انقسموا غداة وفاته في سنة ١٨٣١ إلى معسكرين : اليمين المحافظ ، واليسار الثوري . وأهم خصائص هؤلاء الهيجليين اليساريين أنهم كانوا ثائرين على السلطتين الرئيسيتين : الدولة ، والكنيسة ، وكانوا أعداءً للماضي والتقاليد والنظم الموروثة ، وبالجملة : كانوا ضد النظام القائم ، وكانوا متحررين من كل الروابط السياسية والدينية والاجتماعية . وفي الوقت نفسه كانوا عبيداً متعصبين لأفكارهم هم ، ونذكر من أسماء هؤلاء اليساريين الهيجليين : روجر Arnold Ruge وبرونو بلوخ Bruno Bauch ، وماكس استرنر Max Stirner ، لكن أبرزهم جميعاً كان صاحبنا : لودفيج فويرباخ . وقد انضم إليهم كارل ماركس فترة من الزمن وما لبث أن انفصل عنهم ليستقل باتجاهه العملي الثوري الاقتصادي في المقام الأول .



إفراغه من مضمونه الحقيقي ، أو الانحراف إلى ما يباعد تماماً بينه وبين روح مذهب هيغل .

وهكذا كان موقف لودفيج فويرباخ . فقد بدأ فلسفته بالمهجوم العنيف على مذهب هيغل . وكما يتمكن من هذا الهجوم ، تناول أضعف أجزاء فلسفة هيغل ، وهو فلسفة الطبيعة . فهو يأخذ على هيغل :

١ - أن ديالكتيكه عاجز عن الاحاطة بشمول العالم الواقعي

٢ - أنه أخضع الجزئي للعام ( الكلي ) ؛

٣ - أنه سعى إلى ادراك العيني بواسطة المجرد؛

٤ - أنه ضحى بالطبيعة في سبيل العقل ( الروح ) .

وفويرباخ يعني على الفلسفة الحديثة هذا الازدراء للطبيعة ، ويرجع ذلك إلى تأثير اللاهوت ، ويقول : « إن الفلسفة الحديثة نشأت عن اللاهوت ، إنها ليست إلا اللاهوت محلولة ومحولاً إلى فلسفة » . ولا يرى في هيغل إلا لاهوتياً متدنئاً يمسح الفيلسوف . لهذا ينادي بأطراح فلسفة هيغل قائلاً : « إن من لا يترك الفلسفة الهيجلية ، لا يترك اللاهوت ومذهب هيغل القائل بأن الفكرة هي التي تصنع الواقع ، ما هو إلا التعبير العقلي عن المذهب اللاهوتي القائل بأن الطبيعة قد خلقها الله » .

واللامتناهي الهيجلي مصبوب على قالب اللامتناهي في الدين ، أي وصف الله بأنه لا متناه .

ويعد هذا النقد ، بأخذ فويرباخ في بيان الجانب الايجابي من مذهبه .

إنه يريد أن يجرر الطبيعة من نير العقل ، وأن يجرر الوجود من طغيان الفكر . يقول : « حيث تتوقف الكلمات هناك فقط تبدأ الحياة ، وينكشف سر الوجود » . والسبيل المؤدي إلى الكشف عن سر الوجود ، هو سبيل الحواس . لكن ماذا يقصد فويرباخ بهذا ؟

إنه يرى أن الانسان ظل رديحاً طويلاً فريسة أوهام الفكر ، وهي أوهام لقتها إياه اللاهوت : وعلى الانسان أن يدرك حقائق الأشياء في الواقع ، هنالك سيجد أنها إنسانية وليست إلهية كما تخيل حتى الآن . فإذا ما تخلص الانسان من الخيالات الدينية ، اكتشف أبعاد العالم الحقيقي . يقول : « إن حقيقة الانسان الواقعية تتوقف فقط على الحقيقة الواقعية

« نسب الآلهة تبعاً للمصادر القديمة الكلاسيكية والعبرانية والمسيحية » . وفيه أراد أن يبين أن « إله » الدين هو تجسيد ما يتمناه الانسان لنفسه ولم يستطع تحقيقه . يقول : « ما ليس عليه الانسان فعلاً ، لكنه يريد أن يكونه ، يجعل منه إلهه ، أو هذا هو إلهه » .

ولم يلق هذا الكتاب أي نجاح ، نظراً لوفرة المعلومات التاريخية الغريبة عن ذهن القارئ، وقد حشدها المؤلف حشداً ، دون مبرر أحياناً ، مما يسبب للقارئ الملل الشديد .

وفي نفس الوقت أصابت فويرباخ محنة مالية شديدة ، ذلك أنه ظل منذ حوالي عشرين عاماً يعيش على ما يدره على زوجته مصنع الخزف والصيني في بروكبيرج . وإذا بهذا المصنع يعلن إفلاسه . فاضطر فويرباخ إلى ترك بروكبيرج والاقامة في بيت ريفي في ريشنبرج Rechenberg القريبة من نورنبرج ، وكان ذلك في سنة ١٨٦٠ .

في وسط هذه المحوم المالية التي ألتت به في السنوات الأخيرة من عجزه ، توفي لودفيج فويرباخ في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٢ ، وشيعه آلاف العمال ، وغالبيتهم من الحزب الاجتماعي الديمقراطي الذي كان فويرباخ قد انضم إليه ، شيعوه إلى مرقده الأخير في مقبرة القديس يوحنا في نورنبرج حيث كان يرقد أيضاً هانز ساكس ( ١٤٩٤ - ١٥٧٦ ) الشاعر المسرحي الألماني القديم ، وألبرشت ديرر ( سنة ١٤٧١ - ١٥٢٨ ) أعظم الرسامين الألمان .

#### فلسفته

##### ١ - نقد الهيجلية :

لكن أكبر محنة أصابت فويرباخ هي ذلك الربط المصطنع الزائف بين فكره وبين الماركسية ، وهو ربط ألح في توكيده الماركسيون وأشباعهم منذ أن أصدر فريدرش انجلز Engels كتابه : « لودفيج فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية » ( سنة ١٨٨٨ ) . فقد أساء إليه هذا الربط وجعله يقول ما لم يتفوه به ، وحصر أفكاره في نطاق لا شأن له به . والواقع أن الماركسية لم تأخذ من فويرباخ إلا إلهاده .

ووهم آخر ينبغي تبديله هو أن يظن أن التعبير : « اليسار الهيجلي » يفيد معنى أنهم من أتباع هيغل حقاً . والواقع أن اليسار الهيجلي أشد عداوة للهيجلية من أي مذهب آخر وكان شغلهم الشاغل هو تحطيم مذهب هيغل ، أو

الانسان .

ونقد الدين عند فويرباخ مقود كله بفكرة المغايرة alienation (← راجع هذه الكلمة في هذا الكتاب). لكن المغايرة عنده تنحصر في التنازل عن الانسان لصالح المطلق أو الله . وهي المغايرة التي يقوم عليها جوهر الدين .

ما الغاية من الإنسان عند فويرباخ ؟ « الانسان يوجد ليحرف ، ول يحب ، ول يريد . وتلك هي القوى العليا الثلاث في الانسان : العقل ، الحب ، الارادة . لماذا ثلاثة ؟ لان الديالكتيك الهيجلي يبني على ثلاث لحظات : موضوع ، تقيض موضوع ، مؤلف من الموضوع وتقيضه ، وكذلك لان فويرباخ يفكر في الثالث المسيحي . ولما أدرك الانسان أنه لا يستطيع بقواه الخاصة أن يحقق الحق ، والحب والخير ، فإنه أسقط هذه الصفات على إله وصفه بهذه الصفات . لقد نقل الانسان آماله الى كائن ذي درجة عليا سماه «الله» . ووحدة العقل هي وحدة الله . والارادة المولدة تفصل الانسان عن إلهه ، لأنها ، في مواجهة كمال أخلاقي ليس في متناولها فإنها تبقى على الانسان في الذل واليأس . ثم يأتي الحب فيضع حداً لهذا التصدع الأليم ويصلح ذات البين بين الانسان والله . لكنه تصالح وهمي ، مع ذلك ، لان الانسان وقد كشف له الدين عن ماهيته بوصفه انساناً ، فإنه يسلمه لكائن خارج ذاته ، هو الله ، وهو أمر يضرب بالانسان ، لان العقل الذي يعطي الانسان السيطرة على العالم يحتمي أمام الوهم الديني . لماذا يسعى الانسان إلى السعادة على الأرض ، مادامت السعادة الحقيقية هي تلك التي وعد بها الانسان في الآخرة ؟! وفيم السعي للتقدم المادي ، مادامت العناية الإلهية هي الكفيلة بكل شيء ؟!

والارادة ، وقد أسلمها الدين إلى المشيئة الإلهية ، لن يكون أملها سوى التنكر والاستسلام والتضويض الكامل الأعمى . ! على الانسان حينئذ أن يتخلى عن أن يسأل ضميره ، وأن يكفي بالتسليم للمشيئة الإلهية .

بقي الحب ؛ ويؤكد فويرباخ أن الدين يقسده أيضاً . فبدلاً من أن يكون مشاركة بين الانسان وسائر بني الانسان ، يقوم الحب الإلهي باستعباد الانسان ، واضعاً كل قواه في خدمة إيمان أسمى يقيم النزاع والكراهية ضد سائر صنوف الإيمان : أتباع دين ضد أتباع دين آخر ، وأتباع مذهب ضد أتباع مذهب آخر داخل الدين الواحد .

لموضوعه ؛ أن لا يملك شيئاً معناه أن لا يكون شيئاً .

إن الإدراك الحسي مباشر ، وجوهري ، لأن الموجود المدرك بالحس هو وحده الذي لا نزاع فيه .

ب - النزعة الانسانية الملحنة :

قلنا إن فويرباخ رأى في فلسفة هيجل لاهوتاً مُقْتَباً ، وبدا له أن « الموجود » عند هيجل هو « المطلق » في اللاهوت . فدعاه ذلك إلى نقد الدين .

وكان النقد التاريخي للمسيحية قد ازدهر في تلك الفترة ازدهاراً عظيماً بفضل دافيد اشتراوس ، وكروستيان بلور ومدرسة توينجن . فكتب دافيد فريدرش اشتروس كتابه الشهير الذي أحدث ثورة في التأريخ لحياة المسيح بعنوان : « حياة المسيح » ( سنة ١٨٣٥ - سنة ١٨٣٦ ) وفيه قرر أن العقائد المسيحية هي مجرد أساطير ، وحلول وصف حياة المسيح اعتماداً على المضمون الإيجابي للأناجيل وحدها . وجاء برونو باور Bruno Bauer في كتابه : « نقد تاريخ حياة المسيح كما ورد في انجيل يوحنا » ( سنة ١٨٤٠ ) و« نقد تاريخ حياة المسيح كما ورد في الأناجيل الأربعة » ( سنة ١٨٤١ ) وطبق على المسيحية معايير النقد المثالي . وكلاهما - اشتراوس وباور - كما ذكرنا من قبل هما من اليسار الهيجلي ، تماماً مثل فويرباخ . لكن بينما كان نقدهما تاريخياً قائماً على الوثائق التاريخية ، كان نقد فويرباخ للمسيحية نقداً قائماً على علم النفس . ذلك أن فويرباخ أراد أن يستخلص من الأناجيل المطامح النفسية للإنسان والقوى اللامعقولة في الطبيعة الانسانية . وفويرباخ يبين اختلاف وجهة نظره عن وجهة نظر زميله هذين ، في مقالة الطبعة الثانية من كتابه : « ماهية المسيحية » فيقول : « إن الفارق بيني وبينها واضح من عنوانات مؤلفاتنا . إن برونو باور اتخذ موضوعاً لنقده : التاريخ الانجيلي ، أي المسيحية الكتابية أو بالأحرى اللاهوت الكتابي . ودافيد اشتراوس David Strauss اتخذ موضوعاً لنقده العقيدة المسيحية وحياة المسيح التي يمكن أن تندرج ضمن العقيدة المسيحية أيضاً . أما أنا ففعل العكس من ذلك اتخذ موضوعاً لنقدي : المسيحية بوجه عام ، أعني الدين المسيحي ، وبالتالي ، الفلسفة أو اللاهوت المسيحيين ، وهدفه الرئيسي هو المسيحية ، الدين بالقدر الذي هو به الموضوع المباشر ، والماهية المباشرة للإنسان . والتحصيل والفلسفة هما في نظري وسائل فقط للكشف عن الكثر الدفين في

بيننا نجد الماركسية ، وعلى رأسها كارل ماركس ، يتقد فويرباخ نقداً عنيفاً وذلك في كتابه « أقوال تتعلق بفويرباخ » ( سنة ١٨٤٥ ) إذ يأخذ أولاً على فويرباخ أن ديالكتيكه استاتيكي وليس ديناميكيًا لأنه يفصل الفكر عن الوجود . ويأخذ عليه ثانياً أنه ينظر إلى الانسان من ناحية النوع الطبيعي ، فاصلاً إياه عن المحيط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، فإنسان فويرباخ - بحسب ماركس - هو تجريد محض ، لأنه مفصول عن تاريخه ، وعن مجرى الأحداث السياسية والاقتصادية .

#### نشرات مؤلفاته

طبع مجموع مؤلفات فويرباخ في طبعيتين مختلفتين : الأولى أصدرها فويرباخ هو نفسه تحت العنوان التالي :

- Ludwig Feuerbach: Sämtliche Werke. Leipzig, 1846-1866.

والطبعة الثانية أكبر من الأولى بكثير ، وأشرف على إصدارها W. Bolin و يودل FR.Jodl . تحت عنوان :

- Ludwig Feuerbach : Gesammelte Werke heraus gegeben von W. Bolin und FR. Jodl . Stuttgart, 1903 1911.

كذلك نشرت مراسلاته ، وقام بنشرها أولاً كارل جري Karl Grui ( لبيتسك سنة ١٨٧٤ ) ثم بولن Wilhelm Bolin ( لبيتسك سنة ١٩٠٤ ) .

#### مراجع

- Franz Grégoire : Aux sources de la Pensée de Marx : Hegel, Feuerbach, pp. 141- 191. Louvain, 1947.

- Henri Orvon: Ludwig Feuebach et la Transformatin du sacré. Paris, 1957.

- Henri Arvon: Feuerbach: Sa vie, son ouvre. Collection: Philosophes P.U.F., 1964.

#### فيلسوف

#### Max Weber

فيلسوف اجتماعي واقتصادي وسياسي ألماني .

وانتهى فويرباخ من هذا كله إلى تأكيد أن الدين عقبة في سبيل تقدم الانسان مادياً ، ومعنوياً ، واجتماعياً . ولهذا ينبغي على الانسان ، فيما يزعم فويرباخ - أن يتحرر من سلطان الدين .

وهو يتصور أن الانسان سعى منذ وقت طويل إلى السير في طريق التحرر من الدين ؛ ومرّ في ذلك بثلاث مراحل :

١ - في المرحلة الأولى كان الانسان والله ممتزجين معاً في حضن الدين ؛

٢ - وفي المرحلة الثانية أخذ الانسان يتباعد عن الله كما يسترد ذاته ويستقل بقواه . وكان اللاهوت هو التعبير عن هذا السعي ؛ رغم ما يبدو في ظاهره من أنه دفاع عن العقائد الايمانية بالطرق العقلية . إذ انتهى اللاهوت إلى توكيد وجود هوة محيطة تفصل بين الانسان والله ، وإلى توكيد العلو المطلق لله ، وبالتالي البعد الهائل بينه وبين الانسان .

٣ - وفي المرحلة الثالثة ، وهي التي يدعو فويرباخ إلى السعي الحثيث في سبيل تحقيقها ، هي مرحلة الانثروبولوجيا (= علم الانسان ) التي فيها يسترد الانسان ماهيته ويملك جوهره من جديد . لقد أصبح الانسان يعرف أن العلاقة بينه وبين الله ليست إلا إسقاطاً للعلاقة الموجودة بين الكائن الانساني وبين النوع الانساني . وعلى الفرد الانساني أن يسعى ، في نطلق مجاله ، إلى تحقيق الأهداف المشتركة بين أبناء النوع الانساني كله . لقد صلب الانسان ، في اطار النوع الانساني كله ، إلهاً بالنسبة إلى الانسان .

وتلك هي النزعة الانسانية كما يتصورها فويرباخ . إنها تجعل من الانسان كائناً مطلقاً ، وتمجد القيم الانسانية المحضة ، ولا تعترف بأي كائن فوق الانسان .

لكن أغرب ما في الأمر ، هو أن اللاهوت البروتستنتي ، خصوصاً عند كارل بارت Karl Barth ( في مقاله : « اللاهوت والكنيسة » ) ، يشعر بالقرور من نزعة فويرباخ الانسانية هذه ويقول إنها تتفق مع التقاليد المسيحية القديمة ، بدعوى أن السعي إلى السعادة على الأرض لا يتعارض مع بلوغ السعادة في الآخرة وأكثر من هذا يؤكد كارل بارت أن « من ينكر دنيا الانسان ، ينكر آخرة الله » . وخطأ فويرباخ الوحيد في نظر كارل بارت واللاهوت البروتستنتي المنبثق عنه هو قوله بالهوية بين الله والانسان .

نفسه اهتم بالسياسة ، وراح يجري دراسات ميدانية لأحوال العمال الزراعيين في شرقي نهر الالب Elbe وساعده على الاشتغال بالسياسة أنه استطاع أن يتعرف في منزل أبيه إلى كثير من الشخصيات السياسية الألمانية في ذلك العصر .

وقد تقلب في تلك الفترة بين اتجاهات سياسية متباينة . فتأثر أولاً بأراء أستاذه ترتشكه الذي كان من أقوى دعاة الوحدة الجرمانية الشاملة Pangermanism . لكن قيبر لم يكن شديد الحماسة لسياسة بسمرك ، ولم ير ضرورة لمعاداة انجلترا أو معاداة اليهود . وهو كان قد انضم منذ سنة ١٨٨٨ إلى « التجمع من أجل العمل الاجتماعي » ، وهي حركة ذات ميول اشتراكية معتدلة جداً ، تحبذ المزيد من تدخل الدولة في المجال الاجتماعي . وفي الوقت نفسه كان مثابراً على الاشتراك في مؤتمرات « المسيحيين الاجتماعيين » إلى جانب أدولف فون هرنك A. von Harnak مؤرخ العقائد الشهير ، وجوره Göhre ، وكانت هذه الحركة ذات ميول يسارية وترجمها نومن F. Noumann وكان قسيساً برونتستياً . وفي سنة ١٨٩٣ انضم إلى « عصبة الوحدة الجرمانية الشاملة » ، ومن أجلها ألقى عدة محاضرات عن المشكلة البولندية ؛ لكنه انفصل عنها في سنة ١٨٩٩ ، بينما بقي على صلة - طوال حياته - بجماعة « التجمع من أجل العمل الاجتماعي » . وتلا ذلك تقارب بينه وبين الحزب الاشتراكي الألماني ، لكنه لم ينضم إليه لأنه كان يفرغ من التنظيم البيروقراطي لهذا الحزب .

ونعود إليه أستاذاً في الجامعة ، فنقول إنه عين ، في سنة ١٨٩٤ ، أستاذاً لكرسي الاقتصاد السياسي في جامعة فرايبورج Freiburg (في جنوبي ألمانيا) ، وهو الكرسي الذي شغله قبل ذلك بعض أصدقائه ، ومنهم هنريش ريكتر Rickert . من هذه الجامعة ألقى المحاضرة الافتتاحية المشهورة وعنوانها : « الدولة القومية والسياسة الاقتصادية » .

وبعد ذلك بعامين ، في سنة ١٨٩٦ ، خلف أستاذه في الاقتصاد كنيس K. Knies أستاذاً في جامعة هيدلبرج . وانشغل آنذاك بمشاكل اقتصادية مثل مشاكل البورصة ، المشاكل الزراعية ، الخ .

بيد أنه مرض مرضاً شديداً في سنة ١٨٩٩ ، وأمضى عدة أشهر في مصحة . بعدلما قام برحلات في سويسرة وإيطاليا وقورسقه واقليم البروفانص ( في جنوبي فرنسا ) طلباً

ولد في ٢١ أبريل سنة ١٨٦٤ بمدينة ارفورت Erfurt . وكان أجداده لأبيه من رجال الصناعة البروتستنت في مدينة بيلفلد Bielefeld ( بمقاطعة وستفاليا في غربي ألمانيا ) . لكن أباه سلك سبيل السياسة ، فأصبح مستشاراً في مجلس مدينة برلين ، ثم عضواً في مجلس النواب البروسي ، ثم عضواً في مجلس نواب كل ألمانيا المعروف بالرايشتاج Reichstag ويتسب إلى حزب صغير برئاسة بنجزن Bennigsen يدعى حزب الأحرار الوطنيين .

وتعلم ماكس قيبر في المدارس الثانوية في برلين حيث حصل على شهادة اتمام الدراسة الثانوية ( الثانوية العامة ) في سنة ١٨٨٢ وهو في الرابعة عشرة من عمره . وكتب أول مقالاته - وهو في الخامسة عشرة من عمره - بعنوان : « تأملات في خصائص وتطور وتاريخ الشعوب في الأمم الهندية الجرمانية » .

أما دراسته الجامعية فقد قضاها أولاً في جامعة هيدلبرج حيث تتلمذ على الاقتصادي كارل كنيس Karl Knies وعلى مؤرخ الفلسفة الحديثة المشهور كونوقشر . ثم أدى الخدمة العسكرية ، وبعد ذلك واصل دراسته الجامعية في جامعة برلين ، حيث تتلمذ على مومسن ، مؤرخ التاريخ الروماني ، وترتشكه المؤرخ والسياسي ، وجيركه Gierke القانوني ، وفون جايبست Von Geist وجولد شممت Goldschmitt الاقتصاديين . كما أتقن وهو لا يزال طالباً ، اللغات : الفرنسية والانجليزية والاطالية والإسبانية . وفي سنة ١٩٠٥ بدأ في تعلم الروسية .

وأتمى دراسته الجامعية في جامعة جتتجن Göttingen ، وأعد رسالة الدكتوراه الأولى في موضوع في الاقتصاد بعنوان : « من تاريخ الجمعيات التجارية في العصر الوسيط » وناقش الرسالة في سنة ١٨٨٩ . ثم حصل على دكتوراه التأهيل للتدريس في الجامعة Habilitation في سنة ١٨٩١ ، وكانت في موضوع عن الزراعة في العصر القديم ( اليوناني الروماني ) . وعنوانها : « التاريخ الزراعي الروماني من حيث أهميته للقانون المدني والقانون الخاص » . ومن ثم انخرط في سلك التدريس في الجامعة شأنه شأن أخويه : ألفرد قيبر ، عالم الاقتصاد وفلسفة الحضارة الشهير في جامعة هيدلبرج ، وكارل قيبر الذي قتل في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ . فتولى ماكس قيبر القاء محاضرات في الاقتصاد بديلاً لأستاذه القديم جولد شممت حين يكون مريضاً . وفي الوقت

بدأه قبل ثلاث سنوات بعنوان : « الاقتصاد والمجتمع » ، وقد توفي دون أن يتممه . كما أخذ في تحرير كتابه : « علم الاجتماع الديني » ، وقد ظهر منه الجزآن الأول والثاني في سنة ١٩١٦ .

وكتب في سنة ١٩١٦ مقالات ضد تصعيد حرب الغواصات وتصرفات القادة العسكريين والسياسيين ، وذلك في « جريدة فرنكفورت » ، فاستاءت منه السلطات الحكومية والعسكرية ، فشددت الرقابة على كتاباته .

وفي سنة ١٩١٧ ظهر الجزء الثالث من كتابه « الاجتماع الديني » ، ودراسة عن « الحياض التقويمية » .

وفي بداية سنة ١٩١٨ سافر إلى فيينا لألقاء سلسلة محاضرات طوال فصل دراسي في جامعة فيينا .

وابتداء من صيف سنة ١٩١٨ اتسع نشاطه السياسي ، فراح يطالب بأن يعتزل الامبراطور قلهلم الثاني العرش . لكنه في الوقت نفسه كان يعارض بشدة حركة « السلام بأي ثمن » التي انتشرت في بعض الأوساط الألمانية آنذاك . وكتب في « صحيفة فرنكفورت » سلسلة مقالات خطط منها مشروع دستور جمهوري فدرالي ، وألقى محاضرات في مانهيم ومنشن ، أثارت اضطرابات شديدة . وبعد هزيمة ألمانيا وإعلان الهدنة في نوفمبر سنة ١٩١٨ انضم ، بإلحاح من أخيه الفرد ومن تاومان ، إلى « الحزب الديمقراطي الألماني » .

وفي بداية سنة ١٩١٩ ألقى على جمعية « الطلاب الأحرار » محاضرتين الأولى عن : « رسالة العالم » ، والثانية عن « رسالة الرجل السياسي » . وإيحاء من الأمير ماكس فون بادن Max von Baden أسس في بيته في هيدلبرج « التجمع عن أجل السياسة بالقانون » . وفي ١١ مارس سنة ١٩١٩ اشترك في المظاهرة الضخمة التي سارت في هيدلبرج للاحتجاج على معاملة فرساي والدعوة إلى قيام ثورة وطنية في ألمانيا . وبدعوة من الكونت Brockdorff-Rantzau سافر إلى باريس للاشتراك في المناقشات الجارية بشأن قروض ديون على ألمانيا . ولما عاد من باريس إلى برلين طالب المارشال لوندورف بالثول أمام محكمة عسكرية للأعداء ، وفي الوقت نفسه دافع عن ألمانيا وحقوقها القومية ، وصاح في يونيو سنة ١٩١٩ قائلاً « ليس أمامنا غير هدف واحد هو أن نجعل من معاملة فرساي قصاصة ورق » .

وعاد في سنة ١٩١٩ إلى جامعة هيدلبرج بعد أن كان

لاستعادة صحته . ثم أعلن عن استئناف دروسه في خريف سنة ١٩٠١ لكن حالته الصحية لم تمكنه من ذلك ، وأخيراً اضطر إلى ترك الجامعة نهائياً في سنة ١٩٠٢ ، بعد أن حال المرض دون إمكان قيامه بوظيفة الأستاذية .

لكن حالته المرضية هذه هي التي حولته إلى اتجاه فكري آخر . فقد حملته الراحة الاجبارية على التأمل والتعمق في فلسفة الاقتصاد ، وفي نظرية المعرفة ، وفي علم الاجتماع ، وفي الوقت نفسه صار حراً في القيام بما يشاء من أسفار . فسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية في سنة ١٩٠٤ ، كما سافر إلى هولندا وأقام فترة في جزيرة صقلية ، وفي إنجلترا ، وفي باريس ، الخ .

وفي سنة ١٩٠٣ ظهر أول كتاب له في ميدان مناهج البحث في الاقتصاد ، وعنوانه : « روشر Roscher وكنيس Knies والمشاكل المنطقية للاقتصاد التاريخي » وكتب مقالاً عن « موضوعية المعرفة في علم الاجتماع وفي علم السياسة الاجتماعية » ( في مجلة « محفوظات في علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية » ، سنة ١٩٠٤ ) .

وفي سنة ١٩٠٥ نشر دراسته المشهورة عن : الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية .

وصار منزله في هيدلبرج مكاناً يلتقي فيه الفلاسفة والاقتصاديون ورجال القانون والشعراء والسياسيون ، نذكر منهم : جورج زمل Simmel وفرنر زومبرت W. Sombart وكارل يهيز K. Jaspers والشاعر الكبير امستن جيورجه S. George والناقد الأدبي والمؤرخ فريدرش جوندولف F. Gundolf وجورج لوكش G. Locacs . ميكلز R. Michels وغيرهم من صفوة أعلام الفكر والأدب في ألمانيا إبان تلك الفترة .

وفي سنة ١٩١٠ أنشأ مع بعض أصدقائه « الجمعية الألمانية لعلم الاجتماع » .

وكان يكتب في « صحيفة فرنكفورت » Frankfurter Zeitung مقالات مختلفة الموضوعات . وكان يهاجم سياسة الامبراطور قلهلم الثاني ، خصوصاً في الشؤون الخارجية . لكن لما قامت الحرب العالمية الكبرى في سنة ١٩١٤ تطوع للخدمة العسكرية ، فألحقته القيادة الألمانية بالقسم الصحي في الجيش . بيد أنه طلب إعفائه في سنة ١٩١٥ فأعفي منها نظراً لضعف صحته . فعاد لاستئناف العمل في كتابه الذي

قد تركها في سنة ١٩٠٣ .

بيد أن جامعة منشن (ميونخ) دعتة لشغل كرسي علم الاجتماع الذي أنشأته . فوافق على الدعوة وبدأ محاضراته في جامعة منشن ، لكن محاضراته كانت كثيراً ما تنتهي (أو تبدأ) بالاضطراب والهياج اللذين يثيرهما الطلاب اليمينيون ، وكانوا قد احتلوا مقاعد القاعة التي يحاضر فيها احتجاجاً عليه بسبب موقفه من قضية الكونت أركو Arco ، الذي اغتال كورت ايسنر Kurt Eisner رئيس الحكومة الثورية في مقاطعة بافاريا .

لكنه ما لبث أن توفي بعد قليل من استئنافه لمحاضراته في جامعة منشن (ميونخ) ، وذلك في ١٤ يونيو سنة ١٩٢٠ في مدينة منشن .

#### آرائه الفلسفية

أسهم ماكس فيلر بنصيب ملحوظ في فلسفة الاقتصاد ، وفلسفة السياسة ، وفلسفة الحضارة ، وفلسفة الدين ، أي في الفروع العملية من الفلسفة بمعناها الأعم ، لكنه لم يسهم في علوم الفلسفة بمعناها الأخص ، أي : ما بعد الطبيعة ، والمنطق والأخلاق .

وقد تأثر فيلر بالماركسية الفلسفية في شبابه ، لكنه ما لبث أن انصرف عنها إلى مذهب نيتشه في إرادة القوة والدعوة إلى السيادة ، وتحلل ذلك بين الحين والحين نزوات ليبرالية .

وقد أصاب جوليان فرويند Julien Freund ( وماكس فيلر « ص ١٧ باريس سنة ١٩٦٩ ) حين وصف اتجاه ماكس فيلر بشكل عام فقال : « كل فلسفته تتركز على وجود منازعات ، وتوترات . . . وتصادمات في الحياة وفي المجتمع . فالإنسان في صراع دائم مع الأطراف ، ومع البدائل ، ومع المقابلات . وحسب المرء أن يقرأ بعناية أي كتاب من كتبه ليفرك الترجيح المستمر بين المعقول واللامعقول ، بين التجربة الحية والتصوير العقلي ، بين الواقع اللامتاهي وتناهي المعرفة ، بين الشرح والفهم ، بين الإيمان والمعرفة ، الخ . . . » .

إن الحياة كفاح متواصل ، وهذا الكفاح يرتبط بإرادة تحطيم العقبات التي تحول بين الإنسان وبين بلوغه أغراضه بسبب هدم كفاية وسائل الإنسان الكمية والكيفية لاجتياز هذه العقبات أو التغلب عليها . ومن العيب أن يؤمل

الإنسان في إمكان حل هذه المنازعات ورفع هذه التوترات ذات يوم . فالإنسان مقدر عليه أبداً أن يظل في هذا الصراع الشاق الدائم . ويقول في دراسة عن « الحيات التقويمي » : « إن هذا الصراع القاتل الذي لا نجاة منه ، شبيه بصراع الله مع الشيطان » .

وعن هذا الموقف نتج نتيجتان : الأولى هي أنه لا يمكن حدوث أي انسجام سواء أكان انسجاماً مقدرًا قدرًا سابقاً ، أم كان انسجاماً من صنع الإنسان . وكل ما يمكن عمله هو العثور على تسويات وتوفيقات Compromis مؤقتة وهشة لكن التسوية ليس لها أية قيمة موضوعية . إنها مجرد ترتيب يمكن من العيش ، وذلك بالتهرب من المشاكل الحقيقية وما « روتين » الحياة اليومية إلا تسوية من هذا النوع . وفيلر يرى في هذا الوضع مأساة الحضارة فيقول : « إن جموع الآلهة القدماء يخرجون من قبورهم على هيئة قوى غير مشخصة . . . وتسعى من جديد إلى الإلقاء بحياتنا في قبضة سلطانها في نفس الوقت الذي فيه تستأنف صراعاتها السرمدية . ومن هنا نحيا ألوان العذاب التي يتردى فيها إنسان العصر الحديث والتي يكون الشعور بالأمها أقوى عند الجيل الجديد : كيف يمكن السمو فوق مستوى الحياة اليومية المعتادة ؟ إن كل تطلع إلى « تجارب حية » إنما مصدره هذا الضعف ، لأن من الضعف ألا يستطيع المرء أن يواجه المصير القاسي لعصره وذلك هو مصير حضارتنا : إن علينا أن نشعر ، من جديد ، بهذه التمزقات التي أفلح في تجميعها - طوال ألف سنة - توجيه حياتنا وفقاً للوجدان الهائل المنبعث من الأخلاق المسيحية » . والأديان ، إلى جانب السياسة ، هي النشاطات الرئيسية للتسوية التي تهدف إلى المساعدة على احتمال العيش .

وما يهم فيلر في الظاهرة الدينية ليس هو اللاهوت ( إثبات وجود الله وصفاته ) ، بل الأقوال المتعلقة بتبرير وجود الشر في العالم ؛ وتحاول أن توفق بين النزاعات التي تعج بها الحياة والوجود ، والتي لا مسيل إلى التغلب عليها . ذلك لأن الافتراض الصريح - أو الضمني - لكل لاهوت هو اعتقاد في وجود انسجام أو وحدة أصلية . ومن هذه الناحية فإن الماركسية قريبة الصلة بالأديان ، لأن الماركسية هي الأخرى في تفسيرها للمغايرة alienation تستند إلى وحدة أصلية مزعومة في الطبيعة ، وحدة بين الإنسان والمجتمع . والماركسية - شأنها شأن المسيحية أو البوذية - هي منهج في الحياة يعيظه ما في العالم



وكل هذه المنافسات والمنازعات تؤدي إلى تكوين احتكارات متنافسة فيما بينها . يقول قيير إنها ليست خاصة بال رأسمالية وحدها، إن الاشتراكية لا تجارب إلا بعض أنواع الاحتكار وهي في الوقت نفسه تنشأ احتكارات من أنواع أخرى . فمتى يكون هناك احتكار ؟ يوجد الاحتكار متى ما يضع الاقتصاد أسواراً وحواجز من أجل زيادة فرص نشاطه نحو الخارج ، سواء على مستوى المنافسة الدولية أو على مستوى الترشيد rationalisation الداخلي . إن الاشتراكية تميل إلى تكوين مجموعات اقتصادية مغلقة ، بينما الرأسمالية تميل إلى التجميع المفتوح ومن ثم تنشأ منافسة جديدة بين الاقتصاد المغلق (الاشتراكي) والاقتصاد المفتوح (الرأسمالي) . بين الاقتصاد الموجه والاقتصاد المرسل ، بين الاقتصاد المخطط والاقتصاد الحر ، بين نظام الملكية العامة ونظام الملكية الخاصة ، أو بلغة هذه الأيام بين القطاع العام والقطاع الخاص .

#### ب) التنازع في ميدان الدين :

والمنازعات في ميدان الدين عديدة وحادة مثل تلك الموجودة في ميدان الاقتصاد . خصوصاً وأن الدين يقوم أساساً على التوتر بين هذا العالم ( الدنيا ) وبين العالم الآخر ( الآخرة ) . ففي ميدان الدين نجد أولاً التضاد بين الأديان الأخلاقية مثل ديانة كونفوشيوس ، وبين أديان الخلاص ( النجاة في الآخرة ) .

ونجد ثانياً التضاد بين الأديان التي تتمسك بالآيمان الباطن الحيّ ذي الطابع الصوفي ، أو القائم على المعجزات والنبوءات ، وبين الأديان التي تتعلق خصوصاً بالفرائض الدينية والشعائر والطقوس والمراسم الخارجية - للعبادات . وينجم عن هذا تباين في فهم مهمة رجل الدين : هل هو خادم الله ، أو موظف في نظام تصاعدي ؟ . ولا يقلت أي دين من الجدال حول السلفية والتجديد .

وكيف يمكن التوفيق بين سلوك العابد المتبتل المنقطع للعبادة ، وبين سلوك الانسان العادي الذي يعيش حياة الناس اليومية ؟ بين السراهب الكاثوليكى الذي تحلى عن الدنيا وفرّ منها ، وبين المتطهر Puritan البروتستنتى الذي يبقى في حومة نشاط الحياة ؟ إن قيير في نهاية المجلد الأول من كتابه « اجتماعيات الدين » Religionssoziologie يشير إلى التوترات التالية : التوتر بين الدين الجديد وبين الديانات

من لا معقولة ، أعني التصادم المستمر مع المنازعات الحتمية وتسمى إلى تسوية على هيئة نظام من التعويض في المستقبل . وموقف قيير هو التسليم بالتسويات الوقتية المقيدة ، وفقاً للظروف ، والتخلي عن السعي إلى إيجاد توفيق نهائي بين الأضداد ، والمنازعات ، والتوترات .

والمحدد الحقيقي - في نظر قيير - ليس هو من يضع غاية نهائية كائنة ما كانت محل الله ، سواء أكانت هذه الغاية هي الثورة ، أم الحرية ، أم الشيوعية - فإن هذا المحدد زائف لأنه يشد بدلاً عن الله ، على هيئة بديل ديني زائف هو الثورة ، أو الشيوعية . وإنما المحدد الحقيقي هو من يقبل - دون شكوى ولا تأفف - لا معقولة عالم مُسلم إلى التنازعات ، دون القيام بأية محاولة للتوفيق أو المصالحة بينها .

والنتيجة الثانية هي رفض الديالكتيك بالمعنى الفلسفي الخاص ، أي بالمعنى الهيجلي وبالمعنى الماركسي . إذ هو يأخذ على المنهج الديالكتيكي ادعاه القدرة على التغلب على المتناقضات والمنازعات المرتبطة بحال الإنسان ، وذلك بواسطة مصالحة نهائية في مستوى التصورات .

#### أ) التنازع في ميدان الاقتصاد :

ويوجه قيير عناية خاصة إلى المنازعات القائمة في ميدانين : ميدان الاقتصاد ، وميدان الدين .

أما المنازعات في ميدان الاقتصاد فواضحة كل الوضوح ، وتتجلى خصوصاً في المنافسة الاقتصادية : في التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، الخ . لكن ينبغي تحديد مفهوم هذه الكلمة : « منافسة » لأن الأيديولوجيات قد شوشتها . تزعموا أولاً أن المنافسة هي الأساس في نظرية الحرية الاقتصادية ( النظرية الليبرالية ) . وهذا غير صحيح ، لأن المحرك في المذهب الليبرالي في الاقتصاد هو حرية التبادل . أما المنافسة فموجودة في طبيعة كل اقتصاد ، كائناً ما كانت نظريته ، ولهذا فإن الاقتصاد يكون تربة مواتية لكل المنازعات الناشئة عن المنافسة بين الحاجات ووسائل إشباعها ، وعن تباين المصالح الخ . وإلى جانب التنافس في النفوذ في ميدان الاقتصاد الدولي ، فإن كل اقتصاد قومي منقسم بين قطاعات يمكن أن يقع بينها تنازع ، حسبها يتصور كل واحد منها أن قطاعاً آخر يضر بمصالحه ، مثلما هي الحال في التنازع بين قطاع الصناعة وقطاع الزراعة ، بين التنمية الصناعية والتنمية الزراعية .



- Gesammelte Aufsätze zur sozial- and Wirtschaftsgeschichte. Tübingen, 1924.
- Gesammelte Aufsätze zur Soziologie and Sozialpolitik. Tübingen, 1924.

### مراجع

- E. Baumgarten: Max Weber, Werk and Person.. Tübingen 1964.
- R. Bexdix: Max Weber, an intellectual Portrait.. New York, 1962.
- L. Bennin: Max Weber's Methodology, 1934.
- L. Cavalli: Max Weber, religione e societa. Bologna, 1968.
- J. Freund: Sociologie de Max Weber. P.U.F. Paris, 1967.
- J. Freund: Max Weber. Paris, P.U.F. 1969.
- D. Henrich: Die Einheit der Wissenschafts lehre Max Webers Tübingen, 1952.
- K. Jaspers: Max Weber, Politiker, Forscher, Philosoph. 3. Aufl. München, 1958.
- A. Mettler: Max Weber und die Philosophische Problematik in unserer Zeit. Leipzig, 1934.
- W. Mommsen: Max Weber und die deutsche Politik. Tübingen, 1959.
- A. v. Schelting: Max Webers Wissenschaftslehre. Tübingen, 1934.
- M. Weber: Max Weber. Ein Lebensbild. 2. Aufl. Heidelberg, 1950.
- M. Weinreich: Max Weber, L'homme et le savant. Paris, 1938.
- Max Weber zum Gedächtnis, numéro speciel de Köl-nische Zeitschrift für Soziologie, 1963.
- Max Weber und die Soziologie heute. Tübingen, 1965.

### فيلون

#### Philo Judaeus

أول فيلسوف يهودي، جمع بين الفلسفة واللاهوت ويعتد

القائمة في المجتمع الذي يظهر فيه الدين الجديد ( مثلا : بين الإسلام من ناحية والأديان الكتابية والجاهلية الوثنية من ناحية أخرى)؛ التوتر بين الدين والاقتصاد؛ التوتر بين الدين والسياسة وفقاً لكون الدين يتصالح مع السلطة الدنيوية أو يقاومها؛ التوتر بين الدين والفن، إذ كثيراً ما ينظر الدين إلى الفن نظرة ارتياب واتهام (ومن هنا مذهب تحطيم الصور، ومنعها في الكنائس البروتستنتية، وتحريم تصوير الانسان في بعض الأديان سواء بالرسم أو بالنحت).

وأعمق تحليلات قيير في هذا الباب تحليله للتضاد (أو التوتر) بين الدين والاقتصاد؛ وذلك في دراسته الشهيرة بعنوان: «الأخلاق البروتستنتية - وروح الرأسمالية». ويقوم هذا التحليل على تفسير التوتر الملازم لسلوك رجل الأعمال البيوريتاني (البروتستنتي). فإن زهد الأخلاقي والديني يمنعه من استخدام أمواله في خدمة استمتاعه الشخصي، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن رسالته بوصفه خالقاً للثروة تدعوه إلى مضاعفة أمواله. وقد ثار جدال حول مقصود قيير من هذا القول، لكن يبدو أنه بولغ كثيراً في دعوى أن قيير يرى ارتباطاً عالياً بين الأخلاق البروتستنتية (والبيوريتانية منها بخاصة). والقول الراجح هو أن قيير لم يذهب إلى حد توكيد أن الرأسمالية وليدة الأخلاق البروتستنتية، بل هو قرر فقط أن للأخلاق البروتستنتية دوراً في قيام الرأسمالية الحديثة، دون أن يحدد تماماً مدى هذا الدور.

#### مؤلفاته

الغالبية العظمى من كتابات ماكس قيير ظهرت على شكل مقالات في مختلف المجلات الألمانية. وقد جمعت كلها بعد وفاته تحت عنوان... Gesammelte Aufsätze zur

ونذكر فيما يلي عنوانات كنهه الرئيسة:

- Die römische Agrargeschichte in ihrer Bedeutung für das Staats- and Privatrecht. Stuttgart, 1891.
- Wirtschaftsgeschichte. Berlin, 1923; 3. Aufl. 1958.
- Wirtschaft und Gesellschaft. Tübingen, 1922, 2 Bde.
- Gesammelte Aufsätze zur Religionssoziologie, 3 Bde, Tübingen 1920- 21.
- Gesammelte Politische Schriften. München, 1921.
- Gesammelte Aufsätze zur Wissenschaftslehre. Tübingen, 1922.

مؤمناً أشد الإيمان بالحقائق النقلية . وكان إلى جانب هذا من ناحية أخرى شديد العناية بالفلسفة اليونانية ، وذلك لأن الفلسفة اليونانية قد عززت العقول في ذلك العصر ، وكان على العقول المفكرة أن تقف موقفاً واضحاً بإزاء هذه الفلسفة فيما يتعلق بصلتها بالحقائق الدينية اليهودية ، فكانت طريقة فيلون في أخذها للمذاهب اليونانية أن يقول إنها هي الأخرى تعبر عن الحقيقة ، فإذا كانت التوراة تعبر هي الأخرى عن الحقيقة ، والفلسفة اليونانية كذلك فلا ضير إذن على رجل الدين أن يأخذ بكلتا الثقافتين . وكل ما هنالك من فارق بين الفلسفة اليونانية والأقوال الدينية أن الأقوال الدينية أكمل وأتم وإن كانت أقل تفصيلاً وتدقيقاً ، بينما الفلسفة اليونانية أقل شمولاً ، ولكنها أكثر تفصيلاً وأدق صياغة . لهذا كان على فيلون أن يبين ما هنالك من صلة وثيقة بين الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية .

وقد كانت ثقافة فيلون أقرب إلى اليونانية منها إلى العبرية ، لأنه كان يأخذ ثقافته مباشرة عن التراجم اليونانية للنصوص العبرية أكثر من أن يأخذها عن الأصول العبرية نفسها ، فكان تأثيره بالفلسفة اليونانية أوضح في الواقع وأشد من تأثيره بالديانة اليهودية . ومن هنا كان أقرب ما يكون إلى المفكر الذي يفكر حراً ، مع إضافته - لكي تتفق الحقيقة الدينية مع الحقيقة الفلسفية - شيئاً من الأقوال الدينية لكي لا تكون هذه الحقيقة الفلسفية عارية أو خارجة عن الدين . وإن كان الطابع اللاهوتي مع ذلك لا يزال يطبع جميع تفكيره حتى ليحتمل أن يقال إن الأصل في التفكير عند فيلون ليس هو الفلسفة ثم انتقل منها إلى الدين ، وإنما يجب أن يقال إن الأصل هو الدين ، وليست الفلسفة لديه إلا علة ووسيلة لاكتناء الحقيقة الدينية .

وعلى الرغم من هذا نرى فيلون حريصاً على أن يطرح من نفسه كل تعصب ديني . فهو لا يؤمن فقط بما قاله الفلاسفة اليونانيون ، وخصوصاً بما قاله أفلاطون ، بل لا ينكر كل فضل وقيمة للدين الشعبي اليوناني . ونحن نراه في تفكيره كثيراً ما يتأثر بالمعتقدات الشعبية عند اليونان ، فهو مثلاً في نظريته في الكواكب بحسبانها أجساماً حية - وإن كان هذا القول قد قال به أيضاً أرسطو في صورة مهذبة - تقول إن فيلون في قوله بهذا القول ، إنما تأثر أكثر ما تأثر بالعقائد الدينية اليونانية الشعبية . ومن بين المفكرين اليونانيين الذين

لاهوتياً أكثر مما يعد فيلسوفاً ، لأن الأصل عنده لم يكن الفلسفة وإنما كان الدين ؛ ولأول مرة سنجد النزاع القوي بين الفلسفة وبين الدين ، أو بين العقل والنقل ، عند أول الأديان السماوية الثلاثة الرئيسية ، ونعني به الدين اليهودي .

يمتاز فيلون عمن سبقه من المفكرين اليهود بأننا نجد لديه لأول مرة الحقيقة الدينية وقد وضعت في صيغة فلسفية ، والمبادئ العقلية الصرفة التي تقوم عليها الحقيقة الدينية ، كما نجد المعارضة بين ما يقتضيه العقل وبين ما أتى به النقل واضحة مشعوراً بها كل الشعور . فقد كان التفكير اليهودي في الإسكندرية إلى ما قبل ذلك التاريخ لا يكاد يتجاوز هذه التأثيرات البعيدة التي غزت الإسكندرية في ذلك العصر ، مما أدى إلى قيام نهضة في الفكر اليهودي في الإسكندرية كان مظهرها الأول ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية . ولكن الشخصيات التي عيّنت بالوقوف موقفاً خاصاً بإزاء هذه الحقائق التي أتت بها الفلسفة اليونانية لم تكن بذات قيمة كبيرة ، ولذا جاءت أبحاثها أقرب ما تكون إلى اللاهوت والكلام منها إلى الفلسفة بللمعنى الصحيح . وإنما نجد ذلك مثلاً لأول مرة عند فيلون الذي استطاع أن يجمع بين الثقافة اليونانية - وقد حصل معظم أجزائها واستطاع أن يحيط بها إحاطة كبيرة - وبين التفكير اليهودي الذي كان يؤمن به إلى جانب هذا إيماناً كبيراً . فلم يكن له حينئذ أن يرفض الواحد لحساب الآخر ، وإنما كان عملاً لذلك النوع من الفكر الذي هو خليط بين الفلسفة والدين أو بين التفكير العقلي والفهم النقلية ، مما يجعل لفيلون في هذا الباب أهمية خاصة ، خصوصاً إذا لاحظنا أننا نستطيع أن نعلم النموذج الأعلى الأول لكل تيار فكري سار في هذا الاتجاه مما سناه واضحاً كل الرضوح فيما بعد ، إن في الفلسفة للمسيحية أو في الفلسفة الإسلامية .

وأنا لثرى فيلون في أول الأمر مؤمناً باليهودية كل الإيمان : يؤمن بكتبها ويعتقد أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون إلا إلهية صادرة عن وحي إلهي وإلا لما استطاعت البقاء تلك اللغة الطويلة ، فبقلوها دليل إذن على مصدرها الإلهي . وهو لا يستثني من هذا كتاباً من الكتب التي تشتمل عليها التوراة ، وإنما يأخذ بها كلها ولا ينكر صحة أي كتاب منها ، بل ولا ينكر أن تكون « الأسفار الخمسة » من وضع موسى حقاً . وعلى هذا نستطيع أن نقول من هذه الناحية إنه كان

العقلي ، هذا المنهج قد استخدمه ، أو أساء استخدامه ، فيلون إلى أقصى حد . وهو يشبه النص بالجسم ، والمعنى الرمزي بالروح ، ويستطيع الإنسان أن يأخذ بواحد من الاثنين ؛ فهذا لا قيمة له في الواقع في نظر فيلون . ولكننا نراه يميل إلى الأخذ بالمعنى الرمزي ، أو الروح ، على حساب الأصل الذي يؤخذ مباشرة من النص بحروفه . فهو وإن كان قد شعر بما هنالك من تعسف شديد ، بل وأحياناً كثيرة من مغالطة ظاهرة واضحة ، نجد أنه مع ذلك يأخذ بهذا المنهج الرمزي في كل شيء تقريباً ، لأنه مضطر إلى هذا نظراً إلى ما هنالك من خلاف بين الفكر اليوناني والأقوال اليهودية ، وهو لا يعتمد في هذا فقط على تأويل الألفاظ بحسب اللغة التي كتبت بها ، بل وعلى تأويل الألفاظ بحسب لغات أخرى ، فنراه مثلاً يفسر اشتقاق بعض الألفاظ العبرية عن طريق الألفاظ يونانية ، مع أنه لا صلة مطلقاً من ناحية الاشتقاق بين هذه الألفاظ اليونانية والألفاظ العبرية . بل وأكثر من هذا يذهب إلى حد اتخاذ الترجمة الخاطئة لبعض فصول التوراة كأساس لهذا المنهج الرمزي ، لأنه يجد في هذه الترجمة الخاطئة ما يعينه أكثر على تطبيق هذا المنهج ، فليس بغريب إذن أن ينظر إلى هذه الترجمة اليونانية على أنها أصح من الأصل العبري .

وقد قلنا إن فيلون شخصية لاهوتية قبل كل شيء ، وقلنا أيضاً إنه بدأ من الدين واستعان بالفلسفة - لا العكس ، كما هي الحال بالنسبة إلى جميع الفلاسفة اليونانيين السابقين ، وإلى كل فيلسوف حقيقي ؛ ولهذا نجد أن الحقيقة الدينية عنده هي الأصل في كل تفكير وهي التي تطبع الحقيقة العقلية لديه بطابعها الخاص ، ومن هنا كان علينا أن نبدأ ببيان الحقيقة الدينية عند فيلون ، أي بالناحية اللاهوتية في تفكيره ، كي نتقل منها فيما بعد إلى الناحية بالمعنى الضيق .

وهذا يبدو أول ما يبدو بأوضح صورة في فكرة فيلون عن الله وهنا نجد لأول مرة في تاريخ التفكير الديني أو الميتافيزيقي فكرة اللامتناهي ، بوصف أنه أعلى درجة من المتناهي . فالحال قد انقلب هنا إلى الضد تماماً عما كانت عليه الحال من قبل في التفكير اليوناني : فقد كان اليوناني ينظر إلى اللامتناهي على أنه أخط درجة من المتناهي ، لأن المتناهي هو الذي له طبيعة وهو المحدود ، وماله طبيعة وما هو محدود أعلى درجة قطعاً من الشيء اللامتناهي ، غير المحدود بطبيعته . ولكننا نجد فيلون - وكان في هذا خارجاً على الروح اليونانية -

عني بهم فيلون أشد العناية نرى في المقام الأول أفلاطون ، ثم الفيثاغورية المحلقة والرواقية . أما المدرسة المشائية الجديدة التي يمثلها شراح أرسطو وعلى رأسهم الإسكندر الأفروديسي فلم يكن له أن يعنى بها ، لأن التلقيح العلمي الذي جرت عليه هذه المدرسة ما كان ليتفق مع النزعة الصوفية التي سادت تفكير فيلون .

ولكن ، إذا كان فيلون قد اضطر إذن إلى الأخذ بهاتين الناحيتين ، فإنه كان لا بد يشعر شعوراً قوياً وواضحاً بالتعارض بين الحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية العقلية ، فما السبيل للتخلص من هذا التعارض أو للقضاء عليه ؟ أو ما السبيل لبيان ما هنالك من تشابه قوي بين الفلسفة اليونانية والديانة اليهودية ؟ وجد فيلون أمامه طريقين : الأول الاعتقاد بتأثير الديانة اليهودية في كل التفكير اليوناني ، ثم تفسير النصوص الدينية من ناحية أخرى تفسيراً يتلاءم مع الحقائق التي أتت بها الفلسفة اليونانية ، أي اتخاذ طريقة « التفسير الرمزي » في النصوص الدينية . فمن الناحية الأولى يقول فيلون إن الأصل في كل تفكير كائناً ما كان ، الديانة اليهودية ، فهي التي أثرت في كل تفكير سواء أكان تفكيراً يونانياً أم غير يوناني ، ولا نستطيع أن نجد مكاناً على الأرض في عصر من العصور لم يتأثر بهذه الديانة . ولا يجد فيلون حرجاً في أن يقول إن مذهب هرقلطس في الأضداد قد أخذ مباشرة عن سفر « التكوين » ، كما أن الصورة التي أعطيت عن الحكيم اليوناني مثلاً هي نفس الصورة التي تجدها في قصة أيوب . وهكذا نجد باستمرار أن الفلاسفة اليونانيين في كل أفكارهم قد تأثروا تأثراً كبيراً بالتفكير اليهودي الممثل في النصوص الدينية اليهودية الباقية .

ولكن لكي يفلح هذا المنهج ، ولكي يكون في وسع فيلون أن يبين أن كل الأفكار اليهودية توجد في الفلسفة اليونانية ، كان عليه أن يفسر النصوص الدينية تفسيراً رمزياً على أساس أنها تحتوي جميعاً على هذه الأفكار التي أتت بها الفلسفة اليونانية . فباتخاذ منهج التفسير الرمزي يستطيع أن يبين هذه الحقيقة ، وهي أن الأفكار اليهودية توجد بتمامها في الفلسفة اليونانية . وكل ما هنالك من فارق ، إنما هو في صياغة الحقيقة الدينية في الفلسفة اليونانية بطريقة واضحة مفصلة . وهذا المنهج الخطر جداً في استعماله والذي يستعين به دائماً رجال الدين في كل لحظة يجدون فيها النص الديني لا يتلاءم في حروفه ومعانيه الظاهرية ، مع ما يؤدي إليه التفكير

من الإيجاب أو الصفات الإيجابية ( الثبوتية ). فمن الناحية الأولى ، أي من ناحية الصفات السلبية التي ينسبها فيلون إلى الله ، يرى فيلون أن الله هو اللامتاهي في مقابل المتاهي ، والحاوي في مقابل المحوي ، والثابت في مقابل المتغير ، والدائم في مقابل الزائل ، والكامل في مقابل الناقص ، والأبدي في مقابل الحادث أو المخلوق .

ولن يستطيع الإنسان أن يحدد صفات الله بطريقة أوضح وأكثر تفصيلاً ، لأن كل ما يستطيع أن يصل إليه من صفات لا بد أن يكون مما هو في نطاق عقله ، وما هو في نطاق العقل مأخوذ مباشرة عن طبيعة العقل المخلوق الناقص المتاهي ، وما يصدر تبعاً لهذا عن ذلك العقل يتصف بهذه الصفات المتناهية مع صفة اللامتاهي . وإذا قلنا عن الله إنه متصف بصفة ما ، فذلك يكون بطريقة سلبية باستمرار : فنقول عنه إنه فاضل أفضل من الفضيلة ، وخير أكثر خيراً من الخير ، وحكيم أكبر حكمة من الحكمة ، وقادر أكثر قدرة من القدرة ؛ وهكذا باستمرار : لا نستطيع أن نضيف إلى الله إلا هذه الصفات السلبية ، لأننا إذا أثبتنا له صفة إيجابية ، فقد أضفنا إليه صفات تعارض تمام التعارض مع طبيعته . ولهذا نجد فيلون لا يريد أن يبقى على أية صفة من صفات الله ، بل ينعت بأنه الموجود بلا كيف ولا صفة *απροιος* ، ونخرج كل الصفات الأخرى عن الله ، ولا يبقى له غير صفة واحدة هي صفة الوجود : فنحن نعرف أن الله موجود ، ولكننا لا نعرف مطلقاً كيفية هذا الوجود ؛ فهو إذن وجود بلا كيف ، لأنه ليس في مقدورنا أن نحدد طبيعة هذا الكيف . ولذا يجب ألا نقي من بين أسماء الله إلا اسم واحد ، وهو الاسم الذي يدل على الوجود أعني : « *يهوا* » .

ولم يكن لفيلون أن يقول بهذه السلبية لله ، إلا لأن في ذهنه نموذجاً على الأقل للمصفات الإيجابية اللاتمة به ، وهو قد اضطر على أقدر تقدير أن يضيف إلى الله صفة الوجود ؛ وكان مضطراً إلى هذا بطبيعة الحال لأننا لو سلينا عن الله صفة الوجود ، فلن يكون ثمت داع بعدئذٍ للتحدث على وجه الإطلاق . ومهما يظهر في فكرة الوجود بالنسبة إلى الله من تناقض يتناقض مع مقام الألوهية - إذا ما فسرنا وجود الله على النحو الذي نفهم به الوجود الإنساني - فإن فيلون ، واللاهوت السلمي بوجه عام ، قد اضطراداً إلى إضافة صفة الوجود إلى الله . ولذا كان على فيلون أن يقول بأن الله صفات ثبوتية إلى جانب الصفات السلبية التي ذكرناها من قبل .

يقلب الوضع فيجعل اللامتاهي أعلى درجة من المتاهي على أساس أن اللامتاهي هو الذي يعم ويشمل كل متاه ، ومن حيث أن اللامتاهي هو الحاوي لصفات لا حصر لها ، بينما المتاهي هو الذي يشتمل على صفات محدودة ، أو نهائية ، وما هو أدنى في الصفات هو قطعاً أدنى في الدرجة ، كما أن ما هو أعلى في الصفات أعلى في الدرجة - لهذا فإن اللامتاهي ، أعني الذي يشتمل على كثير جداً لما لا يتناهى من الصفات أعلى من المتاهي أي الذي يشتمل على عدد محدود معلوم من الصفات ، ومن هذا التفسير لفكرة المتاهي وغير المتاهي (اللامتاهي) عند كل من التفكير اليوناني وتفكير فيلون ، نجد أن ما يقصده الواحد من المتاهي واللامتاهي ليس هو الذي يقصده الآخر . فاللامتاهي عند اليونان هو الذي لم يأخذ صورة بعد ، أو الذي تكون صورته ناقصة ، ويقبل اتخاذ أية صورة ، والمتاهي هو الذي أخذ صورة معينة وأصبح ذا طبيعة معلومة . أما عند فيلون فإن اللامتاهي هو الذي لا يمكن حصر صفاته ، ولا يقصد به الذي لا توجد له صفة معلومة . والمتاهي هو المحصور الصفات ، ولا يقصد به المعلوم الصفات . فيجب أن نلاحظ هذا الفارق بالدقة ونحن نفسر التفرقة بين المتاهي واللامتاهي عند كل من التفكير اليوناني وتفكير فيلون ، أو التفكير الديني من جهة أخرى بوجه عام : والله ، لما كان هو اللامتاهي ، لأنه يشمل كل الصفات الكمالية الممكنة أو الموجودة ؛ ولما كان من ناحية أخرى يشمل هذه الصفات اللامتاهية بدرجة لا متناهية ، ولما كان العقل الإنساني من ناحية أخرى غير قادر على إدراك اللامتاهي - لهذا كله لا نستطيع في الواقع أن ندرك الله . ولهذا نجد فيلون من ناحية ينظر إلى صفات الله بوصفها سلوباً ، ولكننا نجده من ناحية أخرى ينعت الله بصفات إيجابية ؛ لأنه لا بد له أن يحدد هذه الصفات السلبية على أساس فكرة لديه عن ماهية الصفات الثبوتية الواجبة لله ، ولم يستطع فيلون أن يتخلص من هذا التعارض بين الصفات الثبوتية وبين الصفات السلبية ، ولهذا فسئير فقط إلى أنه قال بكلتا الناحيتين دون أن يستطيع أن يجعل هذا التعارض بين الاتجاهين ، لأنه كان في الواقع إما أن يأخذ بالاتجاه السلمي في تحديد صفات الله أو أن يأخذ بالاتجاه الإيجابي في تحديد هذه الصفات . ولم يكن في استطاعته أن يتخذ سبيلاً ثالثاً ، إلا إذا كان ذلك على أساس التصاعد بين الصفات الإيجابية والصفات السلبية ، من حيث أن السلب تال بعد هذا للإيجاب ، ويكون السلب أو الصفات السلبية في درجة أعلى

اليهودية ، والنوع الرابع هو الجن في المعتقدات الشعبية اليونانية . وعن طريق هذه القوى المختلفة يتصل الله ، أو فعل الله بالكون ، والله لا يدرك في الواقع في فعله من حيث هو فعل ، ولكن في آثار هذا الفعل . والذي يعيننا خصوصاً فيما يتصل بنظرية الوسائط هذه ، « فكرة الكلمة » أو اللوغوس Logos .

وتاريخ هذه الفكرة تاريخ شائق ؛ فقد تطورت كثيراً عند اليونان ، وعند اليهود وعند فيلون ، وعند المسيحية بوجه خاص . فهناك مقدمات تاريخية كثيرة لنظرية اللوغوس سواء في الكتابات اليهودية أو في الفلسفة اليونانية . فقها يتصل بالكتابات اليهودية نجد أن اللوغوس يذكر مراراً في الكتب الأولى من التوراة كما يذكر في كتاب « الحكمة » المنسوب إلى سليمان ، والذي كتب في الواقع في عهد الإمبراطور أغسطس ، على صورة الصوفيا أو الحكمة . ثم نجد بعد ذلك أن فكرة الكلمة قد لعبت دوراً خطيراً في المسيحية عن طريق الإنجيل الرابع ، ولسنا ندري على وجه التدقيق في أي وقت كتب ، وإن كان الأرجح أن يكون قد كتب في القرن الثاني وتحت تأثير فيلوني صرف ، ولو أن كثيراً من المؤرخين عن يريدون أن يثبتوا أسبقية الإنجيل الرابع على أقوال فيلون في الكلمة يقولون إن فيلون لم يكن الأساس في فكرة الكلمة في الإنجيل الرابع ، وإنما أضيفت ، انتحالاً ، هذه الكتب التي تعبر عن فكرة اللوغوس إلى فيلون ، فالمصدر الأصلي سيكون حينئذ الإنجيل الرابع ، وليس العكس ؛ وهذا الرأي قد أخذ وتوسع جداً في مذهب اللوغوس وأخذ عن مقدمات تاريخية يونانية ويهودية ، وأن الإنجيل الرابع هو الذي كتب تحت تأثير فيلون .

وأياً ما كان الرأي ، فإنه يشاهد أن اليهودية في كتاباتها المقدسة كان لها أثر كبير في تفكير فيلون من حيث نظرية اللوغوس ، ولكن الأثر الحقيقي الأكبر في هذه الفكرة عند فيلون هو الفلسفة اليونانية ، فنحن نجد من ناحية أن فكرة اللوغوس قد لعبت دوراً خطيراً جداً عند الرواقين على أساس أنها القوة التي تحفظ الموجودات جميعاً أو على أنها العلة المشتركة المقومة لجميع الأشياء ، إلا أنه يلاحظ أننا لا نستطيع أن نعد الرواقية وحدها هي المصدر لنظرية فيلون في الكلمة ، فإن الكلمة عند فيلون تحتفظ بدرجة وسطى بين الله أو الألوهية وبين المخلوق ، بينما نجد الكلمة عند الرواقية قد

وهذه الصفات الإيجابية يجب أن يراعى فيها أولاً وقبل كل شيء أن تكون ممثلة لكمال الله إلى أعلى درجة ، فإذا وصفناه بالعلم فيجب أن يكون هذا العلم أعلى درجة من العلم ، وإذا وصفناه بالقدرة كانت هذه القدرة أعلى درجة من القدرة ، وكذلك الحال في بقية الصفات التي نعزوها إيجابياً إلى الله ، والمنهج الذي يجب أن يستخدم في هذه الحالة هو منهج المماثلة أو التمثيل ، والتمثيل هنا ينسحب من الإنسان على الله ، فنضيف إلى الله الصفات الرئيسية التي تكون صفات الكمال في الإنسان .

ويعيننا خصوصاً من بين الصفات الإيجابية التي يضيفها فيلون إلى الله صفتان : الأولى الخير ، الثانية القدرة . أما عن صفة الخير ، فيلاحظ أن فيلون ينعى الله بأن صفته الأولى والرئيسية التي تترتب بالنسبة إليها بقية الصفات هي صفة الخير ، فالله عنده مصدر للخير في الوجود ، ولولاه لما كان ثمت خير . وهو هنا قد تأثر بأفلاطون حينما جعل من فكرة الخير الفكرة الأولى وصورة الصور ، وتبعاً لهذا القول أنكر فيلون أن يفعل الله القبيح ، فكل ما يفعله الله خير ، وكل ما يصدر في العالم من شر لا يمكن إضافته إلى الله ، لأن ما هو خير لا يمكن أن يصدر عنه إلا الخير ، وإنما يصدر الشر عن عنصر مضاد لله ، وهذا العنصر - كما سنرى بعد قليل - هو المادة ، والصفة الثانية هي صفة القدرة ، وهنا يلاحظ أن فيلون قد حاول أن يجمع بين صفات الله عند الرواقين ، وبين ما أتى به - والأديان جميعاً - من فصل بين العالم وبين الله ؛ فهو ينظر إلى الله على أن له قدرة ، لأن الأصل في الله دائماً أن يفعل ، وفعله يسود العالم أجمع ، ولكن هذا الفعل - إذا ما أردنا أن نصون الفارق والهوة البعيدة بين الله وبين الحوادث أو المخلوقات - لا بد أن تتصوره بطريقة من شأنها أن تحول بيننا وبين النظر إلى هذه القدرة بوصفها علة باطنة في الموجود ، وإنما هذه القدرة عند فيلون قدرة عليا بها يتم حدوث الأشياء وتحركها وكل ما يجري في الكون من أحداث . ولكن ذلك لا يتم مباشرة بأن تتصل هذه القوة العليا بالمخلوق ، وإنما يتم ذلك عن طريق علة وسائط . وهذه الوسائط هي القوى الإلهية . والقوة الإلهية علة أنواع عند فيلون ، يعنى بأن يذكر من بينها خصوصاً أربعة أنواع : فهو يذكر أولاً الأنواع التي على مثال الصور الأفلاطونية وهي التي تكون نماذج يخلق على غرارها ما هو موجود ، والقوى الثانية من نوع القوى العنصرية السائدة في الطبيعة عند الرواقين ، والنوع الثالث هو الملائكة في المعتقدات



الأجزاء المختلفة للموجود ، وهذه القوة هي « الكلمة » أو اللوغوس .

ولكننا نجد أن هذا المذهب في « الكلمة » لا يمكن أن يتفق إلا مع مذهب يقول بوحدة الوجود ، أما المذهب الثاني والذي يقول بالعلو المطلق أو العلو أياً كان بالنسبة إلى الله في صلته بالكون ، مثل هذا المذهب لا يمكن أن يتفق وإياه أن يقال عن الكلمة إنها باطنة في الكون على صورة قوة حادثة فيه ، وهي هي في الواقع الله ؛ فيجب إذن أن نبحث عن قوة تفصل ، أو من شأنها أن يتفق وإياها أن يكون ثمت انفصال ، بين الله وبين الكون أو المخلوق ؛ ولذا يأخذ فيلون بما قال به هرقلطس في نظريته في اللوغوس . فاللوغوس عند هرقلطس هو مبدأ انفصال بين الأشياء المتضادة في الكون وهذا الانفصال هو في الواقع منشأ المخلوقات ، ومن شأنه أن يؤدي إلى الفصل بين القوة الخالقة والموجودات المخلوقة ، ولكن فيلون لا يذهب مع هرقلطس إلى أقصى نظريته ؛ فإن هرقلطس في نظريته في اللوغوس يدعونا في نهاية الأمر إلى القول بالاتحاد أو الهوية بين المتناقضات ، ومن شأن هذا الطابع الجديد للوغوس ، بوصفه مبدأ الانقسام ، أن يجعل في وسع الإنسان أن يقول بشيء من الهوية أو الامتزاج بين المخلوق وبين الخالق . لكن فيلون ينكر كل الإنكار قول هرقلطس هذا ، إذ يرى من غير المعقول أن يضاف إلى الشيء الواحد - وفي آن واحد ومن جهة واحدة - صفتان متناقضتان ، وهذا يحفظ فيلون لله بكل علوه . إلا أن اللوغوس - مفهوماً على هذا النحو ، ولكي تكون ثمت ثنائية مطلقة ، ولكي يقوم اللوغوس بمهمته الرئيسية - يجب ألا يكون قوة ملدية ، بل قوة عاملة ومعقولة ، ولهذا نجد فيلون في نهاية الأمر يحيل اللوغوس الرواقي إلى معقول أفلاطوني . وهو هنا قد تأثر كل التأثر بفكرة الصور الأفلاطونية ، واللوغوس هنا نجده متخذاً صورتين : صورة متأثرة كل التأثر بالفيثاغورية المحلثة ، وصورة أخرى متأثرة بالأفلاطونية . فمن ناحية التأثر بالفيثاغورية المحلثة ، نجد فيلون يقول إن اللوغوس هو الواحد ، ولكنه لا يذهب مع الفيثاغوريين المحدثين إلى القول بأن الواحد هو الله ، وإن كنا نجد كثيراً من العبارات تؤذن بمثل هذا القول عند فيلون . ثم ينظر مرة أخرى إلى « الكلمة » على أساس فكرة العدد ٧ عند الفيثاغوريين المحدثين ، إذ يرى الفيثاغوريون المحدثون انقسام العالم إلى سبعة أشياء أولها السماء وآخرها النور .

أصبحت هي الإله الأكبر وهي باطنة في جميع الموجودات ، لا مخلوقة ، وعلى هذا فيجب أن نبحث عن مصدر آخر لفكرة الكلمة عند فيلون ، ونجد ذلك في فكرة اللوغوس عند هرقلطس ، فهرقلطس قد قال باللوغوس على أساس أنه القانون الذي تجري على أساسه أنواع التغير المتضاد في الوجود ، وهو مبدأ الانقسام ، وإن كان الانقسام بعد ذلك عند هرقلطس يصبح وحدة ، إذ قال بفكرة « هوية المتناقضين » *Coincidentia Oppositorum* ، إلا أن فكرة اللوغوس عند هرقلطس لا تكفي كذلك لتفسير العنصر الجديد ، الذي دخل نظرية فيلون في الكلمة ، إذ إن الطابع الرئيسي لفكرة الكلمة عند فيلون هو أن الكلمة هنا أصبحت معقولة ، والمعقول في هذه الحالة لا يمكن أن يستخلص مباشرة من التزاوج بين فكرة اللوغوس بوصفه المبدأ الحافظ للأشياء ، واللوغوس بحسبانه مبدأ الفصل بين الأشياء ، ولذا سنجد أن ثمت عنصراً ثالثاً مزدوجاً قد أثر في فيلون في فكرته عن الكلمة ، وهذا العنصر الثالث المزدوج هو أفلاطون في نظريته في الصور ، ثم الفيثاغورية المحلثة فيما يتصل بفكرة الواحد ، أما فيما يتعلق بتأثر فيلون بالرواقية فيلاحظ أنه كما يقول فلوطرخس ، قد نظر الرواقيون إلى الكلمة على أساس أنها الله وأنها القوة الحافظة لجميع الأشياء ، وأن هذه القوة تسود الموجودات جميعاً لأنها الحافظة لها كلها ، وفيلون يضيف إلى « الكلمة » هذه السمات ، فهو ينعته بأنها القوة السائدة في الكون ، وبأنها حادثة في كل مكان ، وبأنها باطنة في الموجودات وبأنها كقوة الحياة المتطورة في الموجودات ، أو بتعبير رواقي ، أنها الينور أو العلل البيرية التي منها تنشأ الموجودات ، وتبعاً لهذا ستكون « الكلمة » باطنة في الكون ، وقوة لست ندرى بعد هل هي قوة معقولة أو ليست معقولة ، أما بالنسبة إلى المذهب الرواقي ، فإنها في الواقع ليست قوة معقولة ، لأن للمعقول بللمعنى الأفلاطوني أو الأفلوطيني لم يعترف به الرواقيون ، كما رأينا من قبل ، ويؤيد فيلون فكرة الكلمة مفهومة على هذا الأساس ، أي بحسبانها العلة الباطنة في الموجودات ، بنفس الأدلة التي يسوقها الرواقيون من أجل إثبات « الكلمة » . فهو يقول ، كما يقول الرواقيون ، إن بالعالم خلاء ، ولكن هذا الخلاء الذي يوجد في العالم من شأنه أن يجعل ثمت هوات وانفصالا وشقاقاً بين الموجودات ، فما هي القوة التي تربط بين الموجودات المنفصلة فيما بينها وبين بعض مترابطة متحدة ؟ لا يمكن في هذه الحالة إلا أن نفترض قوة سائدة في جميع الموجودات ، من شأنها أن تربط بين جميع

ذهنية ، لا يعبر عنها في الخارج بأصوات ، وكلام خارجي يعبر عنه في الخارج باللفظ أو الصوت ، وتبعاً لأصحاب هذا الرأي سيكون كلام الله منقسماً إلى هذين القسمين : إلى كلام نفسي هو اللوغوس بحسبانه العلم كصفة من صفات الله ، وإلى كلام خارجي هو اللوغوس بوصفه الصورة المعقولة التي هي نموذج للأشياء ، أما أصحاب الرأي الثاني فينكرون وجود مثل هذه التفرقة عند فيلون ، إذ يقولون إنه لا يتحدث مرة واحدة عن هذه التفرقة بين الكلمة النفسية والكلمة الخارجية . وإنما يجب أن يظل هذا التناقض كما هو ، وكما هي الحال في كثير من أقواله .

أما فيما يتعلق بالصلة بين اللوغوس وبين الكون ، فإننا نجد هذه الصلة على نوعين وذلك لاختلاف المصدر الذي صدرت عنه نظرية فيلون في اللوغوس . فالمصدر الأفلاطوني لنظرية اللوغوس عند فيلون يجعله يتصور اللوغوس على أنه مستودع الصور والنماذج العليا التي على أساسها تنشأ الأشياء ، والأثر الرواقي في فكرة اللوغوس جعله يقول إنه القوة الحاملة في الأشياء ، والتي بها يتم كل تغير وحركة في الوجود . وعلى هذا فإن اللوغوس يمكن أن ينظر إليه من ناحية على أنه مجموعة صور معقولة أو بوصفه أحد المعقولات ، ويمكن أن ينظر إليه من ناحية أخرى على أنه قوة . إلا أنه يلاحظ أن اللوغوس عند فيلون يتخذ مظهر الفردية . وهذا لا يمكن أن يتفق مع النظرة الثانية . لأنه إذا كان اللوغوس منفصلاً عن الكون ، وشيئاً مفرداً مستقلاً بذاته ، فإنه لا يمكن أن يعد كقوة فيه . هذا إلى أن فكرة الصور إذا ما أضيفت إلى اللوغوس ، لا تخلو هي الأخرى من تناقض ، لأنها لا يمكن أن تكون فاعلة إلا إذا كانت حالة في الأشياء ؛ ومعنى هذا أننا سنضطر في كلتا الحالتين إلى أن ننظر إلى اللوغوس على أنه ليس مستقلاً قائماً بذاته .

وكل هذه المسائل المتعلقة بالصلة بين اللوغوس وبين الله ، وبالصلة بين اللوغوس وبين الكون ، مصدرها الفكرة الرئيسية التي أدت إلى القول باللوغوس . فالأصل في هذه الفكرة فكرة الوسائط ، لأن ما يرمي إليه فيلون من وراء فكرة اللوغوس هو أن يقول من ناحية بوجود هوة لا تكاد تعبر بين الخالق والمخلوقات ، ومن ناحية أخرى بإمكان عبور هذه الهوة ؛ وذلك عن طريق عدة وسائط ، لكي يتيسر حيثئذ أن يأتي فعل من جانب الخالق نحو المخلوق ؛ وهذه الوسائط هي ما سماه فيلون باسم « القوى الإلهية » وهذه القوى الإلهية

وسيكون هذا النور ، أو سيستبل فيلون بهذا النور اللوغوس فاللوغوس هو القوة السابعة المتوسطة بين الله وبين الكون . إلا أنه يلاحظ أن فكرة اللوغوس هنا غامضة كل الغموض ، كما نجد أن وظيفتها الرئيسية تكاد تنحصر في الصفات الأخلاقية التي تضاف إلى اللوغوس ، فيقال عن اللوغوس إنه الفضيلة أو الحكمة ، ولكن التأثير الحقيقي الذي أخذ فيلون في فكرته عن اللوغوس كان صادراً إليه من أفلاطون : فاللوغوس أصبح معقولا كالصور أو هو مجموع الصور . وعلينا بعد أن نحدد صلة هذا اللوغوس بالله ثم بالكون . وهنا نجد فيلون قد اتخذ موقفاً ثنائياً فيه تناقض ، هنا كالحال تماماً فيما يتصل بصفات الله فنحن نجده من ناحية ، يريد أن يحتفظ لله بالعلو ، ومن ناحية أخرى يضطر إلى أن يخلط بين الله وبين اللوغوس حتى يكون في وسعه بعد هذا أن يبين وظيفة هذا اللوغوس من حيث تكون الأشياء . فيلاحظ أولاً أن فيلون ينعت اللوغوس بأنه ليس أزلياً كالله ، كما أنه ليس قائماً كالمخلوقات ، وإنما هو في مركز بين بين ، من هذه الناحية ، بين الله وبين المخلوقات . لأنه من ناحية قد ولده الله ، أو هو ابن الله ، وتبعاً لهذا سيكون له بدء ، ولكن هذا البدء يجب ألا يفهم بالمعنى الزمني ، وإنما البدء هنا يفهم من حيث المرتبة في الوجود فحسب . أعني أن البدء وجودي ، بمعنى أن اللوغوس صادر عن الله ، وهذا الصدور يمكن أن يفهم على طريقتين ، فهما يظهر هذا التناقض الواضح في فهم فكرة اللوغوس عند فيلون . فتارة نرى فيلون يقول عن اللوغوس إنه صفة من صفات الله هي العلم ، وتبعاً لهذا هو جانب من جوانب الله وشيء باطن فيه . ولكننا نجد فيلون من ناحية أخرى يذكر عن اللوغوس أنه صادر صلوراً خارجياً عن الله بمعنى أنه ليس صفة حالة فيه ؛ وإنما هو شيء قد صدر عنه وانفصل وفي مرتبة دنيا بالنسبة إليه . والقول الأول يؤذن بالهوية بين اللوغوس وبين الله ، والقول الثاني يحتفظ بهذا الانفصال بين الله وبين اللوغوس . وهنا نجد الشراح والمؤرخين يختلفون كل الاختلاف في فهمهم لهذا التناقض . فمنهم من يريد أن يحو هذا التناقض ومنهم من يقول بوجود هذا التناقض مهما حاول الإنسان من محاولات مختلفة لرفعه . أما أصحاب الرأي الأول فيرفعون هذا التناقض بأن يفرقوا بين الكلمة النفسية وبين الكلمة الخارجية ، ويبيون هنا بتفرقة نجدها عند فيلون فيما يتصل بالإنسان . فيقولون يذكر أن الكلام عند الإنسان ينقسم إلى قسمين : كلام نفسي وهو الذي يكون عبارة عن تصورات



لفيلون في نظريته عن الله وعن اللوغوس ، أن يشبث وجود هذا الفارق الكبير بين المتناهي واللامتناهي ، ويقول عن اللامتناهي إنه خير ولا يفعل إلا الخير وإنه أزلي أبدي ، فلا بد من أجل أن يفسر فيلون وجود هذا الموجود الغائي أن يقول بوجود عنصر آخر هو الذي يحدث به هذا الفناء في الوجود ، وهذا العنصر الآخر قد أخذه فيلون عن أفلاطون وعن الرواقية . والصفات التي يمتاز بها هذا العنصر الآخر مضادة تماما للصفات التي يتصف بها اللامتناهي . فاللامتناهي هو الأزلي الأبدي ، وهو الخير ، وهو الفاعل باستمرار وهو الحي ، أما العنصر الجديد - وهو المادة - فهو الميت المتغير القابل ، ومبدأ الشر . فلنستطيع أن نفسر وجود الشر في العالم أو الكون ، لا بد أن نقول بوجود المادة في كل ما يفعل الشر . أما الله فيستحيل عليه الشر ، وكذلك الفناء ينشأ عن المادة ، أي أننا نستطيع أن نفسر جميع الصفات السلبية عن طريق المادة .

ولا يعني كثيراً أن نتحدث عن نشأة الكون عند فيلون ، لأن كلامه هنا كلام غامض جداً ، ويقدم لنا صورة بدائية ناقصة لما سيكون عليه هذا المذهب من بعد عند أفلاطون ، وإنما تنتقل مباشرة إلى الكلام عن نظرية فيلون في الأخلاق .

فنجد أن الغاية من الفلسفة عند فيلون هي أن تكون مؤدية إلى الخلاص . والخلاص هنا يجب أن يفهم بالمعنى الديني ، أعني تخلص المتناهي من حالة التناهي للوصول إلى حالة اللامتناهي ، وهو ما سيصدر عنه في المسيحية فيما بعد بفكرة الخلاص من الخطيئة . وإذا كانت تلك غاية الفلسفة ، فكلها أن تبين لنا الطريق المؤدي إلى هذا الخلاص . وهذا الطريق هو إمكان عودة الغائي إلى حالة اللامتناهي ، ويمكن أن يسلك في مرحلتين : مرحلة الشك ، ثم مرحلة التصوف ؛ وكل تصوف من هذا النوع إنما تسبقه دائماً حالة شك ، ويكاد يكون كل تصوف ظهر حتى الآن أن يقوم على هذا الأساس ، أي على أساس فكرة الشك . وذلك أن الإنسان في نظرية المعرفة ، إنما عليه أن ينظر في نفسه ، فيدرك المره لذاته ، هذا القول الذي قاله سقراط ، يجب أن يكون نقطة البدء في كل تفسير فلسفي . وحينما يبحث الإنسان في ذاته ، يجد أنه قابل لكثير جداً من الأغلاط ، فالحواس تخدع الإنسان ، والمعرفة اليقينية لا سبيل إلى الوصول إليها ، وبإيجاز المعرفة غير ممكنة ، وكل ما نصل إليه

يتصورها فيلون تارة على النحو الأفلاطوني ، وأخرى على النحو الرواقي ، وثالثاً على نحو الملائكة في الديانة اليهودية ، وأخيراً على نحو الجن في الديانة اليونانية .

إلا أنه يلاحظ أننا نجد نفس التناقض ، أو الاختلاف ، الذي وجدناه من قبل في فكرة اللوغوس ، متمثلاً في فكرة هذه « القوى الإلهية » المتوسطة بين الخالق والخلق . وذلك أننا نجد فيلون يذكر عن القوى الإلهية أنها قوى موجودة في ماهية الله ، وتكاد تعد كإلهين له ، ولكننا نجد من ناحية أخرى أن النظرة الأخرى القريبة من الرواقية تضطره إلى جعل هذه القوى حالة في الأشياء ، حتى يمكن أن تؤثر فيها ، خصوصاً أن الفكرة الرئيسية التي أدت إلى القول بها إنما صدرت عن دافع تفسير تأثير الخالق في الخلق ، فكان ضرورياً تبعاً لهذا أن تكون ثمت ملامسة مباشرة بين هذه القوى وبين المخلوقات . وعلى كل حال فإن هذا التناقض لا نستطيع رفعه ، كما هي الحال بالنسبة إلى بقية أجزاء مذهب فيلون ، وكل ما نستطيع فعله أن نفسره بنفس الوسيلة التي فسرنا بها التناقضين الأسبقين ، ونعني بها كون المصدر الذي صدرت عنه نظرية الله ونظرية القوى الإلهية واللوغوس مزدوجاً ، فهو الأفلاطونية من ناحية ، والرواقية من ناحية أخرى ، أما الصورة التي تصور عليها هذه التأثيرات فهي تارة تكون يهودية ، وأخرى يونانية شعبية .

وأهم هذه القوى الإلهية اثنتان : قوة الخير ، وقوة القدرة . فقوة الخير هي القوة الخالقة والتي يتم بها الإيجاد . أما قوة القدرة فهي التي بها يمين الله على العالم ويحكمه ، ولهذا نجد فيلون يشبه هذه القوة الأخيرة بالملك أو الحاكم المسيطر على العالم . وعن هاتين القوتين ، أو بالإضافة إليهما تكون القوة الثالثة ، قوة اللوغوس . أما الصلة بين اللوغوس وبين هاتين القوتين فهي مضطربة أيضاً : فنحن نجد فيلون يذكر تارة أن اللوغوس بين قوتي الخير والقدرة ، كما نجده تارة أخرى يقول إن اللوغوس يتضمن كل القوى الإلهية .

وهذا أهم ما أتى به فيلون في فلسفته الجديدة . ففكرة اللوغوس قد بحثها لأول مرة بحثاً دقيقاً مفصلاً ، وبحثها على أساس جديد يختلف عن الأساس الذي درست عليه من قبل عند الفلاسفة اليونانيين المتقدمين .

وننتقل من فكرة اللوغوس ومن الله إلى بيان طبيعة العالم فنجد أولاً أنه لما كانت الغاية الرئيسية والدافع الأكبر

ينقطع الكلام كما ينقطع الفعل . وهذه هي الدرجة العليا التي ينشدها الإنسان من أجل « الخلاص » ، إذ يكون الإنسان بلا كفيات وبلا أفعال . وهذا المثل الأعلى من الطمأنينة المطلقة ، هو ما يسعى إلى تحقيقه ، أو ما يجب أن يسعى إلى تحقيقه الفيلسوف أو الحكيم عند فيلون .

وإذا نظرنا نظرة إجمالية إلى مذهب فيلون ، وجدنا أن هذا المذهب قد أتى بأشياء تختلف كل الاختلاف عما ألفناه من قبل في الفلسفة اليونانية . فنحن نجد أن المعرفة والفلسفة لا تقصد هنا لذاتها ، ومن أجل إقامة مذهب فلسفي ، وإنما من أجل تفسير نزعة دينية خاصة . فالأصل هو الديانة اليهودية ، وليست الفلسفة اليونانية والتفكير العقلي غير وسيلة من أجل تفسير الديانة اليهودية وتفصيلها ، بينما كانت الحال على العكس من هذا تماماً عند جميع الفلاسفة اليونانيين السابقين ، فالأصل في الفلسفة اليونانية وفي كل فلسفة أن تبدأ من التفكير العقلي المجرد .

ولكننا نجد هنا - لأول مرة - أن الفلسفة تبدأ بأن يكون الإنسان مؤمناً بعلّة حقائق ، ثم يحاول بعد هذا أن يفسرها : فالأصل هنا هو الإيمان ، والتعقل تال له . والحال هنا هي الحال التي توجد دائماً بالنسبة إلى كل فلسفة لاهوتية ، وهي الحال التي تعبر عنها العبارة المشهورة *credo ut intelligam* : « أؤمن لأتعقل » . كما أنه يلاحظ من ناحية أخرى أن الناحية الذاتية قد طغت إلى حد كبير جداً على الفلسفة ، فأصبح المثل الأعلى للفيلسوف أن ينطوي على نفسه ، وأن يحيا حياة طمأنينة مطلقة ، وهو المثل الأعلى الذي يختلف عما رسمه الفلاسفة اليونانيون السابقون ، وخصوصاً فيما قبل أرسطو . ولهذا يميل بعض المؤرخين إلى إخراج فيلون من هذا التيار اليوناني خصوصاً وأنه يجد فيلون قد تأثر بالعناصر الشرقية أكثر من تأثره بالعناصر اليونانية الخالصة وخصوصاً أيضاً أن فيلون قد عني بوجه خاص بأن يفسر العقائد التي أتت بها الديانة اليهودية ، ولم تكن تعنيه الفلسفة اليونانية في ذاتها بقدر ما يعنيه تفسير المعتقدات الدينية اليهودية . كما أن من الممكن أن نرجع أكثر أقوال فيلون إلى الديانات الشرقية بوجه عام ، ومن هنا يقول أصحاب هذا الرأي إن فيلون أحري بأن يوضع في نطاق فلسفة شرقية منه في نطاق فلسفة يونانية .

ولكننا نجد فريفاً آخر يقول إن فيلون لم يفعل في الواقع أكثر من أنه لخص وجمع في نفسه بين جميع التيارات السابقة عليه ، وكانت فلسفته نتيجة منطقية لتطور الفلسفة اليونانية ،

هو اقتناعنا بأن اللذات الإنسانية فانية متناهية ، كلها نقص ، وكلها شر . وكذلك سنصل إلى هذا عينه بالنسبة إلى بقية الأشياء . وحيث ندرك أن هذا العالم وهم ، وأنه لا قيمة إطلاقاً لأي شيء موجود به ، أو بعبارة موجزة ، ندرك أن العالم زائل وفان ومته ، فيلغنا هذا إلى البحث عن وسيلة « للخلاص » ، لأننا لم نفعل هذا في الواقع ، ولم نقل به ، إلا لكي يكون وسيلة إلى تحصيل « الخلاص » ، وتحصيل « الخلاص » إنما يتم بأن يتجه الإنسان إلى التشبه بالله : ذلك أنه يجب على الإنسان من أجل أن يتخلص من الحال التي هو عليها أن يفني بنفسه في الله ، فلا يمكنه أن يجد الخلاص إلا بالفناء في حضن الألوهية . وهذا الفناء يتم عن طريق التصوف . ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بإدراكه إدراكاً مباشراً ، لأن الله يظهر أمام الإنسان مباشرة ، ودون حاجة إلى وسائط . ولهذا نجد فيلون لا يعطي أدنى قيمة للمعرفة ذات الوسائط . وإنما يريد أن يدرك الله مباشرة ، وهذا الإدراك لله مباشرة إنما يتم عن طريق التجربة الصوفية ، ففي حالة الوجد الصوفي يستطيع المرء أن يعاين الله .

والسبيل إلى السلوك في هذا ثلاثي . فهو يكون أولاً عن طريق المجاهدة ، وثانياً عن طريق العلم ، وثالثاً عن طريق اللطف الواهب للقداسة ، كما سيعبر عن ذلك فيما بعد في المسيحية . والدرجة الأولى هي أدنى الدرجات ، ولذا لا تليق في الواقع إلا بالمريدين ، فهي أدنى من التعليم أو العلم ، لأننا في حالة العلم نصل إلى إدراك الخلاص بطريقة واعية ، فنستطيع أن نعرف بالضبط الطريق المؤدية إليه ؛ وهي في مرتبة أدنى من « اللطف الواهب للقداسة » ، لأن هذا النوع الأخير يأتي إلى الإنسان مباشرة عن الله ، دون أدنى حاجة إلى المجاهدة ، كما أنه مرتبة عليا من المعرفة ، ولهذا يقول فيلون : إن الدرجتين الأولى والثانية من شأن المريدين والسالكين ، أما الدرجة الأخيرة فمن شأن « الكمل » . ويرى أنه لكي يصل الإنسان إلى هذه الدرجة الأخيرة ، لا بد له أن يكون بطبيعته موهوباً من العناية الإلهية . ويصف لنا فيلون التجربة التي يقوم بها الإنسان في هذه الحالة الأخيرة ؛ ولكنه يقول لنا إن المهم في هذه الحالة هو أن يجرب الإنسان ويتنوق ، لا أن يعرف ويحدد . ولهذا فإن تحديد هذه الحالة من العسير جداً ، وإنما يجب أن يتنوق الإنسان ويعاين بنفسه ، أي يجب أن يحيا هذه التجربة بنفسه . وفي هذه الحالة الأخيرة يكون الإنسان في حالة طمأنينة مطلقة ، وفيها

المدرسة هو أن كل شيء هو العدد بيد أن هذا القول الذي عرفت به الفيثاغورية قد صيغ صيغتين مختلفتين اتخذ المؤرخون منها وسيلة لفهم هذا القول على نحوين مختلفين: فالصيغة الأولى هي أن كل الأشياء أعداد بمعنى أن الأشياء نفسها في جوهرها أعداد، أو بعبارة أخرى إن الأعداد هي التي تكوّن جوهر الأشياء، والصيغة الثانية هي التي تذكر أن الأشياء تحاكي الأعداد، ومعنى هذا أن الأشياء قد صيغت على نموذج أعلى هو العدد. وهذا القول في هاتين الصيغتين، قد ذكره أرسطو<sup>(١)</sup>: فهو يقول إن الأشياء جوهرها العدد عند الفيثاغوريين وذلك في كتابه «ما بعد الطبيعة»، ويقول تارة أخرى في كتاب «السماء» إن الفيثاغوريين يقولون إن الأشياء تحاكي العدد، وإن العدد نموذج الأشياء. وقبل أن نحدد المعنى الذي يجب أن نفهم به هاتين الصيغتين، يجدر بنا أن نقول إن أرسطو يفرق بين العدد عند أفلاطون والعدد عند الفيثاغوريين، فيقول إن الفيثاغوريين لا يجعلون الأعداد مفارقة للأشياء التي هي نموذج لها - كما فعل أفلاطون حينها جعل الصور أو المثل مفارقة للأشياء التي تشاركها في الوجود - وإنما هم يجعلون الأعداد متصلة وغير منفصلة عن الأشياء. وهذا يبين لنا الطريق الصحيح الذي يجب علينا أن نسلكه من أجل بيان ماهية الأعداد من حيث صلتها بالأشياء.

وفي الواقع أن هاتين الصيغتين اللتين ذكرناهما من قبل يعبران عن قول واحد، هو أن جوهر الأشياء العدد، إذ إن أرسطو حينها يجعل الأعداد عند الفيثاغوريين غير مفارقة للأشياء، إنما يجعل هذه الأشياء والأعداد شيئاً واحداً. ومعنى هذا أن الأشياء في مكوناتها وجوهرها أعداد، كما أن القول بأن نماذج الأشياء هي الأعداد يرجع أيضاً إلى القول بأن الأعداد جواهر الأشياء، لأن الأعداد نفسها توجد مع الأشياء ولا تفرق عنها افتراق الصور الأفلاطونية عن الأشياء المشاركة لها في الوجود. ومن هنا نستطيع أن نقول إن معنى الصيغتين واحد. ونحن نلاحظ من ناحية أخرى أن أرسطو يورد الصيغتين في موضع واحد، ولو أنه رأى أن هناك فرقا بين معنى الصيغتين، إذن لذكر هذا الفرق أو لما ذكر الصيغتين في موضع واحد على أنها يدلان على معنى واحد. والنتيجة التي نستخلصها من هذا هي أن قول الفيثاغوريين المشهور يجب أن يفهم على أساس أن الأشياء تكوّن جوهرها العدد.

ومع هذا فلا بد أن نتساءل: كيف تكوّن الأعداد جوهر الأشياء؟

خصوصاً في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، وعلى هذا نستطيع أن نعد فيلون نهاية لتطور منطقي مستمر، كما يقولون أيضاً إن مسألة تأثير فيلون بالديانة اليهودية يجب ألا يغالى فيها كثيراً، لأنه لم يستخدم في الواقع من الديانة اليهودية أكثر من هذه التعبيرات المختلفة التي صيغت فيها، فقد يكون الشكل أقرب ما يكون إلى اليهودية، ولكن المضمون والمادة يوناني صرف، فلا يجب أن ننخدع إذن بهذا الشكل كي نكر طبيعة الموضوع عنده، ومع هذا فإننا نميل إلى القول بالرأي الأول لأننا نجد عند فيلون في الواقع خروجاً على التقاليد الأساسية والخصائص الرئيسية المكونة للروح اليونانية، فهذه النزعة إلى التفرقة المطلقة بين اللامتاهي وبين المتاهي، وهذا التفسير لفكرة المتاهي واللامتاهي من حيث مرتبة الوجود بالنسبة لكل منهما، ثم الاتجاه الصوفي الصرف في الحياة العملية والاتجاه الذوقي في نظرية المعرفة، كل هذا بالإضافة إلى هذه الحقيقة، وهي أن الجزء الأكبر جداً من أبحاث فيلون إنما دار حول تفسير النصوص الدينية، وأن اليهودية قد وجدت نفسها إبان ذلك العصر في حاجة إلى الدفاع عن نفسها بإزاء الأفكار اليونانية التي غزت - كل هذا يجعلنا نرجح أو نؤكد أن فيلون يجب أن يضاف إلى حضارة أخرى غير الحضارة اليونانية، وأن لا يعد كحلقة من هذا التيار وإنما يجب أن نضيفه إلى حضارة أخرى جديدة خلقت الحضارة اليونانية، ونعني بها الحضارة البحرية أو الغربية.

#### (المدرسة) الفيثاغورية

لم تكن المدرسة الفيثاغورية مدرسة فلسفية فحسب، بل كانت إلى جانب هذا، أو قبل هذا، مدرسة دينية أخلاقية، على نظام الطرق الصوفية. فإلى جانب المبادئ الفلسفية التي قالت بها هذه المدرسة، توجد مبادئ صوفية ومذاهب متصلة بالزهد والعبادة: ولذا يجب على مؤرخ الفلسفة أن يميز تمييزاً دقيقاً بين المذاهب الفلسفية الخالصة في هذه المدرسة، وبين مذاهبها الدينية والأخلاقية، خصوصاً وقد أقضى عدم التفرقة بكثير من المؤرخين إلى الخلط والتناقض في فهم مذهب الفيثاغوريين. فلنحاول الآن أن نعرض للأقوال الفلسفية الخالصة التي قالوا بها، صارفين النظر عن الأقوال الأخلاقية الدينية الخالصة.

فقول أولاً: إن القول الرئيسي الذي قالت به هذه

جوهر الأشياء؛ ولما كان الانسجام يقوم على العدد، كان من الطبيعي إذن أن يقال إن جوهر الأشياء هو العدد.

**العدد:** قسم الفيثاغوريون العدد إلى قسمين: العدد الفردي والعدد الزوجي، وقالوا إن العدد الفردي هو المحدود والعدد الزوجي هو اللا محدود، لأن الفردي لا يمكن أن يتقسم إلى اثنين بل يقف عند حله هو؛ بينما العدد الزوجي يتقسم، فهو غير محدود، ثم ربطوا بين المحدود واللا محدود وبين المذاهب الأخلاقية فقالوا إن المحدود هو الخير بينما اللا محدود هو الشر. وأتى بهم هذا في النهاية إلى القول بأن طبيعة الوجود طبيعة ثنائية، ففي الوجود: المحدود واللا محدود وكل ما ينشأ عن هذين المتعارضين من صفات. فقالوا بأن في الوجود تعارضاً، ورفعوا أنواع هذا التعارض إلى عدد ممتاز في نظرهم هو العدد ١٠، فقالوا إن أنواع التعارض في الوجود عشرة هي: أولاً، محدود ولا محدود. ثانياً: فردي وزوجي. ثالثاً: الوحدة والتعدد. رابعاً: المستقيم والمنحني. خامساً: المذكر والمؤنث. سادساً: النور والظلمة. سابعاً: المربع والمستطيل. ثامناً: الخير والشر. تسعاً: الساكن والمتحرك. عاشراً: اليمين واليسار.

بيد أن هذه اللوحة ليست لوحة قديمة، بل يظهر أنها لوحة قال بها الفيثاغوريون الذين كانوا في العهد الثاني من عهد المدرسة الفيثاغورية، ونقصد به عهد فيلولاوس؛ فعنده نجد هذه اللوحة كاملة؛ أما عند المدرسة القديمة فلا نجد إلا إشارات عابرة لبعض أنواع التناقض.

ثم نتقل الآن إلى الكلام عن هذا التقسيم للعدد إلى فردي وزوجي أو محدود ولا محدود، فنقول إن الفيثاغوريين أنفسهم قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في بيان ماهية العدد من هذه الناحية: فبعضهم قال إن الأصل في الأعداد هو الوحدة، وعن هذه الوحدة تنشأ الثنائية؛ والوحدة عند أصحاب هذا الرأي تناظر الصورة، بينما الثنائية تناظر الهيولى أو المادة. ومن هنا فإن الأشياء كلها لم تنشأ إلا عن طريق هذه الثنائية، والأولى أي الوحدة مصدر الخير، بينما الثانية مصدر الشر. ولهذا نجد أن الخير والشر مرتبطان في كل الأشياء تمام الارتباط. ثم حاولوا من بعد أن يرجعوا هذه الوحدة إلى الله فقالوا إن الوحدة هي الإله، وفي مقابل الإله توجد الهيولى، والأشياء تشارك فيما بين الله وبين الهيولى، وهنا مصدر الخير والشر في الوجود.

هنا يختلف المؤرخون القدماء الذين ذكروا مذاهب الفيثاغوريين اختلافاً شديداً. فبعضهم يقول إن الأعداد تكون جوهر الأشياء بوصفها الصورة، وبعضهم يقول إن الأعداد تكون جوهر الأشياء بوصفها صورة وهيولى معاً. وأنسلر من أصحاب الرأي القائل بأن الأعداد صورة وهيولى معاً للأشياء. لكن المؤرخين الأحدث منه قالوا إن الأعداد كالصور بالنسبة إلى الأشياء معتمدين في هذا على التفرقة التي كانت موجودة من قبل بين الأبيرون

والبيرسس. فالأبيرون هو الشيء القابل، بينما البيرسس هو العلاقات الموجودة بين الأشياء، والمنظم لها وعلة الانسجام فيها ومصدر الرابطة التي ترتبط بها. وعلى هذا فقد كان الفيثاغوريون ينظرون من جهة إلى الأعداد بوصفها العلاقات أو النسب الموجودة بين الأشياء، بينما كانوا يقولون أيضاً بشيء يقبل هذه النسب هو المادة أو الهيولى أو الأبيرون. ويظهر أن هذا القول الأخير أقرب إلى الرجحان من قول أنسلر، لأن الذي دعا الفيثاغوريين إلى القول بأن العدد أصل الأشياء هو ما رأوه من نظم وانسجام بين الأشياء. لذا كان تصورهم للعدد قائماً على أساس أنه الإضافات أو النسب الموجودة بين الأشياء بعضها وبعض والتي تنظم المادة المضطربة في الأبيرون.

أما عن الدافع الذي دفع الفيثاغوريين إلى أن يقولوا هذا القول، فنذكر أن السبب الأصلي الذي دفعهم هو - كما يحدثنا أرسطو وفيلولاوس - ما رأوه من انسجام بين الأشياء، وعلى الأخص بين حركات الكواكب، فنقلوا هذا الانسجام الموجود في الكواكب إلى الأشياء وحسبوا أن الأشياء أيضاً خاضعة لهذا الانسجام. وهم من ناحية أخرى قد لاحظوا من عنايتهم بالموسيقى أن النغمات أو الانسجام يقوم على الأعداد: فالنغمات الموسيقية تختلف الواحدة منها عن الأخرى تبعاً للعدد. وقد يبدو لنا مثل هذا القول غريباً، لكن يلاحظ من أجل أن يبدو هذا القول أقل غرابية، أنهم كانوا يربطون الأعداد بمعتقداتهم الدينية فكان لبعض الأعداد سر خاص، وكانوا في هذا متأثرين من غير شك بالمذاهب الشرقية، خصوصاً عند البابليين حينما كانوا يجعلون لبعض الأعداد فضائل وأسراً متصلة بالوجود. هذا من ناحية، ويلاحظ من ناحية أخرى أن اكتشاف الفيثاغوريين للانسجام الموجود في جميع الكون قد أدهشهم، وجعل من الطبيعي لديهم أن يمتد هذا الانسجام إلى جميع الكون حتى يصبح هذا الانسجام

الوجود هو التعارض من حيث إن العدد أصل الوجود، والعدد بدوره ينقسم قسمين، فهل الوجود في تعارض مستمر؟

هنا يأتي الفيثاغوريون بنظريتهم في الانسجام فيقولون إن الأشياء المتعارضة تتحد أيضاً، فالكثرة تصبح وحدة والمختلف يصبح مؤتلفاً، وهذا الانسجام نفسه يتم عن طريق الأعداد نفسها. فالعدد بطبيعته يحتوي مبدأ الانسجام، وليست الأعداد إذاً مبدأ التعارض فحسب، بل هي في الآن نفسه مبدأ الانسجام.

تطور نظرية الأعداد عند الفيثاغوريين: لما كان الفيثاغوريون قد قالوا إن الأعداد جواهر، فقد حاولوا أن يطبقوا هذا القول على جميع الأشياء. ومن هنا ذهبوا إلى بيان الخصائص المختلفة التي للأعداد، بل اضطروهم هذا المذهب نفسه إلى أن يفترضوا وجود أشياء لا علة لوجودها إلا كون نظرية الأعداد نفسها تقتضيها. وذلك كما فعلوا في نظرية الأرض المقابلة، فإنهم - كما سنرى فيما بعد - لم يقولوا بفرضهم هذا إلا لأن مذهب الأعداد، وبخاصة العدد عشرة، يقتضي أن يضعوا هذا الجرم الجديد، إلى جانب الأجرام التسعة الأخرى.

بدأ الفيثاغوريون بأن نسبوا إلى الأعداد صفات هندسية، فقالوا كما يذكر أفلاطون وأرسطو إن العدد ١ يناظر النقطة، والعدد ٢ يناظر الخط، والعدد ٣ يناظر السطح، والعدد ٤ يناظر الجسم؛ فهناك إذاً تناظر واتصال بين الأعداد وبين الأشكال الهندسية. فإذا كنا قد أنكرونا من قبل أن تكون الأعداد الفيثاغورية أعداداً هندسية، أو أشكالاً هندسية، فليس معنى هذا أن الفيثاغوريين لم يقولوا بأن هذه الأعداد تناظرها الأشكال الهندسية، فهذا على الأقل - إن لم تصح الرواية - ما يقتضيه مذهبهم من أن كل الأشياء أعداد. ثم هم من ناحية أخرى ينسبون إلى الأعداد صفات أخلاقية فيقولون مثلاً إن العدد خمسة مبدأ الزواج، لأنه حاصل الجمع بين العدد الذي يدل على الذكر والعدد الذي يدل على المؤنث. وكذلك الحال في العدد ٧ تبعاً للمعتقدات القديمة: هو العدد الذي عن طريقه تنقسم الحياة الإنسانية. والعدد ١٠ هو أكمل الأعداد، وهو الوحدة الرئيسية التي تشمل كل الأشياء الأخرى، خصوصاً إذا لاحظنا أن العدد ١٠ هو حاصل جمع الأعداد الأربعة الأولى. ولهذا ارتفع به

أما أصحاب الرأي الآخر فيقولون إن الأصل هو هذه الثنائية بين الوحدة وبين الثنائية أو الكثرة، وينشأ الكون بانقصال الواحد عن الآخر، وعلى هذا يتكون الكون عن طريق الصلور. فعن الوحدة الأولى، التي هي مزيج من الوحدة والكثرة، ينشأ الكون والأشياء، وميرجع إلى الوحدة مرة ثانية. وهذا يشبه نظرية الصدور عند الأفلاطونية المحدثة. ولذا يلاحظ أن أصحاب هذا الرأي هم المتأخرون من الفيثاغوريين. ولما نستطيع أن نعد هذا القول مذهب الفيثاغوريين الأولين. كما أنه من ناحية أخرى يتنافى مع القول بفكرة الانسجام والنظام الأول، وهي فكرة واضحة عند المدرسة الفيثاغورية الأولى.

فأصوب الآراء إذاً هو الرأي الأول القائل بأنه في الأصل كانت الوحدة، ثم كان من بعد ثنائية هي الهول. لكن يلاحظ أن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة، فقد قال به متأخرون أيضاً. ويلاحظ أيضاً أن أرسطو لا يذكره عن الفيثاغوريين، ومعنى هذا أنه قول لم يأت إلا متأخراً، وكان نتيجة للتفرقة التي قال بها أرسطو بين الهول وبين الصورة.

وهناك قول ثالث بأن الأعداد يجب ألا ينظر إليها من الناحية الحسابية، إنما من الناحية الهندسية، بمعنى أن الأعداد هي أولاً النقطة، وعن النقطة يتفرع الخط والسطح والجسم... إلخ. فالأعداد أعداد هندسية، وليست أعداداً حسابية. ومن الذين ينسبون إلى الفيثاغوريين وفيثاغورس أنهم قالوا إن الأشكال الهندسية هي أصل الأشياء، شراح أرسطو الذين مالوا في هذا إلى حد بعيد، حتى أنكروا على الأعداد الفيثاغورية أن تكون أعداداً حسابية بوجه من الوجوه. إلا أن هذا القول أيضاً غير صحيح، لأن ما لدينا من وثائق، خصوصاً المبكرة منها، لا تلتزم على أن الفيثاغوريين قد قالوا بثل هذا القول. وهو كالأقوال السابقة، إما أن يكون منحولاً إلى الفيثاغوريين الأولين، وإما أن يكون من وضع المحدثين من الفيثاغوريين الذين وجدوا في عصر الجمع والتلفيق.

والرأي الأخير الذي يجب أن يقال في هذا الصدد هو أن الأعداد التي عندها الفيثاغوريون أعداد حسابية فحسب، وليست أعداداً هندسية. وليست الوحدة الأولى منها إلهاً، كما أن هذه الوحدة ليست أيضاً ثنائية تجمع بين الوحدة والثنائية. وإذاً فالأعداد الفيثاغورية أعداد حسابية في ماهيتها وهذه الأعداد الرياضية هي أصل الموجودات. ولكننا قلنا إن أصل



العالم حادث، وذلك واضح من كلام أرسطو حين يقول إن واحداً من الفلاسفة السابقين لم يقل بأن العالم قديم، بل كلهم قالوا إن العالم حادث، وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أنه حتى الفيثاغوريين أنفسهم قالوا بأن العالم حادث. لكن كيف يقولون إن العالم حادث؟ لقد قالوا إن العالم كان في البدء في وسطه أو في مركزه النار (كما فعل هيرقليطس)، وعن طريق الانجذاب إلى هذه النار تنفصل الأشياء عن اللا محدود - واللا محدود عند فيثاغورس أو الفيثاغوريين هو الهولي أو الخلاء - نقول حيثئذ ينجذب نحو النار بعض العناصر القريبة إليها، وشيئاً فشيئاً يتكون العالم. والعالم مكون أولاً من السماء الأولى وتليها الكواكب الخمسة، وتلي الكواكب الخمسة على الترتيب: الشمس ثم القمر ثم الأرض. ولكي يتم عدد هذه الأجرام فتصبح عشرة من أجل أن يكون الكون كاملاً، أضافوا جرمًا جديدًا سموه باسم الأرض المقلوبة وهذا الجرم الجديد مركزه بين الشمس وبين الأرض، وهو الذي يتمثل في إحداث الليل والنهار.

وعلى هذا الأساس قام النظام الكوني عند الفيثاغوريين. وتأتي بعد هذا فكرة الانسجام، فيقول الفيثاغوريون إن الكواكب متحركة، وإن كل حركة تؤدي إلى نغمة وإن النغمة تختلف الواحدة منها عن الأخرى تبعاً لسرعة الحركة؛ والأجرام أو الكواكب مختلفة في سرعة نغماتها تبعاً لبعدها أو قربها من المركز - ولهذا فإنها نغمات مختلفة، إلا أن هذه النغمات المختلفة تكون في تدرجها الطبقة (الأوكتاف). والطبقة أو الأوكتاف هي الانسجام عند الفيثاغوريين، ولهذا فإن الأجرام السماوية في حركاتها تبدو في انسجام أو تحدث انسجاماً.

وهنا تأتي مسألة أثير حولها الكثير من الجدل، وكان مصدر هذا الجدل أن الروايات التي قالت بهذا القول كانت متأثرة بالنظرية الرواقية التي أتت فيما بعد، وتلك هي مسألة «نفس العالم». ولعل أرجح الآراء في هذا الصدد رأي تسلا الذي أنكر أن يكون الفيثاغوريون قد قالوا بروح للعالم. وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو أنه تصدر عن النار الأولى حرارة أو حياة تشيع في أجزاء الكون. إلا أن هذه الحياة أو الحرارة لا تكون شيئاً واعياً مريداً يمكن أن يسمى باسم النفس الكلية كما هي الحال في البنية *πνευμα* الرواقية. أما النفس الإنسانية فقد قال الفيثاغوريون عنها - حسب ما يورده أفلاطون وأرسطو - إنها عدد، وإنها انسجام، لكن هذا

الفيثاغوريون، كما ارتفع به من بعد الأفلاطونيين الذين اتجهوا اتجاهاً فيثاغورياً مثل اسبوسسيوس، إلى مرتبة الآلهة لأن هذا العدد هو أصل الوجود. كذلك الحال في العدد ٤: فقد كان له مقام كبير عند الفيثاغوريين، لأنه أول عدد هو حاصل ضرب عدد في نفسه. وبعد هذا يتقلون من تلك الصفات الأخلاقية إلى الصفات الحسابية المتصلة بالأعداد نفسها، فيقولون مثلاً عن الواحد إنه الأصل في الأعداد ومنشأ الانقسام إلى الزوجي والفردي، والعدد ٢ هو العدد الزوجي، والعدد ٣ هو العدد الفردي الأول، والعدد ٤ هو حاصل ضرب أول عدد في نفسه، والعدد ٥ رأينا صفته من قبل، ويضاف إلى هذه الصفة أنه العدد الذي إذا ضرب في أي عدد آخر فإن حاصل الضرب (العدد الجديد) سيكون متتهياً إما بنفس العدد أو بالعدد ١٠. والعدد ٦ هو العدد الذي إذا ضرب في نفسه أنتج في خاتمة الأحاد نفس العدد ٦. أما العدد ٧ فهو المتوسط النسبي بين الأعداد الأولى إلى عشرة (١٠)، وذلك كما يلي:  $١ + ٣ = ٤$ ،  $٣ + ٤ = ٧$ ،  $٤ + ٧ = ١٠$ ، وذلك إلى جانب العدد ٣. أما العدد ٨ فهو أول عدد تكعيبي، والعدد ٩ تأتي أهميته من حيث إنه أولاً مربع ٣، ثم من حيث إنه ثانياً آخر الأعداد قبل العشرة. أما العدد ١٠ فهو كما رأينا أكمل الأعداد، وكل ما وراءه من أعداد هو تكرار لهذا العدد.

نتقل من هذا إلى تطبيق نظرية الأعداد على العناصر. وهنا يقول الفيثاغوريون إن العناصر لا بد قطعاً أن تكون مناظرة للأشكال المنتظمة. وأول الأشكال المنتظمة: المكعب وهو يقابل التراب، ثم الشكل الهرمي وهو يقابل النار، والمثلث المنتظم يقابل الهواء، وذو العشرين وجهاً المنتظم يقابل الماء، أما العنصر الخامس فيحوي جميع هذه العناصر الأربعة وهو أكمل الأشكال المنتظمة، وهو ذو الاثني عشر وجهاً المنتظم. ولستنا نعرف على وجه التحديد لمن تنسب هذه النظرية: أهى لفيثاغورس نفسه أم لفيلولاوس، لكن يغلب على الظن أن هذه النظرية كانت نظرية فيلولاوس ولم تكن نظرية فيثاغورس أو المدرسة الفيثاغورية الأولى. وسنرى فيما بعد كيف أن أفلاطون في «طيمائوس» يتخذ مثل هذه النظرية عينها، فيقول إن الذرات المكونة للعناصر لها أشكال مختلفة بحسب ما قلناه.

فيذا ما انتقلنا الآن من العناصر إلى الأشياء التي يتكون منها الكون، وجدنا أولاً أن الفيثاغوريين كانوا يقولون بأن

نسبت إليهم في هذا الصدد ليست أقوالاً علمية، لكنها معتقدات دينية آمنوا بها واتخذوها من أجل مسلكهم في الحياة، فهم قد أخطوا إذن بالمعتقدات الشعبية، وهذا لا يمنع من أن يكون الفيثاغوريون قد أخطوا بها بعد أن هذبوها وارتفعوا بها إلى شيء من التنزيه والتجريد.

وأخيراً نصل إلى مسألة رئيسية هي الأخلاق عند الفيثاغوريين. وهنا يلاحظ أنهم لم يضعوا أخلاقاً بالمعنى الحقيقي. فلئن كانت جماعتهم جماعة أخلاقية تسير على قواعد عمل معينة، ولئن كانت نظراتهم العلمية مختلطة بطابع أخلاقي كما رأينا من قبل حينما جعلوا للأعداد صفات أخلاقية معينة، فإن هذا كله ليس معناه أن الفيثاغوريين قد وضعوا علم الأخلاق، فإن السلوك سلوكاً أخلاقياً من الناحية العملية ليس معناه مطلقاً أنهم فكروا تفكيراً نظرياً في الأسس النظرية التي يجب أن تقوم عليها قواعد السلوك الأخلاقي. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الفيثاغوريين لم يضعوا علم الأخلاق، بل هم سلكوا فحسب سلوكاً أخلاقياً عملياً، لا يتجاوز حدود التفاصيل العملية التي يسير الإنسان على مقتضاها في حياته العملية. وبهذا يمكن أن نرد على أولئك الذين لا يريدون أن يجعلوا مقدمات أول واضح لعلم الأخلاق وإنما يجعلون الفيثاغوريين سابقين عليه في هذا الباب.

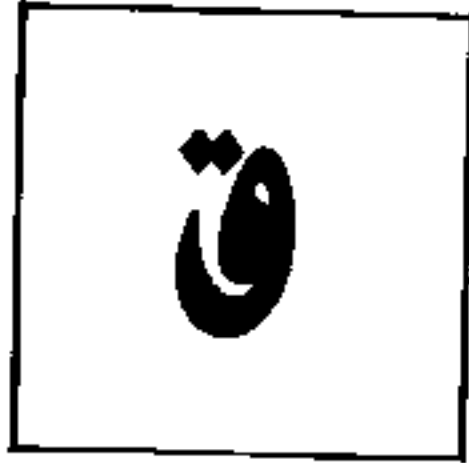
ونستطيع الآن أن ننظر نظرة إجمالية عامة إلى المدرسة الفيثاغورية، فنجد أنها أولاً كانت جماعة دينية أخلاقية صوفية، حاول أصحابها أن يتعدوا عن الحياة المضطربة التي كانت تحياها بلاد اليونان إبان ذلك العصر. لكن هذا الطابع الأخلاقي العملي لم يكن هو الطابع الذي ساد تفكيرهم العلمي، بل الأخرى أن يقال إن تفكيرهم العلمي هو الذي طبع تفكيرهم الأخلاقي، وأنهم بدأوا بالعلم كي ينتهوا إلى الأخلاق.

القول لا يجب أن يفهم بحسب ما فسرهُ المتأخرون، أعني على أساس أن الروح انسجام البدن. فكل ما يمكن أن يثبت للفيثاغوريين في هذا الصدد هو أنهم قالوا إن النفس انسجام فحسب، لكن لا نستطيع مطلقاً أن نقول إنهم قالوا عن النفس إنها انسجام للبدن. فهذا القول أشبه ما يكون بالنظرية الأرسطالية في أن النفس كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة ولهذا لا يمكن أن يقال إلا أن النفس عند الفيثاغوريين هي انسجام أو عدد، وذلك تبعاً لنظريتهم الرئيسية، وهي أن كل الأشياء عدد. وهنا نصل إلى قول مشهور، قال به الفيثاغوريون، وهو فكرة تناسخ الأرواح.

يقول الفيثاغوريون إن الإنسان عوقب ووضعت نفسه في سجن، هو البدن. والذي وضعها في السجن هو الله أو الآلهة، ولا يستطيع أن يتخلص بنفسه من هذا السجن، وإنما هو يستطيع فقط أن يتحرر عن طريق الموت، بانفصال النفس عن البدن. وهنا إذا فصلت النفس عن البدن، فإنها إما أن تحيا حياة لا مادية صرفة وذلك إذا كانت محسنة، وإما أن تحيا حياة عذاب بأن تذهب إلى النار في هادم أو تحيا مرة أخرى حياة أرضية في جسم إنسان آخر أو في جسم حيوان، وهكذا تستمر حياة النفوس. ويذكر الفيثاغوريون تأييداً لهذا قولهم إن الذرات الترابية التي نجدها في أشعة الشمس ليست إلا نفوساً إنسانية انفصلت عن أبدانها وعاشت علقمة في الهواء. وهذه النظرية التي قال بها الفيثاغوريون في تناسخ الأرواح هي النظرية التي سيأخذها أفلاطون، ويتحدث عنها طويلاً في «فيدون».

وليس من شك في أن هذا الرأي الذي قال به الفيثاغوريون لم يكن رأياً علمياً قالوا به بل كان معتقداً دينياً أغلب الظن أنهم أخذوه عن الشرقيين، ولهذا لا نستطيع أن نعهده من بين فلسفتهم. ومن هذا النوع كذلك الآراء التي وردت عن الفيثاغوريين فيما يختص بالآلهة، فإن الأقوال التي







قبلي وبعدي

apriori - aposteriori

يقال هذان اللفظان على التمييزات التالية:

- ( أ ) التمييز بين البرهان الذي يتقل من العلة إلى المعلول وبين البرهان الذي يتقل من المعلول إلى العلة ؛  
 ( ب ) التمييز بين المعارف التي نحصل عليها بالعقل المحض وبين تلك التي نحصل عليها بالتجربة ؛  
 ( ج ) التمييز بين تحصيلات الحاصل وبين الحقائق التجريبية .

( أ ) أما التمييز الأول فيرجع إلى أرسطو حين ميز بين *υστερον* و *προτερον* في كتاب « ما بعد الطبيعة » ( م<sup>٥</sup> ف ١١ ص ١٠١٨ ب ٩ - ١٠١٩ أ ١٤ ) و « المقولات » ( ف ١٢ من ١٤ أ ٢٦ - ب ٢٣ )، ثم تفرقة أيضاً بين *προς ημας* و *προτερον Φυσει* التحليلات الثانية « م<sup>١</sup> ف<sup>١</sup> ص ٧١ ب ٣٣ - ٧٢ أ ٥ و يوضح لرسطو المعنى الذي يقصده فيقول : « أقول أسبق وأعرف بالنسبة إلينا عن الشيء الذي هو أقرب إلى الحس ؛ وأقول أسبق وأعرف على الإطلاق عن الشيء البعيد عن الحس ، ولما كانت الأشياء الأبعد عن الحس هي للمعاني المجردة أو الكلليات ، بينما الأقرب إلى الحس هي المدركات الحسية ، فإن الأول على الإطلاق أو بالطبيعة هو الكلي ، ( التحليلات الثانية « م<sup>١</sup> ف ٢ ص ٧٢ أ ١ وما يتلوه ) .

وميز الفارابي بين البرهان بالماهية والبرهان بالعلة ، وعنه أخذ ألبيرتس السكسوني في تمييزه بين البرهان القبلي

والبرهان البعدي . الأول هو البرهان الكامل لأنه يعرفنا بالسبب والعلة ؛ أما الثاني ، البعدي ، فيتقل من الآثار أو المعلولات إلى الأسباب .

ومن ثم انتشر هذان اللفظان طوال العصور الوسطى الأوروبية . يقول القديس توما الأكويني :

Duplex est demonstratio- Una quae est per causam et dicitur propter quid et haec est per prior a simpliciter. Alia est per effectum, et dicitur demonstratio quia: et haec est per cae quae sunt priora quoad nos, cum enim effectus aliquis nobis est manifestior quam sua causa, per effectum. procedimus ad cognitionem causae , (Summa Theologica I, 2, 2<sup>e</sup>).

وترجمته : البرهان ضربان : أحدهما بواسطة العلة ، ويقال عنه برهان الماهية *Prepter quid* ، وهو الأول على وجه الإطلاق . والثاني برهان بواسطة المعلول ، ويطلق عليه برهان اللم ( لذا ) وهو يتعلق بالأمور الأقرب إلينا ، حيث آثارها أوضح لنا من عللها ومن المعلول نتقل إلى معرفة العلة « ( الخلاصة اللاهوتية « ١ : ٢ ، ٢ ج )

( ب ) وابتداء من القرن السابع عشر ، بفضل لوك والتجريبيين الانكليز ، اكتسب هذان اللفظان معنى أعم : فأصبح « القبلي » يدل على المعرفة التي نحصلها عن طريق العقل المحض ، بينما « البعدي » هو ما نحصله عن طريق التجربة .

كذلك نجد لبيتس يجعل « المعرفة القبلية » في مقابل « المعرفة البعدية » أو « المعرفة بالتجربة » ( مقالات

## القدرية

## Fatalisme (F.)

سنستعمل هذا اللفظ لا بالمعنى الذي كان له في تاريخ الفِرَق الإسلامية ، وهو معنى مقلوب إذ كان يدل على مذهب القائلين بحرية الإرادة، ولكن أسلاف المعتزلة والمعتزلة أيضاً (راجع مقال نلينو عن «القدرية» في كتابنا : «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية») بل بالمعنى اللصق مع الاشتقاق اللغوي ، أي القول بوجود قدر مقضي على الإنسان به ، أي أن مصير الإنسان محدد بقوى غير انسانية ، ولا حرية للإنسان في تشكيل مصيره بل ولا في تقرير أعماله .

## والقدرية على أنواع :

- |                       |                       |
|-----------------------|-----------------------|
| (١) القدرية الأسطورية | (٢) القدرية النجومية  |
| (٣) القدرية الفلسفية  | (٤) القدرية اللاهوتية |

(١) القدرية الأسطورية : ومفادها القول بوجود قدر يهيمن حتى على أعمال الآلهة ، ويخضع له زيوس كبير الآلهة كما يخضع له ، بالأحرى والأولى ، ساتر الآلهة ، وهو الذي يتحكم في مصائر الناس . وهذه النظرة الموجودة في الأساطير اليونانية قد قصد بها إلى ضمان الوحدة الكونية التي مزقتها الشرك وتعدد الآلهة (انظر هوميروس : «الليانة» ٢١ : ٨٢ ، ١٩ : ١٨٦ ؛ «الأوديسا» ٣ : ٢٢٦ ، ١١ : ٥٥٨) . وربما نشأت هذه النظرة بفضل التأمل العلمي في الحركات المنتظمة للأفلاك السماوية .

## (٢) القدرية النجومية :

أما القدرية النجومية فتربط مصير الإنسان المفرد بمواقع النجوم حين ميلاده . فبحسب مواقع النجوم تتغير طباع الناس وأخلاقهم ومشاعرهم ومصائرهم في الحياة .

## (٣) القدرية الفلسفية :

وتقوم على أساس أن القدر *επινομενη* هو الرابطة الضرورية التي تربط بين أجزاء الكل (الكون) وتوالتن وحدته ونطاقه . إنه الضرورة أو القانون أو اللوغوس الذي وفقاً له تحدث الأحداث . يقول ليوفوبوس : «إنه لا شيء يقع بالصدفة ، بل كل شيء يحدث وفقاً للوغوس أو الضرورة» . والقدر يشارك سائر العلل في التحكم في العالم .

لكن أفلاطون لـ («ثايتانوس» ١٦٩ ج ؛ «النواميس

جديدة» ٣ : ٣ ، وع ١٥ ، «موندولوجيا» بند ٢٧٦) . وتحدث عن «الفلسفة التجريبية التي تسير بطريقة بعدية» و«العقل المحض الذي يتولى التبرير بطريقة قبلية» («مؤلفاته» ، نشرة اردمن ص ٧٧٨ ب) .

وفي القرن الثاني عشر نجد قولف يقول : «ما نعرفه بالتجربة نقول عنه إننا نعرفه بعدياً (a Posteriori)» وما نعرفه بالبرهان العقلي نقول عنه إننا نعرفه قبلياً (a priori)» («علم النفس التجريبي» ٥٤٤ ، ص ٤٣٤ وما يليها) .

وجاء كنت فزاد في تحديد التفرقة بين «القبلي» و«البعدي» . إذ ميز بين المعارف القبلية المحضة وهي التي ليست فقط مستقلة عن كل تجربة ، بل هي أيضاً خالية من كل عنصر تجريبي . فمثلاً : القضية : «كل تغير فهو عن سبب» هي قضية قبلية ، لكنها ليست محضة ، لأن «التغير» أمر لا يمكن أن يستخلص إلا من التجربة («نقد العقل المحض» المقدمة ، ١) . كذلك يقرر أن «القبلي» لا يكون ميداناً مستقلاً للمعرفة ، بل هو الشرط لكل معرفة موضوعية .

إن «القبلي» عند كنت - هو «شكل للمعرفة» ، أما «البعدي» فهو «مضمون» المعرفة . وعلى أساس «القبلي» تقوم الرياضيات والفيزياء المحضة .

إن «القبلي» عند كنت هو العنصر الشرطي المؤسس لكل درجات المعرفة . وحتى في أمور الإرادة يوجد عنصر «قبلي» مؤسس ؛ كما بين هو ذلك في كتابه «نقد العقل العملي» .

ج) ويشكر أصحاب النزعة الوضعية من المعاصرين فكرة «القبلي» ، فيقول هاتز ريشباخ مثلاً : «لا يوجد شيء شبيه بالبنية التركيبية (القبلية) والمصادر الوحيدة المقر بها للمعرفة هي الإدراك الحسي والبنية التحليلية لتحصيلات الحاصل» (The Theory of Probability p. 372) ومن هنا فإن أصحاب هذه النزعة يقصرون «القبلي» على ما هو تحصيل حاصل *tantologique* ، ويميرون عن الحقيقة التجريبية بأنها «بعدية» . وإن كان البعض منهم مثل C.I. Lewis A Pragmatic Conception of the «a priori», in Readings in Philosophical Analysis (1949 p. 286 f. يتحدث عن «تصور برجماتي» لما هو «قبلي» ويقصد بذلك التصورات المحددة للمعاني وبعض ما يصطلح عليه في العلوم ؛ مثل تعريف النقطة والحركة والعنصر إلخ .

عليه اللعنة تقديراً سابقاً (Inst., III, 21, n. s) وراجع مادة كلفان).

وفي الإسلام سادت القدرية أي القول بالقضاء السابق والقدر المقدر سابقاً - في مذهب أهل السنة والجماعة، وانحلت في الأشعرية شكلاً محققاً لكنه لا يزال يؤكد القدرية التامة، ولم يقل بحرية الإرادة الإنسانية إلا المعتزلة (راجع تفصيل ذلك في كتابنا: «مذاهب الإسلاميين» ج ١ ط ١ في بيروت ١٩٧١، ط ٢ ١٩٧٨).

### مراجع

- B. Conta: La Théorie du fatalisme. Paris, 1877.
- H. von Arnim: Die stoische Lehre von Fatum und Willensfreiheit. Wien, 1905.
- D. Amand: Fatalisme et liberté dans l'antiquité grecque. Louvain- Paris, 1945.
- V. Cioffari: Fortune and Fate, from Democritus to St. Thomas Aquinas. new ed. New - York, 1949.

### قريطياس

#### Critias

سياسي ذو نزعة فلسفية سوفسطائية استمع كثيراً إلى سقراط لكنه انتهى بأن كان طاغية منعشاً للدماغ، وكان أحد «الثلاثين» الذين حكموا أثينا واستبدوا وطغوا لكنه كان موهوباً في الفلسفة وفي الخطابة والأدب، وكانت حكومة الثلاثين قد انتخبت في أثينا من أجل وضع دستور لأثينا بعد حربها مع اسبرطة، لكنهم طغوا واستبدوا. وذبّحوا خصومهم. وقد جعله أفلاطون في محاورتي «قريطياس» و«طيمائوس» يلعب دوراً بارزاً في الحوار. وقد كان قريطياس خال أفلاطون. وربما لهذا السبب لا نجد أفلاطون يصوره بالصورة البشعة الرهيبة المعروفة عنه من حيث شهوته إلى السلطة وطغيانه وتعطشه إلى سفك دماء خصومه. بل على العكس يحرص على تصويره فقط بأنه كان من أقرب المقربين إلى سقراط والحريصين على سماعه. ويجعله يروي قصة اطلنطا، أو الجزيرة السعيدة التي غرقت في المحيط المسمى باسمها: الاطلنسي.

م ، ٨٧٣ ج ؛ م ١٠ ، ٩٠٤ ج ؛ «طيمائوس» ٨٩ ج ، «السياسة» م ١٠ : ٦١٩ - ) أكد حرية الانسان واستقلال النفوس ، وكذلك أكد أرسطو هذه الحرية («الطبيعة» م ٢ ص ١٩٦ م ٢ ، ٨٣ ص ٢٥٤ ب ) . غير أن الرواقين أكدوا القدرية المتشددة ، فعرف زينون القدر بأنه «قوة تحرك المادة على نحو منتظم وتيب ، بحيث يمكن أن نسمي ذلك عناية أو طبيعة» . ومن هنا دعا الرواقيون إلى العيش بمقتضى الطبيعة ، وهو ما سمي باسم «حب القدر» amor fati

وقد هاجم الاسكندر الاقروديسي ( في القدر» (de Fato) وأفلوطين (التساع الثاني ف٤٣ ، الثالث ف١) وأبرقلس القدرية الكونية والنجومية هجوماً شديداً ، مؤكدين حرية الانسان ومنكرين تحكم مواقع النجوم في مصائر الناس وطباعهم .

وفي العصر الحديث نجد تيارات قدرية لدى بعض فلاسفة عصر النهضة ، ونجد عند ليبنتس في القرن السابع عشر لوناً محققاً من القدرية يقوم على فكرة في «الانسجام الأزلي» .

#### ٤) القدرية اللاهوتية :

وهنا محلّ الله أو الارادة (أو المشيئة) الإلهية محلّ المصير في الأساطير اليونانية ومواقع النجوم في القدرية النجومية . فالمذاهب الدينية (وهي موجودة في كل الأديان على السواء) القائلة بالقضاء والقدر ، أي أن الله قدر كل شيء تقديراً سابقاً ، وأن أفعال الانسان محكومة بالإرادة الإلهية ، وأن الفاعل الحقيقي هو الله ، لا الانسان - هي ألوان من القدرية اللاهوتية .

ففي المسيحية نجد مذهب القائلين بأن المختارين لا يستطيعون إلا أن يفعلوا الخير وذلك بما وهبهم الله من لطف ، والملمعون لا يمكنهم إلا أن يفعلوا الشر ، لأنهم محرومون من اللطف الإلهي : فمن وهب اللطف الإلهي - وهو وهب مجاني لا يقوم على الأعمال - صارت أفعاله كلها خيراً ، ومن حرم منه ، صارت أفعاله كلها شراً . ومن أوائل من أكدوا هذه القدرية في المسيحية لوكيدو ( في القرن الخامس ) وجوشك ( في القرن التاسع ) . وقد بلغت القدرية أوجها في المسيحية عند البروتستانت ، وخصوصاً في مذهب كلمان الذي قال : « إن أحوال الناس ليست واحدة ، بل بعضهم قدرت له الحياة الدائمة ، والبعض الآخر قدرت

كاملة ، وإعادات نظر عامة بحيث أتأكد من كوني لم أغفل شيئاً (ديكارت : « مقال في المنهج » ، القسم الثاني) .  
وراجع مادة : ديكارت .

### القوة

#### Puissance

تقال « القوة » بمعان عديدة ، أبرزها أثنان :

(١) القوة هي القدرة في الشيء على إحداث تغيير في شيء آخر ؛

(٢) القوة هي الامكان القائم في شيء للانتقال إلى شيء آخر .

وبالمعنى الثاني يقال « بالقوة » في مقابل « بالفعل » . وكل تغير هو انتقال لما هو « بالقوة » إلى ما هو « بالفعل » . ويؤكد أرسطو أن ما هو « بالفعل » أسبق وجوداً عما هو « بالقوة » ، لأن هذا الأخير لا يصير « بالفعل » إلا بواسطة شيء هو « بالفعل » .

لكن القوة ، بوصفها إمكاناً ، ليست سلباً خالصاً . لهذا يؤكد ليبنتس ، ضد الاسكلايين ، أن « القوى الحقيقية ليست مجرد إمكانات ، بل يوجد فيها دائماً ميول وأفعال » ( « المقالات الجديدة » ٢ : ٢١ : ٢١ ) .

والفلاسفة الانجليز في القرنين السابع عشر والثاني عشر فهموا القوة بالمعنى الأول . إذ رأى لوك وهيوم أن القوة تقال على ضربين : فهي أولاً شيء يقدر على الفعل ؛ وهي ثانياً شيء قادر على قبول التغير . وهي بالمعنى الأول قدرة فعالة ، وبالمعنى الثاني قدرة منفصلة . بيد أن هيوم يمعن في نقده لفكرة القوة فيصريح بأننا لا نملك عنها فكرة دقيقة . إنها علاقة يتصورها العقل بين شيء سابق وآخر يتلوه ، لكن لا الاحساس ولا التأمل يزوداننا بفكرة قوة في السابق لإحداث التالي .

وديكارت لا يقرّ بقوة فعالة إلا للفكر ، بينما يرى أن الامتداد انفعال صرف .

أما ليبنتس فيؤكد سريان القوة في كل الوجود، العقلي والمادي على السواء .

ولا يمكن أن نعد قريطياس سوفسطائياً بالمعنى المحدد ، أي المعلم الذي يتقاضى أجراً على تعليمه ، لكننا نجد فيه الملامح الرئيسية لأصحاب النزعة سوفسطائية فقد كان يؤمن بتقدم الانسان بواسطة قواه العقلية ، وكان يرى أن القوانين ليست قائمة في الطبيعة ، وليست أيضاً هبة من الآلهة ، وكان يقرر أن الدين من اختراع الانسان لردع الناس عن السلوك الشرير ، ويرى أن الدين للرعية وليس للحكام المستيرين .

وقد كتب قريطياس « مواعظ » في مقالتين ، وصل إلينا شذرات منها . كذلك كتب مسرحيات .

ونوفي قريطياس سنة ٤٠٣ ق . م . وعمره خمسون سنة تقريباً .

توجد الشذرات الباقية له في « شذرات السابقين على سقراط » نشره م هرمن ديلز .

وراجع عنه مقالاً تحت مادة Kritias في « دائرة معارف پاولي - فيسوقا » .

### قواعد المنهج الديكارتي

وضع ديكارت لنفسه القواعد الأربع التالية :

« الأولى : ألا أقبل أي شيء على أنه صحيح ، إلا إذا عرفت باليقينة أنه كذلك أعني أن أتجنب بعناية : الاندفاع واستباق الحكم Prévencion ، وألا أدرج في أحكامي إلا ما يتجلى بوضوح وتميز لعقلي بحيث لا يكون لدي أي مجال لان أضعه موضع الشك .

« الثانية : أن أقسم كل صعوبة أفحص عنها إلى ما يمكن أن تنقسم إليه من أجزاء وما يحتاج إليه من أجل أن يكون حلها أيسر .

« الثالثة : أن أسوق أفكاري بالترتيب ، مبتدئاً من الأمور الأبسط والأسهل في المعرفة ، ابتغاء الصعود منها شيئاً فشيئاً ، كما لو كان ذلك في درجات ، حتى معرفة أكثرها تركيباً ، مفترضاً أيضاً وجود ترتيب بين تلك التي لا يسبق بعضها بعضاً بالطبع .

« الأخيرة : هي أن أقوم في كل موضع بتعدادات

وبالنسبة إلى قانون التناقض ، يقول أرسطو : « هذا المبدأ يقول إن نفس المحمول لا يمكن ، في آن واحد ، أن يتسبب ، وأن لا يتسبب ، إلى نفس الموضوع من نفس الجهة . . . إذ من المستحيل على الانسان أن يعتقد أن نفس الشيء يوجد ولا يوجد ، كما يزعم البعض أن هيرقليطس قال ذلك » ( أرسطو : « ما بعد الطبيعة » ص ١٠٠٥ ب ص ١٧ ) .

ومبدأ أو قانون الثالث المرفوع هو النتيجة الضرورية لقانون التناقض .

وفي القرن الماضي وهذا القرن أثير الكثير من الجدل حول ما يلي :

( أ ) هل هي قوانين تعبر عما هو واقع ؟  
والجواب بالنفي ، وإنما هي قواعد يجب اتباعها من أجل سلامة التفكير . أما التفكير العادي فقد يلتزم بها ، وقد لا يلتزم .

( ب ) هل هي قوانين للفكر ، أو قوانين للأشياء ؟

وقد رأينا في السؤال الأول أنها ليست قوانين للفكر كما يتم بالفعل ، بل كما ينبغي أن يتم . وهي أيضاً ليست قوانين للأشياء ، لأن هذا يقتضي أن نقرر أنها تحدد ما هو معطى في التجربة .

كما أخذ على قانون الهوية أنه تحصيل حاصل ، وبالتالي لا يفيد معنى .

ومن ناحية أخرى ، لا تقتصر قوانين الفكر على هذه الثلاثة ، بل يذكر المناطقة المحدثون ، والرياضيون منهم بخاصة ، إلى جانبها قوانين أخرى منها :

١ - مبدأ القياس : إذا كانت ق تتضمن ص ، وكانت ص تتضمن ع ، فإن ق تتضمن ع .

٢ - مبدأ الاستنباط : إذا كانت ق تتضمن ص ، وكانت ق صادقة ، فإن ص صادقة .

٣ - مبدأ تحصيل الحاصل : ق ؟ ق تساويان ق . ومعنى هذا المبدأ أن تكرر نفس القضية لا يضيف شيئاً إلى القضية الأصلية .

٤ - مبدأ التعويض : ق ؟ ص يساويان ص ؟ ق .

وكنت في المرحلة الأخيرة من فلسفته نزع إلى توكيد الديناميكية مع الوجود : إذ رأى أن المادة يقوم جوهرها في العقل المشترك لقوتين أساسيتين ، والاختلافات في كثافة المواد إنما ترجع إلى الاختلافات في ترابط القوى الأصلية للجذب والتنافر . والمادة لا عملاً المكان بواسطة عدم قابلية التداخل ، وإنما عن طريق القوة الطاردة التي تختلف باختلاف المواد ( مؤلفاته ج ٧ ص ٢٧٩ ) .

وبالمعنى الأول لكلمة « قوة » ، يؤكد كنت أن القوة هي القدرة على « تغيير الحال الباطنة لمواد أخرى » ( ج ٧ ص ٥٢٠ ) . والقوة « آلية » تقاس بحسب مربع السرعة ، أما القوة « الميتة » فتقاس بالسرعة البسيطة . وهذا أراد أن يتوسط بين ديكاروت وليبتس . إن قوانين ديكاروت تخص الجرم الرياضي ، أما الجرم الطبيعي ففيه قدرة Vermögen في ذاته ، هي القوة التي من خارج بواسطة سبب حركته كي يكبر من ذاته في داخل ذاته ( ج ٧ ص ١٦٥ ) .

## قوانين الفكر الأساسية

### Fundamental Laws of thought

يلتزم الفكر المنطقي السليم بقوانين يسير عليها : وقد حددها أرسطو في ثلاثة هي التي عرفت تقليدياً بـ « قوانين الفكر » الأساسية ، وصيغت كما يلي :

(١) قانون الذاتية أو الهوية law of identity  
وصورته : كل شيء هو ما هو ؛ أو : أ هي أ .

(٢) قانون التناقض law of Contradiction ،  
وصورته : الشيء لا يمكن أن يكون كذا ولا يكون كذا معاً ؛  
أو : أ ليست ب ولا ب معاً .

(٣) قانون الثالث المرفوع law of excluded middle  
وصورته : الشيء ، إما أن يكون كذا أو لا يكون كذا ؛ أو : أ هي إما أن تكون ب أو لا تكون ب .

وهذه القوانين إما أن تفهم انطولوجياً ، أو منطقياً .  
فالهوية تفهم انطولوجياً بمعنى أن كل شيء مساوٍ لنفسه ؛ وتفهم منطقياً بمعنى أن أ تتسبب إلى كل أ ، أو « إذا كانت ق ( حيث ق = قضية ) ، إذن ق » .



كمصدر للنعيم ؛ وحارب عبادة الألهة حتى لقب « بالملحد ». وجاء هجسياس فأنكر اللغة الايجائية ورأى أن الغاية هي التحرر من الألم والحزن . لكن جاء أنيقيرس فجعل الغاية هي اللغة الايجائية ، وأبرز أهمية اللغة النابعة عن الصداقة واحترام الوالدين وخدمة الوطن . ويمكن أن ينسب أويبيروس إلى المدرسة القورينائية ، وإن كان القدماء لا يذكرون ذلك صراحة . وامتاز أويبيروس بنقد الأساطير الدينية ، فرأى في آلهة الأساطير اليونانية مجرد سلاطين حكماء عاشوا في أقدم العصور وأمروا بعبادة أشخاصهم .

### أرسطيفوس

ولد كما قلنا في مدينة قورينا (إحدى مدن برقة الحالية) التي كانت تسكنها جالية يونانية مزدهرة . ثم رحل إلى أثينة لتتلمذ على سقراط . ولكن يبدو أنه تلقى من السوفسطائية تعليماً ، كما يظهر من مذهبه . على أن أرسطو (٥ ما بعد الطبيعة) مقالة البيتا ف٢ ص ٩٩٦ ، ٣٢٢) يعده من بين السوفسطائية .

وكان ، كما يقول ديوجانس اللايرسي ، قادراً على التكيف مع الظروف أياً ما كانت ، ولهذا استطاع أن ينال الحظوة ، أكثر من غيره ، لدى ديونوسيوس طاغية صقلية ، لأنه كان يحسن الاستفادة من الظروف .

ولا بد أنه استمر طويلاً يدرس في بلده : قورينا ، وإلا لما سميت مدرسته بالقورينائية ، وقد استمرت هذه المدرسة لعدة أجيال : فقد تتلمذ على أرسطيفوس إيثيوفس Aithiops وأنطيفطرس Antipatros وابته أريته Arete ، وهذه تتلمذ عليها ابنها أرسطيفوس تلميذ أمه : ويتوسط شخصين متساين تتلمذ على أنطيفطرس كل من هجسياس وأنيقيرس .

والتواريخ الرئيسية في حياة أرسطيفوس هي : ولد حوالي سنة ٤٣٥ ق ، م ؛ وجاء إلى أثينا سنة ٤١٦ ، وإلى إيجينا سنة ٣٩٩ ، وكان رفيقاً لأفلاطون سنة ٣٨٩ - ٣٨٨ عند ديونوسيوس الأكبر ، وسنة ٣٦١ مع ديونوسيوس الأصغر ؛ ويبدو أنه عاد إلى أثينا بعد سنة ٣٥٦ ، وتوفي سنة ٣٥٠ ق .

٤

وينسب إليه ديوجانس اللايرسي الكتب التالية :

١ - تاريخ ليبيا في ثلاث مقالات ، بحث به إلى ديونوسيوس .

ويقرر هذا المبدأ أن الترتيب الذي تورد عليه القضايا يستوي .

( حيث ق ٢ ص ، ع هي قضايا ) .

### مراجع

1. Bradley: Logic, vol. I;
2. Bosanquet: Logic, vol. I.
3. Bain: Logic.
4. L.S. Stebbing: A modern introduction to Logic, Ch. XXIV, § 2
5. Boole: The laws of thought, London, 1854.
6. W.E. Johnson: Logic, vol. I.
7. H.W.B. Joseph: An Introduction to logic, p. 13.
8. J. N. Keynes: Formal logic, appendix B.
9. J.S.Mill: A system of logic, Book II, Ch. 7 § 5.
10. J.S.Mill: Examination of Sir William Hamilton's Philosophy.

### القورينائيون

مؤسس هذه المدرسة هو أرسطيفوس من قورينا (مدينة « شحات » في برقة بليبيا حالياً) ، تأثر بالسوفسطائية كما تأثر بسقراط . وعن السوفسطائية أخذ النزعة الحسية ، التي على أساسها بنى مذهبه في اللغة . ولكنه أشاع في مذهبه نقي اللغة روحاً سقراطية ، بأن جعل العلم هو سبيل الوصول إلى تحقيق الغاية من اللغة .

يرى القورينائيون أن انطباعاتنا الذاتية هي اليقينية عندنا . ولهذا ينبغي أن نتخذها معايير لأفعالنا التي ينبغي بدورها أن تهدف إلى اللغة . ويعرف أرسطيفوس اللغة بأنها الحركة الناعمة في مقابل الألم الذي هو حركة خشنة . والغاية عنده هي تحصيل اللغة الايجائية الراحنة الحاضرة ، لا مجرد الخلو من الألم . واللغة دائماً ذات قيمة ، حتى لو صدرت عن أفعال ينظر إليها عادة على أنها ذميمة . والوسيلة لتحصيل اللغة هي العلم الذي يمكن الحكماء من الافادة من كل موقف لاكتساب اللغة منه ، مع التحرر من سيطرة اللغة .

ومن بين أتباعه اهتم ثيودوس بإبراز أهمية العلم

٢ - كتاب يحتوي على ٢٥ محاوره بعضها كتب باللهجة الأتيكية ، والبعض الآخر باللهجة الدورية .

مذهبه : قلنا إن مذهبه ، كمذهب أنطستانس ، يجمع بين عناصر سوفسطائية وأخرى سقراطية .

وقد اتجه بالفلسفة إلى الأخلاق ، فلم يهمل بالطبيعة والمنطق لأنه رأى أن الغاية من الفلسفة هي سعادة الإنسان ، وفي هذا يتفق مع أنطستانس ؛ ولكنه يختلف عنه اختلافاً بيناً في أن أنطستانس يرى أن السعادة في الفضيلة ، بينما يرى أرسطيفوس أن السعادة في اللذة ، إن اللذة هي الخير المطلق ، وما عداها فلا قيمة له إلا بوصفه وسيلة إلى تحصيل اللذة . وهكذا ترى أن تلميذي سقراط اتخذوا طريقين متناقضين منذ البداية ، وإن كانا في النهاية سيتقاربان بعض التقارب .

يقول أرسطيفوس وتلاميذه إن كل إدراكاتنا ليست إلا انطباعات لأحوالنا الشخصية ، ولا نستطيع أن نحجربنا بشيء من الأشياء في ذاتها .

فنحن نشعر بالحلاوة والبياض ألح ، ولكن هل الأشياء نفسها حلوة أو بيضاء ؟ هذا أمر محبوب عنا معرفته ، وكثيراً ما يحدث الشيء الواحد أثيرين مختلفين في شخصين مختلفين ، ولما كنا لا نعرف أين الحق ، فإن الأمر يتوقف إذن على الإدراك الشخصي الذاتي . ولهذا نحن لا نعرف يقينياً غير انطباعاتنا الخاصة ، ولا يمكن أن نتخذه بها ؛ أما الأشياء نفسها فلا نعرف عنها شيئاً يقينياً . إن لدينا أساء واحدة ، ولكن معانيها تختلف باختلاف الأشخاص ، ولهذا يرى الفورينائيون أن جميع امثالاتنا وتصوراتنا ذاتية شخصية والنتيجة لهذا انه من الحماقة البحث عن معرفة الأشياء ، لأن هذا غير ميسور لنا ؛ ومن ناحية أخرى يكون الإحساس هو المعيار الذي يحكم به على أفعالنا وهو الذي يهبها قيمتها .

وعلى هذا الأساس الحسي الذاتي يقيمون مذهبهم في الأخلاق . إن كل إحساس عبارة عن حركة فيمن يحس . فإن كانت هذه الحركة ناعمة نشأ الشعور باللذة ، وإن كانت خشنة نشأ الشعور بالألم . وإذا أصبحنا في حالة سكون لم نشعر بلذة ولا بالألم . ومن بين هذه الأحوال الثلاثة : اللذة ، الألم ، الخلو من كليهما ، الأفضل هو اللذة قطعاً . تشهد على ذلك الطبيعة نفسها ، لأن الجميع يطلبون اللذة ويتجنبون الألم . والخلو من الألم لا يمكن أن يكون أفضل من اللذة ،

لأن عدم الحركة هو عدم شعور ، كما في النوم . فالخير إذن هو اللذة ، والشرايخ هو الألم ؛ وما ليس للذة ولا للألم فليس بشر ولا بخير ، ( أنظر سكتوس أمبريكوس : ضد المعلمين ، ٧م : ١٩٩ ) .

ولهذا كانت الغاية من الأفعال جلب اللذات . ولا يمكن الخلو من الألم - الذي رأى فيه أبيقور فيما بعد الخير الأسمى - أن يكون غاية . ولهذا أيضاً جعلوا واجب الإنسان هو تحصيل أكبر قدر من اللذات ، ولكن في اللحظة الحاضرة لأن اللذة المقبلة واللذة الماضية كليهما غير موجودة . إن الحاضر هو ملكنا أما الماضي والمستقبل فليسا لنا ، ولهذا ينبغي ألا نحفل بهما ( ذيوجانس ٦٦ ) .

وكل لذة خير ، ولا تفاضل بين اللذات ، ولا بين الأمور للولدة للذات ؛ فليكن الجالب للذة ما يكون ، المهم أنه يجلب لذة فقط . إن اللذات كلها سواء . ولهذا لا يفرقون بين لذات تسمح بها العادات والقوانين ، وأخرى لا تسمح بها . إن كل لذة مطلوبة ، حتى لو أتجها فعل قبيح .

لكن الفورينائيين لم يستطيعوا التمسك طويلاً بهذا الموقف الحاد بل اضطروا إلى الاعتراف بوجود تفاضل ، لأنه إذا كانت كل لذة خيراً فلا شك أيضاً في أن في بعضها مزيداً من الخير عن الأخرى ، كما لا سبيل إلى إنكار أن بعض اللذات يشتري بالألم كبيرة ، ولهذا اضطروا إلى الإقرار بأن بلوغ سعادة خالية من الأحزان أمر عسير المتل . ولهذا قالوا فيما بعد إن العمل السيء هو الذي ينشأ عنه ألم أكثر عما تنشأ لذة ، ولهذا ينبغي على العاقل أن يمتنع عن الأعمال التي تحرمها القوانين المدنية والرأي العام . وكذلك اهتموا بالتمييز بين اللذات الجسدية واللذات الروحية ، وإن كانوا استمروا يقولون بأن كل لذة أو ألم يتوقف على الإحساس الجسماني . ولم يتمسك الفورينائيون بالقول بأن السعادة تتوقف على اشباع الشهوات الحسية وحدها ، بل لا بد أن يحسب المرء حساباً ، إلى جانب ذلك ، للمزاج النفسي . ولا بد من تقدير ذلك كله ، وهو ما لا يتم إلا بالعلم والنظر والقطنة ، لأن ذلك يجعلنا نطلب اللذات الممكنة ، ويبعد عنا الأمور التي تعوق سبيل السعادة مثل الحسد والحب العنيف ، والحرافات ، ويحمينا من التطلع إلى شهوات مستحيلة .

ولهذا طالبوا بتربية الروح ، واتخذوا الفلسفة سبيلاً إلى الحياة الحقة ، لأنهم رأوا فيها الشرط لطلب السعادة .

وهكذا ينتهي مبدأ اللذة إلى تحديد يختلف عما بدأ أول الامر . والمبدأ الذي وضعه أرسطيفوس وهو أن يستمتع المرء بكل ما تقدمه له الحياة من متع في كل لحظة ، وأن الاستمتاع أفضل من الزهد وقد طبقه في مسلكه هو في الحياة . فكان يعيش عيشة فاخرة ، ويستمتع بأطياب الطعام ، ويلبس أفخر الثياب ، ويتطيب بأفخر العطر ، ويستمتع لدى بنات الهوى . ولم يزد الوسائل إلى تحصيل هذه اللذات ، فكان يحصل على المال من طرق كان يتورع عنها سائر الحكماء .

لكن ينبغي ألا نرى فيه مجرد ماجن ناهب للذات . لقد كان يريد الاستمتاع ، ولكنه في الوقت نفسه كان يريد أن يتحكم في شهواته ، وأن يستمتع بدون آلام ، وأن يحفظ لنفسه بالنصاعة والوضوح . وعدم اهتمامه بالماضي والمستقبل إنما كان لتوفير هذه النصاعة والوضوح الذهني . ولهذا نادى بالحرية الباطنة بإزاء اللذة . ومن هنا كلمته المشهورة في علاقته مع الغانية لايس : « إني أتود ولا أفاد » ، وهكذا يتقارب مذهب أرسطيفوس ومذهب أنطستانس .

#### ثيودورس الملحد

ومن القورينثيين الآخرين نذكر أولاً ثيودورس الملحد . قال اللاطرسى ( ٢ : ٩٧ ) : « كان ثيودورس ينكر العقائد الشائعة عن الآلهة ، وقد اطلعت على كتاب له عنوانه : « في الآلهة » له قيمته . ويقال إن أبيقور قد استعار من هذا الكتاب معظم ما كتبه في هذا الموضوع ، وكان ثيودورس أيضاً تلميذاً لانيقيرس ولد يونيسوس الديالكيتيكي ، كما ذكر ذلك أنطستانس في كتابه « طبقات الفلاسفة » ، وكان يعتقد أن السرور والحزن هما أعظم الخير والشر على التوالي ، وأولهما تجلب الحكمة ، والثاني الحماسة . وسمى الحكمة والعدالة إلهتين ، وعلوتيهما دعاهما السرور ، أما اللذة والألم فيتوسطان بين الخير والشر . ونفذ الصداقة لأنها لا توجد بين الحمقى ولا بين العقلاء ؛ فعندما تزول الحاجة لدى الأولين تزول الصداقة ، أما العقلاء فقامعون بأنفسهم ولا حاجة بهم إلى أصدقاء . ورأى أن من العقل ألا يضحى المرء بحياته دفاعاً عن وطنه ، لأنه ينبغي ألا تطرح الحكمة لمصلحة الجاهلين . وكان يقول إن العالم وطنه . ويرى أن السرقة والزنا والكفر مباحة في بعض الظروف ، لأن هذه الأفعال ليست شراً بطبيعتها ، إذا ما طردت الحكم السابق ضدها ، وهو حكم يحافظ عليه ابتغاء ربط العامة الجاهلة بعضها ببعض . والعامل من استمتع بكل وجداناته

صراحة دون أدنى مراعاة للظروف .

#### هجسياس

يرى هجسياس أن الغاية هي اللذة . ويرى أنه لا عرفان بالجميل ولا صداقة ولا إحسان ، لأننا لا نختار فعل هذه الأمور من أجل ذاتها ، بل للمصلحة . وأنكر إمكان السعادة ، لأن الجسم مصاب بالآلام شديدة ، والنفس تشارك في هذه الآلام ، ويعرورها الاضطراب ، والحظ كثيراً ما يجيب الآمال . لهذا فإن السعادة غير ممكنة . ويقول إنه لا يوجد شيء سار أو غير سار بطبعه ، فبعض الناس يسرون ، وغيرهم يتألمون من نفس الشيء . ولا أهمية للفقر أو الثراء بالنسبة إلى اللذة ، لأنه لا الفقير ولا الغني ، بوصفهما كذلك ، ذوا نصيب خاص من اللذة . والعبودية والحرية ، والنبل وخسة العنصر ، والشرف والعار - كلها تساوى في تقدير اللذة . والحياة مزية عند الأحق ، أما العاقل فهي عنده سواء . والعاقل من انقاد في كل أفعاله بمصلحته الذاتية ، لأنه لا يرى غيره كفوّاً له في الاستحقاق .

#### أنيقيرس

أما مدرسة أنيقيرس فتري أن الصداقة والاعتراف بالجميل وتبجيل الوالدين - أمور توجد فعلاً في واقع الحياة ، وأن الرجل الصالح يفعل أحياناً بدوافع وطنية . وسعادة الصديق لا تطلب لذاتها ، لأن جاره لا يشعر بها . ولا يعز الصديق لمجرد نفعه ، بل للمشعور بالجميل الذي من أجله قد نعاني المتاعب .

#### أوبميروس

على الرغم من أنه ليس ثم دليل على ارتباطه بالمدرسة القورينثية ، فلا بأس من التحدث عنه هاهنا .

وقد اشتهر بكتاب عنوانه « الكتاب المقدس » كتبه على صورة قصة رحلة ، وفيه عبر عن رأيه في ماهية الآلهة الشعبية . فقال إن الآلهة الشعبية ليسوا إلا رجالاً عاشوا في العصور السحيقة كانوا ذوي فطنة وقوة ، فقرضوا على الناس تأليههم ، ونجحوا في ذلك عند معاصريهم ورعيتهم . لكن ليس معنى هذا أنه أنكر الألوهية بعامه .

وقد رأى ر . ريتسنشتين ( « مسألتان في تاريخ الأديان » امتراسبورج سنة ١٩٠١ ص ٩٨ وما يليها ) وف . ياكوبي ( مافة : أوبميروس في دائرة معارف باولي - فيسوقا ،

الحد الأكبر majeur ، وما هو موضوع فيها يسمى الحد الأصغر mineur وتبعاً لذلك تميز الكبرى من الصغرى بكون محمول النتيجة موجوداً فيها ، أما موضوع النتيجة فيوجد في الصغرى .

والقياس اما اقتراني Categorical ، ولما استثنائي mixed فإن كانت عين النتيجة أو نقيضتها مذكورة في القياس بالفعل ، سمي استثنائي : مثل :

إن كان هذا جسماً فهو متحيز .

لكنه جسم .

∴ هو متحيز .

فهذه النتيجة مذكورة بالفعل في المقدمة الكبرى .

وإن لم تكن عين النتيجة ولا نقيضتها مذكورتين بالفعل ، بل بالقوة ، سمي اقترانياً . مثاله :

كل جسم مؤلف

كل مؤلف حادث

كل جسم حادث

وليست هذه النتيجة ولا نقيضتها مذكورة بالفعل في المقدمات ، وسمي اقترانياً لاقتران الحدود فيه بلا استثناء ، بينا الاستثنائي تقترن فيه الصغرى بالكبرى بأداة الاستثناء : « لكن » .

والقياسات الاقترانية قد تكون من قضايا حملية فقط ، وقد تكون من شرطيات فقط ، وقد تكون مركبة من الحمليات والشرطيات معاً . أما القياسات الاستثنائية فمؤلفة من مقدمتين إحداهما شرطية لا محالة ، والأخرى استثنائية .

قواعد القياس : يشترط لصحة انعقاد القياس القواعد التالية :

- ١ - يجب أن يكون في القياسي ثلاثة حدود فقط
- ٢ - يجب أن لا تحتوي النتيجة على الحد الأوسط
- ٣ - يجب أن يكون الحد الأوسط مستغرقاً ، على الأقل مرة واحدة .
- ٤ - يجب أن لا يستغرق حد في النتيجة لم يكن مستغرقاً من قبل في المقدمات .
- ٥ - لا إنتاج بين سالبين .
- ٦ - القضيتان الموجبتان لا تنتجان قضية سالبة

ص ٩٦٨ وما يتلوها) أن من المرجح جداً أن أفكار أويهميروس مستمدة من تقاليد الفكر المصري .

وقد نشأ أويهميروس في أجريجتيم أو مينا في صقلية ، أو في تاجه أو في جزيرة كوس ، أو أخيراً - وهو الأكثر احتمالاً ، في مسانة بالفلوفونين . وعاش في عهد كساندروس الذي حكم بين سنة ٣١٠ إلى ٣٩٨ ق. م .

ومصدرنا الرئيسي عنه هو ديودورس الصقلي . « وكتابه المقدس هذا لم يصل إلينا . لكن الشاعر أنيوس Aenius ترجمه إلى اللاتينية ترجمة فقدت هي الأخرى ، لكن أشار إلى مواضع منها لاكتانس في كتابه « النظم الإلهية » ، الجزء الأول . وقد جمع ريمون دي بلوك R. de Block في رسالة للدكتوراه كل الشذرات اليونانية واللاتينية التي وردت فيها آراء أويهميروس .

#### مراجع

عبد الرحمن بدوي : القورينية ، أو مذهب اللذة ، بنغازي ، سنة ١٩٦٩ .

#### قياس

##### Syllogisme

القياس « قول مؤلف من قضايا ، إذا سلّمت لزم عنه لذاته قول آخر » .

والقضية إذا رُكبت في القياس تسمى « مقلمة » Pro-misse . وأجزاء المقلمة تسمى حدوداً Termes . فالمقدمة الحملية إذا حُللت إلى أجزائها الذاتية يبقى الموضوع ، والمحمول . أما السور والجهة فليسا ذاتيين للقضية . والرابطة ، وإن كانت ذاتية ، لكنها لفظة دالة على الارتباط ، ولا يبقى الارتباط بعد حل القضية . واللازم عن القياس يسمى عند الاستنتاج : نتيجة Conclusion ، وقبل الاستنتاج عند أخذ الذهن في ترتيب المقدمات يسمى : مطلوباً .

وكل قياس بسيط يتألف بالضرورة من مقدمتين كلٌّ منهما تتألف من حدين ، بينها حد ثالث مشترك . وهذا الثالث المشترك لا يظهر في النتيجة . ولما كان متوسطاً بين الحدين الآخرين سُميَ حداً أوسطاً moyen terme . أما الحدان الآخران فيكونان النتيجة : فما هو محمول فيها يسمى

صحة النتائج ، بل يتوقف الأمر على صحة المقدمات .  
والمشاهد هو أن المقدمات الصادقة تنتج دائماً نتائج صادقة . أما  
المقدمات الكاذبة فقد تنتج نتائج كاذبة كما تنتج نتائج صادقة .

ومن ناحية أخرى لاحظ سكستوس امپيريكوس ، من  
الشكاك اليونانيين ، أن في القياس دوراً فاسداً ، إذ تتوقف  
صحة المقدمة الكبرى على صحة النتيجة : مثلاً :

كل انسان فان  
سقراط انسان  
سقراط فان

يلاحظ أن المقدمة الكبرى : « كل انسان فان » لا  
تصح إلا إذا صحّت النتيجة وهي أن « سقراط فان » .

وفي القرن التاسع عشر عاد جون امتيورت مل إلى  
رأي الشكاك هذا ، مؤكداً أن في القياس مصادرة على  
المطلوب الأول ، لأن المقدمة الكبرى تفترض صحة النتيجة  
مقدماتاً . بيد أنه يقول مع ذلك إن القياس ضرب من الاستنتاج  
مفيد وصادق . كما قال إن اليقنة على النتيجة هي عينها اليقنة  
على المقدمة الكبرى ، حتى أن كليهما يمكن أن نستخلص من  
نفس المعطيات . (مجل : « مذهب في المنطق » ، الكتاب  
الثاني ، الفصل الثالث) إذ كل منها يستخلص من أحوال  
جزئية شوهد فيها أن ع هي ح .

### القياس المضمير

#### enthymème

هو القياس الذي حذف إحدى مقدمتيه أو النتيجة .  
وهو أنواع أهمها :

١ - « الضمير » : وهو القياس الذي حذفت مقدمته  
الكبرى : إما لظهورها والاستغناء عنها ، مثل خطأ أ ب .  
أ ج خرجا من المركز إلى المحيط ، فهما متساويان . فهنا  
حذفت الكبرى وهي : كل الخطوط الخارجة من المركز إلى  
المحيط متساوية . وإما لاختفاء كذب الكبرى إذا صرح بها  
كلية ، كقول الخطيب : هذا الإنسان يخاطب العدو ، فهو  
إذن خائن مُسلم للثغر . ولو قال : وكل مخاطب للعدو فهو  
خائن - لشعر بما يناقض به قوله ولم يسلم له .

٢ - « الرأي » : وهو قياس حذفت مقدمته

٧ - النتيجة تتبع الأخص : أي أنه إذا كانت إحدى  
المقدمتين سالبة كانت النتيجة سالبة ، وإذا كانت إحدى  
المقدمتين جزئية كانت النتيجة جزئية

٨ - لا إنتاج بين جزئيتين

٩ - لا إنتاج بين كبرى جزئية وصغرى سالبة

اشكال القياس : تتحدد اشكال القياس وفقاً لموقع  
الحد الأوسط في المقدمتين . وعلى هذا تكون للقياس أربعة  
اشكال :

الشكل الأول الشكل الثاني الشكل الثالث الشكل الرابع

ط	ح	ط	ح	ط	ح	ط
ع	ط	ع	ط	ع	ط	ع

حيث ط = الحد الأوسط ، ع = الأصغر ، ح =

الأكبر .

وللشكل الأول أربعة أضرب ، وللثاني أربعة ،  
وللثالث ستة ، وللرابع خمسة ، ولتسهيل حفظها وضع  
المدرسيون في العصور الوسطى كلمات لاتينية هكذا :

1. Barbara, Celarent, Darii, Ferio
2. Cesare, Camestres, Festino, Baroco
3. Darapti, Disamis, Datisi, Felapton, Bocardo, Ferison
4. Bramantip, Camenes, Dimaris, Fesapo, Fresison

حيث الحروف المتحركة تدل على نوع القضية a = كلية  
موجبة ؛ e = كلية سالبة ؛ i = جزئية موجبة ؛ o = جزئية  
سالبة .

أما الحروف الساكنة فتدل على طريقة رد الضرب في  
الاشكال : الثاني والثالث والرابع ، إلى نظائرها في الشكل  
الأول وتدل الأحرف الأولى على نوع الضرب من الشكل  
الأول الذي يرد إليه الضرب من الأشكال الثلاثة الأخرى  
(مثلاً Cesare يرد إلى Fensson; Celarent يرد إلى Ferio  
الخ) .

راجع تفصيل هذا كله في كتابنا : « المنطق الصوري  
والرياضي » ص ١٥٧ - ٢١٢ .

والقياس الاستثنائي ينقسم إلى متصل ، ومتفصل .

وتفاصيله في كتابنا هذا ص ٢١٢ - ٢٢٢ .

قيمة القياس : القياس بوصفه استنتاجاً لا يضمن

جوكليينوس) وفيه تكون المقدمة المذكورة أولاً متضمنة لمحمول النتيجة، بينما الحد المشترك بين أي مقدمتين متتاليتين يكون في الأولى موضوعاً، وفي الثانية محمولاً - على النحو التالي:

النوع الأرسططالي: كل أ هي ب ؟ كل ب هي ج ؟  
كل ج هي د، كل د هي هـ . ∴ كل أ هي هـ

النوع الجوكلييني: كل د هي هـ ؟ كل ج هي د، كل ب هي ج ؟ كل أ هي ب . ∴ كل أ هي هـ

والفارق بين كلا النوعين هو في الترتيب الذي يجري عليه إيراد المقدمات: ففي حالة النوع الأرسططالي نجد أنه لو صيغت الأقيسة صياغة كاملة، لتبين أننا نبدأ بالمقدمة الصغرى، ونجعل النتيجة المطوية دائماً مقدمة صغرى، وكل مقدمة تالية تكون كبرى بالنسبة إلى السابقة عليها مباشرة. ويمكن أن يُحلَّل هكذا:

- (١) كل ب هي ج ؟ كل أ هي ب . ∴ كل أ هي ج  
(٢) كل ج هي د ؟ كل أ هي ج . ∴ كل أ هي د  
(٣) كل د هي هـ ؟ كل أ هي د . ∴ كل أ هي هـ

أما في حالة النوع الجوكلييني فالترتيب عكسي: فالمقدمة المذكورة أولاً هي الكبرى، وتجعل النتيجة المطوية دائماً مقدمة كبرى، وكل مقدمة تالية للأولى تكون صغرى بالنسبة إلى السابقة عليها وكبرى بالنسبة إلى التي تليها ويمكن أن يُحلَّل هكذا:

- (١) كل د هي هـ ؟ كل ج هي د . ∴ كل ج هي هـ  
(٢) كل ج هي هـ ؟ كل ب هي ج . ∴ كل ب هي هـ  
(٣) كل ب هي هـ ؟ كل أ هي ب . ∴ كل أ هي هـ

ولهذا القياس قاعدتان خاصتان هما:

١ - يجب ألا توجد فيه أكثر من مقدمة واحدة جزئية، ولا بد أن تكون الأولى إن وجدت.

٢ - يجب ألا توجد فيه أكثر من مقدمة واحدة سالبة، وإن وجدت فلا بد أن تكون الأخيرة.

هذا بالنسبة إلى النوع الأرسططالي، أما قاعدتا النوع الجوكلييني فهما هاتان القاعدتان عينهما، مع وضع لفظي «الأولى» و«الأخيرة» الواحد مكان الآخر.

راجع تفصيل ذلك في كتابنا: «المنطق الصوري»

الصغرى، وأصبحت الكبرى مقدمة كلية عمودية، أي مقبولة، تقرر أن كذا كائن أو غير كائن، صواب فعله أو غير صواب. وتؤخذ دائماً في الخطابة مهمة، كقولك: الحساد يعادون، فهو يعاديك.

٣ - «الدليل»: وهو قياس إضماري حده الأوسط شيء إذا وجد للأصغر تبعه وجود شيء آخر للأصغر. ويكون على نظام الشكل الأول لو صرح بمقدمته. مثاله: هذه المرأة ذات لين، فهي إذا قد ولدت. وهذا النوع أخص من الضمير، فإنه من أحد أقسامه، وهو ما حذفت كبراه لظهورها.

٤ - «العلامة»: قياس إضماري حده الأوسط إما أعم من الطرفين معاً، حتى لو صرح بمقدمته كان المنتج منه من موجبتين في الشكل الثاني، كقولك: هذه المرأة مصفاة، فهي إذن حيلة؛ - وإما أخص من الطرفين حتى لو صرح بمقدمته كان من الشكل الثالث، كقولك: إن الشجعان ظلمة، لأن الحجاج كان شجاعاً وظالماً. والمستدل بالعلامة يأخذها كلية، ولذلك لا يكون استدلاله صحيحاً.

راجع التفصيل في كتابنا: «المنطق الصوري والرياضي» ص ٢٢٢ - ٢٢٦.

وراجع:

W. E. Johnson: Logic, Part I, Chap, III.

## القياس المركب مفصول النتائج

### sorites

القياس المركب مفصول النتائج هو قياس مركب من عدة أقيسة بسيطة، تطوى كل نتائجها ما عدا الأخيرة فإنها تذكر، وتتوالى بحيث يكون لكل مقدمتين متتاليتين حد مشترك فيما بينهما، على الصورة:

كل أ هي ب ؟ كل ب هي ج ؟ كل ج هي د ؟ كل د هي هـ ؟ كل هـ هي و . ∴ كل أ هي و

وهو على نوعين: الأول هو الأرسططالي وفيه تكون المقدمة المذكورة أولاً متضمنة لموضوع النتيجة، بينما الحد المشترك لأي مقدمتين متتاليتين يكون في الأولى محمولاً، وفي التي تليها موضوعاً. - والثاني هو الجوكلييني (نسبة إلى

والرياضي، ص ٢٢٨ - ٢٣٣

وراجع

J. N. Keynes : *Formal Logic*, § 325 - 6

## قياس الخلف

## Réduction à l'absurde

ويسمى أيضاً : القياس السائق إلى المحال ( كما في ترجمة « منطق أرسطو » العربية القديمة ).

وهو : « أن تأخذ نقيض المطلوب ، وتضيف إليه مقدمة صادقة على صورة قياس مُنتج ، فينتج شيئاً ظاهر الإحالة ، فتعلم أن سبب تلك الإحالة ليس تأليف القياس ولا المقدمة الصادقة ، بل سببها إحالة نقيض المطلوب - فإذن هو محال ، فنقيضها حق . وإن شئت أخذت نقيض المحال ، وأضفت إلى الحق ، فينتج المطلوب على الاستقامة » ( ابن سينا :

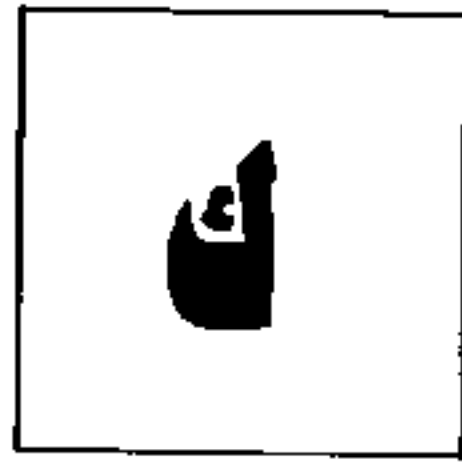
« عيون الحكمة » ص ١٠ ) .

ويضاهه : البرهان المستقيم ( البرهان على الاستقامة ) أو يسمى أيضاً : البرهان المباشر . وهو كثير الاستعمال في الهندسة ، ومثاله البرهان على النظرية القائلة بأن المستقيمين المتوازيين لا يلتقيان مهما امتدا . فنقول في البرهنة : لو التقيا ، نتج عنهما مثلث قاعدتاه تساويان قائمتين ، فإذا أضيف إليهما زاوية الرأس المتكونة بسبب هذا الفرض ، لكان مجموع زوايا المثلث أكبر من قائمتين ، وهو محال . إذن الفرض محال ، إذن نقيض الفرض صحيح . . وهو المطلوب .

ويستعمل قياس الخلف في رد الضريين Baroco و Bocardo إلى نظير لهما في الشكل الأول - وهو ما يسمى بالرد غير المباشر .

وقد استعمل أرسطو البرهان السائق إلى المحال في « التحليلات الأولى » خصوصاً في صفحات : ٤٥ أ ٢٣ - ٤٤ أ ٢١ ٦١٩ أ ١٧ - ٥٦٣ ٢١ ٦٢٩ ب ٢٩ - ٦٣ ب ٢٢ .







# ك

## كارنوب

### Rudolf Carnap

من أبرز ممثلي الوضعية المنطقية.

ولد في 18 مايو سنة 1891 في Rosdorf (بالقرب من Barmen في ألمانيا، وتوفي في سنة 1970 في كاليفورنيا.

تعلم في جامعتي فرايبورج وبينما من سنة 1910 إلى سنة 1914، حيث تخصص في الفيزياء والرياضيات والفلسفة. وكان من بين أساتذته في بينا الرياضي المنطقي جوتلوب فريجه فأثر فيه تأثيراً عميقاً. وبعد الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى حصل في سنة 1921 على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة بينا برسالة عنونها: «المكان: اسهام في نظرية العلم» (نشر في سنة 1922 في مجلة «دراسات كتيبة» Kantstudien). وفي هذه الرسالة حلل الفروق في الطابع المنطقي بين تصورات المكان لدى الرياضيين، والفيزيائيين والنفسانيين. وأرجع هذه الفروق في تصور المكان بين هؤلاء إلى كون اللفظ «مكان» له معان مختلفة عند كل فريق منهم: فله معنى عند الرياضي، ومعنى آخر عند الفيزيائي، ومعنى آخر عند النفساني. وهكذا يتجلى في هذه الرسالة، على نحو إجمالي، مبادئ الوضعية المنطقية التي سينميها فيما بعد هو ومورتنس اشلك، وأساسها القول بأن الخلافات الفلسفية مردها في الغالب إلى العجز عن التحليل المنطقي للتصورات المستخدمة.

ودعاه مورتنس اشلك Moritz Schlik في سنة 1926 ليكون مدرساً مساعداً Privat dozent في جامعة فيينا، فلبى

الدعوة، واشترك بنشاط في مناقشات دائرة فيينا التي أنشأها اشلك، وصلر من أبرز رجالها.

وفي سنة 1928 نشر أول كتاب رئيسي من كتبه وهو: «البناء المنطقي للعالم».

وإبان السنوات الأولى من مقامه في فيينا درس هو وأعضاء «دائرة فيينا» الرسالة الفلسفية المنطقية تأليف لودفيج فيتجنشتين، دراسة عميقة كان لها تأثير قوي في تطور فكر كارنوب، مع بقاء بعض الخلافات بين رجال هذه الدائرة وبين فيتجنشتين.

وفي سنة 1930 أنشأ بالتعاون مع هانز ريشنياخ مجلة دولية عنونها: «المعرفة» استمرت عشر سنوات (سنة 1930-1940) وكانت لسان حال الوضعية المنطقية بخاصة.

وفي سنة 1931 عين أستاذاً لكرسي الفلسفة الطبيعية في قسم العلوم الطبيعية بجامعة براغ الألمانية. واستمر مع ذلك على صلة وثيقة بدائرة فيينا؛ بيد أنه ازداد اهتمامه بمشاكل المنطق واللغة وأساس الرياضيات. وكانت ثمرة ذلك ثاني كتبه الرئيسية بعنوان: «النظم المنطقي للغة» (سنة 1934).

ولما استفحل أمر النازية في ألمانيا وما جاورها، استحال على كارنوب وهو اليهودي- أن يبقى في الجامعة الألمانية في براغ، فارتحل في ديسمبر سنة 1935 إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد أشهر قليلة عين أستاذاً للفلسفة في جامعة شيكاغو. واستمر في شغل هذا المنصب حتى سنة 1952، وتخلل ذلك دعوته استاذاً زائراً في جامعتي هارفرد وإلينيوي.

يقصد بها إمكان العثور على معنى العبارة متحققاً في التجربة المباشرة أو غير المباشرة. فإن لم تكشف العبارة (أو التقرير) عن إمكان تحقق معناها في التجربة، فيجب أن تنبذ على أنها عبارة وهمية زائفة خالية من المعنى. وكارناب، ومن لف لفه، يعتبرون من العبارات الواجب نبذها جل، إن لم يكن كل، التقريرات الواردة في الميتافيزيقا، وكثير من تلك الواردة في الأخلاق وعلم الجمال.

ويقرر كارناب أن المشاكل التي تدرس في هذه الميادين (الميتافيزيقا والأخلاق وعلم الجمال) ليس لها من أجوبة إلا عبارات خاوية هي الأخرى من المعنى. ولهذا لا يعدونها مشاكل حقيقية أبداً. إنهم في زعمهم مجرد صيغ لفظية لها مظهر الصياغة للمشاكل، بينما هي في الواقع - زعموا - تنتهك المعايير التجريبية لكون العبارة ذات معنى.

وفي مقال كتبه كارناب بعنوان: «التغلب على الميتافيزيقا بواسطة التحليل المنطقي للغة» (سنة ١٩٣٢) يؤكد هذا الاتجاه ويدافع عنه. وفيه يميز بين نوعين من التقريرات الوهمية أو الزائفة على حد زعمه هما: التقريرات التي تحتوي على لفظ يظن خطأ أن له معنى تجريبياً، والتقريرات التي تكون عناصرها ذات معنى ولكنها مجتمعة لا تعطي معنى. ويزعم كارناب أن كلا النوعين متوافر جداً في الميتافيزيقا، وساق شواهد على ذلك عبارات قالها مارتن هيدجر في محاضراته: «ما الميتافيزيقا؟»، ومن بينها عبارة مشهورة وردت في هذه المحاضرة نصها: «إن العدم نفسه يُعدم» Das Nichts selbst nichtet ويعلق عليها كارناب قائلاً: هذه العبارة تحتوي على خطأ مزدوج: إذ تحتوي على لفظ لا معنى له وهو يُعدم» nichtet، وعلى خطأ في نظم العبارة مجتمعة هو استخدام اللفظ Nichts (= العدم) على أنه اسم، بدلاً من أن يكون تعبيراً عن نفي مكتمل وجودي existential quantifier مثل «لا شيء هو».

ومن سوء النية قطعاً أن يستمد كارناب شواهد من عبارات هيدجر، ومن المعروف أن هيدجر لغة خاصة تختلف كل الاختلاف عن لغة سائر الميتافيزيقيين وينبغي أن تفهم في سياق وإطار فلسفة هيدجر وحدها؛ وما هيدجر إلا واحد من مئات الفلاسفة الميتافيزيقيين منذ أفلاطون وأرسطو حتى اليوم، فكيف يصدر حكمه العام هذا على «كل» أو «جل» الميتافيزيقا من مجرد شواهد من عبارات فيلسوف واحد تميزت لغته بطابع خاص جداً؟!!

وفي أثناء وجوده في شيكاغو قام، بالتعاون مع أوتو نويرات Otto Neurath وشارلز مورس Charles W. Morris بإصدار «دائرة معارف دولية في العلم الموحد».

وإزدادت عنايته بعلم المعاني Semantics فأصدر فيه: «مدخل إلى علم المعاني» (سنة ١٩٤٢) و«ادخال الصورة في المنطق» (سنة ١٩١٣)، و«المعنى والضرورة» (سنة ١٩٤٧).

ومنذ سنة ١٩٤١ انصرف إلى مشاكل الاحتمال والاستقراء، فتمخض ذلك عن واحد من أهم مؤلفاته وعنوانه: «الأسس المنطقية للاحتمال» (سنة ١٩٥٠).

وفي سنة ١٩٥٤ عين أستاذاً للفلسفة في جامعة كاليفورنيا في لوس انجلس في الكرسي الذي خلا بوقاة هانز ريشنباخ. واستمر في هذا المنصب إلى أن ترك التدريس في سنة ١٩٦١.

#### آراؤه: ١ - رفض الميتافيزيقا

بعد كارناب من أكبر من أسهموا في الوضعية المنطقية، وهي نزعة يصعب جداً إدراجها بين النزعات أو المذاهب الفلسفية بالمعنى الصحيح، لأنها تقوم أساساً على رفض الميتافيزيقا، مع أن الميتافيزيقا هي جوهر الفلسفة بالمعنى الصحيح.

وأساس الوضعية المنطقية هو تحليل اللغة: «سواء اللغة الطبيعية العادية، واللغة العلمية واللغة الفلسفية، لأن أصحابها يزعمون أن الخلافات بين الآراء أو المذاهب الفلسفية، إنما ترجع إلى سوء فهم أو سوء تحليل للتصورات الفلسفية، وكان المشاكل الفلسفية ما هي إلا خلافات ناجمة عن اشتراك في معاني الاصطلاحات الفلسفية!»

يقول كارناب في كتابه الصغير بعنوان: «مشاكل وهمية في الفلسفة: عقول الآخرين والتزاع حول الواقعية» (سنة ١٩٢٨) إن المشاكل الميتافيزيقية بعامتها، ومشكلة الواقعية والمثالية بخاصة، ينبغي أن تعدّ مشاكل وهمية زائفة. ويعتمد كارناب في دعواه هذه على مبدأ قابلية التحقيق الذي قال به فتجنشتين، وهو المبدأ الذي يقول إن معنى عبارة ما إنما يعطى بواسطة أحوال (أو شروط) تحقيقها، والعبارة (أو التقرير) تكون ذات معنى إذا وفقط إذا كانت قابلة للتحقيق من حيث المبدأ. وقد عدّل كارناب فيما بعد عن تطلب إمكان التحقيق إلى مجرد التأييد Confirmability. وقابلية التحقيق

واقعي، والآخر من أتباع مذهب الهوحدية: فإنه بالنسبة إلى الأول الأشياء الفيزيائية ليست فقط مضمونات للإدراك الحسي، بل وأيضاً توجد في ذاتها خارج عقل الإنسان؛ وبالنسبة إلى الثاني لا يوجد إلا الإدراكات الحسية، بينما ينكر وجود العالم الخارجي. وعلى كليهما الآن أن يبحث هل توجد بحيرة معينة في وسط البرازيل مثلاً. فيسعى كل واحد منها إلى تقرير ذلك مستعيناً أولاً بما لديه من معايير، مثلاً بالقيام برحلة استكشافية لتلك المنطقة. وسيصلان بذلك إلى نتيجة متفق عليها، وكذلك في المسائل الجزئية التجريبية لن يحدث بينها خلاف (مثلاً فيما يتعلق بالموقع الجغرافي، وسعة البحيرة، وارتفاعها فوق مستوى سطح البحر، إلخ). لكن بعد استفاد كل المعايير التجريبية إذا ادعى أحدهما أن البحيرة ليست فقط موجودة ولها الصفات التجريبية المحددة التي أدركوها، بل وأيضاً فوق ذلك لها حقيقة خارج الشعور ومستقلة عن الشعور، بينما مناصر الهوحدية Solipsist ينكر هذه الحقيقة، فإن كليهما لا يعود يتكلم لغة العالم التجريبي، بل لغة الميتافيزيقي. ولما كانت كل المعايير التجريبية قد استنفدت، فإنه لا يبقى بعد ذلك أي عمل للفصل في هذا الخلاف في الرأي بينهما. ولا يستطيع الإنسان حينئذ أن يقر بأن رأي الواقعي أو رأي الهوحدية ذو معنى.

فإذا ساءل المرء: إذا كانت القضايا الميتافيزيقية عديمة المعنى، فمن أين جاء إذن قيام مذاهب ميتافيزيقية باستمرار وإثارة مسائل جدلية وهمية هكذا؟ وجواب كارنب هو: إن العلم ليس هو النشاط الروحي الوحيد الذي يقوم به الإنسان؛ فهناك نشاطات أخرى، مثل الفن والدين. وهكذا فإن المذاهب الميتافيزيقية ما هي إلا صور مختلطة غامضة مستمدة من هذه الميادين الثلاثة: الميتافيزيقا، الفن، الدين. إن لدى الميتافيزيقيين حاجة شديدة إلى التعبير عن شعورهم بالحياة؛ لكن ليست لديهم القدرة على القيام بذلك على نحو مناسب: بخلق أعمال فنية. كذلك لديهم ولع بتناول التصورات المجردة، وينشئون أحياناً نوعاً من التقوى الدينية. ومن ثم يتناولون لغة العلم ويعبرون بها عن تجربتهم للعالم ولكن على نحو غير سليم أبداً. إنهم لا يؤدون للعلم شيئاً، وأما بالنسبة إلى الشعور بالحياة فيقدمون شيئاً غير وافٍ لوقورن بما يقدمه كبار أهل الفن. وبالجملة، يزعم كارنب أن الميتافيزيقا تعبير غير وافٍ عن الشعور بالحياة؛ إن الميتافيزيقيين موسيقيون بغير موهبة موسيقية، أو شعراء يفتقرون إلى الملكة الشعرية.

ومن الأمثلة التي يسوقها على الكلمات الخاوية من المعنى الألفاظ الآتية: «المطلق»، «اللا مشروط»، «الموجود الحق»، «الله»، «العدم»، «سبب العالم».

ولتوضيح رأيه في العبارات العديمة المعنى يسوق المثل التالي: إذا افترضنا أن إنساناً استعمل الصفة bobig (وهي لا وجود لها في الألمانية، تقريباً مثل كلمة: خنفسار) وادعى أن على المرء أن يقسم كل الأشياء إلى babig (خنفسارة) ولا خنفسارة nichtbabig. فإن سأل سائل: بأي شروط يسمى الشيء الفلاني خنفسارياً babig، فالجواب أنه لا يمكن الإجابة بشيء، لأن الخنفسارية صفة ميتافيزيقية لا توجد أية علاقة تجريبية تدل عليها. وهذا المعنى سيقول المرء إن العبارات المتعلقة بالخنفسارية هي كلام فارغ لا معنى له؛ وسيقر كل إنسان بأن الكلمة «خنفساري» لا يحق لنا استعمالها في الأقوال العلمية.

ويصرح كارنب بأن هذا أيضاً ينطبق على اللفظ: «الله»، وبصورة أظهر، لأن الميتافيزيقيين لا يستطيعون أن يجددوا ولا الوضع النظمي للفظ: «الله»، فلا يجددون هل هو اسم أو صفة. فإذا فرضنا أن هذا اللفظ صفة (محمول)، فإن من الممكن القول: «س هو الله»، وسيكون معنى هذا القول هو بيان العلامات التجريبية التي لا بد أن يملكها «الله». في نطاق نظرية أسطورية، فيها ينظر إلى الآلهة على أنهم يسكنون مواضع محددة وتصدر عنهم أفعال تدل عليهم (مثل إطلاق البرق، أو إطلاق عاصفة على البحر، إلخ)، فإن كلمة «الله» تكون ذات معنى. أما في الميتافيزيقا، حيث يدل هذا اللفظ على موضوع عالٍ على الكون وغير تجريبي، فإنه يصبح عديم المعنى. لكنه ينبغي، هكذا يزعم كارنب، أن لا يؤدي هذا البيان إلى تأسيس الإلحاد، لأن الإلحاد يقوم في انكار صحة هذه القضية: «الله موجود». لكنه بحسب المعيار الذي وضعه كارنب فإن هذه ليست قضية إطلاقاً، لأنها خلو من المعنى، بسبب كون اللفظ «الله» خلو من المعنى. ولهذا يقول كارنب إن الإلحاد، من الوجهة النظرية هو موقف لا معنى له تماماً مثل التالي.

ويحاول كارنب بعد ذلك أن يبين أن العديد من المسائل الفلسفية يمكن بيان أنه مسائل زائفة، وإن كان ينظر إليها عادة على أنها مسائل داخلية في نظرية المعرفة. مثال ذلك «مشكلة حقيقة العالم الخارجي». فلو افترضنا جغرافيين أحدهما

الأقوال المتعلقة بأحوال وأحداث العالم الفيزيائي. أما القضية المتعلقة بتجارب حية ذاتية فلا تملك غير معنى ذاتي (مونتولوجي)، أي أن لها معنى بالنسبة إلى صاحبها فقط، وليس بالنسبة إلى شخص آخر غيره. ولهذا فإن أمثال هذه القضايا لا محل لها في العلم.

ويطالب كارنب باستعمال ولغة الأشياء أو واللغة الفيزيائية حتى في العلوم الروحية، وذلك بأن يكون من الممكن ترجمة الأقوال في هذه العلوم إلى أقوال يمكن الفحص عن صحتها تجريبياً.

### ٣- إمكان تحقيق القضايا التجريبية

وبتأثير أبحاث كارل بوبر، سعى كارنب إلى تصحيح فهم تركيب المعرفة التجريبية. وفي هذا السبيل حاول وضع تصور جديد لمعيار المعنى التجريبي، أكثر تساهلاً من النظرية الأصلية في اقتضاء إمكان تحقيق معنى القضايا تجريبياً.

ووضع قواعد لهذا التصور الجديد تتلخص فيما يلي:

١- كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقيق تحقيقاً تاماً وهذا مبدأ التحقيق التام.

٢- كل الأقوال التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأييد تأييداً تاماً وهذا مبدأ التأيد Bestätigung التام.

٣- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتحقيق وهذا هو مبدأ التحقيق.

٤- كل القضايا التركيبية يجب أن تكون قابلة للتأييد وهذا هو مبدأ التأيد.

وفي كل هذه الأحوال يجب أن تكون الصفات متعلقة بما هو قابل للملاحظة.

### ٤- علم المعاني والنظم Syntax المنطقي.

إن علم المعاني والنظم يمكن أن يعالجنا ليس فقط بوصفها علمين تجريبيين، بل وأيضاً بوصفها علمين محضين *reine Wissenschaften*. بيد أن علم المعاني التجريبي والنظم التجريبي يتسبان كلاهما إلى علم اللغة، أما علم المعاني المحض والنظم المحض فهما علمان منطقيان. وهذان العلمان الأخيران يمكن التمييز بينهما بواسطة طريقة القواعد التي وفقاً لها تبنى اللغات الصناعية العلمية. وهما غالباً ما يجمعان تحت

أما المشاكل الكبرى التي شغلت الميتافيزيقا نفسها بها منذ القدم فهي في زعم كارنب ليست مشاكل علمية على الإطلاق لأن المشكلة تقوم حين تصاغ قضية وينظر هل هي صحيحة أو باطلة. أما إذا كانت القضية بغير معنى، فإن المشكلة التي تعبر عنها هي مشكلة وهمية زائفة.

### ٢- وحدة العلم

اهتمت دائرة فيينا بفكرة وحدة العلم، وفي سبيل ذلك طالبت بلغة موحدة بها يمكن التعبير عن كل قضية علمية. ولغة كهذه لا بد لها أن تحقق شرطين: إذ ينبغي أولاً أن تكون لغة بين «الأفراد» أي لغة ميسورة لكل إنسان، وعلاماتها تدل على نفس المعنى عند الجميع. وينبغي ثانياً أن تكون لغة عالمية، يمكن بها التعبير عن أي موضوع نشأه.

وقد رأى نورث Neurath وكارنب أن لغة الفيزياء هي وحدها التي يتوافر فيها هذان الشرطان. ومن هنا سمي مذهبها هنا بالفيزيائية *Physikalismus*. ولما كانت اللغة الفيزيائية لغة كمية محضة، لا يستعمل فيها إلا التصورات القياسية، فإن كارنب خفض النظرية الفيزيائية فيما بعد بحيث جعل المسألة مسألة «لغة أشياء» *Dingsprache* أو لغة عالم الأجسام، تحتوي على تصورات كيفية إلى جانب التصورات الكمية، بشرط أن تتعلق بخواص للأشياء مشاهدة أو علاقات قابلة للملاحظة قائمة بين الأشياء. ولذلك حين يشار إلى نظرية «الفيزيائية» فإنه يقصد بها هذا المعنى المخفف الأخير. وعلى كل حال فإن «الفيزيائية» بشكلها هذين تطالب فقط بأن تكون الصفات (المحمولات) الفيزيائية هي الصفات الأساسية للغة العلم الموحدة. لكن لا يقصد من هذا أيضاً القول بأن كل قانونية ينبغي أن تكون قابلة لا محالة للرد إلى قوانين فيزيائية.

أما أن «لغة الأشياء» هي الشرط الأول للتضام بين الناس، فهذا أمر لا يحتاج إلى فضل بيان. ويشير هنا كارنب إلى أننا هنا لسنا بإزاء ضرورة منطقية، بل بالأحرى بإزاء حالة تجريبية سعيدة: فإن اختلافات الرأي بين الأشخاص المختلفين فيما يتعلق بدرجات الحرارة، والأطوال، وترددات السرعة، إلخ- يمكن من حيث للبدا تلافيا في داخل نطاق حدود الدقة الممكن بلوغها. والأمر نفسه يصدق على الأقوال غير الكمية التي تنطق بها لغة الأشياء. إذ يمكن دائلها من حيث المبدل الوصول إلى اتفاق بين مختلف الأشخاص في

- Formalization of Logic. Cambridge, Mass., 1943.
- Meaning and Necessity: A Study in semantics and Modal Logic. Chicago, 1947.
- Logical Foundations of Probability. Chicago, 1950.
- The Continuum of Inductive Methods. Chicago, 1952.

## مراجع

- P.A. Schilpp, ed.: The philosophy of Rudolf Carnap. Vol. XI in the Library of Living philosophers (La Salle, Illinois, 1963).
- مجلد يقع في ١١٠٠ صفحة يتضمن ترجمة عقلية ذاتية كتبها كارناب عن نفسه، و٢٦ مقالاً نقدياً عن مختلف الأوجه الفلسفية، وردة على نقاده، وثبتاً وافياً بالمراجع.

## كاستلي

## Enrico Castélli

فيلسوف إيطالي اهتم خصوصاً بفلسفة الدين.

ولد في ١٩٠٠/٦/٢٠، وتوفي في ١٠ مارس سنة ١٩٧٧.

وكان مديراً لـ «معهد الدراسات الفلسفية» في روما، وأستاذاً لفلسفة الدين طوال ثلاثين سنة (١٩٤٠-١٩٧٠) في جامعة روما، ومدير تحرير مجلة «محفوظات الفلسفة» Archivi di Filosofia.

نقد الهووحيدية في نظرية المعرفة، وعبر عن ذلك في كتبه الأولى: «لابرتونير Laberthonnière» سنة ١٩٢٧؛ «الفلسفة والدعوة الدينية»، سنة ١٩٢٩؛ «المثالية والهووحيدية» سنة ١٩٣٣. Idealismo e solipsismo.

لكن أهميته تأتي من كونه واحداً من أبرز ممثلي الوجودية ذات النزعة الدينية، ويتجلى ذلك في كتابه «الوجودية اللاهوتية» (سنة ١٩٤٨) وكتابه: «المفترضات للاهوت التاريخ» (سنة ١٩٥٤). ومن كتبه الأخرى تذكر:

«الزمان الرخو» سنة ١٩٦٩ Le Temps invertebré  
«مفارقات الإدراك العام»، سنة ١٩٧٠ Iparadossi del Senso

عنوان واحد هو: «دراسة اللغة المشكلة»- Studium formali- sierter Sprachen.

## ٥- البناء المنطقي للغة

وبالنسبة إلى المعاني المحضة والنظم المحض من المهم جداً التفرقة بين لغة الموضوع Objektsprache وبين ما بعد اللغة Metasprache. أما لغة الموضوع فهي اللغة الرمزية الصناعية. أما ما بعد اللغة فهي تلك اللغة التي توضع فيها التواعد الصادقة على لغة الموضوع؛ كذلك تصاغ بما بعد اللغة كل النتائج النظرية المتعلقة بلغة الموضوع. وعادة تستعمل لغة التخاطب بوصفها ما بعد لغة. والسبب في تسميتها «ما بعد اللغة» هو أن هذه اللغة تستعمل للكلام عن لغة الموضوع، فهي «بعد» لغة الموضوع، ومن الأمثلة البارزة على الأقوال المابعد لغوية القول بأن قضيتين من قضايا لغة الموضوع لا تصدقان منطقياً معاً. بيد أنه في علم اللغة العادي عادة ما تستعمل لغة الموضوع وما بعد اللغة بمعنى واحد. أما في المنطق - فيما يزعم كارناب - فإنه ينبغي التمييز الحاد الدقيق بين هاتين اللغتين، وإلا فقد يحدث من الخلط بينها مناقضات معنوية.

## أهم مؤلفاته

## «المكان»

- Der Raum. Ein Beitrag zur Wissenschaftslehre Berlin, 1922.

## «تكوين التصورات الفزيائية»

- Physikalische Begriffsbildung. Karlsruhe, 1926

## «البناء المنطقي للعالم»

- Der Logische Aufbau der Welt. Berlin, 1923.

«مشاكل وهمية في الفلسفة: عقول الآخرين والنزاع حول الواقعية»

- Scheinprobleme in der Philosophie: Das Fremdpsychische und der Realismusstreit. Berlin, 1928.

## «موجز في المنطق الرمزي»

- Abriss der Logistik. Wien, 1929.

## «النظم المنطقي للغة»

- Logische Syntax der Sprache. Wien, 1934.

- Philosophy and Logical Syntax. London, 1935

- Vol. I, No. 3, of: International Encyclopedia of Unified Science. Chicago, 1939.

- Introduction to semantics. Cambridge, Mass., 1942.



مع ذلك عزله السياسية. وحارب البلشفية. وعمل منذ سنة ١٩٢٠ في سبيل إعادة توحيد الديمقراطية الاشتراكية. وبعد رحلة إلى جورجيا (روسيا) عاد إلى فيينا في نهاية سنة ١٩٢٠. ولما ضم هتلر النمسا إلى ألمانيا في سنة ١٩٣٨ اضطر كاوتسكي إلى ترك فيينا إلى هولندا؛ وتوفي في ١٧/١٠/١٩٣٨ في أمستردام.

ويعد كاوتسكي، بعد ماركس وأنجلز، أكبر مفكري الماركسية وواضعي أسسها النظرية. وكان منهجه هو التحليل، على أساس المادية التاريخية، لكل مرافق الحياة. وقد عالج العديد من المسائل من وجهة النظر هذه وسجل نتائج تحليله في العديد من الكتب والمقالات التي نشر معظمها في مجلة «الزمان الجديد». لقد رأى أن الأساس الصحيح للماركسية لا يقوم في النقد الاقتصادي الوارد في كتاب «رأس المال» لكارل ماركس، بل في التصور المادي للتاريخ الذي من شأنه، فيما زعم كاوتسكي، أن يجعل من الاشتراكية علماً يتوخى الكشف عن أحوال الأحداث التاريخية. وعدّ النظرية الماركسية في التاريخ هي تطبيق مناهج العلم على دراسة المجتمع. ورفض الديالكتيك الهيجلي، واستبدل به عملية التكيف مع البيئة المتغيرة. ومن رأيه أنه في الطبيعة العضوية: تتغير الأنواع لتكيف نفسها مع البيئة الطبيعية التي تتغير ببطء، وهذا بدوره يستلزم المزيد من التكيف بواسطة المزيد من التغيرات التي تشمل التغيرات التكنولوجية والاجتماعية، في عملية لا تنتهي، هي التي تؤلف التاريخ.

وكان يرى أن كل التصورات والإدراكات والمعارف الاقتصادية في الماركسية ما هي إلا مقولات تاريخية وينبغي أن ينظر إليها هكذا، وهذه المقولات ينبغي ارجاعها إلى ظروف اجتماعية وأن تفهم على هذا النحو.

#### مؤلفاته

راجع عن ثبت مؤلفاته:

Carl Huber: Karl Kautsky- Bibliographie in: Die Gesellschaft. Sonderheft zu Karl Kautskys 70 Geburtstag. Berlin, 1924.

ونذكر من بين كتبه العديدة:

- Der Einfluss der Volksmehrung auf den Fortschritt der Gesellschaft untersucht. Wien, 1880.

comune

-نقد تجريد الأسطورة، سنة ١٩٧٢  
-الزمان الذي لا يمكن وصفه، سنة ١٩٧٥.

#### كاوتسكي

#### Karl Kautsky

مفكر سياسي اشتراكي تشيكي.

ولد في براج في ١٦/١٠/١٨٥٤ وكان أبوه رساماً تشيكياً وأمه ألمانية. وقد عرف الاشتراكية عن طريق قصص القصصية الفرنسية المشهورة جورج صاند George Sand ومؤلفات لوي بلان Blanc التاريخية وكتب فريدنند لاسال الاشتراكية. وفي خريف سنة ١٨٧٤ بدأ دراسة الفلسفة والتاريخ في جامعة فيينا، ثم انتقل منها إلى دراسة الاقتصاد والعلوم الطبيعية، وأعجب بدارون، فتولدت عنده فكرة في التاريخ مفادها تطبيق نظرية دارون في التطور على تاريخ المجتمع الإنساني.

وفي سنة ١٨٧٥ انضم إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي في مدينة فيينا، ولم يتم دراسته الجامعية، بل عمل في تحرير المجلة الأسبوعية: «الديمقراطية الاشتراكية» التي كانت تصدر في تسورش (زيورخ)، وذلك في سنة ١٨٨٠. وهنا تعمق في دراساته للماركسية بتوجيه من ادورد برنشتين Bernstein. ومن سنة ١٨٨٥ حتى سنة ١٨٩٠ أقام في لندن مساعداً لفريدرش أنجلز المؤسس الثاني للماركسية. وكان قبل ذلك قد أسس في سنة ١٨٨٣ في اشتوتجرت (ألمانيا) مجلة شهرية (صارت أسبوعية ابتداءً من سنة ١٨٩٠) عنوانها: «الزمان الجديد» Nene Zeit كانت تهدف إلى الدعوة للفكر الماركسي ونشر الأبحاث المعمقة عن ماركس والماركسية.

وانتقل إلى برلين، حيث كتب في سنة ١٨٩١ الجزء النظري من «برنامج ارفورت» وفي تلك السنة وتمت تأثره بدأ الصراع في داخل الديمقراطية الاشتراكية في ألمانيا لتحديد الاتجاه الذي ينبغي لها أن تسلكه: الماركسية الصميمة، أو الماركسية المنقحة. وكان حامل لواء حركة تنقيح الماركسية Revisionismus هو ادورد برنشتين، بينما كان كاوتسكي من دعاة الماركسية الصميمة المتشددة. لكن كاوتسكي انضم في سنة ١٩١٧ إلى الديمقراطيين الاشتراكيين المستقلين، وتزايدت

«العدميين» Nihilistes الذين كان يتزعمهم آنذاك ن. ن. تشايكوفسكي وسرجيوس استينياك Stepniak، الذين جمعوا بين الليبرالية المتطرفة والاشتراكية وانتشرت مبادئهم بين صفوف عمال المصانع. فألقي به في السجن سنة ١٨٧٤. لكنه أفلح في الهرب إلى لندن في سنة ١٨٧٦. وفي جنيف اتصل بالتحاد الجورا المتفرع من الدولية العمالية الأولى، وقام بالدعوة للحركة الفوضوية anarchisme، التي كان يتزعمها باكونين Michail A. Bakunin الذي كان يدعو إلى أن تكون وسائل الإنتاج والأرض الزراعية ملكاً مشاعاً لجميع الناس، ويدعو إلى توزيع الناتج الجماعي وفقاً لمجهودات الأفراد. أما كروپوتكين فقد دعا إلى مبدأ: «لكل إنسان بحسب حاجاته»، زاعماً أن ازدياد الإنتاج بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي سيؤدي ليس فقط إلى لا مركزية الصناعة، بل وأيضاً إلى حرية الاستهلاك، وأن توقف العمل الجماعي بعضه على بعض سيجعل نصيب الفرد من المجهود أصعب في التحديد. كما زعم أنه في النظام الاجتماعي الاتحادي الجديد سيختفي التضاد بين المدينة والريف، والعمل اليدوي والعمل الذهني؛ وفيه سيقبل وقت العمل إلى أدنى حد. ومحل الدولة وسائر الهيئات البيروقراطية ستقوم الاتحادات الحرة، من مختلف الأنواع، وستعمل على مزيد من الليبرالية. والقاعدة الأخلاقية لهذا المجتمع الشيوعي ستكون مبدأ «التعاون المتبادل»، الذي حاول كروپوتكين أن يوضح وجوده في الطبيعة والتاريخ، والذي لا يحتاج إلى أي تأسيس ديني أو ميتافيزيقي. ووقائع العلم تتطلب كما تتطلب الأخلاق ثورة اجتماعية متخطية هدفها إذالم تستند إلى حركات الفلاحين.

وفي جنيف أسس في سنة ١٨٧٩ مجلة عنوانها: «التمرد» Le revolté؛ لكنه طرد من جنيف في سنة ١٨٨١. وفي سنة ١٨٨٣ اتهم في ليون Lyon (فرنسا) بأنه العقل المدبر لاعتداء بالقنابل، فحكّم عليه بالسجن لعدة سنوات. لكن بعد احتجاج عدد من العلماء والمفكرين عفي عنه بعد ثلاث سنوات من السجن. فالتحق مقرأً ثابتاً له في لندن سنة ١٨٨٦، حيث أصدر مجلة أخرى بعنوان: «الحرية» Freedom، وفي نفس الوقت كان يسهم في تحرير مجلة «الأزمة الجديدة» Les temps nouveaux التي كان يصدرها جان جراف Jean Grave منذ سنة ١٨٩٥. وزار الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٨٩٧، واتصل بالفوضويين الأمريكيين. وعلى الرغم من النزعة القوية للسلام في حركة الفوضويين فإنه في سنة

- Karl Marx ökonomische Lehren. Stuttgart, 1887.
- Thomas More and seine Utopia. Mit einer historischen Einleitung Stuttgart, 1888.
- Das Erfurter Programm in seinem grundsätzlichen Teil erläutert. Stuttgart, 1892.
- Bernstein und das sozialdemokratische Programm. Eine Antikritik. Stuttgart 1899.
- Die soziale Revolution. Berlin, 1902.
- Ethik und materialistische Geschichtsauffassung. Ein Versuch, Stuttgart, 1906.
- Rasse und Judentum. Stuttgart, 1914.
- Die Diktatur des proletariats. Wien, 1918.
- Die materialistische Geschichtsauffassung. 2 Bde. Band I: Natur und Gesellschaft. B. II; Der Staat und die Entwicklung der Menschheit Berlin, 1927.
- Der Bolschevismus in der Sackgasse. Berlin, 1930.

### مراجع

- Karl Renner: Karl Kautsky. Berlin, 1929.
- Karl Kautsky zum 70. Geburtstag. hrsg. von R. Hilferding, Berlin, 1924.

### كروپوتكين

#### Prince Peter Alexewitsch Kropotkin

أمير روسي من زعماء المذهب الفوضوي.

ولد في ٩ ديسمبر سنة ١٨٤٢ في موسكو، وتوفي في ٨ فبراير سنة ١٩٢١ في دمتروف بالقرب من موسكو. عمل في حاشية القيصر الكسندر الثاني، وعني بدراسة العلوم؛ ولما صار ضابطاً عُين في سيبيريا حيث اهتم باصلاح أحوال السجناء والمتفنين إلى سيبيريا، وتأثر بمنظمات شبه شيوعية وقام برحلات طويلة أدت به إلى منشوريا. ثم ترك الخدمة العسكرية، ودرس الرياضيات في جامعة بطرسبرج كما درس الجغرافية، وقام بتصحيح خرائط شمال آسيا وبأبحاث جيولوجية في فنلندا والسويد. وفي سويسرا اتصل سنة ١٨٧٢ بالحركة العمالية، وبعد عودته إلى روسيا انضم إلى

(١٨٩٠-١٨٩٦) جمعت بعد ذلك في مجلة بعنوان: «التعاون المتبادل: عامل في التطور»، وصار هذا الكتاب أشهر كتب كروبوونكين.

والفكرة الرئيسية التي يدور من حولها الكتاب هي أن التعاون الاجتماعي قانون طبيعي بقدر ما الصراع الطبيعي قانون للطبيعة، وأنه «في جميع الظروف التعاون الاجتماعي هو أعظم مزية في الصراع من أجل الحياة». ومعنى هذا أن «الأقدر على التكيف fittest ليسوا هم الأقوى فردياً، بل الأكثر تعاوناً. والكائنات التي تعرف كيف تتعاون تصبح هي الأكثر عدداً والأسعد حالاً، أما الذين لا يفلحون في التعاون فمصيرهم الانحلال، وإثبات هذه الدعوى استقرى كروبوونكين أحوال التعاون الإرادي ابتداء من صورته الدنيا في مجتمع الحيوان، ماراً بالقبائل البدائية، والمجتمع القروي، والنقابة المهنية في العصور الوسطى، حتى أشكال الجماعات الحديثة، والأساس في التعاون المتبادل هو الاحساس الغريزي بالتكامل، وهو لا ينشأ من الحب بل على العكس. إنه هو الأساس في الحب. وأبرز كروبوونكين التعارض بين الجماعات الإرادية وبين نظم الدولة والقانون وقال إن هذه الأخيرة تجسد غرائز الاقتراس، وتسهل الاستغلال.

والمجتمع الذي دعا إليه يقوم على الجماعات الحرة، التي تكون فيها وسائل الانتاج والانتاج ملكاً مشاعاً للجميع، وفيه يحصل كل فرد على ما يحتاج إليه. وقد أطلق هو على هذا النظام اسم «الشيوعية الفوضوية» في مقابل «الماركسية» التي نظر إليها على أنها تقوم على سيطرة الدولة واستبدادها بكل شيء.

أما الأخلاق التي دعا إليها فتقوم على نفس الفكرة: «التعاون المتبادل». وقال إن ضرورة التعاون بين الأفراد المنتسبين إلى نفس النوع، من أجل التعامل مع محيطهم لا بد أن يسمي فيهم إحساساً بالعدالة. والعدالة تقضي إلى تقدير حقوق الأفراد الآخرين واحترام المساواة. وتؤدي بالفرد إلى التضحية بمصالحه الشخصية في سبيل مصلحة الجماعة. وحسن الأخلاق هو وعي نام متطور وشكل بارز لهذا الاحساس بالعدالة. والتطور من التعاون المتبادل، خلال العدالة، إلى حسن الأخلاق هو عملية جوهرية ضرورية للتطور الاجتماعي. والثلاثة: التعاون المتبادل، والاحساس بالعدالة، وحسن الأخلاق هي تجليات لغريزة المحافظة على النفس: والتعاون المتبادل أبسطها وأعمقها جذوراً، بينما حسن الأخلاق هو أعلى هذه التجليات وأقلها توافراً.

١٩١٥ دعا رفاقه إلى الاشتراك في الحرب ضد ألمانيا، حتى لا يقضى على الديمقراطية والحرية اللتين تجسدهما فرنسا.

وفي سنة ١٩١٧ عاد إلى روسيا. لكنه رفض الاشتراك في حكومة كيرنسكي التي تولت الحكم بعد ثورة ١٥ مارس سنة ١٩١٧ غداة سقوط النظام القيصري، كما أنه لم يحظ بثقة القوضويين الروس. ونأى بنفسه عن البلاشفة. وفي السنوات الأخيرة من حياته عمل في سبيل وضع أخلاق. وقد أقيم بعد وفاته متحف باسم «متحف كروبوونكين» في موسكو. لكن الحكومة السوفييتية ألغت هذا المتحف في سنة ١٩٣٨. وكان بين الفينة والفينة يخرج من عزلته ليحتج على إجراءات لينين الدكتاتورية.

### آراؤه

كان كروبوونكين عدواً لدوداً لآراء دارون، خصوصاً لمبدأ «الصراع من أجل الوجود» ومبدأ «بقاء الأقدر على التكيف». وعارض هذين المبدأين بمبدأ مضاف هو «التعاون المتبادل». وكما أن دارون زعم أن علم الحيوان هو الذي أدى به إلى القول بمذهبه، فإن كروبوونكين استند هو الآخر إلى علم الحيوان لتفنيد مذهب دارون.

لقد اكتشف في أثناء مقامه في سيبيريا أن «الصراع من أجل الوجود» لا يلعب إلا دوراً ضئيلاً في حياة الحيوان هناك. وبالعكس، لاحظ العديد من الشواهد على التضامن في التعامل مع الطبيعة ومع الإنسان. وملاحظاته عن أحوال الفلاحين والفوزاق في بزية سيبيريا قوت إيمانه بأهمية التعاون. وبعد ذلك، حينما درس تاريخ الطبقة العاملة وأوضاعها في روسيا وفي أوروبا الغربية بهر سيادة التضامن في داخل النوع الإنساني والحيواني.

وتبلرت هذه الأفكار تحت تأثير عالم الحيوان الروسي Karl F. Kassler الذي أكد في تقرير أذاعه في سنة ١٨٨٠- على أساس من الملاحظات العلمية الواسعة الدقيقة أن التعاون، وليس التنارع، هو الذي يحدد العلاقات بين أفراد النوع الواحد، ويكون العامل الفعال في عملية التطور. فجاء كروبوونكين وطبق هذه الفكرة على المسائل الاجتماعية، وقرر أن العادة والاتفاق الإرادي، وليس القانون والسلطة، هما اللذان يكونان القوى الخلاقية في التاريخ. ولما نشر توماس هكسلي بحثه بعنوان «الصراع من أجل الوجود» في مجلة Ninetcenth Century، ردّ عليه كروبوونكين بسلسلة مقالات

وأخته، وظل هو مدفوناً تحت الأنقاض طوال عدة ساعات، كذلك. وأصبح سلقيواسيافتا Spaventa وصياً عليه وعلى أخيه الأصغر منه، وانتقلا إلى روما ليعيشا في بيت اسيافتا.

دخل بندتو جامعة روما لدراسة القانون. وفي سنة ١٨٨٤ حضر محاضرات أنطونيو لابريولا Labriola في الفلسفة الخلقية. ثم عاد إلى نابلي في سنة ١٨٨٦ عاكفاً على الدراسات التاريخية والتحصيلية. وسافر إلى ألمانيا واسبانيا وفرنسا وانجلترا. وألف مقالات تاريخية جمعت فيما بعد بعنوان: «ثورة نابلي في سنة ١٧٩٩». ودعا لابريولا إلى روما في سنة ١٨٩٥، وبدأ يهتم بدراسة الاشتراكية والماركسية، وكان لابريولا من كبار دعايتها في إيطاليا آنذاك. وواصل كروتشه اهتماماته السياسية في هذا الميدان بين عامي ١٨٩٥ و ١٩٠٠، وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقالات نشرها في سنة ١٩٠٠ تحت عنوان: «المادية التاريخية والاقتصاد الماركسي». وفي نفس السنة نشر ثمرة عنايته أيضاً بعلم الجمال وعلم اللغة، في كتاب بعنوان: «المقالات الأساسية في علم الجمال بوصفه علماً ولغويات عامة». وقد أعاد كتابته ونشره في سنة ١٩٠٢ بعنوان: «علم الجمال بوصفه علم التعبير ولغويات عامة». وفي نفس السنة تباحث مع جيوفاني جنتيله Gentile من أجل إصدار مجلة متخصصة في الفلسفة، وأعلن عن برنامجها.

في ٢٠ يناير سنة ١٩٠٣ أصدر العدد الأول من مجلة Critica التي سينشر فيها بعد ذلك معظم أبحاثه ودراساته الفلسفية والتاريخية والجمالية.

وفي سنة ١٩٠٦ تعاون مع جنتيله للإشراف على إصدار مجموعة: كلاسيكيات الفلسفة الحديثة - *Classici della filosofia moderna* لدى الناشر Laterza في مدينة باري Bari (شرقي إيطاليا) وهي مجموعة ستكون ذات أثر عظيم في نشر الفلسفة في إيطاليا، ولا تزال دار لاترتسا حتى اليوم من أكبر دور نشر كتب الفلسفة في العالم كله.

وفي سنة ١٩٠٦ ظهر كتابه الشهير: «ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيغل».

وفي سنة ١٩٠٨ نشر كتابه: «فلسفة العمل».

وفي سنة ١٩٠٩ نشر نشرة موسعة لكتابه في «المنطق» الذي كان قد نشر منه طبعة موجزة في سنة ١٩٠٥.

والجماعات التي تحقق في التحول من التعاون المتبادل إلى حسن الأخلاق محكوم عليها بالانحلال والزوال.

#### مؤلفات كروتوتكين

- Paroles d'un révolté. Paris, 1885
- Law and Authority. An Anarchist Essay. London, 1886
- Mutual Aid: A Factor of Evolution. Boston, 1890-1896
- The Conquest of Bread. New York, 1926.
- The Great French Revolution; 1789- 93. 2 Vols. New York, 1927
- Memoirs of a Revolutionist, 1898- 99; Boston, 1930.
- Ethics: Origin and Development, 1922; engl. tr. New York, 1924.

#### مراجع

- James Joll: The Anarchists. Boston, 1964.
- Max Nettlau: Der Anarchismus von Proudhon zu Kropotkin. Seine historische Entwicklung in den Jahren 1859- 1880. Berlin, 1927.
- George Woodcock and Ivan Avakumovic: The anarchist Prince: A Biographical Study of Peter Kropotkin. London and New York, 1950.
- James Guillaume: L'Internationale. 4 vols. Paris, 1905- 10.
- Joseph Ishill: P. Kropotkin: The Rebel, Thinker and Humanitarian. New Jersey, 1923.

#### كروتشه

#### Benedetto Croce

فيلسوف ومؤرخ وناقد أدبي إيطالي.

ولد في ٢٥ فبراير سنة ١٨٦٦ في Pescasseroli بالقرب من نابلي ودرس في أحد المعاهد الدولية بهذه المدينة الأخيرة. وفي سنة ١٨٨٠ بدأت أزمته الدينية. وفي ٢٨ يوليو سنة ١٨٨٣ حدث زلزال في Casamiciola راح ضحيته أبواه

وفي سنة ١٩١٠ نشر كتابه: «مشاكل في علم الجمال».

وكان كروتشه شديد الإعجاب بفيلسوف التاريخ الإيطالي في القرن الثامن عشر جان باتستا فيكو Vico ويشعر بواشجة قربي فكرية بينه وبينه، فأصدر عنه في سنة ١٩١١ كتاباً بعنوان: «فلسفة جان باتستا فيكو».

وفي عامي ١٩١١، ١٩١٢ شرع في كتابة أبحاث ستجمع بعنوان «نظرية كتابة التاريخ».

وفي سنة ١٩١٣ أصدر كتاباً صغيراً في علم الجمال اشتهر وانتشر انتشاراً واسعاً، وعنوانه: «جوهرة مبادئ علم الجمال»، Breviario di Estetica.

وفي سنة ١٩١٥ أصدر كتابه: «دراسة التاريخ في إيطاليا منذ مستهل القرن التاسع عشر حتى اليوم».

وفي سنة ١٩٢٠ صار وزيراً للمعارف، وواجه مشكلة إصلاح التعليم الثانوي وتعليم الدين في المدارس، وذلك في وزارة كان يرئسها Giolitti. فلما سقطت هذه الوزارة في ٤ يوليو سنة ١٩٢١، وتلتها وزارة Bonomi ترك الوزارة وعاد إلى نابلي.

وتولى موسوليني الحكم في أكتوبر سنة ١٩٢٢ فأثر كروتشه الانتظار والترقب وكان زميله القديم جيوفاني بختيله قد صار وزيراً للمعارف في حكومة موسوليني وتقدم إلى البرلمان بمشروع لإصلاح التعليم الثانوي فدافع عنه كروتشه.

لكنه في سنة ١٩٢٥ بدأ يعارض الفاشستية فاشترك مع المثات من المثقفين المعارضين للفاشستية في توقيع بيان ضد النظام الفاشستي، وذلك في أول مايو سنة ١٩٢٥.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى سنة ١٩٤٣ ظل يعارض في صمت وحظر النظام الفاشستي، لكن موسوليني تركه وشأنه ولم يمسسه بأي سوء طوال هذه الفترة، وتركه حراً في نشر إنتاجه وإصدار مجلة La Critica. وكروتشه بدوره لم يسيء استغلال هذه الحرية، فلم تصدر عنه مقالات مضادة للفاشستية ولم يشارك في أي نشاط معارض.

وفي سنة ١٩٣٦ أصدر كتابه عن: «الشعر» La Poesia.

وفي سنة ١٩٣٨ أصدر كتابه: «التاريخ بوصفه فكراً

وبوصفه عملاً».

وفي سنة ١٩٤١ أصدر كتابه: «طابع الفلسفة الحديثة».

ولما سقط الحكم الفاشستي في جنوب إيطاليا وقبض على موسوليني سنة ١٩٤٣ نهض كروتشه للاشتغال بالسياسة من جديد، وراح يعيد تكوين الحزب الليبرالي المنحل، وأخذ يلعب النظام الفاشستي الراحل، وكان الحلفاء قد احتلوا جنوب إيطاليا بقيادة الجنرال الأمريكي W.J. Donovan.

وفي ٢٤ أبريل سنة ١٩٤٤ تكونت أول حكومة ديمقراطية في جنوب إيطاليا بعد احتلالها وعقدت أولى جلساتها في سالرنو، واشترك في تشكيلها كروتشه، واسفورزا Sforza ورودينو Rodino والزعيم الشيوعي تولياتي Togliatti - بوصفهم وزراء بدون وزارات. لكنه ما لبث في ١٤ يوليو سنة ١٩٤٤ أن استقال من الوزارة.

بيد أنه في الفترة ما بين ١٩٤٤، ١٩٤٧ كان رئيساً للحزب الليبرالي Partito Liberale وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧ استقال من رئاسة هذا الحزب.

وفي سنة ١٩٤٩ أصدر كتابه: «فلسفة وتاريخ».

وفي سنة ١٩٥٢ نشر آخر كتبه بعنوان: «أبحاث عن هيكل وإيضاحات فلسفية».

وتوفي كروتشه في مدينة نابلي في العشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢.

#### فلسفته

تنعت فلسفة كروتشه بأنها «تاريخية مطلقة» storicismo assoluto ويمكن تلخيص المعاني الأساسية في هذه الفلسفة فيما يلي:

١- لا توجد حقيقة بخارج العقل الإنساني، ولهذا فإن الموضوع باطن في الذات. والعقل نظر وعمل.

٢- لا يفصل الفرد عن الحقيقة الكلية، بل هو تجسيد لها. «والفرد، مهما يفكر أو يفعل، فإنه في حياته الأرضية يشعر بأن العمل الإلهي يتم في داخل ذاته».

٣- وتطور العقل لا يسير على خط، بل على شكل دورات: دورة وعودة دورة على نحو ما ذهب إليه جان باتستافيكو. فالعقل ينتقل من الفكر إلى الفعل، ثم من

١ - لا يقوم الفن في مضمون معين، ولا في شكل محدد بالذات. فما يكون الجمال في الأثر الفني ليس معناه الأخلاقي أو الديني أو المتعة التي يجلبها للمشاهد. كذلك لا يوجد شكل جميل - أو تمثال أو انسجام - بدون مضمون. وإذن لا يقوم الجمال الفني في هذا المضمون أو ذلك، ولا في هذا الشكل أو ذلك، وإنما يقوم في الرابطة بين المضمون والشكل معاً.

٢ - وهذه الرابطة تقوم في العاطفة والخيال معاً. إنها تركيب قبلي للعيان الجمالي الحسي. ولا يوجد موضوع فني خارج الوحدة العضوية بين الخيال والعاطفة. والصورة الخالية من العاطفة هي شكل خاوي، وكذلك العاطفة بدون صورة هي مادة عمياء.

٣ - كذلك يوحد كروتشه بين الخيال العقلي وبين التعبير عنه، فلا توجد صورة جميلة بدون ألوان ولا خطوط؛ كما لا توجد صورة موسيقية بدون نغمات وتوافقات.

٤ - الفن لا يستغني عن صناعة فنية (تكنيك)، أي أن ثمة صعوبات فزيائية لا بد للفنان أن يتغلب عليها وهو بسبيل التعبير عن العاطفة في عمله الفني.

٥ - الفن لا يتوقف على المنفعة أو اللذة أو الأخلاق أو الدين أو السياسة أو الفلسفة، وإنما هو مستقل بذاته، وإلا لم يكن فناً.

٦ - الشعر هو الدرجة الأولى في الفن، «إنه لغة الأم لكل الجنس البشري» (علم الجمال بوصفه علم التعبير... ص ٣٠، باريس سنة ١٩٥٨). ولهذا يمكن أن يوجد الشعر، دون أن يوجد النثر، لكن لا يمكن أن يوجد النثر دون أن يكون الشعر موجوداً.

أما في الأخلاق فإنه ينتقد مذهب المنفعة الماركسي، كما ينتقد الصورية في الأخلاق عند كنت... والحكم الأخلاقي يقرر أن أمراً ما هو واجب لأنه يتطوي على قيمة عقلية كلية تتسبب إما إلى الجمال أو إلى الحق أو إلى المنفعة الاجتماعية.

#### مؤلفاته

A) Filosofia della spirito:

1. Estetica come scienza dell'espressione e Linguistica generale. Palermo, Sandrun, 1902.

الفعل إلى الفكر بيد أنه يتجدد في كل مرحلة. ويستعين هنا بفكرة الهيولى والصورة عند أرسطو. فإما هو صورة يصير هيولى، في المرحلة التالية، بالنسبة إلى صورة أكمل وأغنى.

٤ - الوحدة والتميز حدان متضايغان: فلا وحدة بلا تمييز، ولا تمييز بلا وحدة. فوحدة العقل لا تفهم إلا بتنوع الأفكار، وتنوع الأفكار لا يفهم إلا بوحدها في العقل.

ويميز كروتشه في نشاط العقل بين: اتجاه نظري، واتجاه عملي. والأول ينقسم بدوره إلى تخيل، وعقل منطقي. والثاني، العملي، ينقسم إلى اقتصاد، وأخلاق. في الاقتصاد توجه العناية إلى المصالح الفردية، وفي الأخلاق توجه العناية إلى خير الناس جميعاً.

والتاريخية هي عند كروتشه القول بأن الحياة والواقع هما تاريخ ولا شيء غير تاريخ. وتقوم التاريخية عند كروتشه على المبادئ التالية:

١ - إنكار بقاء الطبيعة عالماً قائماً بذاته.

٢ - الاعتراف بالطابع العقلي للواقع، كل الواقع.

٣ - تفسير العقل على أنه عملية تطورية ديالكتيكية، أي عملية لها في ذاتها مبدؤها الخاص في الفهم.

٤ - رفض كل نوع من العلو البعد تاريخي-transcendenz metastorica وتوكيد محايثة الكون، العقل في التاريخ، وبعبارة أخرى: توكيد الهوية بين العقل وبين التاريخ.

٥ - رد المعركة إلى معرفة تاريخية ورد الفلسفة إلى لحظة منهجية في التاريخ.

والعقل عند كروتشه تطور، والتطور تغلب مستمر على الذات وتجاوز لها، وهو في الوقت نفسه محافظة مستمرة عليها. والعقل تقدم، وكل لحظة من لحظاته لها قيمة إيجابية، من داخله تتدرج وقائع الطبيعة كما تتدرج وقائع الحياة الإنسانية، لأن الطبيعة تكوين وحياة تاريخية، «والواقع، الواقع الوحيد (الذي يشمل في داخله الإنسان والطبيعة، وهما لا يتفصلان إلا تجريبياً وتجريباً فقط) كله تطور وحياة» (نظرية وتاريخ كتابة التاريخ ص ١١٨).

وقد اهتم كروتشه بفلسفة الفن وعلم الجمال إيماء اهتمام. وهو يضع للفن الخصائص التالية:



Milano 1971.

- F. Capanna: La religione in B. Croce. Bari, 1965.

- S. Borsari: L'opera di B. Croce. Napoli, 1964.

## كلفان

### Jean Calvin

#### مصلح ديني فرنسي -

ولد في نوايون Noyon (بمقاطعة بيكارديا Picardie في شمال فرنسا الشرقي) في ١٠ يوليو سنة ١٥٠٩، وتوفي في جنيف (سويسرة) في ٢٧ مايو سنة ١٥٦٤. وكان أبوه مندوباً Procureur كنسياً مكلفاً بالاشراف على ممتلكات الكنيسة في ذلك البلد. وفي سن الحادية عشرة دخل كلية الكابت Capet-tes في بلدة نوايون، حيث تعرف الى أبناء أسرة نبيلة في الاقليم هي أسرة Montmor de Hangest ومع بعض ابناء هذه الأسرة انتقل إلى الدراسة في باريس وهو في سن الرابعة عشرة فدخلوا أولاً في كلية المارش Collège de la Marche حيث كان يوجد واحد من أشهر رجال التربية وهو ماتران كوردييه Mathurin Cordier فتعلم كلفان على يديه اللغة اللاتينية، تلك اللغة التي سيكتب بها بعض مؤلفاته: ثم دخل بعد ذلك كلية مونتاجو Montaigne وكانت آنذاك من فلاح الدراسات الاسكلائية المتشددة، مما جعل أصحاب النزعة الانسانية يرشقونها بهام التهمك والسخرية، فقال عنها رابليه Rabelais إنها «كلية القمل» ومديرها نوثل بلديه Noël Bédier هو الذي عمل على إدانة لوزمس ولوتر وغيرهما من «المراطقة»، وربما كان عنفه في إدانة مؤلفات هؤلاء المصلحين هو الدافع إلى تلاميذه لكي يقرأوا كتبهم! على كل حال، أكتب كلفان الفتى اليافع الطلعة على قراءة كتاب «الأقوال» لبطرس اللومباردي، وبعض مؤلفات آباء الكنيسة، وخصوصاً أوغسطين ويوحنا الذهبي الفم. وبعد أن درس كلفان في كلية مونتاجو أربع سنوات، تركها، وذلك في سنة ١٥٤٨ وفي نفس الوقت دخلها مناضل ديني سينال شهرة واسعة بتأسيسه «الجمعية يسوع» (اليسوعيين) وهو اجناس دي لوبولا الذي عاد جريحاً من معركة حصار بنبيلونة Panpeline وكُرِّس حياته للمعزاة. ولكننا لا نعلم هل التقى الرجلان، أو تزاملا في الدراسة.

2 . Logica come Scienza del concetto puro; 1905;

Bari, Laterza, 1908.

3 . Filosofia della pratica. Economia ed etica. Bari, Laterza, 1908.

4 . Teoria e storia della storiografia Bari, Laterza 1917.

#### B) Saggi filosofici:

- Problemi di estetica e contributi alla storia dell Estetica italiana. Bari Laterza, 1917.

- La filosofia di Giambattista Vico. Bari, Laterza 1911.

- Saggio sullo Hegel seguito da altri scritti di storia della filosofia. Bari, Laterza, 1913.

- Materialismo storico e economia marxista, Palermo, 1900

- Nuovisaggi di estetica. Bari, Laterza, 1920.

- Etica e politica. Bari Laterza, 1931.

- Ultimi saggi. Bari, Laterza, 1935 e 1938.

- La Poèsia: introduzione alla critica e storia della poèsia e della letteratura. Bari, Laterza, 1936

- La storia come pensiero e come azione. Bari, Laterza, 1938

#### مراجع

- C. Castellona: B. Croce, il filosofo, il critico, lo storico. Bari, Laterza, 1936.

-C. Castellano; L'opera filosofica, storica e letteraria di B. Croce. Bari Laterza, 1942.,

- F. Nicolini: Croce; Torino Utet 1962.

- E. Croce: Ricordi familiari. Firenze Vallecchi 1962.

- M. Corsi: Le origini del pensiero di B. Croce. Firenze, 1951.

- A. Lombardi: La filosofia di B. Croce, Roma, 1946.

- J. Lémère: l'Esthétique de B. Croce, Paris 1936.

- V. Sainati L'estetica di B. Croce. Firenze, 1953.

- G. Sartori: La filosofia pratica di B. Croce, Firenze, 1954.

- M. Abbate: La filosofia di B. Croce e la Crisi della società italiana. Torino, 1955 e 1967.

- M. Bazzoli: Fonte del Pensiero Politico di B. Croce.



لكن أولبادرة تدل على اتجاه نحو اعتناق الاصلاح الديني كانت تنازله عن جراياته benefices في مايو سنة ١٥٣٤. ومنذ سنة ١٥٣٤ صر من زهاء دعاة الاصلاح الديني على مذهب لوتر. وصارت حياته في باريس عرضة للخطر، فسافر إلى بازل (سويسرة) مع صديقه النيبيل Du Thillet حيث عاش تحت اسم مستعار هو Marianus Lucanus فرحّب به رجال الاصلاح الديني من أمثال Oswald, Myconius, Pierre Viret, Heinrich, Bullinger. وهنا ألف كتابه الرئيسي «نظم الديانة المسيحية» Institutes. ونشره باللغة اللاتينية في سنة ١٥٣٦، وسرعان ما لقي نجاحاً كبيراً بوصفه المتن المعتمد لحركة الاصلاح الديني الفرنسي. وفيه عرض رأيه في «الوصايا العشرة»، وعقيدة الحوارين، والعشاء الأخير، والطقوس الدينية (مثل التعميد) كما هاجم الطقوس الزائفة، وأضاف فصلاً سادساً عن الحرية المسيحية وسلطة الكنيسة والسلطة المدنية.

وكان الدافع الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب، أن الملك فرانسوا الأول، ملك فرنسا، كان يسعى إلى محالفة أمراء ألمانيا، وأكثرهم كانوا قد اعتنقوا الاصلاح الديني. فأرسل سفيره Guillaume du Bellay إليهم ليشرح لهم أن الذين اضطهدهم فرنسوا الأول - لأسباب دينية في الحقيقة - لم يضطهدوا لاعتناقهم للبروتستنتية، بل لأسباب سياسية. فأمام هذا الكذب المفضوح، عزم كلّفان على الدفاع عن إخوانه في العقيدة هؤلاء الذين اضطهدهم وقتل منهم البعض الملك فرنسوا الأول. فألف هذا الكتاب للدفاع عن العقيدة البروتستنتية التي من أجلها اضطهدوا وعذبوا وأحرقوا.

وكان هذا الكتاب كتاب حياته، أعني أنه ظل طوال حياته يتقح فيه ويزيد ويعدل خلال طبعاته المتوالية. لقد صدرت الطبعة الأولى في سنة ١٥٣٦ على هيئة كتاب صغير الحجم مؤلف من ستة فصول، يسهل تداوله خفية. أما في طبعة سنة ١٥٦٠ فقد تضخم جداً وصار مؤلفاً من ثمانين فصلاً ومقسماً إلى أربعة أقسام. وتبين نمو الكتاب من عدد فصول مختلف طبعاته: ففي طبعة سنة ١٥٣٦ ٦ فصول، وقد طبعت في بازل وباللغة اللاتينية، والطبعة الثانية، اللاتينية أيضاً، طبعت في استراسبورج في سنة ١٥٣٩، وتقع في ١٧ فصلاً. وقد قام كلّفان هو نفسه بترجمة كتابه من اللاتينية إلى الفرنسية، وصدر في لغته الفرنسية هذه - استناداً إلى الطبعة

وكان أبو كلّفان قد أراد أن يتخصص ابنه في دراسة اللاهوت، لكنه غير بعد ذلك رأيه وأراد منه دراسة القانون، فأدخل ابنه في كلية القانون في أورليان حيث كان يعلم أستاذ قانون ممتاز هو بيير دلتوال Pierre de l'Estoile وفي خريف سنة ١٥٢٩ انتقل إلى بوج Bourges لمواصلة دراسته في القانون على القانوني الايطالي اندريا التشياني Andrea Alciati وأول ما نشر من كتابات كلّفان كان مقدمته لكتاب ألفه Nicolas Duchenin دافع فيه عن لتوال L'Estoile ضد التشياني وتجديداته. كذلك تعرف كلّفان إلى ملشور فولمار Melchior Wolmar، أستاذ اللغة اليونانية وكان من المشايخين لمارتن لوتر، وقد بدأ كلّفان معه دراسة اللغة اليونانية.

وتوفي أبوه في مايو سنة ١٥٣١ فقطع دراسته في بوج وذهب إلى باريس حيث كان «التعليم الجديد» قد انتشر في مواجهة التعليم الاسكلاطي في الجامعة. وهنا واصل دراسة اليونانية، وبدأ تعلم اللغة العبرية.

وفي أبريل سنة ١٥٣٢ نشر شرحه على رسالة الحلم De Clementia تأليف الفيلسوف الروماني سنيكا Seneca وقد كبه كلّفان باللغة اللاتينية. ولا يكشف في هذا الشرح عن أية نزعة نحو الاصلاح الديني، بل فقط عن اهتمامه بالأدب اللاتيني، وعن ميل إلى المذهب الرواقي. وكانت الدراسات الانسانية قد بدأت تلقي الرعاية من ملوك فرنسا خصوصاً بتأثير مرجريت دانجولم Marguerite d'Angoleme، ملكة ناغار وأخت فرنسوا الأول ملك فرنسا الشهير. وحدث أن القى مدير جامعة باريس Nicholas Cop خطبة أشاد فيها بلوتر وحركته وكان كوب صديقاً لكلّفان. فأمر الملك فرنسوا الأول بمطاردة البروتستنت، واضطر كوب هو وكلّفان إلى الفرار من باريس. ولجأ كلّفان إلى مقاطعة انجولم Angouleme حيث كانت الحرية أوفر ونزل ضيفاً على Louis du Tillet وكان كاهناً قاتونياً في كاتدرائية ومن أسرة نبيلة، ويملك مكتبة عظيمة أفاد منها كلّفان طوال الأشهر العديدة التي أقامها ضيفاً على صاحبها.

أما تحول كلّفان من الكاثوليكية إلى البروتستنتية، وهو تحول مفاجيء كما صرح كلّفان نفسه في «شرح على المزامير» فقد تم على أبكر تقدير في سنة ١٥٢٨ وعلى أكثر التقديرات تأخيراً في سنة ١٥٣٤، وكانت السوربون قد أدانت مؤلفات لوتر، وأحرق أحد اتباع مذهب لوتر وهو Jean Vallière بتهمة اعتناقه لمذهب لوتر.

gallus، وقد بقي كلغان في جنيف يعرف بـ «هذا الفرنسي» ولم يحصل على جنسية مدينة جنيف إلا قبل وفاته بأربع سنوات فقط.

وفي البداية أراد أن يظل مغموراً، وبمجرد مستشار مغمور لكارل Farel وقيريه Viret. وكان فارل (١٤٨٩ - ١٥٦٥) مصلحاً دينياً سويسرياً درس في باريس، وتحوّل إلى البروتستنتية، وفي سنة ١٥٢٤ دافع في بازل عن ثلاثين قاعدة (أو قضية) بروتستنتية. وبعد أن طرد مرتين من جنيف، عاد إليها مرة ثالثة في سنة ١٥٢٤. وفي سنة ١٥٣٥ أعلن مجلس مدينة جنيف اعتناقه لمذهب الإصلاح الديني. ولكن سرعان ما برز كلغان بسعة علمه في اللاهوت، وعرفته بالقانون. وتعاون ثلاثهم على تنظيم كنيسة اصلاحية في جنيف، ووضع «عقيدة» تبناها هذه الكنيسة، واصدار «أوامر» لتنظيم مجتمع جنيف دينياً. وأدخل كلغان قواعد متشددة في الدين، مما أثار نائرة أهل المدينة على فارل وكلغان، فقرروا طردهما من مدينتهم. وصدر هذا القرار في ٢٢ أبريل سنة ١٥٣٨.

سافر كلغان إلى استراسبورج. وهنا أرغمه داعية الإصلاح الديني في استراسبورج، وهو Martin Bucer على البقاء وطلب منه أن يرعى طائفة البروتستنت الفرنسيين الذين لجأوا إلى تلك المدينة فراراً من الاضطهاد الشديد الذي لقوه في فرنسا. كذلك قام كلغان بالتدريس في المدرسة العليا التي اسمها يعقوب اشتورم Sturm في سنة ١٥٣٨. وأصدر الطبعة الثانية المزينة من كتابه الرئيسي: «نظم الديانة المسيحية» Institutes، كما أصدر كتابه «تفسير الرسالة إلى أهل روما».

وفي استراسبورج أيضاً كتب «الرسالة إلى جاك سادوليه Jacques Sadolet وكان هذا الأخير كردينالاً، وسكرتيراً للبابا، وأسقفاً لمدينة كرينترا Carpentras وكان قد كتب إلى أهالي جنيف يدعوهم إلى العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية فاستشار أهالي جنيف أهالي برن Berne (عاصمة الاتحاد السويسري حالياً) في كيفية الرد على دعوة سادوليه، فنصحهم أهل برن بأن يكلفوا كلغان بمهمة الرد. فكتب كلغان الرسالة التي أشرنا إليها.

وفي وسط هذه المشاغل تزوج كلغان، وأنجب من هذا الزواج ولداً واحداً في سنة ١٥٤٢، لكن هذا الولد لم يعش سوى بضعة أيام.

اللاتينية الثانية - في سنة ١٥٤١، وصارت هذه الطبعة الفرنسية حدثاً أدبياً هاماً في تاريخ الأدب واللغة الفرنسيين. ف لأول مرة في تاريخ اللغة الفرنسية يصدر كتاب في اللاهوت باللغة الشعبية، أعني باللغة الفرنسية (وكانت تعتبر آنذاك لغة الشعب بالنسبة إلى اللغة اللاتينية، لغة العلماء). وفي سنة ١٥٤٣ ظهرت طبعة لاتينية ثالثة في ٢١ فصلاً، وقد ترجمها في سنة ١٥٤٥ إلى الفرنسية. وتوالى الطباعات اللاتينية، المتلوة بترجمات فرنسية، بعد ذلك حتى كانت الطبعة اللاتينية الأخيرة في سنة ١٥٥٩ (وترجمت إلى الفرنسية في سنة ١٥٦٠) وهي النهائية وكانت كما قلنا تحتوي على ثمانين فصلاً.

وعداة طبع الطبعة الأولى في بازل سنة ١٥٣٦ سافر كلغان هو وصديقه Du Thillet إلى ايطاليا عند دعوة قرارا Renée de Ferrare، وهي ابنة ملك فرنسا لويس الثاني عشر.

ثم ترك ايطاليا عائداً إلى بلده الأصلي نوايون من أجل تصفية أملاكه نهائياً، ابتغاء أن يستقر بعد ذلك في بلد آمن مثل بازل أو استراسبورج. لكن القدر ذبّر أمراً آخر.

استمع إليه يقول عن نفسه آنذاك: «لما كان أقصر طريق يؤدي إلى استراسبورج، حيث كنت أود أن أقيم، مسدوداً بالحروب (الدائرة رحاها آنذاك)، فقد قررت أن أمر بجنيف مروراً عابراً لا ألبث فيه أكثر من ليلة واحدة. هنالك فطن أحدهم لوجودي في مدينة جنيف وأخبر الباقين. وكان مارك يفيض حماسة رائعة لنشر دعوة الانجيل، فبذل كل جهوده للاحتفاظ بي في جنيف، فلما أخبرته بأن لديّ حراسات أريد أن اتفرغ لها، وأدرك أنه لا سبيل إلى اقناعي بالحسنى والرجاء، سأل الله أن يلعن راحتي والهدوء الذي أنشده لدراساتي إذا لم أقبل، في هذه الحاجة الملحة والضرورة الملحة أن أهبّ للنجدة والمساعدة. فأخافتني كلماته وهزّت كياني إلى درجة أنني تخليت عن عزمي على الرحيل، لكنني شعرت بخجل جعلني لا أريد القيام بأية مهمة.»

وهكذا اضطر كلغان إلى الإقامة في جنيف وترك الدراسات الهادئة، وإلى خوض المعركة المريرة التي كان يخوضها دعاة الإصلاح الديني على مذهب لوتر في مدينة جنيف وما حولها. وصارت هذه هي مهمته حتى الموت. ولما سجل اسمه في السجل المدني في مدينة جنيف، نسي الكاتب أن يسجل اسمه، وكتب فقط صفته: «الفرنسي» ille

وبين كلقان مراسلات، وتحول الجدل بينها إلى مناقشات تلور حول معظم العقائد المسيحية، خصوصاً الوهية يسوع، وتعميد الاطفال. وقد نشر ثلاثين رسالة من رسائله إلى كلقان كملحق بكتابه الثاني «استعادة المسيحية».

ومنذ سنة ١٥٥٠، وذلك في كتابه «مبحث الفضائح»، أدان كلقان آراء سرقت وقال عنها إنها تدمر المسيحية. ويقول قولتير وآخرون إن كلقان هو الذي لفت نظر محاكم التفتيش إلى خطورة «الحدا» سرقت، بدعوى أنه هو الذي حرّض شخصاً يدعى Guillaume de Trie على رفع شكوى إلى ديوان التفتيش في ليون Lyon ضد سرقت الذي كان يعمل آنذاك طبيباً في مدينة فيين Viègne (بإقليم الايزير Isère في جنوب شرقي فرنسا). فقبض على سرقت وهو في فيين Viègne وقدم إلى ديوان التفتيش واستجوب في أول يوم، لكنه هرب من سجنه في اليوم التالي: فحوكم غيابياً وأصدر قاضي التفتيش، واسمه Matthieu Ory حكماً غيابياً بإحراق سرقت على هيئة تمثال en effigie هو وكل نسخ مؤلفاته التي استولى عليها. أما سرقت نفسه، بلحمه ودمه وعظامه، فقد ظل يجم على وجهه في أنحاء جنوبي وشرقي فرنسا طوال أربعة أشهر. وبسبب لا يعلمه أحد ذهب إلى جنيف، ودعاه حب الاستطلاع إلى الذهاب، في يوم الأحد ١٣ أغسطس سنة ١٥٥٣ إلى الكنيسة لسماع موعظة كلقان في كنيسة المادلين بجنيف، فتعرف عليه وبناء على اتهام سكرتير كلقان ويدعى Nicolas de la Fontaine قبض عليه بدعوى أنه ملحد وأجريت له محاكمة تولاهها قضاة مدنيون، لكن تدخل فيها كلقان خبيراً في الجانب اللاهوتي منها. لكن القضاة كانوا مترددين، فقررروا استشارة الكنائس الأخرى في سويسرة، فجاء جواباً في ١٨ أكتوبر سنة ١٥٥٣ بالاجماع على إدانة سرقت. وفي ٢٦ أكتوبر أصدر مجلس مدينة جنيف قراراً بإحراق ميشيل سرقت. ومن الغريب أن المدافعين عن موقف كلقان الشائن المخزي هذا يزعمون أنه سعى لتعديل الحكم بإحراق سرقت إلى الحكم بقتله بحد السيف!! وكان في هذا الفارق ما يبيض صفحة كلقان الملتصقة بالجريمة والعار إلى الأبد! على كل حال أحرق ميشيل سرقت علناً في جنيف، وكان لكلقان الضلع الأكبر في جريمة إحراق هذا الفكر الحر العظيم والطبيب العبقري.

وقد وصف قولتير في كتابه «بحث في الأخلاق» (الفصل رقم ١٣٤) الدور الشائن الفظيع الذي لعبه كلقان في مصرع ميشيل سرقت - فقال:

وفي سنة ١٥٤١ اشترك في المناقشات التي جرت في فرنكفورت وفورمس Worms، والتي دعا إليها الامبراطور شارلكان ليجتمع ممثلون عن الكاثوليك وممثلون عن البروتستانت لمناقشة أمور الدين ابتغاء إعادة توحيد الكنيسة المسيحية، وهي مناقشات لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية شأنها شأن كل المؤتمرات والمسكونية، التي عقدت منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

وفي جنيف كانت الأمور قد تحولت لصالح فارل وكلقان، إذ صار لأنصارهما السيادة في المدينة، وطلبوا من فارل أن يدعو صديقه كلقان إلى العودة وتولي وظيفة راعٍ لكنيسة جنيف الاصلاحية. لكن كلقان رفض في البداية، بيد أنه تمت الخاط متواصل من فارل قبل أن يعود وأن يتولى هذا المنصب. فعاد إلى جنيف وأصدر بعض «الأوامر»، ونشر كتابه «العقيدة على طريقة السؤال والجواب لسنة ١٥٤٢ Le Catéchisme de 1542 وهو المسمى عادة باسم «كاتشيسم كلقان».

وهنا نصل إلى نقطة سوداء شائنة جداً في تاريخ حياة كلقان فقد اشتد في الأوامر والنواهي الدينية وتطبيقها حتى صار طاغية مستبداً باسم الدين في مدينة جنيف. وكان لا بد، تبعاً لذلك، من أن يرتكب جرائم شنيعة في حق حرية الضمير عند الأفراد. خصوصاً وقد غالى في القول بالقضاء والقدر السابق.

وأبشع جريمة ارتكبتها كلقان في هذا المجال هي أمره بإحراق الطبيب العظيم واللاهوتي المتحرر ميشيل سرقت Michel Servet.

ولد ميشيل سرقت، وهو أسباني، في مدينة تطيلة Tudela (في إقليم أرغون بشمال وسط أسبانيا) في سنة ١٥١١، وعاش فترة طويلة في فرنسا وسويسرة طبيباً ولاهوتياً ملحوظ المكانة. وقد حُرّس الطب في باريس، واكتشف الدورة الدموية في الرئتين. أما في اللاهوت فقد ألف كتابين مهمين هما (١) «في أخلاط التثليث» De trinitatis erroribus (سنة ١٥٢٩)؛ و(٢) «استعادة المسيحية» Christianismi Restitutio (سنة ١٥٥٣) وفي هذين الكتابين ينكر عقيدة التثليث كما ينكر الوهية يسوع المسيح. ودخل في مناقشات مع زعماء الاصلاح الديني في موضوع التثليث: فجرى جدل بينه وبين ملانختون Melancthon ويومر Bucer. وجرت بينه

ويقرر كلثان أن جماع حكمتنا يقوم في أمرين: الأول هو أننا بمعرفتنا بالله نحن نعرف أنفسنا. معرفتنا بالله لا تنحصر في توكيد أن الله موجود، بل تقوم خصوصاً في الإقرار بأن كل حكمة وعدالة وحقيقة فإن الله هو مصدرها، ومنه وحده ينبغي علينا أن نتلقاها. ولهذا يجب علينا أن نقرّ لله بكل فضل ونعمة، وأن نقرّ بأنه يعنى بنا، وأنها على علاقة مستمرة به. فماذا يفيد إله، مثل إله الأبيقوريين، لا يعنى بالبشر، ولا يتم بهم أدنى اهتمام، بل يظل في تعطل وفراغ دائم؟! ولهذا فإن معرفتنا بالله يجب أن تدعونا إلى حمده، والخوف منه، وإجلاله، وبالجملة إلى تقواه.

وتقوى الله ليس معناها مجرد الخوف منه، بل معناها أيضاً عبادته واطاعته. إن معرفة الله معناها - هكذا يقول كلثان - الإقرار بأنه «أب» لنا، ونحن أبناءه.

ثم يتساءل كلثان: هل معرفتنا بالله فطرية فينا؟

أثير كثير من الجدل في سنة ١٩٣٤ حول هذه النقطة، أي اللاهوت الطبيعي القائل بأننا نعرف الله بالفطرة، بين لاهوتيين سويسريين كبيرين هما اميل برونر Emile Brunner في كتابه: «الطبيعة واللفظ الإلهي» وفيه يقرر أن ثمة نوعاً من المعرفة الطبيعية بالله - وبين كارل بارت Karl Barth الذي ردّ على كتاب برونر بكتاب صغير آخر بعنوان: «كلا» Nein. وفيه ينكر كارل بارت كل معرفة بالله لا تأتي عن طريق الوحي الإلهي، أي عن طريق الله نفسه. وقد تناول هذه المشكلة عند كلثان عالمان آخرون هما بيتر بارت Peter Barth (أخو كارل بارت) في كتابه «مشكلة اللاهوت الطبيعي عند كلثان» وبير موري Pierre Maury في كتاب بنفس العنوان. ويتضح من هذين الكتائين أن كلثان يؤكد بلون أحق شك أن معرفة الانسان بالله معرفة فطرية في طبيعة الانسان. يقول كلثان: «نحن لا نشك مطلقاً في أن لدى بني الانسان شعوراً بالألوهية في باطن نفوسهم، وبحركة طبيعته طبع الله في جميع الناس معرفة به. ولا توجد أمة، مهما بلغت من التوحش، ولا شعب مهما يكن غليظاً متوحشاً إلا وهو مقتنع اقتناعاً مغروراً في طبعه أن ثم إلهاً» (الشفرة رقم ٦).

لكن كوننا نملك معرفة بوجود إله، ونستطيع أن نتميز بين الخير والشر تمييزاً يتم بالفطرة قد أفسده ارتكاب آدم للخطية الأولى، فقد أفسدت على الانسان تصوره الفطري الحق للألوهية، وغطت على ضميره بغشاوة جعلته يسيء التمييز

«حينما كان عدوه (عدو كلثان، وهو سرقت) موثقاً بالأغلال، ظل كلثان يكيل له الشتائم ويأمر بالاساءة إليه بكل وسيلة يلجأ إليها الجبناء حينما يصبحون هم السادة. وأخيراً، بالضغط المستمر على القضاة وباستخدام ما له من ثقة عند من يرشوههم، وبالصياح - وجعل الآخرين يصبحون - بأن الله يطلب إعدام ميشيل سرقت، عمل كلثان على إحراق سرقت حياً. واستمتع بعدائه، وهو (أي كلثان) الذي لو كان قد وضع قدميه في فرنسا لكان قد أحرق هو نفسه، وهو الذي طالما رفع صوته عالياً ضد كل الرنان الاضطهاد».

وتقلب الآن هذه الصفحة الرهيبة الشائنة في حياة كلثان، ونذكر أنه في سنة ١٥٥٩ أسس أكاديمية جنيف، وعيّن تيودور دي بز Théodore de Beze مديراً لها. وعن طريق هذه الأكاديمية صارت جنيف هي المركز العقلي للبروتستنتية الناطقة باللغة الفرنسية. وتولى فيها كلثان تدريس اللاهوت.

وتوفي كلثان في ٢٧ مايو سنة ١٥٦٤ في مدينة جنيف التي صارت منذ ذلك الحين تقترن روحياً به حتى اليوم، ودفن في مقبرة الـ Plainpalais.

#### آراؤه الفلسفية

أشار الباحثون في فكر كلثان إلى أنه تأثر بالرواقية، كما يشهد على ذلك شرحه على رسالة «الحلم» لسكاه كما تأثر بأفلاطون إذ هو يذكره في ١٨ موضعاً من كتابه «نظم العقيدة المسيحية». لكن ربما كان تأثره بالأفلاطونية راجعاً إلى التأثير الكبير الذي كان للقديس أوغسطين في تكوين فكر كلثان.

والبعض يجتد «فلسفته» (إن جاز استعمال هذا اللفظ بالنسبة إلى أفكار كلثان) بأنها تقوم أساساً على إنكار ثلاثة مذاهب:

١ - إنكار مذهب المؤلثة Deisme، لأنه يؤكد أن الكون يعتمد على الله اعتماداً تاماً.

٢ - إنكار مذهب وحدة الوجود Panthéisme (أو الحلول، بتعبير أدق)، لأن كلثان يؤكد علو الله على الكون وشخصيته المتميزة عنه.

٣ - إنكار حرية الإرادة الانسانية والقول بالقضاء والقدر الشاملين كل أفعال الانسان.

على البحث في هذا الأمر، لأن أحكام الله هلوية محيطة»  
(Calvin: Opuscles, p. 1767).

والأمر الثاني الذي يقوم عليه جماع الحكمة هو معرفة  
الإنسان لنفسه بنفسه. ومعرفة الإنسان لنفسه بنفسه مزدوجة:  
فهي أولاً معرفة ماذا كان عليه الإنسان في قصد الله في  
الأصل؛ وثانياً هي معرفة ما آل إليه أمر الإنسان بعد الخطيئة.

وفيما يتصل بالنقطة الأولى يؤكد كلّفان ما أكّده الكتاب  
المقدس («سفر التكوين» ١: ٢٧) من أن الله خلق آدم على  
صورة الله نفسه. ومعنى هذا أن الإنسان تلقى من الله  
الصفات التي تجعل منه شخصاً قادراً على أن يكون على علاقة  
مع شخص الله. إنه، أي الإنسان، قادر على أن يكون في  
مواجهة الله، وأن يفكر أفكار الله، وأن يحب الله كما يحبه  
الله. وللإنسان إرادة تجعله يفعل بحرية ومهارة - ما يريد  
الله. إن الإنسان، حين كان في هذه الحالة الكاملة (قبل  
ارتكاب الخطيئة الأولى) كان حر الإرادة، ولو كان قد شاء أن  
ينال الحياة الدائمة لناها. لكن لأن إرادته كانت سهلة التأثر  
بالخير وبالشر، ولأنه كان قليل الصبر والمثابرة، فإنه سقط في  
الخطيئة عن نزق وطيش وخفة.

فعند كلّفان إذن أن الإنسان خلق لكيما يكون في انس  
ومشاركة مع الله وفي علاقة حية وإياه. لكن فراقه لله بما  
ارتكب من معصية وخطيئة قد قلّبه بعيداً عن الله وأصابه  
بتشويه بالغ.

ومن ناحية أخرى علينا أن ننظر في حال الإنسان ما بعد  
الخطيئة. إن الإنسان بمعصيته قد بُعد عن الله، وهذا البعد  
قد ألقى بالموت في نفسه (أو روحه)، وهذه الحال ستوارثها  
ذرية آدم. . . وينعت كلّفان الخطيئة الأصلية - خطيئة آدم -  
بأنها «فساد وراثي في طبيعتنا». وهذا الفساد شامل لجميع  
البشر في جميع الأزمان. يقول كلّفان: «كل أجزاء الإنسان، من  
العقل حتى الإرادة، من النفس حتى الجسد - كلها دنسة  
ومملوءة بالشهوات» (الشفرة رقم ٢٠).

لكن كلّفان يؤكد أن هذا الفساد لم ينشأ عن طبيعتنا  
الأصلية، وإنما نشأ عما جرّه عليها ارتكابها للمعصية الأولى.

لكن ماذا آلت إليه حرية إرادة الإنسان التي كانت له  
قبل الخطيئة؟ وهل يستطيع بعد الخطيئة أن يختار هذا أو ذاك؟  
ويجب كلّفان قائلًا: إن الإنسان فقد حرية إرادته بسبب

بين الخير والشر. وهكذا لم يعد الإنسان، بعد الخطيئة  
الأولى، قادراً على معرفة الله معرفة صحيحة. ولهذا كان لا  
يد له أن يسترشد بالكتاب المقدس، وأن تتنزل روح الله فينا  
لتضيء لنا ما يشهد به الكتاب المقدس.

والله الحق - في نظر كلّفان - هو الخالق، باري الكون  
وهو الحافظ له دائماً والحاكم لهذا العالم الذي خلقه. . . وهو  
يعنى بكل ما فيه، وعنايته تشمل كل جزئيات العالم. وقدرته  
ساهرة دائماً لا تأخذها سنة ولا نوم. وهو يحكم السموات  
والأرض بعنايته، ويوجه كل شيء بحيث لا يحدث شيء إلا  
بحسب ما قدره وحدّه.

والنتيجة لهذا التصور هي أن الناس سيجلدون العزاء في  
كونهم لا يعانون شيئاً إلا ما أَرَادَهُ اللهُ لهم.

وقد هاجمه خصومه على أساس أن هذا التصور للمقدرة  
الإلهية الشاملة لكل ما يحدث في الوجود يؤدي إلى القول بأن  
الله هو فاعل الشر في العالم؛ ما دام كل شيء يحدث في العالم  
هو من فعل الله وحده. وهو اعتراض وجهه إلى كل الذين  
أكدوا أن الله فاعل كل شيء. وقد تخلص القديس أوغسطين  
من المشكلة بأن زعم أن الشر ليس بشيء، إنه عدم وجود، إنه  
عدم. وما هو عدم أو عدم وجود فلا فاعل له. إذن الله ليس  
هو فاعل الشر. لكن هذا التخلص لا يفيد، لأن الكتاب  
المقدس يؤكد أن الشر أمر إيجابي ترتب عليه نتائج إيجابية  
عديدة. إن الكتاب المقدس يقرر أن الشر عصيان لله،  
والعصيان أثر إيجابي. وقد صنع القديس توما الأكويني صنع  
القديس أوغسطين فقال إن الشر عدم. لهذا لم ينشأ كلّفان أن  
يسايرهما في هذا الزعم، بل أقر بالحقيقة الواقعية الأليمة لوجود  
الشر والخطيئة. بيد أنه لا يقدم حلاً للمشكلة التي أثارها  
خصومه وأشارنا إليها في أول هذه الفقرة. وكل ما فعله هو أن  
تبرأ من التهمة قائلًا بعبارة الحادة دائماً: «إنها نظرية دنيئة  
نتنة أن أنهم بأن جعل الله فاعل الخطيئة. صحيح أنني أقرر  
دائماً أنه لا يحدث شيء إلا بإرادة الله؛ لكنني مع ذلك أؤكد  
بأن ما يفعله الناس من شر هو مقود ومحكوم بالحكم السري  
لله على نحو يجعله لا يشترك في شيء مع رذيلة الناس.  
وخلاصة مذهبي هي أن الله يدبر كل الأشياء بوسائل جميلة  
رائعة ولكنها مجهولة لنا وفقاً للأغراض التي يريد، بحيث  
تكون إرادته السرمدية هي العلة الأولى لكل الأشياء.  
وأعترف بأن هذا سر غير قابل للفهم: أن يريد الله أمراً لا يبدو  
لنا معقولاً ومع ذلك لؤكد أنه ينبغي علينا ألا نحصر كثيراً

يبیح كلفان الاقراض بفائدة بشرط ألا تكون الفائدة ربوية  
Usuraire وألا يُرهق الفقير وان يراعى فيه الاحسان  
والانصاف.

وفي هذه المسألة وأمثالها لا يتعبد كلفان بالمنقول، بل  
يراعي الظروف الاقتصادية والأحوال الواقعية.

#### نشرة مؤلفاته

نشرت طبعة كاملة لمؤلفات كلفان تحت  
عنوان: Joannis Calvini Opera quae supersunt Omnia  
وأشرف على نشرها Baum, Kunitz et Reuss وصدرت في  
براونشويج Braunschweig (ألمانيا) في الفترة ما بين سنة  
١٨٦٣ إلى ١٩٠٠ في ٥٩ مجلداً ضمن مجموعة Corpus  
Reformatorum.

ونشر مراسلاته التي باللغة الفرنسية: Jules Bonnet:  
Lettres françaises de Calvin, 2 Vols. Paris, 1864.

#### مراجع

- Emile Doumergue: Jean Calvin, les hommes et les choses de son temps, 7 volumes. Lausanne et Paris, 1899-1927.
- W. Walker: (tr. fr.) Jean Calvin, sa vie et son œuvre. Genève, 1909.
- J.D. Benoît: Jean Calvin, la vie, l'homme et la pensée. Paris, 1934.
- J. Rilliet: Jean Calvin. Paris, 1963.
- Jean Cadier: Calvin, sa vie, son œuvre. Paris, P.U.F., 1967.

#### الكليات

##### Les Universaux

الكلي هو الذي يصدق على كثيرين. والكليات هي  
الأجناس والأنواع. وقد أثارَت الكليات، منذ أفلاطون  
وأرسطو، مشكلة وجودها: هل هو في الأذهان فقط، أو في  
الأعيان أيضاً. وهي مشكلة ميتافيزيقية، ومنطقية،  
وابستمولوجية، بل ولاهوتية معاً.

وهذه المشكلة تثير عدة مسائل، أهمها:

الخطيئة، ولم تعد له حرية، بل صار عبداً serf arbitre  
ويستشهد كلفان بقول المسيح: «من يرتكب الخطيئة يصبح  
عبداً للخطأ، لكن إذا حررك (الابن) (= يسوع المسيح)  
فانتك ستكون حراً حقاً» (انجيل يوحنا ٨: ٣٤). لقد كان  
الانسان حراً قبل الخطيئة، لكنه فقد حرته بالخطيئة. ولن  
يسترد حرته إلا بفضل من الله وموهبة من لطفه. وإذن  
فإرادة الانسان أميرة للخطيئة. والخطيئة لم يسلب إرادته،  
وإنما سلب الإرادة السليمة. وهنا يستشهد أيضاً بكلمة  
للقديس برناردي كليرفو. يقول فيها: «الإرادة من طبيعة  
الانسان، لكن إرادة الشر هي من الطبيعة الفاسدة، وإرادة  
الخير هي من اللطف الإلهي» (راجع شفرة رقم ٢٨  
لكلفان).

#### آراؤه في الأمور العملية

ولكلفان فتاوى شهيرة في بعض الأمور العملية، ومن  
أشهرها فتواه في شأن الربا. فنحن نعلم أن الربا محرّم في  
اليهودية، كذلك يقول المسيح: «أقرضوا دون أن تتوقعوا شيئاً  
في مقابل ذلك» (انجيل لوقا: ٦: ٣٥). وهو نص غامض،  
لكن الكنيسة في العصور الوسطى جرت على تفسيره بمعنى أنه  
تحريم للقروض بالربا.

وقد أرسل مواطن فرنسي من برس Bresse اسمه  
Claude de Sachin يستفتي كلفان في موضوع الاقراض  
بالربا. فقال كلفان في فتواه إن المسألة صعبة: لأن التحريم  
الثام للإقراض بفائدة معناه فرض قيد أشد عما أراده الله؛ كما  
أن إباحة الاقراض بفائدة قد يؤدي إلى جشع بلا حدود. ثم  
إن قول المسيح السالف الذكر لا يعني تحريم الاقراض. وفي  
مواضع أخرى من «الكتاب المقدس» ليس الإقراض في ذاته  
هو الممنوع، بل إساءة استعماله. وحتى لو صح أن الاقراض  
بربا كان محرماً على اليهود، فلا ينهض هذا حجة، لأن أحوالنا  
- هكذا يقول كلفان في فتواه - السياسية والاقتصادية ليست  
هي نفس أحوال اليهود. ولهذا ينبغي الحكم على الاقراض  
بربا وفقاً لقاعدة العدالة والانصاف. وهنا يضع كلفان  
استثناءات لتحريم الاقراض الربوي، منها: ألا يستغل  
القروض سوء حالة المقترض الفقير، وألا يضع المقرض  
شروطاً لا يقبلها هو نفسه لو كان في نفس الوضع الذي فيه  
المقترض.

وفي بعض شروحه على مواضع من الكتاب المقدس



وإرادتها واحدة. وقد هاجمه القديس أنسلم لهذا الرأي، وقال إن ذلك يقضي إلى القول بوجود ثلاثة آلهة.

ثم جاء بطرس أيلارد فأتخذ أولاً بمذهب روسلان، ولكنه عدّله تعليلاً شديداً باعد بينه وبين الإسميين، وكوّن ما سمي بمذهب «التصوريين» Conceptualisme. بدأ أيلارد بأن فنّد قول أرسطو إن الكلي يقال على كثيرين، وقرر هو أن لا تصور يحمل على كثيرين، بل كل تصور يحمل على نفسه وإنما الألفاظ هي التي يمكن أن تحمل على كثيرين - ثم يميز أيلارد بين الكلي وبين حال الشيء: فمثلاً «الإنسان» كلي، وهو ليس بشيء واقعي؛ لكن حال الإنسان شيء واقعي. كذلك: «فرس» لا يوجد، وإنما يوجد «حال فرس» أو «أن يكون فرساً». ولما كان يوجد عدة أفراد يشاركون في «كونهم فرساً» أو في كونهم فرساً فإن هذا الاشتراك يعبر عنه بعلامة صوتية هي اللفظ. واللفظ هو الذي يشترك فيه كثيرون. وينتهي إلى القول بأن الكلي ليس إلا لفظاً دالاً على الصورة المختلطة المستخلصة بواسطة الفكر بين كثرة من الأفراد المتشابهين في الطبيعة والذين هم تبعاً لذلك في نفس «الحال».

ويأتي درونس اسكوت ليتخذ موقفاً مخالفاً لأسلافه هؤلاء فيقرر أن الكلي نتاج للعقل أساسه في الأشياء. ولهذا فإن الواقعي ليس في ذاته كلياً خالصاً، ولا جزئياً محضاً، بل هو مزاج من كليهما. أما أنه ليس جزئياً محضاً فهذا يستتج من كوننا نستطيع أن نستخلص منه أفكاراً عامة (تصورات كلية). إذ لو لم يكن للنوع ضرب من الوحدة، فإن تصوراتنا لن تنطبق على شيء. وبالعكس، نجد أن الكلي النوعي، الموجود متفرقاً في مختلف الأفراد، يتبدى دائماً وعليه طابع الفردية.

وإلى اسمية روسلان عاد أوكام، فقرر أن الأفراد هم وحدهم الموجودون، أما الحدود الكلية فهي مجرد أسماء وعلامات للدلالة على التصورات التي تولدها الجزئيات في عقل الإنسان. . . . والعقل لا يعرف إلا الأفراد وصفاتها، وإن كان قادراً أيضاً على استعمال الحدود الكلية. إن الكلي لا يوجد إلا في ذهن الإنسان فقط، وليس له أي وجود خارج فكر الإنسان.

وفي العصر الحديث أنكر باركلي وهيوم حقيقة الكليات وقالوا إن الكليات مستمدة من المدركات الحسية percepts،

١- مسألة التصور: طبيعة التصور ووظيفته، طبيعة الجزئي وعلاقته بالكلي.

٢- مسألة الحقيقة: معيار الحقيقة، والتناظر بين القول والشيء.

٣- مسألة اللغة: طبيعة العلاقات وعلاقتها بالمدلولات.

وقد أثبتت مشكلة الكليات بصورة حادة واضحة منذ بداية العصور الوسطى، وانقسم المفكرون حيالها إلى مذهبين:

١- مذهب الواقعية réalisme ومفاده أن الكليات لها وجود في الواقع، ووجودها أسبق من وجود الأشياء؛ إذ لا تفهم الجزئيات إلا بالكلي الذي تندرج هذه الجزئيات تحته. لكن ليس المقصود من هذا أنها مثل الأشياء الجسمانية أو الموجودات الموجودة في الزمان والمكان، وإلا لو كانت كذلك لكانت مثل هذه عرضية وفانية.

٢- مذهب الاسمين nominalistes وهم يقولون إن الكليات ليست موجودات واقعية، وأنها توجد بعد الأشياء. إنها مجرد تجريدات تستخلص من استقراء الجزئيات، وليس لها مقابل واقعي.

وعلى رأس مذهب الاسمين في العصور الوسطى روسلان Roscelin. بدأ روسلان من تعريف أرسطو للكلي بأنه القول على كثيرين، واستخلص من هذا التعريف أن الأفراد هم وحدهم الموجودون في الواقع، أما الكليات (الأجناس والأنواع) فهي مجرد أسماء، ألفاظ تقوم مقام التصورات التي تحمل على كثيرين. فمثلاً اللفظ «إنسان» لا يدل على حقيقة غير النوع الانساني، أي أفراد الناس. إنه إنما يدل على حقيقتين هما: حقيقة فزيائية للفظ نفسه، أي اللفظ «إنسان» بوصفه صوتاً أو نسمة صوت flatus vocis أي انبعاث لصوت؛ وحقيقة عينية محسوسة هي أفراد بني الإنسان.

وقد طبق روسلان مذهبه هذا على الثالوث المقدس في اللاهوت المسيحي. فما دام الكلي لا يدل إلا على ذات معينة، فكذلك الأقانيم الثلاثة تدل على ثلاث ذوات عينية هي أشخاص (أقانيم) متميزة في الثالوث: الأب، الابن، الروح القدس. فأكد أن ما هو حقيقي في الله إنما هو هؤلاء الأشخاص الثلاثة. وانتهى من هذا إلى القول بأن الأقانيم الثلاثة (الأب، الابن، الروح القدس) هم ثلاثة جواهر substances كل منها متميز عن الآخر تماماً، وإن كانت قدرتها واحدة



esman, New York and London, 1971.

- R. I. Aaron: The Theory of Universals. New York, 1952

- M. de Wulf: Histoire de la philosophie médiévale, t. I, 6<sup>e</sup> éd., p. 143 et suiv. Paris, Vrin, 1934.

### الكم

ποσότης ; quantitas; quantiteé

الكم هو ما يقبل لذاته المساواة واللامساواة.

ويقسم الاسكلاثيون في إثر أرسطو (وما بعد الطبيعة) م ٥ ف ١٣ ص ١٠٢٠ ١٠٢٠-٣٢٧؛ قارن شرح القديس توما على المقالة الخامسة من «المتافيزيقا»، الدرس ١٥- الكم إلى:

١- كم متصل ٢- كم مقترن ٣- كم منفصل

فالكم المتصل هو الذي تكون نهاياته واحدة؛ والكم المقترن هو الذي تكون نهاياته معاً؛ ومعنى هذا أنه للحصول على الكم المقترن يكفي التساوق، لكن للحصول على الكم المتصل لا بد أن تكون النهايات متحدة بحيث تكون وحدة طبيعية. والكم المتصل لا يكون إلا لجوهر واحد؛ بينما الكم المقترن يكون لجوهريين. والكم المتصل خط، أو سطح أو مقدار، بحسب ما يكون لدينا من أبعاد: بُعد واحد، أو بعدان أو ثلاثة أبعاد. والكم المتصل يمكن أن يكون معاً مثل الامتداد الجسمي، أو متوالياً مثل الزمان.

أما الكم المنفصل فينشأ عن تقسيم المتصل إلى أجزاء من نفس الطبيعة. إنه الكثرة المقيسة بواسطة الوحدة، وهو العدد العاد، أي العدد المجرد، مثل ٢، ٣، ٤، إلخ.

كذلك يميزون بين الكم بذاته *per se* والكم بالعرض *per accidens*. فالكم بذاته هو الذي يعبر عن صفة خاصة بالشيء (مثل الطول والقص). والكم بالعرض هو الذي يوجد في جسم (مثل البياض) وينقسم بحسب قسمة هذا الجسم، مثل الحركة والزمان.

والكم في المنطق صفة للأحكام من حيث ان الحمل يشمل كل أو بعض أفراد الموضوع. وتنقسم الأحكام من حيث الكم إلى:

وما هي إلا نسخ باهتة من هذه المدركات الحسية. لكنه جاء كل من برترند رسل في مقال له نشر في «أعمال الجمعية الأرسطية» سنة ١٩١١ بعنوان: «العلاقات بين الكليات والجزئيات» وج. اي. مور وج. ف. استوت Stout في بحث مشترك بعنوان: «هل خصائص الجزئيات كلية أو جزئية؟» (نشر في أعمال الجمعية الأرسطية، مجلد ملحق برقم ٣ [١٩٢٣]) فأحبوا النزعة الواقعية في النظر إلى الكليات.

يرى رسل أن صنف الكليات هو مجموع صنف المحمولات وصنف الإضافات *relations*. ولما كانت المحمولات والإضافات واقعية، فإن الكليات واقعية. فمثلاً حين أقول «أنا في الغرفة» فإن هذه الإضافة المعبر عنها باللفظ «في» موجودة، لأنني أفكر فيها وبدونها لا أفهم معنى هذه الجملة، وإن كان وجودها ليس بنفس المعنى الذي لوجودي أنا ولوجود الغرفة. فما دامت الإضافات حقيقية واقعية *real*، فإن الكليات حقيقية واقعية، لأن «الكلية» هو أي شيء يمكن أن تشارك فيه جزئيات كثيرة» (رسل: «مشاكل الفلسفة» ص ٩٣، لندن سنة ١٩٤٦).

ويستهي رسل إلى القول بأن التقسيم إلى كليات وجزئيات تقسيم نهائي. يقول: «لدينا إذن تقسيم لكل الموجودات إلى صنفين: (١) جزئيات، لا تدخل في مركبات إلا بوصفها موضوعات لمحمولات أو حدوداً لإضافات، وإذا كانت تنسب إلى العالم الذي لدينا تجربة عنه، فإنها توجد في زمان، ولا يمكنها أن تشغل أكثر من مكان واحد في وقت واحد في المكان الذي تنسب هي إليه؛ (٢) كليات، يمكن أن تتخذ صفة محمولات أو إضافات في مركبات، وهي لا توجد في زمان، وليست لها علاقة بمكان واحد يمكن أن لا تشغله في نفس الوقت مع آخر. والسبب في النظر إلى مثل هذه القسمة على أنها لا مفر منها هو الحقيقة البينة بنفسها ألا وهي أن إضافات مكانية معينة تتضمن تنوعاً في حدودها، وأيضاً هذه الحقيقة البينة بنفسها الأخرى وهي أن من الممكن منطقياً للموجودات التي لها مثل هذه الإضافات المكانية أن تكون غير متميزة تماماً من المحمولات» (أعيد طبع مقال رسل هذا في كتاب «مشكلة الكليات» نشر شارلز لاندمان، ص ٣٥، نيويورك ولندن سنة ١٩٧١).

### مراجع

- The Problem of Universals, edited by Charles Land-

- J. Wahl: *Traité de métaphysique*, Paris, 1953, pp. 268-280.

- T. Greenwood: «La notion thomiste de la quantité», in *Rev. Univ. Ottawa*, 1952, pp. 228-408.

### كنت

#### Immanuel Kant

أعظم فلاسفة العصر الحديث

#### حياته

ولد في مدينة كينجسبرج Königsberg في بروسيا الشرقية في ٢٢ أبريل سنة ١٧٢٤. وكان والده سراجاً مجتهداً في عمله، صدوقاً. أما والدته فكانت شديدة التدبير، حريصة على سماع مواعظ فرانس شولتس مدير معهد فريدريك. ولهذا ألحقت ابنها بهذا المعهد في سنة ١٧٣٢، واستمر فيه حتى سنة ١٧٤٠؛ ثم التحق بجامعة كينجسبرج في سبتمبر سنة ١٧٤٠. وفي معهد فريدريك تعلم الكلاسيكيات الرومانية، واستظهر الكثير من نصوص الأدب اللاتيني الشعرية والنثرية. أما في الجامعة فقد حضر دروس مارتن كنوتسن في الفلسفة والرياضيات، ومحاضرات شولتس في علم أصول الدين ودروس تسكه في الفيزياء.

وتخرج كنت في الجامعة سنة ١٧٤٠. فاضطرته ظروفه المالية إلى العمل مربياً خصوصاً في بعض البيوتات. لكنه لما أشرف على الثلاثين قرر أن يتفرغ للدراسة الجامعية العالية، فحضر لشهادة الماجستير، وحصل عليها في ١٢/٦/١٧٥٥. وعين مدرساً في الجامعة، فألقى دروساً في المنطق، والميتافيزيقا، والرياضيات، والقانون الطبيعي، وعلم الأخلاق، واللاهوت الطبيعي، وعلم الانسان والجغرافيا الطبيعية. وظل مدرساً خمس عشرة سنة، وأخفقت محاولاته ليكون أستاذاً عدة مرات، إلى أن خلا كرسي المنطق والميتافيزيقا فعين فيه كنت في ٣١/٣/١٧٧٠، واستمر فيه حتى ٢٣/٧/١٧٩٦.

وفي سنة ١٧٨٠ أصبح عضواً في مجلس الشيوخ الأكاديمي.

١- كلية ٢- جزئية ٣- مفردة ٤- مهمة

فالحكم الكلي هو الذي يتعلق فيه الحمل بكل أفراد الموضوع مثل: كل إنسان فان.

والحكم الجزئي هو الذي يتعلق فيه الحمل بجزء غير معين من الموضوع، مثل: بعض الورد أصفر.

والحكم المفرد هو الذي يكون فيه الموضوع وحدة لا تقبل الانقسام، مثل: سقراط فيلسوف.

والحكم المهمل هو الخالي من تحديد كم الموضوع فيه، مثل: الحساد يعادون.

وفيما بعد الطبيعة يعد «الكم» أحد المقولات الرئيسية في الوجود، وهو يدل على كل ما يتعلق بالامتداد والقسمة. وهو يتعلق بالمادة والجسم من حيث يقبل التكرار، ولا يتعلق بصفة الجسم أو نوعه.

وهناك بعض التعريفات التي قال بها الفلاسفة على مدى تاريخ الفلسفة:

١ : الكم تحديد أولي للأشياء (أفلاطون).

٢ : الكم هو الامتداد الذي بواسطته يمكن تقسيم الموجود الجسماني إلى أجزاء متجانسة (أرسطو)

٣ : الكم هو «شكل forme» والكيفيات الأولية، للأجسام؛ ويمكن أن يصير مقادير لا متناهية وغير قابلة للمقياس (جاليليو ونيوتن).

٤ : الكم هو تعدد الشيء المتعلق بوصفه وحدة (كنت).

٥ : الكم هو تعدد الكيفيات (ليبتس، هيجل)

٦ : الكم هو المعطى الأولي للمادة التجريبية (الفلسفة والفيزياء المعاصرتان).

#### مراجع

- J.G. Hibben: *La Logica di Hegel*, tr. ital., Torino, 1910, pp. 93-116.

- B.Spaventa: *Logica e metafisica*, Bari, 1911, pp. 225-274.

المحض» فليس معنى ذلك أنه كان يؤمن بتناقض التفكير أو بالتفكير الديالكتيكي، كما سيفعل هيجل. وفي هذا قال في «نقد العقل المحض» (ص ٥٧٧): «إن إثارة العقل ضد نفسه، وتزويله بالأسلحة في كلا الجانبين، ثم بعد ذلك مشاهدة القتال العنيف بينها بهدوء واستخفاف هو أمر ليس من شأن وجهة النظر الدوجماتيكية، بل يبدو عليه مظهر المزاج الشرير المحب للأذى».

ونظراً لإيمانه الشديد بقدرته العقل، فقد كان متفائلاً بإمكان معرفة كل شيء، ويأمنه لا حدود تقف عندها المعرفة العقلية. ومن هنا جاء تفؤله العقلي الشديد.

لكن كنت لم يكن وضعياً تجريبياً خالصاً، ولا ميتافيزيقياً خالصاً، بل كان مزاجاً من كليهما: لقد أراد أن يضع حداً للميتافيزيقا الدوجماتيكية (=التوكيدية) من ناحية، حتى تقوم الميتافيزيقا على أساس علمي من المعرفة الصحيحة البعيدة عن الفروض غير القابلة للتحقق العقلي أو التجريبي. لكنه، من ناحية أخرى، كان يشعر بنوع من الحنين إلى الإبقاء على بعض المعاني الأساسية في الميتافيزيقا. وسعى لذلك جهده، لكنه لم يستطع الإبقاء عليها إلا عن طريق الأخلاق. ومن هنا يمكن التحدث عن نوع من الازدواج في عقلية كنت: جانب عقلي صارم ملتزم بالبرهان العقلي (والتجريبي) الدقيق، وجانب أخلاقي يُجلى مجالاً للأمان الإنسانية في ميدان الأخلاق.

والتطور الروحي لكنت قد مرّ بمرحلتين متميزتين كل التمايز:

(أ) المرحلة قبل النقدية (ب) المرحلة النقدية

(أ) المرحلة قبل النقدية

وأول أثر لكنت في المرحلة قبل النقدية في نظرية المعرفة هو كتابه: «إيضاح جديد للمبادئ الأولى للمعرفة الميتافيزيقية» (سنة ١٧٥٥)، وفيه يتجلى انتمؤه الواضح إلى مدرسة ليبنتس وثولف. وهذا الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول في مبدأ (عدم) التناقض أو مبدأ الهوية، والثاني في مبدأ العلة الكافية، والثالث بحث في مبدئين ناتجين عن مبدأ العلة الكافية.

والأنجاه العلم للكتاب هو النزعة العقلية، سواء في المنهج، وفي الغاية. والهدف الذي يرمي إليه هو تقرير مذهب

وفي ٧ ديسمبر سنة ١٨٨٧ صار عضواً في الأكاديمية الملكية للعلوم في برلين.

وتولى عمادة كلية الآداب خمس مرات، وكان مديراً للجامعة مرتين كل مرة منها ستان.

وتوفي في ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ ودفن في قبو الأساتذة في مقبرة جامعة كينجسبرج. ثم أنشئ له ضريح في سنة ١٨٨٠، وعلى جدار من جدرانه نقشت العبارة المشهورة التي كتبها في خاتمة كتابه «نقد العقل العملي» وهي:

«السماء المرصعة بالنجوم من فوقي

والقانون الأخلاقي في باطن نفسي»

وفي سنة ١٩٢٤ أقيم له ضريح جديد. لكن في سنة ١٩٥٠، وبعد استيلاء روسيا على بروسيا الشرقية، سُرق نائوس كنت ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

وقد حيكّت أسطورة كاذبة عن تنظيم كنت مواعيد عمله اليومي وكأنه ساعة دقيقة.

#### فلسفته

كان كنت ذا نزعة عقلية تامة. ولهذا أحب العلوم الدقيقة أعني الرياضيات، والعلوم الطبيعية القائمة على التجربة والملاحظة، مثل الفيزياء والفلك ونشأة الكون. لكنه اتخذ منها نقطة انطلاق لتكوين نظرة شاملة في الكون، أعني نظرة فلسفية تنظم المعرفة البشرية بعامه.

وفي سبيل ذلك، كان عليه أن يفحص عن حقيقة المعرفة الإنسانية. ومن هنا اهتم أياً اهتمام بنظرية المعرفة، أي: إلى أي مدى يستطيع عقلنا الوصول إلى إدراك حقيقة الكون والطبيعة والإنسان؟ وما هي أدوات المعرفة الصحيحة؟ وما قيمة هذه الأدوات وأدوارها في تحصيل المعرفة الصحيحة؟

وأتى به ذلك إلى العناية بتحليل التصورات، Begriffe، أي المعاني العقلية المجردة، وإلى تخصيص العقل بالدور الكامل في المعرفة الصحيحة، ورفض العاطفة وما يصدر عنها من إدراكات، لأن العقل هو «القوة العليا في النفس» وسيكون من العبث إخضاعه - وهو «السيد الأكبر» - لـ «عما من العواطف والانفعالات، على حد تعبيره.

وإذا كان كنت قد عني بما سماه «تناقض العقل

وهذه الأقوال الثلاثة، بالإضافة إلى التفرقة بين المنهج التحليلي والمنهج التركيبي، تشير بوضوح قاطع إلى تطور فكر كنت في المنهج النزعة التجريبية.

لقد سعى كنت في هذه المؤلفات الأربعة إلى الأخذ بالتجريبية، لكنه لم يصل فيها بعد إلى التجريبية، لأنه بقي عقلي النزعة في نظريته في التصورات.

وإنما بلغ مرحلته التجريبية فيما تلا عام ١٧٦٣. إذ صار منذ ذلك الوقت يرى أن العلة تركيبية، وبالتالي تجريبية. وصار يؤكد أن التصورات البسيطة والامثالات الأولية ومادة التفكير وما يرتبط بها من علل، وبسائط الإدراك الحسي - كلها يجب أن تدركها بواسطة التجربة.

والكتاب الأساسي في هذه المرحلة التجريبية هو: «أحلام صاحب رؤى مفسرة بأحلام ميتافيزيقية» (سنة ١٧٦٦). وفي هذا الكتاب يتساءل كنت: هل فقط النظام الصوري وعدم التناقض في التصورات هو ما يميز الوجود الواعي عن الحلم؟ أو لا يمكن أن يكشف الحلم نفسه عن ارتباط باطن وعن ترابط منظم راسخ؟ وهل لا توجد أحلام للعقل؛ مثلما توجد أحلام للخيال؟ وينتهي كنت في جوابه عن هذا السؤال إلى بيان أن التجربة هي التي تقيد في معرفة الوقائع، لا البراهين العقلية القليلة، والأحكام التي تريد الظفر بالصدق الموضوعي يجب أن تكون تجريبية، وبالتالي تركيبية، ولا يستثنى من ذلك إلا الأحكام الرياضية، وكان كنت آنذاك يعتقد أنها أحكام تحليلية. وفي هذا الكتاب أيضاً تبدو عند كنت لأول مرة أهمية «مملكة الغايات» الأخلاقية، فيقرر أنه من الأقرب إلى الطبيعة الإنسانية وطهارة الأخلاق أن نقيم على أساس إدراكات النفس القوية ترقياً عالم آخر، أولى من أن نقيم حسن سلوك النفس على قيلم عالم آخر قادم.

ولكن التحول الحاسم في تطور فكر كنت قد حدث، فيما يبدو، في سنة ١٧٦٩؛ ويبدو أن ذلك كان بتأثير هيوم، على خلاف في بيان ذلك شديد بين الباحثين. ذلك أن هيوم نبه كنت إلى مشكلة الكلية والضرورة في الأحكام، وكان كنت حتى ذلك الحين يؤمن بأن التجربة تكفل كليتها ولكن شك هيوم نبهه إلى ما في هذا القول من خطأ أو مبالغة.

كان كنت في سنة ١٧٦٩ مشغولاً بمشكلتين هما:

#### ١- مشكلة التناقض

من الحقائق العقلية الضرورية، فيتصور نظاماً هرمياً راسماً فكرة: الله، بوصفه ينبوع كل حقيقة، وفيه يوجد في الواقع كل ما يمكن تصوره. والمزج والتحديد والتعيين ينشأ عن تصور الله تصور كل شيء معقول، كما أنه عن الله يصدر كل الواقع عن طريق التحديد.

ويفترض كنت أن الأحكام كلها تحليلية، أي أن المحمول فيها متضمن في الموضوع. والقول يكون صحيحاً إذن إذا كان ثم هوية بين تصور الموضوع وتصور المحمول. ويعرف كنت مبدأ العلية هكذا: لا بد للموجود الممكن من سبب سابق يحدده.

وفي نظريته عن الله يقول: إننا إذا تصاعدنا في سلسلة العلل إلى العلة الأولى، فإنه لا مجال بعد لأي تصاعد. ويعترض على الحجة الوجودية لإثبات وجود الله لأنها تخلط بين المثالي الذهني وبين الواقعي. وبدلاً من الحجة الوجودية يأخذ بحجة أخرى مأخوذة من تصور الممكن.

والمؤلفات التي كتبها كنت في عامي ١٧٦٢ و١٧٦٣ تكون ما يسميه البعض باسم المرحلة التجريبية النزعة في داخل المرحلة قبل النقدية. وهذه الكتب هي:

- ١- «بيان ما في أشكال القياس الأربعة من مخلوق زائف» (سنة ١٧٦٢)
- ٢- «محاولة إدخال تصور المقادير السالبة في الحكمة العالمية» (سنة ١٧٦٣)
- ٣- «البرهان الممكن الوحيد لإثبات وجود الله» (١٧٦٣).
- ٤- «بحث في وضوح مبادئ اللاهوت الطبيعي والأخلاق» (١٧٦٢)

والجديد في هذه الكتب بالنسبة إلى كتاب سنة ١٧٥٥ يتلخص في النقاط التالية:

- ١- الوجود ليس محمولاً أو تحديداً وتعييناً لأي شيء. ولهذا لا يمكن أن يبرهن عليه على أساس تصورات، وإنما يدرك فقط بالإدراك الحسي.
- ٢- التناقض المنطقي يختلف تماماً عن التناقض الواقعي.
- ٣- كذلك تختلف العلة المنطقية عن العلة الواقعية.

والمبادئ الصورية لعالم الظواهر اثنان: الزمان ،  
والمكان .

وفكرة الزمان ليست معطاة، بل تفترضها الحواس، لأن ما يقع تحت الحواس لا يمكن امتثاله إلا معاً أو متوالياً، أي عن طريق فكرة الزمان. وليس التوالي هو الذي يلد فكرة الزمان، بل هو يبيد به. وهكذا فإن فكرة الزمان، كما لو كانت متحصلة من التجربة، سيئة التحديد جداً: سلسلة الحاضرات التي يوجد بعضها بعد بعض، لأنني أجهل معنى كلمة «بعد» إذا لم يكن عندي أولاً فكرة الزمان، إذ الأشياء يكون بعضها بعد بعض إذا كانت توجد في أزمنة مختلفة، كذلك تكون في حالة معينة الأشياء التي توجد في نفس الزمان.

وفكرة الزمان مفردة، وليست عامة، لأن زماناً ما لا يمكن أن يفكر فيه إلا على أنه جزء من زمان وحيد، هائل، هو هو. وفكرة الزمان عيان، ولما كانت متصورة قبل كل احساس بوصفها شرط العلاقات التي تتجلى بين المحسوسات، فإنها ليست عياناً من أصل جسدي، بل عيان محض.

والزمان كم متصل، ومبدأ لقوانين الاتصال في حركات الكون.

والزمان ليس موضوعياً ولا واقعياً، وليس جوهرأ، ولا عرضاً، ولا إضافة (نسبة)، بل شرط ذاتي subjective ضروري. وفقاً لطبيعة العقل الانساني من أجل التنسيق بين المحسوسات أيأ كانت وفقاً لقانون معين، وهكذا هو عيان محض.

والزمان إذن هو مبدأ صوري للعالم المحسوس، أولي أولية مطلقة.

وبالمثل يقول كنت عن المكان. وسنرى تفصيل قوله في الزمان والمكان في كتابه «نقد العقل المحض».

#### (ب) المرحلة النقدية

ذلك هو تطور فكر كنت قبل أن يقوم بنقد العقل ؛ وقد رأى في سنة ١٧٧٠ أنه لا بد من الفحص عن العقل المحض، لبيان طبيعة المعرفة النظرية، والمعرفة العملية من حيث هي عقلية فقط. فأكب على هذا الفحص، ولم يفرغ منه إلا في سنة ١٧٨١، حينما أصدر كتابه الرئيسي: «نقد العقل المحض» (ربيعاً، سنة ١٧٨١). ومعنى نقد العقل هو الفحص

٢- مشكلة الأصل في كل كلية وكل ضرورة في المعرفة.

وتوصل إلى حل المشكلتين عن طريق التمييز بين مادة التفكير وصورته، صورة الذهن Verstand من ناحية (المكان والزمان)، وصورة العقل Vernunft (العلة، الجوهر، الممكن، الضروري الخ) من ناحية أخرى. وكنت ميّز تمييزاً حاداً بين الذهن Verstand وبين العقل Vernunft على أساس أن «الذهن هو ملكة إنتاج أمثالات، أو هو تلقائية المعرفة» وهو «ملكة التفكير في موضوع العيان الجسدي» بمعونة تصورات (هي المقولات) وأحكام وقواعد. أما العقل Vernunft فهو ملكة الصور (المثل بالمعنى الأفلاطوني) واللامشروط والشمولية. الذهن يتوجه إلى التجربة الجزئية، أما العقل فيتوجه إلى كل التجربة، إلى المطلق. ومن حيث الترتيب التصاعدي فإن العقل أسمى من الذهن من حيث هما ملكتان للمعرفة.

وفي سنة ١٧٧٠ ألف كنت ما عرف باسم «رسالة سنة ١٧٧٠» للحصول على درجة الأستاذية، وموضوعها «صورة العالم المحسوس والعالم المعقول ومبادئها». وهذه الرسالة تمثل في تطور فكر كنت، نقطة وصول ونقطة انطلاق في آن معاً: فهي تختم المرحلة قبل النقدية، وتمهد للمرحلة النقدية وفيها تخطيط لمذهب فلسفي صوري يختلف في بعض النقط المهمة عما سيكون عليه مذهب كنت فيما بعد. «وهي تقرر إمكان معرفة الأشياء نفسها من التصورات، وتضمن للذهن علاقة مباشرة بالأشياء، لا علاقة غير مباشرة عن طريق الظاهرة. وشروط المعرفة الحسية ليست بعد أساس المعرفة للموضوعية كلها، بل هي بالأحرى عقبات في سبيل الوصول إلى ما هو واقعي، كما هو في ذاته». (ريل: «النقدية الفلسفية» ج١ ص ٢٦٥). و«الرسالة» مصوغة بصيغة دوجماتيقية (قطعية) تقريرية خالصة، ويتجلى فيها هذا الطابع أكثر مما يتجلى في سائر كتب كنت. وهذه «الرسالة» تهدف إلى البرهنة على هذه القضية وتنميتها، وهي أن تصورات الفكر مستقلة عن قوانين العيان، وأن ما لا يخضع لقوانين المعرفة العيانية، وإن كان غير ممكن امتثاله فإنه ليس لذلك غير ممكن أو متناقضاً.

ويميّز كنت بين العالم المحسوس والعالم المعقول، ويقر بوجود كليهما. والعالم المحسوس له شكله ومبادئه، وهو يتضمن وجود عالم معقول، هو عالم «النومينات» noumènes أو الأشياء في ذاتها.

وعلم المناهج المتعالي هو علم تحديد الشروط الشكلية لنظام كامل للعقل المحض.

ومن المعاني التي يميز بينها كنت: العقل Vernunft ، والذهن Verstand . فالعقل في مقابل الذهن، أو العقل بالمعنى الأضيق: هو ملكة المعرفة العليا، ومهمته أن يُدرج، تحت الوحدة العليا للتفكير، ما هيأه الذهن. إنه ملكة المبادئ، وملكة استنباط الخاص من العام. أما الذهن فهو ملكة إنتاج الامتالات، أو ملكة تلقائية المعرفة. وهو ملكة التفكير في موضوعات العيان الحسي. إنه ملكة معرفة بواسطة تصورات، معرفة ليست عينية، بل تصورية.

لقد رأى كنت أن الموقف حيال نظرية المعرفة كان موزعاً بين تيارين: تيار النزعة العقلية، الذي يرى أن الحقائق المتعلقة بالطبيعة وبما فوق الطبيعة إنما تدرك بالعقل وحده، مستقلاً عن التجربة الحسية؛ والثاني تيار النزعة التجريبية، وهو يرى أن التجربة الحسية هي ينبوع كل الحقائق والتصورات. ومن ناحية أخرى رأى كنت المعرفة الرياضية تتقدم باطراد ويقين. لهذا تساءل: هل يمكن الميتافيزيقا أن تصبح علماً قائماً على أسس يقينية وأن تتقدم باستمرار كما هو الشأن في الفيزياء والفلك والرياضيات؟

ومن هنا كان كتاب «نقد العقل المحض» بحثاً في الميتافيزيقا لأنه بحث في نظرية المعرفة وفيه يحاول أن يبين فساد كلا التيارين: النزعة العقلية والنزعة التجريبية: الأولى لتجاوزها حدودها، والثانية لقصورها. فالأولى تجاوزت حدود العقل وطاقاته فأدعت إمكان الوصول إلى إثبات كيانات لا يمكن بطبيعتها أن تكون موضوعات للتجربة، مثل: الله، الحرية الإنسانية، خلود النفس. والثانية قصرت باقتصارها على معطيات التجربة الحسية، ولم تدرك وجود مبادئ متعالية هي الأطارات التي لا بد لمعطيات الحس من الدخول فيها كي تصبح مدركات.

فاكتشف كنت وجود أحكام ليست تجريبية، ولا تحليلية، ودعاها باسم الأحكام التركيبية القبلية: هي تركيبية لأن عمولاتها غير متضمنة في موضوعاتها، وهي قبلية لأنها ليست مستمدة من التجربة. فمثلاً:  $7 + 5 = 12$  : ها هنا حكم تركيبية، لأن 12 غير متضمنة في 7 و 5. كذلك: المثلث مجموع زواياه يساوي قائمتين: ها هنا حكم تركيبية لأن كون زوايا المثلث تساوي قائمتين غير متضمن في مفهوم

عن قدرة العقل بوجه عام فيما يتعلق بكل المعارف التي يطمح إلى تحصيلها مستقلاً عن كل تجربة. والعقل المحض هو العقل وهو يفكر غير مستعين بالتجربة. فكلمة «محض» يقصد بها: المحض من التجربة والملاحظة أي الخالي من كليهما، أي العقل الذي يعتمد على ذاته فقط دون الاستعانة بالتجربة والملاحظة. فنقد العقل المحض هو الفحص عن نظام الأسس القبلية ومقتضيات العلم السابقة، التي بفضلها تتم المعرفة العلمية، وذلك ببيان استعمال هذه الأسس القبلية والمقتضيات السابقة في التجربة وتحديد قيمتها في ضمان صحة التجربة. والمنهج الذي يستخذه العقل في نقله لنفسه هو المنهج المتعالي، الذي بموجبه يتبين ما في العقل المحض من شكوك وقوانين. والمتعالي *transzendental* هو المتعلق بشروط إمكان التجربة، وقيمة ما هو قبلي بالنسبة إلى التجربة وموضوعاتها. والمتعالي هو السابق على التجربة، ولكنه داخل نطق العقل. والفلسفة المتعالية هي علم إمكان المعرفة التركيبية القبلية. إنها لا تبحث في الموضوعات، بل في الأصول التي عنها تنشأ المعرفة قبلياً، وحدودها.

ويتفرع نقد العقل المحض إلى:

- ١- الحساسية المتعالية
- ٢- المنطق المتعالي، ويشمل:
  - (أ) التحليلات المتعالية
  - (ب) الديالكتيك المتعالي
- ٣- علم المناهج المتعالي.

أما الحساسية المتعالية فهي علم كل مبادئ الحساسية القبلية (أي السابقة على التجربة).

والتحليلات المتعالية هي العلم الباحث في عناصر المعرفة المحضة للذهن والمبادئ التي بدونها لا يمكن التفكير في أي موضوع. إنه تحليل لمجموع معرفتنا قبلياً إلى عناصر معرفة الذهن المحضة.

ولما كان الديالكتيك هو منطق «الظاهري»، فإن الديالكتيك المتعالي هو العلم الباحث في تجاوز العقل لحدود التجربة ابتغاء تحديد الموضوعات بوجه عام بوصفها أشياء في ذاتها، مع أنها ليست معطاة في التجربة. إنه فن سوفسطائي يكشف لنا عن العلامات والقواعد التي بها نتعرف سوء استعمال العقل لمعايير الحقيقة. وفائدته أنه يعين على «تطهير» الذهن.



وفي القسم الثاني من كتاب «نقد العقل المحض» وهو لا يمثل إلا سلسل الكتاب من حيث عدد الصفحات يبحث فيها سماه بالنظرية المتعالية للمنهج أو علم المناهج المتعالي، ويقصد به تحديد الأحوال (أو الشروط) الشكلية لنظام تام للعقل المحض.

#### أ) الحساسية المتعالية:

الحساسية هي قدرتنا على قبول الامتثالات بفضل الكيفية التي بها تتأثر بالموضوعات: فبواسطة الحساسية تعطي لنا موضوعات، وهي وحدها التي تزودنا بالعيان. والحساسية المتعالية هي «علم كل مبادئ الحساسية القبلية».

وتم شكلان محضان للعيان الحسي، هما مبدآن للمعرفة القبلية، وهما: المكان والزمان. فما المكان، وما الزمان؟ هل هما موجودان حقيقيان واقعيان؟ هل هما مجرد علاقات بين الأشياء، لكنها علاقات من ذلك النوع الذي به لا تكف عن البقاء بين الأشياء حتى لو لم تعين؟ أو هما بحيث لا يتوقفان إلا على شكل العيان، وتبعاً لذلك على التركيب الذاتي لعقلنا، الذي بدونه لا يمكن نسبة هذه الصفات إلى أي شيء؟

للفحص عن ذلك، لنبحث في المكان:

١- إن المكان ليس تصوراً تجريبياً مستمداً من التجارب الخارجية، ذلك أنه لكي نعزو بعض الإحساسات إلى شيء خارجي عيني، ولكي نمثل الأشياء بوصفها في الخارج بعضها عن بعض وإلى جوار بعض أي ليس فقط بوصفها متميزة، بل وأيضاً بوصفها موضوعة في أماكن مختلفة، يجب أن نضع امثال المكان على أنه أساس. وعلى هذا فإن امثال المكان لا يمكن أن يستمد بالتجربة من العلاقات بين الظواهر الخارجية، بل إن التجربة الخارجية نفسها ليست ممكنة إلا بواسطة هذا الامثال.

٢- المكان امثال ضروري قبل يقوم أساساً لكل العيانات الخارجية، فلا يمكن أبداً تصور عدم وجود مكان.

٣) وعلى هذه الضرورة القبلية يقوم اليقين الضروري لكل المبادئ الهندسية، وإمكان تركيبها القبلي.

٤) المكان ليس مدركاً تصورياً منطقياً، أعني تصورياً كلياً للعلاقة بين الأشياء بوجه عام، بل هو عيان محض.

٥) المكان يمثل على أنه مقدار لا متناه.

المثلث وهو أنه سطح مستو محاط بثلاثة مستقيمت متقاطعة مثني مثني.

ورأى كنت أن مشكلة الميتافيزيقا هي مشكلة أي علم، أعني: كيف يمكن أن تكون مبادئها ضرورية وكلية من ناحية، ومن ناحية أخرى تتضمن علمًا بالواقع، وتزود الباحث بإمكان المزيد من المعرفة أكثر مما يعلم؟ وتبين لكنت أن الجواب عن هذا السؤال يكمن في الأحكام التركيبية القبلية.

ومشكلة الأحكام التركيبية القبلية تظهر في ثلاثة ميادين: في الرياضيات، والفزياء، والميتافيزيقا. ومن هنا انقسم القسم الأول من «نقد العقل المحض» بحسب هذه الميادين الثلاثة إلى:

أ- الحساسية المتعالية: وفيه يبين أن الرياضيات تتناول بالضرورة الزمان والمكان، وهما شكلان أوليان للحساسية الإنسانية بمقدان كل ما يدرك بالحواس.

ب- التحليلات المتعالية: وهي الجزء الأساسي في هذا الكتاب وأصعب أقسامه. يقول كنت في هذا القسم إن الفزياء قبلية وتركيبية، لأنها في ترتيبها للتجربة تستخدم تصورات من نوع خاص. وهذه التصورات- ويسميتها: «مقولات»- لا تستخلص من التجربة، بل تتبين في التجربة، ولهذا فإنها قبلية أو محضة وليست تجريبية، ويمكن اكتشافها وتصنيفها بالفحص الدقيق عن الأشكال المنطقية للأحكام التي نطلقها على الموضوعات في العالم. إنها ترجع إلى إطارات المعرفة.

ج- الديالكتيك المتعالي، وفيه يفحص عن الأحكام التركيبية القبلية في الميتافيزيقا. لقد رأى أن الوضع ما هنا هو على عكس ما هو في الرياضيات والفزياء. ذلك أن الميتافيزيقا تقطع نفسها عن التجربة الحسية بمحاولتها تجاوزها؛ ولهذا السبب تعجز عن الوصول إلى حكم تركيب قبلي حقيقي.

وقد لخص كنت نقد المعرفة في هذه العبارة البليغة: «كل معرفة إنسانية تبدأ بعيانات (حسية)، وتسير من ثم إلى تصورات، وتنتهي بأفكار». وهذه العناصر الثلاثة المتميزة تناظر ملكات النفس وهي: الحساسية، الذهن، العقل. وكل واحدة من هذه الملكات لا تزود بمادة المعرفة، فكلها أشكال خالية، وبمجرد وظائف تركيبية. إنما المادة تأتي من المعطيات الحسية الغامضة المشتة المختلطة.



٣- والزمان هو الشرط الشكلي القبلي لكل الظواهر بعامة.

وفي نظرة كنت أن للزمان حقيقة تجريبية، لكن ليس له حقيقة مطلقة: انه ليس إلا شكل عياننا الباطن والزمان ليس تصوراً تجريبياً، لأن التجربة نفسها تفترض مقدماً المعية أو التوالي.

والزمان والمكان معاً هما مصدران للمعرفة منهما تمتع قبلياً معارف مختلفة تركيبية.

#### (ب) التحليلات المتعالية

التحليلات هي تقسيم كل معرفتنا القبلية إلى العناصر التي تتألف منها المعرفة المحضة للذهن. وفي هذا ينبغي الانتباه إلى النقط التالية:

- ١- أن تكون التصورات تصورات محضة وليست تجريبية؛
- ٢- أن تتسبب لا إلى العيان والحساسة، بل إلى الفكر والذهن؛
- ٣- أن تكون تصورات أولية متميزة تماماً عن التصورات المشتقة أو من تلك المؤلفة منها؛
- ٤- أن تكون لوحتها تامة، وأن تشمل على كل ميدان الذهن المحض.

والبحث في هذا ينقسم إلى بابين:

#### ١- تحليل التصورات

#### ٢- تحليل المبادئ.

ويقصد من تحليل التصورات تقسيم قدرة الذهن لتعرف إمكان التصورات القبلية، وذلك بعملية عمادها البحث عنها في الذهن وحده وكأنه موطن ميلادها، وتحليل الاستعمال المحض للذهن، بوجه عام.

ولو صرفنا النظر عن مضمون الحكم بوجه عام، ونظرنا فقط في شكل الذهن، فنسجد أن وظيفة الفكر في هذا الحكم يمكن أن ترجع إلى أربعة أقسام، وكل واحد منها يتألف من ثلاث لحظات، على النحو التالي:

٤	٣	٢	١
الجهة:	الإضافة:	الكيف:	الكم:
احتمالي	حملي	موجب	كلي
تقريري	شرطي متصل	سالب	جزئي
ضروري	شرطي منفصل	لا محدود	مفرد

وكنت يسمي ما ذكرناه حتى الآن العرض الميتافيزيقي لفكرة المكان. لكن إلى جانبه يوجد العرض المتعالي لتصوير المكان. «واقصد هكذا يقول كنتد بالعرض المتعالي: تفسير أي تصور منظوراً إليه على أنه مبدأ قادر على تفسير امكان معارف أخرى تركيبية قبلية». ولهذا نتائج هي:

(أ) أولاً أن المكان لا يمثل خاصية للأشياء في ذاتها.

(ب) وثانياً أن المكان ليس إلا شكل كل ظواهر الحواس الخارجية، أعني الشرط الذاتي للحساسة الذي به يمكن وجود عيان خارجي. ولهذا نحن لا نستطيع التحدث عن المكان، والوجود الممتد الخ إلا من وجهة نظر الانسان.

وبالمثل ينقسم عرض فكرة الزمان إلى نوعين: ميتافيزيقي، ومتعال:

في العرض الميتافيزيقي يتبين لنا أن:

- ١) الزمان ليس تصوراً تجريبياً مستمداً من تجربة ما.
- ٢) والزمان امثال ضروري يقوم بدور الأساس لكل العيانات. والظواهر لا تُدرك بدون تصور زمان، لكن الزمان يتصور بدون ظواهر. ولهذا فإن الزمان مُعطى قبلي، وفيه وحده يكون ممكناً كل واقع للظواهر. ويمكن أن تزول الظواهر كلها، لكن الزمان نفسه (بوصفه شرطاً عاماً لإمكانها) لا يمكن أن يزول.

٣) وعلى هذه الضرورة القبلية يقوم إمكان المبادئ الضرورية القينية الخاصة بعلاقات الزمان أو بعلاقات بديهيات الزمان بوجه عام. وليس للزمان غير بُعد واحد: فالأزمنة المختلفة ليست معاً، بل متوالية، بينما الأمكنة المختلفة ليست متوالية، بل معاً.

٤) الزمان ليس مدركاً تصورياً منطقياً، بل هو شكل محض من العيان الحسي.

٥) ولا نهائية الزمان لا تعني شيئاً أكثر من أن كل مقدار معين من الزمان لا يكون ممكناً إلا بتحديدات في الزمان الوحيد الذي يستخدم أساساً له.

ومن العرض المتعالي للزمان يتبين:

- ١- أن الزمان ليس شيئاً موجوداً في ذاته.
- ٢- أن الزمان ليس شيئاً آخر غير شكل الحس الباطن، أعني شكل عياننا لأنفسنا ولحالنا الباطنة.

أصل حسي، فإن معرفتنا تبقى محصورة في عالم التجربة. فإذا زالت العيانات، لم تعد المقولات غير أشكال خاوية لا موضوع لها.

ولكي تنطبق المقولات على الظواهر لا بد من وسيط هو الخيال؛ ذلك أن الخيال حسي، لأن الصور التي يزودنا بها هي دائماً في المكان والزمان. لكن الخيال، من ناحية أخرى، تلقائي، ومُنتج، أعني أنه يمكنه، قبلياً ووفقاً للمقولات، أن يخلق اسكيمات، هي بمثابة رموز يمكن أن تترتب تحتها العيانات الحسية. فمثلاً نحن لا نستطيع التفكير في دائرة دون أن نرسمها في ذهننا، أو أن نفكر في الزمان دون أن نرسم مستقبلياً، أو في الكم دون أن نتصوره عدداً. الخ.

وتم من الاسكيمات بقدر ما هنالك من المقولات:

- ١- مقولات الكم اسكيمها هو العدد
- ٢- ومقولات الكيف اسكيمها هو الواقعية في الزمان،

الخ.

وتم فرعان من موضوعات المعرفة هما: الظواهر، والأشياء في ذاتها. أما الظواهر فهي «المظاهر من حيث يفكر فيها على أنها موضوعات تتفق مع وحدة المقولات». وكل مظهر هو مظهر للعيان الحسي، فإذا افترضنا وجود أشياء ليست مظاهر للعيان الحسي، بل هي مجرد موضوعات للذهن، أو بعبارة أخرى: مجرد مقولات. فإنها تسمى «نومينات» أو «مقولات» أو «أشياء في ذاتها». ونحن لا نملك أن نقرر عنها شيئاً، فالنومينا شيء مجهول نفترض وجوده ولا يستطيع العقل النظري أن يحيط بحقيقته.

### ج- علم الكون العقلي

#### أ) نقائص العقل المحض

يسعى العقل إلى بلوغ الوحدة المطلقة لسلسلة الظواهر. وهذه الوحدة هي الكون. والأفكار (الصور) التي يكونها العقل في هذا المجال هي أفكار كونية.

ولتحديد هذه الأفكار علينا الاستعانة بلوحة المقولات، لأن تصورات العقل ما هي إلا المقولات «وقد امتدّت حتى المطلق». هنالك نجد أن كل ظاهرة تتعين وفقاً لأربع مقولات:

١) فمن حيث الكم، تكون الظاهرة مقداراً معدداً أو

وقد لوحظ أن كثت قد أضاف في بابي الكم والكيف حالة ثالثة لا وجود لها في الواقع، وقسّر البعض ذلك بأنه نشأ عن أسباب سيمترية، أي للتناظر بين الأبواب الأربعة. ولكن كثت رد على هذا الاعتراض بأن ميّز بين الحكم المفرد والحكم الكلي، كما ميّز بين الحكم الموجب والحكم اللا محدود وهو الحكم السالب ذو المحمول السالب مثل: النفس ليست مائة.

ووفقاً لأنواع الأحكام، وضع كثت لوحة مقولات، أي لوحة تصورات عمضة للذهن تنطبق قبلياً على موضوعات العيان بوجه عام. وهالك هذه اللوحة:

٤	٣	٢	١
في الكمية	في الكيف	في الإضافة	في الجهة
الوحدة	الواقع	الجوهر والعرض	الإمكان
الكثرة	السلب	العلة والمعلول	الوجود
الشمول	التحديد	التبادل	الضرورة

وتلك هي قائمة كل التصورات المحضة للتركيب، والتي يحتوي عليها الذهن قبلياً، ويفضلها وحدها يكون الذهن محضاً، لأنه يفضلها وحدها يمكنه فهم شيء ما في مختلف العيان، أي أن يفكر في موضوع ما.

وميزة لوحة المقولات عند كثت أنها منظمة بدقة وفقاً لمبدأ: فالطرف الأول من كل ثلاث يعبر عن شرط، والثاني عن مشروط، والثالث عن التصور الناشئ من الجمع بين الشرط والمشروط. فمثلاً: الوحدة شرط الكثرة، والكثرة مشروطة بالوحدة، والشمول هو الجامع بين الوحدة والكثرة.

وإذا قارنا بين لوحة الأحكام ولوحة المقولات لوجدنا فوراً الرابطة الوثيقة جداً بينهما. واستنباط المقولات إما أن يكون ميتافيزيقياً، وإما أن يكون متعاليًا:

١- فالاستنباط الميتافيزيقي للمقولات يقرر أن هذه التصورات ليست مستمدة من التجربة، ولا من الذهن المنطقي، بل مصدرها القبلي هو في قوانين ذهن خاص، وظيفته الخاصة هي إصدار أحكام وجود.

٢- أما الاستنباط التعالي للمقولات فيجب عليه أن يبين مشروعية هذه التصورات، كما أن العرض التعالي في الحساسية قد برّر القيمة الموضوعية لشكلي الزمان والمكان القبليين.

ولما كانت العيانات الوحيدة الموفرة للذهن هي من

السلسلة الكاملة للموجودات المستقلة، أعني فكرة الموجود الواجب الوجود.

ذلك هو نظام الأفكار الكونية. وطالما نظر العقل إليها على أنها مجرد أفكار مجردة لشمول الشروط، فإن «النقد» لا اعتراض له على ذلك. لكن يأتي الوهم الديالكتيكي من اعتبار هذه الأفكار موضوعات قابلة للمعرفة، ومن التحدث عن مقدار العالم أو قابليته للقسم، وعن العلية الحرة أو الموجود الواجب الوجود كما لو كانت ظواهر مُتركة بالعيان. والحق أن العقل - إذ ادعى تجاوز حدود التجربة والنهاب وراء سلسلة شروط هذه التجربة - فإنه يتورط في تناقضات لا مخرج له منها؛ وبلد نقائص Antinomien لا يملك حلها، فيقع بالضرورة في الشك، إذا لم يبادر «النقد» فيوضح معنى حدي النقيضة وقيمتها.

وقد ساق كنت أربعاً من هذه النقائص، هاك خلاصتها:

مركباً في الزمان والمكان. لكن كل زمان وكل مكان محدودان: الأول بالزمان السابق، والثاني بالمكان المحيط. وتبعاً لذلك فإن العقل وهو يبحث عن السلسلة الكاملة لشروط مقدار معلوم، يرتفع إلى فكرة الشمول المطلق لمجموع كل الظواهر المعطاة، أعني إلى فكرة مقدار العالم في الزمان والمكان.

(٢) ومن حيث الكيف، كل ظاهرة هي حالة لمادة معينة تشغل حيزاً من المكان، وهي، بالتالي، قابلة للانقسام. والعقل، وهو يبحث عن السلسلة الكاملة للشروط، يرتفع، من وجهة النظر هذه، إلى فكرة الانتهاء المطلق من قسمة كل ظاهرة معطاة، أعني إلى فكرة العنصر البسيط.

(٣) ومن حيث الإضافة فإن كل ظاهرة معلول. والعقل يرتفع، من وجهة النظر هذه، إلى فكرة السلسلة الكاملة للعلل، وبالتالي، إلى فكرة علة أولى.

(٤) ومن حيث الجهة، فإن كل ظاهرة تتجلى في رابطة اعتماد متبادل مع سائر الظواهر. والعقل يتصور فكرة

### النقيضة الأولى

#### الموضوع

للعالم بداية في الزمان وحد في المكان.

لأنه لو لم يكن للعالم بداية في الزمان فلا بد من الإقرار بأن اللحظة الحاضرة قد سبقتها سلسلة لا متناهية من الظواهر قد تمت الآن. لكن من التناقض أن تنتهي سلسلة لا متناهية في لحظة معلومة..

وكذلك، إذا كان المكان لا متناهياً، فإنه لما كان المكان ليس إلا التركيب المتتالي لأجزائه، فلا بد من زمان لا متناه لانجاز هذا التركيب، وحينئذ تقع من جديد في نفس الصعوبة التي لقيناها بالنسبة إلى الزمان اللامتناهي.

#### نقيض الموضوع

ليس للعالم بداية في الزمان ولا حد في المكان؛ إنه لا متناه في الزمان وفي المكان على السواء.

لأننا لو سلمنا بأنه كان للعالم بداية، فلا بد من التسليم بزمان خاو قبل ظهوره؛ لكن في الزمان الخاوي لا يمكن أن يولد شيء، لأنه لا جزء من هذا الزمان يحتوي - أولى من غير - على سبب يعين وجوده. وفي العالم أشياء تبدأ، لكن العالم نفسه لا يمكن أن تكون له بداية.

وبالمثل، فإن عالماً متناهياً في المكان سيكون محدوداً بمكان خاو، أعني بعدم محض، لأن المكان خارج الظواهر ليس بشيء. إن في المكان حدوداً، لكن المكان نفسه لا محدود.

### النقيضة الثانية

#### الموضوع

كل جوهر مركب هو مركب من أجزاء بسيطة ولا يوجد شيء ليس بسيطاً أو مركباً من أجزاء بسيطة.

#### نقيض الموضوع

لا مركب هو مؤلف من أجزاء بسيطة، ولا يوجد شيء بسيط في العالم.

كل جوهر يوجد بالضرورة في المكان، وكذلك كل جزء من أجزائه؛ وهذه الأجزاء قابلة للقسم بالضرورة مثل المكان الذي هي تشغله؛ فهي إذن ليست بسيطة. أما أن نميز مع لبيس- بين النقطة الفيزيائية والنقطة الرياضية التي ليست إلا حد المكان- فهذا تحايل يبين التقدم عدم جدواه. لأن النقطة الفيزيائية إذا كانت واقعية حقيقية، فيجب أن تخضع شأنها شأن كل حقيقة قابلة للإدراك للشرط المشترك بين كل الظواهر وهو أن تُترك في عيان المكان.

ذلك أن التركيب معناه علاقة عرضية وعرض يطراً على الجواهر التي يمكنها أن تبقى إذا فصلناها. ولهذا يمكننا إذن أن نقضي- في الذهن- على كل تركيب. فلنفترض الآن أن الجواهر المركبة ليست مؤلفة من أجزاء بسيطة، وذلك بأن نقضي- في الذهن- على كل تركيب؛ فهناك لن يبقى شيء فالجوهر المركب يزول إذن إذا لم نسلّم بأن للتركيب الموجود فيه حداً، وأنه مؤلف من أجزاء بسيطة. ولما كان كل ما ليس بسيطاً فهو مركب، فيجب التسليم بأن كل شيء في الطبيعة إما بسيط وإما مركب من بسائط.

### التقيضة الثالثة

#### الموضوع

العلية المطابقة لقوانين الطبيعة ليست الوحيدة التي يمكن أن تشتق منها كل ظواهر العالم. ولا بد من التسليم بعلة حرة من أجل تفسيرها.

#### تقيض الموضوع

لا حرية، وكل ما يحدث في العالم يحدث فقط وفقاً لقوانين طبيعية.

لنفرض أن كل ما في العالم يحدث وفقاً لقوانين ضرورية، فإنه ينتج عن هذا أن الظاهرة لا يمكن أن تعدّ معينة تعيناً تاماً، لأن شرطها السابق يفترض شرطاً أسبق، وهكذا إلى غير نهاية. فلا نصل إذن إلى تعيين تام يقتضيه القانون الطبيعي. ولا بد إذن، من أجل انطباق هذا القانون، أن تكون سلسلة العلة تامة، منتهية، وأن يبدأ بعلة ليست في حاجة إلى أي تعيين سابق، أي علة حرة.

لنفرض أن تمّ علية حرة قادرة على أن تبدأ بنفسها سلسلة من الأفعال المشتقة؛ إننا بهذا ندخل عدم الإحكام في الطبيعة، ونحطّم وحدة التجربة التي تقتضي أن ترتبط كل الظواهر فيما بينها، دون أية ثغرة، بعلاقة المقدمات والتوالي. فيجب إذن الانتصار على الضرورة الطبيعية واستبعاد الحرية، التي تدخل الاضطراب في العالم وفي المعرفة.

### التقيضة الرابعة

#### الموضوع

يوجد في العالم موجود واجب الوجود، هو إما جزء منه أو علة له.

#### تقيض الموضوع

لا يوجد موجود واجب الوجود لا في العالم، ولا خارج العالم، يكون علة لهذا العالم.

لو لم يكن في العالم شيء ضروريّ أبداً، لما أمكن تفسير التغير نفسه، لأن كل تغير هو الناتج الضروري لبعض الشروط ويفترض إذن سلسلة كاملة من الشروط حتى اللامشروط المطلق الذي هو وحده الضروري (الواجب). وهذا الموجود الضروري (الواجب الوجود) يجب إذن أن يكون في العالم، وإلا لم يستطع أن يعين الممكن الذي لا معنى له إلا بالنسبة إليه.

لو كان في العالم موجود واجب الوجود هو جزء منه، فإنه سيكسر سلسلة الظواهر المحكمة التعيين؛ ولو كانت السلسلة كلها هي الموجود الواجب الوجود، فلا يمكن أن نتصور أن مجموعاً من الأجزاء الممكنة هو واجب (ضروري)؛ ولو كان الواجب الوجود خارج العالم، فإنه متى بدأ هذا الموجود في الفعل، فإنه يقبل في ذاته بداية، فهو إذن في الزمان، في العالم، وهذا يضاد الفرض.

## ملاحظات على هذه التناقض:

١- الموضوعات تبحث عن حد أولي لا مشروط: تتوقف عليه سلسلة تامة من الشروط؛ أما نقائض للموضوعات فتعتبر أن سلسلة الشروط هي التي تكون شمولاً لا مشروطاً؛ وفي الحالة الأولى يكون العالم متناهياً، وفي الثانية لا متناهياً.

٢- «في النقيضتين الأولى والثانية وتسميان رياضيتين- الموضوعات ونقائضها باطلة كليهما؛ لكن القضيتين المتناقضتين لا يمكن أن تكونا باطلتين معاً، إلا إذا كان التصور الذي تقومان عليه هو نفسه متناقضاً. وغلطهما المشترك هو في اعتبار العالم والمادة أشياء في ذاتها، بينما هما ليسا موضوعين للمعرفة إلا بقدر ما تؤلفهما تبعاً لحياتنا. فهما من عمل الفكر الذي يحسب نفسه هو المعرفة، ومن عمل العقل الذي يتكلم فيها لا حق للكلام فيه إلا للذهن. والوهم الديالكتيكي ما هنا يقوم في اعتبار مقتضيات العقل تحديدات موضوعية للحقيقة الواقعية في ذاتها.

وفي النقيضتين الثالثة والرابعة، الموضوعات ونقائضها صحيحة كليهما. فالموضوعات صحيحة من وجهة نظر العقل، في ميدان المعقول، ونقائض الموضوعات صحيحة من وجهة نظر الذهن، في ميدان التجربة.

ذلك أنه في عالم الظواهر كل علة تقتضي علة إلى غير نهاية. لكننا إذا نظرنا إليها على أنها أشياء في ذاتها، فليس ثم تناقض في الإقرار بعلة حرة وموجود واجب الوجود. وهذا التمييز بالغ الأهمية بالنسبة إلى تصور كنت للحرية<sup>(١)</sup>.

فمثلاً في النقيضة الثالثة نجد تصورين للعالم أحدهما يقرر أن كل شيء معين بدقة، والآخر يقول بوجود علل حرة. والتصور الأول هو تصور الذهن: ففي الطبيعة كل علة هي معلول. والتصور الثاني هو تصور العقل، إذ العقل يقتضي أن الإنسان على الأقل- حر، لأنه يعامل على أنه مسؤول عن أفعاله. فنحن هنا بإزاء مستويين: مستوى الظواهر (ميدان الطبيعة) حيث يترابط كل شيء وفقاً للجبرية محكمة، ومستوى الأشياء في ذاتها (ميدان الحرية) الذي يمكن أن نتصور فيه علية حرة.

فحل هذه النقيضة يقوم في القول بأن الموضوع صحيح بالنسبة إلى العقل، وبأن نقيض الموضوع صحيح بالنسبة إلى الذهن. فأفعالنا، من حيث تتجلى في عالم الظواهر، تتعين وفقاً لقوانين هذا العالم؛ لكنها حرة بالقدر الذي به تصدر عن أنا هو خارج نطاق عالم الظواهر. وبهذا الحل نوفق بين الجبرية الفزيائية وبين الحرية الإنسانية. وهو يقوم إذن على التمييز الجوهري بين الظواهر وبين الأشياء في ذاتها.

وبهذا يميز كنت في الإنسان بين طابع تجريبي وطابع معقول. فبطابعنا التجريبي نحن نتسبب إلى الطبيعة، وأفعالنا خاضعة لقانون الجبرية الكلية، وبطابعنا المعقول، نحن نفلت من عالم الظواهر ونكون أحراراً. وينبغي علينا أن نحكم على أفعالنا لا بالنسبة إلى الضرورة، بل بالنسبة إلى الحرية. وهكذا نجد أن الحرية الإنسانية لا تتعارض مع الجبرية الطبيعية، إذا أقررنا بالمثالية المتعالية، أي بالتمييز بين الظواهر وبين الأشياء في ذاتها. «ولو كانت الظواهر أشياء في ذاتها، لضاعت الحرية إلى غير رجعة» (وقد العقل المحض)، ترجمة فرنسية ص ٣٩٦.

لكن سيكون هناك تناقض بين الطبيعة والحرية إذا استسلمنا للظواهر الديالكتيكي لعلم الكون العقلي واعتبرنا أفكار العقل تعينات واقعية للأشياء في ذاتها.

٣- البراهين على الموضوعات ونقائضها كلها غير مباشرة، أي أنها لا تفرض نفسها إلا بفضل استحالة نقائضها. فإنا إذا سلمنا بأن الموضوع ونقيضه يؤلفان انفصلاً محكماً، أي قضية شرطية مانعة جمع وخلو معاً، فإن استحالة أحد الحدين يفرض ضرورة الحد الآخر. ولما كان هذا المسلك يفلح في كلا الجانبين على التبادل، فإن من يتكلم أخيراً هو الذي يكون على حق- كما لاحظ كارل يسبرز<sup>(١)</sup>.

٤- والنقائض تظهر حينها يتجاوز فكرنا المُعطى الحسي ويتناول ما ليس مُعطى، وما ليس موضوعاً إلا بطريق غير مباشر على أنه شرط للمعطى؛ أو حينها نجيء بعد ذلك ونضع سلسلة هذه الشروط غير المعطاة على أنها تؤلف كلاً تاماً، كما لو كانت سلسلة الشروط قد وجدت نهايتها في اللامشروط، وكذلك حينها نجعل من هذا الكل (شمول

(١) G. Pascal: Pour Connaitre la Pensée de Kant, pp. 96 - 97. Paris, Bordas, 1971.

(١) Karl Jaspers: Les grands Philosophes, I I I, tr. fr., p. 76. Paris, 1967.

قسر الطبيعة، وأن النظام الكلي للأشياء التي تؤلف العالم مستمد من موجود أول يستمد منه كل شيء وحدته وإرتباطه من أجل غايات، تلك أركان أساسية للأخلاق والدين. أما نقائض الموضوعات فتتزعج أو في القليل يلوح أنها تتزعج من كل هذه الأسانيد.

وفي المقام الثاني، ثم أيضاً فائدة نظرية للعقل. ذلك أننا بالاقرار بالأفكار المتعالية وبإستخدامها على هذا النحو، فإننا نستطيع أن نحيط، إحاطة تامة وقبليّة، بالسلسلة التامة للشروط، وأن نترك إشتقاق الشروط، لأننا نبدأ من اللامشروط؛ وهذا أمر لا تسمح به نقائض الموضوعات، ومن مساوئها أنها لا تستطيع الإجابة عن السؤال الخاص بشروط تركيباتها، الإجابة التي تعطينا من الإستمرار في التسؤل إلى غير نهاية. فإنه بحسب النقيضة antithèse يجب أن تصعد من بداية معلومة إلى أخرى أعلى منها، وكل جزء يقود إلى جزء أصغر منه، وكل حادث له علة هي حادث آخر فوقه، وشروط الوجود بوجه عام تستند دائماً ومن جديد على شروط أخرى، دون أن تجد أبداً في شيء موجود بذاته، بوصفه الموجود الأول، سنداً لا مشروطاً.

وفي المقام الثالث، ثم ميزة هي الشعبية وهي ليست أقل مزاياه. ذلك أن الإدراك العام لا يجد أي صعوبة في فكرة بداية غير مشروطة لكل تركيب، لأنه أكثر اعتياداً على النزول إلى النتائج من على الصعود إلى المبادئ، وتصورات الموجود الأول (وهو لا يتم بإمكان وجوده) تبدو له ميسورة وتزوده في نفس الوقت بنقطة ثابتة يربط فيها الخيط الذي يقود خطواته، بينما على العكس لو أنه تصاعد دائماً من الشروط إلى الشرط فتستكون إحدى قدميه في الهواء، ولن يستطيع أبداً أن يشعر بالارتياح.

وبالنسبة إلى أصحاب النزعة التجريبية في تحديد الأفكار الكوسمولوجية، أو من جانب نقيضة الموضوع فإنه.

أولاً لن نجد أية فائدة عملية ناتجة عن مبادئ محضة للعقل، مثل تلك التي تنطوي عليها الأخلاق والدين. والتجريبية يبدو على العكس - أنها تسلب الأخلاق والدين كل قوة وكل تأثير. ذلك أنه إذا لم يوجد موجود أول متميز من العالم، وإذا لم تكن للعالم بداية، وبالتالي إذا لم يكن له خالق، وإذا كانت إرادتنا غير حرة وإذا كانت النفس قابلة للانقسام وفاسدة مثل المادة، فإن الأفكار الأخلاقية ومبادئها تفقد كل

السلسلة، اللامشروط) موضوعاً للذهن مزوداً بحقيقة موضوعية. «فهذا التجاوز» كما يقول كنت من جانب الذهن نحو العقل هو الأصل في وجود هذه النقائض. وكنت يميز الذهن، الذي يمكن من المعرفة التجريبية بإعطاء تصورات معينة مضموناً مستمداً من العيان الجسي - يميزه من العقل الذي يتجاوز كل مضمون عياني، ويمضي إلى نتائج تتعلق بشمول السلاسل، وبكل الكون. إن الذهن لا يقدم أبداً إلا مضمونات تجريبية جزئية، أما العقل فيرغب إلى الشمول والاستقصاء، والذهن هو القدرة التي للمعقولات للانطباق على موضوعات معينة، والعقل هو القدرة التي للأفكار على وضع شمول لا موضوعي، غير معين. -والعقل يضع - وله الحق - فكرة السلسلة التامة تماماً لشروط ما يكون في الواقع تجربتنا العيانية. لكن ما يقدم لنا على هذا التحوليس إلا فكرة (صورة)، لا موضوعاً. وهو يخطيء حينما يجعل من العالم موضوعاً. إن العالم ليس موضوعاً، وكل الموضوعات توجد فيه. أما العالم فصورة (فكرة) حقيقية<sup>(١)</sup>.

وبعبارة أبسط: لا يمكن إدراك تمام السلسلة في التجربة، لا في الواقع ولا في الخيال. ولا يمكن إدراك تمام السلسلة إلا بواسطة العقل، ولكن ذلك لا يعني أن ثم موضوعاً يقابل تمام السلسلة. ومن هنا ثبت إخفاق العقل في إثبات الوجود الموضوعي لتمام السلسلة.

٥- الموضوعات لها فائدة عملية، وقد قال بها في الغالب الميتافيزيقيون اللوجماتيقيون، إذ هي تتصل بأرائهم في النفس، والحرية، وإثبات الله. أما نقائض الموضوعات فلها فائدة نظرية خصوصاً، وميزتها أنها تبقى العقل في ميدان التجربة، ومن هنا قال بها التجريبيون، لكن ليست لها فائدة عملية.

يقول كنت عن مزايا الموضوعات thèses بالنسبة إلى أصحاب النزعة اللوجماتيكية:

«في المقام الأول هناك فائدة عملية، بسمي إليها طواعية كل إنسان عاقل يفهم مصلحته الحقيقية. فإن للعالم بداية، وأن ذاتي المفكرة ذات طبيعة بسيطة وبالتالي غير فاسدة (خالدة)، وأنها في الوقت نفسه حرة في أفعالها الإرادية وفوق

(١) الكتاب نفسه، ص ٧٨.



موجود أعلى كافٍ لكل شيء، وهو عقل أعلى - نقرها دون تناقض، فسيكون أمراً بالغ الأهمية جداً أن نحدد هذا التصور بدقة، من جانب المتعالي، على أنه تصور لموجود واجب الوجود حقيقي كل الحق، وأن نستبعد منه ما هو مضاد للحقيقة العليا وما يتسبب إلى الظاهرة فقط (إلى التشبيه بالإنسان بالمعنى الأوسع لهذا التعبير)، وفي نفس الوقت نتخلص من كل التقريرات المضادة، سواء كانت ملحمة أو مؤلمة أو مشبهة بالإنسان: وهذا أمر من السهل القيام به في بحث نقدي من هذا النوع. («نقد العقل المحض» ط ١ ص ٦٤٠-٦٤١، ط ٢ ص ٦٦٨-٦٦٩).

وتلك ستكون النتيجة التي سيتهي إليها «نقد العقل العملي»: إذ سيقرر أن قانون الواجب وهو ضروري مطلقاً في ميدان العمل، يقتضي بالضرورة القول بهذا الفرض المؤكد لموجود أعلى. وأمام ما يقتضيه العقل العملي يجب على العقل النظري أن يمتثل ويخضع.

### الأخلاق

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الأخلاق عند كنت.

ولكن في الأخلاق ثلاثة كتب هي:

- ١- «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق»، سنة ١٧٨٥
- ٢- «نقد العقل العملي»، سنة ١٧٨٨
- ٣- «ميتافيزيقا الأخلاق»، سنة ١٧٩٧

ولنبداً بشرح معنى ميتافيزيقا الأخلاق. إنه يقصد من الميتافيزيقا هنا: المعرفة القبلية بموضوع ما، عن طريق التصورات المحضة. تتميز ميتافيزيقا الأخلاق من ميتافيزيقا الطبيعة بكون الأولى تتناول قوانين ما يجب أن يكون، بينما الثانية تتناول قوانين ما هو كائن. وميتافيزيقا الأخلاق لن تستمد إذن قوانين الأخلاق من الطبيعة الإنسانية؛ ولا من عادات الناس وآبئهم، بل من العقل ذاته مباشرة، ولهذا فإنها لن تستعين بعلم النفس ولا بعلم الإنسان. ذلك أن معطيات علم النفس هي من الغموض والشعب والتشتت بحيث لا يمكن أن نستخلص منها قواعد كلية مطلقة وفيها خلط بين المبادئ وبين الأحوال الجزئية، بحيث تتوقف النتائج المستخلصة على الأحوال الفردية والميول والعواطف الخاصة. وآفة المذاهب التي تزيغ إلى تفسير الأخلاق بتراكيب النفس الإنسانية أو الطبيعة الإنسانية، أو بالظروف التي يعيش فيها

قيمة وتتهار مع الأفكار المتعالية التي تؤلف أسنادها النظرية. وفي مقابل ذلك فإن التجريبية تقدم للإهتمام النظري للعقل مزايا شديدة الإغراء، تتجاوز كثيراً تلك المزايا التي يمكن أن يعدها العالم الدوجماتيقي من الأفكار العقلية. وعنده أن الذهن يجول دائماً في ميدانه الخاص، أعني في ميدان التجارب الممكنة، ويمكنه أن يبحث عن قوانينها ويوسع بفضلها معارفه الوثيقة البيئة إلى غير نهاية.

### د- اللاهوت النظري

وفي باب اللاهوت النظري ينقد كنت البراهين الثلاثة الممكنة لإثبات وجود الله بطريقة عقلية وهي:

البرهان الفيزيائي اللاهوتي، والبرهان الكوسمولوجي (الكوني)، والبرهان الوجودي. ويتوسع في هذا النقد، وينتهي إلى أن من المستحيل على العقل النظري البرهنة على وجود الله بطريقة عقلية نظرية، لأن العقل الإنساني لا يستطيع أن ينتقل من تصور موجود واجب الوجود إلى الوجود الفعلي له، كما أنه لا يستطيع الانتقال من الوجود الفعلي إلى الموجود الواجب الوجود. وعلة ذلك أننا: إما أن نتصور الله على أنه امتداد للظواهر. وفي هذه الحالة يكون مشروطاً ومادياً، ولن يكون الله حقاً؛ وإما أن نتصوره خارج الظواهر، وفي هذه الحالة لا نستطيع أن نحكم هل هو موجود، ويظل بالنسبة إلينا مجرد مثل أعلى.

لكنه إذا كان من المستحيل على العقل النظري البرهنة على وجود الله بطريقة عقلية نظرية، فإن هذا لا يثبت إمكان البرهان على علم وجوده: فالاستحالة قائمة بالنسبة إلى كلتا القضيتين المتناقضتين: إثبات وجود الله عن طريق العقل النظري، وإثبات علم وجود الله بالعقل النظري.

وهكذا ينتهي «النقد» الكنتي إلى رفض موقف المنكرين لوجود الله، وكذلك رفض موقف الدوجماتيين المثبتين لوجود الله بطريق العقل النظري المحض.

ومع ذلك فإن هذا النقد ليس سلبياً كله، ذلك أن له فائدة سلبية مهمة: إنه مراقبة مستمرة لعقلنا، حين يعنى بأفكار محضة، هي من أجل هذا لا تسمح بأي مقياس آخر غير القاعدة المثالية. فإذا استطعنا من وجهة نظر ما، ربما من وجهة النظر العملية، أن نقرر قيمة للفرض القائل بوجود



الذاتي. «كل ما في الطبيعة يعمل وفقاً لقوانين. والكائن العاقل (= الانسان) هو وحده الذي لديه القدرة على الفعل وفقاً لفكرة عن القوانين، أي وفقاً لمبادئ» (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق)، مجموع مؤلفات كنت ج ٤ ص ٤١٢). والواجب هو ضرورة انجاز الفعل احتراماً للقانون. لكن ما هو هذا القانون الذي يجب علينا احترامه؟ إن الصفة المميزة الجوهرية لأي قانون هي أنه كلي، أي صادق بالنسبة إلى جميع الأحوال بدون استثناء. والقانون الأخلاقي، هو القانون الذي يقول إن الفاعل الأخلاقي يتصرف أخلاقياً إذا سيطر العقل على كل ميوله.

والتجربة لا تفيد في وضع مبادئ الأخلاق، لأنه من المستحيل أن نعثر في الواقع العملي التجريبي على فعل أخلاقي صادق. يقول كنت: «من المستحيل تماماً أن نقرر، بالتجربة وبيقين كامل، حالة واحدة قام فيها الفعل، المطابق مع ذلك للواجب، على مبادئ أخلاقية فقط وعلى امثال الواجب» (مجموع مؤلفات كنت طبعة هارثشتين ج ٤ ص ٢٥٤-٢٥٥). ومن هنا فإن ميتافيزيقا الأخلاق تضع قوانين الكائنات العاقلة بعامة، لا قوانين الطبيعة الانسانية.

وينبغي أن يكون القانون الأخلاقي صادقاً ليس فقط بالنسبة إلى الناس، بل وأيضاً بالنسبة إلى الكائنات العاقلة بعامة. «ومثل هذه الميتافيزيقا الأخلاقية، المعزولة تماماً، غير المزوجة بعلم الانسان، ولا باللاهوت، ولا بالفيزياء، ولا بما فوق الفيزياء، ولا بالصفات للمستسرة (التي يمكن أن تسمى تحت فزيائية)» ليست فقط أساساً لا غنى عنه لكل معرفة نظرية بالواجبات معرفة يقين، بل هي أيضاً أمر مرغوب فيه ذو أهمية قصوى فيما يتعلق بالإنجاز الفعلي لأوامرها. لأن امثال الواجب والقانون الأخلاقي بعامة، حين يكون هذا الامثال محضاً غير ممزوج بأية إضافة غريبة للمواقع جسدية، له تأثير على القلب الانساني عن طريق العقل وحده (الذي يتبين له أنذاك أنه يمكن أن يكون عملياً بنفسه) أقوى جداً من تأثير المواقع الأخرى كلها التي يمكن أن تثار في مجال التجربة.

«إن كل التصورات الأخلاقية، محلها وأصولها قبلية تماماً في العقل، العقل الإنساني المشترك وفي العقل الإنساني النظري إلى أقصى درجة».

والواجب أمر مطلق، بمعنى أنه لا يرتبط بأية وسيلة، ولا بأية غاية، وإنما يربط بين الإرادة وبين القانون الكلي

الانسان هي أنها لا تملك أن تقم غير قواعد متخالفة العموم، ذاتية، بدلاً من أن تقدم قوانين كلية موضوعية للإرادة.

وليس معنى هذا أن كنت لم يحسب حساب التجربة والواقع، بل بالعكس تماماً: إنه لما شاهد حال الواقع والتجربة، انتهى إلى أن من المستحيل تأسيس الأخلاق على الواقع: إذ الواقع مشتت، والأخلاق تريد قوانين ومبادئ موحدة؛ والواقع متغير، والأخلاق تريد أن تثبت؛ والواقع نسي، والأخلاق تهدف إلى ما هو مطلق.

ومن هنا يضع كنت فكرة الانسان بوجه عام، محل فكرة ملاحظة الأفراد من الناس، ويضع تصور الانسان العاقل محل ملاحظة الطبيعة الانسانية.

ويبدأ كنت القسم الأول من كتاب «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» بهذه العبارة الرائعة: «من كل ما يمكن تصوره في العالم، بل وخارج العالم بعامة، ليس ثم ما يمكن أن يعدّ خيراً بدون حدود أو قيود، اللهم إلا الإرادة الخيرة».

ويقصد من هذه العبارة أن الإرادة الخيرة هي وحدها التي يمكن أن تعدّ خيراً في ذاته، أو خيراً مطلقاً أو خيراً غير مشروط. وبعبارة أوضح نقول إن الإرادة الخيرة يجب أن تكون خيرة في كل الظروف، ومهما كانت الأحوال، فلا تكون خيرة في ظرف، غير خيرة في ظرف آخر، أو خيرة كوسيلة لغاية، وشريرة كوسيلة لغاية أخرى.

لكن حذارٍ أن نخلط بين الإرادة الخيرة، وبين مجرد الرغبة في الخير دون اتخاذ الوسائل المتاحة لتحقيقه.

ولتوضيح طبيعة هذه الإرادة الخيرة يستعين كنت بفكرة الواجب. ذلك لأن الإرادة التي تعمل وفقاً للواجب هي إرادة خيرة. لكنه لا يقصد من ذلك أن الإرادة الخيرة هي بالضرورة تلك التي تعمل وفقاً للواجب، بل بالعكس، لأن الإرادة الخيرة الكاملة لا تعمل ابتغاء أداء الواجب، لأن في فكرة الواجب فكرة ما ينبغي التغلب عليه من الميول والرغبات. إن الإرادة الخيرة الكاملة تعمل من تلقاء نفسها ولنفسها، وتتجلى في الأفعال الخيرة، دون أن تكون في حاجة إلى قمع الميول الطبيعية.

لكن ما هو الواجب؟ وكيف نتعرفه في الأفعال؟ وأي الأفعال خلاق بأن يتمتع بهذا الوصف؟

الواجب هو ما يقرر وفقاً لقاعدة، والقاعدة هي المبدأ

قانوناً كلياً للطبيعة؟ كلا، فالتناقض فيها واضح. ولأن كلية القانون، التي وفقاً لها كل إنسان شاعر بالحاجة إلى المال يمكنه أن يتعهد بأي شيء مع العزم المصمم على عدم رده، مستجمل الوعود (التعهدات) نفسها مستحيلة، هي والغرض الذي يريد المرء تحقيقه بها لأنه لن يعتقد إنسان فيها يوعد به، وسيستخر كل الناس من مثل هذه الأقرارات بوصفها إيهامات لا جدوى ورامها (تأسيس... ج ٤ ص ٢٧٠).

المثال الثالث: شخص أوتي قريحة لو أنها هُذبت وثقت لأصبح رجلاً مفيداً من عدة نواح. لكنه في حال مسورة، ويفضل أن يستسلم للذات بدلاً من أن يجهد نفسه في تنمية مواهبه واستعداداته الطبيعية، وهي قاعدة تمشي مع ميله إلى الاستمتاع، تتفق مع ما يسمى باسم الواجب. وستبين له أن طبيعة تسلك وفقاً لهذا القانون الكلي يمكنها دائماً أن تعيش وتبقى، بينما يدع المرء قريحته تصدأ، ولا يفكر إلا في توجيه حياته نحو البطالة، واللذة، وتكثير النوع، وبالجملة: نحو الاستمتاع، لكنه لا يمكن مطلقاً أن يريد أن يكون هذا قانوناً كلياً للطبيعة، أو أن يتفرس فينا هذا بفرصة طبيعية. ذلك لأنه، بوصفه كائناً عاقلاً، يريد لا عمالة أن تنمى كل المكنات الموجودة فيه لأنها مفيدة له ولأنه مُنحها لأشروع عديدة من الغايات.

المثال الرابع: إنسان تسير أموره على ما يرام، لكنه يشاهد بعض الآخرين في أزمة، ويمكنه أن يعينهم، لكنه يقول لنفسه: ماذا يعني من هذا؟ ليكن كل إنسان سعيداً بقدر ما ترضى السماء، أو بقدر ما يستطيع هو بمجهوده الخاص، وأنا لن أسلبه شيئاً مما يملك، بل ولن أحسده، لكنني لا أشعر برغبة في الإسهام بأي شيء في تحسين حاله أو السعي لمعاونته عند الحاجة. فإن صارت وجهة النظر هذه قانوناً كلياً للطبيعة، فلربما بقي النوع الإنساني في قيد الحياة، وفي أحوال أفضل مما لو كان على لسان كل إنسان كلمات العطف والإحسان، وأظهر الحرص على ممارسة هذه الفضائل في المناسبات، لكنه يجتدع كلياً استطاع إلى الخداع سبيلاً، ويتاجر بحقوق الناس أو يتسككها من نواحٍ أخرى. ولكن، على الرغم من أن من الممكن تماماً أن يبقى قانون كلي طبيعي موافق لهذه القاعدة، فإن من المستحيل مع ذلك أن يريد أن يكون مثل هذا المبدأ صادقاً كلياً بوصفه قانون الطبيعة، لأن الإرادة التي تتخذ هذا الموقف تناقض نفسها بنفسها، إذ يمكن أن يحدث أن توجد أحوال كثيرة يكون فيها هذا الإنسان

مباشرة، لا بأفعال جزئية تؤذيها الإرادة، وإنما بالقاعدة Maxime الصالحة لأن تكون مبدأ للعقل.

والصفة الجوهرية المحددة للأمر المطلق هي أنه كلي.

ويحدد كنت ثلاث قواعد للأخلاق في صورة أوامر مطلقة هي:

القاعدة الأولى: «افعل كما لو كانت قاعدة فعلك يجب أن تقيمها إرادتك قانوناً كلياً للطبيعة» (تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق في مجموع مؤلفاته ج ٤ ص ٢٦٩).

ويبرهن كنت على صحة هذه القاعدة بأن يسوق أربعة أمثلة مرتبة وفقاً لقسمه الواجبات إلى: (١) واجبات نحو الذات؛ (٢) واجبات نحو الغير؛ (٣) واجبات كاملة؛ (٤) واجبات ناقصة.

المثال الأول: إنسان تحالفت عليه المحن والألام فكره الحياة. فهل يحق له أن يتحجر؟ إن القاعدة التي سيثبتها ستكون هذه: حباً لذاتي، فإني أنتحر، لأنني لو استمررت في الحياة للقيت من المصائب أكثر من النعم. فهل يمكن حب الذات، مفهومها على هذا النحو، أن يصير قانوناً كلياً للطبيعة؟ كلا «لأن الطبيعة التي سيكون قانونها هو تدبير الحياة نفسها، بواسطة نفس الشعور الذي وظيفته الخاصة هي الحث على تنمية الحياة، مثل هذه الطبيعة ستكون متناقضة مع نفسها، ولن تبقى إذن بوصفها طبيعة. وإذن فهذه القاعدة لا يمكن مطلقاً أن تشكل مكانة قانون كلي للطبيعة، وهي بالتالي مضادة للمبدأ الأعلى للواجب». وبعبارة أبسط: من المستحيل أن تصور أن الطبيعة، التي قانونها هو المحافظة على الحياة وتميئها، تقرر القضاء على الحياة بسبب ظروفٍ عارضة وانفعالات ذاتية. إذا كان حب الذات يقتضي البقاء في قيد الحياة، فكيف يقتضي بعد ذلك، لظروف عارضة، القضاء على الحياة؟!

المثال الثاني: إنسان في ضائقة مالية تدعوه إلى الاقتراض. ولكنه يعلم جيداً أنه لن يستطيع رد المبلغ الذي هو في حاجة إليه، لو أن إنساناً آخر أقرضه إياه: لكنه يعلم أيضاً أنه إن لم يتعهد برد المبلغ فإن أحداً لن يقرضه. فإن قرر التصرف وفقاً للقاعدة التالية: حين أفقر إلى المال، أقترض، وأتعهد برده مع علمي بأنني لن أردف فهل يمكن أن تصبح هذه القاعدة، التي أملاها حب الذات أو المنفعة الشخصية،

غايات الآخرين.

لكن القانون الأخلاقي ليس شيئاً مفروضاً على الإرادة من خارجها، بل القانون الأخلاقي منبثق من الإرادة نفسها، وهذا هو ما يبرر ضرورة إطاعته. وهذه الإطاعة هي إذن حرية، وليست قسراً.

وهذا المبدأ يسميه كنت باسم مبدأ التشريع الذاتي للإرادة Autonomie.

وهذا يقود إلى الكلام عن الحرية. إن الحرية يمكن أن تعرف سلبياً بأنها خاصية الإرادة في الكائنات العاقلة لأن تفعل مستقلة عن العلة الأجنبية، أو بعبارة أوجز: الحرية هي الصفة التي تتصف بها الإرادة العاقلة في قدرتها على الفعل دون تأثير من الأسباب الأجنبية عنها. فبينما الضرورة الطبيعية ترغم الكائن غير العاقل على الخضوع لفعل الأسباب الخارجية، نجد أن حرية الكائن العاقل تمكنه من أن يفعل مستقلاً عن هذه الأسباب الخارجية.

ويمكن تعريف الحرية إيجابياً على النحو التالي: الحرية هي تشريع الإرادة لنفسها بنفسها.

فلذا انتقلنا من «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» إلى «نقد العقل العملي» وجدنا أن الأفكار الأساسية في الكتابين واحدة، ولكن طريقة تناولها لهذه الأفكار تختلف بين الكتاب الواحد والآخر ذلك أن كنت قصد بـ«نقد العقل العملي» أن يكون نظيراً لـ«نقد العقل المحض»: هذا في ميدان المعرفة النظرية، وذلك في ميدان المعرفة العملية.

ولهذا سنجتزئ هاهنا بذكر باب رئيسي في «نقد العقل العملي» ليس له مناظر دقيق في «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق»، ألا وهو مصادرات العقل العملي.

هذه المصادرات اثنتان، وقد تضاف إليها ثلاثة غير محددة بالدقة.

أما المصادرة الأولى فهي خلود النفس.

### المصادرة الأولى

والمصادرة الأولى من مصادرات العقل العملي هي: خلود النفس.

والداعي إلى وضعها هو أن وتحقيق الخير الأسمى في

بحاجة إلى الحب والعطف عليه من الآخرين، لكنه سيحرم نفسه بنفسه من كل أمل في الظفر بالمساعدة التي يريدها، بواسطة هذا القانون للطبيعة الصادر عن إرادته هو (الكتاب نفسه).

المبدأ الثاني: افعل بحيث تعامل الإنسانية، في شخصك وفي شخص سواك، دائماً وفي نفس الوقت، على أنها غاية، وليس أبداً على أنها مجرد وسيلة.

ويطبق كنت هذا المبدأ أو الأمر العملي المطلق على نفس الأمثلة الأربعة التي سبق أن ذكرها وأوردناها منذ قليل. فيما يتعلق بالمبدأ الأول، على النحو التالي:

المثال الأول: الانتحار: فبالنسبة إلى من يفكر في الانتحار، فإنه يتساءل: هل فعله هذا يمكن أن يتفق مع فكرة الإنسانية بوصفها غاية في ذاتها؟ وهنا نجد أنه، كئيب يتخلص مما يلقاه في الحياة من آلام وعذاب، سيستخدم نفسه الإنسانية وسيلة للتخلص من الآلام. وهذا يخالف المبدأ المذكور، لأنه يقول إنه لا يجوز للمرء أن يعامل الإنسانية في شخصه أو في شخص سواه على أنها وسيلة. ولهذا لا يجوز له أن يتحرر.

المثال الثاني: التعهد بسداد الدين: إتنا حين نأخذ المال من الآخرين متعهدين كذباً بسداده، فمن الواضح أننا نستخدمهم وسائل، لا غايات. وهذا الإهدار لمبدأ الإنسانية لدى الآخرين يتضح أكثر حين نفحص الأمثلة على الاعتداء على حرية الآخرين أو أملاكهم.

المثال الثالث: تثقيف المواهب الذاتية: ولا يكفي فقط أن يناقض الفعل الإنسانية في شخصنا بوصفها غاية في ذاتها، بل يجب أيضاً أن يكون على وفاق مع الإنسانية في شخصنا. وفي الإنسانية استعدادات لمزيد من الكمال تؤلف جزءاً من غاية الطبيعة تجاه الإنسانية في الشخص الذي هو نحن. وإجمال هذه الاستعدادات ربما يتفق مع المحافظة على الإنسانية بما هي غاية في ذاتها، لكنه لا يتفق مع إكمال هذه الغاية.

المثال الرابع: الواجبات نحو الغير: إن الغاية الطبيعية عند كل الناس هي سعادتهم. صحيح أن الإنسانية يمكن أن تبقى إذا لم يسهم أحد في سعادة الآخرين، في الوقت الذي يتمتع فيه من إيدائهم عن قصد وإصرار، لكن هذا ليس إلا وفاقاً سلبياً، لا إيجابياً، مع الإنسانية بما هي غاية في ذاتها، إن لم يحاول المرء أيضاً أن يساعد، قدر ما يستطيع، في تحقيق

### المصادرة الثانية

وهذه المصادرة الأولى، خلود النفس، يجب أن تجر أيضاً إلى مصادرة ثانية هي وجود الله . الذي به يتحقق الاتفاق بين الفضيلة والسعادة .

ذلك أن السعادة هي حال لكائن عاقل تجري له كل أموره كما يشتهي ويريد؛ فهي إذن تقوم على الاتفاق بين الطبيعة وبين الغاية التي يسعى إليها، وأيضاً الاتفاق بينهما وبين المبدأ الجوهرى لتعيين الإرادة . والقانون الأخلاقى، بوصفه قانوناً للحرية، يأمر بواسطة مبادئ معينة ينبغي أن تكون مستقلة تماماً عن الطبيعة وعن اتفاق الطبيعة مع رغباتنا . «لكن الكائن العاقل، الذي يفعل في العالم، ليس مع ذلك في نفس الوقت علة العالم والطبيعة . وإذن فلا يوجد في القانون الأخلاقى- أي مبدأ للارتباط الضرورى بين الأخلاقية والسعادة المناسبة لها، لدى كائن يؤلف جزءاً من العالم، وبالتالي يعتمد على العالم، ومن أجل هذا لا يمكنه بإرادته أن يكون علة لتلك الطبيعة . ولا يمكن- بالنسبة إلى سعادته- أن يجعل الطبيعة على اتفاق تام مع مبادئه العملية . ومع ذلك تبقى المشكلة العملية للعقل المحض، أي في السعي الضرورى نحو الخير الأسمى، تصادر على مثل هذا الارتباط بوصفه ضرورياً: إذ علينا أن نسعى لتحقيق الخير الأسمى (الذي يجب أن يكون ممكناً) . وهكذا نحن نصادر على وجود علة لكل الطبيعة، متميزة من الطبيعة وشاملة لمبدأ هذا الارتباط، أي للانسجام الدقيق بين السعادة وبين الأخلاقية . لكن هذه العلة العليا يجب أن تحتوي على مبدأ اتفاق الطبيعة ليس فقط مع قانون إرادة الكائنات العاقلة، بل وأيضاً مع امثال هذا القانون من حيث أن الكائنات العاقلة تجعل منه المبدأ الأعلى لتعيين إرادتهم؛ وبالتالي ليس فقط مع الأخلاق من حيث الشكل، بل وأيضاً مع أخلاقيتهم بوصفها مبدأ معيناً، أي مع نيتهم الأخلاقية . وإذن فالخير الأسمى ليس ممكناً في العالم إلا من حيث إقرارنا بعلة عليا للطبيعة لها علية متفقة مع النية الأخلاقية . ولكن الموجود القادر على الفعل وفقاً لامثال القوانين هو عقل (كائن عاقل)، وعلية مثل هذا الكائن- وفقاً لهذا الامثال للقوانين- هي إرادته . وإذن فالعلة العليا للطبيعة، من حيث أنها يجب أن تفرض بالنسبة إلى الخير الأسمى، هي موجود هو بالعقل والارادة علة، وتبعاً لذلك هو صانع الطبيعة، أي الله . وإذن فإن المصادرة على إمكان الخير الأسمى المستمدة (من أحسن عالم) هي في

العالم هو الموضوع الضرورى للإرادة التي يمكن أن تتعين بالقانون الأخلاقى . لكن في هذه الإرادة التوافق التام بين النوايا وبين القانون الأخلاقى هو الشرط الأعلى للخير الأسمى . فيجب أن يكون ممكناً هو وموضوعه، لأنه متضمن في نظام تحقيق هذا الموضوع . لكن التوافق التام للإرادة مع القانون الأخلاقى هو القداسة، وهي كمال لا يقدر على بلوغه أي كائن عاقل في العالم المحسوس، في أية لحظة من لحظات وجوده . بيد أنه لما كان أمراً ضرورياً من الناحية العملية، فإنه لا يمكن بلوغه إلا في تقدم مستمر إلى غير نهاية نحو هذا التوافق التام، ووفقاً لمبادئ العقل المحض العملي، ولهذا من الضرورى أن نقر بوجود تقدم عملي مثل هذا بوصفه موضوعاً حقيقياً لإرادتنا .

ومثل هذا التقدم اللامتناهية لا يكون ممكناً إلا بافتراض وجود وشخصية للكائن العاقل باقنين أبداً إلى غير نهاية (وهذا ما يسمى: خلود النفس) . وإذن فإن الخير الأسمى ليس ممكناً عملياً إلا بافتراض خلود النفس؛ وتبعاً لذلك فإن خلود النفس بوصفه لا يفصل عن القانون الأخلاقى، هو مصادرة للعقل المحض العملي<sup>(١)</sup> .

وهذه المصادرة، ومفادها أننا لا نستطيع بلوغ التوافق الكامل مع القانون الأخلاقى إلا بتقدم مستمر إلى غير نهاية ذات فائقة جلى، ليس فقط من أجل تلافى عجز العقل النظرى، بل وأيضاً بالنسبة إلى الدين . وبدون هذه المصادرة، فإننا سنكون بين إحدى خصلتين: فإما أن يكون القانون الأخلاقى خلواً من قداسته، وإما أن نكون مبالغين حين نغالي في دوره وفي الأمل في الوصول إلى مصير غير ممكن الوصول إليه، أي الامتلاك المرجو والكامل لقداسة الإرادة . وبالنسبة إلى الكائن العاقل، ولكنه فان، لا شيء يمكن غير التقدم إلى غير نهاية من الدرجات الدنيا إلى الدرجات العليا في سلم الكمال الأخلاقى .

لهذا لا أمل للكائن العاقل الفاني في بلوغ الكمال الأخلاقى في هذه الدنيا؛ وإنما يمكن أن يتحقق ذلك في لا نهاية وجوده، وهي أمر لا يحيط به إلا الله .

(١) وقد العقل العملي، ط ١٩٩-٢٠٠-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢ من الترجمة الفرنسية .

منطقيين في سلوكهم حين نزلوا بمستوى خيرهم الأسمى إلى مستوى انحطاط مبدئهم وحين لم يتوقعوا سعادة أكبر من تلك التي تحققها الفطنة الإنسانية (بما في ذلك العفة والاعتدال في الشهوات)، وهي سعادة حقيرة وتتفاوت بحسب الظروف، فضلاً عما تنطوي عليه قاعدتهم من استثناءات عديدة عليهم أن يقرّوا بها. أما الرواقيون فقد أحسنوا اختيار مبدئهم العملي الأعلى، وهو الفضيلة، شرطاً للخير الأسمى. لكنهم لما تصوّروا درجة الفضيلة المطلوبة بحسب قانونهم على أنها يمكن بلوغها في هذه الحياة، فإنهم بذلك ليس فقط رفعوا السلطة الأخلاقية للإنسان، الذي سموه: الحكيم، فوق كل حدود طبيعته وأقروا بشيء يتناقض مع كل المعرفة الإنسانية، بل وأيضاً وخصوصاً لم يشاءوا أن يقرّوا بالعنصر الثاني للخير الأسمى، وهو السعادة، كموضوع خاص بملكة الرغبة الإنسانية. لقد جعلوا من حكيمهم نوعاً من الإله، دون أي اعتبار للطبيعة فاضين إياه معرضاً، لا خاضعاً، لمصائب الحياة وشروها، ومتصورينه في نفس الوقت متحرراً من الشر. وهكذا طرحوا ظهرياً العنصر الثاني في الخير الأسمى، وهو السعادة الشخصية، واضعين إياها في الفعل وفي الرضا عن النفس، وبهذا حصروها في الشعور بالطريقة الأخلاقية للتفكير؛ وهو أمر يفتنه صوت الطبيعة فيهم.

وهنا يؤوّل كنت المسيحية تأويلاً خاصاً يتفق مع مذهبه هو فيقول إن المسيحية، حتى لو لم تنظر إليها بعدد على أنها مذهب ديني، ترضي تماماً مطالب العقل العملي. ذلك أنها تأمر بطهارة الأخلاق، وتعلن في الوقت نفسه أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلا إلى الفضيلة، أي إلى التصميم على الفعل وفقاً للقانون اختراعاً له، وتنبه إلى الدوافع النجسة التي يمكن أن تفسد نواياه في كل لحظة. فهي إذن ترى من الضرورية التقدم اللانهائي نحو القداسة، وبهذا تبعث فينا الأمل في استمرار حياتنا الأخلاقية. وإذا كانت تعلن أن هذا التقدم يمكن أن يبدأ في حياتنا الدنيا هذه، فإنها بذلك تقرّ بأن السعادة المناظرة لذلك ليست في مقدورنا، ولا يمكن أن نظفر بها إلا في حياة أخرى، نحن نرجوها.

لكن أليس في هذا عوداً إلى الأخلاق اللاهوتية، أي التي تتلقى أوامرها من سلطة خارجية؟ أين إذن التشريع الذاتي الذي جعله كنت جوهر الإرادة الأخلاقية؟

ويجب كنت على هذا الاعتراض بأن المبدأ المسيحي للأخلاق ليس لاهوتياً: (وبالتالي: تشريعاً خارجياً)، بل هو

الوقت نفسه المصادرة على الحقيقة الفعلية لخير أسمى أول، هو وجود الله. ولقد كان واجباً علينا أن نحقق الخير الأسمى، وبالتالي ليس فقط حقاً Befugnis، بل وأيضاً ضرورة مرتبطة كحاجة بالواجب: أن نفترض إمكان هذا الخير الأسمى الذي عن حيث أنه ليس ممكناً إلا بشرط وجود الله يربط ربطاً لا انفصام له بين افتراض هذا الوجود وبين الواجب، أعني أنه من الضروري أخلاقياً أن نقرّ بوجود الله<sup>(١)</sup>.

ويبادر كنت فيؤكد أن هذه الضرورة الأخلاقية ذاتية، أي أنها حاجة، وأنها ليست موضوعية، أي ليست هي نفسها واجباً، إذ الاقرار بوجود شيء ما ليس واجباً، بل هذا أمر يتعلق بالعقل النظري، فلا يدخل في باب الواجب، إذ الواجب إنما يدخل في ميدان العقل العملي، لأنه من مجال الأخلاق.

كذلك نبه إلى أنه ينبغي ألا نستتج من هذا أنه من الضروري الاقرار بوجود الله كأساس لكل الزام بوجه عام، لأن هذا الأساس يقوم على التشريع الذاتي للعقل نفسه. وإنما ما يتعلق هنا بالواجب هو فقط العمل من أجل تحقيق الخير الأسمى، وهو أمر لا يمكن افتراضه إلا بافتراض وجود عقل أعلى. وقالوا الاقرار بوجود هذا العقل الأعلى هو إذن أمر مرتبط بالشعور بواجبنا، وإن كان أمر الاقرار به ينتسب إلى العقل النظري<sup>(٢)</sup>.

وهذا هو السرّ هكذا يشرح كنت في إن المدارس الفلسفية اليونانية لم تصل إلى حل مشكلة الامكان العملي للخير الأسمى: ذلك أنهم اتخذوا من استعمال المرء لحرية إرادته المبدأ الكافي والوحيد لهذا الإمكان، دون حاجة إلى وجود الله. وقد كانوا على حق في تقرير مبدأ الأخلاق مستقلاً عن هذه المصادرة، استناداً إلى علاقة العقل بالإرادة، وجعل ذلك الشرط العملي الأعلى للخير الأسمى. لكن ذلك ليس كل شرط إمكان الخير الأسمى. صحيح أن الأبيقوريين قد اتخذوا مبدأ باطلاً، هو مبدأ السعادة، واستبدلوا بالقانون قاعدة اختيار اعتباطي وفقاً لميل كل فرد؛ لكنهم كانوا مع ذلك

(١) ونقد العقل العملي، ط ١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - ص ١٢٤ - ١٢٥ من الترجمة الفرنسية.

(٢) ونقد العقل العملي، ط ١ ص ٢٢٧ - ص ١٢٥ من الترجمة الفرنسية.

تكون غير جديرين بها<sup>(١)</sup> ومن هذا يتجلى دور الدين في الأخلاق، إذ إن «الأمل في تحصيل السعادة لا يبدأ إلا مع الدين»<sup>(٢)</sup>.

Weil die Hoffnung dazu nur mit der Religion allererst anhebt

كذلك يتضح أننا لو نساءنا ما هي غاية الله من خلق العالم فليس لنا أن نجيب بأنها سعادة الكائنات العاقلة في هذه الدنيا، بل الخير الأسمى، أي أخلاقية هذه الكائنات، تلك «أخلاقية التي تحتوي وحدها على المقياس الذي وفقاً له يمكنهم أن يأملوا في المشاركة في السعادة، بفضل خالق حكيم. ولهذا فإن الذين جعلوا غاية الخليفة تمجيد الله (على ألا تفهم من ذلك معنى تشبيهاً بالإنسان، أي الرغبة في أن يُمدح) قد وجلوا التعبير الأصلى، لأنه لا شيء يجتد الله غير ما هو الأجلر بالتقدير في العالم، أعني احترام أوامره، ومراعاة الواجب المقدس الذي تفرضه علينا شريعته، إذا انضاف إلى ذلك تنويج هذه الأوامر الجميلة بسعادة تتناسب وإياها.

إما أن الإنسان، في ميدان الغايات، هو غاية في ذاته، أي لا ينبغي أبداً أن يستعمله أحد (حتى ولا الله) كوسيلة فقط دون أن يكون غاية في ذاته في الوقت نفسه، وإما أن الإنسانية في شخصنا يجب أن تكون مقدسة عندنا، فهذا كله أمر يقيني بنفسه لا مشاحة فيه، لأن الإنسان هو موضوع القانون الأخلاقي، أي موضوع كل ما هو مقدس بذاته، وهذا القانون الأخلاقي يقوم على أساس استقلال الإرادة بذاتها، بوصفها إرادة حرة ينبغي، وفقاً لقوانينها العالمة، أن تكون بالضرورة قادرة على الاتفاق على ما يجب عليها أن تخضع له.

يقول دلبوس: «ليس ثم إذن فساد في روح التزاهة التي يجب أن يتحلل بها الإنسان وهو يطبع القانون الأخلاقي؛ وليس ثم في هذا لجوء إلى دوافع أجنبية، مثل الخوف والرجاء، اللذين لو انحولا إلى قاعدتين لقضيا على كل قيمة أخلاقية للأفعال. كل ما هنالك هو الثقة العادلة المقدسة في عجيء ملكوت الله، مجيئه وفقاً للقانون الأخلاقي وبفضل ما يقتضيه القانون الأخلاقي. وفي هذه الأمور أقل خلط يمكن أن يؤدي إلى تشويه طهارة الأفكار. فإننا إذا استطعنا أن

التشريع الذاتي للعقل المحض العملي بذاته، لأن هذه الأخلاق تجعل من معرفة الله ومن إرادته الأساس، لا لهذه القوانين، بل للأمل في بلوغ الخير الأسمى بشروط مراعاة هذه القوانين، لأنها تضع الدافع الحقيقي، الخلق بأن يجعلنا نراعيها، لا في النتائج المشتقة، بل فقط في تصور الواجب، بوصفه الأمر الوحيد الذي تجعلنا مراعاته الأمانة جديرين بالحصول على هذه النتائج»<sup>(١)</sup>.

وهكذا يؤدي القانون الأخلاقي إلى الدين، وذلك بفضل فكرة الخير الأسمى بوصفه غاية العقل المحض العملي. «أي يؤدي إلى الإقرار بأن كل الواجبات أوامر إلهية، لا كجزاءات، أي أوامر اعتبارية عرضية صادرة عن إرادة أجنبية، بل كقوانين جوهرية لكل إرادة حرة في ذاتها، ولو أنها يجب أن تعتبر أوامر لكائن أعلى، لأننا لا نستطيع أن نأمل في الخير الأسمى - الذي يجعله القانون الأخلاقي واجباً علينا كغاية لجهودنا - إلا من إرادة كاملة (مقدمة وخيرة) أخلاقياً وفي نفس الوقت قادرة قدرة مطلقة وتبعاً لذلك لا يمكننا أن نأمل في بلوغ ذلك إلا بالاتفاق مع هذه الإرادة. وهكذا يبقى كل شيء ما هنا نزهاً ومؤمناً فقط على الواجب، دون أن يستطيع الخوف أو الرجاء، كدافعين، أن يؤخذا كمبادئ، لأنها إذا صاروا مبدئين، دمرنا كل القيمة الأخلاقية للأفعال، إن القانون الأخلاقي يأمر بفعل الخير الأسمى الممكن في العالم الغاية النهائية لكل سلوكي. لكنني لا أستطيع الأمل في تحقيقه إلا باتفاق إرادتي مع إرادة صانع للعالم قَلْبوس وخير، وعلى الرغم من أن سعادتني الخاصة متضمنة في تصور الخير الأسمى، تضمن الجزء في الكل حيث السعادة الكبرى تتمثل مرتبطة بنسبة دقيقة مع أعلى درجة للكمال الأخلاقي (الممكن للمخلوقات)، فإنه ليست سعادتني، بل القانون الأخلاقي (الذي تحدّ بشروط قاسية من رغبتي اللاعقلية في السعادة) هو المبدأ المعين للإرادة والمخصص للعمل من أجل تحقيق الخير الأسمى. فالأخلاق ليست في حقيقة الأمر إذن المذهب الذي يعلمنا كيف يجب علينا أن نجعل أنفسنا سعداء، بل هي التي تعلمنا كيف يجب علينا أن نجعل أنفسنا جديرين بالسعادة. و فقط حين ينضاف إليها الدين، يدخل قينا الأمل في أن نشارك ذات يوم في السعادة بالقدر الذي سعيانا به إلا

(١) وقد العقل العملي، ط ١ من ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ من الترجمة الفرنسية.

(٢) وقد العقل العملي، ط ١ من ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ من الترجمة الفرنسية.

(١) وقد العقل العملي، ط ١ من ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ من الترجمة الفرنسية.



إما العالم المعقول أو ملكوت الله<sup>(١)</sup>، وإما الخير الأسمى الذي علينا أن نحققه<sup>(٢)</sup>، وإما الحرية<sup>(٣)</sup>.

لكن العالم المعقول أو ملكوت الله، كما يلاحظ دلبوس (ص ٤٩٤) لا يعبر إلا عن إمكان الخير الأسمى، مع التوكيد فقط على ضرورة وفعالية تدخل الله لتأمين ذلك لنا. أما إمكان الخير الأسمى فإنه فضلاً عن ارتباطه مباشرة بالقانون الأخلاقي بوصفه موضوعاً للإرادة تقوم هذه بتعيينه، فهو لا يستحق أن يعد مصادرة قائمة برأسها.

أما الحرية فأمرها أجدر بالعناية. فإن كنت تقول صراحة: «هذه المصادرات هي مصادرة الخلود، والحرية منظوراً إليها إيجابياً (بوصفها علية الكائن من حيث هو يتسبب إلى العالم المعقول) ووجود الله... والمصادرة الثانية (= الحرية) تصدر عن الافتراض الضروري للاستقلال عن العالم المحسوس وعن ملكة تعيين الإرادة تبعاً لقانون عالم معقول، أعني الحرية»<sup>(٤)</sup>.

لكن اعتبار كنت للحرية أنها مصادرة يتعارض مع ما ذكره في قسم التحليلات من «نقد العقل العملي» من أن الحرية هي القانون، وهي يقينية مثل القانون<sup>(٥)</sup>.

فهل نقول إن كنت بإضافته الحرية مصادرة ثالثة إنمّا جرى وراء عاداته في تصوير الله والحرية والخلود على أنها الموضوعات العليا للميتافيزيقا<sup>(٦)</sup>؟

لكن هذا لا يكفي لتفسير تراجع كنت بعد أن عدّ الحرية أمراً يقينياً صار بعدها مجرد مصادرة من مصادرات العقل العملي.

لهذا يقترح دلبوس (ص ٤٩٦-٤٩٧) حلاً لهذه المشكلة أن نفهم الحرية بمعنيين:

- (١) الحرية بمعنى أنها والقانون شيء واحد،
- (٢) والحرية كما يصدر عليها القانون.

نقول، بمعنى ما إن الخير الأسمى هو المبدأ المحنّد للإرادة، فينبغي ألا تغفل أبداً عن أنه كذلك بواسطة القانون الأخلاقي المتضمن فيه بوصفه عنصره الأول الذي لا يقبل الرد. كذلك فإن الأخلاق ليست أبداً في ذاتها مذهباً في السعادة، لأنها تفرض واجبات ولا تقدم قواعد للميول النفعية، ثم إنها تكبح جماح تلك الحاجة اللامحدودة إلى السعادة التي تدفعنا؛ لكنها حين تجعل القانون الخاص بها مطلقاً، فإنها تثير فينا الرغبة في العمل تحت هذا القانون من أجل انتصار الخير الأسمى؛ وحينئذ، لكن حينئذ فقط، ومع التحفظات المشار إليها، نصير مذهباً في السعادة مذهباً لا يقدم علماً يقينياً برهانياً، لكنه يبرر أملاً مشروعاً.

وهكذا وعلى هذا النحو تتم الأخلاق في الدين دون أن تتأسس عليه أبداً؛ وإذا كان عليها أن تتم في الدين فذلك لأن الإنسان وهو كائن عاقل وحساس معد لا يمكنه أن يحصل وحده بنفسه القدرة على المحافظة إلى غير نهاية على نيته الحسنة ضد القواعد Maximes التي توحى إليه بها حساسيته، ولا خصوصاً القدرة على أن تُحصّل، بانجاز الواجب، على اشباع متطلبات هذه الحساسية نفسها، وقد صارت هذه المتطلبات حقوقاً. ومع ذلك فإن الأخلاق لا تتأسس على الدين، لأنه في الاستعداد الراسخ للمخضوع للقانون يوجد الأصل الباطن للحاجة التي يستجيب لها الدين، ولأنه تبعاً لذلك التفسير الأولي لمذهب ديني من شأنه أن يحلّ برابطة منطقية خارجية الرابطة العملية الباطنة التي تربط المبدأ الأخلاقي بتوكيد الخلود وتوكيد (وجود) الله<sup>(٧)</sup>.

### المصادرة الثالثة

انتهى كنت إذن إلى القول بمصادرتين للعقل العملي هما: خلود النفس، ووجود الله.

فهل هناك مصادرة ثالثة للعقل العملي؟ هنا إشكال عسير الحل:

فهو في بعض المواضع<sup>(٨)</sup> يقصر مصادرات العقل على هاتين. لكنه في مواضع أخرى يضيف مصادرة ثالثة تكون:

(١) الكتاب نفسه ط ١ ص ٢٤٦ = ١٢٦ ترجمة فرنسية.  
 (٢) الكتاب نفسه ط ١ ص ٢٢٥ = ص ١٣٤ ترجمة فرنسية.  
 (٣) الكتاب نفسه ط ١ ص ٢٣٨ = ١٤٢ ترجمة فرنسية.  
 (٤) نقد العقل العملي ط ١ ص ٢٣٨ - ص ١٤٢ من الترجمة الفرنسية.  
 (٥) الكتاب نفسه ط ١ ص ٤ = ص ٢ من الترجمة الفرنسية.  
 (٦) راجع خصوصاً: نقد العقل المحض ج ٢ من مجموع مؤلفات كنت نشرة هارتنشتين ص ٥٢٨.

(١) فكتور دلبوس: فلسفة كنت العملية ص ٤٨٤-٤٨٥، ط ٧ باريس سنة ١٩٧٦.  
 (٢) نقد العقل العملي ط ١ ص ٤، ص ٥، ص ٢٢٣ = ٢٢٥ - ص ٢، ص ٣، ص ١٣٣-١٣٤ من الترجمة الفرنسية.



١- أنها تبدأ جميعاً من المبدأ الأساسي للأخلاقية، وهو ليس مصادرة، بل قانون به يعين العقل الإرادة مباشرة.

٢- هذه المصادر ليست عقائد نظرية، بل فروض من وجهة نظر عملية لا محالة، ولهذا فإنها لا توسع المعرفة النظرية، وإنما تهب أفكار العقل النظري بوجه عام حقيقة موضوعية، وتبررها بوصفها تصورات ما كانت، لولا ذلك، لتجرؤ على افتراض إمكانها.

٣- المصادرة إيمان محض عملي للعقل. ولهذا تختلف عن الإيمان القلبي، لأن فيها عنصراً عقلياً، إذ هي صادرة عن حاجة العقل، ومرتبطة بمصلحة مباشرة للأخلاق. وهذا الإيمان يتخذ طابعاً شخصياً: «فالإنسان الشريف يستطيع أن يقول: أريد أن يوجد الله، وأريد أن يكون وجودي في هذا العالم - خارج تسلسل العلل الطبيعية - وجوداً في عالم معقول محض، وأريد أخيراً أن يكون بقائي إلى غير نهاية. وأنا أتمسك بهذا بشدة، وتلك معتقدات لا أسمح بانتزاعها مني، لأن هذه هي الحالة الوحيدة التي فيها مصلحتي - التي ليس مسموحاً لي بالتخلي عنها - تعين حكمي حتماً»<sup>(١)</sup>.

### السياسة

أبرز ما لكتت في باب السياسة هو مشروعه للسلام الدائم، الذي عرضه في كتاب صغير ظهر سنة ١٧٩٥ بعنوان: «نحو سلام دائم، محاولة فلسفية».

وقد صاغ كنت مشروعه هذا على هيئة المعاهدات الدبلوماسية. ويتألف من الأقسام التالية:

- ١- ست مواد تمهيدية تصوغ الشروط السلبية للسلام:
- ١- لا يجوز أن تتضمن معاهدة السلام أي بند سري للاحتفاظ بحق استئناف الحرب؛
- ٢- لا يمكن امتلاك دولة مستقلة عن طريق الميراث، أو التبادل، أو الشراء، أو الهبة؛
- ٣- الجيوش الدائمة يجب أن تزول نهائياً مع الزمن؛
- ٤- لا يجوز اقتراض ديون وطنية من أجل مصالح خارجية للدولة؛
- ٥- لا يجوز لأية دولة أن تتدخل في نظام أو حكم دولة أخرى؛

والحرية بهذا المعنى الثاني ليست الملكة التي بها تكون الإرادة المحضة مستقلة بذاتها وتشرع تشريعاً كلياً، بل هي حرية الشخص في أن ينجز مهمته الأخلاقية تحت سلطان هذا التشريع، انجازها ضد العقبات التي يمكن أن تجتث من الطبيعة.

وتبعاً لهذا التفسير هناك إذن حريتان عند كنت: «حرية يبرهن عليها القانون»<sup>(١)</sup>. وهي التي يتحدث عنها في قسم «التحليلات»، وحرية «يصادر عليها القانون»<sup>(٢)</sup>، ولا يتحدث عنها كنت إلا في قسم «الديالكتيك» من «نقد العقل العملي». الأولى هي «شرط القانون الأخلاقي»<sup>(٣)</sup>، والثانية «هي أحد شروط إمكان الخير الأسمى»<sup>(٤)</sup>، أي أحد الشروط التي تمكن من انجاز الموضوع الضروري الذي يأمر به القانون الأخلاقي.

وهذان المعنيان ليسا في نفس المستوى: فإن الأولى واقعة من وقائع العقل العملي، أما الثانية فهي مصادرة من مصادر العقل العملي. الأولى سلطة مشرعة لإرادة تؤسس القانون الأخلاقي، والثانية سلطة عملية لإرادة قادرة على اتباع هذا القانون.

لكننا لا نرى في هذا التمييز نوعين من الحرية، بل حرية واحدة لها وظيفتان: أن تشرع لذاتها قانونها الأخلاقي، وأن تطبق هذا التشريع في سلوكها. ولهذا لا نرى عد الواحدة مصادرة، والأخرى واقعة، بل ثم حرية واحدة يصادر عليها العقل العملي لأنه لا يستطيع أن يسلك سلوكاً أخلاقياً إلا بافتراض وجود هذه الحرية. فالفاعل الأخلاقي لا بد له أن يفترض بأنه حر في أفعاله، بمعنى أن إرادته هي مصدر مبادئ فعله، وأنه قادر على أن يفعل وفقاً لهذه المبادئ. إن الفاعل الأخلاقي يجب أن يعمل تحت فكرة الحرية. ومن هنا قال كنت بصراحة: «إن إرادة الكائن العاقل لا يمكن أن تكون إرادته هو إلا تحت فكرة الحرية»<sup>(٥)</sup>.

### الخصائص المشتركة لهذه المصادر

وتشارك هذه المصادر الثلاث في الخصائص التالية:

(١) «نقد العقل العملي» ط ١ ص ٨٢ = ص ١٧ من الترجمة الفرنسية.  
 (٢) الكتاب نفسه ط ١ ص ٢٤١ = ص ١٤٣ من الترجمة الفرنسية.  
 (٣) الكتاب نفسه ط ١ ص ٩ = ص ٢ ترجمة فرنسية.  
 (٤) الكتاب نفسه ط ١ ص ٢٤٩، ٢٥٧ = ص ١٤٨، ١٥٧ ترجمة فرنسية.  
 (٥) «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق» طبعة أكاديمية برلين ج ٤ ص ٤١٨.

(١) «نقد العقل العملي» ط ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ - ١٥٣ من الترجمة الفرنسية.

مثل أعلى، أي غاية بعيدة قد لا تتحقق أبداً، لكن يجب على الأمم أن تجعلها دائماً هدفاً نهائياً لها: إنه أمل، وليس مجرد سراب، لأن الحرب ليست ضرورة حتمية لا مفر منها.

٣- أن مشروعه في السلام الدائم يتسق مع مذهبه كله: سواء في نظرية المعرفة، وفي الأخلاق. ولا يمكن فهمه أبداً بمعزل عن المبادئ التي قررها «نقد العقل المحض»، و«نقد العقل العملي»، و«تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق»، و«فكرة التاريخ العالمي من وجهة نظر كونية».

### المراجع

أوسع وأعمق دراسة عن كنت بأية لغة هي كتابنا: «امانويل كنت»، في أربعة أجزاء:

١- «امانويل كنت» ج١: حياته ومؤلفاته ومذهبه النقدي. ٣٧٢ ص. الكويت، سنة ١٩٧٧.

٢- «امانويل كنت» ج٢: «الأخلاق عند كنت»، ويتضمن: مشكلة الميتافيزيقا الأخلاق- ويقع في ٢٣٥ ص. الكويت، سنة ١٩٧٩.

٣- «امانويل كنت» ج٣: فلسفة القانون والسياسة- ويشمل: فلسفة القانون - فلسفة السياسة- التراجع بين الكليات الجامعية - فلسفة التاريخ - علم الجمال - ويقع في ٤٤٥ ص. الكويت، سنة ١٩٧٩.

٤- «امانويل كنت» ج٤: «فلسفة الدين والتربية». ويقع في ١٧٤ ص. بيروت سنة ١٩٨٠.

### أثبات بمؤلفاته

- Warda, Arthur: Die Druckschriften Immanuel Kants (bis zum Jahre 1838). Wiesbaden 1919. 62 S.

-(Kant- Bibliographie.) In: Friedrich Ueberwegs Grundris der Geschichte der Philosophie. Teil 3 Die Philosophie der Neuzeit bis zum Ende des XVIII. Jahrhunderts. 12. Aufl. Völlig neubearb. von Max Frischeisen- Köhler und Willy Moog. Berlin 1924. S. 709-749.

- Lehmann, K.H., und Horst Hermann: Dissertationen zur Kantischen Philosophie (Deutsche Dissertationen 1885- 1953) In: Kant- Studien 51 (1959/60), S. 228- 257.

٦- لا يجوز لدولة، في حرب مع دولة أخرى، أن تقوم بأعمال عدوانية من شأنها أن تجعل من المستحيل عودة الثقة المتبادلة بينهما لدى عودة السلام: مثل الاغتيال، دس السم، خرق امتياز منح، التحريض على الحياة.

وقد أتبع كل مادة من هذه المواد التمهيدية، وكذلك الأساسية، بتعليق.

ب- ثلاث مواد نهائية تصوغ الشروط الإيجابية العامة، الداخلية والخارجية الدولية، لفائدة السلام، هي:

١- يجب أن يكون النظام السياسي لكل دولة هو النظام الجمهوري؛

٢- القانون الدولي يجب أن يؤسس على اتحاد (فدرالي) بين الدول الحرة؛

٣- القانون (الحق) العالمي يجب أن يقتصر على شروط الضيافة العالمية.

ج- ملحق أول: يبحث فيه كنت، من الناحية الفزيائية والمادية الخالصة في الطبيعة بوصفها ضمان السلام.

د- ملحق ثان: يدعو فيه إلى إعطاء الفلاسفة الحق في تنوير الدولة والحاكمين فيما يتعلق بالأمور السياسية. وهذا الملحق أضيف إلى الطبعة الثانية التي ظهرت في سنة ١٧٩٦.

هـ- ضميمته تتناول: (١) الخلاف بين الأخلاق والسياسة؛ (٢) الاتفاق بين السياسة والأخلاق. وفي كلا الفصلين تأملات عامة في الفلسفة السياسية هي الأساس في هذا الكتاب.

وكان لكنت أسلاف في وضع مشروعات للسلام الدائم، لكن كنت يتميز منهم بالخصائص التالية:

١- أنه لم يلجأ إلى العبارات المثيرة للإشفاق على الناس من ويلات الحرب، كما فعل كروسه وبين Penn والأب دي سان بيير، بل كان كلامه دائماً عقلياً ورزينا.

٢- أنه لم يتعجل تحقيق السلام العالمي، بل رأى أننا أمام مرحلتين: الأولى هي تنظيم الأمم في هيئة دولية تتولى المحافظة على السلام- وهذا أمر ميسور التحقيق، وقد تحقق فعلاً للمرة الأولى في سنة ١٩١٩ بإنشاء عصبة الأمم، وللمرة الثانية في سنة ١٩٤٥ بإنشاء هيئة الأمم المتحدة التي لا تزال قائمة حتى اليوم. والمرحلة الثانية هي: السلام الدائم، وهو

von Leibniz und andere Mechaniker in dieser Steitsache bedienet haben, nebst einigen vorhergehenden Betrachtungen, welche die Kraft der Körper überhaupt betreffen. Königsberg 1746.

- Allgemeine Naturgeschichte und Theorie des Himmels oder Versuch von der Verfassung und dem mechanischen Ursprunge des ganzen Weltgebäudes, nach Newtonischen Grundsätzen abgehandelt. Königsberg, Leipzig 1755.

- Principiorum primorum cognitionis metaphysicae nova dilucidatio. Königsberg 1755.

- Geschichte und Naturbeschreibung der merkwürdigsten Vorfälle des Erdbebens, welches an dem Ende des 1755ten Jahres einen grossen Teil der Erde erschüttert hat. Königsberg 1756.

- Metaphysicae cum geometria iunctae usus in philosophia naturali, cuius specimen I. continet monadologiam physicam. Königsberg 1756.

- Der einzig mögliche Beweisgrund zu einer Demonstration des Daseins Gottes. Königsberg 1763.

- Versuch, den Begriff der negativen Grössen in die Weltweisheit einzuführen. Königsberg 1763.

- Beobachtungen über das Gefühl des Schönen und Erhabenen. Königsberg 1746.

- Untersuchung über die Deutlichkeit der Grundsätze der natürlichen Theologie und der Moral. Zur Beantwortung der Frage, welche die Königl. Akademie der Wissenschaften zu Berlin auf des Jahr 1763 aufgegeben hat. Königsberg 1764

- Träume eines Geistersehers, erläutert durch Träume der Metaphysik. Königsberg 1766.

- De mundi sensibilis atque intelligibilis forma et principiis. Königsberg 1770.

- Kritik der reinen Vernunft. Riga 1781- 2. verb. Aufl. 1787.

- Prolegomena zu einer jeden künftigen Metaphysik, die als Wissenschaft wird auftreten können. Riga 1783.

- Grundlegung zur Metaphysik der Sitten. Riga 1785- 2. (verb.) Aufl. 1786

-Metaphysische Anfangsgründe der Naturwissenschaft. Riga 1786.

- Kritik der praktischen Vernunft. Riga 1788.

- Kritik der Urteilskraft, Berlin, Libau 1790.

- Über eine Entdeckung, nach der alle neue Kritik der

## مؤلفاته

### نشرات كاملة

- Sämtliche Werke. Hg. von Karl Rosenkranz und Friedrich Wilhelm Schubert. 12 Bde. Leipzig (Voss) 1838- 1842

(Bd. 11, I: Briefe; Bd. 11 II: Immanuel Kant's Biographie, von Friedrich Wilhelm Schubert; Bd. 12: Geschichte der Kant'schen Philosophie, von Karl Rosenkranz).

- Gesammelte Schriften. Hg. von der Königlich Preussischen Akademie der Wissenschaften, (später:) von der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin. 23 Bde. Berlin (Reimer), (später:) Berlin, Leipzig (de Gruyter) 1900- 1955.

(I. Abth. (Bd. 1- 9): Werke; 2. Abth. (Bd. 10- 13): Briefwechsel; 3. Abth. (Bd. 14- 23): Handschriftlicher Nachlass).

Vgl. Gerhard Lehmann, Zur Geschichte der Kant- Ausgabe 1896- 1955. In: Deutsche Akademie der Wissenschaften zu Berlin. 1946- 1956. Berlin 1956. S. 422- 434.

- Sämtliche Werke. Hg. von Karl Vorländer (u. a.). 10 Bde. Leipzig (Meiner) 1911- 1926 (Philosophische Bibliothek. 37- 52. 113. 126)

(Bd. 9, I u. II: Briefwechsel hg. von Otto Schöndörffer; Bd. 10, I: Vorländers Kantbiographie; Bd. 10 II: Cohens Kommentar zur Kritik der reinen Vernunft).

- Werke. In Gemeinschaft mit Hermann Cohen, Artur Buchenau, Otto Buek, Albert Görland, Benzion Kellermann, Otto Schöndörffer hg. von Ernst Cassirer. 11 Bde. Berlin (Cassirer) 1912- 1922.

(Bd. 9- 10: Briefe von und an Kant; Bd. 11 (Ergänzungsband): Kants Leben und Lehre, von Ernst Cassirer).

- Werke in sechs Bänden. Hg. von Wilhelm Weischedel. 6 Bde. Wiesbaden, (später:) Frankfurt a. M. (Insel- Verlag) 1956- 1964.

- Vorlesungen. Hg. von der Deutschen Akademie der Wissenschaften zu Berlin. Berlin (Akademie- Verlag) 1961 ff.

### المؤلفات والمحاضرات المفردة الرئيسية

- Gedanken von der wahren Schätzung der Lebendigen Kräfte und Beurteilung der Beweise, deren sich Herr

Nach handschriftlichen Vorlesungen. Hg. von Fr. Ch. Starke. Leipzig 1831.

- Vorlesungen über Metaphysik aus drei Semestern. Hg. von Max Heinze. Leipzig 1894 (Abhandlungen der Königl. Sächsischen Gesellschaft der Wissenschaften. Phil.- hist. Classe. 14, 6).

- Eine Vorlesung über Ethik. Im Auftrage der Kantgesellschaft hg. von Paul Menzer. Berlin 1924.

- Die philosophischen Hauptvorlesungen. Nach den neu aufgefundenen Kollegheften des Grafen zu Dohna-Wundlacken. Hg. von Arnold Kowalewski. München, Leipzig 1924.

- Opus postumum. Hg. von Artur Buchenau. 2 Bde. Berlin, Leipzig 1936- 1938 (Als Einzelausg. und im Rahmen der Akademieausg. (Gesammelte Schriften. Bd. 21- 22)

### معاجم

- Kant- Lexikon. Nachschlagewerk zu Kants sämtlichen Schriften, Briefen und handschriftlichem Nachlab. Bearb. von Rudolf Eisler. Berlin 1930. VIII, 642 S.- Nachdruck. Hildesheim 1961 - Erneuter Nachdruck. 1964 (Olms Paperback. 2).

- Systematisches Handlexikon zu Kants Kritik der reinen Vernunft. Von Heinrich Ratke. Leipzig 1929. Vi, 329 S. ( Philosophische Bibliothek. 37 b.

### مجلة جمعية کنت

- Kantstudien (später: Kant- Studien). Philosophische Zeitschrift. Hg. von Hans Vaihinger; (ab Bd. 7 (1902):) von Hans Vaihinger und Max Scheler; (ab Bd. 10 (1905):) von Hans Vaihinger und Bruno Bauch; (ab Bd. 22 (1918):) von Hans Vaihinger, Max Frixcheisen-Köhler und Arthur Liebert; (ab Bd. 29 (1924):) von Paul Menzer und Arthur Liebert, ( Bd. 39 ( 1934):) von Paul Menzer, Eduard Spranger und Martin Löpelmann; (ab Bd. 40 ( 1935 ):) von Hans Heyse; ( ab Bd. 42 ( 1942/43):) von August Faust, Hans Heyse, Ferdinand Weinhandl, Günther Lutz; ( ab Bd. 45 ( 1953/54):) von Paul Menzer und Gottfried Martin

reinen Vernunft durch eine ältere entbehrlich gemacht werden soll. Königsberg 1790.

- Über das radikale Böse in der menschlichen Natur. In: Berlinische Monatsschrift 1792- Einzelausg. 1792.

- Die Religion innerhalb der Grenzen der blossen Vernunft. Königsberg 1793 - 2. Verm. Aufl. 1794.

- Über den Gemeinspruch: Das mag in der Theorie richtig sein, taugt aber nicht für die Praxis. In: Berlinische Monatsschrift 1793.

- Zum ewigen Frieden. Ein philosophischer Entwurf. Königsberg 1795- 2. verm. Aufl. 1796.

- Die Metaphysik der Sitten in zwei Teilen. (Metaphysische Anfangsgründe der Rechtslehre. Metaphysische Anfangsgründe der Tugendlehre.) Königsberg 1797- 2. verm. Aufl. 1798.

- Von der Macht des Gemüts, durch den blossen Vorsatz seiner krankhaften Gefühle Meister zu sein. Jena 1798

- Der Streit der Fakultäten. Königsberg 1798.

- Anthropologie in pragmatischer Hinsicht abgefasst. Königsberg 1798- 2. verb. Aufl. 1800.

- Logik. Ein Handbuch zu Vorlesungen. (Hg. von Gottlob Benjamin Jäsche) Königsberg 1800.

- Physische Geographie. (Hg. von Gottfried Vollmer.) 4 Bde. Mainz, Hamburg 1801- 1805 Andere Ausg. Hg. von Friedrich Theodor Rink. 2 Bde. Königsberg 1802.

- Über Pädagogik. Hg. von Friedrich Theodor Rink. Königsberg 1803.

- Über die von der Königl. Akademie der Wissenschaften zu Berlin für das Jahr 1791 ausgesetzte Preisfrage: Welches sind die wirklichen Fortschritte, die die Metaphysik seit Leibnizens und Wolffs Zeiten in Deutschland gemacht hat. Hg. von Friedrich Theodor Rink. Königsberg 1804.

- Vorlesungen über die philosophische Religionslehre. (Hg. von Karl Heinrich Ludwig Pölitz.) Leipzig 1817.

- Vorlesungen über die Metaphysik. (Hg. von Karl Heinrich Ludwig Pölitz.) Erfurt 1821.

- Anweisung zur Menschen- und Weltkenntnis. Nach Vorlesungen im Winterhalbjahre von 1790- 1791. Hg. von Fr. Ch. Starke. Leipzig 1831.

- Menschenkunde oder philosophische Anthropologie.

- Persönlichkeit als Einführung in das Werk. München 1905. XI, 786 S.- 5. Aufl. 1938. XI 805 S.
- Külpe, Oswald: Immanuel Kant. Darstellung und Würdigung. Leipzig 1907 VI, 153 S. (Aus Natur und Geisteswelt. 146)
  - Bauch, Bruno: Immanuel Kant. Leipzig 1911. 207 S. (Sammlung Göschen 536. Geschichte der Philosophie. 5)- 4. verb. Aufl. Berlin 1933.
  - Bauch, Bruno: Immanuel Kant. Berlin, Leipzig 1917. XIII, 475 S. - 3. Verm. Aufl. 1923. XII, 482 S. (Geschichte der Philosophie. 7).
  - Cassirer, Ernst: Kants Leben und Lehre. Berlin 1918 XI, 449 S. ( Immanuel Kants Werke. Bd. 11 )
  - Reininger, Robert: Kant. Seine Anhänger und seine Gegner. München 1923. 313 S. (Geschichte der Philosophie in Einzeldarstellungen. 27/28).
  - Messer, August: Immanuel Kants Leben und Philosophie. Stuttgart 1924 VIII, 335 S.
  - Vorländer, Karl: Immanuel Kant. Der Mann und das Werk. 2 Bde. Leipzig 1924. XII, 430; VI, 404 S.
  - Kayser, Rudolf: Kant. Wien 1935. 289 S.
  - Jaspers, Karl: Kant. In: Jaspers, Die großen Philosophen. Bd. 1. München 1957. S. 397- 616- Wiederabdruck in: Jaspers, Plato- Augustin- Kant. Drei Gründer des Philosophierens. München 1961. S. 179- 398.

#### دراسات فلسفية

- Fischer, Kuno: Immanuel Kant. Entwicklungsgeschichte und System der kritischen Philosophie. 2 Bde. Mannheim 1860. XXXIII, 595; XXXI, 680 S. (Fischer, Geschichte der neuern Philosophie. Bd. 3. 4)- 4. Neubearb. Aufl: Immanuel Kant und seine Lehre. Teil 1: Entstehung und Grundlegung der kritischen Philosophie. Teil 2: Das Vernunftsystem auf der Grundlage der Vernunftkritik. Heidelberg 1898- 1899. XX, 620; XVI, 640 S. (Fischer, Geschichte der neuern Philosophie. Bd. 4. 5)- 6. Aufl. 1928- 1957. XX, 669; XVIII, 645 S.
- Vgl. zu den ersten Aufl.: Adolf Trendelenburg, Kuno Fischer und sein Kant. Eine Entgegnung. Leipzig 1869. 40 S.
- Simmel, Georg: Kant Sechzehn Vorlesungen. Leipzig

- ( ab Bd. 53 ( 1961/62):) von Gottfried Martin. Bd. 1 ff. Berlin, ( ab Bd. 42 (1942/43):) Leipzig, ( ab Bd. 45 ( 1953/54):) Köln 1897 - ffd.
- Neudrucke verschiedener älterer Bände. Würzburg 1958 ff.

#### مؤلفات عن حياته

- Kant- Bildnisse. Mit Unterstützung der Stadt Königsberg hg. von der Königsberger Ortsgruppe der Kant-Gesellschaft. Bearb. von Karl Heinz Clasen. Königsberg 1924. 30 S., 20 Taf.
- Vorländer, Karl: Die ältesten Kant- Biographien. Eine kritische Studie. Berlin 1918. 48 S. (Kantstudien. Ergänzungshefte. 41).
- Immanuel Kant. Ein Lebensbild nach Darstellungen der Zeitgenossen Jachmann, Borowski, Wasianski. (1804.) Hg. von Alfons Hoffmann. Halle 1902. XIV, 442 S.- 2. Aufl. 1907. XXVIII, 407 S.
- Immanuel Kant. Sein Leben in Darstellungen von Zeitgenossen. Die Biographien von L.E. Borowski, R.B. Jachmann und A. Ch. Wasianski. (1804.) Hg. von Felix Gross. Berlin 1912 VIII, 306 S. (Deutsche Bibliothek).
- Vorländer, Karl: Immanuel Kants Leben. Leipzig 1911. XI, 223 S. (Philosophische Bibliothek. 126).
- Röhrdanz, Günther: Die Stellung Kants in Und zu der Press seiner Zeit. München 1936. 144 S. (Zeitung und Leben 29).
- Stavenhagen, Kurt: Kant und Königsberg. Göttingen 1949. 104 S., 10 Taf.
- Immanuel Kants Letzte Ehrung. Aktenmässige Darstellung von Arthur Warda. Königsberg 1924. 38 S.

#### عروض عامة لمذهب كنت

- Kronenberg, Moritz: Kant. Sein Leben und seine Lehre. München 1897. 312 S.- 6. Aufl. 1922. X, 331 S.
- Paulsen, Friedrich: Immanuel Kant. Sein Leben und seine Lehre. Stuttgart 1899. XVI, 407 S. (Frommanns Klassiker der Philosophie. 7) - 8. Aufl 1924. XXIV, 412 S.
- Chamberlain, Houston Stewart: Immanuel Kant. Die

tische Interpretation der Hauptschriften. Heidelberg 1963. 388 S.

### مجموع مقالات

- Zur Erinnerung an Immanuel Kant. Abhandlungen aus Anlass der hundertsten Wiederkehr des Tages seines Todes. Hg. von der Universität Königsberg. Halle 1904. 374 S.
- Jubiläums-Heft zur Feier der Wiederkehr des 200. Geburtstages von Immanuel Kant. Mit Unterstützung der Kant-Gesellschaft hg. von Max Frischeisen-Köhler und Arthur Liebert. Berlin 1924. XX, 349 S. (Kant-Studien. 29, 1/2).
- Immanuel Kant. Festschrift zur zweiten Jahrhundertfeier seines Geburtstages. Hg. von der Albertus-Universität in Königsberg i. Pr. Redaktion: Albert Goedeckemeyer. Leipzig 1924. 270 S.
- Immanuel Kant zum Gedächtnis. Hg. von Paul Feldkeller. Darmstadt 1924. 480 S. (Reichs-Philosophischer Almanach auf das Jahr 1924)
- Kant-Festschrift. Zu Kants 200. Geburtstag. Im Auftrag der Internationalen Vereinigung für Rechts- und Wirtschaftsphilosophie hg. von Friedrich Frh. von Wieser, Leopold Wenger, Peter Klein. Berlin-Grünwald 1924 S. 161-461 (Archiv für Rechts- und Wirtschaftsphilosophien. 17, 3)
- The heritage of Kant. Ed. by George Tapley Whitney and David F. Bowers. Princeton 1939. X, 426 S. - Nachdruck. New York 1962.
- A. symposium on Kant. New Orleans 1945. 165 S. (Tulane studies in philosophy. 3)

### شرح علی بعض مؤلفاته

- Vaihinger, Hans: Kommentar zu Kants Kritik der reinen Vernunft. 2 Bde. Stuttgart 1881-1892. XVI, 507; VIII, 563 S. - 2. Aufl. Hg. von Raymond Schmidt. 1922.
- Cohen, Hermann: Kommentar zu Immanuel Kants Kritik der reinen Vernunft. Leipzig 1907. IX, 233 S. (Philosophische Bibliothek. 113).
- Smith, Norman Kemp: A commentary to Kant's «Critique of pure reason». London 1918. LXI, 615 S. - 2. erw. Aufl. 1923. LXI, 651 S. - Nachdruck. New York 1962.

1905. 181 S. - 4. erw. Aufl. München, Leipzig 1918. 212 S.

- Riehl, Alois: Die kritische Philosophie Kants. In: Riehl, Der philosophische Kritizismus. Geschichte und System. Bd. 1-2. Aufl. Leipzig 1908. S. 249-584.
- Cassirer, Ernst: Die kritische Philosophie. In: Cassirer, Das Erkenntnisproblem in der Philosophie und Wissenschaft der neueren Zeit. Bd. 2. 2. Aufl. Berlin 1911. S. 583-762.
- Kroner, Richard: Kants Weltanschauung. Tübingen 1914. 91 S.
- Döring, Woldemar Oskar: Das Lebenswerk Immanuel Kants. Vorlesungen. Lübeck 1916. VII, 197 S. - Neue Ausg. Hamburg 1947. 205 S.
- Marcus, Ernst: Kants Weltgebäude. Eine gemeinverständliche Darstellung in Vorträgen. München 1917. 264 S. - 2. verb. und verm. Aufl. 1920. 270 S.
- Kroner, Richard: Von Kant bis Hegel. Bd. 1. Von der Vernunftkritik zur Naturphilosophie. Tübingen 1921. XIX, 612 S.
- Dünnemann, Eugen: Kant. 2 Bde München 1923-1924. XI, 558; VII 719 S.
- Rickert, Heinrich: Kant als Philosoph der modernen Kultur. Ein geschichtsphilosophischer Versuch. Tübingen 1924. XI, 214 S.
- Boutroux, Emile: La philosophie de Kant. Cours. Paris 1926. 376 S. (Bibliothèque d'histoire de la philosophie).
- Kynast, Reinhard: Kant. Sein System als Theorie des Kulturbewußtseins. München 1928. XI, 229 S.
- Litt, Theodor: Kant und Herder als Deuter der geistigen Welt. Leipzig 1930. VIII, 291 S. - 2. verb. Aufl. 1949. 270 S.
- Knittermeyer, Hinrich: Immanuel Kant. Vorlesungen zur Einführung in die kritische Philosophie. Bremen 1939. 160 S. (Abhandlungen und Vorträge hg. von der Bremer Wissenschaftlichen Gesellschaft. 12, 4)
- Goldmann, Lucien: Mensch, Gemeinschaft und Welt in der Philosophie Immanuel Kants. Studien zur Geschichte der Dialektik. Zürich 1945. 247 S.
- Zocher, Rudolf: Kants Grundlehre. Ihr Sinn, ihre Problematik, ihre Aktualität. Erlangen 1959. 163 S. (Erlanger Forschungen. A, 11).
- Delekat, Friedrich: Immanuel Kant. Historisch-Kri-



## مراجع

- B. Erdmann: Martin Knutzen and seine Zeit, 1876  
- M. von Biéna: Martin Knutzen. Paris, 1908.

## كوزان

## Victor Cousin

فيلسوف اصطفائي فرنسي، ومحقق نصوص يونانية فلسفية.

ولد في باريس في ٢٨ نوفمبر سنة ١٧٩٢. وتعلم في ليسيه شارلمان، ودخل مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٨١١، حيث تأثر ببيير لاروميجير Laromiguière الذي وجهه إلى فلسفة لوك وكوندياك. لكنه ما لبث أن انصرف عنها إلى راوييه كولار P.P. Royer - Collard، الذي كان متحمساً للفلسفة الاسكتلندية؛ ثم إلى مين دي بيران.

وقام بالتدريس في مدرسة المعلمين العليا، ثم صار مساعداً لرواييه كولار في كلية الآداب بجامعة باريس في عام ١٨١٥-١٨١٦.

وسافر إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة الألمانية المعاصرة، والتقى بهيجل وانعقدت بينهما صلة وثيقة، كما تعرّف إلى شلنج وياكوبي، وذلك في عامي ١٨١٧-١٨١٨.

ولما اغتيل دوق دل بري Duc de Berry وحدث رد فعل في فرنسا ضد النزعة الليبرالية، وكان كوزان من أنصارها، فصل من وظيفته مساعداً في كلية الآداب، في سنة ١٨٢٠؛ كذلك أغلقت مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٨٢٢.

ولما زار ألمانيا للمرة الثانية في عامي ١٨٢٤-١٨٢٥ قبض عليه في درسدن بتهمة سياسية وسجن لمدة ستة أشهر تقريباً.

وفي هذه الفترة التي حرم فيها من منصبه، أتم نشر مؤلفات برقلس (١٨٢٠-١٨٢٣) ومؤلفات ديكرارت (١٨٢٤-١٨٢٦)، وبدأ ترجمة لمحاورات أفلاطون (١٨٢٢-١٨٤٠).

وفي سنة ١٨٢٨ أعيد له منصبه في جامعة باريس، وألقى محاضرات في الفلسفة حظيت بنجاح شعبي هائل،

- Cornelius, Hans: Kommentar zu Kants Kritik der reinen Vernunft. Erlangen 1926. VIII, 152 S.

## كنوتسن

## Martin Knutzen

فيلسوف ألماني، كان أستاذاً لكانت.

ولد في كينجسبرج في ١٤ ديسمبر سنة ١٧١٣، وتوفي في كينجسبرج في ٢٩ يناير سنة ١٧٥١.

وصار أستاذاً للمنطق وما بعد الطبيعة في جامعة كينجسبرج سنة ١٧٣٤، ثم أستاذاً لفلسفة الطبيعة والرياضيات في نفس الجامعة. ومؤلفاته تنسم بالتنوع والاصطفاء. وكان من بين تلاميذه كانت، الذي كان يقدره كثيراً كأستاذ. وكان رياضياً وفلكياً كما كان فيلسوفاً، وتأثر خصوصاً بيوتن وفولف. وهو الذي أثار في كانت الاهتمام بالعلم كما وضعه نيوتن.

وفي الفلسفة تأثر بليبتس وفولف، لكنه كان مع ذلك مفكراً مستقل الرأي. فقد اطرح نظرية الانسجام الأزلي التي قال بها ليبتس، وأخذ بنظرية العلية الفاعلية. وتأثيره في كانت إنما كان في الفترة قبل النقدية من تطور فكر كانت.

أما في الدين فكان كنوتسن يميل إلى نزعة التقوى Pietismus. لكن بتأثير فولف عدل كثيراً في رفض اللاهوت الفلسفي أو الطبيعي، الذي كان، أعني هذا الرفض، من الخصائص المميزة لحركة التقوى. وبالجملة فقد حاول المزج بين الروحية التقوية وبين النزعة العقلية عند فولف. وهذا يتجلى في كتابه «برهان فلسفي على حقيقة الدين المسيحي» (سنة ١٧٤٠).

## مؤلفاته

- Philosophischer Beweis von der Wahrheit der Christlichen Religion, 1740.  
«برهان فلسفي على حقيقة الدين المسيحي».  
- Elementa philosophiae rationalis, 1747  
«عناصر الفلسفة العقلية»  
- Systema cousarum efficientium, 1749.



لبلاغته ووضوح عبارته.

وقامت ثورة يوليو في سنة ١٨٣٠ وجاءت ملكية لوي فيليب، وكانت مبادئها تتلاءم مع اتجاهه السياسي، فلقبي الحظوة والنجاح. وأصبح عضواً في مجلس التعليم في سنة ١٨٣٠، وفي الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٨٣١، وفي أكاديمية العلوم الأخلاقية (الإنسانية) والسياسية في سنة ١٨٣٢، وعضواً في مجلس الشيوخ الفرنسي (١٨٣٢) ومديراً لمدرسة المعلمين العليا (١٨٣٤)، ثم صار وزيراً للمعارف في حكومة أدولف تيير Thiers في سنة ١٨٤٠. ولما قام جيزو Guizot بإصلاح كبير في التعليم الابتدائي (سنة ١٨٣٣) استلهم أفكار كوزان، وهو الذي وضع المذكرة التي قدمها جيزو.

ولما سقطت حكومة لوي فيليب في سنة ١٨٤٨ اعتزل كوزان الحياة العامة، وتفرغ للدراسات الفلسفية، ونشر محاضراته، وتحقيق مؤلفات أبيلار (سنة ١٨٤٩-١٨٥٩) وكان قد نشر مؤلفات مين دي بيران (سنة ١٨٤١) ومؤلفات أبيلاردغير المنشورة (سنة ١٨٣٦)؛ وتابع دراساته عن الشهيرات في القرن السابع عشر: «جاكلين بسكال» (سنة ١٨٤٥)؛ «مدام دي لونغفيل» (سنة ١٨٥٣)؛ «مدام دي سابلية Sable (١٨٥٤) و«مدام دي شفريرز ومدام دي هوتفور (سنة ١٨٥٦).

وتوفي في مدينة كان Cannes (الكوت دازور) في ١٣ يناير سنة ١٨٦٧.

#### فلسفته

اتجه كوزان إلى نزعة اصطفاائية eclectisme بين المذاهب والآراء الفلسفية؛ إذ أراد الجمع بين التجريبية الحسية في نظرية المعرفة، وبين الروحية في الدين، لأن الحسية وحدها تؤدي إلى الالحاد والمادية، وكلاهما لا يستطيع أن يعطي الإنسان المبادئ الثابتة التي يمكن أن ترشده في حياته.

وتأثر كوزان بمنهج الاستبطان عند مين دي بيران.

وفي تحليله لوقائع الشعور انتهى كوزان إلى القول بأن الشعور يتضمن عنصرين ضروريين أو لاشخصيين هما: الإحساس والعقل، وعنصراً ممكناً عارضاً أو شخصياً وفردياً هو: الإرادة. ووفقاً لهذا التقسيم الثلاثي للملكات النفس، قسم المشاكل الفلسفية إلى ثلاثة أنواع: مشاكل الحق، مشاكل الجميل، مشاكل الخير. وفي كتابه: «في الحق،

والجميل، والخير» (سنة ١٨٥٣) قال إن هذه المشاكل تتوحد في كل يشعل ما هو صحيح في الإحساس (لوك)، وفي العقل (أفلاطون)، وفي القلب (لكنه لم يذكر فيلسوفاً للقلب). وأجزاء النفس الثلاثة هذه ليست مستقلة بعضها عن بعض: إذ العقل يحتاج إلى الإحساس والقلب؛ والاحساس يحتاج إلى العقل والقلب؛ والقلب يحتاج إلى العقل والاحساس.

أما نزعة الاصطفاائية فتجلى في قوله إن المذاهب الفلسفية المختلفة: الحسية، المثالية، والشك، والتصوف ما هي إلا أوجه متعددة لحقيقة واحدة.

وفي علم الجمال كان كوزان يعتقد في الجمال المطلق. وكان مثله الأعلى في الأعمال الفنية هو تمثال أبولون الموجود في جناح البثديير (في الفاتيكان). ومن رأيه أن الفن ليس محاكاة للطبيعة، ولا دعوة أخلاقية، بل هو «رؤية للامتناهي». وعلى الرغم من أن كل الفنون تستخدم المادة، فإنها تشيع فيها «طابعاً مستسراً يخاطب الخيال والروح، ويخزرها من الواقع، ويسمو بهما-طوعاً أو كرهاً إلى مناطق مجهولة». وهذه المناطق المجهولة هي عالم الله، عالم المثل الأعلى. وقد تأثر، في نظراته الجمالية، بشنكلمن Winckelmann الذي كان هو الآخر يعتقد أن أبولون بثديير هو ذروة الجمال المثالي كله.

لكنه مع ذلك دعا إلى عدم المبالغة في مثالية الأثر الفني، لأن أعمال الفن تخاطب الحواس كما تخاطب القلوب. والمثل الأعلى ينبغي أن يقم لنا في شكل محسوس، وأن يسر مشاعرنا. ومن ثم انتهى إلى القول بأن الشعر هو أعلى الفنون كلها، لأن قوة الكلمات من شأنها أن تنعش الصور والمشاعر والأفكار في نفس الوقت. ولهذا كان الشعر مزيجاً من الملكات الإنسانية كلها.

#### مؤلفاته الرئيسية

- De la Métaphysique d'Aristote, 1835.
- Cours de philosophie professé... pendant l'année 1818... sur le fondement des idées absolues du vrai, du beau et du bien, 1836.
- Cours d'histoire de la philosophie morale au XVIII<sup>e</sup> siècle, 4 vols. 1839-42.
- Des Pensées de Pascal, 1843.
- Leçon sur la philosophie de Kant, 1844.

ولا نعرف تاريخ ميلاده، ولا تاريخ وفاته على وجه التحديد. ولهذا اختلف الباحثون في تقدير تاريخ وفاته: فجعله نلينو حوالي سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م)، وماسينيون بحده سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م)، والشيخ مصطفى عبد الرازق بنهاية سنة ٢٥٢هـ (٨٦٤م) على أساس أن الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ يتكلم عن الكندي على أنه متوفى، لكننا لا نعرف متى توفي الجاحظ على وجه التدقيق. وربما كان أرجح الآراء ما ذكره نلينو وأيله بروكلمن وهو سنة ٢٦٠هـ (٨٧٣م).

وحظي الكندي بالشهرة في عهد خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ = ٨١٣-٨٣٣م)، حتى إن المعتصم اتخذ معلمًا لابنه أحمد، وسيهني الكندي إلى أحمد هذا عدة رسائل. ومن ثم يمكن أن نفترض أن الكندي ولد حوالي سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) في البصرة، حيث كان لوالده ضياع، كما يقول ابن جليل (ص ٧٣)، أو في الكوفة بحسب ما يقول ابن نباتة (شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ١٢٣). وهذا أرجح لأن أباه كان والياً على الكوفة.

ثم ذهب إلى بغداد لإتمام دراسته الفلسفية والعلمية. ويفترض أنه غشي أوساط المترجمين من اليونانية والسريانية إلى العربية، خصوصاً يحيى بن البطريق وابن ناعمة الحمصي.

ولما صار معلماً لأحمد، ابن الخليفة المعتصم بالله (تولى الخلافة من سنة ٢١٨هـ حتى سنة ٢٢٧هـ) صار مرموق المكانة، مما جعله هدفاً للحاسدين. وتآمر ضده محمود وأحمد ابنا موسى بن شاعر، لدى الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ)، فأمر المتوكل بضرب الكندي وسمح لابني شاعر بالاستيلاء على مكتبة الكندي. لكن ظروفًا غير عادية مكنت الكندي من استردادها.

### مؤلفاته

ألف الكندي عدداً هائلاً من الرسائل في مختلف فروع علوم الأوائل: الفلسفة، علم النفس، الطب، الهندسة، الفلك، الموسيقى، التنجيم، الجدل الديني، السياسة. وقد أورد كل من ابن النديم والفقهي وابن أبي أصيبعة ثباتاً بأسماء مؤلفاته. وأقدمها هو ما أورده ابن النديم في «الفهرست» (ص ٢٥٥-٢٦١، نشرة فلوجل، لبيسك سنة ١٨٧١)، ويشتمل على ٢٤١ عنواناً، مصنفة كما يلي:

- Abélard: Ouvrages inédits, 1836;
- Abélard: Opera, 2 vols. 1849- 59
- Jacqueline Pascal, 1845.
- Madame de Longueville, 1853.
- Madame de Sablé, 1854.
- Madame de Chevreuse et Madame de Hautefort, 1856.

### مراجع

- J. Barthélemy - Saint- Hilaire: M. Victor Cousin, sa vie et sa Correspondance, 3 vols., 1895.
- Paul Janet: Victor Cousin et son œuvre, 1885.
- H. J. Ody: Victor Cousin: ein Lebensbild, 1953.

### الكندي فيلسوف العرب

أول ثمرة من ثمار انتقال الفلسفة وعلوم الأوائل اليونانية إلى العالم العربي هي: أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي، الملقب بـ«فيلسوف العرب»، وهو لقب قديم، يذكره ابن النديم في «الفهرست» (ألفه ابن النديم في سنة ٣٧٧هـ = ٩٨٧م)، فيقول: «وسمي فيلسوف العرب» (ص ٢٥٠-٢٢٢، نشرة فلوجل). ويُلد لأصحاب السير أن يذكروا نسبة الطويل حتى يصل إلى يعرب بن قحطان، وربما كان ذلك ليؤكدوا أنه من أصل عربي صريح لاشك فيه<sup>(١)</sup>. وكان أبوه أميراً على الكوفة، ولاء عليها الخليفة المهدي (خلافته ١٥٨-١٦٩هـ) ثم هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ).

(١) راجع عن حياته: (أ) ابن النديم: «الفهرست» ص ٢٥٥-٢٦١. نشرة فلوجل، لبيسك،

سنة ١٨٧٢

(ب) صاعد الأندلسي: «طبقات الأمم» ص ٥١-٥٢. طبعة شيخو،

بيروت، ١٩١٧

(ج) الفقهي: «اختيار العلياء باختيار الحكماء» ص ٣٦٦-٣٧٨، نشرة

بيروت سنة ١٩٠٣

(د) ابن أبي أصيبعة: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ج ١، ص ٢٠٦-٢١٤، القاهرة سنة ١٨٨٢

(هـ) ابن جليل: «طبقات الأطباء والحكماء» ص ٧٣-٧٤، القاهرة

سنة ١٩٥٥

(و) البيهقي: «تكملة صوان الحكمة» ص ٤١، دمشق سنة ١٩٤٦

(ز) أبو سليمان المنطقي السجستاني «صوان الحكمة»، تحقيق عبد

الرحمن بدوي، طهران سنة ١٩٧٤.

الذي هو بالمجاز. مخطوط أياصوفيا رقم ٤٨٣٢ ورقة ٥٥ ب.  
 (٨) رسالة في القول في النفس، المختصر من كتاب  
 أرسطو وأفلاطون وسائر الفلاسفة. مخطوط في المتحف  
 البريطاني برقم ٦٠٦٩ شرقي ورقة ٩ ب - ١١٢؛ والتبويرية  
 بدار الكتب المصرية رقم ٥٥ ص ٦٣ - ٧٦.

(٩) كتاب الحسوف، مخطوط ليدن رقم ٢٠٧٤  
 (١٠) رسالة في أنه (توجد) جواهر، لا أجسام، مخطوط  
 أياصوفيا ٤٨٣٢ ورقة ١٣٤  
 (١١) رسالة في مائة ما لا يمكن أن يكون لا نهاية له،  
 وما الذي يقال لا نهاية له. مخطوط أياصوفيا رقم ٤٨٣٢ ورقة  
 ٥٥ - ٥٥ ب

(١٢) كلام في النفس، مختصر وجيز، المخطوط نفسه  
 ورقة ١٣٤

(١٣) رسالة في الحيلة لدفع الأحران، المخطوط نفسه  
 ورقة ٢٤ - ٢٧ ب.

(١٤) كتاب في الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون  
 والفساد، المخطوط نفسه ورقة ٣٥ - ٣٩

(١٥) رسالة في ماهية النوم والرؤيا، المخطوط نفسه  
 ورقة ٩ - ١١

(١٦) رسالة إلى أحمد بن محمد الخراساني في إيضاح  
 تنامي جرم العالم، المخطوط نفسه ورقة ١٣ - ١٤.

وقد نشر هذه الرسائل أليوتوناجي، وم جويدي،  
 ورتز، وفورلاني، وعبد الهادي أبو ريده، وقمنا نحن بنشر  
 رقمي ٤، ١٣ في كتابنا «رسائل فلسفية»، وستقوم بنشر سائر  
 الرسائل لأن النشرات السابقة بمعزل كلها عن التحقيق  
 النقدي، وستقوم بالتصحيح فيما نورد عنها دون حاجة إلى  
 التنبيه على ذلك في كل موضع.

فلسفته

-١-

تمهيدات

أثبتنا<sup>(١)</sup> بالأدلة القاطعة أن الكندي لم يكن يعرف

(١) راجع كتابنا: «عصر العرب في تكوين الفكر الأوروبي» ص ١٦٤ - ص ١٨٨. ٢٥  
 القاهرة، سنة ١٩٦٧، وكتابنا بالفرنسية La Transmission de la philosophie  
 grecque.... pp. 26 - 32

(أ) في الفلسفة ٢٢ عنواناً؛  
 (ب) في المنطق ٢٠ عنواناً؛  
 (ج) في الكريات ٨ عنوانات؛  
 (د) في الموسيقى ٧؛  
 (هـ) في علم النجوم ١٩؛  
 (و) في الهندسة ٢٣؛  
 (ز) في الفلك ١٦؛  
 (ح) في الطب ٢٢؛  
 (ط) في أحكام النجوم ١٠؛  
 (ي) في الجدل ١٧؛  
 (يا) في علم النفس ٥؛  
 (يب) في السياسة ١٢؛  
 (يج) الاحداثيات (العلل) ١٤؛  
 (يد) الابعاديات (الابعاد) ٨؛  
 (يه) التقديمات ٥؛  
 (يو) الانواعيات (انواع الأشياء الخ) ومتنوعات متفرقة  
 ٣٣.

فلمجموع عند ابن النديم ٢٤١ عنواناً؛ وعند الففطي  
 ٢٢٨؛ وعند ابن أبي أصيبعة ٢٨١.

ولكنكف بذكر ما لا يزال موجوداً منها حتى اليوم،  
 ونقتصر على ما يدخل في ميدان الفلسفة بالمعنى المحدود:

(١) كتاب إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، مخطوط  
 أياصوفيا رقم ٤٨٣٢ (ورقة ٤٣ - ٥٣).

(٢) رسالة إلى أحمد بن المعتصم في الإبانة عن سجد  
 الجرم الأقصى وطاعته لله. المخطوط نفسه ورقة ١٣٢ -  
 ٣٤ ب.

(٣) رسالة في حدود الأشياء ورسومها، المخطوط نفسه  
 ورقة ٥٣ - ٥٤ ب.

(٤) رسالة في العقل، المخطوط نفسه ورقة ٢٢ - ٢٣

(٥) رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج إليه في  
 تحصيل الفلسفة، المخطوط نفسه ورقة ٢٨ - ٣١.

(٦) رسالة إلى علي بن الجهم في وحدانية الله وتناهي  
 جرم العالم، المخطوط نفسه ورقة ٥ - ٦ أ؛ ومخطوط  
 تهران، مجلس، ج ٢؛ ٦٣٤.

(٧) رسالة في الفعل الحق الأول التام والفاعل ناقص

كانت أجساماً ولا أجسام؛ وما لا أجسام <هي>: إما جواهر، وإما أعراض؛ وكان الإنسان هو الجسم والنفس والأعراض، وكانت النفس جوهرًا لا جسمًا، فإنه إذا عرف ذاته، عرف الجسم بأعراضه، والعرض الأول والجوهر الذي هو لا جسم، فإذا علم ذلك جميعاً، فقد علم الكل؛ ولهذا العلة سمي الحكماء الإنسان: العالم الأصغر.

وهذا التعريف يقوم على القول المشهور: «اعرف نفسك بنفسك»، مأخوذاً بمعنى غنوصي مما يجعله يرجع إلى القرون الثاني والثالث والرابع بعد الميلاد. والكندي في موضع آخر («الرسائل» ج ١ ص ٢٦٠ من ٧-٨) يورد هذه النظرية بالتفصيل، وهي التي تقول إن الإنسان في نظر الفلاسفة القدماء، عالم صغير، لأن فيه توجد كل القوى الموجودة في الكل.

٦) والتعريف الأخير للفلسفة هو بحسب جوهرها الخاص: «الفلسفة علم الأشياء الأبدية الكلية: ألياتها ومائيتها وعِلْمُها، بقدر طاقة الإنسان».

وهذا التعريف شبيه بما ورد في المقدمات للشرح الاسكندرانية، وبما أورده أرسطو (في كتاب «ما بعد الطبيعة» م ألفا الكبرى، ص ٩٨٢ أ من ٧-٢٢).

وقد أورد الكندي هذه التعريفات الستة دون أن يرجح أحدها<sup>(١)</sup>.

(١) يورد أبو الفرج بن الطوب في كتابه «تفسير كتاب إسحاق بن فرغوريوس» (طبع بيروت سنة ١٩٧٥ ص ١٧-١٤). الحدود الستة ويقول إن «ثلاثة منها (مقولة) عن فيثاغورس، واثنان عن أفلاطون، واحد عن أرسطو، والحد الأول هو أن الفلسفة هي «علم جميع الأشياء الموجودة بما هي موجودة»، والثاني هو أن «الفلسفة هي علم الأمور الإلهية والانسانية»؛ والحد الثالث هو أن «الفلسفة هي إيتل الحكمة». وهذه الحدود الثلاثة هي لفيتاغورس.

والحد الرابع هو أن «الفلسفة هي معاناة الموت؛ أعني إيتار الموت». والحد الخامس هو أن الفلسفة هي التشبه بالله تعالى بحسب الطاقة الانسانية في علم الحق وفعل الخير. وهذان الحدان هما لأفلاطون.

والحد السادس هو أن الفلسفة هي «صناعة الصنائع وعلم العلوم. وهو الذي حثنا به أرسطو في المقالة الأولى من كتابه «ما بعد الطبيعة».

وهكذا نجد ابن الطيب يذكر هذه الحدود الستة للفلسفة منسوبة إلى أصحابها، مما يدل على أنه فعل ذلك عن مصدر سريالي مباشرة.

لما الكندي فلم ينسبها إلى أصحابها: فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو، مما جعل البعض يتوهم أنها من عنده.

اليونانية. وإنما كان يعتمد على الترجمات التي تمت من السريانية أو اليونانية إلى العربية. ومن مراجعة هذه الترجمات، التي نشرنا معظمها، يتبين لنا أن مصطلحاته قد أخذها كلها من هذه الترجمات نفسها. أما عن إصلاحه لبعض الترجمات (مثل ترجمة «اثولوجيا» التي قام بها ابن ناعمة الحمصي) فتدوره لا يتعدى إصلاح الأسلوب العربي.

#### أ- تعريفه للفلسفة

في رسالته في «حدود الأشياء ورسومها»، أورد الكندي ستة تعريفات للفلسفة، هي:

١- تعريف بحسب الاشتقاق: الفلسفة هي «حب الحكمة، لأن «فيلسوف» هو مرتب من «فيل» وهي «حُب» ومن «سوفيا» وهي الحكمة».

٢- تعريف بحسب تأثيرها: «إن الفلسفة هي التشبه بأفعال الله تعالى، بقدر طاقة الإنسان أرادوا أن يكون الإنسان كامل الفضيلة».

وهو تعريف يرجع إلى أفلاطون («تيتانوس» ص ١٧٦ ب) ويرد في المقدمات الفلسفية إلى بعض شروح الشراح الاسكندرانيين في القرنين الخامس والسادس، مثل شرح أمونيوس على «مدخل» فرغوريوس (Comms. in Aristot., (IV,3).

٣) تعريف للفلسفة «من جهة غايتها»: الفلسفة هي «العناية بالموت؛ والموت عندهم موتان: طبيعي، وهو ترك النفس استعمال البدن؛ والثاني: إماتة الشهوات. وهذا هو الموت الذي قصدوا إليه، لأن إماتة الشهوات هي السبيل إلى الفضيلة، ولذلك قال كثير من أجلة القدماء: اللذة شر. فباضطراب أنه إذا كان للنفس استعمالان: أحدهما جسدي والآخر عقلي، كان مما سمي الناس لذة ما يعرض في الاحساس، لأن التشاغل بالذات الجسدية ترك لا استعمال العقل».

وهذا التعريف مأخوذ هو الآخر عن أفلاطون (فيدون ٦٤ أ).

٤) تعريف من جهة العلة: «صناعة الصنائع، وحكمة الحكم».

٥) تعريف آخر: «الفلسفة معرفة الإنسان نفسه؛ وهذا قول شريف النهاية بعيد القور. مثلاً أقول: إن الأشياء إذا

## بـ معرفة بتاريخ الفلسفة.

كما ورد لنا من رسائل الكندي تين لنا أن معرفته بالفلسفة اليونانية اقتصرته على أرسطو، وألمت إلاماً ضئيلاً بفلسفة أفلاطون، وشملت فلسفة أفلوطين لكن بوصفها فلسفة لأرسطو. فقد كرس رسالة صنف فيها مؤلفات أرسطو، وذكر موضوعاتها بطريقة موجزة جداً. ونراه يذكر أفلاطون في رسالته المختصرة عن النفس، كما أن له رسالة في إيضاح الأعداد المذكورة في محاوره «السياسة» (المعروفة خطأ باسم «الجمهورية») لكن يبدو أن معرفته بمحاورات أفلاطون كانت ضئيلة للغاية، رغم أن محاورات «طيماوس» و«السياسة» و«النواميس» كانت قد ترجمت إلى العربية. أما معرفته بأفلوطين فمن خلال كتاب «أثولوجيا أرسطوطاليس» الذي هو خلاصة موسعة للتساعات الثلاثة الأخيرة (٤-٦) من «تساعات» أفلوطين، لكنها لم تعرف في العالم العربي إلا منحوته لأرسطو.

الكندي متأثر إذن بأرسطو، دون غيره من الفلاسفة اليونانيين، كل التأثر، إلى حد أننا نستطيع أن نرد جماع آرائه وعروضه المنهجية إلى أصولها المباشرة في مؤلفات أرسطو، أحياناً بحروفها، وأحياناً على سبيل التلخيص، أو الشرح، أو التبسيط.

## ٢

## ما بعد الطبيعة

وتأخذ الآن في بيان أجزاء فلسفة الكندي، ونبدأ بما بعد الطبيعة، أو الفلسفة الأولى:

يقول الكندي إن الفلسفة الأولى هي أتبل أجزاء الفلسفة. ذلك أنها علم بالحق الأول، الذي هو علة كل حق. ولهذا فإن الفيلسوف الكامل هو من يتعمق في هذا العلم النبيل الشريف. ذلك أن هذا العلم هو العلم بالعلة، والعلم بالعلة أشرف من العلم بالمعلول، لأننا لا نكتسب علماً كاملاً بالشيء إلا إذا عرفنا علة معرفة كاملة.

وعلم العلة الأولى يسمى عن حق: «الفلسفة الأولى»، لأن باقي الفلسفة مندرج في هذا العلم، إذ هو العلم الأول سواء من حيث المرتبة، ومن حيث اليقين، ومن حيث الزمان. وإذا كان شرف العلم بشرف موضوعه كما يقول أرسطو، فإن علم العلة الأولى هو أشرف العلوم إذ موضوعه

## أشرف موضوع.

وبعد أن يحدد دور ومكانة الفلسفة الأولى على نحو ما قال أرسطو («ما بعد الطبيعة» مقالة ألفا الكبرى ف٢ ص ٩٨٢ أس ١٩٨؛ ألفا الصغرى م ١ ص ٩٩٣ ب ١٩-٢٣) يتوه الكندي بما علينا من دين نحو الأقدمين، الذين كانوا يتكلمون لغة غير لغتنا؛ وعلى الرغم من أنهم لم يبلغوا من الحقيقة إلا مقداراً جزئياً، فإن ما حصلوه، مضافاً إلى ما حصله غيرهم، يكون قديراً لا بأس به من الحقيقة. وعلينا أن نشكر لهم أنهم مكتوناً من المشاركة في ثمار تأملاتهم، وسهلوا لنا الفحص عن المشاكل. ويشيرها هنا إلى ما قاله أرسطو، وإن كان يتجاوز في فهمه نص ما أورده أرسطو. على كل حال، يريد الكندي أن يعبر عن عرفانه لأولئك الذين نطقوا بالحق، إلى أية ملة أو جنس انتسبوا. ذلك لأن من يطلب الحقيقة فعليه أن يتشدها أي وجدها. وهذه المناسبة يهاجم رجال الدين الذين يتجرون في الدين وهم من الدين براء، ولا يظهرون غيرة على الدين إلا للدفاع عن مناصبهم الزائفة التي لم يشغلوها عن استحقاق («الرسائل» ج١، ص ١٠٤). لأنه، كما لاحظ، لا دين لمن يقاوم العلم بالأشياء كما هي. ذلك أن العلم بحقائق الأشياء كما هي تشمل العلم الإلهي، وعلم التوحيد، وعلم الفضائل، وبالجملة: علم كل ما هو نافع. والعلم بهذه الأمور يوصي به الرسل الصالحون الذين بعث الله بهم، لأن هؤلاء يقررون الوهية الله وحده، والسعي نحو الفضائل وتجنب الرذائل. وإلحاحه في توكيد هذا الأمر يدل على أنه إنما يتوجه إلى أعداء للفلسفة اليونانية من بين رجال الدين أو المتكلمين المعاصرين له. وربما كانوا أهل السنة والحنابلة الذين انتصروا في خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ = ٨٤٧-٨٦١م).

ويقرر الكندي ألا يحفل باعتراضاتهم، لأن ما يهمه هو أن يقتاد الجنس البشري إلى الكمال («الرسائل» ج١ ص ١٠٣). يقول: ينبغي ألا نستحي من استحصان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المتبينة.

وبعد أن بين ضرورة الاشتغال بالفلسفة الأولى، راح يتناول مسائلها.

## أ) موضوع الفلسفة الأولى ومنهجها

وليبيان موضوع الفلسفة الأولى يميز الكندي بين نوعين

ب) والأجسام التي تكون المسافات بين نهاياتها متساوية، هي متساوية بالفعل وبالقوة معاً؛

ج) المتناهي لا يكون غير متناهٍ؛

د) إذا أضفنا إلى أحد الأجسام المتساوية جسماً، لكان أكبرها، وسيكون أكبر مما كان قبل إضافة هذا الجسم إليه؛

هـ) إذا اجتمع جسمان متناهيان في المقدار، فإن الجسم الناتج عنهما سيكون متناهياً هو الآخر في المقدار. وهذا صادق على كل جسم، وعلى كل ما له مقدار؛

و) الأصغر بين شيئين متجانسين يعدُّ الأكبر منهما، أو جزءاً من هذا.

فإن كان ما هنا جسم لا متناهٍ، فإنه لو فصل عنه جسم متناهٍ في المقدار، فإن الباقي إما أن يكون متناهياً في المقدار، أو غير متناهٍ في المقدار. فإن كان متناهياً، فإنه إذا أضيف إليه ما فصل منه (وهو متناهٍ في المقدار)، فإن الجسم المؤلف من كليهما سيكون متناهياً. لكنه كان قبل هذا الفصل لا متناهياً. إذن سيكون متناهياً ولا متناهياً في وقت واحد، وهذا متناقض ومحال. أما أن كان الباقي لا متناهياً، فإنه إذا أضيف إليه ما انتزع منه، فإنه إما أن يصير أكبر مما كان قبل هذه الإضافة، أو مساوياً. فإن كان أكبر مما كان، فإن اللامتناهي سيكون أكبر من اللامتناهي. وهذا محال.

وبهذا يثبت أنه لا يوجد جسم لا متناهٍ، وبالتالي لا يوجد مقدار لا متناهٍ بالفعل.

ثم إن الزمان كمية. إذن لا يمكن أن يوجد زمان لا متناهٍ بالفعل. إذن للزمان بداية وسيكون له نهاية.

ومن ناحية أخرى فإن ما يوجد في متناهٍ يجب أن يكون متناهياً أيضاً. مثال ذلك: الحركة، والكمية، والزمان، والمكان، توجد في جسم، فهي متناهية إذن، لأن الجسم متناهٍ.

وإذن فجرم الكل (أي جسم العالم) متناهٍ هو وكل ما يوجد فيه.

ذلك هو البرهان على تناهي جرم العالم، الذي ساقه الكندي في كتابه «إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى».

(١) راجع كتاب «إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى»، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، ج١ ص ١١٣-١١٦.

من الموجود: المحسوس، والمعقول. والأشياء إما كلية، وإما جزئية. فالكلية هي الأجناس بالنسبة إلى الأنواع، وهي الأنواع بالنسبة إلى الأفراد. والأفراد تقع تحت الحواس؛ أما الأجناس والأنواع فلا تقع تحت الحس، وليس لها وجود محسوس، بل تقع تحت العقل.

ولما كانت الموجودات محسوسة ومعقولة، كان البحث عن الحق سهلاً من جهة، عسيراً من جهة أخرى. ومن يرد تصور المعقول على غرار المحسوس، لا يدركه، كما أن الحفايش لا تدرك الموضوعات الواضحة في ضوء الشمس.

ونتيجة هذا أن نقرر أن للموجودات المحسوسة علماً يخصها هو العلم الطبيعي، وللموجودات المعقولة علماً يخصها هو الفلسفة الأولى.

أما المنهج الواجب اتباعه في البحث في الفلسفة الأولى فهو البرهان بالمعنى الدقيق، إذ لا يصلح لها المنهج المستخدم في العلم الطبيعي لأنه غير يقيني.

### ب) اللامتناهي

ثم يتناول الكندي بعض الموضوعات الاسامية في علم ما بعد الطبيعة. ومنها: اللامتناهي.

ويهد لبخه فيه بعرض موجز عن طبيعة الأزلي. يقول في رسالته «في حدود الأشياء ورسومها» إن «الأزلي (هو) الذي لم يكن ليس، وليس يحتاج في قوامه إلى غيره. والذي لا يحتاج في قوامه إلى غيره فلا علة له. وما لا علة له فدائم أبداً» («الرسائل» ج١ ص ١٦٩ س ١٠-١١). والأزلي لا جنس له (ج١ ص ١١٣) وهو لا يفسد، ولا يستحيل، ولا ينتقل إلى التمام (ج١ ص ١١٤) لأنه تام أبداً اضطراراً (الموضع نفسه). والجسم له جنس وأنواع. لكن الأزلي لا جنس له. إذن الأزلي ليس جسماً. وبعبارة أخرى: الجسم لا يمكن أن يكون أزلياً.

وبعد أن أكد الكندي هذه المعاني، ساق برهانه على نحو منطقي منظم، ليبان أن الجسم لا يمكن أن يكون لا متناهياً بالفعل، وإن كان كذلك بالقوة أي بالإمكان.

ومن أجل هذا البرهان يسوق المقدمات التالية التي يرى الكندي أنها قضايا بينة بنفسها:

أ) كل الأجسام، التي ليس واحد منها أكبر من غيره، متساوية؛



أما الطبيعة، («السماع الطبيعي») لأرسطو، فإن قسماً من لوقا قد ترجم نصفه الأول، بينما ترجم ابن ناعمة الحمصي نصفه الثاني، فضلاً عن ترجمة اسحق بن حنين التي نشرناها مع شروح لابن السَّمْح وابن الطيب ومحي بن عدي ومتى (القاهرة في جزئين سنة ١٩٦٤-١٩٦٥).

لكن الكندي- على العكس من أرسطو وبرقلس- استخدم برهانه لإبطال اللامتناهي في إبطال الزمان اللامتناهي، والحركة الأزلية الأبدية.

وهاك برهانه: إذا كان قبل كل فترة من الزمان فترة سابقة، وهكذا إلى غير نهاية، فسيكون هناك زمان لا متناه بين الأزلية واليوم الذي نحن فيه. لكن من المستحيل قطع اللامتناهي. إذن لا يمكن أن يوجد بين الأزلية ويومنا الحاضر لا نهاية. فسيكون ثمّ زمان لا متناه ومنتاه معاً، وهذا خلف وإحالة. كذلك إذا نظرنا إلى المستقبل فإنه سيكون بين يومنا الحاضر وبين الأبدية ما لا نهاية، وإذن سيكون هناك لا متناه متناه، وهذا خلف وتناقض وإذن الزمان ليس لا متناهياً. ومدة العالم إذن ليست لا متناهية.

يقول الكندي: «لا يمكن أن يكون زمان لا نهاية له بالفعل في ماضيه ولا آتیه. فنقول: إن قبل كل فصل من الزمان فصلاً، إلى أن ينتهي إلى فصل من الزمان لا يكون فصل قبله، أعني إلى مدة مفصولة ليست قبلها مدة مفصولة. لا يمكن غير ذلك. فإن أمكن ذلك، فإن خُلف كل فصل من الزمان فصلاً بلا نهاية. فإذن لا ينتهي إلى زمان مفروض أبداً، لأن من لا نهاية في القدم إلى هذا الزمان المفروض فصاعداً في الأزمنة إلى ما لا نهاية، ما يساوي المدة إلى هذا الزمن المفروض. فإن كان من لا نهاية إلى زمن محدود معلوماً، فإن من ذلك الزمن المعلوم إلى ما لا نهاية من الزمان معلوماً، فيكون إذن لا متناهياً وهذا خلف لا يمكن. حوايضاً إن كان لا ينتهي إلى الزمان المحدود حتى ينتهي إلى زمن قبله، ولا إلى الذي قبله حتى ينتهي إلى زمن قبله، وكذلك بلا نهاية وما لا نهاية له لا تقطع مسافته، ولا يؤق على آخرها، فإنه لا يقطع ما لا نهاية له من الزمان حتى ينتهي إلى زمان محدود بتق والانتهاؤ إلى زمن محدود موجود به؛ فليس الزمان فصلاً من لا نهاية، بل من نهاية إضطراراً» («الرسائل» ج١ ص ١٢١-١٢٢).

والزمان كمية متصلة» (الكتاب نفسه ج١ من ١١٩).

ويعالج نفس الموضوع في رسالة «إلى أحمد بن محمد الخراساني في إيضاح تناهي جرم العالم» («الرسائل» ج١ ص ١٨٦-١٩٢) ولكنه يسوق البرهان بطريقة رياضية. كذلك عالج الموضوع نفسه وساق برهاناً مشابهاً في رسالتين أخريين هما: (١) «رسالة في مائة ما لا يمكن أن يكون لا نهاية له وما الذي يقال لا نهاية له» («الرسائل» ص ١٩٤-١٩٦)؛ (٢) «رسالة إلى علي بن الجهم في وحدانية الله وتناهي جرم العالم» («الرسائل» ج١ ص ٢٠٢-٢٠٣).

وبين هذه الرسائل الأربع تكرار أحياناً بحروفه، مما يشير الدهشة، لكن ربما كان السبب في ذلك هو اختلاف من وجهت الرسائل إليهم، مما لم يجد معه حرجاً في التكرار! وإذا تساءلنا الآن عن المصادر اليونانية لكلام الكندي، لوجدناها لدى اثنين:

١- أرسطو في المقالة الثالثة، الفصل الخامس، من كتاب «الطبيعة».

٢- برقلس الأفلاطوني المحدث، الذي أورد ثلاث حجج ضد اللامتناهي بالفعل:

(أ) الحجة الأولى أوردتها في القضية الأولى من «عناصر الثائولوجيا»؛ وخلاصتها: استحالة تصوّر مجموع من لامتناهيات عددية، سيكون بالضرورة أكبر في العدد من اللانهاية. وقد نعى هذه الحجة بالتخصيل في «اللاهوت الأفلاطوني» (المقالة الثانية، الفصل الأول).

(ب) والحجة الثانية وردت في «اللاهوت الأفلاطوني» (٢م ف١)؛ وخلاصتها أن الكثرة المحضة ستكون لا متناهية، وبالتالي لا يمكن معرفتها.

(ج) والحجة الثالثة وردت في «اللاهوت الأفلاطوني» أيضاً (٢م، ف١)؛ وخلاصتها: أن الكون المؤلف من كثرة محضة سيتحطم فيه أساس المعرفة، لأنه يستبعد بالفرض- كل وحدة بين العقل وموضوعاته.

كذلك تطرق برقلس إلى نفس الموضوع في شرحه على محاوره «برميندس» (In Parm. enide (1100, 24ff).

وكتاب «اللاهوت الأفلاطوني» هذا ذكره ابن النديم ضمن مؤلفات برقلس («الفهرست» ص ٢٥٢، س ١٦، نشرة فلوجل)، ولكنه لم يذكر له ترجمة إلى العربية ولا إلى السريانية.



وهذه التقسيمات هي بعينها التي ذكرها أرسطو في كتاب «ما بعد الطبيعة» (مقالة الدلتا، ف٦ ص ١٠١٦ ب ٣٢-١٠١٧).

ويعد أن ساق هذه الأقسام، ناقش كل قسم منها بحثاً عما هو «الواحد» بحق:

(أ) الواحد بحق ليس ذلك الذي يطلق على الألفاظ المشتركة أو المترادفة، لأنه في هاتين الحالتين يدل على أشياء كثيرة؛

(ب) وليس هو المقول بحسب العنصر (الاسطقس)، لأنه يدل أيضاً على عدة أشياء مثل: الباب والسرير من حيث العنصر الذي هو الخشب؛

(ج) وليس هو غير القابل للقسمة، لأن ما لا يتقسم يقال على ما لا يتقسم بالفعل، وما لا يتقسم بالقوة: فالأول هو الذي يصعب جداً تقسيمه، مثل الماس، لكن للماس أجزاء، فهو كثير وليس واحداً.

ويعد اسقاط هذه الأحوال قرر أن الواحد بحق ليس عنصراً، ولا جنساً، ولا نوعاً، ولا فرداً، ولا فصلاً نوعياً، ولا خاصة، ولا عرضاً عاماً، ولا حركة، ولا نفساً، ولا عقلاً، ولا كلاً، ولا جزءاً؛ بل هو الواحد على الإطلاق، وهذا لا يسمح بأية كثرة، ولا تركيب. والواحد الحق ليس مادة، ولا صورة، ولا كماً، ولا ينعت، ولا يتصف بأية مقولة. ولا يتحرك. إنه وحدة محضة. لا يتكرر أبداً، ولا يتقسم مطلقاً. وهو ليس زماناً، ولا مكاناً، ولا موضوعاً، ولا محمولاً، ولا كلاً، ولا جزءاً، ولا جوهرأ، ولا عرضاً.

وهو لا يستمد وحدته من غيره، بل هو الذي يجب الوحدة لكل ما هو واحد. ولا يمكن أن تمتد سلسلة واهبي الوحدة إلى غير نهاية، بل لا بد من التوقف عند واهب أعلى، هو الواحد الحق، الواحد الأول. وكل ما يقبل الوحدة فإنما يستمدّها منه. وعن الواحد تصلر كل وحدة، وكل ماهية. إنه الخالق، والمبدأ لكل حركة<sup>(١)</sup>.

وإذن فالواحد الحق هو الأول، والخالق، والحافظ لكل ما خلق. وهو وحده الجليل بوصف الواحد، وما عداه فلا يقال

وذلك لأن الآن يشمل الماضي والمستقبل، وما بينهما من أن لا يبقى، إذ انه لا يبقى أمام تفكيرنا فيه.

والزمان عنده واحد، لا يختلف باختلاف الأشياء. والزمان ليس الحركة، بل هو عددٌ يعدُّ الحركة<sup>(٢)</sup>، وهذا هو نص تعريف أرسطو للزمان، إذ قال: «الزمان هو عدد الحركة بحسب المتكلم والمتأخر».

### (ج) الواحد

الله واحد. لكن ينبغي أن نحدد بأي معنى نصفه بهذه الصفة. ومن أجل ذلك يدخل الكندي في مناقشة طويلة حول معنى «الواحد» في كتابه «في الفلسفة الأولى» («الرسائل» ج١ ص ١٥٤-١٦٢).

فيقرر أولاً أن «الواحد» يقال: إما بالعرض، وإما بالجوهر أو الماهية.

فهو يقال بالعرض في الألفاظ المشتركة والمترادفة، مثل المدينة والشجرة والسكين فهما واحد من حيث الموضوع الذي يدلان عليه وهو القطعة الحادة من الحديد التي تستعمل للقطع؛ وكذلك الألفاظ المشتركة مثل «العين» بالنسبة إلى كون اللفظ واحداً والمندلولات مختلفة.

ويقال الواحد بالجوهر أو الماهية عن الأشياء ذات الماهية الواحدة، وحيث يقال بحسب أربع أحوال:

(أ) بحسب الاتصال، وهذا يدخل في باب العنصر؛  
(ب) أو بحسب الصورة، وهذا من باب النوع؛  
(ج) أو بحسب الاسم، وهذا من باب العنصر والصورة معاً؛

(د) أو بحسب الجنس، وهذا من باب العنصر.

ولما كان «الكثير» يقال في مقابل «الواحد»، انقسم «الكثير» وفقاً لنفس الأحوال التي انقسم بحسبها «الواحد»، ولكن على نحو عكسي: فهناك كثرة بحسب الانفصال، أو الصورة، أو الجنس، أو النظير<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع رسالة الكندي في الجواهر الحسة، وقد فقد أصلها العربي، وبقيت ترجمتها اللاتينية التي نشرها أليوتاجي A. Nagy في مجموعة «المسلمات في تاريخ اللغة العصور الوسطى» ج١، الكرمانة، مونتريال سنة ١٨٩٧.

(٢) «رسائل الكندي» ج١ ص ١٥٩-١٦٠.

(١) الكتاب نفسه ج١ ص ١٦٠-١٦١.

(٢) الكتاب نفسه ج١ ص ١٦٢.

الموجودات بالفاعلية فعل سبيل المجاز فقط، لأنهم يفعلون بما يفعلون: فالوهم يفعل بالخالق، وما يعمله بفعل بعضهم عن بعض على التوالي: الثاني بالأول، والثالث بالثاني، والرابع بالثالث، الخ.

فالله هو إذن العلة الأولى لكل المعلولات. وهو فعال دائماً، ولا يفعل أبداً.

وهذا الخلق بالعلة الأولى يتم وفقاً لسلسلة تنازلية تبدأ من الله وتترد حتى العالم الذي تحت فلك القمر. لكن النص الذي بين فيه هذه العملية التنازلية مفقود، وهو الجزء الثاني من كتاب «الفلسفة الأولى»، الذي أعلن عنه في نهاية الجزء الأول («رسائل الكندي» ج ١ ص ١٦٢ س ١٥-١٦)، وإليه يشير في مواضع أخرى (مثل: «الرسائل» ج ١ ص ٢٥١، س ٣).

ويمكن أن نفترض أنه تصور هذه العملية على غرار ما عرضت في «أولوجيا» أرسطوطاليس (راجع خصوصاً المير العاش).

لكن الفارق بين الكندي وبين أفلوطين (المؤلف الحقيقي «لأولوجيا» المنحول على أرسطوطاليس) هو أن الكندي، بوصفه مسلماً، تصور الخلق على أنه من العدم، وهو تصور يتناقض مع تصور أفلوطين وسائر الفلاسفة اليونانيين (أفلاطون، أرسطو، الرواقية، الخ) بلا استثناء. ومن هنا نجد الكندي يلجج مراراً في توكيد فكرة الخلق من العدم، ويسميه «الابحاد»، كما يسميه التأسيس<sup>(١)</sup>. فهو يقول: «إن الفعل الحقيقي الأول تأسيس الأيسات عن ليس» («الرسائل» ج ١ ص ١٨٢). ويعرف الإبداع بأنه «إظهار الشيء عن ليس» («الرسائل» ج ١ ص ١٦٥). ويقول عن فعل الله للخلق: «فعله الإبداع هي الواحد الحق الأول» («الرسائل» ج ١ ص ١٦٢).

ولسنا ندري كيف استطاع الكندي أن يوفق بين فكرة الإبداع أو الخلق من العدم هذه، وبين قوله بصدور الأشياء بعضها عن بعض في تسلسل تنازلي!

عليه «الواحد» إلا مجازاً.

ونجد في كلام الكندي ما هنا أصداً لما ورد في «أولوجيا» المنسوب إلى أرسطوطاليس والذي ترجمه ابن تاعمة الحمصي وقام الكندي باصلاح هذه الترجمة لأحد بن المتحصم بالله.

(١) فقد ورد فيه (ص ١١٢ من نشرتنا، القاهرة سنة ١٩٥٥): «الواحد الحق المحض المبسوط المحيط بجميع الأشياء البسيطة والمركبة الذي هو قبل كل شيء كثير، وهو علة آتية الشيء وكثرته، وهو فاعل العدد؛ وليس العدد أول الأشياء كما ظن أناس، لأن الواحد قبل الاثنين، والاثنين بعد الواحد. وإنما كان الاثنان من الواحد، وكانا محدودين، وكان الواحد غير محدود لأن الاثنين من الواحد».

(٢) وورد في ص ١٣٤: «الواحد المحض هو علة الأشياء كلها؛ وليس كشيء من الأشياء بل هو بدء الشيء؛ وليس هو الأشياء، بل الأشياء كلها فيه، وليس هو في شيء من الأشياء، وذلك أن الأشياء كلها إنما انبجست منه وبه ثباتها وقوامها وإليه مرجعها. فإن قال قائل: كيف يمكن أن تكون الأشياء في الواحد المبسوط الذي ليس فيه ثنوية ولا كثرة بجهة من الجهات؟ قلنا: لأنه واحد محض مبسوط ليس فيه شيء من الأشياء. فلما كان واحداً محضاً انبجست منه الأشياء كلها... إن الواحد المحض هو فوق التمام والكمال».

(د) الله

هو العلة الفاعلة للخلق

والكندي مُسلم، فكان طبعياً أن يصف الله بأنه خالق الكون، والعلة الفاعلية لايجاد العالم. وليبان ذلك يميز بين عدة معانٍ للفعل<sup>(١)</sup>، ويبرز منها معنيين:

(أ) الأول هو الفعل الحق والأول وهو فعل الخلق من العدم. ومن الواضح أن هذا النوع من الفعل يختص به الله وحده، الذي هو العلة العليا. وفعله هذا يسمى: الخلق.

(ب) والثاني هو أثر الفاعل فيما انفع.

والفاعل بالمعنى الأول يفعل دون أن يتفعل. ولهذا فإن الفاعل الحق هو الذي يحدث محدثاته دون أن يتفعل. ومن هنا كان الفاعل الحق هو الله، علة الكل. أما وصف سائر

(١) «أيس» هي ضد «ليس». «الأيس» هو وجود الشيء، و«الليس» هو العدم. ومن هنا جاء الفعل: أيس = توجد، والمصدر التأسيس - الإيجاد، الخلق. وتزد هذه الاصطلاحات في ترجمات المترجمين الأوائل (مثل ترجمة ما بعد الطليعة التي قام بها اسطفاث للكندي، ص ٨٧ ف ١٠٤٢ ص ٢٥).

(١) رسائل الكندي ج ١ ص ١٨٢-١٨٤

للفساد، أعني من الأثير...

ويعقد أرسطو فصلاً رئيسياً في كتاب «السماء» (المقالة الثانية، الفصل ١٤) لإثبات كروية الأرض وحججه في هذا على نوعين: نوع يقوم على الرصد والملاحظة وبها يثبت أن الأرض كروية؛ والنوع الثاني يقوم على الاستنباط من مبادئ علم الفيزياء، ويفسر لنا هذه الكروية... ثم يمضي أرسطو إلى إثبات أن مركز الأرض هو مركز العالم... ويحاول أن يثبت أيضاً أن الأرض غير متحركة. وأرسطو يتحدث عن السماء بمعنى أنها الكتل، أو العالم. وهو يبدأ بإثبات أن العالم متناه<sup>(١)</sup>.

وبهذه الآراء كلها قال الكندي، وكل ما فعله أنه ساق براهين رياضية مفصلة أخذها عن بطليموس لإثبات بعض هذه الآراء. فهو في رسالة «في أن العناصر والجرم الأقصى كروية الشكل» يثبت هذا الرأي ببرهان سائق إلى المحال، ينتهي منه إلى تقرير أن «الأرض اضطراباً تكون كرية على وسط الكتل» («الرسائل» ج٢ ص ٥٢)، ويتلو ببرهان على أن سطح الماء كروي أيضاً.

وفي رسالة «في الابانة عن أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة» («الرسائل» ج٢ ص ٤٠-٤٦) بين أن الفلك لا يتصف بأية صفة من صفات العناصر الأربعة سواء في الكيفية، والسرعة والإبطاء، والخفة، والثقيل؛ وأنه ليس بخفيف ولا ثقيل، ولا حار ولا بارد، ولا رطب ولا يابس. وإثبات ذلك يبدأ بأن يجلد أن «الطبيعة هي الشيء الذي جعله الله علّة وسبباً لعلّة جميع المتحركات والسكانت عن حركة». ولما كان الفلك بسيطاً، كانت حركته بسيطة. أما المركب من البساط، فلا بد أن تكون حركته مركبة من حركات ما ركبت منه من الأجرام. «فلما الفلك فإن حركته في موضعه أبداً أيام مدته، لا تقف بته». والعناصر الأربعة وهي: الأرض، والماء، والهواء، والنار متضادة بالحركة، ولهذا فهي متضادة بالكيفيات: إذ النار أسبق الأشياء حركة من الوسط، ولهذا تضاد الأرض «التي هي أسبق الأشياء في الحركة إلى الوسط، بالكيفية الفاعلة الثقل والخفة، إذ النار حارة يابسة، والأرض باردة يابسة... وكذلك ضادّ الهواء الماء بالقوة الفاعلة، إذ ضادّه بالخفة والثقل، واتفقا في

على أننا لا نجد في كل ما تبقى لنا من رسائل الكندي براهين واضحة مفصلة لإثبات وجود الله، وإن أوما إلى ذلك في ثنايا بعض الرسائل (راجع مثلاً «الرسائل» ج٢ ص ٦٢-٦٣).

أما صفات الله فيؤكد الكندي منها: الوحدة، وعدم الاضمحلال، وعدم قابلية التقص بجهة من الجهات وأنه «مبدع الكل، ومميك الكل، ومُحكّم الكل» («الرسائل» ج٢ ص ٦٣).

ولا يقدم الكندي برهاناً عقلياً منظماً لإثبات وجود الله، بل يقتصر على عبارات خطابية عن تدبير العالم كما يظهر من رسالته في «الابانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد».

### ٣

#### العالم

أما رأي الكندي في طبيعة العالم، فقد بقي لنا من رسائله في هذا الموضوع ثلاث هي:

(أ) «رسالة إلى أحمد بن المعتصم في الابانة عن سجد الجرم الأقصى وطاعته لله» («الرسائل» ج١ ص ٢٤٤-٢٦١)

(ب) «رسالة إلى أحمد بن المعتصم في أن العناصر والجرم الأقصى كروية الشكل» («الرسائل» ج٢ ص ٤٨-٥٣).

(ج) «رسالة في الابانة عن أن طبيعة الفلك مخالفة لطبيعة العناصر الأربعة» («الرسائل» ج٢ ص ٤٠-٤٦).

وتمهيداً لعرض رأي الكندي نوجز مذهب أرسطو في العالم. العالم عند أرسطو ينقسم قسمين متباينين يفصل بينهما فلك القمر: قسم تحت فلك القمر هو الأرض وما حولها، وهو يخضع للكون والفساد؛ وقسم فوق فلك القمر أوسع جداً من الأول، ولا يخضع لعوامل الكون والفساد، بل يخضع لنظام ثابت. على أن العالم كله متناه، فليس خارج السماء شيء، ولا يمكن أن يكون خارجها شيء. ولهذا ينكر الخلاء، لأن الخلاء هو المكان الذي ليس فيه جسم... والسماء عند أرسطو كروية... لأنه من بين الأشكال الفراغية تحتل الكرة (أو الفلك) المقام الأول والأسمى. والعالم مؤلف من كرة تطوي في داخلها كل الأجسام الغريبة عن الجوهر السماوي، ومن سلسلة من الأكر (جمع: كرة) الفلكية ذات المركز الواحد (أي أنها متداخلة) ويمس بعضها بعضاً؛ وهذه الأكر (أو الأفلاك) تتألف كلها من الجوهر غير القابل

(١) من مقدمة نشرتنا لترجمة كتاب «أرسطوطاليس: في السماء والأثر العلوية» صفحة ط-١١٦.

الثلاثة الأولى منها، وينتهي إلى الرابع القائل بأن المكان «هو نهاية الجسم الحاوي، التي عندها يتصل بالجسم المحوي» (ويقصد بالجسم الحاوي ما يمكن أن يجرّك حركة نقلة» (ص ٢١٢ س ٥-٧). وينتهي أخيراً إلى التعريف النهائي للمكان بأنه: «النهاية الأولى غير المتحركة للحاوي» (ص ٢١٢ س ٢٠).

عل أن أرسطو يقول بعد ذلك قبيل نهاية هذا الفصل الرابع من المقالة الرابعة (من كتاب «الطبيعة») إنه ولهذا السبب أيضاً يتصور المكان على أنه نوع من السطح أو أنه بمثابة وعاء، أعني حاوياً لشيء. وكذلك المكان يتطابق مع الشيء، لأن النهايات تتطابق مع الشيء ذي النهايات (أو بترجمة أخرى: لأن الحدود تتطابق مع المحدود)<sup>(١)</sup>.

#### الجرم الأقصى أو الفلك

والفلك أو الجرم الأقصى كما يسميه الكندي حي وعائل (الرسائل، ج ١ ص ٢٤٧). وذلك لأن الفلك جسم، وكل جسم إما حي، أو غير حي. فالفلك إما حي، أو غير حي. وكل علة طبيعية هي إما عنصر، أو صورة، أو فاعل، أو غاية من أجلها يفعل الفاعل. والفلك ليس عنصراً للكائنات، لأن العنصر المتكوّن يتحول من صورة إلى صورة؛ لكن الفلك لا يتحول ولا يتغير.

والفلك ليس أيضاً صورة، لأن الصورة لا تنفصل عن العنصر، أما الفلك فمفارق.

والفلك ليس غاية الكون، لأن غاية الكون أمر عارض للجسم.

فلم يبق إلا أن نقرر أن الفلك علة فاعلة لكل ما يكون وهو علة فاعلة قريبة.

والكائن أو الحادث إما متنفّس، أو غير متنفّس. إذن الفلك هو العلة الفاعلة القريبة لكل ما هو حادث وقاسد داخل الفلك.

فالفلك علة فاعلية قريبة للموجود المتنفّس القابل للفساد. إنه هو العلة القريبة للحياة في الجسم الحي المتنفّس<sup>(٢)</sup>.

الرطوبة... وضاد الماء النار بالكيفيتين جميعاً: الفاعلة والمنفصلة، فإن النار حارة وهو بارد، والنار يابسة وهو رطب... وكذلك ضاد الهواء الأرض بالكيفيتين جميعاً، الفاعلة والمنفصلة، فإن الهواء حار رطب، والأرض باردة يابسة، لضادته إياها بالخالين معاً: بالخفة والثقل والسرعة والابطاء» (الرسائل، ج ٢ ص ٤٤).

#### المكان

ويتناول الكندي مسألة «المكان» في كتابه «الجواهر الخمسة» (الباقى لنا في ترجمته اللاتينية التي نشرها أليينو ناجي). فأشار إلى اختلاف الفلاسفة في تحديده «لأنه غامض لطيف: فقال البعض إنه ليس ما هنا مكاناً البتة، وقال البعض الآخر إنه جسم، كما قال أفلاطون؛ وقال بعض ثالث إنه موجود، غير أنه ليس بجسم. أما أرسطو فاليس فقال: إن المكان مشاهد وظاهر fore inveniunt et manifestum».

ويدلي الكندي برأيه فيثبت وجود المكان بالقول بأن زيادة الجسم أو نقصه أو حركته تقتضي وجود حاوٍ يجرى فيه ذلك، وهذا الحاوي يبقى مع فساد المحويات؛ وإذن المكان موجود.

وبعد أن بيّن أن المكان موجود، بيّن أن المكان ليس جسماً، وإنما هو السطح الذي هو خارج الجسم الذي يحويه المكان. والمكان لا يتكوّن من الهيولى ذات الطول والعرض والعمق، بل من الهيولى ذات الطول والعرض دون العمق، والهيولى ذات الطول والعرض دون العمق تسمى سطحاً.

لكننا نجد الكندي في رسالة «في حدود الأشياء ورسومها» يعرف المكان بأنه: «نهايات الجسم، ويقال: هو التقاء أفقي المحيط والمحاط به».

وهكذا يقدم الكندي ثلاثة تعريفات للمكان: (١) «أنه سطح خارج الجسم»؛ (٢) «أنه «نهايات الجسم»؛ (٣) «أنه التقاء أفقي المحيط والمحاط به».

وهو في هذا حائر بين ما أورده أرسطو من احتمالات لتعريف المكان، وذلك حين قال أرسطو إن المكان لا بد أن يكون واحداً من أربعة أشياء: الصورة، الهيولى، المسافة بين النهايات، أو هو النهايات نفسها<sup>(١)</sup>. ويرفض أرسطو صراحة

(١) الكتاب نفسه ٤ ص ٢١١ ب ٢٩-٣٠

(٢) راجع «رسائل الكندي» ج ١ ص ٢٤٧-٢٤٨.

(١) أرسطو: «الطبيعة» ٤ ص ٢١١ ب ٩-٦.

وهذه النفس حين تفارق البدن تعرف كل ما في العالم، ولن يخفى عليها شيء. والدليل على ذلك ما ذكره أفلاطون من أمر كثير من الحكماء الأقدمين الذين تخلصوا من عوارض الدنيا وعرفوا نفوسهم للبحث في الحقائق، فأدركوا المستور، وعرضوا أسرار النفوس. فإن كان الأمر هكذا والنفس لا تزال مرتبطة بالبدن، فكيف بالأحرى تستطيع إذا غادرت البدن وعاشت في عالم الحق حيث نور الله؟ لقد صدق أفلاطون حين عقد هذا التشبيه. ويضيف أفلاطون إن من جعل همه في هذه الدنيا الاستمتاع بأطيب الطعام واللذات الجنسية، فإنه لن يستطيع بنفسه الناطقة أن يصل إلى معرفة هذه الأشياء النبيلة ولن يستطيع التشبه بالله. وأفلاطون هكذا يقول الكندي- يشبه القوة الشهوانية في الإنسان بالخنزير، والقوة الغضبية بالكلب، والقوة الناطقة (العاقلة) بالملك، ويرى أن من استولت عليه القوة الشهوانية فهو كالخنزير، ومن استولت عليه القوة الغضبية فهو كالكلب، ومن استولت عليه قوة النفس المنطقية، ويتجرد للتفكير والبحث عن حقائق الأشياء واكتناه الأسرار هو رجل فاضل قريب من التشبه بالله. ذلك أن صفات الله هي: الحكمة، والقدرة، والعدل، والخير، والجمال، والحق. وفي وسع الإنسان قدر الطاقة، أن يصبح حكيمًا، عادلاً، كريماً، خيراً، حريصاً على الحق والجمال، وهذا يشترك في صفات الله<sup>(١)</sup>.

ويورد الكندي أقوالاً لمن سماه أفسقورس، يقول فيها ان النفس إذا زهدت في الشهوات واستنكفت عن الأدناس، واهتمت بالبحث ومعرفة حقائق الأشياء فلإنها تصير مصقولة، وتتحد بها صورة نور الله، فيعكس فيها نور الله، وتبدو فيها صور جميع الأشياء، كما تتجلى صور المحسوسات في المرآة الصقيلة.

وهذه النفس لا تنام أبداً، لكنها لا تستعمل الحواس إبان النوم. ولو كانت النفس تنام، لما عرف الإنسان ما يراه في الحلم، ولا غيره مما يراه في اليقظة. وإذا بلغت النفس تمام الصفاء، شاهدت في النوم أحلاماً رائعة، وأورت مع النفوس التي تركت أبدانها، ووهبها الله نوره ورحمته؛ هنالك تستشعر لذة دائمة تفوق كل لذائذ الطعام والشراب والفسق، والسمع والبصر واللمس.

ونحن في هذه الدنيا كما لو كنا على معبر يمرّ عليه

والفلك جسم يحدث الحياة في الكائنات التي تحته. وإيجاده لها إما بالضرورة، أو بالمحبة، أو بالقوة.

والجرم الأقصى حيّ أبداً بالفعل، وهو الذي يجب اضطراراً (أي بالضرورة) الحياة للكائنات الحادثة.

ولم يتولد الفلك من شيء آخر بل خلق من العدم. إن الفلك وغير مكّون من غيره، بل مُبدع إبداعاً عن ليس؛ وليس بفساد إلى غيره... (لأن) كل فاسد فإلى ضدّ فساده يفسد، وإنه لا ضدّ للفلك<sup>(٢)</sup>.

والفلك لا يقتدي، ولا يتذوق، ولا يشم، ولا يلمس. لكن له الحاستين النيلتين وهما: السمع، والبصر، إذ بهاتين الحاستين تحصل الفضائل.

ولما كانت الأجرام السماوية حيّة، وما هو حيّ فله الإحساس، وليس للأجرام السماوية من الإحساس إلاّ السمع والبصر، وهما قادران على اقتناء الفضائل، فلا بد من سبب لوجود هذين الحسنيين، لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً أو بدون سبب؛ فهما إذن في الأجرام السماوية كما يكونا علة للعقل والتميز. فالأجرام السماوية (أو الفلكية) لها ملكة التمييز. فهي بالضرورة عاقلة.

لكنها ليست في حاجة إلى قوة غضبية ولا إلى قوة شهوانية، لأنها لا تحتاج إلى الحفاظ على هيئاتها بالكون، ولا التعويض عما يسيل منها، لأنها لا تتغير. فليس لها إذن إلاّ القوة العاقلة (الناطقية) على حدّ تعبيره<sup>(٣)</sup>.

ويتهيئ الكندي إلى القول بأن «الكل» على هيئة حيوان واحد<sup>(٤)</sup>.

-٤-

#### علم النفس

علم النفس عند الكندي متأثر بأرسطو وأفلاطون معاً. وهو يرى أن النفس بسيطة، شريفة، تامة. وجوهرها من الجوهر الإلهي، كما يأتي الضوء من الشمس. والنفس متميزة من البدن، وهي جوهر روحي، إلهي، لأن طبيعتها تنافي كل ما يطرأ على البدن، مثل الشهوات والغضب.

(١) رسائل الكندي، ج ١ ص ٢٥٣.

(٢) راجع رسائل الكندي، ج ١ ص ٢٥٥.

(٣) راجع رسائل الكندي، ج ١ ص ٢٦١.

(٤) راجع الرسائل، ج ١ ص ٢٧٤-٢٧٥.

والأول سمي بذلك لشبهه بالهيولي (المادة)؛ وهو العقل بالقوة عند أرسطو؛ وهو خالٍ من كل تحديد. وليست له صورة، لكن يمكنه أن يتخذ أية صورة. ويبقى طالما كان الإنسان حياً، ويبقى بفنائه.

أما العقل بالملكة أو العقل المستفاد فلم يذكره أرسطو؛ وفيه توجد المبادئ التي هي المعقولات الأولى.

وأعلى هذه العقول الثلاثة العقل الفعّال: إنه مثل النور الذي يضيء لنا المعقولات؛ وبواسطته ينتقل العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل.

أما الكندي فيقسم العقل إلى أربعة أنواع:

- ١- عقل بالفعل دائماً - وهو العقل الفعّال؛
- ٢- عقل بالقوة؛
- ٣- عقل يتقلّب - في النفس من القوة إلى الفعل - وهو العقل بالملكة؛
- ٤- عقل بياني (أو بائن).

ويمكن إدراك الفارق بين هذين النوعين الأخيرين بأن نقول إن العقل الثالث هو الذي اكتسب الملكة، والعقل الرابع هو الذي يمارس ما اكتسب: الثالث مثل الطبيب الذي تعلم الطب لكنه لا يمارسه بالفعل، والرابع مثل الطبيب الذي يمارس مهنة الطب بالفعل. والتفرقة كما هو واضح ضئيلة.

-٥-

### دفع الأحزان

وللكندي رسالة «في الحيلة لدفع الأحزان»<sup>(١)</sup> تندرج في نوع فلسفي أدبي هو: التعزّي بالفلسفة، من أشهر نماذجه رسالة بالعنوان الأخير: «التعزّي بالفلسفة» *de Consolatione Philosophica*، ألفها بوثيوس (حوالي سنة ٤٧٥-٥٢٤ بعد الميلاد) أثناء سجنه وقد كان سياسياً رومانياً وفيلسوفاً وإماماً بالتأمر ضد ثيودوريك، ملك القوط الذي كان يحكم إيطاليا من روما؛ فجرد من منصبه قسلاً في سنة ٥١٠، وسجن في بافيا، ثم أعدم في سنة ٥٢٤ م. وفي هذا الكتاب يجري

المسافرون. ولن يبقى فيها طويلاً. إن مقامنا الحق هو في العالم العلوي الشريف الذي تنتقل إليه النفوس بعد الموت، حيث تكون بقرب الخالق، ونوره؛ وهناك تنعم بنوره ورحمته<sup>(٢)</sup>.

### عمل النفس بعد الموت

وفي مسألة عمل النفس بعد الموت يعتمد الكندي على ما قاله أفلاطون من أن مقام النفس بعد الموت هو من وراء الفلك، في العالم الإلهي، حيث نور الخالق.

لكن لا تذهب كل نفس تترك بدنها فوراً إلى هذا المقام، لأن بعض النفوس تتأدر أبدانها وهي ملطخة بالأدناس. ولهذا فإن بعضها يذهب إلى فلك القمر حيث يقضي هناك فترة من الزمن، فإذا ما تطهّرت وتهدّبت، ترقّت إلى فلك عطارد حيث تمضي فترة من الزمن، فإذا ما تطهّرت ترقّت إلى الفلك الأعلى، وصارت نقية من كل أدناس الحواس. وهناك تصعد إلى عالم العقل، وتتجاوز الفلك الأقصى (السماة الأولى) وتقيم في أشرف عمل. وهناك تعرف كل الأشياء، صغيرها وكبيرها؛ ويكل الله إليها جزءاً من تدبير العالم. وقدرة هذه النفس تصير مشابهة لبعض المشابهة لقدرة الله<sup>(٣)</sup>.

ويتهز الكندي هذه المناسبة ليحث الناس على التطهر من الشهوات الدنية. يقول: «ولا وصلة إلى بلوغ النفس إلى هذا المقام والرتبة الشريفة في هذا العالم وفي ذلك العالم إلا بالتطهير من الأدناس»<sup>(٤)</sup>.

### العقل

للاسكندر الأفروديسي رسالة صغيرة «في العقل»<sup>(٥)</sup> ترجمت إلى العربية وكان لها تأثير هائل في الفلاسفة المسلمين وفيها يقسم العقل إلى ثلاثة أنواع:

١- العقل الهيولاني؛

٢- العقل المستفاد؛

٣- العقل الفعّال.

(١) راجع «الرسائل» ج١ ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) راجع «الرسائل» ج١ ص ٢٧٨.

(٣) «الرسائل» ج١ ص ٢٧٨.

(٤) نشرتها ضمن مجموعة بعنوان: «شروح على أرسطو منظومة في اليونانية» ص ٣١-٤٢، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، سنة ١٩٧١.

(١) نشرها لأول مرة هلسوت رتر ور. فلتسرتباً لمخطوط اباصوقا رقم ٤٨٣٢ ج٢ ورقة ١٢٣. ١٧٦. ولكنها نشرت لاحقاً بالأفلاط. لهذا قمنا بنشرها من جديد في كتابنا: «رسائل فلسفية»، بتنازي، سنة ١٩٧٣، طبعة ثانية، بيروت، سنة ١٩٨٠.



المؤلف حواراً مع الفلسفة فتكشف هذه له عن سرعة تقلب الحظوظ في الدنيا، وعدم أمان أي شيء سوى الفضيلة.

والكندي في رسالته التي وجهها إلى صديق طلب منه أن يضع كتاباً في دفع الأحزان يبدأ بأن يبين أن كل ألم لا يعرف سببه لا يرجى شفاؤه. ولهذا ينبغي بيان سبب الحزن، ليتمكن وصف الدواء منه. ولهذا يعرف الحزن بأنه ألم نفسي ناتج عن فقد أشياء محبوبة أو عن عدم تحقق رغبات مقصودة. وعلى هذا فإن سبب الحزن هو إما فقد محبوب، أو عدم تحقق مطلوب. فلنتظر هل يمكن إنساناً من الناس التخلص من هذين السببين.

من الواضح أن الإنسان لا يستطيع أن يحصل على كل ما يرغب فيه، أو أن يكون مطمئن من فقد محبوباته، لأنه لا دوام لشيء في هذا العالم، عالم الكون والفساد، الذي نعيش فيه. أما البقاء فيوجد بالضرورة في العالم المعقول الذي نستطيع أن نستشرف ببصارتنا إليه. فإن أردنا ألا نفقد محبوباتنا وأن نحقق مطلوباتنا فعلينا أن نتطلع إلى العالم المعقول ونختار فيه محبوباتنا وقيمتنا. حيث نكون واثقين أنه لن يسلبنا قياتنا أحد، ولن تستولي عليه يد أجنبية، ولن نفقد محبوباتنا؛ لأنه لن يطرا عليها آفة، ولن ينالها الموت، ولن تضيع مرغوباتنا، لأن للمرغوبات الفعلية يؤثر بعضها بعضاً؛ أما القيات الحسية فمبنولة لجميع الناس، ومعرضة للمضياع، وليست مطمئن من الفساد والتغير.

وفي سبيل ذلك علينا ألا نرغب إلا فيما هو ميسور لنا، لأن من يطلب ما لا يمكنه أن يناله يطلب ما لا يوجد. وعلينا ألا نأسف على ما بفلت منا. وعلينا أن نطلب إذن ما هو ممكن، إذا لم نجد ما نرغب فيه. ومن يحزن لافتقاره إلى ما هو هالك، لن يفنى حزنه أبداً، إذ سيجد دائماً أنه سيفقد صديقاً، أو محبوباً، وسيفوته مطلوب.

وبعد هذا الاستهلال البليغ، يأخذ الكندي في بيان العلاجات التي بفضلها يمكن دفع الأحزان:

١- أول الأدوية وأسهلها أن يعتبر المرء الحزن ويقسمه إلى نوعين: حزن ناشئ عن شيء يتوقف أمره على إرادتنا، وحزن ناشئ عن شيء يتوقف أمره على إرادة الغير. فإن كان الأمر راجعاً إلينا، فليس لنا أن نحزن، لأننا نستطيع أن نمتنع من السبب في هذا الحزن ونزهد فيه. وإن كان راجعاً إلى الغير، فلما أن نستطيع التوقي منه، أو لا نستطيع. فإن

استطعنا، فعلينا أن نحتمي منه ولا نحزن. وإن لم نستطع، فليس لنا أن نحزن قبل أن يقع، لأنه قد يحدث ألا يقع من فاعل سببه. أما إذا كان حزننا من أمر لم يصيبنا بعد، فنحن نجلب على أنفسنا حزننا لم يدع إليه داع. ومن يحزن يؤذ نفسه؛ ومن يؤذ نفسه يكن أحمق ظالماً. ولهذا يجدر بنا أن نتظر حتى يقع الدافع إلى الحزن وألا نستبقه.

وإذا ما وقع، فعلينا أن نقصر من مدة الحزن ما استطعنا، وألا كان ذلك حمقاً وظلماً.

٢- وثاني الأدوية أن نتذكر الأمور المحزنة التي تعزينا عنها منذ وقت طويل، والأمور المحزنة التي عاناها الآخرون وتعزوا عنها. ثم نعد حالة الحزن الماثلة الآن مشابهة لتلك الأحوال المحزنة الماضية والتي تعزينا عنها. وبهذا نستمد قوة وصبراً.

وبهذه المناسبة ينقل الكندي رسالة بعث بها الاسكندر الأكبر إلى أمه يعزبها وهو على فراش الموت.

٣- وعلينا أن نتذكر أيضاً أن الرغبة في الأ نصاب بشقاء هو كالرغبة في عدم الوجود، لأن المصائب تأتي من كوننا كائنات قانية هالكة. وإذا لم يكن هناك فساد، لم يكن هناك كون؛ فإن أردنا أن ننجو من المصائب، فلنا نريد بذلك ألا يكون هناك كون ولا فساد. وهذا محال.

٤- وعلينا أن نتذكر أيضاً أن ما بين أيدينا مشترك بين الناس جميعاً، وأنه في حوزتنا على سبيل العارية فقط؛ وليس لنا من الحق فيه أكثر مما لغيرنا؛ ومن يملكه إنما يملكه طالما كان في حوزته فقط. ما هو في حوزتنا دائماً هو الخيرات الروحية وحدها، وهي التي يحق للإنسان أن يحزن لفقدتها.

٥- وعلينا أن نتذكر أيضاً أن كل ما نملكه ما هو يملك مشترك هو لدينا بمثابة عارية من أعاره وهو الخالق. فله إذن أن يسترده كلما شاء ليعطيه لإنسان آخر. ولو لم يعطه لمن شاء، لما وصل إلينا أبداً.

وإذا لم يسترد المعبر إلا أحسن ما أعارنا، فهو كريم معنا إلى أقصى درجة. وعلينا أن نسر بهذا غاية السرور لأنه ترك لنا أشرف ما أعارنا، وعلينا ألا نحزن لما استرد. وتلك علامة دالة على حبه لنا وإثارته إلينا.

٦- وعلينا أن نفهم جيداً أنه إذا كان ينبغي الحزن على المفقودات وما لم نحصله، فينبغي أن نحزن أبداً، وفي الوقت



انصرف إلى جمع الأصداف والأحجار، وعادوا مثقلين بها، فلما عادوا إلى السفينة وجدوا من سبقوهم قد احتلوا الأماكن المريحة، فاضطروا إلى شغل أماكن ضيقة، واهتموا بالمحافظة على الأحجار والأصداف التي جمعوها، مما أوقع الهم في نفوسهم. ففريق رابع وأخير توغلوا في المروج والغابات، ناسين سفيتهم ووطنهم، وانهمكوا في جمع الأحجار والأصداف والأزهار، ونسوا وطنهم والمكان الضيق الذي ينتظرهم في السفينة؛ ونادى الملاح على المسافرين، فلم يستطع هذا الفريق الأخير سماع نداءه، ورفق المرساة تاركاً إياهم معرضين للأخطار القاتلة. فبعضهم التهمته الوحوش الكاسرة، والبعض غار في الهوي، وساخ بعضهم في الطين، وبعضهم عضه الأفاعي. وهكذا صاروا جيفاً منتفخة.

وهذا المثل ينطبق على حالتنا في هذه الدنيا! فعلينا ألا نشغل بما يؤدي إلى الأحزان من جمع القنيت والانعكاف على الشهوات، حتى نستطيع أن نجد مكاناً فسيحاً في السفينة التي ستقلنا إلى الوطن الحق، وهو العالم المعقول.

٩- وعلينا أيضاً أن نتذكر أنه ينبغي علينا ألا نكره ما ليس رديئاً، وأن نكره ما هو رديء. فهذا من شأنه أن يحمينا من كثير من الأشياء الحسية المحزنة.

فمثلاً نحن نعتقد أنه لا شيء أسوأ من الموت. لكن الموت ليس شراً، وإنما الشر هو الخوف من الموت، لأن الموت تمامٌ لطبيعتنا. وبدون الموت، لن يوجد إنسان أبداً، لأن تعريف الإنسان هو أنه حيوان عاقل فإن. فلو لم يكن موت، لم يكن إنسان؛ لأنه إن لم يموت، لم يكن إنساناً، ولخرج عن طبيعة الإنسان. والأمر السيء هو ألا تكون ما نحن إياه؛ وبالتالي الشيء السيء هو ألا نموت. وإذن فالموت ليس بشراً.

١٠- وأخيراً يجب أن نتذكر، إذا أحسنا بفقد شيء، ما بقي لنا من قنيت مادية وعقلية، ناسين مفقوداتنا الماضية؛ لأن تذكر ما يبقى لنا يعزينا عما فقدناه.

ومن الحق أن نقول إن من لا يملك الأشياء الخارجة عنه يملك ما يستعبد الملوك، ويتغلب على أقوى أعدائه الجاثمين في داخل نفسه، وهي الشهوات.

تلك خلاصة رسالة الكندي وفي الحيلة لدفع الأحزان. ونحن نجد لها نظائر بعد ذلك في العربية، نذكر منها ثلاثة:

نفسه ألا نحزن أبداً. وهذا تناقض فاضح، لأنه إذا كان سبب الحزن هو فقد القنيت الخارجة عنا، فإنه إذا لم تكن لنا قنيت خارجية لن نحزن لأننا لن نفلدها مادماً لم نملكها. وإذن علينا ألا نملك شيئاً حتى لا نفلده فيكون فقدانه سبباً للحزن. لكن ألا نملك شيئاً هو مصدر دائم للحزن. ولهذا ينبغي أن نحزن دائماً، سواء اقتنينا أو لم نقن. إذن يجب ألا نحزن أبداً، وأن نحزن أبداً! وهذا محال.

لكن علينا أن نقلل من قنيتنا، لنقلل من أحزاننا، مادام قلدها يولد الحزن.

وهذه المناسبة يسوق الكندي حكاية تقول إن نيرون، امبراطور روما، أهدي قبةً عجيبة من البلور؛ فسرها كثيراً ومدحها كثير من الحاضرين، وكان بينهم فيلسوف. فسأله نيرون ربه في القبة فأجاب الفيلسوف قائلاً إنها تكشف عن فقر فيك، وتنبئ بمصيبة ستحدث لك. فقال نيرون: وكيف؟ فقال الفيلسوف: لأنك إن فقدتها، فلا أمل في أن تظهر بمثلها، وهذا يكشف عن حاجة فيك إلى مثلها؛ ولو حدثت لها حادثة أودت بها، لنالك من ذلك شقاء عظيم. ويقال إن هذا ما حدث فعلاً. فقد ذهب نيرون للترهة ذات يوم إلى جزيرة قريبة، وأمر بوضع القبة بين المتاع لكي توضع في حديقته. ففرقت السفينة التي تحملها؛ فكان ذلك سبباً لحزن نيرون.

٧- إن الله لم يخلق مخلوقاً دون أن يزوده بما يحتاج إليه، إلا الإنسان، لأنه وقد زود بالقوة التي بها يسيطر على الحيوان ويحكمه ويوجهه، فإنه يجهل أن يحكم نفسه، وهذا دليل على نقص العقل. وحاجة الإنسان لا تنقضي، مما ينشأ عنه الحزن والهم. ولهذا فإن من يتم باقتناء ما لا يملك من الأشياء الخارجة عنه لا تنقضي غمومه وأحزانه.

٨- وحال الناس في عبورهم في هذا العالم القاني حال خداعة، تشبه حال أشخاص أبحروا في سفينة إلى مكان هو مقامهم. فاقادهم الملاح إلى مرفأ ألقى فيه مرساته للترود بالموثة. وخرج الركاب للترود ببعض الحاجات. فبعضهم اشترى ما يحتاج إليه وعاد إلى السفينة، وشغل مكاناً مريحاً فيها. والبعض الآخر بقوا لمشاهدة المروج ذات الأزهار اليانعة والروائح الطيبة، ووقفوا يستمعون إلى الأطيبار، ثم لم يجاوزوا مكاناً قريباً من السفينة، ثم عادوا إليها بعد أن أشبعوا حاجاتهم، فوجدوا أيضاً أماكن مريحة فيها. وفريق ثالث

ودخل مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩٠٨، وحصل على الاجريجاسيون في الفلسفة، وقام بعدها بالتدريس في ليسيهاث مونلوسن Montluçon، وبورج، واستراسبورج، ولان Laon وأخيراً في ليسي لوي لوجران في باريس. وكلف بالقاء محاضرات في علم الاجتماع في السوربون من سنة ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٥٣.

وقد اشتهر خصوصاً بمصنفاته الفلسفة *Manuel de Philosophie* ويتألف من جزئين: الأول في علم النفس، والثاني في المنطق ومناهج البحث والأخلاق وما بعد الطبيعة. ويمتاز بالوضوح التام، وجودة التقسيم، مع الاستيعاب وإيراد النصوص الجيدة المناسبة. ومن هنا حظي بانتشار منقطع النظير في فرنسا وخارجها. وله في علم الاجتماع مقعدة موجزة، ومعجم صغير. وله أيضاً معجم صغير في الفلسفة. كذلك أصدر «مختارات من الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين» وهو كتاب مكمل للمتن.

كونت

### Auguste Comte

مؤسس الوضعية، والمؤسس الحديث لعلم الاجتماع. ولد في سنة ١٧٩٨ في مونييه (جنوبي فرنسا) من أسرة ملكية وكاثوليكية. تعلم في كلية الهندسة الشهيرة في باريس *L'école Polytechnique* في الفترة من سنة ١٨١٤ إلى سنة ١٨١٦، لكنه قاد حركة احتجاج قام بها الطلاب ضد أحد المدرسين، ففصل من المدرسة، وذهب للإقامة مع أهله فترة من الوقت عاد بعدها إلى باريس، حيث عاش عيشة ضئلاً من إعطاء دروس في الرياضيات، وامتلات نفسه بالترعة إلى الإصلاح، والتقى في سنة ١٨١٨ بسان سيمون، وصار تلميذاً مخلصاً له طوال ستة أعوام في خلالها أحس كونت شيئاً فشيئاً بضرورة أن يستقل بفكره عن فكر سان سيمون، خصوصاً وقد تبين له أن بينهما خلافاً في المنهج والهدف، فحدثت بينهما قطيعة عنيفة. وفي سنة ١٨٢٥ تزوج زوجاً غير سعيد سرعان ما انتهى بالانفصال.

وفي سنة ١٨٢٦ صار يلقي محاضرات في كلية الهندسة عرض فيها مذهبه الوضعي كان يحضرها عدد كبير من رجال العلم. لكنه وقف محاضراته لبضعة أشهر بسبب انهيار عقلي

(١) الأولى «رسالة أفلاطون الحكيم إلى فرفوروس في حقيقة نفي الغم والهم واثبات الزهد، جواباً عن سؤال كان سبق إليه»<sup>(١)</sup>. وقد ورد فيها حكاية القبة، وكلام سقراط الواردان في رسالة الكندي أيضاً. فهل لها أصل مشترك؟ هذا عتمل.

(٢) والثانية «رسالة في تسلية الأحران» تأليف ايليا الجوهري، ولسنا ندري على وجه التحقيق من هو، لكنه عاش على كل حال في العصر الاسلامي، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري وقد نشرها ليفي<sup>(٢)</sup> دلاشيدا، تبعاً لمخطوط في الفاتيكان (برقم ١٤٩٢ عربي).

(٣) والثالثة رسالة «في علاج الحزن» لمسكويه، نشرها شيخوخ<sup>(٣)</sup>.

خاتمة

كان الكندي أول فيلسوف عربي وأول فيلسوف مسلم بوجه عام.

وكان أول من مزج بين الفكر اليوناني والفكر الديني الاسلامي.

وكان واسع الثقافة، بحيث شملت معرفته كل علوم الأوائل، ولا تكاد نجد بين رجال النهضة في أوروبا من يساويه في اتساع المعرفة والتحصيل الفلسفي والعلمي.

كوفليه

### Armand Cuvillier

مؤلف متون فلسفية مفيدة، فرنسي.

ولد في باريس في ٣/١٠/١٨٨٧، وتوفي في باريس في

١٩٧٣

(١) نشرها لأول مرة لويس شيخو في مجلة الشرق، سنة ١٩٢٢، بيروت، اعتماداً على مخطوط جرجس صفا الموجود الآن بالمخزاة النجورية بدار الكتب المصرية. ونشرناها نحن من جديد في كتابنا: «أفلاطون في الإسلام» من ٢٢٥-٢٤٣، طهران سنة ١٩٧٤ استناداً إلى مخطوط لياصوقيا رقم ٤٨٠١ (ورقة ٥٥٤ ب).

(٢) في *Mélanges Égyptologiques* ج ٢ من ٣٤٥-٣٩٧، الفاتيكان سنة ١٩٦٤.

(٣) ضمن مجموعة بعنوان: *Traité inédit d'anciens Philosophes arabes*. 1.

بيروت سنة ١٩١١. 117-144.

أصابه من فرط الاجتهاد.

(ج) والمذهب الثاني (سنة ١٨٥٦).

ومذهب كونت في القسم الأول يتعارض في جوهره مع اتجاهه في القسم الثاني، وهو أمر أدركه تلاميذه وأخلاه عليه، فقال لتريه Littré «إنه استبدل بالمتهج الموضوعي منهجاً ذاتياً»؛ وقال جون استورت مل «إن هذا تحول شاذ غريب في تطور فكر كونت: فبينما والمحاضرات» تحتوي على نظرة سليمة في الفلسفة، مع بعض الأخطاء البارزة، فإن المؤلفات المتأخرة زائفة ومضللة».

وفيما يلي نستعرض أهم آراء كونت:

١- قانون الأطوار الثلاثة:

وتبدأ بما يعرف باسم «قانون الأطوار الثلاثة» وهو القانون الذي حدد كونت وفقاً له تقدم التفكير الإنساني.

يقول كونت في هذا القانون إن تطور التفكير الإنساني قد مر بثلاثة أطوار هي:

١- الطور اللاهوتي ٢- الطور الميتافيزيقي ٣- الطور الوضعي - على هذا الترتيب. وقد شرح هذه الأطوار كما يلي:

١- الطور اللاهوتي: هو بداية التفكير الإنساني، وفيه يفسر الإنسان كل الظواهر بردها إلى أسباب خارقة على الطبيعة، فيقرر أن ثم عللاً خفية فوق طبيعية هي التي تحدث المطر والرعد والزلازل والبراكين ونمو الأشجار وموت الأحياء الخ... وهذه القوى الإلهية يسميها آلهة أو عقاريت أو أشباحاً، الخ. وفي هذا الطور يسعى الإنسان إلى معرفة «الطبيعة الباطنة للموجودات، والعلل الأولى والنهائية لكل المعلومات التي تلقت انتباهه. وهو يربغ إلى المعرفة الكاملة، ويتصور الظواهر على أنها ناتجة عن التداخل المباشر لعوامل خارقة على الطبيعة.

٢- الطور الميتافيزيقي: وهو في نظر كونت مجرد تعديل للطور اللاهوتي، وهما يشتركان في خصائص عديدة. ففي هذا الطور الميتافيزيقي يربغ الإنسان إلى البحث عن العلل الأولى، والوصول إلى معرفة المطلق. لكنه يستبدل في هذا الطور بالعوامل الخارقة على الطبيعة «قوى مجردة يتصور أنها قادرة بنفسها على إحداث كل الظواهر المشاهدة» (محاضرات... ج١ ص ٩).

لكنه استأنف محاضراته بعد إيلاله من هذه النوبة، وأثناء إلقاء هذه المحاضرات في كلية الهندسة كان يطبع ما يفرغ من تأليفه منها، فظهرت في المدة من سنة ١٨٣٠ إلى ١٨٤٢ تحت عنوان: «محاضرات في الفلسفة الوضعية» وهي أعظم أعماله العلمية، وكان يكسب معاشه أساساً كمعلم (أو معيد) في كلية الهندسة هذه ويمتحن فيها. لكن حسد زملائه في هيئة التدريس بتلك الكلية عمل على فصله من عمله فيها. وما أسفل حسد الزملاء خصوصاً في هيئات التدريس بالجامعات! هنالك عاد إلى إعطاء دروس خصوصية في الرياضيات ليكسب منها معاشه الضئيل. لكنه عاش البقية الباقية من عمره غير الطويل على المعونات التي كان يتلقاها من تلاميذه والمعجبين به خصوصاً في إنجلترا، مثل جون استيورت مل وجروت Grote.

وفي سنة ١٨٤٥ وقعت له تجربة غرامية عنيفة مع فتاة تدعى كلوتيلد دي ثو Clotilde de Vaux وانعقدت بينهما علاقات حميمة، سرعان ما انتهت بموتها بعد مرور أقل من عام واحداً! وكانت علاقاتها بريئة طاهرة، لكن العاطفة من جانب كونت كانت مشبوبة إلى أقصى حد. وهذه التجربة الغرامية أثرت كثيراً في تطور فكر كونت نحو مزيد من العاطفية والوجدان شبه الدنيوي والحماسة لحب الإنسانية، كما أنها أحدثت فيها يندوب لونا من الاختلال النفسي فيه.

وتوفي أوجيست كونت في ٥ سبتمبر سنة ١٨٥٧ ودفن في مقبرة الأب لاشيز Père - Lachaise الشهيرة في شمال شرقي باريس.

#### فلسفته

كرس أوجيست كونت حياته كلها لعرض مذهبه في الوضعية. لكنه يمكن تقسيم تطوره إلى قسمين رئيسيين:

١- القسم الأول يتمثل في محاضراته بعنوان: «محاضرات في الفلسفة الوضعية» (في ٦ أجزاء، سنة ١٨٣٠-سنة ١٨٤٢).

٢- والقسم الثاني يتمثل في المؤلفات التالية:

(أ) «التصميم الوضعي» (سنة ١٨٢٩)

(ب) «الوضعية على طريقة السؤال والجواب» (سنة

١٨٥٢)

التيؤ، شأنها شأن كل العلوم الوضعية. يقول كونت: «إن من الممكن التنبؤ بالظواهر الاجتماعية، شأنها شأن الظواهر الأخرى».

وقوام منهج علم الاجتماع أربع وسائل: الملاحظة وهي أساسها كله، والتجربة، والمقارنة ثم المنهج التاريخي، وهو خاص بعلم الاجتماع. ويرى كونت أن التجريب ممكن في علم الاجتماع رغم ما يبدو لأول وهلة من استحالة. وذلك حين يتدخل عامل خاص غير منظور في سير المجتمع، مثل الانقلابات والثورات. أما المقارنة فتم سواء بين المجتمعات الانسانية بعضها وبعض، أو بين المجتمع الانساني أو المجتمع الحيواني لنوع معين من أنواع الحيوان.

لكنه يؤكد خصوصاً أهمية المنهج التاريخي بوصفه «الحيلة العلمية الرئيسية للفلسفة الجديدة الوضعية» (محاضرات، جزء ١ ص ٣٢٢) ذلك لأن دراسة تاريخ المجتمعات البشرية يمكننا من معرفة قوانين الديناميكا الاجتماعية؛ فنلرك الاتجاهات الفزيائية والعقلية والأخلاقية والسياسية التي سيطرت، والاتجاهات المضادة التي ضعف أثرها شيئاً فشيئاً.

ويدافع كونت عن الوضعية ضد ما اتهمها به خصومها من إلحاد، ومادية، وحتمية. فيقول عن التهمة الأولى، الإلحاد، إنها ميتافيزيقية بقدر ما التأليه ميتافيزيقي، لأنه لا يمكن إثبات أحدهما عن طريق المشاهدة. وهو من جانبه يرى أن افتراض إرادة عاقلة هو أمر أكثر معقولة من الإلحاد. لكن ليس لدينا دليل على كلا الموقفين: الديني، والالحدادي. وبالجملة فإن الروح الوضعية ترفض النظر في أصل الأشياء، لأن هذا الأمر يتجاوز نطاق المشاهدة والتجربة.

كذلك يقرر كونت أن اتهام الوضعية بالمادية أمر لا محل له، وإن كان مفهومًا أكثر بسبب اعتناق كثير من أصحاب العلم للمذهب المادي. والسبب في نشوء هذا الاتهام هو أنه لما كان علم الاجتماع سيصبح شيئاً باسائر العلوم الطبيعية، فإنه لما كانت هذه تشغل في ظواهر مادية، فقد ظن أن علم الاجتماع هو الأخير لا يشغل إلا في ظواهر مادية، بينما علم الاجتماع يعني أيضاً بالظواهر الاجتماعية العقلية.

وأخيراً يردّ على الاتهام الثالث: الحتمية القدرية fatalisme بأن يضع تمييزاً حاداً بين القول بأن نظام الطبيعة يخضع لقوانين ثابتة وبين القول بعدم إمكان تعديل الظواهر (فيها عدا

٣- أما في الطور الوضعي فيكتفي الانسان بالمعرفة النسبية، معرفة الظواهر وعلاقتها بعضها ببعض؛ وينبذ تجريدات الميتافيزيقا. فقانون الجاذبية الذي وضعه نيوتن هو نموذج التفسير في الطور الوضعي: إنه يفسر مجموعة هائلة من الظواهر المتنوعة، لكنه لا يقول شيئاً عن «الثقل» و«الجاذبية» كما هما في ذاتيهما، فهذه أمور يمكن أن نتركها لتخيلات اللاهوتيين وتدقيقات الميتافيزيقيين.

## ٢- الفلسفة الوضعية.

وهذا الطور الوضعي هو الذي تمثله الفلسفة الوضعية التي دعا إليها كونت وقد حدّد خصائصها على النحو التالي:

«إن الخاصية الأساسية للفلسفة الوضعية هي النظر إلى كل الظواهر على أنها خاضعة لقوانين طبيعية ثابتة، اكتشافها الدقيق وردّها إلى أقل عدد ممكن هو الهدف من كل جهودنا، في الوقت الذي نعتبر فيه أن البحث عما يسمى بالعلل Causes الأولى أو النهائية هو أمر غير مقبول وخالف من كل معنى» (محاضرات في الفلسفة الوضعية) ج ١ ص ١٦، ط ٢ سنة ١٨٦٤).

وكونت يربغ إلى تطبيق منهج هذه الفلسفة على علوم الجماعات بعامة، وما يسمى بعلم الاجتماع بخاصة: إذ رأى أن العلوم الاجتماعية كانت لا تزال في أيامه في عهد الطفولة، أو فيها يناظر الطورين اللاهوتي والميتافيزيقي بالنسبة إلى تطور الفكر الانساني. ذلك أن حالها اليوم (في أيامه) كحال علم التنجيم بالنسبة إلى علم الفلك، أو علم الصنعة بالنسبة إلى علم الكيمياء. والعقل في هذه المرحلة السابقة على الطور العلمي يكون «مثالياً في السير، مطلقاً في التصور، اعتباطياً في التطبيق». وعلى علم الاجتماع، كي يكون علماً بالمعنى الحقيقي أي الوضعي، أن يقاوم هذه الصفات الثلاث: المثالية، الاطلاق، الاعتباطية. إن عليه أن ينبذ «الأفكار المطلقة» وأن يحدّد همة في التنسيق بين الوقائع الاجتماعية المشاهدة، وتكميل أدوات البحث، وعليه أن يقصر نفسه على ما هو نسبي دون أن يطمح ببصره إلى معرفة الحقيقة الواقعية الحقيقية للكشف عنها. (محاضرات... ج ١ ص ٢١٣-٢١٤، ٢١٦). كذلك ينبغي على علم الاجتماع أن يعيّن حدود العمل السياسي وطبيعته.

ومادام علم الاجتماع سيبحث في تقرير القوانين التي تسير عليها الجماعات في مجتمعاتها، فإنه سيكون في وسعها

تقوم عليه هذه الأخلاق هو: «أن تعيش من أجل الآخرين» *vivre Pour autrui* ويرتبط بها دين جديد هو «عبادة الإنسانية»، معبوده موجود لا يشك فيه أحد، الأوهو: «الإنسان».

ويبين كونت إمكان هذا التحقيق لهدف التاريخ، وهو قانون التقدم بأن يقول: «إن الاستخدام التدريجي لهذا القانون العظيم (= قانون التقدم) قد اقتادنا في النهاية إلى أن نجد، في أمان من كل هوى واعتباط، المثل العام للحضارة الحالية، وذلك بتعيينه الخطوة التي تم بلوغها بواسطة التقدم الاسامي تعيينها بدقة تامة. ومن ثم يتج في الحال التوجيه الضروري للاتجاه الذي يجب فرضه على الحركة المنظمة، كما يصير متسقاً تماماً مع الحركة التلقائية» (محاضرات... ص ٤٣٥).

ويؤكد كونت أن الوضعية هي الكفيلة وحدها بوضع الأساس لاعادة تنظيم المجتمع، كما يؤكد أن الأخلاق في مجتمع المستقبل لا بد أن تقوم على هذه الفلسفة الوضعية.

ونظراً لحتمية اتجاه التطور نحو التقدم فإن كل محاولة لإعاقه سيبه «ستكون بلا جدوى، وعابرة، وبالتالي حافلة بالأخطار» لكن ماذا يعني كونت بـ«التقدم»؟

إنه لا يعني به التقدم المادي وزيادة السعادة كما يتصوره أصحاب مذهب المنفعة، وإنما يعني به: نمو وتطور الطبيعة الإنسانية نفسها. وكونت يؤمن بأن الإنسان في تقدم معنوي مطرد، ويؤمن بوجود «تحمسن مستمر ونمو متواصل». وهذا التقدم يتجلى خارجياً في الكشوف العلمية والاختراعات الصناعية الفنية، وفي تحسن الظروف المعيشية للإنسان، وفي ازدياد الاحكام في تنظيم المجتمع البشري، وفي تزايد عدد السكان في العالم. أما في الجانب النفسي فيقرر كونت أن «تم تحسناً تدريجياً أكيداً، لكنه بطيء جداً، في الطبيعة الإنسانية» كما يؤمن بأن «تم وعمراً مستمراً لقوى الإنسان العقلية ولأنبل الميول في طبيعتنا».

ويؤكد كونت أن تم وحدة اجتماعية هائلة وسرمدية، أعضاؤها المختلفون، أفراداً كانوا أو أمماً، يجمعهم تضامن وثيق وشامل، وهم جميعاً يتضافرون من أجل تحقيق التطور الاسامي للإنسانية. وهذه النظرة البالغة الأهمية والحديثة يجب أن تصبح فيما بعد «القاعدة الرئيسية العقلية للأخلاق الوضعية» (محاضرات... ص ٢٩٣-٢٩٤).

الظواهر الفلكية) بواسطة الانسان. وفي ميدان علم الاجتماع يؤكد كونت أن النزعة الوضعية تدعونا إلى العمل على تغيير مجرى الظواهر الاجتماعية.

### ٣- اصلاح المجتمع والسياسة الوضعية.

وهذا يظهر في دعوى كونت إلى التغيير في حال المجتمع في القرن التاسع عشر. لقد جعل مبداءه هو عبارته المشهورة: «العلم: ومن ثم التنبؤ، التنبؤ: ومن ثم الفعل *Science, d'où Prévoyance, Prévoyance, d'ou action* وهو يريد أن يستخدم هذا العلم الجديد، علم الاجتماع، في تغيير الأوضاع الراهنة آنذاك في فرنسا، بعد الأزمة التي أحدثتها الثورة الفرنسية ولعبراطورية نابليون الأول. وكان المفكرون في فرنسا قد انقسموا إلى فريقين حيال هذه الأزمة بعد مرورها: فريق اليمين ويمثله شاتوبريان، ودي بونالد *Bonald* وجوزف دي ماستر *Joseph de Maistre* وكانوا يرون أن الحل هو الرجوع إلى عهد ما قبل الثورة، أي إلى تحالف الملكية والكنيسة الكاثوليكية. وفي مقابلهم كان فريق يتزعمه فورييه *Fourier* وسان سيمون وغيرهم من أهل اليسار، وكانوا يعتقدون أن النظام القديم (ما قبل الثورة الفرنسية) قد مضى إلى غير رجعة ولا جدوى من إعادته، بل من المستحيل أن يعاد، فطالبوا بنظام اجتماعي سياسي جديد.

وفي إثر هؤلاء جاء كونت فاراد وضع نظام اجتماعي جديد وتشريع لتحقيقه. ورأى أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بالروح الوضعية التي دعا إليها، وبهذا يتم الفلسفة الوضعية بيساسة وضعية.

تقوم هذه السياسة الوضعية على أساس الشعار التالي: الحب هو المبدأ، والنظام هو الأساس، والتقدم هو الغاية: *L'amour pour principe, l'ordre pour base, et le progrès pour but* ذلك أن هناك قانوناً يدفع بالإنسانية إلى التقدم، وما بنو الانسان إلا أدوات لتحقيق هذا التقدم. فمضى ما وعينا هذا القانون، بدلاً من أن نكون مسوقين به عن غير إرادة، استطعنا أن نجعل منه قاعدة لنا موص أخلاقي جديد. وعلينا في المجتمع الوضعي أن نحقق هذا الوعي، وأن نسرع عن هذا الطريق بتقدم الإنسانية وتحقيق هدف التاريخ.

وهذا هو ما عرضه كونت في كتابه «نظام (أو مذهب) الفلسفة الوضعية»، وفيه عدل بعض التعديل تصنيفه السابق للعلوم، بأن أضاف علماً سابعاً هو الأخلاق. والمبدأ الذي

## مؤلفاته

فرنسي .

ولد في ريمون Ribemont (في مقاطعة بيكارديا بشمالي شرقي فرنسا) في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٤٣ . وتوفي في سجنه في ضاحية بور لا رين Bourg - la - Reine (احدى الضواحي الجنوبية الشرقية لباريس) في ٢٩ مارس سنة ١٧٩٤ . وينحدر من أسرة نبيلة عريقة هي أسرة كاريتا Caritat التي اتخذت لقب النبالة: كوندورسيه، نسبة إلى اقطاعية في اقليم الدوفينه Dauphiné في جنوب شرقي فرنسا . وتعلم في مدارس اليسوعيين: أولاً في كلية اليسوعيين في رانس Reims ثم في كليتهم في باريس المسماة كلية نافار Collège de Navare الشهيرة . فكشف في سن مبكرة عن موهبة رفيعة في الرياضيات، مما جعل «أكاديمية العلوم» (احدى أكاديميات فرنسا) تعينه عضواً فيها في سنة ١٧٦٩ وهو في السادسة والعشرين . وفي أثناء عضويته فيها أبدى اصالة بارزة فيما قلم إليها من ابحاث . ودعاه دالمير، احد مؤسسي «الانسكلويديا» إلى المشاركة في تحريرها ثم انتخبته أكاديمية العلوم أميناً دائماً لها في سنة ١٧٧٧ . كذلك انتخب عضواً في «الأكاديمية الفرنسية» في سنة ١٧٨٢، كما صار عضواً في أكاديميات أوروبية أخرى .

وفي سنة ١٧٨٥ نشر كتاباً بعنوان: «بحث في تطبيق التحليل على احتمالات القرارات الصادرة بأغلبية الأصوات»، وهو بحث ممتاز له مكانة بارزة في تاريخ نظرية الاحتمالات وحساب الاحتمالات . وقد ظهرت لهذا الكتاب طبعة ثانية (بعد وفاته) موسعة جداً ومكتوبة بتحرير جديد في سنة ١٨٠٥، تحت عنوان: «عناصر حساب الاحتمالات وتطبيقه على ألعاب الصدفة، وعلى اليانصيب وعلى أحكام الناس» .

وفي سنة ١٧٨٦ تزوج من أخت امانويل دي جروشي الذي سيصبح مارشالاً في اواخر أيام نابليون، وكانت من أجمل فتيات فرنسا في ذلك الوقت، وتدعى صوفي دي جروشي Sophie de Grouchy (سنة ١٧٦٤ - ١٨٢٢) وقد أنشأت لها «صالوناً ادبياً» في «قصر النقود» Hôtel des Monnaies حيث كان يسكن زوجها كوندورسيه بوصفه مفتشاً عاماً لسك النقود . وكان هذا المنتدى الأدبي من أشهر الأندية الأدبية في فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر الخافل بالصالونات الأدبية الممتازة .

- Plan des travaux, «scientifiques nécessaires pour réorganiser la société», in Opuscules de philosophies sociale, 1883.
- Cours de philosophie positive, augmenté d'une préface par E. Littré, 6 volumes, 2<sup>e</sup> édition, 1864.
- «Discours sur l'esprit positif», in Traité philosophique d'astronomie populaire, 1844.
- «Discours sur l'ensemble du positivisme», in Système de politique positive, E.I, 1851.
- Système de politique positive, 4 vols, 1851- 4.
- Catéchisme positiviste, 1852.
- Synthèse subjective, t, I. 1856.
- Lettres à Valat (1815- 1844) 1870.
- Lettres d'Auguste Comte / J. Stuart Mill (1841- 46), 1877.
- Correspondance inédite, 4 vols, 1901- 4.
- Lettres et fragments de lettres, São Paulo, 1926.
- Nouvelles lettres inédites, 1939.
- E. Littré: Auguste Comte et la philosophie positive, 2<sup>e</sup> éd. 1864.

## مراجع

- L. Lévy- Bruhl: La philosophie d'Auguste Comte, J. Stuart Mill: Augste Comte and positivism, 2nded. London, 1866.
- H. Gouhier: La vie d'Auguste Comte, 1931.
- H. Gouhier: La Jeunesse d'Auguste Comte et la formation du positivisme, 3 vols , 1933- 41.
- Maxime Leroy: Histoire des idées sociales en France t. III: D'Auguste Comte à P.J. Proudhon, 1954.

كوندورسيه

**Marie - Jean Antoine de Caritat, Marquis de Condorcet**

رياضي ومصلح ثوري وفيلسوف يدعو إلى التقدم،



عالم الفكر والفلسفة وهو: «مخطط لوحة تاريخية لآلوان تقدم العقل الإنساني» وفي نفس الوقت كتب «وصية والد مهتر الدم إلى ابنته».

ولما ظن أنه مراقب من قبل خصومه فرّ هارباً من البيت الذي اختبأ فيه، وهام على وجهه في الغابات والمحاجر طوال ثلاثة أيام، بعدها دخل ضاحية كلامار (أحدى الضواحي الجنوبية لباريس Clamart) في مساء يوم ٢٧ مارس سنة ١٧٩٤ لكن طلعت كسفت عن هويته، فقبض عليه واقتيد إلى ضاحية بور لا رين Bourg - la - Reine حيث سجن. وفي صباح ٢٩ مارس (سنة ١٧٩٤) وجد ميتاً، إما من الإرهاق، أو بسبب سمّ دسوه له في السجن.

أما زوجته، صوفي، فقد غدرت به بأن طلبت الطلاق منه أثناء اختفائه، وحصلت على الطلاق، وفي نفس الوقت حصلت على حق إرث ممتلكاته التي كانت حكومة روبسبير قد صادرتها!

#### آراؤه الفلسفية

قلنا إن كوندورسيه كان رياضياً في المقام الأول. لكن اهتمامه بحساب الاحتمالات بخاصة، جعل البعض يذهب إلى أن سرّ اهتمامه بهذا الفرع من الرياضيات إنما يرجع إلى اهتمامه بعلم الإنسان اجتماعياً وسياسياً، وحساب الاحتمالات هو أقرب الفروع الرياضية تطبيقاً على الشؤون الإنسانية حيث يسود الاحتمال والصدفة، لا الضرورة والاطراد اليقيني.

لكن الأهمية الفكرية الكوندورسية إنما تقوم على كتابه «مخطط لوحة تاريخية لآلوان تقدم العقل الإنساني» الذي نشر بعد وفاته بعام واحد أعني في ١٧٩٥.

والفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب هي أن العقل الإنساني في تقدم مستمر نحو الكمال التام، وهي فكرة سيكون لها أثر بالغ في المفكرين الفرنسيين خصوصاً، في القرن التاسع عشر وعلى رأسهم ارنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢).

ولإثبات رأيه هذا لجأ إلى التاريخ لبيان تقدم العقل الإنساني باطراد نحو مزيد من الكمال. وقد قصد من هذا «المخطط...» أن يكون بمثابة مدخل سريع يمهد لتاريخ موسّع مفصل للعلوم وتأثيرها في المجتمع. وقد بقيت شذرات

وفي سنة ١٧٨٦ أصدر كوندورسيه كتاباً عن: «حياة ترجمه Turgot».

وفي سنة ١٧٨٩ أصدر ترجمة حياة فولتير. وقد انتشر كلا الكتابين انتشاراً واسعاً، وبكشفاً عن قريحة أدبية فائقة.

ولما قامت الثورة الفرنسية في يوليو سنة ١٧٨٩ خاض غمارها بكل حماسة، على الرغم من أنه كان نبيلاً بدرجة «مركيز» (وهي ثاني أعلى رتبة في الطبقة الأرستقراطية الفرنسية)، خصوصاً وقد كان من دعاة الإصلاح السياسي الجذري منذ وقت طويل، وبشر بآراء الثورة الفرنسية بين رجال الفكر في فرنسا، وكان من أعضاء جماعة «الانسكلوبيديا». فالتجرف بكل اندفاع وحمية وحماسة مع زعماء الثورة الفرنسية في الأمور السياسية العملية، وانتخب نائباً عن باريس في «الجمعية التأسيسية» المكلفة بوضع الدستور، وصار أميناً عاماً لها. وأبدى نشاطاً ملحوظاً في إصلاح نظام التعليم في فرنسا. وكان المحرر الرئيسي للنداء الموجه من رجال الثورة الفرنسية إلى الحكومات الأوروبية في ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩١. وفي ٢١ ثم ٢٢ أبريل سنة ١٧٩٢ قُدم إلى «الجمعية التشريعية» مشروعاً لنظام التعليم، كان هو الأساس في النظام الذي أقر فيما بعد.

وكان كوندورسيه من أوائل الذين نادوا بإعلان النظام الجمهوري في فرنسا ووقف الملك لويس السادس عشر ودعوة «جمعية الميثاق الوطني» La Convention Nationale (وهي الجمعية التأسيسية التي أسست الجمهورية الفرنسية الأولى وحكمت فرنسا من ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩١ حتى ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥). وفي هذه الجمعية (الكونفنتسيون) مثل محافظة الاين Aisne وكان عضواً في اللجنة المكلفة بوضع الدستور. لكن المشروع الذي قدمه في فبراير سنة ١٧٩٣ رفض، بينما أقر المشروع الذي قدمه اليعاقبة Jacobins.

وفي محاكمة لويس السادس عشر صوتت ضد إعدام الملك. وكذلك اعترض على القبض على الجيرونديين Girondins في يونيو سنة ١٧٩٣. كذلك أبدى روحاً مستقلة غير منساقة وراء إرهاب وغوغائية اليعاقبة، فأثار حفيظة هؤلاء عليه وكانت لهم اليد العليا في فترة ما يسمى «حكم الإرهاب» في سنة ١٧٩٣، فأصدروا قراراً بادانته وإهدار دمه. فهرب واختبأ لدى بعض الأصدقاء الذين حشوه على استئناف العمل في كتابه الذي بفضل سبب شهرته عظيمة في



٤-٥- العصران الرابع والخامس: هما العصر اليوناني والروماني.

٦-٧- العصران الخامس والسادس: العصور الوسطى وتنقسم إلى مرحلتين: تنتهي الأولى بانتهاج الحروب الصليبية، وتنتهي الثانية باكتشاف الطباعة في سنة ١٤٥٣.

٨- والعصر الثامن يبدأ من اكتشاف الطباعة ويستمر حتى قيام ديكرت بوضع منهجه الفلسفي الجديد في سنة ١٦٣٧.

٩- والعصر التاسع يبدأ من ثورة ديكرت الفلسفية وينتهي بقيام ثورة سنة ١٧٨٩- الثورة الفرنسية وهي ثورة سياسية وعقلية. ويتميز هذا العصر التاسع باكتشاف طبيعة العالم الفيزيائي بفضل اسحق نيوتن، وتحديد طبيعة المعرفة الانسانية بفضل جون لوك، وكوندياك؛ وطبيعة المجتمع بفضل تروجو Turgot وجان جاك روسو.

١٠- ويتباكوندورسيه بأن العصر العاشر المقبل سيتميز بثلاث خصائص هي:

١- القضاء على عدم المساواة بين الأمم؛

٢- القضاء على التفاوت بين الطبقات؛

٣- تحسن الأفراد. والكمال المتزايد للطبيعة الانسانية هي نفسها: عقلياً وأخلاقياً وجسمانياً.

#### نشرات مؤلفاته

النشرة الأساسية لمؤلفات كوندورسيه هي التي صدرت في باريس في ١٢ مجلداً من سنة ١٨٤٧ إلى ١٨٤٩ تحت عنوان: (Euvres de Condorcet) لكن هذه النشرة لا تحتوي على مؤلفاته الرياضية: ولكنها مزودة ببيان كلي عن مؤلفاته bibliographie صنعها M. F. Arago.

أما كتابه الرئيسي:

Esquisse d'un tableau historique de progrès de l'esprit humain

فقد طبع مرات عديدة، وبعضها طبعات شعبية

#### مراجع

- Franck Alengry: Candorcet, guide de la Revolution Française, théoricien du droit constitutionnel et pré-

مهمة من هذا العمل الضخم، من بينها شذرة تناول اقتراحاً بوضع لغة رمزية لاستعمالها في العلوم- على نحو مشابه لما دعا إليه لبيتس-، ومنها شذرة تعالج موضوع تصنيف العلوم.

ويبين كوندورسيه مراحل تقدم العقل الانساني على النحو التالي:

١- في المرحلة الأولى تحرر العقل من السيطرة العشوائية للبيئة الطبيعية.

٢- وفي المرحلة الثانية يتحرر العقل الانساني من الارتباط التاريخي الذي صنعه لنفسه بنفسه.

وقد ارتكزت آمال كوندورسيه في التقدم الانساني في المستقبل على الشرطين التاليين:

١- الأول هو أنه كان يعتقد أن العقبات التي هددت في الماضي، تقدم الانسان- وهي الارستقراطية والطفليان من ناحية، والجهل والغوغائية والخضوع السياسي من ناحية أخرى- قد قضي عليها أخيراً بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي والسياسي الثوري.

٢- كما كان يعتقد أن اكتشافات علم النفس القائم على الحواس ( كوندياك و مدرسته) قد مكنت من بيان المبادئ الأساسية للعلم الاجتماعي.

كذلك استمد من اعلان حقوق الانسان المبادئ التي ينبغي أن يقوم عليها النظام السياسي الديمقراطي الحر.

ويتميز كوندورسيه العصور التالية في تطور الانسان:

١- العصر الأول: فيه يتجمع الناس في قبائل، وهم يشتغلون إما بالقتل وإما بالصيد، ويحتكمون إلى سلطة عامة فيما بينهم، ويتعلقون بأواصر القرابة والدم.

٢- العصر الثاني: ويسميه عصر الرعاة- فيه تنشأ الملكية ومنها ينشأ عدم التساوي بين الناس، بل وينشأ الرق، ولذلك يتوافر الفراغ لممارسة الشؤون العقلية واختراع الآلات البسيطة جداً.

٣- العصر الثالث: وهو عصر الزراعة: فيه يزداد الفراغ والثراء وتحسن توزيع العمل وتطبيقه، وتحسن طرق المواصلات. ويختراع الحروف الأبجدية في هذا العصر تكون معرفتنا بالتاريخ أوسع وأدق، ويبدأ التاريخ بالمعنى الصحيح.

كان مستقيماً منه، في سنة ١٧٨٠.

### فلسفته

بدأت فلسفة كونديك من فلسفة لوك كما عرضها الأخير في كتابه «بحث في العقل الإنساني»، لكنه تجاوزه فيما بعد في اتجاه النزعة الحسية.

يُميّز كونديك، شأنه شأن لوك، بين الأفكار الصادرة مباشرة عن الإحساسات، وبين الأفكار الناشئة عن التأليف *elaboration* بين الانطباعات الحسية. لكنه تميز عن لوك بكونه عزاً إلى اللغة الدور الحاسم المحدد في تكوين الأفكار. وهذا تخلص من الاعتراض الموجه من الحسين وهو: كيف تدعون أن كل أفكارنا مستمدة من الانطباعات الحسية، بينما لا بد من افتراض «عقل» نشيط كي يمكن الانتقال من الانطباع الحسي إلى الفكرة التأملية؟ إذ يرى كونديك أن اللغة هي التي تؤدي هذا الدور. لقد درس كل أشكال الفكر، وبين علاقاتها باللغة. صحيح أن من الممكن تصور فكر بغير علامات لغوية، لكنه في هذه الحالة سيظل محصوراً في نطاق ضيق جداً من الأفكار، لا يتجاوز الإدراك والتخيل، لكنه لن يبلغ أبداً التجريد والمزج بين الأفكار. والمميز الجوهرى بين الإنسان وسائر أنواع الحيوان هو إنشاء علامات اللغة، التي هي أساس الفكر المجرد والتأملي.

واللغة، في نظر كونديك، اختراع إنساني محض، وليس هبة من الله ولا من الطبيعة. لقد لاحظ الناس، وهم يعيشون في جماعات، ارتباطاً بين الأفعال وبين الإشارات أو الصيحات المستمرة، فوضعوا لغة للفعل سبقت اللغة المنطوق بها. وكان لا بد من عملية تاريخية طويلة تجعل اللغة المنطوق بها الأداة الرئيسية للتعبير والتفاهم، بعد أن كانت اللغة مجرد مساعد للفعل. والعلامات اللغوية اصطلاحية محضة، وليست طبيعية، حتى إن العلاقات بينها وبين الأفكار هي علاقات اعتباطية، أي لا مبرر لها في طبيعة المعنى أو الفكرة المعبر عنها أو الموضوع المسمى. ويقرر كونديك إنه وإن كان فعل الكلام مبادرة إرادية من الفرد، فإن قواعد عمل اللغة مستقلة عن الأفراد.

ومن هنا كان تأثير كونديك في علم اللسانيات المعاصر، إذ تأثر به بريال Bréal الذي تأثر به فرديناند دي سوسير مؤسس علم اللسانيات المعاصر.

curseur de la science sociale. Paris 1904.

- Janine Boniss on : Condorcet, le Philosophe pendant la Révolution Paris, 1926.

- Albreto Cento : Condorcet e l'idea del Progresso: Firenze, 1956.

Gilles. Gaston Granger : la Mathématique Sociale du marquis de Condorcet. Paris, 1956.

### كونديك

#### Etienne Bonnot de Mably de Condillac

فيلسوف جسي فرنسي.

ولد في مدينة جرينوبل في سنة ١٧١٥ من أسرة نبيلة كان منها الكثير من رجال القضاء. تعلم في كلية اليسوعيين في ليون، ثم دخل معهد سان سلبس الديني، وحضر محاضرات في اللاهوت في السوربون ورأس قسيساً في سنة ١٧٤٠، لكنه لم يقم القديس إلا مرة واحدة في حياته.

وعني بتكوين نفسه في الفلسفة بقراءة مؤلفات فلاسفة القرن السابع عشر وفلاسفة عصره، وربطته أواصر الصداقة بكثير من كبار المفكرين والأدباء المعاصرين له مثل ديدرو، وروسو، وديكلو والكثير من المسالمين في تحرير «الانسكلوبيديا».

وفي سنة ١٧٥٨ صار مرثياً لابن دوق بارم Parme، ولاستعماله ألف سلسلة من الكتب الدراسية. ولما عاد إلى فرنسا ١٧٦٧ أخذ في نشر هذه الكتب، ونشرت في بارم في ١٣ مجلداً (١٧٦٩ - ١٧٧٣). ثم انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٧٦٨. وفي سنة ١٧٧٦ نشر كتابه «التجارة والحكومة في علاقة كل منهما بالأخرى»، وكان بمثابة عرض سهل لتطبيقات فرنسوا كينييه وديي يوي دي نيمور الفسيوقراطيين في الاقتصاد، ومفادها أن الزراعة هي أساس الثروة، وأن التجارة يجب أن تكون حرة، وأن العقل الإنساني قادر على اكتشاف القوانين التي تكفل حق كل إنسان في الاستمتاع بشمرة عمله.

وأقصى السنوات الأخيرة من حياته بعيداً عن باريس، إلى أن توفي في دير فلوكس (في بوجنسي Beaugency) الذي

جماع الإحساسات والذكريات والأحكام والبراهين يؤلف ذهن الإنسان.

#### نشرات مؤلفاته

النشرة الأولى لمؤلفاته قام بها أخوه جيربيل برنوي، ابيه دي مابلي Abbé de Mably بالاشتراك مع G. Arnoux وتقع في ٢٣ مجلداً (باريس، سنة ١٧٩٨) تحت عنوان Oeuvres Complètes de Condillac. وأحدث طبعة بعنوان Oeuvres philosophiques صدرت في ثلاثة مجلدات (باريس ١٩٤٧ - ١٩٥١) بتحقيق Georges le Roy. وتذكر أهم مؤلفاته مع تواريخ طبعاتها الأولى:

- Essai sur l'origine des connaissances humaines. Paris, 1746.
- Traité des Sensations, avec: Dissertation sur la liberté. Paris, 1754.
- Traité de animaux, avec: Dissertation sur l'existence de Dieu. Amsterdam, 1755.
- Le Commerce et le gouvernement considérés relativement l'un à l'autre. Amsterdam, 1776.
- La Logique. Paris, 1792.
- La Langue des calculs. Paris, 1798.

#### مراجع

- Baguenault de Puchesse: Condillac, su vic, sa philosophie, son influence. Paris, 1910.
- Georges Le Roy: La psychologie de Condillac. Paris, 1937.
- R. Lefèvre: Condillac. Paris, 1966.
- R. Lenoir: Condillac. Paris, 1924.

#### كوهن (هرمن)

##### Hermann Cohen

فيلسوف ألماني من مؤسسي حركة الكنتية الجديدة في ألمانيا.

ولد في ٤ يوليو سنة ١٨٤٢ في كوسفيج Coswig بناحية أنهلت Anhalt في ألمانيا وتعلم في جامعة برسلاو

وبعد أن جعل كوندياك من اللغة، وهي اصطلاحية، وليست طبيعية، العامل الفعّال في تكوين الأفكار المجردة والتأملية، وجد أنه لا يوجد غير مصدر طبيعي واحد لمعارفنا وملكاتنا: وهو الإحساس. ويشق كوندياك من الإحساس - إما بالاستعداد المباشر أو بالتأليف بين إحساسات ذوات مصادر مختلفة يشق وظائف العقل ووظائف الإرادة. وبدلاً من أن يميز ويفصل بين الوظائف الحسية والوظائف العقلية يبحث كوندياك عن حل في التأليف بين الإحساسات ذوات المصادر المختلفة. فهذا التأليف نتقل من الانفعال الخالص إلى ما نعتقد أنه فعل خاص يقوم به عقلنا. وحدة الإحساس هي الأصل في الانتباه، فما الانتباه إلا هذه الحدة vivacité نفسها وقد تجلت على أساس سائر الإحساسات؛ ومن هذه الحدة وقد تحولت إلى انتباه يمكن اشتقاق كل الوظائف العقلية مثل: الذاكرة، المقارنة، الحكم، التأمل. وكذلك نجد أن الشهوة هي أساس كل تحولات العواطف، التي غايتها القسوى هي الإرادة.

ونتيجة لهذه الآراء قرر كوندياك أن الأنا ما هو إلا تسلسل الإحساسات وتحولاتها. إن الأنا ليس جوهرًا مفكرًا واعياً بذاته، بل هو نتيجة المزج والتأليف بين الإحساسات، وهو التعبير عن تحولاتها في اللغة.

ويبين كوندياك في «مبحث في الإحساسات» كيف تؤدي الانطباعات الحسية (أو تغيرات النفس على حد تعبيره modifications de l'âme) بطريقة أوتوماتيكية، دون إحالته إلى أرواح غير مرئية أو أفكار فطرية، إلى كل العمليات العقلية.

وفي سبيل إيضاح آرائه هذه، افترض تمثالاً من المرمر مركباً في الداخل مثل تركيب الجسم الإنساني، وله عقل خال من أية أفكار، وحواسه كلها مغلقة بحيث يمكن فتحها جميعاً في وقت واحد، وتحليل العلاقات القائمة بين مختلف الإحساسات. وجعل كوندياك أول حسّ يفتح هو حسّ الشم، لأن الرائحة بمأمن من أن تؤخذ على أنها صورة لموضوع خارجي، وإنما هي تغيير في العقل، كما أن الرائحة تتضمن رد فعل انفعالياً هو الاستطابة أو النفور. ومن تجربة استطابة الرائحة، مرتبطة مع الإحساس بالرائحة نفسها، تنشأ الرغبات بعملية مشابهة للطريقة التي بها ينشأ الحكم والبرهان؛ ومن الرغبات الوقتية تنشأ الشهوات الطويلة المدى. وجماع رغباتنا وشهواتنا الدائمة يؤلف إرادة الإنسان، كما أن

والاتجاه الرئيسي في منطق كوهن هو القول بأن المعرفة الإنسانية هي من حيث المبدأ قبلية *a priori* وفي هذا السبيل بين كوهن في كتابه «منطق التجربة المحضة» أن الميتافيزيقا كانت تسمى دائماً إلى البحث في الأصل (التفكير في الأصل - *Denken des Ursprungs*). والبحث في أصل المعرفة يؤدي - في نظر كوهن - إلى الإقرار بأن المعرفة قبلية محض، وهذا يفضي إلى نتيجة ثانية هي أن «الشيء في ذاته» لا يدخل في نطاق المعرفة الإنسانية؛ وبالتالي ينبغي استبعاد البحث فيه.

وفي الأخلاق («أخلاق الإرادة المحضة» سار كوهن في نفس الاتجاه، أي تجاوز كنت من أجل مذهب كنت نفسه. فعرف الأخلاق بأنها علم الفضيلة المحض. وأخذ على كنت أنه لم يستند إلى علم معين لتحديد الأخلاق. ويبحث كوهن عن هذا العلم، فوجده في فقه القانون *Jurisprudence*، لأن الفضيلة الأساسية، كما علمنا أرسطو، هي فضيلة العدل (أو العدالة)، وهذه مجالها العلمي التطبيقي هو فقه القانون؛ ولو لم يوجد قانون قبلي *a priori* للعدالة لما أمكن قيام الفقه الروماني..

واستند كوهن إلى مصدره القبلي هذا للعدالة من أجل وضع مذهبه في السياسة، وهو يستند أساساً إلى فكرة كنت في «التقنين الذاتي» *autonomie*، أي كون الإرادة الانسانية مشرعة لذاتها بذاتها. صحيح أن القوانين الوضعية القائمة لا تجسد هذه الفكرة؛ كما لا تحقق فكرة العدالة المحضة. ولكن هذا هو ما ينبغي أن يحدث في الدولة. ومن هنا أكد الحرية السياسية بكل قوة.

وشغلته مشكلة أخرى، بوصفه يهودياً وعالمياً باليهودية. ذلك أن المؤرخ الألماني المعروف هيرش قون ترتشكه *Heinrich von Treitschke* كتب مقالاً في مجلة «الحوليات البروسية» (حولية سنة ١٨٧٩، العدد رقم ١١) لفت فيه الأنظار إلى كون معظم الكتاب والمفكرين اليهود الألمان معادين للقومية الألمانية وللمسيحية، وطالبهم بوجوب احترام مشاعر الغالبية الألمانية. فأصدر كوهن كتاباً بعنوان «اعتراف في مسألة اليهود» (برلين سنة ١٨٨٠) حاول فيه أن يثبت أن اليهود يتسبون إلى الأمة الألمانية، لا على الرغم من أنهم يهود، وإنما لأنهم يهود! وتحامل لاثبات هذا الزعم الغريب بأن قال إن الألمان هم أمة كنت *Kant*. وزعم أن الشرائع اليهودية، بعد أن طهرها الأنبياء، تتفق مع مذهب كنت ومثاليته الأخلاقية! وراح من أجل تبرير هذه الدعوى الغريبة، يفسر الشرائع

Breslau، ثم في جامعة هله Halle حيث حصل على دكتوراه في الفلسفة في سنة ١٨٦٥. وانتقل إلى برلين حيث نشر عدة دراسات في مجلة علم نفس الشعوب وعلم اللغة. و فقط ابتداء من سنة ١٨٧٠ بدأ يهتم بفلسفة كنت، في نفس الوقت خاض الحركة التي أثرت آنذاك، حول الحساسية المتعالية عند كنت، بين أدولف ترندلنبورج، وكونوفشر Fischer. إذ كان ترندلنبورج يرى أن الزمان والمكان وإن كانا قبليين *a priori* كما يرى كنت، فإنها لا يتسبان إلى الأشياء في ذاتها، وهذا بخلاف ما يراه كنت. وكان من رأي كونوفشر أن هذين التصورين القبليين - الزمان والمكان - لا يتسبان إلى عالم الأشياء في ذاتها كما هو رأي كنت. فكتب هرمن كوهن - وكان تلميذاً لترندلنبورج - مقالاً في المجلة المذكورة (ج-٧، عدد ٣ ص ٢٣٩ - ٢٩٦) انتهى فيه إلى أن ترندلنبورج كان على صواب في نقده لكونوفشر، لكنه كان على خطأ في نقده لكنت. وفي أول كتاب أصدره وعنوانه: نظرية كنت في التجربة (برلين سنة ١٨٧١) بين لماذا خطأ كلا المتناظرين. فقال إنه لحل هذه المسألة ينبغي الجمع بين ما يقوله كنت في باب الحساسية المتعالية وما يقوله في المنطق المتعالي حيث بين كنت أن هذين الشكلين (الزمان والمكان) هما شرطان قبليان للتجربة الممكنة، والتجربة الممكنة هي الموضوع الوحيد للمعرفة القبلي.

وفي السنة التالية (سنة ١٨٧٣) قدم إلى كلية الآداب في جامعة ماربورج رسالة بعنوان: «التصورات التنظيمية في مؤلفات كنت السابقة على المرحلة النقدية» (طبع في برلين سنة ١٨٧٣) - للحصول على منصب مدرس في تلك الكلية، فوافق لانجه، أستاذ الفلسفة، على تعيينه. وبعد ذلك بعامين توفي لانجه *F.A. Lange* وخلا كورسيه فتولاه كوهن في سنة ١٨٧٦. ومن ثم كَوّن ما عرف باسم «مدرسة ماربورج الكتيبة الجديدة».

وفي الفترة ما بين عام ١٩٠٢ وعام ١٩١٢ نشر ثلاثة أجزاء من مذهبه الفلسفي هذا، بعنوانات: (١) «منطق التجربة المحضة»؛ (٢) «أخلاق الإرادة المحضة»؛ (٣) «علم جمال العاطفة المحضة».

وتقاعد هرمن كوهن في سنة ١٩١٢ من جامعة ماربورج. لكنه تولى بعد ذلك تدريس الفلسفة اليهودية في المعهد الحر لعلم اليهودية في برلين، إلى أن توفي في برلين في ٤ أبريل سنة ١٩١٨.

(= كلب حقيقي). وأيد هذه التسمية فيوجانس وأتباع المدرسة المتأخرون بإزدهارهم للعبادات المتبعة واحتقارهم للجاه والوجاهة، وبما أظهره من زهد في الحياة واستمتاع باجتلاب اللوم. وإن كان هناك رأي يقول إن الكلمة نسبة إلى *κυνόσκιπρος* (اسم ميدان في أثينية) وهو أمر محتمل خصوصاً بالنسبة إلى أنطستانس.

ومؤسس المدرسة أنطستانس بدأ بأن تتلمذ على جورجياس، ثم تتلمذ على سقراط، وبعد وفاة سقراط أخذ يعلم في مدرسة كينوسارجس. وخلاصة رأيه أن الفضيلة هي الخير الأوحده؛ وتحتاج السعادة إلى شيء غير الفضيلة. أما المتعة فشر إذا قصد إليها غاية. لكن ما الفضيلة؟ الفضيلة هي القناعة. وليس ثم غير فضيلة واحدة، ويمكن تعليمها وتعلمها؛ فإذا اقتناها المرء لم يعد من الممكن القضاء عليها. ولا تحتاج الفضيلة إلى الكلام الكثير، بل إلى القوة السقراطية. ومن يملك الفضيلة حكيم. ومن عدا مالكي الفضيلة فليسوا حكماء.

وفي نظرية المعرفة يعارض أنطستانس نظرية الصور الأفلاطونية؛ ولا يعترف إلا بأحكام الهوية.

وأشهر تلاميذه هو فيوجانس السينوي، الذي صار نموذج الكلي، وبطلا لأسطورة واسعة الانتشار عن خصائص مسلك الكلي. وتعلم عليه مونيموس، وأونيسكريتوس، وفيليسكوس، وكراتس الشبي الذي بفضل انضمام إلى هذا المذهب كل من هيرخيا وأخيها متروكلس. وكان لهذا الأخير تلاميذ عديدون، مباشرون وغير مباشرين، ذكر لنا فيوجانس (٩٥) أسماءهم، وهذا نستطيع أن نتابع أنصار المدرسة الكلية حتى نهاية القرن الثالث، حيث اختفت المدرسة تماماً.

### أنطستانس

ولست لدينا معلومات وثيقة عن حياة أنطستانس، مؤسس المدرسة. ولا بد أنه كان يعيش شيخاً في سنة ٣٦٦ ق. (ديودورس الصقلي ١٥ : ٧٦). أبوه من أثينا، أما أمه فيذكر فيوجانس اللاثريسي (١ : ٦) أنها من تراقيا. وهذا هو السبب فيما يقال في أنه اقتصر على ميدان كينوسارجس لأنه المكان الوحيد الذي كان مسموحاً به لغير كامل صفة المواطن الأثيني. وفي هذا الميدان أو الحي - كانت عبادة هرقل، الذي مجده الكليون أعظم تمجيد.

اليهودية وتعاليم الأنبياء اليهود على ضوء مذهب كنت! وبالغ في هذا السبيل مبالغة لم يقرأها حتى المفكرون اليهود أنفسهم. وقد جمع كتاباته في هذا الموضوع Bruno Strauss وطبعت في برلين سنة ١٩٢٤ (في ثلاثة مجلدات) مع مقدمة كتبها Franz Rosenzweig. كذلك كشف كوهن عن ميول نحو الماركسية إلى حد أن اتهمه البعض بأنه حاول التقريب بين أمانويل كنت وكارل ماركس!

### اهم مؤلفاته

- Kantes Theorie der Erfahrung, Berlin, 1871.
- Die systematischen Begriffe in Kants vorkritischer Schriften. Berlin, 1973.
- Die Logik der reinen Erfahrung. Berlin, 1902.
- Kants Begründung der Ethik. Berlin, 1877.
- Ethik des reinen Willens.
- Aesthetik des reinen Gefühls. Berlin, 1912.
- Cohens Jüdische Schriften, 3 vols. Berlin, 1924.

### مراجع عنه

- Ernst Cassirer: «Hermann Cohen», in *Social Research*, vol. 10, n. 2 (1943, pp. 219-232).
- Walter Kinkel: Hermann Cohen. Einführung in sein Werk. Stuttgart, 1928.
- Paul Natorp: Hermann Cohen als Mensch, Lehrer, und Forscher. Marburg, 1918.
- Rasmann T. W. Religion of Reason, Hermann Cohen's System of Religious Philosophy. New York, 1936.
- Wüillemin, J.: L'«Héritage Kantien», Paris, 1954.
- S.H. Bergmann: «Hermann Cohen» Between East and west (1958).

### الكليون

سميت هذه المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى «الكلب» *κύνος*، مما يدل على أن الاسم لا بد أن يكون من وضع أحد خصومها سخرياً منهم. ويذكر فيوجانس اللاثريسي (٦ : ١٣) أن مؤسس المدرسة، أنطستانس لقب بلقب «*ἀπλοκύνω*»

- والمجلد الرابع يشمل:
- (٢٠) «فورس»  
(٢١) «هرقل الأكبر، أو في القوة»
- والمجلد الخامس يشمل:
- (٢٢) «فورس، أو في السيادة»  
(٢٣) «أسباسيا»
- والمجلد السادس يشمل:
- (٢٤) «الحقيقة»  
(٢٥) «في الجدل: متن في المجادلات»  
(٢٦) «ساتون، أو في المناقضة» ثلاث مقالات  
(٢٧) «في المحادثة»
- والمجلد السابع يشمل:
- (٢٨) «في الترية، أو في الأسماء» خمس مقالات  
(٢٩) «في استعمال الأسماء: كتاب مساجلة»  
(٣٠) «في السؤال والجواب»  
(٣١) «في الرأي والمعرفة» أربع مقالات  
(٣٢) «في الموت»  
(٣٣) «في الحياة والموت»  
(٣٤) «في الساكنين العالم السفلي»  
(٣٥) «في الطبيعة» مقالاتان  
(٣٦) «مشكلة تتعلق بالطبيعة» مقالاتان  
(٣٧) «الآراء، أو المجادل»  
(٣٨) «مشاكل تتعلق بالتعليم»
- والمجلد الثامن يشمل:
- (٣٩) «في الموسيقى»  
(٤٠) «في المفسرين»  
(٤١) «في هوميروس»  
(٤٢) «في الشر والفجور»  
(٤٣) «في كلخاس»  
(٤٤) «في الرائد»  
(٤٥) «في اللثة»
- والمجلد التاسع يشمل:
- (٤٦) «في أودوسيوس»  
(٤٧) «في عصا الساحر»  
(٤٨) «أثينا أو في تليماخوس»  
(٤٩) «في هيلانه ونيلوپه»

بدأ أنطستانس تعليمه بأن حضر دروس جورجياس السوفسطائي وكان لهذا تأثيره في الطريقة الخطابية التي صاغ بها أنطستانس محاوراته. وقد بقي لنا من كتاباته الخطابية رسالتان هما: «أيلس» و«أودوسيوس»، ولا عمل للشك في صحة نسبتها إليه، بينما فقدت له رسالة أخرى خطابية أورد اسمها ذيوجانس اللاترسي على رأس ثبت مؤلفاته بعنوان: «في القول والخلق».

واشتغل أنطستانس معلمًا للخطابة زمانًا، ثم تعرف إلى سقراط وأعجب به أعجابًا كبيرًا، إلى حد أنه نصح تلاميذه بأن يكونوا زملاءه في التلمذة على سقراط (ذيوجانس اللاترسي، ٢:٦) وهكذا انتقل من الخطابة إلى الفلسفة، ولكن في سن عالية.

ويقول لنا اللاترسي إن كتيبه حفظت في عشرة مجلدات:

الأول يشمل:

- (١) «رسالة في التعبير أو أساليب القول»  
(٢) «أيلس، أو قول أيلس»  
(٣) «أودوسيوس أو في أودوسيوس»  
(٤) «دفاع عن أوسطس، أو في الكتاب الشرعيين»  
(٥) «الكتابة التشابيهة» أو «لومياس وإيسقراطيس»  
(٦) «رد على خطبة إيسقراطيس بعنوان: بغيرشهود»

والمجلد الثاني يشمل:

- (٧) «في طبيعة الحيوان»  
(٨) «في انجاب الأولاد أو في الزواج؛ بحث في الحب»  
(٩) «في السوفسطائية»  
(١٠) «في العدالة والشجاعة»: مواعظ في ثلاث مقالات  
(١١) «في ثيوجنيس»

والمجلد الثالث يشمل:

- (١٢) «في الخير»  
(١٣) «في الشجاعة»  
(١٤) «في القانون، أو الجمهورية»  
(١٥) «في القانون، أو الخير والعدل»  
(١٦) «في الحرية والاستعباد»  
(١٧) «في العقيلة»  
(١٨) «في الحارس، أو في الطاعة»  
(١٩) «في النصر: بحث في تدبير المنزل»

أبنة ما خلا ما يقال بالقول الخاص الذي للواحد من الواحد»  
ويشرح ابن رشد هذه العبارة فيقول: «يريد (أي أرسطو)  
ولذلك كان يرى فلان (= أنطستانس) أنه لا ينبغي أن يجد  
شيء أبنة، ولا أن يدل عليه إلا بلفظ واحد يدل منه على  
معنى واحد، لأنه يرى أنه الصلوق لواحد مع واحد. فإذا ليس  
تصلق أصلاً حدود المعاني العامة على الخاصة».

وتفسير العبارة الأولى: «ليس لأحد أن يتناقض» هو  
أنه إذا كان الكلام عن شيء فإنه فوق قول خاص به، بحيث  
أنه إذا كان القول عنه حقاً فلا محل للتناقض؛ وإما أن يكون  
الكلام عن شيء آخر ولا محل هنا أيضاً للتناقض. وبعبارة  
أخرى: لكل شيء اسم واحد خاص به، فإن استعمل نفس  
الاسم فلا تناقض؛ وإن استعمل اسم آخر فهو يدل على  
شيء آخر لا على نفس الشيء، فلا تناقض أيضاً.

وتفسير العبارة الثانية واضح من كلام ابن رشد: لا  
ينبغي أن يجد شيء أبنة ولا أن يدل عليه إلا بلفظ واحد يدل  
على معنى واحد، وعلى هذا فلا اسم يدل إلا على مسمى  
واحد. وعلى هذا فلا كلي، لأن الكلي - المزعوم في نظره - هو  
المقول على كثيرين مختلفين في النوع؛ ولكن لا شيء يقال على  
كثيرين، إذن فلا كلي أبداً.

وبهذا يرى أنطستانس أنه ينبغي على الإنسان أن يطلق  
على الشيء الاسم الخاص به فقط؛ وتبعاً لهذا لا يجوز له أن  
يحمل صفة مختلفة على الشيء، فمثلاً لا يجوز للإنسان أن  
يقول: «الإنسان خير»، بل: «الإنسان هو الإنسان»، و«الخير  
هو الخير». ولما كان التعريف معناه إيضاح تصور بتصورات  
أخرى غيره فإنه رفض كل تعريف على أساس أن التعريف  
كلام لا يتعلق بالشيء المعروف نفسه، إنه مجرد مقارنة وليس  
تعريفاً بالمعنى الدقيق؛ وحتى لو سلمنا بوجود أجزاء تنقسم  
إليها صفة الشيء، فإن ذلك ليس حتماً وتعريفاً، إنه مجرد  
تصور للشيء، وليس علماً به.

وهذا يقضي إلى القول بأن كل شيء فردي، وأن  
الكليات لا تعبر عن ماهيات الأشياء، بل عن آراء الناس في  
الأشياء. ولهذا انتهى أنطستانس إلى اسمية متطرفة مؤداها أن  
التصورات العامة (الكليات) هي مجرد أفكار. إنه يرى أناساً  
وأفراساً، ولا يرى الإنسانية ولا الفرنسية. ومن هنا قامت  
معركة عنيفة بينه وبين أفلاطون استعمل فيها كلاهما عبارات  
عنيفة.

(٥٠) «في پروتيوس»

(٥١) «كوكلوبس أو في أودوسيوس»

(٥٢) «في استعمال الخمر، أو السكر، أو في  
الكوكلوبس»

(٥٣) «في كركيس»

(٥٤) «في أمفياروس»

(٥٥) «في أودورسيوس، ونيلوي والكلب»

والمجلد العاشر والأخير يشمل:

(٥٦) «هرقل، أو ميداس»

(٥٧) «هرقل، أو في الحكمة أو القوة»

(٥٨) «قورس أو المحبوب»

(٥٩) «قورس، أو الرداء»

(٦٠) «منكسانوس أو في الحكيم»

(٦١) «ألفيادس»

(٦٢) «أرخيلاوس، أو في الملكية».

وقد أخذ عليه تيمون كثرة التأليف. وفي هذه العنوانات  
أثر السوفسطائية وأثر سقراط معاً. واتخذ من التاريخ القومي  
ومن الأساطير اليونانية نماذج ليث أفكاره. فنراه في «هرقل»  
يقدم نموذج الكلي الباحث عن المجهود والآلام، وفي  
«قورس» نموذج الحاكم وفقاً للمبادئ السقراطية الكلية، بينما  
نراه في «أرخيلاوس» يتزعج من الوضع الراهن صورة واقعية  
للطاغية الذي يسلك مسلكاً يتناقض مع المثل الأعلى  
السقراطي.  
مذهبه:

وفي مذهبه تجتمع العناصر السوفسطائية مع العناصر  
السقراطية واهتمامه يتجه في المقام الأول إلى الديالكتيك وإلى  
الأخلاق. ففي الديالكتيك يتأثر بيروديكوس واهتمامه  
باللغة، وفي نفس الوقت يتأثر سقراط في اهتمامه  
بالتعريفات. ويظهر تأثره بالسوفسطائية خصوصاً في ولعه  
الشديد بالجدل والمساجلات.

يقول أرسطوطاليس («الطوبى» م ٣ ف ١١ ص ١٠٤  
= كتابنا: «منطق أرسطو» ج ٢ ص ٤٨٦ م ٢) إن أنطستانس  
يقول: «إنه ليس لأحد أن يتناقض»؛ ويقول في موضع آخر  
«ما بعد الطبيعة» مقالة الدلتا فصل ٢٩ ص ١٠٢٤ ب  
ص ٣٤ = ابن رشد: «تفسير ما بعد الطبيعة» ج ٢ ص ٦٨٩  
ص ١ - ٦) إن أنطستانس يرى أنه لا ينبغي أن يقال شيء



المناضلين ضد كل الأشرار من أن تكون مع حشود من الأشرار ضد حفنة من الأبرار. احذر أعدائك، لأنهم أول من يكشف عورتك. قدر الرجل الأمين فوق القريب. الفضيلة واحدة بالنسبة إلى النساء والرجال على السواء. الأعمال الصالحة جميلة والأعمال السيئة قبيحة. كل الشرور غريبة. الحكمة حصن لا يتداعى ولا يتحطم. أسوار الدفاع ينبغي أن تشيد من حججنا البالغة.

ولم يميز الكليون بين الفضيلة والسعادة، بل قالوا إن كليهما شيء واحد فلا خير إلا الفضيلة، ولا شر إلا الرذيلة، وما ليس فضيلة ولا رذيلة فيستوي عند الناس. ذلك لأنه لا خير إلا ما يكون ملكاً للإنسان، ولا ملك حقيقياً للإنسان غير قنينة الروحانية. والمرء لا يكون مستقلاً بنفسه إلا في الأمور الروحية والأخلاقية؛ وما عدا ذلك فمن شأن الحظ. والعلم والفضيلة سلاحان عليهما تتكسر كل هجمات الحظ. لهذا لا يحتاج المرء - كما يكون سعيداً لغير الفضيلة؛ وما عدا ذلك فعليه أن يجتهد حتى لا يكفئ ويقنع بغير الفضيلة. فمثلاً، ما العنى بغير الفضيلة؟ نهب المتلقين والفاجرات، واغراء على الشح الذي هو أس كل بلاء، ونبوغ لعديد من المقاصد والقبائح، وشيء لا يحقق السمعة ولا التعة. ما الموت؟ إنه ليس شراً. لأن الشر هو سوء ونحن لا نشعر به أنه سوء، لأننا لا نشعر بشيء لما نموت.

وأخس الأمور وأدناها هو اللذة. والكليون يرون في اللذة أكبر شر، ويروي عن أنطستانس أنه قال انه يفضل أن يكون مجنوناً على أن يكون ملتدماً. ذلك لأنه إذا لم يكبح جماح اللذة شيء كما في الحب، وحيث يصبح المرء عبداً لشهوته، فلا علاج أبداً. وعلى العكس يرون أن ما يتأذى منه الناس، وهو الألم والجهد والعمل، هو الفضيلة، إذ هما يصبح المرء حراً، ولهذا عهد الكليون هرقل وجعلوا منه المثل الأعلى للكلي، لأنه لم يوجد من كافح وتعب واجتهد مثله في سبيل خير الإنسانية.

والفضيلة عندهم عمل وسلوك، ولا تحتاج إلى كثير من التأملات والأفكار. والنبل نبل الفضيلة لا نبل للولد، والعدالة أسمى من صلة الدم.

ومن نظرية اكتفاء الفضيلة بنفسها وعلم قيمة ما اعتاد الناس أن يعلوه خيرات ونعماً، استخلص الكليون مبدأ «عدم الحاجة»، أي القناعة التامة.

لقد تعلق أنطستانس بالأسماء وحدها. فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة هي أنه لم يتم بالأشياء نفسها وجعل البحث العلمي عن الأشياء غير ممكن؛ ونتج عن ذلك أن قال ما رواه أرسطو وهو أنه لا تناقض، ولا يمكن المرء أن يتناقض باختلاف التسميات وبالتالي اختلاف المسميات، وبالتالي يكون الكلام عن أشياء مختلفة، وحيث يكون الكلام كذلك فلا تناقض أبداً.

ويرتبط بهذه القضية القائلة باستحالة التناقض قضية أخرى تقول باستحالة القول بالكاذب، وقد ربط بين كليهما أرسطوطاليس في الموضع المشار إليه، وسخر من الثانية أفلاطون في محاوره «أوتيديوس» (صفحة ٣٨٣ هـ وما يتلوها؛ ٢٨٥ وما يتلوها).

ولكن ليس معنى هذا، مع ذلك، أن الكليين دعوا إلى التخلي عن العلم؛ فقد كتب أنطستانس، كما رأينا، رسالة في المعرفة والرأي تقع في أربع مقالات (رقم ٣١ في فهرست مؤلفاته الذي ذكرناه)؛ وأصحاب هذه المدرسة كانوا يرون أنهم وحدهم الذين عرفوا الحقيقة وأنهم تجاوزوا الظن الخادع. لكنهم رأوا أيضاً أن هذه المعرفة ينبغي أن تكون في خدمة غرض عملي فقط هو أن تجعل من الناس فضلاء وبالفضيلة سعاداء. والغاية من الحياة في نظرهم هي السعادة (ديوجانس ١١:٦).

قال اللاطري عنه: «آراؤه المحبوبة لديه هي: أنه أثبت أن الفضيلة يمكن تعلمها؛ وأن النبل لا يضاف لغير الفاضل. وقال إن الفضيلة تكفي بنفسها لتحقيق السعادة، لأنها لا تحتاج إلى شيء غير قوة سقراط. وأكد أن الفضيلة من شأن العمل ولا تحتاج إلى حصيلة من الكلمات أو التعلم؛ وأن الرجل الحكيم يكفي نفسه بنفسه، لأن كل أموال الغير له؛ وأن سوء السمعة شيء حسن، وشأنها شأن الألم؛ وأن الحكيم لا يتقاد في أعماله العامة بالقوانين الموضوعية، بل بقانون الفضيلة؛ وأنه يتزوج لانجاب أولاد من الاقتران بأجل النسوة؛ وأنه لا يزدري بالحب، لأن الرجل الحكيم يعرف وحده من هم الجديرون بالحب.

وقد روى له ديوكلس الأقوال التالية: لا غريب على الحكيم ولا أمر يستعص عليه. الصالح خليق بأن يجب. الفضلاء أصدقاء. حالف الشجعان العدو. الفضيلة سلاح لا يمكن انتزاعه. خير لك أن تكون مع حفنة من الأبرار

اليونانية كما فعل اكسينوفانس؛ ولكنه أولها تأويلاً تشيع فيه النزعة العقلية.

### ذيوجانس السينوبي

ولد في سينوب، وهو ابن هيكسيون الصيرفي. ويذكر ديوكلس أنه نفي لأن أباه استودع أموال الدولة فغش في النقود. ولكن يوليوس في كتابه عن ذيوجانس - يقول إن ذيوجانس نفسه هو الذي فعل ذلك واضطر إلى الرحيل مع والده. ولقد اعترف ذيوجانس نفسه في كتابه «قوردالس» بأنه كان يزيّف النقود.

رحل إذن من بلده سينوب ووصل إلى أثينا، فلقى أنطستانس، ولكن هذا لم يرحب به، فتابر إلى أن ظفر برضاه.

ويروى أنه قام بالتعليم، فعلم أولاد اكسينانس، وكانت له في أثينا تلامذة (ذيوجانس اللائسي، ٦: ٣٠ وما بعدها، ٧٤، ٧٥ وما بعدها). كما يذكر أنه كتب كتاباً، يذكر من بينها ذيوجانس اللائسي عنوان كتابين.

ولقد صور في صورة أسطورية زائفة كانت هي النموذج المبالغ فيه للكليي. وقليل من ملامح هذه الصورة يتسبب حقاً إلى ذيوجانس التاريخي. وكثرة تلاميذه تشهد على أنه لم يكن مجرد صاحب آداب وأمثال وحكم عابرة. وقد انتقلت هذه الصورة إلى العالم العربي، فأوردتها لنا المبشرين فاتك في كتابه «مختار الحكم وعجائب الكلم» (نشرتنا ص ٧٢-٨٢. مدريد سنة ١٩٥٨)، وأبو الفرج بن هندو في «الكلم الروحانية» (ص ١٠٥-١١٢).

وهذه الصورة أصبح ذيوجانس أوسع الفلاسفة شعبية. فجوابه عن الأسكندر، والصدقة التي كسرها لما رأى طفلاً يشرب في راحة يده؛ والحب (الزير) الذي كان يسكن فيه؛ والمصباح الذي كان يسير به مضيئاً في وضوح النهار بحثاً عن الإنسان دون أن يجد إنساناً واحداً جديراً باسم الإنسانية. وكل هذه سارت مسار الأمثال والنوادر، فجعلت منه رجلاً غريب الأطوار بارع الجواب، حاضر البديهة، خفيف الظل.

«كان زاهداً متخلياً، لا مسكن له ولا مأوى إلا حيث أجته الليل. وكان لا يمتنع من الطعام إذا جاع عند من وجده، غير محتشم، ليلاً كان أو نهاراً. وكان يجبه الناس بالحق. ويصدق على نفسه، ويرفها عما ينحط إليه الملوك

وكان طبيعياً أن تكون أفكارهم في السياسة والدين مشبعة بهذه الروح. ولهذا نراهم يسخرون من الدستور الأثيني ومن قادة أثينا؛ فكان أنطستانس يوصي أهل أثينا بأن يقرروا بالتصويت أن الحمير أفراس! ويشبه هذا بانتخاب أناس لا يفقهون شيئاً قواداً.

إن الكليي يتجاوز حدود الدولة. ولكنه لا يستطيع أن يحدد الدولة المثلى في نظره. فهو يحمل على الديمقراطية (أرسطوطاليس: «السياسة» م ٣ ف ١٣ ص ١٢٨٤ س ١٥)، ويحمل على الطغيان لأن الكليي يحب الحرية؛ ويحمل على النظم الأرستقراطية، لأنه لن يقبل الناس أن يكون حاكمهم حكماً. ولهذا كان ميل الكليين إلى عدم الاهتمام بالدولة المحلولة، لأنهم شعروا بأنهم مواطنون عالميون، لا مواطنين في وطن محدود. وكانوا يرون أن الشعوب يجب أن تؤلف شعباً واحداً، ولا ينبغي فصل شعب عن آخر بقوانين خاصة ويحدود. وكانوا يطالبون بالحياة البسيطة المتجردة عن كل مال. ولكن الدافع إلى فكرة العالمية عندهم لم تكن الاتحاد بين الناس، بل التحرر من قيود الدولة وحدود القومية.

وهنا نصل إلى صفة مميزة كل التمييز للكليين هي: اللامتية، أي عدم الاهتمام بلوم الناس. ولهذا كانوا لا يحفلون بما يقوله الناس، ما دام متفقاً مع مذاهبهم فكانوا يسمحون لأنفسهم بفعل كل ما يرونه طبيعياً وكل ما يستتر منه الناس؛ فمن لا يحجل من نفسه ينبغ ألا يحجل من الناس، ورأي الناس لا أهمية له عندهم.

وفي الفين هاجموا الدين الشائع، وتابعوا السوفسطائية في حملتهم على المعتقدات الدينية السائدة، وأبدوا آراء صريحة في الآلهة اليونانية وعبادتها ولهذا كان الكليون من أنصار نزعة التوير في الدين. إنهم لا ينازعون في وجود الألوهية، ولكنهم ينازعون في تعدد الآلهة وتشبيهاها بالإنسان في أفعاله؛ وقالوا بإله واحد لا يشبه شيئاً مريئاً ولا يمكن رسمه في أية صورة. ويرون في عبادة الآلهة أنه ليس ثم غير طريقة واحدة لعبادتهم، هي فعل الفضيلة، وما عدا ذلك فخرافة وأساطير. والحكمة والعدالة تجعلنا أحباء الآلهة، والحكيم يعبد الله بالفضيلة، لا بالأضاحي، فلا حاجة بالآلهة إلى الأضاحي؛ والحكيم يرى أن المعبد ليس أكثر قداسة من أي مكان آخر، ويدعو الله أن ينال العدل لا أن ينال الرزق.

ولكن يلاحظ مع ذلك أن أنطستانس لم يبتدئ الأساطير

وأهم منها متروكلس وكرايس ومونيموس. ألف أولها أقوالاً ونسب أعمالاً تمثل ملامح النزعة الكلية. والثاني ألف قصائد هزلية مدح فيها السيرة الكلية وسخر من النزعات الفلسفية الأخرى.

### كيركجور

#### Søren Kierkegaard

الرائد الأول للموجودية، فيلسوف دانيمركي.

#### حياته

ولد سيرن أبي كيركجور Søren Aabye Kierkegaard (وينطق في الدانيمركية: كيركجور) في ٥ مايو سنة ١٨١٣ في كوبنهاجن (عاصمة الدانيمرك). وكان الابن الأخير لأبوين كانا، حين ولد، متقلمين في السن: الأب عمره ٥٦ عاماً، والام ٤٤ عاماً. وكان أبوه راعياً في سهوب جوتلند Jutland بجاز من قسوة عمله، حتى إنه في ذات يوم راح يجذف على الله ويصب اللعنات. لكنه ترك مهنة الرعي وصار بقالاً وبائع قماش في العاصمة. فنجح في تجارته إلى حد أنه تركها وهو في سن الأربعين بعد أن جنى منها ما يكفل له رغد العيش فيما تبقى له من العمر. وانصرف بعد ذلك إلى الحياة الروحية، وضميره مثقل بالتائب لأنه لعن الله وهو في صباه، ولأنه تزوج من خادمته بعد وفاة زوجته الأولى مباشرة. فراح يتلمس العزاء الروحي في شيخوخته بالطرق المختلفة: في الكنيسة اللوترية (البروتستنتية) التي كان مخلصاً لها، وفي جماعة الاخوة المورافيين، وفي فلسفة التنوير، وخصوصاً في اجتماع كان يعقد في منزله ويتجلى فيه الكاهن مونستر Mynster، الذي سيصبح فيما بعد أسقفاً على كوبنهاجن. فأصبح واسع الثقافة، عميق التقوى.

وتأثر ابنه الأصغر، سيرن، بأبيه أيماً تأثر وهو في طفولته. استمع إليه يقول عن نفسه: ولما كنت طفلاً تلقيت تربية متشددة قاسية هي في نظر الناس ضرب من الجنون. فمنذ نعومة أظفاري، تحطمت ثقتي بالحياة تحت الانطباعات التي تحطم تحتها الشيخ الحزين الذي فوضها عليّ. وحين كنت طفلاً، وباللجنون! تدثرت بدثار شيخ حزين. فباله من موقف رهيب!...

والسوقة. ففتح بثوبين من الصوف. فلم يزل ذلك حاله إلى أن فارق الدنيا. هذا الوصف لحياته الذي أورده المبشرين فأنك يلخص الصورة التي انتشرت عنه، ويلوح أن معظم ملاحظها صادقة.

وقد نعته أفلاطون أنه «سقراط هادياً».

أما من حيث المذهب الكلي فيلوح أن ذبوجانس أضاف إليه في أربع مسائل اثنتان منها تتعلق بالنظرية، والاثنتان الأخريان بالسلوك العملي. والمسألة الأولى هي أنه قال باشتراكية النساء والأولاد، وإلغاء الزواج (ذبوجانس اللاترسي ٦: ٧٢) وأن يكون الاتصال الجنسي بالرضا الحر المتبادل. قال اللاترسي عنه (٦: ٧٢): وكان يدعو إلى الاشتراك في الزوجات، ولا يقر بزواج غير الاجتماع بين الرجل الذي يقنع والمرأة التي توافق. ولهذا السبب رأى أن يكون الأولاد أيضاً بالاشتراك بين الناس جميعاً.

والمسألة الثانية تدخل في باب السياسة. فقد أعلن أنه مواطن علمي (اللاترسي ٦: ٦٣) لا يجد بوطن، ولا يعترف بدستور دولة محدودة، وكان لهذا أثر في الكليين من بعد، والرواقية.

والنقطة الثالثة هي التجرد والذهن (ديوان الذهبي الفم ٨: ١٢ وما بعدها) ويختلف عن النزاع الصوفية بأنه لم يكن يحترق البدن وإنما كان يقصد فقط إلى الاستغناء، إلى غنى النفس ابتغاء الظفر بحريتها واستقلالها.

والنقطة الرابعة هي الملامية الكلية، التي أراد بها أن يجابه الأحكام المستبقة الشائعة بين الناس، والتقاليد السلبية لديهم، وأن يحترق الحضارة وقواعدها، لقد كان يرى أن القانون يناقض الطبيعة، وهو من أنصار الطبيعة فلا عليه إذن إن خالف القوانين السائلة.

وكان له كما قلنا تلاميذ عديدون أشهرهم: مونيموس، وأونيسكريتيوس، وفيلسكوس وكرايس ومتروكلس وأخته هيارخيا. وكانت لهم مؤلفات أسهمت في نشر المذهب الكلي. فإن فيلسكوس ألف محاورات وطراغوديات احتوت على مفارقات كلية مثيرة. وأونيسكريتيوس اشترك في حملة الاسكندر الأكبر على الهند، وألف تاريخاً للاسكندر ذا اتجاه قصصي قاصح. واستعار من الفقراء الهنود العراة Gymno-sophistes بعض ملاحظهم وأدخلها في الأخلاق الكلية.

وفي خريف سنة ١٨٣٠ قلعه الناظر نيلسن لنيل الكالوريا، فقال في تقريره عنه إن التلميذ سيرن كيركجور بقي وقتاً طويلاً صبيّاً غير جاد، مولعاً بالحرية والاستقلال، مما أساء إلى سلوكه. لكنه لاحظ في ذلك تقلعاً ملحوظاً وقال: «حينما تجد استعداداته الحسنة المجال في الجامعة كي تنمو وتنطلق بحرية ودون تبدد، فمن المؤكد أنه سيكون واحداً من الطلاب البارعين وسيشابه، من عدة نواح، أخاه الأسقف».

وعلى أمل أن يصبح أسقفاً مثل أخيه، دخل سيرن جامعة كوبنهاجن للدراسة اللاهوت، وكانت هذه الدراسة تستغرق إحدى عشرة سنة. فدخل الجامعة في أول نوفمبر سنة ١٨٣٠. وكانت السنة الأولى تقضى في دراسة الانسانيات، وتخرج بيكالوريوس في الفلسفة والقبولوجيا يتم الامتحان فيها كل ستة أشهر. وعلى الرغم من أنه لم يكن مواظباً على حضور المحاضرات، فإنه نجح في امتحان السنة الأولى. وبعده قرّر متابعة الدراسة في كلية اللاهوت، أولاً ليله الخاص إلى ذلك، وثانياً إرضاء لأوامر والده. وكان اللاهوت في الدانيمرك في القرن الثامن عشر يتجه نحو الاتجاه العقلي في تفسير عقائد الدين وفي تقدير الكتب المقدسة، الذي هياه عصر التنوير. وكان أبرز رجال كلية اللاهوت آنذاك هينريك نقولاي كلاوزن Henrik Nicolai Clausen الذي كان متأثراً كل التأثير بآراء اشليرماخر. كان يعلم الطلاب أن المسيحية ينبغي أن تدرك على أنها وحي تاريخي متجسد في شخصية يسوع ومسجل في الكتب المقدسة، لكنه كان يقرر في الوقت نفسه أن هذا الوحي ليس حقيقة خارجية بل حقيقة روحية تقتضي نشاطاً شخصياً، وأن على الروح أن تتخلص من الحرف (أي النص المقدس) كما يتخلص المضمون الأبدي من لباسه التاريخي. وأعجب سيرن كيركجور بأستاذه كلاوزن وخصوصاً بتفسيره للأناجيل، وانجيل يوحنا على وجه الخصوص.

لكن خارج كلية اللاهوت لمعت شخصيات لاهوتية أخرى، على رأسها مونستر Mynster الذي حاول التخلص من النزعة العقلية السائدة في اللاهوت في الدانيمرك، مع الاحتفاظ بالاكشافات المهمة التي وصل إليها عصر التنوير. وكان واسع الثقافة، ألمعياً في المناقشة، واعظاً مؤثراً بمواعظه.

وبدأ كيركجور في قراءة مؤلفات اشليرماخر في صيف سنة ١٨٣٤، وكان اشليرماخر قد زار كوبنهاجن في سنة ١٨٣٣ وأقام له الطلاب احتفالات عظيمة. وكان من تلاميذه الذين

ذلك أن الوالد كان يشعر بأنه لا بد أن يكفر عن تجديفه على الله، وستقع العقوبة على أولاده. لقد دخل الموت بيته وابنه الأصغر في سن السادسة: فخطف إخوته وأخواته الواحد تلو الآخر حتى لم يبق إلا سيرن وأخوه الأكبر بيتر كريستيان Peter Christian. فأحس الابن الأصغر بالشقاء الذي حلّ بوالده، مما زاد من تعلقه به. فكان يقضي مع أبيه الساعات يذرعان غرف البيت، ثم يخرجان بعد ذلك من المدينة من ناحية قصر مجاور للبيت، أو يترضان على شاطئ البحر، أو يتجولان في الشوارع والأب يتحدث ابنه عن كل ما يراه. وأهم من هذا كله أنه كان أحياناً يحضر -خفية- بعض الاجتماعات المسائية التي كانت تعقد في البيت، فشدوا طرفاً من العلم بالمشكلات الفلسفية التي كانت تطرح فيها. وكلما نما سيرن، اشترك في المناقشات مع أبيه ومع أخيه الأكبر بيتر كريستيان الذي كان يلقب وهو طالب في جامعة جيتجن يدرّس اللاهوت بلقب «شيطان الجدل القادم من الشمال»، والذي سيصير أسقفاً في أولبورج Aalborg. ومن ثم أولع الطفل العظيمة بالجدل والمناقشة، في السن التي يولع فيها أترابه بالحكايات والقصص. ولهذا يقول عن نفسه وهو يشير إلى تلك الفترة: «لم أعرف المباشرة، لسبب انساني خالص، ذلك أنني لم أحي: لقد بدأت منذ البداية، في التأمل والتفكير. إنني لم أكتسب بعض التأمل والتفكير مع السن: فالحق أنني تأمل وتفكير من البداية حتى النهاية». لهذا لم يعيش سيرن طفولته كساتر الأطفال.

وفي سنة ١٨٢١ دخل مدرسة بورجر ديدسكول Borgerdydskol التي كان يديرها ميكائيل نيلسن Michael Nielsen. لكنه كان في المدرسة يعتزل زملاءه، ولا يصادق أحداً ولا يدعو أحداً ولا أحد يدعو إلى منزله. فظل بينهم غريباً، وموضوعاً للشفقة والرثاء بسبب برّته التي كانت دائماً هي لا تتغير: ثياباً من القماش الخشن الأسود اللون ذا التفصيل العتيق، وجاكته قصيرة، وجوارب من الصوف، وأحذية كبيرة. ولقبوه: «طفل الكورس» لأن ملبسه هكذا يذكر بملابس الأطفال المنشدون في مدارس الكنيسة. لكنه كان يتقم لنفسه منهم بما يلزمهم به من القاب.

غير أنه لم يلمع في الدراسة، فيما عدا في اللغة اللاتينية؛ وكان قليل الاجتهاد، غشاشاً في بعض الأحيان. والموضوعات التي كان يكتبها كانت غامضة فاترة، ولا شيء فيها يؤذن بكتاب المستقبل اللودعي الشاعر.

البارع نظر هيرج مما وثق العلاقة بينهما. وكان هيرج J. L. Heiberg من أوائل من أذاعوا في الدانيمرك فلسفة هيجل؛ وألف كوميديات وفودفيلات وصار مديراً للمسرح الملكي وكان يترجم له أو يعد له مسرحيات أجنبية.

وفي إحدى الأمسيات التي اجتمع فيها صفوة المثقفين في كوبنهاجن، التقى كيركجور بالشاعر بول مارتن مولر Paul Martin Moller، وما لبثت عرى الصداقة الحميمة أن توثقت بينهما: لقد وجد فيه كيركجور خير معبر عما يحتمل في باطنه. لقد كان مولر يرى أن الأفكار المنفقة مع الأنا (الذات) هي وحدها الصادقة والصحيحة، وهذا ما ألمم كيركجور فيها بعد مبدأه الذي يقول: إن الذاتية هي الحقيقة. وكان مولر يقول إن على الكاتب أن يعيش في عزلة حتى يمكنه أن يعيش حياة مليئة، وهذه أيضاً ستكون من الأفكار الأثيرة عند صاحبنا كيركجور.

واهتم بالمسرح فكان يثار على مشاهدة المسرحيات التي تعرض في المسرح الملكي.

وكان لهذه الاهتمامات الخارجة عن دراساته في كلية اللاهوت أثرها البالغ في صرفه عن المثابرة على حضور المحاضرات، وفي تشتت ذهنه بين التخصصات المختلفة: فكان يحلم مرة بأن يعمل في الشرطة، ومرة أخرى بأن يشتغل ممثلاً في مسرح.

وفي نفس الوقت كان أبوه يزداد قلقاً وبأساً من الحياة، ويطغى عليه الحزن الكابي الثقيل بسبب موت أولاده وزوجته وشعوره القديم بخطيئة التجديف على الله وهو في صباه. وفي هذا يقول ابنه سيرن: «هنالك وقع زلزال الأرض الكبير، والاضطراب المروع... هنالك استشعرت أن علو من أي لم يكن بركة من الله، بل لعنة... هنالك شعرت بصمت الموت يتزايد من حولي، لما ظهر لي أن أبي، هذا الشقي، سيعيش بعدنا جميعاً، كأنه صليب منصوب على قبر أماله. لقد ألقت خطيئته بكاملها على أسرة بكاملها، وعقاب الله يخلق من فوقها. إن هذه الأسرة ستختفي، وستطرح بها قدرة الله الكاملة، وستتمحي الأسرة كلها كما لو كانت محاولة مخففة».

وفي خريف سنة ١٨٣٥ مر كيركجور بفترة من الهبوط النفسي الشديد. ومنذ ذلك الوقت وقد صار يعتره داء غريب سيطاره حتى وفاته، داء سماه «مالنخوليت» أو سوداونه. وفي خلال هذه الفترة كانت تعصف بنفسه أزمات

حضرها عليه شاب يدعى هاتز لسن مارتسن Hans Lassen Martensen، لما عاد إلى كوبنهاجن حظي بالشهرة لهذا السبب. فقرر كيركجور أن يتخلفه معيداً له. يقول مارتسن عن هذا الطالب (كيركجور): «لم يرد برنابياً محمداً بل طلب مني أن أقوم بعرض موضوعات وأن أتناقش معه. فاخترت أن أعرض له النقطة الرئيسية في مذهب اشلييرماخر في العقائد، كما نستطيع أن نتحدث فيها معاً. وسرعان ما شاهدت أنني أمام عقل غير عادي، لكنه مولع جداً بالسفسطة، والمباحكات التي يبدتها في كل لحظة وتؤدي إلى الضيق. وأذكر هذا حينما أخذنا في نظرية اختيار اللطف الإلهي حيث الباب مفتوح للسوفسطائيين».

وكانت سنة ١٨٣٤ حافلة بالأحداث بالنسبة إليه: فقد فقد فيها أمه وأحدى اخواته؛ وكانت بداية نشاط عقلي واسع. لقد حضر محاضرات سيرن Sibbern عن علم الجمال والشعر فافتتح أمامه أفق الحركة الرومنتيكية. وبدأ يتبين العلائق بينها وبين مختلف الفنون فوجد أن الموسيقى أقرب الفنون إلى الرومنتيكية لأنها تترجم عن اللامتاهي وأعمق أغوار النفس، ويتلوها الشعر، ثم النحت، ثم الرسم. غير أنه وجد في الرومنتيكية نزعة لا تلائم مثله الأعلى، لأن فيها ولعاً بالتغيير والتنويع، والتعبير الخارجي عن المشاعر الباطنة، بينما هو يريغ إلى الصمت الباطن المنطوي على نفسه.

وكان شديد الإعجاب بجينته، وخصوصاً برواية «فلهم مايستر». كما كان يؤثر شيكسبير، وقد قرأه في الترجمة الألمانية التي قام بها فريدرش اشليجل ولودفيج تيك Tieck وتصرفاً فيها كثيراً.

وكان في ذلك الوقت يغشى الندوة التي أنشأها أحد زملائه وهو P.E. Lind، وكانت تناقش فيها الأمور الأدبية والسياسية. وقد نشر Lind مقالاً في صحيفة Interims-blade التي يديرها J. L. Heiberg. مهاجم فيه الدروس التي نظمت لتعليم السيدات؛ فرد عليه كيركجور بمقال يدافع فيه عن المرأة. وأسهم في نشاط «جمعية الطلاب» وألقى فيها خطبة عن الصحافة الحرة. وكتب عدة مقالات في صحيفة Flyvende post حمل فيها حملة لاذعة على الزعماء الأحرار ناغياً عليهم تفاهتهم واضطرابهم الخادع وأساليبهم الغوغائية، وشيهم بالطبلة الكبيرة التي تسبق موكب الموسيقى العسكرية، وبالحمار الذي يقود القافلة، وبحملة القماقم الذين يسرون في أول الجنازة. ولفت هذا الهجوم اللودعي

نحوي، وأن تنسى كل شيء».

لكن الحزن تتجمع غيومه يوماً بعد يوم، فيتراءى له أن من المستحيل عليه أن يرتبط برابطة دائمة، هي هنا رابطة الزواج. يقول: «والآن أرى بوضوح أن سوداويتي تجعل من المستحيل علي أن يكون لي من أفضي إليه بالسر، وأعرف أيضاً أن ما تقتضيه مني بركة الزواج هو أن تكون هي من أفضي إليه بالسر. لكنها لا يمكن أن تصير أبداً كذلك، حتى لو كاشفتها بكل شيء؛ لأننا لا يفهم أحدهما الآخر. ويرجع هذا إلى كون ضميري يملك مخرجاً زائداً... وأنا واثق أنها لو كانت صارت زوجتي، لكنت قد خطرت ببالي وأنا إلى جوارها في يوم الزفاف فكرة أن أحلنا سيموت قبل نهاية اليوم، أو فكرة أخرى مروعة خيالية. وأذكر أنها، لا هي ولا غيرها من الناس، ما كانت لتلاحظ هذا على سيمائي. وفي باطني كنت سأكون ساجياً، هادئاً وادعياً، ومع ذلك كانت هذه الفكرة ستملكني... ولو كان لي من أفضي إليه بالسر لألقيت عليه هذا السؤال: «أليس من العار أن يقوم إنسان سوداوي بتعذيب زوجته بأفكاره السوداوية؟» وسيكون جوابه: «نعم! إن على الإنسان أن يضبط نفسه ويثبت بذلك أنه رجل». وحيث كنت سأرد عليه قائلاً: «حسناً، هذا أمر أستطيع أن أفعله: في وسعي أن اتخذ مظهر الأمل الباسم؛ لكن هذا عينه هو ما أخفقت فيه، لأن هذا خداع لا يسمح به الزواج، سواء فهمت الزوجة ذلك أو لم تفهمه». (مراحل على طريق الحياة: مذنب؟... أو غير مذنب؟ سنة ١٨٤٥).

لكن رجينا، هذه الفتاة الساذجة العادية الذكاء، لا تستطيع أن تفهم مخاوف هذا الخطيب الجازع القلق من أمور تراها وهمية، ودعاها هو بالشوكة في اللحم التي تنغز في نفسه. ويساذجة مفهومة ممن في مثل سنّها وحالها قالت له إنه مجنون.

وتباعدت اللقاءات، وصارت الرسائل المتبادلة بينها موجزة. وذات مساء ذهب إليها في بيتها، وتشاجر معها دون صبر. فكانت النهاية. وفي الغداة، سأله والد رجينا أن يعود لزيارتها مرة أخرى: يقول كيركجور: «فعدت وحاولت إقحامها. سألتني: ألا تريد أن تتزوج أبداً؟ فأجبتها: نعم، بعد عشر سنوات، حين تنظف نوار الشباب وأحتاج إلى فتاة فائرة الدم لتجديد شبابي. وكانت هذه الفسوة ضرورية. قالت لي: سامعني عماً سيته لك من ألم. فأجبت: واجبي أنا أن أقول لك هذا. قالت: عدني أن تفكر في فوعدها بذلك.

قلق وجزع هائلة. وصار كل شيء يقلقه وابتداءً من الذبابة حتى سر التجسد الإلهي». وتسلبت عليه الخوف من الوقوع في هاوية الجنون، وشغله هلجس الانتحار. وراح ينسى همومه في كأسات الخمر، فكان يسكر سكرأ شديداً ويطارد المومسات. وكان لا بد أن يقع نزاع بينه وبين والده، بسبب حياته المنحلة هذه، مما اضطره إلى الهرب من بيت أبيه. لكنه ما لبث أن عاد مرهقاً بالديون، وصالح والده. لكن والده ما عثم أن فارق الحياة في ٨ أغسطس سنة ١٨٣٨ والابن في سن الخامسة والعشرين.

وكان لموت والده وقع الصاعقة، فتاب إلى رشده وقرر أن يستأنف الدراسة بجدّ ومثابرة. فاستطاع في ٣ يوليو سنة ١٨٤٠ أن يحصل على اجازة اللاهوت بتقدير «مقبول» Laudabilis. وبعد ذلك بعدة أيام سافر إلى بلد أبيه الأصلية، إلى إقليم جتلند.

وهنا نصل إلى حادث غرامه وخطبته إلى فتاة رائعة الجمال، سيكون لعلاقتها معه شأن كبير في توجيه حياته وأفكاره، ونعني بها رجينا أولزن Regina Olsen.

كانت رجينا أولزن بنت مستشار في البلاط الملكي. وكانت قد اختلبت بفتتها فريدرش اشليجل فانهقدت الخطبة بينها. وتعرف إليها صاحبنا كيركجور في مايو سنة ١٨٣٧، فوقع سحرها في قلبه موقع الصاعقة. وراح يتردد عليها في منزلها بين الحين والحين. وها هو ذا يسجل في «يومياته» بتاريخ فبراير سنة ١٨٣٩ أن هذه الفتاة قد صارت «ملكة على قلبه».

وفي ١٠ سبتمبر سنة ١٨٤٠ أعلنت خطبتها رسمياً. لكنه كان يؤثر أن يظل الحب سراً خفياً بينها. فراح يغرما بمختلف أنواع الإغراء العقلي، بينما هي لا تفكر إلا في الزواج العادي. وكلما تمضي الأيام يستشعر كيركجور الجزع من رابطة الزواج. استمع إليه وهو يقول في «يومياته» عنها:

«لقد أحبتها جداً. كانت رشيقة خفيفة مثل الطائر، جسوراً مثل الفكر. وجعلتها تعلق وتصد إلى أعلى باستمرار، كنت أبسط يدي، فتستقر هي عليها وتضرب بجناحيها وتصيح: هذا رائع، هنا؛ وكانت تنسى، ولا تعرف أنني أنا الذي جعلتها خفيفة، وأني أنا الذي زودتها بالفسادة في التفكير، وبالإيمان بي، وأنا الذي جعلتها تمشي على الماء، وأنا الذي احتفلت بها، وهي كانت تقبل احتراماتي. وفي أوقات أخرى كانت تركع أمامي، ولا تريد إلا أن ترفع عينها



لاشليجل Schlegel، وفيها يصف اشليجل في شخص ليزت الوجود الشعري بالمعنى الأقوى. لكن كيركجور يرى أن ما يدهش في هذه المرأة الشابة المتحررة هو كسلها الشديد. إنها تضع قوة روحها في الشهوة الرخيّة. ويرى اشليجل أن في هذا أوج المتعة، وأن الاستمتاع هو العيش عيشة شعرية. فكان كيركجور يرى أن هذا خطأ فاحش وأن العيش شعرياً ليس معناه الانحلال في الترخص والشهوة، بل هو الوضوح والشفافية للذات في قيمتها الأزلية.

ويرسم كيركجور صورة بارعة للمتهكم. فيقول إن المتهكم يملك طريقه شامخ الرأس مثل ارستقراطي عقلي؛ ويلد له أن يشعر أنه يستطيع أن يكفي نفسه بنفسه. إنه يوفق بين الأضداد، لا في وحدة عليا كما يفعل هيغل، بل في جنون عالٍ. وما يريد هو الاغراء الساحر للبدايات. وحياته متحررة من كل خضوع، مشتتة في الاستمتاع بأحوال النفس، لهذا تفقد اتصالها واستمرارها، أو الاستمرار الوحيد الذي تعرفه هو الملل. والمتهكم يزدري المهام العادية في الحياة، ولا يستريح للتحديدات الأخلاقية.

وبعد أزمة خطوبته قرر الرحيل، فاتخذ طريقه إلى برلين في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٤١. وفي برلين راح يحشد خاطره ويستجمع قواه؛ وراح يحضر محاضرات مارهينكه عن هيغل وأهمية فلسفته بالنسبة إلى الديانة المسيحية، ومحاضرات شلنج. لكنه ما لبث أن ملّ جو برلين، وعاد إلى كوينهاجن في ٦ مارس سنة ١٨٤٢.

وهنا في كوينهاجن عاش عيشة الأعزب الحرّ من القيود. فهو يهوى التجوال في الشوارع، والجلوس في المقاهي.

وفي ٢٠ فبراير سنة ١٨٤٣ ظهر كتابه: «إما... أو» تحت اسم مستعار هو Victor Eremita، فلقى رواجاً عظيماً. وفي رسالة إلى الكاتب الدانمركي أندرسن H. C. Andersen الذي كان يعيش آنذاك في باريس كتبت سيده دانيمركية تلخص آراء مواطنيها في هذا الكتاب لدى ظهوره: «ظهر في سماء الأدب نجمٌ مذبذب مشؤوم الطالع. والكتاب شيطاني إلى درجة أن المرء لا يدعه من يده إلا ويود أن يستأنف قراءته في الحال. ولا يوجد كتاب أثار من الاهتمام، منذ اعترافات روسو، مثلما يشبه هذا الكتاب. في القسم الأول الكتاب حسي، أي ضار؛ وفي القسم الثاني أخلاقي، أي أقل إضراراً، وإن كان من حق النساء أن يفضين منه لأن المؤلف، مثل المسلمين، يتعبدهن فيها هو فان ولا يرى لمن

قالت: أعطني قبلة. فأعطيتها قبلة، لكنها خالية من العاطفة الحارة. يا الله يا رحيم. وأخرجت بطاقة صغيرة كنت كتبت عليها كلمة، وكانت قد اعتادت أن تحملها على صدرها، أخرجتها من صدرها، ومزقتها في صمت إلى قطع صغيرة، ثم قالت لي: لكنك مع ذلك لعبت معي لعبة قاسية».

وكانت نهاية هذه اللعبة القاسية في ١١ أكتوبر سنة ١٨٤١ يوم أن أعادت هي إليه خاتم الخطبة مع قبلة أخيرة.

وأحدث فسخ الخطبة فضيحة في الأوساط البورجوازية في كوينهاجن. لكن رجينا ما لبثت أن نسيت الحكاية كلها، وعادت فتزوجت من خطيبها الأول: فريدرش اشليجل سنة ١٨٤٧. وعاشت عيشة هادئة رتيبة، وامتد بها العمر إلى أن توفيت في سنة ١٩٠٢ بعد أن بلغت الثمانين.

أما هو فعاش هذه التجربة بعمق وألم بالغ. قال: «استشعرت شقاء لا يبلغ مداه التعبير بسبب عذاباتي الباطنة والتي انضاف إليها عذابي من كوني جعلت رجينا شقية فكنت ضائعاً في هذه الحياة؛ هنالك استيقظ الانتاج الهائل الذي أخذت فيه بحماسة ليست أقل هولاً... آه ما أصدق القول الذي كثيراً ما قلته عن نفسي وهو أنه كما أن شهرزاد أنقذت حياتها بقصص الحكايات، فكذلك أنا أنقذت حياتي أو أحفظ بها بأن أكتب».

إذن لقد وجد كيركجور أن العلاج من دائه - وهو اللانحوليا - إنما هو بالكتابة والمداومة عليها.

وكان، قبيل فسخ الخطبة بقليل، قد ناقش بنجاح فائق الرسالة التي تقدم بها إلى كلية اللاهوت للحصول على الدكتوراه، وعنوانها: «فكرة التهكم مع ربطها دائماً بسقراط»، وتمت هذه المناقشة في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٤١، وحصل على لقب Magister Artium وتعادل الدكتوراه.

والرسالة ضخمة، كرس القسم الأول منها لدراسة التهكم عند اليونان. وقد حدّد التهكم بأنه تعين للذاتية ويفضله يتحرر التهكم من الارتباط بالواقع. إنه حرّ حرية سلبية، وهذه المثابة يملق بين أمور الدنيا، ولا يتعلق بواحد منها، لأنه لا واحد منها قادر على أن يشقّه إليه.

أما في القسم الثاني منها فقد تناول التهكم عند الرومتيك الألمان، فدرس نظريات فشته وسيلجر Sölger وهيغل في هذا الباب. وتلبث طويلاً عند قصة «لوتسند»



أثباتاً لهذه الحملة. ورجال الدين أنفسهم لم يؤيدوه رغم أنه كان يهدف إلى تقوية الدين في النفوس.

أثرت هذه الحملة الظالمة في نفسه أيما تأثير، وحركت تلداع «الشوكة في لحمه» وكان قد نسيها أو كاد. لكنه راح يعزي نفسه بما لقي المسيح نفسه من آلام. فالمسيح، الذي كان هو الحق، قد أمين وصلب. والمسيحي ينبغي، اقتداءً بالسيد المؤسس، أن يعيش في خوف وقشعريرة.

وبدا بأن غادر جوتو كوينهاجن المسموم وسافر إلى برلين، حيث حاول أن يجد حياة نفسية، وذلك في بداية شهر مايو سنة ١٨٤٦. وبعد فترة عاد من جديد إلى كوينهاجن.

وفي ١٣ مايو سنة ١٨٤٧ أصدر كتاباً جديداً بعنوان: «طهارة القلب» وفيه يعرض فكرة «الفرد» و«الأوحد» التي تعذ من الركائز الأساسية في مذهبه. وفي نفس السنة، في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٤٧، أصدر «حياة الحب وسلطانه»، وفيه يجلل العلاقات بين الشعر وما هو ديني، ويضع الحب الإلهي في توازٍ مع الحب الانساني.

وفي ٣ نوفمبر من سنة ١٨٤٧ احتفل بزواج رجينا من خطيبها الأول فريدرش اشليجل. وكما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال، نكأ هذا الزواج جرحه الذي كان هو مع ذلك السبب فيه! فراح يعزّي نفسه بكتابة النقد الجارح للسياسيين والصحافيين، وذلك في «يومياته» عن تلك الفترة. وفيها يبدي آراءه في السياسة ونظام الحكم. فيهاجم النظام الديمقراطي بعنف بالغ قائلًا إن الديمقراطية أكبر خطر على الدول، لأنها تستند إلى الدهاء، وبالتالي لا يهم السياسي أن يكون على حق، بل أن يظفر بتأييد أكبر قدر من الناس، أعني من العامة؛ وما يهمه إذن هو اكتساب رضا الجماهير؛ وفي سبيل هذا الاسترضاء، يتملق أحسن ما في الدهاء من غرائز ونوازع وتصبح كل الوسائل مشروعة في سبيل كسب أكبر عدد من الأصوات. إن التنافس في السياسة لا يقدم أبداً مشهداً على حقيقتين تصارعان. وكيف يكون ثم حقيقتان، والحقيقة يجب أن تكون واحدة! وكيف يمكن أن يكون معيار الحقيقة هو كثرة عدد الأنصار؟! لكن الأغلبية هي التي تفوز في الديمقراطية. يقول: «مائة مليون، كل واحد منهم مثل الآخرين، يكوّنون واحداً. و فقط حين يتقدم فرد مختلف عن هذه الملايين فإنهم يصبحون اثنين».

وكان يكره خصوصاً فكرة «المساواة» التي نادى بها

منفعة غير الولادة وامتاع الرجال. إن في الكتاب غثياناً من الحياة لا يمكن أن يكون إلا ثمرة نفس شريرة».

وتتوالى مؤلفات كيركجور فيصدر في نفس السنة ١٨٤٣- كتابين آخرين هما: «الخوف والقشعريرة» و«التكرار».

وفي السنة التالية (سنة ١٨٤٤) يصدر له كتاب «فكرة القلق» و«شذرات فلسفية».

وفي التي تتلوها (سنة ١٨٤٥) كتاب رئيسي هو «مراحل على طريق الحياة».

وكل هذه المؤلفات تسودها شخصية رجينا أولزن، وتستلهم تجربة خطبته وإياها.

أما الكتاب الذي أودع فيه زبدة فلسفته فهو كتاب «حاشية غير علمية على الشذرات الفلسفية» وقد أصدره في سنة ١٨٤٦.

وفي نفس الوقت كتب ما بين سنة ١٨٤٣ وسنة ١٨٥٠ ما يقرب من خمسين «خطبة تقويمية» نحث على التقوى استعاض بها عن المواعظ التي كان سيلقيها لو أنه احترف مهنة رجل دين.

ولقيت هذه الكتب رواجاً هائلاً في مختلف الأوساط: في البلاط، وبين الطلاب، ولدى عامة الناس على السواء. فملا ذلك رضاء عن نفسه، وأعاد الطمأنينة إلى قلبه القلق، وأنساه تجربته في الخطبة، بل وأنساه سوداوته شبه الطبيعية.

لكن هذا الهدوء النفسي لم يدم طويلاً، فقد ثارت عاصفة ضده هي ما سمي بعد ذلك بـ«معركة القرصان». و«القرصان» Corsaren عنوان صحيفة نقدية كانت تصدر في كوينهاجن؛ ونظراً لما فيها من سخرية لاذعة، ومن تناول للأمور الحساسة في الحياة الخاصة لبعض المشاهير، فإنها كانت واسعة الانتشار. وكان ممن تناولتهم بسهامها كيركجور. إذ نشرت في أوائل سنة ١٨٤٦ هذه المجلة مقالاً لاذعاً عنيفاً خالياً من اللياقة ضده، لأنها سخرت من جسمه ومن هندامه. فتهكمت على انحناء ظهره، وطول سراويله. وكان لهذا المقال أثره السريع في الناس: فكان الطلاب يستهزئون به كلما مرّ في الشارع أمامهم، وكان الصبية يرمونه بالأحجار؛ وكان العامة يسلقونه بالسنة حداد. والأساتذة، بما طبعوا عليه من حقد حفين وحسد لكل نابغة ممتاز، امتلأوا تشفيماً واغتياباً

حنقاً وغيظاً: إنه لم يشأ بأي حال من الأحوال أن يحتل تدخل أي إنسان آخر في علاقته مع زوجته.

وفي ٣٠ يوليو سنة ١٨٤٩ نشر كتاباً جليداً هو «المرضى حتى الموت: دراسة نفسية مسيحية للتقويم واليقظة». وفيه يصور اضطراب الانسان الذي لا يعرف، أو لا يريد أن يعرف، علاقته الحقيقية مع الأنا السرمدي، وبالتالي مع الله. وهذه الحالة هي حالة اليأس، وحالة الخطيئة.

وفي ٢٧ سبتمبر من سنة ١٨٤٩ يظهر كتابه «التلرب على المسيحية»، وفيه يبرز خصوصاً أقوال المسيح عن الزهد في الدنيا. لقد صار يرى أن بغض الدنيا هو حب الله، وأن حب الله هو بغض الدنيا.

وفي ربيع سنة ١٨٥١ ألقى آخر موعظة، وذلك في كنيسة القلعة، وبصوت لا يكاد يسمعه الحاضرون.

وفي ١٠ سبتمبر سنة ١٨٥١ نشر آخر كتبه، وعنوانه «من أجل امتحان للضمير موجه إلى المعاصرين».

وفي ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ مات الأسقف مونستر Mynster، فأبته مارتنسن Martensen بخطبة قال فيها عنه إنه: «شاهد على الحقيقة». فأثار هذا التعبير ثائرة كيركجور لأنه كان يعرف أن مونستر كان يعيش عيشة رغيدة مغموراً بالتكريم والثروة في البلاط الملكي! وعبر عن سخطه على المسيحية الرسمية في مقال نشره في صحيفة Faedrelandet بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٨٥٤، ناعياً على رجال الدين أنهم جعلوا من وظائفهم وسيلة للربح والإثراء الفاحش. واستمر في هذه الحملة على شكل منشورات بعنوان: «الآن Instant» بلغ مجموعها سبعة، وفيها هاجم الكنيسة ورجالها هجوماً بالغ العنف.

وفي ربيع سنة ١٨٥٥ عين فريدرش اشليجل حاكماً على جزر الأنتيل الدانيمركية. وقد روى رفائيل مايرمايلي: «في ١٧ مارس، يوم الرحيل، قابلت مدام اشليجل (= رجينا أولزن) كيركجور، عن قصد ونعمد، في الشارع، فقالت له بصوت مختنق «بارك الله فيك - أتمنى أن تسير كل أمورك على ما تروم». فترجع خطوة إلى الخلف وأجاب عن تمنياتها بتحيةة».

لكن صحة كيركجور كانت قد تدهورت بما اعتدل فيها من انفعالات وأحزان. وفي صبيحة يوم من شهر أكتوبر سنة ١٨٥٥، سقط مغشياً عليه في الشارع؛ فأرسل إلى

الديمقراطيون الأحرار، لأنهم إنما يأخذون اليوم من صناع الشموع ما يعطونه للحدادين، وفي الغد يأخذون من الحدادين ما يعطونه لسدنة الكنيسة. ومن رايه أن تطور المساواة لا يمكن أن يؤدي إلا إلى واحدة من اثنتين: الشيوعية أو دعاة التقوى الدينية: «الشيوعية تقول إن كل الناس ينبغي أن يكونوا متساوين مثل العمال في مصنع أو حظائر الأفراس في اسطل. وينبغي عليهم أن يلبسوا نفس الزيتي، وأن يأكلوا من نفس الطعام، المطبوخ في قدر ضخم، ولدى قرع نفس الناقوس، ويمقادير متساوية... ودعاة التقوى الدينية Piétisme يقولون: ينبغي أن يكون كل الناس متساوين كما كانوا في الجماعة الصغيرة في كرمستيانفلد Christianfeld، وينبغي عليهم أن يلبسوا نفس الزيتي، وأن يصلوا في أوقات محددة، وأن يتزوجوا بالاقتراع، وأن يطعموا من نفس القصة، وأن يتناولوا غذاءهم بنفس الترتيب».

وهاجم الصحافة، خصوصاً اليومية منها، أولاً لأن معظم ما يكتب فيها ينشر غير مقرون باسم كاتبه؛ ومن هنا يتجاسر هذا الكاتب المجهول الاسم على كتابة ما يشاء. والصحفيون يدعون لأنفسهم الحق في الكتابة عن كل شيء، دون أن يكون لديهم التكوين العلمي الكافي لذلك. وهم يوهمون أن من الممكن إبلاغ كل الحقائق لأكبر عدد من الناس. لكن الحقيقة، إذا كانت مما يفهمه أكبر عدد من الناس، فإنها لن تكون الحقيقة فعلاً، لأن الناس في حاجة إلى إعداد علمي طويل عميق لإدراك معظم الحقائق. فكيف تكون مبدولة لعامة الناس!؟

واستشر كيركجور الراحة من جديد في الكتابة. وقال عن نفسه في تلك الفترة: تغير كل كياني، وتكسرت عزلي وانطوائي، وصار من واجبي أن أتكلم». وراح يكتب كتابه الذي يشرح فيه إنتاجه، بعنوان: «وجهة نظر تشرح أعماله»، لكن هذا الكتاب لم ينشر إلا بعد ذلك بعشرة أعوام، وبعد وفاة كيركجور وفيه يحاول أن يحدد أهدافه الحقيقية.

وفي يونيو سنة ١٨٤٩ توفي المستشار أولزن، والد خطيبته المهجورة. فحزن لذلك، وبعث ببطاقة إلى اشليجل، زوج رجينا، ومعها رسالة إلى هذه الأخيرة يعرض فيها أن يعاود علاقته معها. لكن اشليجل رد إليه البطاقة والرسالة، ومعها كلمة قاسية. وقد كتب كيركجور في «يومياته» عن هذا الحادث فقال: «كتبت إلى اشليجل فامتلاً

على فريسته هو السبب في انتصاره. إن طيب هذه الشهوة الهائلة يضيء موضوع الشهوة وينميها، فيجر هذا الموضوع (المرأة) خجلاً لدى اتصاله به ويشع منه جمال فاتق. وإذا كان المتحمس يخلع صفات جميلة على أول من يلقاه في عرض الطريق، فأني نور ساطع لا يمحيط المغرر كل فتاة يدخلها في دائرة علاقاته!... ودون جوان ليس فقط يظفر بالنجاح عند الفتيات، بل هو أيضاً يجعلهن سعيدات في الوقت الذي فيه يتسبب في شقائهن: ومن الغريب أن هذا هو ما يردن. والفتاة التي لا تريد أن تصبح شقية بسبب أنها كانت، ولو مرة واحدة، سعيدة مع دون جوان، ستكون فتاة بائسة. لكن إذا كنت أستمع في وصفه للمغرر، فإني لا أقصد بهذا أنه شخص خبيث يسعى إلى الانتصار بواسطة بعض الدسائس: إن دون جوان لا يبلغ أهدافه إلا بفضل عبقريته في الشهوة التي هو بمثابة تجسيد لها. إن الفكر التأمل ليس من شأنه، وحياته تزيد مثل الشبان التي تقويه، وتطرن مثل الموسيقى التي تصحب وجبات غذائه المسروقة، إنه يطير من نجاح إلى نجاح. ولا حاجة به إلى استراتيجية، ولا إلى خطة، ولا إلى مهلة، لأنه دائماً شاكي السلاح، قوته الحيوية مشدودة باستمرار وشهوته حاضرة دائماً، و فقط حين يشتهي يشعر بأنه في جوه الطبيعي». لقد شق طريقه في مطلع حياته مثل ما يشق البرق غيوم الزوينة المظلمة، ومزق أعماق الجذ بأسرع من الصاعقة، وانطلق في الحياة المتقدمة المتنوعة.

ورجل المدرج الحسي لا يتعلق إلا بما هو جميل. ولكن كل قطعة من الجمال ينبغي أن تقاس في انسجامها، وإلا لتتج عن ذلك تأثير معكرو... وكل عنصر يملك من الجمال قطعة، ورغم ذلك هو كامل في ذاته، سعيد، فرح، جميل. ولكل جماله: الابتسامة، البهجة، النظرة الماكرة؛ العيون الملتهية من الشهوة؛ الرأس العابس؛ الروح الطائر؛ الحزن الرقيق؛ الوجدان العميق؛ المزاج الكابي المنذر بالشؤم؛ الحنين الأرضي؛ الانفعالات المكتومة؛ الأهداب التي تتكلم، الشفاه التي تتساءل؛ الجبين المليء بالأسرار؛ الغدائر الفاتنة؛ الرموش التي تخفي النظرات؛ الكبرياء الإلهية؛ الطهارة الأرضية؛ الطهارة الملائكية؛ حمرة الخجل التي لا يسر غورها؛ الخطوات الخفيفة؛ الترحيح الرشيق؛ الرخاوة في الهيئة؛ الحلم المليء بنفاد الصبر؛ الزفرات غير المفهومة؛ القوام المشوق؛ الأشكال الرقيقة، الجيد الفخم؛ الأفخاذ البضة؛ القدم الصغيرة، اليد اللطيفة؛ وهو يتأمل هذه المقاتن ويرى أن المرآة وهي بطبعها غنية دائماً هي ينبوع لتأملاتي وملاحظاتي لا ينضب... والمرأة

المستشفى: ورفض استقبال أخيه الأسقف لأنه كان يرى فيه مثل سائر رجال الدين، بينما فرح باستقبال بعض أقاربه وأصدقائه المتبقين له.

وتوفي كيركجور في مساء يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٥٥. واحتفل بمراسم الجنازة في يوم الأحد التالي في كنيسة نوتردام، وألقى أخوه الأسقف، بيتر كرمستان، موعظة التأين. وبعد عشرين عاماً من وفاته نصب على قبره تمثال، وكتب على قبره أبيات من أنشودة ألفها برورسون Bronson هذا نصها: «لو قدر لي مزيد قليل من الوقت، لكتت قد انتصرت، ولكانت المعركة كلها قد انقضت دفعة واحدة. هنالك كنت سأستريح في جو الورود، وأتكلم مع السيد المسيح باستمرار».

#### فلسفته

مؤلفات كيركجور خليط غريب من الاعترافات العاطفية الشخصية، والتأملات الفلسفية، والمقالات الأدبية. وفي الكتاب الواحد أحياناً تتعاقب الأجناس الأدبية: يوميات، عرض منظم، مناجيات، صور أدبية، نقد مؤلفين أو مؤلفات، تفسير أحلام، إلخ... واللهاجة تتنوع: فتنقل من الجد إلى الهزل، ومن التهكم إلى العرض المنسق الجاد. ومن هنا كان من الصعب على المرء أن يعرض له «مذهباً فلسفياً» بالمعنى الدقيق لهذا اللفظ. وهو نفسه قد ثار على فكرة «المذهب» وخصوصاً كما يتجلى في فلسفة هيغل. ونحاول مع ذلك أن نعرض أفكاره الرئيسية على نحو تنظيمي قدر الإمكان.

#### ١- المدرج على طريق الحياة

حاول كيركجور أن يستقري ويحلل نماذج حياة الإنسان. فاستخلص منها ثلاثة نماذج للوجود الإنساني سماها «مدرج على طريق الحياة»، وهي: المدرج الحسي، والمدرج الأخلاقي، والمدرج الديني.

#### ١- المدرج الحسي:

وقد اتخذ نموذجاً لهذا المدرج دون جوان، زير النساء المغامر المتقلب بين أحضان الشهوة، خصوصاً الشهوة الجنسية.

من أين يستمد دون جوان قدرته على إغواء النساء؟ من قوة وجدانه، وعزلة شهوته الحسية. «إن ما يريد في كل امرأة هو أنوثتها الكاملة، وهذا التمجيد الحسي الذي يلقي به

عليه، في كتابه «الخوف والقشعريرة» من حادثة النبي ابراهيم. لقد أمره الله بذبح ابنه، وهو أمر غير جائز أخلاقياً. لكن فوق الأخلاق مستوى أعلى هو طاعة الله. ولهذا لا يتردد ابراهيم في ذبح ابنه اسحق. لكن هذه الطاعة نفسها - رغم أنها تتعارض مع الأخلاق - كانت السبب في نجاة ابنه من الذبح.

والمرج الديني يقوم في اللجوء إلى الذاتية العميقة، وفي عبادة الله المستور، وفي الصمت الملازم لهذه العبادة، وفي تحمل الآلام، وفي العزلة الفنية بالتأملات، وفي المرض حتى الموت. إن الفزع المؤدي إلى اليأس، كما حدث لأيوب، هو الذي ينمي في الإنسان أعلى قواه، والإيمان المطلق بالله كما عند ابراهيم، هو الذي يؤدي إلى الحصول على كل شيء بالتخلي عن كل شيء، وإلى غزو الحياة، الحياة الحقة التي هي السعادة الأبدية، القادرة وحدها على إرواء عطشنا للوجود. لأنه بالنسبة إلى الله لا شيء مستحيل. وما يسميه العقل لا معقولاً هو عينه الحقيقة والحياة.

لكن من أجل إدراك هذه المفارقة، لا بد أن نتخلى عن تأليه الواقع وحصره في نسق كلي كما فعل هيجل، لأن ذلك يؤدي إلى القضاء على الوجود الذاتي، الشخصي. وينبغي ألا نصنع صنيع هيجل حين أعلن أن الفكرة الأساسية في الدين المطلق هي وحدة الطبيعة الإلهية مع الطبيعة الانسانية، لأن هذا يؤدي إلى القضاء على كليتها بالخلط بينهما، بينما ينبغي أن نتميز بينهما تماماً.

وهكذا بعد أن بدأ كيركجور حياته بالاعجاب الشديد والتأثر الغامر بهيجل وفلسفته، نجده كما يصرح بهذا في كتاب «التكرار» (مجموع مؤلفاته، ترجمة ألمانية ج ٣ ص ١٧٢)، يتخلى عن هيجل ليجد ملأه في حكاية أيوب كما عرضها سفر أيوب، وفي فداء ابراهيم كما عرضته التوراة، وهو يقول: «إن الشجاعة الديالكتيكية ليس من السهل الحصول عليها، ولا يستطيع المرء أن يقرر إلا بعد أزمة، أن يعترض على أستاذ رائع (= هيجل) يعرف كل شيء أحسن مما تعرف أنت، لكنه لم يجهد إلا مشكلة واحدة: ألا وهي مشكلتك أنت» (مجموع مؤلفاته، ترجمة ألمانية، ج ٦، ص ١٩٢).

### بـد التهكم

كانت الرسالة التي حصل بها كيركجور على الدكتوراه بعنوان «فكرة التهكم».

من حيث المظهر، تسم بالبيكاراة المحض، لأن البيكاراة وجود هو من حيث انه وجود في ذاته هو في أعماقه تجريد لا ينكشف إلا في الظاهر. كذلك البراءة النسوية تجريد، ولهذا السبب يمكن أن يقال إن المرأة في هذه الحالة غير مرئية.

ورجل المدرج الحسي يعيش في «الآن» ولا يعرف الماضي ولا المستقبل.

### ٢- المدرج الأخلاقي

لكن إذا كان من الصعب تحديد المدرج الحسي لأنه مشتت بين امكانات متعددة، فإن المدرج الأخلاقي - على العكس من ذلك - من السهل تحديده لأنه يقوم على حكمة منظمة وعلى حياة محكمة تضبطها الضوابط الأخلاقية. وفيه يرتبط المرء بالتزام يستبدل باللحظة العابرة وعداً أبدياً.

وقد اختار كيركجور نموذجاً له من دعاه باسم «المستشار فلهلم» الذي راح يدافع عن الزواج دفاعاً حاراً. فيقول إن الزواج هو في جوهره اختيار أمام الله، فيه كل طرف يختار نفسه في اختياره للطرف الآخر. وهو يلحق الإنسان الوعي الجاد بما هو أخلاقي، ويسمح للإنسان الأخلاقي بأن يبني مصيره وهو يكافح في سبيل بيته.

لكن الصعوبة في الزواج تأتي من المرأة، هذا المخلوق المتقلب ذي الأهواء والنزوات، والذي يصعب ربطه برابطة وثيقة ثابتة. ذلك أن المرأة - هكذا يرى كيركجور - تتسبب بطبيعتها إلى المدرج الحسي، ولا تكشف عن نفسها كشفاً كاملاً إلا في المدرج الديني. وبهذا فإنه لكي تسير الحياة الزوجية سيراً حسناً، فلا بد للرجل أن يقبل، فيما يخصه، البطولة الاخلاقية للحياة اليومية، لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لصرف زوجته عن التقلبات الخطرة بين الاستمتاع الحسي والزهد الديني.

### ٣- المدرج الديني

لكن الزواج ليس حلاً عاماً، بل لا بد أن توجد إلى جانبه حلول استثنائية. ولا شك في أن الذي يتصرف عن الحياة الزوجية ابتغاء الاستجابة إلى نداء الروح الدينية، وشارياً الحياة الأسمى بأعلى ثمن، يبلغ من الوجود مستوى أرفع من مستوى أكمل الأزواج.

وذلك هو المدرج الديني. وتتخذ كيركجور شاهداً

## ج- حياة الحب

كان موضوع الحب أكثر ما طرقه كيركجور من موضوعات في معظم كتبه. لكنه في كتابه: «حياة الحب وسلطانه» (سنة ١٨٤٧) تعلق النبرة إلى أسنى درجة. فيقول: «إن الحياة المستورة للحب تمضي في أعماق عمائقتنا، ولا يمكن سير غورها، ولهذا فإنها في انسجام عميق مع جماع الوجود. وكما أن البحيرة الساكنة عُلنتها الأولى قائمة في ينبوع المستور عن أعين الناس، فكذلك حب الانسان له عُلته الأولى في حب الله، والله علة أكثر عمقاً. وإذا لم يوجد ينبوع في الأعماق، وإذا لم يكن الله حياً، فلن توجد بحيرة ساكنة ولا حب في الانسان. وكما أن البحيرة الساكنة تدعوك إلى التأمل فيها، لكن أعماقها المظلمة، وهي تنعكس على السطح، تستر في الوقت نفسه عن العين، فكذلك الأصل المستسر لحيننا في حب الله يحول بيننا وبين النفوذ إلى أعماقه: وإذا خيل إليك أنك تراها، فذلك لأن السطح العاكس للمياه ينعكسك فيجعلك تظن أنه هو الأعماق، بينما هو يغطي الأعماق، التي هي أسفل من ذلك جداً. تصور درجاً سرياً في صنلوق: لقد زودوه بغطاء بارع له نفس المظهر الذي للعمق الأصلي الذي يظل تحت كل الأشياء، وذلك ليمنعوك من اكتشافه. وهذا هو ما يعطينا الوهم الخادع بأننا عمق الأعماق. فكذلك حياة الحب مستورة، لكن حياته المستورة هي في ذاتها حركة وتحتوي في داخلها على الخلود. وكما أن البحيرة الساكنة مهما يكن من هدوء مظهرها، هي في الحقيقة ماء جارٍ تصاعد من ينبوع الدائق المستور في أحشائه، فكذلك الحب، على الرغم من أنه ساكن في مخبئه، فإنه مع ذلك متضمن في حركة مستمرة. لكن البحيرة الساكنة في خطر أن تجف، إذا نضب ينبوع، بينما حياة الحب تندفق دائماً بغير انقطاع من ينبوع أبدي».

## نشرات مؤلفاته

أهم نشرات لمؤلفاته باللغة الدانيمركية هي:

- Sören Kierkegaards samlede Vaerker,

وأشرف على نشرها A. B. Drachman, J. L. Heiberg, H.

O. Lange وظهرت في كوبنهاجن ١٩٠١-١٩٠٦.

- Sören Kierkegaard Vaeker, Udvalg

وأشرف على نشرها F. J. Billeskov Jansen

ونموذج التهكم في نظره هو سقراط، الذي عده «فريداً في نوعه» خارج المسيحية، («البرميات» لسنة ١٨٥٤). والتهكم هو نوع من الأزدراء لكل المظاهر التي يظنها الناس وقائع حقيقية. وهو يحمينا من ثلاثة أمور: من الجذ الزائف في الحياة البورجوازية، ومن الجذ الزائف في فلسفة هيجل، ومن العبقرية الزائفة للوجود الروميتيكي، ابتغاء أن يدخلنا في الحرية الحقيقية للروح، وفي الوعي الفردي الذاتي الذي فيه يرن نداء الله.

والتهكم هو أصلق نظرة إلى التناقضات والامتحالات والأباطيل في الوجود. إنه يزيد في إبراز هذه الأمور لتبدو أكثر بشاعة ولا معقولة. ولنتظر إلى التهكم في اللحظة التي فيها يتوجه نحو جماع الوجود، هنالك سنراه يؤكد التقابل بين الوجود والظاهرة، بين الباطن والخارج. وبالقدر الذي به يمثل السلبية المطلقة، فإن من الممكن أن نميل إلى القول بالهوية بينه وبين الشك. لكن ينبغي علينا أن نتذكر أولاً أن الشك ليس إلا مقولة تصوورية، بينما التهكم هو سلوك باطن للذاتية Subjective، وثانياً أن التهكم هو في جوهره عملي وأنه لا يتضمن لحظة نظرية إلا ليقط على المستوى العلمي: وبعبارة أخرى: التهكم لا يعنى بالموضوع، بل يعنى فقط بتجربته لذاته. فإذا توصلت الذاتية إلى اكتشاف أنه وراء الظاهرة لا بد أن ثم شيئاً مستوراً ليس معطى في الظاهرة، فإن خاصية التهكم هي أن يسعى إلى أن يبقى في الذات الشعور بحريتها، بحيث تبقى الظاهرة خالية من الحقيقة تماماً في عين الذات. فهذه الحركة مضادة تماماً إذن لحركة الشك. ذلك أنه في الشك لا تكف الذات عن السعي إلى النفوذ في الموضوع، وشقلها ينشأ من كون الموضوع لا يكف عن التهرب منها. أما في التهكم فإن الذات لا تكف عن السعي إلى التخلص من الموضوع، وهذا السعي يؤدي على الأقل إلى إعطائها، في كل لحظة، الشعور بذاتيتها الخاصة والشعور بأنه ليس للموضوع أية حقيقة واقعية. في الشك تشاهد الذات مناورة هجومية لا تتوقف عن تدبير الظواهر الواحدة بعد الأخرى، على أمل الكشف عن الوجود الذي يحرص المرء على العنور عليه من ورائها. أما في التهكم فالذات على العكس من ذلك لا تكف عن التراجع إلى الوراء، وهي تنازع كل ظاهرة في أن تكون لها حقيقة خاصة، ابتغاء أن تنقذ نفسها، أي أن تحافظ على نفسها في مواجهة كل شيء في حال من الاستقلال السليبي («فكرة التهكم»، القسم الثاني، اعتبارات تمهيدية، عند نهايتها).

## كيزرلنج

## Graf Hermann Keyserling

فيلسوف ألماني.

ولد في Kōnno (في Livland إحدى دول البلطيق) في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٠؛ وتوفي في انسبروك (النمسا) في ٢٦ أبريل سنة ١٩٤٦. ودرس الجيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية في جامعات دوريات Dorpat وجنيف وهيدلبرج وفيينا. وفي سنة ١٩٠٢ حصل على الدكتوراه من جامعة فينا في الفلسفة حيث كان قد تأثر بهومتن استورت تشمبرلن فتحول إلى الفلسفة. ثم قضى بعد ذلك بضع سنوات في باريس، مع رحلات إلى إنجلترا. وفي سنة ١٩٠٦ عاش في برلين؛ وفي سنة ١٩٠٨ عاد إلى وطنه استونيا (لفنلند الآن) ليحصل على الضيعة التي ورثها عن أجداده، وكانوا جميعاً من النبلاء، في Raykull.

وفي عامي ١٩١١، ١٩١٢ قام برحلة حول العالم. لكن بعد الثورة الروسية في ١٩١٧ فقد ضياعه في استونيا، فاضطر إلى الهجرة إلى ألمانيا والإقامة فيها. وتزوج ابنة أخت بسمارك ووالدها هو الأمير هربرت.

وفي سنة ١٩٢٠ أنشأ «مدرسة الحكمة» في درمشتات (ألمانيا الغربية قرب فرنكفورت). وقام بعدة رحلات طويلة منها رحلتان مشهورتان إلى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية. وقضى بقية عمره في إقليم التيرول في جنوبي النمسا.

## آراؤه الفلسفية

ليس لكيزرلنج مذهب فلسفي منظم. ومؤلفاته تحفل فقط بالملاحظات اللامعة، واللمحات العامة الموحية، والتي تدور حول الإنسان والحياة بعامة. وقد تأثر خصوصاً بشوبنهاور ونييتشه ودلتاي وبرجسون، كما تأثر بالفكر الهندي والصيني. واتجاهه الرئيسي يتمثل في توكيده لحقوق الحياة تجاه طغيان النزعات العقلية والمادية في العصر الحاضر؛ وفي اعتماده على الوجدان، المؤدي إلى ما سماه باسم «المعرفة الخلاقية». وسعى كيزرلنج إلى توكيد الحكمة بدلاً من الفلسفة العقلية، لأنه رأى فيها ما يجافي الحياة النابضة.

ومؤلفاته شائعة في القراءة، خصوصاً يوميات رحلاته الواسعة.

وظهرت في كوبنهاجن سنة ١٩٥٠ في ٤ مجلدات اختار فيها الناشر أفضل مؤلفات كيركجور مع عرض لمحتوياتها.

وهناك ترجمة ألمانية كاملة بعنوان:

- Sören Kierkegaards Gesammelte Werke hrsg. v. , H. Gottsched und Chr. Schrempf. Jena, 1909 - 24.

كذلك توجد ترجمة فرنسية كاملة (تقريباً) قام بها P. H.

Tisseau

## مراجع

المؤلفات عن كيركجور عديدة جداً، وقد ذكر الكثير منها في الشبطين التاليين:

- Michel Thennissen: Das Kierkegaardbild in der neuen Forschung und Deutung (1945 - 1957). Deutsche Vierteljahrschrift f. Literatur Wissenschaft und Geistesgeschichte, Heft 4 (1958).
- R. Jolivet: Kierkegaard, Bern, 1984.

ونجزيء بذكر الكتب الرئيسية التالية:

- Torsten Bohlin: Sören Kierkegaard: l'homme et l'œuvre. Tr. fr. par T. H. Tisseau. Bazoges - en - Pareds, 1941.
- Walter Ruttgenbeck: S. Kierkegaard, der christliche Denker und sein Werk. Berlin, 1929.
- Walter Lowrie: Kierkegaard. Oxford, 1938.
- Jean Wahl: Etudes Kierkegaardianes. Paris, Vrin, 1938.
- Pierre Mesnard: Le vrai visage de Kierkegaard. Paris 1948.
- Remo Cantoni: La coscienza inquieta: Sören Kierkegaard. Milano, 1949.
- Johannes Hohlenberg: Kierkegaard. Basel, 1949.
- Studi Kierkegaardiani, ed. da Cornelio Fabro. Marceliano- Brescia, 1957.
- Marguerite Grimault: Kierkegaard par lui-même.. Paris, Seuil, 1962.



. dum quid  
 ويميز الاسكلاتيون في اثر أرسطو (وما بعد الطبيعة) ٤م ف١٤، ص ١٠٢٠ أ من ٣٣ وما يليه؛ «المقولات» ص ٨ ب من ٢٥ وما يليه) بين أربعة أنواع من الكيف:  
 ١ - قضيًا يتعلق بطبيعة الجوهر، فإن بعض الأحوال تناسب والبعض الآخر لا يناسب وبالتالي يؤدي إلى حال حسنة أو رديئة، مثل الصحة والمرض، الفضيلة والرذيلة، الخ. وتنقسم إلى حال dispositio وإلى ملكة habitus بحسب كون الكيف يزول بسهولة أو يكون راسخاً.  
 ٢ - ومن ناحية الفعل، يكون الكيف قوة أو عدم قوة - Potentia, impotentia  
 ٣ - ومن ناحية الانفعال، يكون الكيف انفعالات passiones أو patibiles qualitates بحسب كون الانفعال قليل البقاء أو أكثر دواماً.  
 ٤ - ومن حيث الكم، يكون الكيف إما صوراً formae أو أشكالاً figurae بحسب كون الأمر يتعلق بأشياء طبيعية أو صناعية على التوالي.

#### الكيفيات الحسية:

وقد تناول أرسطو مشكلة الكيفيات الحسية في معظم مؤلفاته، وميزها بالخصائص التالية:  
 ٢ - إن الجوهر الجسماني، بفضل كيفياته الحسية، يمكن أن ينتقل من حالة كيفية إلى حالة أخرى، مثلاً من البرودة إلى الحرارة أو الكلي، من اللون الأحمر إلى الأسود، الخ. وهو يسمي هذا باسم «الاستحالة» altération.

ب - وهذه الاستحالة تنصف بزيادة أو قلة الشدة في الدرجة، أي في الكمال الصوري.

ج - ومن الخصائص الأساسية للكيفية الحسية قبورها للأضداد، وهو ما يجعلها قابلة للانتقال من ضد إلى آخر، مثلاً من الحرارة إلى البرودة، خلال سلسلة طويلة من الأحوال الوسطى.

وفي العصر الحديث قامت المعارك حول الكيفيات الحسية لما أن بدأ تطبيق الرياضيات على دراسة الطبيعة عند جاليليو وديكارت. فعند جاليليو (Opère, éd. naz. VI, p.

#### مؤلفاته

#### «الخلود»

- Unsterblichkeit, München, 1907.

#### «يوميات رحلات فيلسوف».

- Das Reisetagebuch eines Philosophen, 2 vols. Darmstadt, 1919

#### «المعرفة الخلاقية»

- Schöpferische Erkenntnis. Darmstadt, 1922.

#### «الميلاد الجديد»

- Wiedergeburt. Darmstadt, 1927.

#### «كتاب الأصل»

- Das Buch vom Ursprung. Baden-Baden, 1947.

#### «رحلة في الزمان»

- Reise durch die Zeit. Vaduz, Liechtenstein, 1948.

#### «نقد الفكر»

- Kritik des Denkens. Innsbruck, 1948.

#### مراجع

- Paul Feldkeller: Graf Keyserlings Erkenntnisweg zum Uebersinnlichen. Darmstadt, 1922.  
 - M.G. Parks: Introduction to Keyserling. London, 1934.  
 - Rudolf Röhr: Graf Keyserlings magische Geschichtsphilosophie. Leipzig, 1938.

#### الكيف

(Gr.) ποιότης ; lat. qualitas; (F.) qualité , (E) quality

الكيف هو ما يعين الشيء، وبهذا المعنى الواسع يشمل الفصول النوعية التي تميز الأنواع المختلفة المندرجة تحت جنس واحد، كما يشمل الخواص العرضية التي لا تغير من طبيعة النوع.

والكيف لا يهب الشيء وجوده المحض esse simpliciter، وإنما يعين وجوده على هذا النحو أو ذلك secundum

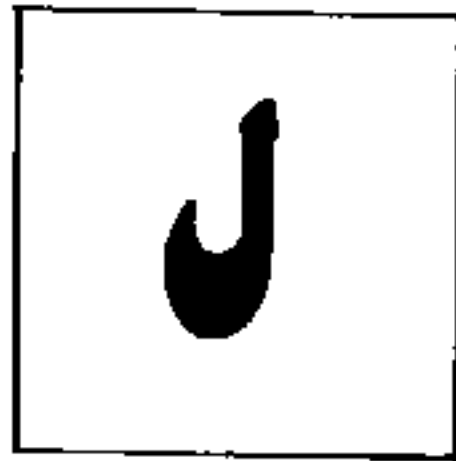


الأولية «هي بحيث يجدها الاحساس دائماً في كل جزء من المادة أي مقدار كاف لإدراكه، ويجدها العقل غير منفصلة عن أي جزء من المادة مهما يكن من صغره حتى لو لم تستطع حواسنا إدراكه» (وبحث في العقل الإنساني ٢ : ٨ : ٩ :).

#### مراجع

- R. Jakson: «Locke's distinction between primary and secondary Qualities», in *Mind*, 1929, pp. 55- 76.

(348, Firenze, 1896) نجد ذلك التمييز الذي صار مشهوراً بفضل ديكارت، بين «الكيفيات الأولية» (وهي التي تنسب إلى الجسم بفضل المادة والكم، مثل المقدار، والشكل والحركة)، و«الكيفيات الثانوية» (مثل اللون والرائحة والطعم والصوت). والكيفيات الأولية هي واقعية وموضوعية، أما الثانوية فهي ذاتية محض، ولا وجود لها في الواقع الكوني، لأنها تنبذ عن الحساب الرياضي. وقد أخذ بهذا التمييز ديكارت، كما أخذ به لوك Locke. وقد قرر لوك أن الكيفيات





# ل

## لاجاش

### Daniel Lagache

عالم نفسي فرنسي.

ولد في سنة ١٩٠٣، وتوفي سنة ١٩٧٢. دخل مدرسة المعلمين العليا، وحصل على الاجريجاسيون في الفلسفة، لكنه التحق بعد ذلك بكلية الطب حيث حصل على إجازتها؛ وقدم رسالة عن «الهلوسات النفسية الحركية اللفظية». ثم حصل على الدكتوراه في الآداب (قسم الفلسفة) برسالة مهمة عنونها: «الغيرة الغرامية» (أو: «الغيرة في العشق»). وصار بعدها أستاذاً في جامعة دييجون، ثم في جامعة استراسبورج، وأخيراً في السوربون حيث أنشأ تدريس علم النفس الاجتماعي، وأدخل التحليل النفسي، وقد كرس حياته بعد ذلك للتحليل النفسي. وله رسالة صغيرة بعنوان: «وحدة علم النفس»، ودراسات عديدة تذكر منها: «التحويل» - Transfert و«الخيالي» - imaginaire.

١٨١١. وكان من تلاميذ كوندياك المقرئين، ومن جماعة الأديولوجيين، لكنه اختلف مع كوندياك ومع الأديولوجيين في بعض المسائل. ومن أبرز تلاميذه فكتور كوزان وتيودور جوفروا.

خالف لاروجير كوندياك ومدرسته فيما يتعلق بدور العقل، فقال إنه لو كانت كل أفكارنا مجرد تغيرات في المادة الحسية التي تطبعها علينا العلل الخارجية، لاستحال علينا تفسير الانتباه، والمقارنة، والبرهنة، فهذه كلها عمليات فعالة وليست متفصلة. ولهذا ينبغي أن نميز بين النظر والتطلع، بين السماع والإصغاء؛ ولا يمكن تفسير هذا التمييز إذا كانت النفس مجرد وعاء سلبي للمهيجات الحسية.

والعمليات التي يقوم بها العقل ثلاث: الانتباه، المقارنة، البرهنة. وناظرها ثلاث عمليات تقوم بها الإرادة هي: الرغبة، التفضيل، والحرية. والحرية هي القدرة على الفعل أو عدم الفعل.

واهتم لاروجير بتحليل الأفكار ورأى أن ذلك هو المهمة الوحيدة للميتافيزيقا.

### مؤلفاته

- *Projet d'éléments de métaphysique*. Toulouse, 1793.
- *Sur les paradoxes de Condillac*. Paris, 1805.
- *Leçons de philosophie sur les principes de l'intelligence*. Paris 1815- 18.

### مراجع

- François Picavet: *Les Idéologues*. Paris, 1891, pp.

## لاروجير

أستاذ فلسفة فرنسي.

ولد في Livignac-le Haut (في نواحي Rouergue فرنسا) في سنة ١٧٥٦، وتوفي في سنة ١٨٣٧ في باريس. رسم قسيساً وهو في مطلع الشباب، ومارس الخدمة الدينية فترة قصيرة. ثم صار مدرساً للفلسفة في قرقسون وتارب وتولوز وأستاذاً في كلية الآداب (السوربون) بباريس سنة

الوضعية التي بدأت تنتشر في فرنسا تحت تأثير أوجست كونت. ذلك لأنه بتأثير فلسفة كنت - وهو صاحب الفضل في تصحيح الفكرة التي نشرها التلفيقيون (مثل كوزان) في فرنسا عن مذهب كنت - تقول إنه تحت تأثير فلسفة كنت عزا إلى العقل المحض (أي السابق على التجربة) دوراً كبيراً في تكوين المعرفة، إذ العلم ليس نسخة من التجربة الغليظة والوقائع، لأن العلم يتوقف على عناصر سابقة على التجربة. «وأدق التجارب لا تفيد إلا في أن تخبرنا حقاً كيف ترتبط الظواهر تحت أبصارنا، أما أنه يجب عليها أن ترتبط دائماً في كل مكان على نفس النحو - فهذا ما لا تعلمنا إياه التجربة. ولكن هذا هو ما لا نتردد أبداً في توكيده» (في أساس الاستقراء، ص ٣) والقوانين ليست مجرد تعداد للوقائع. وكل واقعة هي في ذاتها عرضية ممكنة contingent. وأية مجموعة من الوقائع، مهما يكن مقدارها، تبدي دائماً عن طابع الإمكان العرضي Contingence هذا، بينما القانون يعبر عن ضرورة، على الأقل مفترضة، إذ هو يقرر أن ظاهرة ما يجب بالضرورة أن تتلو أو أن تصحب ظاهرة ما أخرى. والاستنتاج من الوقائع إلى القوانين سيكون إذن هو الاستنتاج من الجزئي، إلى الكلي، بل وأيضاً من الممكن إلى الضروري. فمن المستحيل إذن أن تعدد الاستقراء عملية منطقية (الكتاب نفسه، ص ٥ - ٦).

والاستقراء ممكن لأنه يقوم على مبدأ مزدوج: مبدأ الفاعلية، ومبدأ الغائية، فبمبدأ الفاعلية: كل ظاهرة تعين ظاهرة أخرى بأن تسبقها؛ ومبدأ الغائية يقرر أن الكل يجد وجود أجزائه.

وفي كتابه: «علم النفس والميتافيزيقا» يدافع لاشليه عن الميتافيزيقا بحماسة ظاهرة، ويحمل على نظرية الشعور الظاهري الإضافي التي يقول بها علم النفس الفسيولوجي، ويقول: «إذا كان الشعور ليس حقيقة، فلنا الحق في أن نتساءل: من أين ينشأ وهم الشعور؟... من الممكن ألا يكون الإحساس، في ذاته، غير حركة عضوية تمضي من الطرف إلى المركز وأن الإرادة استمرار لهذه الحركة نفسها التي تقود من المركز إلى الطرف. لكن وقائع الشعور التي نسميها إحساساً وإرادة لا تشبه الحركة، ولا إدراك الحركة» (وعلم النفس والميتافيزيقا، ص ١٢).

ولمعرفة الفكر في شموله لا يكفي التحليل النفسي، بل لا بد من إكماله بالتركيب الميتافيزيقي. «والفكر المحض فكر ينتج نفسه ولا نستطيع أن نعرفه بحسب طبيعته الحقيقية إلا

520- 548.

- H. Taine: Les philosophes classiques du XIX<sup>e</sup> siècle en France. Paris, 1868, chap. I.

## لاشليه

### Jules Lachelier

فيلسوف فرنسي برز في المنطق.

ولد في فونتنبلو Fontainebleau (إحدى ضواحي باريس) في سنة ١٨٣٢ وتوفي فيها أيضاً سنة ١٩١٨.

كان تلميذاً نابياً في ليسييه لوي لوجران (باريس)، ودخل بعدها مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٨٥١ وحصل على الليسانس في الآداب (قسم الفلسفة) من السوربون (كلية الآداب) ثم على الأجر يجامسيون في الآداب سنة ١٨٥٦. وأخذ في دراسة «معالومات أفلاطون» بتوجيه من رافيسون، كما درس دي بيران وأمانويل كنت.

وعين مدرساً في مدرسة المعلمين العليا (١٨٦٤ - ١٨٧٥) وتأثيره وتوجيهه كَوْنُ نخبة ممتازة من دارسي الفلسفة في مدرسة المعلمين العليا؛ نذكر منهم: ريبو Ribot واسبيناس Espinas وبوترو وماريون Marion وليار Liard، ورايه Rabier وهوريساك Dauriac وإيجيه Egger وبيروشار Brochard، ولانيو Lagneau وسكاي Séailles.

ثم حصل على الدكتوراه في سنة ١٨٧١ برسالتين الكبرى بعنوان: «أساس الاستقراء» (بالفرنسية)، والصغرى (باللاتينية) بعنوان: «في قوة القياس».

ثم صار مفتشاً عاماً للتعليم بوزارة المعارف، ثم رئيساً لامتحانات لاجريجاسيون.

ولكنه كان قليل التأليف، حتى انحصر إنتاجه في رسالتي الدكتوراه وفي مقالات صغيرة أهمها مقالة عن «رهان يسكال» (سنة ١٩٠١) - وجمع كل إنتاجه هذا في مجلدين متوسطين في الحجم. والغريب أنه في وصيته أمر بمنع نشر رسائله إلى الآخرين كما منع نشر محاضراته. وقد أسهم ببعض الملاحظات على معجم لاندل للفلسفة.

أما في اتجاهه الفلسفي فإنه كان يرفض التجريبية

## فلسفته

وفلسفة لافل يسميها هو «فلسفة الروح» وقد تعاون هو ورينيه لوسن Le Senne على الاشراف على إصدار مجموعة فلسفية تحت هذا العنوان، لدى الناشر Aubier، وتشتمل المجموعة على مؤلفات برديائف، وكيركجور، وجبريل مارسل، إلخ.

ويسيطر على فكره الفلسفي فكرتان رئيسيتان هما: «الباطن المحض»، و«الوجود المطلق». ويمتزج مذهبه بعناصر من المسيحية، ووجودية كيركجور، وفلسفة الشعور الباطن عند مين هي بيران وبرجسون.

وأسلوبه في غاية الوضوح، والترتيب، على العكس تماماً من زميله لوسن ذي الأسلوب الغامض والكتابة المشوشة والتكرار الممل.

وقد ابتداء لافل مذهبه الفلسفي من تقرير كُتبت أننا لا نعرف الأشياء في ذاتها، بل نعرف فقط امتالاتنا لها، وبالتالي ينحصر العلم في الشعور. فجاء لافل وقال إن علينا أن نتوجه إلى «الباطن» أي الوعي الإنساني لتكتشف فيه الحقائق. وأول ما نكتشفه هو أننا نشارك في فعل أولي، يتوقف عليه وجودنا، ووجود العالم كله. إننا نجد أنفسنا «مشاركين» في أمر يتجاوزنا بما لا نهاية له من المرات، يسميه «الفعل» وينعته بصفات الموجود المطلق أو الله. إننا نشارك في «المطلق».

و«المطلق» فعل محض، وهو ينبوع اللانهائي لديناميكية الوجود، ومصدر كل الصور أو الماهيات، ومنه تستمد الكائنات الفردية وجودها المتناهي المحدود.

و«المطلق» حرّ حرية مطلقة، والإنسان يشارك في هذه الحرية ضمن حدود، إذ هو محدود بتلقائية الغريزة. وحياتة الإنسان سعي للتخلص من الحدود التي فرضتها الغريزة على الإنسان. وبهذا يخلق الإنسان حياته الروحية الذاتية.

«إنني بوصفي ظاهرة أو جسماً، فإنني أكون جزءاً من العالم، لكن من حيث أنني ذات (أنا moi) فإنني لا أوجد إلا في الفعل الذي به أخلق نفسي؛ إنني أشارك في قوة خلقة أنا أخلقها، لكنها هي ليست بذات حدود.» (في الزمان والسرمديّة ص ١٧ - ١٨. باريس سنة ١٩٤٥).

والفعل الذي أفعله يدخلني في الوجود، لا في الظاهرية؛ والفعالية التي يمتح منها، والتي تتجاوزني، هي

بانتاجه بواسطة عملية تشييد قبلي وتركيب. وهذا الانتقال من التحليل إلى التركيب هو في نفس الوقت انتقال من علم النفس إلى الميتافيزيقا (الكتاب نفسه، ص ١٥٨). ويقول أيضاً إن الإنسان الباطن مزعوج: ولا عجب في أن يكون موضوع علمين يكمل كل منهما الآخر. إن ميدان علم النفس هو الشعور الحسي، ولا يعرف من الفكر إلا النور الذي ينشره على الإحساس. وعلم الفكر في ذاته، والنور في منبعه، هو الميتافيزيقا (الكتاب نفسه ص ١٧٢ - ١٧٣).

## مراجع

- C. Bouglé: *Spiritualisme et Kantisme en France. Les Maîtres de la philosophie universitaire en France*, éd. Maloinc, Paris.
- L. Brunschwig: *Ecrits philosophiques*, pp. 197- 210, 315- 326.
- R. Jolivet: *De Rosmini à Lachelier*. Paris, Vitte 1954.
- G. Mauchassat: *L'Idéalisme de Lachelier*, Paris, 1961.
- L. Millet: *Le Symbolisme dans la philosophie de Jules Lachelier*. Paris, P.U.F. 1959.
- G. Séailles: *La philosophie de Jules Lachelier*, Paris, 1921.

## لافل

## Louis Lavelle

فيلسوف فرنسي ذو نزعة روحية وجودية.

ولد في سان مرتان دي قلوبال Saint- Martin- de- Villereal (في جنوب غربي فرنسا) في ١٥ يوليو سنة ١٨٨٣ وتوفي في باريس في أول سبتمبر سنة ١٩٥١.

قام بالتدريس في بعض المدارس الثانوية، وكُلف بمحاضرات في السوربون من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٤، ثم عين أستاذاً في الكولج دي فرانس سنة ١٩٤١ وبقي في هذا المنصب حتى وفاته.

## مؤلفاته

- La Dialectique du monde sensible. Strasbourg, 1921.
- La Perception de la profondeur. Strasbourg, 1921.
- La Dialectique de l'éternel présent:
  - vol. I: De l'être. Paris, 1928.
  - II: De L'acte. Paris, 1937.
  - III: Du temps et de l'éternité. Paris, 1945.
- La Conscience de soi. Paris, 1933.
- La Présence totale. Paris, 1934
- Les Puissances du moi. Paris, 1939
- L'Erreur de Narcisse. Paris, 1939.
- Le Mal et la Souffrance. Paris, 1940.
- Introduction à l'ontologie. Paris, 1947.
- Traité des valeurs. 1951, Paris.
- Le moi et son destin. Paris, 1936.
- La Philosophie française entre les deux guerres. Paris, 1942.
- La Parole et l'écriture. Paris, 1942.

## مراجع

- Pier G. Grasso: L. Lavelle. Brescia, 1948.
- O.M. Nobile: La filosofia di Louis Lavelle. Firenze, 1943.
- G. Truc: De Jean- Paul Sartre à Louis Lavelle, ou désagrégation et intégration. Paris, 1946.

## الاند

## André Lalande

صاحب «المعجم الفلسفي» المشهور، فيلسوف وباحث في علم المناهج، فرنسي.

ولد في ديجون Dijon في ١٩ يوليو سنة ١٨٦٧. وبعد اتمام دراسته الثانوية دخل مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٨٨٥، وحصل على الليسانس والأجريجاسيون من كلية الآداب بجامعة باريس. وحصل على الدكتوراه في سنة ١٨٩٨

فعالية مطلقة ليس خارجها شيء. «وتلك هي التجربة الأولية التي لدي عن نفسي، والتي تولجني في المطلق، وتنميتها هي الميتافيزيقا، وما على الميتافيزيقا إلا أن تصف أحوالها وشروطها وأن تبيّن كيف أن التفاضل المزدوج للفعل الذي أشرك فيه ولفعل المشاركة أولاً، ثم لهذا الفعل نفسه وللمعطي الذي يناظره، أي الظاهرة، لا يمكن أن يتحقق إلا بالزمان». (الكتاب نفسه، ص ١٨).

وخاصية الأنا هي أن تضع كل الوجود موضع التساؤل ابتغاء أن تسجل فيه وجوداً هو وجودي والزمان هو شرط هذا المسلك. والزمان هو الفترة الضرورية لتحقيق المشاركة. والمكان يرتبط بالسرمدية. والزمان، خارج علاقته بالسرمدية، لا يمكن أن يتصور... لأن بين الزمان والسرمدية امتزاجاً symbiose حقيقياً. وكما أن الزمان لا يوجد إلا بالسرمدية الحاضرة فيه دائماً، فكذلك السرمدية لا توجد - بدورها - إلا بالزمان الذي هو فعاليتها الخلاقة. لكن لا يكفي أن نعتبر السرمدية ينبوعاً والزمان بمثابة تيار جار من هذا ينبوع. بل ينبغي أن نقول إن الأنا يمتص من السرمدية مستقبلاً، كما يستعيد ذات يوم، بواسطة ماضٍ سيكون له... لكن سيكون من الخطأ الفاحش أن نظن أن السرمدية، بالنسبة إلى كل واحد منا، ليست إلا تأمل الإنسان لماضيه، حتى لو أضفنا إلى ذلك الألم أو السرور الذي يمكن أن يصحب ذلك النور الذي نراه فيه فجأة. (الكتاب نفسه، ص ٤٣٤ - ٤٣٥). إن الماضي يعطي لوجودنا الجزئي نافذة على لا نهائية الفعل المحض.

وإذا كان لدينا شعور بالسرمدية، فلا بد أن يتحقق ذلك إبان حياتنا. أما بعد الموت فلا يمكن أن يكون لدينا أية تجربة عنه.

والصيرورة devenir لا تنفصل عن أي وجود للمشاركة، أي عن وجودنا نحن؛ بل هي الوسيلة التي بواسطتها يتكون وجودنا ويتحقق ويعاني نتائج أفعاله. وبالصيرورة تتحقق تجربتي، ويفصح العالم عن محتواه الغني، ويتغذى فعل مشاركتي.

لكن هذا العالم الذي يموت باستمرار، عن طريق الصيرورة، يُبعث أيضاً في كل آن.

وتحقق ماضينا عند الموت يعني الانتقال الجذري من الوجود المحدود إلى الوجود اللامتناهي. ولهذا فإن المشاركة تبدو كما لو كانت هي الوسيلة لنجاة الإنسان نجاة نهائية.



المجانس إلى اللامجانس، على نحو آلي خالص. وعلى عكس هذا يرى لالاند أن القانون الأعم، سواء في النظام الفيزيائي، والنظام الانساني، هو التضام أي الاتجاه من اللامجانس إلى التجانس. وللبرهنة على رأيه هذا يبحث مسر التقدم في أربعة أشكال رئيسية للتضام، هي: التضام الميكانيكي، التضام الفسيولوجي، التضام النفساني، والتضام الاجتماعي.

١ - التضام الميكانيكي: يرى لالاند أنه يوجد في العالم الميكانيكي سير إلى المساواة. «ومبدأ السير نحو المساواة يُبين أنه في العالم الميكانيكي، المعزول بالتجريد، كل شيء يسير من المختلف إلى المشابه، ومن اللامجانس الكبير إلى التجانس الكبير. فالكتل الأشد نشاطاً، بدلاً من أن تستولي باستمرار على طاقة جديدة، تُسلم طاقتها إلى تلك التي تكون أقل قدراً من التوزع والانقسام. وبالجملة فإن القانون العام للعالم الملدي يتألف في مجموعه من تضام».

٢ - التضام الفسيولوجي: وفي العالم الفسيولوجي يوجد تفاضل تدريجي قريب مما يراه اسبنسر، لكن فيه أيضاً تضاماً. ويكفي أن نسوق مثلاً صارخاً وهو الموت، الذي هو انحلال الطبيعة وكذلك نحن نشاهد في كل الكائنات الحية المحيطة بنا أن السورة الحيوية المطبوعة في الفرد بواسطة الكون لا تستمر إلى غير نهاية كما تفعل حركة قذيفة في مكان فارغ، بل مسلكها مسلك حجر يقذف به، ولكن الثقل يجعله يبطيء أولاً ثم يتوقف وأخيراً يعود إلى الأرض بسقطة في اتجاه مضاد لاندفاعه الأول، «الفكرة الموجهة للانحلال...» ص (١٢٣). وظواهر أخرى مثل الاقتران conjugaison، وهو طريقة الاكثار لدى الحيوانات الأولية والطحالب، والإخصاب لأن المزج، وتبعاً لذلك عدم فردية العنصرين المكونين - هما جوهر الإخصاب. وعند الإنسان، بوصفه موجوداً واعياً نجد أن تضاماً فسيولوجياً يصحب التطور البارز للفكر التأمل.

٣ - التضام النفساني: يرى لالاند أنه لا يمكن رد الواقعة النفسية إلى واقعة فسيولوجية. والعقل والحرية يعدلان تعديلاً واضحاً في سير التطور لدى الإنسان. «فإن ما ينبغي أن يكون موضوع حكم معياري، يتبدى لنا على ثلاثة أشكال: في ميدان الحساسية: الجميل؛ وفي ميدان الفكر: الحق؛ وفي ميدان الفعل: الخير. ومن هنا نشأت العلوم الثلاثة التي تعطي الفلسفة - أكثر من غيرها - هيئتها الخاصة: الأخلاق، المنطق، علم الجمال. ويبدو لنا أن كل فعل، وكل قول -

برسالتين: الكبرى بعنوان: «الفكرة الموجهة للانحلال في مقابلة الفكرة الموجهة للتطور»، والصغرى بعنوان: «رأي (فرنسيس) بيكون أوغ فيرولم في الرياضيات العقلية والطبيعية». وعين في إثر ذلك مدرساً في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة باريس (السوربون)، وفي سنة ١٩٠٤ صار أستاذاً لمناهج البحث في نفس القسم، واستمر في هذا المنصب حتى بلغ سن التقاعد في سنة ١٩٣٧.

وقد تولى تدريس الفلسفة في قسم الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية على فترتين: الأولى في ١٩٢٦ - ٨ والثانية فيما بين أكتوبر سنة ١٩٣٧ ومارس سنة ١٩٤٠. وأثناء هذه الفترة الثانية كان لنا حظ التلمذ عليه، وكان يدرس لنا مناهج البحث العلمي، وأشرف على رسالتنا للماجستير عن: «الموت في الفلسفة المعاصرة». وندين له بفضل عظيم في تكويننا الفلسفي.

وكان لالاند عضواً في معهد فرنسا (أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية)، كما أشرف لفترة طويلة على امتحانات الاجريجاسيون في الفلسفة.

وتوفي في ديسمبر سنة ١٩٦٣ في أنيير (Asnières) إحدى ضواحي باريس) حيث كان يقيم.

#### آراؤه

لالاند كان من أشد خصوم نظرية التطور عند اسبنسر ودارون وغيرهما من التطوريين. وقد كرس رسالته الكبيرة التي حصل بها على الدكتوراه من السوربون في سنة ١٨٩٩ للرد على مذهب التطور، وعنوانها: «الفكرة الموجهة للانحلال في مقابلة الفكرة الموجهة للتطور في مناهج العلوم الفيزيائية والأخلاقية» (باريس، الكان، سنة ١٨٩٨)، وقد طبعها طبعة ثانية سنة ١٩٣١ تحت عنوان موجز هو: «الأوهام التطورية». (باريس، الكان، سنة ١٩٣١)، حلف فيها ما هنالك من مواضع صارت غير ذات فائدة بسبب التقدم في ميدان الفيزياء والبيولوجيا والوقائع الاجتماعية. كذلك استبدل لفظ «تضام» involution باللفظ الغامض: «انحلال» dissolution الذي استعمله في الطبعة الأولى.

يهاجم لالاند مذهب هربرت اسبنسر لأن اسبنسر يسعى إلى تفسير واحدي وفيزيائي خالص لكل ظواهر الكون، بما في ذلك الظواهر العقلية، ولأنه جعل مسار التطور من

حضارة ما، بل وأيضاً أن يستجيب لحاجة معلومة واهتمام معين وطموح جوهرى للإنسانية» (ص ٢٣٩). إن الفن هو حامل لواء التضام، وهو يبشر بملكوته العقل.

٤ - التضام الاجتماعي: مع تقدم الفكر تسقط كل العلامات الخارجية للتخصص، بعد أن كانت مصدر اعتزاز وفخر. «إن قليلاً من تقسيم العمل يمكن أن يعوق حياة العقل. والتعاون المتقطع إلى أقصى درجة يمكنه بيعت حياة العقل. وكلما كان الإنسان - في العمل الذي يكسب به معاشه - ترمساً صغيراً في الآلة الكبيرة، ازدادت مطالبته بحق الاستمتاع، على نحو شريف، بهذه الحياة إذا ما اكتسبت، أعني أن يكون إنساناً، ومساوياً لكل الناس» (ص ٢٨٥).

كذلك نجد «أن كل تقدم للعقل والحضارة يقلل المسافة التي تفصل بين الرجل والمرأة» (ص ٢٩٧ - ٨).

والتضام موجود في ميدان الأسرة. ويفضل تعميم التعليم العام وانتشار المدارس التي تنشئها الدولة، يزداد التضام بين الأسر والأولاد، أي يزدادون تشابهاً وانسجاماً.

والعلاقات بين الأمم والشعوب تسير في اتجاه المزيد من التجانس، ويعمل في هذا الاتجاه عوامل عديدة وقوية منها: الترجمة من لغة إلى أخرى، ومقالات الصحف، والاصطلاحات الصناعية، واتخاذ بدع عام في الأزياء. والخلاصة هي أنه على الرغم من البقايا الظاهرة للتفاضل والتباين، فإن التقدم ينحو نحو التشابه.

كل هذه السلاسل من الوقائع تفند مذهب التطور عند اسبنسر القائم على السير من المتجانس إلى اللامتجانس، وتؤيد ما يذهب إليه لالاند من أن التطور (أو التقدم) يسير على عكس هذا: إنه يسير من اللامتجانس إلى التجانس، من الاختلاف إلى التشابه، من التفاوت إلى المزيد من المساواة.

ويسمى لالاند، في دراساته الأخلاقية، إلى تطبيق قانون التضام على الأخلاق. فهو يرى أن الأفكار الأخلاقية تقدم طابعاً تضامياً. فالعدالة هي رؤية الأشياء ورؤية النفس بطريقة لا شخصية، والنظر إلى أشباهنا في الإنسانية نظرتنا إلى أنفسنا. ومن هنا يدعو لالاند في الأخلاق إلى «العمل على تقليل الفروق بين المواطنين، وهي الفروق التي يولدها اختلاف الطبقات والوظائف؛ وإلى محاربة كل استغلال، وما ينجم عنه من عدم المساواة؛ وإلى اشراك الشعب كله، قدر

وكل فكر، حينها تكون غايته إحلى الأفكار الموجهة الكبرى الثلاث في طبيعتنا الواعية، تعمل على إحداث تقدم في العالم في اتجاه مصاد للتطور، أعني أنها تقلل التفاضل والتكامل الفرديين، ونتيجتها جعل الناس أقل اختلافاً بعضهم عن بعض، وجعل كل واحد، لا بمثابة ذلك الحيوي الذي يريد أن يتلع العالم في صيغة فردية، بل جعله يعمل على التخلص من أنانيته التي تحصره فيها الطبيعة، وذلك بجعله يشعر بنوع من الوحدة والهوية بينه وبين سائر الناس» (الكتاب نفسه، ص ١٧٢ - ١٧٣).

وحاول لالاند بيان هذا الاتجاه بالنسبة إلى العقل، والنشاط الأخلاقي، والحساسية الجمالية:

(أ) بالنسبة إلى العقل: قام لالاند بفحص تاريخ سير العلم فانتهى إلى النتيجة التالية: «ليس فقط لا يوجد علم وضعي إلا إذا كانت النتائج تنحو نحو التشابه، وبالتالي جعل الناس يفكرون بنفس الطريقة، بل حتى في ميدان العلوم الأخلاقية - وفيه يكثر الجدل ويسمى بعض التطوريين إلى أن يجدوا فيه تفاضلاً للتأججات أو لوجهات نظر العقل - ربما ليس من المستحيل بيان أن السير نحو التأمل يتم بغير انقطاع من الكثير إلى الواحد، من اللامتجانس إلى المتجانس، وفقاً للقانون العام للفكر» (ص ١٩٧). «وبينما تتكاثر الحياة كشجرة ينقسم جذعها ويتفرع إلى غير نهاية، فإن تقدم العلم يمكن تشبيهه بحركة في اتجاه عكسي لجداول وأنهار تمتزج أمواجها في نهر واحد، يزداد اتساعاً واطراداً في مجراه» (ص ٢٠٠).

(ب) البرهان بالنسبة إلى الأخلاق: اتجهت الأخلاق إلى إدانة ما هو فردي لصالح ما هو كلي ضروري سرمدى. فأساس الرواقية هو توقيف العقل، أعني ما هو كلي ومشارك بين الناس. وحب القريب في انجيل يسوع المسيح هو تحقيق لما هو كلي. وعند اسپينوزا أن اعتبار الأشياء من ناحية الله يعني النظر إلى الأشياء من وجهة نظر سرمدية مشتركة في كل الكون.

(ج) البرهان بالنسبة إلى العاطفة الفنية: وفي الفن اتجاه نحو تشكيل ملك موضوعي مشترك. «إن الفن يتبع عن الفردية، لكنه لا ينحون نحو إيجادها، ولا إلى زيادتها إذا ما نتجت». والعمل الفني «حتى يكون شائقاً... يجب ليس فقط أن يحتوي على عناصر مشتركة بين كل العقول المثقفة في

والفلاسفة. ويبين لالاند أن فرنسيس سيكون ليس تجريبياً سطحياً كما يعتقد عادة، بل هو بالأحرى متافيزيقي، بمعنى أنه يرى وجوب معرفة الطبيعة الحقيقية الباطنة لكل ما فيه من الخصائص الحسية التي تهمنا. وهذه الصفات (أو الكيفيات) منظوراً إليها كما هي في نفسها هي ما يسميه باسم: الأشكال forms.

أما فكرة الفرض *hypothèse* فقد احتفظت، حتى عصر النهضة، بالمعنى الرياضي الذي كان لهذه الكلمة عند أفلاطون وأرسطو طاليس، كما نقول: هاتان الزاويتان متساويتان بالفرض. وهذا أيضاً معنى هذه الكلمة عند ديكاروت. لكن في عصر ديكاروت اتخذت كلمة «فرض» معنى جديداً هو: اقتراح يتحقق بواسطة نتائجه. وهذا هو الفرض الافتراضي *conjecturale*. أما العداوة الصريحة التي أبدتها اسحق نيوتن ضد الفروض فإنها لا تتناول إلا الفرض الوهمي المجاني، الذي هو مجرد إمكانية تخيلها دون أن نبررها. ونيوتن نفسه قد استعمل الفروض مراراً، الفروض بالمعنى الحالي لهذه الكلمة. وعلى الرغم من سوء فهم البعض لرأي نيوتن في الفروض، فقد جاء هوك وهويجنس وهيرنسل وهوول وأشادوا بأهمية افتراض الفروض الاقتراحية في البحث العلمي. وجاء جون استيورت مل فوضع أشهر نظرية في الاستقراء وأكد دور الفرض.

#### «معجم الفلسفة»

لكن أخذ آثار لالاند هو من غير شك «المعجم الفني والتفني للفلسفة»، ولا يزال حتى اليوم خير معجم لمصطلحات الفلسفة في أية لغة كانت. وقد بدأ العمل فيه سنة ١٩٠٠ تحت رعاية الجمعية الفرنسية، للفلسفة، ولم يتم إلا في سنة ١٩٢٦. كان لالاند يكتب المصطلح الفلسفي والمعاني التي ينطوي عليها مع شواهد من مؤلفات الفلاسفة تؤيد المعنى، ثم يعرض عمله هذا أولاً بأول على أعضاء الجمعية الفرنسية للفلسفة في جلسة خاصة تعقد مرة في كل عام، ويبدى الأعضاء آراءهم فيما كتبه لالاند عن المصطلح، وتسجل آراؤهم على شكل تعليقات تحت المواد، تشغل القسم الأسفل من الصفحة، ويزودها لالاند بما يبين ما أجراه من تعديل وفقاً لهذه الآراء إن رأى ضرورة التعديل، وإلا فسيجد القارئ هذه الآراء مدونة كما أبدتها أصحابها.

وكان المبدأ الذي اعتمده لالاند في تحريره لمعجمه هذا

الإمكان، في الحياة العقلية وفي ثقافة العقول الأكثر غمواً ونضوجاً» (موجز ميرهن عليه في الأخلاق العملية» ص ٤٠، باريس سنة ١٩٠٧).

ومن الأفكار الأساسية التي تقوم عليها فلسفة لالاند - فكرة «العقل المكوّن والعقل المتكوّن». يرى لالاند أن العقل هو «ملكة ردّ الأشياء إلى الوحشة» (قرآنت في فلسفة العلوم» ص ٣٣٥). ويقرر أن في الإنسان طبيعة عالية، وطبيعة سافلة، وللأولى حق السيادة على الثانية. والعقل يستيق التجربة ويفهمها. ووظيفة الفكر ليست تجريبية محضة. والعقل إما مكوّن، وإما متكوّن. فالعقل المكوّن محض، بينما العقل المتكوّن يمتزج بعناصر غريبة غير عقلية. «والعقل المكوّن فعال، لكنه لا يقبل الإدراك في حالة خالصة مثل النور بدون ظل. والعقل المتكوّن يمكن أن يعبر عنه في صيغ، لأنه اتخذ مكانه في مادته، لكن ذلك على حساب معقوليته. ويتكوّن من: (١) حقائق مكتسبة، ومقولات وتصوّرات كرسها الاستعمال، وقيم مقبولة بالاشتراك؛ (٢) قواعد فكر؛ (٣) قواعد سلوك ذوات جزاء، ومن غير شك قواعد للحكم الجمالي» (محاضرة بعنوان: العقل المكوّن والعقل المتكوّن»، نشرت في «مجلة الدروس والمحاضرات» في ١٥ أبريل سنة ١٩٢٥، ص ١٢). والعقل المتكوّن يضع نفسه بسهولة في خدمة الغايات الفردية، أما العقل المكوّن فيقف حائلاً دون هذا الميل الأناني. وقد اسهم كبار المفكرين وكبار العلماء في تقدم المعرفة على حساب مصالحهم الأنانية.

والحركة العقلية تسعى إلى القضاء على ألوان التفاوت الموجودة: مثل التفاوت بين الطوائف *castes*، والطبقات، والهيئات ذوات الامتيازات، إلخ.

#### نظريات الاستقراء والتجريب:

وقد قضى لالاند معظم حياته التعليمية في السوربون وجامعة القاهرة يدرس مناهج البحث العلمي. وألقى في السوربون محاضرات في العام الجامعي ١٩٢١ - ١٩٢٢ عن «نظريات الاستقراء والتجريب» حررها في كتاب ظهر بنفس العنوان سنة ١٩٢٩ (عند الناشر بواقان، باريس).

يتساءل لالاند: متى نشأ المنهج التجريبي بالمعنى الدقيق؟ إن المؤسس الحقيقي للمنهج التجريبي بالمعنى الدقيق هو فرنسيس بيكون، وإن كان قد سبقه إلى الدعوة إلى التجريب والاستقراء التجريبي العديدون جداً من العلماء

guerres. Paris, 1942.

- Colin Smith: Contemporary French Philosophy. London, 1964.

## اللاماركية

### Lamarckisme

نسبة إلى عالم الأحياء الفرنسي العظيم جان لامارك Jean Baptiste de Lamarck (١٧٤٤ - ١٨٢٩) الذي أودع خلاصة بحثه عن أصل الأنواع الحيوانية في كتابه الشهير «فلسفة علم الحيوان» (سنة ١٨٠٩) La philosophie zoologique، وحاول فيه ليس فقط بيان أصل أنواع الحيوان، بل وأيضاً حاول تفسير تحول هذه الأنواع بعضها إلى بعض وانتهى إلى تقرير المبادئ التالية:

- ١ - تغير ظروف البيئة المحيطة بالحيوان يؤدي إلى تغير الأجهزة العضوية فيه.
- ٢ - الحاجات الناجمة عن هذا التغير تؤدي إلى خلق أعضاء ملائمة.
- ٣ - الأعضاء والتراكيب في الحيوان تقوى وتحسن بفضل تقوية استعمالها، وتضمحل بسبب قلة استعمالها أو ضعفه.
- ٤ - بتوالي الأجيال تصبح هذه التغيرات وراثية.

## اللامتناهي

### Infini

يطلق «اللامتناهي» على معانٍ متباينة، بل ومتقابلة:

- (١) إذ يطلق أولاً على ما ليس له حد، أعني نهاية
- (٢) كما يطلق على ما لا شأن له بالحد، إذ يعوزه كل إشارة إلى حد أو نهاية.
- (٣) واللامتناهي أمر سلبي وناقص.
- (٤) أو هو أمر إيجابي وتام.
- (٥) واللامتناهي أمر بالقوة فقط، إنه في حال صيرورة لا في حال وجود.
- (٦) أو هو أمر بالفعل ومعطى كله.

هو ألا يوردد في أية مادة إلا ما هو ضروري لتقرير المعنى الفعلي للمصطلحات الفلسفية، وما يمكن أن يفيد في الإسراع في نموه التلقائي في اتجاه المزيد من التدقيق والكلية.

وهو كما قلنا معجم مصطلحات فقط، أي يعطي مختلف المعاني التي استعمل بها المصطلح الفلسفي لدى مختلف الفلاسفة طوال العصور، لكن دون توسع موسوعي، بل ودون تسجيل تاريخي منظم، لأن مقصوده هو تحديد المعنى، لا التسجيل التاريخي. وهذا يختلف عن المعاجم التاريخية للفلسفة، مثل معجم Historisches wörterbuch der Philosophie الذي ينشره Karlfried Gründer-Joachim Ritter ويجري ظهوره تبعاً، ويطلب في مدينة دارمشتت (بألمانيا الغربية) لدى الناشر Wissenschaftliche Buchgesellschaft، وقد ظهر منه حتى الآن (نوفمبر سنة ١٩٨١) ٥ مجلدات، تصل إلى حرف Mn.

ومنذ ظهور طبعته الأولى في سنة ١٩٢٦ نالت طبعاته وزيد فيها باستمرار، وكانت آخر طبعة أشرف عليها لالاند قبل وفاته هي الطبعة الثامنة سنة ١٩٦٢.

### مؤلفاته

- L'Idée directrice de la dissolution opposée à celle de l'évolution. Paris, Alcan, 1899; 2<sup>me</sup> édition revue sous le titre: Les Illusions évolutionnistes. Paris, 1930.
- Quid de mathematica vel rationali vel naturali senserit Baconus Verulamius. Paris, 1899.
- وهي رسالة الدكتوراه الثانية، وباللاتينية
- Lectures sur la philosophie des sciences. Paris, 1893; Hachette éd.
- Précis raisonné de morale pratique. Paris, 1907.
- Les Théories de l'induction et de l'expérimentation. Paris, Boivin, 1929.
- La Raison et les normes. Paris, 1948.
- Vocabulaire Technique et Critique de la philosophie 1<sup>ère</sup> éd. Paris. Alcan, 2 vols. 1926; 6<sup>e</sup> éd. 1 volume, 1951; 8<sup>e</sup> éd. 1 volume, 1962.

### مراجع

- L. Lavelle: La philosophie française entre les deux

هو فيما بين هذين: فأما من جعل الاسطقات متناهية، فليس منهم أحد يجعل أشياء لا نهاية لها. وأما الذين يجعلون الاسطقات غير متناهية، مثل أنكساغورس وديمقريطس، فإنهم يقولون إن «لا نهاية» متصل بالمامسة: أما أنكساغورس فعن الأجزاء المتشابهة (= الهوميومريات) وأما ديمقريطس فعن المعنى الذي يليه بـ «أصل ويندر كل شكل».

ويعلق أرسطو على آرائهم هذه قائلاً إنهم لم يخطئوا كلهم في قولهم عن اللامتناهي إنه موجود، وأنه مبدأ، لأن «كل شيء هو إما مبدأ، وإما عن مبدأ. وليس للانهاية مبدأ، وذلك أنه إن كان مبدأ فهو نهاية له؛ وإذا كان مبدأ فإنه أيضاً مبدأ لا متكوّن ولا فاسد».

وبين أن معنى «اللامتناهي» إنما قيل بسبب خمسة أشياء خاصة: «أعني من قيل: الزمان، فإن الزمان غير متناه، ومن قيل: القسمة التي تكون في المقادير، فإن أصحاب التعاليم (= الرياضيين) وغيرهم يستعملون فيها «لا نهاية»؛ وأيضاً من قيل هذا الوجه وحده يتهاى ألا يخلو- في وقت من الأوقات- الكون والفساد؛ وأيضاً من قيل أن المتناهي هو أبداً يتهي إلى شيء، فيجب من ذلك ألا تكون نهايته أصلاً إن كان يجب أبداً أن يتناهي الشيء إلى شيء غيره...»

فعل صاحب الطبيعة بخاصة أن «ينظر هل يكون قدر محسوس لا نهاية له». وفي سبيل ذلك يحدد أرسطو الوجوه التي يقال عليها «اللامتناهي»، وهي:

١- اللامتناهي هو ما لا يمكن الشروع فيه، لأنه ليس من شأنه أن نغزبه، كما يقال في الصوت إنه غير مرئي؛

٢- اللامتناهي هو «ما كان مسلكه لا آخر له، أو ما كان سلوكه بكثاً ومشقة، أو ما كان في نفسه سلوكاً غير أنا لا نقدر على سلوكه وبلوغ آخره».

٣- اللامتناهي هو ما لا نهاية له إما في الزيادة وإما في القسمة، وإما فيها جميعاً.

ثم يأخذ أرسطو في عرض آرائه في اللامتناهي فيقرر أن اللامتناهي لا يكون مفارقاً للمحسوسات وشيئاً قائماً بنفسه. إذ لو كان جوهرأ، لكان غير منقسم، وإذا كان غير منقسم فليس هو بلا نهاية إلا على الوجه الذي يقال به إن الصوت غير مرئي. «وظاهر أنه ليس يمكن أن يكون «لا نهاية» يجري مجرى ما هو بالفعل ويجرى الجواهر والمبدأ، وذلك أنه يجب أن

كذلك يميز البعض بين اللامتناهي *infini* وبين اللامحدود *indéfini*: فالأول لا يحتمل أي حد، أما الثاني فله حد ولكنه يدفع إلى الوراثة أو إلى الأمام باستمرار؛ إذ له حد، ولكنه غير معين.

وقد بحث رودلفو موندلغو في «اللامتناهي في الفكر اليوناني» واستقصى هذا الموضوع فتجبل إليه. وإننا نجد فكرة اللامتناهي عند ديمقريطس في قوله إن الذرات لا مخلوقة أو لا متناهية العدد، وإن الفراغ الذي توجد فيه الذرات لا متناهياً أيضاً. كما نجدها أيضاً مفترضة مقدماً في حجج زينون الإيلي ضد الحركة، إذ تفترض القول بقسمة المكان إلى ما لا نهاية.

لكن البحث الوافي في اللامتناهي إنما نجده عند أرسطو في كتاب «السماع الطبيعي» (المقالة الرابعة، الفصول ٤-٨، ص ٢٠٢ ب ٣٠-٣٠٨ | ٢٦)، فلنلخص ما قاله لأهميته في هذا الباب.

بدأ أرسطو بالتساؤل: «هل اللامتناهي موجود، أو لا؟ وإن كان موجوداً، فما هو؟ ويذكر أن الفلاسفة السابقين عليه تكلموا في اللامتناهي «وكلهم جعله كالمبدأ للموجودات، مثل آل فوثاغورس: جعلوه في المحسوسات، وذلك أنهم يقولون إن العدد ليس هو شيئاً مفارقاً، ولا ينسب إلى شيء آخر، بل هو بذاته جوهر. لكن الفوثاغوريين يقولون إن «اللانهاية» (= اللامتناهي) توجد في الأمور المحسوسة، لأنهم لا يجعلون العدد مفارقاً، ويقولون إن «لا نهاية» يخرج السهله.

«وأما فلاطن فيقول إنه ليس خارج الجسم جسم أصلاً، ولا الصورة- من قيل أنها ليست عنده في مكان أصلاً. غير أنه يقول إن «لا نهاية» موجود في المحسوسات وفي تلك (= أي في الصورة).

«وقومٌ قالوا إن «لا نهاية» هو الزوج، قالوا: فإن هذا، وهو واحد، إذا حوى وتناهي عن الفرد (= أي إذا حده الفرد وحصره) أكسب الموجودات أن تكون بلا نهاية.

قالوا: واللليل على ذلك ما يعرض في الأعداد... فأما أفلاطن فإنه قال إن «غير المتناهية» أثنان: الكبير والصغير.

«وأما الطبيعيون فإنهم جميعاً يصنفون «اللانهاية» طبيعة ما أخرى، غير المسماة اسطقات: مثل ماء أو هواء أو شيء؛

٣ - ولا يمكن الاستناد إلى مجرد التفكير، إذ سيكون الإفراط أو النقص ليسا في الشيء نفسه، بل في التفكير. ففي وسع أحدنا أن يظن أنه أكبر مما هو، وأن يكبر نفسه إلى ما لا نهاية. لكنه لا ينتج عن هذا أنه أكبر مما هو بالفعل.

إن الزمان والحركة كليهما لا متناه، وكذلك الفكر. أما المقدار فليس لا متناهياً لا في الزيادة ولا في النقصان.

ذلك هو عرض أرسطو لمشكلة اللامتناهي، أوردنا معظمه في نصه كما ترجمه اسحق ابن حنين (راجع نشرتنا لهذه الترجمة بعنوان: أرسطوطاليس: «الطبيعة» ج ١ ص ٢٠٢-٢٦٨ القاهرة، سنة ١٩٦٤).

ويمكن تلخيصه بعبارة سهلة كما يلي:

يرى أرسطو أن الاعتقاد في وجود اللامتناهي ينبثق عن عدة اعتبارات، هي:

١ - أن الزمان ليس له بداية ولا نهاية.  
٢ - إمكان انقسام المقادير إلى غير نهاية.  
٣ - لا يمكن حوام الكون والفساد إلا إذا كان مصدرهما لا متناهياً.

٤ - كل ما هو محدود إنما هو محدود بشيء آخر.  
٥ - فكرنا قادر على تصور عدم نهاية العدد وانقسام المقادير وما هو خارج السياء. ومن أجل إدراك حقيقة اللامتناهي ينبغي - هكذا يقول أرسطو - أن نحدد معاني هذا اللفظ:

أ) اللامتناهي ما لا يمكن بطبعه عبوره والفراغ منه.

ب) اللامتناهي هو ما مساره لا آخر له أو لا يمكن بلوغ آخره.

ج) اللامتناهي هو ما لا تنتهي زيادته ولا قسمته.  
ويرى أرسطو أن حل مشكلة اللامتناهي يقوم في التمييز بين نوعين:

أ) اللامتناهي بالقوة (ب) اللامتناهي بالفعل وهو يقرّ بالأول، وينكر الثاني. فهو يقرّ باللامتناهي بالقوة بالنسبة إلى سلسلة الأعداد، وبالنسبة إلى سلسلة النقط على الخط. واللامتناهي بالقوة له صورتان: لا متناه بالقوة فيما يتعلق بالقسمة، مثلاً قسمة الخط إلى غير نهاية بالقوة، ولا متناه بالقوة فيما يتعلق بالإضافة، مثل إضافة عدد إلى عدد إلى

يكون أي شيء منه أخذته كان - غير متناه، إن كان متجزئاً، لأنه إن كان لا نهاية جوهراً، وليس مما يقال على موضوع فإن ماهية «لا نهاية» (= أي أن يكون لا متناهياً) ولا نهاية معنى واحداً بعينه، فيجب إما أن يكون غير منقسم، وإما أن يكون منقسماً أقساماً ليس منها قسم إلا هو لا نهاية، فتكون أيضاً أشياء كثيرة لا نهائية شيئاً واحداً بعينه، وهذا محال. هـ.

وعرضي فيقول «إنه ليس يمكن، بالجملة، أن يكون جسم محسوس غير متناه» ذلك لأن من شأن المحسوس أن يشغل مكاناً، لكنه لا يمكن أن يكون مكان غير متناه، فمن المستحيل أن يوجد جسم غير متناه.

لكن ليس معنى هذا أن اللامتناهي غير موجود أصلاً، لأنه يترتب على انكاره أمور كثيرة محال: إذ يترتب على ذلك أن يكون للزمان بداية ونهاية، وأن يكون مقدار لا ينقسم إلى مقادير، وألا يكون عدد غير متناه. لكن هذا غير صحيح، إذ الزمان لا بداية له ولا نهاية، كما أنه لا يوجد شيء لا يتجزأ، وتوجد أعداد تمتد إلى غير نهاية.

والحل هو أن يقال إن اللامتناهي هو من جهة: موجود، ومن جهة أخرى: هو غير موجود. إنه موجود بالقوة، لكنه غير موجود بالفعل. فالمقدار هو بلا نهاية من حيث إمكان القسمة، لكنه بالفعل لا ينقسم إلى ما لا نهاية. «فقد حصل الأمر على أن «لا نهاية» إنما هو بالقوة. وليس ينبغي أن نفهم من قولنا «بالقوة»، كما نفهم من قولنا: إن هذا الشيء بالقوة تمثال ونحن نعني أنه سيصير تمثالاً، حتى نفهم مثل ذلك في «لا نهاية» أي أنه سيخرج إلى الفعل، وإنما المقصود هو «أن لك أن تأخذ منه دائماً شيئاً بعد شيء، وما تأخذه منه أبداً متناه، إلا أنه أبداً غير ما أخذته منه».

ويختم أرسطو الكلام عن اللامتناهي بالرد على حجج القائلين بأن اللامتناهي موجود بالفعل.

١ - فيقرر أولاً أن الكون لا يحتاج في حدوثه إلى جسم محسوس هو لا متناه بالفعل. والفساد يمكن أن يكون كوناً لشيء آخر، بينما الكل محدود.

٢ - وثانياً: هناك فارق بين اللمس وأن يكون محدوداً. فاللمس يتعلق بشيء وهو لمس لشيء، أما أن يكون محدوداً فليس يكون محدوداً بالنسبة إلى شيء. كما أن المماسمة ليست ممكنة بالضرورة بين أي شيئين أخذتهما حيثما اتفق.



غير نهاية.

أما اللامتناهي بالفعل فينكره أرسطو.

وأرسطو والروح اليونانية بعامة تنظر إلى العالم على أنه متناه، وترى المتناهي أعلى قدراً من اللامتناهي، لأن المتناهي محدود، أما اللامتناهي فغير محدود بطبيعته.

لكن جاء فيلون اليهودي Philo.Judaeus فقلب الوضع وجعل اللامتناهي أعلى مرتبة من المتناهي، على أساس أن اللامتناهي هو الذي يعم ويشمل كل متناه، وهو يحتوي على صفات لا حصر لها، بينما المتناهي يشتمل على صفات محدودة أو نهائية. وما هو أدنى في الصفات هو أدنى في الدرجة، كما أن ما هو أعلى في الصفات هو أعلى في الدرجة. لهذا فإن اللامتناهي، أعني الذي يشتمل على كثير جداً مما لا يتناهي من الصفات، أعلى من المتناهي، أي الذي يشتمل على عدد محدود معلوم من الصفات. إن اللامتناهي عند فيلون هو الذي لا يمكن حصر صفاته، بينما المتناهي محصور الصفات. ولهذا يصف فيلون الله بأنه لا متناه، لأنه يشتمل على كل صفات الكمال الممكنة أو الموجودة، ويشتمل عليها بدرجة لا متناهية.

وانتقل هذا الرأي إلى الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى الأوربية. فوصفوا الله بأنه لا متناه، ولا نهائيته مطلقة، وصفاته هي الأخرى لا متناهية: فقدرته لا تتناهي، وكذلك حبه وعلمه. وهذا اللامتناهي الإلهي لا متناه بالفعل، وليس بالقوة. وهذا اللامتناهي يتميز الله من سائر الموجودات حتى اللامتناهي (بالقوة) منها! مثل لا متناهي العدد، فإن لا متناهي العدد هو بالقوة، وليس بالفعل.

واللامتناهي لا يوجد في الأجسام المحسوسة. ولا يوجد لا متناه في المقدار بالفعل، ولا في أي مخلوق. فاللامتناهي بالفعل الوحيد هو اللامتناهي الإلهي.

أما في الفلسفة الإسلامية، فإننا نجد ابن سينا في كتاب «النجاة» (ص ١٢٤ - ١٣٠) يكرس أربعة فصول لإبطال اللامتناهي، فيقرر أنه لا يمكن أن يكون كم متصل موجود الذات ووضع غير متناه، ولا أيضاً عدد مرتب الذات موجود أيضاً غير متناه. وأعني بـ «مرتب الذات»: أن يكون بعضها أقدم من بعض بالطبع في ذاته. ثم يبرهن على أنه لا يتأتى أن يوجد مقدار ذو وضع غير متناه ولأنه إما أن يكون غير متناه من الأطراف كلها، أو غير متناه من طرف. فإن كان غير متناه

من طرف، أمكن أن يفضل من بين الطرفين الثاني جزء بالتوهم، فيؤخذ ذلك المقدار مع ذلك الجزء شيئاً على حدة بانفراد شيئاً على حدة. ثم نطبق بين الطرفين المتناهيين في التوهم. فلا يخلو: إما أن يكونا بحيث يمتدان معاً متطابقين في الامتداد، فيكون الزائد والنقص متساويين. وهذا محال. وأما أن لا يمتد، بل يقصر عنه، فيكون متناهياً، والفضل أيضاً كان متناهياً. فيكون المجموع متناهياً. فالكل متناه. - وأما إذا كان غير متناه من جميع الأطراف، فلا يبعد أن يفرض فيه مقطع، تتلاقى عليه الأجزاء ويكون طرفاً ونهاية، ويكون الكلام في الأجزاء أو الجزئين، كالكلام في الأول. وبهذا يتأتى البرهان على أن العدد المترتب الذات الموجود بالفعل متناه، وأن ما لا نهاية، بهذا الوجه، هو الذي إذا وجد ففرض أنه يحتتمل زيادة ونقصاناً، وجب أن يلزم ذلك محال.

وأما إذا كانت الأجزاء لا تتناهي وليست معاً، وكانت في الماضي والمستقبل، فغير ممتمتع وجودها واحداً قبل آخر، أو بعده، لا معاً، أو كانت ذات عدد غير مترتب في الوضع، لا بالطبع، فلا مانع من وجوده معاً. ولا برهان على امتناعه؛ بل على وجوده برهان. أما من القسم الأول، فإن الزمان قد ثبت أنه كذلك، والحركة كذلك، أي لا متناهيان.

وأما من القسم الثاني، فثبت لنا ضرب من الملائكة والشياطين لا نهاية لها في العدد، كما سيلوح لك الحال فيه، وينتهي إلى القول بأن «العدد لا يتناهي، والحركات لا تتناهي» لكن من حيث «الوجود بالقوة، لا القوة التي تخرج إلى الفعل، بل القوة بمعنى أن الأعداد يتأتى أن تتزايد فلا تقف عند نهاية أخيرة ليس وراءها مزيد».

ثم يعقد بعد ذلك فصلاً لإثبات «عدم إمكان وجود قوة غير متناهية بحسب الشدة» وفصلاً «في عدم قبول القوة غير المتناهية» بحسب المدة للتجزئ والانتقسام، ولا بالعرض، ويحتم بفصل رابع عن «عدم قبول القوة غير المتناسبة بحسب العدة للانتقسام والتجزئ»، وينتهي إلى تقرير أنه «ليس شيء من القوى غير المتناهية موجوداً في الجسم، ولا قوة جسمانية غير متناهية».

وواضح من كلام ابن سينا أنه إنما يلخص ما أورده أرسطو وذكرناه آنفاً، ولا يكاد يضيف شيئاً من عنده، اللهم إلا طريقة العرض.

والمح الغزالي في «تهافت الفلاسفة» إلى مسألة اللامتناهي



متناهية ، لأنه لما كانت ماهيته لا متناهية ، فلا بد من وجود ما لا نهاية له من الطرق التي بها يمكن تصوره . يقول اسبينوزا : « أنا أتصور الله على أنه موجود لا متناه مطلقاً ، أعني جوهرًا يتصف بما لا نهاية له من الصفات التي تعبر كل واحدة منها عن ماهية سرمدية ولا متناهية » . إن الله - عنده - لا متناه على نحو لا متناه ، ولانتهائية الصفات اللامتناهية تمنع من أن تحدد الصفات لانتهائية الله . الله لا متناه بالفعل ، وبحكم تعريفه « أو » بحكم لانتهائية التمتع بالوجود « per infinitam essendi fruitionem » وأجزاءه لا نهائية أيضاً . ومن المحال تصوره قابلاً للقسم والقياس ومؤلفاً من أجزاء متناهية . وهو لا يتميز من لانتهائية الزمان ولانتهائية المكان . إن لانتهائية المكان تعبر عن الماهية اللامتناهية للجوهر الإلهي بطريق مباشر ، ولانتهائية الزمان تعبر عن التوالي السرمدية في الماهية الإلهية . ولكل صفة أحوال modes لا متناهية . ولا شيء يخرج لانتهائية الله ، حتى إن كل فردية ليست إلا عنصراً في سلسلة من التغيرات ولا توجد بوصفها شيئاً متناهياً عرضياً . واللامتناهي ، وهو علة ذاته ، يعرف بذاته ، أي هو المعقول إلى أقصى درجة .

أما لبيتس فيقرر أن لانتهائية النفس هي لانتهائية الكون . وأحسن العوالم الممكنة يعكس لانتهائية الله . يقول لبيتس : « إنني أقول باللامتناهي بالفعل إلى درجة أنني بدلاً من أقر بأن الطبيعة تفرع منه كما يقال بشكل عامي متبدل ، فإنني أؤكد أن الطبيعة تكشف عنه في كل مكان بحيث يتجلى كمال خالقها على نحو أظهر وأسطع » ( رسالة إلى Foucher ، نشرة Gebhardt رقم ٦ ) . ويمضي لبيتس من هذا ليقرر أنه « لا يوجد جزء من المادة ليس منقسماً بالفعل ، ولا أقول بالقوة فقط ؛ وتبعاً لذلك فإن أقل جزء يجب أن يعدّ عالماً مليئاً بما لا نهاية له من المخلوقات المختلفة . وكل موجود يعكس - بطريقته الخاصة به - اللامتناهي . والله يعرف هذه الانعكاسات اللامتناهية للامتناهي في الموندات .

فإذا انتقلنا إلى كنت ، وجدناه يتناول تصور اللامتناهي في عرضه لتناقض العقل ، فيقرر ان الأشياء الموجودة في المكان والزمان ليست معطاة في مقدار متناه ولا في مقدار لا متناه ، إنما هي ظواهر تتقدم إلى ما هو لا متناه وغير محدود . ولهذا لا توجد بداية في الزمان ، ولا نهاية وحد في المكان ، ولا جزء أخير لا يقبل استمرار التجزئة . إن اللامتناهي أكبر من كل عدد » ( تعليق رقم ٤٧٥٦ ) . « واللامتناهي ليس تصوراً

عند الكلام على إبطال قول الفلاسفة بقدم العالم ، لكن لا يمكن أن يستخرج من كلامه رأي واضح في موضوع اللامتناهي .

لكننا لا نجد عند أي متكلم أو فيلسوف إسلامي وصف الله بأنه « لا متناه » . وما يذكر عن المعتزلة من قولهم بأن الله « لا يوصف بأنه متناه » ( الأشعري : مقالات الإسلاميين ، ج ١ ص ٢١٦ ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ) ليس معناه أن « الله لا متناه » بل هو مجرد صفة سلبية تنفي وصف الله بالمتناهي ، لكن لا تصفه إيجاباً بأنه لا متناه .

أما في العصر الحديث في أوروبا فنجد أولاً جوردانوبرونوي يقرر أن الكون لا متناه ، وأنه يتحول باستمرار من الأدنى إلى الأعلى ومن الأعلى إلى الأدنى ، والحياة لا متناهية ولا تنفذ أبداً . والمكان لا متناه ، شأنه شأن الزمان ، ولانتهائيتها يتناسب مع لا نهاية الله ، والله في داخل العالم وفي خارجه على السواء ، وهو العلة المحايثة للكون وفي الوقت نفسه عال على الكون علواً لا متناهياً . وبالجملة ، فإن الكون عنده لا متناه ويشمل ما لا حصر له من العوالم . وهو لا يفترق جوهرياً عن الله ، لأنه لا يوجد في نفس الوقت موجودان لا متناهيان . إنما الكون والله بعيدان لا متناهيان عن حقيقة واحدة . وبسبب رايه هذا في لانتهائية الكون حكم عليه ديوان التفتيش البابوي بالاعدام ، فأعدم في ساحة الأزهار في روما في فبراير سنة ١٦٠٠ في نفس المكان الذي أقيم فيه تمثاله القائم حالياً هناك . وجاء من بعده ديكرت فدافع عن فكرة لا تنامي الكون وأكد أنها ينبغي ألا تدينها الكنيسة ، بل على العكس عليها أن تأخذ بها ، لأن القول بأن الكون ، الذي خلقه الله ، لا متناه ، يؤذن بأن قدرة الله لا متناهية ، وفي هذا تمجيد لقدرة الله . وأكثر من هذا ، يستخدم ديكرت وجود تصور اللامتناهي في ذهن الانسان دليلاً لاثبات وجود الله ، إذ لا يمكن الانسان ، وهو موجود متناه ، أن يكون لديه تصور اللامتناهي إلا إذا كان موجود لا متناه قد أودع في ذهنه هذا التصور .

ومن بعده جاء اسبينوزا فقرر أنه لا يوجد إلا جوهر واحد ( الله أو الطبيعة ) . وتبعاً لذلك فإن هذا الجوهر يجب أن يكون لا متناهياً سواء في ماهيته وفي عدد صفاته . إن الله لا بد أن يكون لا متناهياً في ماهيته ، لأنه لو كان متناهياً لكان في وسعنا افتراض وجود شيء آخر يحدّه ، وفي هذه الحالة لن يكون الحقيقة الوحيدة . كذلك يجب أن تكون صفاته لا

- 1896, n. éd. Berlin, 1962.
- A. Darbon: Une doctrine de l'infini, Paris, 1951.
  - Descartes: Méditation, III; Principes, 1.
  - A. Farrer: Finite and infinite, Westminster, 1943.
  - Martin Heidegger: Sein und Zeit; Kant und das Problem der Metaphysik.
  - Kant: Kritik der reinen Vernunft.
  - A. Koyré: Du monde clos à L'univers infini, tr. Paris, 1962.
  - G.W. Leibniz: Monadologie, 1714.
  - E. Lévinas: Totalité et infini, La Haye, 1961.
  - R. Mondolfo: L'Infinito nel pensiero dei Greci, Firenze, 1934.
  - B. Spinoza Ethiquea 1677; Lettre à L. Meyer, 20. 4. 1669.
  - St. Thomas d'aquin: Summa Theologica, I<sup>a</sup>, q. 7.

### اللامتناهي الرياضي

ظهرت فكرة اللامتناهي في الرياضيات في وقت مبكر ، وذلك عند الفيثاغوريين ، إذ اكتشفوا ما يعرف بنظرية فيثاغورس القائلة بأن المربع المنشأ على الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين . فإذا فرض أن الضلعين متساويان وأن طول كل منهما ( اسم  $a$  أو  $b$  مثلاً ) فإن طول الوتر هو  $\sqrt{2}$  وهو عدد لا نهائي .

وفي القرن السابع عشر أقر الرياضيون بوجود أعداد لا متناهية ، وسلاسل لا متناهية لها خصائص تختلف عن خصائص الأعداد المتناهية . فمن خصائص الأعداد اللامتناهية والسلاسل اللامتناهية :

١ - أنها لا تزيد بالاضافة أو التضعيف ، ولا تنقص بالطرح أو القسمة . فلو استطعنا أن نكتب في صف واحد كل الأعداد ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ... ، وفي صف ثان نكتب كل الأعداد الزوجية : ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ... ، فإن عدد الأعداد في الصفين واحد هو نفسه ، مع أن الصف الثاني نتج عن أخذ العدد اللامتناهي من الأعداد الزوجية - أخذه من السلسلة اللامتناهية المؤلفة من كل الأعداد . وظاهر أن الكل ليس أكبر من جزئه . لكن ملكة « أكبر » هنا مشتركة

محددًا موضوعياً لمقدار في علاقة مع مقدار آخر ، بل هو ذاتياً زيادة لمقدار فوق كل ما هو معطى لنا ، وإن كان غير مُتْرَك من كل عقل « ( رقم ٤١٩٢ ) » إن اللامتناهي لا يُعطى أبداً ، بل فقط شرط امكان التقدم إلى غير نهاية أو إلى غير حد « ( رقم ٥٨٩٣ ) . » وعظم العالم بوصفه ظاهرة ليس لا متناهياً ، لكن التقدم فيه يستمر إلى غير نهاية « ( ٥٩٠٢ ) .

والديالكتيك عند هيجل يقتضي منه الإقرار بوجود اللامتناهي بالفعل ، في مقابل المتناهي بالفعل . ويُعزى هيجل بين عدة ضروب من اللامتناهي : اللامتناهي الرياضي ، اللامتناهي في العظم ، اللامتناهي الذاتي ، اللامتناهي الموضوعي ، اللامتناهي الإيجابي . وفي رأيه أن هذا الأخير هو وحده اللامتناهي الحقيقي . ذلك لأن اللامتناهي الرياضي واللامتناهي في العظم كليهما ليس « نفيًا للنفي » . واللامتناهي الذاتي واللامتناهي الموضوعي ليسا كافيين بنفسهما ، وإنما يتكاملان إذا اتحدا بواسطة العقل . ومن هنا يميز هيجل بين « اللامتناهي الفاسد » و « اللامتناهي الحقيقي » . الأول هو مجرد نفي النهاية أو الحد . أما الثاني أو اللامتناهي الحقيقي ، فهو الفكرة المطلقة أو « المطلق » إنه تعيين ايجابي للمتناهي . فالروح لامتناهٍ حقيقي . إن اللامتناهي الفاسد هو القابل للزيادة باستمرار ، بينما اللامتناهي الحقيقي كامل تام لا يقبل أي مزيد ، إنه كامل في ذاته ويقوم في ذاته . والروح المطلقة تتجلى فيا هو نهائي بحيث يمكن أن يقال إن الروح المطلقة هي « اللامتناهي في المتناهي » . لكن تجليها في المتناهي لا يحول بينها وبين أن تظل كما هي في ماهيتها ، أي لا متناهية . والايجاب الكامل للامتناهي يتحقق حين يمتص العقل لحظات المجرّد والعيني ، الكلي والجزئي . ولهذا يقول هيجل في كتاب « المنطق » إن اللامتناهي الحقيقي ينبثق فقط حين يغوص اللامتناهي المجرّد للذهن في الإيجابي والمطلق وكذلك حين يغوص معه اللامتناهي العيني للعقل .

وأخيراً يجيء هيدجر فينكر أن يكون ما هنا لا متناهٍ في الوجود .

### مراجع

- Aristote: physique, II
- M. Blanchot: L'entretien infini, Paris, 1970.
- J. Cohn: Geschichte des unendlichkeitsproblem,

ففي كلا الصفتين مقدار الأعداد واحد ، ومع ذلك فإن الصف السفلي ناتج عن أخذ كل الأعداد الزوجية - ومقدارها لا متناه - من الصف الأعلى .

أما خاصية الاستقرار الموجودة في الأعداد المنتهية ، ولكنها غير موجودة في الأعداد اللامنتهية ، فمعناها أن الخاصية وراثية من عدد إلى العدد الذي يليه ابتداءً من الصفر . - لكن خاصية الاستقرار هذه لا توجد في الأعداد اللامنتهية ، لأن أول الأعداد اللانهائية ليس له سلف مباشر ، لأنه لا يوجد شيء اسمه أكبر عدد متناه ، سيكون التالي له هو العدد اللامنتهية . ولهذا فإن الانتقال خطوة بخطوة من عدد إلى التالي له لا يمكن أن يصل إلى عدد لا متناه .

### مراجع

- Bolzano: Paradoxien des Unendlichen, Leipzig, 1851
- Georg Cantor: «Beiträge zur Begründung der trans-finiten Mengenlehre», in Mathematische Annalen, vol. 46 (1895), pp. 481- 512, vol. 49 (1897), pp. 207- 248.
- Paul Kohlen: «The Independence of the Continuum Hypothesis» Pts. I and II, in Proceedings of the National academy of Sciences, vol. 50 (1963), pp. 1143-1148, vol. 56 (1964)p. 105- 110.
- Richard Dedekind: Stetigkeit und irrationale Zahlen. Braunschweig, 1872. Was sind und was Sollen die Zahlen? Braunschweig, 1888
- Bertrand Russell: Our knowledge of the external World.

### لامنيه

#### Felicité de Lamennais

مفكر كاثوليكي فرنسي ، وكاتب ديني حار الأسلوب.

ولد في سان مالو ( في إقليم بريتانى شمالي فرنسا ) في ١٩ يونيو سنة ١٧٨٢ ، وتوفي بباريس في ٧ فبراير سنة ١٨٥٤ .

وكان لاضطراب الحياة العامة في شبابه - فترة الثورة الفرنسية وعصر نابليون - ما زاد من حدة مزاجه المشوب

غامضة ، ومعناها هنا هو : الاحتواء على عدد من الحدود أكبر ؛ وهذا المعنى يمكن الكمال أن يكون مساوياً لجزئه دون أن يكون ثم تناقض .

٢ - أن بعض السلاسل اللامنتهية لها نهاية من جهة ، مثلاً : سلسلة اللحظات الماضية تنتهي في اللحظة الحاضرة ، أو عدد النقط اللانهائي في خط متناه .

وقد جاء جيورج كانتور Georg Cantor في سنة ١٨٨٢ - ١٨٨٣ ليبين أن هناك عدداً لا متناهياً من الأعداد اللانهائية المختلفة ، وليبين أن من الممكن أن تُطبق عليها فكرة « الأكبر » و « الأقل » ، وفي بعض الأحوال لا يمكن هذا التطبيق وينشأ عن ذلك مشاكل جديدة . فمثلاً عدد النقط الرياضية واحد هو نفسه في خط طويل مثلها هو في خط قصير . لكن « أكبر » و « أقل » لهما معنى رياضي بحت ، ولا يتطويان على أي تصور هندسي .

والصعوبات التي أثارها الفلاسفة ، منذ أيام زينون الايلي ، حول الأعداد اللامنتهية تنشأ - في نظر الرياضيين - من كوننا نريد أن نطبق خواص الأعداد النهائية على الأعداد اللانهائية .

ويقرر برترند رسل ( « معرفتنا بالعالم الخارجي » ص ١٩٤ وما يتلوها ، لندن سنة ١٩٦٩ ) أن ثم اعتبارين على أساسهما تميز الأعداد اللامنتهية من الأعداد المنتهية : الأول هو أن الأعداد اللانهائية لها خاصية يسميها باسم « الانعكاس reflexiveness » بينما الأعداد النهائية ليست لها هذه الخاصية .

والثاني هو أن للأعداد المنتهية خاصية « الاستقرائية » inductiveness ، وهي خاصية لا توجد في الأعداد اللامنتهية .

والعدد يقال إنه يتصف بصفة الانعكاسية ، إذا كان لا يزيد كلما أضفنا العدد ١ ( أو غيره ) إليه . ومعنى هذا أنه يمكن إضافة أي عدد متناه إلى عدد انعكاسي دون أن يزيد في مقداره . وتبعاً لهذه الخاصية ، فإنه يمكن إضافة أي عدد متناه من الأشياء أو طرحها من العدد اللامنتهية فلا يزيد هذا العدد اللامنتهية ولا ينقص . ويسوق رسل على ذلك للمثل الذي أوردناه منذ قليل وهو :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ...

٢ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٠ ، ...

لمجموع المنقول الديني : فالوحي ليس قطعاً ، بل إتمام وإكمال . إن الحقيقة أو اليقين ، تكتسب بالعقل المشترك للجنس البشري . ولهذا يجب على المرء أن يمزج آراءه بآراء اخوانه من بني الانسان وأن يجد حلاً لمشاكله في الايمان ، والسلطة الدينية ، والادراك العام . أما الثقة بعقل الفرد فهو جنون . وإذا تساءل المرء : من أين تحيى سلطة العقل العام ؟ فالجواب أنها تأتي من الله ، والله أودعها في الكنيسة ، والكنيسة تعبر عن نفسها بلسان البابا ! لكن هذا الغلو في تمجيد سلطة البابا أتى بنتيجة عكسية . فقد أثار حفيظة الملكية في فرنسا وكبار رجال الدين المشايخين للملكية والداعين إلى الجاليلكانية . ورأى البابا ما تؤدي إليه هذه الحماسة المفرطة من متاعب مع الملكية في فرنسا . فأصدر البابا نفسه - وبه كان يستظهر لامنيه - رسالة بابوية بعنوان *Mirari vos* أدانت الغلو في الاولترامونتانية بوالثالي أدانت لامنيه ، وإن لم تذكره بالاسم ، بدعوى ان هذا الغلو يؤدي إلى احداث شقاق بين البابا والدولة الفرنسية . وفي الوقت نفسه أدانت هذه الرسالة البابوية حرية الضمير والرأي لأنها تؤدي إلى حرية الخطأ . ودهش لامنيه هذه الإدانة ، لكنه أذعن لها وهو يكتم غيظه .

وكان قد هاجم الجاليلكانية في كتاب آخر أصدره سنة ١٨٢٩ بعنوان : « في تقدم الثورة والحرب ضد الكنيسة » ، وفيه دعا إلى التوفيق بين الكاثوليكية والبرالية السياسية .

وبعد قيام ثورة يوليو في فرنسا سنة ١٨٣٠ التي جاءت بلوي فيليب إلى الحكم ، أسس لامنيه مجلة تدعى « المستقبل » *L'avenir* ، وعاونه في إصدارها هنري لاكوردبير *Lacordaire* وشارل دي مونتالمبير *Montalembert* اللذان سيصبحان من كبار الخطباء الدينيين في فرنسا ، كما عاونه بعض الكتاب الكاثوليك الأحرار المتحمسين . وقد دعا في هذه المجلة هو ومعاونوه هؤلاء إلى المبادئ الديمقراطية في السياسة ، وإلى الفصل بين الكنيسة والدولة . فآثار ذلك قلق الملك لوي فيليب . كما أثار حفيظة رجال الكنيسة الفرنسية ، ولم يحظ برضا البابوية رغم دعوتهم إلى إبقاء السلطة للبابا في تعيين الأساقفة في فرنسا ! وشعر البابا جرجيوريوس السادس عشر بحرج موقف البابوية من هذا الاتجاه . فتوقفت مجلة « المستقبل » عن الظهور في نوفمبر سنة ١٨٣١ ؛ وأصدر البابا رسالته السابقة الذكر *Mirari Vos* . فأعلن الكاثوليك الأحرار من معاوني لامنيه خضوعهم وولاءهم ، بينما بلغت الحفيظة أشدها في نفس لامنيه المنتهية ، لأن حلمه في الجمع

بطلبه . وكان أخوه الأكبر ، جان Jean ، ذا نزعة دينية حادة . فأفكر كلاهما في إحياء الكاثوليكية كوسيلة لتجديد المجتمع . فبعد أن أعاد نابليون الكنيسة الكاثوليكية - وكانت الثورة الفرنسية قد دمرتها - قام الاخوان بوضع برنامج ضخم للإصلاح الديني والاجتماعي ، عرضاه في كتاب بعنوان : « تأملات في حال الكنيسة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر ، وفي وضعها الحالي » . وفي أوج الصراع بين نابليون والبابوية حول سلطة البابا في تعيين كبار رجال الدين في فرنسا ، أصدرنا كتاباً بعنوان : « تقاليد الكنيسة فيما يتعلق بتعيين الأساقفة » ( سنة ١٨١٤ ) ، وفيه هاجمنا النزعة الجاليلكانية *Gallicanisme* أي الدعوة إلى إعطاء الحكام في فرنسا سلطة تعيين الأساقفة ، ودعوا إلى النزعة الأولترامونتانية *ultramontanisme* الداعية إلى جعل هذه السلطة في يد البابا وحده . وفي هذا الكتاب دعوا إلى ثلاثة أمور : سيادة كنيسة روما في تعيين الأساقفة في فرنسا ، عصمة البابا في أمور العقيدة الكاثوليكية ، سلطة المنقول في شؤون الدين . وفي الوقت نفسه لم يعطيا البابا أي حق في الأمور الدنيوية ( السياسية ، وغيرها ) .

ثم أصدر لامنيه وحده كتاباً عنوانه : « بحث في عدم الاكتراث في أمور الدين » ( في ٤ مجلدات ، باريس ١٨١٧ - ١٨٢٣ ) لقي نجاحاً كبيراً في الأوساط الكاثوليكية ، وأعلن رضاه عنه البابا ليو الثاني عشر . في هذا الكتاب يقرر أن للعقائد تأثيراً قوياً في سعادة المجتمع ، وللعقائد الدينية بخاصة أهمية كبرى في هذا المجال . ولهذا لا يحق لأحد أن يكون غير مكترث أو محايداً في النزاعات الدينية ، لأن الحياة إنما ينشأ إما عن فكرة زائفة عن مكانة الدين في الحياة ، أو عن عجز عن التمييز بين الدين الصحيح والبدع في الدين ، أو عن مجرد جهل وافئزاز إلى الجذ في الأهداف ، أو عن كسل وتواني . ولما كان الانسان لا يستطيع أن يعتقد في فكرتين متعارضتين ، فلا توجد غير حقيقة دينية واحدة ، ولسان حال واحد يعبر عنها ، ومنقول واحد يحفظها على مدى التاريخ .

ودعا لامنيه إلى سلطة المنقول الديني لعقل الانسانية العام ، وهاجم العقل الفردي وأحكام الفرد . والمنقول الديني يمتد عنده ليشمل المنقول اللغوي قبل الكتاب المقدس بعهديه : القديم والجديد ، والعناصر الموجودة في الأديان الوثنية ، وعنده أن الفكر الاخلاقي للإنسانية كلها قبل المسيحية قد مهد لقيام المسيحية التي هي في نظره تنوير

- L. Le Guillou: L'Evolution de la pensée religieuse de Lamennais. Paris, 1966.
- L. le Guillou : Lamennais. Paris, 1967.
- W. Gibson: The abbé de Lamennais and the Liberal catholic Movement in France London and New York, 1896.
- Paul Janet: La Philosophie de Lamennais, Paris, 1890.
- M. Mourre: Lamennais, ou L'hérésie des temps modernes Paris, 1955.

## لانيو

## Jules Lagneau

## فيلسوف فرنسي

ولد في متس Metz في سنة ١٨٥١، وتوفي في باريس سنة ١٨٩٤. وتخرج في مدرسة المعلمين العليا بباريس، ووصل مدرساً في ليسه نانسي حيث كان من تلاميذه موريس بارس Barrés الكاتب المشهور، ثم في ليسيه ميشليه في نانت سنة ١٨٨٥. وألقى في ليسيه ميشليه «دروساً» (نشرت في سنة ١٩٢٦) لقيت نجاحاً ظاهراً عند تلاميذه، وتتناول وجود الله. وأسّس، مع بول ديجاردان Desjardins في سنة ١٨٩٢ «الاتحاد من أجل العمل الأخلاقي» وكتب أبحاثاً قليلة جمعها بعض تلاميذه ونشروها تحت عنوان: «كتابات» Erits وظهرت سنة ١٩٢٤.

كان لانيو ذا نزعة دينية وروحية عميقة. وبعد من أوائل من أدخلوا في فرنسا فلسفة «القيم»، وأكد أن «القيمة» la valeur هي حقا الحقيقة الواقعية التي يؤكدتها الفكر.

يحدّد لانيو الفلسفة بأنها البحث عن الحقيقة الواقعة بواسطة التأمل أولاً، ثم التحقيق الفعلي ثانياً. يقول: «إن الفلسفة هي التأمل المقضي إلى تبيين عدم كفايتها وضرورة القيام بفعل مطلق يبدأ من الباطن» ( «كتابات جول لانيو»، بند ٦ )

والعقل عنده هو في المقام الأول العقل العملي عند كنت. وهو يقول في برنامج «الاتحاد من أجل العمل الأخلاقي»: «إننا لا نقصد من العقل مبدءاً استغلال

بين الكتلركة والحرية السياسية قد تبدد .

وانفجرت حفيظته في سنة ١٨٣٤ في كتاب صغير بعنوان: «أقوال مؤمن» Paroles d'un croyant، أحدث فورياً هائلاً بسبب هجومه العنيف جداً على البابوية وعلى ملوك أوروبا. فأدى ذلك بالبابا جريجوريوس السادس عشر إلى اصدار رسالة بابوية أخرى بعنوان Singulari nos (وعنوان الرسائل البابوية مأخوذ دائماً من الكلمتين الأوليين في الرسالة). فأدت هذه الرسالة إلى اعلان لامنيه انفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية.

وفي كتابه: «أقوال مؤمن» دعا إلى حرية الاجتماع وإلى الثقة بالله، وإلى الأخوة بين الناس.

وأقصى لامنيه بقية عمره في الدفاع عن قضية الشعب تجاه السلطة (السياسية والدينية على السواء)، والدفاع بقلمه الحار المتدفق وبأسلوبه الرائع المشبوب، عن النظام الجمهوري كنظام سياسي، وعن الاشتراكية كنظام اجتماعي اقتصادي. وفي هذا المجال أصدر كتابين: «كتاب الشعب» (١٨٣٨)، و«في العبودية الحلبيّة» (١٨٣٩).

وبعد قيام ثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا صار عضواً بارزاً في الجمعية التأسيسية. ولكن الانقلاب الذي قام به لويس نابليون في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ بلد آماله.

وتوفي في باريس في ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤ وقد رفض التصالح مع الكنيسة، وبوصية منه دفن في مقابر الصدقة.

أما مساهمته في الفلسفة بخاصة فكتابه «مخطوط لفلسفة» في ٤ مجلدات (سنة ١٨٤١ - سنة ١٨٤٦). وقد بدأه باللاهوت، وتلاه بعلم الانسان الفلسفي، ثم بعلم الجمال، وفلسفة العلوم. وكان ينوي إتمامه ببحث في الفلسفة الاجتماعية. لكن ليس في هذه المجلدات الأربعة فلسفة خاصة أو أصالة.

## مراجع

- R. Bréhat: Lamennais ou le Prophète Féli. Paris, 1966
- R. Derré: Lamennais, ses amis et le mouvement des idées à l'époque romantique. Paris, 1962
- F. Duine: Lamennais, sa vie, ses idées, ses ouvrages. Paris, 1922.

## معجم للغة الفرنسية

ولد في باريس في أول فبراير سنة ١٨٠١، وتوفي في باريس في ٢ يونيو ١٨٨١ .

تعلم في ليسيه لوي لوجران ثم تعلم بعد ذلك اللغتين الانجليزية والألمانية ودرس فقه اللغة السنسكريتية وأدبها، وابتداء من سنة ١٨٣٥ أصبح يكتب بانتظام في جريدة *Le National* وصار رئيس تحريرها فترة من الوقت . وفي سنة ١٨٣٩ أصدر المجلد الأول من نشرته لمؤلفات ابقراط الطبية ، وقد أتمها في سنة ١٨٦٢ . واختير في سنة ١٨٣٩ عضواً في أكاديمية النقوش والآداب الجميلة . وبدأ في سنة ١٨٤٤ كتابة مؤلفه العظيم الخالد : « معجم اللغة الفرنسية » الذي يعد حتى الآن أعظم معجم للغة الفرنسية ومن أعظم المعاجم اللغوية في سائر اللغات . وفي إبان ثورة سنة ١٨٤٨ ، وكان قد تعرّف قبل ذلك إلى أوجيست كونت وصار من أشد المناصرين حماسة له ، - كتب عدة مقالات نشرت بعد ذلك في سنة ١٨٥٢ تحت عنوان : « المحافظة ، والثورة ، والوضعية » .

وبعد أن أتم نشرته لمؤلفات بقراط وبلنيوس ، انصرف انصرافاً كلياً لإتمام معجمه . وفي سنة ١٨٦٣ رشح ليكون عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، فتصدى له أسقف أورليان ، منسيور دويانلو Dupanloup وحمل على لتريه باعتبار هذا الأخير ملحداً . وكان دويانلو ذا نفوذ قوي في عهد الامبراطورية الثالثة . فلما سقطت هذه الامبراطورية غداة حرب السبعين ، اختير لتريه في ديسمبر سنة ١٨٧١ عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، وهو في الواقع قد خدم اللغة الفرنسية بما لم تستطع هذه الأكاديمية أن تقدمها به منذ انشائها !

وقد أتم لتريه معجمه العظيم هذا في سنة ١٨٧٣ ولا يزال يطبع حتى الآن بوصفه أعظم كتر لغوي للغة الفرنسية .

## آراؤه

كان لتريه من أخلص المتحمسين لأوجيست كونت . وهو يقول عن نفسه : « حينما ظهرت لي الفلسفة الوضعية ، كنت قبل ذلك قد تخلصت من كل لاهوت ومن كل ميتافيزيقا : واستسلمت مع الأسف، لهذه الحالة السلبية . لكن كتاب ( « محاضرات في الفلسفة الوضعية » ) تأليف السيد كونت حولني تحويلاً . لقد كان يبحث عن وجهة نظر .

وكبرياء ، ورجوع على الذات ، بل مبدأ نظام واتحاد وتوضحية . ونطلق اسم « العقل » على القدرة على الخروج عن الذات لتوكيد قانون أعلى يجد الانسان في داخله : فكرته ، وفي خارجه انعكاسه فقط ، قانون لا يصنعه هو لكنه يستطيع فهمه ، ويستطيع أن يفهم كل شيء بشرط قبوله والخضوع له » ( الكتاب المذكور ، ص ١٩٠ ) .

وهذا الطابع العملي الأخلاقي يسود تصوره لوجود الله ، ويشيد بكنت لأنه أدرك ذلك . يقول : « إن عظمة كنت هي في أنه انتزع مسألة وجود الله بعيداً عن التفكير الخالص ، وفي أنه بين أن العمل وحده هو الذي يستطيع الاجابة عنها » ( « وجود الله » ص ٨ ) ويقول أيضاً : « إن ما اكتشفه كنت وقلده يظل حقاً . . . لكن ليس من الحيانة لمبدأ كنت أن نحاول جعل برهانه مباشراً أكثر ، إن لم يكن أدق » . وعيب برهان كنت - في نظر لانيو - « هو أنه جعل من وجود الله واقعة ينبغي الوصول إليها خارجاً عن الفكر بواسطة اعتقاد لا يُقدّم على أنه لحظة ودرجة طبيعية للعمل الذي به هذا الفكر يضع الله في داخله » ( « وجود الله » ص ٢١ ) .

إن الله ، عند لانيو ، هو المبدأ المشترك للنظام النظري والنظام العملي الأخلاقي ، للمعرفة والفعل . والاعتقاد بالله هو العمل وفقاً للأخلاق . « إن الايقان بحقيقة الله لا يمكن أن ينشأ إلا عن العمل الذي به نحقق الله فينا ، وإخضاع طبيعتنا الفردية لطبيعتنا الكلية » ( « وجود الله » ص ٢٣ ) .

ولكي يكون العمل حقاً وصدقاً فيجب أن يقوم على الحب . يقول لانيو : « ان نعمل بالسمو فوق الذات : هذا هو الحب . إذ من المستحيل أن يفعل المرء بغير هدف لكن الفعل الذي لا يهدف إلى أي غرض محسوس - غرض تفعي مثل السعادة - هو ليس فعلاً حقاً . وبعبارة أخرى : إن العمل الحقيقي هو فعل الحب . إتنا لا نفعل حقاً إلا حين نحب . ونحن لا نستطيع أن نحب إلا بشرط أن نبرر لأنفسنا هذا الفعل نفسه ، أي أن نعزو قيمة مطلقة إلى الوجود الذي هو موضوعه . إن الحب لا يسير إلا إلى الكمال » ( « وجود الله » ص ٨ وما يتلوها ) .

## Emile Littré

فيلسوف وضعي ، ولغوي فرنسي وصاحب أعظم



لقد أخذ عليه أنه « انحراف » عن حقيقة الوضعية ووقع في أخطاء في حق روح الوضعية وجوهرها ، وأن كتابي كونت « مذهب الفلسفة الوضعية » و« التركيب الذاتي » Synthèse subjective يخالفان كتاب « محاضرات في الفلسفة الوضعية » الذي يرى فيه لترية انجيل الوضعية الصحيحة .

ذلك أن لترية ، كما قال مرتينو P. Martino في الفصل الذي كتبه عن « الأدب في عهد الامبراطورية الثانية » في كتاب « الأدب الفرنسي » (الذي أشرف عليه Bédier ج ٢ ص ٣٠٠ ، باريس سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩ ) يجسد الوضعية المحضنة ، فلسفياً وسياسياً ؛ ودافع بنبالة عن قضية كان من شأن أهواء الأستاذ ( كونت ) أن تجعلها عقيلة نحلة صغيرة .

ونلخص فيما يلي مأخذ لترية على كونت :

١ - لترية يأخذ على كونت أولاً ربطه بين الدين وبين العقيدة الأخلاقية لحب الانسانية . ويقرر أن كونت لم يذكر « الدين » في أي موضع من كتابه « محاضرات . . . » ، فما باله بعد سنة ١٨٤٥ يربط بين الدين وبين « السلطة الروحية » التي يرى إقامتها لتحقيق حب الانسانية ؟ إن لترية يرى في هذا خيانة للمنهج الوضعي .

٢ - ويأخذ على كونت ثانياً المنهج الذاتي الذي بدأ يبشر به ، وهو منهج يتنافى تماماً مع المنهج الموضوعي الذي عرضه في « محاضرات . . . » . إن المنهج الذاتي لا يحفل بالوقائع ، ومادام كذلك فلا ضابط يضبطه . إنه بهذا يخضع العقل للقلب .

٣ - ويأخذ عليه ثالثاً أنه يجعل من « الأخلاق » علماً سابعاً ، فهذا يخالف المنهج الوضعي .

كذلك هاجم لترية بعض المفكرين المعاصرين النازعين نزعة وضعية ، لأنه يعتقد أنهم توسعوا في الوضعية فطبقوها على أهدافهم هم الخاصة ، ومن هؤلاء : رينان ، وبرتلو Berthelot واسبنسر ، وخصوصاً أنصار المادية . إنه يرى أن من الخطأ الفاحش الخلط بين الوضعية والمادية ذلك أن المادية مذهب ميتافيزيقي يتجاوز حدود الملاحظة ، وذلك حين يقرر أن كل الظواهر ترجع إلى « جوهر » مادي . ويؤكد لترية أن الوضعية « ترفض كل الفروض ، سواء منها المادية او الروحية ، وتدمغها بأنها فروض عابثة لا طائل تحتها » . ذلك

« فأعطاني السيد كونت وجهة النظر هذه . فتغيرت حالتي العقلية تماماً ، وصارت نفسي هادئة ، ووجدت الطمأنينة » .

هكذا كتب لترية في بحث له بعنوان : « تحليل عقلي مبرهن » لكتاب « محاضرات في الفلسفة الوضعية » ( سنة ١٨٤٥ ) . وقد تلاه ببحث آخر بعنوان « تطبيق الفلسفة الوضعية على حكم الجماعات وعلى الأزمة الحالية » ( ١٨٤٩ ) وثلاث عليها يبحث عن « المحافظة ، والثورة ، والوضعية » ( سنة ١٨٥٢ ) . وفي هذين البحثين الأخيرين حاول أن يطبق المذهب الوضعي على السياسة والحياة الاجتماعية ويستخلص النتائج الاجتماعية للوضعية .

لكن وقعت القطيعة بين لترية وكونت في سنة ١٨٥٢ . ومع ذلك ظل لترية مخلصاً للوضعية ، وكتب في سنة ١٨٦٢ كتابه الرئيسي في الفلسفة الوضعية بعنوان : « أوجيست كونت والفلسفة الوضعية » ، وفي مقدمته يقرر أن من اخلاص التلميذ لأستاذه أن يتقلده . وهو في هذا الكتاب يعرض الفلسفة الوضعية عند كونت عرضاً واضحاً جيد التقسيم ، وفي الوقت نفسه يبين حدود كونت وأخطائه : وفي سنة ١٨٦٣ كتب مقدمة للطبعة الثانية من كتاب كونت : « محاضرات في الفلسفة الوضعية » ( سنة ١٨٦٣ ) وعنون هذه المقدمة بالعنوان البالغ الدلالة التالي : « مقدمة بقلم تلميذ » أي تلميذ لكونت .

وفي سنة ١٨٦٦ كتب دفاعاً عن كونت ضد مقال كتبه جون استيورت مل بعنوان : « أوجيست كونت والوضعية » .

وفي سنة ١٨٦٧ أنشأ « مجلة الفلسفة الوضعية » وفيها كتب مقالات عن كونت ، جمعها بعد ذلك في كتابه : « العلم من وجهة النظر الفلسفية » ( سنة ١٨٧٣ ) .

وهكذا ظل لترية مخلصاً للفلسفة الوضعية حتى إنه صرح في آخريات حياته قائلاً : « لقد أعانتني الفلسفة الوضعية منذ ثلاثين عاماً ، وزودتني بمثل أعلى وبالتعطش لما هو أفضل ، وبنظرة في التاريخ وباهتمام بالانسان . وهي بهذا صانتني عن أن أكون مجرد مفكر سلمي وكانت رفيقي المخلص إبان محنتي الأخيرة » - وهو يشير إلى الإلام التي قاساها من المرض .

لكن ماذا أخذ التلميذ ( لترية ) على أستاذه ( كونت ) ؟ .



الكوميديات هي : « العالم الشاب »، التي مثلت في سنة ١٧٤٨ وطبعت في سنة ١٧٥٤؛ وتلاها بكوميديا بعنوان « الروح الحرة »، وثالثة بعنوان « اليهود »، وذلك في سنة ١٧٤٩. وظهر له في سنة ١٧٥١ مجموعة من القصائد والأهالي بعنوان : « أشياء صغيرة » Kleinigkeiten.

وارتحل إلى برلين في نوفمبر سنة ١٧٤٨، وسافر إلى Wittenberg في عام ١٧٥١ / ١٧٥٢ للحصول على درجة الماجستير. واشتغل بالتحرير في « جريدة برلين الممتازة »، فكتب عدة مقالات نقدية أذاعت شهرته بوصفه ناقداً فنياً. وفي سنة ١٧٥٤ بدأ في نشر « المكتبة المسرحية »، وفي سنة ١٧٥٥ أتم المسرحية المأساوية : « الأنسة ساره سمپسون ».

وفي المدة من ١٧٥٩ إلى ١٧٦٥ أسس، بالتعاون مع M. Mendelssohn, F. Nicolai مجلة بعنوان : « رسائل تتعلق بأدبنا »، وفيها كتب لسنج عن جوتشد والمسرح الفرنسي الكلاسيكي وأشد لأول مرة في ألمانيا، بأهمية شيكسبير كنموذج يحتذى في المسرح الألماني (راجع خصوصاً الرسالة رقم ١٧).

وعاد لسنج في خريف سنة ١٧٥٥ إلى لپتسك، ورافق أحد التجار في رحلة في مايو سنة ١٧٥٦، لكنه اضطر إلى قطعها وهو في أمستردام بسبب اندلاع الحرب. فعاد إلى لپتسك، متقلاً بالديون وفي حالة نعسة.

ثم سافر إلى برلين في مايو سنة ١٧٥٨. وفي سنة ١٧٥٩ نشر « خرافاته » (في ٣ مجلدات، تتضمن أيضاً بحثاً في نظرية الخرافة بوصفها نوعاً أدبياً).

وعين سكرتيراً عند الجنرال تلوتزين Tauentzien في برسلاو في الفترة ما بين ١٧٦٠ إلى ١٧٦٥ بمرتب جيد، مكّنه من التفرغ لنشاطه الأدبي. وكانت الثمرة الأولى لهذه الفترة مسرحية كوميدية بعنوان « مناقون برنلم » Minna von Bernheim (أنتهاهاسنة ١٧٦٣ وطبعها سنة ١٧٦٧). وموضوعها مستخلص من حداث وقع إيان حرب السنوات السبع، وهي نموذج للكوميديا البورجوازية الألمانية.

وفي سنة ١٧٦٦ نشر بحثاً نقدياً بعنوان : « لاؤ وكون أو في حدود الرسم والشعر ». وفيه ميّز بين الشعر بوصفه فن التوالي الزماني وبين الفنون التشكيلية بوصفها فن المعية المكانية.

أن كلا الفريقين - المادي والروحي - يقرر تقريرات عن منطقة لا يمكن أن تصل إليها المعرفة، وهذا - كما يقول - هو الخطأ المميز لكل ميتافيزيقا.

#### مؤلفاته الفلسفية

- De la philosophie positive, 1845.
- Conservation, révolution et positivisme, 2<sup>e</sup> éd. 1879.
- Auguste Comte et la philosophie positive, 2<sup>e</sup> éd. 1864.
- «Préface d'un disciple», in A. Comte: Cours de philosophie positive, t. I, 1864.
- La Science au point de vue philosophique, 1874.
- «La philosophie positive: M. Auguste Comte et M.J. Stuart Mill», in Revue des deux mondes, 1864, pp. 829-66.

#### مراجع

- C. A. Sainte - Beuve: «M. Littré», in Nouvelles Lammis, t. V, 1866.
- E. Scherer: «Emile Littré», in Etudes sur la littérature contemporaine, t. VII, 1882.
- E. Caro «Emile Littré» in Revue des deux mondes, 1 Avril 1882, pp. 516 sqq, et 1 Mai 1882, pp. 5 sqq.

#### لسنج

#### Gotthold Ephraim Lessing

ناقد أدبي وشاعر وفيلسوف ألماني.

ولد في Kamenz (Lausitz) في ١٧٢٩/١/٢٢، وتوفي في Braunschweig في ١٧٨١/٢/١٥. وكان أبوه قسيساً. وتعلم أولاً، وخصوصاً اللغات القديمة، في مدرسة الأمراء المسماة سان أفرا St. Afra في مدينة Meissen. ودخل جامعة لپتسك لدراسة الطب في سنة ١٧٤٦، ثم في ربيع سنة ١٧٤٨ درس اللاهوت والفلسفة. وبدأ في نظم الشعر وهو في مطلع الشباب.

واكتسب الشهرة لأول مرة بتأليف كوميديات تأثر فيها ببلوتس Plantus وتيرانس Terence المؤلفين اللاتينيين المشهورين؛ لكنه صاغها بأسلوب عصر التنوير. وأولى هذه

المخطوط على أنها شذرات وجدها في مخطوطات مكتبة فولفنبوتل لمؤلف مجهول ، وذلك في مجموعة عناوينها : « أبحاث في التاريخ والأدب » Beiträge Zur Geschichte und Literatur فأتارت الشذرة الأخيرة - وهي أهم هذه الشذرات - عاصفة من الجدل مع قسيس في هامبورج يدعى جيتسه Johann Melchior Goeze . وكان ريمارس يؤمن بالدين الطبيعي ، ويتشكك في الوحي والأديان المنزلة . وكان اعتراضه على المسيحية يقوم على أساس أن الكتاب المقدس يجب أن يكون معصوماً من الخطأ ؛ لكنه وجد فيه أخطاءً ؛ إذن هو ليس مقدساً ولا جديراً بالثقة الكاملة .

ويبدو أن لبيتس في جداله مع جيتسه كان يشارك ريمارس هذا الرأي . وزاد عليه بأن راح يبحث في صحة الأناجيل ، وأدلى برأيه فيها في بحث بعنوان : « فرض جديد يتعلق بمؤلفي الأناجيل باعتبارهم مجرد مؤرخين بشريين » - كُتبه من سنة ١٧٧٧ حتى سنة ١٧٧٨ ونشر بعد وفاة لسنج ، وذلك في سنة ١٧٨٤ ضمن « مؤلفات لسنج اللاهوتية المنشورة بعد وفاته » Theologische Nachlass

ولكن دوق براونشفيج منعه من الاستمرار في الجدالات اللاهوتية ، فعبر عن رأيه في المسرحية المشار إليها : « ناثان الحكيم » Nathan der Weise ( سنة ١٧٧٩ ) ، وفيها دافع عن عدم الاهتمام بالدين ، على أساس أن المهم ليس التسليم بعقائد ، بل الاخلاص ، والمحبة الأخوية ، والتسامح . ذلك أن لسنج كان يعتقد ، شأنه شأن أصحاب نزعة التنوير بعامة ، أن جوهر المسيحية إنما يقوم في المحبة الاخوية وفي الاخلاق .

وفي كتابه « تربية النوع الإنساني » ( برلين سنة ١٧٨٠ ) يقرر أن دور العقيدة الدينية في عملية التاريخ دور نسبي في طريق تقدم الانسانية إلى النضوج . الانسانية ، في نظره ، تمرّ خلال ثلاث مراحل للتربية : الأولى تتمثل في « العهد القديم » من الكتاب المقدس . ففيه ترى التطور التدريجي من عبادة ألوهية عملية وأبوية إلى عبادة الله الواحد ، والانتقال من الاخلاق القائمة على الثواب والعقاب في هذه الحياة الدنيا إلى عقيدة خلود الروح ، التي من أجل تعلّمها « رُحِّل » الشعب العبراني إلى بابل . - والمرحلة الثانية هي تلك التي علّم فيها المسيح مذهب الثواب الأبدي للمصالح بدلاً من الثواب المباشر ، و« العهد الجديد » هو الكتاب

وعاد إلى برلين في سنة ١٧٦٥ . لكنه ما لبث ، لسوء أحواله المالية ، أن لبى دعوة من هامبورج ليكون مستشاراً مسرحياً للمسرح الوطني الألماني ، الذي أنشئ حديثاً في هامبورج . وقد جمع نقده للمسرحيات المعروضة في هذا المسرح في كتاب بعنوان : « مسرح هامبورج » ( في مجلدين ، سنة ١٧٦٧ - ١٧٦٩ ) Hamburgische Dramaturgie ، وفي هذا الكتاب عرض أيضاً آراءه في ماهية المأساة والكوميديا ، وأهمية الشاعر ؛ ومجد مسرح شكسبير في مقابل المسرح الفرنسي الكلاسيكي .

وحقق نظرياته المسرحية في مسرحية مأساوية بعنوان : « امليا جالوتي » ( سنة ١٧٧٢ ) .

وفي أبريل سنة ١٧٧٠ شغل وظيفة أمين مكتبة في Wolfenbüttel . ونشر كتاباً بعنوان : « شذرات لمجهول » ، وهو من تأليف صديقه H. S. Reimarus فأوقعه ذلك في مشاكل دينية ، ومجادلات خصوصاً مع رئيس قساوسة هامبورج واسمه Goeze ، فكتب لسنج إحدى عشرة رسالة ضد جيتسه هذا ، ظهرت في سنة ١٧٧٨ تحت عنوان : « ضد جيتسه » Anti-Goeze

وألمته وفاة زوجته - بعد سبع سنوات من الزواج بها - مسرحية شعرية بعنوان : « ناثان الحكيم » Nathan der Weise نشرها في سنة ١٧٧٩ ، وفيها يمجّد الانسانية .

وفي سنة ١٧٨٠ نشر كتابه « تربية النوع الإنساني » ، وفيه تأثر بامبينوزا ، ويتألف من مائة قضية .

### آراؤه الفلسفية

وبعنا هنا ما يتعلق بأرائه الفلسفية والدينية .

فلنا إن لسنج عين في سنة ١٧٧٠ أمينا لمكتبة دوق براونشفيج في مدينة فولفنبوتل - Wolfenbüttel . فهاً له ذلك كنوزاً من المخطوطات ، راح على أساسها ينشر مقالات دينية وتاريخية . ومن ناحية أخرى ، تعرّف ، وهو في هامبورج ، إلى المفكر اللاهوتي ذي النزعة التأليهية هرمن صمويل ريمارس Reimarus ( ١٦٩٤ - ١٧٦٨ ) قبل وفاة هذا الأخير بعامين . وقد ترك ريمارس بعد وفاته مخطوطاً لكتاب عنوانه : « دفاع عن عبادة الله العقلين » . وعن طريق ابنته علم لسنج بأمر هذه المخطوطات ، فراح لسنج في سنة ١٧٧٤ ، وسنة ١٧٧٧ وسنة ١٧٧٨ ينشر فصولاً من هذا

## لكان

## Jacques Lacan

عالم نفسي من دعاة التحليل النفسي البنيوي.

ولد في باريس في ١٣ أبريل سنة ١٩٠١. تخرج في كلية الطب بجامعة باريس، وصار في سنة ١٩٣٢ رئيس عيادة في كلية الطب بجامعة باريس. وفي سنة ١٩٣٦ صار طبيباً في مستشفيات الأمراض النفسية. وفي سنة ١٩٤٩ قدم بحثاً في مؤتمر زيورخ عما يسمى باسم «مرحلة المرأة»، وخلاصته أن الطفل يشعر بصورته بين الشهر السادس والشهر الثامن عشر من عمره، وكان قد عرض مجملًا لرأيه هذا في المؤتمر الرابع عشر للتحليل النفسي الذي انعقد في مارينباد سنة ١٩٣٦. وعين في سنة ١٩٥٣ استاذاً في مستشفى سانت آن للأمراض العقلية في باريس. واتهم بأنه خان مبادئ فرويد، فطرد من الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي. لكنه زعم أنه إنما يدعو إلى «العودة إلى فرويد»، كما يفهمه هو ويراه أنه فرويد الحقيقي! وفي سنة ١٩٦٣ كان مكلفاً بإلقاء محاضرات في المدرسة العملية للدراسات العليا (القائمة في مبنى كلية الآداب - السوربون). وفي سنة ١٩٦٤ بدأ سلسلة دروس Seminaire في مدرسة المعلمين العليا (شارع أولم في باريس).

وكان قد أنشأ «جمعية فرويد» سنة ١٩٦٤ لكنه قرّر حلّها في ١٠ يناير سنة ١٩٨٠.

وتوفي في ٩ سبتمبر سنة ١٩٨١ في باريس نتيجة دُمل في البطن، بعد أن جاوز الثمانين بقليل.

كان لكان شخصية مثيرة للجدال، خصوصاً وأنه كان على اتصال بالسرياليين منذ سنة ١٩٣٢ (دالي الرسّام، والوار الشاعر)؛ كما أنه لمع في الستينات بوصفه أحد مؤسسي النزعة البنيوية، خصوصاً ما يتعلق منها باللغة لأنه كان يرى أن «اللاشعور يتركب مثل اللغة، مما يسمح باستعمال علم اللسانيات من أجل تحليل اللاشعور».

كان لكان يرى أن التحليل النفسي مستقل تماماً عن البيولوجيا، وأن التحليل النفسي لا يتخذ معناه الحقيقي إلا باستبعاد كل إشارة بيولوجية. ومن أجل هذا كان يرى أنه لا داعي لاشتراط الحصول على دبلوم في الطب من أجل القيام بالتحليل النفسي. وبالغ في هذا الاتجاه إلى درجة أنه قال إن

المدرسي لهذه المرحلة. - وقبل بزوغ المرحلة الثالثة يجب أن تتحول الحقائق المنزلة إلى حقائق عقلية. يقول لسانج: «سيأتي وقت الذروة حين لا يكون الإنسان في حاجة إلى أن يستمد دوافعه للسلوك من المستقبل، مهما يكن عقله مقتنعاً بمستقبل أفضل، لأنه سيفعل ما هو صحيح لأنه صحيح، لا لأن مثوبات اعتباطية مرتبطة به، لم يقصد بها إلا من أجل اجتذاب وتقوية انتباهه الشارد، وذلك من أجل أن يدرك مثوباته الباطنة الأفضل. ولا بد أن يجيء هذا الزمان، زمان الانجيل الخالد الجديد، الذي وعدنا به من قبل في الكتب الأولية للعهد الجديد» (القضية ٨٥ وما يتلوها).

وتناول لسانج موضوع أسفار «الكتاب المقدس»، وخصوصاً أسفار «العهد الجديد»، والأنجيل منها على وجه التخصص، وكان بذلك رائداً لحركة النقد المتعلق بالأنجيل. لقد كان لسانج أول من لفت الانتباه إلى الفارق الجوهرى بين الأنجيل الثلاثة الأولى (متى، مرقس، لوقا) وبين الأنجيل الرابع (يوحنا)، وذلك في بحث له بعنوان: «فرض جديد يتعلق بمؤلفي الأنجيل» (مجموع مؤلفاته ج١١).

## نشرات مؤلفاته

- Sämtliche Schriften, éd. K. Lachmann, 13 Bde. Berlin, 1825- 28
- Gesammelte Werke, éd. Lachmann und Muncker, 23 Bde, Stuttgart 1886- 1923.
- Gesammelte Werke, 6 Bde, Leipzig, 1912.
- Lessingsgesammelte Werke, ed. Paul Rilla, 10 Bde, Berlin 1954- 58.

## مراجع

- K. Auer: Die Theologie der Lessingzeit. Halle, 1929.
- Ernst Cassirer: Die Philosophie der Aufklärung. Tübingen, 1932.
- Henry Chadwick: Lessing's Theological Writings. Palo Alto California, 1956.
- H.W.C. Schwarz: Lessing als Theologe. Halle, 1854.
- Hans Leisegang: Lessings Weltanschauung, 1931.
- G. Fittbogen: Lessings Religion, 1923.
- F.J. Schneider: Lessing und die monistische Weltanschauung, 1929.

لمبرت من زيادة تعليم نفسه بنفسه . وأفاد من الأسفار التي قام بها طوال عامين في أوروبا بصحبة تلاميذه من أبناء هذه الأسرة . وفي سنة ١٧٥٩ ترك هذه الأسرة وأقام في اوجزبورج Augsburg ( ألمانيا ) . ثم بعد ذلك أقام في منشن ( ميونخ ) ولرنجن ، وخور ، ولييتسك لفترات قصيرة . وفي سنة ١٧٦٤ سافر إلى برلين ، حيث لقي رعاية كبيرة من الامبراطور فريدرش الكبير . وفي سنة ١٧٧٤ صار رئيساً لتحرير مجلة Ephemera التي كانت تصدر في برلين .

وقد برع في تطبيق الرياضيات على المسائل العملية . وكان أول بحث نشره سنة ١٧٥٥ عن نظرية الحرارة ؛ وتلا ذلك بنشر أبحاث في الرياضيات البحتة ، ومدارات المنبئات ، وصنع الخرائط ونظرية الضوء .

وفي سنة ١٧٦٤ عين عضواً في أكاديمية برلين ، وفي سنة ١٧٦٥ مستشاراً للمساحة - Oberbauamt واستمر في هذا المنصب حتى وفاته في ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٧٧ في برلين .

وأشهر مؤلفاته العلمية كتابان Pyrometrie ( ١٧٧٩ ) و Photometria ( سنة ١٧٦٠ ) .

أما في الفلسفة فأهم كُتبه كتاب « الأورغانون الجديد » Ncues Organon في جزأين ( سنة ١٧٦٤ ) وهو كتاب في المنطق والاحتمال ومبادئ العلم .

ويوصفه فيلسوفاً يعد أهم ممثلي المذهب العقلي في ألمانيا بعد ليبنتس وقولف وقيل كنت . وبينه وبين كنت مراسلات مهمة .

وفي كتابه « الأورغانون الجديد » يميز بين المنهج التحليلي والمنهج التركيبي بوضوح وتفصيل . وحاول ايضاح العلاقة بين المعرفة القبلية والمعرفة البعدية . وواصل أبحاث ليبنتس في المنطق الرمزي . وقام بأبحاث رائدة في ميدان الهندسة غير الاقليدية .

وفي علم الفلك أبدع نظرية سميت باسمه تتعلق بحساب مسارات المنبئات . ووضع فروضاً عن بناء العالم ، نشرها بعنوان : « رسائل في علم الكون تتعلق بنظام بناء العالم » ( سنة ١٧٦١ ) .

كما أسهم في علم الخرائط اسهاماً مهماً ، وكذلك في قياس الحرارة العالية .

تكوين المحلل النفسي ينبغي أن يتم بالأحرى بواسطة العلوم المجردة التي تبحث في التبادل بين الناس : أعني علم اللغة ، وعلم المنطق . ومن هنا هاجمه خصومه بدعوى أنه جرّ التحليل النفسي إلى الأدب واللغة والمنطق وأبعده عن الطب والبيولوجيا ، وأنه لم يتم بالناحية العلاجية في التحليل النفسي . وواضح أن هذا المعنى في التحليل النفسي يتعارض تماماً مع اتجاه فرويد . وذهب لكان ، وهو الولوع بالإثارة ، إلى حد القول بأن المحلل النفسي هو في المقام الأول شاعر ! .

ومؤلفات لكان قليلة ، وغالبيتها مقالات ودروس . وقد جمعت مقالاته تحت عنوان : « كتابات » Ecrits سنة ١٩٦٦ ( باريس ، عند الناشر Le Seuil ) ، ونشرت دروسه بالعنوانات التالية :

١ - « المعاني الأربعة الأساسية في التحليل النفسي » ( سنة ١٩٧٣ ) .

٢ - « الأنا في نظرية فرويد وصناعة التحليل النفسي » ( سنة ١٩٧٨ ) .

٣ - Les Psychoses ( سنة ١٩٨١ ) .

لمبرت

### Johann Heinrich Lambert

رياضي وفزيائي وفلكي وفيلسوف ألماني وسويسري . وكان غزير الانتاج جداً .

ولد في ٢٦ أغسطس سنة ١٧٢٨ في مدينة مولهاوزن ( الألزاس ) ، وتوفي في برلين في ٢٥ سبتمبر سنة ١٧٧٧ .

وكان أبوه خياطاً . وقد تولى لمبرت تعليم نفسه بنفسه ، وفي وقت باكراً بدأ أبحاثاً في الهندسة والفلك بواسطة آلات ركبها هو بنفسه .

وصار كاتب حسابات في مدينة مونبليار Montbéliard في مصانع الحديد بها ؛ ثم صار سكرتيراً للأستاذ ايزلن J. R. Iselin الذي كان يشرف على تحرير جريدة في بازل ، وهو الذي أوصى به فيما بعد ليكون مريباً خصيصاً لأسرة الكونت فون سالس A. von Salis في خور Chur ( في شرقي سويسرة ) في سنة ١٧٤٨ ، وكانت غلك مكتبة عامرة مما مكن

- Logische und philosophische abhandlungen, 2 Bde, Berlin 1782.

«رسائل في المنطق والفلسفة»  
«رسائل في معيار الحقيقة».

- Abhandlungen von Criterium Veritatis. Berlin, 1915.  
- Ueber die Methode, die Metaphysik, Theologie und Moral richtiger zu beweisen. Berlin, 1918.

«في منهج وميتافيزيقا ولاهوت البرهنة الصحيحة»

### مراجع

- O. Baentsch: J. H. Lambert und seine Stellung zu Kant Tübingen, 1902.  
- D. Huber: J. H. Lambert nach seinem Leben und Wirken. Basel, 1829.  
- K. Kriemelke: J.H. Lamberts Philosophie der Mathematik. Berlin, 1909.  
- Johann Lipsius: J.H. Lambert. München, 1881.  
- R. Zimmermann: Lambert der vorgänger Kants. Wien, 1879.  
- M. Steck: Bibliographia Lambertiana, 1943.

### لوثر (مارتن)

#### Martin Luther

مصلح ديني مسيحي شهير، ومؤسس المذهب البروتستنتي.

ولد في ايلين Eisleben (في نواحي هاله Halle بشمال ألمانيا) في العاشر من نوفمبر سنة ١٤٨٣، وفي نفس البلدة توفي في ١٨ فبراير سنة ١٥٤٦. وكان أبوه عامل مناجم. وتعلّم في مدارس مجلدبورج Magdurg وايزناخ Eisenach.

وفي سنة ١٥٠١ دخل جامعة ارفورت Erfurt وحصل على الإجازة الجامعية في سنة ١٥٠٥.

ويقول عن نفسه في «أحد عشر المائدة» إن قسوة أبويه عليه حمله على دخول الدير الأوغسطيني في ارفورت سنة ١٥٠٥.

وفي سنة ١٥٠٧ رُسم قسيساً. وفي سنة ١٥٠٨ قام بتدريس الفلسفة في جامعة فنتبرج Wittenberg، فتولى شرح

وأهم من هذا أبحاثه في قياس قوة الضوء ، وذلك في كتابه Photometria ( ١٧٦٠ ) .

أما كتابه «الأورغانون الجديد» ، أو أفكار حول البحث العلمي وتحديد الحق وتمييزه من الخطأ والمظهر» ( في مجلدين ، لينسك ، سنة ١٧٦٤ ) فكان محاولة لإصلاح منطق هؤلاء . وفيه تأثر كثيراً بمتون المنطق التي صنفها أ . ف . هوفمن وكروميوس C.F. Crusius ، وتوسع مثلها في ميدان المنطق حتى جعله يشمل مسائل في علم النفس وعلم المناهج . وفي القسم الأخير من هذا الكتاب يبحث في المظاهر ، ويقدم نظرية عن المعرفة التجريبية والمعرفة الاجتماعية . وساق قواعد للتمييز بين المظهر الزائف ( أو الذاتي ) من المظهر الحقيقي ( أو الموضوعي ) ، وقال إن الأخير ينشأ من الإدراك الحسي الصحيح لعالم الظواهر .

وفي كتابه : «أساس الأرشيتكتونك Architektonik أو نظرية العناصر البسيطة والأولية في المعرفة الفلسفية والرياضية» ( في مجلدين ، ريجا ، سنة ١٧٧١ ) اقترح إصلاحاً للميتافيزيقا عن طريق تحليل مصادر وتكوين ونمو التصورات الأساسية والبدئيات في الميتافيزيقا والعلاقات القائمة بينها بعضها وبعض . وكان يهدف إلى انقاذ الميتافيزيقا ضد هجمات المذهب الحسي والشك ومدارس الإدراك العام والفلسفة الشعبية ، وذلك بعرض الميتافيزيقا على أساس فكرة الظواهر . وفي هذا الكتاب قام بمناقشة تفصيلية وتمييزات دقيقة بين المعاني البسيطة الشائعة والبدئيات والعلاقات المتبادلة الأولية التي تعالج في كتب الميتافيزيقا التقليدية . وكان لهذه التحليلات الدقيقة تأثير واضح في توجيه كنت إلى نقد العقل المتحيز . وقد اعترف كنت في مراسلاته مع ليرت بما لكتاب «الأورغانون الجديد» من تأثير عميق في توجيه أفكاره .

### أهم مؤلفاته الفلسفية

- Neues Organon, oder Gedanken über die Erforschung und Beziehung des Wahren und dessen Unterscheidung von Irrtum und Schain 2 Bde, Leipzig, 1764.

«الأورغانون الجديد» . . .

- Anlage zur Architektonik, oder Theorie des Einfachen und Ersten in der philosophischen und mathematischen Erkenntnis, 2 Bde, Riga, 1771.

«أساس الأرشيتكتونك» . . .

وتدخل البابا، ليو العاشر Leo X في النزاع فاستدعى لوتر إلى روما في سنة ١٥١٨ لاستجوابه في أمر قضاياها تلك. فتدخلت الجامعة كما تدخل ناخب سكسونيا، وأخفقت المفاوضات التي أجراها الكردينال كاجتان Cajetan وملتس Miltitz.

ثم جرت مناظرة بين الك Eck ومارتن لوتر في ليبسك سنة ١٥١٩ حول سلطة البابا. وصار لوتر يهاجم البابوية ككل، أي كنظام مسيحي. ودخل حلبة الصراع كل من ارزس والرشر فون هوتن Hutten.

وفي سنة ١٥٢٠ نشر لوتر نداءه الشهير الموجه إلى «النبلاء المسيحيين في ألمانيا» وتلاه برسالة عنوانها: «في الأمر البابوي للكنيسة» وفي كليها هاجم المذهب النظري لكنيسة روما. فأصدر البابا ليو العاشر مرسوماً ضد لوتر، يحتوي على إحدى وأربعين قضية. لكن لوتر أحرق المرسوم علناً أمام جمع حاشد من العلماء والطلاب والأهالي في مدينة فتنبرج Wittenberg.

واعتد الهيجان إلى سائر أنحاء ألمانيا. فدعا الأباطور كارل الخامس (شارلكان) إلى عقد مجمع Diet في مدينة فورمس Worms في سنة ١٥٢١؛ وأصدر المجمع قراراً بتلصير كتب لوتر، وأمر لوتر بالثول أمام هذا المجمع، وصدر قرار بنفيه من سائر بلاد الأباطورية الألمانية. وبعد أن عاد لوتر من فورمس ألقى القبض عليه بإيعاز من ناخب سكسونيا وأودع في فارتنبورج Wartburg، وكان ذلك في الواقع لحماية. وأثناء العام الذي قضاه في هذا الحجز، ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية ترجمة رابعة مستظل خير ترجمة إلى هذه اللغة حتى الآن، وتعد من أوائل روائع النثر الألماني؛ كما قام أيضاً بتأليف عدة رسائل.

وفي سنة ١٥٢٢ لما قامت الاضطرابات الشديدة، أعيد لوتر إلى بلدته فتنبرج Wittenberg، حيث أعلن سخطه على الثالين، كما أعلن سخطه على الطغاة.

وفي نفس السنة - سنة ١٥٢٢ - كتب ردّه الحاد على هنري الثامن - ملك إنجلترا - حول الطقوس السبعة.

وفي تلك الأثناء بدأ الخلاف يدبّ بينه وبين ارزس، حتى انفجر في سنة ١٥٢٥ لما أن أصدر ارزس كتابه بعنوان: «في حرية الإرادة» فرد عليه لوتر بكتاب مناقض بعنوان: «في عبودية الإرادة».

كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس» لأرسطو، واستمر في ذلك عامي ١٥٠٨ - ١٥٠٩. وقد شعر بأن هذه المهمة كانت شاقة عليه! كما يبدو مما كتبه إلى صديقه يوهانس براون Johannes Braun القسيس في ايزناخ، إذ يقول: «إذا أردت أن تعلم كيف حالي، فاعلم أنني في حال طيبة بفضل الله: لكن الدراسة صعبة شاقة خصوصاً دراسة الفلسفة، وكان بودي أن أستبدل بها، منذ البداية، دراسة اللاهوت، أعني اللاهوت الذي يبحث عن بذرة الجوزة، ولياب حبة القمح ونخاع العظام». (الرسائل، ١: ١٧).

وفي هذه العبارة يعبر لوتر عن تيرمه بفلسفة أرسطو، ذلك أنه كان من أتباع مذهب أوكام Occam، وكان اللاهوتيون في عصره ينقسمون إلى تومارين، وألبرتين (أتباع البرتس الكبير)، واسكوتين (أتباع دون اسكوت). ونجده ينعت أوكام بأنه أستاذة الروحي فيقول: «كان أستاذي أوكام أحسن المجادلين، لكنه لم يملك مهية الكلام الرشيق» (أحاديث المائدة، ج٢، برقم ٢٥٤٤). لكنه في حواشيه على كتاب «الأقوال» لبطرس اللومباردي يتجاوز مذهب الاسمين؛ وقد كتبها في عامي ١٥٠٩، ١٥١٠.

وفي سنة ١٥١١ سافر إلى روما، وهذه الرحلة هي التي غيرت مجرى حياته. ولما عاد منها بدأت سيرته مصلحاً للدين المسيحي. لقد كان البابا في أشد الحاجة إلى المال. ولم يجد سبيلاً للحصول عليه إلا عن طريق إصدار وبيع صكوك الغفران؛ أي الصكوك التي تشتري بها مغفرة الله للذنوب التي ارتكبتها المذنبون والخطاة. وكان يطلب إلى الناس شراؤها ليغفر الله ذنوب أقربائهم أو من يشاؤون ممن يعدّون في المظهر بسب ما اجترحوا في الدنيا من ذنوب. وكان يشرف على هذه «التجارة» راهب دومينيكي يدعى يوحنا تتسل Johann Tetzel (حوالي ١٤٤٥ - ١٥١٩) وذلك في سنة ١٥١٦، فراح يروج لها بدعابة ظاهرة أثارت ثائرة مارتن لوتر، فأصدر لوتر بياناً يحتوي على خمس وعشرين قضية ضد صكوك الغفران. ولصق هذا البيان على باب كنيسة فتنبرج Wittenberg في يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧. فسافر تتسل إلى فرنكفورت - على نهر الأودر، وهناك ردّ على قضايا لوتر الخمس والعشرين بياناً مضاداً فدّ فيه بيان لوتر، وأحرق بيان لوتر علناً. فانتقم الطلاب في فتنبرج بأن أحرقوا بيان تتسل.

وفي سنة ١٥١٨ انضم ملانكتون Melancton إلى

لوتر.



### أرثوذكسية الفلسفة

#### ١ - نظرته إلى اللاهوت:

كانت تقاليد اللاهوت المسيحي منذ أنسلم هي أن اللاهوت هو «الإيمان الذي ينشد العقل».

لكن لوتر وقف معارضاً لهذا الاتجاه الذي ساد العصور الوسطى من القرن الحادي عشر حتى السادس عشر. وقال هو إن اللاهوت ليس تعقلاً لمصدر العقيدة الإيمانية، بل هو فعل، ونشاط عملي يتسبب إلى مجال الحياة العاطفية. وأكد أن اللاهوت لا يسعى إلى الفهم العقلي، بل إلى السلوك العاطفي الوجداني ابتغاء العمل والطاعة. ومن هنا قال زوس (T. Süß: Luther p. 29. Paris, 1969) «إن اللاهوت عند لوتر وجودي. والواقع أن لوتر - عن طريق كيركجور - هو سلف التيار الوجودي في الفلسفة الحاضرة». وفي هذا الحكم قدر كبير من المبالغة من غير شك.

وكان لوتر أوكامي التزعة، لهذا كان من الطبيعي أن يتخذ موقف أوكام من العلاقة بين الفلسفة واللاهوت، ومفاده أن كليهما يتفصل عن الآخر، لأن ملكة المعرفة في اللاهوت هي الإيمان، بينما ملكة المعرفة في الفلسفة هي العقل. وقد زاد لوتر على هذا أن ميدان كليهما مختلف أيضاً، لأن ميدان العقل هو العالم المرئي المحسوس، هو هذه الدنيا - هو عالم الكون والفساد، الذي فيه كل شيء فانٍ. ووظيفة العقل هي أن يكون الوسيلة التي يتوجه بها الإنسان في هذه الدنيا، التي هي المكان الطبيعي للفلسفة. أما ميدان اللاهوت فهو الحقائق الإلهية والسماوية، السرمديّة، الروحية. وهي حقائق نحن إنما نعرفها عن طريق الوحي، عن طريق اتجيل يسوع المسيح، عن طريق كلام الله، ونذكرها بواسطة الإيمان وتجارب الإيمان.

ولوتر إذن لا ينكر الفلسفة ولا مهمة العقل - كما زعم بعض المتسرعين في عرضهم لمذهب لوتر - بل أنه قال عن العقل إنه شيء حسن جداً وإنه إلهي (راجع رسالة: «جدل حول الإنسانية» تحت رقم ٩، القضية رقم ١). و فقط إسائة استعمال العقل وتجاوزه حدود طاقته هو الأمر السيء. وهذا إنما يحدث حين يترك ميدانه الخاص؛ ويخوض في أمور تتسبب إلى ملكوت كلام الله. يقول لوتر: «يجب على الفلسفة أن تقنع بالبحث في المادة وفي الكيفيات الأولية والثانوية، وأن تقوم بالتمييز بين الأعراض والجوهر. أما عن العلة فإنها لا

وفي سنة ١٥٢٥ أيضاً تزوج لوتر من كثرينا فون بورا Katharina von Bora، وكانت إحدى الراهبات التسع اللواتي تركن حياة الرهبنة. وكانت كاترينا (١٤٩٩ - ١٥٥٢) راهبة في دير الستسترمسيين Cistercienne في Nimptschen (بالقرب من Grimma) وانضمت إلى دعوة لوتر في سنة ١٥٢٣.

وفي سنة ١٥٢٩ انعقد مؤتمر في ماربورج حضره لوتر ورجال الإصلاح الديني في سويسرة وعلى رأسهم اتسفنجلي Zwingli (١٤٨٤ - ١٥٣١). واحتدم النقاش بين لوتر واتسفنجلي حول مسألة الافخارستيا (أي تحول النبيذ والخبز في القداس إلى دم المسيح وجسده) فأصر لوتر على رأيه في الحضور الحقيقي الفعلي لدم المسيح وجسده في الافخارستيا، بينما رأى اتسفنجلي أنه لا يوجد أي حضور محلي أو جسدي سواء عن طريق التحول الجوهرى transubstantiation أو الاختلاط الجوهرى consubstantiation. وهكذا لم يفلح هذان المصلحان الدينيان الكبيران في الاتفاق على عقيدة واحدة للإصلاح الديني، رغم اتفاقهما في كثير من الأمور الأخرى التي عرضها اتسفنجلي في القضايا السبع والستين.

وبلغت حركة الإصلاح الديني في ألمانيا التي قام بها لوتر أوجها بإصدار أمانة (أو اعتراف) أوجسبورج في سنة ١٥٣٠.

وقد أمضى السنوات الباقية من عمره في زيارة الكنائس التي أخذت بحركة الإصلاح، وفي إلقاء المواعظ التي نشر الكثير منها، وفي لقاءاته مع ممثلي الكنائس الانجليزية التي انضمت إلى حركة الإصلاح الديني. وقد عقد في سنة ١٥٣٩ مع Bucer وسائر ممثلي الكنائس الألمانية المصلحة ميثاقاً يسمى ميثاق قُتسبرج. ولما أثيرت سنة ١٥٤٠ قضية تزوج فيليب فون هسه Philip von Hesse وقد تورط فيها صاحبها بوكر Bucer وملانختون، اتهم لوتر بأنه ضالع فيها، أي بالفتوى بالسماح لفيليب بالزواج من امرأتين.

ومن بين رسائله الأخيرة رسالة حول «المجامع الدينية والكنائس» (سنة ١٥٣٩)، رسالة ضد «مجلدي التعميد»، ورسالة عنيفة بعنوان: «بابوية روما أسسها الشيطان».

وفي سنة ١٥٤٦ دعي لفض نزاع قام في بلده ايسلين Eisleben وبعد أن أفلح في فض النزاع أصيب بنوبة برد ما لبث أن توفي في أثرها وذلك في ١٨ فبراير سنة ١٥٤٦.



لأي مبرر. إنه يهب اللطف لمن يشاء، برأ كان أو عاصياً، بريئاً كان أو مليئاً بالخطايا. وهو بهذا يخالف أساتذته الأكاديميين الذين كانوا يرون أن اللطف الإلهي مرتبط بما يسمونه الاستحقاق المناسب *mérite de Convenance*. استناداً منهم إلى مبدأ العدل. فموقفهم شبيه بموقف المعتزلة، بينما كان مذهب لوتر أقرب إلى مذهب الأشعرية في الإسلام.

والحجة التي يسوقها لوترها هنا مقنعة. فهو يقول: أي لطف هذا الذي يكون مجرد جزاء عن عمل؟ إن اللطف هبة مجانية، والهبة تتناقض تماماً مع فكرة الجزاء، لأنها لن تكون هبة، بل ثعناً مدفوعاً عن عمل.

ثم إن العلاقة بين الله والإنسان - هكذا يتابع لوتر - حجاجه - هي علاقة حرة تماماً من كل التزام من جانب الله نحو الإنسان. فإله ليس ملزماً بمجازاة أي فعل يفعله الإنسان. ولهذا يجب أن يكون فضله *grâce* حراً من كل التزام أو جزاء.

ثم إن الانجيل يدعو إلى مجازاة الشر بالخير. فبالأحرى والأولى أن يفعل الله ذلك، فيجازي الشر والخطيئة والذنوب بالخير والإحسان والمغفرة. (راجع «مؤلفاته» Werke ج ٤ ص ٢٦٩).

#### ٥ - لا وسيط بين - الله والإنسان:

وعزوا لوتر كل قوة وكل علة إلى الله، الذي هو العلة الأولى. ولهذا لا يعزوا إلى العلة الثانية إلا دوراً ثانوياً تماماً. وقد استخلص النتائج اللاهوتية العملية، لهذه الفكرة. ومن أهم النتائج العملية التي استخلصها من هذا المذهب هو وجوب إسقاط كل توسط بين الإنسان وبين الله، أي إلغاء دور القيسر في التوسط بين الله والإنسان، وبالتالي إلغاء نظام البابوية الذي يقوم على رأس هؤلاء الوسطاء. وقد سار في هذا الاتجاه شوطاً طويلاً، حتى نعت بابوية روما بأنها من صنع الشيطان.

ومن نتائج هذا المبدأ أيضاً القول بأن الإيمان هبة من الله، وليس نتيجة عمل الإنسان. فالإنسان لا يقترب من المسيح أو من الله بالعقل أو بقوته. بل إنها مهمة الروح القدس وحدها أن تقرب الإنسان من المسيح وأن تقرب المسيح من الإنسان. وإذا قدر للإنسان النجاة، فهذا بفضل الروح القدس وحدها، وإذا هلك، فإنما ذلك بسبب مقاومة

تستطيع أن تعرف شيئاً يقينياً... فأتى للفلسفة أن تتحدث عن العلة حديثاً صحيحاً، بينما الحقيقة الواقعية تفترض وجود الله والشيطان، وأولها يسمى الخالق والثاني يسمى أمير هذه الدنيا» (أحاديث للمائدة، ٥ : ١٧ : ١٠ - ٣١ بأرقام ٥٢٢٧، ٥٢٢٨، ١٥٥٠).

#### ٢ - معرفة الله:

ويرى لوتر أننا نعرف الله بالفطرة وذلك أن الناموس موجود في القلب بالطبع. ولو لم يكن الناموس الطبيعي منقوشاً في القلب بواسطة الله، لكان من الضروري أن نعظ طويلاً جداً قبل أن تتأثر الضمائر. ولا بد من القيام بالوعظ طوال مائة ألف سنة قبل أن يقبل الحمار أو الثور أو الفرس أو البقرة الإقرار بالناموس، على الرغم من أن لها آذاناً وعيوناً وقلوباً مثلها للإنسان. إنها تستطيع أن تسمعه، لكنه لا يقع أبداً في قلبها. لماذا؟ وماذا ينقصها؟ إن نفسها لم تصنع ولم تخلق بحيث يمكن أن تنفذ فيها هذه الأمور. أما إذا ذكر الناموس لإنسان، فإنه يقول على الفور: نعم، هذا صحيح، أنا لا أستطيع انكار هذا. وما كان يمكن اقتناعه بهذه السرعة لو لم يكن من قبل مكتوباً في قلبه. وينتهي لوتر من هذا إلى توكيد أن الله يعرف بالفطرة، لقد جُبل الإنسان بحيث يمكن إيقاظه على المعرفة الطبيعية بوجود الله وبالأمر الإلهية. لكن الإنسان لا يستطيع بنفسه أن يسهم في هذا الإيقاظ. والسبب في ذلك هو أن الخطيئة الأولى (الأصلية) قد أفسدته بحيث ان كل ما يفعله بنفسه لنتجته إنما يزيده ضلالاً. ولهذا لا يوجد سبيل آخر للنجاة - في نظر لوتر - إلا بالانجيل وبالمشاركة في يسوع المسيح.

#### ٣ - الله:

ولوتر يتصور الله كما تصوره القديس أوغسطين والنزعة الأوغسطينية بعامة طوال العصور الوسطى الأوربية، أعني أن «الله هو الخير الذي يفيض بذاته». وهو نفس التصور الذي نجده من قبل عند أفلوطين، الذي قال إن الخير الكامل يفيض عنه الخير كما يصدر الشعاع عن الشمس.

#### ٤ - اللطف الإلهي:

وهذا يفضي بنا إلى نقطة مهمة في مذهب لوتر هي مسألة اللطف الإلهي. وهو يؤكد في هذه المسألة مجانية اللطف الإلهي، بمعنى أن الله يفيض بلطفه على من يشاء دون اعتبار

الكتاب المقدس عن النص اليوناني الذي نشره أرزمس (الطبعة الثانية).

### مراجع

- Boisset (Jean): Erasme et Luther: libre ou ser farbitre? Paris, P.U.F., 1962
- Febvre (Lucien): Un destin, Martin Luther, 4<sup>e</sup> éd. Paris, P.U.F., 1964.
- Greiner (Albert): Martin Luther, ou l'homme de la grâce. Paris, Plon, 1966.
- Hägglund (Bengt): Theologie und Philosophie bei Luther. Lund, Gleerup, 1955.
- Hunzinger (A.W.): Lutherstudien. Leipzig, 1966.
- Kuhn (Felix): Luther, sa vie et son œuvre, 3 volumes, Paris 1884.
- Link (Wilhelm): Das Ringen Luthers um die Freiheit der Theologie von der philosophie, 2. Aufl. München, 1955.
- Süss (Théobald): Luther. Paris, P.U.F., 1969.
- Vignaux (Paul): Luther, Commentateur des sentences Paris, Vrin, 1934.

### لوتسه

#### Hermann Lotze

#### فيلسوف مثالي ألماني

ولد في ١٨١٧/٥/٢١ في باوتسن Bautzen. ودرّس الطب والفلسفة في جامعة ليبتيك؛ وحصل على الدكتوراه في كلا العلمين: الطب، والفلسفة. وفي سنة ١٨٤١ صار مدرساً للطب في جامعة ليبتيك، ثم مدرساً للفلسفة بعد ذلك في نفس الجامعة. وفي أثناء عمله في ليبتيك أصدر كتاباً صغيراً عن «علم ما بعد الطبيعة» Metaphysik (سنة ١٨٤١) وكتاباً صغيراً آخر عن «المنطق» Logik (سنة ١٨٤٣).

وفي سنة ١٨٤٤ خلف يوهان فريدريش هيربرت Herbert أستاذاً للفلسفة في جامعة جيتنجن Göttingen؛ واستمر هناك حتى سنة ١٨٨١ حينما دعي أستاذاً في جامعة برلين؛ لكنه

الإنسان العبيد لقبول فضل الله ولطفه ونعمته. وليس ثم درجات لتبرير الإنسان أمام الله، إن التبرير كامل، مهما يكن من ضعف الإيمان.

#### ٦ - القضاء والقدر وعدم حرية الإرادة:

ويلح لوتر في تأكيد القضاء السابق والقدر وفي إنكار حرية الإرادة الإنسانية، وقد رأينا كيف أنه رد على كتاب أرزمس «في حرية الإرادة» بكتاب مضاد عنوانه «في استعباد الإرادة». وهو يرى أن القضاء السابق وانعدام حرية الإرادة عقيدة أساسية يجب أن توضع ملحقاً للعقيدة في المسيح.

#### نشرة مؤلفاته

النشرة الكاملة لمؤلفات مارتن لوتر هي المعروفة بنشرة فيمار، وقد بدأت في الظهور ابتداء من سنة ١٨٨٣ ولا تزال تظهر حتى اليوم، ومن المقرر لها أن تصدر في حوالي مائة مجلد، وعنوانها:

#### D. Martin Luthers Werke, Gesamtausgabe

وتشتمل على رسائله Briefe وعلى «أحاديث المائدة» Tischreden وأولى مؤلفات لوتر هي حواشيه على «كتاب الأقوال» لبطرس اللومباردي، وعلى بعض مؤلفات القديس أوغسطين.

ومنذ أن عين أستاذاً في جامعة فيتنبيرج Wittenberg في سنة ١٥١٢ أخذ في تفسير بعض أسفار «العهد الجديد» من الكتاب المقدس، وظل يقوم بهذا التفسير حتى آخر حياته، ونذكر منه تفسيره لرسائل القديس بولس الثلاث الآتية: الرسالة إلى أهل روما، الرسائل إلى أهل غلاطية، والرسالة إلى العبرانيين. كذلك قام بتفسير بعض أسفار «العهد القديم» ونخص بالذكر تفسيره «للمزامير» ولأسفار موسى الخمسة، ولبعض أسفار الأنبياء.

كذلك يشمل نشاطه المجدلات التي خاض فيها، ثم المواعظ التي ألقاها. وتحتوي النشرة الكاملة المذكورة على قدر كبير من المجدلات (المجلد التاسع والثلاثون، الجزآن الأول والثاني)، وعلى المواعظ التي نشرها لوتر إبان حياته.

أما نشاطه مترجماً للكتاب المقدس فعظيم. وقد هدف خصوصاً إلى الترجمة بلغة أقرب ما تكون إلى لغة الشعب الألماني البسيطة الخالية من كل اصطلاح وتعقيد؛ وقد ترجم

- Medicinische Psychologie oder Psychologie der Seele. Leipzig, 1852.  
 - Mikrokosmos, 3 Bde. Leipzig, 1856- 64  
 - Die Geschichte der Aesthetik in Deutschland, München 1868.  
 - Logik- Leipzig, 1874.  
 - Metaphysik. Leipzig, 1879.

## مراجع

- C.R. Eduard von Hartmann: Lotze, philosophie Leipzig, 1888.  
 - Henry Jones: A critical Account of the Philosophy of Lotze. Glasgow, 1895.  
 - E.E. Thomas: Lotze, Theory of Reality. London, 1921.  
 - Max Wentscher: H. Lotzes Leben und Werke. Bd. I, Heidelberg, 1913.

## لوروا (ادوار)

## Edouard Le Roy

فيلسوف ورياضي فرنسي . ولد في باريس سنة ١٨٧٠ ، ودرس العلوم الرياضية والفيزيائية في مدرسة المعلمين العليا بباريس . وحصل على الاجريجاسيون في الرياضيات سنة ١٨٩٥ ، ثم حصل على الدكتوراه في الرياضيات سنة ١٨٩٨ . وأصبح مدرّساً للرياضيات في إحدى الليسيهات في باريس ، ولكن تحت تأثير فلسفة برجسون بدأ يعني بفلسفة العلم . وقد خلف برجسون في الكولج دي فرانس في سنة ١٩٢١ أستاذاً للفلسفة ، وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٩٤٥ .

أكبر مؤثر في فكر ادوار لوروا هو برجسون . وإلى جانب ذلك كان قويّ الإيمان بالمذهب الكاثوليكي . وفي الوقت نفسه كان يحكم تخصصه رياضياً . لهذا اتجه إلى مشكلة العلاقة بين العلم الحديث والإيمان الديني ، فجعلها همّه الأول .

توفي بالالتهاب الرئوي بعد وصوله إلى برلين بقليل في أول يوليو سنة ١٨٨١ .

سعى لوتسه إلى التوفيق بين المثالية الألمانية والعلوم الدقيقة . وقد هيأت له دراسته الطب أن يعنى بالبحث العلمي الدقيق . لكنه في الوقت نفسه اهتم بالفن والأدب ، مما جعله يولي الشعور العاطفي دوراً أساسياً . ولهذا رأى ضرورة الجمع بين العلم والفن والقيمة : فلكل واحد من هذه الثلاثة دوره في تكوين الإنسان وتحقيق ذاته .

وقد رأى أن الوقائع العلمية يجب أن تكون الأساس في التفكير ، وأما الميتافيزيقا فدورها هو التحليل والإيضاح والتنظيم لهذه الوقائع . ومن ناحية أخرى ربط الميتافيزيقا بالأخلاق ، وجعل من مهمة الميتافيزيقا البحث عن الخير الأسمى أو الخير النهائي .

وينبغي على كل مذهب ميتافيزيقي أن يظل مفتوحاً ، غير قطعي ، تماماً مثل العلوم الدقيقة .

وقد يتعارض هذا الموقف مع النزعة المثالية التي هي النزعة الأساسية في فلسفة لوتسه . لهذا نجده يطامن حدة مثاليته . فهو ينكر أن يكون الفكر هو الواقع ، كما ذهب إلى هذا هيغل ؛ كما يضع إلى جانب العقل المنطقي : الشعور العاطفي . وينكر على العقل معرفة كل الواقع ، وإنما هو يعرف الأفكار فقط . والهوية بين الفكر والواقع لا تتحصل بالفكر وحده ، بل بالتجربة . ويمجد الشعور العاطفي ودوره في إدراك القيمة ، ويرى أنه الحكم الفيصل في الانسجام والجمال ، والقيم بوجه عام . وعنده أن ثم ممالك ثلاثاً هي : مملكة الوقائع ، ومملكة القوانين الكلية ، ومملكة القيم التي هي المعايير التي بها يتحدد معنى العالم .

وقد حاول لوتسه الأخذ بمذهب الأحداث Monades عند ليبنتس ، فرأى أن تفسير التجربة يمكن أن يتم بافتراض أنها تتألف من أحداث صفاتها شبيهة بصفات أحداث ليبنتس .

وأسهم بدور كبير في وضع علم النفس الفسيولوجي .

## مؤلفاته

- Allgemeine Pathologie und Therapie als mechanische Naturwissenschaften. Leipzig, 1842.

Pensée discursive فيظل دائماً خارج الموضوع ، ويكثر من وجهات النظر نحوه ، وهي وجهات نظر محدودة وجزئية بالضرورة .

وعن هذا يتجم أن الفكر الفلسفي ينبغي أن يكون فكراً حياً . أعني يتجاوز العلم المؤسس على الفائلة العملية . وهذا الفكر الحي يقطع صلته بالثائية بين الذات والموضوع ، ويضع نفسه في « المشاركة الوجدانية » Sympathie التي تحدث عنها برجسون في تعريفه للوجدان ( « وجدان ، عيان » ) .

وفي كتابه عن الفلسفة الأولى ( « محاولة لوضع فلسفة أولى » ) يتناول الحياة الروحية التي يؤدي إليها مذهبه . يقول : « في الانسان نوعان من الحياة : حياة حيوانية ، وحياة روحية . والمشكلة الأخلاقية تتعلق بالانتقال من الواحدة إلى الأخرى » ( الكتاب المذكور ج ٢ ص ٧٧٨ ) والنوع الأول من الحياة يقوم في الرضا بما هو مكتسب ، ولهذا تؤدي إلى التوقف ، وإلى الهبوط ، وإلى أن تحطم الحياة نفسها بنفسها . أما الحياة الروحية فعلى العكس من ذلك : إنها سعي متواصل لنشدان « ما يتجاوز دائماً » ، إنها تقدم مستمر ، ولهذا فإنها وحدها المطابقة لطبيعة الواقع ، الذي هو تقدم ديناميكي متواصل .

ويتناول لوروا المشكلة الدينية خصوصاً في كتابين : « العقيدة والنقد » Dogme et critique ( سنة ١٩٠٧ ) و « مشكلة الله » Problème de Dieu ( سنة ١٩٢٩ ) وفي هذا المجال يشارك لوروا أصحاب النزعة المحدثه Modernisme التي ازدهرت في أوائل هذا القرن . والطابع المميز لانتجاهه هنا هو النزعة العملية ، إذ يرى أن الحقيقة الدينية تقوم أساساً في البذرة التي يضعها الدين في نفوس المؤمنين به ويشكل بهذا تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم بين الناس . يقول لوروا : « أن تمتلك الحقيقة هو أن تحيا بها وأن تحيا هي فينا » . ( « الفكر العيان » ج ٢ ص ٢٠٩ )

ولهذا ينبغي ألا ننظر إلى الله على أنه مجرد فكرة يبرهن عليها براهين عقلية ، بل ينبغي أن ننظر إليه على أنه موجود عيني . « ولا يمكن أن نبرهن على حقيقة عينيته ؛ بل هي تترك . إنها ليست موضوعاً لتحليل تصوّري منطقي ، بل هي موضوع عيان نحياه . فإذا قصد إذن إلى البحث عن الله بطريق البرهان ، فإننا لن نجده بوصفه حقيقة واقعية ، بل فقط نجده بوصفه فرضاً تفسيرياً ، يتفاوت حظه من

وكانت باكورة إنتاجه في هذا المجال مقالاً في « مجلة الميتافيزيقا والأخلاق » ( سنة ١٨٩٩ ) بعنوان : « العلم والفلسفة » وفيه أبرز الطابع التركيبي للواقعة العلمية : إن الواقعة بطبيعتها هي نتاج تشكيل للواقع المعطى الطبيعي المباشر بواسطة عقل يواجه الواقع خلال الاطارات أو القوالب التي صنعتها عادات الفكر الانساني ، كما يعبر عنها في التصورات Concepts ، والمبادئ ، والنظريات . إذ يقوم العقل في المرحلة الأولى بتقطيع morcelage الواقع فيعزل في متصل الواقع موضوعات أو ظواهر ويردها إلى عناصرها العامة المجردة ، مجردة من خصائصها الفردية العارضة . وفي المرحلة الثانية تؤخذ الوقائع ، مشكلة على هذا النحو ، في صياغة قوانين lois أعني صيغاً عامة ينبغي أن تعد « نتائج متوسطة مُيسرة للفعل » وكأنها خلاصات موجزة لمعطيات التجربة . وفي المرحلة الثالثة والأخيرة يوحد بين القوانين وينسّق في نظريات théories ، تتبدى على شكل تركيبات synthèses تمكن من توحيد العلم ، وتدبير الذاكرة وتيسير الدلالة على الوقائع . على أن هذه المراحل الثلاث تؤلف وحدة لا تقبل التوقف عند إحداها ، إذ الوقائع والقوانين والنظريات متضامنة فيما بينها .

والعلم هو إذن تنظيم للواقع يقوم مقام الرؤية العيانية المباشرة لهذا الواقع .

وينتهي لوروا إلى الأخذ بالمثالية idéalisme ، إذ يراها أمراً محتوماً يقتضيه العلم الحديث . يقول : « إن المثالية والفلسفة أمران مترادفان » ( مضبطة الجمعية الفرنسية للفلسفة « سنة ١٩٠٤ ص ١٥٣ ) لأن كل معرفة هي مثالية . وفي كتابه عن « الفكر العيان » يؤكد أن هناك تطابقاً بين ما هو منطقي وما هو عقلي ، بين العقل والقول . ومن هنا تراه يقيم تعارضاً بين العقل والفكر العياني ، بين الفكر الصريح والفكر الخالق ، بين الفكر الاستاتيكي والفكر الديناميكي . ويقرر أن « العيان intuition ليس نوعاً من النظرة الخارجة عن العقل : إنه الفعل فوق المنطقي للفكر ، هو فعل الوعي العامل ، الذي يناظر العمل الأعمق للذكاء » ( « الفكر العيان » ج ١ ص ١٧٥ ) . ولهذا يؤكد أسبقية العيان على الفكر المنطقي ، والسبب في ذلك هو طابع المباشرة ، أي الاتصال المباشر مع الموضوع بغض النظر وفي استقلال عن كل قول . ولهذا يؤكد أن « كل عيان حق هو بالضرورة ادراك حق » ( الكتاب نفسه ج ١ ص ١٧٧ ) . أما الفكر المنطقي

- G. Maire: «La Philosophie d'Edouard Le Roy», in *Les Etudes Philosophiques* avril- juin 1972, pp. 201- 220. Paris, Pr. Un.
- F. Olgiati: *Edouard Le Roy e il problema di Dio*. Milano, 1929.
- L. S. Stebbing : *Pragmatism and Freuch voluntarism*. Cambridge, 1914.

## لوسن

## René Le Senne

## فيلسوف أخلاقي فرنسي ذو نزعة روحية

ولد في سنة ١٨٨٢ في البيف Elbeuf (في إقليم نورماندي بشمالي فرنسا). ودخل مدرسة للعلمين العليا سنة ١٩٠٣ حيث تتلمذ على روه Rauh وهاملان، وحصل سنة ١٩٠٦ من السوربون على الليسانس في الفلسفة. وفي سنة ١٩٠٦ حصل على الاجريجاسيون في الفلسفة. ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة من السوربون في سنة ١٩٣٠، وكان عنوان الرسالة الكبرى هو: «الواجب» Le Devoir. وعمل في تدريس الفلسفة في عديد من لسيهات (المدارس الثانوية) الأقاليم، وفي ليسي لوي لوجران في باريس. وفي سنة ١٩٤٢ صار أستاذاً للأخلاق في السوربون. واختير في سنة ١٩٤٨ عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وتوفي في سنة ١٩٥٤ بباريس.

ولوسن أخلاقي قبل كل شيء آخر. وهو يعرف الأخلاق «بأنها مجموع متفلوت النسق من التحديدات المثالية، والقواعد والغايات التي يجب على الأند منظوراً إليه على أنه مصدر مطلق، إن لم يكن شاملاً، للمستقبل - أن يحققها بفعله في الوجود حتى يزداد هذا الوجود قيمة» (بحث في الأخلاق العامة، ص ٢٢. باريس، سنة ١٩٤٧).

ويتحدث لوسن عن الله على أنه «القيمة المطلقة»، ويقول: «إن القيمة المطلقة تبقى وستبقى نهائياً، بالنسبة إلى تجربتنا، فوق القيمة الأخلاقية ومثلاً أعلى، وشرطاً فوق أرضي فيه كل القيم تتكرس مباشرة للأخلاقية وقد صارت قداسة مطلقة، «الجنة»، أعني المكان الذي فيه ستملك، في

الاحتمال : أصل، مركز، أوقمة، وبالجملة : مبدأ لوحدة صورية . وحيث أن نصل إلى الله الحق ، أعني الله الذي هو ضروري لحياتنا ، الله الذي نحبه ، وندعوه ، والذي يغنيننا ويعزينا ، والذي نتصل به كما نتصل بشخص « (مشكلة الله ص ٨١) . ولهذا فإن البراهين التقليدية المعروفة في كتب اللاهوت ليست لها سوى فائدة محدودة ، شكلية خالصة ونظرية محضة ، وهي في ذاتها ليست قوية في الاقتناع ، وليس لها أي تأثير على الضمير . « فمن من المعاصرين يحق له أن يقول ، بعد فحص نزيه لضميره ، انه يؤمن بالله نتيجة لتلك البراهين ؟ . . . إنه لا يتقبلها بحرارة إلا أولئك الذين ليسوا في حاجة إليها ، لأنهم وصلوا إلى النتيجة قبل ذلك وبطريق آخره (مشكلة الله ص ٨٧) . إن البرهان الوحيد المقنع هو ذلك الذي يجده المؤمن الذي يتأمل باخلاص في مقتضيات وجوده المعتاد ، فيقتنع حقا بوجود الله بوصفه الموجود الوحيد الذي يعطي معنى لكل أفعاله وتصرفاته ، وبدونه تكون حياته وتصرفاته خاوية من كل معنى .

## مؤلفاته

- Science et philosophie, série d'articles in *Revue de Métaphysique et de Morale*, vol. 7, 1899, pp. 375- 425, 503- 562, 706- 731; vol. 8, 1900, pp. 37- 72.
- Dogme et critique, 1906.
- Une philosophie nouvelle: Henri Bergson. Paris, 1912.
- L'Exigence idéaliste et le fait de l'évolution. Paris, 1927.
- Les Origines humaines et l'évolution de l'intelligence. Paris, 1928.
- Le Problème de Dieu. Paris, 1929.
- La Pensée intuitive, 2 vols. Paris 1929- 1930.
- Introduction à l'étude du problème religieux. Paris 1944
- Essai d'une philosophie première, 2 vols. Paris, 1956, 1958.
- La Pensée Mathématique pure. Paris, 1960.

## مراجع عنه

- S. Gagnebin: *La philosophie de L'intuition: Essai sur les idées d'Edouard Le Roy*. Paris 1912.

## مراجع

- J. Paumen: *Le Spiritualisme existentiel de René Le Senne*. Paris, 1949.
- J. Pirlot: *Destinée et valeur. La philosophie de René Le Senne*. Namur, 1953.

## لوغوس

## Logos (gr. Λογος, L. Verbum)

وهو « الكلمة » الإلهية . لكن معانيها اختلفت :

١) فاللوغوس عند هرقلطس ، وهو أول من قال به ، هو القانون الكلي للكون . يقول هرقلطس : « كل القوانين الانسانية تتخذى من قانون إلهي واحد : لأن هذا يسود كل من يريد ويكفي للكل ويسيطر على الكل » . ( الشذرة رقم ١١٤ في نشرة دييلز (Diels) وبهذا الرأي أخذ الرواقيون فقالوا إن العقل أو اللوغوس هو المبدأ الفعال في العالم ، وهو الذي يشيع فيه الحياة ، وهو الذي ينظم ويرشد العنصر السليبي في العالم وهو المادة . ويحكي ذيوجانس اللايرسي مذهبهم هذا هكذا : « يقول الرواقيون إن اللوغوس هو المبدأ الفعال في الهيولى ، إنه الله ، وهو سرمدي ، وهو الفعال لكل شيء من خلال المادة » ( ذيوجانس اللايرسي ، فصل ٧ : ١٣٤ ) . ومن ناحية أخرى يجعلونه هو المصير ( الكتاب نفسه ٧ : ١٤٩ ) .

٢) ثم جاء فيلون اليهودي فقال عن اللوغوس إنه أول القوى الصادرة عن الله وأنه غل « الصور » والنموذج الأول لكل الأشياء ( راجع كتابه *de opific. mund* ٢٤ - ٢٥ في مجموع مؤلفاته Opera نشرت في Mangey في مجلدين ، لندن سنة ١٧٤٢ ) . وهو القوة الباطنة التي تحيي الأشياء وتربط بينها : « إنه رباط الكون ، الحافظ على كل أجزائه ويدونه تنحل » ( راجع *dc fuga*, I, 18) . وهو يتدخل في تكوين العالم ، لكنه ليس خالقاً . وهو الوسيط بين الله والناس ، وهو الذي يرشد بني الانسان ويمكثهم من الارتفاع إلى رؤية الله ، لكن دوره هو دائماً دور الوسيط . ويقينه بأنه « إلهي » *θεός* ويميزه من الله بأداة التعريف التي تضاف إلى الله *ο θεός* ، لكنها لا تضاف إلى اللوغوس . ( راجع « مسائل في سفر التكوين » ٢ : ٦٢ ، وقد أورد هذا القول يوسايوس في : « التمهيد

وقت واحد ونهائياً ، الحق الكامل ، والسرور الخالص ، والفضيلة التامة والحب اللامتاهي » ( الكتاب نفسه ص ٦٩٩ - ٧٠٠ ) .

ولو سن يناضل ضد الوضعية التجريبية في كل الميادين . ويقول إن العلم والأخلاق لن يكونا ممكنين إن لم يكن الوجود مقوداً بفكرة أولى تحتوي - على هيئة جرثومة - على كل التعينات التي يمكن الوجود اتخاذها ؛ وهذه الفكرة هي الواجب . « فإذا كنا من خلال التنوع التجريبي للواجب يمكن أن نتيقن كليته ، فذلك لأن الواجب هو الشرط الأول لكل إمكان ، إذ لا يمكن تبرير شيء إلا به ، وهو لا يمكن أن يتحقق إلا بالأفعال التي يأمر بها » ( « الواجب » ص ٣٢٥ . باريس ، سنة ١٩٣٠ ) .

وعن المسؤولية يقول لوسن : « ينبغي ألا نتحمل مسؤولية مفرطة ، ولا مسؤولية أقل مما نستطيع ؛ بل لا بد أن نختار ، وفقاً لاستعدادنا ، الالتزامات التي سنتزيم بها . وبعضها هي من الأهمية بحيث ينبغي ألا ننأى عنها ، وبعضها الآخر فيها من الملاممة مع خلقنا وموقفنا بحيث ينبغي أن نطلبها بنوع من الانتخاب وكأن لنا حقاً عليها . ومن الواحدة إلى الأخرى يمتد مجال قيمة المسؤولية بالنسبة إلى كل إنسان معلوم . وأخلاقية تقوم في علم رفضها ، وفي عدم تجاوزها . وبالجملة ، فإن المسؤولية هي الحركة التي بها يتفد الأنا في الموضوعية الطبيعية والاجتماعية ، ابتغاء إصلاحها ، وفقاً لمقدرته الأخلاقية وبحسب اتجاهات فعله . وفي هذه الحركة تتحدد المسؤولية بحسب طبيعة الأشياء وتعين المثل الأعلى الذي عنده تتوقف . » ( بحث في الأخلاق العامة ص ٥٨٥ )

## مؤلفاته

- Introduction à la philosophie. Paris, 1925.
- Le Devoir. Paris, 1930.
- Le Mensonge et le Caractère. Paris, 1930.
- Obstacle et valeur. Paris, 1934.
- Traité de morale générale Paris, 1942.
- Traité de Caractérologie. Paris, 1949.
- La Destinée personnelle. Paris, 1951.
- La Découverte de Dieu. Paris, 1955.



للاتجيل « ٧ : ١٣ » -.

(٣) ومن بين أسفار العهد القديم من « الكتاب المقدس » سفر يدعى « سفر الحكمة لسليمان » ويصف فيه صاحبه « الحكمة » بأنها بالقرب من الله أو عند الله تشاركه عرشه الإلهي وأنها صادرة عن مجده ، وأنها تساعد الله في عملية الخلق ، وتسري في كل الأشياء وتحقق وحدة العالم . ويمكن أن تتصل بمن من البشر مستعدون لتلقيها، لتقدس أرواحهم وتؤمن لها الخلود عند الله : وهذه الحكمة تسمى في عدة مواضع باسم « اللوغوس » ( والسفر مكتوب باليونانية ، بخلاف سائر أسفار العهد القديم إذ هي بالعبرية ) ، هذا « اللوغوس » ( الكلمة ) الذي فيه جعل إله إسرائيل ، رب الرحمة ، كل الأشياء ( اصحاح ٩ ، العبارة ٢٧١ ) . وبه نجي شعب إسرائيل وسينجي كل النفوس التي تتلقاه .

( ٤ ) والانجيل الرابع المنسوب إلى يوحنا يُستهل بالحديث عن « الكلمة » : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، والله هو الكلمة ، به كل شيء كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » ، وكذلك ذكره يوحنا في خاتمة رسالته الأولى وفي « الرؤيا » Apocalypse المنسوبة إليه أيضاً ( اصحاح ١٩ ، عبارة ١٣ ) . وهذا اللوغوس - أو الكلمة - هو الذي كان قبل خلق الكون ، كان عند الله ، وهو هو الله . وهذا اللوغوس - أو الكلمة - تجسد ، أي اتخذ جسداً ، وحلّ بين الناس ، فكشف لهم حقيقة النجاة ( الخلاص ) وبت فهم الحياة الخالدة ، ممكناً لهم من أن يصيروا أبناء الله .

وهذا اللوغوس ، عند القديس يوحنا ، لا يماثل تماماً الحكمة في سفر الحكمة ولا اللوغوس عند فيلون والأفلاطونية المحدثة ، لأنه عند يوحنا هو الله نفسه ، وليس قوة تابعة لله كما هي الحال عند فيلون ، إنه عنده الكلمة الخالقة والصورة التي عليها يتجلى الله ، لكنه متميز من الأب . إنه ابن الله الذي تتأس ، أي صار انساناً ، وعاش ومات من أجل بني الانسان . وبالجملة : إنه يسوع المسيح .

وفي اثر القديس يوحنا جاء الآباء المسيحيون : يوستينوس ، وكليمانس السكندري ، واوريجانوس السكندري ، فوجدوا في فكرة اللوغوس وسيلة لتفسير الاتفاق بين الفلسفة اليونانية وبين العقيدة المسيحية ، بأن ادعوا أن اللوغوس هو مصدر كليهما والينبوع الوحيد لكل حقيقة .

وفي تصوّر آباء الكنيسة للوغوس ، أكدوا أمرين : (١) التساوي التام بين اللوغوس وبين ابن الله وبين الله الأب ؛ (٢) وثانياً مشاركة الجنس البشري في اللوغوس من حيث هو العقل . يقول يوستينوس : « لقد تعلمنا أن المسيح هو أول مولود لله وأنه اللوغوس الذي فيه يشارك كل الجنس البشري » ( Apologia Prima, 46 )

وجاء الغنوصيون فقرروا أن اللوغوس هو أحد الأيونات eons وأنه الذي يتولى تكوين العالم . فتصدى لهم القديس اريثايموس St. Irénée وأكد المساواة في الماهية والمكانة بين الله وبين اللوغوس وبين الروح القدس ( Odvhaeres., II, 13, 8 )

لكن جاء بعد ذلك اوريجانوس في القرن الثالث فحاول التفرقة في الدرجة بين الله الأب وبين اللوغوس ، وقرر أنه يمكن أن نتعت اللوغوس بأنه وجود الموجودات ، وجوهر الجواهر ، وصورة الصور، لكننا لا نستطيع أن نتعت الله الأب بمثل هذه النعوت ، لأنه يتجاوزها جميعاً ( De Princ., VI, 64 ) - صحيح أن اللوغوس أزلي مع أزلية الله الأب ، لكن ذلك ليس بنفس المعنى . إن الله الأب هو الحياة و « الابن » يستمد الحياة من « الأب » ( In Joann., II 1-2 )

بيد أن الكنيسة في مجامعها ( نيقية سنة ٣٢٥ ، وأفسوس سنة ٤٣١ ) رفضت تفسير اوريجانوس هذا ، واعتبرته هرطقة ، وبقيت على الرأي الأول وهو القول بالتساوي بين الله وبين الابن الذي هو الكلمة ( اللوغوس ) .

ومنذ ذلك التاريخ صار « اللوغوس » معنى دينياً ، أكثر منه فلسفياً نجده خصوصاً عند الصوفية ، وبخاصة عند ابن عربي بين الصوفية المسلمين .

لم يعد له مكان عند الفلاسفة المحدثين ، اللهم إلا على سبيل التعبير اللغوي عن بعض الاتجاهات ، كما نجد ذلك عند فشته Fichte في كتابه « المدخل إلى الحياة السعيدة » ( سنة ١٨٠٦ ) حين استشهد بمطلع انجيل يوحنا للتدليل على الاتفاق بين مثاليته وبين المسيحية ، لكنه يرى في اللوغوس أنه هو « الأنا » ( راجع مؤلفاته Werke , V, p. 475 ) .

### مراجع

- M. Heinze: Die Lehre von Logos in der griechischen



وأثناء الاضطرابات السياسية التي وقعت في إنجلترا ما بين عام ١٦٧٥ و ١٦٧٩ أقام لوك في مونبلييه (جنوبي فرنسا) وباريس ، حيث تعرّف إلى جسندي وأرنو Arnauld. وسجن أشلي لمدة قصيرة في برج لندن ، ثم عادت إليه مكاته ، وعاد لوك إلى خدمته . لكن في يوليو سنة ١٦٨١ أعيد أشلي إلى السجن بتهمة الخيانة العظمى ، ثم أفرج عنه ، وفر إلى هولنده في ديسمبر سنة ١٦٨٢ (وقد توفي بعد شهر في ٢٢ يناير سنة ١٦٨٣ في أمستردام) . قرأى لوك من الحكمة أن يرحل هو الآخر إلى هولنده لاحقاً بوليّ نعمته ، وأقام في أمستردام باسم مستعار هو Dr. Vanden Linden حيث توثقت صداقته بلاهوتيين حريين هما لوكليير Le Clerc ولبوررش وفي سنة ١٦٨٧ انتقل إلى روتردام ، وانضم إلى أنصار وليم أورنج الانجليزي .

ثم عاد إلى إنجلترا سنة ١٦٨٨ ، وعرض عليه أن يكون سفيراً فلم يقبل وصار مندوباً للاستئناف . وأمضى سنواته الأخيرة في اوتس Oates (في إقليم Essex) في منزل سيرفرانس وليدي ماشم Masham - وهي ابنة كلورث Ralph Cudworth

وتوفي في ٢٨ أكتوبر سنة ١٧٠٤ .

#### فلسفته

##### ١ - انكار الأفكار الفطرية

الأفكار الفطرية هي تلك التي يولد الانسان مزوداً بها ، في رأي من يقولون بها . وعن قال بها في العصر اليوناني الرواقيون وسموها *κοινὰ ἐννοια* وقرروا أنها تولد في العقل الانساني منذ الولادة ويشارك كل الناس في الإقرار بها : وفي أوائل العصر الحديث قال بها ديكارت ، حين قرر أن الأفكار السرمدية الضرورية فطرية ، أي أنها تولد مع ميلادنا ولسنا في حاجة إلى تحصيلها . لكنه يقرر مع ذلك أن هذه الأفكار ، قبل التجربة ، إنما توجد ضمناً وعل هيبة امكان . ومن هنا يرى أن التجربة ضرورية لتحصيل هذه الأفكار . ومن بين هذه الأفكار الفطرية مبدأ الهوية (ما هو هو) ومبدأ عدم التناقض (لا يمكن الشيء الواحد أن يكون والا يكون في آن واحد ومن جهة واحدة) ، والضمير الأخلاقي ، وفكرة الله . وكان الغرض من القول بفطرية بعض الأفكار الاساسية هو تأمين اليقين والثبات لحقائق الدين والأخلاق والعلم ، نظراً لأن معطيات الحس غير مأمونة

philosophie. Oldenburg, 1872, reprog. Aalen 1961.

- A. Aall: Der logos: Geschichte seiner Ertwicklung in der griechichen philosophic und christlichen literature, 2 vols. Leipzig 1896- 99; reprog. 1966.

- H. Leisegang, s.v. in Pauly- Wissowar, XIII, 1 (1926).

- H. Urs von Baethasar: Parole et mystère chez Origène. Paris, 1957.

- W. Kelber: Die Logoslehre von Heraklit bis Origenes Stuttgart, 1958.

- A. Orbe: Hacia la primera teologia de la Proccesion del verbo, 2 vols, Roma, 1958.

## لوك

### John Locke

فيلسوف تجريبي انجليزي .

ولد في ٢٩ أغسطس سنة ١٦٣٢ في رنجتون Wrington (في إقليم سومرست Somerset) تعلم في مدرسة وستمنستر ، ثم في كلية كنيسة المسيح في اكسفورد ، حيث انتخب طالباً على الحياة ، لكن هذا اللقب سحب منه في سنة ١٦٨٤ بأمر من الملك . وبسبب كراهيته لعدم التسامح السيوريتاني عند اللاهوتيين في هذه الكلية ، لم ينخرط في سلك رجال الدين . وبدلاً من ذلك أخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي ، حتى عرف باسم «دكتور لوك» .

وفي سنة ١٦٦٧ أصبح طبيباً خاصاً لأسرة أنتوني أشلي كوبر Cooper الذي صار فيما بعد الايرل الأول لشاقتسبري (١٦٢١ - ١٦٨٣) ووزيراً للعدل ولعب دوراً خطيراً في الأحداث السياسية العظيمة التي وقعت في إنجلترا ما بين سنة ١٦٦٠ وسنة ١٦٨٠ . وقد نجح لوك في اجراء عملية جراحية لانتوني أشلي كوبر هذا في سنة ١٦٦٨ الذي أصيب بدمل في الصلر ؛ ونتيجة لهذا النجاح صار ناصحاً أميناً لأشلي في الأمور السياسية والعلمية ، وانتخب عضواً في الجمعية الملكية . F. R.S. ووجهته هذه العضوية نحو الاهتمام بالفلسفة . وأسس لوك نادياً للمناقشات الفلسفية والدينية . وفي سنة ١٦٧٢ صار أشلي أول ايرل لشاقتسبري ووزيراً للعدل Lord Chancellor ، فعين لوك سكرتيراً لهيئة التجارة Board of Trade . وفي سنة ١٦٧٥ حصل على البكالوريوس في الطب ولم يكن قد حصل عليها بعد .

ومتغيرة وغير يقينية .

صحة الرياضيات والأخلاق وكذلك صحة وجودنا وصحة وجود الله . ومعنى هذا أن لوك كان يرى أن ديكارت كان على حق في اعتقاده أن بعض الأفكار يُعرف بالعيان العقلي المباشر أنها واضحة متميزة ، وبالتالي صحيحة ، وأن غلط ديكارت الوحيد هو في ظنه أن مثل هذه الأفكار فطرية ولا ترجع إلى التجربة .

وبعد أن فُتد لوك مذهب القائلين بالأفكار الفطرية في القسم الأول ( الكتاب الأول ) من كتابه « بحث يتعلق بالعقل الانساني » ( ١٦٩٠ ) ، أخذ في الكتاب الثاني منه ( القسم الثاني ) في عرض رأيه وهو أن التجربة هي مصدر ما لدينا من أفكار . إن لدينا أفكاراً - والفكرة Idea أي شيء هو موضوع للتعقل حين نفكر - هذا أمر لا شك فيه . فمن أين تأتي أفكارنا ، مادامت ليست فطرية ؟

لنفرض ، هكذا يقول لوك ، أن العقل كان في البداية لوحة بيضاء Tabula rasa فمن أين يحصل إذن على أفكاره ؟ والجواب : من التجربة ، هكذا يقول لوك . والتجربة تشتمل على مصدرين للأفكار ، هما : الاحساس ، والتأمل reflection . فتحن تتلقى الكثير، إن لم تكن الغالية ، من أفكارنا حين تتأثر حواسنا بموضوعات خارجية . وتتلقى أفكاراً أخرى بواسطة التأمل حينما ندرك عمليات عقولنا في الأفكار التي حصلناها من قبل . إن الإحساس يزودنا بالأفكار المتعلقة بالكيفيات ، مثل فكرة اللون الأصفر ، أو الحرارة ، الخ . والتأمل يزودنا بأفكار تتعلق بالتفكير والإرادة ، مباشرة ، وما أشبه ذلك . وهذان المصدران - الإحساس والتأمل - يعطينا كل ما لدينا من أفكار . فإن شك أحد في هذا ، فما عليه إلا أن يفحص عن أفكاره وينظر هل هناك أفكار لم تأت منه إما من الاحساس وإما من التأمل . ونحو الأطفال يعطينا المزيد من التأيد لهذه النظرية التجريبية الخاصة بمصدر المعرفة الانسانية : فكلما تلقى الطفل المزيد من الأفكار من الاحساس وتأمل فيها ، زادت معرفته بالتدريج .

وبعد أن فرغ لوك من بيان مصدر معرفتنا أخذ في البحث عن طبيعة ما لدينا من أفكار . إن أفكارنا كلها إما بسيطة وإما مركبة . والفكرة البسيطة هي غير المؤلفة من عدة أفكار ؛ إنها لا تحتوي إلا على مظهر واحد أحد ، مثال ذلك : رائحة وردة . أما الفكرة المركبة فهي المؤلفة من فكرتين أو أكثر بسيطة ، مثل فكرة : أصفر زكي الرائحة . والأفكار البسيطة لا يمكن أن يخلقها العقل ولا أن ينترها .

لكن جاء لوك وأنكر نظرية الأفكار الفطرية ، وقال إن عقل الطفل يولد صفحة بيضاء Tabula rasa لم يتقش عليها من قبل شيء . والدليل على ذلك أن الأطفال لا يعون مبادئ المنطق (الهوية وعدم التناقض) . والبداثيون يعيشون دون أن يصوغوا مبادئ المنطق . وشاهد آخر هو أن الناس يختلفون اختلافاً شديداً في تقرير ما هو خير وما هو شر ، ما هو صواب وما هو خطأ ، ولو كانت هناك أفكار فطرية لما وجد هذا الاختلاف في المبادئ الأساسية في المنطق والأخلاق والدين والعلم بين مختلف الشعوب . وهنا يذكر لوك أن هناك شعوراً ليست لديها أية فكرة عن الله وعن العقائد الدينية الأساسية بوجه عام . فلو كان الله قد أعطى أفكاراً فطرية لكان قد أعطى الناس فكرة عن ذاته ، لكنه لم يفعل ذلك .

ولا يستطيع المدافع عن الأفكار الفطرية أن يجيب قائلًا إن بعض الأفكار فطرية بمعنى أن في الناس استعداداً فطرياً لاكتسابها حالما يجربون ويتعلمون استخدام عقولهم . إذ بهذا المعنى كل فكرة هي فطرية ، ولا عمل للتمييز حيثئذ بين أفكار فطرية عالية اليقين وبين أفكار غير فطرية أقل مرتبة في اليقين .

لكن الغريب هو أن لوك في هجومه على مذهب الأفكار الفطرية لا يذكر ديكارت ، مع أن ديكارت هو أعظم فلاسفة القرن السابع عشر ، بينما يذكر رجالاً أقل قيمة كانوا مثل ديكارت من القائلين بنظرية الأفكار الفطرية ، مثل هربرت أوف تشربري ( ١٥٨٣ - ١٦٤٨ ) Herbert of Cherbury وقد ذكره لوك بالاسم . ويفسر البعض هذه الواقعة بكون أحياء بعض المتفلسفة البريطانيين لرأي الرواقية كان في تعارض مباشر مع تجريبية لوك ، لأنه إذا كانت كل معرفة تستمد من التجربة كما يرى لوك ، فإنه لا توجد معرفة فطرية في العقل يؤيد وجودها ما زعموه من إقرار كل الناس بها ، ولما كان هؤلاء المتفلسفة البريطانيين قد أحيوا من جديد مذهب الرواقية في هذا الموضوع ، فقد كان على لوك أن يهاجمهم دفاعاً عن مذهبه هو التجريبي . - ومن ناحية أخرى يمكن أن نتصور أن مذهب الأفكار الفطرية لم يكن في مذهب ديكارت جزءاً أساسياً في فلسفة ديكارت كما تصورها لوك . ولوك يوافق ديكارت في قوله إن بعض الأفكار يعرف صدقها عن طريق العيان العقلي المباشر ، والبعض الآخر يمكن أن يستنبط منها . وعلى هذا الأساس رأى لوك أن من الممكن اثبات

ندرك الألوان والروائح الخ ، وهي أمور ليست في الموضوعات نفسها . وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن أفكارنا عن الكيفيات الأولية تشابه خواص الموضوعات الموجودة خارجاً عنها ، بينما أفكارنا عن الكيفيات الثانوية ليست كذلك . إن الكيفيات الأولية للأشياء موجودة فعلاً فيها ، بينما الكيفيات الثانوية - كما تدركها الاحساسات - لا توجد إلا فيمن يشاهدها . فلو لم يوجد مشاهدون ، لما وجد إلا الكيفيات الأولية وقواها . ولهذا فإن عالم التجربة الغني الحافل بالألوان والذوق والضجة والرائحة ما هو إلا الطريقة التي تتأثر بها نحن من جانب الأشياء ، لا الطريقة التي عليها الأشياء موجودة بالفعل .

وهذا التمييز بين كيفيات أولية وكيفيات ثانوية دعا لوك إلى الزعم بأن بعض أفكارنا تعطينا معلومات صحيحة عن الواقع ، بينما لاتعطينا أفكار أخرى معلومات صحيحة عنه .

ويبحث لوك في معنى الجوهر substance ، فيقول إننا اعتدنا أن ننظر إلى الجوهر على أنه موضوع substratum تحمل فيه الأفكار . فإذا تساءلنا ؛ وما هو هذا الموضوع ، لم نستطع أن نحير جواباً . مثلاً : إذا تساءلنا : اللون والوزن يتسبان إلى ماذا ؟ وكان الجواب : إلى الأجزاء الممتدة الصلبة - فعلياً أن نتساءل : وإلى أي شيء تنتسب هذه الأجزاء الممتدة الصلبة ؟ وهنا لا نحير جواباً ، وسيكون مثلنا مثل ذلك الفيلسوف الهندي الذي زعم أن العالم يحمله فيل كبير . فلما سئل : ومن يحمل الفيل ؟ أجاب تحمله سلحفاة . فلما سئل : ومن يحمل السلحفاة ؟ سلم بعجزه عن الجواب وقال : لا أدري . ومثل هذا هو ما ينبغي أن نقوله عن طبيعة الجوهر substance : إنه شيء لا نعلمه ، لكننا نفترض أنه الحامل للكيفيات التي ندركها أو نتأثر بها .

وكل مجموعة مجتمعة معاً دائماً من الكيفيات نحن نفترض أنها تنتسب إلى جوهر معين ، نسميه : فرس ، ذهب ، إنسان ، شجرة ، الخ . إننا لا نملك فكرة واضحة عن الجوهر ، سواء بالنسبة إلى الأشياء المادية والأشياء الروحية . لكننا مع ذلك لا نعتقد أن الكيفيات الفيزيائية أو العقلية التي ندركها في التجربة معاً يمكن أن توجد دون أن تنتسب إلى شيء ما . وهكذا ، فإنه على الرغم من أنه ليست لدينا أفكار محددة عن الجواهر ، فاننا نفترض مع ذلك أنه لا بد من وجود أجسام وأرواح تحمل الكيفيات التي تنشأ أفكارنا . لكن عجزنا من الحصول على أفكار واضحة عن الجواهر تمنعنا دائماً

لكن العقل يقدر على تكرار الأفكار البسيطة أو مقارنتها بعضها ببعض أو تأليفها بعضها مع بعض . ولا يستطيع العقل أن يخترع أفكاراً بسيطة لم يعرفها في التجربة . والأفكار البسيطة هي الأحجار التي بنا عليها كل أفكارنا المركبة ، وبها تُفسر .

وكثير من الأفكار البسيطة يحملها حس واحد ، مثل أفكار : الألوان ، الأصوات ، الأذواق ، الروائح والملموسات . ويزعم لوك أن فكرة الصلابة فكرة بسيطة نتلقاها بواسطة حس اللمس . وفكرة الصلابة ليست فكرة المكان الذي تشغله الاجسام ، ولا هي التجربة الذاتية للمخشونة التي نحس بها حين نشعر بالأشياء . وإنما الصلابة solidity شبيهة بفكرة الكتلة mass في فيزياء نيوتن ، وهي التي تصنع الأجسام . وإذا شك إنسان في هذه الفكرة فما عليه إلا أن يضع بين يديه شيئاً مادياً ، وليكن كرة ، وليحاول بعد ذلك أن يضم يديه . فهذه التجربة تعطي الانسان معرفة تامة وملائمة بالصلابة .

وبعض أفكارنا ينقلها حسان أو أكثر . ويدخل في هذا النوع أفكار : المكان أو الامتداد ، الشكل ، السكون ، الحركة - إذ نحن نتلقى هذه الأفكار بواسطة البصر واللمس . وهناك أفكار أخرى تأتي من التأمل reflection . وثم أفكار ثالثة هي نتيجة التأمل والإحساس كليهما . ويدخل في هذا النوع الأخير أفكار : اللذة والألم ، فكرة القوة وهي تتكون لدينا من التأمل في تحيرتنا عن قدرتنا على تحريك أجزاء من أبداننا بحسب إرادتنا .

أما كيفيات الأشياء فيقسمها لوك إلى قسمين : كيفيات أولية ، وكيفيات ثانوية . فالكيفيات الأولية هي التي لا تنفصل عن الأجسام مهما تكن الحالة التي توجد فيها هذه الأجسام . وهذه المجموعة تشمل الصلابة ، الامتداد ، الشكل ، التحرك ، والعدد . أما الكيفيات الثانوية فليست قائمة في الموضوعات نفسها ، بل هي القوى التي تنتج مختلف الاحساسات فينا بواسطة كيفياتها الأولية ، مثل ذلك : قوة الشيء ، من خلال حركة أجزائه الصلبة الممتدة ، على إحداث الأصوات ، والأذواق والروائح فينا حين نتأثر بها .

وهكذا نجد أن لوك يقرر أن الموضوعات ( الأشياء ) لها كيفيات أولية ، وهي العناصر الأساسية في فيزياء نيوتن ، ولها أيضاً كيفيات ثانوية هي قوى الكيفيات الأولية التي تجعلنا

الماهية الواقعية لشيء ما لأن معرفتنا التي نحصلها بالتجريد تتناول فقط الكيفيات التي نجربها، وليس أبداً العلة النهائية التي تفسر حدوث (وجود) هذه الخواص. ومن هنا تظل معرفتنا دائماً قاصرة لاننا لن نستطيع أبداً أن نعرف الأسباب التي من أجلها تملك الأشياء الخواص التي لها.

وفي الكتاب (الباب) الرابع والأخير من «بحث...» يتناول لوك المعرفة بوجه عام ومداه، وإلى أي درجة من اليقين يمكن أن تصل. إن معرفتنا تتناول الأفكار فقط، لأن هذه هي الأمور التي يعرفها العقل مباشرة. وما يكون المعرفة في نظر لوك هو إدراك الاتفاق أو عدم الاتفاق بين فكرتين. والأفكار تتفق أو تختلف على أربعة أنحاء:

- ١ - إذ يمكن أن تكون هي هي، أو متباينة؛
- ٢ - ويمكن أن تكون مرتبطة فيما بينها على نحو معين؛
- ٣ - ويمكن أن تتفق في الوجود معاً في نفس الموضوع أو الجوهر؛

٤ - ويمكن أن تتفق أو تختلف من حيث كونها ذات وجود واقعي خارج العقل.

وكل معارفنا تندرج تحت واحد من هذه الأبواب الأربعة. فنحن نعرف: إما أن بعض الأفكار واحدة أو مختلفة؛ وإما أنها ذات علاقة بعضها ببعض؛ وإما أنها توجد معاً دائماً؛ وإما أنها توجد فعلاً خارج عقولنا.

وإحدى وسائل المعرفة العيان intuition أعني الإدراك المباشر للاتفاق أو الاختلاف بين فكرتين. فالعقل «يرى» أن الأسود ليس هو الأبيض، وأن المثلث ليس هو الدائرة. وهذا النوع من المعرفة هو أوضح وأيقن أنواع المعرفة التي يقدر على بلوغها الضعف الإنساني. وكل معرفة يقينية تتوقف على العيان مصدراً وضمناً.

لكننا نحصل على المعرفة أيضاً بواسطة البرهان de-monstration. والمعرفة بالبرهان ليست رؤية مباشرة لكون فكرتين تضيقان أو تختلفان، وإنما بالبرهان نرى بطريق غير مباشر، وذلك بربط فكرتين بأفكار أخرى حتى نستطيع أن نربط كلتا الفكرتين بالأخرى. وهذه العملية هي سلسلة من العيانات، ولهذا فإن كل خطوة في البرهان يقينية. لكن لما كانت هذه الخطوات تحدث على التوالي في العقل - فإن الخطأ يمكن أن يقع إذا نسبتنا الخطوات السابقة، أو افترضنا أن

من تحصيل معرفة صحيحة عن الطبيعة الحقيقية للأشياء.

وبالجملة فإن أفكارنا تكون صحيحة إذا كان أساسها في الطبيعة وكانت تتفق مع الطابع الحقيقي للأشياء. وبهذا المعنى فإن كل الأفكار البسيطة صحيحة، لأنها ناتج أشياء وأحداث حقيقية. لكن ليست كل الأفكار الحقيقية هي بالضرورة امتثالات مكافئة لما يوجد بالفعل. وأفكار الكيفيات الأولية حقيقية ومكافئة معاً. أما أفكار الكيفيات الثانوية فحقيقية، ولكنها لا تمثل ما هو خارج عنا إلا جزئياً: إنها تمثل قوى موجودة، لكنها لا تمثل صفات مناظرة لتلك التي ندركها. وأفكارنا عن الجواهر غير مكافئة وقاصرة جداً، لأننا لا نستطيع أن نتأكد أبداً أننا واعون بكل الكيفيات المتجمعة معاً في جوهر واحد، ولسنا متأكدين لماذا هي متجمعة هكذا. ومن هنا فإن بعض أفكارنا تخبرنا ما هو موجود فعلاً خارجاً عنا، بينما هناك أفكار أخرى، ناتجة عما هو خارج عنا، أو عن تأملنا في أفكارنا، وهي لا تمثل تمثيلاً مكافئاً لموضوعات «حقيقية» real.

وفي الكتاب (الباب) الرابع من «بحث متعلق بالعقل الإنساني» يتناول لوك موضوعات تتعلق بطبيعة الألفاظ واللغة، ومن هنا اهتم به الباحثون في اللسانيات في العصر الحاضر. ومن أهم ما تعرض له لوك في هذا البحث معنى الحدود الكلية أو الكلليات مثل «إنسان»، «مثلث»، الخ. يقول لوك إن كل الأشياء الموجودة هي جزئية، لكننا بتجريد أفكارنا عن الأشياء، ويفصلها عن القسمات الدقيقة والتفاصيل الجزئية فإننا نكون أفكاراً عامة. وبهذا الطريق تصل إلى تكوين الأفكار المجردة العامة التي نستخدمها في البرهنة العقلية.

ومن بين الحدود الكلية التي يقول لوك إنها اكتسبت بعض المعنى من عملية التجريد هذه - اللفظ: «جوهرة» substance. وحين حلل معناه ميز بين ما سماه «الماهية الاسمية» nominal essence وبين «الماهية الواقعية» real essence. أما الماهية الاسمية فهي الفكرة العامة المجردة للجوهرة وقد تكونت بتجريد المجموعة الأساسية من السمات (الصفات) التي توجد دائماً معاً. وفي مقابل ذلك نجد أن الماهية الواقعية هي طبيعة الموضوع التي تفسر كونه يملك الصفات التي يملكها. إن الماهية الاسمية تصف الخواص التي للجوهرة، بينما الماهية الواقعية تفسر لماذا هو يملك هذه الخواص. ويؤكد لوك أننا لن نستطيع أبداً معرفة

والخلاصة أننا لن نقدر أبداً على تحصيل معرفة كافية صحيحة بالأجسام أو بالأرواح ، لأن معلوماتنا عن وجودها وطبائعها محدودة جداً . لكن ليس في هذا ما يدعونا إلى أن نصبح شكاكاً أو نكون يائسين .

### فكره السياسي

يشجل فكر لوك السياسي في « الرسائل عن الحكومة » اللتين نشرهما في سنة ١٦٩٠ ، وإن كان قد كتبها إبان ما يسمى بأزمة الاستبعاد في ١٦٧٩ - ١٦٨١ ، أي الفترة التي حاول فيها - دون جدوى - شيفتسبري أن يستبعد دوق يورك من ولاية عرش إنجلترا لأنه كان كاثوليكياً . وأهم هاتين الرسالتين : الرسالة الثانية ، وإن كانت غير محكمة التحرير لأنها ناقصة ، ولارتباطها بالحوادث المعاصرة لها ، ولأن لوك لم يفلح في إعادة تحريرها حين أراد نشرها في سنة ١٦٨٩ بعد كتابته لها قبل ذلك بعشر سنوات .

ويبدو أن لوك قد كتبها إبان أزمة استبعاد دوق يورك عن وراثة العرش ، من أجل تبرير إمكان التغييرات الدستورية التي طالب بها حاميه شيفتسبري . وكان هدفه هو الحد من سلطان الملك المطلق . ومن أجل هذا افترض أن الأصل في المجتمع السياسي هو وجود علاقة مباشرة بين كل فرد وبين الله ، دون أي وسيط سياسي . فافترض حالة للطبيعة تنظمها قوانين مستمدة من الله ، وفي حالة الطبيعة هذه يكون الناس متساوين وأحراراً أمام الرب وتجاه بعضهم لبعض . وسلطان القانون ضروري لهذه الحرية ، إذ بدون مثل هذا القانون الطبيعي لصارت « حرية » الإنسان فوضى . ومن هذه الحالة الطبيعية استنتج لوك « قانوناً عقلياً » law of reason ، به يصل الناس إلى الاتفاق الاجتماعي وقبول هذا الاتفاق ، وقوانين عملية ضرورية لضمان الحرية الفردية . وفي البداية ، أعني في حالة الطبيعة ، كانت السلطة التنفيذية للقانون الطبيعي قائمة في كل فرد ، وبعد ذلك - إما فجأة أو تدريجياً - اتفق الناس على العيش في مجتمع مشترك تنظمه السلطة التنفيذية المشتركة القائمة على تنفيذ القانون الطبيعي . وهذه السلطة المشتركة تنقسم إلى ثلاث سلطات : التشريعية والتنفيذية ، والاتحادية federative

ولتحقيق الانتقال من حالة الطبيعة إلى المجتمع المدني (السياسي) ، صاغ لوك نظرية مهمة في الملكية ، أدت بدورها إلى نظريته في العمل . وقد بدأ لوك من المصادرة

خطوة حدثت من قبل دون أن تكون قد حدثت فعلاً من قبل . والعيان والبرهان هما المصدران الوحيدان للمعرفة اليقينية .

ومع ذلك يوجد مصدر ثالث للمعرفة له درجة من اليقين تؤكد حقائق متعلقة بتجارب جزئية . وهذا النوع من المعرفة يذهب إلى أبعد من مجرد الاحتمال ، لكنه لا يصل إلى اليقين الصحيح . وهذه المعرفة تسمى « المعرفة الحسية » ، وهي ما نجده عند حدوث تجارب معينة من أن بعض الموضوعات الخارجية توجد فعلاً وتحدث أو تسبب هذه التجارب . ولا يحق لنا أن نقول إن كل تجاربنا خيالية أو هي جزء من الأحلام . فالمعرفة الحسية تعطينا درجة من التأكيد بأن شيئاً واقعياً يحدث خارج عقولنا .

وفي وسعنا الآن بعد هذه التحديدات لضروب المعرفة وأنواع مصادرها ودرجات يقينها أن نحدد المدى الذي تذهب إليه المعرفة الانسانية وأن نقوم ماذا نعرف فعلاً عن العالم الواقعي . لما كنا لا نستطيع أن نعرف بالعيان أو البرهان كل العلاقات التي يمكن أن تقوم بين الأفكار بعضها وبعض ، فإن معرفتنا لا تمتد إلى ما تمتد إليه أفكارنا . وفي كل الأحوال تقريباً نستطيع أن نحقق يقين ما إذا كانت أفكارنا متفقة أو متباينة بعضها عن بعض . لكننا لا نستطيع أن نخبر هل أفكارنا مرتبطة بعضها ببعض إلا إذا استطعنا أن نكتشف أفكاراً وسيطة كافية . وفي ميدان مثل الرياضيات نحن نتوسع في معرفتنا كلما ازدادت معرفتنا بالعلاقات بين الأفكار عن طريق العيان أو البرهان . أما المجالات التي يلوح أننا نقتصر فيها عن اكتساب المعرفة فهي تلك التي تتناول وجود الأفكار معاً ووجودها الفعلي . فما معنا لن نستطيع معرفة الماهية الحقيقية لجوهر ما ، فإننا لن نعرف أبداً هل توجد فكرتان معاً بالضرورة . ونحن ندرك أن بعض الأفكار تجتمع مرات ومرات ، لكننا لا نستطيع أن نعرف السبب في اجتماعها هذا بعضها مع بعض . ولن نكتشف أبداً لماذا تحدث بعض الكيفيات الثانوية حين يوجد ترتيب معين لكيفيات أولية . وفيما يتصل بالوجود الواقعي يقرر لوك أننا متيقنون ، بالعيان ، بأننا موجودون ، وبالبرهان أن الله موجود . لكننا لا نعرف إلا حسياً أن أشياء غير فواتنا وغير الله موجودة . وبقينا في هذه الحالة محدود باللمحة التي فيها نحس بهذه الأشياء في التجربة . فإذا مضت التجربة ، فلا يقين لدينا بأن الشيء الذي أحدث تجربتنا الحسية سيستمر في الوجود .

الانجليز في سنة ١٦٤٠ وما حولها، الذين استندوا إلى سوابق في القانون الانجليزي . كذلك لم يقل مثل الجرنون سديني Aligmon Sidney إن الحق في الثورة يقوم على الحق الطبيعي في الحرية . وإنما طالب لوك بثورة معتدلة واعية ضابطة لنفسها ، من أجل استعادة التوازن في النظام السياسي .

وخلاصة رأي لوك في حق الثورة هو أن الحاكمين قد يستبدون بمن يلتزم هؤلاء الحاكمون بخدمتهم ، سواء كان هؤلاء الحاكمون ملوكاً ، أو جماعات ، أو مغتصبين يطالبون بالسلطة المطلقة . ففي مثل هذه الأحوال ، أي أحوال استبداد الحاكم بالمحكومين ، فإن من حق الشعب أن يثور على الحاكم إذا لم يكن هناك سبيل آخر للإصلاح غير الثورة . لكن حق الثورة هذا ينبغي ألا يمارس إلا في الظروف القصوى جداً ، أي حين تحقق كل الوسائل الأخرى تماماً . ويعتقد لوك أن الناس لن يلجأوا إلى استخدام حق الثورة بخفة ورعونة ، لأنهم يدركون ما تجره الثورات من سفك للدماء وخراب للممتلكات ، ولهذا سيتحملون العذاب ويصبرون طويلاً قبل أن يقدموا على القيام بالثورة .

والناس ينقلهم إلى الحكومة الحق في وضع القوانين وتنفيذها وصنع الحرب والسلام ، لا يتنازلون عن الاهتداء بنور العقل في الحكم على ما هو خير أو شر ، ما هو عدل أو ظلم ، ما هو صواب أو خطأ . صحيح أنه بالنسبة إلى بعض القوانين والقرارات التنفيذية يجب أن يترك الفصل في أمرها إلى السلطتين التشريعية والتنفيذية . لكن إذا تبين للناس أن سلسلة طويلة من الأفعال والقوانين والمراسيم تكشف عن اتجاه استبدادي ، وحكموا حينئذ بأن الحاكم قد وضع نفسه في حالة حرب معهم ، فإن من حقهم أن يخلعوا الحاكم المستبد عن عرشه . ومن ناحية أخرى لا يجوز للسلطتين التشريعية والتنفيذية أن ترجع إلى الشعب إلا إذا حدث انتفاء للثقة بينهما .

وحل الحكومة ليس معناه حل المجتمع ، إذ الغرض من الثورة الاتيان بحكومة جديدة ، وليس العودة إلى حالة الطبيعة ( الفوضى ) . وحل الحكومة يمكن أن يحدث في أحوال عديدة ، أبرزها : حين تحل الإرادة الاستبدادية لشخص واحد أو أمير محل القانون ؛ وحين يحول الحاكم بين الهيئة التشريعية وبين أن تجتمع اجتماعاً قانونياً ؛ وحين يحدث تزيف في الانتخابات ، وحين تقوم حكومة اجنبية باخضاع الشعب ، وحين تهمل السلطة التنفيذية في القيام بمهامها أو

القائمة في القانون الطبيعي والقائلة بأن الإنسان يملك حياته ، واستتج من ذلك أن للإنسان حق امتلاك الأشياء الضرورية للمحافظة على حياته ، طالما كانت هذه الأشياء مملوكة له بطريقة شرعية ( قانونية ) أي مأخوذة من الثروة المشتركة بين الناس في الوقت الذي فيه كان الامتلاك الخاص لا يضر أحداً آخر ولا يجرد ما يملك .

وهكذا كان للإنسان الحق في حياته ، وفي عمله . ومن ثم أيضاً صار له الحق فيما « مزج عمله به » ، أي فيما يملك .

وكلازمة هذه صاغ لوك نظريته في القيمة ، فقال إن قيمة السلع في أي مجتمع تعكس العمل الذي بذل في تحصيلها ، أي أنه رد القيمة إلى العمل المبذول في إيجاد السلعة .

وتم نوعان من العلاقات بين الناس : الأول هو العقد الاجتماعي الطبيعي ، الذي يتم بممارسة الاعتبارات العقلية للمحافظة على النفس ؛ والثاني يتحدد بحقوق التملك ( الحقوق في الملكية ) .

ووظيفة الحكومة وغايتها هما المحافظة على حياة المواطنين وعلى حريتهم وممتلكاتهم . ويلزم عن هذا أن الحقوق السياسية تستمد من الملكية ، ومن لا ملكية لهم فهم إما عبيد وإما مجردون من الحقوق السياسية .

وهكذا نجد لوك يؤكد المصالح المشتركة كما يؤكد الملكية الخاصة ، وهذه الأخيرة تتعلق خصوصاً في ذلك العصر بالأرض .

وإذن فحقوق الفرد السياسية تابعة عن ملكيته ؛ ويكونه ذا حقوق سياسية يصير ملتزماً تجاه الحكومة التي تمثله . وفي مقابل ذلك لا يجوز للحكومة أن تمس ملكيته ( بما في ذلك فرض الضرائب ) بدون موافقته من خلال من يمثله في الحكومة . ويستج عن هذا مذهب لوك في مقاومة الحكومة أو الثورة عليها ، كما عرضه في الفصل الأخير من « الرسالة الثانية في الحكومة » ، وهو الفصل الذي عرض لوك لسخط الحكومة قبل ثورة سنة ١٦٨٨ ، ولرضاها بعد ثورة سنة ١٦٨٨ . ولوك ، في نظريته في الثورة على الحكومة ، لا يتابع آراء أصحاب النظريات البروتستنت في المقاومة الذين ظهروا في القرن السادس عشر والذين أقاموا نظرياتهم على الدين أو جزاء الضمير . كذلك لم يذهب إلى ما ذهب إليه البرلمانيون



الفردية وقدراته وميوله ، وليس المناهج المفروضة أو التكرار والحفظ المفروضين بالعصا .

٢ - يرى لوك أن صحة البدن وتنمية الأخلاق السليمة هما في المقام الأول ، وتتلوهما التحصيل العقلي .

٣ - كما يرى أن اللعب والنشاط الحيوي high spirits والمزاج اللامع الطبيعي عند الأطفال يجب أن تتحكم في عملية التربية والتعليم كلما كان ذلك ممكناً . إذ التعليم الاجباري مرهق ؛ لكن حين يكون في التعليم لعب ، فسيكون فيه بهجة وسرور !

وكان لوك يؤكد في التربية أهمية القدوة الحسنة ، والممارسة العملية بدلاً من اللجوء إلى التعليمات والنصائح والقواعد والعقاب . وتبدأ القدوة الحسنة مع الأبوين ، وعلى الأبوين تجنب العقاب الشديد والضرب ، وكذلك تجنب المكافآت المصطنعة . ويجب أن يكون الأطفال في صحة أرواحهم أوقاناً طويلة ، وأن يتولى هؤلاء الآباء دراسة استعدادات أطفالهم وأن يستثمروا ميول أولادهم للحرية واللعب ، حتى يجعلوا تعليمهم أقرب ما يكون إلى الترويح . وينبغي تشجيع حب الاستطلاع في الأطفال ، وتوجيه نشاطهم الحيوي إلى أمور مفيدة خلقة . ويجب التخلي عن معاملتهم بشدة كلما كان ذلك ممكناً .

وكلما نما الطفل ، يجب أن ينمو الاستثناس بينه وبين أبويه ، بحيث يجد الوالد في ولده الناصح مؤنساً له وصديقاً . وكان من رأي لوك أن الحنان والصدقة وسائل وغايات في آن معاً للتربية الحسنة .

أما التعليم فكان لوك يرى أنه ينبغي أن يبدأ بتعليم الطفل الكلام والقراءة للفتنة الخاصة وذلك عن طريق المثل والتمارين ، لا بواسطة علم النحو . وفي دراسة اللغات كان يرى تأجيل تعلم النحو إلى أن يتعلم الإنسان أن يتكلم اللغة جيداً . ومن رأيه وجوب تعلم لغة أجنبية حديثة في سن مبكرة وكان لا يميل كثيراً إلى انفاق وقت طويل في تعلم اليونانية ، أو العبرية أو العربية أو الخطابة أو المنطق - وهي المواد التي كانت في برامج الدراسة في الجامعات في أيامه ؛ أما اللاتينية فكان يكرها - لا يمانع في تعليمها لأبناء الطبقة الراقية . وبدلاً من ذلك كان يرى انفاق وقت أطول في تعلم الجغرافيا والحساب والفلك والهندسة والتاريخ والأخلاق والقانون المدني . ومن الأمور اللافتة أنه حث على أن يتعلم كل إنسان مهنة يدوية

تركها . ففي جميع هذه الأحوال تعود السيادة إلى المجتمع ، ويكون من حق الشعب أن يتولى عمل السلطة العليا والتشريع لنفسه ، أو أن يضع نظاماً جديداً ، أو أن يضع السيادة في أيدي جديدة تحت نفس النظام - حسبما يرى الشعب أنه الأحسن .

ولكن « السلطة التي أعطاها كل فرد للمجتمع لا يمكن أن تعود إلى الأفراد مرة أخرى ، طالما ظل المجتمع باقياً » ( الرسالة الثانية ، ف ١٩ )

لكن المجتمع لا يستطيع أن يسير إلا وفقاً لحكم الأغلبية ، وعلى كل فرد أن يلتزم بحكم الأغلبية ، ذلك لأن الإجماع مستحيل . والشعب هو الذي يضع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . ولهذا فإنه لا يتفق مع طبيعة المجتمع السياسي أن يكون الحاكم مطلقاً ومستبداً بالسلطة كلها وحده .

وأراء لوك هذه يمكن أن تتفق مع الحكم الملكي ، أو حكم القلة oligarchy ، أو الحكم الديمقراطي ، طالما كان مقررًا أن السيادة هي في النهاية للشعب . لكنه كان يرى أن أفضل نظم الحكم هو الملكية الدستورية ، وفيها تكون السلطة التنفيذية والقضائية في يد الملك ، وتكون السلطة التشريعية في يد الهيئة البرلمانية المنتخبة من الشعب .

وكان لوك يرى أن السلطة العليا هي السلطة التشريعية ، لأنها هي التي تضع القوانين التي يجب على السلطة التنفيذية تنفيذها وفرضها بالقوة . وإذا انتهكت السلطة التنفيذية الأمانة التي وضعت في عنقها ، فلن يكون هناك التزام نحوها ويمكن عزلها . على أن الهيئة التشريعية هي الأخرى يمكن أن تنتهك الأمانة الموضوعة في عنقها ، لكن لوك كان يعتقد أن هذا نادراً ما يحدث ؛ وإذا حدث فمن حق الشعب أن يحل الهيئة التشريعية وأن يقيم غيرها محلها . ولهذا السبب فمن المرغوب فيه أن تنتخب الهيئة التشريعية لفترة محددة بعدها يتم انتخاب هيئة جديدة ، وهكذا بانتظام .

#### أرلوه في التربية

وللوك آراء في التربية أودعها في كتابه « أفكار في التربية » ( سنة ١٦٩٣ ) . وثم ثلاث أفكار رئيسية تسيطر على آرائه في التربية هي :

١ - ينبغي أن تتحكم في تربية الطفل استعداداته



واحدة على الأقل .

آراؤه في الدين .

كتب لوك كثيراً في أمور الدين ، وقبيل وفاته كان مشغولاً بكتابة شروح مسهبة على رسائل القديس بولس ، وعلى تحرير مسودة رسالة رابعة عن « التسامح » ، وكان قبل ذلك قد كتب ونشر ثلاث رسائل عن التسامح . وفي سنة ١٦٩٥ نشر كتاباً بعنوان : « معقولة المسيحية » ، كما نشر دفاعين عن هذا الكتاب في عامي ١٦٩٥ و١٦٩٧ .

رأى لوك أن التسامح هو العلاقة الرئيسية المميزة للكنيسة الصادقة ، لأن العقيدة الدينية هي في المقام الأول علاقة بين كل فرد من الناس وبين الله . والدين الصحيح ينظم حياة الناس وفقاً للفضيلة والتقوى ؛ والدين الخالي من المحبة والاحسان هو دين زائف . والذين يضطهدون الآخرين باسم المسيح يتكبرون لتعاليم المسيح ، ولا ينشدون إلا المظهر الخارجي ، لا السلام ولا القداسة . ومن ذا الذي يعتقد أنه في التعذيب والقتل يسعى المتعصب إلى نجاة روح ضحيته؟! ثم إن الإيمان لا يمكن أن يُفرض بالقوة القاهرة ، كما لا يمكن إرغام العقل على اعتقاد شيء لا يعتقد نفسه . وكل المحاولات لفرض الإيمان بالقوة لن تؤدي إلا إلى نشر الضفاق والاستخفاف بالله . إن الإقناع بالحسنى هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحرك العقل .

ويفضل لوك بين الكنيسة والدولة فصلاً حاداً ، لأن الكنيسة « جماعة من الناس التقوا بإرادتهم واتفاقهم من أجل العبادة العلنية لله على النحو الذي يرون فيه رضاه ، ومن أجل نجاة أرواحهم » . أما الدولة فلا شأن لها بهذا كله ، وكل شأنها هو الصالح العام ، والمحافظة على حياة المواطنين وحريةهم وممتلكاتهم ؛ وليست للدولة أية سلطة في أمور الروح . « وما هو قانوني في الدولة لا يمكن الكنيسة أن تجعله محرماً وبممنوعاً » .

ومن المشكوك فيه - هكذا يقول لوك - أن يكون واحد أو جماعة من الناس هي وحدها التي تملك الحقيقة الخاصة بالطريق الصحيح المؤدي إلى النجاة . والناس المخلصون الأمانة يختلفون في أمور العقائد الدينية ؛ ولهذا فإن التسامح وحده هو الذي يمكن أن يحقق السلام بين الناس . والتصارى ، والمسلمون واليهود الوثنيون كلهم يؤمنون بسلامة أديانهم . ولهذا لا بد من التسامح الشامل ، مادام

هذا الخلاف بين الناس في الأديان والمذاهب قائماً .

ولهذا ينبغي أن تكون حرية العقيدة مكفولة لكل إنسان ، ولا يجتهد أبداً إلا الاضطرار بالآخرين . لكنه مع ذلك رفض التسامح مع الملحدين بدعوى أن الوعود والمواثيق والأيمان لن تلزمهم ، كما رفض التسامح مع أية كنيسة يكون تكوينها من شأنه « أن يجعل كل من يتسبون إليها يُسلمون بهذا أنفسهم إلى حماية وخدمة أمير ( حاكم ) آخر » .

وكان لوك مسيحياً مخلصاً في إيمانه ، مع ذلك ، وقد حاول التقليل من نشوء الفرق الدينية بالدعوة إلى العودة إلى الكتاب المقدس والبعد عن المنازعات الدينية العنيفة التي كانت قائمة في عصره . وكان يعتقد أن « الكتاب المقدس » Bible موحى به . لكنه مع ذلك كان يرى أن الوحي ينبغي أن يتمحور بواسطة العقل .

#### مؤلفاته

- Essays on the Law of Nature.
- Epistola de Tolerantia, Gouda, 1689.
- An Essay Concerning Human Understanding. London, 1690.
- Two Treatises of Government. London, 1690.
- Some Thoughts Concerning Education. London, 1693.
- The Reasonableness of Christianity. London, 1695.
- A Paraphrase and Notes on the Epistles of St. Paul to the Galatians (etc.) . London, 1705.
- Posthumous Works of Mr. John Locke, 6 vols. London, 1706.
- The Remains of John Locke, E. Curl ed. London, 1714.
- Works of John Locke, 3 vols. London, 1714; 10<sup>th</sup> ed., 10 vols. London, 1801.

#### مراجع

- H.R. Fox Bourne: Life of John Locke, 2 vols. London, 1876.
- R. I. Aaron: John Locke. Oxford, 1937, rev. éd. Oxford, 1955.
- S.W. Adamson: The Educational Writings of John Locke. Cambridge, 1922.
- C. Bastide: John Locke, ses théories politiques et leur

تلك التي قام بها C. Bailey في ٣ أجزاء ، سنة ١٩٤٧ . وقد زودها بشرح ومقدمة جيدة ، وجهاز تقديري شامل .

### مراجع

- G. D. Hadzeits: Lucretius and his Influence, 1934.
- E. E. Sikes: Lucretius, 1936.

### لول (رامون)

#### Ramon Lull

مفكر مسيحي أسباني .

ولد في پلمادي ميورقة ( بجزيرة ميورقة ) إما في نهاية سنة ١٢٣٢ أو بداية سنة ١٢٣٣ . وكان الابن الوحيد لأسرة نبيلة . واشترك أبوه في غزو ميورقة الذي قام به دون خومه الأول Don Jaume I وحصل من ذلك على ممتلكات وتشريفات ، الأمر الذي جعله يستقر في هذه الجزيرة . وصار ابنه غلاماً Paje عند الملك دون خومه الأول ، وهو في الرابعة عشرة من عمره . كذلك عُيِّن ، وهو شاب صغير ، مرئياً لابن الملك الذي صار منذ سنة ١٢٥٦ ولياً للعهد وحاكماً على ميورقة . ولما بلغ رامون لول العشرين منح لقب رئيس القصر وجزراً لدى ولي العهد هذا . وفي سنة ١٢٥٧ تزوج من بلاتكا بيكاني ، فأنتم زواجهما ولداً وبنتاً . على كل حال عاش رامون لول عيشة الترف والفخفة وانتهاب اللذات .

لكنه بعد أن بلغ الثلاثين حدث له « تحول » ديني حاسم ، بعد أن تجلّى له يسوع المسيح مصلوباً خمس مرات ، مما دعاه إلى ترك حياة الترف والشهوات ، والانصراف إلى الزهد ، والصلوات . وانتهى به الأمر إلى العزم على إمضاء بقية حياته في تحويل غير المسيحيين إلى المسيحية ، وخصوصاً المسلمين . وفي سبيل ذلك عزم على تأليف كتب يردّ فيها على الإسلام توطئة للتبشير بالمسيحية بين المسلمين . ثم باع جزءاً من ممتلكاته وقام بالحج إلى روكا مادور وستياجودي كميوستيلا ( شنت يعقوب في كتب الجغرافيا العربية ) .

وبعد عودته من الحج بدأ دراساته الفلسفية واللغوية واللاهوتية ، في المدة من سنة ١٢٦٥ إلى ١٢٧٤ .

ولما بلغ الأربعين من عمره اعتزل في جبل رندا ( على

influence en Angleterre. Paris, 1906.

- Gilbert Ryle: Locke on the Human Understanding. Oxford, 1933.

### لوكرتيوس

#### Titus Lucretius Carus

شاعر فيلسوف لاتيني من أتباع أبيقور .

ولد حوالي سنة ٩٩ ق. م. وتوفي سنة ٥٥ ق. م. وعلى الرغم من عدم وجود معلومات عن حياته لدى المؤرخين ، فإنه من الممكن أن نستنتج من شعره أنه كان رومانياً من أسرة كريمة ، ونشأ تنشئة حسنة ؛ وكان صديقاً للسياسي جايوس ميوس Gaius Memmius . وتقل في أنحاء إيطاليا ، وزار صقلية . لكنه انصرف عن المنازعات السياسية في عصره ، وعاش في عزلة عن الشؤون العامة .

وانتاجه ينحصر في قصيدة طويلة بعنوان : « في طبيعة الأشياء » ، وتتألف من حوالي ٧٤٠٠ بيت من الشعر في البحر السداسي ، وتنقسم إلى ستة كتب ( أو أقسام ) . ويغلب على الظن أنه لم يتمها . وقد وجهها إلى C. Memmius Gemellus الذي كان بريطوراً في سنة ٥٨ ق. م .

والهدف الرئيسي في هذه القصيدة هو تحرير الناس من الخرافات ، وتعويلهم على قبول فكرة أن الموت فناء تام للإنسان ، وتخليصهم من فكرة تدخل الآلهة في شؤون الناس . والآلهة موجودون ، لكنهم مجرد كائنات أسمى من الناس ، لكنهم يلقون الموت والفساد . والآلهة لا يخلون أبداً بأمور الإنسان : والذرات هي وحدها السرمدية ، ولا يطرأ عليها فساد .

ولوكرتيوس إنما يعرض فيها مذهب أبيقور الذي ينهه بأنه « والده » ، بل يقول عنه إنه « إله » ، ومذهبه هو الحكمة التامة . ويوجه إليه الخطاب قائلاً : « إني أتبعك أنت ، يانجم الجنس اليوناني اللامع ، وفي آثارك العميقة أغرس خطواتي ، لا من أجل المنافسة لك ، بل لرغبتي في أن أحاكيك » .

#### النشرة النقدية

النشرة النقدية المعتمدة لكتاب De rerum Natura هي

وأزمة ملدية أيضاً وهو في جنوة .

سافر إلى تونس فأخفقت مهمته هناك إخفاقاً ذريعاً .  
لقد تجادل مع الفقهاء المسلمين هناك ، ورفضوا أمره إلى  
السلطة ، فحوكم وقضي عليه بالطرد من تونس . وأراد هو  
البقاء ، لكن أمام الموقف العدائي الذي وقفه منه الشعب  
التونسي ، قرر الرحيل ، فأبحر إلى نابلي ، حيث قام ببعض  
التدريس . لكنه عاد إلى مشروعاته القديمة فعرضها من جديد  
على البابا شلستينو الخامس وبونيفاشيو الثامن ، فرداه خائباً  
كما فعل به أسلافهما من قبل . فانتابته محنة روحية عنيفة  
أثمرت واحداً من أجل مؤلفاته الأدبية ، وعنوانه « الضيق » ،  
Desconhort .

ودخل في الطريقة الثالثة لطريقة القديس فرنسيسكو ،  
ربما في سنة ١٢٩٥ .

وفي سنة ١٢٩٨ عاد رامون لول إلى باريس ، ونخاض  
في النزاع القائم ضد ابن رشد والرشدية اللاتينية . ثم ترك  
التعليم والجدل ، ليفرغ لكتابة مؤلفه : « شجرة فلسفة  
الحب » وهو تنمعة لـ « شجرة العلم » فأنجزه في سنة  
١٢٩٨ .

وابتداء من سنة ١٢٩٩ عاد إلى الأسفار ، فرحل إلى  
برشلونة ، وميورقة ، وقبرص ، وأرمينية وروندس ومالطة ،  
واستمرت هذه الأسفار حتى سنة ١٣٠٢ حين عاد إلى  
ميورقة ؛ وما لبث أن مضى إلى ليون ( فرنسا ) ليعاود مساعيه  
لدى البابا ، وذلك في سنة ١٣٠٥ .

وأقام في باريس للمرة الثالثة في سنة ١٣٠٦ حيث قام  
بالتدريس لمدة فصل دراسي ، ومن هناك عاد إلى ميورقة ،  
ومن هذه أبحر إلى أفريقية ، ونزل في بجاية ( الجزائر ) ،  
مباشراً بالمسيحية مما أفضى به إلى السجن . وفي السجن شرع  
في كتابة مؤلفه : « مناظرة ريموندو مع Hamar ( عمر؟  
عمار؟ ) المسلم » Disputatio Raimundi Cum Hamar  
Saraceno وبعد ستة أشهر من السجن طرد من بجاية ،  
وأبحر منها متوجهاً إلى جنوة ، لكن سفينة غرقت بالقرب من  
بيزا Pisa ، فأقام في بيزا عامين في أثنائها تفرغ لإعداد حملة  
صلبية إلى بيت المقدس . وكتب مؤلفاً بعنوان : « كتاب فتح الأرض  
المقدسة » في سنة ١٣٠٩ . وفي هذه السنة قام برحلته الرابعة  
والأخيرة إلى باريس حيث قام فيها بالتدريس من سنة ١٣٠٩  
إلى سنة ١٣١١ . وفي هذه الفترة كان جداله العنيف ضد ابن

مسافة ٣٠ كم من بلمادي ميورقة ) ، وانصرف إلى حياة  
التأمل . ومن هناك رحل إلى دير يدعى Monastério de la  
Real ، وفيه كتب ، من بين كتبه الأخرى ، « كتاب التأمل  
في الله » Libre de Contemplacic en Deu .

ودعا ولي العهد للحضور إلى مدينة مونبلييه ( جنوبي  
فرنسا ) ، وهناك ألف كتابه : « فن البرهان » Art demostrativa  
وحصل من ولي العهد Don Jaume هذا ، على قرار  
بتأسيس كلية ميرامار Colegio de Miramar في ميورقة ،  
ليقيم فيها ثلاثة عشر راهباً فرنسيسكانياً ليتعلموا اللغة العربية  
ابتغاء التمکن من السفر إلى البلاد الإسلامية والقيام بالتبشير  
بالمسيحية بين المسلمين . وصتق على تأسيسها في سنة ١٢٧٦  
البابا يوحنا الحادي والعشرون ( بيدرو هسبانو Pedro Hispano )  
ومنحت الجبوس ريعاً سنوياً مقداره خمسمائة فلورين  
ذهباً . وفي سنة ١٢٧٧ سافر إلى روما ، ليحصل من البابا  
على تأسيس كليات أخرى عديدة لتكوين المبشرين ، على  
غرار كلية ميرامار . ثم قام فيما بين سنة ١٢٧٧ وسنة ١٢٨٢  
برحلات طويلة جعلته ، على حد تعبيره ، يعرف المعلوم من  
العالم آنذاك تقريباً ، من البرتغال حتى بلاد التار ، ومن  
بولندة حتى بلاد الحبشة .

وفي سنة ١٢٨٢ عاد إلى برينيان ( على الحدود بين  
فرنسا وأسبانيا ) لزيارة حاميته الذي صار ملكاً ، باسم دون  
نخومه الثاني . وفي سنة ١٢٨٥ عاد إلى روما ، حيث عرض  
مشروعاته على البابا هونوريوس الرابع .

وسافر إلى باريس لأول مرة في سنة ١٢٨٦ ، حيث حصل  
على لقب magister . وقام بالتدريس في مدرسة برنودي سان دي  
Berthould de Saint Denys ويقول لول إن مهمته في فرنسا  
كانت أن يلتزم من ملك فرنسا ومن جامعة باريس أن ينشأوا  
هناك ( في فرنسا وباريس بخاصة ) أديرة تتعلم فيها لغات غير  
المسيحية . لكنه يبدو أن الدومينكان في باريس لم يعيروا  
مشروعاته أي اهتمام ، شأنهم شأن الفرنسيسكان في  
مونبلييه .

وكان عليه هو أن يقوم بترجمة كتابه : « فن ابتكار  
الحقيقة » Art inventiva de veritat إلى اللغة العربية ، ومن  
المحتمل أن يكون ذلك قد تم إبان إقامته في جنوة سنة  
١٢٨٩ . كما كان عليه أيضاً أن يقوم ، على نفقته الخاصة ،  
بالإبحار إلى شمالي أفريقية ، بعد أن مرّ بأزمة روحية شديدة

والمحنة على السواء -، ولا يكاد يتأثر بأرسطو .  
ومن هنا فإن لول لا يرى عملاً لوجود مشكلة الصلة بين  
العقل والايان . لإيضاح موقفه نقول إنه يرى أن الله هو  
الموضوع الأسمى ، ولهذا هو يملك الخير الأسمى والعظمة  
العليا . وما دام الله هو الموضوع الأسمى ، فإن العقل في  
مرتبة أدنى من مرتبة الله ، ولهذا لا يستطيع العقل أن يحيط  
بالله احاطة «كاملة» . لكن الله يريد للإنسان أن يعرفه ، ولهذا  
فإنه جعل الإيمان يمكن الطبيعة الانسانية من العطف على المعرفة  
« كما يطفو الزيت على الماء » ؛ وذلك بأن يلقي الايمان الضوء  
على العقل ، فيؤمن ويعرف الله . وهذا الايمان ، الناشئ  
عن الاشراف ، أسمى من الايمان المستمد من البرهان  
العقلي ، لأنه يكتسب بدون مجهود ، وما يكتسب بدون مجهود  
أسمى مما يكتسب بمجهود . ثم إن الإيمان المستبر بالاشراق  
الإلهي أبقي ، لأنه مستمد من المصدر الأصفي : أعني الله .

إن الايمان هو الأداة للسمو بالعقل . وهذه الأداة كانت  
الوسيط الذي وضعه الله بينه وبين العقل الانساني ، حتى  
« يستريح الانسان بنفسه في موضوعه الأول » ، أي الله .

ولول يبدأ من الله ، من أجل تفسير الانسان والعالم ،  
ويتجهي إلى الله أيضاً . وإله لول هو إله المسيحيين مؤلاً على  
مذهب الأفلاطونية المحدثة . إن الله هو الوجود الحقيقي  
الوحيد ، وما عداه فإنما يستمد وجوده منه . لكن لول لا  
يقول بفكرة الصلور أو الفيض الموجودة عند أفلوطين وعنه  
( كما يظهر في كتاب « أثولوجيا » ) أخذه الفارابي وابن سينا  
وبعض الفلاسفة المسلمين . بل يقول بالمشاركة Participa-  
cion : أعني أن المخلوق يشترك ، على نحو ما ، في وجود  
الخالق . لكن فكرة المشاركة تصطبغ بعقيدتين على الأقل ،  
هما : مادية جزء كبير من المخلوقات ، ثم التعدد . وللتغلب  
على هاتين الصعوبتين اللتين تؤدي أولاهما إلى انتهاك الروحية  
الإلهية ، وتؤدي ثانيتهما إلى انتهاك وحدانية الله ، كان لا بد  
من القول بالصورة Ideas ، التي هي بمثابة معقولات أولى في  
العقل ( النوس ) الإلهي . وهذه الصور قد اتخذت في الإسلام  
السنّي شكل «أسماء الله الحسنى» . والأسماء الحسنى هي  
« حضرات » الله ( جمع : حضرة ) أي أوصاف ، لا تدل على  
كثرة وتعدد ، لأنها محكومة بوحداية الله ، ويتحول بعضها إلى  
بعض : فهي بالنسبة إلى الله واحدة ، وبالنسبة إلى المخلوقات  
تستخدم لكي تنال المخلوقات ما يهبها الله . ويأخذ لول عن  
التكلمين المسلمين هذا الرأي ، ويقول إن مخلوقات الله هي

رشد ، ولقي نجاحاً لدى بعض الأساتذة في باريس ،  
وأوصى الملك فيليب الجميل بكتبه . فدفعه هذا النجاح إلى  
الذهاب إلى مجمع فينا ، وقدم له التماساً فيه عشرة  
اقتراحات ، أقر المجمع بعضها ، وبما أقره منها : إنشاء  
كليات (مدارس) للغات الشرقية في باريس ، وروما ،  
وطليطلة ؛ ادماج كل الطرق الدينية العسكرية في طريقة  
واحدة ؛ تخصيص عشر دخل الكنيسة لغزو الأراضي المقدسة  
( فلسطين ) ؛ منع أنصار ابن رشد من التدريس ؛ التبشير  
الإلزامي بين اليهود والمسلمين المقيمين في الممالك المسيحية ،  
وبخاصة في أيام السبت (بالنسبة إلى اليهود) والجمعة  
(بالنسبة إلى المسلمين) . ونتيجة لذلك أنشئت كراسي أو  
كليات لتدريس اللغة العربية ، والكلدانية ( السريانية )  
والعبرية في كل من : بولونيا ( ايطاليا ) ، واكسفورد ،  
وباريس ، وروما ، وشلمنقة ( أسبانيا ) .

وقام بأخر رحلة تبشيرية له في أفريقية في سنة ١٣١٤ ،  
فأقام في تونس قرابة عامين ، واعظاً ومبشراً ومجادلاً ، وكان  
الملك دون خومه الثاني قد حمله رسائل توصية موجهة إلى  
حاكم تونس .

أما عن موته فتزعم النقول الدينية أنه توفي شهيداً في  
٢٩ يونيو سنة ١٣١٥ ، وكانت وفاته إما أثناء رحلة عودته إلى  
ميورقة ، أو بعد وصوله إلى ميورقة ، وأن السبب في موته هو  
أنه رجم بالحجارة في بجاية . لكن التحقيق التاريخي يدعو إلى  
تأخير تاريخ وفاته إلى بداية سنة ١٣١٦ ؛ استناداً إلى رسالتين  
بتاريخي ٥ أغسطس و ٢٩ أكتوبر سنة ١٣١٥ كتبها إليه الملك  
دون خومه الثاني ، وإلى كون لول قد ألف كتابين وهو في  
تونس في ديسمبر سنة ١٣١٥ .

### آرلوه

لم يكن لول مفكراً ذا نزعة عقلية ، بل كان أقرب إلى  
الايان الخالص والتصوف . ولهذا كان يرى أن السبب في كفر  
« الكفار » ( ويقصد بهم كل من ليسوا مسيحيين ) ليس  
افتقارهم إلى العقل ، بل افتقارهم إلى النور الذي يلقيه  
الايان على العقل كيما يستنير ، ونحن في حاجة إلى الايمان  
ليس فقط من أجل النجاة في الآخرة ، بل وأيضاً من أجل  
التعقل والفهم . وهكذا نجد سير في الطريق الذي بدأه  
القديس أنسلم وكان شعاره : أومن لأتعقل . وهو لهذا أيضاً  
يسير في التقاليد الأوغسطينية المتأثرة بالأفلاطونية - القديمة

بمثابة أوعية تنال حظها المتفاوت من التشابه بالله وفقاً لشكل وعائها .

ووفقاً لدرجة التشابه بين المخلوق وخالقه يترتب عالم المخلوقات ، إلى درجات : أدناها هو التشابه العنصري ، الموجود في العناصر الأربعة ( الماء والهواء والنار والتراب ) ؛ وفوقه التشابه النباتي الموجود في النباتات ؛ وفوقه التشابه الحيواني الموجود في الحيوان المزود بالحس فقط ، وفوقه التشابه الحيواني التخيلي ، الموجود في الحيوان وهو الحس والخيال ؛ وفوقه - وهي المرتبة العليا والخامسة ، التشابه الانساني المزود بالعقل . ولهذا فإن في الموجودات في العالم خمس مراتب : عنصرية ، نباتية ، حساسة ، تخيلية ، عقلية . ووفقاً لهذه المراتب تكون درجة المعرفة . فالحيوان الحساس فقط ، الحساس التخيل لا يعرف إلا بالحس وحده أو بالحس والمخيلة . أما الانسان فيعرف بالعقل . وعلى الرغم من أن معرفة العقل هي بالتشابه وجزئية ، فإن في وسعه أن يعقل أن الله هو الطبيعة الوحيدة واللائيائية ، وله كل الكمالات اللامتناهية .

والمخلوقات ، بدون الله ستكون مظلمة ، وخالية من المعنى ، وأعداداً . والمخلوقات رموز ، والحكيم هو الذي يستطيع فك هذه الرموز .

والله بوصفه الموجود الخالق الوحيد أحدث ، بفضل إشعاعه ، الماهيات الأربع الأولى الكونية : النارية ، الهوائية ، المائية ، الترابية ، وهذه تكون الهولي ، ويسمى القوضى ( أو العماء ) Chaos . وكل واحد من العناصر الأربعة مؤلف من هولي وصورة . والهولي انفعال محض ، والصورة فعل ، وهو يتحرك فيها . ولا بد أن يوجد مقارن لهولي القوضى ، هو الصورة الكلية ( الكونية ) ويتحرك في هذه الهولي . وعن هذه القوضى المحركة بالصورة الكلية تنشأ كل الموجودات خلال ثلاث درجات : الأولى تتألف من وجود مركب من الماهيات الأربع المذكورة ، وفيها توجد المبادئ المولدة للكيفيات الطبيعية الخاصة بالموجودات الطبيعية : الكليات ( الأجناس ، الأنواع ، الفصول النوعية ، الخواص ، والأعراض العلة ) ، والصورة الكلية والهولي الأولى . والمرتبة الثانية تنشأ عن تحويل كل المرتبة الأولى إلى قوة محض ، يحدث فيها فعل الصورة الموجودات الأولى لكل نوع من الأنواع ، بما في ذلك جسم الانسان . والمرتبة الثالثة تقوم في تولدات كل نوع من الأنواع .

وتوالي المراتب الثلاث هو التوالد الحقيقي الذي يقوم في التفرّد الهولاني والصوري .

وفوق العالم الذي تحت فلك القمر يوجد العالم السماوي ، ويتألف جوهرياً من الجوهر الخامس ويتميز بأنه لا يوجد فيه تضاد بين مبادئه ، ولا كون ولا فساد . وهذا العالم السماوي تحييه صورته التي هي نفسه المحركة له حركة دورية ، وهذه الحركة الدورية هي علة كل الحركات الحادثة في العالم الذي تحت فلك القمر وما فيه من أفراد .

وفي العالم السماوي يظهر النور . لكن ليس النور صفة ذاتية لهذا العالم السماوي ، بل مشاركة في النور الأزلي ، إن الله نور وينبوع لسائر الأنوار : أنوار السموات ، وأنوار سماء السعداء ، والأنوار التي تلقيها الكواكب على العالم الذي تحت فلك القمر . والنور جوهر مضيء ، ويفعله في سائر الجواهر يبدد الظلمات . ومن وجود النور يمكن استخلاص الصفات العامة التي تحمل على كل الموجودات : خير ، عظيم ، باق ، قوي ، فعال ، الخ .

أما في اللاهوت فإن الفكرة الأساسية التي يقوم عليها اللاهوت عنده هي فكرة « الصفات » Dignidades . والصفات هي عنده المبادئ العامة الكلية ، لكنها بالنسبة إلى الله هي التي تؤلف حقيقته الجوهرية . وهذه « الصفات » هي : الخير ، العظمة ، السرمدية ، القدرة ، العلم ، الإرادة ، الفضيلة ، الحقيقة ، المجد ، تميز الأقانيم ، الاتفاق في الجوهر الشخصي Consubat ancialidad personal المبدأ ، الوسط ، النهاية ، المساواة ، والصفات أسباب لأحوال حقيقية في الوجود . فمثلاً : الخير هو علة كل ما هو خير يتم بفعل الإحسان ؛ القدرة هي علة كون الانسان (أو غيره) قادراً . فلنشرح بإيجاز بعض هذه الصفات .

١ - الخير : الله خير بجوهره . والخير الإلهي هو العلة الوحيدة التي بها يحدث الله ما هو خير بالضرورة . ولأنه خير ، فهو مصدر كل خير في الوجود .

٢ - العظمة : الله عظيم ، وعظمته لا تنتهي . وعظمته هي السبب الذي من أجله كان خيره عظيماً وسرمديته عظيمة . وإذا كان الله لم يخلق المخلوق عظيمياً ، ولم يخلقه لا متناهياً ، فالسبب في ذلك هو أن المخلوق عاجز عن قبول العظمة اللانهائية .

٣ - السرمدية : الله هو سرمدية ، وهذا معنى قولنا إن

الله سرمدى eterno . والله يعرف ذاته أنه سرمدى .

٤ - القدرة : الله قادر على كل شيء . وقدرته هي وجوده ، لأنه بدون وجوده لن تتحقق قدرته اللامتناهية بالفعل .

٥ - العلم Sabiduria : والله هو العلم . وعلمه ليس شيئاً آخر غير السبب الذي من أجله هو يعرف ذاته أنه عالم . وعلمه لا يتناهى . وفي العلم الإلهي تتلاقى سائر الصفات : فما يعلمه يكون ، على نحو لا متناه ، خيراً ، وعظيماً ، وسرمدياً ، الخ .

٦ - الإرادة : والله هو إرادته ذاتها ، وإرادته ليست متميزة مما يعلمه . والله يفعل بحسب ما يعلم .

٧ - الفضيلة : والله فضيلة ذاته . وهو يعلم ويريد الفضيلة اللانهائية ، وتجتمع في هذا سائر الصفات .

٨ - الحقيقة : والله حقيقة ذاته ، وهذه الحقيقة حقيقة محضة . إن الله يعلم ذاته ، ويحب ذاته ، وهذا يعلم الحقيقة المحضة .

٩ - المجد : الله ماجد ، وهو مجد ذاته . وينفس الفعل الذي به يعقل ذاته ويحب ذاته فإنه يعلم ذاته أنه المجد مجداً لا نهائياً .

ويتساءل لول : ما دام الله هو الخير ، فلماذا لم يخلق كل الخير الذي يستطيع خلقه ؟ ويجيب قائلاً : إنه لا يمكن أن ننكر على الله قدرته على خلق خير أكثر وأفضل مما خلق . لكن إذا كان لم يخلق إلا هذا القدر من الخير ، فذلك لأن مشيئته أرادت ذلك .

### الفن الكبير

لكن لول اشتهر خصوصاً بما يسمى « الفن الكبير » Ars magna ، الذي عرضه أولاً في « موجز منطق الغزالي » ، وفي كتاب « التأمل في الله » ، وفي كتاب « فن مختصر في العثور

على الحقيقة » ؛ ونمّاه ثانياً وأكمله وطبقه في كتاب : « الفن البرهاني » ، و« الفن الابتكاري » و« اللوحة العامة » . وطبقه ثالثاً في كل العلوم ، وذلك في كتابه « شجرة العلم » . ثم جمع خلاصته في كتاب « المنطق الجديد » ، ثم خصوصاً في « الفن العام النهائي » .

في كتاب « فن المختصر في العثور على الحقيقة » ( ويعرف عادة بعنوانه اللاتيني : « الفن الكبير والأكبر » Ars Magna et maior ) عرض لول ثلاثة « فنون » مستقلة بعضها عن بعض هي :

١ - « فن » للعثور على الحقيقة ، من نوع منطقي منهجي ، هو من شأن « الفيلسوف » الذي هو باحث عن الحقيقة ، وعن علم كلي .

٢ - « فن » للنجاة في الآخرة ، هدفه معرفة الله وتأمله حتى حدود العلم الإلهي السابق أو القدر . وهذا الفن خاص بالصوفي .

٣ - « فن » لتحويل غير المسيحيين إلى المسيحية ، وهو من شأن الرسول المبشر المجادل ، والذي مهمته هي الجدل الدفاعي والتبشيري . وهذا الفن هو الأهم في نظر لول .

ويقوم هذا « الفن » بعامة في استخدام أشكال هندسية ، عدتها عند لول أربعة هي : القطاع المستقيم ، المثلث ، المخمس ، الدائرة . وهذه الأشكال تتكون من مجموعات من الحروف الأبجدية ، ولكل حرف منها دلالة رمزية . ففي مسألة القضاء والقدر مثلاً يستخدم لول شكل الدائرة ، لأنها ترمز إلى الكون بحسب نظرية بطليموس الفلكية . والأرض في مركز الدائرة ؛ والجزء الأعلى هو السطح الأرضي المائي ؛ والجزء السفلي هو السطح تحت الأرض المائي . ويستعمل لول عشرين حرفاً من الأبجدية اللاتينية ، وكل واحد منها رمز خاص ، ليستعمل بها عن طريق التمثيل ( قياس النظير ) من المعرفة الطبيعة إلى معنى القضاء والقدر ، وذلك كما يظهر من الشكل التالي .

الحدود الأولية	الصفات	الحدود النهائية	القرلات
A = الله الرب	F = القدرة	M = قوى النفس	P = الامكان
B = معنى A	G = العلم	N = السطح الأرضي المائي	Q = عدم الامكان
C = القضاء والقدر	H = الإرادة	O = السطح تحت الأرضي المائي	R = للوضع الأعلى
D = معنى C	I = العطل		S = للوضع الأسفل
E = الصلاة	K = الرحمة		T = الحركة
	L = الكمال		X = الثقل



ويكفيها هذا نموذجاً «لفن» لول هذا . وقد رأى فيه البعض إرهاباً بالمنطق الرياضي المعاصر ! وقد كان هذا « الفن » هدفاً لسخرية الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين ، ومنهم ديكرات ، وقالوا إنه عبث صبياني. والوحيد الذي أشاد به هو ليبترس .

#### مؤلفاته

نظراً لكثرة عددها ، نحيل إلى التبت الذي وضعه ميغيل كروث هرنندث ملحقاً لكتابه :

El Pensamiento de Ramon Lull. Foondacion Juan March, E ditorial Castalia, Madrid, 1976.

#### مراجع

- Miguel Cruz Hernandez · El Pensamiento de Ramon Lull . Madrid, 1976.
- M. André: Le Bienheureux Raymond Lulle. Paris, 1900
- A. Gottron : R. Lulls Kreuzzugsideen. Berlin, 1912
- A. Clausen: Lullus Muhammedaners Apostol. Copenhagen, 1955
- K. Haebler: R. Lullus und seine Schule. Leipzig, 1921
- E. W. Platyeck: R. Lullus . Sein Leben, seine Werke und die Grundlagen seines Denkens, 2 Vols. Düsseldorf, 1964.
- J. Stöhr: Die Theologie des seligen R. Lull nach seiner spätschriften. Freiburg — in — Breisgau, 1956.

#### ليبرت

#### Arthur Liebert

فيلسوف ألماني من أتباع الكنتية الجديدة .

ولد في برلين سنة ١٨٧٨ باسم Arthur Levi تعلم في جامعة برلين ، ومنها حصل على الدكتوراه في سنة ١٩٠٨ . وقام بالتدريس في مدرسة التجارة العليا ببرلين ، ثم في جامعة برلين ؛ وصار أستاذاً مساعداً في سنة ١٩٢٥ . واضطر إلى ترك ألمانيا في سنة ١٩٣٣ حين جاءت النازية إلى الحكم . وعين أستاذاً للفلسفة في جامعة بلجراد (يوغسلافيا) ، حيث أنشأ

ويقول لول في شرحه لهذا الشكل : « كما أن M تعقل N ، فإنها تعقل أيضاً P . ومعنى هذا أن X في T ستتحرك من R إلى S ومن N إلى O . وكما أن N تعقل O وتنسى N ، فإن R تحل في S و S تحل في R . وهكذا ينعكس كل الشكل في M ؛ Q تحول إلى P و P تحول إلى Q . ولهذا فإن M يعقل أن X يتحرك من O إلى N . وهكذا ، بينما M على هذا النحو قد عكست وقابلت الشكل وحولت حروفاً إلى حروف أخرى ، فإن M في نفس الوقت تتذكر وتعقل نفسها بوصفها متحولة ومقلوبة ، دون أن تحول الأرض ، ولا N ولا O أو تتغير في الواقع . وينفس الطريقة ، من حيث إن N تتذكر وتعقل بهذه الكيفية ، فإن B تبرهن على A ، و D تبرهن على C ولهذا فإن M تعقل أنه كما تأخذ طبيعة للتعقل والتذكر ، فإنها تتذكر من N نحو مركز الشكل ، وتتخذ طبيعة أخرى تنتقل حين نتذكر من مركز الأرض إلى O ، وكذلك تتخذ ضرباً خاصاً من التعقل حين تبرهن B على A ، مع L و K و J و H و G وتتخذ طبيعة أخرى خاصة ، من أجل أن تعقل ما تعرفه C عن D ، مبرهنًا بواسطة G . ومن هنا نتج أنه إذا عقلت M نفسها ، على النحو الذي عرضناه ، فإنها في نفس الوقت تعقل وتفهم أنه ما دامت M تتغير وتتقل من تعقل إلى تعقل آخر ، فعل هذا النحو نفسه فإن C ليست لها قدرة على الانتقال من A إلى L و K و I و H و G و F ، إن تغير S و R و Q و P لا يغير O و N و T و X . »

ولو ترجمنا هذه اللغة الرمزية إلى اللغة العادية لكانت كما يلي : العقل الانساني يتعقل العالم المحسوس وإمكان التغيير . وهذا يدل على أن الثقل ، بواسطة الحركة ، يمكن أن ينقل ما في مستوى ما إلى مستوى آخر . ولما كان العالم المحسوس المدرك المعتاد يفهم ما كان قبل ذلك غير مشاهد ، وينسى المشاهد السابق ، ناقلاً ما كان في مكان إلى مكان آخر . وهكذا يتحول الفهم إلى عقل ، وما كان من قبل غير ممكن صار ممكناً ، والعكس بالعكس . ولهذا فإن العقل يمكن أن يفهم أن الثقل في الحركة يتحرك من غير المشاهد إلى المشاهد . وفي هذا قد قام العقل بعمليتين : فهم التغيير الحادث ، ومعرفة ما جرى فيه هو من تغيير . ومع ذلك فإن العالم المحسوس ، والمشاهد وغير المشاهد لا تتغير . ولو طبقنا هذا على العلم الإلهي السابق ، وجدنا أن العقل الانساني يفهم المعنى العقلي لتصور الله ، وهذا يبرهن على الله ، والمعنى العقلي لتصور القضاء والقدر يبرهن على العلم الإلهي السابق .



## مؤلفاته

- Das Problem der Geltung. Berlin, 1906
- Der Geltungswert der Metaphysik. Berlin, 1915
- Wie ist Kritische Philosophie überhaupt möglich? Leipzig, 1919.
- Die geistige Krise der Gegenwart. Berlin, 1923.
- Grundlegung der Dialektik. Berlin, 1929.
- Von der Pflicht der Philosophie in unserer Zeit, Zürich, 1946.

## ليبتس

## Gottfried Wilhelm Leibniz

فيلسوف وعالم رياضي ألماني عظيم .

ولد في أول يولييه سنة ١٦٤٦ في مدينة ليبتسك Leipzig وتوفي في ١٤ نوفمبر سنة ١٧١٦ في مدينة هانوفر Hanover.

كان أبوه من رجال القانون ، وكان يلقي محاضرات في جامعة ليبتسك في علم الأخلاق . ويقتني مكتبة حافلة أفاد منها ابنه أكثر مما أفاد من دراسته في المدارس التي تعلم فيها . وفي سن صغيرة أتقن ليبتس اللاتينية واليونانية ، وراح يقرأ مؤلفات أفلاطون وأرسطوطاليس في نصوصها اليونانية ، وأشعار فرجيل في نصها اللاتيني . وسيكون شعره هو : أن ينشد في أقاويل النفوس العظيمة : الوضوح ، وفي الأشياء : الاستعمال . ثم درس الفلسفة واللاهوت الاسكلاتيين ، ووجد الذهب مخفياً في التراب الاسكلاتي المتبرير .

وفي سنة ١٦٦١ دخل جامعة ليبتسك ، حيث اختار دراسة الفلسفة ، وتعلم على يعقوب نوماسيوس Thomasius وبدأ قراة مؤلفات المفكرين والعلماء المحدثين : مثل فرانسيس بيكون ، وديكارت ، وكبلر Kepler ، وجاليليو ، وهوبز ، وجنتلي ، فوجد لديهم فلسفة وعلماً أفضل من فلسفة أرسطو وعلمه . ويقول في ذكرياته إنه كان يجادل نفسه وهو في نزاهته الخلوية أي مذهب يتبع : مذهب أرسطو في الشكول الجوهرية والعلل الغائية ، أو مذهب هؤلاء القائل بالآلية ( الميكانيكية ) والذي بدأ يسود الفكر في منتصف القرن السابع عشر .

وفي سنة ١٦٦٣ قدم رسالة للحصول على

هناك مجلة بعنوان : الفلسفة : الصوت العالمي لفلاسفة عصرنا . لكنها لم تصدر بانتظام ، وذلك في الفترة ما بين سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ . ولما غزت ألمانيا دول البلقان ، لجأ إلى إنجلترا ونظم هناك مع بعض اللاجئين الألمان اليهود « الرابطة الثقافية الألمانية الحرة في بريطانيا » . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عاد إلى جامعة برلين حيث استعاد كرسي الأستاذية ، لكنه ما لبث أن توفي بعد قليل في سنة ١٩٤٦ .

وقد اشترك مع باول منتسر Paul Menzer في اصدار مجلة « دراسات كتية » Kantstudien الشهيرة ، وذلك في المدة من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٣٣ .

وقد تأثر ليبرت بفلهلم دلنباي ، وفريدريش باولزن وألويس ريل . وقد حاول هو أن يعثر على حركة ديبالكتيكية للمقولات الأخلاقية والميتافيزيقية في التاريخ . وكان في عزمه أن يؤلف كتاباً ضخماً بعنوان : « روح الديالكتيك وعلمه » ، لكنه لم يتم منه إلا المجلد الأول بعنوان : « أساس الديالكتيك » ( برلين سنة ١٩٢٩ ) .

رأى ليبرت أن على الفلسفة ، كي تتميز من العلم ، أن تتخذ « القيمة » Geltung موضوعاً لها وألا تقتصر على البحث في « الوجود » Sein ، لأن الوجود ليس مجرد وضع ، بل هو قيمة أيضاً . وعلى عكس الكتين الجلد في بادن ، رفض ليبرت أن يجعل « الواجب » Sollen أساساً للقيمة .

ودعا إلى ميتافيزيقا هي ديبالكتيك ، وإلى أن تكون مقولاتها متضمنة أفكاراً فلسفية ومعاني اجتماعية وحضارية في نفس الوقت . يقول : « إن فكرة الديالكتيك هي في نفس الوقت الشرط القبلي والقوة الحاسمة في بناء الميتافيزيقا ، وهي الوسيلة المميّزة للنفوذ في طبيعة الميتافيزيقا ، ودراستها وفهمها » . ويجب أن يشتمل هذا الديالكتيك ، في داخل مجال حركته النقدية والديناميكية أربعة مقاصد : عقلية ، وأخلاقية ، وجمالية ، ودينية .

وحارب « فلسفة الحياة » على أساس أنها نسبية ، لا معقولة ، وتضخّي بالحرية الفلسفية . ودعا أهل الفلسفة إلى توجيه اهتمامهم إلى الميتافيزيقا والأخلاق ليسترشدوا ويستظفروا بها ضد قوى اللامعقول والانحلال الحضاري .

البكالوريوس موضوعها هو : « مبدأ الفردانية » .

وعقب ذلك ترك ليبتسك وانتقل إلى جامعة جينا Jena في سنة ١٦٦٣ ليلدرس على يدي ارهرد فايجل Erhard Weigel الرياضيات . وأفكر آنذاك في أن يوجد للتفكير الفلسفي فناً تركيبياً art combinatoire مثل ذلك المستعمل في الرياضيات . وكانت ثمرة هذا التفكير رسالته التي قدمها في سنة ١٦٦٦ بعنوان de arte combinatoria التي تعد ارهاصاً بالمنطق الرياضي .

وارتحل بعد ذلك إلى التدورف Altdorf ( بالقرب من نورمبرج ) حيث حصل على اجازة الدكتوراه في القانون سنة ١٦٦٧ ، لأنه لم يستطع الحصول عليها من جامعة جينا لأسباب غير معروفة لنا .

وفي ذلك الوقت انضم في نورمبرج إلى جمعية سرية ثيوصوفية سحرية لها في الوقت نفسه مطامح سياسية ، وتدعى جمعية « الوردة - الصليب » Rosen kreuz ( راجع ماقلناه عنها في كتابنا : « امانويل كنت » ج ١ ) : وتأثير هذه الجمعية أولع بالكيمياء الصنعوية alchimie والكيمياء بوجه عام ، كما أولع بالتدبيرات السياسية .

وفي نورمبرج أيضاً تعرّف إلى البارون فون بونبرج Boinburg وهو مستشار خاص سابق لناخب ماينتس وسياسي واسع التأثير ؛ وسرعان ما جمعت بينهما صداقة حميمة ، وهو الذي لقّن ليبتس أساليب السيادة وث فيه روح الاهتمام بالأحداث السياسية الجارية ، فبدأ يكتب رسائل عن الأمن الداخلي والخارجي لألمانيا .

ولهذا عين مستشاراً في الديوان العالي لناحية ماينتس في سنة ١٦٧٠ وكان قد رفض منصباً تعليمياً في جامعة التدورف عُرض عليه في سنة ١٦٦٧ غداة حصوله على الدكتوراه في القانون .

وبوصفه مستشاراً في ديوان ناخية ماينتس كُلف القيام بمهمة لدى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، فسافر إلى باريس في ١٦٧٢ ، وأراد أن يقنع ملك فرنسا ، لويس الرابع عشر ، بالقيام بغزو مصر ، والقضاء على الدولة العثمانية ( تركيا ) ابتغاء حماية أوروبا من غزوات الأتراك - لكنه كان يرمي من وراء هذه المغامرة إلى شيء آخر ، هو صرف لويس الرابع عشر الطامع في غزو ألمانيا عن محاولة غزو ألمانيا .

وعرض ليبتس مشروعه هذا في مذكرة طويلة جداً ، حافلة بالوثائق . وفيها بين الأسباب الموجبة لغزو مصر وما هي الشروط التي ينبغي توافرها لنجاح هذه الحملة .

ورفض لويس الرابع عشر القيام بهذه المغامرة ، وعاد ليبتس إلى ألمانيا صفر اليدين من الناحية السياسية ، لكنه أفاد كثيراً من إقامته بباريس من الناحية العلمية . فقد تعرّف إلى أرنو ، كبير رهبان يورروبال ، وجرت بينهما محادثات فلسفية ولاهوتية أفاد منها ليبتس كثيراً . وتعرّف إلى هويجانس Huyghens الفيزيائي الهولندي الكبير ، وأجرى أبحاثاً معه ، وقرأ مؤلفات إسكال . كما انه اتقن اللغة الفرنسية اتقاناً جعله يكتب الكثير من مؤلفاته - وأكثرها رواجاً بين الناس - باللغة الفرنسية . وقد استمرت إقامته في باريس ثلاث سنوات ( ١٦٧٢ - ١٦٧٥ ) .

وفي السنة التالية لعودته من باريس - أعني في سنة ١٧٧٦ - قام باكتشاف رياضي عظيم جعله من أعظم الرياضيين قاطبة ، وهو اكتشافه لحساب التفاضل وقد انطلق ليبتس من فكرة ميتافيزيقية هي فكرة الكميات اللامتناهية في الصغر . وكان نيوتن قد بدأ في سنة ١٦٦٥ في اكتشاف مماثل لاكتشاف ليبتس هذا . ومن هنا قامت بمجاذلات طويلة حول من هو صاحب الفضل الأول في اكتشاف هذا العلم . والراجع هو أن كليهما قام باكتشافه مستقلاً تماماً عن الآخر ، ودون علم بما يفعله الآخر . ( راجع في هذا : I. T. More: Isaac Newton, P. 565 et sq. New-York, 1934 ) ، وآية ذلك اختلاف طريقتي كليهما في وضع مسائل هذا العلم . ولايضاح الفارق بين طريقتيهما نقول إن ادخال فكرة السرعات المختلفة قد احتاج إلى طريقة للتعامل مع نسب تغير الكميات المتغيرة . فإذا كانت السرعة مطردة ( ثابتة ) فإنها تقاس في المكان ( م ) الموجود في الزمن ( ز ) ، وستظل الكمية ز/م هي هي مهما صغرت أو كبرت م ز . لكن إذا كانت السرعة متغيرة ، فإن القيمة في أية لحظة لا يمكن أن تستخلص إلا باتخاذ زمن يكون من الصغر بحيث لا تتغير السرعة بشكل محسوس ، وبقياس المكان الموصوف في ز/ في زمن قصير . وحينها تقلل م ز بدون حد فيصبحان لانهائين فإن خارج القسمة يعطي السرعة في اللحظة - وقد دون هذا ليبتس هكذا  $\frac{ds}{dt}$  ( حيث ت هي التفاضل ) وهو ما يسمّى المعامل التفاضلي لـ « م » بالنسبة إلى « ز » . - أما نيوتن فإنه في طريقته المسماة بطريقة التقلبات fluxions فإنه دون

وكانت ترعاه حتى ذلك الحين الأميرة صوفيا في بلاط هانوفر . لكنها توفيت في سنة ١٧١٤ كذلك صار الأمير الناخب جورج ، أمير هانوفر ، ملكاً على إنجلترا في سنة ١٧١٤ ، وسافر إلى لندن لتولي العرش مبتدئاً ملكية بيت هانوفر على إنجلترا ، التي لا تزال مستمرة حتى اليوم . وأراد ليبتس مرافقته لكن الوزير Bernstorff رفض الإذن له بذلك . وكانت ثلاثة الأثافي أن بلاط هانوفر وبعض الأعيان أيدوا دعوى ادعائها كاهن بروستتي زعم فيها أن ليبتس « كافر » ! فتوالت على ليبتس المحن .

ومن ناحية أخرى كان داء النقرس قد استفحل في جسم ليبتس ، حتى امتد إلى الكتفين ، وصار غير قادر على الحركة وهو جالس على كرسيه . وفي أزمة حادة ، توفي ليبتس في الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٧١٦ ( ألف وسبعمائة وست عشرة ) ؛ ودفن دون احتفال كأنه واحد من عامة الناس ، هذا العالم الرياضي العظيم والفيلسوف الكبير وصاحب الفضل العميم في إيجاد الوحدة الروحية لألمانيا في العصر الحديث ! فما أشد سفلة الناس ، في كل زمان ومكان ! وحتى أكاديمية برلين التي أنشئت بفضل مساعيه لم تحفل بموته ، ولم تقم بتأيينه ، وإنما فعلت ذلك الأكاديمية الفرنسية في باريس ، حيث ألقي كلمة تأيينه فيها سكرتيرها الدائم Fontnelle ! فيا للعار على « علماء » أكاديمية برلين !!

### فلسفته

#### ١ - فن التركيب :

الفكرة السائدة في تفكير ليبتس هي : الانسجام الكلي في الكون . فالكون كله يؤلف انسجاماً ، وفيه وحدة وتعدد في آن معاً ، ولهذا سادت لدى ليبتس فكرة التماسق والتفاضل . والطبيعة هي « ساعة الله » Horlogium Dei ( مؤلفات ليبتس الفلسفية - ج ١ ص ٢٥ ، نشرة Gerhardt ) .

وفي رسالة عن « فن التركيب » de arte combinatoria تمى ليبتس فكرة اقترحها ريمون لول - Raimondo Lull وقال بها رياضيون محدثون ، وهي فكرة تحليل المعاني أو الحدود . فهو يريد أولاً أن يحلل الحدود إلى العناصر المؤلفة منها . « ويجري التحليل كما يلي : دع أي حدّ معلوم ينحلّ إلى أجزاءه الصورية ، أي : ضغ له تعريفاً . ثم حلل هذه الأجزاء ، أو ضغ تعريفات لحدود التعريف الأول ، حتى

نفس الكمية هكذا S وهو تدوين ما لبث أن اطرحه الرياضيون وأخذوا بتدوين ليبتس الذي لا يزال مستعملاً حتى اليوم .

وتوفى البارون فون بوينبورج وكذلك توفي ناخب ماينتس وهو يوحنا فيليب ، وذلك في عام سنة ١٦٧٥ . فشرع ليبتس بأنه صار حراً تجاه ناخبة ماينتس ، فقبل عرضاً جاءه من دوق براونشفيج في هانوفر بتولي منصب محافظ مكتبته في هانوفر . لكنه قبل أن يعود إلى ألمانيا ، ارتحل من باريس قاصداً إنجلترا ، فوصل إلى لندن وتعرّف إلى عالم الهندسة كولنز Collins الذي كان صديقاً لنيوتن ؛ وعاد إلى ألمانيا ماراً بأمستردام حيث التقى باسبينوزا وجرت بينها مطارحات عديدة في الميتافيزيقا .

وكلفه دوق براونشفيج - لونبورج بكتابة تاريخ أسرة هذا الدوق . فتجول ليبتس في أنحاء ألمانيا وإيطاليا للاطلاع على الوثائق والمحفوظات التي تتعلق بتاريخ هذه الأسرة . لكنه لم يبدأ في نشر هذه الوثائق إلا في سنة ١٧٠١ واستمر في نشرها حتى سنة ١٧١١ . وشرع في كتابة تاريخ الأسرة على أساس هذه الوثائق ، لكنه توفي في سنة ١٧١٦ قبل أن ينجز هذا العمل .

وفي سنة ١٧١١ سافر إلى روسيا ليعرض على قيصرها بطرس الكبير خطة لتنظيم روسيا مدنياً ومعنوياً . ولم ينشر ما كتبه ليبتس عن تاريخ أسرة هانوفر إلا في عام ١٨٤٣ - ٤٥ .

وبعد ذلك سافر إلى فينا تلبية لدعوة من امبراطور النمسا ، وفي بلاد هذا الامبراطور التقى بالامير بوجين Eugen أمير ساقويا الذي كتب ليبتس من أجله كتاب « المونادولوجيا » Monadologie .

وفي السنوات الخمس عشرة الأخيرة من عمره كرّس جهوده للفلسفة خصوصاً ، وفي هذه الفترة أيضاً ألف مؤلفاته الرئيسية في الفلسفة .

كذلك كان له دور في رفع دوقية هانوفر إلى ناخبية ( أي أن يكون دوقها من بين من يتخبون الامبراطور في ألمانيا ) . وهو صاحب الفضل في إصدار فريدرش الأول ، ملك بروسيا ، قراراً بإنشاء أكاديمية العلوم في برلين .

وعمل بكل جهوده في سبيل الوحدة المعنوية لكل ألمانيا .

مركبات ، فهنا بسائط . لأنه لو كانت المركبات مؤلفات من مركبات مهما مضمينا في التحليل ، لما أمكن تفسير أي مركب . فلا بد إذن من وجود عناصر أولية بسيطة منها تتألف المركبات. وهذه البسائط ليست مؤلفة من أجزاء ، بل هي جواهر فردية . وهذا ما أدركه الذريون اليونانيون القدماء : ديمقريطس ، وليوقس ، وأبيقور . وهذا هو الجانب الصحيح في مذهبهم .

لكنهم أخطأوا حين ظنوا أن هذه الذرات ممتدة ، لأن كل ممتد قابل بالضرورة للتقسيم . فالقول بذرات ممتدة - أي مادية - متناقض في ذاته ، لأن الذرة لا تقبل القسمة ، ولكن أي امتداد يقبل القسمة .

ومن هنا انتهى لبيتس إلى القول بأن الذرات لا بد أن تكون لا مادية . لكن هل توجد ، وكيف توجد ، ذرات غير مادية ؟

وجد لبيتس الشاهد على هذا النوع من الذرات اللامادية في النفس الانسانية فهي بسيطة وغير قابلة للقسمة وغير ملدية . إن الأنا الذي يفكر ويشعر ويريد هو جوهر بسيط لا يتقسم ، وهو روحي .

وبعد أن قدّم لبيتس هذا الشاهد ، عمّمه على كل الكون ، فقال إن الكون كله مؤلف من جواهر فردية روحية ، سمّاها « الأحاد » Monades ( من الكلمة اليونانية monas = وحدة ) .

فإذا فحصنا عن هذا « الأحاد » الذي هو نفسنا الانسانية ، وجدنا فيه خاصيتين بارزتين هما : الإدراك ، والاشتهاء . Perception et Appétition .

فالأحاد إدراك ، إنه يدرك نفسه ويدرك الكون كله . إن الكل في ترابط بعض مع بعض ولهذا فإن كل شيء يمثل هو في ارتباط مع سائر الأشياء في الكون ؛ إما مباشرة أو على نحو غير مباشر ، الحاضرة منها والماضية . ولهذا فإن الأحاد « نظرة إلى العالم » وهو عالم أصغر microcosme يتطوي على العالم الأكبر macrocosme وبالجملة فإن الأحاد « إله صغير » . ومن ناحية أخرى فإن الأحاد اشتهاة appétition أعني أن في الأحاد نزوعاً إلى الانتقال من الإدراكات التي حصلها إلى الإدراكات التي لم يحصلها بعد . وهذا النزوع يسود كل الحساسة . ووجود هذا الاشتهاة هو الذي يفسر اللذات والآلام ، والشهوات والوجدانات . وهذا أيضاً المحرك الأول للإرادة ،

تصل إلى أجزاء بسيطة أو إلى حدود غير قابلة للتعريف ، ( « فن التركيب » ٦٤ ، نشرة جبهت جده ص ٦٤ - ٦٥ ) . وهذه الحدود البسيطة غير القابلة للتعريف متوالت أبجدية الأفكار الانسانية . فكما أن الكلمات والجمل في اللغة مؤلفة من الحروف الأبجدية ، فكذلك الفكر الانساني مؤلف من حدود بسيطة غير قابلة للتعريف .

والخطوة الثانية هي تمثيل هذه الحدود البسيطة برموز رياضية . فلو استطاع الانسان اكتشاف وسيلة لتركيب هذه الرموز ، فإنه سيظفر حيثئذ بمنطق استنباطي للاكتشاف ، يصلح ليس فقط للبرهنة على الحقائق التي سبق اكتشافها ، بل وأيضاً لاكتشاف حقائق جديدة .

لكن لبيتس لم يتصور أن كل الحقائق يمكن اكتشافها بالاستنباط القبلي a priori ، لأن ثم صنفاً من الحقائق يؤخذ من واقع حوادث التاريخ ، ولا يستنبط قبلياً ، مثل كون اوغسطس كان امبراطوراً رومانياً ، أو كون المسيح ولد في بيت لحم . كذلك توجد قضايا كلية لا يعرف صدقها إلا بالملاحظة والاستقراء .

وهكذا طمح لبيتس إلى ايجاد علم كلي ، من فروع المنطق والرياضيات . وما النظام الاستنباطي في المنطق والرياضيات إلا شاهد على الانسجام الكلي في الكون ، إذ هو الذي يسمح بالقيام بهذا الاستنباط المتحقق في المنطق وفي الرياضيات .

ونظرته إلى تاريخ الفلسفة متأثرة بفكرة الانسجام الكلي . إذ هو يرى أن المذاهب الفلسفية على مدى تاريخ الفلسفة تؤلف وحدة منسجمة ، كل ما هنالك أن بعضاً منها يؤكد جانباً دون سائر الجوانب . لكن كل المذاهب الفلسفية تحتوي على جانب من الحقيقة . لهذا كان يعتقد أن المذاهب الفلسفية على صواب في غالبية ما تؤكد ، وعلى خطأ في معظم ما تنفيه . ويضرب شاهداً على ذلك مذهب الميكانيكيين : فإنهم مصيبون في قولهم بوجود علل فاعلية ميكانيكية ، لكنهم مخطئون في إنكارهم لكون هذه العلل الميكانيكية تخدم أغراضاً ومقاصد معلومة ، أي غايات . فتم حقيقة إذن في المذهب الميكانيكي والمذهب الغنائي على السواء .

٢ - الأحاد أو الذرات اللامادية :

تدل التجربة على أن هاهنا مركبات . وما دام هاهنا

وأعلى منها الأحداث الخاصة بالنبات . وأعلى من هذه تلك الخاصة بالحيوان . وفي أحداث الحيوان تبدأ الإدراكات في الوعي بذاتها ، ومعها الذاكرة . والذاكرة تمكن من استنتاج شبيه باستنتاج العقل ، مثال ذلك : حين نلوح للكلب بعضاً فإنه ينبج ويهرب ، وليس ذلك لأن لديه عقلاً ، وإنما لأن منظر العصا ذكره بالضربات التي تلقاها من قبل . وليبتس يقول عن أحداث الحيوان إنها « نفوس » ames .

وفوق هذه النفوس توجد الأرواح Esprits . وفي الروح يوجد : ادراك لا واع ، وشعور واع ، وذاكرة . كذلك يوجد في كل روح - على هيئة كمون - عقل . والعقل فينا هو في البداية استعداد لا شعوري للتفكير كما لو كنا نقرّ بمبدأ (عدم) التناقض وبمبدأ العلة الكافية وكما لو كنا كليين وضروريين .

### ٣ - نظرية المعرفة :

وهنا نصل إلى نظرية المعرفة عند ليبتس . يرى ليبتس أن المعرفة الصحيحة يجب أن تتصف بصفتين : الضرورة ، والكلية . والغرض من معرفتنا هو الوصول إلى مذهب شامل لكل العلوم ، محكم الترابط ، برهاني ، مؤلف من حقائق ضرورية وكلية . لكن التجربة الحسية لا يمكنها أن تزودنا بحقائق كلية وضرورية ، لأنها لا تقدم إلينا غير معارف مختلطة من ناحية ، وجزئية من ناحية أخرى لأنها تتعلق بأحوال مفردة جزئية . والاستقراء الكامل غير ممكن . لهذا ليس لدينا غير التجربة الباطنة ، والدّهن ، والعقل . ثم إن مبادئ المعرفة فطرية فينا ، أي موجودة على سبيل الإمكان . virtual لا بالفعل .

ولقد فرّق ليبتس بوضوح بين الإمكان Möglichkeit وبين الواقع wirklichkeit . فالإمكان هو التصور الخالي من التناقض ، وله مكانة - بوصفه ماهية essentia - في روح الله . والعلاقات بين التصورات الممكنة تتحدد بمبدأ (أو قانون) عدم التناقض ، ويعبر عنها في أحكام ضرورية ضرورية مطلقة . وهذه الأحكام يسميها ليبتس باسم « حقائق العقل » vérités de raison والرياضيات والميتافيزيقا والمنطق والأخلاق حافلة بهذا النوع من الحقائق . وأعلى هذه الأحكام وأولها هي الأحكام التي تتجلى حقيقتها مباشرة بالعيان دون برهان . وإليها تردّ كل الأحكام الأخرى الضرورية ، عن طريق مبدأ عدم التناقض . وكل هذه الحقائق تتعلق بارتباطات بين

لأن الإرادة هي الشهوة مستضيئة بالعقل .

على أن الاشتهاء مشمول في الإدراك ، ذلك لأن الاشتهاء ما هو إلا الجهد الذي يبذله الإدراكات الغامضة المختلطة كياناً تصوير واضحاً متميزة . إنه المجهود الذي يبذله « الإله الصغير » (= الذرة) كياناً يقترب من « الإله الكبير » .

تلك هي نظرية ليبتس المشهورة في الأحداث mon-ades . لكن ما تلبث الاعتراضات أن تتورّض ضدها .

وأولها هو : إذا أمكن تصور أن الانسان أحاد مزوّد بالإدراك والاشتهاء ، فكيف يمكن تصور ذلك بالنسبة إلى الحيوان والنبات والمعادن؟! وهل يمكن أن نتصور الحجر مؤلفاً من أحداث تترك وتشتهي؟!!

وللجواب عن هذا الاعتراض يسوق ليبتس الشواهد التالية : إذا شاهدنا غابة في بداية الربيع فإننا نجدها جرداء تماماً ، لكننا لو شاهدناها بعد شهر وجدناها خضراء تماماً ، مع أنه لا بد أن يكون هناك بضع ورقات قد نبتت في أوائل الربيع لكننا لم نشاهدها ، فلما نبتت كل الأوراق بعد شهر استطعنا مشاهدة الغابة خضراء . - ومثل آخر : الأمواج حين ترتطم بالشاطئ تحدث ضوضاء ، لكننا لا ندرك صوت قطرتين من الماء تلتقيان ، مع أنها لا بد قد نجم عن اصطدامها صوت مها يكن خفياً فهو صوت على كل حال . ومعنى هذين المثالين أن كل جزء في علة كبيرة يشارك في إحداث المعلول . وهذا يقضي بليبتس إلى تقرير وجود « إدراكات صغيرة » إلى جانب « الإدراكات الكبيرة » وتبعاً لذلك يضع ليبتس ترتيباً تصاعدياً في الأحداث : من أدناها إلى أعلاها ، أعني أن للأحداث درجات متصاعدة من أدناها إلى أعلاها .

والأحداث الدنيا مزودة بإدراك واشتهاء مثلما نحن مزودون بهما . لكن إدراكاتها واشتهائاتها هي « إدراكات صغيرة » و « اشتهائات صغيرة » . إن حال هذه الأحداث الدنيا شبيهة بحال انسان نائم نوماً عميقاً ، أو حال انسان دائخ بسبب دورانته حول نفسه لمدة طويلة وبسبب إن هذه الأحداث الدنيا هي مجرد « نقط قوى » Points de force ، وقوى نشطة متجهة ؛ وكلها تنفذ وتموت ، ولكن على نحو غامض . وسميها ليبتس : « انطلاشيات » (= كمالات) أولية « entéléchies premières وهي تناظر ما نسميه باسم المواد اللاعضوية .

انها ممتلئة ، ويحد بعضها بعضاً وتتغير أماكنها بعضها بالنسبة إلى بعض ، فنصرف النظر عن هذه الموضوعات ولا نفكر إلا في الموضوع الذي تشغله والذي يسمح لها بالثقل . حيثئذ نحصل على فكرة نظام مجرد . وهذه الفكرة هي عينها فكرة المكان المحض لكن هذا المكان المحض ليس معطى في أية تجربة وإنما فقط بمناسبة التجربة نحن نصنع فكرته . . . وبعد صنع هذه الفكرة نحدد خصائصه والعالم الممتد ، على نحو ما ندرسه ، يختلف تماماً عن هذا المكان الهندسي المجرد .

والشيء نفسه يقال عن الزمان ، فإنه « ترتيب الظواهر المتوالية » . ونحن لا ندرك أبداً زماناً خالياً خلواً تاماً ، وتوالياً للمحطات متجانسة وإنما ندرك سلسلة من الأحداث العينية التي تتوالى دون انقطاع . ولا يمكننا أن نتصور زماناً محضاً إلا استبعادنا - بالتجريد - ما فيها من عينية ، قاصرين النظر على مجرد تواليها .

وحركة المتحرك الهندسي في المكان والزمان ليست أكثر حقيقة من المكان المجرد أو الزمان المحض ، ذلك أن ما يعطى لنا في التجربة هو فقط الموضوع العيني الكائن بين موضوعات أخرى في مدة محدودة وعينية .

أما إدراكنا للعالم الخارجي فليس إلا حُلماً محكم الترابط ، راسخ الأساس . وخصايصة الحلم هي أنه مجموع من الصور الذاتية التي لا توجد إلا في عقلنا وبواسطة عقلنا ومن أجل عقلنا . لكن صور الأحلام يعوزها القوام ، فهي مهلهلة مشتهة ممزقة غير مترابطة . بيد أن إدراكنا للعالم الخارجي لا يتألف من مادة تختلف عن مادة الأحلام ، إنه مؤلف من احساسات وصور نخطئ فنظنها حقائق . وإنما ما يميز ادراك العالم الخارجي عن الحلم هو أن صور إدراك العالم الخارجي مترابطة بعضها مع بعض .

وهي ليست مترابطة فقط ، بل ومؤسدة أيضاً ، بمعنى أن لها مناظراً حقيقياً بالفعل .

وإدراكاتنا تربنا عالماً مادياً ممتداً ، مكسوياً بكيفيات متعددة : من ألوان ، وروائح ، الخ . ، وهو عالم قائم في مكان وجارٍ في زمان . لكننا قلنا إنه لا يوجد غير أحداث لا مادية لا توجد في مكان ولا في زمان فكيف نوفق بين هذين التصورين ؟

يقول لبيتس إنه يوجد توافق تام بين هذين العالمين :

التصورات والماهيات *essentiae* لا بالموجودات *existentiae* على أنه ليس كل تصور خالٍ من التناقض شيئاً واقعياً بالضرورة . والماهيات تنجبه نحو مزيد من الوجود وفقاً لواقعيتها وكما لها . والله يختار من بين عددٍ من العوامل الممكنة أحسنها ، ويرز إلى الوجود - من بين مجموع الماهيات التي توجد في روحه على شكل تصورات غير متناقضة - تلك التي تكون ممكنة في خير عالم . والمبدأ الذي يعمل الله بمقتضاه هو مبدأ الأحسن *principe de meilleur* أو مبدأ الملاعبة - *principe de Convenance*

وصورة هذا المبدأ في عقلنا هي مبدأ العلة الكافية *principium rationis sufficientis* وهذا المبدأ الأخير له بالنسبة إلى مملكة الواقع نفس الأهمية التي لمبدأ (عدم) التناقض بالنسبة إلى مملكة الممكن ، إنه الأساس في أحكامنا الصادرة عن العقل قليلاً على الوقائع . وهذه الأحكام لا تصنف بصفة الضرورة المطلقة . واقتراض عدم وجود أية واقعة هو أمر لا يتضمن في داخله أي تناقض . بيد أن كل واقعة هي ضرورية شرطياً أو فزيائياً ، أي أنها ضرورية في ارتباط نظام العالم ، ومشروطة بعلّة كافية هي السبب في وجودها . والأحكام التي تعبر عن هذا الارتباط ويمكن استنباطها بعضها من بعض وفقاً لمبدأ العلة الكافية يسميها لبيتس باسم « حقائق الواقع » *verités de fait* ، أو حقائق فزيائية ، أو - لأنها ليست ضرورية ضرورة مطلقة - حقائق ممكنة .

ولم يميز لبيتس بين العلة الفاعلية والعلّة الغائية . فالسؤال عن العلة الكافية لحادثٍ ما معناه البحث عن العلة السابقة في ارتباطها بالغاية من العالم ، تلك الغاية التي من أجلها أخرج الله الشيء من حيز الممكن إلى حيز الواقع . صحيح أنه في تفسيره للأحداث الجزئية يلجأ إلى التفسير الميكانيكي ، لكن هذا التفسير الميكانيكي نفسه مشبع بروح الغائية ، لأن قوانين الحركة الميكانيكية متصورة هي الأخرى بحسب « مبدأ الأحسن » ومستنبطة منه .

#### ٤ - المكان والزمان والعالم المادي :

الكون إذن - في نظر لبيتس - مؤلف من أحداث لا مادية . فكيف نتصور إذن المكان والزمان والمادة والحركات فيه ؟

أما المكان فيقول عنه لبيتس إنه « ترتيب الظواهر الموجودة معاً » فنحن ندرك كمية من الموضوعات التي نحس



العالم المادي الممتد ، وعالم الأحداث اللامادية ؛ وما أولها إلا رمز للثاني وظل له .

وتم مشكلة أخرى هي : كيف يحدث اتصال بين الجواهر الفريدة هذه بعضها وبعض ؟

نحن هنا يلزنا مشكلة قديمة قدم الفلسفة المثوية ، أي القائلة بجوهر مادي وآخر روحي . وقد زادها حدة موقف ديكرت حين ردّ الجوهر المادي إلى مجرد الامتداد ، ونعت الجوهر الروحي بأنه لا مادي محض . لكنه لاحظ أن الجسم يفعل في النفس عند الاحساس ، والنفس تفعل في الجسم عند الفعل الإرادي . ولتفسير هذا جعل مركز النفس هو في الغدة الصنوبرية التي كأنها معلقة في وسط المخ ، وحركاتها تترجم في النفس إلى إدراكات ، وتترجم في الجسم إلى انقباضات عضلية . لكن بقي على ديكرت أن يفسر كيف أن حركة الغدة الصنوبرية تظهر في الشعور إدراكات ، وكيف أن قرار الإرادة يستثير حركات الغدة الصنوبرية ، وما يتلو ذلك من أفعال . لكن ديكرت لم يفلح في ذلك .

فجاء مالبرانش وفسر ذلك بما سماه العلل الافتراضية ( انظر مادة : مالبرانش ) .

واتخذ اسپينوز موقفاً جذرياً بأن ألغى المثوية ، وقال بجوهر واحد له صفتان : الامتداد والفكر .

ولم يرض ليبتس عن كلا التفسيرين . ونظر إلى الأمر نظرة مختلفة تماماً : إن كل أحاد ووحدة بسيطة كل البساطة ، ولا توجد فيه أية أجزاء . فمن المستحيل إذن أن تفعل الأحداث من الخارج بعضها في بعض ، لأن الفعل من خارج لا يمكن أن يقوم إلا في الجمع ، أو الطرح أو الانتقال بين أجزاء ، لكن لا توجد - كما قلنا - في الأحداث أية أجزاء . إذن لا يمكن أي أحاد أن يفعل من خارج في أحاد آخر . وإن الأحداث ليس لها توافق يمكن منها أن يدخل أي شيء ، أو أن يخرج .

ومع ذلك يبدو أن الأحداث يفعل بعضها في البعض الآخر ، كما يشاهد مثلاً في ظاهرة الإدراك . فكل أحاد يبدو أنه يدرك ليس فقط بعض الأحداث الأخرى ، بل يدرك كل الأحداث ، بل يدرك الكون كله ، كما قلنا من قبل . وفي جسم الحيوان وفي جسم الانسان توجد أحداث دنيا تؤلف الجسم ، وأحداث عليا تؤلف النفس ، وأحداث أعلى من كليهما تؤلف الروح . ومن الواضح أن ثم تأثيراً من النفس

في الجسم ومن الجسم في النفس ، ومن الروح في النفس ، الخ .

فكيف يفسر ليبتس هذه الظاهرة ؟ .

٥ - الانسجام الأزلي :

إنه يفسرها بما يسميه باسم « الانسجام الأزلي » ، وهي نظرية كان فخوراً بها إلى درجة أنه كان يوقع على مؤلفاته هكذا « مؤلف الانسجام الأزلي » .

إن الله ليس ساعاتياً رديئاً ، كما تخيل ذلك مالبرانش ، بل هو ساعاتي حصيف ماهر . وتم طريقة لصنع ساعتين يدلان على الزمن في وقت واحد معاً . وتلك الطريقة هي إجابة صنعها ، وإطلاقها في نفس الآن ، وترك جهازهما يعملان وحدهما بعد ذلك . وتلك الطريقة هي التي أتبعها الله - هذا الفنان المنقطع النظير - ابتغاء مجده :

فمنذ اللحظة الأولى للخلق وضع في كل أحاد - على سبيل الإمكان - كل الإدراكات التي سيقيم بها كل أحاد . لكنه خلق كل أحاد بحيث يكون نمو كل أحاد - على الرغم من أنه يتم مستقلاً عن نمو غيره - مناظراً تماماً لنمو الآخر في كل لحظة . فإدراكاتنا لا تأتي إذن من خارج ، بل تنبثق كالنبوع الحيّ الدافق ، من باطننا ، لكن كل حالة : أ ، ب ، ج ، د ، الخ خاصة بأي أحاد قد هيئت وقدرت لتمثل الأحوال : أ ، ب ، ج ، د ، الخ الخاصة بسائر الأحداث كلها . ومن هنا جاء الانسجام الكامل بين كل الإدراكات - فمثلاً هذه منضدة أممي أراها كما تراها أنت تماماً . لكن اتفاق رؤية كليتنا لم يجيء - في نظر ليبتس - من كوننا نشاهد نفس المنضدة ، وإنما : (١) أولاً لأنني منذ بداية الكون قد هيئت كما أرى هذه المنضدة في هذه اللحظة على هذا الشكل الذي أراها عليه الآن ؛ (٢) وثانياً لأنك كنت قد هيئت منذ بداية الكون أن ترى نفس المنضدة في نفس اللحظة على هذا الشكل نفسه . ومن هنا جاء الاتفاق بين رؤية كل واحد منا .

وهذا هو الذي يفسر ما يبدو لنا من أن الأحداث يفعل بعضها في بعض . وإن كانت في الواقع لا تستطيع ذلك . وهذا أيضاً هو ما يفسر ما يبدو من تأثير للنفس في الجسم أو للجسم في النفس . إن تفسير ذلك هو :

(١) أن ها هنا انسجاماً أزلياً بين الأحداث التي تؤلف الجسم - وهي أحداث من الدرجة الدنيا - وبين الأحداث



التي تؤلف النفس ، وهي أحداث من درجة أعلى .

( ٢ ) ولأن هذا الانسجام يرمز إليه بالتحويلات التي تحدث في كل لحظة في المظهر الذي يتجلى عليه جسمي في الإدراك .

وعلى هذا النحو تصور لبيتس أنه حل ، على نحو رائع ، تلك المشكلة القديمة ، مشكلة امكان الاتصال بين النفس والجسم ، ومشكلته هو في كيفية الاتصال بين الأحداث وهي عنده تؤلف عوالم مستقلة تماماً بعضها عن بعض .

#### ٦ - الحرية والشر في الكون :

لكن ألا تؤدي نظرية الانسجام الأزلي هذه إلى إنكار الحرية ، وبالتالي المسؤولية؟ وكيف نفسر وجود الشر في العالم؟ ألسنا مضطرين إلى نسبه إلى الله؟

إن عقل الله يتصور منذ الأزل عدداً من الأشياء : أولاً كل أنماط الأشياء الممكنة التي تتحقق أو يمكن أن تتحقق ، تلك الأنماط التي سماها أفلاطون باسم « الصور »؛ وثانياً كل الأفراد التي يمكن أن تخلق دون أن ينجم عن هذا تناقض ؛ وثالثاً كل مجموعات الأفراد التي هي عوالم ممكنة ، ورابعاً وأخيراً سلسلة الحقائق السرمدية ، والحقائق النظرية والعلمية والعملية . فهذه كلها هي موضوع تصور العقل الإلهي منذ الأزل .

وإرادة الله تمر بحالتين لا يمكن تمييزهما إلا بالتجريد ، وهما : (١) الإرادة السابقة ، (٢) الإرادة التالية . وإرادة الله السابقة متجهة نحو الخير المطلق وهذا الخير كان الله سيحققه لو لم يكن قد تحقق بمجرد كون الله موجوداً . لكن لما كان الله لا يمكن أن يريد أن يوجد نفسه من جديد لأنه موجود بالضرورة بحكم طبيعته ، فإن قراراً واحداً هو الذي يليق بالله ألا وهو : أن يختار ، من بين العوالم الممكنة التي يتصورها عقله ، أحسنها .

وهذا هو ما يفعله الله بإرادته التالية . إن كل الممكنات نطمح إلى الوجود نظراً لما فيها من كمال . إن الله يسمح لأحسن هذه العوالم الممكنة بالانتقال من الامكان إلى الوجود ، كما يسمح الهويس للماء بالجريان . وفي هذا يقوم مبدأ التفؤل عند لبيتس .

لكن إذا كان هذا العالم هو أحسن عالم ممكن ، فكيف

نفسر إذن وجود الشر وهو سائد فيه ؟

ويجب لبيتس عن هذا السؤال العويص الذي طالما ساقه الملحدون في وجه اللاهوتيين ، بأن يقرر أن الشر يتجلى على ثلاثة أوجه : الشر الميتافيزيقي ، والشر الفزيائي ، والشر الأخلاقي .

أما الشر الميتافيزيقي فهو النقص الفزيائي والعقلي والأخلاقي الملازم لكل ما هو مخلوق . إنه شر لم يكن في وسع الله أن يتلافاه ، لأنه نتيجة لازمة عن كونه هو الخالق الكامل ، فلا يمكن أن تكون مخلوقاته كاملة مثله ، وإلا لانتفى التمييز والفارق بين المخلوق والخالق . إن خاصية المخلوق هي أنه ليس الله فكيف يطلب من الله أن يجعل مخلوقاته كاملة مثله !! وعلى هذا فلا يجوز لنا أن نلوم الله على ما في مخلوقاته من نقص .

أما الشر الفزيائي فهو الألم بكل أشكاله . ويفسر لبيتس وجوده بأن الله لم يرد ، ولكنه وجد نتيجة لتحقيقه خيرات . فإن الارتباط بين الموضوعات والأحداث وثيق إلى درجة أن بعضها لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحقق البعض الآخر . ومن هنا كان من الضروري ، في بعض الأحوال ، من أجل إيجاد خير أكبر أن يسمح ببعض الشرور بوصفها شرطاً لتحقيق هذه الخيرات الأكبر . فمثلاً : كيف نحصل على الثمار المفيدة للأعمال إن لم نتحمل بعض المتاعب ؟ لهذا كان لا بد لله من السماح بحدوث بعض الآلام ابتغاء تحقيق خيرات عظيمة . ثم إن الله عادل ، والعدل يقتضي عقاب الأشرار . ولهذا كانت الآلام في أحيان كثيرة نوعاً من العقاب عن الخطايا والذنوب .

بقي الشر الأخلاقي ، وهو الخطيئة بكل درجاتها . ولا يمكن أن ندعي أن الله أرادها ، لأن الله حرم ارتكاب الخطايا . كما لا يمكن أن نقول إن الله يسمح بها ، ذلك لأنه يجعل من الواجب علينا أن نتجنبها . فلم يبق غير تفسير وحيد ممكن هو أننا نجد أنفسنا في بعض الأحوال مقسورين على الاختيار بين خطيئتين : مثال ذلك : طيب يجد نفسه مرغماً إما على الكذب على المريض إنقاذاً لحياته ، أو أن يصلقه القول فيكشف له عن خطورة مرضه مما قد يؤدي إلى موته . في مثل هذا الموقف لا يوجد غير قاعلة واحدة : اختر أهون الشرين . فلتقل أيضاً إن الله كان بين شرين : أحدهما أن لا يخلق العالم ، والثاني أن يقبل بعض الخطايا الأخلاقية

إنسان فيه ما يفعله كما يفعله وفقاً لخلقته ويدافع من تأملاته . لكن هذه الضرورة ليست رياضية ولا ميتافيزيقية ، بل أخلاقية فقط . فقط بالقدر الذي هو به خير فإن العالم هو ما هو عليه . والله ، باختياره لعالم يرى فيه الخطيء حراً في ارتكاب الخطيئة ، فإنه لا يغير حرية فعله . ولهذا يبقى الخطيء خاطئاً أمام الله .

لكن هذا الحل الذي قدّمه ليبتس لمشكلة حرية الإرادة الانسانية لا تقنع أحداً . ذلك أنه حدّ الحرية حدّاً يجعلها تكافئاً تقريباً مع التعيّن ، مع أن المعنى الصحيح للحرية هو ذلك الذي وضعه ديكرت وهو أنها « القدرة على فعل شيء أو عدم فعله على السواء » . لكن ليبتس لو كان قد عرف الحرية ، هذا التعريف ، لناقض نظريته الأساسية ، أعني الانسجام الأزلي ، وقد كان ، كما رأينا ، معترفاً بها كل الاعتزاز . ولهذا ينبغي عليه برترند رسل هذا الموقف وبتهمه بترضي رجال الدين . لكن هذه التهمة ظلمة ، والأحرى أن نقول إنه لم يكن في وسعه أن يفعل غير ذلك ، وإلا لناقض نظريته هذه الأساسية .

#### ٧ - آراؤه في السياسة :

عاش ليبتس في عصر مليء بالحروب في أوروبا ، وقد شاهد عن قرب ما أدت إليه هذه الحروب من خراب وشقاء للقاتلين والمفتوحين على السواء . ولهذا نادى بوقف الحروب بين الدول ، خصوصاً حول أوروبا المسيحية فقال : « إن الحروب بين المسيحيين ( أي في أوروبا ) لا يمكن أن تؤدي إلا إلى اقتطاع أجزاء ضئيلة جداً من الأرض . . . إذ التجربة تدل على أن كل زيادة في القدرة تزيد فوراً في الخارج عدم الثقة والمؤامرات . ويلزم عن هذا أن كل ملك يطمح إلى عظام الأمور ينبغي عليه أن يتجنب قدر الامكان نوعاً من زيادة قوته لأن التقدم على هذا النحو معناه أن يضع على نفسه حدوداً » . ويقرر في موضع آخر : « إن الرغبة في أن يخضع المرء - بقوة السلاح - أماماً متحضرة وفي الوقت نفسه محاربة ومولعة بالحرية كما هو شأن معظم الأمم الأوروبية - هذا الأمر هو ليس فقط كفراً بل وأيضاً جنوناً » .

ويوجه أنظار الحكام في أوروبا إلى أن الحروب البرية صارت عقيمة ، ويدعوهم إلى الالتفات إلى الحروب البحرية ، وهو يقصد الحروب فيها وراء البحار طمعاً في الاستيلاء على مستعمرات خارج أوروبا ! فهو إذن لا يدين

بوصفها شرطاً لوجود أحسن عالم ممكن . ولقد اختار الله أمون الشرين : وهو أن يخلق العالم رغم ما ينطوي عليه من خطايا بالضرورة .

لكن ها هنا مشكلة أخرى هي نتيجة ضرورية لهذا التفسير الذي أدلى به ليبتس . إنه بهذا يعزو حدوث الخطيئة إلى الله نفسه . فكيف يعاقب الانسان إذن عليها ، وفاعلها هو الباري ؟ .

هنا وينبغي أن يلاحظ أن ليبتس يرفض أن ينسب إلى الانسان وإلى الله صفة الحرية ، أي « القدرة على توكيد أو نفي شيء معين على السواء » . لأن الاقرار بمثل هذه القدرة يؤدي إلى انكار المبدأين الرئيسيين للعقل وهما : مبدأ ( عدم ) التناقض ، ومبدأ العلة الكافية . فهذا المبدأ الثاني يقرر أنه لا يوجد شيء بدون علة وجود فاعلة وغائية . ولهذا لا يمكن أي فعل إنساني أو إلهي ان يكون معيناً بعلة . وفيها يتعلق بالانسان بخاصة فإن أفعاله ، في بعض الظروف المعينة ، تتعين بخلقته ، والله قد وهبه هذا الخلق من أجل غاية معلومة . ولهذا فإن حرية الإرادة وهم .

لكن ليس معنى هذا أن نذهب إلى ما ذهب إليه اسپينوزا الذي أكد وجود ضرورة رياضية في كل ما يحدث في الكون .

أما موقف ليبتس فيتلخص في هذه العبارة : « في الفعل الارادي الدوافع تُميل دون ضرورة » .

أما قوله إن « الدوافع تميل » فمعناه أنه يقدر ما يحسن العقل في الفعل - الانساني أو الإلهي على السواء - ويتأمل في امكان تنفيذ الوسائل المؤدية إلى تنفيذه والنتائج القريبة والبعيدة الناجمة عنه : أقول : بهذا القدر فإن الإرادة تتجه إلى تنفيذه أو إلى الامتناع منه . فتميل إلى ما يجلب الخير أو المنفعة ، وتتجنب ما يؤدي إلى الشر أو الضرر .

لكن إذا كانت الدوافع تُميل الإرادة ، فإنها لا تقصرها بالضرورة على اتجاه بعينه . إنها لا تقصرها إلا في حالة واحدة وهي حينها يكون من المستحيل منطقياً أن تتخذ قراراً مختلفاً عن قرارها . وهذا لا يحدث إلا إذا كان وجود عالم مختلف عن العالم الموجود يتضمن تناقضاً . ولكن هذه القضية - ذات الطابع اسپينوزي - لا يمكن قبولها . صحيح أن تم نوعاً من الضرورة في أن يكون هذا العالم كما هو عليه وأن يفعل كل

بالمجاهدات كما يلعب الاطفال بالجوز ، وكيف أن كل سلام هس ، وما هو إلا فترة استراحة قصيرة يتفق عليها المصارعون للراحة قليلاً ابتغاء استئناف الصراع على نحو أشد وحشية .

ثبت مؤلفاته بحسب الترتيب التاريخي

- 1684: Meditationes de Cognitione, veritate et ideis.  
 1686 - 90: De vera methodo philosophiae et theologiae.  
 - 1691: Si l'essence des corps consiste das l'étendue.  
 1693: De notionibus juris et justitiae  
 1694: De Primae philosophiae emendatione et de notione substantiae.  
 1696: Système nouveau de la nature et de la communication des substances.  
 1696: Von Nutzen der Vernunftkunst oder Logik.- von der Glückseligkeit.  
 1698: Historia et Commendatio linguae Charactericae.  
 - De ipsa natura sive de vi insita actionibus que creaturarum  
 1704: Nouveaux Essais sur l'entendement humain.  
 1705: Considérations sur le principe de vie.  
 1706- 16: Lettres au P. des Bosses.  
 1710: Commentatio de anima brutarum  
 1710: De libertate.- De la Sagesse.- Essais de Théodicée.  
 1714: La Monadologie- Principes de la nature et de la grâce.  
 1716: Correspondance avec Clarke

#### نشرات مؤلفاته

- Raspe: Oeuvres Philosophiques latines et françaises de feu M. Leibniz, 1763.  
 - Dutens: G.W. Leibnizii opera omnia, 1767.  
 - E. Erdmann: G.W. Leibnizii opera omnia, 1840.  
 - C.I. Gerhardt Die philosophischen Schriften von G. W. Leibniz, 7 Bände, Berlin, 1875- 90.  
 لا تزال حتى اليوم أكمل طبعة.  
 - Foucher de Careil: Oeuvres de Leibniz, 1857.  
 - O. Klopp: Die Werke von Leibniz, 1866.  
 - P. Janet: Oeuvres Philosophiques de Leibniz, 1900.

ومنذ سنة ١٩٢٣ تقوم الأكاديمية البروسية للعلوم في برلين بإصدار نشرة نقدية لكل مؤلفات ليبتس بإشراف Reichel ويتوقع أن تتم في أربعين مجلداً. ظهر المجلد الأول

الحرب بما هي حرب للغزو والتوسع ، بل الحرب بين المسيحيين في أوروبا فقط ! ومن هنا رأيناه يقدم إلى لويس الرابع عشر مشروعاً لغزو مصر والقضاء على الامبراطورية العثمانية ، وهو يرمي بهذا إلى صرف الحرب عن أوروبا ، ووقف الحرب بين المسيحيين ، وتوجههم إلى محاربة غير المسيحيين .

لكن كان وراء هذا الموقف دافع قومي أيضاً بما كان هو الأقوى ، وذلك هو صرف لويس الرابع عشر عن الطمع في الأراضي الألمانية . وقد أوضح موقفه هذا في رسالة حررها في سنة ١٧٨٤ بعنوان : «استشارة تتعلق بالحرب او التفاهم مع فرنسا» . وهو في هذه الاستشارة يميل إلى الحرب ، وذلك «لأننا كلما تنازلنا وتساهلنا مع فرنسا ، ازدادت مطالبها منا ؛ إن طمعها لا يشبعه شيء ، ووقاحتها تزداد كلما ظفرت بنجاحات . وإذا نجحت هذه المرة ، فإنها لن تفي على شيء ، ولن تشعر بأي اعتبار تجاه أي شيء ؛ ولن يكون أحد في أمان ، وبمناسبة أتفه الأمور مشير ضجة لا تحتمل ومتاعب شديدة لجاراتها ، ومستولي على كل ما تشتهي» .

وإذن كان ليبتس وطنياً متحمساً لبلاده ألمانيا ، وسياسياً واقعياً . ولهذا نراه يسخر سخيرة مرة من الفرنسيين الذين يدعون - في الظاهر والقول - إلى السلام ، فيقول : « حينما يعظ الفرنسيون بالسلام ، فإن موعظتهم تشبه موعظة الثعلب في جمع من الدجاج وهو في طريقه إلى الحج إلى شانت يعقوب وقد أعلن عفواً عاماً بين كل الحيوان . وليتكلموا ما طاب لهم الكلام عن السلام الدائم وهم الذين لا يفهمون منه غير الاستعباد العام على طريقة الأتراك » .

وتظهر نزعة السياسة الواقعية على نحو أوضح في المشروع الذي قام به في سنة ١٦٩٢ لنشر « قانون دولي عام دبلوماسي » Codex Juris gentium diplomaticus وهو مجموعة ضخمة تحتوي على نصوص أهم المعاهدات التي عقدت خلال القرون الخمسة السابقة ، وعلى كثير من الوثائق الدولية : موثيق تتعلق بالحدود بين الدول أو المقاطعات ، موثيق تجارية ، عقود زواج بين الملوك والأمراء ، وصايا ، الخ . وكل هذه النصوص والاتفاقات والعقود والبروتوكولات تكشف عن « التاريخ الصغير » إلى جانب « التاريخ الكبير » ، ويقصد « بالتاريخ الصغير » أخبار المطامح غير المعلنة ، والرشاوى التي دفعت للقائمين بالمفاوضات بين الدول ، ودور النساء في عقد الموثيق أو الاتفاقات ، الخ . وفيها نشاهد الملوك والأمراء وهم يلعبون

The Hague, 1953.

- Huber, K. Leibniz. Munich, 1951.
- Iwanicki, J. Leibniz et les démonstrations mathématiques de l'existence de Dieu. Paris, 1934.
- 
- Jalabert, J. La théorie Leibnizienne de la substance. Paris, 1947.
- Joseph, H.W.B. Lectures on the Philosophy of Leibniz. Oxford, 1949.
- Kabitz, W. Die Philosophie des jungen Leibniz. Heidelberg, 1909.
- Le Chevalier, L. La morale de Leibniz. Paris, 1933.
- Mackie, J.M. Life of Godfrey William Von Leibniz. Boston, 1845.
- Matzat, H. L. Untersuchungen über die metaphysischen Grundlagen der Leibnizschen Zeichenkunst. Berlin, 1938.
- Merz, J. T. Leibniz. Edinburg and London, 1884; reprinted New York, 1948.
- Meyer, R.W. Leibniz and the Seventeenth-Century Revolution, translated by J.P. Stern. Cambridge, 1952.
- Moureau, J. L'univers leibnizien. Paris, 1956.
- Olgiati, F. Il significato storico di Leibniz. Milan, 1934.
- Piat, C. Leibniz, Paris, 1915.
- Politella, J. Platonism, Aristotelianism and Cabalism in the Philosophy of Leibniz. Philadelphia, 1938.
- Russell, Bertrand. A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz. London, 1937. (2nd edition).
- Russell, L.J. Great Thinkers: IX, Leibniz (in Philosophy, 1936).
- Saw, R.L. Leibniz. Penguin Books, 1954.
- Schmalenbach, H. Leibniz. Munich, 1921.
- Stammler, G. Leibniz. Munich, 1930.
- Wundt, W. Leibniz. Leipzig, 1909.
- There are several collections of essays on Leibniz; for example, Gottfried Wilhelm Leibniz. Vorträge der aus Anlass seines 300. Geburtstages in Hamburg abgehaltenen wissenschaftlichen Tagung (Hamburg, 1946). Leibniz Zu Seinem 300. Geburtstags 1646- 1946, edited by E. Hochstetter (Berlin, 1948); and Beiträge zur Leibnizforschung, edited by G. Schischkoff (Reutlingen, 1947).

منها سنة ١٩٢٣ وتوالي صلورها حتى الآن.

- L. Couturat: Opuscules et fragments inédits de Leibniz, Paris, 1903.
- G. Grua: G. W. Leibniz, Textes inédits 2 Vols., Paris, 1948.
- P. Schrecker: G. W. Leibniz, Lettres et fragments inédits sur les problèmes philosophiques, théologiques, politiques de la réconciliation des doctrines protestantes (1669- 1704), Paris, 1935.

### مراجع

#### Studies

- Barber, W.H. Leibniz in France from Arnauld to Voltaire: A Study in French Reactions to Leibnizianism, 1670- 1760. Oxford, 1955.
- Baruzi, J. Leibniz, avec de nombreux textes inédits. Paris, 1909.
- Belaval, Y. La pensée de Leibniz. Paris, 1952.
- Boehm, A. Le «Vinculum Substantiale» chez Leibniz. Ses origines historiques. Paris, 1938.
- Brunner, F. Etudes sur la signification historique de la philosophie de Leibniz. Paris, 1951.
- Carr, H.W. Leibniz. London, 1929.
- Cassirer, E. Leibniz' System in seinen wissenschaftlichen Grundlagen. Marburg, 1902.
- Couturat, L. La logique de Leibniz. Paris, 1901.
- Davillé, L. Leibniz historien. Paris, 1909.
- Fischer, K. Gottfried Wilhelm Leibniz: Heidelberg, 1920 (5 th edition).
- Friedmann, G. Leibniz et Spinoza. Paris, 1946 (4 th edition).
- Funke, G. Der Möglichkeitsbegriff in Leibnizens System. Bonn, 1938.
- Getberg, B. Le problème de la limitation des créatures chez Leibniz, Paris, 1937.
- Grua, G. Jurisprudence universelle et théodicée selon Leibniz. Paris, 1953.
- Guerault, M. Dynamique et métaphysique leibniziennes. Paris, 1934.
- Guhrauer, G. E. G. W. Freiherr von Leibniz. 2 vols. Breslau, 1846 (Biography).
- Guilton, J. Pascal et Leibniz. Paris, 1951.
- Hildebrandt, K. Leibniz und das Reich der Gnade.

## لوفي برييل

Lucien Lévy - Bruhl

عالم اجتماع ومؤرخ للفلسفة .

ولد في باريس في ١٠ أبريل سنة ١٨٥٧ من أسرة يهودية أصلها من مدينة متهز Metz في الألزاس . وتعلم في ليسيه شارلمان حيث برز في الدراسة ونال جوائز في مسابقات المدارس الثانوية في فرنسا . وتردد في اختيار مهنة المستقبل : بين أن يكون من رجال الفلسفة ، أو رئيساً لأوركستر ، وقد ظل طوال حياته يهتم بالموسيقى . لكنه اختار الفلسفة ودخل في مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٨٧٦ . وبعد الحصول على الليسانس في الفلسفة ، حصل على اجازة التدريس ( الاجريجاسيون ) في الفلسفة في سنة ١٨٧٩ ، وتلمذ على جول لاشليه أثناء مقامه في مدرسة المعلمين العليا .

وعين مدرساً للفلسفة في مدرسة ثانوية في پواتيه ( ١٨٧٩ - ١٨٨٢ ) ، ثم في أينان ( ١٨٨٢ - ١٨٨٣ ) . وفي سنة ١٨٨٤ حصل على الدكتوراه في الآداب ( قسم الفلسفة ) من السوربون . وكانت رسالته الرئيسية عن فكرة المسؤولية ، ورسالته الصغرى ( اللاتينية ) بعنوان : « رأي سنكا Seneca في الله » . وعين مدرساً في ليسيه لوي لوجران ( ١٨٨٣ - ١٨٩٥ ) . ثم عين في سلك التدريس العالي : فصار مدرساً بديلاً في مدرسة المعلمين العليا . وفي سنة ١٨٩٦ عين مدرساً في قسم الفلسفة بالسوربون وتدرج في هيئة التدريس فيها حتى صار أستاذاً ذاكرسي لتاريخ الفلسفة الحديثة سنة ١٩٠٤ . وفي الوقت نفسه ظل يلقي محاضرات في المدرسة الحرة للعلوم السياسية وكان مؤسسها ، بوتي Bout-my قد كلفه منذ سنة ١٨٨٦ بالقاء دروس في تاريخ الأفكار السياسية والروح العلة في ألمانيا منذ سنة ١٨١٥ .

لكنه وهو في السوربون لم يكن يسجل محاضراته كتابة ، بل كان يلقي دروسه بلون شيء مكتوب ، ومن هنا ضاعت هذه المحاضرات كلاماً شفوياً . ولم يبق لنا شيء من محاضراته عن هيوم وشوبنهاور ؛ ودروسه عن ديكارت لم يبق منها إلا ذكرى أهاب بها تلميذه اتين ميسون ( في « المجلة الفلسفية » عدد أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٥٧ ص ٤٣٢ - ٤٥١ ) . لكنه استخرج مما أعدّه لمحاضراته في السوربون كتابين أحدهما في فلسفة ياكوبي Jacobi والثاني في فلسفة أوجيست كونت . ومن دروسه في المدرسة الحرة للعلوم السياسية استخرج كتاباً

يعنوان : « ألمانيا منذ لبيتس » .

لكنه في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى ، وتحت تأثير صداقته مع دوركهيم ، اهتم لوفي برييل بالأخلاق وعلم الاجتماع . وقام بأبحاث شخصية في هذا المجال ، كانت ثمارها كتابين أحدهما دويماً لدى ظهورهما ، وهما : « الأخلاق وعلم الأيبن » ، ثم « الوظائف العقلية في الجماعات الدنيا » .

وكان كثير الاهتمام بالسياسة ، النظرية والعملية على السواء . فشارك في الدفاع عن الضابط دريفوس ، وكان دريفوس متزوجاً من احلى قريبات لوفي برييل . وكان أيضاً وثيق العلاقة مع جان جورس ولوسيان هر الاشتراكيين ، ولم يخف انتباهه إلى الاشتراكية .

وفي سنة ١٩١٧ تولى رئاسة تحرير « المجلة الفلسفية » التي أنشأها ريبو Ribot . وفي نفس السنة صار عضواً في معهد فرنسا إذ اختير عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية .

وفي سنة ١٩٢٥ أنشأ « معهد الاثنولوجيا » ( علم الاجناس ) واستعان في ادارته بيول ريفيه Paul Rivet ومرسل موس Marcel Mauss .

ولما بلغ السبعين في سنة ١٩٢٧ تقاعد بوصفه أستاذاً لتاريخ الفلسفة الحديثة في السوربون .

وفي سنة ١٩٣٢ تولى رئاسة لجان الامتحانات في مصر وفلسطين وسوريا .

وتوفي لوفي برييل في ١٣ مارس سنة ١٩٣٩ .

## آرلوه الفلسفية

أهم آراء لوفي برييل الفلسفية تتناول الأخلاق والعقلية البدائية .

( أ ) أما في الأخلاق فقد أصدر في سنة ١٩٠٣ كتاباً صغيراً بعنوان : « الأخلاق وعلم الأيبن » حاول فيه بيان استحالة وعدم جدوى كل الأخلاق النظرية ، سواء منها الأخلاق التي اتخذت طابعاً علمياً ( مثل الأخلاق القائمة على البيولوجيا ، وتلك القائمة على علم النفس أو علم الاجتماع ) ، والأخلاق الميتافيزيقية التي وضعها الفلاسفة على مدى العصور . فهو يأخذ على كلا النوعين من الأخلاق أنه

## ٣- « النفس البدائية » ( ألكان ، سنة ١٩٢٧ )

وفي هذه الكتب انتهى ليفى بريل إلى النتائج التالية :

١- على عكس فريزر وتيلر Taylor وأمثالهما ممن كانوا يرون أن الوظائف العقلية عند البدائي هي هي نفسها عند المتعلمين ، والفارق هو في استعمال البدائي لها على نحو خاطئ ، نتيجة لفصور معارفة - يرى ليفى بريل أن هناك فارقاً أساسياً جوهرياً في عقلية البدائي يميزها عن عقلية المتعلمين ، وهو فارق في التركيب العقلي والنفسي ، وليس مجرد فارق عرضي ناجم عن درجة المعرفة . فالوظائف العقلية عند البدائي غيرها تماماً عند المتعلمين ، ولا ترجع إلى غلط واحد . إن البدائي لا يفكر تفكيراً خاطئاً ، بل تفكيراً مختلفاً عن تفكير المتعلمين . والسبب في ذلك أن لكل جماعة نفسية جماعية خاصة . وفي سبيل إيضاح هذا الرأي درس ليفى بريل الجماعات الأبعد عنا في طرائق البرهنة والتفكير ، أعني تلك التي تتميز بالافتقار إلى التجريد والتصورات العقلية ، وهي في مجموعها الجماعات التي لا تكتب وليست لديها كتابة . وسبيلنا إلى معرفة عقلية هذه المجتمعات هو الدراسات التي قام بها علماء الأجناس ، وأوصاف رحلات الرحالة والمبشرين في ديار هذه المجتمعات . وقد أخذ عليه اجتماعيون ، مثل Evans Pritchard الذي درس خصوصاً قبائل النوير والبجة في السودان - أن الرحالة والمبشرين إنما سجلوا ما أثار دهشتهم وما بدا لهم غريباً ، دون أن يسجلوا حياة هذه المجتمعات كما تجري في العادة ، وهذا بالغوا في إبراز الفارق بينهم وبيننا . لكن ليفى بريل ردّ على هذا الاعتراض قائلاً إنه غير مهم ، لأن ما حمله ليس هو أن يقدم لوحة كاملة عن أحوال المجتمعات البدائية ، بل فقط أن يبرز الفروق بين العقلية البدائية وعقليتنا نحن .

## ٢- وبعضى بعد ذلك إلى بيان هذه الفروق :

وأولها الامتثال الجماعي عند أبناء هذه المجتمعات الدنيا : ويتعنه ليفى بريل بأنه امتثال « صوفي » mystique ، ويقصد بذلك أن امتثالهم تقوم على أساس الاعتقاد في قوى ، وتأثيرات ، وأفعال غير مدركة بالحواس ولكنها مع ذلك واقعية . ولا فارق عند البدائي بين ما هو طبيعي وما هو خارق على الطبيعة ، بل كلاهما واحد .

وثانيها اختلاف الكيفية التي بها يربط البدائي بين امتثالاته عن الكيفية التي تربط نحن بها امتثالاتنا . إذ يرى

يريد أن يكون نظرياً ومعيارياً في آن واحد ، فيقدم علماً ويفرض واجبات معاً ، وهذان الأمران لا يجتمعان معاً في علم واحد . ذلك أن النظرية تتناول ما هو كائن ، بينما الواجب يتناول ما ينبغي أن يكون . والدليل - في نظره - على عدم جدوى هذه الأنواع من الأخلاق كلها هو أنها - رغم اختلاف أساسها - متفقة في تعاليمها العملية : فمذهب المنفعة عند جون استورت مل Mill يسعى جهده للوصول إلى نفس القواعد الأخلاقية التي قررها الانجيل .

ومن ناحية أخرى تقوم هذه الأنواع من الأخلاق النظرية على مصدرين خاطئين : (١) فهي تفترض أن الطبيعة الانسانية هي عينها في كل زمان ومكان ، مع أن الواقع هو أنها تختلف بحسب الحضارات . (٢) وهي تفكر كما لو كان الضمير الأخلاقي كلاً منسجماً ، بينما هو في الحقيقة ينطوي على تناقضات ، وهو يمزج بين تعاليم صادرة عن مصادر مختلفة .

وبدلاً من هذه الأخلاق النظرية ، يريد ليفى بريل أن يضع أساس علم وضعي يقوم على الآيين ، أي على الاعراف والعادات والتقاليد والممارسات العملية الموجودة في مجتمع مجتمع . ويريد من هذا العلم أن يسلك مسلك علم الفزياء ، وذلك بأن يستند إلى معطيات موضوعية بحتة ، وأن يبحث عن قوانينها بدلاً من أن يسعى لتأويلها . وهذا العلم - ويسميه « علم الآيين » la science des moeurs بدلاً من « علم الأخلاق » - لا يدعي تأسيس الأخلاق ، بل يقتصر على تحليل الواقع الأخلاقي . وعليه أن يحسب حساباً للعواطف والامتثالات ، بوصفها معطيات واقعية .

ويمكن بالاستناد إلى علم الآيين تأسيس من عقلي للسلوك الأخلاقي ، وشأنه شأن كل تكنيك فإنه يفترض معرفة سابقة . والقواعد المستخرجة عن هذا الطريق لا تصلح إلا بالنسبة إلى مجتمع محدد . إن الأخلاق نسبية إلى المجتمعات التي تمارسها .

ب) وأما فيما يتعلق بالعقلية البدائية ، فقد كرّس ليفى بريل لدراساتها عدة مؤلفات ودراسات ، أهمها :

١- «الوظائف العقلية في المجتمعات الدنيا» (ألكان،

سنة ١٩١٠)

٢- «العقلية البدائية» (ألكان، سنة ١٩٢٢)



يتسبب إليه ، وفيما يتصل بالإنسان فإنها لا تتصور الشخص خارج الجماعة التي ينتمي إليها .

كذلك لا تميز بين الجسم والنفس ، وتتصور الشخص واحداً أو اثنين أو كثرة . وهذا يفسر اعتماد البدائي في إمكان وجود الشخص الواحد في عدة أماكن متباعدة في وقت واحد ، أو ازواج الشخص في الأحلام . والدليل على ذلك معتقدات البدائيين الخاصة بالموت : فهم يعتقدون أن الجماعة كلها تصاب بموت أي فرد منها ؛ والميت يذهب إلى عالم المروق مع بقائه متحلاً بالجنة .

#### مؤلفاته الرئيسية

- L'Idée de responsabilité, Hachette, 1885.
- L'Allemagne depuis Leibniz, Hachette, 1889.
- La philosophie de Jacobi. Alcan, 1894.
- La philosophie d'Auguste Comte. Alcan, 1900.
- La Morale et la science des mœurs. Alcan, 1903.
- Les Fonctions mentales dans les sociétés inférieures. Alcan, 1910.
- La Mentalité Primitive. Alcan, 1922.
- L'âme Primitive. Alcan, 1927.
- Le Surnaturel et la nature dans la mentalité primitive.. Alcan, 1931
- La Mythologie primitive. Alcan, 1935.

#### مراجع

- Georges Davy: Sociologues d'hier et d'aujourd'hui. Ire éd. 1931; 2<sup>e</sup>, 1950.
- عدد خاص بمناسبة ذكرى ميلاده المئوية
- Revue philosophique. oct. - décembre, 1957
- J. Casenseuve: Lucien Levy - Bruhl, sa vie, son œuvre. Paris, P. U. F., 1963.

#### لينين ( فلاديمير )

#### Wladimir Iljtsch Uljanow Lenin

مفكر سياسي ومؤسس الدولة البلشفية في روسيا .

ليني برييل أن البدائي في تفكيره لا يخضع لقوانين منطقنا وحدها ، ومن هنا بنعت عقلية البدائي بأنها « سابقة على المنطق » Prélogique . لكنه لا يقصد بهذا أنها مناقضة للمنطق أو ضد المنطق ، كما زعم خصومه . كذلك لا يقصد بهذا الوصف أن عقلية البدائي تمثل في تطور الفكر مرحلة سابقة على ظهور الفكر المنطقي . يقول ليني برييل : « حينما أنعت ( عقلية البدائي ) بأنها سابقة على المنطق فأنا بهذا أقصد فقط أنها لا تلتزم قبل كل شيء ، كما يلتزم فكرنا ، بالامتناع عن التناقض . ذلك أن هذه العقلية لا تكثر بالتناقض ، ويستوي لديها التناقض وعدم التناقض في التفكير . وهذا هو ما يسميه ليني برييل بـ « المشاركة » Participation . وتبعاً لمبدأ المشاركة ، فإن الأشياء يمكن ، في وقت واحد معاً ، أن تكون وأن لا تكون هي عينها ، ويمكن أن ترتبط بعلاقات لا شأن لمنطقنا بها . فالبدائي يرى أن الكائنات ذات الأنفس والكائنات غير ذات الأنفس تشارك كلها في قوى متصلة تسمى mana .

ولما كانت العمليات المنطقية والعمليات السابقة على المنطق مختلطة في ذهن البدائي ، فإنه أقل استعداداً منا للتجريد والتعميم .

والبدائي يدرك الأشياء من الناحية الكيفية أكثر مما يدركها من الناحية الكمية . وهذا يتجلى خصوصاً في طريقته في العدّ : فالأعداد ذوات خصائص كيفية أكثر منها كمية . ولهذا أثره أيضاً في لغة البدائي . فإن ألفاظهم وفيرة جداً ، شتى ، لأنها قليلة التجريد . وهذا يؤدي إلى زيادة دور الذاكرة .

٣ - والبدائي في تصوره للعالم يختلف عنا بسبب تصوره للعلة . ذلك أن أن العقلية البدائية تهمل الأسباب الثانوية لصالح الأسباب الصوفية ( الروحانية ) . فيما نراه نحن علة ، لا يرى فيه البدائي غير فرصة ( ومناسبة ) لتدخل القوى الصوفية ( الروحانية ) . إن البدائي يسعى إلى معرفة القوى الخفية والمستورة التي تؤثر في الأشياء ؛ أما الأسباب المدركة بالحس فلا يقيم لها كبير وزن . والعلة الصوفية ( الروحانية ) خارجة عن المكان وعن الزمان . ولهذا فإن تصور البدائي للزمان والمكان يختلف تماماً عن تصورنا نحن لها إذ نراها كما متجانساً .

٤ - والعقلية البدائية لا تفصل الفرد عن النوع الذي



وفي سنة ١٩٠١ اتخذ اسم « لينين » الذي اشتهر به فيما بعد ، ( وكان قد اتخذ قبل ذلك اسم Iljin واسم Tulin ) . وفي أثناء نفيه في شرقي سيبيريا ، كانت حركة « رابطات الكفاح لتحرير الطبقة العاملة » قد صارت لها اليد العليا في سان بطرسبرج وغيرها من المدن الروسية الكبيرة ، وهذه الحركة كانت بمثابة الصورة الروسية لحركة التنقيح الأوربية الغربية . فألف لينين رسالة بعنوان : « احتجاج الماركسيين المنفيين ضد عقيدة الاقتصاديين » ( وهو اسم تلك الحركة ) ونشرها في مجلة عنوانها Piskra ( أي « الشرارة » ) وهي مجلة أسستها جماعة لينين وصارت لسان حال حزب ثوري اشتراكي .

وبعد انتهاء مدة نفيه في سيبيريا ، قام لينين في مستهل سنة ١٩٠٠ برحلات عديدة من أجل ضم شمل الجماعات الثورية في روسيا ، ثم سافر إلى الخارج حيث اشترك مع بلاخنوف وسائر أعضاء جماعته في إصدار مجلة « الشرارة » . وبإنشاء « حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي » إبان المؤتمر الثاني الذي عقد في لندن سنة ١٩٠٣ ( وكان المؤتمر الأول قد عقد في مينسك في سنة ١٨٩٨ لكن لم يحضره إلا عدد قليل ، لهذا كان قليل الأهمية والأثر ) . بلغت مجلة « الشرارة » أوج نشاطها وازدهارها . وبعد ذلك مباشرة حدث نزاع بين أعضاء هذا الحزب حول : هل ينبغي أن يكون هذا الحزب الجديد منظمة لطلبة واعية بأهدافها ، أو ملقحى لكل المتعاطفين في الآراء الثورية ؟ . وانتهى هذا النزاع بتصديق كيان الحزب الجديد إلى جماعتين : جماعة الأغلبية يزعمها لينين ( البلشفيك - من الصفة بلشوي = كبير ) ، وجماعة الأقلية ( المنشفيك - من الصفة منشفوي أي صغير ) التي انضم إليها بلاخنوف . ولما بلغت الثورة الروسية أوجها في سنة ١٩١٧ انفقت الجماعتان على الانضمام الواحدة إلى الأخرى من جديد ، لكن لم تستطعا إعادة الوحدة الأولى من جديد .

وفي سنة ١٩١٢ أثناء مؤتمر براج أعلن لينين رسمياً أن فريق البلشفيك هو التنظيم المركزي لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي . ومنذ انشاء مجلة « الشرارة » حتى وفاته ، كان لينين هو زعيم الاشتراكيين اليساريين الروس .

ومنذ تأسيسه لحزبه في سنة ١٩١٢ حتى قيام الحرب العالمية الأولى عاش لينين قرب الحدود النمساوية الروسية . ولم يستطع العودة إلى روسيا - منذ نفيه عنها في نهاية سنة ١٩٠٧ - إلا في مارس سنة ١٩١٧ . وفي سنة ١٩١٢ أيضاً

ولد في ٢٢ أبريل سنة ١٨٧٠ في سميرسك Simbirsk على نهر الفولجا ( وتسمى اليوم Uljanocsk ) ، وكان أبوه مفتشاً للمدارس العليا ، نال درجة النبالة المناسبة لدرجة وظيفته . وكان جواً الأميرة جواً الانتلجسيا التقدمية في ذلك العصر : وكل الأبناء ( باستثناء أخت توفيت في سن صغيرة ) كانوا ثوريين . وكان الابن الأكبر عضواً في منظمة ارهايية تدعى Narodnaya Wolya وحكم عليه بالاعدام فأعلم شتقاً في سنة ١٨٨٧ ، فكان لهذا الحادث أثر بالغ في نفس فلاديمير ( لينين ) .

وفي سنة ١٨٨٧ دخل لينين كلية الحقوق في جامعة قازان ، لكنه طرد منها في ديسمبر من نفس السنة لاشتراكه في اضطرابات الطلاب ونفي إلى قرية صغيرة . لكنه عاد إلى قازان في سنة ١٨٨٨ ، لكن لم يسمح له بدخول الجامعة . وشارك في دائرة الطلاب غير المشروعة المسماة N. J. Fedos-sejews وفيها تحول الشاب الثوري من الشعبية إلى الماركسية . ولما انتقلت الأسرة إلى سمارة في سنة ١٨٨٩ انضم لينين إلى الدوائر الثورية فيها بعد أن صار ماركسياً متحمساً .

والتحق بكلية الحقوق في جامعة سان بطرسبرج طالباً من الخارج ، فحصل على اجازة الحقوق ، وعمل محامياً تحت التمرين في سمارة . وفي سنة ١٨٩٣ انتقل إلى مدينة سان بطرسبورج . وفي دائرة « الكبار » ( وهو تنظيم من تلك التنظيمات التي تحول فيها قسم من الانتلجسسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أي ما بين سنة ١٨٨٩ و ١٨٩٠ ، من الاتجاه الشعبي إلى الاتجاه الماركسي ) وخلال العامين التاليين عمل على تحويل هذه الدائرة المؤلفة من الانتلجسسيا إلى تنظيم يضم العمال ، أي تحويلها إلى حركة عمالية .

وفي سنة ١٨٩٥ تأسست « رابطة الكفاح لتحرير الطبقة العاملة » ، لكن معظم زعماء « الكبار » ومنهم لينين ، أودعوا السجن . وكان لينين في ربيع سنة ١٨٩٥ قد قام برحلة إلى غربي أوربا ، لتوسيع حركة الكفاح ، واتصل بأعضاء « جماعة تحرير العمل » من أجل التشاور معهم ، وكان من مؤسسي هذه الجماعة W. Plechanow ، وتوثقت صلة لينين به ، وتعاونوا معاً خلال السنوات العشر الأولى من نشاط لينين العلني . وكان فريدرش انجلز على فراش الموت حين قام لينين برحلته الأولى إلى الخارج هذه .

الطبقة العاملة ، إذا ما تركت إلى مجهوداتها التلقائية ، لن تصبح أبداً اشتراكية . وإنما فقط بواسطة المجهود الواعي «للممثلين المثقفين للطبقات المالكة» أي الماركسيين - يمكن تحويل الحركة العمالية ، بكفاحها التلقائي الذي تقوم به النقابات ، تحويله من الانضواء تحت جناح البورجوازية إلى الانضواء تحت جناح الديمقراطية الاشتراكية الثورية . وأدرجت وجهة النظر هذه في برنامج المؤتمر الثاني ، الذي من أجل الإعداد له نشر لينين رسالته تلك : « ما الذي يجب عمله ؟ » . وهذه الفكرة من أهم أفكار لينين ، وتميز مذهبها الخاص عن الماركسية بوجه عام .

وفي كتابه : « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ، الذي يعد في روسيا « أعظم اسهام في كتز الماركسية الخلاقة » ودليل - في نظرهم - على مكانة لينين بوصفه - فيما زعموا - « عالماً عبقرياً ، وباحثاً موضوعياً ، وأكبر مناضل في سبيل الثورة » - يتبنا لينين بأن الامبريالية ( الاستعمار التوسعي ) يؤذن بانتهيار الرأسمالية ، وتمثل عشية الثورة الاشتراكية لأنها تخلق الظروف الموضوعية للثورة العالمية .

وبعد اخفاق تمرد يوليو سنة ١٩١٧ أُلّف لينين رسالة أخرى مشهورة عنوانها : « الدولة والثورة » ( سنة ١٩١٧ ) بين فيها أن النظام القائم في ذلك الوقت ( أي نتيجة ثورة ١٥ مارس سنة ١٩١٧ ) يدعي الديمقراطية نفاقاً ، وما هو في نظره إلا « دكتاتورية بورجوازية » ، ويجب أن يوضع مكانه « دكتاتورية البروليتاريا » ، وهو يعني دائماً بهذه العبارة : دكتاتورية البلشفيك . وحرص على التمييز بين مرحلتين : مرحلة الاشتراكية ، وقاعدتها : « من كل بحسب قدراته ، ولكل بحسب عمله » - ومرحلة الشيوعية ، وقاعدتها : « من كل بحسب قدراته ، ولكل بحسب حاجاته » ، وهو تميز عمل ستالين على النص عليه في دستور سنة ١٩٣٦ . وكان لينين يعتقد أنه على الرغم من أن الفوارق الاجتماعية ستبقى في ظل الاشتراكية ، فإن من المستحيل الوصول إلى الشيوعية بدون المرور بفترة طويلة غير محدودة من الاشتراكية .

ونظر لينين إلى الحزب ( الشيوعي ) على أنه حامي الثورة ، وقال إن هذه ضرورة لا تملحها الاعتبارات الوقتية ( حينها كان الحزب حركة سرية ) بل يملحها النظام الاشتراكي نفسه ، يملحها التمييز الأساسي بين مصالح الظروف الوقتية للحركة العمالية وبين الحركة الاشتراكية الثورية . وقد فصل لينين رأيه هذا في رسالته : « مهمتنا التالية » ، ونظمه في

استطاع انصار لينين الحصول من الحكومة القيصرية على ترخيص بإصدار جريدة تسمى « البرافدا » ( = الحقيقة ) .

وفي ١٥ مارس سنة ١٩١٧ قامت الثورة في روسيا ، وسقط الحكم القيصري ، وقامت « حكومة مؤقتة » . وعلم لينين بهذه الأنباء من الصحف السويسرية ، وكان آنذاك في سويسرة . وخاف أن تنضم كل العناصر إلى الحكم الجديد . فأحس بضرورة العودة إلى روسيا لمنع ذلك ، لأنه سيؤدي إلى إذابة البلشفيك في النظام الجديد . كذلك رأت الحكومة الألمانية أن وجود لينين في روسيا ضرورة تفيد مصلحتها . فتم الاتفاق ، بواسطة وسطاء سويسريين ، على تمكين لينين ، ونفر من المنفيين الروس المقيمين في سويسرة ، من السفر خلال الأراضي الألمانية في « قطار مختم » . وعن طريق السويد وفنلندة ، وصل لينين وصحبه إلى بطرسبرج في مساء ١٦ أبريل سنة ١٩١٧ . وهناك في روسيا استطاع الاستيلاء على السلطة في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ . ومنذ ذلك التاريخ ، وعلى الرغم مما لقيه من مقاومات من جانب رفاقه في الكفاح ضد الحكم القيصري ، صار هو الحاكم المسيطر على روسيا كلها ، الى ان أصيب بشلل في مايو سنة ١٩٢٢ ، بيد أنه شفي منه وعاد إلى استئناف حكمه ، لكن ضربة شلل أخرى أصابته فأقعده مشلولاً طوال عام تقريباً ، من ١٥/١٢/١٩٢٢ حتى وفاته في ٢١ يناير سنة ١٩٢٤ في ضيعة جوركي بالقرب من موسكو .

### آراؤه السياسية الفلسفية

رأى لينين - بخلاف الماركسيين الشرعيين ، والشعبيين - أن من الخطأ القول بالتطابق بين الرأسمالية والصناعات الكبيرة ، وأن التطور إنما يتم بواسطة تقسيم الفلاحين إلى قسمين : رأسمالي ، وأجير ( بروليتاري ) . وفي رسالة « نمو الرأسمالية في روسيا » ( سنة ١٨٩٩ ) حاول أن يبين فساد فكرة التارودنيك narodnik عن دور الفلاحين في روسيا ، فين أن الفلاحين لم يعهدوا كتلة من نوع واحد ، بل قد انشقوا إلى قطاعين : رأسمالي وبروليتاري . ومن رأيه أنه ينبغي تشجيع هذا التطور وذلك بإلغاء طبقة كبار الملاك الزراعيين ، لأنها تبطيء من نمو ( تطور ) العلاقات الرأسمالية في القرية . وبهذا يمكن تقوية طبقة الأجراء ( البروليتاريا ) المقيمين في المدن بانضمام الأجراء الزراعيين .

وفي رسالته : « ما الذي يجب عمله ؟ » يقرر لينين أن

الأشياء . وأكد لينين إمكان الحقائق الموضوعية ، وقرر أن معيارها هو الممارسة العملية .

ورأى لينين أن الديالكتيك هو عصب الماركسية ؛ وقد تناوله تفصيلاً في كتابه : « مذكرات فلسفية » ، وهو عبارة عن مذكرات وشذرات نشرت بعد وفاته ، سجلها في الغالب بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٦ ويتضمن في الوقت نفسه اقتباسات من كتب فلسفية وتعليقات على بعضها ، وخصوصاً من كتاب « علم المنطق » لهيجل . ويزعم لينين أن ديالكتيك هيجل يتفق مع المادية ، وأن الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة شيء واحد . وفي تصوره للديالكتيك انحرف لينين عن انجلز ، وذلك بتوكيده القوي لا على الانتقال من الكم إلى الكيف كما فعل انجلز ، بل على الصراع بين القوى المتناقضة في داخل كل شيء وكل عملية ، ورأى أن هذا الصراع هو الأسس في كل تغير ، وهو بالتالي عصب الديالكتيك . وعند لينين أن الديالكتيك « هو دراسة التناقض في ماهية الأشياء » .

وتناول لينين المادية التاريخية في معظم كتبه الرئيسية ، خصوصاً حين يتكلم عن الانتقال الثوري من الرأسمالية إلى الشيوعية : ففي كتاب « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ( بطرسبرج سنة ١٩١٦ ) يقرر أن الرأسمالية وصلت إلى مرحلتها الاحتكارية النهائية وصارت ناضجة للقضاء عليها ، لكن بسبب عدم تساوي تطور الرأسمالية في الدول المختلفة ، فإن الاشتراكية لن تنتصر في كل أو معظم الدول في وقت واحد كما توقع ماركس .

#### نشرات مؤلفات لينين

أحدث نشرة لمؤلفات لينين في اللغة الروسية تقع في ٤٩ مجلداً . ( بدأ نشرها في موسكو سنة ١٩٥٨ ) . ولها ترجمات إلى لغات أخرى طبعت في روسيا أيضاً .

#### مراجع عن أفكار لينين السياسية والفلسفية

- A. M. Deborin: Lenin as a Thinker, 3<sup>rd</sup> ed. Moscow and Leningrad, 1929 « لينين مفكراً » ( بالروسية )

- M. A. Dynnik and Others, editors: Istoriya Filosofii vol. 5, Moscow 1961

#### « تاريخ الفلسفة » ج ٥ ( بالروسية )

- Gustav A. Wetter: Il materialismo dialettico sovietico. Torino, 1948

- Henri Lefebvre: La Pensée de Lénine. Paris, Bordas.

رسالة : « ماذا يجب أن نعمل ؟ » . وعند أخريات حياته لخص لينين نظريته في الحزب في كتابه : « الراديكالية » : مرض الطفولة في الشيوعية .

وفي مواجهة رأي بعض الاشتراكيين الذين كانوا يرون أن الحرب هي نتيجة أخطاء شخصية أو انتهاك لحقوق الغير ، ويمكن بالتالي إلغاء الحروب بمجرد النضال في سبيل السلام دون تحطيم للرأسمالية ، جاء لينين في كتابه : « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » فقرر أن من الواجب أن نبحث عن أسباب الحروب وعدم إمكان تجنبها من أجل توزيع الأرض توزيعاً جديداً - يقول إنه ينبغي البحث عن ذلك في تحليل للرأسمالية الاحتكارية . وفي هذا الرأي يختلف لينين عن موقف انجلز في أخريات حياته من مسألة الحرب . لقد استنبط لينين ، من تحليله للامبريالية أن على الاشتراكيين الثوريين أن يدركوا أن الحرب العالمية ينبغي أن يجاب عنها بالاعداد المنظم للاستيلاء على السلطة ، وذلك بتحويل الحرب الامبريالية إلى حروب أهلية

ولكن هذه الرسائل والكتب أوغلت في السياسة . أما كتابه الأقرب إلى الفلسفة فهو « المادية والتجريبية » ( موسكو ، سنة ١٩٠٩ ) وفيه يهاجم بعض الكتاب الروس من أمثال بازاروف ، ويجدانوف ، ولوناشارسكي ، الذين حاولوا أن يكملوا الماركسية بالوضعية الظواهرية التي دعا إليها ارتست ماخ وأفاناريوس . وقد وصف لينين موقفهم بأنه شكل من أشكال المثالية الذاتية ، وبالتالي مضاد للماركسية . ودافع عن المادية الديالكتيكية ، وخصوصاً عن رأيها في المادة وفي طبيعة المعرفة . فعارض الرأي القائل بأن المادة من تركيب الاحساسات ، وأكد أن المادة موجودة وجوداً موضوعياً أصيلاً وأنها توجد مستقلة عن الشعور . كذلك أكد أن الزمان والمكان ليسا أحوالاً ذاتية لتنظيم التجربة ، بل هما شكلان موضوعيان لوجود المادة . وعارض قول القائلين بأن الاكتشافات الجديدة في العلم تثير الشك حول « مادية » المادة ، وذلك بأن ميمز هو بين التصور العلمي لتركيب المادة - وقال إنه موقت ونسبي ، لأنه لا يمكن القول بأنه توجد عناصر لا تقبل الردء - وبين التصور الفلسفي الذي يرى أن المادة هي « الحقيقة الواقعية الموضوعية المعطاة لنا في الإحساس » . وفي ميدان نظرية المعرفة عارض لينين نظرية بلخانوف Pleckhanov الذي كان يرى أن الاحساسات هي علامات على حقيقة واقعية خارجية ؛ وقال لينين إن الاحساسات تصور العالم الخارجي كالمرآة حين تنعكس عليها









## المادية

أ - المادية العلمية ، وعملها فوجت Vogt ومولشت Moleschott ويوشز في ألمانيا ، وكابانيس في فرنسا ، وقد بلغت أوجها عند ارنست هكل Haekel في مذهبه الواحدي Monismus .

ب - المادية التاريخية وهي التي قعد قواعد كارل ماركس وفريدرش انجلز . ولا تعتمد هذه المادية على علوم الطبيعة ، بل تسعى الى تحويل المجتمع وعلوم المجتمع . وموقفها يقوم في ارجاع الدولة الى «المجتمع المدني» ، وأرجاع أشكال الشعور الى البنية الأساسية الاجتماعية - infrastructure sociale ، كما أرجع الماديون في القرن الثامن عشر الفكر الى المادة . والمادة التاريخية تقوم اذن ، في المرحلة الأولى ، على قلب روابط السببية ، واستناداً الى هذا القلب أنشأ أصحابها علماً تاريخياً يفسر أحداث التاريخ على أساس العوامل المادية وحدها ؛ وهي ترجع أساساً الى عوامل اقتصادية . إن المادية التاريخية تطبق مبادئ المادية على التاريخ ، وعلى المجتمع .

وماركس وانجلز في تصورهما للتاريخ وللمجتمع ينظران إليهما على أنها مسارح لعمليات Prozessen تجري وفقاً لمنهج الديالكتيك ، أي التحول من الموضوع إلى نقيض هذه الموضوع ليتألف منها في مرحلة ثالثة مركب موضوع synthèse . إن التاريخ عملية حركة وتغير من النقيض إلى النقيض ثم إلى المركب من النقيضين . يقول ماركس وأنجلز ( ١٩ : ١٨٧ ) « إن التصور المادي للتاريخ وتطبيقه الخاص على صراع الطبقات في العصر الحديث بين البروليتاريا والبورجوازية ليسا ممكنين إلا بفضل الديالكتيك » .

وتزعم المادية التاريخية أنها هي وحدها الكفيلة بوضع نظرية في المجتمع وتطوره لا تقوم على التأملات النظرية

## matérialisme (F.), materialism (E)

تقال «المادية» في مقابل «المثالية» idéalisme . وتوصف بها اتجاهات وتزعجات فلسفية عديدة تشترك في القول بأن الأصل في الموجودات هو المادة ، لا الروح أو العقل أو الشعور ، ويمكن بيان المذاهب المادية بحسب العصور على النحو التالي :

١ - المادية في العصر اليوناني والروماني : نجد ديمقريطس وأبيقور ولوكريتيوس يقررون أن الموجود ينحل إلى أجزاء لا تتجزأ هي الذرات ، والذرات تتقل في الخلاء . كذلك يرون أن كل موجود يخضع لقوانين ضرورية ، والانسان يتدرج في هذا الوضع .

ويهدف هذا المذهب إلى الصراع ضد الخرافات وضد الخوف من الموت .

٢ - وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر نجد المادية تتخذ اتجاهاً ملحداً واضحاً . وتقوم على التعارض بين المادة والجوهر المفكر . وفي نظرية المعرفة ترد المعرفة الى الحواس وحدها . ومن أبرز ممثليها في فرنسا في القرن الثامن عشر لامتري ، وهولباك وهلفسيوس . وهي تصور الكون على أنه كل مؤلف من أجسام مادية ، فيه تجري أحداث الطبيعة وفقاً لقوانين موضوعية ضرورية . والزمان والمكان والحركة تعدّ أحوالاً للمادة . وكل ظواهر الوعي (الفكر) تنوقف على التركيب الجسماني للانسان .

٣ - وفي القرن التاسع عشر نما نوعان من المادية :



وكان مستشاراً للدولة ، ومديراً لأكاديمية الفنون الجميلة ، ومديراً لدار الكتب الوطنية ، وواحداً من كبار المثقفين في عصره . ثم عين في سنة ١٨٩٨ وزيراً مفوضاً في استوكهلم بالسويد ، وجيريل في التاسعة من عمره ، وقد قال يصف هذا الجو : « إن المناظر السويدية التي عرقتها وأنا في سن التاسعة إبان الفترة القصيرة التي كان فيها أبي وزيراً مفوضاً في استوكهلم ، هذه المناظر المؤلفة من الصخور والأشجار والمياه ، وبقيت سنوات طوالاً أحزن إليها ، قد بدت لي خيراً ما يرمز إلى العالم الأليم الذي كنت أحمله في نفسي . » ( « الوجودية المسيحية » ص ٣٠٣ ، باريس سنة ١٩٤٧ ) .

على أنه شاهد في طفولته ومطلع شبابه بلداً عديدة أخرى في أوروبا وتعرف إلى آدابها . ثم عاد إلى باريس ودخل الليسيه بعد أن أقام في السويد ثمانية عشر شهراً . وهنا أحس بالضيق لأن الحياة في الليسيه تضاد الحياة الحرة الشخصية المفتوحة على المجهول ، التي عاشها في استوكهلم ، حراً من الدراسة ، يغشى أولاد الدبلوماسيين ، ويستطلع طلع عوالمهم الغربية . لكنه وجد في الإجازات الصيفية ما يعرض عن جذب الحياة في الليسيه . وكان أهله يمضونها في الجبال ، وفي أماكن مختلفة باستمرار . وكان يجد في هذه الأماكن الموحشة وطنه الذي يحن إليه ، لأنه كان يهوى اكتشاف أعماق الأبعاد ، « إن كل ما يهمني هو أن أكتشف موضعاً آخر يمكن أن يصير عندي هنا جوهرياً . لقد كان العالم يبدو لي آنذاك ، ولا شك أنه يبدو لي اليوم هكذا أيضاً ، على أنه المكان غير المحدد الذي ينبغي أن يسعى المرء فيه إلى مد منطقة الذات الباطنة إلى أقصى حد ممكن ، وتقليل منطقة ما يتصور بالتجربة ، أو يتخيل بطريقة مشوشة ، أو يعرف بالسمع ، وبالجملة ما لا يجيء المرء . وأعتقد أنني مصيب حين أقول إن حبي للأسفار ارتبط دائماً بالحاجة التي أشعر بها إلى الاستيلاء على عالمي الباطن بالتوطن فيه فقل الإمكان . » ( الكتاب نفسه ، ص ٣٠٦ ) ثم دخل السوربون حيث حصل على ليسانس الفلسفة ، وكان في الوقت نفسه يغشى محاضرات هنري برجسون في الكوليج دي فرانس . ولما بلغ الثامنة عشرة كتب رسالة للحصول على دبلوم الدراسات العليا بعنوان « الأفكار الميتافيزيقية عند كولردج وعلاقتها بفلسفة شلنج » . ثم عين مدرساً للفلسفة في فنوم سنة ١٩١٢ ، وفي باريس ١٩١٥ - ١٩١٨ ، وفي صانص ١٩١٩ - ١٩٢٢ ، ولما قامت الحرب العالمية الأولى تين أنه لا يصلح للخدمة العسكرية فالتحق بالصليب الأحمر الدولي . وهذا هياً له أن

والتقويات الذاتية ، بل الأحوال الفعلية الملموسة والطبيعية للحياة الانسانية . وترتكز على أهمية عملية الانتاج والتوالد للمدنيين وتطورهما .

كذلك يزعمون أن المادية التاريخية تحيل إلى الأهمية الاجتماعية للنشاط العملي النقدي والنشاط الثوري الانساني ، وتوجه كل عمل اجتماعي إلى تشكيل التاريخ والمجتمع في اتجاه الصراع الطبقي لطبقة العمال وتحويل المجتمع في اتجاه شيوعي .

وعند المادية التاريخية ليس المجتمع هو مجموع الأفراد الذين منهم يتألف المجتمع ، بل هو جماع العلاقات الاجتماعية القائمة على طريقة الانتاج كما تحورت عينيّاً وتاريخياً . ووجود الطبقات والصراع بينها لا يتوقف على أمانى الناس ورغباتهم ، بل هو مرتبط بأحوال الانتاج كل الارتباط ، وهي بدورها تتوقف على قوى الإنتاج .

## مارسل ( جيريل )

### Gabriel Marcel

ولد جيريل مارسل في جو من التجريد الروحي الذي هزأ بالتجربة ، ويعيش فيها وراءها ، متجاوزاً عالمه اليومي . وأولع بالأفكار والصور العقلية ، وناداه المجهول المستر منذ بدء تفكيره ، فلم يحفل إلا بالمفكرين الصوفيين .

وكان أبوه كاثوليكي المولد والنشأة ، ولكنه سرعان ما انفصل عن الدين مؤثراً اللاأدرية التي دعا إليها تين وسبنسر وورينان ، على الكاثوليكية التي رآها حافلة بالأساطير غير المعقولة . ومع ذلك لم يكن شهواتي المنزع ، بل كانت حياته تتسم بالضبط والقناعة والحرص على أداء الواجب . أما أمه فكانت من أصل يهودي ، لكنها اعتنقت البروتستنتية في أشد أنواعها تحراً من العقائد الجامدة ؛ وكانت تؤثر الشعراء المتشائمين في القرن التاسع عشر ، من ألفرد دي ثني حتى مدام آكرمن ، لأن شعورها بأن الحياة خلو من المعنى كان سطر على نفسها . وكانت تعشق الحق والاستقامة الخلقية .

ولد جيريل مارسل في السابع من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩ في باريس ، ابناً وحيداً لوالديه ؛ وكان أبوه موظفاً كبيراً في الحكومة الفرنسية تقلب في عدة مناصب دبلوماسية ،

جاليمار)، وبعنوان «يوميات ميتافيزيقية» Journal Métaphysique؛ والثاني بعنوان «الوجود والملك» سنة ١٩٣٥ (في ٢٢٢ صفحة، وأضيف إلى اليوميات ٩٨ صفحة تحتوي ثلاث مقالات في علم التدين المعاصر، وتأملات في الايمان والتقوى عند بيتر فوست) عند الناشر أوبييه.

وله إلى جانب هذين المجلدين من اليوميات المؤلفات الفلسفية التالية، وهي عبارة عن مجموعات من المقالات والأبحاث المختلفة التواريخ:

- ١ - «من الإباء إلى النداء» (عند الناشر جاليمار سنة ١٩٤٠ في ٣٢٧ ص)
- ٢ - «الإنسان المسافر» (عند الناشر أوبييه، سنة ١٩٤٤ في ٣٥٩ ص)
- ٣ - «ميتافيزيقا رويس» (عند الناشر أوبييه سنة ١٩٤٥) وكان في الأصل بحثاً نشره في «مجلة الميتافيزيقا والأخلاق» سنة ١٩١٧ - ١٩١٨.
- ٤ - «وضع واقترابات عينية من السر الانطولوجي»، بحث نشره ملحقاً بمسرحية «العالم المكسور» (عند الناشر دكلية دي براوفر، باريس سنة ١٩٣٣).
- ٥ - «سر الوجود» في جزئين (عند أوبييه سنة ١٩٥٠):  
(أ) التأمل والسر. (ب) الإيمان والواقع.

٦ - «الناس ضد ماهو إنساني» (في ٢٠٨ صفحة، عند الناشر فييه كولومبييه سنة ١٩٥١).

٧ - «الانسان المشكل» (عند أوبييه ١٩٥٥).

٨ - «الكرامة الانسانية» (عند أوبييه سنة ١٩٦٤ في ٢١٩ صفحة).

ومعلوم طبعاً أن جبريل مارسل مؤلف مسرحي وافر الانتاج، مثل الكثير من مسرحياته في ملاعب باريس وألمانيا وإيطاليا وسائر بلاد أوروبا؛ ويتضمن جوانب فلسفية وأفكاراً عميقة لا بد من الاهتمام بها في دراسة شاملة عن فكره. ولكنها لا تعيننا هنا كثيراً.

#### اليوميات الميتافيزيقية

والمجلد الأول من «اليوميات الميتافيزيقية» ينقسم بدوره إلى قسمين: يبدأ أولها بتاريخ أول يناير سنة ١٩١٤

يعاني الحرب من زاويتها الوجودية، لا السياسية، من حيث تأثيرها في النظام الأخلاقي للإنسان. واستقر في باريس نهائياً ابتداءً من سنة ١٩٢٢، وأشرف على بعض السلاسل الأدبية، وخصوصاً على سلسلة القصص المترجمة عن اللغات الأوربية، التي كان يصدرها الناشر بلون تحت عنوان: «النيران المتقاطعة». واشتغل بالنقد المسرحي في الصحف والمجلات الباريسية وخصوصاً «الفرنسية الجديدة» التي كان يصدرها جيد (عند الناشر جاليمار) و«الأنباء الأدبية»، ولا يزال يتابع نقده المسرحي في هذه المجلة الأخيرة الأسبوعية Nouvelles Littéraires

ثم انعقدت أواصر الصلة الوثيقة بينه وبين الناقد الأدبي الكاثوليكي النزعة، شارل دي بوس Charles du Bos (١٨٨٢ - ١٩٣٩)، فتأثر مارسل بنزعة الكاثوليكية. وبمناسبة رسالة كتبها إليه القصصي المعروف فرنسوا مورياك (ولد سنة ١٨٨٥) اعتنق جبريل مارسل الكاثوليكية في سنة ١٩٢٩، وفي سنة ١٩٣٧ حصل على جائزة برييه Brioux الأدبية، وفي سنة ١٩٤٨ جائزة الأكاديمية الفرنسية للأدب، وفي سنة ١٩٥٦ حصل على جائزة جيته الهانزياسية، ثم حصل على الجائزة الوطنية الكبرى الفرنسية سنة ١٩٥٨. ثم عين في سنة ١٩٥٢ عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية في المعهد الفرنسي.

#### فلسفته:

وجبريل مارسل يستمد فلسفته من تجاربه الذاتية الباطنة، ولهذا اتخذت تأملاته صورة اليوميات Journal. ولا نجد له أثراً فلسفياً على هيئة كتاب، إنما كل إنتاجه يوميات أو مقالات. ولهذا يصعب على المرء، بل يستحيل عليه، أن يستخلص من مؤلفاته مذهباً محكم الأجزاء معماري البناء، شأن الفلاسفة، وحتى الفلاسفة الذين كتبوا يوميات مثل كيركجور ومين دي بيران، قد كتبوا إلى جانبها كتباً مؤلفة تاليفاً يمكن من العرض المذهبي المتصل السابغ. أما مارسل فصاحب خواطر وشذرات، ولهذا جاءت فلسفته غير تامة، وفي تقدم مستمر لا ينقطع، ولا تكتمل أساريه. ومن هنا لا يمكن عرضها إلا في تقريرات وكمناظر جانبية، من مجموعها تتألف صورة.

وقد نشر مارسل «يومياته» في مجلدين حتى الآن: المجلد الأول سنة ١٩٢٧ (في ١١ + ٣٤٢ صفحة عند الناشر

والظواهر ، بين الخالد والزمني في كل منسجم ، ذلك أنهم لا يستطيعون في الواقع الوصول إلا إلى القضاء على القيم التي يدعون أنهم يتجاوزونها . ويقرر أنه يبدو من المستحيل الافلات من محرجة الواقع المنخرط في الزمان من ناحية والواقع اللازماني من ناحية أخرى ( ونظام تغييره لن يكون إلا الظاهر). واذن فما هو المخرج الثاني ؟ هذا المخرج يلزمنا بوضع المشكلة العامة للعلاقات بين الظاهر والواقع . ( «يوميات ميتافيزيقية» ص ١٠ ، باريس سنة ١٩٣٥ ) .

ولهذا يدعو مارسل إلى أن يستبدل بالمقولات العددية للكثرة والوحدة ، مقولات الملاء والنقص . يقول في ١٨ أبريل سنة ١٩١٤ : « لازلت أعتقد أنه لا يوجد أي سبب للقول بأن المقولات يستغرق بعضها بعضاً ؛ فمثلاً كون الشخصية هي أعلى درجة نعرفها لا يتج عنه أبداً أن كل شيء يمكن أو يجب أن يفكر فيه تحت مقولة الشخصية ، إن النقدية الجديدة الواحدة صحيحة . وأشعر بابتعادي عما أستطيع أن أسميه بالواقعية الكلية » . ( ص ٩٣ ) .

ويتهي مارسل من هذا إلى فكرة الذاتية ، بمعنى الذات الشخصية الوجودية . والشعور بالذاتية يتم في عمل الايمان ؛ والايمان يتحدد بالمشاركة ، وفكرة المشاركة من الأفكار الأساسية في مذهب مارسل . ويقصد بها أولاً مفهومها في الأفلاطونية المحدثة بخاصة ، بمعنى أننا نشارك في الكون ، وأن بضعة منا تضم بضعة من الكون . وفي هذا يقول : « الايمان هو شعور المرء أنه بمعنى ما في داخل الألوهية » .

ولهذا يتهي مارسل إلى دمج المعرفة النظرية ( أو العلمية ) بأنها غير كافية سواء من ناحية الموضوع لأنها تقضي في الواقع على الظواهر التي تريد إدراجها ؛ ومن ناحية الذات ، لأنها تقضي على أشكال التوكيد المتميزة من المعرفة . ( اليقين الوارد عن الايمان ) .

وميزة الايمان في نظر مارسل هو أنه يجعل المرء يترك أنه ليس مجرداً محضاً ، وليس العالم مجرداً محضاً ؛ بل يجتمع الموضوع والذات في فعل الايمان ، كما يجتمع العلو والبطون ( المحايثة ) .

ويوغل مارسل في هذا الاتجاه في القسم الثاني من اليوميات ، فيؤكد أن المشكلة الميتافيزيقية هي في « أن يستعيد - بواسطة الفكر ووراء الفكر - ( اليقين التام ) عصمة

ويتهي بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ ؛ والثاني يبدأ بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٥ ، ويتهي بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ . ولهذا كانت فقرات القسم الأول أطول بكثير من فقرات القسم الثاني .

ومارسل يصرح في مقدمة « اليوميات الميتافيزيقية » بأنه لم يقصد أساساً إلى نشره ، بل كان في نظره مجرد تحضير لكتاب دوجماتيقي فيه يعرض الأقوال الجوهرية التي انتهى إليها في تفكيره ، مترابطة قدر المستطاع . لكنه كلما تقدم في « اليوميات » تبدى له نفوره من طريقة العرض اللوجماتيقي ، وما في الموضوعات التي دار حولها تفكيره من طابع احتمالي اقتراضي . لهذا تخلى عن فكرة العرض المذهبي اللوجماتيقي ، وأثر هذه الطريقة : أعني الخواطر والشنرات ، ما دامت لا تقبل التنظيم المعماري . ورأى في ذلك ما يشير القارئ إلى أن يسلك معه نفس السبيل الذي سلكه بما فيه من عقبات والتواءات .

والقسم الأول متميز تماماً من القسم الثاني . فالأول موجه ضد الديالكتيك ، أو بالأحرى ضد كل مذهب يدعي تقويم الواقع بوسائل ديالكتيكية ؛ ومن هنا اتسم هذا القسم بالجناف والإحكام المنطقي . أما القسم الثاني فمختلف تماماً : إذ هو يعنى بالأمور التي يغفلها المذهب العقلي ، بدعوى أنها نقلت من قبضة العقل ، مثل الاحساس ، اتحاد النفس بالبدن ، وقائع النفس فوق السوية .

وجبريل مارسل يبدأ من هيجل ليقضي على هيجل ، شأنه شأن كيركجور الذي كان له في مارسل تأثير بالغ . فهو يبدأ من نقد هيجل لفكرة المباشر كما يظهر ذلك النقد في مستهل كتاب « ظاهريات الروح » ، ويأخذ عنه فكرة العلم المطلق التي تسود مذهب . لكنه سرعان ما يعدل عن هيجل إلى تلاميذه الانجليز ، وخصوصاً براندلي وبوزنكيك ، غير أنه يتهي أيضاً إلى رفض تفسيرهم .

ذلك أن مارسل يتهي إلى الأخذ بفكرة المباشر ، ويوحد بين المباشر والمطلق ، ويصل إلى نوع من التجريبية ، لكنها تجريبية صوفية باطنة ، تنبع من التجربة الحية المباشرة ، وتستمد قوتها من المعاناة . ومن هنا يؤكد أولية الوجود ، ويأخذ في تحليل الأحوال العينية للموجود .

يبدأ مارسل فينقد التفاؤل المنطقي عند الهيجليين المحدثين الذين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يؤلفوا بين المطلق

بالقدر الذي به انتباهي يتعلق به أولاً ، أي قبل إمكان تحديد موضوع معين . . . إن لم أستجس جسمي أكثر من أن أكون أي شيء آخر - إلا لأنني لكي أكون أي شيء آخر ، فإن علي أولاً أن أستخدم جسمي » ( ص ٢٣٦ ) .

ويتناول مارسل فكرة الجسم بطريقة أدق في « من الإياه إلى النداء » فيقول : « إن الهوية المزعومة بين الأنا وجسمي لا يمكن التفكير فيها ، لأنها تفترض إلغاء الأنا والتوكيد المادي أن جسمي يوجد وحده ؛ لكن خاصية جسمي هي ألا يوجد وحده ، وألا يستطيع أن يوجد وحده . وإن يتجسد معناه الظهور كجسم ، كهذا الجسم ، دون إمكان الهوية معه ، ودون التميز منه في نفس الوقت - والهوية والتميز عمليات متضاربة السواحدة لـلاخرى لكن لا يمكن أن تتم في مجال الموضوعات » ( ص ٣١ ) .

### الملك

ومن المعاني التي يرددها جبريل مارسل كثيراً التقابل بين « الوجود والملك » ، وقد كرس له كتاباً بنفس العنوان يتألف من قسمين : الأول يضم « يوميات ميتافيزيقية » ( ص ٧ - ص ٢٢٢ ) وتمتد من ١٠ نوفمبر سنة ١٩٢٨ حتى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ؛ وتتلوها « مخطوط لظواهريات الملك » والقسم الثاني يضم : ( ١ ) محاضرة عن « الإلهاد المعاصر » ( ٢ ) وأخرى عن « الايمان » ؛ و ( ٣ ) بحثاً عن « التقوى في نظر بيتر فوست » .

وقد بدأ يعبر عن هذا المعنى في « اليوميات الميتافيزيقية » الأولى ( بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٩٢٣ ) فقال : « الواقع أن كل شيء يرجع إلى التمييز بين ما للانسان وما عليه الانسان : ملكه ووجوده . غير أنه من الصعب جداً التعبير عن هذا التمييز على شكل تصوري ، ومع ذلك فينبغي أن يكون هذا ممكناً . إن ما يملكه الانسان يمثل نوعاً من التخارج بالنسبة إلى الذات ، أي أنه شيء خارجها . وهذا التخارج ليس مع ذلك مطلقاً . ومن حيث المبدأ ما يملكه الانسان هو أشياء ( أو ما يمكن أن يشبه بالأشياء ، وبالقدر الدقيق الذي يمكن به هذا التشبيه ) . ولا أستطيع أن أملك ، بالمعنى الدقيق للفظ ، غير الشيء الذي يملك وجوداً مستقلاً عني إلى حد ما . وبعبارة أخرى ، مالي يضاف إلى ذاتي ؛ وأكثر من هذا ، كوني أملك الشيء يضاف إلى خصائص وصفات أخرى ، إلخ ، تنتسب إلى الشيء الذي أملكه . إني لا أملك

جديدة ومباشراً جديداً » ( ص ١٣١ ) أي أن حلم الميتافيزيقي هو أن يسترد الفردوس الذي فقده بسبب الفكر النظري .

ولكنه يفهم المشاركة بعد ذلك بمعنى الشعور بالاعتماد التام بإزاء العلو الإلهي منظوراً إليه على أنه قوة مستقلة تماماً وحرية ، ويقول عن المشاركة إنها « تلك العلاقة بين الحرية الإنسانية والحرية الإلهية التي هي السر المركزي في الديانة المسيحية » ( « اليوميات » ص ٤٥ ) . فلم يعد يفهمها بالمعنى الأفلاطوني ، أي إعطاء طبيعة واحدة لجملة أفراد ، بل على أنها العلاقة الروحية بين حريتين توافق كل منهما الأخرى وتتحدان معاً مع احترام شخصية كل منهما .

ونظراً إلى الطابع « المشتت » لليوميات ، فإننا لا نملك إلا التحدث عن بعض المعاني الأساسية التي تعرض لها في هذه اليوميات الأولى .

الجسم : إن فكرة الجسم ليست واضحة متواطئة ( ذات معنى واحد ) . ذلك أن فكرة الجسم تختلف وفقاً لاختلاف فكرة النفس . وتحديد الجسم بأنه مركب آلي هو لون من ألوان تحقق النفس . وليس معنى هذا طبعاً أن النفس تولد الجسم ، لأن النفس لا تصبح عارفة إلا حين تفكر في أن المعروف يوجد قبل فعل المعرفة . ومع ذلك فإن طريقة تصور العلاقات بين النفس والجسم تتوقف على الطريقة التي بها يدرك الجسم ، وبطريق غير مباشر على الحركة التي بها تتحقق النفس في العلم ، أي أن فكرة النفس عن العلاقة بين الروح والجسم ينبغي أن تتوقف على الحركة التي بها تتكون فكرة الجسم . وهذا التكون يتوقف بدوره على طريقة تركيب العالم الخارجي .

ويرى مارسل أنه لا بد من الابتداء من هذا المبدأ الذي يقرر أن النفس لا تتحدد ولا يمكن التفكير فيها خارج علاقتها بالعالم الخارجي .

ولكن هذا يفرض به إلى نتيجة سلبية وهي أنه لا يمكن تحديد العلاقات بين النفس والجسم تحديداً واضحاً موضوعياً .

لكنه يتساءل : ما معنى قولني : أنا جسمي ؟ إن جسمي ليس إلا من حيث أنه مشعور به . وإذا كنت جسمي ، فلذلك من حيث أني موجود حاس ؛ وبيدولي من الممكن تحديد الأمر على نحو أدق وأن نقول إنني جسمي

## الأنات والانت :

ويبحث مارسل في الكوجيتو الديكارتي ليتين هل ينتهي إلى الهو وحدية أو إلى إثبات الغير . ويلاحظ أولاً ما فيه من غموض : « فحين أفكر فاني أتراجع بالنسبة إلى نفسي ، وأبحث نفسي كغير ، ثم أنبتق بعد ذلك كموجود . ومثل هذا التصور يتعارض جذرياً مع المثالية التي تحدد الأنا بواسطة الشعور بالذات . فهل من غير المعقول أن يقال إن الأنا ، من حيث هو شعور بالذات ، ليس إلا تحت موجود ؟ إنه لا يوجد إلا من حيث انه يعامل ذاته بوصفه من أجل الغير ، وبالنسبة إلى الغير ؛ وتبعاً لذلك فبالقدر الذي به يقر بأنه ينجو ويفلت من ذاته » ( « الوجود والملك » ص ١٥١ ) .

ذلك أننا لو بدأنا بتقرير أن ماهيتي هي أن أكون شعوراً بذاتي ، فليس ثم وسيلة للخروج من هذه الذاتية ، والاقرار بوجود الغير .

ولكن لي الحق في أن أقر بوجود الآخرين ، وأكثر من هذا أستطيع أن أؤكد أن الغير ، من حيث هم غير ، هم وحدهم الذين يحق لنا أن نقرر وجودهم ، ولا أملك إدراك نفسي كموجود إلا من حيث اني أدرك نفسي أنني لست الآخرين ، أي أي غيرهم . « وأذهب إلى أبعد من هذا فأقول إن من ماهية الغير أن يوجد ، ولا أستطيع أن أدركه بوصفه غيراً دون أن أفكر فيه بوصفه موجوداً ، والشك لا ينبثق إلا بقدر ما تضعف هذه الغيرية في ذهني » ( الموضوع نفسه ) .

« لكن هذا الغير ، من حيث هو غير ، لا يوجد بالنسبة إليّ إلا من حيث كوني مفتوحاً له ( أي من حيث انه أنت ) ، ولكنني لست مفتوحاً له إلا بمقدار ما أكف عن أن أشكل مع نفسي نوعاً من الدائرة في داخلها أقيم الغير على نحو ما ، أو فكرته ؛ لأنه بالنسبة إلى هذه الدائرة يصبح الغير فكرة الغير . وفكرة الغير ليست الغير من حيث هو غير ، بل الغير من حيث انه منسوب إلى الأنا » ( الكتاب المذكور ، ص ١٥٥ ) .

ويؤكد مارسل هذا المعنى مراراً ، وهو « أنني أؤكد نفسي كشخص بالقدر الذي به أعتقد فعلاً وجود الغير ، وبالقدر الذي به هذا الاعتقاد ينحو إلى تشكيل سلوكي » ( « الإنسان المسافر » ص ٢٧ ) .

وهذا يقوم على أساس أن الوجود هو علاقة ، أو حضور معاً خلاق يجمع بين الأنا والانت . وينجلي هذا المعنى

إلا ما أستطيع التصرف فيه على نحو ما وفي صور معلومة ، أي بالقدر الذي به أعّد قوة ، أو موجوداً مزوداً بقوى . وليس ثم انتقال ممكن إلا لما هو مملوك . ولو تصادف وأمكن نقل قوة ، فينبغي أن نستج من هذا أن هذه القوة هي بالنسبة إلى ذات أكثر جوهرية - كقلمي ( القلم الذي لي ) بالنسبة إلى هذه القوة . فإذا كانت مقولة الوجود صادقة حقاً ، فذلك لأن في الواقع شيئاً لا يمكن نقله .

وابتداءً من هذه الفكرة يأخذ مارسل في عرض آرائه في البحث الذي ألقاه في نوفمبر سنة ١٩٣٣ في الجمعية الفلسفية بليون بعنوان : « مخطط لظاهريات الملك » . فيلاحظ أولاً أن الفلاسفة أبدوا دائماً نوعاً من التعالي على الملك ، بوصفه فكرة دنسة ، لا تقبل التحديد . وهذا الغموض في معنى الملك ينبغي إبرازه أولاً . حين نحلل معنى avoir ( أملك ) نجد له معاني متفاوتة في الشدة : بعضها قوي دقيق ، والآخر ضئيل هزيل مثل : عندي صداق ، لي حاجة ، الخ . أما النوع الأول فيمكن أيضاً أن نميز فيه شكلين كما يتبين من هذين المثالين : عندي دراجة ، لدي أفكار وآراء في هذا الموضوع ولكن معنى الملك لا يختلف بينهما من حيث مبدأ الملك .

بيد أن الملك لا يقوم إلا حيث يوجد تعارض بين الظاهر والباطن . وهذا ينطبق تماماً على الملك - التضمن : فمثلاً حين أقول : « لهذا الجسم هذه الخاصية » ، فإن هذه الخاصية تبدو أنها كائنة في باطن هذا الجسم . وحين أقول : لدي سر ، فهنا يبدو البطون أكبر من الظهور . ومع ذلك فإن المميز الرئيسي للملك هو إمكان الظهور والمرض .

ويتأدى من هذا إلى بيان أن الملك يقتضي فكرة الإشارة إلى الغير من حيث هو غير . « فالملك لا يقوم إذن في سجل البطون المحض فقط ، وإلا لما كان له معنى ، بل وأيضاً في سجل : الظهور والبطون فيه لا يمكن الفصل بينهما كما لا يمكن الفصل بين النعمة الحادة والنعمة البطيئة . وأعتقد أن المهم هنا هو التوتر نفسه بين الواحد والآخر » . ( « الوجود والملك » ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ) .

والنموذج الأصلي للملك هو الجسم . « إن الموضوع الأول ، الموضوع - النموذج الذي أوجد بين ذاتي وبينه ، وهو مع ذلك يتد عني ، هو جسمي ، ويلوح أننا هنا بإزاء أعرق ما في الملك » ( الكتاب المذكور ، ص ٢٣٧ ) .

ومن جوهر الفعل أيضاً أنه الفاعل . « فحين أقول : إن فعلي يلزمي ، فمعنى هذا ، فيما يبدو لي ، هو : إن خاصية فعلي هي أن يكون من الممكن فيما بعد أن أطلب به لنفسي ؛ وكأني وقعت مقدماً على إقرار به : واليوم الذي أواجه فيه بقلي ، إما بواسطة الغير ، أو بواسطة ذاتي - عليّ أن أقول : نعم ، أنا الذي فعلت ذلك ، وأكثر من هذا ، أقر مقلماً بأنني إذا غلصت فسأكون مرتكباً لإثم الجحود والتكران . ولنضرب على هذا مثلاً دقيقاً . وأوضح الأمثلة وأبرزها هو من غير شك : الوعد ، من حيث إن الوعد فعل وليس مجرد الفاظ : إني أعد إنساناً بمساعدته إذا وقع في ضيق . ومعنى هذا أنني : أقر سلفاً بأنني إذا غلصت حين تحدث هذه الظروف ، فإنني أنكر نفسي ، وأدخل في ذاتي ثنائية تقضي على حقيقتي الواقعة . . . . . وبعبارة أخرى ، لا يوجد فعل بغير مسؤولية ؛ ويتبع عن هذا مباشرة أن اللفظين : « فعل مجاني » هما متناقضان في الواقع . فالفعل المجاني ليس فعلاً ، أو هو ينكر نفسه من حيث هو فعل . وهذه الفكرة الزائفة ليست غير نتاج خلط ربما إرادي ، بين أمور لا يرد بعضها إلى بعض . ( ص ١٤٣ ) .

إني أتضامن مع الفعل الذي أفعله ، وكأني وفعلي من قبيلة واحدة . والفعل إذن يجيل إلى الفاعل ، إلى الشخصية .

والشخصية لا تدرك ابتداء من فكرة الفرد ، وكذلك لا تدرك ابتداء من التقابل بين الشخصية والشيء . وإنما تدرك أولاً في مقابلة « الناس » . والناس لا اسم لها ، ولا تتحدد بحدود ، ولا تدرك بمعالم واضحة . إنها ( أو إنه ) نوع من الشبح ، يؤكد نفسه مع ذلك على أنه أمر مطلق ، وفي نفس الوقت هو مضاد ما هو مطلق . إن الناس فكرة ساقطة ، فكرة زائفة ، ظل لفكرة . لكن هذا الشبح مائل في أفق شعوري ، ويشيع فيه الظلام والضباب ؛ ويحيط بي ، ويكاد أن يحدق بي من كل ناحية . بل إن التفكير يدلني على أن « الناس » ليست فقط حولي بل هي أيضاً تنفذ في باطني ، وتعبير عن نفسها في ذاتي ، وأقضي زماني في عكس ظلها وأشياحها . وأفكاري في معظم الأحوال ليست غير ترديد « للناس » بواسطة « أنا » لا يدري أنه يتسخ هذا الناس .

وفي مقابل هذا الناس غير المدرك ، غير ذي المسؤولية ، ما هي خاصة الشخصية ؟

في الحب : إذ يقوم على العلاقة بين الأنا والأنثى ؛ وهو الخالق لهذه العلاقة ولهذا هو تبادل خلّاق . « إن حب موجود معناه أن نتظر منه شيئاً غير قابل للتحديد ولا قابل للحزر ؛ وهو في الوقت نفسه إعطاء الوسيلة للاستجابة لهذا التوقع . نعم ، وإن بدا هذا تناقضاً . إن التوقع نوع من الاعطاء ؛ والعكس أيضاً صحيح : فعدم توقع شيء بعد معناه العمل على فرض العقم على موجود لا يتوقع منه بعد شيء ، وبالتالي حرمانه مقدماً من شيء يمكن أن يخلفه ويتكره » ( « الانسان المسافر » ص ٦٦ وما يتلوها ) .

### الفعل والشخص (١) :

حين نحلل الفعل نجد أنه يتبلى أولاً في مقابل الرغبة أو القول ، فيقال نريد أفعالا ، لا أقوالاً ؛ متى يتقل من الرغبة إلى الفعل ؛ الخ . وهذا يدل على أن الرغبة تقابل الفعل من حيث أن الرغبة غير محددة وعاجزة ؛ ورجل الأمان لا يقدر على التصميم ، ويظل موزع الأهواء ، هيباً ، متردداً ، يعجز عن العزم على الواقع ، وإحداث تغيير فيه . وكذلك صاحب الأقوال : ذلك أن القول لا يلتصق بالواقع ، بل يمر بجواره أو تحته ، ولا يغير في الأمور شيئاً .

ومعنى هذا أن من جوهر الفعل أن يحدث تغييراً . تغييراً في ماذا ؟ في موقف يتطبق عليه ولا يستطيع الفاعل أحياناً أن يتظمه بنظرته ، ولكن عليه أن يلزمه على الأقل جزئياً . لكن لا يكفي أن يكون ثم تغيير حتى نقول إن ثم فعلاً .

والفعل في جوهره هو هذا أو ذاك ، وله معالمة . « وعن السؤال عنه ينبغي أن يكون من الممكن الاجابة بنعم أو لا . والانتقال إلى الفعل هو تحطى العتبة التي تفصل المنطقة التي في هذه الناحية من النعم واللا - عن المنطقة التي فيها انفصالان ويتقابلان . فمثلاً : يعنى شخص مريض بكرهه ؛ وموت المريض ؛ فيطرح السؤال : هل تمنيت موت هذا المريض ؟ ربما بل لاشك في أنه ينبغي أن يجاب بنعم ولا في وقت واحد . ومعنى هذا أنه لا يمكن الجواب ، وأن السؤال : هل صيبت سماً ؟ يوجد له جواب واحد معين لا يجتمل تأويلاً . ( الكتاب المذكور ، ص ١٤١ - ١٤٢ ) .

(١) « من الإباء إلى النداء » ص ١٣٩ - ١٥٧ . باريس ، سنة ١٩٤٠ .



والشخصية لا يمكن أن تكون فضيلة ولا ترقية للفرد .

### الكرامة الإنسانية

السؤال عن الكرامة الإنسانية في هذا العصر الذي سيطرت فيه الصناعة الفنية سؤال ملتهب يثير القلق ويفتح آفاقاً للخلاف لا يجدها أبعد الأنتظار .

وقد اتخذ منه جبريل مارسل عنواناً لآخر كتبه الذي ظهر في الثالث الثاني من العام الماضي ، ويضم محاضرات ألقاها في جامعة هارفارد ( أمريكا ) في أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٦١ .

ودفعه إلى هذا التسؤل عن الكرامة الإنسانية أن الأحداث العصرية التي تشهدها في العالم اليوم ونحن فزعون قد جعلت السؤال عن الكرامة الإنسانية أمراً يشغل بال الضمير الانساني الحاضر باستمرار . فماذا سيصير إليه أمر الكرامة الإنسانية في هذا العالم السائر في طريق التصنيع المستمر والآلية المتزايدة ؟ صحيح أن كلمات مثل « الكرامة الإنسانية » ، و « الشخص الانساني » الخ لم يتفوه بها الناس في عصر من العصور قدر ما يفعلون في عصرنا هذا : لكن من الوهم الغريب أن تستخلص من هذا الترداد أية نتيجة إيجابية فيما يتعلق بالموقف الفعلي الذي تدل عليه هذه الكلمات . كيف لا ، ونحن نشهد - هكذا يقول مارسل - انحساراً مستمراً بحيث يبدو أن ازدياد لوك هذه العبارات إنما هو بمثابة تعويض في الحياة عن رجائنا في تقدير الانسان . والمشاهد حقاً وفعلاً هو ازدياد الميل إلى النظر إلى كل نوع من الخدمة على أنه لا يتفق مع ما ينبغي أن يسمى بنوع من الادعاء الأساسي : هو ادعاء مفهوم معين للكرامة الإنسانية . والبحث ينبغي أن يتوجه إلى الفحص عن حقيقة الروابط التي تقوم بين هذا الادعاء وبين ما يستحق فعلاً أن يسمى كرامة إنسانية .

ومن المسلم به طبعاً أنه لا نزاع في أن استغلال السيد للخدم ( بالمعنى الشامل لهذا التعبير ) كما تجلى في خلال القرون يبدو لنا اليوم أمراً غير مقبول بأي حال من الأحوال . لكن ليس معنى هذا أن « الخدمة » يجب أن ينظر إليها على أنها في ذاتها أمر مهين . وقد نشأ عن عدم تقدير هذه الحقيقة اضطراب في النفوس ذو أثر هدام . فقد استنبط البعض من ذلك أن من حق الإنسان أن يصبح نوعاً من الجزيرة ذات الاستقلال الذاتي ، لكن لا من نوع ذلك الاستقلال الذي وضعه كنت في قلب الأخلاق التي دعا إليها ، فكلمة

خاصة الشخصية الأولى هي المواجهة . ومن هنا كانت الشجاعة أولى فضائل الشخصية . ولهذا نجد الشخص الجبان في الأمور العقلية يحتمي وراء مثل هذه العبارات : يقال ، يشيع ، شاع بين الناس ، الناس يقولون ، هناك إشاعة تقول ، سمعنا كذا الخ . وهذا احتفاء وراء « الناس » وتجنب للمواجهة ، وبالتالي فقدان للشخصية .

ولتحطيم هذه الدرغ التي يحتمي وراءها الجبان ، نوجه إليه السؤال : من الذي يقول ، من هو الذي يشيع ، ومن هم الناس الذين يقولون ، سمعت من ؟ الخ . . . وهكذا تبدى الشخصية هنا على أنها إنكار إيجابي للناس ؛ إذ بهذا أرفض الإقرار « بالناس » ، وأريد تحديد المسؤول عن القول أو الزعم ؛ أي أنني أرفض أن أنسب إلى « الناس » أي قوام إيجابي .

لكن لنحلل معنى « المواجهة » . المواجهة أولاً هي التبصر envisager ، تبصر للموقف المائل أولاً ، وأقصد بالتبصر إدراكه على حقيقته لاتخاذ موقف منه ، بدلاً من التسليم أمامه ؛ والتسؤل عن حقيقة الأمر فيه ، أي أن التبصر فيه بداية التوفر من أجل الفعل .

وهذا التبصر بدوره يقتضي نوعاً من التقدير والتقويم évaluer : أي تقدير الموقف .

وحين أشرع في اتخاذ موقف فلني آخذ على عاتقي assume مسؤولية يازاته . « وهنا لحظة ليست أقل جوهرية من اللحظات السابقة . فخاصة الشخصية هي ليس فقط التبصر ، والتقويم والمواجهة ؛ بل وأيضاً الأخذ على العاتق . وربما هنا يتحقق أتم التحام بين ما قلته عن الفعل وما نلاحظه الآن فيما يتعلق بالشخصية . لقد قلنا إن الفعل شيء يؤخذ على العاتق ؛ أعني أن الشخصية ينبغي أن تعرف نفسها فيه وتقربه ؛ لكنه ليس هو نفسه فعلاً إلا بما يجعل هذا المسلك التالي للشخص مسلكاً ممكناً ؛ أعني أن الفعل يقوم بين الشخصية وبين ذاتها . وفي الفعل تتحقق الرابطة التي بها ترتبط الشخصية بنفسها » ( ص ١٥٠ - ص ١٥١ ) .

ومن هنا نستطيع أن نقرر العلاقة أو الفرق بين الفرد والشخصية ، فنقول « إن الفرد هو « الناس » في حالة انقسام وتقطيع . الفرد ليس إلا عنصراً إحصائياً - ولا يوجد إحصاء ممكن إلا على مستوى « الناس » . وأقول أيضاً إن الفرد بغير نظرة ، ولا وجه . إنه عينة ، وحبّة برادة » . ( ص ١٥١ ) .



نفسه بقدر ما يزيد من تقديره لكفاءة الآلة ودقتها وكما لها ، لكن مثل هذا التصور من شأنه أن يأتي بتأثير أخلاقية ذات أهمية خطيرة ؛ لأن مثل هذا التقدير - أو التحقير - لشأن نفسه يفضي إلى التفي الجذري لسمو الروح على الجسم .

وللنظر في هذه المسألة ينبغي أولاً أن نقرر حقيقة - هكذا يقول مارسل - وهي أنه رغم ادعاء الفرد لوهم الاكتفاء بنفسه والاستقلال بذاته فلا شك أنه لم يعد من الممكن التمسك بالفكرة الساذجة التي تقول : « المجتمع » هو « المجموع الحسابي للأفراد » ، وإنما المؤكد هو أن المجتمع أشبه بما تسميه « سيمون في » باسم الحيوان الكبير ، وهو تعبير يظهر أن له أصلاً أفلاطونياً . ومعنى هذا أن كل واحد منا ، مهما كانت رغبته في أن يفعل ما يشاء ، مندمج في نوع من الكل لا يمكن أن تؤكد أشد النظرات تفلؤلاً أن بينه وبينه إعجاباً أو خضوعاً وتسليماً مطلقين ، ولا يكفي أن يقال هنا إن وقوف البيروقراطية بين الفرد والدولة يلعب هنا الدور الفظيخ الذي يوجد التنافر ، لأن الأمر هو في الواقع أمر « استبدال » وإتابة ، إذ الدولة لم تعد غير « استرال » من المكاتب قوتها غير المسماة تقل شيئاً فشيئاً عن درجة المسؤولية ، ويمكن أن تضع كل فرد منا في أي وقت موضع يائس .

ولا شك في العلاقة الوثيقة بين زيادة الآلية وزيادة البيروقراطية ؛ كما لا شك أيضاً في زيادة المركزية تبعاً لذلك ، فالتكنوقراطية ( سيادة التكنيك ) والمركزية أمران متلازمان : سواء في ناحية الإدارة ، وفي ناحية السكان . فزيادة التجمع العمراني من نتائج التكنوقراطية ؛ وهذا من شأنه الحد من نمو الفردية . « لكن هذا اللفظ : « نمو » لا يتخذ معناه الحقيقي إلا بشرط وضع تكامل الموجود الإنساني كقيمة مركزية - وهذا التكامل هو المهتم مباشرة اليوم . . . ومن الممكن أن نبين أن التكامل والكرامة حدان وإن لم يكونا شيئاً واحداً فإنهما مرتبطان ارتباطاً لا انفصام له » ( ص ٢٠٩ ) .

وفكرة « التكامل » من الأفكار الجديدة بمزيد من الإيضاح . ونحن نقول عن شخص أنه متكامل فإننا نقصد في العادة أنه أمين ، نزيه ، لا يخضع لاغواء ، والإنسان المتكامل ، كما كان الأوائل يقولون ، هو المالك لنفسه تماماً . ونحن نعلم مختلف ألوان فقدان الذات لذاتها : في تعاطي الكحوليات والمخدرات وفي السرعة الشديدة التي هي نوع من المختر الذي يستخدم للهروب وفقدان الذات لذاتها ، وكل

« الاستقلال الذاتي » هنا كلمة مبهمه ، لأنها لا تدل على نوع من التقنين يضعه المرء لنفسه ، بل على رغبة ثابتة في فعل ما يحلو له ويرضي أهواءه وميوله ، ظلماً لم يعرضه ذلك لعقوبات القانون . وهكذا يصبح الاستمتاع الذاتي نوعاً من المطلق العملي !

ومن المؤكد من ناحية أخرى أن التجهز الآلي ( التزود بالصناعة الفنية ) أمر لا غنى عنه أبداً للإنسان . وهنا يقتبس مارسل عبارات للكاتب الروماني يوي ( أصله من رومانيا ولكنه يعيش في فرنسا منذ عهد بعيد ) سيوران ، لها أهميتها البالغة في هذا المجال ، قال سيوران ( في مقال له بـ « المجلة الفرنسية الجديدة » ، عدد يوليو سنة ١٩٦١ ) : « إن المدنية تعلمنا كيف نتعلق بالأشياء ، مع ان واجبها أن تلتفتنا فن التخلي عن الأشياء ، لأنه لن توجد حرية ولا « حياة حقيقية » بدون تعلم التخلي وعدم الامتلاك . إني أستولي على شيء ، وأحسب نفسي سيداً له ، والواقع أنني عبد له ، كما أنني عبد أيضاً للآلة التي أصنعها وأديرها » .

ويعقب مارسل على هذه العبارة قائلاً إنه يبدو أن سيوران أخطأ في إغفاله فارقاً ينبغي تقريره ، وهو أنني بالقدر الذي به أصنع الآلة ، أو حتى أسهم في تحسينها ، لا يبدو لي من الصحيح أن يقال إنني عبد لها . وعلى كل حال فأنا أقل عبودية بكثير من ذلك الذي يستعملها فقط . ذلك أن ثم قدراً من الحرية هناك حيث يوجد إبداع وخلق ، حتى في أدنى المستويات - وبعد تقرير هذا الفارق يوافق مارسل على التشخيص الذي وضعه سيوران ، لأن الغالبية العظمى من الناس يستعملون الآلات ، ولا يتكرونها . وباستعمالهم إياها يستعبدون أنفسهم لها وإن لم يلحظوا ذلك ؛ وتزداد هذه العبودية بقدر ما يؤثر الإعلان ، والإعلان يرتبط ارتباطاً عضوياً بالآلات . فالذين يصنعون أجهزة تلفزيون أو تلاجيات لا مناص لهم من أن يبحثوا عن زبائن لشراؤها ، لكن ينبغي أن نتساءل ماذا عسى أن يكون أثر ذلك ليس فقط في سلوك الكائنات ، بل وأيضاً في الطريقة التي يتصورون بها أنفسهم ويقدرونها .

وهذه ناحية قد ألقى عليها الفيلسوف الألماني « جوتتر أندرز » ضوءاً ياهراً في كتابه « الإنسان المتكامل » ، وخلاصة رأيه أن الإنسان يميل شيئاً فشيئاً إلى تصور نفسه بالنسبة إلى نتاج تكتيكة ، ومن الغريب أنه ينتهي من هذه المقارنة بين نفسه وبين الآلات التي يتكورها - ينتهي إلى الخط من قدر

أن على كل منا أن يجعل نفسه حراً ، وأن عليه ، قدر الامكان ، أن يستفيد من الظروف التركيبية التي تمكنه من الظفر بحريته ، إن الحرية غزو ، أي أن الحرية يُظفر بها ، وليست قائمة بطبيعتها ، الحرية غزو جزئي دائماً ، موقت دائماً ، موضوع تنازع دائماً . إن الحرية بالاكساب ، بالسعي ، لا بالفطرة والطبيعة .

لكن أشد الناس حرية هو أكثرهم إخاء ، فالحرية لا يمكن أن تفهم إلا في نطق التآلف بين الذوات ، والإنسان المؤاخي هو المرتبط بجاره ، بأخيه في الإنسانية ، لكن بحيث لا يقيد هذا الارتباط ، بل يحمره أيضاً من نفسه . ذلك أن كلا منا يميل إلى أن يصبح سجين ذاته ، أسير مصالحه وأهوائه أو أسير مجرد أحكامه السابقة . « أما الانسان المؤاخي ، فعلى العكس من ذلك ، يثرى بكل ما يثرى منه أخوه ، بسبب ما بينه وبين أخيه من مشاركة » (ص ١٩٢) .

وحب المرء لآخواته هو في نفس الوقت رجاء فيهم ، فالإخاء والرجاء متواكبان . إن الرجاء في الغير معناه أن يتجاوز المرء عما في سلوكهم من باعث في النفور أو اليأس . والتجربة تدل على أن هذا الرجاء الذي نحمله فيهم يسهم في تحويلهم ، لكن لو أننا حبسناهم بالفكر فيما يتبدى لنا أنه طبيعتهم فإننا نشارك في العمل على تحجيرهم في طبيعتهم ، وبالتالي في زيادة الحواجز بين الناس . إن الرجاء في الغير هو الصورة السليمة للرجاء ، لأن الرجاء يخلص الانسان الفرد من الختمية الباطنية التي تسيطر على ذاته .

ويقرر مارسل أن الذي دعاه إلى هذا الربط بين الحرية وبين الرجاء هو ما شاهدته من اتجاه عكسي تماماً عند رجل مثل سارتر يدعي أن الانسان « محكوم عليه بأن يكون حراً » ، وأن الحرية ليست اكتساباً وظرفاً ، بل هي نقص تام ، واقتدار جذري . وفي مثل هذا المنظور الوجودي يميل المرء إلى تحديد الانسان الحر بأنه الانسان الذي لا جذر له ، والذي يعرف أنه كذلك ويريد أن يكون كذلك . وهذا يترجم عينياً في الأدب الذي نشهده تحت أنظارنا بنوع من التأخي الغريب بين ما هو معقول وما هو صعلوكي ، وليس إلا باستعراض كل موارد البهلوانية الديالكتيكية التي يصعب الانخداع بها ، نقول ليس إلا بهذا يمكن الوصول إلى تحويل الفوضوية التي تتحدد بهذا التأخي إلى ماركسية مبتدعة ولكنها تحاول رغم كل شيء أن تلتقي القبول أو السماح بين الماركسية السنية . (ص ١٨٩) .

هذا من نوع « الاستلاب » ، أعني استلاب الذات لذاتها . وانهم بالنسبة إلى الإنسان أن يسترد هذا التكامل ، أي امتلاكه لنفسه تماماً . إن الإنسان الآن يسير نحو فقدان « ثقله الوجودي » شيئاً فشيئاً بتأثير ازدياد سلطان الآلات ، مما يؤدي إلى الإفراط في تقدير الوظيفية أعني تقدير الفرد من حيث الوظيفة التي يؤديها للكل ، فإن الإفراط في سلطان الآلات من شأنه أن يجعل معيار تقويم الفرد هو ما يستطيع تقديمه من إنتاج « لكن ما هو هذا الإنتاج إن لم يكن الاسهام في نوع من العمل الجماعي ؟ لكن كيف تتصور هذا العمل ؟ ... » . صحيح أن ثم من يجيب بأن من الواجب ... أن ترتفع إلى فكرة مجتمع مكرس كله للسعي إلى غايات معلومة ، لكن المشكلة تعود من جديد : فما هي هذه الغايات ؟ وما قيمتها ؟ ومن الذي يحكم على هذه القيمة ؟ وهل لكلمة القيمة في هذا السجل معنى بعد ؟ هنا ينبغي أن نتساءل : ما هي الصورة التي يستطيع الإنسان أن يقدمها عن نفسه حينما يعسى إلى تصور العالم على ضوء الصناعات الفنية التي قدر له ابتكارها ؟ الواقع أن هذه الصورة تزداد اضطراباً وتشوهاً وعموضاً وبعداً عن الرؤية الواضحة الناصعة .

لقد كان القول : « اعرف نفسك » يتركز على فكرة الهوية بين العارف وموضوع المعرفة ؛ ومبدأ الهوية بين المثالي والواقعي ، الذي افترضها هنا كان في نهاية التحليل هو الأساس لكل الفلسفة التقليدية من ديكرات حتى هيجل ، لكن عالم التكنيك قد بدد هذه الهوية ، وصارت الذات مشتتة أباديد في مواجهة الموضوعات ، ذلك لأن كثيراً من الآلات ، التي صممت على غرار الآلات التي نجحت في ميدان الطبيعة ، صارت تطبق على الذات نفسها ، على الشخص ؛ وهذا من شأنه أن يؤدي إلى النظر إلى الذات على أنها هي الأخرى موضوع من بين الموضوعات ، ويكفي لتبين آثارها أن نشاهد التحويلات النفسية التي تحدثها ؛ ومن الأمثلة العجيبة على ذلك ما يسمى باسم « مصل الحقيقة » ، وكان الحقيقة ، هذا المعنى الطاهر النبيل ، يمكن أن يكون له ارتباط بأي لون من ألوان إعطاء الحقنة !

ولا سبيل إلى مواجهة هذا التحدي التكنوقراطي إلا بتوكيد معنى الإنسانية في الانسان وتوكيد حريته ، ولكن هذا يقتضي تحديداً أدق ، فإن من الخطأ هكذا يقول مارسل (ص ١٩٠) أن نقول إن الانسان حر ، وليس أقل من هذا خطأ أن نقول مع روسو إن الانسان « بولد » حراً ، بل ينبغي أن نقول

## مراجع

- Cain, Seymour: Gabriel Marcel. London, 1963.
- Pietro Primi: Gabriel Marcel et la méthodologie de l'invérifiable Paris, 1953.
- Paul Ricoeur: Gabriel Marcel et Karl Jaspers, Paris 1946
- Roger Trofontaines: De l'Existence à l'être, 2 Vols. Paris, 1953.

## مارسيل جيرو

## Martial Guerot

مؤرخ فلسفة فرنسي.

ولد في ١٨٩١/١٢/١٥ في مدينة الهافر Le Havre (ميناء في شمالي فرنسا)، وتوفي في باريس في ١٣ أغسطس سنة ١٩٧٦.

عين أستاذاً لتاريخ الفلسفة في جامعة استراسبورج في سنة ١٩٢٩، ثم أستاذاً في السوربون في سنة ١٩٤٥، وأخيراً أستاذاً في الكوليج دي فرانس من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٦٢.

وله دراسات ممتازة عن فشته، وسالمون ميمون، وليتس، ومالبرانش، وديكارت، وباركلي، واسبينوزا.

ومن رأيه أن الفلسفات ليست مجرد سلاسل من الآراء؛ بل تقوم في الإحكام وفي البنية structure العضوية للأسباب التي تسوقها. إن مهمة مؤرخ الفلسفة ليس أن «يقصّ قصة» الفلسفات، ولا أن يحكي آراءه الشخصية بمناسبة ما يؤرخ له من فلسفات؛ وإنما مهمته إبراز البنية العضوية في كل فلسفة يتناولها بالدرس.

ومن أبرز مؤلفاته:

- «تطور رنية مذهب العلم عند فشته»، سنة ١٩٣٠.
- «الفلسفة المتعالية عند سالمون ميمون»، سنة ١٩٣٠
- «الديناميكا والبيافيزيقا عند ليتس»، سنة ١٩٣٤
- «ديكارت وفقاً لنظام العقول»، سنة ١٩٥٣
- «مالبرانش»، سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٩

كذلك يفرق مارسل بين مقتضيات الحرية ومقتضيات المساواة، ويشير بهذه المناسبة إلى كتاب مثير «لكونت لدين» عنوانه: «الحرية أو المساواة تحدي عصرنا الحاضر» (لندن سنة ١٩٥٢)، ومن رأي مارسل أن المساواة هي بطبيعتها مطلوبة، إنها تتركز على الأناثة: «أنا مساو لك، مساو له، أو مساو لهم»، ولو بحثنا في أعماقها لوجدنا الشعور بالذحل دافعاً من دوافعها الخفية العميقة. أما الاخاء فعلى العكس من ذلك هو بطبعه غيري، لا أناني «أنت أخي، وأنا أقر بأنك أخي، وأحييك كأخ لي». إن الاخاء يفترض وجود الفروق والاختلافات، ويعين الأقدار بهذه الفروق والاختلافات، كما أنه يفترض أيضاً أن الإشعاع الصادر عن الخير ينعكس على النفس، ولسان حاله يقول: «ما دنا إخوة، فإن اللمعان المنبعث عن مواهبك وأعمالك وأعمالك يرتد عليّ أنا» وبعبارة أبسط: «أنا فخور بك» وهو أمر لن يكون له معنى إذا كنت أحافظ على تقريراتي مساوئك في كل شيء.

وخلاصة رأي مارسل أن الكرامة الانسانية ينبغي ان تنحصر من ناحية وفي داخل منظور: الأخاء، لا ناحية وداخل منظور: المساواة.

ومن الواضح أن النتائج التي ينتهي إليها جبريل مارسل في هذا الكتاب «الكرامة الانسانية» لا يلزم بها إلا الذين يبدأون من نفس المقدمات التي بنى عليها كل اتجاهه في داخل المذهب الوجودي. ولكن الكتاب، على كل حال، حافل بالأفكار الخصبه المثيرة، الداعية إلى التأمل في مشاكل هذا العصر، وفي معاني الوجود الانساني بالمعنى الأعمق لهذا التعبير.

## مؤلفاته

- Journal métaphysique, Paris, 1927, Gallinard.
- Etre et avoir. Paris, Aubier, 1953.
- Du Refus à l'invocation. Paris, Gallimard, 1940
- Homo Viator. Paris, 1954, Aubier
- Le Mystère de L'être, 2 vols. Paris, Aubier, 1951
- Les Hommes Contre L'humain. Paris, 1951
- L'homme Problématique. Paris, 1955.
- Présence et immortalité. Paris, 1959.

وكان يقضي معظم أوقاته في المتحف البريطاني، مما وفر له اطلاعاً واسعاً على كتب التاريخ والاقتصاد السياسي.

وكان ماركس أحد مؤسسي «الدولية الأولى» وهي تجمع للعمال في أنحاء العالم. وقد انشقت على نفسها في سنة ١٨٧٣ إلى فريقين باكونين الفوضوي، وفريق كارل ماركس، وهذا الأخير استمر حتى سنة ١٨٧٦.

وتوفي ماركس في ١٤ مارس سنة ١٨٨٣ في لندن، ودفن في مقبرة هايجيت هناك.

### الماركسية

ولماركس وانجلز مذهب اقتصادي سياسي أدبولوجي تعاوننا معاً على تأسيسه ونشأه، عرف بالماركسية. على أن من الملاحظ أن الصفة: «ماركسي»، والاسم: «ماركسية» لم يصدر عن ماركس نفسه وأصحابه، وإنما عن خصومه من أنصار باكونين لما أن دب النزاع بين الفريقين، وأدى هذا النزاع إلى طرد أنصار باكونين في مؤتمر «الدولية الأولى» الذي انعقد في لاهاي (هولندة في ٢-٩ سبتمبر سنة ١٨٧٢). وكان الخلاف بين الفريقين يدور حول أمور تتعلق بتنظيم الاشتراكية الدولية، وبدور الدولة في عملية التطور نحو الاشتراكية. فكان أنصار باكونين يرفضون تقوية اختصاصات المجلس العام للدولية الاشتراكية، كما كانوا يرفضون دكتاتورية البروليتاريا (طبقة الأجراء). ومنذ بدأ الخلاف كان باكونين في رسائله يسخر من «ماركس والماركسيين»، ويهاجم «دكتاتورية الشرفمة الماركسية المتسلطة على أنقاض الدولية la dictature de la coterie marxienne sur les ruines de l'Internationale»، على حد قوله. ووصف مؤتمر لاهاي بأنه «تزييف ماركسي». ورد عليه أنصار ماركس بنفس الطريقة ففتحوا خصومهم بتعت «الباكونيين». وهكذا كان اللفظ «ماركس» و«ماركسية» على لسان ويقلم أنصار باكونين منتظوماً على الذم.

ثم وقع انقسام آخر في الحركة الاشتراكية في فرنسا، وفي مؤتمر رانس سنة ١٨٨١، وبعد ذلك بعام في مؤتمر سانت اتيين St. Etienne بين «الإمكانيين» Possibilistes و«الماركسيين». فالأولون كانوا يقولون بإجراء إصلاحات تدريجية في سبيل تحقيق الاشتراكية في النهاية، وهاجموا «برنامج الحد الأدنى» Programme minimum الذي وضعه ماركس وزوج ابنته بول لافارج وج. جسو J. Guesoe.

- «اسينوزا»، سنة ١٩٦٧.  
- «الفلسفة وتاريخ الفلسفة».

### ماركس (كارل)

#### Karl Marx

مفكر اقتصادي وسياسي ألماني.

ولد في ٥ مايو سنة ١٨١٨ في مدينة ترير Trier (على نهر الموزل على حدود ألمانيا الغربية مع دوقية اللكسمبورج) وكان أبوه محامياً يهودياً.

وتعلم القانون في بون وبرلين، لكنه اهتم بدراسة فلسفة هيغل، وتأثر بمؤلفات فويرباخ.

وفي سنة ١٨٤٢ صار رئيساً لتحرير «صحيفة الراين» Rheinische Zeitung التي كانت تهاجم الحكومة الألمانية بعنف بالغ، مما حدا بالحكومة إلى إغلاقها.

وتزوج في سنة ١٨٤٣ وانتقل إلى باريس، حيث كتب «الحوليات الألمانية الفرنسية» (سنة ١٨٤٣) وأشرف على إصدار صحيفة «إلى الأمام» Vorwärts (سنة ١٨٤٤). لكنه طرد من باريس سنة ١٨٤٥ فاستقر في بروكسل.

وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين فريدرش انجلز (١٨٢٠/١١/٢٨ - ١٨٩٥/٨/٥) في سنة ١٨٤٤ في بروكسل. ومنذ ذلك التاريخ ارتبط اسمهما معاً. وعملاً معاً على إعادة تنظيم العصبة الشيوعية، التي اجتمعت في لندن سنة ١٨٤٧. وكتب انجلز المسودة الأولى لنشور بعنوان: «البيان الشيوعي»، فأعاد ماركس تحريره، ونشره في سنة ١٨٤٨. ونتيجة لذلك طرد من بروكسل، وعاد إلى ألمانيا حيث اشترك في الاضطرابات الياضية والاجتماعية التي ثارت آنذاك في منطقة الراين، فاضطر بعد ذلك إلى الإقامة في لندن ابتداءً من سنة ١٨٤٩، حيث عاش في ضنك شديد وفقر مدقع في أحد الأحياء البائسة في لندن، ولولا المساعدات المالية التي كان يرسلها إليه فريدرش انجلز وفريدينند لا سال مات هو وأسرته جوعاً. وكان الفقر الشديد هو السبب في موت ولديه وابنته، وفي سوء أحواله هو وزوجه وأولاده الصحية، لأنه لم يجد في أحيان كثيرة ما يدفعه للطبيب وشراء الدواء. ولم يقدر حتى على دفع نفقات دفن ابنته فرنسكا.

الديالكتيكية، وهو نظرة البروليتاريا في العالم، هو مزيج مهجن من المثالية الألمانية والوضعية الفرنسية والفكر الاقتصادي الانجليزي». وهاماختر كان أول مؤلف غير ماركسي عرض «النظام الفلسفي الاقتصادي للماركسية» في كتاب له بهذا العنوان ظهر في سنة ١٩٠٩.

وزعم F. J. Schmidt أن الماركسية هي «الفلسفة الوحيدة في العصر الحاضر التي لها تأثير قوي في الواقع العملي»، و«أنها فلسفة من الطراز الكبير... أعني فلسفة تحرك العالم» (في مقال بعنوان: «هيجل وماركس»، في «الحوليات البروسية» برقم ١٥١ (سنة ١٩١٣) ص ٤١٧).

وأخذ S. Hlander على نظرة ماركس تصورهما لأن ماركس «لا يوجد في نظره غير مشاكل بروليتارية»، ولهذا ينبغي علينا أن نسمي ماديته: «مادية بروليتارية» (ماركس وهيجل، ص ٣٨، سنة ١٩٤٢).

وقسم ريمون آرون R. Aron الماركسية إلى أمر مقدسة متباينة: فهناك ماركسية كتيبة (نسبة إلى فلسفة كنت الأخلاقية) حين تضع الاشتراكية هدفاً لها إيجاد ضمير أخلاقي تجاه الواقع الرأسمالي، وهناك ماركسية هيجلية تستند خصوصاً إلى «ظاهريات العقل» لهيجل؛ وهناك ماركسية ذات نزعة علمية مستمدة من كتاب «ضد دورنج» anti-Dühring. لكنها جميعاً تزعم أنها إنسانية التزعة.

وهنا نتوقف لتفصيل القول في هذه النزعة الإنسانية في الماركسية. ونبدأ فنقول إن الوصف بـ «إنسانية» مقصوده أن يكون في مقابل «الألوهية». فماركس يهدف إلى تحرير الإنسان من عبودية الألوهية. إذ أخذ بما قاله فويرباخ (لودفيك فويرباخ) من أن الدين يغير الإنسان، أي يقف عشرة دون تفتح قوى الإنسان تفتحاً كاملاً. ومن رأي ماركس أن حل المشاكل الإنسانية ليس ممكناً إلا على المستوى الإنساني المحض (كارل ماركس: «نحو نقد فلسفة القانون لهيجل»، مقلعة طبعة ديتس Dietz لمؤلفات ماركس، سنة ١٩٧٠، ج١ ص ٣٨٥).

والإنسان - هكذا يرى ماركس - لا يعرف طبيعته الحقيقية؛ إنه يبحث عنها، كما يبحث عن شكل للاتحاد مع العالم وبني الإنسان من خلال مجرى المنازعات التاريخية. والناس فيها بينهم متنازعون وكل فرد يعيش في تناقض مع ذاته. وعلى الرغم من أن الإنسان جزء من الطبيعة، فإنه

وعلى الرغم من أن نظريات كارل ماركس عرفت ونوقشت في روسيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فنادرًا ما نجد استعمال اللفظ «ماركسية» للدلالة على مذهبه وآرائه. ولا نجد اللفظ في كتابات بلخاتوف الذي صار ماركسياً بعد أن كان شعبياً، بل يقول مثلاً: «الجزء الفلسفي التاريخي من مذهب ماركس». وإنما بدأ يظهر استعمال اللفظ «ماركسية» في كتابات الروس خلال التسعينات من القرن الماضي (١٨٩٠ وما يليها).

ولما استعمل هذا اللفظ: «ماركسية» واتسع انتشاره في أوروبا في مستهل القرن العشرين اتخذ عدة مفهومات متباينة. فكان يعني في نظر علماء الاقتصاد «نظرية في القيمة». ووصف المؤرخ الانجليزي J. Dahlberg- Acton الجزء الأول من كتاب «رأس المال» بأنه «قرآن الاشتراكيين الجدد» وهو تشبيه سيرد مراراً فيها بعد، فمثلاً ينعت برترند رسل كتاب «رأس المال» بأنه «انجيل مشاعر الانتقام البروليتارية»، ويقول برترندشو بلهجته الساخرة: «الماركسية هي مثل المورمونية، والفاشية، والامبريالية وكل المذاهب التي تريد في الواقع أن تكون كاثوليكية (جامعة) النزعة».

ويلخص كارل ديبل K. Diehl الماركسية في ثلاث نظريات تتعلق بالتطور الاقتصادي، هي: نظرية التجميع، نظرية التئیس (جعل الناس بائسين)، ونظرية الأزمات. ويصف J. Ptenge الماركسية بأنها أكثر من نظرية في الاقتصاد. «فهي لم تقتصر على إعطاء صورة شاملة رائعة للحياة الاقتصادية في القرن التاسع عشر ولم تر فيها مجرد جريان أعرج بغير تطور للانتاج من خلال تبادل الاستهلاكات وتوزيعها، بل رأت فيها تغييراً شاملاً وانطلاقاً متعجراً لقوى عاصفة تجري نحو انهيار نهائي» ويرى H. Schack أن الماركسية تتميز بأربع علامات:

- ١ - فهي إيديولوجية البروليتاريا؛
- ٢ - وهي تقوم على التجميع Kollektivismus؛
- ٣ - وهي اشتراكية علمية؛
- ٤ - وهي اشتراكية ذات نزعة إنسانية.

ويرى الاقتصادي الكبير فرنر زومبرت W. Sombart أن «السر الحقيقي للماركسية إنما يقوم في التأليف بين الحياة الألمانية والحياة الغربية».

وعند هاماختر E. Hammacher «أن مذهب المادية

عليهم افتقارهم إلى الواقعية. فعل الرغم من أن الفلاسفة يسعون إلى حل التناقضات الإنسانية فانهم يقتعون بحلول عقلية خالصة. إنهم يسعون إلى تفسير العالم، بدلاً من أن يسعوا إلى تغييره. وهم يمشون على الهروب من الواقع باللجوء إلى التأمل في المطلق، بدلاً من أن يعملوا على تفسير العالم تفسيرات مختلفة، لكن المهم هو تغيير العالم» (أقوال حول فويرباخ «Thesen über Feuerbach» ص ١١. طبعة ديتس Diez سنة ١٩٦٩، ج ٣ ص ٧). كذلك يأخذ ماركس على الفلاسفة - وكذلك على الأديان - اعتقادها في كائنات مجردة، وفي المطلق، وفي حياة فوق حسية؛ وينعي عليهم أنهم لم ينفكوا بحاجات الإنسانية العينية، وأنهم لم يفكروا في تغيير العالم بالأفعال لا بالأقوال.

إن الإنسان الذي يريد ماركس هو ذلك الذي لا يقيم تحقيقه لذاته وكماله على أي شكل من المجردات، مثل الألوهية أو الإيديولوجيا، وإنما يحقق نفسه بالاتحاد مع العالم بواسطة العمل الخلاق والنشاط البناء والعلاقات الاجتماعية العينية للنسجة. ولهذا يقول إنه في المجتمع السليم يجب أن يكون العمل تعبيراً مباشراً عما هو إنساني في الإنسان. إن الإنسان، بواسطة العمل الخلاق، يصل إلى شكل من الاتحاد العيني بينه وبين الطبيعة، وبينه وبين سائر الناس، وهذا يتغلب على الجزع الناشئ من شعوره بالانفصال بين نفسه من ناحية، وبين العالم والناس من ناحية أخرى. بالعمل يستطيع الإنسان أن يعيش الاتحاد مع العالم والناس، بدلاً من أن يكفي بأن يحلم بهذا الاتحاد. بالعمل يمكنه أن يتحد مع الموضوع، بينما هو يقوم بتشكيله ويعبر عن أحسن ما في ذاته من خلال هذا التشكيل. فالفرد الذي يصنع موضوعاً - مثلاً: شيئاً يدويًا، أداة، أو آلة (ماكينة) - يتعرف فيه شخصيته هو وقد تموضعت وصارت عينية؛ وفي نفس الوقت يفيد هذا الموضوع في الوفاء بصنع حاجيات سائر الناس؛ وهؤلاء الآخرون بدورهم يتعرفون في الموضوع المصنوع الشخصية المتموضعة لصانعه. وعلى هذا النحو يوحد العمل الخلاق بين الإنسان وبين ذاته، وبينه وبين سائر الإنسانية. ويمكنه من تحقيق إمكاناته العقلية والعاطفية، والتواصل العيني بينه وبين سائر بني جنسه.

لكن هذا التمجيد الخار للعمل يقول به أيضاً كل رأسمالي، بل وأكثر، لأنه بالعمل ينمي رأسماله. فبماذا يتميز كارل ماركس إذن من غلاة الرأسمالية؟

يعيش بعزل عن الطبيعة، لأنه فقد ما لا يزال يملكه الحيوان: أعني الانتساب التلقائي إلى العالم. والإنسان، وقد انفصل عن الطبيعة وعن اخوانه في الإنسانية، يسعى إلى الاتحاد مع الطبيعة ومع إخوانه، إنه يعيش في صراع وتوتر، بيد أنه ينشد نهاية لهذا التوتر والصراع. ويأمل ماركس أن يحقق المستقبل التصالح بين كل ما كان في تصارع على مدى التاريخ: الوجود والأنية، الذات والموضوع، الإنسان والطبيعة، الفرد والمجتمع، الإنسان والوسط، الدولة والمجتمع، الفرد الخاص والمواطن في الدولة.

ويريغ ماركس إلى تشكيل حياة الإنسان على الأرض تشكيلاً إنسانياً خالصاً، حتى يكف الإنسان عن النظر إلى الوحدة والسعادة والحب على أنها مثل عليا بعيدة المثال أو لن تحقق على الأرض بل في حياة أخرى في السماء. وعلى مثال فويرباخ، أخذ على الأديان أنها لم تهتم بالإنسان الحقيقي وأنها أحالت إلى عالم علوي كل ما يحتاج إليه الإنسان: من وحدة، وتفتح، واجتماع. وفي رأي ماركس أن الدين «تحقيق خيالي لمهية الإنسان، لأن الكائن الإنساني ليست له حقيقة واقعية» (الكتاب نفسه، ص ٣٧٨).

كذلك يأخذ ماركس على الدين أنه يفصل فصلاً قاطعاً بين حياة أرضية وحياة أبدية، ولهذا يدعو الفقراء إلى الاستسلام واليأس من الدنيا. يقول ماركس: «الدين هو زفرة الخليفة المقهورة، وهو مزاج عالم بلا قلب، وهو الروح لأحوال بلا روح. إنه أفيون الشعب» «der Religion ist der Seufzer der bedrängten Kreatur, das Gemüt einer herzlosen Welt, wie sie der Geist geistloser zustände ist. Sie ist das Opium des Volkes» (الكتاب نفسه ص ٣٧٨). إن الفقراء يتظرون الموت مستسلمين عاجزين، ويتظرون الجزاء في عالم آخر. ولهذا يقبلون، دون تمرد ولا ثورة، أشكال الحكم الاستبدادية، وبقاء نظام الطبقات؛ ولا يسعون للاتحاد فيما بينهم من أجل تغيير العالم. وهكذا يغيرون أنفسهم بواسطة الدين، ويحال بينهم وبين الفعل. ولهذا ينبغي - هكذا يزعم ماركس - على الإنسان أن يتحرر من مغايرة الدين له. يقول ماركس: «إن إزالة الدين، بوصفه السعادة الوهمية للشعب، هي الشرط لتحقيق سعادته الحقيقية. ومطالبته بالتخلي عن الأوهام المتعلقة بأحواله هي المطالبة بالتخلي عن أحوال تحتاج إلى الأوهام.» (الكتاب نفسه ص ٣٧٩).

وكما انتقد ماركس الدين، انتقد الفلاسفة: إذ أخذ



للتبادل. وتكون العلاقات الإنسانية مجرد علاقات بين سادة ومسودين، أي علاقات نزاع وصراع. ذلك أنه حين يصير الهدف من الحياة هو تحصيل الثراء، هنالك تستحيل العلاقات التلقائية والأخوية وتتفهي بينهم المساواة، وهذا أيضاً يصدق على علاقات الإنسان بالطبيعة.

والناس ينطبعون بإيديولوجية الطبقة السائدة، أعني أن المستغلين يُعدّون بإيديولوجيتهم طبقة المستغلين. فالمجتمع الذي يسوده الظلم يبدو في الواقع واحداً تشيع فيه روح وأخلاق واحدة. والمجتمع الحديث المجرّد من الإنسانية تنظر إليه الأغلبية على أنه الشكل الممكن الوحيد للمجتمع. والإنسان كما هو في هذا المجتمع سينظر إليه على أنه الإنسان الوحيد الممكن، كما ينظر إلى أشكال الحياة والتفكير الحاضرة على أنها الأشكال الوحيدة الممكنة للحياة وللضكير. ومن هنا يقول ماركس إن وعي الإنسان وعي زائف.

ويزعم ماركس أن الربح والمنافسة والصراع بين الطبقات والحروب - كل هذه الأمور هي من ثمار المجتمع الرأسمالي، وليست في طبع الإنسان!

ولا سبيل - في نظره - إلى التخلص من الوعي الزائف إلا إذا كَفَّ الناس عن النظر إلى العالم بمنظار إيديولوجية الطبقة المالكة، وسعوا إلى تغيير المجتمع الظالم.

وحين يتحدث ماركس عن الإنسان يتحدث عن الإنسان الشامل der totale Mensch أي الإنسان الذي يعمل، بوصفه فرداً وكائناً اجتماعياً معاً، على تحقيق ذاته وممارسة كل إمكانياته اليدوية والعقلية والاجتماعية والروحية. وهو يهدف خصوصاً إلى تحرير الإنسان من «تقسيم العمل»، إذ كان يرى في «تقسيم العمل» ما يصيب الإنسان بالضمور والهزال، لأن الإفراط في التخصص في العمل يحكم على الإنسان بالاقتران على نشاط واحد، بينما الإنسان السوي يشعر بالحاجة إلى التعبير عن ذاته بطرائق وأشكال مختلفة. ويتصور ماركس المجتمع الشيوعي على أنه مجتمع حرّ يعمل فيه الإنسان بحسب مزاجه ولذته، وينال ثقافة كاملة في كل مجال. ويتخيل أن يكون في وسع الإنسان في هذا المجتمع الشيوعي أن يقوم - مثلاً - في الصباح بالقنص، وبعد الظهر بالصيد، وفي المساء بتربية المشية أو النقد الأدبي، دون أن يصير بذلك قنصاً أو صياداً أو راعياً أو ناقداً!

وتحت تأثير باخوفن Bachofen (١٨١٥ - ١٨٨٧)

هنا يرد ماركس بأن العمل في المجتمع الرأسمالي يؤدي نصيبه من العمل دون لذة أو رغبة. إن عمله خال من كل اهتمام إنساني. والعامل يقنع ببيع «قدرته على العمل» ويتحول بذلك إلى آلة (ماكينة) لإنتاج الأرباح. إنه لا يوضع نفسه بعد في إنتاجه، ولا يتعرف ذاته في موضوع عمله، ولن يقر له الآخرون بأنه المنتج لنتج عمله. وبهذا يصير ناتج عمله غريباً عنه، بل عدواً له. يقول ماركس: «وهناك نتيجة مباشرة لكون الإنسان قد صار غريباً عن ناتج عمله وعن نشاطه في الحياة وعن ماهية جنسه هي مغايرة الإنسان Entfremdung des Menschen للإنسان. وإذا ما صار الإنسان تجاه ذاته، صار الإنسان الآخر تجاهه هو» (المخطوطات الاقتصادية - الفلسفية [١٨٤٤]. طبعة ديتس سنة ١٩٦٨، المجلد التكميلي ص ٥١٨).

وبدلاً من أن يجد الإنسان ذاته في عمله، يفقد العامل ذاته، إذا أدى العمل لصالح مالك أدوات الإنتاج. وبدلاً من أن يوحد بين ذاته وبين الموضوع وبين ذاته وبين الآخرين، يقع هو في نزاع مع ذاته ومع المجتمع. وبدلاً من أن يؤكد حريته من خلال عمله، يصير عبداً للإنتاج. إنه يعمل من أجل النقود، لا من أجل الاستمتاع بتحقيق ذاته وإصلاح حال العالم؛ وبهذا يتضاف انهيار الروح (العقل) إلى استهلاك البدن. وحتى السعادة الظاهرة والرخاء اللذين يبدوان على الرجل الرأسمالي خداعان: فهو الآخر ينهار من حيث هو إنسان، لأنه لا يعود يرى الإنسان في العامل، بل يرى فيه مجرد آلة لاجتلاب الأرباح. إنه لا يعود يرى في الموضوع التعبير الموضوعي لشخصيته، بل يرى فيه مجرد إمكانية لفائض القيمة. وهكذا تصير للنقود قيمة ذاتية مطلقة، وتصير قيمة في ذاتها. في المجتمع الرأسمالي تصبح النقود إلهاً جديداً، يعبد المالك الرأسمالي، ويقذف العامل المستغل. وهكذا تندمّن النقود بين الإنسان والإنسان. وكل فرد سيقدر حينئذ بحسب ارتفاع رأس ماله أو بحسب ما يساويه عمله من نقود. يقول ماركس: «إن النقود هي القيمة العامة الذاتية لكل الأشياء. وهكذا تسلب النقود العالم كله وعالم الناس والطبيعة قيمها الحقيقية. إن النقود هي الماهية لعمل الإنسان والمغايرة للإنسان ولوجوده، وهذه الماهية الغريبة تسيطر عليه، وهو يعبدها» (في المسألة اليهودية، طبعة ديتس سنة ١٩٧٠ ج ١ ص ٣٧٥).

وهكذا تتحول العلاقات بين الناس إلى موضوع



زالت الطبقة المؤلفة من الحرفيين والفلاحين الفقراء لأن هؤلاء تحولوا إلى عمال مصانع. ولما كانت وسائل الإنتاج قد تركزت في أيدي أفراد قلائل هم كبار رجال الأعمال وأصحاب المصانع الكبرى، صارت البورجوازية طبقة قليلة العدد، بينما صار الأجراء (البروليتاريا) هم الجماهير العريضة. فازداد انقسام المجتمع إلى معسكرين متعادين كبيرين، إلى طبقتين متنازعتين هما: البورجوازية والبروليتاريا. ويزعم ماركس أنه بفضل الوعي الطبقي عند البروليتاريا، وكثرتها العددية وتجمعها في اتحادات ونقابات، وبفضل بؤسها الشديد، فإنها مستتولي على السلطة، وتتحول من مستوى المغايرة إلى مستوى الإنسان الكامل! وسيسهل على البروليتاريا تحقيق هذه المهمة تزايد ضعف الرأسمالية بسبب الأزمات الاقتصادية المتوالية.

وفيما يتصل بنظرياته الاقتصادية، نذكر أنه يرى أن السلع تتبادل بأسعار تحددها كمية العمل اللازمة لإنتاجها. وثمان العمل يحدده أصحاب الأعمال وفقاً لأقل ما يكفي لبقاء العمال في قيد الحياة وتناسلهم. لكن العمل ينتج سلعا تزيد قيمتها عن أجور العمال، والفارق بين المقدارين: مقدار السلع ومقدار أجور العمال - يذهب إلى أصحاب رؤوس الأموال. وهكذا يرجع بؤس الجماهير العريضة من العمال والأجراء إلى فعل قوانين اقتصادية. لكن ماركس يعزو هذه القوانين إلى الرأسمالية بخاصة، وهو يرى أن الرأسمالية هي مجرد مرحلة في التطور التاريخي، مرحلة ستتم نفسها بنفسها بواسطة تناقضاتها الداخلية. وستنشأ بعدها مرحلة يسود فيها الأجراء، ويصبح المجتمع عقلياً تقدماً، ليس فيه أجور ولا نفود ولا طبقات اجتماعية، بل ولا حكومة، بل يصير «تجمعاً حراً مؤلفاً من متحجين يعملون تحت رقابة واعية هادفة صادرة عن ذات أنفسهم».

وأما ما هو رأس المال في نظر ماركس، فإنه يقرر أولاً أن رأس المال ليس «شيئاً» (نقوداً، وسائل إنتاج) بل هو عملية دورية processus cyclique تسير على الدوام على مستوى المجتمع بأسره، وخطتها الرئيسية هي الإنتاج. كذلك ليس رأس المال سنداً قانونياً titre juridique مثل الملكية القانونية (الخاصة) لوسائل الإنتاج. إنما رأس المال نظام من العلاقات الاجتماعية خاص بالإنتاج، لا يشمل إلا وجود فائض العمل. لكن فائض العمل اتخذ على مدى التاريخ أشكالاً أخرى غير شكل رأس المال: منها الربيع

ولويس هنري مورجان (1818-1881) صار ماركس في أخريات عمره يعتقد أن الإنسان في المجتمع الزراعي البدائي لا بد أنه قد عرف نوعاً من السعادة الغريزية لأنه كان يعيش في مجتمع تسوده المساواة ويخلو من الطبقات. وإنما سقط الإنسان من يوم أن حدث «تقسيم للعمل»: إذ به انقسم الناس إلى طبقتين متصارعتين: الطبقة المالكة التي تملك الثروات وتتولى المهام القيادية في الاقتصاد والسياسة والدين، ثم الطبقة المسودة، المسحوقة الملزمة قهراً بالأعمال المرهقة والمسخرة لأشق الأفعال. ويقول ماركس إن ما قبل تاريخ الإنسانية قد بدأ بتقسيم العمل.

والماركسية نوع من «المسيحية» (بالمعنى الاشتقاقي الأصلي لهذا اللفظ: أي القول بمخلص قاد للبشر من الخطيئة الأولى) Messianism، لكنها مسيحية مادية. فكما انتظر اليهود مخلصاً («مسيحاً»)، كذلك يؤمل الشيوعيون الماركسيون في مجتمع قائم على العمل والحب، كما قال موريس ثوريز Thorez الأمين العام السابق للحزب الشيوعي الفرنسي (راجع أعماله ج ١٤ ص ١٦٤ وما يتلوها). وكما أنه لكل «مسيحية» مسيح أو مخلص يحور الإنسانية من ابتلائها بالخطيئة، كذلك تقول الماركسية بمخلص هو «البروليتاريا» (= طبقة الأجراء). وفي هذا يقول البيركامي: «إن البروليتاريا، بفضل آلامها ونضالها، هي المسيح الإنساني الذي يكفر عن الخطيئة الجماعية للمغايرة». لكن هذا المخلص لم يعد - كما في المسيحية - إلهاً صار إنساناً، بل طبقة بأكملها، مستفد بالثورات الإنسانية المتغيرة من حالتها البائسة الراهنة وتسمو بها إلى حالة رفيعة تنحل فيها كل التناقضات وتزول فيها كل الطبقات.

وتحت تأثير بازار Bazard وكونسيدران Considérant وميلانكي Blanqui وجيزو Guizot رأى ماركس في «الصراع بين الطبقات» (وهو تعبير كان أول من استعمله هو كارل جرون Karl Grün) المحرك للتاريخ. صحيح أنه لم ينكر تماماً دور الأفراد العظام، لكنه رأى أن دورهم في تحريك التاريخ وتوجيهه ضئيل للغاية، وأكد أن التاريخ إنما يتحرك إلى الأمام بواسطة الصراع بين الطبقات المتنازعة. ويحاول ماركس في كتابه «رأس المال» أن يبرهن على أن ظهور طبقتي البورجوازية والبروليتاريا المتصارعتين يمثل تقدماً في التاريخ. فبظهور البورجوازية نتيجة لقيام الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩ وهي التي قضت على الطبقة الأرستقراطية وطبقة رجال الدين -

- لماركس (كتب سنة ١٨٤٥ ولم ينشر لأول مرة إلا سنة ١٩٢٦)  
 ماركس: «بؤس الفلسفة» وقد ألفه  
 - Marx: Misère de la philosophie, 1847  
 رداً على كتاب برودون بعنوان: «فلسفة البؤس»  
 ماركس وانجلز: «البيان الشيوعي»  
 - Marx und engels: das Kommunistische Manifest, 1848.  
 ماركس: «لوي بوناپرت والثامن عشر من برومير»  
 ماركس: «في نقد الاقتصاد السياسي»  
 - Zur Kritik der politischen Ökonomie, 1859  
 - Das Kapital. Bd. I, 1867; Bd. II und III, hrg. F. Engels 1885- 94.  
 ماركس: «رأس المال» الجزء الأول سنة ١٨٦٧؛ الجزء الثاني  
 والثالث نشرهما انجلز بعد وفاة ماركس. وهو أهم كتبه.

### مراجع

- W. Sombart: Das Lebenswerk von Karl Marx, 1909.  
 - F. Mehring: Karl Marx, 1929.  
 - M. Adler: Marx als Denker, 1925.  
 - K. Vorländer: K. Marx, 1929.  
 - S. Hook: Towards the understanding of K. Marx. London, 1933.  
 - S. Hook: From Hegel to Marx, New York, 1936.  
 - Karl Korsch: Karl Marx, New York, 1938.  
 - A. Labriola: Marx nell'economia e como teorico del Socialismo Lugavon, 1908.  
 - J.J. Calvez: La pensée de Karl Marx, Paris, 1956.  
 - J. Hyppolite: Etudes sur Marx et Hegel. Paris, 1960.  
 - H. Lefebvre: Le Marxisme. Paris, 1966.  
 - L. Althusser: Pour Marx. Paris, 1965.  
 - L. Althusser et Balibar: Lire le Capital, 2 vol. nouv. éd., Paris 1968.

### مارو

#### Henri - Irénée Marro

مؤرخ فلسفة فرنسي

ولد في مارسيليا في ١٢/١١/١٩٠٤، وتوفي في باريس

الإقطاعي، فإنه هو الآخر شكل من أشكال فائض العمل، وكان على رأس المال القضاء عليه حتى ينمو هو على شكل أكثر انطلافاً. إن رأس المال ليس إلا نظاماً من العلاقات الاجتماعية التاريخية، الموقته، الانتقالية، شأنه شأن مجموع الأشكال الاقتصادية للتبادل.

أما المادة الجدلية والمادية التاريخية عند ماركس وانجلز فقد قلنا ما فيه الكفاية تحت مادتهما، فارجع إليهما.

### نشرات مؤلفاته

- تراجع عن مؤلفاته التي وضعه Maximilien  
 Ruhel بعنوان:  
 - Bibliographie des œuvres de Karl Marx. Paris 1956.  
 وقد ظهرت عدة طبعات شبه كاملة لمؤلفات كارل  
 ماركس، إما وحده، أو مع مؤلفات فريدريش انجلز نخص  
 بالذكر منها:  
 - Karl Marx- F. Engels Histor.- Krit. Gesamtausgabe.  
 Werke, Schriften, Briefe, hg. i. a. des Marx- Engels-  
 Instituts Moskau  
 - Marx- Engels Gesamtausgabe, 12 vols. Berlin- Mos-  
 cow, 1927- 35.  
 - Marx- Engels Werke, 36 vols. Berlin 1957 sqq.; neue  
 Aufl. 1961.  
 وتوجد ترجمة فرنسية لمؤلفات كارل ماركس وحده بعنوان:  
 - K. Marx: Oeuvres complètes, éd. Costes, 9 vols.  
 Paris, 1947- 54.  
 كما توجد ترجمة انجليزية لمختارات من مؤلفات ماركس  
 وانجلز بعنوان:  
 - Marx and Engels: Selected Works, 2 vols. London,  
 1942.  
 ومن بين مؤلفات ماركس وانجلز تبرز العنوانات التالية:  
 «مخطوطات سنة ١٨٤٤» لماركس  
 - Marx und Engels: Die heilige Familie, 1845.  
 «الأسرة المقدسة» لماركس وانجلز معاً  
 - Marx à Engels: Die heilige Familie, 1845  
 «الأيدولوجيا الألمانية»  
 - Marx: Deutsche Ideologie, 1845 (gedruckt 1926)

لمذهب توما ، سميت بالتوماوية الجديدة - Le Néo - thomisme ، وتولى التدريس في « المعهد الكاثوليكي » في باريس . وعلى ضوء نزعة التوماوية هذه هاجم البرجسونية في كتاب نشره سنة ١٩١٣ بعنوان : « الفلسفة - البرجسونية » La Philosophie bergsonienne

وراح منذ ذلك الحين يحاول تطبيق مبادئ فلسفة توما على مختلف ميادين الفكر المعاصر : العلمي ، والسياسي ، والأخلاقي ، والجمالي وتوالت مؤلفاته بغزارة :

- « تأملات في العقل وحياته الخاصة » Reflexions sur L'intelligence et sur sa vie propre, 1923.

- ثلاثة مصطلحين : لوتر ، وديكارت ، وروسو - Trois Refor mateurs: Luther, Descartes, Rousseau, 1925

- « رسالة إلى جان كوكتو » Lettre à Jean Cocteau, 1926

- أولوية ما هو روحي « Primauté du spirituel 1927

- « التمييز من أجل التوحيد ، أو درجات المعرفة » Distinguer pour unir, ou les degrés du Savoir, 1932

وفي هذا الكتاب الجامع يتناول التوماوية ، والمعرفة العلمية ، والمعرفة الصوفية .

- « النزعة الانسانية التامة » L'Humanisme intégral 1937 وفيه يعبر عن آرائه السياسية الجديدة في فترة حكم الجهة الشعبية في فرنسا والحرب الأهلية في أسبانيا .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية وهزمت فرنسا لجأ إلى الولايات المتحدة الاميريكية وأقام فيها طوال الحرب . ثم عاد إلى فرنسا غداة نهايتها ، وعين في سنة ١٩٤٥ سفيراً لفرنسا لدى حاضرة الفاتيكان واستمر في هذا المنصب حتى سنة ١٩٤٨ . ورد على سارتر ووجوديته برسالة صغيرة عنوانها :

- « رسالة صغيرة في الوجود والوجود » Court Traité de l'existence et de l'existant

ثم اعتكف ابتداءً من سنة ١٩٦٠ في دير جماعة « اخوة يسوع الصغار » في تولوز (جنوبي فرنسا) .

ونشر قصة طويلة في سنة ١٩٦٦ بعنوان : « فلاح اقليم الجارون » Le Paysan de La Garonne

في ١١/٤/١٩٧٧

تعلم في مدرسة المعلمين العليا بباريس والتحق بالمعهد (المدرسة) الفرنسي في أثينا ، وعين أستاذاً في المعهد الفرنسي بنابلي من ١٩٣٢ إلى ١٩٣٧ ، وفي جامعة نانسي في سنة ١٩٣٨ - سنة ١٩٣٩ ، وفي جامعة مونبلييه في ١٩٤٠ - ١٩٤١ ، وجامعة ليون ١٩٤١ - ١٩٤٥ ، وفي السوربون سنة ١٩٤٥ حيث قام بتدريس تاريخ المسيحية .

ومن أهم كتبه :

- « للمعنى المسيحي للتاريخ » ، سنة ١٩٤١

- « تاريخ التربية في العصر القديم » ، سنة ١٩٤٨ وقد أعيد طبعه مراراً وترجم إلى عدة لغات

- « في المعرفة التاريخية » سنة ١٩٥٤

- « القديس أوغسطين والأوغسطينية » ، سنة ١٩٥٥

- « اللاهوت والتاريخ »

- « انحلال أو عصر قديم متأخر ؟ » ، سنة ١٩٧٧ .

ماريتان

Jacques Maritain

فيلسوف فرنسي توماوي النزعة .

ولد في باريس سنة ١٨٨٢ ، وتوفي في تولوز سنة ١٩٧٥ . وهو حفيد جول فافر Jules Favre (١٨٠٩ - ١٨٨٠) السياسي والمحامي ووزير الخارجية بعد سقوط نابليون الثالث وهذه الصفة تفاوض لعقد معاهدة فرنكفورت بين ألمانيا وفرنسا سنة ١٨٧١ وكان بروتستنتي المذهب .

وقد درس جاك ماريتان على فليكس لودانتك ، العالم البيولوجي المتحرر من العقائد الدينية ، كما تتلمذ على برجسون - ومع ذلك صار بعد ذلك من أشد المهاجمين لفلسفة برجسون - وأخيراً تأثر بهانز دريش وتلمذ له . ولقد تحول من البروتستنتية إلى الكاثوليكية في سنة ١٩٠٦ ، وتزوج من روسية يهودية تحولت إلى الكاثوليكية وهي ريسه Ratsa التي كتبت ذكريات عن برجسون . ولما تحول إلى الكاثوليكية اعتنق مذهب القديس توما الأكويني ، وأسهم في حركة إحياء

يتوجه إلى الخيال مأخوذاً على أنه العقل ، ( الكتاب نفسه ، ص ٥٥ ) .

ويخلص ماريتان إلى القول بأنه لا مكان لله في فلسفة برجسون ، ذلك أنه متى ما ألغينا الوجود ، حطمتنا في الأشياء ما به تشابه الله ، وما به تريننا الله . وبهذا المعنى ينبغي أن نقول - هكذا يقول ماريتان : إن مذهب برجسون وحلة وجود ملحدة ، ( الكتاب نفسه ص ٤٢٤ ) .

ويعضي ماريتان في نقده لمذهب برجسون إلى أبعد من هذا فيقرر أن البرجسونية لا تتفق مع الحرية الحقيقية . يقول ماريتان : « إن برجسون وهو يحسب أنه يقرر حرية اختيار للإنسان ، لا يقرر في الواقع غير تلقائيتنا spontanéité وهي صفة تنقسمها مع كل الكائنات الحية ولا نميزنا من الحيوانات المحرومة من العقل » ( الكتاب نفسه ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ) .

وفكرة « التطور الخلاق » عند برجسون تنطوي على تناقض « فمن يقل تطوراً يُقَلُّ شيئاً بالقوة يتحقق شيئاً فشيئاً حتى كماله . . . ومن يُقَلُّ خلقاً ، بالعكس ، يقل إنتاجاً ، دون شيء سابق ، لكل وجود الشيء ، ويفترض تبعاً لذلك قوة لامتناهية ، أعني وجوداً لا متاهياً ، وإذن الوجود الإلهي » ( الكتاب نفسه ص ٢٤٦ ) .

وحسبنا هذا من نقد ماريتان للبرجسونية . وتساءل : ما هي هذه التوماوية التي ينادي بها ماريتان ؟

يقول ماريتان في كتابه : « تأملات في العقلي وحياته الخاصة » إن التوماوية ترى أن « حياة العقل ، منظورا إليها في جانبها العقلي الخالص والاستنباطي ، ومن وجهة نظر الترابط بين التصورات بعضها وبعض - بغض النظر عن علاقاتها مع التجربة الحسية - وليست توفقاً في الهوية المحضة البسيطة ، وتكراراً خالصاً لنفس الشيء - هي حياة تقدمية في جوهرها ، وانتقال من الغير إلى الغير ، في الروح ، مؤسساً على هويات خارج العقل يجليها التصورات نفسها ، وبالجملة حركة لا مادية ، ترجع في النهاية إلى قوة عقلية » ( الكتاب المذكور ص ٧٢ - ٧٣ ) .

إن ماريتان يرى أن الفلسفة المسيحية الحقة تجد مركزها في ميتافيزيقا الوجود كما ينيرها الله ، رب ابراهيم واسحق ويعقوب ، وكما تكلم مع موسى ، وخصوصاً كما تكلم ، ولا يزال يتكلم ، على لسان يسوع المسيح والقديسين . وهذه

وأخيراً نشر كتاباً بعنوان : « كنيسة المسيح » L'Eglise du Christ وقد ألهمه إياه قرارات المجمع الفاتيكاني الثاني .

وتوفي في الدير المذكور في سنة ١٩٧٥ .

### آراؤه الفلسفية

كان ماريتان في بداية أمره متحمساً للفلسفة البيولوجية التي يمثلها دريش وفلسفة برجسون ، المشابهة لها . لكن تحولته من المذهب البروتستنتي الذي ولد عليه إلى المذهب الكاثوليكي في سنة ١٩٠٦ - وقد تم ذلك تحت تأثير الكاتب الكاثوليكي المتحمس اللاذع ليون بلوا Léon Bloy - قد جعله يعتنق الكاثوليكية الخالصة الممثلة فلسفياً في مذهب القديس توما الأكويني ، مما حمله على التخلي عن كل ماضيه والانقلاب على من كان بالأمس يتحمس لهم .

فأداه ذلك إلى عمارية مذهب برجسون لأنه في تعارض تام مع المذهب التوماوي ، ولأنه رأى في برجسون ملهماً ( وإن كان برجسون يهودياً ) لحركة التجديد الديني في فرنسا آنذاك ، وهي حركة أدائها البابا . فهو يرى أن البرجسونية هي في جوهرها نزعة مضادة للعقل ( « الفلسفة البرجسونية » ص ٣٧ ) ، وبرجسون في رأي ماريتان - وقع في نفس الخطأ الذي وقعت فيه النزعة الترابطية لأنه « يجرم على العقل معرفة حقيقتنا الجوهرية ، وماهية ذاتنا ومن هنا فإنه عبثاً يدعي ، بعكس أصحاب نزعة الظاهرة ، أن حقيقتنا الجوهرية هي شيء آخر غير أحوال الشعور المترابطة ، مادام لا يريد أن يعرف هذه الحقيقة الواقعية إلا بواسطة العيان ، وبالحنس الباطن المنشور على نحو ملائم ، وينكر عليه الجوهرية ، التي لا يستطيع إدراكها إلا العقل » . ومادام برجسون يرى أن التغيير يؤلف نسيج الحقيقة الواقعية ، « فإن الجوهر والأعراض ، والشيء في ذاته ، والظواهر تختفي جملةً وتختفي الحقيقة الواقعية هي نفسها والوجود هو نفسه ، ولا يبقى غير علم يتغير . وهذا المعنى يمكن نعت البرجسونية بأنها نزعة ظواهرية مطلقة » ( الكتاب نفسه ، ص ٤٧ ) .

كذلك يأخذ ماريتان على برجسون أنه وقع في الفخ الذي نصبه الماديون . ذلك أن « برجسون يخلط بين العقل المشوه والمصاب بالعمى عرضاً ، وبين العقل الثمين جداً ، الجميل جداً ، الذي وهبه الله للإنسان ليخلقه على صورته » . « إن البرجسونية تخلط بصورة منتظمة بين الخيال والفكر ، ويتبع عن هذا أنه في المقام الأول حين ينقد العقل فإنه إنما

الفرنسي « L'Action Française تلك الحركة اليمينية التي كان ملهمها هو شارل موراس Charles Maurras ( ١٨٦٨ - ١٩٥٢ ). لكن لما أصدر البابا في سنة ١٩٢٦ قراراً بإدانة حركة « العمل الفرنسي » وأيدت النظام الديمقراطي ، بدأ ماريتان يتحلل من ارتباطاته مع حركة « العمل الفرنسي » ، وأصدر في سنة ١٩٣٦ كتابه « النزعة الانسانية التامة » ، في وقت كانت فيه « الجبهة الشعبية » - المؤلفة من تحالف الاشتراكيين والشيوعيين - قد تولت زمام الحكم في فرنسا - وفيه نجد ماريتان يتقلب على نفسه ، فيهاجم الملكية بعد أن كان من أشد الدعاة إلى إعادتها في فرنسا حامية ونشاطاً!! وأخذ يغازل الديمقراطية ، وراح يتناسى فظائع الثورة الفرنسية وعهد الارهاب وفظائع روسيير ، وهي الأمور التي طالما وجه إليها سهام نقده ، وصار يستند إلى أقوال الأب لاكوردير Lacordaire الذي زعم أن الديمقراطية ذات أصل مسيحي ، لأن غايتها رفع مكانة الشخصية الانسانية ولأن مبدأها ، في العصر الحديث ، هو احتجاج الانسان ضد قهر السلطات . فكلمة الديمقراطية ، هكذا يتابع ماريتان ، كان من سوء حظها أن حرقها البورجوازية بما تنطوي عليه من رأسمالية ، وتمحور من الأديان بل والحماد ، حتى صارت الديمقراطية بؤرة الخطايا القاتلة وعدوا للكنيسة بل وللمسيحية ! ونتيجة لهذا التشويه للديمقراطية - في زعم ماريتان - صارت الديمقراطية في خدمة الطبقة البورجوازية ومصالحها وعقبة في وجه الطبقة العاملة أو الشعب الفقير . لكن على الرغم مما قد يستشف من هذا الكلام من نزعة يسارية ، فما كان أبعد ماريتان عن التأثر بالماركسية ! إنما هو سار في الاتجاه الذي وضعه البابا بيوس الحادي عشر ( ولد سنة ١٨٥٧ ، وصار بابا سنة ١٩٢٢ ، وتوفي في سنة ١٩٦٩ ) نحو الاهتمام بالفقراء . وانتهى ماريتان في اتجاهه الجديد هذا إلى ما وصفه باسم « النزعة الانسانية التامة » أي القائمة على فكرة الشخص الانساني المتحقق باللطف الإلهي .

### مراجع

- H. Bau: Maritain en notre temps. Paris, Grasset, 1959.
- J. Croteau: Les Fondements Thomistes du Personnalisme de Maritain Ed. de L'Universite d'Ottawa, 1955.
- J. W. Evans: Jacques Maritain. The Man and his Achievement. New-York, Sheed and Ward, 1963
- J. W. Hanke: Maritain's Ontology of the Work of art. The Hague, Nijhoff. 1973.

المتافيزيقا مدعوة إلى أن تتجاوز نفسها إلى حكمة صوفية ، وعليها أن تفضي أولاً إلى منطق ونظرية في المعرفة. ومن المتافيزيقا التي أسست على هذا النحو ينبغي أن تنشأ فلسفة في الطبيعة ، وفي الانسان ، وفي الأخلاق وفي السياسة .

وفي كتابه : « ثلاثة مصلحين : لوتر ، ديكارت ، روسو » يهاجم في هذه الشخصيات الثلاث العظيمة ما يراه الأخطاء العظمى في الميادين الثلاثة : الدين ، الفلسفة ، السياسة على التوالي . ورأى في هؤلاء الثلاثة أنهم مصادر البلايا التي منها تعاني الانسانية المسيحية المعاصرة . ولهذا يرى ماريتان أن المهمة العاجلة الملحة للفلسفة الكاثوليكية هي في بيان كيف ولماذا « التوماوية الحية » يمكنها وينبغي عليها أن تعود وتصبح حكمة إنسانية صارت في صلح مع طبيعتها ورسالتها .

وماريتان في هذا إنما يتبع النهج الذي وضعته الكنيسة منذ مجمع الفاتيكان الأول ( سنة ١٨٦٩ / ٧٠ ) والرسالة البابوية التي أصدرها ليُو الثالث عشر وقرر فيها أن تكون فلسفة القديس توما هي الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية .

وفي هذا المجال يمجّد ماريتان فزياء أرسطو باعتبارها موصلاً جيداً إلى متافيزيقا الوجود ؛ وعلى الرغم من أن هذه الفزياء قد لا تكون مقبولة عند الفزيائيين المعاصرين ، لأنها لا تلجأ إلى التفسير الكمي ، بل إلى التفسير الكيفي باستمرار ، فإنها تقوم على معاني أساسية لا تزال مفيدة ، في نظر ماريتان ، مثل فكرة الهيولي والصورة ، وفكرة العلل الأربع ( الصورية ، المادية ، الفاعلية ، الغائية ) ، وخصوصاً فكرة القوة والفعل .

والوجود الذي هو موضوع علم ما بعد الطبيعة ، ليس الوجود الخاوي المجرد المفهوم في المنطق والرياضيات ، بل الوجود العيني الواقعي .

والانسان هو قمة الوجود وخلاصة الوجود الممكن تجريبه ، وهو العالم الأصغر microcosme الذي فيه يتم العالم الأكبر macrocosme المادي .

وكما كان ماريتان مطيعاً للبابا في الفلسفة ، كان مطيعاً له في السياسة. لقد كان في مطلع حياته ، بعد اعتناقه الكاثوليكية ، ذا نزعة ملكية ، ويدعو إلى إعادة الملكية في فرنسا ؛ وكان ، نتيجة لذلك ، من أنصار حركة « العمل

## ماركس أورليوس

## Marcus Aurelius Antoninus

امبراطور روماني ، وفيلسوف ذو نزعة رواقية .

ولد في روما في ٢٦ / ٤ / سنة ١٢١ بعد الميلاد من أسرة نبيلة ، وكان اسمه Marcus Annius Verus ولما توفي أبواه في سن مبكرة من عمره ، رباه جده . وكان من معلميه Marcus Cornelius Fronto ، وقد جرت بين المعلم وتلميذه مراسلات تكشف عن سخاوة نفس التلميذ واجتهاده . وقد أعجبت مناقبه الامبراطور هادريانوس إلى حد أنه نصح Aurelius Antoninus ( وهو المعروف باسم Antoninus Pius ) وكان هادريانوس قد عينه ليخلفه امبراطوراً . أن يتبنى هذا الولد ، وأن يجعله وريثاً له على عرش الامبراطورية الرومانية .

وفي سن الحادية عشرة تعرّف ماركس إلى آراء الرواقين بفضل الفيلسوف ديوجينيتوس Diognetus فارتدى ماركس زي الفلاسفة الرواقين وعاش عيشة الزهد والتقشف وتحمل الآلام ، وترك دراساته الأخرى ليتفرغ لتحقيق مبادئ الرواقين ويمارس الحياة الرواقية .

ولما تولى انطونينوس التّقي عرش الامبراطورية الرومانية تبنى ماركس ، وزوجه من ابنته فاوستينا Faustina . اتخذ ماركس اسم من تبناه وصار يطلق عليه اسم Marcus Aurelius Antoninus . وخلال الثلاث وعشرين سنة التالية ، ويوصفه رفيقاً وزميلاً لانطونينوس ، عني بدراسة فن الحكم ، إلى أن توفي الامبراطور انطونينوس في سنة ١٦١ ، فتولى عرش الامبراطورية الرومانية . وأشرك معه في الحكم Lucius Verus على الرغم من معارضة مجلس الشيوخ ، وكان لوقيوس فيروس هذا ابناً بالتبني ثانياً لانطونينوس ، ولم يكن كفوّاً لتولي الحكم ، فاشترك الاثنان في حكم الامبراطورية ، وزوجه ماركس من ابنته لوكلا Lucilla

ولكن سنوات حكم ماركس أورليوس ، هذا الرجل الحكيم الهادئ المحب للسلام ، حفلت بالحروب الدامية ، والاضطرابات الداخلية ، والكوارث الطبيعية : من زلازل وحرائق وسيول . ولما عاد فيروس بجيشه من حملة في سوريا عاد معه بينور طاعون انتشر في سائر أنحاء الامبراطورية وتدفقت جحافل من قبائل الكوايدي والمركومان Quadi and Marcomanni على حدود بانونيا Pannonia ، فاضطر ماركس

إلى مغادرة روما وتولى قيادة الفيالق الرومانية على الدانوب لمحاربة هذه القبائل المغيرة .

وفي سنة ١٦٩ توفي فيروس ، وأصبح ماركس وحده هو الامبراطور .

وفي سنة ١٧٥ تمرد افيدبيوس كاسيوس ، قائد القوات الرومانية في آسيا الصغرى ، وأعلن نفسه امبراطوراً . فأسرع ماركس بالتوجه نحو آسيا ، لكنه علم أن ضباط كاسيوس Cassius قتلوه . فأبدي ماركس من كرم النفس ما جعله يأمر بإحراق أوراق كاسيوس ودعا مجلس الشيوخ إلى العفو عن أسرة كاسيوس . وفي أثناء هذه الحملة توفيت زوجته فاوستينا ، وكانت قد رافقته فيها ؛ بعد أن أنجبت منه خمسة أبناء ، ماتوا جميعاً في حياة أبيهم بامسثناء ولد واحد شريك هو كومودس Commodus الذي عاش وخلف أباه على عرش الامبراطورية .

ولما عاد ماركس من الشرق ، استأنف قتاله المضني ضد القبائل الثبريرة على نهر الدانوب وهناك توفي بين الارهاق والقلق ، وكانت وفاته وهو في التاسعة والخمسين من عمره ، وبعد أن حكم الامبراطورية تسع عشرة سنة ( من ٧ مارس سنة ١٦١ إلى ١٧ مارس سنة ١٨٠ ) .

أما آراؤه الفلسفية فقد سجلها في مجلد سمّي باسم : « التأملات » . كتبه باللغة اليونانية وكان يتقنها إلى جانب لغته الأصلية اللاتينية ، ويقع في ١٢ مقالة . وقد كتبه أثناء حملته في وادي الدانوب ضد القبائل الثبريرة . وهو يتناول فيه آراءه في الأخلاق وفي الدين . وتتوالى هذه التأملات دون ترتيب محكم ، إنما هي خواطر إنثالت عليه وهو في معمعان المعارك . ونظراً لتفكك سردها ، فقد افترض البعض أنها مجرد تعليقات ومذكرات سيستعين بها بعد ذلك في تأليف كتاب محكم التأليف ، ورأى البعض الآخر أنها خواطر ومناجيات لم يقصد بها ماركس إلا الافضاء عن مكنون فكره لنفسه .

وقد طبعت هذه « التأملات » لأول مرة في سنة ١٥٥٨ على يد Xylander وفقاً لمخطوط مفقود الآن هو Codex Palatinus . والمخطوط الوحيد الباقي لنا الآن هو مخطوط الفاتيكان رقم ١٩٥٠ ( أ ) ( Vaticanus 1950 (A) ولكنه كثير التمزيق ، ولا تزال طبعة سنة ١٥٥٨ - بعد ضياع مخطوطها - هي المعتمدة في كل النشرات التالية . وإلى جانب ذلك توجد شذرات متفاوتة الطول موجودة في عدة مخطوطات . والعنوان



منه . وهذا السلوك يقوم في جانبه السلبي على التسليم غير المشروط للإرادة الإلهية ، وفي جانبه الايجابي على العمل في سبيل سعادة سائر الناس .

### مراجع

- De sukau: Etude sur Marc - Aurèle: sa vie et sa doctrine. Paris, 1857.
- M. Noël des Vergers: Essai sur Marc-Aurèle d'après les monuments épigraphiques. Paris, 1860.
- M. Königsbeck: De Stoicismo Marci Antonini. Königsberg, Dissertation, 1861.
- E. Zeller: Vorträge und Dbhandlungen geschichtlichen Inhalts. Leipzig, 1865, pp. 82- 107.
- E. Renan: Marc Aurèle et la fin du monde antique Paris 1883 (Hist. des origines du christianisme, T. VII).
- H. D. Sedgwick: Marcus Aurelius. Canbridge Mas-sach., 1902.

### مالانتشوك

#### Gregor Malantschuk

من أبرز المتخصصين في دراسة كيركجور

ولد في سنة ١٩٠٢ في مقاطعة أوكرانيا ، وتوفي في كوينهاجن في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٧٨ .

حصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين سنة ١٩٣٤ ، وفي نفس السنة سافر إلى الدانيمرك للتفرغ للدراسة كيركجور . وحصل على الجنسية الدانيمركية في سنة ١٩٥٠ . وفي سنة ١٩٥١ عين أستاذاً مساعداً للغة الأوكرانية في جامعة كوينهاجن ، وفي سنة ١٩٦١ استأذاً مشاركاً للفلسفة ؛ ومنذ سنة ١٩٦٦ تفرغ لدراسة فلسفة كيركجور .

وأهم مؤلفاته - وهي بالدانيمركية :

Indforelse Isören Kierkegaards Forfatterskab -

( سنة ١٩٥٣ )

- « ديبالكتيك الوجود عند سيرن كيركجور » ( سنة

١٩٦٨ )

في هذه الطبعة الأولى هو τα εἰς εἑαυτόν بينما هو في بعض مخطوطات الشذرات هو τα καθ' εἑαυτοῦ ؛ لكن العنوان الأول هو الأرجح . والتقسيم إلى ١٢ مقالة يقوم على الطبعة الأولى ولا يوجد في هذه الطبعة الأولى تقسيم إلى فصول ، وإنما يوجد لأول مرة في طبعة ليون سنة ١٦٢٦ .

وخير طبعة نقدية لها حتى الآن هي التي ظهرت في مجموعة تويينر Teubner سنة ١٨٨٢ بتحقيق يوهانس استش Johannes Stich وقد زودها بمقدمة جيدة عن المخطوطات والطبعات .

و « التأملات » تتسبب إلى الفلسفة الشعبية ذات الصبغة الرواقية ، تلك الفلسفة التي كانت عاملاً أساسياً في التكوين الثقافي في الامبراطورية الرومانية ، وكان من روادها: موسونيوس Musonius وديون الفرد ساوي Dionde Prusa وابكتاتوس . وكان ماركس أورليوس من أشد المعجبين بابكتاتوس ، ومعه يتفق في كثير من الآراء .

وقد حرر ماركس أورليوس تأملاته هذه على شكل حكم وأداب وجد فيها دوافع لسلوكه ودواعي لاطمئنان قلبه . وهو يسوقها على هيئة تقارير ، دون أن يحفل بالبرهنة عليها ، إنها بمثابة عقائد دينية يؤمن بها من أعماق نفسه . وقد أعجبه في الرواقية ، لا منذهبها في الطبيعيات بل تلك القواعد الأخلاقية الداعية إلى رباطة الجأش وطمأنينة النفس في وسط العواصف ، وأداء الواجبات عن طيب خاطر وقوة إرادة ، ومحبة الانسانية كلها .

وتغلب على هذه التأملات نزعة إلى وحدة وجود متفائلة . فعنده أن العالم كله وما فيه من موجودات وأحداث تسري فيه روح الألوهية ، وتقوده هذه الروح إلى غاية كلية . وهذه الروح الإلهية تتجلى أيضاً على هيئة قانون وضرورة طبيعية ، وتعني بالعالم وشؤونه . وما يجري في العالم إنما يجري عن عقل محكم وضرورة ثابتة . ومهمة الانسان هي أن يعمل على تحقيق هذه الغاية التي استهدفتها روح الألوهية . والسعادة هي في التوافق مع هذه الإرادة الكلية . والشقاء إنما يرجع إلى افتقار الانسان إلى تحصيل السعادة عن طريق الأمور الخارجية التي لا تعتمد على إرادتنا نحن ، مثل الثروة والمجد في الدنيا . وإنما تقوم السعادة في التوافق مع مجرى العالم ، وهو أمر لا يستطيع شيء في السماء ولا في الأرض أن يمنعنا



( الآداب والعلوم ) ، ومنازعات دينية حول مذهب جنسنوس بين مؤيديه ومعارضيه ، وهي الفترة التي أدين فيها أرنو Arnaud لترعته الجنتسينية ودافع عنه بسكال في رسالة المعروفة باسم Les Provinciales . وكان لهذا أثره أيضاً في اتجاه مالبرانش إلى مزيد من العزلة والبعد عن الدنيا . وحسم موقفه نهائياً لما أن توفي أبواه في عام سنة ١٦٥٨ ، فقرر الدخول في سلك الرهبنة ، ووجد في الطريقة المسماة باسم L'oratoire الطريقة الملائمة لمزاجه ، وهي طريقة أنشأها صوفي فرنسي يدعى Pierre de Bérulle في سنة ١٦١١ ، وكان يهدف منها إلى رفع مستوى رجال الدين . وقد انتشرت هذه الطريقة بسرعة مذهلة ، وساعدها على هذا مؤازرة السلطة الحاكمة ، وخصوصاً الكردينال ريشليو الحاكم الفعلي المطلق في فرنسا في النصف الأول من القرن السابع عشر . وقد جمعت هذه الطريقة بين العناية بتنشئة رجال الدين ، وبين الاهتمام بالعلوم والفلسفة .

التحق مالبرانش بهذه الطريقة ، وعلى الرغم من دراساته اللاهوتية في السوربون ، فإنه ألحق بمعهد تابع للطريقة في مدينة سومير Saumur ازدهرت فيه دراسة اللاهوت ودراسة فلسفة ديكارت . ثم عاد إلى باريس في سنة ١٦٦١ حيث أقام في البيت الرئيسي للطريقة ، في شارع سانت أونوريه ، حيث وجد فيه زميله السابق في السوربون ، ريشار سيمون Richard Simon الذي تخصص في اللغة العربية والدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس ، وهو الذي وجه مالبرانش إلى العناية بهذه الدراسات .

ورُسم مالبرانش قسيساً في ٢٠ سبتمبر سنة ١٦٦٤ .

وفي هذه السنة - سنة ١٦٦٤ - وقع بصره - وهو يتريض على شاطئ السين حيث يعرض بائعو الكتب القديمة كتبهم - على كتاب صغير صدرت له طبعة حديثة آنذاك ، وهو كتاب « الانسان » تأليف ديكارت ، فاشتراه وقراه ، فأحدثت هذه القراءة تغييراً محورياً هائلاً في نفس مالبرانش . ومنذ هذه اللحظة صار مالبرانش ديكارتي النزعة وفيلسوفاً ، أعني أنه أدرك أن رسالته الحقيقية في الحياة هي الفلسفة ، ودراسة العلوم الفيزيائية والرياضية والميكانيكية .

ولهذا أعاد تكوين نفسه ، فانكب في المدة من سنة ١٦٦٤ إلى سنة ١٦٦٩ على دراسة الرياضيات والميكانيكا والفيزياء والفسولوجيا ، فضلاً عن الميتافيزيقا والأخلاق .

- « مشكلة القلق عند كيركجور » ( سنة ١٩٧١ )

- « كيركجور المجادل » ( سنة ١٩٧٦ )

- « الفرد والواحد » ( سنة ١٩٧٨ ) .

## مالبرانش

### Nicolas Malebranche

فيلسوف فرنسي ، من أنصار مذهب ديكارت ، مع نزعة دينية وصوفية واضحة .

ولد في باريس في ٥ أغسطس سنة ١٦٣٨ من أسرة عريقة اجتمعت فيها نبالة العدالة مع اليورجوازية العالية الكاثوليكية ، وكان فيها المحامون ورجال القضاء ، كما كان فيها كتاب الملك ومستشارو الدولة ومحصلو الضرائب . أما أسرة أمه فكانت تغلب عليها النزعة الدينية الصوفية ، وكانت أمه قرية لمدام أكارى Acarie التي أدخلت في فرنسا طريقة الراهبات الكرمليات . وأبوه كان أمين صندوق خمس مزارع كبيرة ، وتوفي وهو سكرتير للملك لويس الرابع عشر .

وكان مالبرانش في طفولته معتل الصحة كل الاعتلال ، حتى قيل إنه لم يفلت من أي مرض عُرف في عصره ! وأداه ذلك إلى الانطواء النفسي ، والاقامة الدائمة بمنزل أسرته بالقرب من كنيسة نوتردام في باريس ، وتعلّم في بيته ، خصوصاً تحت رعاية والدته . وبدأ لأسرته أن المهنة الفضلى لمن في مثل حالته هي الانخراط في سلك الكهنوت ، وكان أحد أعمامه ( أو أخواله ) كاهناً قانونياً في كنيسة نوتردام في باريس .

ومع مرور العمر قويت صحة مالبرانش . ومع ذلك لم يغادر منزل أهله إلا في سن السادسة عشرة ليتحق بالمدرسة الثانوية القائمة في ميدان موير Manbert في قلب الحي الخامس في باريس ، وكانت تدعى Collège de la Marche حيث ألحق بصف الفلسفة ، وأمضى فيه عامين لم يبد فيها من تفوق . لكنه حصل على ما يسمى بشهادة maître es arts ( وهي تعادل البكالوريا ، الصف الثاني ) مما مكّنه من دخول السوربون ، في كلية اللاهوت . وكانت السوربون تعجّ آنذاك بألوان من المنازعات الحادة : منازعات بين الكليات العليا ( وهي الطب واللاهوت ) وبين الكليات الدنيا

ولقد كان مالبرانش عالماً بالمعنى الدقيق : في التاريخ الطبيعي ، والفسولوجيا ، بل وفي الهندسة والفيزياء ، وكان يجري التجارب العلمية الدقيقة .

وطارت شهرة مالبرانش في كثير من الأوساط . وكتب لدوق شفريرز كتاباً بعنوان : « محادثات مسيحية » . وصار له تلاميذ مرموقون مثل لوبتال I.Hopital والرياضي كاريه Carre . ونقل شهرته إلى الصين أحد المبشرين ، فكتب مالبرانش كتاباً بعنوان : « حديث فيلسوف مسيحي مع فيلسوف صيني » .

وعلى الرغم من ضعف بنيته وهزال صحته ، فقد عمّر طويلاً حتى بلغ السابعة والسبعين . ويقال - فيما يروي الرواة - أن الذي عجّل بموته هو زيارة الفيلسوف الانجليزي باركلي Berkeley له إذ قامت بينها مجادلة عنيفة أجهزت على بدنه النحيل المتداعي . لكن الصحيح هو أنه فقد قواه البدنية شيئاً فشيئاً وتوفي غارقاً في تأملاته الهادئة ، في ١٣ من أكتوبر سنة ١٧١٥ .

### فلسفته

رغم نزعة الديكارتيّة ، لم يسلك مالبرانش مسلك ديكارت في البدء بالشك المنهجي ، بل بدأ بتوكيد الإيمان بالله وبالوجود ، وحصر مهمة الفكر في فهم مضمون الإيمان وفي بيان الطرق المؤدية إلى وجود الله .

وعنده أن الوحي الإلهي تجرّبة ، مثل التجربة الفيزيائية ، وينبغي ملاحظتها بنفس الدقة والاهتمام اللذين نراعيهما مع التجربة الفيزيائية . ذلك أن « مبادئ معارفنا توجد في أفكارنا ، وقواعد سلوكنا - فيما يتعلق بالدين - توجد في حقائق الإيمان . وكل منهجي ينحصر في الانتباه الجاد لما ينيرني ولما يقودني » ( « محاورات في الميتافيزيقا » ) وكما أن العالم الفيزيائي يشتغل على وقائع الطبيعة ، فإن الفيلسوف الديني - في رأي مالبرانش - يشتغل على الوقائع التي تقدمها عقائد الإيمان . يقول : « إن وقائع الدين أو العقائد المقررة هي تجاربي في أمور الدين . لكن إذا شعرت ، وأنا أتبعها ، أنني أصطلم مع العقل ، فإنني أتوقف فوراً ، عالماً بأن عقائد الإيمان ومبادئ العقل ينبغي أن تكون متفقة فيما بينها بعضها وبعض في الحقيقة ، على الرغم من التعارض بينها في العقل » . . . ومن هذه الناحية تعدّ العقائد المسيحية - عند مالبرانش - سلسلة من المعطيات الإيجابية تتعلق بوجود الله

فتوفر له تحصيل واسع راسخ في هذه العلوم كلها . لكن هذا اللقاء مع العلم لم يغير من إيمانه الديني ، وهو رجل الدين ، وهو لهذا سعى إلى بيان أن الحقيقة العلمية والحقيقة المسيحية لا تتعارضان ، كلاهما بل هما في نظره حقيقة واحدة ! فسار تفكيره في هذا الاتجاه من التوفيق بين العلم والدين .

وكانت الثمرة الأولى لهذا الاتجاه أن أصدر في سنة ١٦٧٤ الجزء الأول من كتابه الرئيسي وعنوانه : « في البحث عن الحقيقة : دراسة لطبيعة عقل الانسان ولطريقته التي ينبغي عليه أن يستعمل بها عقله ابتغاء تجنب الخطأ في العلوم » .

De la recherche de la verité, où l'on traite de l'esprit de l'homme et de l'usage qu'il doit en faire pour éviter l'erreur dans les Sciences

ولقى هذا الكتاب نجاحاً هائلاً ، وسرعان ما ترجم إلى الانجليزية واللاتينية ، كما خلق لمالبرانش تلاميذ عديدين في أرجاء أوروبا . وكان السبب في هذا النجاح هو ما عالجه الكتاب من مشاكل حيّة في تلك الفترة - أعني نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، وأهمها : مشكلة المعرفة ، ومشكلة وجود الله - خصوصاً وقد واجهها مالبرانش بصراحة وبأسلوب واضح .

لكن محاولة مالبرانش الجديدة الصريحة للتوفيق بين العلم والإيمان ما لبثت أن أثارت عليه نائرة الفلاسفة واللاهوتيين معاً : الفلاسفة الديكارتيين والفلاسفة المعادين لفلسفة ديكارت ، واللاهوتيين التقليديين . فوقع معهم في مجادلات عنيفة كانت من سمات العصر . وكانت أشهر مساجلاته تلك التي قامت بينه وبين أرنولد Arnauld أحد رؤساء دير بوررويال ( ١٦٩٤ - ١٦١٢ ) وقد بدأت مساجلته معه في سنة ١٦٧٩ واستمرت عدة سنوات ، وقد استمرت مساجلات مالبرانش مع خصومه طوال أربعين سنة ، وأثارت الحماسة في عقول المفكرين في أوروبا طوال هذه الفترة . وإلى جانب أرنو ، وقعت له مساجلات مع بوسويه وفيلون . وقد أبدى مالبرانش في هذه المساجلات قلرة فائقة على الجدل والصراع مع المجادلين ومزج ذلك بحماسة وحرارة عاطفية ، لأنه كان يعتقد أنه على حق وأن رسالته تقوم في هذا الدفاع عن اتفاق العقل والإيمان - وكان يرى في هذا النضال واجباً روحياً ودينياً يحمله على الشدة في المصارعة ، رغم أنه بطبعه هادئ المزاج رقيق الحاشية .

الأقل - أن المميز الجوهرى للإنسان يقوم في اتحاده الضرورى بالعقل الكلى وإن كان لا يعرف عادة من الذى يحتوي على هذا العقل وأنه لا يعنى نفسه بالكشف عنه . إني أرى مثلاً أن  $2 \times 2 = 4$  وأنه ينبغي تفضيل الصديق على العدو وأنا على يقين بأنه لا يوجد إنسان في العالم لا يرى ما أرى أنا . لكني لا أرى هذه الحقائق في عقول الآخرين ، كما أن الآخرين لا يرونها في عقلي أنا . فمن الضرورى إذن أن يكون ما هنا عقل كلي ينيرني وينير كل عقل . لأنه لو كان العقل الذى أحتمك إليه ليس هو نفس العقل الذى يحتمك إليه الصينيون ، فمن البين أنني لن أكون متيقناً - كما أنا متيقن الآن بالفعل - بأن الصينيين يرون نفس الحقائق التي أراها أنا . وإذن فالعقل الذى نحتمك إليه حين ندخل في باطن أنفسنا هو عقل كلي وأقول : « حين ندخل في باطن أنفسنا - لأنني لا أتكلم هنا عن العقل الذى يتبعه الإنسان الوجداني » ( البحث عن الحقيقة » الايضاح رقم ١٠ ) .

وعند مالبرانش ، كما عند ديكرت أن الفكرة *idée* هي واقعة روحية مستقلة عنا لكنها حاضرة دائماً في عقلنا . والأفكار هي التي تمكنتنا من امثال الموضوعات . يقول مالبرانش : « أعتقد أن كل الناس متفقون على أننا لا ندرك الموضوعات الموجودة خارجاً عنا ، لا ندركها بذاتها . إننا نرى الشمس والنجوم وما لا نهاية له من الموضوعات الخارجة عنا ، لكن ليس من المحتمل أن تخرج النفس من الجسم وأن تذهب - إن صحَّ هذا القول - للترئص في السماوات لمشاهدة هذه الأشياء . إنها لا تراها إذن بنفسها . والموضوع المباشر لعقلنا حين يرى الشمس ، مثلاً ، هوشيء في باطن نفسنا ، وهذا هو ما أسميه « فكرة *idée* ولا أعني بكلمة « فكرة » شيئاً آخر غير الموضوع المباشر ، أو الأقرب ، للعقل حينما يدرك موضوعاً ما » . لكن إذا كان من الضرورى لإدراك موضوع ما أن تكون فكرته حاضرة في العقل ، فإنه ليس من الضرورى أن يوجد في الخارج شيء مشابه لهذه الفكرة ، فكثيراً ما يحدث أن ندرك أشياء غير موجودة ، بل ولم توجد قط . فمثلاً إذا تخيل الإنسان جبلاً من الذهب فلا بد أن تكون فكرته حاضرة في العقل ، لكن هذا الجبل لم يوجد أبداً .

#### ٢ - العلاقة بين النفس والجسم :

وفىما يتصل بالعلاقة بين النفس والجسم ، يقرر مالبرانش أن اتحاد النفس بالجسم لا يؤدي إلى أن تصبح النفس جسماً ، أو الجسم نفساً . والنفس ليست منتشرة في

وبالإنسان ، والخطيئة الأولى ، والخلاص وخلود النفس والتجسد ، والتثليث ، ودور المسيح في الفداء والخلص . ومن هذه العقائد يتخذ مالبرانش نقطة ابتدائه للتأمل النظري وضوابط للنتائج التي يفرضي إليها هذا التأمل .

واعتماداً على هذا المنهج قرر مالبرانش النظريات التالية :

١ - الرؤية في الله *La Vision en Dieu* أراد مالبرانش أن يرد كل شيء إلى الله ، بوصفه خالق كل شيء . وعلى هذا الأساس ، رد كل أفكارنا إلى الله . ففكرة الأجسام موجودة بالضرورة في الله ، إذ من الواضح أن الله يحتوي بالضرورة على أفكار الموجودات التي خلقها . ومن ناحية أخرى فإن النفس الانسانية متحدة مباشرة بالله ؛ وهذا الاتحاد هو الذى يمكنها من ادراك اللامتناهي . والنفس لا تترك الأشياء إلا بوصفها تجليداً للامتناهي ، أعني بأنها لا تتركها إلا من جهة أفكارها وهي تترك هذه الأفكار بالرؤية في الله *La Vision en Dieu*

ذلك أن العقل لا يستطيع أن يدرك الأفكار الكلية : مثل الجنس والنوع إذا لم يشاهد الموجودات مجتمعة في واحد ، « لأنه لما كان كل مخلوق هو موجود جزئي ، فلا يمكن أن نقول إننا نرى شيئاً مخلوقاً حينما نرى مثلاً ، مثلاً بوجه عام . وأخيراً فإننا لا نعتقد أن من الممكن بيان الكيفية التي بها العقل يعرف كثيراً من الحقائق المجردة والعملة إلا ( بتقدير ) حضور من يستطيع أن ينير العقل على أنحاء عديدة لا متناهية » .

وبعبارة أسهل نقول : إننا إنما ندرك الأشياء بواسطة الأفكار الكلية ، والأفكار الكلية لا توجد في المخلوقات الفردية ، بل في الله . إذن نحن إنما ندرك جميع الأشياء في الله وهذا هو معنى قولنا : رؤية في الله . ولهذا يؤكد مالبرانش أن : « العقول تترك كل الأشياء بواسطة الحضور الباطن لمن يشمل كل شيء في بساطة وجوده » .

لكن ، كيف نرى كل الأشياء في الله ؟ .

يقول مالبرانش : « لا يوجد إنسان لا يقر بأن الناس قادرون على معرفة الحقيقة وحتى الفلاسفة الأقل تنوراً متفقون على أن الإنسان يشارك في نوع من «العقل» لا يحدونه . ولهذا يحدونه بأنه « حيوان يشارك في العقل » *rationis parti cepis* animal إذ لا يوجد شخص لا يعرف - على نحو غامض على

أن تكون خالقة ، لكن الانسان لا يستطيع خلق أي شيء والخالق الوحيد هو الله . ولهذا فإن العلة الحقيقية هي الله ، وما نسميه « العلة الطبيعية » ، ما هو إلا « الفرصة » التي يحدث فيها الله فعله . والله لا يمنح قدرة الخلق لأي كائن آخر . ولذلك ينبغي أن نقول في تفسير المثل السابق إن الله يحرك ذراعي « بمناسبة » ( في فرصة ) إرادتي أن يتحرك ذراعي .

٤ - الله هو الفاعل الوحيد :

الخلاصة هي أن الله هو العلة الفاعلة الوحيدة لكل شيء بما في ذلك كل فعل يفعله الانسان وكل أثر تحدثه القوى الطبيعية « لقد أراد الله منذ الأزل ، وسيظل يريد إلى الأبد ، وبعبارة أكثر تحديداً : إن الله لا يتوقف عن أن يريد - لكن ذلك يتم بدون تغير ولا توالٍ ولا ضرورة - أن يريد أن يحدث على مدى الزمان » ( « مطارحات في الميتافيزيقا » ٧ : ٢ ) ولهذا فإن من التناقض إن يقال إن جسماً يحرك آخر . بل أقول أكثر من هذا : إن من التناقض أن تقول إنك تحرك كرسيك . . . . ولا تستطيع قوة أن تنقله إلى حيث لا ينقله الله أو تضعه حيث لا يضعه الله . ( « مطارحات في الميتافيزيقا » ٧ : ١٠ ) .

٥ - حرية الانسان : لكن إذا كان الله هو العلة الفاعلية الحقيقية الوحيدة ، فمعنى هذا أن الانسان ليس حراً في أفعاله وبالتالي ليس مسؤولاً عنها .

ويحار مالبرانش في حل هذه المسألة لأنه لا يريد أن يقول بالقضاء والقدر المطلق ، حتى يبقى على المسؤولية، فنراه يتحدث عن الخير ويقول إن الخير الوحيد هو تمجيد الله ، وإن الله أودع قينا الميل إليه ، لكن الخطيئة الأولى صرفت الانسان عن طلب هذا الخير المطلق . ونحن لسنا أحراراً بالنسبة إلى هذا الخير اللامتناهي ، لكننا أحراراً بالنسبة إلى الخيرات الجزئية المتناهية . فمثلاً لو أننا تطلعتنا إلى منصب رفيع ، فإننا نتبين بعد ذلك أن هذا المنصب ليس هو الخير المطلق ، فنكون أحراراً في الانصراف عنه إلى خير آخر . وتلك هي الحرية في نظر مالبرانش ! فأنا حر من حيث أنني أقدر على رفض هذا الخير الجزئي ( المنصب الرفيع ) ! .

ومن ناحية أخرى يعزو مالبرانش إلى « السقوط » ( أو الخطيئة الأولى ) كون النفس صارت بعد ذلك خاضعة ومتأثرة بالبدن . إن آدم ، قبل الخطيئة ، كان قادراً على وقف عمل

كل أجزاء الجسم لتزوده بالحياة والحركة ، كما يتصور ذلك الخيال . وكذلك الجسم لا يصير - باتحاده بالنفس - قادراً على الشعور ، « بل يظل كل جوهر ( النفس والجسم ) على ما هو عليه ، وكما أن النفس ليست قادرة على الامتداد والحركة ، كذلك الجسم ليس قادراً على الشعور والنزوع . وكل الاتحاد بين النفس والجسم بحسب ما نعرف يقوم في التناظر الطبيعي والتبادل بين أفكار النفس وبين الآثار المطبوعة على المخ ، والتناظر بين انفعالات النفس وبين حركات الأرواح الحيوانية . فمتى ما تلقت النفس أفكاراً جديدة انطبعت في المخ آثار جديدة، ومتى ما أحدثت الموضوعات آثاراً جديدة، تلقت النفس أفكاراً جديدة » ( « البحث عن الحقيقة » الكتاب الثاني، القسم الأول، فصل ٥ ، البنود الأول والثاني ) .

وهذا تقرير للثنائية الديكارتية التي تفصل تماماً بين الجسم والنفس مما أدى بالديكارتيين إلى البحث عن تفسير لهذه الواقعة وهي أنه كلما حدث انطباع في الجسم حدثت فكرة في النفس ، فقال بعضهم تفسيراً لذلك إنه كلما حدثت حركة في النفس أحدث الله في الجسم حركة مناظرة لها ، والعكس . وهذه هي النظرية المعروفة بالافتراضية occasionalisme ، أي أن حدوث حركة في النفس « فرصة » لكي يحدث الله حركة في الجسم .

ف رأي مالبرانش إذن هو أن العقل والجسم جوهران مستقلان ؛ بينهما تناظر ، لكن ليس بينهما فعل متبادل . إن العقل يفكر ، ولكنه لا يحرك الجسم والجسم آلة ( ماكينة ) متكيفة مع العقل ، لكن النفس ليست صورة للجسم كما ذهب إلى ذلك أرسطو . يقول مالبرانش : « يبدو لي من المؤكد أن الإرادة في الكائنات الروحية عاجزة عن تحريك أصغر جسم موجود في العالم ؛ لأنه من التين أنه لا توجد رابطة ضرورية بين إرادتنا ، مثلاً ، وتحريك ذراعنا وبين حركة الذراع . صحيح أنها تتحرك حين نريد وأنا نحن العلة الطبيعية لحركة ذراعنا لكن العلة الطبيعية ليست أبداً هي العلة الحقيقية : إنها فقط علة افتراضية Causes occasionnelles تفعل فقط بقوة وفاعلية ارادة الله » ( « البحث عن الحقيقة » ٦ : ٢ : ٣ ) .

٣ - العلة الافتراضية .

ويشرح مالبرانش ما يعنيه بـ « العلة الحقيقية » فيقول : « العلة الحقيقية هي تلك التي يدرك العقل بينها وبين معلولها ارتباطاً » ( الموضع نفسه ) . إن العلة لكي تكون حقيقية يجب

رياضية . صحيح أن هذه ليست كميات قابلة للوزن أو القياس حتى تكون دقيقة كالمقادير الرياضية لكن يمكن مع ذلك تقرير « نظام » ordre بين هذه المعاني الكيفية التي هي المعاني الأخلاقية .

ويقرر مالبرانش أنه لا توجد فضيلة سوى حبّ النظام ، وبدون هذا الحب تصبح كل الفضائل زائفة .

وينبغي عدم الخلط بين الفضائل والواجبات ، إذ يمكن أداء الواجبات دون أن يكون ثمّ فضيلة .

وعدم استشارة العقل هو السبب في ارتكاب أفعال مرذولة . والايان يقود إلى العقل ، لأن العقل هو القانون الكلي لكل الأذهان .

وحب النظام لا يختلف عن المحبة la charité : فأولها هو حب النظام ، والثاني هو حب الاحسان .

#### مؤلفاته

نشرت طبعة كاملة لمجموع مؤلفات مالبرانش في ٢٠ مجلداً لدى الناشر Vrin في باريس، وبيانها كما يلي:

- I. De la Recherche de la vérité, livres 1-3
- II. De la Recherche de la Vérité, livre 4-6.
- III. De la Recherche de la Vérité: Eclaircissements, Paris 1962, 1964.
- IV. Conversations Chrésiennes, 1959, XX-IV + 255 P.
- V. Traité de la nature et de la grâce, p. 6- LVIII- 228, Paris, 1958.
- VI- VII: Recueil des toutes les réponses à Monsieur Arnauld, I- XXVII 617, Paris, 1966
- VIII- IX: Recueil de toutes les réponses à Monsieur Arnauld, P. 621- 1227, Paris, 1966.
- X Méditations Chrésiennes et métaphysiques p. 6- XXIV- 254 Paris, 1959.
- XI Traité de Morale, p. 6- XVII + 312. Paris, 19 1966.
- XII- XIII Etretiens sur la métaphysique et sur la religion- Entretien sur la mort; XXII- 420. Paris, 1966.
- XIV. Traité de l'amour de Dieu - Lettres et réponses au R. P. Lamy., p. 6- XXXVI- 256. Paris, 1963.
- XV. Entretien d'un philosophe chrétien et d'un philo-

قانون التوازي بين النفس والجسم (راجع ما قلناه في رقم ٢) ، أما بعد الخطيئة فلم يعد في وسعه - ولا ذرية بني الانسان - أن يفعل ذلك ؛ بل لا بد من ظهور آثار في المخ لما يجري في النفس . ولقد صارت النفس ، بعد الخطيئة ( الأولى ) شبه جسمانية بواسطة الميول . وحبها للأمور الحسية يقلل باستمرار من اتحادها أو ارتباطها بالأمور المعقولة « ( البحث عن الحقيقة » ١ : ١٣ : ٤ ) . لكن العقل يستمر في نفس الوقت ، في المشاركة فيها هو إلهي . ولهذا فإنه قادر على صرف النفس عن الأمور الحسية ، وطلب الخير المطلق الذي هو الله . وتلك هي الحرية .

وواضح ما في هذا التفسير لمعنى الحرية من تعسف واغتصاب .

٦ - الله :

ومالبرانش يصف الله بأنه « اللامتناهي » ، ويرى أن اللفظين : الله واللامتناهي مترادفان .

ولعرفة ماهية الله يرى أن خير وسيلة لتحريف الله أن تعرفه بما عرف به نفسه وهو يكلم موسى : « أنا من أنا ... » فالله هو الوجود بالمعنى المطلق ، أو هو الوجود المطلق . ويصفه أيضاً بأنه « الموجود اللامتناهي في كماله » أو « الموجود الكامل كمالاً لا متناهيًا » . وانطلاقاً من هذا يصف الله بأنه : لا يتغير ، قادر ، سرمدي ، واجب الوجود ، حاضر في كل مكان « ( مطارحات في الميتافيزيقا » ٨ : ٣ ) .

وفي الله توجد « أفكار » ( صور ) كل الأشياء التي خلقها ، والألما كان قد استطاع أن يخلقها « ( البحث عن الحقيقة » ٣ : ٢ : ٦ ) والله حاضر فينا « إلى درجة أن في وسعنا أن نقول إنه محل الأرواح ، كما نقول عن المكان إنه محل الأجسام » ( الموضوع نفسه ) .

٧ - الأخلاق :

وكما لا نرى إلا في الله ، كذلك نحن لا نفعل إلا في الله ، لأن الله كما قلنا هو وحده العلة الحقيقية . ونحن لا نفعل إلا أن ننمي بأفعالنا أسلوب قوانين الله الثابتة . إن عالمتنا لا يوجد إلا من أجل نظام ordre إلهي لا يمكن لغير العقل أن يتأمله . والذي يستطيع أن يجمع بين دقة العلم ومقتضيات الايمان يستطيع أن يدرك عالم الحقائق الأخلاقية وكأنها حقائق

ولد في سنة ١٨٥٩ في لوبلين Lublin في بولنده وكانت  
آنذاك روسية ، ومن أسرة يهودية . وتوفي في باريس سنة  
١٩٣٣ .

تعلم في هيدلبرج علم الكيمياء ، وتعلم على  
الكيميائي والفيزيائي الشهير بونزن Bunsen ( ١٨١١ -  
١٨٩٩ ) الذي كان أستاذاً في جامعة هيدلبرج منذ سنة  
١٨٥٢ .

ثم ارتحل مايرسون إلى فرنسا في سنة ١٨٨١ ، وتوزع  
نشاطه بين العلوم ، والأدب ، والقانون ، والإعلام . وعني  
بتاريخ الكيمياء ، وانتقل عنه إلى فلسفة العلوم ، وكانت  
ثمرة عمله المتواصل في فلسفة العلوم الكتاب الذي أصدره في  
سنة ١٩٠٨ بعنوان : « الهوية والواقع » . ثم أصدر في سنة  
١٩٢١ كتاباً آخر في تاريخ الفكر العلمي بعنوان : « التفسير  
في العلوم » . وفي سنة ١٩٢٤ أصدر كتابه : « الاستنباط  
النسي » وفي سنة ١٩٣١ كتابه : « في سير الفكر » .

والنقطة الرئيسية في فكر مايرسون هي : أن يفهم هو  
أن يقرر الهوية ، وينشد نفس الشيء ؛ وأن يضع جوهرأ  
تحت أعراض أو خواص وصفات ؛ وأن يبرهن على وجود  
علل خلف المعلولات المتحركة المتغيرة .

وشرح ذلك أن الوجود متنوع جوهرياً : في المكان ،  
مثل نباتات يستان ، وفي الزمان مثل اختلاف النار عن الرماد  
الذي يتلوها ، ومثل اختلاف الشباب عن الشيخوخة ،  
والفجر عن الليل . لكن العقل ، في مواجهة هذا التنوع  
المختلف ، لا يكف عن نشدان الهوية ، وذلك منذ بداية  
تفكيره : فالقضية الحتمية تعبير عن هوية بين المحمول  
والموضوع بإدراج الموضوع تحت المحمول ( الانسان تحت  
الحيوان ) . والعقل حين يبرهن إنما يقرر هوية ، لأن البرهنة  
في جوهرها استنباط ، والاستنباط هو استخلاص نتيجة من  
مقدمات كانت تتضمن هذه النتيجة . والعقل يسعى إلى  
الهوية أيضاً حين يفسر المعلولات بالعلل التي أنتجتها .

ولا يستطيع العقل أن يدرك من الواقع إلا ما يمكن  
رده إلى الهوية . ولكن العالم هو العالم بما فيه من تنوع  
واختلاف بقدر ما فيه من هوية تنشأ الوحدة والاتلاف ولهذا  
فإن العقل سيقظ أسيراً لهذه المحرجة الواقعة بين الاختلاف  
والهوية : فإما أن يتخيل نفسه قادراً على تفسير كل شيء  
بواسطة الهوية ، أي أن يشتق كل المتنوع من الهوية ، في هذه

sophie chinois, 6- XXX-IV- 92. Paris, 1958

XVI. Reflexions sur la prémotion physique, p. 6- XXII-  
228. Paris, 1958

XVII- 1 pièces jointes et écrits divers, p. 688. Paris,  
1960.

XVII. 2. Correspondance et actes (1638- 89), p. VIII-  
544. Paris, 1961.

XIX: Correspondance et actes (1638- 89), p. VIII- 544.  
Paris, 1961.

XIX. Correspondance et actes (1690- 1715) VI, 545-  
1128, Paris, 1961.

XX. Documents biographiques et bibliographiques, p.  
489. Paris, 1967.

### مراجع

- E. Blampignon: Etude sur Malebranche. Paris, 1962

- F. Bouillier: Histoire de la philosophie Cartesienne.  
Tome II, Paris, 1868.

- V. Dellbas: Etude sur la philosophie de Malebranche:  
Paris Vrin, 1924.

- H. Gouhier: La vocation de Malebranche. Paris, 1926

- H. Gouhier: La philosophie de Malebranche et son  
expérience religieuse. Paris 1948.

- M. Gueroult: Malebranche. T.I: la vision en Dieu,  
Aubier, 1955; t. II, les cinq abîmes de la providence, 1)  
L'ordre et l'occasionalisme, 1959, (2) la nature et la  
grâce, 1959.

- G. Dreyfus: La volonté selon Malebranche. Paris,  
Vrin, 1958.

- A. Robinet: Système et existence dans, l'œuvre de  
Malebranche. Paris, Vrin, 1965.

- P. Ducassé: Malebranche, P.U.F., Coll. Philosophes,  
1968.



معقول جزئياً ، ومعرفتنا العلمية تخرج بها عناصر قبلية وأخرى بعدية . ( « الهوية والواقع » ص ٣٦٦ ) .

« والقانون ، كما يفهمه العلم حقاً ، بناء مثالي وصورة لانتظام الطبيعة حولها عقلاً ، ولا يستطيع إذن أن يعبر عن الواقع مباشرة وأن يكون مطابقاً له . والقانون لا يوجد قبل أن نصوغه نحن ولن يوجد بعد أن نكون قد صهرناه في قانون أشمل » ( « الهوية والواقع » ، ص ٢٨ ) .

وفي كتابه : « التفسير في العلوم » ( في مجلدين ، باريس سنة ١٩٢١ ) بين مايرسون أن العلم أنطولوجي في جوهره ، ويأته يميل إلى تجاوز البحث عن القانون بالبحث عن التفسير . والتفسير يهدف في المقام الأول إلى استنباط الظاهرة ابتداءً من مقدماتها التي ستكون هذه الظاهرة نتيجتها المنطقية . وهذه عملية تقوم على مصادرة هي الايمان بمعقولة الطبيعة . وهي معقولة لا يمكن تحقيقها إلا بتطبيق صورة الهوية على الاستنباط العلمي .

وهو يقصد بقوله إن العلم أنطولوجي في جوهره أنكار مذهب الظاهرية القائل بأنه لا يوجد إلا ظواهر ، ولا توجد أشياء في ذاتها ، فقوله « أنطولوجي » أي يتعلق بوجود أشياء بالفعل ، وليس مجرد ظواهر .

ويرفض مايرسون التصور البرجاني للعلم ، فيقول : « ليس صحيحاً أن الغرض الوحيد من العلم هو العمل ، ولا أن همه الوحيد هو الاقتصاد والتنظيم في العمل ، بل العلم يريد أيضاً أن يجعلنا نفهم الطبيعة ، ونحو حقاً - على حد تعبير لوروا - إلى التعقيل التدرجي للواقع » ( « الهوية والواقع » ص ٣٥٣ ) . لكن الاتفاق بين الصورة العلية وبين الظاهرة ، بين الفكر وبين الطبيعة ، لا يمكن أن يكون تاماً ؛ وإنما توجد مناظرة analogie عتيقة حقيقية بين كليهما .

وفي كتابه « في سير الفكر » ( في ثلاثة مجلدات ، باريس ، ألكان ، سنة ١٩٣١ ) يؤكد مايرسون أن الاتجاه العام الذي يجرز في كل علم هو اتجاه واحد هو سيادة المعقول وما هو في حالة هوية على ما هو في حالة اختلاف وهو ما يعرضه لنا الاحساس . وتجل هذا الاتجاه بكل جلاء في الرياضيات إذ هي تسعى دائماً إلى جعل الواقع معقولاً ، وفي كل استنباط رياضي يدخل جانب من الهوية يجعلنا على الاقتناع بطريقة مختلفة تماماً عما يفعله التجريب وحده .

الحالة يجري وراء سراب وهو ربما لا يدري بذلك ، لأنه إذا كان الوجود في جوهره متنوعاً ، فإن الهوية الحقة لن تكون إلا العدم ، وسيكون على العقل حينئذ أن يستبسط الوجود من العلم ، وإما أن يتقبل أن الجزء الأكثر تشويقاً من الواقع يقاومه دائماً كلما توغل في معرفته ، أي أن امتداد ما هو في حال هوية يكشف عن المزيد من عدم إمكان رد المتنوع إلى الوحدة ، وحينئذ سيلزم عن تقدم المعرفة ازدياد الشعور بوجود اللامعقول .

وفيما يتصل بنقد العلم ، استطاع مايرسون أن يتابع الطريق الذي سلكه نقاد العلم في فرنسا ، مثل پوانكاريه وبوترو ودوهم ولوروا ؛ وقد ساعده على ذلك معرفته الدقيقة بالعلوم ، خصوصاً الكيمياء . واستناداً إلى ثلاثة كيميائيين بارزين هم برتوليه Berthollet ودافي Davy وليبيج Liebig بين مايرسون أن التجريبية - بالمعنى الذي قصده فرانسس بيكون Bacon - غير مقبولة ، وأن « البحث العلمي تسوده دائماً أفكار سابقة وفروض . إن الفروض - بعكس ما اعتقده بيكون - لا غنى عنها لإرشادنا في السير » ( « الهوية والواقع » ص ٦٠ من الاستهلال ، باريس ، ١٩٠٨ ) . ويستشهد بقول برتوليه « إنه لاجراء تجريبية ينبغي أن يكون أمامنا هدف وأن نسترشد بفرض » ، ويقول همفري دافي إنه « لا أمل لنا في اكتشاف النظام الصحيح للطبيعة إلا بتكوين النظريات ومقارنتها بالوقائع . وليبيج - Liebig بعد أن صرح بأن بين التجارب بالمعنى الذي يقصده بيكون ، وبين الأبحاث العلمية الحقيقية توجد نفس النسبة القائمة بين الضجة التي يحدتها طفل وهو يضرب على الصنج وبين الموسيقى - يوضح أن الخيال العلمي هو الذي يلعب في الاكتشاف أكبر دور ، وأن التجربة ، مثلها مثل الحساب ، لا تفيد إلا في مساعدة عملية التفكير .

وبين مايرسون أن النظريات العلمية وقوانين الطبيعة ليست أبداً نسخاً من المعطى الساذج ، بل يتدخل في تكوين النظريات العلمية مبدآن هما : مبدأ القانونية ، ومبدأ العلية . والقانونية لا تعبر عن الواقع ، لأنها تفترض استبعاد العناصر المتحرقة وقسر الطبيعة على الدخول في قالب عقلي مفروض عليها من العقل . ومبدأ القانون ومبدأ العلية كلاهما ليس من نتاج التجربة ، بل هو متأصل في طباعنا نحن .

ومبدأ الهوية هو الجوهر الحقيقي للمنطق ، والقالب الصحيح الذي فيه يصب الإنسان فكره . ويقول : إن الواقع



لكن متجرت في هذه الكتب ينقد هيغل ، ولا يمكن الاعتماد عليها كتفسير نزيه لمذهب هيغل .

و متجرت أودع فلسفته الخاصة في كتابه «طبيعة الوجود the Nature of Existence ( ظهر في جزئين ، الأول في سنة ١٩٢١ ، والثاني نشر بعد وفاته في سنة ١٩٢٧ بعناية برود (C. D. Broad

في هذا الكتاب يعنى متجرت بتحديد خصائص الوجود بعامة . لكنه في الواقع إنما يحدد الخصائص التي ينبغي أن تكون لكل موجود . ومن هنا استخدم منهج الاستنباط القبلي .

يقر متجرت بمقدمتين تجريبتين ، هما : هاهنا وجود ، والوجود تفاضل differentiation والمقدمة الأولى تعرف بالتجربة المباشرة ، لأن كل إنسان يشعر أنه موجود ؛ وحتى لو أنكر ذلك فإنكاره ينطوي على توكيد لوجوده . والمقدمة الثانية قبلية ومفادها أن الوجود بعامة متفاضل ، أي أن هاهنا جواهر عديدة . والإدراك يدل على هذا . وحتى لو قلنا إن الإدراك الحسي Perceptin علاقة relation ، فكل علاقة تقتضي أكثر من حد .

يوجد إذن شيء . لكن هذا لا يمكن أن يكون الوجود نفسه ، لأننا لو قلنا إن ما يوجد هو الوجود ، لكننا بإزاء خواء مطلق . إن ما يوجد يجب أن يملك صفة ( أو صفات ) أخرى إلى جانب الوجود . والصفة المركبة ، المؤلفة من كل صفات الشيء ، يمكن أن تسمى طبيعته . بيد أننا لا نستطيع أن نحل الشيء إلى صفاته دون أن تبقى باقية . « فعل رأس السلسلة سيكون هناك شيء موجود له صفات دون أن يكون هو نفسه صفة . والاسم المعتاد لهذا الشيء هو الجوهر sub-stance ، وأظن أنه أفضل اسم يمكن أن يطلق عليه » ( « طبيعة الوجود » ص ٢٥ ) . وقد يعترض على هذا فيقال إن الجوهر بدون صفاته لا يمكن تصوره ، لكن لا يمكن أن يتبع من هذا أن الجوهر ليس شيئاً ممزوجاً بصفاته .

ولما كانت التجربة تدلنا على أن هاهنا موجوداً ، فلا بد أن هاهنا جوهرأ على الأقل . ولما كنا قد أقررنا بالتفاضل ، أي بوجود كثرة في الوجود ، فلا بد أن نقر بوجود علاقات ، لأنه مادام توجد كثرة من الجواهر ، فلا بد أن تكون متشابهة وغير متشابهة ، في كونها جواهر ، وغير متشابهة لكونها متميزة . والتشابه واللاتشابه هما علاقتان .

## مراجع

- G. Boas: A critical analysis of Emile Meyerson. Baltimore, 1903.
- Bulletin de la Société française de Philosophie, numéro de avril 1961, عدد خاص بمايرسون بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته
- Th. R. Kelly: Explication and Reality in the Philosophy of Emile Meyerson. Princeton, 1937.
- A. Lalande: «L'Epistémologie d'Emile Meyerson, in Revue Philosophique, vol. 96 (1922)
- Lichtenstein: « la Philosophie des mathématiques selon M. Emile Meyerson », in Revue Philosophique, mars - avril, 1932.
- A. Metz: Meyerson, une nouvelle Philosophie de la Connaissance, 2 ed. Paris, 1934.

## متجرت

## John Metaggart Ellis Metaggart

فيلسوف مثالي هيغلي بريطاني .

ولد في لندن سنة ١٨٦٦ . تعلم في كلفتون ، ثم في كلية الثالوث (ترنقي) في كامبردج ، حيث حصل على البكالوريوس في الآداب B.A. في سنة ١٨٨٨ . وعين زميلاً في كلية الثالوث في سنة ١٨٩١ . وفي السنة التالية زار نيوزيلندة . ثم عاد وأقام في كامبردج أستاذاً في جامعة كامبردج منذ سنة ١٨٩٧ حتى تقاعده في سنة ١٩٢٣ . وتوفي فجأة في يناير سنة ١٩٢٥ . كان متجرت شديد الإعجاب بهيغل لأنه وجد فيه أعمق الفلاسفة نفوذاً في طبيعة الوجود . فكرس جهده لدراسة طويلة لمذهب هيغل ، وكانت ثمار هذه الدراسة ثلاثة مؤلفات ممتازة هي :

- ١ - « دراسات في الديالكتيك الهيغلي » Studies in Hegelian Dialectic, 1896
- ٢ - « دراسات في الكوسمولوجيا الهيغلية » Studies in the Hegelian Cosmology, 1901
- ٣ - « شرح على منطق هيغل » Commentary in Hegel's Logic, 1910

والشكل . ولهذا فإن المادة لا يمكن أن تكون من بين الأمور الموجودة : إنها لا يمكن أن نصف الكون . والتناظر المحدد هو التناظر بين الجوهر وبين أجزائه .

بقي لدينا الروح . صحيح أنه لا يوجد برهان على أنه لا يوجد غير الروح ، إذ يمكن أن يوجد شكل من أشكال الجواهر ، لم ندركه في التجربة ولم نتخله ، يفني بما يقتضيه وجود جوهر ، لكنه ليس روحياً مع ذلك . بيد أنه لا يوجد لدينا سبب إيجابي لادعاء وجود مثل هذا الجوهر . ولهذا فمن المعقول أن نستتج أن كل جوهر هو روحي .

ما هي طبيعة الروح ؟ يقول متجرت : « أقترح أن أعرف صفة الروحية بأن أقول إنها صفة امتلاك مضمون كلة هو مضمون ذات واحدة أو أكثر » ( « طبيعة الوجود » ص ٣٨١ ) . وهكذا فإن الذوات selves روحية ، وكذلك أجزاء الذوات وأصناف الذوات .

فإذا كانت الروح هي الشكل الوحيد الممكن للجوهر ، فإن الكون أو المطلق سيكون هو جماعة أو نظام الذوات ، والذرات هي أجزاؤه الأولية . أما أجزاؤه الثانوية ، في كل الدرجات ، فهي الإدراكات التي تولف مضمونات الذوات . وفي هذه الحالة لا بد أن يكون ثم علاقات تناظر محدد بين هذه الأجزاء .

وهنا تتساءل : هل الذوات selves خالدة ؟ إن الجواب عن هذا السؤال يتوقف على وجهة النظر التي نتخذها . ذلك أن متجرت ينكر حقيقة الزمان ، بدعوى أن توكيد حقيقة السلاسل الزمانية للماضي والحاضر والمستقبل ترغماً على أن نعزو إلى أي حادث تحديدات يتعارض بعضها مع بعض . ومن هنا فإننا إذا اتخذنا وجهة النظر هذه ، فإن علينا أن نصف الذوات بأنها سرمدية أو لا زمان لها ، أولى من أن نعتها بأنها خالدة ، لأن هذا اللفظ : الخلود ، يتضمن امتداداً زماً لا يتتهي . ومن ناحية أخرى فإن الزمان يتنسب إلى مجال الظواهر . وستبدو الذات أنها باقية خلال كل الزمان المستقبل . « نتيجة لهذا ، فإنني أرى أننا نستطيع أن نقول بحق إن الذات خالدة » ( « طبيعة الوجود » ص ٥٠٣ ) . وفي هذه الحالة ينبغي أن نفهم أن الخلود يتضمن وجود النفس قبل اتحادها بالبدن .

وهكذا يرى متجرت أن القول بأن الأفراد خالدون قول على حظ لا بأس به من الوجاهة ، على الرغم من إنكاره

ومن رأي متجرت أن كل علاقة تولد صفة مشتقة في كل واحد من حدودها ، أعني صفة كونها حدّاً في هذه العلاقة . والعلاقة المشتقة تتولد بين كل علاقة ( إضافة ) وبين كل واحد من حدودها . وهكذا نحصل على سلاسل لا نهائية .

ولا بد أن تكون الجواهر غير متشابهة على نحو ما . لكن هناك مشابهاً تمكن من ترتيبها في مجاميع ، ومجاميع مجاميع . والمجموعة تسمى « صنف » group ، والجواهر التي تؤلفها هي « أعضاؤه » members . والصنف في نظر متجرت هو جوهر . فمثلاً صنف كل المواطنين الفرنسيين هو جوهر يملك صفات خاصة به ، مثل أنه يكون أمة . ولما كان لا يوجد جوهر بسيط بساطة مطلقة ، فإن الجوهر المركب لا يمكن أن يكون أعضاؤه جواهر بسيطة . لكن قد يحدث أن يكون صنفان يؤلفان جوهرًا واحدًا ، مثلاً : محافظات إنجلترا وإبروشيات إنجلترا يؤلفان صنفين لكنها معاً يكونان جوهرًا واحدًا .

ولا بد من وجود جوهر مركب يحتوي على كل ما هو موجود ، وفيه كل جوهر آخر هو جزء منه . « وعلينا أن نسمي هذا الجوهر باسم الكون » the Universal « ( « طبيعة الوجود » ص ١٣٥ ) . والكون يؤلف وحدة عضوية فيها « كل ما يوجد ، سواء الجواهر والخصائص ، مترابط بعضه ببعض في نظام ذي تحديد خارجي » ( الكتاب نفسه ، ص ١٣٧ ) .

« ويبدو الكون ، في بادئ الرأي prina facie ، أنه يحتوي جواهر من نوعين مختلفين تمام الاختلاف هما : المادة والروح » ( الكتاب نفسه ص ٣٥٢ ) . لكن متجرت لا يقر بحقيقة المادة ، بدعوى أنه لا شيء يتصف بأنه مادي يمكن أن يكون بين أجزائه علاقة التناظر المحدد التي لا بد أن توجد بين الأجزاء الثانوية للجوهر . فلتفرض جدلاً أن شيئاً مادياً له جزآن ، يمكن وصف أحدهما بأنه أزرق ، ويمكن وصف الثاني بأنه أحمر ، ويكون هذا الوصف وافياً . فوفقاً لمبدأ التناظر المحدد لا بد أن يكون هناك جزء ثانوي للجزء الأولي الموصوف بأنه أزرق يناظر الجزء الأولي الموصوف بأنه أحمر . أي أن هذا الجزء الثانوي سيكون أحمر . لكن هذا غير ممكن منطقياً ، لأنه لا يمكن أن يوصف جزء أولي ، وصفاً وافياً ، بأنه أزرق ، إذا كان أحد أجزائه الثانوية أحمر . ويمكن استنتاج نتائج مشابهة إذا نظرنا في صفات مثل الحجم

الحالة يتصور المثالي أن الواقع ناقص ، إذ يقسه بالمثل الأعلى الذي يتخيله . وعلى هذا النحو يكون « المثالي » هو « ما ليس واقعياً » . ويقال « المثالي » في مقابل « الواقعي » .

وهذا التمييز قد يعبر عنه بأنه التمييز بين ما هو نتاج الفكر والتخيل ( المثالي ) وبين ما هو نتاج الإدراك الحسي المباشر ( الواقعي ) . وعلامة الثاني هو أنه مرتبط بزمان ومكان ، بينما الأول ( المثالي ) غير مرتبط بزمان ومكان . لكن اعترض على ذلك بالقول بأن ثم أموراً واقعية لا ترتبط بالزمان ، مثل الأشكال الهندسية . ولهذا عدل البعض علامة التمييز بين المثالي والواقعي بأن قال إن المثالي ليس متصوراً قبلياً a Priori على زمان معين محدد ( لأنه صادق بالنسبة إلى أي زمان ) ؛ بينما الواقعي مرتبط بزمان ومكان .

وجنس التصورات المثالية ينقسم إلى نوعين : الأول هو نوع تلك التصورات المثالية التي ليست لها غير أهمية نظرية ، مثل الأشكال المنطقية الصادرة عن الفكر المحض ، ومثل الأشكال الهندسية الناشئة عن ملكة الخيال المحض ، التي يمكن تعيينها مكانياً ، لكن ذلك يجري في أي زمان . والنوع الثاني هو التصورات المثالية ذات الأهمية العملية ، مثل القوانين التي تحدد السلوك ، ومثل القوانين التخيلية بواسطة ملكة الخيال .

أما جنس التصورات الواقعية فيشمل التصورات المرتبطة بالزمان سواء منها ما يجري داخل النفس ويبحث فيه علم النفس ، وما هو مرتبط بالزمان والمكان معاً من تصورات يؤلفها الإدراك الحسي .

لكن من أين يأتي التصور المثالي ؟ إنه وإن كان لا يوجد له مناظر في الواقع ، فإن العناصر التي يتألف منها مأخوذة من الواقع ، أعني من ميدان التصورات الخارجية والباطنة المعروفة لنا في الواقع . إن مهمة ملكة الخيال هي التأليف فقط بين معطيات الواقع على نحو يختلف عن التركيبات المدركة في الواقع ، ويتجاوزها ويسمو عليها ، وذلك باستبعاد كل أوجه النقص التي أدركناها في التصورات الواقعية . والمثال يكون بعيداً عن العيان الباطن والخارجي بحيث لا يمكن أن يتحقق واقعياً . ولو أمكن أن يتحقق واقعياً لما كان مثالياً . ومن الخطأ أن يظن أن المثالي « هو ما لا يمكن تحقيقه في وقت معين وظروف معلومة ، لكن يمكن تحقيقه في وقت آخر وظروف أفضل . فالمثالي مثالي - أي غير قابل للتحقيق -

لحقيقة الزمان ، وهو أيضاً يقرر أن الأفراد يعاد تجسدهم في توال من الأجسام ( الظاهرة ) . ويقرر أيضاً أن الأشخاص بينهم وبين بعض علاقات إما : الإدراك المباشر ، وبالتالي : الحب ، أو الإدراك غير المباشر ، وبالتالي : التعاطف affection . والحب هو الحالة الانفعالية الأساسية الحقيقية . لكن متجرت لا يقر بوجود إله في السماء ، لأنه لا يجد سبباً للقول بوجود عقل شامل يشمل العقول الفردية ويحكمها ويدبرها ، ويكون في الوقت نفسه عقلاً فردياً .

وكان متجرت أيضاً من الجبريين determinist ، ويرى أن الجبرية لا تتعارض مع وجود أحكام سليمة متعلقة بالالتزام الأخلاقي .

#### مراجع

- C. D. Broad. Examination of McTaggart's Philosophy. Vol. I, Cambridge, 1933 ; vol II, in two Parts, Cambridge, 1938.
- R. L. Patterson: The Philosophy of C. D. Broad, New York, 1959.
- G. Lowes Dickinson: John McTaggart Ellis McTaggart, Cambridge, 1931.
- C. D. Broad: Ethics and the History of Philosophy, London, 1952.

#### مثالي

idéal ( F. ), ideal ( E., G. ), ideale ( I. )

حين تستعمل كلمة « مثالي » في اللغة غير الفلسفية يقصد بها ، حين تقال عن شخص أو عن شيء ، أنه كامل وغودجي . فحين يقال عن استاذ إنه « مثالي » وعن دستور إنه مثالي ، وعن أحوال عمل إنها مثالية ، يقصد من الصفة : « مثالي » أن الموصوف به هو خير من ( أو ما ) يمكن تصوره في جماعته أو نوعه . وفي الغالب يدل هذا الوصف على أن الموصوف به غير متحقق فعلاً ، لكن المأمول تحقيقه بالفعل .

ويوصف الشخص أيضاً بأنه « مثالي » idéaliste إذا كان لا يراعي الأحوال الواقعية ويتطلب أموراً سلمية لا يمكن - أو يعسر أو يستحيل - تحقيقها في الواقع ، وإذا كان لا يستند في تصورات وأحكامه إلى سند من الواقع الفعلي . وفي هذه

الأخلاقية في الفعل وفقاً، أو اهتمام بمثل أعلى، أي استرشاداً بأمال تتجاوز الواقع الموجود في التجربة .  
وهناك تمييزات عديدة أخرى تتعلق بالمثالية :

١ - منها التمييز بين المثالية الموضوعية ، والمثالية الذاتية . والأولى هي التي نجدها عند أفلاطون ومفادها أن الجزئيات الحسية ليس لها وجود حقيقي ، وإنما صورها النوعية هي ذات الوجود الحقيقي . فصورة الإنسان هي الحقيقية ، بينما الجزئي المحسوس من بني الإنسان : كزيد وعمرو ، ليس له وجود حقيقي إلا بمشاركته في صورة النوع الانساني- وأما المثالية الذاتية فهي التي نجدها عند امانويل كانت ، تم عند المثاليين الألمان الكبار : فشته ، هيغل ، شلنج . ومفادها أن العقل لا يدرك الأشياء في ذاتها ، بل الامتثالات التي لدينا عن هذه الأشياء .

٢ - ومنها التمييز بين المثالية في نظرية المعرفة ، والمثالية في نظرية الوجود ، والمثالية في نظرية الكون . والأولى هي التي ذكرناها منذ قليل ، وهي المثالية الموضوعية والمثالية الذاتية . أما المثالية في نظرية الوجود ، فتقول إنه لا توجد موجودات بالمعنى المعتاد لهذا اللفظ، أي جواهر ثابتة ، مادة أو عقل ، بل يرجع كل شيء إلى الفكر ، والامتثالات ، والظواهر . أما المثالية في نظرية الكون فتقول إن امتثالات حقيقية موجودة خارج العقل لا يناظرها شيء ؛ إذ لا توجد أشياء ، بل أفكار عن هذه الأشياء .

كذلك وضعت « المثالية » في مقابل « المادية » . فنجد لبيتس يصف أبيقور بأنه مادي ، بينما أفلاطون مثالي ، على أساس أن أفلاطون يقرر أن كل شيء يجري في النفس كأنه لا يوجد أجسام مادية ، بينما يقول أبيقور إنه لا يوجد نفس لا مادية .

ومجدد كنت « المثالية » هكذا : « تقوم المثالية في القول بأنه لا توجد كائنات إلا الكائنات العاقلة المفكرة ، وسائر الأشياء ، التي نعتقد أننا ندركها حسياً في التجربة ، ما هي إلا امتثالات في عقول الكائنات العاقلة ، لا يناظرها في الخارج أي موضوع » ( « مقدمة إلى كل ميتافيزيقا . . . » بند ١٣ ، تعليق (١) ) .

لكننا نجد توماس ريد ، زعيم المدرسة الاسكتلندية، يصف نظريات لوك ، وباركلي وهيوم بأنها « مذهب مثالي »

في أي زمان وفي أية ظروف .

### مراجع

- Ax Schlesinger: Der Begriff des Ideals. Eine historisch - psychologische Analyse. Leipzig, 1908.
- B. Giulano: Il valore degli ideali. Bologna, 1946.
- L. S. Ltebbiug: Ideals and illusions London, 1948.
- N. Hartmann: Möglichkeit und Wirklichkeit. Berlin, 2 1966.

### المثالية

idéisme (F.), idealism (E.), idealismus (G.)

تقال « المثالية » غالباً في مقابل « الواقعية » réalisme

والكلمة في اللغات الأوربية مشتقة من كلمة (Idee, idea idée بتوسط الصفة مثالي idéal وهذه الصفة تستخدم بمعنىين مختلفين تماماً :

الأول) يقال « مثالي idéal على كل ما يتسبب إلى الفكرة ، وبالتالي يوجد في العقل بما هو فكرة . وبهذا المعنى يقال عن الأشكال الهندسية إن وجودها مثالي ، أي يوجد في الذهن ، ولا يوجد ، كما هو ، في الواقع .

والثاني) يقال « مثالي » بمعنى « كامل » « تام » . فالمثال هو ما يحقق كمال النوع الذي يتدرج فيه . ويعبر عنه ، في حالة الاسمية ، بـ « المثل الأعلى » .

ومنعاً لهذا الخلط اقترح البعض استعمال idéal للمعنى الأول ، وقصر idéal على المعنى الثاني .

والمثل الأعلى يكون في الأمور النظرية ، كما يكون في الأمور العملية .

كذلك تقال المثالية على المثالية النظرية أو الفلسفية ، وهي حيثتد تقابل الواقعية النظرية . وتقوم في رد الواقع إلى أفكار ، أو تقرر أن معرفتنا تنحصر في الأفكار ، دون الأشياء .

كما تقال المثالية على المثالية العملية أو الأخلاقية ، ويقابلها الواقعية العملية . وتقوم هذه المثالية العملية أو

الصورية ( « مقدمة إلى كل ميتافيزيقا مقبلة » بند ٤٩ ) - وهي المثالية التي أخذ هوبنها ، وهي التي تقول إن المكان والزمان والمقولات إطارات قبلية موجودة في العقل ويفضلها يدرك العقل مضمون التجربة .

وقد أخذ فشته Fichte على كُنت أنه وقف في منتصف الطريق : ذلك أنه ليس فقط صور العيان ( الزمان والمكان ) ومقولات الذهن هي من خلق العقل ، بل إن الموضوعية نفسها هي من إنتاج عقلنا . يقول فشته : « إن الشعور بالموضوع ليس إلا الشعور - غير المشعور به أنه كذلك - بإنتاجي أنا لامثال للموضوع » ( « مصير الانسان » ، في مجموع مؤلفاته نشرت ابنه ، ج ٢ ص ٢٢١ ) صحيح أنه لا يتوقف على هواي ما أشعر به كعالم خارجي ، إنني أجد نفسي في العالم الخارجي دون أن يكون هذا من فعلي ؛ لكن حقيقته تقوم في المعنى الروحي للظواهر ، وهذا المعنى له طبيعة عملية تتوقف على إرادتي . ولهذا لا حاجة إلى انسجام أزي للتوفيق بين أفعال الأفراد ، ولا إلى قوة خلاقة فوق الانسان من أجل ضمان حقيقة العالم الخارجي ؛ فهذا الضمان تتولاه التلقائية الانسانية نفسها في تنوع العلاقات بين الأفراد . ويقول فشته بالأنا المطلق الذي هو مستقل بذاته ولا محدود ، ولا يحده إلا اللا - أنا .

وجاء شلنج فأراد التخفيف من الذاتية المفرطة عند فشته ، فقال بالروح Geist ، والروح تغاير نفسها في الطبيعة ، لكنها تعود إلى نفسها في الانسان - خصوصاً في الفن والدين والفلسفة - وهذا تصبح قادرة على أن تتعرف نفسها في الطبيعة أيضاً .

وفي اثرها سار هيجل ، فغنت مذهبه بأنه مثالية ذاتية أو مطلقة ، وقد أوضحها هكذا : « المثالية هي القول بأن المتناهي مثالي . والمثالية في الفلسفة معناها ما يلي فقط : معناها عدم الإقرار بأن المتناهي موجود حقيقي . وكل فلسفة هي مثالية في جوهرها ، أو على الأقل تقوم على مبدأ المثالية . والأمر إنما هو : إلى أي مدى يتحقق هذا المبدأ فعلاً . إن الفلسفة مثالية ، كما أن الدين مثالية » . ( « علم المنطق » ج ١ ، قسم ١ ، الفصل ٢ ، تعليق ٢ ) .

ويقول هيجل « بالهوية بين الفكر والوجود » ( « ظاهريات العقل » ص ٤٧ من ترجمة هبوليت إلى الفرنسية ) . وعنده « أن ما هو موجود فإنه لا يوجد إلا بوصفه

Ideal System ( توماس ريد : « بحث في العقل الانساني » ، سنة ١٧٦٤ ) .

وعند كنت وريد أن باركلي قد خلق ميتافيزيقا مثالية ، على أساس أن الموضوعات المباشرة لعقلنا هي أفكار ideas ونحن نتلقاها إما من خلال الادراك الحسي ، أو نتجها بخيالنا ، لكنها ، على أي حال ، ليست بذات حقيقة واقعية خارج الذهن ، بل هي بالأحرى تشكيلات لانفعالاتنا : ووجودها esse هو كونها مُدركة Percipi . إننا حين نجد مجموعة من الأفكار الحسية في تجربتنا مجتمعة معاً ، فإننا نسميها شيئاً واقعياً ، ولهذا فإن وجود الأشياء الواقعية ليس شيئاً آخر غير مجرد كونها مُدركة . ويخلص باركلي من هذا إلى القول بأنه لا يوجد نوعان من الموجودات : روحية ومادية ، بل توجد عقول فقط ، أعني كائنات مفكرة ، تقوم طبيعتها في الامثال والإرادة . إن موضوعات امتالاتنا وأفعال إرادتنا ، وهي الأفكار ideas ، لا فوام لها خارج العقول ، إنها نتاج نشاطها .

لكن جاء كنت فاختلف مع باركلي بأن قال بوجود الشيء في ذاته ، وهو أمر لا يمكن أن تتركه مباشرة . وإنما الميسور لتجربتنا وإدراكنا هو الظواهر فقط . لكن علينا مع ذلك أن نستمر في التمييز بين الصورة والمادة في المعرفة : فإن تجربتنا تدرك موضوعاتها على أنها معطيات موضوعية مستقلة عنا ، هذا من الناحية المادية . أما صور عياننا : المكان والزمان ، وكذلك صور تجربتنا الباطنة والظاهرة فإنها ذاتية ، ولهذا فإن كل ما نلقاه في التجربة ليس له « وجود خاص قائم لذاته » ( « مقدمة ... » بند ٥٢ ج ) .

ويقول كنت : « إن المثالية هي النظرية التي تقرّر أن وجود الأشياء في المكان خارج العقل هو إما وجود مشكوك فيه ، أو زائف ، أو مستحيل . والأول هو قول المثالية الاحتمالية عند ديكارت ، الذي صرح بأن ما لا يحتمل الشك هو التقرير التجريبي ، أي « أنا موجود » . والثاني هو قول المثالية التوكيدية عند باركلي ، الذي عدّ المكان وكلّ الأشياء التي ترتبط به بوصفه شرطاً لها لا غنى عنه - نقول : عدّ المكان والأشياء المرتبطة به أنه أمر في ذاته مستحيل ، ولهذا صرح بأن الأشياء في المكان هي مجرد تخيلات » ( « نقد العقل المحض » ، تحليل المبادئ ، تنفيذ المثالية ) .

وميز كنت بين هذه المثالية ، وبين المثالية المتعالية أو

والعرض العام يحمل على الأنواع وعلى الأفراد معاً ،  
فمثلاً : « السواد » يحمل على نوع الغريبان وعلى أفراد  
الغريبان .

وجاء المناطقة المسلمون فقسموا الحمل إلى : ( ١ )  
المقول في جواب ما هو : وهو الذي يدل على كمال حقيقة ما  
يسأل عن ماهيته ؛ ( ٢ ) المقول في جواب أي ما هو : وهو  
الكلي الذاتي الذي يميز شيئاً عما يشاركه في ذاتي ؛ ( ٣ )  
والمقول في جواب ما هو بالشركة : وهو ما يكون دالاً على  
كمال حقيقة أشياء يسأل عنها معاً ، ولا يكون كذلك  
لأفرادها .

وتبعاً لذلك عرفوا الألفاظ الخمسة كما يلي :

« الجنس » : هو المقول على كثيرين مختلفي الحقائق في  
جواب ما هو .

الفصل : هو المقول على كلي في جواب أي ما هو .  
النوع : هو أخص كليين مقولين في جواب ما هو .  
الخاصة : هي كلية عرضية مقولة على نوع واحد .  
العرض العام : هو كلي عرضي يقال على « أنواع  
كثيرة » ( ابن سينا : « عيون الحكمة » ص ٢ ، نشرة د. عبد  
الرحمن بدوي ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ) .

ويتصل بهذا الموضوع مشكلة الكليات - راجع -  
الكليات .

مركزه

### Herbart Marcuse

فيلسوف ألماني كان ذا تأثير واسع على حركة تمرد  
الشباب حوالي سنة ١٩٦٨ في أوروبا وأمريكا .

ولد في برلين في ١٩ يوليو سنة ١٨٩٨ ، وتوفي في  
استارنبرج ( قرب ميونخ في جنوبي ألمانيا ) في ٢٩ يوليو سنة  
١٩٧٩ . ولكنه أمضى معظم حياته في الولايات المتحدة  
الأمريكية .

تلمذ في جامعة فرايبورج ( جنوبي ألمانيا ) على كل من  
هَسِرل وهيدجر . والأخير هو الذي أشرف على رسالة  
الدكتوراه المؤهلة للتدريس Dr. Habil وكانت بعنوان :

فكراً « ( الانسكلويديا » ٤٦٥ ) . ولهذا فإن المنطق  
الذي هو علم الفكر هو في الوقت نفسه علم الوجود .

وقد سيطرت المثالية الألمانية طوال القرن التاسع عشر  
على الفكر الأوروبي ، وامتد تأثيرها حتى اليوم :

ففي انجلترا كان يمثل المثالية الألمانية فرانسس هبررت  
برادلي ( ١٨٤٦ - ١٩٢٤ ) ورنرد بوزنكيت ( ١٨٤٨ -  
١٩٢٣ ) ومنتجرت ( ١٨٦٦ - ١٩٢٥ ) .

وفي إيطاليا اعتنق الهيجلية بند توكروتشه ( ١٨٥٦ -  
١٩٥٢ ) وجوفني جتيله ( ١٨٧٥ - ١٩٤٤ ) .

وفي فرنسا كان من أنصار المثالية شارل رنوفيه  
( ١٨١٥ - ١٩٠٣ ) وجول لاشليه ( ١٨٣٢ - ١٩١٨ ) ،  
واوكتاف هاملان ( ١٨٥٦ - ١٩٠٧ ) ، وليون برنشفاك  
( ١٨٦٩ - ١٩٤٤ ) وإلى حد كبير : إدوار لوروا ( ١٨٧٠ -  
١٩٥٤ ) ورينيه لوسن ( ١٨٨٢ - ١٩٥٤ ) .

### المحمولات

#### Predicables

#### = الألفاظ الخمسة

قسم فورفوريسوس المحمولات إلى خمسة : الجنس ،  
النوع ، الفصل النوعي ، الخاصة ، العرض العام .

فالجنس genre يحمل على الأنواع وعلى الأفراد  
المتدرجين تحت هذه الأنواع . والفصل النوعي يحمل أيضاً  
على الأنواع وعلى الأفراد المتدرجين تحت هذه الأنواع . فمثلاً  
الجنس : « حيوان » : يحمل على الانسان وأفراد الانسان ،  
ويحمل على الخيل وأفراد الخيل ، وعلى الثيران وأفراد  
الثيران . والفصل النوعي « ناطق » : يحمل على الانسان  
وعلى أفراد الإنسان .

أما النوع فيحمل على أفراد النوع . فمثلاً :  
« انسان » : يحمل على افراد الانسان .

أما الخاصة فتحمل على النوع الذي هي خاصة له ،  
وعلى الأفراد المتدرجين تحت هذا النوع . فمثلاً الخاصة :  
« ضاحك » تحمل على النوع الانساني وعلى الأفراد المتدرجين  
تحت النوع الانساني .



ينقد مركزه المجتمع الأمريكي بوجه خاص ، لأنه يمثل النموذج الأوضح للمجتمع الصناعي في العصر الحاضر . لقد اتخذت المغايرة alienation فيه شكلاً مختلفاً عن ذلك الذي تصوره لها كارل ماركس ، أعني استغلال عمل العامل لصالح رب العمل . وقام ، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ، بنوع آخر من استعباد الانسان في المجتمع ، نتج خصوصاً عن شركات الانتاج الاستهلاكي العظمى ، وما تتبعه من وسائل لترغيب المستهلك . فمثلاً تقوم هذه الشركات بدعايات هائلة من أجل تسويق منتجاتها ، بأن تخلق في نفس المستهلك رغبات جديدة ، ما تلبث أن تصبح عادات قوية التأثير تسيطر على تفكير الانسان ، فيستعبد لها . خذ مثلاً شركات إنتاج السيارات : إنها بدعاياتها الهائلة المركزة المتكررة توهم المستهلك ، حتى لو كان فقيراً ، أن السيارة ألزم لوازمة ، وأنه باقتنائه لسيارة سينال القدر الأخرى من السعادة : فيسهل اعماله ، وينال مركزاً أرفع في نظر الناس ، وتخفي متاعبه . حتى إذا ما اشترى سيارة بالفعل ، سرعان ما يتبين له بعد قليل أنه خدع تماماً . إذ تبرز له مشاكل القيادة في شوارع مزدحمة جداً ، ومتاعب إيجاد موقف لسيارته ، ومتاعب تصليحها وتغيير ما يفسد من ألتها ، وارتفاع نفقات سيارته ، الخ . وهكذا بدلاً من أن تحقق له السيارة الراحة بل والمتعة وسرعة إنجاز الاعمال والاستمتاع بمناظر الطبيعة الخلابة ، يجد نفسه مرهقاً بالزحام ، محصوراً بين غابات من السيارات ، لا من الاشجار الجميلة ، معذباً بمتاعب المرور إلخ . وهذا المثل يمتد إلى سائر ما يعرضه المجتمع الاستهلاكي من اختراعات و سلع استهلاكية . لقد تحول بها الانسان إلى انسان ذي بعد واحد ، أي لا يرى وسيلة للحياة الانسانية غير هذا النمط من الحياة .

فكيف يمكن انقاذ الانسان من هذا الوضع ؟ وأي نوع من المجتمع يدعو إليه مركزه ؟ .

هنا يظهر تأثير فرويد الحاسم في تفكير مركزه . لقد رأى فرويد أن الانسان في المجتمع فريسة كبت شديد يفرضه المجتمع على الفرد . والسبب في هذا أن ميول الانسان الطبيعية : من شهوة للتملك ، وحقد ، وغريزة الموت ، وغريزة الجنس - هو غير اجتماعي بطبعه . ولكي يعيش في مجتمع ، لا بد له من كبت هذه النوازع والغرائز والميول . وإلا لما أمكن أبداً قيام مجتمع . وهو ما يبرر قيام التشريعات التي تقهر الفرد على التزام قواعد معينة ، وهو الأصل في معظم

« انطولوجيا هيغل ونظرية التاريخية » ( نشرت سنة ١٩٣٢ ، وترجمت إلى الفرنسية سنة ١٩٧٢ ) . واشترك مع ماكس هوركهمر Max Horkheimer في تأسيس « معهد البحث الاجتماعي » ، الذي نقل نشاطه منذ سنة ١٩٣٣ إلى نيويورك ، واضطر ماركوزه - بوصفه يهودياً ذا اتجاهات يسارية ، إلى مغادرة ألمانيا غداة تولي هتلر مقاليد الحكم في ألمانيا ( في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ ) وأقام فترة من الوقت في باريس ، ثم استقر به المقام منذ سنة ١٩٣٤ في الولايات المتحدة الأمريكية ؛ حيث استأنف نشاطه في ذلك المعهد ، ولاحق به أدورنو Theodor W. Adorno وحصل على الجنسية الأمريكية في سنة ١٩٤٠ . وهنا في الولايات المتحدة لم يقتصر نشاطه على الفلسفة ، بل امتد خصوصاً إلى السياسة النشطة ، فعمل سنة ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠ رئيساً لقسم « الخدمات الاستراتيجية » ، ومهمة هذا القسم كانت مكافحة التجسس . ثم اشتغل في « معهد الدراسات الروسية » التابع لجامعة هارفرد ابتداء من سنة ١٩٥١ . ثم عين في سنة ١٩٥٤ أستاذاً للفلسفة السياسية في جامعة برانديس Brandeis ( في Waltham بولايات ماساشوستس بأمریکا ) .

وابتداءً من سنة ١٩٦٥ قام بالتدريس في جامعة سان دييجو التابعة لجامعة كاليفورنيا . كذلك قام في الخمسينات والستينات بزيارات كثيرة لألمانيا ، حيث ألقى محاضرات في عدة جامعات ألمانية ، خصوصاً جامعة فرانكفورت وجامعة برلين الغربية .

اشتهر مركزه بكتابين (١) « الإيروس والمدنية » ثم (٢) « الانساني الأحادي البعد » . والموضوعان الرئيسيان اللذان يطرقهما في هذين الكتابين هما :

١ - نقد المدنية الصناعية ، خصوصاً كما تتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية ؛

٢ - الدعوة إلى مدنية قائمة على نظم متحررة من ألوان القهر الاجتماعي والسياسي في مختلف صورته .

وهو في مجمل آرائه قد تأثر بثلاثة مفكرين هم : هيغل ، كارل ماركس ، وفرويد . لكنه ينقدهم جميعاً ، على تفاوت في درجات هذا النقد . وعلى الرغم من قول البعض إنه تأثر بهيدجر بوصفه قد كان تلميذاً له في جامعة فرايبورج ، فإننا لم نجد في مؤلفاته وتحليلاته أي تأثير يستحق الذكر لهيدجر أو للوجودية بعامة في فكره .



Freud, 1955.

- Soviet Marxism. A Critical analysis, 1958.
- One-dimensional Man, 1964.
- Kultur und Gemeinschaft, 1965.
- Das Ende der Utopie, 1967.
- Essay on Liberation 1969.

### مراجع

- M. Ambacher: Marcuse et la civilisation américaine, Paris 1969.
- P. Masset: La Pensée de Marcuse, 1969.
- Alasdair Mc Intyre: Marcuse, 1970.

### مرلوبونتي

#### Maurice Merleau-Ponty

فيلسوف فينومينولوجي فرنسي . ولد سنة ١٩٠٨ في روشفور على البحر Rochefort-sur-Mer (في محافظة Charente-Maritime غربي فرنسا) ودخل مدرسة المعلمين العليا ، وحصل على الاجريجاسيون في سنة ١٩٣١ وبعدها عين مدرساً للفلسفة في ليسيه سان كتان ، ثم في جامعة ليون سنة ١٩٤٥ وفي سنة ١٩٤٩ صار أستاذاً في السوربون . وفي سنة ١٩٥٢ عين أستاذاً في الكوليج دي فرانس ، خلفاً للوي لافل .

وتوفي في باريس في سنة ١٩٦١ وهو في الثالثة والخمسين من عمره .

#### آراؤه الفلسفية

كان مرلوبونتي متأثراً بمذهب الظاهريات عند هسرل ، وإن كان قد خالف هسرل في بعض الآراء الأساسية : فهو لم يأخذ بفكرة الأنا المتعالي ، وتردد في قبول فكرة الشعور الشفاف تماماً مع نفسه . وفي هاتين النقطتين أيضاً اختلف مع سارتر ، الذي كثيراً ما كان يقرن كلاهما بالآخر لما كان بينهما من صداقة ومن تعاون في تحرير مجلة « الأزمنة الحديثة » Les Temps modernes . ومرلوبونتي أسهم خصوصاً في ميدان علم النفس الفلسفي وذلك في رسالتي الدكتوراه : « بنية السلوك » ( سنة ١٩٤٢ ) و « ظاهريات الإدراك » ( سنة

النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

لكن مركزه لا يلبث أن يتحول عن فرويد إلى كارل ماركس فيعدّ القهر الاجتماعي وليد الفقر ونقص أدوات إشباع الحاجات ، ويزعم أن القهر الاجتماعي ناتج عن اضطرار الانسان إلى العمل وما ينجم عن ذلك من مغايرة للعامل تجاه عمله واستغلال من جانب أرباب العمل ! وإذن فالحل ليس كما يزعم فرويد - وهو ضرورة الكبت والاستسلام - بل الثورة التي تؤدي إلى توفير كل السلع الاستهلاكية مع تقليل العمل الانساني إلى أقل درجة ممكنة وهكذا يلتقي مركزه مع الشيوعيين الحاليين والماركسيين الحاليين الذين دعوا إلى توفير أكبر قدر من السلع الاستهلاكية ! لكنهم عند التطبيق جعلوها أندر بألف مرة مما كانت عليه من قبل .

ومن ناحية أخرى يرى مركزه أن تحرير المجتمع لن يتم إلا بتحرير « الايروس » أي الغريزة الجنسية من كل القيود ، وتحقيق كل نوازعها بغير حلود . وزعم بعد ذلك أن هذا التحرير بواسطة الايروس هو في الوقت نفسه تحرير للخيال . ذلك أن ديكرت وكنت ومن سار في إثرهما رأوا في الخيال أنه العقل بوصفه متوجهاً نحو الجسم وأنه الرابطة بين المحسوس والمعقول : فأفاد مركزه من هذه الفكرة من أجل تشخيص وعلاج مجتمعه المتحرر فقال إن الحساسية ينبغي أن تنقاد للخيال بدلاً من انقيادها لسيطرة العقل « الزائفة » ، إذ سيتولى الخيال التوسط بين الملكات العقلية والحاجات الجنسية . وبالإيروس يحقق الانسان أخيراً وجوداً مستريحاً يشيع فيه السلام .

وهذا التحرير الكلي للإنسان لا تستطيع تحقيقه الطبقة العاملة بما أنها أصبحت مندججة في الرأسمالية شيئاً فشيئاً ، بل سيقوم به الثائرون الجدد وهم كل المضطهدين في العالم وكل المحرومين والمهانين والمستضعفين في الأرض ، ثم التلاميذ الذين ينحدرون من الطبقة الوسطى !!

#### مؤلفاته

- Hegels Ontologie und die Grundlegung einer Theorie der Geschicht lichkeit. Frankfurt, 1932.
- Reason and Revolution: Hegel and the Rise of social Theory, 1941.
- Eros and Civilization: A Philosophical Inquiry into

وفي الفصول الأخيرة من الكتاب يقدّم نظريته في الحرية الإنسانية - ونموها في العمل التاريخي ، وهي النظرية التي توسع فيها - من الناحية السياسية خصوصاً - في كتابه : « النزعة الإنسانية والرعب » ( سنة ١٩٤٧ ) و « مغامرات » وجملة رأيه في الحرية أن الحرية متضمنة في قدرة الشعور الإنساني على موضعة objectivation مواقفه في سياق من تصرفات الفعل الممكنة . وهو نفس رأي سارتر ، لكنه يختلف عن سارتر في أنه يقرر أن هذه الحرية لا يمكن أن تكون شاملة كلية ، لأننا إنما نكتسب الحرية تدريجياً ، ونقطة ابتدائها هي دائماً المعاني المقررة جماعياً .

### ٣ - الأخلاق والسياسة .

ويربط مرلوبونتي بين الأخلاق والسياسة ربطاً قوياً وفي كتابه المذكورين منذ قليل عرض نظرية في السياسة حاول بها أن ينقح الماركسية على ضوء نظريته في الذاتية الإنسانية subjective humaine لقد أعجبه في الماركسية اهتمامها بالعلاقات الواقعية القائمة في المجتمع الصناعي . لكنه يأخذ عليها إغفالها ، بل وانكارها ، للفردية وإيثارها للقول بدافع ذاتي محرّك للجماعات من تلقاء ذاتها ، دافع اقتصادي .

وكان تنقيحه للماركسية ، خصوصاً فيما يتعلق بالمادية الديالكتيكية ، مصدر خلاف قويّ بينه وبين سارتر . لقد نعى على هذا الأخير أن تنقيحه للماركسية هو في الواقع « بلشفيّة مغالية » ultra-bolshevisme ، ذلك أن سارتر اندفع وراء نظرية هيمنة الحزب على الجماهير ، فردّ عليه مرلوبونتي بأن هذه نزعة غير ثورية ، لأن من شأن هذه الهيمنة منع الجماهير من التفكير في الثورة .

وقد كتب مرلوبونتي عدة مقالات عن الماركسية والثورة والاتحاد السوفييتي فيما بعد استالين - وهاك عناوين بعضها :

- ١ - « الماركسية والايمان بالخرافات » ( سنة ١٩٤٩ )
- ٢ - « الاتحاد السوفييتي ومعسكرات الاعتقال » ( سنة ١٩٥٠ )

٣ - « أوراق يالدا » ( سنة ١٩٥٥ )

٤ - « مستقبل الثورة » ( سنة ١٩٥٧ )

٥ - « في التخلص من الاستالينية » ( سنة ١٩٥٦ )

وقد جمعت فيما بعد - مع مقالات أخرى - في مجلد بعنوان Signes ( باريس سنة ١٩٦٠ ) وبهنا منها من الناحية الفلسفية - المقال الرابع عن « مستقبل الثورة » ( سنة ١٩٥٥ )

١٩٤٥ ) . وهو في السوربون إنما كان أستاذاً لعلم النفس العام .

واتجاهه الفلسفي لا علاقة له بالوجودية .

وهو في علم النفس قد تأثر خصوصاً بنظرية الجشتالت Gestalt التي وضعتها مدرسة برلين ومؤسسوها هم W. Köhler, M. Wertheimer, W. Metzger, M. Henle, K. Lewin - وهي تقرر أن الجشتالت (= الشكل) معطى ظاهرياً مع العناصر مباشرة . والأصل في فكرة الجشتالت القول بأن مجموع العلاقات بين العناصر ليس هو بعينه خاصية الكل ( الذي هو الشكل أو الصورة أو الجشتالت ) ، وهو قول عارض به أصحابه مذهب الترابطين الذين زعموا أن مجموع العناصر يساوي صفة الشكل الكلي . لكن مرلوبونتي انحرف عن نظرية الجشتالت حين أنكر ما ذهب إليه Köhler من تفسير الأشكال الإدراكية عن طريق افتراض أحوال مخيئة متساوية الشكل تتجاوز الظواهر .

٢ - وعن هسرل أخذ مرلوبونتي تحديده للفلسفة بأنها علم وصفي لأحوال الشعور . لكنه لم يأخذ بفكرة « الرد ( أو الاختزال ) الظاهرياتي » ، مع أنه نقطة أساسية في المنهج الظاهرياتي . لكنه يأخذ بفكرة القصدية Intentionality كما هي عند هسرل ، فيقرر أن القصورية تكوّن الشعور بوصفه تتجاوزاً لنفسه باستمرار والمحل الأصيل - وليس الوحيد - لهذا التجاوز هو الإدراك الحسي . وقد وجد مرلوبونتي في كتاب متأخر لهسرل المصدر لشرح ما يسميه باسم « محل الإدراك الحسي » ، وهذا الكتاب هو : « أزمة العلوم الأوربية والظاهريات المتعالية » ( سنة ١٩٣٦ ) .

وفي كتابه « ظاهريات الإدراك الحسي » ( سنة ١٩٤٥ ) يهاجم بشدة رأي علم النفس التقليدي في الإدراك الحسي ، وكونه قائماً على أساس معطيات حسية محضة ، أي خالية من كل إحالة إلى موضوعات عالية على الاحساس . ذلك أن مرلوبونتي يرى أن الاحساسات - كما قال من قبله برجسون - هي نتاج تحليلات عقلية .

ومن الأفكار المهمة في هذا الكتاب فكرته عن دور الجسم في الإدراك الحسي . فهو يقرر أن الجسم ليس مجرد موضوع بين موضوعات في العالم ؛ بل الشعور له محل في العالم ، وهذا هو الذي يجعل ادراكه « منظورياً » - perspecti-viste

- «L'Œil et l'Esprit», in Art de France, vol. I, Paris, 1961;
- La Phénoménologie de la perception, Paris, 1961;
- Le Visible et l'invisible, éd. C. Lefort, Paris, 1964;
- Eloge de la philosophie et autres essais, Paris, 1965;
- La Prose du monde, Paris, 1969.

### مراجع

- F. Alquié, «Une philosophie de l'ambiguïté. L'existentialisme de M. Merleau-Ponty», in Fontaine, vol. VIII, n° 59, avr. 1947;
- rééd. in Revue internationale de philosophie, vol. III, n° 9, juill. 1949/
- A. De Wachlens, «Merleau-Ponty, philosophe de la peinture», n° 67, 1962;
- Une philosophie de l'ambiguïté, Paris, 1954
- J. Hyppolite, J. Lacan and al., Les Temps modernes, n° spéc. 184- 185, 1961.
- P. Ricoeur, «Hommage à Merleau-Ponty», in Esprit, n° 296, 1961.

### مشكلة

#### Problème ( F. ), Problem ( E., G. ), Problema ( I )

تختلف « المشكلة » عن « المسألة » في كون المشكلة نتيجة عملية تجريد من شأنها أن تجعل « المسألة » موضوع بحث ومناقشة ، وتستدعي الفصل فيها . وقد أكد أرسطو هذه التفرقة في كتاب « الطوبىقا » ( المقالة الأولى ص ١٠٤ ب ) حين وضع « المشكلة الجدلية » في مقابل « القول الديالكتيكي » وفي مقابل « الموضوع الجدلي » ، فقال إن المشكلة الجدلية « هي مسألة موضوع للبحث ، تتعلق إما بالفعل أو بالترك ، أو تتعلق فقط بمعرفة الحقيقة إما لذاتها أو من أجل تأييد قول آخر من نفس النوع ، لا يوجد رأي معين حوله ، أو حوله خلاف بين العلة والخاصة ، أو بين كل واحد من هذين فيما بين بعضهم وبعض » .

وفيه يجمل العلاقة بين البروليتاريا والحزب وفيه يقول « إن البروليتاريا ، لأنها ليست تملك أموالاً ، ولا مصالح ، وبالجملة ليست لها صفة إيجابية ، فإنها - لهذا السبب مستعدة للقيام بدور عالمي . . . إنها في ذاتها ثورة . لكنها لا تعرف ذلك في بداية الأمر ، ولا تعرف الوسائل والطرق والأحوال والنظم التي بها تستطيع أن تعبر عما يسميه ماركس باسم « سر وجودها » . إنما الحزب هو الذي يحول تمردها إلى عمل إيجابي طويل المدى . ويتعبير فلسفي : الحزب يتجاوز تمرد البروليتاريا ويحققه بالقضاء عليه بوصفه تمرداً مباشراً ، إنه سلب لهذا السلب ، أو هو التوسط : إنه يجعل الطبقة التي تنفى تتحول إلى طبقة تؤسس ، وفي النهاية ، إلى مجتمع بدون طبقات » . ( « علامات » Signes من ٣٥٠ ) .

إن العمل الثوري يقوم على المبدأين التاليين ( ١ ) الحزب دائماً على صواب ، ( ٢ ) لا يكون المرء أبداً على صواب ضد البروليتاريا . لكن لمراعاة هذين المبدأين ، لا بد أن يكون بين الحزب والبروليتاريا علاقة تبادل : أي لا بد للحزب أن يقبل النقد الموجه من البروليتاريين ولا بد من بروليتاريا تتخذ الحزب بامانة وموضوعية . لكن الأمر لا يحدث على هذا النحو : إذ سرعان ما يتحول الحزب إلى عصابة clique ذات مصالح خاصة للمحافظة على سيطرتها على البروليتاريا . ومن هنا لا بد من وقوع الشقاق بين الحزب والبروليتاريا .

ونحوض مرلوبونتي معركة عنيفة مع الماركسيين الفرنسيين الذين هاجموا مذهب الظاهريات ، كما فعل في الفصل المعروف بـ « الماركسية والفلسفة » ( في كتابه Sens et Non - Sens ص ٢٢١ - ٢٤٤ ، باريس سنة ١٩٦٦ ، والذين هاجموا سارتر والوجودية بعامة مثل لوقر وهرفيه Hervé ونافي Naville وذلك في فصل بنفس الكتاب عنوانه : « معركة الوجودية » ( ص ١٢٣ - ١٤٣ ) . لكن الغريب هو أن يختم هذا الفصل بقوله : « إن الماركسية الحية ينبغي عليها أن « تنقد » البحث الوجودي وأن تكامل معه ، لا أن تحتقه » ! .

### مؤلفاته

- M. Merleau-Ponty, Sens et non-sens, Paris, 1948;
- La structure de comportement, Paris, 1954;
- Les Aventures de la dialectique, Paris, 1955;
- Signes, 1960;

إلى حلها .

لكن أنصار الوضعية المنطقية أساءوا استغلال فكرة «المشاكل الزائفة» أو الوهمية Scheinprobleme كما يظهر هذا جلياً في كتاب رودلف كارناب بعنوان: «المشاكل الوهمية» (أو الظاهرية) في الفلسفة» (فرنكفورت سنة ١٩٦٦) حين زعم أن كل الأقوال التي لا ترضى معيار «الشيئية» - Sachheit - أي التي لا تقوم على أساس الإدراك الحسي - هي أقوال وهمية . كذلك نجد فتجنشتين في المرحلة المتأخرة من تطوره الفكري يزعم أن المشاكل الفلسفية هي مشاكل وهمية ، وأنها «تداول العقل الناشئة عن اللغة» (لودفيج فتجنشتين : «مباحث فلسفية» ص ١٠٩) وفي نظره أن مهمة الفلسفة هي أن تخلصنا من هذه المشاكل وأن تقضي عليها قضاء تاماً (الكتاب نفسه ص ١٣٣) ، وأن تشفيها منها كما لو كانت أمراضاً (الكتاب نفسه ص ٢٥٥) !! .

#### مراجع

- H. G. Gadamer: Wahrheit und Methode. Grundzüge einer Philosophischen Hermeneutik. Tübingen, 2. Aufl. 1965.
- M. Landmann: Problematik. Nichtwissen und Wissensverlangen in Philosophischen Bewusstsein. Göttingen, 1949
- K. R. Popper: Conjectures and Refutation. London, 3d ed., 1969.
- R. Carnap: Scheinprobleme in der Philosophie, Frankfurt, 1966.
- G. Marcel: Du Refus à l'invocatin. Paris, 1940.

#### المصادر

المصادرة Postulat قضية ليست بيّنة بنفسها ، كما لا يمكن البرهنة عليها ، ولكن يُصَادَر عليها ، أي يطالب بالتسليم بها ، لأن من الممكن أن نستنتج منها نتائج لا حصر لها ، دون الوقوع في إحالة . فصحتها إذن تستبين من نتائجها . ومثلها المصادرة المعروفة باسم مصادرة اقليدس ، والتي نقول : يمكن من نقطة أن يجزّ مستقيم مواز لمستقيم آخر ، ولا يمكن أن يجزّ غير مستقيم واحد - وقد أدت إلى إقامة

ووفقاً لتعريف أرسطو هذا فإن «المشكلة» هي مسألة نظرية أو عملية ، يجادل فيها ولا يوجد بالنسبة إليها رأي واضح ، المشكلة أمر متنازع عليه ، يبحث فيه بهذا الوصف ، أي يذكر ماله وما عليه ، ويقوم على علاقة مع أقوال أخرى في ارتباط برهاني . المشكلة مسألة موضوعية للبحث والنقاش والجدل .

لكن المنطق التقليدي لم يعالج موضوع «المشكلة» إلا نادراً ، ويرجع ذلك فيما يبدو إلى كون «المشكلة» بوصفها من موضوعات «الطوبيقا» (الجدل) ، تتسبب إلى منطق الاحتمال ، لا إلى منطق اليقين ، وتدخل إذن في الجدل بل وفي إفحام الخصم حتى ولو بالخداع ؛ مما جعل «المشكلة» أقرب إلى علم الخطابة منها إلى المنطق .

ومن ثم صارت الصفة Problématique تعني الاحتمال . وصار الحكم الإشكالي هو الحكم المحتمل . وعاد يُدرّس في باب «الموجهات» modalité des jugements والحكم الاحتمالي (أو الاشكالي) يتميز بأنه مصحوب بالشعور بمجرد إمكان الحكم ، بينما الحكم التقريري مصحوب بالشعور بواقعية الحكم ، والحكم الضروري هو المصحوب بالشعور بضرورة الحكم .

ويضع ديكرارت في «قواعد لهداية العقل» ثلاثة شروط كيمي يؤدي السؤال إلى فحص وبحث ، هي :

- ١ - يجب أن يكون في كل سؤال شيء مجهول ، وإلا لكان البحث عبثاً ؛
- ٢ - وهذا المجهول يجب أن يتحدد على نحو ما ، وإلا لم نستطع التوجه إليه ، دون غيره ، بالبحث والفحص .
- ٣ - وهذا المجهول لا يمكن أن يتعين إلا بواسطة شيء معلوم .

لكن هناك أمراً مهماً آخر لتحديد معنى المشكلة وهو أن المشكلة تنطوي على بناء وتركيب ، أي أنها ينبغي أن توضع في سياق من التصورات غير المشكلة . إن الأسئلة (المسائل) يمكن أن تثار «في الهواء» أي دون سياق توضع فيه ، أما المشاكل فيجب أن تبنى وتركب في سياق ، لأنها نتائج تركيب (بناء) فكري ؛ إنها تتبع عن ارتباط موضوع يعد - ولو مؤقتاً - إطاراً لإمكان الحل . وبهذا المعنى يمكن أن يقال إن وضع المشاكل يؤذن بحلها . ومن هنا أيضاً يقال عن مشكلة إنها أسبيء وضعها ، بمعنى أن وضعها على هذا النحو لا يؤدي

راجع تفصيلنا لمصادر العقل العملي عند كنت في كتابنا : « الأخلاق عند كنت » ص ١٤٦ - ١٦٠ ( الكويت ، سنة ١٩٧٩ ) .

### المطلق

#### L'absolu (F.) Das Absolute (D.)

المطلق هو « ما هو بذاته » ، أي أنه مستقل بذاته ، منفصل عن غيره ، قائم بنفسه ، غير مشروط بشرط أو غيره .

ومن ثم يميز أربعة أنواع للمطلق :

١ - المطلق المحض أو البسيط

٢ - المطلق بذاته

٣ - المطلق بالنسبة إلى غيره

٤ - المطلق في جنسه .

والأول هو الله أو الموجود الأول أو علة العلل .

ويقال المطلق : (١) إما في مقابل « المتوقف

على ... » (٢) وإما في مقابل « النسبي » .

ولكل من شلنج وهيجل تصور خاص للمطلق :

أما شلنج فيرى أن « المطلق » هو ما يكتشف العيان العقلي أنه الهوية بين العارف وموضوع المعرفة . وهو يرى أن المعرفة والارادة مرتبطتان ، حتى إن الكل النهائي هو فعال وحرّ : والمطلق يتجلى ليس فقط في الطبيعة ، بل وأيضاً في التاريخ الإنساني ، إذ التاريخ الإنساني تقدم نحو الوعي الذاتي . والعبرية الفنية تكشف عن المطلق في أعمالها الفنية .

وقد أخذ هيجل على تصور شلنج للمطلق أنه يشبه « الليل الذي فيه كل البقر أسود » لأن « المطلق » كما تصوره شلنج غامض سلبى .

وفي « دائرة معارف العلوم الفلسفية » يقدم هيجل تعريفات للمطلق تتصاعد في التركيب :

فالمطلق في أبسط درجاته هو الوجود ، بالمعنى الذي يعطيه برميندس لهذا اللفظ .

٢ - المطلق هو الذي هو في هوية مع ذاته .

هندسة اقليدس ؛ ولم تؤد إلى تناقض في داخل هذه الهندسة . وليس في الوهم أن يبرهن عليها في داخل هذه الهندسة . كما أن من الممكن الاستغناء عنها ، بأن نستبدل بها مصادر أخرى كما فعلت الهندسات اللاقليدية .

وقد ذكرنا في « البدئية » ما تتميز به عن « المصادرة » فليرجع إليها .

ومن الملاحظ أن النظريات الحديثة لا تميل إلى المغالاة في الفارقة بين المصادرة والبدئية ، بل تنزع - على العكس من ذلك - إلى التقريب بينها بأن تعد كليهما « تعريفات مقنعة » على حد تعبير بونكاريه ( « العلم والفرض » ص ٦٧ ) . ولا فارق بين كليهما إلا في درجة التركيب : فالبدئية أكثر بساطة من المصادرة ، ولهذا تبدو أبين ، بينما المصادرة أقل بساطة وأكثر تعقيداً ، مما يجعل وضوحها والتسليم بها لا يتحققان إلا بالنتائج التي يمكن أن تستخلص منها .

راجع تفصيل هذا في كتابنا : « منهج البحث العلمي » ص ٩٠ - ٩٣ ( القاهرة ، سنة ١٩٦١ ) .

وقد سمى كنت « مصادر الفكر التجريبي بوجه عام » المبادئ الثلاثة التالية :

( أ ) ما يتفق مع الشروط الصورية ( الشكلية ) للتجربة ( فيما يتعلق بالعيان والتصورات ) هو ممكن ؛

( ب ) ما يتفق مع الشروط المادية للتجربة ( للحواس ) هو واقعي ؛

( ج ) ما يتحدد ارتباطه بالواقع بواسطة الشروط العامة للتجربة هو ضروري .

وهذه المصادر الثلاث هي مجرد « تقسيمات للإمكان ، وللواقع ، وللضرورة في استعمالها التجريبية » .

كذلك تحدث كنت عن « مصادر العقل العملي » وهي : الحرية ، تلوذ النفس ، وجود الله . وهي المبادئ التي لا بد منها في الأخلاق . « وهذه المصادر ليست عقائد نظرية ، بل هي مفترضات ضرورية من وجهة نظر السلوك ، وهي لا توسع من معرفتنا النظرية ، بيد أنها مع ذلك تهب أفكار العقل النظري بوجه عام ( بواسطة علاقته مع العقل العملي ) حقيقة موضوعية وتسمح له بتصورات لا تستطيع بغير هذا الطريق أن يفسر بها » .

اللاهوتية « ٢ : ٢٥ ) إن الممكن بالنسبة إلى الله هو ما لا ينطوي على تناقض ، أي ما لا يتعارض مع الوجود . لكن بطرس دمياني ويوحنا دي جانديان Jean de Jandun يستبعدان خضوع الله لمبدأ عدم التناقض ، ويريان أن في قدرة الله أن يخلق التناقض .

ب ) أما الممكن واقعياً فهو المتحقق في التجربة ، لكنه ليس ضروري الوجود . وليس كل ما هو خالٍ من التناقض ممكناً واقعياً . وعند فلاسفة العصور الوسطى ، مسلمين ونصارى ، أن كل شيء موجود ، هو ممكن ، ما خلا الله فإنه واجب .

ويرتبط بهذا مشكلة ما هو الأسبق في الوجود : الممكن أو الواقعي ؟ وقد أثارها أرسطو في مقالة اللام من كتاب « ما بعد الطبيعة » وانتهى إلى أن الواقعي أسبق في الوجود من الممكن ، لأن الممكن يحتاج كي يوجد إلى واقعي يسبقه .

والممكن يحتاج في تحقيقه واقعياً إلى سلسلة من العلل أو الشروط التي لا بد من توافرها أولاً من أجل أن يتحول الممكن إلى واقع . ولهذا فإن من الممكن أن يكون شيء ما ممكناً دون أن يتحقق أبداً ، لأن علته أو شروطه لم تتوافر .

ويرى كنت أن امكان الأشياء بوجه عام لا يمكن أبداً أن يحدث عن تصورات قبلية بل يحدث دائماً « عن شروط صورية وموضوعية للتجربة بعامة » . ويميز كنت بين امكان الأشياء وبين وجودها « فالأول يقوم فقط في كون تصورهما لا ينطوي على أي تناقض . . . أما إمكان الوجود فإنه يعني توافق وضع مثل هذا الموضوع خارج الذهن . . . والوجود لا ينتسب أبداً إلى فكرة الشيء ، وامكانه إذا كان تاماً ، لا يمكن أن يفرق بينه وبين الواقع والضرورة » ( التعليق رقم ٧٧٢ ) .

ج ) أما الممكن عملياً فهو ما تستطيع الطاقة أو القدرة فعله .

وفي الوجودية تلعب فكرة الامكان دوراً أساسياً ، خصوصاً عند هيدجرويسيرز . وهيدجر يقرر أن « الامكان أسعى من الواقع » ( الوجود والزمان » ) ، ذلك أن الامكان هو « ضرب ناقص » defizienter Modus لإمكان الوجود .

#### مراجع

- A. Gallinger: Das Problem der objectiven Möglichkeit, 1912

٣ - المطلق هو الاستنتاج Schluss

٤ - والمطلق - في أعلى تعريفاته - هو العقل Geist والمقصود بالعقل الذي يتطور ويتضح على مدى تاريخ الانسان .

وعلى هذا النحو رأى هيجل أن المطلق هو اللامتاهي الذي يشمل كل متناهٍ . ومن هنا نظر أحد تلاميذه ، وهو برونوباور ، إلى « المطلق » عندهيجل على أنه الانسان بوصفه فرداً تاريخياً في تقدم .

وفي الفلسفات ذوات النزعة الدينية في القرن العشرين اتجهوا واضح إلى استعمال كلمة « المطلق » مكان كلمة الله ، وأحياناً يستعملون كلمة القيمة المطلقة valeur absolue للدلالة على المطلق بمعنى « الله » ( راجع خصوصاً هذا الاستعمال عند رينيه لوسن Le Senne )

#### مراجع

- Schelling: Werke

- Hegel: Encyclopädie der Philosophischen Wissenschaften.

Joseph Heller: Das Absolute, 1921.

- G. Huber: Das sein und das absolute, 1955.

- Max Scheler: Vom Ewigen in Menchen, I, 1921.

#### الممكن

جهات الوجود تنقسم إلى ثلاث : ممكن ، واقع ، واجب أو ضروري .

والممكن يمكن أن ينقسم إلى ثلاثة أنواع : ممكن عقلياً ، ممكن واقعياً ، ممكن عملياً .

أ ) أما الممكن عقلياً possibile logicum فهو الذي لا تنطوي صفاته على تناقض فيما بينها . ويعرفه دونس اسكوتس هكذا : Possibile logicum est modus compositionis formatae ab intellectu, illius quidem cuius termini non includunt contradictionem (= الممكن عقلياً أو منطقياً هو حال التركيب الذي شكّله العقل بحيث لا تنطوي حدوده على تناقض فيما بينها) . وفي العصور الوسطى ارتبطت هذه الفكرة بفكرة الخلق الإلهي . فقال القديس توما ( « الخلاصة



وغيرها ، التي تبدو غريبة . ولهذا تجده يستعمل ألفاظاً عديدة مترادفة في نظره للدلالة على المعجزات مثل : signa (آيات ، علامات) ، prodigia (عجائب) ، monstra (مخلوقات عجيبة) ، mirabilia (أمور مذهبة) ، Portenta (عجائب) . والمهم في هذا أن أوغسطين لا يشترط في المعجزة أن تحدث بتدخل من الله .

وعلى عكس ذلك جاء القديس بوناقتورا ، وهو من مؤيدي مذهب أوغسطين ، فاشتراط كي يوصف حادث بأنه معجزة شرطين : الأول : أنه لكي يكون الحادث معجزة فيجب أن تكون علته الفاعلة المباشرة هي الله ، والثاني : أن يكون ضد الطبيعة ؛ إن الطبيعة يمكنها أن تحدثه ، ولكن على نحو آخر .

أما القديس توما الأكويني فيعرف المعجزة هكذا : «نقال المعجزة على ما يملأ المرء بالإدهاش وهو أمر له علة مجهولة للجميع . لكن هذه العلة هي الله . ولهذا فإن الأمور التي يصنعها الله على نحو خارج عن العلة المعروفة لنا تسمى معجزات» ( «الخلاصة اللاهوتية» ١١ ، المسألة ١٠٥ ، مادة ٧ ) ولتحديد أن العلة الوحيدة للمعجزة هي الله ، يقول إن المعجزة يجب أن تكون حادثاً يتم خارج نظام الطبيعة المخلوقة كلها ( الكتاب نفسه ، المسألة رقم ١١٠ ، مادة ٤ ) . ولهذا يميز توما تمييزاً دقيقاً بين المعجزة والمعجبة : فالأولى من فعل الله وحده ، أما العجائب فقد تكون عللها المباشرة موجودات غير الله . وقد صنف توما المعجزات تصنيفين رئيسيين :

( ١ ) فالتصنيف الأول يميز المعجزات إلى معجزات فوق الطبيعة ، ومعجزات ضد الطبيعة ، ومعجزات خارج الطبيعة supra, Contra, Praeter naturam

١ - فالمعجزات التي فوق الطبيعة هي الحوادث التي لا يمكن أن تحدثها الطبيعة ، إما مطلقاً ( مثل تمجيد الأجسام والتجسد ) ، أو نسبياً إلى الموضوع ( مثل بعث ميت ) .

٢ - والمعجزات ضد الطبيعة هي الحوادث التي تتعارض مع النظام الذي تحرص عليه الطبيعة ( حمل عذراء ، بقاء ناس في النار بغير احتراق ) .

٣ - والمعجزات خارج الطبيعة هي أحداث يمكن أن تحدثها الطبيعة ، لكن الله يحققها على نحو لا تستطيع الطبيعة محاكاته مثل العلاج في الحال ، تحول الماء إلى نبيذ ، تكثير أرغفة الخبز .

- H. Pichler: Möglichkeit und Widerspruchslosigkeit, 1912.
- J. M. Verweyen: Philisophie des Möglichen, 1913.
- August Faust: Der Möglichkeits gedanke, 1921
- Nicolai Hartmann: Möglichkeit und Notwendigkeit, 1938.

## المعجزات

### Miracles ( F., E. ), Wunder ( G ), Miracoli ( I )

تعرف « المعجزة » بأنها « حادث يحرق المجري العادي للطبيعة » . وتعرف في علم الكلام الإسلامي بأنها « خرق العادة » ، ولهذا تسمى المعجزات باسم : خوارق العادات . وهذا التعريف يتضمن وجود نظام معتاد تحرقه المعجزات ، أي أن المعجزة هي استثناء لنظام معتاد في الطبيعة . ولهذا لا يمكن التحدث عن « المعجزات » إلا إذا كانت لدينا معرفة دقيقة بنظام الكون .

ولهذا نجد المؤيدين والمعارضين لوجود معجزات يستخدمون هذا التقرير لمعنى المعجزات من أجل تبرير موقفهم المتعارضين . فالقديس أوغسطين ، من الفريق الأول ، يقول إن « الطبيعة هي مشيئة الله » ولهذا فإن « العجبة » (= المعجزة) ليست مضادة للطبيعة ، بل مضادة لمعرفتنا بالطبيعة « Portentum ergo fit non Contra naturam, sed Contra quam est nota natura (de civitate Dei, 8) , XX . ونجد جون لوك - من الفريق الثاني - في بحثه بعنوان « مقال عن المعجزات » ( كتبه سنة ١٧٠٢ ولكنه نشر بعد وفاته ) يعرف المعجزة بأنها « عملية محسوسة ، لما كانت فوق فهم المشاهد ، وفي رأيه مضادة للمجري المقرر للطبيعة ، فإنه يعتقد أنها إلهية » . والمعجزة على أساس هذين التعريفين إنما تصوّرت كذلك لجهلنا بنظام الطبيعة ولو كنا نعرفه تمام المعرفة لما كان هناك محل للكلام عن خوارق على الطبيعة ، أي عن معجزات .

لكن أوغسطين توسع في معنى المعجزة بحيث تجاوز المصطلح الدقيق ، لأنه يطلق المعجزة ليس فقط على خوارق الطبيعة بالمعنى الدقيق ، بل وأيضاً على العجائب التي يصنعها الملائكة والجن والسحرة بل وعلى الظواهر ، الطبيعية



(١٦٧).

وعلى نحو آخر ينكر ادوار لوروا- وهو برجسوني، ومع ذلك مؤمن بالكاثوليكية- المعجزات هكذا: إن المعجزة ليست واقعة استثنائية، ولا يمكن أن تكون لها علة مختلفة عن العلة الطبيعية؛ إنها لا تتميز من سائر الوقائع الطبيعية، إذ لا توجد حادثة خاصة، يقول: من وجهة نظر المظاهر المباشرة، فإن كل تقطيع (للوقائع) يزول، وكذلك يزول كل تصنيف؛ ولا يبقى المرء بحضرة شيء آخر غير الاتصال المتحرك غير المتميز. هنالك تخفي المعجزة كما تخفي كل ظاهرة خاصة، في التغير الكوني، والسيل غير المنقطع للصورة (بحث في فكرة المعجزة)، «حولييات الفلسفة المسيحية»، ج ٥٣ (ص ٢٩). لكن لوروا ينتهي إلى تفسير المعجزة تفسيراً ذاتياً روحياً فيقول: «إن المعجزة هي فعل للروح التي تستعيد - على نحو أكمل من المعتاد وتعزو وقتاً شطراً من ثرواتها ومواردها العميقة» (البحث نفسه ص ٢٤٧).

وقد ظهر اتجاه إلى تفسير المعجزات تفسيراً طبيعياً منذ وقت مبكر. ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه اسبينوزا. فعنده أن المعجزة لا يمكن تصورها موضوعياً: فهذا اللفظ: «معجزة» لا معنى له إلا بالنسبة إلى الآراء الانسانية، ولا معنى له سوى أنه حادث لا نستطيع تفسيره ومعرفة علته الطبيعية بواسطة مثال حادث آخر معروف.

ومحار مالبرانش في تفسير المعجزات، وهو رجل دين مع ذلك. فيحاول أن يفترها فيقول: «أنا أفهم من المعجزات الآثار المتوقفة على قوانين عامة غير معروفة لنا طبيعياً» (محادثات في الميتافيزيقا، الفصل ١٢، رقم ١٣ في الهامش).

كذلك نجد لبيتس يرى أن المعجزة تندرج في النظام العام للكون، وبالتالي لا تختلف عن الحادث الطبيعي إلا في الظاهر وبالنسبة إلينا نحن» (مؤلفاته ج ٩ عمود ١٨٣).

وفي هذا الاتجاه أيضاً سارت البروتستية المتحررة. فنجد اشليز ماخريقرر أن المعجزة - شأنها شأن الوحي - هي في مستوى الأحداث الطبيعية. إنها علامة وإشارة وقول على «العلامة المباشرة بين ظاهرة واللامتناهي». ويقول أيضاً: إن «المعجزة ليست إلا التسمية الدينية لحادث. وكل حادث، مهما يكن طبيعياً وشائعاً، متى ما سمع بأن تكون

(ب) والتصنيف الثاني يقسمها فيما يتعلق بقدرة الطبيعة المخلوقة التي يتجاوزها الحادث المعجز. وهنا تقسم المعجزات إلى: (١) معجزات من جهة الجوهر المصنوع، وذلك حين لا تستطيع الطبيعة المخلوقة أن تحدثها؛ (٢) ومعجزات من جهة الموضوع الذي يتم فيه المعجزة، حين لا تستطيع الطبيعة إحداثها في الموضوع (الشخص) الذي حدثت فيه: مثل إحياء ميت، إبراء أكمه (أعمى)، الخ؛ (٣) معجزات من جهة الكيفية التي جرت عليها المعجزة، مثل الشفاء في الحال لمريض.

والغاية من المعجزة، بوصفها تدخلاً خاصاً من الله يغير في حالة جزئية معينة المجري العادي للأمور، هي تحقيق غرض معين يريد الله. يقول توما: إن المعجزة عمل يريد به الله تأييد دعوى إيمانية (الخلاصة اللاهوتية، ٣. ٩. CXII, a. 2).

إنكار المعجزات: أنكر أنصار العلم الوضعي إمكان حدوث معجزات، أي أمور خارقة للقوانين الطبيعية، فقالوا إن العالم الذي نسكنه هو نظام مغلق لا يتدخل فيه شيء من خارجه. وكل ما يجري فيه من أحداث، مهما تكن غرابتها، لا بد لها من تفسير مستمد من القوى والعناصر التي يتألف منها هذا العالم. وما هو طبيعي هو وحده العلمي، أما القول بخوارق على القوانين الطبيعية فليس من العلم في شيء. يقول أرنست رينان: «إن مجرد قبول الخوارق معناه الخروج على العلم» («حياة يسوع» ط ٣، المقدمة، ص ٧١).

وحجة هؤلاء هي أن العلم يقوم على أساس الجبرية déterminisme المطلقة للظواهر التي يدرسها. ومن أبرز من أنكروا إمكان المعجزات على أساس الجبرية ديفد هيوم. وخلاصة رأيه هي أن قوانين الطبيعة تقررت وثبتت بالتجربة الثابتة للطرقة. لكن القول بالمعجزات معناه إنكار القوانين الطبيعية. إذن المعجزات مستحيلة. (بحث في العقل الانساني، في «مؤلفات هيوم الفلسفية» ج ٤، بوسطن ادنبره سنة ١٨٥٤ ص ١٣٠-١٣١). وجاء جون ستوروت مل فأيلده قائلاً: «إن اطراد مجرى الطبيعة، وهو أمر مشاهد بالتجربة، يدل على أن الكون محكوم بقوانين عامة لا بتدخلات خاصة. فثم إذن ضد المعجزات عدم احتمال لا يمكن موازنته إلا باحتمال قوي جداً ناجم عن ظروف خاصة للحالة موضوع البحث» (مذهب في المنطق الاستنباطي والاستقرائي، ترجمة فرنسية ط ٣ باريس ١٨٨٩، ص ١٦٦).

معلوم ، والايجاب كان معدولاً أو محصلاً ، فلا يصحّ إلا على موضوع موجود . فيصحّ أن نقول إن العتقاء ليس هو بصيراً ، ولا يصحّ أن نقول إن العتقاء هو غير بصير . . . فإن « غير بصير » يصحّ ايجاهه على كل موجود كان عادماً للبصر ومن شأنه أن يكون له ، أو ليس من شأنه أن يكون له بل من شأن نوعه أو جنسه ، أو ليس البتة من شأنه أو شأن محمولٍ عليه أن يكون له بصير .

والقضية الثنائية [ = الخالية من ظهور الرابطة ] لا يتميز فيها العدول عن السلب إلا بأحد جهتين : ( أحدهما ) من جهة نية القائل ، مثلاً إذا قال : « زيد لا بصير » فعنى به أن « زيداً ليس هو ببصير » - كان سلباً . وإن عنى أن « زيداً هو لا بصير » كان ايجاباً معدولاً . ( والثاني ) من جهة تعارف العادة في اللفظ السالب . فإنه إن قال : « زيد غير بصير » علم أنه إيجاب ، لأن « غير » يستعمل في العدول ، وليس يستعمل في السلب .

وأما في الثلاثية - فإن الإيجاب للعدول متميز من السلب المحصل من كل وجه ، لأن الرابطة إن دخلت على حرف السلب ، ربطت حرف السلب مع المحمول لشيء واحد فأوجبت ، كقولك « زيد ليس هو بصيراً » لأن الرابطة تجعل البصير وحده محمولاً وتترك حرف السلب خارجاً عنه . ( ابن سينا : « النجاة » ص ١ - ١٥ - ١٦ . القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٣٨ ) .  
← راجع ( التصور ) السالب .

### المعيار

#### Norme ( F. ), Norm ( F. - G )

المعيار هو القاعدة والمثل الأعلى والنموذج سواء حددناه على نحو مجرد أو على نحو عيني .

والعلوم المعيارية هي تلك العلوم التي موضوعها الأحكام التقويمية ، وهي : الأخلاق وموضوعها الخير ، والجمال وموضوعه الجميل ، والمنطق وموضوعه الحق .

وقد يجب المعيار وفقاً للمتوسط الاحصائي . وهذا المعنى يستعمل ديفد هيوم عبارة : « معيار الذوق » بمعنى حكم أصحاب الذوق على الأشياء الجميلة .

وجهة النظر الدينية بشأنه هي وجهة النظر السائدة ، هو معجزة . ( في الدين . خطب موجهة إلى المثقفين بين المزددين لهم ط ٣ برلين ، ص ١٥١ - ١٥٣ ) .

### مراجع

- A. Michel : art. «miracle» in Dictionnaire de théologie catholique, T. X, 2<sup>e</sup> partie, coll. 1798 1859, Paris, 1929
- J. de Tonquédec: Introduction à l'étude du merveilleux et du miracle. Paris, 1916.
- E. Le Roy: «Essai sur la valeur du miracle» , in Annales de philosophie chrétienne, t. CLiii, pp. 5-33, pp166-191; 225-259.
- E. Le Roy: «le problème du miracle», in Bulletin de la société française de philosophie, mars 1912, pp. 85-168.

### المعدولة ( القضية )

#### jugement limitatif

القضية المعدولة هي التي موضوعها أو محمولها اسم غير محصل ، مثل : اللانسان أبيض ، أو الانسان لا أبيض - وذلك في مقابل القضية البسيطة وهي التي موضوعها ومحمولها اسم محصل .

والقضية المعدولة المطلقة في وصفها بالعدول هي التي محمولها اسم غير محصل ، كقولك زيد هو غير بصير .  
فقولنا : « زيد هو غير بصير » : قضية موجبة معدولة .

« والفرق بين الموجبة المعدولة ، كقولنا : « زيد هو غير بصير ، وبين السالبة البسيطة كقولنا زيد ليس هو ببصير : أما من جهة الصيغة ، فلأن حرف السلب في المعدولة جزء من المحمول ، كأنك أخذت « الغير » و « البصير » شيئاً واحداً حاصلًا منها بالتركيب ؛ فإن أوجبت تلك الجملة لشيء واحد كان ايجاباً معدولاً ، وإن سلبت فقلت : « زيد ليس هو غير بصير » ، كان سلباً معدولاً - وأما في البسيطة فإن حرف السلب ليس جزءاً من المحمول ، بل شيئاً خارجاً عنه داخلاً عليه رافعاً إياه . - وأما من جهة التلازم والدلالة ، فإن السالبة البسيطة أعم منها ، لأن السلب يصحّ عن موضوع

الابتعاد عن الله .. أما الاستعمال الفلسفي في اللغة الألمانية لكلمة Entfremdung فنجد له لأول مرة عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر : إذ استعمله فلهم فون هومبولت سنة ١٧٩٣ ، واستعمله هيجل في كتابه « ظاهريات العقل » ( سنة ١٨٠٧ ) .

ولتوضيح معنى « المغايرة » يجب أن نتناولها في ميادين استعمالها المختلفة :

#### أ - المغايرة عند رجال الدين واللاهوت :

وهنا نجد لها أولاً عند الغنوصيين في مجموع الكتب المنسوبة إلى هرمس - Corpus hermeticum - في القرون الأولى قبل الميلاد والأول والثاني بعد الميلاد بمعنى « تخلص النفس ( البنويما ) من حياة الضلال والخداع ؛ ويفضل المغايرة يتهيأ المرء للخلاص وسلوك طريق النجاة والميلاد من جديد » .

لكن عند اللاهوتيين المسيحيين في القرن الثالث نجد استعمالاً مضاداً للاستعمال الذي أتينا على ذكره . إذ يستعملها كوبريانوس ( حوالي سنة ٢٥٠ م ) للدلالة على العابد الذي لا يزال متعلقاً بالأمر الدنيوية ، ولا يزال بالتالي « متعبداً » عن مخاطبة الله وعن الأفكار الإلهية . ويستعملها اثناسيوس بمعنى الانحلال من رابطة العقيدة المسيحية الصحيحة وعقيدة الكنيسة .

ويستخدم أوغسطين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ ) التعبيرات aba- alienatio, abalienare, alicnare, لدفع الآراء التي لا تستند إلى العقيدة المسيحية في دعاواها الخاصة بالمعرفة الكونية والنشورية والخلصية واللاهوتية ، مثل آراء اليونانيين في التعميد اللاحق ، ورأي المانوية في وجود إله لفسر ، ورأي الأريوسيين في التثليث .

بيد أننا نجد بعد ذلك بزمان طويل عند جويجيو فون كامستل ( ١٠٨٨ - ١١٣٧ ) استعمالاً للمغايرة قريباً من استعمال الغنوصيين ، إذ يستخدمها للدلالة على تخلص من يعبد الله من علائق الدنيا بواسطة الخدمة والتجلي والوجد . - وفي نفس الاتجاه نجد هوجوي سان فكتور ( ١٠٩٦ - ١١٤٠ ) . وريشاردي سان فكتور ( المتوفى سنة ١١٧٣ ) يستعملان كلمة « المغايرة » للدلالة على الدرجة العليا من الدرجات الثلاث للتأمل : بوصفها انتصاراً على العقبات الحسية وانفتاحاً على التجارب البعيدة عن الروح الانسانية ، إنها هبة من مواهب اللطف الإلهي .

#### المغايرة

#### Aliénation, Entfremdung, Enajenacion

في العربية : « غايير ، مغايرةً وغياراً : عاوضه بالبيع وبادله ؛ - وخالفه - ؛ كان غيره » ( « أقرب الموارد » للشرتوني تحت الكلمة ) ؛ و « المغايرة هي المبادلة » ( « لسان العرب » ) .

وبحسب هذه المعاني ، فإن كلمة « مغايرة » هي أدق وأحسن ترجمة للكلمة اللاتينية alienatio وما صدر عنها في اللغات الأوربية الحديثة ، وما ترجمت به في الألمانية .

فالكلمة اللاتينية alicnatio والفعل alienare وكذلك الكلمة abalienare والاسم abalienatio معناهما : المبادلة ، البيع ، التنازل للغير ، انتقال الملكية من شخص إلى آخر ؛ - الانفصال ، الابتعاد - ؛ فقدان العقل ، الهذيان . والفعل alienare معناه : يبيع ، يبادل ، يتنازل عن ، ينقل ملكية من شخص إلى آخر ؛ - يُعبد ؛ - يُغَيَّر ، يُقَيِّد ؛ - يَضَلُّ

وقد استخدم الفعل alienare لترجمة كلمة ἀλλοτριῶν اليونانية أينما وردت في الكتاب المقدس ( العهد الجديد ) ، وتدل هناك على « ابتعاد الوثنيين عن الله » وكونهم في جهل وضلالة .

وقد استعمل أرسطو كلمة ἀλλοτριῶς بمعنى : المُبَعَد من التعامل وممارسة الحقوق في المدينة ( كتاب « السياسة » م ٢ ف ٢ ص ١٢٦٨ أس ٤٠ ) . ويستخدم الكلمة ἀπαλλοτριῶσις ( « الخطابة » ص ١٣٦١ أ س ٢٢ ) بالمعنى القانوني استعمال شيشرون ( Cicero, Top. 25 ) الكلمة اللاتينية Abalienatio

وقد بدأت الكلمات المناظرة لها في اللغات الأوربية الحديثة : alienation ( في الانجليزية ) ، aliénation ( في الفرنسية ) ، alienazione ( في الإيطالية ) - بهذا المعنى القانوني أي البيع ، التنازل للغير عما يملكه المرء ، المبادلة .

وفي اللغة الألمانية نجد الكلمة Entfremdung في اللغة الألمانية العالية الوسطى ، وعند السيد اكهوت ( ١٢٦٠ - ١٣٢٨ ) ؛ ونجد لوثر في ترجمته للانجيل سنة ١٥٤٥ يستخدم الفعل entfremden ترجمة لكلمة abalienare اللاتينية بمعنى :

مصدراً خطيراً لتشتت الذات (راجع W. v. Humboldt: Werke, hg. A. Flitner / Giel, I 235-238)

لكن فكرة المغايرة لم تصبح معنى بالغ الدلالة والأهمية إلا على يد هيجل . وكانت عنايته بها مبكرة سبقت كتابه « ظاهريات العقل » . إذ نجد في نصوص « فلسفة العقل » التي سبقت تحرير « ظاهريات العقل » ( سنة ١٨٠٧ ) ما يدل على هذه العناية . إذ فيها يبحث هيجل في تثقيف الفرد ، ويقتبس ما يقوله روسو في كتابه « في العقد الاجتماعي » . يقول هيجل : « يتصورون أن تكوين الإرادة العامة يتم كما لو كان كل المواطنين قد تجمعوا عن قصد واختيار ، وكما لو كان مجموع الأصوات قد صنع الإرادة العامة » ( مؤلفات هيجل ، نشرة لسنون وهوفميستر ج ٢٠ ط ٢ ص ٢٤٥ ) . لكن ما حدث في التاريخ لم يتم على هذه الصورة المبسطة ، بل على العكس تماماً : بدت الإرادة العامة للفرد كشيء مضاد للفرد وللذات الفردية ، أو في القليل كشيء أجنبي عنه . والحق أن الإرادة العامة هي ما سيصير إليه الفرد ، إذا ما ارتفع من الجزئي - الذي هو ذاته - إلى الكلي ، وذلك « بفضل إنكاره لذاته » . أي بالتنازل عن فردانيته في سبيل كلية الإرادة العامة للمجتمع المدني . « وعلى الإرادة العامة أن تتكون أولاً ابتداءً من إرادة الأفراد وأن تكون ذاتها بوصفها عامة ، حيث تبدو الإرادة الفردية هي المبدأ والعنصر ، بينما الإرادة العامة هي الحد الأول والمالية » . إن الإرادة العامة هي جوهر الأفراد ، بيد أن هذا الجوهر يبدو لهم غريباً عنهم ، وأمرأً ينبغي أن يصيروا إليه بواسطة الحضارة ؛ مثلما أن الطفل يرى في أبويه جوهره الذي يبدو له مع ذلك خارجاً عنه . وهذا الانفصال بين الكلي والذات المفردة هو المميز لتطور العقل ؛ وعلينا أن نتبع الحركة التي بفضلها يتحقق الجوهر - وكان في البدء تصوراً مباشراً - بواسطة نمو الشعور الذاتي وتطوره ، وما يجري أثناء هذا التطور من مغايرة .

وفي « ظاهريات العقل » يتناول هيجل لحظات المغايرة في التاريخ ، لكنه يركز بصفة خاصة على عصره ، عصر التنوير Aufklärung في القرن الثامن عشر . لقد تجلّت المغايرة منذ زوال المدينة اليونانية التي كانت في الوقت نفسه دولة مستقلة قائمة برأسها ، فيها كان المواطن يتصور العلاقة بينه وبين المدينة على أنها علاقة هوية identité . أما بعد انهيار « المدينة - الدولة » اليونانية ، فقد صار المجتمع غريباً وأجنبياً عن المواطن في الدولة . وكان على المواطن في الدولة الأمة

بيد أن القديس توما الأكويني ( ١٢٢٥ - ١٢٧٤ ) يستعمل الكلمة alienatio بمعان مختلفة : فهو يعتبر المغايرة أحياناً اختلالاً روحياً مرضياً ، لكنه في أحيان أخرى يستعملها للدلالة على حالة الانفكاك من الخواص والأغراض الخاصة .  
ب - المغايرة عند الفلاسفة :

قلنا إن المقابل اليوناني للمغايرة يستعمله أرسطو بالمعنى القانوني والاقتصادي أي : المبادلة ، نقل الملكية ، البيع . وفي القرن الثامن عشر نجد روسو يستعمل كلمة aliénation مراراً عدة في كتابه « في العقد الاجتماعي » أولاً بمعنى « يعطي أو يبيع » donner ou vendre وذلك في نقده لهوجو جروتيموس فيما يتعلق بعقد المبادلة بين حرية الأفراد والمصالح التي يحققها الحاكم للحكومين ( راجع « في العقد الاجتماعي » ١ : ٤ ) يقول روسو ، بعد أن ذكر شروط الحياة في مجتمع وما تقتضيه من سلب لحرية أفرادها : « ومن اليبين أن هذه الشروط إذا فهمت على النحو الصحيح فإنها ترجع كلها إلى شرط واحد هو المغايرة التامة لكل مشارك في هذا المجتمع لكل حقوقه والتنازل عنها للجماعة » ( « في العقد الاجتماعي » ، نشرة بولافون ، ص ١٣٩ ، باريس سنة ١٩٢٢ ) .

وقبل روسو قرر هوبز أن هذا التنازل لا يتم للجماعة ، بل للحاكم ذي السيادة . ذلك أن تنازل الأفراد عن حقوقهم للحاكم ذي السيادة هو الشرط الأساسي في العقد الاجتماعي الذي يربط بين الحاكم والمحكومين .

والسبب في هذه المغايرة ، في ميدان السياسة ، هو أن « الانسان المتوحش sauvage يعيش في ذاته ، بينما الإنسان الاجتماعي - وهو دائماً خارج نفسه - لا يستطيع أن يعيش إلا في رأي opinion الآخرين » ( روسو : « مقال في عدم المساواة » ) .

ثم جاء فلهم فون همبولت في سنة ١٧٩٣ فأعطى للمغايرة Entfremdung معنى آخر غير المعنى السياسي الذي رآه هوبز وروسو؛ إذ قال إن المغايرة تحدث نتيجة ما يقوم في باطن الانسان من نزاع بين مضمون فكرة الانسانية في شخصه ، وبين الموضوعات الخارجة عنه . ولما كان جوهر الانسان هو المهم في التربية ، فإن الحكمة والفضيلة تقتضيان من الانسان « ألا يفقد ذاته في هذه المغايرة » لأن فكرة الانسانية تفقد حينئذ مضمونها الأعظم وتكون المغايرة

العالم على أنه عالم مادي محسوس مؤلف من أشياء مادية لا مدلول لها أكثر من ذلك. وقيمة الأشياء المادية هي في المتفعة التي تؤذيها أو تحققها، وليس لها معنى وراء ذلك.

وقد أصابت نزعة التنوير - هكذا يرى هيجل - في أنها وضعت دعاوى الملكية والكنيسة في حدودها الصحيحة ، وفي اعتبارها الذاتية العقلية هي السائدة . لكنها أخطأت في قصرها الذاتية على الذاتية الانسانية ، وعدم ادراكها لمكانة الروح الكلية أو الكونية التي هي المعنى الأعلى للذاتية الانسانية ، وهي العقل في التاريخ والروح المطلقة التي تنمو وتتطور على مدى التاريخ فيما ينشئه الانسان من علوم وحضارات .

إن رفع ( القضاء على ) المغايرة يتم عند هيجل في عملية التاريخ انطلاقاً من القضاء على الأخلاق القديمة ( اليونانية الرومانية ) مروراً بالاقرار بالشخصية الانسانية عند المسيحية ومروراً بالمجتمع البورجوازي الذي يقر بحقوق الانسان .

أما ما يعرف باليسار الهيجلي فقد اهتم بالمغايرة في ميدان الروح الموضوعية ، وفي الاقتصاد بخاصة ، ناقداً اقتصار هيجل على العناية بالمغايرة في ميدان الروح الذاتية . ومن بين هؤلاء A. v. Cieszkowski ( ١٨١٤ - ١٨٩٤ ) الذي نقد موقف هيجل من المغايرة لأنه صرف النظر عما هو عيني واقعي متحقق في واقع الحياة . ومنهم خصوصاً لودفيج فويرباخ Ludwig Feuerbach ( ١٨٠٤ - ١٨٧٢ ) الذي رأى أن المغايرة تقوم في الفصل بين التفكير المنطقي وبين ماهية الانسان ، وفي النظر إلى حقيقة الانسان على أنها ذات أصل فوق طبيعي ، وهو ما يتجلى في السيدن ( المسيحي واليهودي ) . ومن هنا رأى فويرباخ أن المغايرة تقوم أساساً لإفكار معنى الانسان لصالح اغناء معنى اللاهوتية .

لكن هذا النقد غير منصف ، لأن هيجل عني بالمغايرة في ميدان الاقتصاد ، واهتم خصوصاً بما يسيه « العمل » من مغايرة . إن العمل يجعل كل فرد يعتمد على فرد آخر ؛ وهذا لا يعمل الفرد لنفسه ، بل للآخرين . وعن هذا الموقف ينجم انفصال - مغايرة - بين الفرد وما يؤديه من عمل . ولهذا فإن العمل الجماعي يؤدي بالضرورة إلى المغايرة . يقول هيجل : « إن الانسان على هذا النحو يشيع احتياجاته ، لكن ذلك لا يتم من خلال الموضوع الذي يعمله ؛ إنه باشباعه لاحتياجاته ، يصير غيراً ، شيئاً آخر . فلا يعود الانسان ينتج

أن يسعى إلى إيجاد هوية بينه وبين الدولة والمجتمع ، لكن كان عليه في سبيل ذلك أن يتخلى عن حريته وفرديته وذاتيته . وتلك هي المغايرة . فجوهر المغايرة يقوم في شعور الذات الفردية بأن حياتها تقوم خارج ذاتها ، وذلك في المجتمع والدولة .

بيد أن هذه المغايرة مرحلة ضرورية على الطريق إلى تحقيق العقل ( أو الروح ) لذاته ؛ وهو لهذا مزيج من الواقعي والوهمي . ذلك أن الفرد يشعر بأنه يعتمد على شيء خارجة وأعظم منه هو الجماعة والدولة ؛ لكن عليه في الوقت نفسه أن يشعر بذاتيته الخاصة . والموقف الأساسي للشعور بالمغايرة هو حين يشعر الناس بأن جوهرهم يقوم في شيء خارج عنهم ، وبالتالي يشعرون أنهم لا يستطيعون تحقيق ذاتهم إلا بالتغلب على خصائصهم الذاتية ابتغاء التوافق مع تلك الحقيقة الخارجة عنهم ، أعني المجتمع أو الدولة . والشعور بهذه المغايرة حاضر سواء لدى من يدعن هذه الحقيقة الخارجية عن طيب خاطر ، ومن يتغر منها ويشيح بوجهه عنها . وهيجل ينعت الشعور الأول بأنه نبيل iedelmütig والشعور الثاني بأنه خسيس niederträchtig

ويرى هيجل أن « التنوير » Aufklärung يمثل بداية النهاية للمغايرة من حيث ان الحقائق التي يتوجه إليها تقوي الشعور المغاير ويسعى إلى التوافق معها - تتحد وتتكلم . فالدافع الخارجي يصير موضوعياً ، خالياً من المعنى الروحي وينظر إليه على أنه عالم من الأشياء المادية المحسوسة المبسوطة أمام شعور علمي كلي . والدولة والبنية الدينية لم تعودا حقائق تبت الخوف والقلق ، بل مجرد جزء من مادة العالم ، وعرضة لفحص الشعور العلمي . ويعود الانسان من جديد هو الحقيقة المهمة ، وتعود الذات مركزاً للأشياء . وكانت النتيجة لهذا الاتجاه أن تميزت نزعة التنوير برأين : الأول هو ارجاع « المطلق » أو الله إلى مجرد فكرة خاوية عن « موجود أعلى » être suprême ، لا يوصف بأي وصف محدد ، لأن كل العالم الواقعي أصبح ينظر إليه على أنه مادي ومحسوس ، وكل وصف مفهوم ينبغي أن يستمد من هذا الواقع المادي المحسوس . ومن ثم لم يعد من الممكن وصف الله بأنه « أب » أو « خالق » ، « فعال » الخ . ومن هنا كان الطابع السائد في تدوين أصحاب نزعة التنوير هو التأليه المجردة déisme التي تقول بوجود موجود أعلى لا نستطيع وصفه بأي وصف . - والرأي الثاني هو القول بالمتفعة ، أي أن يكون كل شيء نافعا لغيره . وهذا الرأي مستمد من ماهية التنوير ، بوصفه ينظر إلى

الطرف المضاد الذي يمجّد الآلة ويطلب بالتزديد من الآلية . إنه يرى في الآلة والآلية عنصراً لا بد منه لتكوين المجتمع الحديث ، لأن هذا يتطور في اتجاه تزايد الحاجات ، وبالتالي تزايد الانتاج وتنويعه .

وحسبنا هذا القدر لبيان المغفيرة في نظرية العمل عند هيغل .

وهذا التحليل أخذته كارل ماركس عن هيغل دون أن يضيف شيئاً من عنده كما هو ظاهر من المخطوطات الاقتصادية الفلسفية ، التي كتبها ماركس في سنة ١٨٤٤ وظلت غير منشورة حتى نشرت لأول مرة سنة ١٩٣٢ . وكل ما كتبه ماركس في هذا الباب تكرر مسهب لما قاله هيغل بإحكام وتدقيق والفارق بينهما أن ماركس استخلص بعض النتائج الاقتصادية لنظرية هيغل في العمل . فقال إن عالم الأشياء المنتجة يكتسب قوة مستقلة ، تجاه من أنتجوها ، وفي هذا يتضح طابع المغفيرة في النشاط الانتاجي ، فيصبح المنتجون ( العمال ) مجرد وسائل لاشباع حاجات خارج قوتهم ؛ ولما كانوا هم وما أنتجوه يتسبون إلى غيرهم ، فإن نشاطهم لن يكون نشاطاً ذاتياً أي خاصاً بهم ، والعمل ذو الأجر يحدث مغفيرة بين العامل وبين مضمون ومصدر نشاطه . ومن المغفيرة في العمل ينشأ بالتكرار المغفيرة العامة في الاقتصاد التبادلي : فتحدث مغفيرة بين العمل ورأس المال والأرض ، كما تحدث مغفيرة بين العمل والأجر ، ورأس المال ، والربح ، والفائدة والربح العقاري . وفي العلاقات الاجتماعية تجعل المغفيرة في الأمور التالية : في أنانية المتنافسين ، وفي تقويم الانسان بحسب ما يملك من عقار أو أموال منقولة ، وفي التنازع بين الرأسمالين والعمال . وهكذا فإن المغفيرة الناجمة عن العمل تؤدي إلى « المغفيرة بين الانسان والانسان » . وفي هذا التحليل - المقبول كله عن هيغل - للعمل الذي أصيب بالمغفيرة يلخص كارل ماركس ويؤسس نقله لنظام الدولة البورجوازية ، وللمدين ولانثروبولوجيا الهيكلين الشباب ، ثم رأيه في إلغاء الملكية الخاصة ودعوته إلى الشيوعية . وهو يحدد الشيوعية بأنها الغاء (رفع) للمغفيرة (راجع المخطوطات الاقتصادية الفلسفية) لماركس ، ص ٥١٠ - ٥٣٦ .

وبعد هذه « المخطوطات الاقتصادية الفلسفية » ( سنة ١٨٤٤ ) لم يتناول كارل ماركس مسألة المغفيرة إلا نادراً وبمنااسبة بعض الايضاحات أو الجدل مع الهيكلين

ما يحتاج إليه ، ولا يعود يحتاج إلى ما يتجه . وبدلاً من ذلك ، فإن التحفيق الفعلي لاشباع احتياجاته يصبح فقط امكان هذا الإشباع . إن عمله يصبح عاماً ، شكلياً ، مجرداً ، مفرداً ، وهو يحدّ نفسه في واحدة من حاجاته ، ويستبدلها بسائر حاجياته ، (Hegel: Real-Philosophie, I, 237-8) وهكذا يؤدي اعتماد الانسان على الانسان ، وإن حقق طبيعة الانسان الكلية ، فإنه في الوقت نفسه يخلق سلطة فوق الانسان تنمو إلى خارج نطاق سيطرته « إنه لا يوجد انسان هو بالنسبة إلى نفسه مجموع حاجاته . وعمله ، أو أية وسيلة لقدرته من أجل اشباع حاجاته ، لا تشبعها . بل الذي يشبعها إنما هو قوة أجنبية عنه eine fremde Macht لا سلطان له عليها ، وعليها يتوقف ما إذا كان الفائض ، الذي يملكه ، يكون له مجموع ما يشبع حاجاته » (Schriften zur Politik, p. 492)

وكلما تقسم العمل وتنوع ، ازداد بعداً عن الاشباع المباشر للمنتجين وهكذا يحقق الانسان المزيد من العمل مع المزيد من التجريد والمغفيرة في اثناء عملية الانتاج نفسها . « إن عمله وما يملكه ليسا ما هما بالنسبة إليه ، بل ما هما بالنسبة إلى الكل . إن اشباع الاحتياجات اعتماداً كلي من الكل على الكل ؛ وهناك يزول الأمان لكل واحد ، ويتبدد علمه بأن عمله ملائم مباشرة لحاجاته الخاصة ؛ لقد صارت حاجته الخاصة أمراً كلياً » (Realphilosophie, I, 238)

ويزيد هيغل في تحليل « العمل » بعمق وارهاف ذهن عملي واقعي فيقول : « إن تخصص العمل يكثر كمية الانتاج : إن في المصنع الانجليزي يعمل ١٨ شخصاً في انتاج ابرة واحدة ؛ ولكل واحد منهم جزء خاص من العمل يؤديه ، ومن المحتمل ان الشخص الواحد لا يستطيع ان يصنع ١٢ ابرة ، بل ولا ابرة واحدة . . . بيد أن قيمة العمل تتناقص بنفس النسبة التي بها تزايد انتاجية العمل . وهكذا يصير العمل أكثر موتاً ، إنه يصبح عمل آلة ، ومهارة الفرد الخاصة تصبح محدودة الى أقصى درجة ؛ وينحط شعور عامل في المصنع الى أدنى مستويات العبودية . والرابطة بين الطابع الخاص للعمل وبين الكمية اللامتناهية للاحتياجات تصير غير مرئية تماماً ، وتتحول الى اعتماد أعمى . » (Realphilosophie, 239)

ويمضي هيغل في بيان ازدياد المغفيرة بازدياد الاعتماد على الآلات في الانتاج . لكن هذا لا يدعو إلى الوقوف في صف المهاجرين لادخال الآلات في الصناعة ، ولا في صف



- Karl Marx: Die ökonomisch- philosophischen Manuskripte aus dem Jahre 1844, in Karl Marx und Fr. Engels: Historisch- Kritische Gesamtausgabe, Berlin, 1932.
- Georg Lucacs: Der junge Hegel und das Problem der Kapitalistischen Gesellschaft. Zürich und Wien, 1948.
- Heinrich Popitz: Der entfremdete Mensch. Zeitkritik und Geschichts philosophie des jungen Marx. Basel, 1953.
- A. Cornu: «L'idée d'aliénation chez Hegel, Feuerbach et K. Marx, in La pensée, n. 2 (1948), pp. 65- 75.
- L.D. Easton: «alication and History in the early Marx», in Philosophy and Phenomenological Research, vo. 22 (1961), pp. 193- 205.
- L. Feuer: «What is alienation?» The Career of a Concept, in New Politics, vol. 1, n. 3 (1962), pp. 116- 134.

### المفارقات

#### Paradoxes ( F., E. ), Paradoxen ( G. )

المفارقة هي حقيقة تظهر عليها صفة التناقض مع حقائق شائعة أو مسلم بها.

والمفارقات تدخل في العديد من العلوم : في الرياضيات ، مثل مفارقات اللامتناهي ؛ وفي الفلسفة مثل مفارقات زينون الايلي في حججه ضد الحركة ؛ وفي اللاهوت الديالكتيكي المسيحي حين يقرر أن الله عاش في أرض فلسطين كإنسان بين سائر الناس ( المسيح ) .

وانصار استخدام المفارقات يدافعون عن مسلكهم هذا بالوسائل التالية :

١ - يقولون إن المفارقة صحيحة ومعقولة ومبرهن عليها ، لكنها تبدو عكس ذلك لمن لم يفكر بعمق ووضوح . فعلى هذا النحو يدافع الرواقية عن قولهم إن الحكيم هو وحده الحرّ ، ويدافع بولتسانو Bolsano عن مفارقات اللامتناهي بقول الأولين ( الرواقية ) إن هذا القول يبدو غير معقول فقط عند من لا يفهم المعنى الحقيقي للحكيم

اليساريين ، كما نجد ذلك في كته التالية ( وحده أو مع زميله انجلز ) : « العائلة المقلمة » ( سنة ١٨٤٥ ) ، « قضايا عن فويرباخ » ( سنة ١٨٤٥ ) ، « الايديولوجيا الألمانية » .

لكن كارل ماركس يتخلى عن فكرة المغايرة في العمل حين يكتب كتابه الرئيسي : « رأس المال » لأنه لم يعد ينظر إلى العمل كنتاج فردي ، بل كنتاج جماعي ، ومن هنا أصبح ينظر إلى العمل على أنه « وحدة اجتماعية » . وحين يتحدث في كتاب « رأس المال » عن « التحارج » Veräusserlichung فإنه لا يعني به المغايرة التي عرضها من قبل في « مخطوطات » سنة ١٨٤٤ .

### مراجع

- P. Asveld: La Pensée religieuse du jeune Hegel. Liberté et aliénation.
- E. Botticelli, J.- M. Domenach. H. Lefebvre, etc: L'aliénation: mythe ou réalité», in *Raison prereite* (3), 1967.
- J. M. Domenach: «Pour en finir avec l'aliénation», in *Esprit*, dec. 1965.
- J. Gabel: «Le concept d'aliénation politique», in *Rev. Frnc. Sociolog.*, oct- déc. 1960.
- J. Gauvin: «Ent fremdung et Entäusserung dans la «phénoménologie de l'Esprit» de Hegel», in *Arch. Phil.* Juillet Déc. 1962.
- - P. Naville: De L'aliénation à la jouissance. La genèse de la sociologie du travail, chez Marx et Engels. Paris, 1965.
- A. - M. Papon: L'aliénation. Etude lexicologique. Thèse de doctorat. Paris, 1966.
- J. J. Rowsseua: Discours l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes , de contrat social.
- J.P. Sartre: Critique de la raison dialectique, Paris, 1960.
- A. Schaff: «L'aliénation et l'action sociale», in *Diogenes* 57, 1967.
- L. Feuerbach Die Religion; Das Wesen des Christentums.



### أقليدس الميجاري

ينبغي بادئ ذي بدء أن نميز بينه وبين أقليدس الرياضي المهندس الشهير الذي عاش بعده بأكثر من قرن في عهد البطلمة في الاسكندرية .

وكان من أقدم تلاميذ سقراط ، ولما حرم على أهل ميغارا دخول أثينة يقال إنه كان يدخل أثينة ليلاً في زي امرأة ليستمع إلى سقراط . وحضر موت أستاذه ، وجمع حوله بعض زملائه في التلمذ على سقراط بعد وفاة هذا ، ومن بينهم أفلاطون . ثم أسس مدرسة ميغارا ، وتوفي حوالي سنة ٣٥٠ ق. م .

لكنه عرف في مطلع حياته مذهب المدرسة الايلية ، وتمت تأثير سقراط مزج بين الأخلاق السقراطية والميتافيزيقا الايلية فقال إن الواحد هو الخير ، والخير هو الواحد .

قال اللاطريسي : « كان أقليدس من مواليد ميغالوا على البرزخ ويقول البعض إنه من جيلا ، كما ذكر الاسكندر في «طبقات الفلاسفة» . وعني بمؤلفات برمنيدس ، وسمي أتباعه بالميجاريين من بعده . ثم سموا « المارين » ثم « الديالكتيكيين » بعد ذلك بزمان ، وأول من أعطاهم هذا الاسم الأخير هو ديونوسيوس الخلقيدوني لأنهم كانوا يصوغون حجمهم على هيئة سؤال وجواب . ونجربنا هرمدورس أنه بعد موت سقراط ذهب أفلاطون وسائر الفلاسفة إليه ، لأنهم فزعوا من بطش الطغاة . وقال عن الخير الأسمى إنه الواحد ، وإن سمي بعدة أسماء : الحكمة ، الله ، العقل الخ . ورفض كل ما يناقض الخير ، قائلاً إنه غير موجود .

وحيثما يعارض برهاناً فإنه لا يهاجم المقدمات بل النتيجة . وكان ينكر قياس النظير لأنه يؤخذ : من متشابهات أو من مختلفات . فإن أخذ من متشابهات ، فالأمر يتعلق بهذه المتشابهات لا بنظائرها . وإن أخذ من مختلفات ، فلا يجوز وصلها بعضها إلى جوار بعض . ولهذا قال عنه تيمون مصيباً عن عرض سائر السقراطيين : « إني لا أهتم بأولئك الثرثارين ، ولا بغيرهم ، ولا يفيدون أياً من كان هو ، ولا بأقليدس الشديد اللسود . الذي أشاع في الميجاريين حب الجدل الجنوني » . وكتب ست محاورات ، من بينها « مقال في الحب » لكن بانتيوس Panetius شك في صحتها .

وقد نقل أقليدس إلى الخير ما وصف به الإيليون

وللمحرية ؛ ويقول بولتسانو إن مفارقات اللامتناهي لا تبدو غير معقولة إلا عند من لا يفهم المعنى الحقيقي للامتناهي .

٢ - أو يقولون إن التناقض الظاهري راجع إلى معنى الألفاظ وعدم دقة التعبير اللغوي .

٣ - أو يقولون إن التناقض هو مع قواعد تبدو بيّنة مُسَلِّماً بها ، لكنها ليست في الواقع كذلك ، ويختفي طابع التناقض الظاهري ببيان أن ما عُدَّ مسلمات بيّنات ليس في الحقيقة كذلك .

### مراجع

- Sebastian Franck: Paradoxa. Jena, 1909
- B. Bolzano: Paradoxien des Unendlichen, hrsg. von A. Höfler. Leipzig, 1920
- R. Heiss: Logik des Widerspruchs. Berlin-Leipzig, 1932.
- K. Schilder: Zur Begriffsgeschichte des Paradoxons. Kempen, 1933.
- H. Schröer: Die Denkform der Paradoxalität als theologisches Problem. Göttingen, 1960.
- W. V. O. Quine: The Ways of Paradox, and other Essays. New York, 1966.

### الميجاريون

مؤسس هذه المدرسة هو اقليدس الميجاري ، تلميذ سقراط . وقد جمع بين مبدأ الأخلاق السقراطية وبين نظرية الايليين في الواحد ، وقال إن الواحد هو الخير ، أي كانت أسماؤه : العلم ، الله ، العقل . ومقابل الخير هو العدم أو اللاوجود .

أما خلفاء أقليدس فسموا أولاً « الميجاريين » ثم « الجدليين » ثم « الديالكتيكيين » . وأبرزهم : أويوليدس الملطي ، مبتكر الأقيسة المحرجة المشهورة : الكذاب ، المتنكر ، الكومة ، الأصلع . ثم يتلوه : الكسينوس ، الذي برع في المراء وديودورس خرونوس ، الذي أنكر الحركة بحجج جديدة ؛ واستلفون الذي مزج بين الفلسفة الميجارية والفلسفة الكلية ، وهاجم نظرية الصور الأفلاطونية ، وأنكر إمكان الحمل ( حمل صفة على موضوع ) .

معه إلى مصر . لكن إستلفون لم يقبل غير مبلغ ضئيل جداً ، واعتذر من القيام بهذه السفرة ؛ ورحل إلى إيجينا حتى أبحر بطلميوس . ولما استولى ديمتريوس ، ابن أنتيجونس ، على ميغارا اتخذ الاجراءات الكفيلة بالمحافظة على دار استلفون وأعد إليه كل ما نهب من أملاكه . ولما طلب ديمتريوس أن يكتب ثبت بما نهب من ثروته أنكر استلفون أن يكون قد فقد شيئاً يملكه حقاً ، لأن أحداً لم يسلبه علمه ، ولا يزال محتفظاً بفصاحته ومعرفته . ( ديوجانس اللايرسي ٢ : ١١٣ - ١١٥ ) .

وكان إستلفون بسيطاً في خلقه متواضعاً ، وكان يجتذب الناس بقدرته فائقة حتى إن الناس كانوا يهجرون حوانيتهم ليتطلعوا إليه حين يمر .

ويذكر اللايرسي أنه بقي لاستلفون - في أيامه - تسع محاورات مكتوبة بأسلوب بارد هي : « موسكوس » ، « أرسطيفوس أو قالياس » و « بطلميوس » و « خيرقراطس » ، « ماتروقليس » ، « انكسمانس » ، « افيجنيس » ، « إلى ابته » ، و « أرسطوطاليس » .

وكتب إستلفون نقداً عنيفاً لنظرية الصور الأفلاطونية إستناداً إلى مذهب الواحدية . واهتم بالأخلاق أكثر من افليدس ومجد النزعة الكلية . ورأى أن الغرض الأسمى من السلوك الأخلاقي هو الوصول إلى حالة الطمأنينة ( سنيكا : الرسائل . ٩ : ٣ ) .

## المقولات

### Catégories

المقولات هي أنواع الدلالات في القول .

وأرسطو هو أول من وضع ثبناً بأنواع الدلالات . ويلخصها ابن سينا تلخيصاً جيداً كما يلي :

« كل لفظ مفرد يدل على شيء من الموجودات : فإما أن يدل على جوهر ، وهو ما ليس وجوده في موصوف به قائم بنفسه ، مثل إنسان وخشبة ؛

- وإما أن يدل على كمية : وهو ما ، لذاته ، يحتمل المساواة بالتطبيق أو التفاوت فيه ؛ إما تطبيقاً متصلًا في الوهم - مثل الخط والسطح والعمق والزمان ، وإما منفصلاً كالعدد ؛

الوجود فقال إن الخير واحد ، ثابت لا يتغير ، ولا يكون ولا يفسد .

### أويوليدس الملطي

اشتهر بالحجج المحرجة التي يرتد فيها على المرء حجته ، وأشهرها :

الكذاب : ونصها : إذا كنت كاذباً وتقول عن نفسك إنك كاذب فأنت تكذب وتصدق معاً .

المتكرر أو الكترا ، وتقول : الكترا تدرك أن أورشطس أخوها ، ولكن أورشطس المائل أمامها متكرراً لا تدرك أنه أخوها ، وهكذا فإنها لا تدرك ما تدرك .

الكومة : حبة القمح لا تؤلف كومة ، فإن أضفت حبة أخرى ، فلن يؤلف ذلك كومة ؟ فمق تصبح كومة ؟

ذو القرن : ما لم تفقده فهو لا يزال لك . وأنت لم تفقد قرناً ؛ إذن فلا يزال لك قرن .

### استلفون

« مواطن من ميغارا في بلاد اليونان ، كان تلميذاً لبعض أتباع أفليدس ، وإن كان ثم آخرون يقولون إنه كان تلميذاً لأفليدس نفسه . ثم تتلمذ على تراز يماخوس الكورنثي الذي كان صديقاً لاختيامي ، تبعاً لما يقوله هرقليدس . وقد فاق الجميع في القدرة على الابتكار والسفسطة إلى درجة أن قرابة بلاد اليونان كلها انجذبت إليه ودخلوا مدرسة ميغارا . وهذه المناسبة دعني أورد عبارات فيليفسوس الميغاري الفيلسوف . قال : « لأنه من ثاوفرسطس انتزع متردورس النظري وتيماجوراس الجيلاوي ومن أرسطوطاليس انتزع كليتارخوس الفيلسوف القوريناثي وسمياس ، وفيما يتصل بالديالكتيكيين أنفسهم انتزع فأونيوس من أرسطيدس . ولما جاء ديفيلوس البسقوري ، ابن يوفتطس ، ومركس ؛ ابن اسكائيتوس لتفنيده جعل منها تلميذين مخلصين له » ، كذلك ضم لنفسه فراسيديموس المشائي ، وكان فزيائياً ممتازاً ، وألقيموس الخطيب ، سيد خطباء اليونان كلها ، كذلك انضم إليه كرانس وغيره كثيرون ، منهم زينون القينيقي .

« وكان أيضاً حجة في السياسة » .

« ويقال إن بطلميوس سوتر كان يقدره كل التقدير ، ولما استولى على ميغارا عرض عليه مبلغاً من المال ودعا ليعود

(٤) المقولات تدل على تعبيرات أو حدود بغير روابط .

(ب) والمسألة الثانية هي عن العلاقة بين الجوهر وسائر المقولات ، إذ الجوهر له مكانة تساوي مكانة سائر المقولات التسع مجتمعة .

(ج) للمسألة الثالثة : كيف ندرك المقولات ؟ هل هي تدرك من التجربة والحواس ، أو بغير ذلك ؟ ومن رأي أرسطو أنها تدرك بالادراك العقلي الباطن .

(د) والمسألة الأخيرة هي : ما هو عدد المقولات ؟ وقد أجاب البعض بأن عددها محدد ، وأجاب البعض الآخر بأن عددها غير محدد .

وقد استمرت لوحة المقولات الأرسطية هي السائدة في الفلسفة طوال العصر الوسيط - الإسلامي والمسيحي على السواء - وبداية العصر الحديث إلى أن جاء امانويل كنت فوضع ثبوتاً آخر للمقولات مخالفاً للوحة المقولات الأرسطية .

ويستند كنت في وضع لوحة مقولاته إلى مبدأ مشترك ، هو ملكة الحكم ، أو ملكة التفكير . ويقارن بين عمله وعمل أرسطو ، فيقول : « كان مقصداً خليقاً بعقل نافذ مثل عقل أرسطو البحث عن هذه التصورات الأساسية . لكن لما كان لم يتبع أي مبدأ ، فإنه اقتطفها باندفاع كما عرّضت له ، وجمع منها أولاً عشرًا ، سماها « مقولات » . ثم من بعد ذلك ظن أنه وجد خمساً أخرى أضافها إلى الأولى تحت اسم : المقولات الإضافية . ومع ذلك بقيت لوحته ناقصة . وفضلاً عن ذلك ، فإننا نجد فيها أيضاً بعض أحوال الحساسية المحفزة ( الزمان ، المكان ، الوضع ، وكذلك : قبل ، مع ) بل وأيضاً حالة تجريبية ( الحركة ) وهي لا تتسبب إلى سجل نسب الذهن هذا . وكذلك نجد فيها التصورات المشتقة ممزوجة بتصوراتها الأصلية ( الفعل ، الانفعال ) ، كما أن بعض هذه الأخيرة غير موجود إطلاقاً ( نقد العقل المحض ، ط ١ ص ٨١ ، ط ٢ ص ١٠٧ = ترجمة فرنسية ص ٩٥ )

وميزة لوحة المقولات عند كنت أنها منظمة بدقة وفقاً لبداً : فالطرف الأول من كل ثلاث يعبر عن شرط ، والثاني عن مشروط ، والثالث عن التصور الناشئ من الجمع بين الشرط والمشروط . فمثلاً : الوحدة شرط الكثرة ، والكثرة

وإما على كيفية ، وهو كل هيئة غير الكمية مستقرة لا نسبة فيها ، مثل البياض والصحة والقوة والشكل .

وإما على إضافة كالبنوة والأبوة  
وإما على أين ، كالكون في السوق والبيت ؛  
وإما على متى ، كالكون فيما مضى أو فيما يستقبل أو في زمان بعينه ؛

وإما على الوضع ، ككل هيئة لكل من جهة أجزائه ، كالقعود ، والقيام ، والركوع ؛  
وإما على الملكة والجنّة ، كالتلبس والتسلح ؛  
وإما على أن يفعل شيء ، مثل ما يقال : هوذا يقطع ، هوذا يحرق ؛  
وإما على أن يفعل شيء ، كما يقال : هوذا يتقطع ، هوذا يحترق .

( ابن سينا : « عيون الحكمة » ص ٣ ، نشرتنا ، القاهرة سنة ١٩٥٤ )

وتلك هي المقولات العشر المشهورة . وقد صاغها أحدهم في بيتين من النظم لتسهيل حفظها ، هما :

زيد الطويل ، الأزرق ، ابن مالك في بيته ، بالأس ، كان منكى  
بينه رمح ، لواء ، فالتوى فهذه عشر مقولات سوا  
وقد أثار هذه المقولات عدة مسائل :

( أ ) الأولى : ما هي طبيعتها ؟ وقد أجيب عن هذه المسألة بالاجابات الأربع التالية :

١ - المقولات هي بمثابة أجزاء للقول ، وبهذا ينبغي أن تفسر نحويًا . ومن هنا زعم البعض ان أرسطو استخرجها من المعاني النحوية : فالجوهر يناظر الاسم ؛ والكلمة يناظر العدد ؛ والكيف يناظر الصفة ؛ والإضافة تناظر المضاف والمضاف إليه ؛ والأين يناظر اسم المكان ، والمتى يناظر اسم الزمان ، والوضع يناظر الفعل اللازم .  
والملك يناظر صيغة الماضي البعيد ؛ وأن يفعل يناظر الفعل المتعدي ؛ وأن يفعل يناظر الفعل في صيغة المجهول .

( ٢ ) المقولات تعبر عن اجابات على الأسئلة التالية :

١ - من هو س ؟ ( ٢ ) كيف حال س ؟ ( ٣ ) أين س ؟ ( ٤ ) متى وقع س ؟ الخ .

( ٣ ) المقولات هي الأجناس العليا للأشياء . وهذا هو الرأي الأكثر شيوعاً

كوحدة ، والتحديد ليس إلا اجتماع الواقع مع السلب ، والتبادل هو علية الجوهر في التميز مع الآخرين على التبادل ، والضرورة ليست إلا الموجود المعطى بواسطة الامكان .

لكن ليس معنى هذا أن المقولة الثالثة في كل باب هي تصور مشتق وليس أصلياً للعقل المحض . كلا ، لأن ارتباط الأولى والثانية لانتاج الثالثة يقتضي فعلاً خاصاً يقوم به الذهن .

(راجع تفصيل ذلك في كتابنا : « امانويل كنت » ج ١ ص ٢١٠-٢١٣)

ثم جاءت النقدية الجديدة في فرنسا وألمانيا وواصلت عمل كنت في المقولات ، وحاولت تنقيحه أو تعديله .

ومن فعل ذلك منهم شارل رنوفيه الذي وافق كنت على أن المقولات هي القوانين الأولى غير القابلة للرد الخاصة بالمعرفة ، وعلى أنها العلاقات الأساسية التي تحدد شكل المعرفة وتنظم حركتها . وهو يسمي كنت « أول عبقريه مقولية Catégoriste في العصر الحديث » . لكنه يأخذ عليه أنه لم يتيقن أن « الاضافة » هي مفتاح سائر المقولات ، وأن التصنيف الكنتي - تبعاً لذلك - تصنيف اعتباطي مصطنع . إن كنت - هكذا يقول رنوفيه - لم يلحظ أن كل الأحكام - بغير استثناء - ذات شكل مشترك هو : الاضافة ، وأنها جميعاً تتضمن في هذا : معاني الهوية والاختلاف ، الاتفاق والافتراق ، التي لئلا كنت أن يلقي بها بعيداً باسم التصورات التأملية concepts réfléchis كذلك لم يميز كنت مقولات : الشخصية ، والغائية ، والاضافة .

لهذا رأى رنوفيه أن يضع تسع مقولات هي تسعة قوانين أساسية لا تقبل الرد ، وهي تسعة قوانين تكوينية للامتثال ، تسودها المقولة العامة للإضافة . وكل واحدة من هذه المقولات تتألف من : موضوع ، تقيض موضوع ، ومركب موضوع . وهاك لوحة هذه المقولات كما وضعها رنوفيه :

المقولات	الموضوع	تقيض الموضوع	مركب الموضوع
الاضافة	التمييز	الهوية	التمييز
العدد	الوحدة	الكثرة	الشمول
الوضع	الفضة (الحديثة)	للكان (فترة)	الامتداد
التوالي	الآن (الجسدي)	الزمن (فترة)	اللذة
الكيف	الاختلاف	الجنس	النوع
الضرورة	العلاقة	فلاعلامة	التغير

مشروطة بالوحدة ، والشمول هو الجامع بين الوحدة والكثرة .

وهاك لوحة المقولات كما وضعها كنت :

١	٢	٣	٤
في الكم:	في الكيف:	في الاضافة:	في الجهة:
الوحدة	الواقع	الجوهر والعرض	الامكان،
الكثرة	السلب	العلة وللعلول	الموجود
الشمول	التحديد	التبادل	الضرورة

ومحدد كنت طبيعة المقولات بأنها : الاشكال الأساسية لتركيب المعطيات ، ابتغاء الوصول إلى وحدة التجربة الموضوعية ؛ وبأنها الشروط القبلية لتكوين التجربة ، وهي لهذا ضرورية لكل تجربة ممكنة . ولا تكون التجربة ممكنة إلا بتطبيق المقولات . والمقولات تتفق مع أشكال الموضوعات ، لأن هذه هي موضوعات التجربة ؛ وما الظواهر إلا معطيات مترابطة ومتعينة عن طريق المقولات . وبدون ربطها بالعيان ، وبدون الاسكيمات المتعالية ، التي تمكن من تطبيق المقولات على العيان ، فإن المقولات تصبح مجرد وظائف منطقية شكلية ، وبالتالي لا تحقق أية معرفة .

والمقولات لا تنطبق على الأشياء في ذاتها ، اللهم إلا على سبيل قياس التظير . وإنما تنطبق على الظواهر فقط .

والمقولات تتيقن قبلياً في الذات ومع ذلك فإن لها أهمية تجريبية موضوعية ، ولا تتحقق إلا في التجربة بوصفها أساساً واقتراساً سابقاً وعملاً فيها .

ولوحة المقولات هي « خطة » Plan لجماع العلم ، من حيث انه يقوم على تصورات قبلية ، « خطة كاملة » ترمي إلى تقسيم هذه التصورات رياضياً ، وفقاً لمبادئ معينة .

ويلاحظ على هذه اللوحة أنها تنقسم أولاً إلى طائفتين : الطاقة الأولى ( ١ ، ٢ ) تتعلق بموضوعات العيان ( المحض والتجريبي على السواء ) ؛ والثانية ( ٣ ، ٤ ) تتعلق بوجود الموضوعات . ويمكن أن تسمى الطاقة الأولى بالمقولات الرياضية والطاقة الثانية بالمقولات الديناميكية .

كما يلاحظ ثانياً أنه يوجد نفس العدد من المقولات تحت كل باب ، أي ثلاث مقولات . صحيح أن القسمة الثنائية هي أول ما يخطر بالبال ، لكن يضاف إلى ذلك أن المقولة الثالثة في كل باب إنما تنشأ عن الجمع بين الأولى والثانية . فمثلاً مقولة « الشمول » ليست إلا الكثرة منظوراً إليها

ذات امتداد، وبينها بعضها وبعض مسافات، ولا يتداخل بعضها في بعض. ومن هنا انصف المكان بالصفات التالية:

١ - أنه ذو امتداد في ثلاثة أبعاد هي الطول والعرض والعمق.

٢ - علم قابلية التفوذ، فلا تتداخل الأشياء بعضها في بعض في المكان الواحد الخاص بها.

وقد بحث أرسطو في المكان بحثاً مفصلاً في كتاب «السماع الطبيعي» (المقالة الرابعة، الفصل الرابع) فيبين أنه موجود بدليل أنه حيث يوجد جسم فيمكن أن يستغل عنه ويشغل محله جسم آخر، ومعنى هذا أن المكان يختلف عن أي شيء يتحيز فيه. ثم إن العناصر الطبيعية يميل بعضها إلى فوق والبعض الآخر إلى تحت، والفوق والتحت ليسا نسبيين فقط وإنما بل الفوق هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه النار، والتحت هو الاتجاه الذي تتحرك نحوه الأرض.

ويميز أرسطو الخصائص التالية للمكان:

- ١ - المكان هو الحاوي الأول (٢٠٩ ب ١)؛
- ٢ - والمكان ليس جزءاً من الشيء. (٢٠٨ ب ٢٧؛ فصل ٢)
- ٣ - وهو مساوٍ للشيء المحوي (٢٠٨ ب ١؛ ٢٠٧ ب ٢١؛ ٣١ - ٣٢).
- ٥ - وفيه الأعلى والأسفل (٢٠٨ ب ٨).

والمكان ليس هيولي، ولا صورة، ولا بُعداً «لأنه إن كان بُعداً فقد يجب أن يكون ما هنا بُعداً ما آخر غير بُعد الأمر المتنقل» (والطبيعة ج ١ ص ٣١٢ من نشرتنا). بل المكان هو نهاية الجسم المحيط، وهو نهاية الجسم المحتوي تماساً عليها ما يحتوي عليه، أعني الجسم الذي يحتوي عليه المتحرك حركة انتقالاً.

ومن ثم جاء التعريف الوارد عند الفلاسفة الإسلاميين للمكان بأنه: «السطح الباطن للجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوي».

وكان أفلاطون قد نظر إلى المكان على أنه الحاوي؛ ويمثل ذلك سيقول كلارك ونيوتن، إذ تصوّروا المكان أنه الحاوي للأشياء، ولكنها وصفاء بخصائص أساسية هي: اللاتناهي، الأزلية والأبدية، القِدَم، وعدم الفناء.

العلية الغائية للشخصية	الفعل الحياة الذات	القدرة الليل اللائات	القدرة الانفعال الشعور
------------------------------	--------------------------	----------------------------	------------------------------

وجاء من بعده هاملان فسمى إلى إيجاد تفسير شامل للكون عن طريق لوحة مقولات، مؤلفة هي الأخرى من ثلاثيات، على النحو التالي، وكل واحد منها يبدأ من الأكثر تجزئاً ليصل إلى الأكثر عينية:

١ - الاضافة	المدد	الزمان
٢ - الزمان	المكان	الحركة
٣ - الحركة	الكيف	التغير
٤ - التغير	التوزيع	العلية
٥ - العلية	الغائية	الشخصية

وآخر محاولة لوضع لوحة مقولات هي تلك التي قمنا بها في كتابنا «الزمان الوجودي» - فراجعها تحت مادة: عبد الرحمن بدوي.

### مراجع

- Aristote: Catégories
- H. Bonitz: Ueber die Kategorien des Aristoteles Wien, 1853.
- O. Hamelin: Essai sur les éléments principaux de la représentation, Paris, 1907.
- M. Heidegger: Die Kategorien - und Bedeutungslehre des Duns Scotus. Tübingen, 1916.
- I. Kant: Kritik der reinen Vernunft.
- A. Krempel: La doctrine de la relation chez Saint Thomas. Paris, 1952.
- Nicolai Hartmann: Aufbau der realen Welt<sup>3</sup>, 1949; Philosophie der Natur, 1950.
- Ch. Renouvier: Essai de Critique générale. Paris, 1912.
- A. Trendelenburg: Geschichte der Kategorienlehre, 1846 (neue Aufl. Hildesheim, bei Olms, 1963).

### المكان

#### L'Espace

كل الأشياء في العالم الخارجي تشغل مكاناً، أي أنها

متجانس ، مشابه لنفسه باستمرار في كل مكان ، وهو حقيقة بدون كيفية .

ومن ناحية أخرى نجد نيوتن يميز بين المكان المطلق والمكان النسبي ، قائلاً : « إن المكان المطلق ، في طبيعته الخاصة به ، يبقى دائماً مشابهاً لنفسه وثابتاً غير متحرك أما المكان النسبي فهو يُعد متحرك أو واسطة للأماكن المطلقة ، التي تحلدها حواسنا بواسطة وضعها بالنسبة إلى الاجسام ويعتبر - من الناحية العامة - مكاناً ثابتاً غير متحرك » ( نيوتن : « المبادئ » ) . ويقول في حاشية عامة على كتاب « المبادئ » إن الله ، على الرغم من أنه ليس مكاناً ، فإنه موجود في كل مكان بحيث يكون المكان . ويرى نيوتن أن المكان مستقل عن التمكّنات ، إذ يوجد بذاته سواء شغلته أشياء أو لم تشغله ؛ إن الحركات في المكان تسمية ، ولكن المكان ليس نسبياً .

وعلى عكس نيوتن قرر لبيتس أن المكان ليس مطلقاً ، وليس جوهرًا ، ولا عرضاً للجوهر ، بل هو علاقة ( إضافة relation ) . والمونادات هي وحدها الجوهر ؛ والمكان لا يمكن أن يكون جوهرًا . والمكان ، بوصفه علاقة ، هو نظام وترتيب order : نظام الوجود معاً ، أو بتعبير أدق : نظام الظواهر الموجودة معاً . والزمان ليس أمراً واقعياً ، بل ذهنياً مثالياً ؛ بمعنى أنه لا يوجد مكان واقعي خارج العالم المادي ؛ والمكان هو في ذاته أمرٌ ذهني ، مثالي .

وفي إثر لبيتس جاء كنت فقرر أن المكان شكل متعال من أشكال الحسامة ، أي شكل قبلي *a priori* مغرور في طبيعة الذهن ، وليس مستمدًا من التجربة ، بل التجربة هي التي تتوقف عليه . إن المكان - هكذا يقرر كنت - امثال ضروري قبلي يقوم أساساً لكل العيانات الخارجية . فلا يمكن أبداً تصور عدم وجود مكان ، وإن أمكن تماماً تصور عدم وجود أشياء في المكان . إن المكان يُعد شرطاً لإمكان حدوث الظواهر ، وليس محديداً متوقفاً عليها . وهو امثال قبلي يؤدي دور الأساس الضروري للظواهر الخارجية . وعلى هذه الضرورة القبلية يقوم اليقين الضروري لكل المبادئ الهندسية وامكان تركيبها القبلي . والمكان ليس مدركاً تصورياً منطقياً *discursif* أو ، كما يقال ، تصورياً كلياً للعلاقة بين الأشياء بوجه عام ، بل هو عيان محض . والواقع أنه لا يمكن تصور إلا مكان واحد أحد . وحين نتحدث عن عدة أمكنة ، فإننا نقصد بذلك الكلام عن عدة أجزاء لمكان واحد أحد وحيد .

وللمكان عند اقليدس ثلاثة أبعاد : الطول ، والعرض ، والعمق . لكن جاء الرياضيون المحدثون في القرن التاسع عشر ، وعلى رأسهم جاوس ، ورين ، وهلمهولتز ، وبوليبي ، ولويتشفسكي ، وبلترامي - فاثيتوا إمكان وجود مكان غير اقليدسي وعُدوا المكان الاقليدسي ذا الثلاثة أبعاد حالة خاصة من المكان بوجه عام ذي ع - بُعد ( ع = عدد ) ، أي أنه يمكن تصور أبعاد عديدة للمكان ، وأن المكان الاقليدسي ليس إلا واحداً من بين أنواع المكان . وتبعاً لذلك قالوا بهندسات أخرى غير هندسة اقليدس ، تقوم على هذه التصورات المختلفة للمكان ، وكلها لا تؤدي إلى تناقض .

والسؤال الرئيسي في مشكلة المكان هو : ما العلاقة بين المكان ، وبين التمكّنات ؟ .

( أ ) يجيب البعض قائلين إن المكان والتمكّنات شيء واحد ، وما المكان إلا تجريد التمكّنات ، أو هو الامتداد مجرداً . وأساس المكان هو الامتداد ، لأنه إذا لم توجد تمكّنات ممثلة ، فلن يوجد مكان .

( ب ) ولكن نقولاي هرتن ينكر هذا الرأي قائلاً : إن المكان ليس الامتداد ولا الممتد ، بل هو « ما فيه » يمتد الممتد . وعلى ذلك فالأشياء في المكان ، وليس المكان في الأشياء . إن المكان هو الشرط للامتداد وللممتد . والمحل ( الموضع ) والموقع والبعد والمسافة هي أمور في المكان . والمكان - بحسب تصوره - يسبق الأشياء الممتدة .

وقد جعل اميينوزا من الامتداد صفة من صفات الله ، فقال : « الامتداد صفة لله ، وبعبارة أخرى : الله شيء ممتد » ( « الاخلاق » الكتاب الثاني ، القضية رقم ( ٢ ) ) .

فجاء مالبرانش وخفف من غلظ هذا التصور وقال بما سماه باسم « الامتداد المعقول » *L'étendue intelligible* . ويفسره هكذا : « الامتداد المعقول اللامتداهي ليس حالة في عقلي . إنه ثابت ، سرمدي ، ضروري ، ولا أستطيع الشك في حقيقته ، وسعته الهائلة . وكل ما هو ثابت ، سرمدي ، ضروري ، وخصوصاً لا نهائي ، ليس مخلوقاً ، ولا يمكن أن يوصف به المخلوق . إذن هو يتسبب إلى الله » ( « مطارحات ميتافيزيقية » ، المقامة الثانية : ١ ) .

وعند برجسون ( « البحث في المعطيات المباشرة للشعور » ( ص ٧٢ - ٧٤ ) أن المكان متجانس ، والأشياء القائمة في المكان تكون كثرة متميزة . والمكان وسط



## مكيافلي

## Niccoló Machiavelli

مفكر سياسي ومؤرخ إيطالي.

ولد في سنة ١٤٦٩، وترى تربية كلاسيكية ممتازة، وإن كان لم يتعلم اللغة اليونانية وصار موظفاً في حكومة فيرنسيه في سنة ١٤٩٨ وهو في التاسعة والعشرين مستشاراً ثانياً، وكتاباً للجنة الحرية والسلام، وفي لجنة تنفيذية تعنى بالشؤون الداخلية والعسكرية والخارجية. وبقي فيها ١٤ عاماً كلف في أثنائها بمهام دبلوماسية طويلة جعلته يسافر إلى فرنسا وسويسرا وألمانيا. وتحتوي رسائله وتقاريره عن هذه المهام الكثير من الأفكار التي أودعها مؤلفاته فيما بعد.

كذلك اشتغل مكيافلي بالأمور الحربية، بوصفه سكرتيراً للجنة التسعة العسكرية. ولما صارت حكومة فيرنسيه مهددة بعودة آل مدتشي إلى الحكم في فيرنسيه بمعونة القوات الأسبانية، أفلح مكيافلي في تعبئة جيش مؤلف من اثني عشر ألف جندي لمقاومة الغزو الأسباني، لكن هذا الجيش المؤلف من متطوعة هواة كانوا أضعف من أن يقفوا في وجه الجيش الأسباني المدرب المحترف. فعاد آل مدتشي إلى حكم فيرنسيه، وسجنوا مكيافلي وعذبوه فترة قصيرة من الوقت. ولما أطلق سراحه نفي من فيرنسيه، فعاش في حالة فقر وعزلة في ضيعة صغيرة كانت تملكها أسرته في بلدة سانت أندريا. وبقي ثلاث عشرة سنة معزلاً عن النشاط السياسي، حتى استدعاه آل مدتشي في سنة ١٥٢٥. لكن بعد ذلك بعلمين (في سنة ١٥٢٧) سقط حكم آل مدتشي، وقامت جمهورية جديدة عزلت مكيافلي من منصبه.

وتوفي مكيافلي في سنة ١٥٢٧.

كان مكيافلي وافر الأمانة، كريماً، متسامحاً، شجاعاً. وكان بارع الحججة في الحوار وحكاية الحكايات. وكان شاعراً ومؤلفاً مسرحياً، كما أن أسلوبه الثري يعدّ في ذروة البلاغة الإيطالية.

عنى مكيافلي بالسياسة عملياً ونظرياً. وكانت نظراته السياسية تركز حول كيفية الحصول على السلطة (الحكم) والمحافظة عليها. ولما كان هذا هو الهدف، فلا عمل للاعتبارات الأخلاقية. إن الغرض هو النجاح السياسي، فلا على طالبه بعد ذلك من انتهاك القواعد الأخلاقية والاعتبارات

وهذه الأجزاء لا يمكن أن تكون سابقة على المكان الأحد الوحيد الذي يشمل كل شيء، كما لو كانت عناصر له يمكن أن تؤلفه إذا اجتمعت، لكنها لا يمكن أن تتصور إلا فيه. (راجع تفصيل مذهب كنت في المكان في كتابنا: «امانويل كنت» ج ١ ص ١٨٨ - ١٩٢).

والطور الهام الذي حدث في نظريات المكان بعد كنت، هو ذلك الذي أحدثته نظرية النسبية التي قال بها اينشتاين ومنكوفسكي. وأسهم في إيجادها مكسويل ثم لورنتس. فقد استنتج هـ. منكوفسكي H. Minkowski أن الزمان والمكان لا يمكن عددهما مستقلين الواحد عن الآخر، بل لا بد من المزج بينهما فيما سمي باسم «متصل الزمان والمكان». إذ تبين أنه لا يوجد نظام إشارة مطلق - كما زعم نيوتن - يمكن باعتماده لرسم الاحداثيات لتحديد المكان والزمان لجسم ما متحرك. إن ملاحظين يتحركان حركة نسبية الواحد إلى الآخر لا بد أن يتخذا محورين مختلفين للزمان والمكان من زاويتين مختلفتين الواحد بالنسبة إلى الآخر.

## مراجع

- «Aristote: Physique, IV c. 1-5.
- E. v. Aster: Raum und Zeit in der Geschichte der philosophie und physik, 1922.
- Descartes: Regulac, XII; Méditations, II.
- Nicolai Hartmann: Philosophie der Natur, 1950.
- H.E. Hengstenberg: Autonomismus und Transendenzphilosophie, 1950/ M. Jammer: Concepts of space. Harvard, 1954.
- Newton: Principles, definitions, schol.
- Kant: Kritik der reinen Vernunft, Tranz. Aesthetik.
- Plotin: Ennéades IV, tr. III, c. 20.
- Pascal: Vacuum.
- St. Thomas: Summa Theologica, P.I, Q 8, A, 2 et Rep. 3.; A 50, Rep. 3; Q 52; Q 66, Rep. 5.
- H. Bergson: Essai sur les données immédiates de la conscience; Durée et simultanéité.
- S. Alexander: Space, Time, and Deity
- Einstein: Relativität.
- H. Reichenbach: Philosophy of Space and Time. New York, 1938



وثالثاً: الإنسان مولع بالتقليد والمحاكاة، ميّال إلى الاقتداء بالأشخاص ذوي السلطان.

ورابعاً: الإنسان صلب الطبع، حتى إن أغمط السلوك التي استقرت عن طريق التقليد والمحاكاة لا يمكن تغييرها إلا في نطاق ضيق.

ورغبة الإنسان في المحافظة على نفسه، وقصر نظره يجعله سهل الانقياد للقادة المدنيين؛ وولعه بالمحاكاة يبيّنه لقبول تكييف الزعماء والأنظمة.

ثم إن الناس حين تتهددهم البيئة الطبيعية أو العدوان، فإن رغبتهم في المحافظة على أنفسهم تدفعهم إلى التعاون فيما بينهم، بل وإلى سلوك مسلك الفضيلة: فيتحلون بالشجاعة وروح البذل والتضحية بالنفس والمال. وحتى بعد زوال التهديد الخارجي المباشر، فإن من الممكن تحليهم ببعض الفضائل الاجتماعية بفضل القيادة الماكرة والتنظيم الاجتماعي المحكم.

وهكذا فإنه إذا كان الإنسان بطبعه الأصيل شريراً، فإنه بحكم وضعه الاجتماعي قابل ومضطر لأن يكون على قدر من الفضيلة والخير. فطبيعة الإنسان الشريرة بحكم الفطرة يمكن إذن تكييفها وقولبتها بالقيادة والتنظيم، وإن كان ذلك محدوداً بحكم أصالة الشر في طبيعة الإنسان. وهكذا فإن الإنسان قابل للتربية الاجتماعية، وللتكييف الاجتماعي. والمجتمع المدني هو المدرسة الكبرى للإنسانية. والسلوك الإنساني يمكن أن يتأثر تأثراً قوياً بتركيب البيئة الاجتماعية؛ وبالأغراض التي توجه لها الجماعة. إن الإنسان في المجتمع لم يعد إنساناً طبيعياً على نحو مطلق، ولا إنساناً صناعياً بمعنى مطلق؛ بل هو بين بين.

والغاية العليا من السياسة، في نظر مكيافلي، هي المصلحة العامة، والأمن والرفاهية للجماعة، وليست تلك الغايات الأخلاقية التي تصورها المفكرون السياسيون السابقون. وللمحكم على السياسة ينبغي أن نأخذ في الاعتبار النتائج الاجتماعية والسياسية، بغض النظر عن النتائج الأخلاقية. لكن ليس معنى هذا أن مكيافلي كان من دعاة سوء الأخلاق في سياسته. إنما الأمر عنده هو أنه لا محل للاحتكام إلى الأخلاق في تقويم الأفعال السياسية، بل العبرة فيها بالنجاح وحده، أي تحقيق المنفعة العامة والأمن والرفاهية للمجتمع بوصفه كلاً. وهو يقرر أنه في بعض الظروف فإن

الإنسانية. ولهذا انصب بحثه على بيان أنواع الأعمال التي من شأنها أن تؤدي إلى النجاح السياسي في مختلف المواقف. وقد هيا له هذا النظر أحوال مدينة فيرنسسه نفسها: فهذه المدينة - الدولة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت مدينة المالية والتجارة، وبالتالي كان الهدف هو تقدير المكسب والحسارة. فلا غرو أن جاء تصور مكيافلي للسياسة على أنها صفقة مالية تجارية المهم فيها هو الربح، لا مراعاة قواعد الأخلاق.

والمنهج الذي اتبعه مكيافلي في كتابيه الرئيسيين في السياسة: «الأمير» و«المقاتل» (وقد كتبهما بين سنة ١٥١٣ وسنة ١٥٢١، لكنها نشرت سنة ١٥٣٢) هو إيراد عدة شواهد مأخوذة من التاريخ ومن أحداث عصره لتأييد قضية معينة تتناول شروط النجاح السياسي. وبعد ذلك يبحث عن شواهد أخرى يبدو أنها تناقض هذه القضية أو القاعدة؛ ثم يفحص هذه الشواهد السلبية ليتبين هل هي شواهد نقي حقاً، أو هي تبدو كذلك بسبب تغير الظروف واختلافها.

واستخدم نفس المنهج بالنسبة إلى القواعد الحربية، سواء في هذين الكتابين وفي كتابه «فن الحرب» (سنة ١٥٢١).

أما في كتابه «تاريخ فيرنسسه» (وقد أتمه في سنة ١٥٢٥ ونشر في سنة ١٥٣٢) فقد حاول داتماً اكتشاف أنماط عامة أراد بها أن تفسر أسباب الأحداث. وفي هذا كان رائداً في كتابة التاريخ بطريقة حديثة.

وفيا يلي نعرض أهم آرائه:

أ - رأيه في الإنسان:

كان مكيافلي يعتقد أن الطبيعة الإنسانية لا تتغير أبداً على مدى الأزمان وفي مختلف الأماكن. وقد بنى هذا الرأي من استقراره للأمور الإنسانية وتصرفات الناس عبر التاريخ وفي سائر البلدان. كما تبين له أيضاً من هذا الاستقراء أن الإنسان في جوهره شرير.

وصفات الإنسان الأساسية - في نظر مكيافلي، هي (أولاً) أنه مخلوق ذو شهوات لا تشبع ومطامح لا تقف عند حد، وأن أولى شهواته هذه الرغبة في المحافظة على نفسه.

وثانياً: الإنسان قصير النظر، يحكم غالباً وفقاً للمكافأة العاجلة أولى من أن يحكم بسبب النتائج البعيدة لأفعاله.

كل دولة نجد الغالبية العظمى تنشد الأمن على أشخاصهم وأموالهم، بينما نجد قلة، إما أن تكون أرستقراطية وراثية، أو من التجار، تشتبه السيطرة على الجماهير.

وهذا النزاع ليس فقط أمراً طبيعياً، بل يمكن أيضاً تحويله إلى أمر نافع للمجتمع، يحقق أغراضاً اجتماعية مفيدة. وهذا النوع من النزاع موجود في الدول الفاضلة كما هو موجود في الدول الفاسدة. والفارق بينهما ليس في وجوده فيها، بل في صفة النزاع. فالنزاع في دولة فاضلة يأخذ مكانه داخل حدود معلومة؛ إنه يتحدد بالعمل الوطني للخير المشترك الذي يتجاوز المصالح الشخصية الضيقة، وبالرغبة في احترام القانون وإطاعة السلطة، ويكرهية استخدام العنف واللجوء إلى الوسائل غير القانونية. ويقدم شاهداً على هذه الدولة الفاضلة: روما الجمهورية؛ حيث نظم النزاع بين الأشراف والعلامة من خلال مجلس الشيوخ والجمعيات الشعبية بخطباتها *tribuns*.

وفي مقابل ذلك يرى مكيافلي أن النموذج البارز للدولة الفاسدة هو فيرتسه، كما فصل تاريخها في كتابه «تاريخ فيرتسه». في مثل هذه الدولة الفاسدة تتفرق الأهواء والناس ويصبح كل إنسان لنفسه فقط. وتنحل العواطف الدينية، وتنحل معها الأمانة المدنية، وروح الواجب المدني، واحترام السلطة، وتزداد الأحزاب وتكثر المؤامرات، ويصبح الحكم نهياً متواصلًا للفئات القوية؛ وتضمحل *virtu*، ويكثر الجشع، ويستشري الترف والترخي والكسل، ويزداد التفاوت بين الثروات.

ولإصلاح الحال في هذه الدولة الفاسدة لا وسيلة سوى الدولة؛ إذ هي وحدها التي تستطيع أن تخلق الظروف المحققة للأمن والرفاهية. وليست للدولة غاية عليا أو هدف روحي، وليست لها حياة أو شخصية مستقلة عن الشعب الذي يؤلفها.

وفي كتاب «الأمير» وفي «المقالات» صنف مكيافلي الدول إلى صنفين وفقاً لعدد الحاكمين: الملكيات، والجمهوريات. والملكيات يمكن أن تكون محدودة (كما في فرنسا)، أو مطلقة استبدادية (مثل تركيا)، أو طغانية (مثل سرقوسة في صقلية). والجمهوريات يمكن أن تكون جماهيرية (مثل أثينا) أو متوازنة (مثل روما). ويوجد نمطان من الجمهوريات المتوازنة: الأرستقراطية (البندقية)، والديمقراطية

الخير المشترك يختصر استخدام وسائل لا أخلاقية، لكنه لم يقل إنه يبرر استخدام وسائل لا أخلاقية. وانتهاك مبادئ الأخلاق لا يمكن تبريره إلا بالمصلحة العامة وحدها.

والغاية العظمى التي ينبغي على الإنسان تحقيقها هي في نظره: المجد. والمجد يتحقق بالأفعال التي تبقى في ذاكرة الناس ويحورتها. والحياة المجيدة لفرد أو للدولة مهما تكن قصيرة أفضل من الحياة العادية التافهة الطويلة لفرد أو دولة. والنجاح أو الشهرة الناشئان عن السلطة الكبيرة أو الثروة هما أقل قيمة بكثير من المجد الحقيقي. وأعظم المجد هو الذي يكتسب بتأسيس دين، ويتلوه المجد الذي يكتسب بتكوين امبراطورية، ويتلوه المكتسب بقيادة الجيوش المظفرة، ويتلوه المكتسب بخلق أعمال أدبية وعلمية - على ترتيب تنازلي في القيمة.

والمجد الحقيقي يتوقف على ما يسميه مكيافلي بـ *virtu* في الفرد أو في الشعب. والكلمة *virtu* في استعمالها عامضة مشتركة، لكن الأرجح هو أنه يقصد بها هو نمط سلوك الجندي في المعركة الذي يكشف عن بُعد نظر، وضبط نفس، ورباطة جأش، وثبات، وتصميم وعزم، وحسم، وتعلق بالهدف، وشجاعة، وجسارة، وقوة. والحرب هي الكفاح النموذجي بين *virtu* والـ *fortuna* (الحظ المتقلب). والحياة كلها على هذا النحو.

واستقرى مكيافلي التاريخ ليكشف عن الظروف التي تنتج أكبر قدر من *virtu* في مجتمع وما يترتب على ذلك من تحقيق مجد. فرأى أن أعظم القادة والشعوب الذين تحلوا بالـ *virtu* هم اليونان والرومان، خصوصاً روما الجمهورية. وعنده أن *virtu* في شعب ما تتوقف تماماً على التربية، بينما *virtu* في أمير أو زعيم هي فطرية وتشكل بالتربية. وأفضل الجوائز مواتاة لتحقيق *virtu* هو النظام الجمهوري الذي تزدهر فيه الحرية، ويدافع عنها جيش من المواطنين.

والنزاع أصيل في طبع الإنسان، ولا سبيل مطلقاً إلى القضاء النهائي على المنازعات، هكذا يرى مكيافلي. والمظهر الأساسي للنزاع الاجتماعي هو الصراع الأزلي الدائم بين عامة الشعب من جهة وبين العظماء والأقوياء من ناحية أخرى. ويمكن أن يعد هذا نوعاً من الصراع الطبقي، بيد أن مكيافلي لا يقيمه على أسس اقتصادية كما فعل ماركس وأتباعه، بل أقامه على ارادة القوة والشهوة إلى السيطرة. وفي

## مل (جون استورث)

## John Stuart Mill

فيلسوف انجليزي برز في المنطق ومناهج البحث العلمي، ومن أكبر دعاة مذهب المنفعة.

ولد في لندن في ٢٠ مايو سنة ١٨٠٦ وكان أبوه جيمس مل (١٧٧٣ - ١٨٣٦) كاتباً صحفياً ومؤرخاً ألف وتاريخ الهند البريطانية (سنة ١٨١٧ - سنة ١٨١٨)، فعيته «شركة الهند الشرقية» ممتحناً ومساعداً وكلفته بتولي قسم الدخل في الشركة، وفي سنة ١٨٣٢ صار رئيساً لمكتب الامتحان وأصبح رئيساً لقسم الإدارة الهندية وفي عامي ١٨٢١ - ١٨٢٢ نشر كتابه «مبادئ الاقتصاد السياسي». كما أسهم في الفلسفة بكتابه «تحليل العقل الإنساني» (سنة ١٨٢١) ويعد من خير انتاج المدرسة الاسكتلندية التي أسسها توماس ريد Reid.

وقد حرص على تزويد ابنه جون بتعليم جيد مركزاً. فبدأ جون يتعلم اليونانية وهو في الثالثة من عمره، حتى إنه حين بلغ الثامنة من عمره، كان قد قرأ تاريخ هيرودوت وبعض مؤلفات اكسينوفون ولوقيان وذيوجانس اللاطريسي في أصلها اليوناني إلى جانب المحاورات الست الأولى لأفلاطون؛ وفي سن الثامنة ابتداء تعلم اللغة اللاتينية حتى استطاع أن يقرأ فرجيل وهوراس وسلوست وتيتوس ليفيوس وفي الوقت نفسه استمر في اتقان اللغة اليونانية فقرأ «الأياذة» و«الأوديسا» لهوميروس ومسرحيات سوفقليس ويورينيديس وأرسطوفان. وأشعار أنكريون وثيوكريت وتاريخ ثيوكليديس، وكتاب «الخطابة» لأرسطو.

وفي سن الثانية عشرة بدأ مرحلة جديدة في التعليم. فبدأ بدراسة الفلسفة وقرأ المنطق في مؤلفات أرسطو المنطقية (الأورغانون) وفي موجز في المنطق لهوبز بعنوان *Computatio sive logica* ودرس الاقتصاد السياسي على يدي صديقي والده: بنثام وريكاردو. فلما بلغ الخامسة عشرة كان قد حصل قديراً كبيراً من العلوم. وكان أبوه خلال هذه الدراسة كلها هو المشرف الوحيد على تعليمه.

ومن مايو سنة ١٨٢٠ حتى فبراير سنة ١٨٢١ عاش جون في جنوبي فرنسا بالقرب من مدينة تولوز أولاً، ثم في مدينة مونبيلييه عند الجنرال سير صمويل بنثام *Sammuel Bentham*، أخي جورج بنثام الاقتصادي. وسافر إلى باريس وتعرف إلى

(روما). وعلى أساس ما شاهدته مكيافلي في فيرنسسه ميز بين شكلين غير مستقرين يتوسطان بين الملكيات والجمهوريات، ويمكن وصفه بالاوليغركيات (حكومات الأقلية)، والملكيات الاستثنائية.

كذلك ميز بين الدول بحسب الطريقة التي بها يستولى على السلطة، وبحسب نزعتها إلى التوسع (روما) أو إلى المحافظة على كيانها (اسبرطة)، وبحسب فسادها (فيرنيسه) أو فضيلتها (*virtu*) (روما الجمهورية)، وأخيراً يميزها بحسب كون دستورها نشأ بفضل شخص مشرع واحد (اسبرطة)، أو نشأ على امتداد الزمن والتجربة (روما).

وقد وضع مكيافلي قواعد للحكومة الناجحة، منها: تأسيس مؤسسة عسكرية قوية لحماية المواطنين ضد العدو الخارجي، وحماية الحياة، والممتلكات، والأسرة، وشرف كل مواطن من عدوان أي مواطن آخر أو سائر المواطنين؛ وتشجيع الازدهار الاقتصادي، ومنع إفراط الأفراد في الثراء، وتنظيم الترف؛ والاعتراف بالفضل لأصحاب الفضل من المواطنين. والترقي في سلم المناصب في الدولة يجب أن يكون مفتوحاً لأولئك الساعين إلى المجد والشرف. والدولة المثل هي تلك التي تكون المراتب فيها على حسب الكفاءة والقدرة.

## مؤلفاته

- I sette libri dell'arte dellaguerra. Firenze, 1521.
- Discorsi sopra la prima deca di Tito Livio. Roma, 1531.
- Le istorie Fiorentine. Firenze, 1532.
- Il Principe. Roma, 1532.
- Tutte le opere, 5 vols. Roma, 1550.
- Tutte le opere storiche e letterarie, ed a cauradi G. Mazzoni e M. Casella. Firenze, 1929.

## مراجع

- Pasquale Villari: Niccolo Machiavelli è i suoi tempi, 3 vols, Firenze 1877- 1882; Milano, 1912- 14.
- Oreste Tommasini: La vita e gli scritti di Niccolo Machiavelli, 2 vols. I, Torino, 1883; II, Roma, 1911.
- Haus Freyer: Machiavelli. Leipzig, 1938.

riet Taylor زوجة تاجر غني في لندن وكانت من اللواتي يدعين الاهتمام بالفكر. فقلعت بينها علاقة غرامية عنيفة انتهت بالزواج في سنة ١٨٥١ بعد وفاة زوجها بعامين. وكانت ألسنة السوء تنطلق في الحديث عن هذا الغرام الذي تسامح فيه الزوج المشغول بتجارته عن زوجته المتحذلقة اللعوباً وقد وصفها بل فقال: «كانت في نظر الناس امرأة جميلة لودعية، تبدو عليها سيء امتياز يبهز كل من يشاهدها. وكانت في نظر أصدقائها امرأة عميقة المشاعر نافذة الذكاء، ميالة إلى التأمل والشعر.»

لكن ماذا أفاد بل من تجربته الغرامية هذه؟ يقول مؤرخو حياته إن صاحبه هذه هي التي «أوحى إلى جون استورت بل بكل ما دخل في نزعة الليبرالية من نزعة اشتراكية: أعني إيمانه بإمكان الاستمرار في تكميل النظم والمؤسسات الإنسانية إلى غير نهاية، وتوكيده للطابع الاجتماعي للملكية، واهتمامه المستمر برفاهية الطبقات العاملة، وثقته بإمكان تربيتها. وإذا كان لنا أن نصدق ما كتبه في ترجمته الذاتية، فإن هذا كله لم يكن عندها مجرد شعور عاطفي خالص» (أرشمبو: «جون استورت بل» ص ١٣، باريس، بدون تاريخ، مجموعة Les Grands Philosophes عند الناشر Michaud). وقد قال بل هو نفسه: «إن ما في (كتابي عن «الاقتصاد السياسي») من عنصر مجرد وعلمي خالص هو صادر عني، وما فيه من جانب إنساني فهو صادر عنها هي.»

واستمر زواجهما حتى توفيت في سنة ١٨٥٨، ويقول بل عن هذه الفترة، فترة الزواج بهاريت: «طوال سبع سنوات ونصف نعمت بهذه السعادة، سبع سنوات ونصف فقط.»

وبعد وفاة زوجته كان بل يقضي الشتاء كل عام بانتظام في مدينة أفينون Avignon في جنوب فرنسا، وكانت زوجته قد توفيت فيها ودفنت. وكان له في هذه المدينة بيت صغير وهو أيضاً توفي في هذا البيت في أفينون في الثامن من شهر مايو سنة ١٨٧٣، ودفن في أفينون، حيث لا يزال رفاقه يرقد حتى اليوم.

#### مؤلفاته

أ - التي نشرها إيان حياته

1843: A system of Logic, deductive and inductive

J.B. Say الاقتصادي الفرنسي (١٧٦٧-١٨٣٢) وسان سيمون. فكان لهذه الرحلة أثرها العميق في اهتمام جون استيورت بل بحركة الأفكار في فرنسا بخاصة، والقارة الأوروبية بعمامة؛ على الرغم من أنه قام بها وهو في الخامسة عشرة من عمره، لكنه كان مبكر النضوج جداً في كل شيء.

ولما عاد من فرنسا عاد إلى استئناف الدراسة تحت إشراف والده. فاهتم بعلم النفس، وقرأ مؤلفات لوك وهيوم وهارتلي Hartley وكونديك، كما تابع التعمق في الاقتصاد السياسي في كتب بثام الذي صار مسيطراً بفكره عليه؛ خصوصاً مذهبه في المنفعة، إذ وجد بل في فكرة المنفعة مفتاح التفسير لكل ظواهر الاقتصاد.

وفي سنة ١٨٢٣ عين بل موظفاً في شركة الهند الشرقية حيث كان أبوه موظفاً كبيراً كما قلنا. واستمر جون في هذه الشركة حتى إلغائها باستيلاء الحكومة البريطانية على كل شبه القارة الهندية في سنة ١٨٥٧، فبقي جون في هذه الشركة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٥٨. وعرض عليه إثر ذلك أن يكون عضواً في مجلس الهند India Council الذي أنشئ آنذاك، لكنه رفض هذا العرض. وكان قد وجد في منصبه في الشركة ما يكفل له أسباب العيش وأسباب الفراغ معاً من أجل أن يمارس عمله الأدبي والفكري. وفي أثناء عطلاته زار فرنسا وسويسرة وبلجيكا وشواطئ الرين وإيطاليا.

وفي سنة ١٨٢٣ أيضاً صار جون عضواً في جمعية صغيرة تدعى «جمعية مذهب المنفعة»، وكانت تجتمع في بيت بثام مؤسس هذا المذهب. كذلك كان كثيراً ما يلقي خطاباً في «جمعية المناظرات في لندن» London debating Society، وكان على مراسلة مستمرة مع توماس كارليل، وكثيراً ما كان يكتب مقالات في «مجلة وستمنستر».

وفي سنة ١٨٢٤ قبض عليه لأنه كان يوزع منشورات بين فقراء لندن تدعو إلى تحليد النسل، لأنه كان من المؤمنين المتحمسين لنظرية مالثوس الذي أُنذر بخطر تزايد السكان في العالم.

وفي سنة ١٨٢٦ مرّ بلزمة عقلية جعلته يعدل موقفه من مذهب بثام الذي أكد سلطان العقل فأراد بل أن يؤكد إلى جانب ذلك سلطان الانفعال والعاطفة. وقد كشف عن موقفه الجديد تجاه بثام في مقال كتبه عنه سنة ١٨٣٨.

وفي سنة ١٨٣٠ التقى بسيدة تدعى هاريت تيلر Har-

قوانين تركيبها فهي قوانين الترابط بين الأفكار association of ideas . وقوانين الترابط بين الأفكار لها من الأهمية في علم النفس مثلما لقانون الجاذبية في علم الفلك. وقد بحث ميل في قوانين الترابط بين الأفكار فوجدها أربعة قوانين صاغها على النحو التالي:

أ - أفكار الظواهر المتشابهة تميل إلى أن تمثل للعقل معاً،

ب - إذا كانت تجربة أو تصور الظواهر قد حدثا في اقتران وثيق بعضها مع بعض، فإن أفكارها تمثل معاً وثم نوعان من الاقتران: المعية، والتوالي المباشر.

ج - الترابطات التي تتم بالاقتران تصير أكثر يقيناً وأسرع تحت تأثير التكرار. وحينما تجتمع ظاهرتان غالباً، ولم تشاهدا في التجربة ولا في التصور منفصلتين فإنه يحدث بينها ما يسمى بالارتباط الذي لا انفصام له.

د - وحينما يكتسب الارتباط هذا الضرب من عدم الانفصام فإن الوقائع أو الظواهر للمناظرة هذه الأفكار تنتهي بأن تبدو غير منفصلة في الواقع. وبيدولنا اعتقادنا في وجودها معاً أمراً عيانياً intuitive على الرغم من أنه في الحقيقة ناتج عن التجربة.

وعلى هذا النحو يريخ جون استورت مل إلى رد كل أفكارنا إلى احساسات وصور اجتمعت بحسب قوانين الارتباط. وأراد بهذا أن يفند رأي العيانيين intuitionists الذين يذهبون إلى أن أفكارنا عيانات مباشرة.

وفيما يتعلق بالادراك الحسي فإن الكيمياء العقلية تلعب دوراً في تكوين فكرتنا عن المكان. ويرى مل أن فكرة المكان هي في جوهرها فكرة الزمان: إنها فكرة سلسلة من الاحساسات العقلية المستمرة خلال فترة من الزمن متفاوتة الطول.

والأمر الثاني الذي يحتاج إلى تفسير هو اعتقادنا في وجود عالم خارجي عنا مؤلف من جواهر (مواد) substances. لكن ماذا نعني بهذا القول؟ إننا نعني أن ما هنا شيئاً يظل موجوداً حين لا نحس به. فهذه ورقة بيضاء على المنضدة أمامي، فإذا تركت الغرفة، فإني أظن أعتقد أن هذه الورقة موجودة على الرغم من أنني لا أحس مباشرة بوجودها بأية حاسة من الحواس. وهكذا نحن نضع في مقابل إحساساتنا

1848: Principles of Political Economy

1859: On Liberty

1816: Representative Government

1861: Utilitarianism

1865: Auguste Conte and Positivism

1865: Examination of Sir William Hamilton's Philosophy.

1859- 67- 76: Dissertations and discussions

1869: The Subjection of Women

1870: Irish agrarian Question

### ب- التي نشرت بعد وفاته

1873: Autobiography

1874: Essays on Religion

1910: Letters, ed. ry H.S.R. Elliot

### آراؤه الفلسفية

يمكن تقسيم آراء ميل الفلسفية بحسب الموضوعات التي تناولها:

١ - في علم النفس: تأثر ميل بفكرة أوضحها أبوه في كتابه: «تحليل العقل الإنساني»، فكرة تقول بوجود كيمياء عقلية، كما توجد كيمياء مواد: ومثلما تهتم كيمياء المواد بتحليل المواد إلى عناصرها البسيطة، كذلك ينبغي على كيمياء العقل - أعني علم النفس - أن يحلل الحياة النفسية إلى عناصرها البسيطة. وكما أن العناصر لو أخذت على حياها لكانت تختلف تماماً عن مركباتها - فالهيدروجين والأكسجين على حياهما يختلفان تماماً عن الماء المركب منهما، كذلك الحال في الحياة النفسية تختلف عن عناصرها المركبة لها.

علينا إذن ان نحلل الأحوال النفسية إلى عناصرها البسيطة، وان نفحص بعد ذلك عن مركباتها وهي مختلفة تماماً عن عناصرها المركبة بها. إنه بالترابط الطويل في التجربة بين عناصر الحياة النفسية، ينتج أحوال نفسية (أو عقلية) تختلف ليس فقط عن عناصرها، بل وأيضاً عن «حاصل جمع» هذه العناصر.

إن هذه العناصر على نوعين: الإحساسات، والتصور؛ أو كما قال هيوم: الأحوال القوية، والأحوال الضعيفة. أما

أما التعريف فلا يمكن - تبعاً لذلك - أن يكون الغرض منه هو بيان الماهية، بل هو مجرد قضية تعبر عن معنى اللفظ فالتعريفات هي تعريفات ألفاظ وليست تعريفات أشياء.

وما دام بل قد رفض مذهب التصورات، فقد كان عليه أن يرفض المذهب التقليدي في الأحكام لأنه منبثق عن مذهب التصورات.

إن الحكم لا يتعلق بتصورات، بل بوقائع. إنه لا يعبر عن اتفاق بين أفكار، بل عن علاقة بين ظواهر. وهكذا يصح ما قاله بروشار Brochard (في مقالة له بعنوان: «منطق استيورت بل»، نشر في «المجلة الفلسفية» المجلد رقم ١٢) من أن بل أنزل المنطق من السماء إلى الأرض.

يقول بل: «إن القضايا ليست تقريرات متعلقة بأفكارنا عن الأشياء، بل هي تقريرات عن الأشياء نفسها. فحين أقول: النار تسبب الحرارة، فهل أنا أقصد أن فكرة النار تسبب فكرة الحرارة؟ كلا؛ وإنما أقصد أن الظاهرة الطبيعية التي تسمى النار تسبب الظاهرة التي تسمى الحرارة. إن من المستحيل أن نفصل فكرة الحكم عن فكرة حقيقة هذا الحكم».

كذلك يقضي بل على نظرية القياس التقليدية، القائلة بأن مبدأ القياس هو مقالة «الكل واللاشيء» dictum de omni et nullo (وتقول: «صفة الصفة صفة للشيء نفسه؛ ورفع الصفة رفع عن الشيء نفسه والمحمول على الكل محمول هو نفسه على البعض أيضاً؛ واللاحمول على الكل - لا محمول على البعض» راجع كتابنا: «المنطق الصوري والرياضي» ص ١٧٨، القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٣). فقد وجد بل أن القياس يشتمل على مصادرة على المطلوب الأول، لأن المقدمة الكبرى لا تصدق إلا إذا صدقت قبلها النتيجة. فنحن إذن في المقدمة الكبرى نصادر على النتيجة أي نطالب بالتسليم بها مع أن المطلوب هو البرهنة على صدقها. وهو نقد وجهه الشكاك اليونانيون من قبل إلى القياس الأرسطي (راجع كتابنا: «مدخل جديد إلى الفلسفة» ص ١١٨ - ص ١٢٠، الكويت سنة ١٩٧٥).

وفي مقابل ذلك اهتم بل بالاستقراء ووضع له القوانين (أو اللوائح) التي تضبط إجراءه حتى يؤدي إلى المعرفة العلمية الصحيحة - وهذه القوانين أربعة - (أو خمسة) وهي:

الحاضرة إحساسات ممكنة أو إمكانات مستمرة للإحساس. وهذه الإمكانات لا تمثل إحساسات منعزلة، بل مجاميع مشتقة من الإحساسات، وهذا هو ما يجعلنا نتصور الجواهر على أنها موضوعات substrata من الوقائع.

ثم إن التجربة ترينا تواليات بين هذه المجاميع من الوقائع. وهذا هو ما يسمى بالعلية. فمجموعة وقائع النار الموضوعية أمام شمع تلوها مجموعة انصهار لهذا الشمع.

وعلى هذا النحو نترك أن الإمكانات للإحساس أكثر واقعية من الإحساسات الوقتية العابرة. وهذا يفضي بنا إلى تصور وجود جواهر يتألف منها ما نسميه العالم الخارجي.

وعلى غرار هذا نتصور النفس: إنها فكرة شيء يبقى في مقابل التوالي العابر للإحساسات والعواطف وسائر الأحوال النفسية.

فإذا سعدنا من ميدان الإدراك إلى ميدان المعرفة بالمعنى الحقيقي، وجدنا العمليات الثلاث الرئيسية للفكر وهي: التصور concept، والحكم judgement والبرهان raisonnement.

٢ - المنطق - وبل ينكر التصور الكلي أو الفكرة العامة المجردة. وقد سبقه إلى ذلك كل من باركلي وهيوم اللذين قررا أنه لا يمكن امتثال شيء عام: فنحن لا نفكر في الفرس بوجه عام، بل في فرس معين، ولا في المثلث بوجه عام، بل في مثلث معلوم. ووهم ما هو كلي إنما ينشأ عن كوننا نفكر في بعض الصفات المشتركة ونحسب أننا نستطيع أن نغض النظر عن سائر الصفات، ونجري البرهنة على هذه الصفات المشتركة كما لو كنا قادرين على فصلها عن سائر الصفات. ومن ثم تنشأ عادة تعلق الفكر بالصفات الأبعد عن تخصيص الفردية، وتلبث هذه العادة وتقويها العلامات والكلمات فينشأ ترابط مصطنع بين الصفات المشتركة بين مجموعات من الموضوعات وينشأ نوع من التركيب بين الأصوات المقتضحة عنها. والخلاصة هي أن التصور لا يوجد بوصفه موضوعاً للتفكير متميزاً. «إنه ليس إلا جزءاً من صورة image عينية». ولهذا ينبغي ألا نتحدث عن كم التصور، أو مفهومه وما صدقه. وما ينبغي أن نقوله هو أن الاسم الجنسي يصدق على موضوعات (مثل الغربان، العصافير، إلخ) ويفهم منه صفات (مثل الحياة، امتلاك أجنحة، إلخ).



## ١ - منهج الاتفاق method of agreement : ومفاده أن

تنظر في مجموع الأحوال المولدة لظاهرة ما تريد دراسة أسبابها. فإذا وجدنا أن هناك عاملاً واحداً يظل موجوداً باستمرار على الرغم من تغير بقية العناصر أو المقومات، فيجب أن نعد هذا الشيء الثابت الواحد هو علة حدوث هذه الظاهرة. ويضرب لهذا مثلاً: ظاهرة الندى. فإن هذه الظاهرة تحدث أولاً حينما ينفخ الإنسان بفيه على جسم مبرد مثل لوح من الزجاج في يوم بارد. وتجد هذه الظاهرة أيضاً على السطوح الخارجية لزجاجات تستخرج من بئر، كما نجدتها ثالثاً حين نأني بإناء فيه ماء بارد ونضعه في مكان دافئ. ففي كل هذه الأحوال نجد أنه على الرغم من اختلاف العناصر التي تتركب منها الظاهرة: من نفخ على جسم بارد، أو سطح قارورة بها ماء يستخرج من بئر، أو سطح زجاجة مملوءة ثلجاً أدخلت في مكان دافئ. فإن ثمت عاملاً واحداً موجوداً باستمرار هو اختلاف درجة الحرارة بين الجسم وبين الوسط الخارجي أو الشيء الملمس. فنستج من هذا أن السبب في حدوث ظاهرة الندى هو الاختلاف في درجة الحرارة بين الجسم والوسط الملمس له.

## ٢ - منهج الافتراق: Method of difference

ولكي نتأكد من صحة الاستنتاج وفقاً للمنهج السابق، منهج الاتفاق، لا بد أن تأتي بمنهج مضاد في الصورة، لكنه مؤيد في النتيجة، فنجري ما يسمى بالبرهان العكسي. هذا المنهج يسمى منهج الافتراق. ويقول: إذا انفقت مجموعتان من الأحداث من جميع الوجوه إلا وجهاً واحداً، فتغيرت النتيجة من مجرد اختلال هذا الوجه الواحد، فإن ثمت صلة عليّة بين هذا الوجه وبين الظاهرة الناتجة. ونسوق مثلاً لذلك تجربة أجراها باستير لمعرفة سبب الاختمار. فقد أخذ باستير قنيتين ووضعهما في برميل واحد في درجة حرارة واحدة، وكان في كلتا القنيتين نفس السائل. وأغلق قوّه إحداهما، بينما ترك قوّه الأخرى مفتوحة فتبين له بعد مدة من الزمن أن السائل في القنينة المفتوحة تغير وحدث فيه اختمار، بينما نفس السائل في القنينة المغلقة القوّه لم يتغير ولم يحدث فيه اختمار. فاستنتج من هذا أن كون قوّه إحدى القنيتين قد تركت مفتوحة بينما بقيت الأخرى محكمة الإغلاق - هو السبب في حدوث الاختمار. ومعنى هذا أن الهواء هو السبب في حدوث الاختمار، وذلك لأنه يحتوي على جراثيم دخلت السائل فأحدثت هذا الاختمار.

٣ - منهج التغيرات المساوقة: Method of concomitant variations ويمكن أن يسمى أيضاً باسم «منهج التغيرات المتضايقة»، أو التغيرات المساوقة النسبية.

يقول هذا المنهج إننا لو أتينا بسلسلتين من الظواهر فيها مقدمات ونتائج، وكان التغير في المقدمات في كلتا السلسلتين من الظواهر يتبع تغيراً في النتائج في كلتا السلسلتين كذلك، ونسبة معينة، فلا بد أن تكون ثمت صلة عليّة بين المقدمات وبين النتائج. مثال ذلك ما فعله باستير أيضاً حين أتى بعشرين زجاجة مملوءة بسائل في درجة الغليان، فوجد في الريف أن ثمتي زجاجات فقط هي التي تغيرت لما أن فتح أفواهها، وفي المرتفعات الدنيا تبين له أن خمساً منها تغيرت بعد فتحها، وفي أعلى قمة جبل لم يتغير منها غير زجاجة واحدة. ولما أتى بالزجاجات العشرين إلى غرفة مغلقة أثير غبارها وفتح فوهاتها تغيرت الزجاجات العشرين كلها. فاستنتج من هذا أن تغير الهواء قد أحدث تغيراً في حدوث الاختمار، إذ الجراثيم أكثر في غرفة أثير غبارها، وأقل من ذلك في الريف، وأقل من هذا في سفح جبل، وأقل جداً في قمة جبل عالٍ.

## ٤ - المنهج المشترك «للاتفاق والافتراق» The Joint Method of agreement and difference

ويصوغه ميل هكذا: «إذا كان شاهدان أو أكثر من الشواهد التي تتجلى فيها الظاهرة تشترك في ظرف واحد، بينما شاهدان أو أكثر من الشواهد التي لا تتجلى فيها الظاهرة ليس فيهما (فيها) شيء مشترك غير الخلو من هذا الظرف، فإن هذا الظرف الذي فيه وحده تختلف مجموعتا الشواهد هو المعلول أو العلة أو جزء لا غنى عنه من الظاهرة».

## ٥ - منهج البواقي method of residues

وهو منهج للتكهن بالعلة استنتاجاً من فحص موقف يحتوي على ظاهرة واحدة بقي علينا أن نفسرها. وهذا المنهج يتضمن تطبيقاً لمبدأ الافتراق ابتداء من المعلول لنكتشف العلة. فمثلاً إذا كان معلوماً أن المعلول A يفسره X، وأن X لها مفعول كامل في A، فإنه إذا حدثت A مصحوبة بـ B فإنه يتبع عن مبدأ الافتراق أن شيئاً آخر غير X هو علة B.

ومن الأمثلة المشهورة على هذا المنهج التجربة التي قام بها الفزيائي الفرنسي الشهير أراجو Arago حين جاء بإبرة مغطسة وعلقها في خيط من الحرير، وحرك الأبرة، فإنه وجد



ثم تأثره بالشاعرين وردزورث وكولردج وبالكاتب المؤرخ كارليل، وبأوجست كونت. وقد شعر ميل في الخمسينات من القرن التاسع عشر أنه يعيش في عصر انتقال من مذاهب ونظم بالية إلى عصر آخر جديد في قيمه.

حاول ميل أن يواجه الاعتراضات الموجهة إلى بتنام في مذهبه في المنفعة وأولها: أي لفة تفضل؟ إنه إذا كان غرض الإنسان تحصيل اللذات، فإن اللذات متفاوتة في القيمة والشدة. لهذا أكد ميل أن اللذات تختلف كماً وكيفاً. لكن ما هو المعيار الذي نميز به قيمة اللذات من حيث الكيف؟ يجيب ميل إن اللذة الحقيقية هي تلك التي يرغب فيها الرجل العاقل المجرب لكن هذا يجعلنا ندور في دور فاسد أيضاً، إذ ما هي العلامات التي نحكم بها على أن شخصاً ما عاقل مجرب؟

على كل حال لم يستطع ميل أن يقدم برهاناً على صحة مذهب المنفعة. وإنما اقتصر على تقديم توجيهات عامة هي:

أ- السعادة أمر مرغوب فيه، وهي الأمر الوحيد المرغوب فيه كغاية.

ب- السعادة التي تكون المعيار المنفعي لها هو صواب في السلوك ليست السعادة الشخصية للفاعل، بل سعادة كل من يعنيه الأمر.

ويزعم ميل أن إدخال فكرة الكيف في تقويم اللذات المرغوبة لا يتعارض مع مذهب بتنام في المنفعة فيقول: وما يتفق تماماً مع مبدأ المنفعة الإقرار بهذه الحقيقة ألا وهي أن بعض أنواع اللذة يتصف بأنه مرغوب فيه أكثر وأنه أعظم قيمة من غيره. ومن غير المعقول تماماً أن تؤخذ الكيفية في اعتبار سائر الأمور إلى جانب الكمية ولا تعتبر الكيفية في تقدير اللذة، وأن تعتبر فيها الكمية وحدها (ومذهب المنفعة) ص ١١).

لكن زعم ميل هذا غير صحيح فيما يتعلق باتفاق موقفه هذا مع مبدأ المنفعة، لأننا إذا كان علينا أن ندخل في تقويم اللذة كقيمتها، فلا بد حينئذ من اتخاذ معيار آخر غير اللذة، فإننا لو قلنا مثلاً إن لذة التحصيل للعلم أسمى من لذة اللعب بالكرة، فلا بد أن يكون هناك معيار آخر هو العلم، وليس اللذة بما هي لذة. فالواقع أن ميل بادخاله لعنصر الكيف في تقويم اللذة قد خرج على مبدأ اللذة الذي هو الأساس في مذهب المنفعة عند بتنام.

إنها تصل إلى حالة السكون على نحو أسرع لو وضعنا تحتها لوحة من النحاس، مما لو لم نضع مثل هذه اللوحة. فتسلسل ربما كانت ظاهرة زيادة الإسراع إلى السكون راجعة إلى مقاومة الهواء أو طبيعة مادة الخيط لكن تأثير هذين العاملين: الهواء ونوع الخيط كان معروفاً بالدقة مع عدم وجود لوحة النحاس، فالعنصر الباقي وهو لوحة النحاس هو إذن العلة في زيادة الإسراع إلى السكون.

وقد رأى الكثيرون من المناطق أن لا فارق بين منهج البواقى هذا وبين منهج الافتراق، ولذا أسقطوه منهجاً مستقلاً قائماً بذاته.

وقد أخذ هوول Whewell على قواعد ميل هذه أنها ليست مناهج للكشف في العلوم. فرد عليه ميل قائلاً إنها المناهج الوحيدة للبرهان الاستقرائي، والفرض في حاجة إلى إثبات، ولا يكفي لقبول فرض ما أن يقال إنه لا يتعارض مع الحقائق العلمية المقررة، بل لا بد من تحقيقه، ولا يكون ذلك - في نظر ميل - إلا باستخدام مناهجه الأربعة (أو الخمسة) هذه.

ولكن ميل في مناقشته لقوانين الطبيعة النهائية والمشتقة يعترف بأننا لا نستطيع في بعض الأحيان الإقرار بأن هذه القوانين يقينية وغير مشروطة؛ بل ربما لو تعمقنا الفحص عنها فلربما احتجنا إلى تنقيحها وإعادة النظر فيها. وفي كثير من الأحيان نضطر إلى أن نقول عن بعض القوانين التي تصل إليها بالاستقراء إنها محتملة، وليست يقينية. غير أن ميل لم يفسح المجال للاحتمال، بل كان يميل إلى توكيد يقين القوانين التي نصل إليها بالاستقراء.

٣ - الأخلاق:

اعتنق ميل، وهو في الخامسة عشرة من عمره، مذهب بتنام في المنفعة بحماسة شديدة، ذلك لأنه ظن أن هذا المذهب القائل «بأكبر سعادة لأكبر عدد من الناس» قد تصوره ميل على أنه ينسخ كل المذاهب الأخلاقية السابقة ويوفر للإنسان تحقيق الغاية العظمى من حياته، وهي السعادة.

لكن ميل تطور فيما بعد نحو اتجاهات أخرى تبعد عن الخط الدقيق للمنفعة، فأصبح ينظر إلى العدالة وطهارة النية والقيمة الذاتية للشخصية على أنها قيم أسمى من المنفعة والسعادة بالمعنى الذي يفهمها به مذهب بتنام. وكان العامل في هذا التطور الأزمة الروحية التي حدثت له في سنة ١٨٢٦

أجل تنمية ذاته إلى المدى الذي لا تضر فيه بحرية الآخرين. ويربط ذلك مبدأ المنفعة فقال إن هذا المبدأ يقضي على الفرد أن ينمي قواه وفقاً لإرادته الخاصة وتقريره، بشرط أن يفعل ذلك على نحوٍ من شأنه ألا يتدخل في ممارسة الآخرين لمثل هذه الحرية. وليس من الصالح العام أن ينشأ الناس على نمط واحد أو أن يصنعوا في نفس القلب بل الأمر على عكس ذلك: فالمجتمع يثرى بقلر ما تنمو أفراده بحرية واستقلال وتميز بعضهم من بعض. ومثل يطلق الحرية إلى أقصى درجة يكفل معها الانسجام الاجتماعي. يقول بل: «إن الحرية لا يجدها شيء سوى الإضرار... بالآخرين»، («في الحرية» ص ٤٩). وطالما كانت الحرية الفردية لا تتعارض مع حرية الغير ولا تدعو الغير إلى ارتكاب جرائم، فلها يجب ألا تكون مقيدة بأي قيد. «إن الجزء الوحيد من سلوك الإنسان، الذي يكون مسؤولاً عنه تجاه المجتمع، هو ذلك الذي يتعلق بالغير. أما الجزء الذي يتعلق بذاته فهو فيه صاحب الحق المطلق واستقلاله فيه مكفول. إن الفرد ذو سيادة كاملة على ذاته، وعلى جسمه وعلى عقله». («في الحرية» ص ٩).

وفيما يتصل بنظام الحكم في الدولة، يرى بل أن النموذج الأعلى لنظام الحكم هو الحكم الذي يمارسه المجتمع بوصفه كلاً. وفيه يكون لكل مواطن صوته في ممارسة السياسة، فيه يكون من حق المواطن في بعض الأحيان أن يشترك في الممارسة الفعلية للحكم، محلياً كان هذا الحكم أو قومياً، بصفة أو بأخرى. والفرد يكون أوفر أماناً من ضرر الآخرين بالقدر الذي به يكون قادراً على حماية نفسه. وهذا الأمر إنما يتحقق على خير وجه في الديمقراطية، لأن الديمقراطية تساعد على تنمية الذات الفردية وتشجيع المبادرة الذاتية.

#### مراجع

- James M'Cosh: Examination of Mr. J.S. Mill's Philosophy. London, 1899.
- Alex. Bain: James Mill, a Biography. London, 1882.
- Alex Bain: J.S. Mill, a Criticism. London, 1884.
- W.L. Courtney: Life and writings of J.S. Mill. London, 1888.
- Chas. Douglas: J.S. Mill. A Study of his Philosophy. Edinburgh, 1895.

واعترض آخر على بل وعلى مذهب المنفعة بعامة أن يقال: إنكم تقولون إن الإنسان بطبعه يرغب في السعادة. فإذا كانت هذه حقيقة واقعية طبيعية، فكيف تحولونها إذن إلى إلزام، فتقولون إن من الواجب على الإنسان أن يطلب السعادة؟! لقد قرر هيوم من قبل أن «ما هو كائن» لا يمكن تحويله إلى «واجب» أو «إلزام»، لأنه موجود فعلاً، بينما الواجب أو الإلزام يفترض عدم وجود الشيء بالفعل ويطلب الإنسان بإيجاده.

#### ٤ - السيادة:

خاض بل غمار السيادة عملياً. ففي سنة ١٨٦٥ طلب إليه عدد من المواطنين في وستمنستر أن يرشح نفسه في الانتخابات العامة التي أجريت في تلك السنة ممثلاً للعمال. فوافق على ذلك بشرط ألا يسهم بماله الخاص في الحملة الانتخابية وألا ينحصر جزءاً من وقته لمصالح دائرة وستمنستر الخاصة. فوافقوا على ذلك، وعقد بل عدة اجتماعات انتخابية وفاز في الانتخابات وصار عضواً في البرلمان البريطاني عن دائرة وستمنستر وبوصفه من حزب الأحرار. واستمرت هذه العضوية حتى الانتخابات التالية التي جرت في سنة ١٨٦٨. وفي أثناء عضويته هذه دافع عن طلب إعطاء كل الطبقة العاملة الحق في التصويت في الانتخابات العامة. ولما سقطت حكومة الأحرار بزعمارة جلادستون وحلت محلها حكومة المحافظين بزعمارة دزرائلي انهمك بل في تأييد الاضطرابات التي قامت بها الطبقة العاملة آنذاك. كذلك شارك بل في قضيتين أثرتا بشأن المستعمرات البريطانية، الأولى تتعلق بايرلنده، والثانية، تتعلق بجميكا. وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية أيد الولايات الشمالية من أمريكا في حربها ضد الولايات الجنوبية في حرب الانفصال، على الرغم من أن الأحرار والمحافظين على السواء في انجلترا كانوا مع الجنوبيين. كذلك كان مؤيداً لثورة سنة ١٨٤٨ في فرنسا واستمر يؤيد الاشتراكيين ضد امبراطورية لويس بونابرت.

وتقدم للانتخابات العامة في سنة ١٨٦٨ لكن هزمه مرشح المحافظين.

أما من الناحية النظرية السياسية، فإنه أودع أفكاره في السياسة في كتابين: «في الحرية» (سنة ١٨٥٩) و«في حكومة التمثيل النيابي» (سنة ١٨٦١).

في كتابه عن الحرية طالب بل بتوفير الحرية للفرد من

٢ - كلمة «أورجانون» Organon وهو العنوان الذي أعطي لمجموع مؤلفات أرسطو في المنطق - ترجع إلى العصر الهلنستي (أي القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد). وكلمة أورجانون ὄργανον معناها: آلة. ومن هنا ثار السؤال عما إذا كان المنطق قسماً من أقسام الفلسفة، أو آلة لكل أنواع المعرفة. وهذه التسمية «أورجانون» يمكن أن نجد شواهد عليها عند أرسطو نفسه (راجع مثلاً «الطوبىقا» م ١ ف ١٣ ص ١٠٥ | ٢٠؛ «في النفس» م ٣ ف ٨ ص ٤٣١ ب ٢٩)، لكننا لا نجد لها للدلالة على علم المنطق بالتحديد إلا في العصر الهلنستي، إذ نجدها مثلاً عند الاسكندر الأفروديسي (راجع شرحه على التحليلات الأولى، م ١ ص ١ (In Arist. ana. pr. I, Comm., P.1 sqq. Berlin, 1833).

وهذه التسمية: «أورجانون» (= آلة) تأثر تعريف المنطق عند الفلاسفة الاسلاميين. فمثلاً ابن سينا يقول: «والعلم الذي يُطلب ليكون آلة - قد جرت العادة في هذا الزمان وفي هذه البلدان أن يسمى «علم المنطق» ولعل له عند قوم آخرين اسماً آخر، لكننا نؤثر أن نسميه الآن بهذا الاسم المشهور. وإنما يكون هذا العلم آلة في سائر العلوم لأنه يكون علماً منبهاً على الأصول التي يحتاج إليها كل من يقتنص المجهول من المعلوم، باستعمال المعلوم على نحو وجهة <بحيث> يكون ذلك النحو وتلك الجهة مؤدياً بالباحث إلى الإحاطة بالمجهول، فيكون هذا العلم مشيراً إلى جميع الأشياء والجهات التي تنقل الذهن من المعلوم إلى المجهول، وكذلك يكون مشيراً إلى جميع الأشياء والجهات التي تُضِلُّ الذهن وتوهمه استقامة مأخذ نحو المطلوب من المجهول ولا يكون كذلك» (ابن سينا: «منطق المشرفين» ص ٦، المكتبة السلفية، القاهرة سنة ١٩١٠).

٣ - ويسمى ثالثاً باسم «القانون» *κωνων* (= قانون، قاعدة، نموذج) وذلك عند الايقوريين لأنه يشتمل على قواعد *κωνωνες* المعرفة والحقيقة. (راجع ذيوجانس اللاترسي: «تراجم الفلاسفة» برقم ١٠ sqq. X, 29؛ شيشرون De fin. 1, 7؛ سنكا «الرسالة» رقم ٨٩).

٤ - وشيشرون يطلق عليه اسم *medicina mentis* (= طب العقل)، وذلك لأن هدفه علاج أنواع الضعف الطبيعية في الذهن البشري بواسطة قواعد صورية، ابتغاء الوصول إلى المعرفة الصحيحة. (راجع شيشرون Tusc. III, 1).

- Chas. Douglas: The Ethics of J.S. Mill. Edinburgh, 1897.
- Thos. Whittaker: Comte and Mill. London, 1908.
- Emery Neff: Carlyle and Mill. New York, 2nd ed. 1926.
- Reginald Jackson: Examination of the Deductive Logic of J.S. Mill. Oxford, 1941.
- R.P. Anschutz: the Philosophy of J.S. Mill. Oxford, 1955
- M. St. J. Packe: The Life of J.S. Mill. London, 1954
- Karl Britton: J.S. Mill, Life and Philosophy. New York, 1969

## المنطق

### Logique (F.), Logic (E.)

كلمة «منطق» في العربية ترجمة حرفية للكلمة اليونانية *λογική* المأخوذة من *λογος* (= كلمة، عقل). لكن علم المنطق اتخذ في طول تاريخه أسماء أخرى، نذكر منها:

١ - «الديالكتيك» *διαλεκτική επιστήμη* وذلك عند أفلاطون. وعنده أن هذا العلم - الديالكتيك - موضوعه هو تحليل التصورات وتركيبها («مخاورة»، «السوفسطائي» ٢٥٣ وما يليها) ويهدف إلى معرفة الموجود ابتغاء إدراك المثل («مخاورة» «فيلابوس» ٥٨ أ، «مخاورة» «السياسة» ٥١١ ف، ٥٤٣ ب). أما عند أرسطو فإن الديالكتيك هو الحجاج القائم على المظنونات والاحتمالات (راجع «الطوبىقا» م ١ ف ١ ص ١٠٠ أ ٢٧). ويستعمل أرسطو صيغة الحال *λογικώς* للدلالة أيضاً على ما هو مظنون ومحتمل. («التحليلات الثانية» م ١ ف ٢١ ص ٨٢ ب ٣٥).

غير أن شيشرون (Definibus I, 7) يستعمل كلمة «ديالكتيك» للدلالة على كل المنطق: منطق البرهان، ومنطق الاحتمال. واستمر هذا الاستعمال طوال العصور الوسطى والعصر الحديث حتى القرن السابع عشر.

والتعريف الأول يختص بالمنطق بالمعنى التقليدي الاصطلاحي، أما التعريفان الثاني والثالث فيتعلقان بالمنطق المزوج بالميتافيزيقا، والذي بلغ أوج نضوجه في «منطق» هيجل، وقد يسمي أيضاً بالمنطق المتعالي: *trans zendentale Logik*.

ذلك أن كنت قسم المنطق إلى نوعين:

١ - منطق الاستعمال العام - ويحتوي على القواعد الضرورية ضرورة مطلقة للفكر، تلك القواعد التي بدونها لا يمكن أن يكون هناك أي استعمال للذهن.

٢ - منطق الاستعمال الخاص للذهن - ويحتوي على القواعد التي ينبغي مراعاتها ابتغاء التفكير الصحيح في نوع معين من الموضوعات.

والمنطق العلم ينقسم بدوره إلى قسمين:

١ - منطق محض ٢ - منطق تطبيقي.

لكن المنطق العام يصرف النظر عن مضمون المعرفة، ولا يتناول إلا شكل المعرفة بوجه عام. لكن ثم منطقاً يعني بأصل معرفتنا بالأشياء، من حيث أن هذا الأصل لا يمكن أن ينسب إلى الأشياء نفسها. وهذا المنطق هو ما يسميه كنت باسم المنطق المتعالي.

وكل من المنطق العام والمنطق المتعالي ينقسم إلى قسمين: تحليلات، وديالكتيك. والديالكتيك فن سوفسطائي عطف إلى إضفاء مظهر الحقيقة على جهلنا بل وعلى أوهامنا المتعمدة.

(راجع كتابنا: «امانويل كنت» ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٢، الكويت سنة ١٩٧٧).

وهكذا نرى أن المنطق المتعالي يدخل في نظرية المعرفة، وبالتالي في الميتافيزيقا. ويتضح هذا أكثر إذا نظرنا في تصور هيجل للمنطق، وهو تصور يقوم على المبدأ الأساسي في فلسفته وهو: «كل ما هو واقعي معقول، وكل ما هو معقول واقعي». ومن هنا كان منطق هيجل هو منطق الوجود بوجه عام، وليس فقط منطق العقل الانساني وهو يفكر.

والخلاصة أن المنطق بالمعنى الاصطلاحي المحلود هو الوارد في التعريف الأول. فالمنطق هو العلم الباحث في كيفية التفكير الصحيح للتأدي من المقدمات إلى النتائج.

٥ - أما الاسم *λογική* (لوجيكية) والذي عرف به هذا العلم بوجه عام، فلا نجد بالمعنى الاصطلاحي للدلالة على هذا العلم لأول مرة في وثائق وصلتنا إلا في مؤلفات من القرن الأول قبل الميلاد وذلك عند شيشرون (*De finibus*, I, 7, 22)، وذلك جنباً إلى جنب مع الكلمة «ديالكتيك» الموجودة عند أفلاطون؛ وإذن فابتداء من القرن الأول قبل الميلاد استعملت هاتان الكلمتان معاً للدلالة على نفس العلم، وهو علم المنطق.

لكننا لا نعرف على وجه الدقة من هو أول من استعمل كلمة *logike* هذه للدلالة على علم المنطق. ويفترض برانتل Prantl في كتابه العظيم «تاريخ المنطق في الغرب» (ج ١ ص ٥٣٥ - ٥٣٦)، استناداً إلى إشارة بوثيوس Boëtius أن من الممكن أن تكون من وضع شراح أرسطو وضعوها اصطلاحاً من أجل أن يقابلوا بين الأورجانون لأرسطو وبين «الديالكتيك» عند الرواقين، ولعل ذلك كان في عهد أندرونيقوس الرومسي (في القرن الأول قبل الميلاد). ويدل استعمالها عند شيشرون (القرن الأول قبل الميلاد) وعند الاسكندر الأفروديسي (القرن الثاني بعد الميلاد) وجالينوس (القرن الثاني بعد الميلاد) على أنها قد أصبحت شائعة الاستعمال في القرن الثاني بعد الميلاد.

#### تعريفات المنطق

عُرف المنطق بعدة تعريفات أهمها اثنان:

(أ) «المنطق هو العلم الباحث في المبادئ العامة للتفكير الصحيح. وموضوعه البحث في خواص الأحكام، لا بوصفها ظواهر نفسية، بل من حيث دلالتها على معارفنا ومعتقداتنا. ويعنى على الأخص بتحليل الشروط التي بها نيرر انتقالنا من أحكام معلومة إلى أخرى لازمة عنها» (كينز Keynes: «دراسات وتمارين في المنطق الصوري» ١٤).

(ب) وعرفه إمانويل كنت هكذا: «نطلق نحن كلمة «منطق» *Logik* على علم القوانين الضرورية للذهن والعقل بوجه عام، أو - والمعنى واحد - (علم) الشكل البسيط للتفكير بوجه عام» (كنت: «المنطق» المقدمة ١٤).

(ج) وعرفه هيجل بقوله إن المنطق «هو علم الصورة، أعني الصورة في العنصر المجرد للفكر» (هيجل: «الانسكلوبديا» ١٩٤).

المستخدم في المناقشات العلمية.

ولم يتم أرسطو بالمنهج الاستقرائي، لأنه رأى أن الاستقراء يعطي نتائج ظنية بينما عني بالمنهج الاستدلالي وخصص له كتابه «التحليلات الثانية»، كما وضع كل القواعد الخاصة بنظرية القياس.

لكن بعض المناطق المعاصرين يقسمون المنطق الى ثلاثة أقسام هي:

١ - الاستقراء.

٢ - الاستدلال الرياضي.

٣ - علم المعاني semantics.

وقد أضافوا هذا القسم الأخير متأثرين بتطور علم اللغة في الوقت الحاضر، وبرروا ذلك بما للغة من تأثير هائل على تشكيل الفكر، وما يؤدي إليه استعمال وسوء استعمال اللغة من نتائج خطيرة تتصل بصواب التفكير أو خطئه. وأرسطو قد تعرض فعلاً لمعاني الألفاظ من حيث الاشتراك في المعنى والتواطؤ (أي الانطباق الواحد للفظ على المعنى) والترادف والتشكيك. لكن أفراد هذا البحث قسماً قائماً برأسه ليس له ما يبرره. ولهذا ينبغي أن يظل في نطاق القسم الأول من المنطق وهو باب التصورات.

### المنطق الرمزي

وفي القرن التاسع عشر حدث تطور أساسي في علم المنطق، جاء نتيجة لتطبيق الرياضيات على بعض مسائل المنطق؛ ومحاولة المزج بين المنطق وبين الرياضيات نظراً لما تبين - منذ عهد أرسطو نفسه - من تشابه كبير بين المنطق والرياضيات. فكلتا النوعين من العلم يمتاز بأنه يميل إلى التجريد، فلا يُعنى إلا بالصورة، أما المادة فلا أهمية لها في الواقع عنده. ويمتازان كذلك بأنهما يتعلقان بالنسب بين الأشياء، لا بالأشياء ذاتها. كما أنهما يتفقان من حيث الغاية، وهي الوصول إلى الربط الصحيح بين الأشياء عن طريق عمليات فكرية بسيطة تخضع لقواعد ثابتة وتتم بطريقة آلية. لهذا فكر الفلاسفة المعنويون بالمنطق في تطبيق نتائج الرياضيات على المنطق. فقامت حركة قوية بدأها ليبتس Leibniz في القرن السابع عشر ونمت في الثامن عشر، وخطت خطوة هامة على يد هاملتون في نظريته في كم المحمول. لكن تكوين المنطق

ولما كانت المقدمات مؤلفة من قضايا أو أحكام، فإن على المنطق أن يبحث في الأحكام أو القضايا.

ولما كانت القضية مؤلفة من حدود هي التصورات العقلية، كان من الضروري في المنطق دراسة التصورات.

ولهذا انقسم المنطق إلى ثلاثة أبواب رئيسية هي:

١ - التصورات، وهي المعاني المجردة الدالة على مفردات، مثل انسان، فرس، كتاب، وردة.

٢ - الأحكام: والتعبير عنها يسمى القضايا. والقضية هي القول الذي يحتمل الصلح والكذب.

٣ - الاستدلال-وهو الانتقال من أحكام إلى أحكام أخرى لازمة عنها بالضرورة. فإن كان الانتقال بدون التجراء إلى التجربة سمي استقراءً. والاستنباط إما أن يكون من الكلي إلى الجزئي فيسمى قياساً، وأما من حكم إلى حكم آخر لازم عنه بالضرورة من غير أن يكون أحدهما أعم من الآخر، مثل الانتقال من تعريف المثلث بأنه سطح مسطح مسطح بثلاثة مستقيمتان متقاطعة متشقتي إلى سائر ما ينتج عن هذا التعريف من نظريات هندسية مثل أن مجموع زواياه يساوي قائمتين، أو أن المثلث المتساوي الساقين هو متساوي زاويتي القاعدة، الخ.

وتم تقسيم آخر للمنطق إلى صوري ومادي. والأول هو منطق التفكير بوجه عام، والثاني هو قواعد التفكير في العلوم الجزئية. لكن لما كان المقصود ليس هو المادة العينية، بل الشروط العامة للتفكير، فإن هذا المنطق المادي يسمى علم المناهج، لأنه يتناول المناهج العلمية الرئيسية المستخدمة في العلوم المختلفة. وقد حصروها بشكل عام في أربعة مناهج:

١ - الاستدلال الرياضي، وهو المنهج المستخدم في العلوم الرياضية.

٢ - الاستقراء، وهو المنهج المستخدم في العلوم الفيزيائية والكيميائية والحيوية.

٣ - المنهج التاريخي، وهو المنهج المستخدم في العلوم التاريخية بمختلف فروعها.

٤ - المنهج الجدلي méthode polémique وهو المنهج

- J.N.Keynes: Studies and Exercises in Formal Logic, Methuen, London.
- H.W.B. Joseph: An introduction to Logic, Oxford.
- I.S. Stebbing: A modern Introduction to Logic, Oxford.
- F.C.Bradley: Logic.

### (ب) المنطق الرمزي

- C.I.Lewis and C.H. Langford: Symbolic Logic., 1932.
- A.Church: Introduction to mathematical Logic, Princeton, 1956
- A.N.Prior: Formal Logic, Oxford 1959.
- W.V. Quine: Mathematical Logic. New York, 1940

### (ج) تاريخ المنطق

- I.M.Bochenski: A history of Formal Logic. Notre Dame, 1961.
- W. and M. Kneale: The Development of Logic. Oxford, 1962.
- K. Prantl: Geschichte der Logik im Abendlande, 3 Vols.

### مور (جورج أدورد)

#### George Edward Moore

فيلسوف انجليزي معاصر، من مؤسسي ما يعرف بـ «الواقعية الجليدية» في إنجلترا (الواقعية بالمعنى الافلاطوني) ولد في ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٣ في إحدى ضواحي لندن وتدعى Upper Norwood من أسرة ميسورة الحال، وكان الابن الثالث للدكتور (الطبيب) د. مور D. Moore. ولما بلغ الثانية عشرة دخل مدرسة دلوئش Dulwich College فأماضى فيها عشر سنوات، إبانها اتقن الكلاسيكيات. وفي سن الثانية عشرة مرّ بتجربة دينية عميقة إذ صار من الغلاة في التدين وفي الدعوة إلى المسيحية، وشعر بأن من واجبه الوعظ بكلام

الرياضي بدأ خصوصاً من أعمال جورج بول واوجستس دي مورجن، وترسخت قواعده بفضل فريجه وبيانو وشريدنر، حتى بلغ أوج نضوجه في كتاب «المبادئ الرياضية» (سنة ١٩١٠ - سنة ١٩١٤) تأليف برتراند رسل والفرد نورث هويتهد.

وقد بدأت الحركة في اتجاه «ترويض» المنطق، لكنها ما لبثت أن ارتدت إلى العكس، أي إلى «منطقة» الرياضة.

ويبين لوس Lewis خصائص المنطق الرياضي أو الرمزي على النحو التالي:

١ - أما من حيث الموضوع فإن موضوعه هو موضوع المنطق أيًا كانت صورته، أي المبادئ التي تجري عليها العملية العقلية أو الذهنية بوجه عام - في مقابل المبادئ الخاصة فقط بفرع واحد من فروع مثل هذه العملية الذهنية.

٢ - وأما من حيث الأداة فأدواته الرموز، وكل رمز يدل على تصور أو مفهوم بسيط نسبياً. والمثل الأعلى في هذه الحالة أن يستغنى عن كل لغة غير الرموز.

٣ - وإلى جانب الرموز الثابتة توجد رموز متغيرة لها نطاق محدد تمام التحديد من حيث المعنى.

٤ - كل نظرية في المنطق الرياضي تقوم على الاستدلال، أي أنها تقوم على عدد صغير نسبياً من المبادئ الأولى المعبر عنها برموز، وتستخلص منها بواسطة عمليات محددة في صيغ أو يمكن تحديدها في صيغ.

(راجع كتابنا: «المنطق الصوري والرياضي» ص ٢٥٠ - ٢٦٥، ط ٢ القاهرة سنة ١٩٦٣).

### مراجع

#### (أ) المنطق الصوري:

- د. عبد الرحمن بدوي: «المنطق الصوري والرياضي» ط ١ سنة ١٩٦٢، ط ٢ سنة ١٩٦٣، ط ٣ سنة ١٩٦٨ القاهرة؛ ط ٤ سنة ١٩٧٦، الكويت.
- E. Goblott: Traité de logique. A. Colin, Paris.
- Arnauld et Nicole: La Logique, ou l'art de penser (Logique de Port-Royal) éd. Emile Charles.
- Ch. Serrus: Traité de Logique, Aubier, Paris, 1945.
- J.S.Mill: A system of Logic.



١٩٥٨ بعد أن بلغ سن الخامسة والثمانين.

وقد تولى مور رئاسة تحرير المجلة الفلسفية المشهورة Mind من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٤٧. وأقام في أمريكا عامين أثناء الحرب العالمية الثانية لإلقاء محاضرات.

### فلسفته

جرت العادة بتقسيم تطور فلسفة مور إلى مرحلتين يفصلهما عام ١٩٠٣:

١ - ففي أول بحث نشره، وعنوانه: «بأي معنى، إن كان هناك معنى، يوجد الماضي والمستقبل؟» (سنة ١٨٩٧) - يتفق مور مع برادلي، فيقرر أن الزمان غير موجود، وحاول إثبات ذلك مستخدماً منهج برادلي ومقدماته، خصوصاً الاعتماد في العلاقات الباطنة والكليات العينية والمبدأ القائل بالهوية بين الواقع والخلو من التناقض. ولما قيل له إن دعواه أن الزمان غير موجود هي دعوى تخالف الإدراك العام، أجاب مور بأن الإدراك العام common sense على خطأ.

٢ - وفي بحثه بعنوان «الحرية» (سنة ١٨٩٨) يظهر تأثيره الشديد بكننت، خصوصاً بالعرض المتعالي والحقائق التركيبية الضرورية. لكنه أخذ على كننت تصويره للحرية على أساس الإرادة - والإرادة تصور نفساني - وقال إن الحرية ينبغي أن تفهم على أساس فكرة الحرية المتعالية، التي لا تدخل فيها العلاقات الزمانية. وكان مور يعتقد بإمكان إدراك واقع يتجاوز الزمان والحواس.

٣ - وفي سنة ١٨٩٩ في مقال له بعنوان: «طبيعة الحكم» اتخذ موقفاً ثالثاً. ذلك أنه صاريهاجم النزعة النفسانية في الفلسفة، فقرر أن أفعال العقل لها وجود مستقل تماماً عن موضوعاتها. وقرر كذلك أن العالم كله يتألف من كليات كيفية، أو كما سماها: «تصورات ذات صفات» adjectival concepts. وهذه الكليات تؤلف القضايا، والموضوعات المادية، والعقول وسائر الموضوعات المركبة. وبعض الكليات (مثل: أحمر) توجد خلال الزمان، كذلك توجد بعض القضايا خلال الزمان بل هي موضوعات للإدراك الحسي (مثلاً هذه القضية: هذا الكتاب أحمر). وأمثال هذه الكليات والقضايا ينعتها بأنها «كليات وقضايا تجريبية» - في مقابل تلك التي لا توجد خلال الزمان مثل: «اثنان»، «صفة»، وينعتها بأنها قبلية a priori. وكان هذا هو الأساس في «واقعية» مور،

يسوع وتوزيع المنشورات الدينية. لكن هذه التجربة أتت بعكس المراد منها، إذ ملأت نفسه بالاشمئزاز ويعلم الرغبة في الاستمرار في هذه التجربة. وربما كان في هذه التجربة التي استمرت قرابة عامين ونصف العام أثرها في فتور إيمانه الديني فيما بعد. وقيل أن يترك مدرسة دلوتش، ولحمت تأثير مناقشاته مع أخيه الشاعر توماس استيرج مور، اتخذ موقف اللادرية agnosticism، وكانت نزعة اللادرية - أي عدم الاكتراث بالدين خصوصاً - قد انتشرت في إنجلترا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وتقوم على أساس أنه لا يوجد دليل قاطع على وجود الله، كما لا يوجد دليل حاسم على عدم وجوده.

وفي سنة ١٨٩٢ دخل مور كلية الثالوث في جامعة كمبرج طالباً يدرس الكلاسيكيات (الأدب اليونانية واللاتينية). لكنه في بداية السنة الثالثة غير دراسته إلى الفلسفة، وأتم دراسة الأخلاق في سنة ١٨٩٦. وعلى أساس البحث الذي كتبه في موضوع الأخلاق عند كنت انتخب في سنة ١٨٩٨ زميلاً لمدة ست سنوات. (١٨٩٨ - ١٩٠٤)، وفي أثناء هذه الفترة كان يجري مناقشات عديدة مع برترند رسل، وألف أول كتبه الرئيسية وهو «مبادئ الأخلاق» Principia Ethica، وقدم عدة أبحاث إلى «الجمعية الأرسطية» (وكان قد اختير عضواً فيها) ونشر عدة مقالات.

ولما انتهت زمالته في سنة ١٩٠٤ ترك جامعة كمبرج. وبفضل ما ورثه من ثروة استطاع الاستمرار في التفرغ للنشاط الفلسفي المحض. فكتب مقالات، وقدم أبحاثاً، وقام بنقد الكتب، كما ألف كتاباً صغيراً بعنوان «علم الأخلاق» Ethics وألقى محاضرات في رنشموند.

وفي سنة ١٩١١ دُعي إلى العودة إلى جامعة كمبرج مدرساً. فقام بالتدريس المنتظم في جامعة كمبرج من سنة ١٩١١ حتى سنة ١٩٢٥، وكانت محاضراته في علم النفس الفلسفي، وبعد ذلك في الميتافيزيقا.

وفي سنة ١٩٢٥ تخلف جيمس وورد James Ward أستاذاً للفلسفة العقلية والمنطق في جامعة كمبرج. وكان لمحاضراته ومؤلفاته تأثير كبير واسع في طلاب الفلسفة في كمبرج وسائر أنحاء بريطانيا.

ولما بلغ سن التقاعد في سنة ١٩٣٩ ترك التدريس في جامعة كمبرج لكنه استمر في نشاطه في كتابة المقالات وإعادة نشر مؤلفاته السابقة. وتوفي في كمبرج في ٢٤ أكتوبر سنة



يتصوره الناس عادة، وهذه الكيانات والخواص ينبغي أن تشمل - على الأقل جزئياً - ما هو موجود في الكون موضوعياً. وإذا طبق المبدأ الثاني على هذه الكيانات، سيبدو كما لو كان كل موضوع مركب قابلاً للرد إلى بسائط.

وقد حاول مور أن يصنف هذه الكيانات entitics في ميدان عمله وهو الأخلاق ونظرية الإدراك الحسي إلى بسائط ومركبات، وأن يحلل المركبات منها. ومن أجل ذلك حاول أن يقدم تعريفات دقيقة لهذه الكيانات تلافياً للألوان الغموض والاشتراك التي أوقعت الفلسفة في إشكالات والفلاسفة في خلافات. واستغرق هذا العمل نشاط مور الفلسفي في الفترة ما بين عام ١٩٠٣ وعام ١٩١١.

وبعد عام ١٩١١ ازداد اهتمامه بمسائل الاصطلاحات الفلسفية، لأنه رأى أن ثم خلطاً وتشويشاً في المصطلحات الفلسفية الجارية على السنة وأقلام الفلاسفة على نحو أدى إلى اضطراب شديد فيها. ورأى أن بعض التشويش في المصطلح راجع إلى النحو المنطقي للغة العادية. ومن هنا رأى ضرورة الاهتمام بتحليل اللغة العادية. لكن مور لم يذهب مع ذلك إلى ما ذهب إليه أنصار الفلسفة التحليلية المعاصرون الذين زعموا أن مصدر العلة في الفلسفة هو التشويش في الاصطلاحات، وأن العلاج هو في إيضاح المعاني والمصطلحات. غير أنه صار يرى أن غرض الفلسفة الأول لم يعد، كما كان يعتقد في أول مرحلة، هو ملاحظة وتحديد الكيانات التي يتألف منها الكون موضوعياً، بل تحليل التصورات. لكنه في نفس الوقت أدرك أن هذه التصورات تنطوي على موضوعات للملاحظة.

وهذا أدى به إلى ما اشتهر به من دفاع عن الإدراك العام Common Sense. وقد استعمل هذا التعبير للدلالة على أمرين مختلفين وإن كانا مترابطين. فهو يدل أحياناً عن المعقولات التي يؤمن بها كل أو معظم الناس في عصر ما. ويدل في أحيان أخرى على المعقولات التي نميل نحن إليها بالطبع. لكن معنى هذا التعريف للإدراك العام في مدلوليه أن المعقولات تتغير من عصر إلى عصر. ولورد على هذا الاعتراض يقول مور أن ما يعتقد الناس عامة أو غالباً يتأيد بالألوان من اليقين أو ببيان أن مزاعم الشكك متناقضة مع ذاتها. لكنه لم يقرر أنه لأن اعتقاداً ما هو اعتقاد الإدراك العام فإنه هذا نفسه حقيقي لا شك فيه.

والواقعية مأخوذة هنا بالمعنى المقابل للاسمية، أي أن الواقعية هي القول بأن للكليات وجوداً واقعياً حقيقياً (كما هي الحال في تصور أفلاطون للمثل أو الصور). هذه الواقعية الجديدة، تقرر أن الكليات (المعاني الكلية) ليس فقط توجد في الواقع، بل هي أيضاً تشمل كل شيء موجود.

ب) أما المرحلة الثانية، وفيها تكون فكره المستقل، فتتمثل أولاً في كتاب: «المبادئ الأخلاقية» Ethica، ويبحث بعنوان: «تفنيد المثالية»، وقد ظهر سنة ١٩٠٣. وتتمثل فيما تلا ذلك من محاضرات وكتب ومقالات، تذكر منها محاضراته سنة ١٩١٠ - سنة ١٩١١ التي جمعت بعد ذلك بأربعين سنة تقريباً تحت عنوان: وبعض المشاكل الرئيسية في الفلسفة.

وقد حدد مور الموضوعات الرئيسية في الفلسفة بثلاثة: الأول هو أن الغرض الأول والأساسي من الفلسفة هو تحصيل كشف جرد ميتافيزيقي للكون، يبين معظم الأمور المهمة التي نعرف أنها موجودة في الكون، ويكشف على وجه الاحتمال ما عسى أن يكون فيه من أمور لا نعرف على وجه الإطلاق أنها موجودة فيه. والغرض الثاني ايستمولوجي (يتعلق بنظرية المعرفة): وذلك بتصنيف الطرق التي بواسطتها يمكننا أن نعرف الأشياء. والموضوع الثالث للفلسفة هو الأخلاق.

وفي رده على نقاده، الذي نشر في سنة ١٩٤٢ قسم مور الأجزاء التي تناوها في فلسفته إلى ثلاثة: الأخلاق، نظرية الإدراك الحسي، والمنهج. وهنا سنتناول الأقسام التالية في فلسفة مور: المنهج، الميتافيزيقا، نظرية المعرفة بوجه عام، نظرية الإدراك الحسي، الأخلاق.

#### ١ - المنهج:

المنهج الذي اعتمده مور في تفلسفه يقوم على مبدئين: (الأول) هو أن قضايا مثل: «أظن أن كذا...»، و«أنا أدرك س» - تدل على أفعال شعور من ناحية، وعلى موضوعات تتعلق بهذه الأفعال ولكنها مستقلة عنها.

(والثاني) هو أن كل موضوع للشعور هو إما بسيط - وفي هذه الحالة لا يمكن تحليله -، أو مركب، وفي هذه الحالة يكون ذا ماهية قابلة للتعريف يكون بها كذا وليس شيئاً آخر. والمبدأ الأول يجعل من الممكن اكتشاف عدد هائل من الكيانات والخواص بوصفها موضوعات للشعور، أكثر مما

existence، وفي محاضرات عام ١٩١٠ - ١٩١١ يجعل الواقع = الكينونة being. وفي هذه المحاضرات جعل من مقولة «الواقع» خاصية أو صفة، لكنه في «الدراسات الفلسفية» (في المقال المعنون: «تصور الواقع» سنة ١٩١٧) ينكر أن مقولة الواقع خاصية أو صفة. لكنه رفض دائماً دعوى برانلي أن للواقع درجات، وأن أعلى درجات الواقع هو الأبعد عن الأشياء المادية؛ وقرر مور أنه لا يوجد للواقع درجات.

وضمن مقولة الوجود being يميز مور بين ثلاثة موضوعات: الجزئيات، الحقائق أو الوقائع، الكلّيات. ويبدو أنه يقسم الجزئيات إلى خمسة أنواع: الأشياء المادية، معطيات الحس (مثل: بقع صفراء)، أفعال الشعور، مقادير المكان، فترات الزمان. وفيما يتعلق بأفعال الشعور يبدو أنه يميل إلى القول بأن أفعال الشعور توجد في أجسام مادية وأنها خواص لأجسام مادية، وأن كلمة «عقل» mind تدل على ما يشبه البناء المنطقي المؤلف من أفعال للشعور. أما الحقائق أو الوقائع فهي موضوعات المعتقدات الصحيحة وتشمل المعادلات الرياضية - مثل  $2+2=4$  - وإشارات الجمل الإشارية مثل: «وقف نوم إلى يسار هنري».

وقسم الكلّيات إلى ثلاثة أنواع: الإضافات relations الخواص الإضافية relational properties، ما ليس إضافة ولا خاصية إضافية. وقدم أمثلة على هذا النوع الثالث: الأعداد، والصفات أو الموضوعات غير الطبيعية مثل الخير.

ومن بين أنواع الوجود being الثلاثة - أعني: الجزئيات، والوقائع، والكلّيات - الجزئيات هي وحدها التي توجد؛ أما الوقائع facts والكلّيات فهي قائمة هناك are.

(ج) نظرية المعرفة العامة:

كل فعل من أفعال المعرفة يقوم في فعل شعور act of consciousness وفي موضوع متميز من هذا الفعل الشعوري.

وكل فعل من أفعال الشعور لا يوجد إلا طالما وجد ما يناظره من موضوعات. فمثلاً إذا توقفت عن رؤية معطى حسي، فإن رؤيتي لم تتوقف عن الوجود. أما موضوع المعرفة فيمكن أن يوجد وألا يوجد بعد أن يتوقف فعل الشعور المرتبط به.

ومن الممكن أن ننصّر أن فعل الشعور والموضوع المتعلق به يوجدان في مكانين مختلفين. يقول مور في كتابه

أما التحليل الذي قصد إليه مور فيعني في المرحلة الأولى استخراج وتسمية المكونات الأساسية للموضوعات المركبة، ويعني في المرحلة الثانية استخراج وتسمية المكونات الأساسية للتصورات المركبة. وفي رده على نقاده صرح بأنه لم يشتغل مطلقاً بتحليل التعبيرات اللفظية. وهذا ما يميزه كل التمييز عن الوضعية المنطقية والمدرسة التحليلية في أكسفورد اليوم، إذ هؤلاء إنما يعنون بتحليل التعبيرات اللفظية، أما مور فلم يتم إلا بتحليل التصورات concepts وحدها دون الألفاظ والعبارات. صحيح أن مور يتناول أحياناً تحليل اللغة، لكنه لم يجعل من تحليل اللغة غاية في ذاتها، كما يفعل أصحاب الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية، بل فعل ذلك فقط كوسيلة لتحليل التصورات أو الأشياء.

(ب) الميتافيزيقا:

يرى مور أن موضوع الميتافيزيقا هو البحث في التركيب الكلي للكون. وكان يرى أن الأشياء الموجودة في الكون هي بوجه عام على نوعين: أشياء موجودة، وأشياء هناك لكنها ليست موجودة things that simply are but do not exist: والأولى هي التي يتألف منها الكون موضوعياً، والثانية هي مجرد «خيالات» chimeras أو «موضوعات متخيلة» imagin-ary objects ويقترح مور ثلاث وسائل لتمييز الأشياء الموجودة من الأشياء غير الموجودة:

١ - الأشياء الموجودة لها خاصية الوجود، بينما الثانية ليست لها خاصية الوجود.

٢ - بينما الأشياء الموجودة يمكن أن تحمل أسماء، فإن الأشياء المتخيلة يمكن فقط أن توصف بواسطة رموز ناقصة. فمثلاً: «قنطور» centaur ليس اسماً لشيء لأنه لا يوجد شيء يحمل هذا الاسم، بينما «كرسي» اسم. وهو في هذا يأخذ عن رسل التمييز بين الأسماء المحددة والأوصاف المحددة، في نظريته في الأوصاف.

٣ - إذا كان وجود شيء ما هو كونه مُدرَكاً percipi فإنه يكون موضوعاً متخيلاً وليس موجوداً بالفعل. إن لدينا أفكاراً عن القنطور، ولكن لا يوجد قنطور مستقل عن أفكارنا عنه. ولهذا كان القنطور موضوعاً متخيلاً.

ويبحث مور بحثاً مفصلاً فيما يسميه الواقع reality. وفي كتابه «المبادئ الأخلاقية». يجعل الواقع = الوجود

جزئي، أو كلي؟ هل هو شيء مثل اللون (في حالة معطيات الحس البصرية) أو هو من نوع آخر. ويلوح أن رايه النهائي في هذا الموضوع هو أن المعطى الحسي هو بقعة من لون ما: فالبقعة جزئي، تنتسب إلى اللون: وهو كلي من النوع الثالث (أي الذي ليس إضافة وليس خاصة إضافية) على النحو الذي به شيء ما يرتبط بشيء يمتد فوقه.

لكن المسألة الرئيسية التي شغلت مور هي مسألة العلاقة بين معطيات الحواس وبين الأشياء المادية التي تنتسب إليها. بيد أنه لم يصل إلى جواب حاسم في هذه المسألة، بل رأى أن ثم نظريات ثلاثاً مختلفة هي (١) الظواهرية phenomenism - وقد دعاها نظرية مل - رسل - أعني القول بأن الشيء المادي هو بناء منطقي مؤلف من معطيات الحس؛ (٢) نظرية الامتثال؛ (٣) النظرية القائلة بأن معطيات الحس البصرية تتطابق مع أجزاء من سطوح الأشياء المادية.

#### د) الأخلاق:

يرى مور أن الأخلاق علم بعضه وصفي والبعض الآخر يقوم على التعريفات، لكنه يستند أساساً على الملاحظة والاستقراء. والموضوع الأساسي للملاحظة في الأخلاق هو الخير، وهو صفة لا طبيعية nonnatural، ولهذا لا يوجد خلال أجزاء من الزمان ولا يتجلى من خلال التجربة الحسية.

إن الموضوع الأساسي للأخلاق هو الصفة البسيطة أو الكيان المسمى: الخير. ولما كان الخير بسيطاً فإنه لا يقبل التحليل ولا التعريف. وكل ما يستطيع المرء هو أن يقول الخير = الخير.

والمسألة الثانية هي تحديد ما هي الخيرات الممتازة التي يستطيع الناس تحصيلها. لكن لما كان الخير لا يقبل التحليل، لهذا لا يمكن أن تحد - بواسطة التحليل - أي الأشياء خيرات وأما ليست كذلك. ولهذا يرى أن الوسيلة لإدراك الخيرات ليست التحليل، بل الوجدان intuition ولهذا سمي موقفه في الأخلاق وجدانياً intuitionism

وتزداد صعوبة تحديد ما هي الخيرات العظمى بسبب عاملين:

(الأول) هو أن الخيرات هي وحدات عضوية، وخير الكل العضوي ليس مساوياً لمجموع خيرات الأجزاء.

(والثاني) هو أن من الصعب أن نفصل، في إدراكنا

بعض المشاكل الرئيسية في الفلسفة: «أرى من الممكن أن أتصور أن هذا اللون المبيض هو موجود معاً على سطح الظرف المادي... ورؤيتي له هي في مكان آخر - في مكان ما في جسمي...»

وفي تحليله للمعرفة وموضوعاتها، يميز مور بين أربعة معاني للفعل: «أعرف»:

١ - المعنى الأول والأساسي هو المعرفة بواسطة الإدراك المباشر، مثل رؤيتي لبقعة صفراء على الورق الآن.

٢ - والمعنى الثاني هو الإدراك غير المباشر، مثل معرفتي بأنه كانت توجد قبة على هذه المنضدة.

٣ - للمعرفة بالمعنى المحدد knowledge proper مثلما يحدث في الأحوال التي فيها يوجد فعل شعور، وقضية مدركة إدراكاً مباشراً، وهذه القضية صحيحة إذ تعتقد أنها صحيحة، وتعتقد أنها صحيحة بسبب علاقة أخرى أو شرط تعنى به.

٤ - والمعنى الأخير هو المفهوم حين نقول عن شخص ما إنه يعرف شيئاً، مثلاً أنه يعرف جدول الضرب، وإن كان في الوقت الحالي غير شاعر بذلك. وفي مثل هذه الأصول نحن نقصد أن الشخص المذكور قد عرف، بأي معنى من المعاني الثلاثة السابقة جدول الضرب ذات يوم.

وواضح أن مور يرى أن المعرفة لا بد أن تقوم على ملاحظة الموضوعات الموجودة في التجربة. لكنه يختلف عن التجريبيين التقليديين في ثلاثة أمور على الأقل:

١ - فهو يرفض أولاً أن يقتصر معنى التجربة على التجربة الحسية وحدها. إذ يرى أن ثم موضوعات أخرى غير تلك المدركة بالحواس هي موضوعات لأفعال الشعور، مثلاً: الحقائق غير المتزمنة بزمان timeless facts الكليات الإضافية relational universals، الصفات غير الطبيعية nonnatural qualities.

٢ - كذلك قرر مع كنت وجود حقائق تركيبية ضرورية وفي وسعنا إدراك هذه الحقائق.

٣ - وأخيراً لم يكن ميالاً إلى رفض ما كان يبدو له حقيقة معينة - مثل كونه يمسك قلماً - بدعوى أن مباحثه فلسفية أو تحليلات أقل يقيناً لا تنفق معها.

وقد حار مور في تحديد ما هو المعطى الحسي: هل هو

وتعلم أولاً في مدرسة جلدفورد قرب لندن، وبدأ في دراسة الفلسفة، لكن ليكسب معاشه دخل مدرسة المناجم في لندن، ليصير مهندس مناجم. وتصادف أثناء عشاء في المدرسة أن جلس إلى جوار توماس هـ. هكسلي، عالم الحيوان العظيم ومن أكبر أنصار نظرية التطور Thomas H. Huxley، وكان أكبر منه بسبع وعشرين سنة. فسأله هكسلي عن اهتماماته، وعقب تلك نصحه بأن ينهي تعليمه الحالي ثم ينتقل عنه إلى دراسة علم الأحياء (البيولوجيا) على يدي هكسلي في الكلية الملكية للعلوم. فلما أتم مورجن تدريبه مهندساً للمناجم، اشتغل مربياً Tutor، مما مكنه من القيام برحلة في أمريكا الشمالية والبرازيل. وبعد عودته حضر دروس هكسلي. وفي سنة ١٨٧٨ حصل على وظيفة مدرس في كلية (مدرسة ثانوية) روندبوش Rondebosche في جنوب أفريقيا، حيث قام بتدريس الفيزياء، والأدب الإنجليزي والتاريخ الدستوري، لكنه استغل أوقات فراغه في دراسة الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي.

وفي سنة ١٨٨٣ عين مدرساً للجيولوجيا وعلم الحيوان في كلية برستول بانجلترا، وقد بقي هناك حتى نهاية حياته التدريسية. وفي سنة ١٨٨٧ عين ناظراً للكلية، وهو يساوي منصب أستاذ ذي كرسي. وفي سنة ١٩١٠، حين صارت الكلية جامعة، صار نائباً لرئيس الجامعة، لكنه عاد إلى التدريس بعد عام واحد، فقام بتدريس علم النفس والأخلاق. وفي سنة ١٩١٩ أحيل إلى التقاعد، وعاش في إحدى ضواحي برستول متفرغاً للكتابة. ثم انتقل أخيراً إلى مدينة هاستنجز Hastings على ساحل المانش حيث توفي في سنة ١٩٣٦.

وخلال خمسين عاماً من إقامته في برستول عني لويد مورجن - إلى جانب التدريس في الكلية الجامعية - بدراسة سلوك الحيوان، وكتابة العديد من الأبحاث، وتأليف ما يقرب من اثني عشر كتاباً عن التطور، خصوصاً تطور العقل، وعن علم النفس المقارن، وخصوصاً انبثاق الوعي ونمو الذكاء على مدى التطور.

كان لويد مورجن يلاحظ سلوك الحيوان، ويعنى بقراءة ما كتبه سائر علماء الحيوان في هذا المجال، ويقوم ببعض التجارب الصغيرة على كلابه وقططه ويطه وفراخ دجاجه، ابتغاء التفرقة بين السلوك الغريزي والسلوك المكتسب في الحيوان. وكتب في موضوعات: الغريزة، التعلم، الذكاء

ووجدانائنا، بين الوحدات الجامعة wholes العضوية وبين نتائجها.

وانتهى إلى أن «من الواضح أن العواطف الشخصية والاستمتاع الحسية تشتمل في الغالب على أعظم الخيرات التي نعرفها».

#### مؤلفاته

- Principia Ethica. Cambridge, 1903.
- Ethics. London and New York, 1912.
- Philosophical studies, London and New York, 1922.
- ويحتوي على مقالات وأبحاث منها: «تفنيد المثالية» (١٩٠٣)؛ «وضع معطيات الحس» (سنة ١٩١٤)؛ «تصور الواقع» (سنة ١٩١٧)؛ «بعض أحكام على الإدراك الحسي» (سنة ١٩١٨)؛ «العلاقات الخارجية والداخلية» (سنة ١٩١٩).
- The Philosophy of G.E. Moore. P.A. Schilpp ed. Chicago and Evanston, Illinois 1942; 2<sup>nd</sup> ed. New York, 1952.
- ويحتوي على «ترجمة ذاتية» وعلى «رد على نقادي». وفي الطبعة الثانية «إضافة إلى ردي».
- Some Main problems of philosophy. London and New York, 1953.
- Philosophical Papers. London and New York, 1959.

#### مراجع

- Schilpp, P.A., ed: The Philosophy of G.E. Moore.
- Urmson, J.O.: Philosophical analysis. Its Development between the two World Wars. Oxford, 1956.
- White, A. R.: G.E. Moore. A Critical Exposition.. Oxford, 1958.

#### مورجن (كونوي لويد)

#### Conoy LLOYD Morgan

عالم نفسي بريطاني، من المؤيدين لنظرية التطور. ولد لويد مورجن في سنة ١٩٥٢ في لندن.

وأراغ دي مورجن إلى وضع مذهب شامل في الكون .  
وقد جعل له أربعة شروط مفترضة مقدما هي :

أ- وجود عالم فزياتي لا يتوقف - بأي حال من الأحوال - على كونه مُدركاً أو مُفكراً فيه بواسطة عقل انساني أو تحت انساني .

ب- هَرَم التطور المنبثق ترتيب تدرجي مؤلف من أنواع من العلاقات .

ج- هناك ارتباط كلي متبادل بين الأحداث الفزيائية والأحداث النفسية .

د- يتجلى في كل مكان نشاط موجّه ، يسمى أيضاً « الروح » أو « الله » ، حتى إن « جماع مجزى الأحداث المندرجة تحت التطور هو تعبير عن غرض الله » .

#### مؤلفاته

- Animal life and Intelligence. London, 1890
- An introduction to Comparative Psychology. London, 1894.
- Habit and Instinct. London and New York, 1896
- Animal Behaviour London, 1900
- Instinct and Experience. London, 1912
- Emergent Evolution London 1923.
- Life, Mind and Spirit. London, 1926
- Mind at the Crossways. London, 1929.
- The Animal Mind, London and New York, 1930.
- The Emergence of Novelty. London, 1933

#### مراجع

- William Mc Dougall: Modern Materialism and Emergent Evolution. London, 1929

مورس (توماس)

Thomas Morus ( More )

مفكر سياسي انجليزي ، اشتهر بكتابه « يونوبيا » في النظام الأمثل للدولة .

الترباط ، المحاكاة ، التفكير البرهاني ، وادراك العلاقات . وكان حريصاً على اجراء المقارنات بين الحيوان بعضه وبعض ، وبين الحيوان والانسان ، خصوصاً فيما يتعلق بتطور الذكاء .

وقد اتخذ مبدأ لبيان درجة الذكاء في سلم التطور عرف باسم « قانون ( أو قاعدة ) لويد مورجن » L Loyd Morgans و Canon ومفاده ما يلي : « لا يحق لنا ، في أية حال ، أن نفسر فعل حيوان بأنه ناتج ممارسة ملكة نفسية أعلى ، إذا كان من الممكن تفسيره بأنه ناتج ممارسة ملكة نفسية أدنى في السلم النفساني » .

كذلك اشتهر بتأييده لمذهب التطور المنبثق emergent evolution . ومفاد هذه النظرية ، التي قال بها أيضاً صمويل الكسندر ، أن عملية التطور لم تكن متصلة باطراد ، كما زعم دارون ، بل تتضمن ، بين الحين والحين ، انفصالات كبيرة أو « نقاط تحوّل حاسمة » . ونقط التحول هذه تتمثل في الظهور المفاجيء لبعض الظواهر التي يسميها دي مورجن : « منبثقات » emergents ، وهو لفظ استعمله G. H. Lewes في سنة ١٨٧٤ . « والمنبثق » emergent :

- ١ - يجري على ما يوجد من قبل ؛
- ٢ - وينشأ مما هو موجود من قبل ؛
- ٣ - أو يكون أحياناً جديداً حقاً في تاريخ الكون ؛
- ٤ - أو يحدث على نحو لا يمكن التنبؤ به من حيث المبدأ ، لأنه لا يتطابق مع أية قوانين عامة .
- ٥ - ولا يمكن تفسيره على نحو طبيعي ، بل علينا أن نقبله « بشفقة طبيعية » with natural piety

والمنبثقات المتوالية في مدى التطور هي علامات على مراحل التقدم من الأدنى إلى الأعلى .

وبالجملة فإن التطور يقوم على الوثبات ولا يكون متصلاً مطرداً .

وقد فصل دي مورجن نظريته هذه في التطور في أربعة مؤلفات هي :

- ١ - « التطور المنبثق والحياة » ، وكان في الأصل محاضرات ضمن سلسلة جفورد المشهورة .
- ٢ - « الحياة والعقل والروح »
- ٣ - « العقل في مفترق الطرق »
- ٤ - « انبثاق الجنة » .

العالم . وفي هذه الفترة نجد نظائر لثُل هذا اللون من التأليف كثيرة : منها كتاب « الأمير » لكيافلي ، وكتاب « نظام الامارة المسيحية » لارزمس ، وأولهما لم يكن قد نشر بعد ، والثاني كان قد نشر قبل ظهور « يوتوبيا » .

وكتاب « يوتوبيا » عبارة عن حوار بين المؤلف الذي اتخذ اسماً مستعاراً هو Petrus Aegidius ( وكان كاتباً في مدينة أنتفرب في بلجيكا والتقى به مورس في أثناء سفارة قام بها في بلاد الفلاتر ببلجيكا ) وبين بحار خيالي أطلق عليه اسم Hythlodius زعم أنه كان مرافقاً لامريجو فسبوتشي Amerigo Vespucci ( أحد مكتشفي أمريكا ومن اسمه أخذ اسمها ) ، وأنه زار جزيرة نائية في وسط المحيطات تدعى « يوتوبيا » . وهو في حوار مع بطرس ايجيدس يروي ما شاهده في هذه الجزيرة من نظام سياسي واقتصادي . والجزيرة تسمى Utopia ( وهي مؤلفة من كلمتين يونانيتين : U = نقي ، = مكان ، أي لا في مكان ) وملكها يدعى Utopos, τοπος ( = لا في مكان ) - وقد سماها هكذا لكي يتحرر من كل الأحوال التاريخية ، وينشئ دولة المثلى هذه على أسس عقلية محضة .

والأساس الأول الذي تقوم عليه هذه الدولة هو إلغاء الملكية الخاصة ، وجعل الأموال كلها ( عقارية وغير عقارية ) ملكاً مشاعاً لجميع أبناء الدولة وأفراد الشعب . وهذا الشعب يعيش أساساً على الزراعة ، ويكملها الحرف الضرورية لها . والعمل اجباري على الجميع ، ومدة العمل ست ساعات يومياً : وهكذا يبقى للناس متسع من الوقت للاشتغال بالأمور الروحية . ويجب على كل مواطن في هذه الدولة - رجلاً كان أو امرأة - أن يتعلم حرفة يدوية وأن يمارسها في دورات منظمة .

وعن طريق نظام انتخابي معقد يختار القادة والأمير ( الحاكم للدولة ) ، وكذلك يختار من سيكرومون أنفسهم للعلم .

والملكية المشتركة لا تشمل فقط أدوات الانتاج بل وأيضاً أدوات الاستهلاك .

ونظام الأسرة محافظ عليه - بعكس ما في سائر اليوتوبيات - وعلى أساس الزوجة الواحدة . والأسرة ، وفي بعض الأحوال الأسرة الكبيرة ، هي في نفس الوقت نوع من الجماعة الانتاجية . وما تنتجه كل أسرة يُسلم إلى المخازن

ولد في لندن في ٦ ( أو ٧ ) فبراير سنة ١٤٧٨ . وكان أبوه جون مور قاضياً في المحكمة العليا King's Bench . ودخل جامعة اكسفورد وهو في الرابعة عشرة ، حيث اتقن اللاتينية وربما شدا حظاً من اليونانية . ثم درس القانون في لندن وصار محامياً . وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين ارزمس عالم الانسانيات الشهير الذي زار انجلترا لأول مرة في سنة ١٤٩٩ وشغلقته الأمور الدينية إلى حد أن فكر - وكان كاثوليكياً - في الانخراط في سلك الرهبنة . وقام بالقاء محاضرات في لندن عن كتاب أوغسطين : « مدينة الله » ، وربما كانت فيها البذور الأولى لما أودعه بعد ذلك من أفكار في كتابه « يوتوبيا » Utopia ( سنة ١٥١٦ ) . وفي تلك الأثناء اتقن اللغة اليونانية وصار من كبار رجال النزعة الانسانية في انجلترا .

وفي سنة ١٥٠٤ انتخب عضواً في البرلمان الانجليزي الذي دُعي من جديد آنذاك ، ونجح في كبح المطالب المالية التي طالب بها الملك هنري السابع . لكن ذلك جرّ عليه سخط الملك ، مما جعله يفكر في الرحيل عن انجلترا . لكن الملك هنري السابع توفي في سنة ١٥٠٩ . ولكن ذلك لم يمنعه من القيام بالسفر إلى خارج انجلترا ، فزار جامعتي باريس ولوفان . وفي سنوات شبابه هذه ألف مسرحيات صغيرة ، وقصائد واهاجي ، لم يبق لنا منها إلا بعضها .

ولما تولى هنري الثامن العرش في سنة ١٥٠٩ استدعى إليه مورس وكانت تربط بينهما صداقة . ورفاه إلى رتبة فارس وعينه عضواً في المجلس الخاص Privy Council ، ثم وزيراً للمالية ، ورئيساً Speaker لمجلس العموم ، ومستشاراً للوقية لانكستر ، وأخيراً في سنة ١٥٢٩ عينه Lord Chancellor

لكن بعد ذلك بثلاث سنوات وقع بينه وبين الملك هنري الثامن خلاف شديد لأنه كان يرى أن طلاق الملك كان غير شرعي فاضطر إلى التخلي عن منصبه . وأقيمت ضده دعوى الخيانة العظمى ، فحوكم طويلاً إلى أن حكم عليه بالاعدام شتقاً ونفذ الحكم في برج لندن في ٦/٧/١٥٣٥ .

والكتاب الذي حقق له شهرة عظيمة لا تزال باقية حتى اليوم هو كتاب « يوتوبيا » Utopia الذي ظهر سنة ١٥١٦ وفيه يتصور بخياله نوعاً من الحكم ، ودستوراً وتركيباً للدولة يختلف تمام الاختلاف عما عرفه في انجلترا وسائر دول



المثل . ومن ناحية أخرى نجد في هذا الكتاب دفاعاً عن القيم المسيحية وخصوصاً ما يتعلق منها بالضمير . لأن واضعي اليوتوبيات يؤسسون قلوبهم على العقل وحده . ( مادة Morus في Handwörterbuch der Sozialwissenschaften ج ٧ ص ٤٥٨ ، جيتجن سنة ١٩٦١ ) .

### مراجع

- Frank Sullivan: Thomas More, a First Bibliographical Notebook. Los Angeles, 1953.
- Karl Kantslky: Thomas More and seine Utopia. Stuttgart (1888).
- W. E. Chambell: More's Utopia and His Social Teaching. London, 1930.
- Gerhard Möbus: Macht und Menschlichkeit in der Utopia des Thomas More. Berlin, 1953.
- Thomas More: Politik des Heiligen. Geist und Gesetz der Utopia des Thomas More. Berlin, 1953.

### موليشوت

#### Jacob Moleschott

عالم فسيولوجي وفيلسوف مادي؛ ويعتد من كبار مؤسسي المذهب المادي في القرن التاسع عشر. ولد في سنة ١٨٢٢. وعلم في جامعة هيدلبرج الطب، وعاد إلى وطنه هولندا فمارس مهنة الطب في اوترخت ثم عاد إلى هيدلبرج مدرساً للفسيولوجيا. لكن آراءه المادية في كتابه «دورة الحياة» (مايتس سنة ١٨٥٢) واتجاهه المادي المغالي أرغمه على الذهاب إلى تسوروش (زيورخ، في سويسرة). ثم صار أستاذاً للفسيولوجيا في روما.

وكانت قد وقعت بينه وبين ليبيج Liebig الفسيولوجي ذي النزعة الدينية مساجلات حادة، إذ هاجم ليبيج قولة موليشوت المشهورة: «لا فكر بلون فصفور».

كان موليشوت يرى، مثل لودفيج بوشنر Büchner أن القوة والمادة لا تنفصلان الواحدة عن الأخرى. إن القوة خاصة من خواص المادة. ولا مادة بلا قوة. كما أنه لا قوة بلا مادة. ولهذا رفض كل مادة تعزو إلى المادة وجوداً مستقلاً

العامه ( للدولة ) . ويحصل كل رب أسرة من هذه المخازن العامة على ما يحتاج إليه لنفسه ولأسرته . ولهذا لا يحتاج المواطنون إلى النقود للتبادل في الداخل ، لأنه لا يوجد سوق داخلية للتبادل . وإنما يحتاج إلى النقود من أجل التبادل مع الخارج فقط ، لأن الانتاج الذي لا يحتاج إليه في الداخل ، أي الذي يبقى في المخازن العامة ، سيباع في الخارج ، إذا لم يوزع على الفقراء في الخارج مجاناً . والمال المتحصل من البيع للخارج يستخدم لشراء العبيد والاتفاق على الجنود المرتزقة في حال الحرب . وإذا تألفت الأسرة الواحدة من أكثر من ستة عشر بالغاً ، وزع أفرادها الزائدون على الأسر التي يقل أفرادها البالغون عن عشرة . وإذا أقرط عدد السكان في الدولة كلها ، أرغم قسم منهم على الهجرة واستعمار بلاد جديدة .

والنساء متساويات في الحقوق والواجبات مع الرجال مساواة تامة ، حتى في امكانيات التعليم وتولي الوظائف واحتراف المهن .

أما العبيد فيتكونون من أسارى الحروب ، ومن المجرمين ، ومن الرجال المشتريين من بلاد أخرى ممن حُكِم عليهم بالإعدام .

وقد كثر الجدل حول ما قصده توماس مورس ( مور ) من هذا الكتاب . والرأي الأرجح هو ما قاله Friedrich Lütge من « أن من المؤكد أن كتاب « يوتوبيا » Utopia ليس كتاباً قصد به إلى الدعوة إلى اقامة دولة شيوعية ، كذلك ليس من المقبول أن تعتد توماس مورس من بين الداعين إلى ايجاد نظام شيوعي في المجتمع . وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب مكتوب باللغة اللاتينية ولم يترجم إلى اللغة الانجليزية إلا في سنة ١٥٥١ ( أي بعد وفاة المؤلف بعشرين عاماً ) ، ومعنى هذا أن مؤلفه لم ينشد لكتابه الانتشار الواسع والذيعور الكبير بين مختلف طبقات الشعب . وإنما هدف الكتاب مزدوج : فهو يحتوي على نقد حي - يكاد يكون غير مستور - موجه ضد الأوضاع السياسية والاقتصادية في انجلترا في ذلك الزمان ، وضد استفحال قوة الأمراء ، وضد اساءة التصرف في الأمور المالية والقضاء ، كما أدركها ارزمنس من قبل وعبر عنها . إننا بإزاء كتاب ينبغي أن يفهم على أساس روح النزعة الانسانية Humanismus التي كانت ترى أن ابراز العيوب والمشاكل في الدول التاريخية ( أي التي ظهرت فعلاً على مدى التاريخ ) ينبغي أن يتم بالمقارنة مع ما ينبغي أن تكون عليه الدولة



٢ - « شروح على الجزء الأول من القديس توما » ، سنة ١٥٩٢

Commentaris in Primam Partem divi Thomae

٣ - « في القانون والنظم » ، في ٦ مجلدات ، سنة ١٥٩٣ - ١٦٠٩ .

De jure et institutia

ونظريته في التوفيق بين العلم الإلهي السابق وحرية الإرادة الانسانية سميت باسمه : الموليناوية : Molinisme والقضيه هي . كيف تتفق حرية الارادة الانسانية مع تقدير الله السابق ؟ وتشتمل على ثلاث صعوبات هي :

١ - كيف يمكن التوفيق بين علم الله السابق بما سيقع من أفعال الانسان ، وهو علم ثابت لا يتغير ، وبين حرية ارادة الانسان في أن تختار من الأفعال ما تشاء ؟

٢ - إذا كانت كل أفعالنا الحرة صادرة عن الله بوصفه الملة الأولى ، فكيف يمكن إرادتنا الحرة أن تكون علة حرة ، أو كيف يمكن أن تعزى أفعالنا الشريرة إلينا نحن ؟

٣ - إذا كان الله يريد حقاً نجات كل الناس ، فكيف نفسر هذه الحقيقة الرهيبة وهي أن الكثيرين يموتون دون أن يتلقوا نور الإيمان ولا يبلغون النجاة الأبدية ؟ .

وهي مشاكل موجودة في اليهودية والمسيحية والإسلام على السواء . وفيما يتصل بالمسيحية ، حاول اللاهوتيون المسيحيون الجواب عن هذه المشاكل ، فانقسموا حيالها إلى مذهبين : مذهب توما ، ومذهب مولينا . وقد اتبع مذهب توما الدومينيكان ، واتباع مذهب مولينا اليسوعيون .

وحاصل المسألة هو أن علم الله ، إذا نظر إليه في ذاته ، فإنه واحد لا يقبل الانقسام ؛ وإذا نظر إليه من حيث الموضوعات التي يتناولها علمه ، فإنه ينقسم وفقاً لتنوع الموضوعات : بين نظرية وعملية ، ضرورية وحرية ، الخ ، وينقسم علمه أيضاً إلى « علم الرؤية » scientia visionis وعلم الفهم البسيط scientia simplicis intelligentiae والأول يتعلق بالأمور التي وجدت ، وتوجد وستوجد ، والثاني يتعلق بالامكان المحض أي بالموضوعات التي لم توجد ، ولا توجد ، ولن توجد . (راجع « الخلاصة اللاهوتية » للقديس توما ج ١ ، المسألة ١٤ ، المادة ٩) . فإن صح هذا التقسيم فلا بد أن الله يعلم الفعل الحر بعلم الرؤية . ويرى توما أن هذا النوع من

عن القوة . ورأى أن المخ هو مصدر الشعور . وأكد أن العوامل الفزيائية هي العوامل الكبرى في الحياة الانسانية .

وكل معرفة نفترض من يعرف ، أي علاقة بين الشيء ومن يلاحظه . ومن يلاحظ يمكن أن يكون حشرة فالمعرفة لا تقتصر على الانسان . وكل وجود يتحقق بصفاته ، ولا صفة توجد إلا بواسطة علاقة .

#### مؤلفاته

- Der Kreislauf des Lebens. Maing, 1852
- Die Physiologie der Nahrungsmittel. Darmstadt, 1850
- Physiologie des Stoffwechsels in Pflanzen and Thieren. Erlangen, 1851.
- Eine Physiologische Sendung. Giessen, 1864.

#### مراجع

- Frederik A. Lange: Geschichte des Materialismus, 2 Bde, Iserlohn, 1866.
- John T. Merz: A History of European Thought in the Nineteenth Century. Edinburg, 1903.

#### مولينا

##### Luis de Molina

لاهوتي يسوعي اسباني ، اشتهر بنظرية خاصة في العلاقة بين علم الله السابق وبين حرية الارادة في الانسان .

ولد في قونقه Cuenca ( في إقليم فشتاله باسبانيا ) في سبتمبر سنة ١٥٣٥ . دخل الطريقة اليسوعية في كويمبرا Coimbra ١٥٥٣ ، ودرس الفلسفة واللاهوت هناك من سنة ١٥٥٤ إلى سنة ١٥٦٢ ثم في ايفورا Evora (١٥٦٢-٦٣) . وتولى تدريس الفلسفة في كويمبرا (١٥٦٣-١٥٦٧) وتدريس اللاهوت في ايفورا (١٥٦٨-٨٣) ، وأمضى بقية حياته في الكتابة ، حتى توفي في مدريد في ١٢ أكتوبر سنة ١٦٠٠ .

#### وأهم مؤلفاته :

- ١ - « اتفاق حرية الإرادة مع موهبة الفضل الإلهي » ، سنة ١٥٨٨ - ١٥٨٩ .

Concordia liberi arbitrii cum gratiae donis

مقدماً على أنه مستقبل . لكن هذا مستحيل أيضاً ، أعني أن نتصور قراراً مستقبلاً يصدره الله ، لأن قرارات الله أزلية ، وبالتالي لا علاقة لها بماضٍ ومستقبل .

كذلك يقول مولينا والموليناريون إن المدد الإلهي لإحداث الفعل لا يسبق فعل الإرادة الحرة ، كما ذهب إلى هذا توما ومشايخه ، بل يتم في نفس الوقت ، كعلة جزئية ، من أجل أحداث نفس الفعل ونفس الأثر . وهو ما يسمونه بـ « المعازنة المتوافقة » ، وهي تتم إلى جانب الفعل وتتصافر مع فعل الإرادة .

وفيما يتصل باللفظ الإلهي يتفق مولينا مع توما ضد البيلاجيين في توكيد أن اللفظ الإلهي مجازي محض ، أي لا يتوقف على أفعال الإنسان ، بل الله يلطف بمن يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، دون اعتبار للأعمال من حسنات وسيئات . وإنما يختلف التومايون والموليناريون في طبيعة كل من اللطف الكافي واللفظ الفعال ، اللذين إليها يتقسم اللفظ الإلهي . إذ يرى التومايون أن اللطف الفعال يختلف جوهرياً - ab intrinseca - عن اللطف الكافي . فاللطف الكافي يهب القدرة المباشرة على إنتاج فعل منج ، ويسمو بالإرادة إلى مستوى فوق طبيعي ؛ لكن لأحداث فعل بالفعل ، فلا بد من لطف فعال . وهكذا فإن اللطف الكافي يهب القدرة posse بينما اللطف الفعال يهب الانجاز agere . أما الموليناريون فيرون أن اللطف الواحد يمكن أن يكون كافياً أو فعالاً : إنه يبقى كافياً إذا قاومت الإرادة ؛ لكنه يصير فعالاً ، إذا وافقت الإرادة . ولهذا فإن اللطف فعال لا بجوهره ab intrinseca ، بل خارجياً ab extrinseca بواسطة موافقة الإرادة .

تلك هي خلاصة آراء مولينا في هذا الباب . وقد زعم أنه لو كانت هذه النظرية التي قال بها معروفة من قبل لما وجد مناهج بلاجيون ، ولما أنكر لوتر حرية الإرادة ، ولوافق أوغسطين وسائر آباء الكنيسة على نظريته هذه في التوفيق بين علم الله السابق وبين حرية الإرادة الإنسانية . لكن الذي حدث هو أن نظرية مولينا لم توقف تعاليم ميخائيل بايوس Baius ، ولم تمنع قيام مناهج جانسينوس Jansenius ، بل على العكس من ذلك أدت إلى مجادلات حادة وعقيمة بين اللاهوتيين المسيحيين في القرون التالية ، إذ أثارت ثائرة أتباع توما وأوغسطين ، حتى رفع الأمر إلى البابا كليمان الثامن ، فأصدر أمراً في سنة ١٥٩٨ بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق اسمها Congregatio de Auxiliis ، انعقدت جلساتها ١٨١

العلم يتضمن بالضرورة فعلاً صادراً عن إرادة الله أو قراراً إلهياً . وإذن فإن الفعل الحر المستقل إنما يعلمه الله بفضل قراره ، ولهذا فإنه لا يمكن وجود فعل حر إلا إذا قرر الله وجوده .

فجاء مولينا وأنكر رأي توما هذا لأنه يفسد حرية الإرادة الإنسانية . وقال : لا بد من العثور على طريقة بها يعلم الله الفعل الإنساني الحر قبل القرار الإلهي ، ومستقلاً عنه . وثم نوع ثالث من الموضوعات ، هكذا يقول مولينا ، لا هو بالامكان المحض ولا يرجع إلى صنف الموضوعات التي لها وجود بالفعل في زمان ما . هناك الحادث المستقبل الذي يمكن أن يوجد لو تحققت شروط معينة ، لكن هذه الشروط لن تحقق . ويندرج تحت هذا النوع كل الأفعال الحرة التي ، وإن لم يقدر لها الوقوع ، ستوجد لو تحققت شروط معينة . ويسمى هذا النوع باسم الحوادث المستقبلية المشروطة futura conditionata والله يعلمها بعلم وسط scientia media ، هو علم وسط بين علم الرؤية وعلم الفهم البسيط . وعلى الرغم من أن الحوادث المشروطة المستقبل لن يقع أبداً ، لأن الشروط لتحقيقه لن تتوافر ، فإن العلم الوسط ، بما هو كذلك ، يتخس النظر عن تحقق أو عدم تحقق هذه الشروط . ومن هنا فإن الله ، بالعلم الوسط ، يستكشف ويعلم بيقين معصوم ، ما ستفعله الإرادة الحرة الإنسانية بحريتها القطرية ( تفعل هذا أو ذاك ، توافق أو لا توافق على فعل كذا ، الخ ) إذا وضعت في هذه الظروف أو تلك . مثلاً : إذا أراد الله من بطرس (شخص ما) أن يوافق على فعل كذا ، فإنه يقرر أن يضع بطرس في هذه الظروف أو تلك ، ويقرر ، شرطياً ، أن يهب عوناً للفعل الذي اختارته إرادة بطرس الحرة . وفي هذا القرار ، المصاحب لعلم الله السابق بالفعل الحر ، يعلم الله الموافقة المستقبلية المطلقة دون مساس بحرية الإرادة ؛ لكن يقين علم الله يرجع ، لا إلى التأثير الجوهري لقراره ، بل إلى العلم الوسط الذي يدرك الموافقة قبل القرار .

وخلاصة هذا الرأي أن علم الله ينفذ في أعماق عمائق الإرادة ويرى ما ستفعله قطعاً في هذه الظروف أو تلك .

لكن أليس في هذا أيضاً إنكار لحرية الإرادة ، ما دام علم الله بخفايا الإرادة علماً يقينياً ، وبالتالي علماً بالعلة التي سيستج عنها بالضرورة فعل مجرد ؟ .

لهذا جاء سوارث ، اللاهوتي اليسوعي المعاصر له ، فقال إن الله يعلم الفعل الحر المستقبل في قراره منظوراً إليه

علمان من أعلام التبعة الانسانية هما جورج بوكاتن G. Buchanan ودي موريه M. A. de Muret. وبعد ذلك درس القانون ، ربما في تولوز ، من سنة ١٥٤٦ إلى سنة ١٥٥٠ ؛ وفي سنة ١٥٥٧ أصبح مستشاراً في برلمان ( محكمة ) بوردو . والمستشار conseiller هو المحامي في ذلك الوقت . وهناك تعرف إلى Etienne de la Bœtie . وكان محامياً هو الآخر ، فاعتقدت بينهما صداقة حميمة وصفها بحرارة في إحدى مقالاته وعنوانها : « في الصداقة » . وتوفي لا بوئي في سنة ١٥٦٣ فتأثر مونتاني لذلك تأثراً بالغاً ، وتولى نشر مؤلفات صديقه الراحل ، وذلك في سنة ١٥٧١ .

وفي سنة ١٥٦٩ نشر ترجمته لكتاب : « اللاهوت الطبيعي » تأليف ريموند سيوند Raimond Sebond أو Sabund ( المتوفى سنة ١٤٣٢ ) بتكليف من والده .

وفي سنة ١٥٦٨ توفي أبوه . وفي سنة ١٥٧٠ استقال من منصبه الرسمي . وفي سنة ١٥٧١ أقام في قصر مونتاني . وبدأ سنة ١٥٧٢ في كتابة مؤلفه الذي خلد به ذكره ، « المقالات » Essais ، واستمر يكتب حتى وفاته .

ومنحه هنري دي نافار لقب سيد لغرفته في سنة ١٥٧٧ . وقام بالوساطة بينه وبين البلاط الملكي ، ورضحه لهذه المهمة كونه كاثوليكياً معتدلاً ومتسامحاً .

ومن سبتمبر سنة ١٥٨٠ حتى نوفمبر سنة ١٥٨١ قام برحلة طويلة في ألمانيا وإيطاليا وصفها في كتاب بعنوان : « يوميات رحلة » Journal du voyage .

وصار عمدة لمدينة بوردو من سنة ١٥٨١ إلى سنة ١٥٨٥ ، وكان أبوه قد شغل هذا المنصب من قبل .

ولما كان في باريس في سنة ١٥٨٨ للإشراف على طبع « المقالات » طبعة جديدة ، قبض عليه رجال العصاة Ligueurs متهمين إياه بأنه عميل لهنري دي نافار ، لكن أفرج عنه بعد أن قضى ساعات قليلة في سجن الباستيل .

وفي السنوات الأخيرة من حياته نجم بصحبة ماريه دي جورنيه Marie de Gournay ( ١٥٦٥ - ١٦٤٥ ) التي تبناها على أنها « بنت مصاهرة » fille d'alliance ، وهي التي أشرفت على نشر مؤلفاته بعد وفاته ودافعت عن ذكره . وتوفي مونتاني كاثوليكياً مؤمناً في ١٢ سبتمبر سنة ١٥٩٢ .

مرة لمناقشة نظرية مولينا هذه ! وانتهت اللجنة بإدانة هذه النظرية ثلاث إدانات متوالية ، وفي ١٣ مارس سنة ١٥٩٨ اتخذوا قرارهم النهائي بضرورة إدانة مذهب مولينا دون أي تحفظ . وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٦٠١ أدانوا ٢٠ قضية مأخوذة من كتاب Conardia . واضطر المرشد العام لليسوعيين واسمه Acquaviva إلى إصدار قرار في ١٤ ديسمبر سنة ١٦١٣ فرض فيه على اليسوعيين أن يأخذوا بمذهب سوارث بدلاً من مذهب مولينا .

### مراجع

- H. Gayrand: Thomisme et Molinisme. Toulouse, 1889 - 92.
- F. Stegmüller: Geschichte des Molinismus, I. 1935
- F. Stegmüller: Zur Literaturgeschichte der Philosophie und Theologie an den Universitäten Evora and Coimbra in XVI. Jahrhundert. 1931

### مونتاني

#### Michel Eyquem de Montaigne

أخلاقى فرنسي شهير وكاتب ممتاز .

ولد في قصر مونتاني Montaigne ( ويقع بين بوردو وبريجيه ) في ٢٨ فبراير سنة ١٥٣٣ . وينحدر أبوه ، بيير إيفيم Eyquem من أسرة من التجار في بوردو أثروا ثراء كبيراً واشتروا اقطاعية Seigneurie مونتاني مع لقب نبالتها . أما أمه ، انطوانيت دي لوب ( لوبث ) فتتحد من أسرة يهودية إسبانية تحولت إلى الكاثوليكية منذ وقت طويل ، وكان منها فروع في أنتورب ( بلجيكا ) وأسبانيا . أما اخوه تومادي بورجار Tho-mas de Beauregard mas de و أخته حنه فقد تحولاً إلى البروتستنتية ؛ و بنت أخيه ( أو أخته ) حنه دي لستوناك Jeanne de Leston nac ( ١٥٥٦ - ١٦٤٠ ) فترهت وصارت رئيسة دير للراهبات ، وقد قنتها ( أو طوتها ) الكنيسة في سنة ١٩٤٩ . أما صاحبنا ميشيل فاستمر كاثوليكياً مثل أبويه .

وقد عني أبوه بتربيته عناية فائقة ، فوفر له مدرساً ألمانيا لا يعرف الفرنسية علمه اللاتينية حتى صار يتكلمها مثل لغته الأصلية الفرنسية . وفي سن السادسة أرسل به إلى كوليج دي جويين Guyenne في مدينة بوردو حيث كان يدرس فيها

## آراؤه

## مونتسكيو

**Charles de Secondat, Baron de la Brède et de Montesquieu**

مفكر سياسي واجتماعي ، ومؤرخ .

وهو ينحدر من أسرة فرنسية نبيلة عريقة في نبالة السيف ونبالة القضاء . ولد في قصر حصين بالقرب من لايريد la Brède ( بالقرب من بوردو ) في ١٨ يناير سنة ١٦٨٩ ، وتوفي في باريس في ١٠ فبراير سنة ١٧٥٥ .

وفي سن الحادية عشرة أرسل إلى مدرسة جويي Juilly التي كانت تديرها جماعة الأوراتور الدينية ، فنال تحصيلاً جيداً في اللاتينية ، مما هبأه للكتابة عن تاريخ الرومان ودراسة القانون الروماني .

وفي سنة ١٧٠٥ عاد مونتسكيو إلى بوردو للدراسة القانون . وحصل على اجازة القانون في سنة ١٧٠٨ . وفي الفترة من ١٧٠٩ إلى ١٧١٣ أقام في باريس للتدرب في شؤون القانون . فأتاحت له هذه الإقامة التعرف إلى طليعة المفكرين آنذاك مثل Fréret ، ولاما Abbé Lama ، وبولغليه Bolain-villiers وما توفي عمه في سنة ١٧١٦ ، ورث مونتسكيو ثروة كبيرة وأرضاً زراعية ومنصباً Président à mortier في برلمان جويين Guyenne . وفي أثناء إقامته في بوردو شارك في أعمال أكاديمية بوردو . وبدأ في كتابة « الرسائل الفارسية » التي نشرت غفلاً من اسم المؤلف في أمستردام سنة ١٧٢١ . فلقبت نجاحاً منقطع النظير ، ولا تزال تعد من روائع الأدب الفرنسي . وفيه كشف عن ذكاء خارق ، وبراعة في التهكم ونقد الأوضاع الاجتماعية ، وفيها يصف الأحوال في فرنسا كما يراها سائحان فارسيان قد خلوا من المعاني السابقة ومن الأحكام المقترنة بالتعود . والمغزى المستخرج هو تسمية كل الأنظمة . وفيها نجد أيضاً بذور الأفكار التي نماها مونتسكيو فيما بعد . مثل أن الناس يولدون دائماً في مجتمع ، وبهذا فإنه لا معنى لمناقشة أصل المجتمع والحكومة ، وأن المصلحة الذاتية ليست الأساس الكافي للأنظمة الانسانية كما زعم هوبز ، وأن إمكان الحكم السليم يعتمد على التربية والقدرة ، وبالجملة على الفضيلة المرثية . وكشف عن أن للموجدانات الانفعالية دوراً كبيراً في تصرفات الناس ، وأن الحسد والشهوة للتسلط هما من بين المصادر الأساسية للاستبداد .

مونتاني من رجال الكتاب الواحد ، أي الذين اشتهروا بكتاب واحد ، هو « المقالات » Essays . وقد ظهرت الطبعة الأولى منه في بوردو سنة ١٥٨٠ ، وأعيد طبعها مع تصحيحات في سنة ١٥٨٢ ، وتحتوي على الكتابين الأول والثاني . وطبع طبعة ثالثة في باريس سنة ١٥٨٨ تحتوي على كتاب ثالث ، حرره بين سنة ١٥٨٦ وسنة ١٥٨٨ تقريباً ، مع اضافة كثير من العبارات في داخل نص الكتابين الأول والثاني . وبين سنة ١٥٨٨ وسنة ١٥٩٢ أضاف مونتاني عدة اضافات جديدة على هامش نسخته ( طبعة سنة ١٥٨٨ ) ، فقامت ، بعد وفاته ، ماريه دي جورنيه وبيريدي براك Pierre de Brack بإعداد طبعة جديدة مع استعمال هذه الاضافات ، ونشرا طبعة جديدة في سنة ١٥٩٥ أي بعد وفاة مونتاني بثلاث سنوات . وصارت هذه الطبعة ، بكل اغلاطها ، أساساً لكل الطبعات التالية حتى سنة ١٩٠٠ . ولا تزال نسخة مونتاني هذه التي سجل فيها هذه الاضافات موجودة في مكتبة بلدية بوردو ، وتسمى نسخة بوردو ، وقد استعملها استعمالاً غير واف بعض الناشرين مثل J. A. Naigeon في نشرته سنة ١٨٠٢ . لكنها لم تستغل استغلالاً نقدياً وافياً إلا في النشرة البلدية التي ظهرت من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٣٣ ، وصارت هذه الطبعة ، المسوومة إلى بلدية بوردو ، هي الطبعة النقدية المعتمدة ، وقد قام بتحقيقها F. Strowski ، F. Gelin ، P. Villey وتقع في خمس مجلدات . - و « المقالات » ( والأدق أن تسمى : « محاولات » لأنه « حلول » فيها أن يبدي آراءه وأحكامه ) تتألف من مائة وسبعة فصول ، تختلف من حيث الطول : فبعضها يقع في صفحة أو صفحتين ، وبعضها مسهب جداً مثل « دفاع ريموند سيوند » ، وفيه دفاع مجيد عن نزعة الشك ، وكان له تأثير بالغ جداً في كثير من المفكرين والفلاسفة مثلاً جتندي ، ويكون ، وديكارت .

وفيها يتجلى بكل وضوح موقف مونتاني الفكري ، وهو الشك . لقد استعرض مذاهب الفلاسفة القدماء ، فوجد في النهاية أن أحرارها بالقبول هو مذهب الفورونيين ، أتباع فورون مؤسس مدرسة الشك في اليونان ، ذلك لأن الفورونيين ( الشكك ) هم الذين كشفوا عن حقيقة الإنسان وبينوا أن الإنسان عاجز ، خاو ، ضعيف .

المجتمع الحر يقوم على التصالح والتوفيق بين جماعات معترف بها ، ولكل منها مصالحه الخاصة . إن الاجماع لا محل له في مجتمع حر . يقول مونتسكيو : « إن المؤلفين الذين كتبوا عن تاريخ روما لا يكلون من توكيد أن دمارها نشأ عن انقسامات داخلية وجماعات متنازعة فيما بينها . . . لكن هؤلاء المؤلفين أخفقوا في إدراك أن هذه الانقسامات كانت ضرورية . ويمكن أن تقر قاعدة عامة أنه كلما كان كل فرد هادئاً في جمهورية ، فإن مثل هذه الدولة لا تعود حرة . إن ما يكون الاتحاد في هيئة سياسية أمر يصعب تحديده . إن الاتحاد الحقيقي هو انسجام ، فيه كل الأجزاء ، مهما بدت متقابلة ، فإنها تعمل على بلوغ أكبر خير للمجتمع ، كما أن النعمات المتعارضة في الموسيقى ضرورية كيما تنحل إلى انسجام في النهاية . إن الاتحاد يمكن أن يوجد في الدولة حيثما يوجد في الظاهر اضطراب » . ( الكتاب نفسه ، فصل ٩ ) .

أما كتابه الرئيسي : « روح القوانين » فعلى الرغم من أنه في الظاهر بحث في القانون ، فإنه مع ذلك يتناول نظرات في كل ميدان متصل بالسلوك الانساني ، ويتخلله البحث في مسائل تتعلق بمزايا مختلف أنواع الشرائع .

لكن الكتاب يعوزه التنظيم ، ولهذا حاول بعض الباحثين ترتيب مختلف فصول الكتاب ابتغاء احكام تأليفه ، وايضاح مفاصله . وربما كان مرجع ذلك الخلل في تأليف الكتاب ، وهو مؤلف من ٣١ كتاباً ، الى كون مونتسكيو قد استغرق في تأليفه عشرين عاماً .

لكن قيمة الكتاب تقوم في أمرين : الأول هو تصنيفه للنظم السياسية ، والثاني بحثه المقارن والتاريخي في الاجتماع السياسي .

أنواع الحكومات : صنف مونتسكيو أنواع الحكم وفقاً لثلاثة أعاط ، كل واحد منها يتميز بطبيعة وبعداً . ويقصد بـ « الطبيعة » الشخص أو الجماعة التي تملك السيادة في الدولة . ويقصد بـ « المبدأ » الوجدان الذي يسري في القائمين بالحكم إذا كان لهذا الحكم أن يعمل على أفضل وجه . وإذا حكمت الحكومة حكماً صحيحاً ، فإن المشرع الذي ينتهك مبدأ الحكم سيثير الثورة عليه . أما إذا ضعفت الحكومة من جراء ضعف مبدئها الرئيسي ، فلا يمكن انقاذها إلا بمشرع قادر على تقوية هذا المبدأ .

وشخص المشرع عند مونتسكيو يقصد به شخص

ويمكن نجاح هذا الكتاب : « رسائل فارسية » لمونتسكيو في المجتمع الباريسي . وأقبح أصدقلوه في باريس في تحقيق فوزه في الانتخاب لعضوية الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٧٢٨ . وباع منصبه بوصفه *Président à mortier* لحاجته إلى المال من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى كان يريد الإقامة في باريس .

وقام بالإسفار خارج فرنسا في الفترة ما بين سنة ١٧٢٨ وسنة ١٧٣١ ، فزار النمسا والمجر وإيطاليا وألمانيا وهولندا وانجلترا . وكانت لهذه الأسفار آثار عميقة في تصوراته : فصار يعدّ نفسه إنساناً أولاً ، ثم فرنسياً بعد ذلك وقال : « إنني أنظر إلى كل شعوب أوروبا بنفس النزاهة التي أنظر بها إلى شعب مدغشقر » وكان لاقامته في إنجلترا عامين أثر بالغ في نظرياته السياسية .

ولما عاد إلى فرنسا في سنة ١٧٣١ ورزّع وقته بين ضيافته في لا بريد وبين باريس ، وصار باحثاً مستقلاً وتفرغ لانتاجه الفكري . فألف كتاب : « تأملات في أسباب عظمة الرومان وانحلالهم » ( سنة ١٧٣٤ ) ، ثم كتابه الرئيسي : « روح القوانين » ( سنة ١٧٤٨ ) . وفي أولها قام بتحليل دقيق للعلية في التاريخ ولطبيعة السياسة . وقد اختار التاريخ الروماني لأنه كان أكمل تاريخ لمجتمع سياسي عرفه وكان في تناول يده .

يقول مونتسكيو عن العلية في التاريخ : « ليست الصدفة هي التي تحكم العالم . . . إن الرومان حققوا سلسلة من النجاحات المتواصلة حينما اتبعت حكومتهم سياسة واحدة ، واتبعتهم سلسلة متصلة من النكبات حين اتبعوا سياسة أخرى . إن هناك أسباباً عامة ، معنوية أو مادية ، تؤثر في كل حكومة ، تخلقها ، أو تحافظ عليها ، أو تدعمرها . وكل الأحداث خاضعة لهذه الأسباب وإذا تصادف أن دمّرت معركة واحدة ، أي سبب فرد ، دولة ما ، فإن سبباً عاماً هو الذي خلق الموقف الذي جعل هذه الدولة تنهار بسبب هزيمتها في معركة واحدة » ( « تأملات في أسباب . . . » ، الفصل ١٨ ) .

ويوضح مونتسكيو في هذه « التأملات . . . » أن العلاقات بين الأشخاص والجماعات أقل توثقاً في المجتمع الحر منها في المجتمع الاستبدادي . ذلك أنه في ظل الحرية لا بد من وجود الاختلافات بل المنازعات ، لأن مثل هذا

«بدون الملكية لا توجد نبالة؛ وبدون نبالة لا توجد ملكية، لأنه لن يكون ثمثد إلا حاكم مستبد (طاغية) (الكتاب الثاني، فصل ٤).

أما الدكتاتورية فليست لها في نظر مونتسكيو أية فضيلة. إنها تقوم على الخوف، ولا تحمل أية سلطات وسطى؛ ولو حدث فيها تخفيف فلن يكون ذلك إلا بواسطة الدين. والدكتاتورية تلقي بالناس في هوة الذل والمهانة. وهي لا تحافظ على كيانها إلا بسفك الكثير من الدماء. والطاعة التي تتطلبها من رعاياها هي الطاعة العمياء. والتربية والتعليم في النظام الدكتاتوري لا يهدفان إلا إلى تكوين أفراد يدينون بالطاعة العمياء، ويعوزهم التفكير المستقل، والطاعة العمياء تفرض الجهل فيمن يطيع، بل وفي من يأمر لأنه ليس من حقه أن يفكر أو أن يشك بل عليه أن يريد فقط. وتقتصر التربية على بث الخوف في قلوب الرعية، وتلقين بعض مبادئ الدين البسيطة جداً. «ذلك ان المعرفة ستكون خطيرة، والتنافس نحساً... فالترية (في الدكتاتورية) كأنها عدم. ولا بد من انتزاع كل شيء، من أجل اعطاء شيء ما؛ وجعل الفرد عضواً فاسداً، ابتغاء جعله عبداً مطيعاً» (الكتاب الرابع، فصل ٣). ورعايا الحكومة الدكتاتورية مجردون من كل فضيلة خاصة بهم. «وليس في الدول الاستبدادية عظمة نفس، لأن الأمير فيها لن يعطي عظمة لا يملكها هو نفسه؛ إذ لا يوجد عنده مجد. وإنما في الملكيات يشاهد حول الأمير رعايا يتلقون شعاعاته» (الكتاب الخامس، الفصل ١٢). وشبه صنيع الحكومة الاستبدادية بصنيع المتوحشين في لوزيانه الذين حين يريدون أن يقطعوا الثمار يقطعون الشجرة من جذورها ويجمعون الثمار (الكتاب الخامس، فصل ١٣). وفي الحكومات الدكتاتورية تقل القوانين، بل تنعدم. ولا بد أن يكون المحكومون جهالاً، جبناء، محطمي النفوس. والناس، بدلاً من أن يُروا على أن يعيشوا على أساس الاحترام المتبادل، يكونون بحيث لا يستجيبون إلا للترهيب والتخويف.

ويتساءل مونتسكيو: إن الناس يحبون الحرية ويكرهون القهر والعنف، ومن المحتمل أن يثوروا ضد الطغاة، فلماذا إذن يعيش معظم الناس في العالم تحت الاستبداد والدكتاتورية؟ ويجيب قائلاً إن هذا يفسر بأمرين: الأول هو أن الامبراطوريات الواسعة يجب أن تحكم حكماً استبدادياً كيما يكون الحكم فيها قويّ النفوذ، والثاني، وهو الأهم، لأن

استثنائي يلدجاً إليه المجتمع من أجل وضع قوانينه الأساسية. لكن مونتسكيو خلط في مهمة هذا المشرع: فهو أحياناً يقرر أن على المشرع أن يكتف القوانين التي يسنها مع الروح العامة للمجتمع الذي يشرع له، ومرة أخرى نراه يدعو المشرع إلى سن القوانين، بل وإلى الاستعانة بالدين، من أجل محاربة هذه الروح العامة للمجتمع. والأمر يتوقف عنده على كونه يجب أو يكره هذا النظام في الحكم أو ذاك.

فإذا قسمت نظم الحكم من حيث الطبيعة، هكذا يرى مونتسكيو، فإنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع: الجمهورية، الملكية، الدكتاتورية. أما الجمهورية فهي نظام الحكم الذي فيه الشعب كمجموع، أو بعض الأسر، تملك السيادة. والملكية هي نظام الحكم الذي فيه يحكم أمير وفقاً لقوانين مقررّة تنشئ قنوات من خلالها تسري السلطة الملكية. وكنماذج لهذه القنوات يذكر: أرستقراطية تتولى أمور العدالة محلياً، وبرلمانات ذوات مهمات سياسية، وهيئة دينية ذات حقوق معترف بها، ومدن لها امتيازات تاريخية... أما الدكتاتورية (أو الحكومة الاستبدادية) فهي حكم الفرد الواحد الذي لا يسترشد ولا يتوجه إلا بإرادته الخاصة وأهوائه الشخصية.

ومبادئ هذه الحكومات مختلفة: فالفضيلة هي مبدأ الجمهورية، والشرف (الكرامة) مبدأ الملكية، والخوف مبدأ الدكتاتورية.

وقسم مونتسكيو الجمهوريات إلى: ديمقراطيات، وأرستقراطيات. ونموذج الجمهورية الديمقراطية عنده هو اليونان وروما. وحين جعل الفضيلة مبدأ الجمهورية قصد بالفضيلة مجموع الصفات الضرورية للمحافظة عليها: ففي حالة الديمقراطيات: حب الوطن، الايمان بالمساواة، الزهد والتعفف اللذان يقودان إلى أن يضحى الأشخاص بلبائهم الشخصية في سبيل المصلحة العامة... ووجد نموذج الديمقراطية الأرستقراطية في الجمهوريات المعاصرة له، مثل جمهورية البندقية. والفضيلة فيها هي الاعتدال في السلوك والمطامح لدى أعضاء الطبقة الحاكمة.

أما عن الملكية، كما وجدها في فرنسا وسائر الدول الأوروبية في عصره، فقد رأى فيها النظام العصري لحكم بلاد متوسطة الحجم. ومبدأ الملكية هو الشرف (الكرامة)، وهو معنى لا يوجد إلا في مجتمع يقوم على أساس وجود امتيازات وتفضيلات لثلة من الناس. يقول مونتسكيو:



يلاحظ أن هذه النظرية كانت أهم ما لفت نظر الأمريكيين في التفكير الدستوري لمونتسكيو.

#### مؤلفاته

- *Lettres Persanes, sans non d'auteur*. Amsterdam, 1712
- *Considérations sur les Causes de la grandeur des Romains et de leur décadence*. Amsterdam, 1734.
- *De l'esprit des lois*. Genève, 2vols. in- 4o, 1748
- «Essai sur le goût», in t. VI de l'*Encyclopédie*. Paris, 1757.

#### مراجع

- Baeckhausen, Henri A.: *Montesquieu: ses idées et ses oeuvres d'après les papiers de la Brède*. Paris, Hachette, 1907.
- E. Carcassonne: *Montesquieu et le Problème de la constitution française au X VIII<sup>e</sup> siècle*. Paris, PUF, 1927.
- Joseph Dedieu: *Montesquieu*. Paris, Alcan, 1913.
- Joseph Dedieu: *Montesquieu: l'homme et l'oeuvre*. Paris, 1943.
- Robert Shackleton: *Montesquieu: A critical Biography*. Oxford University Press, 1961.

#### موندلفو

#### Rodolfo Mondolfo

مؤرخ للفلسفة اليونانية ايطالي.

ولد في سنة ١٨٧٧، وتوفي في ١٩٧٦/٧/١٥ في بونوس آيرس (الارجنتين).

كان أستاذاً للفلسفة في جامعة بولونيا؛ ثم ارتحل إلى الأرجنتين حيث قام بالتدريس في جامعات توكمان، وقرطبة، وبونوس آيرس.

وله مؤلفات جيدة في الفلسفة اليونانية، نذكر منها:

- «اللامتاهي في الفكر اليوناني» فيرنس سنة ١٩٥٤
- *L'Infinito nel pensiero dei Greci*؛ وظهرت له طبعة ثانية

الشرط الوحيد لقيام الدكتاتورية هو الشهوات الانسانية، وهذه توجد في كل مكان.

ودعا مونتسكيو إلى الفصل الواضح بين السلطات الثلاث في الدولة: السلطة التنفيذية (وتشمل أيضاً الشؤون الخارجية)، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. وقد أكد أن الفصل القاطع بينها هو الشرط لوجود الحرية. يقول: «إذا اتحدت السلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية فلن تكون هناك حرية، إذ يخشى أن نفس الحاكم أو نفس مجلس الشيوخ (الهيئة التشريعية) يسنّ قوانين استبدادية من أجل أن يتغذها استبدادياً. ولن تكون هناك حرية أيضاً إذا كانت سلطة القضاء غير منفصلة عن السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. لأنها إذا كانت مرتبطة بالسلطة التشريعية، فإن السلطة على حياة المواطنين وحريرتهم ستكون اعتباطية: إذ سيكون القاضي مشرعاً أيضاً. وإذا ارتبطت بالسلطة التنفيذية، فيمكن أن تكون للقاضي سلطة البطش. وسيضيع كل شيء لو أن نفس الشخص، أو نفس الهيئة من الرؤساء أو من النبلاء أو من الشعب مارست هذه السلطات الثلاث معاً: سلطة سنّ القوانين، وسلطة تنفيذ القرارات العامة، وسلطة الفصل في الجرائم أو المنازعات بين الأفراد» (الكتاب الحادي عشر، الفصل السادس).

وهكذا يؤكد مونتسكيو ضرورة الفصل القاطع بين السلطات الثلاث، وعلى نحو تجاوز فيه ما دعا إليه جون لوك.

ومن بين النظريات والآراء التي عرضها مونتسكيو في كتابه «روح القوانين» عني الأمريكيون في القرن الثامن عشر بأمرين: رأيه في النظام الفدرالي (الاتحادي) ونظرية الفصل بين السلطات الثلاث.

ذلك أن مونتسكيو في مستهل الكتاب التاسع من «روح القوانين» أشاد بنظام الجمهورية الفدرالية (الاتحادية) فقال (في الفصل الأول) إن هذه الدولة «تتمتع بصلاح الحكومة الداخلية لكل واحدة منها، وبالنسبة إلى الخارج فإنها، بفضل قوة التجمع، كل مزايها الملكيات الكبيرة». وقد اقتبس هاملتون، أحد كبار مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، هذه العبارات، قائلاً: «إنها تحتوي بما يجاز على الحجج الأساسية المؤيدة للاتحاد».

وفيما يتصل بنظرية الفصل بين السلطات الثلاث



التي بدأت في أمريكا في سنة ١٩٢٩ بدت له كأنها عرض لازمة أخطر، هي الأزمة الروحية والفلسفية. واعتقد أن الحضارة الأوروبية تتجه الى كارثة، لا سبيل إلى تجنبها - في نظره - إلا بإعادة النظر الجذرية في قيم هذه الحضارة ومبادئها. إنه ينفر من المجتمع البورجوازي لأن الجشع للتملك أفسده، ونفسي فيه قهر الانسان، وضحي فيه بالحاجات الحقيقية للإنسانية. والماركسية ليست علاجاً لهذا المجتمع لأنها تأثرت بعلمتها: الرأسمالية، إذ انغمست الماركسية في المادية وخانت بذلك حاجات الانسان الروحية. وتلك المجلة هي «الروح» Esprit، وقد بدأت في الظهور شهرياً من أكتوبر سنة ١٩٣٢.

ولئن كان مونييه كاثوليكياً شديداً الحماسة، فقد أغضبه تضامن الكاثوليكية مع «الفوضى للمستحكمة»، يقصد: النظام الحضاري القائم: وهو لا يعتقد أن الحل لهذا الوضع حل سياسي: لأن اليسار، وقد أعدته عدوى الروح البورجوازية، عاجز عن مقاومة الديكتاتوريات الغازية الكاسحة (يقصد النازية والفاشية).

وإنما الحل يكون بتحرير الروح. يقول: «إما أن تكون الثورية روحية، وإما لن تكون أبداً». ولهذا يطالب بالتغيير في قيم الانسان، وفي مؤسساته، لأن الفهر ليس فقط واقعة اقتصادية أو سياسية، بل هو «في نسج قلوبنا».

لقد آمن مونييه بأن الشر مصدره الحضارة التي جعلت من الإنسان فرداً مجرداً abstrait، مقطوعاً عن الآخرين وعن الطبيعة. وديكارت، بتأسيسه للروح الحديثة، قد كرس هذا الانشقاق.

والعلاج لهذا هو «إعادة النهضة من جديد»، أي إعادة بناء نزعة انسانية قادرة على أن تدمج في حضارة جديدة كل معطيات التاريخ الانساني والعلوم الانسانية. ومحور هذه النزعة الانسانية هو: الشخص.

وهو لا يقصد بالشخص: الشخص بالمعنى القانوني، الذي ينبغي الدفاع عن حقوقه تجاه المجتمع، بل بالعكس: يرى مونييه أن المجتمع موجود في الشخص، بقدر ما

في سنة ١٩٥٦ بعنوان: L'Infinito nel pensiero dell'Antichità classica.

- «فهم الذات الانسانية في الحضارة القديمة»، طبعة أولى بالأسبانية، بونوس ايرس سنة ١٩٥٥، وطبعة أخرى بالاطالية في سنة ١٩٥٨ عنوانها La comprensione del soggetto nella antichità classica.

- «الفكر القديم: تاريخ الفلسفة اليونانية الرومانية معروضاً مع نصوص مختارة من المصادر، فيرنس، سنة ١٩٥٠.

لكن أهم أعماله في تاريخ الفلسفة اليونانية هو ترجمته للأجزاء الأولى من «فلسفة اليونان» تأليف ادورد اتسلر مع تعليقات وفيرة جداً فيها عرض للأبحاث التالية حتى صلور هذه الترجمة، وفي الوقت نفسه أشرف على ترجمة باقي الكتاب إلى الايطالية حتى أوشكت هذه الترجمة على التمام لدى الناشر La Nuova Italia في فيرنس.

مونييه

### Emmanuel Mounier

مفكر فرنسي دعا إلى نزعة «الشخصية الجماعية» Personnalisme communautaire.

ولد في جرينوبل في ١٩٠٥/٤/١، وتوفي في ٢٣ مارس سنة ١٩٥٠ في شانتيه ماليري (احدى الضواحي الجنوبية لباريس). بدأ بدراسة الطب، لكنه ما لبث أن عدل عنه إلى دراسة الفلسفة في جامعة جرينوبل حيث تتلمذ على جاك شفالييه. ثم ارتحل إلى باريس، حيث حصل على الأجر بمجاسيون في الفلسفة في سنة ١٩٢٨. وهنا تأثر بجاك ماريتان ونقولا برديايف. ثم أعجب بأفكار الشاعر الكاثوليكي شارل بيغي Charles Péguy، وفيه كتب أول دراسة بعنوان: «فكر شارل بيغي» (سنة ١٩٣١).

وعلى غرار ما فعل بيغي ترك «الماكنة الجامعية القذرة» وقرر انشاء مجلة تكون لسان حركة فكرية تهدف - في زعمه - إلى التجديد الشامل للحضارة. ذلك أن الأزمة الاقتصادية

الميتافيزيقا = ما بعد الطبيعة

### Métaphysique (F) Metaphysics (E.)

كلمة «ميتافيزيقا» تعريب للكلمة اليونانية (تلمتافوسيكيا) ومعناها: ما بعد الطبيعة.

والمعروف أن الأصل في هذا الاسم يرجع إلى ترتيب كتب أرسطو لما نشرها أندرونيقوس الرودسي (في القرن الأول قبل الميلاد) فجعل موضع كتب أرسطو المتعلقة بالفلسفة الأولى تالياً لموضع كتاب «الطبيعة» وعلى ذلك فإن «ما بعد الطبيعة» تعني فقط الكتاب التالي في الترتيب لكتاب «الطبيعة» في مجموع مؤلفات أرسطو الذي نشره أندرونيقوس، ولا علاقة له بمضمون أو موضوع هذا العلم.

أما اسم هذا العلم عند أرسطو فهو: «الفلسفة الأولى» *ἀπρωτῆ Φιλοσοφία*، وأحياناً يسميه الإلهيات *ἄθεολογία*.

لكن هذا التصنيف المكتبي أو الترتيب التصنيفي لموضع كتب أرسطو في الفلسفة الأولى أو الإلهيات ما لبث أن فسّر لدى المشتغلين بالفلسفة ابتداءً من القرن الأول بعد الميلاد تلوياً يجعل منه دالاً على موضوع الكتاب وهو البحث في الوجود بما هو وجود، وأصبح يطلق اسم «الميتافيزيقا» على البحث في الأمور التي «تتجاوز» (ما بعد) الطبيعة، وهو تأويل يناقض تماماً فكر أرسطو، إذا فهم بمعنى أن موضوعه يتجاوز نطاق العالم (كوسموس) إذ ليس وراء العالم - عند أرسطو - شيء. أما إن فهم بمعنى أن موضوعه هو الموجودات غير الخاضعة للكون والفساد، بينما الطبيعة خاضعة للكون والفساد، فإن هذا التأويل يتمشى مع تصور أرسطو لهذا العلم، لأنه يبحث فيه في المحرك الأول الذي هو فعل محض، وعقل محض، كما يبحث في عقول الأفلاك وهي أيضاً عارية عن المادة وغير خاضعة للكون والفساد.

ويرى أرسطو أن الفلسفة الأولى أعم العلوم لأنها تبحث في أعم العلل، إذ العلة والمبادئ الأولى شاملة لجميع أنواع العلل الأخرى. وهي ثانياً أكثر العلوم يقينية، لأنها تبحث عن المبادئ الأولى، والمبادئ الأولى أعلى الأمور درجة في اليقين. وهي ثالثاً أنفع العلوم، لأنها تعطينا علماً بالعلل الأولى، والعلم بالعلل الأولى أكثر العلوم إعطاءً لأكبر قسط من العلم. وهي رابعاً - أكثر العلوم تجريباً، لأنها تبحث في

الشخص موجود في المجتمع. وإنما «الشخص» هو ما يقابل (بضاد) «الفرد» الذي هو كائن منعزل، وتجريد محض، بينما «الشخص» متخرط منذ ميلاده في الجماعة: إن الفرد وحدة عديدة حسابية، أما الشخص فذات خلاقة لذاتها. «إنه الحقيقة الوحيدة التي نعرفها والتي نصنعها من الداخل في نفس الوقت؛ إنه يكتب على حساب اللاشخصي بواسطة حركة شخص» أي أضفاء صفات الشخصية. الفرد كائن مغلق، أما الشخص فمفتوح على العلو، وهو جواب عن نداء. «إن الإنسان العيني هو الإنسان الذي يبذل ذاته» بالانفتاح على الكون، وعلى الناس.

وقد استمد مونييه نزعة الشخصية هذه من روافد عديدة: التوماوية، الوجودية، المثالية الروسية. وهو يهدف بها أساساً إلى إعادة الاتصال بين الذوات الانسانية، وإلى إعادة الاندماج بين المادة والروح، بين الانسان والطبيعة.

وعلى الرغم من حوارته مع الماركسيين الفرنسيين، فقد ظل دائماً يرفض الماركسية أو التورط معها في أي شيء. يقول مونييه: «ضد ماركس نحن نؤكد أنه لا مدينة ولا حضارة انسانية إلا إذا كانت ميتافيزيقية الاتجاه».

وكان مونييه منفتحاً على سائر الأدیان، رغم مسيحيته العميقة، ولهذا جمع حول مجلته *Esprit* مؤمنين من مختلف الأدیان كما ضم غير مؤمنين. ورغم إخلاصه للكنيسة الكاثوليكية فكثيراً ما نقد رجعتيها، وجلب سخط الكاثوليك اليمينيين بدعوته إلى علمانية المدارس.

#### مؤلفاته

جمعت مؤلفاته في أربعة أجزاء بعنوان E. Mounier: *Oeuvres*, 4 vols. Paris 1961-63.

#### مراجع

- J. Conilh: Mounier. Paris, 1966.
- L. Guissard: Emmanuel Mounier. Paris, 1962.
- V. Melchiorre: Il Metodo di Mounier: Milano, 1960.
- C. Moix: La pensée d'Emmanuel Mounier. Paris, 1960.

موجوداً على أنه جاعل شيئاً من الأشياء بالفعل أمراً من الأمور بوجوده في ذلك الشيء، مثل البياض في الثوب ومثل طبيعة النار في النار، وهذا بأن تكون ذاته حاصلة لذاتٍ أخرى بأنها ملاقية له بالأمر، ومتفرقة فيه لا كالتوتد في الحائط، إذ له انفراد ذات متبىء عنه. ومنه ما لا يكون هكذا. والذي يكون هكذا منه ما يطراً على الذات الأخرى بعد تقومها بالفعل بذاتها أو بما يقومها - وهذا يسمى عَرَضاً. ومنه ما مقارنته لذاتٍ أخرى مقارنته مقومٌ بالفعل، ويقال له صورة. ويقال للمقارنين كليهما: محلٌّ؛ وللأول منها موضوع، والثاني: هيولى وملاحة. . وكل ما ليس في موضوع - سواء كان في هيولى ومادة، أو لم يكن في هيولى ومادة - فيقال جوهر. . . والجواهر أربعة: ماهية بلا مادة، ومادة بلا صورة، وصورة في مادة، ومركب من مادة وصورة (ابن سينا: «عيون الحكمة»، بنشرتنا ص ٤٧ - ٤٨، القاهرة سنة ١٩٥٤).

أما ابن رشد فيستخدم ترجمة اللفظ فيسميه «علم ما بعد الطبيعة» ويقول في تفسير اسمه: «ويشبه أن يكون إنما سُمِّي هذا العلم «علم ما بعد الطبيعة» من مرتبة في التعليم، وإلا فهو متقدم في الوجود. ولذلك يسمى الفلسفة الأولى» (جوامع كتاب ما بعد الطبيعة) (ص ٨، طبع حيدر أباد الدكن سنة ١٣٦٥ هـ) - الموضوعات التي يتناولها في المقالة الأولى من جوامعه هذه لكتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو هي: الهوية - الجوهر - العرض - الذات - الشيء - الواحد - في الجوهر والمقابل والغير والخلاف - في القوة والفعل - في الجزء - الناقص - المتقدم والمتأخر - السبب والعللة - الهيولى - الصورة - السبب والعللة - الهيولى - الصورة - المبدأ - الاسطقس - الاضطراب - الطبيعة.

وفي المقالة الثانية يعرض مشكلة الكليات، والصور الأفلاطونية.

وفي المقالة الثالثة يبحث في: القوة والفعل - وفي الواحد -

والمقالة الرابعة تتناول الحركة الأزلية والمحرك الأول وعقول الأجرام السماوية والعقل الفعّال.

والمقصود من قول أرسطو إن ما بعد الطبيعة موضوعه الموجود بما هو موجود وهو أنه يبحث:

١ - في وجود الموجودات كلها، الإنسان، الحيوان، الجماد، ويبحث في وجود العرض كما يبحث في وجود

أكثر الأشياء بعداً عن الواقع العيني؛ ومن هنا أيضاً كانت أصعب العلوم - وهي - خامساً - أشرف العلوم، لأن موضوعها النهائي والأساسي هو أشرف الموضوعات، وهو الله.

ومن أرسطو انتقل هذا التعريف للفلسفة الأولى وللإلهيات - إلى تلاميذه وشراحه، وخصوصاً الاسكندر الأفروديسي، الذي عرّف الميتافيزيقا (وربما كان أول من استخدم هذا اللفظ للدلالة على هذا العلم) فقال إن الفلسفة الأولى تبحث في الموجود بما هو موجود، ولا تبحث في موجود معين بالذات *ὅτι τί*، أو في جزء من أجزاء الموجود مثلما يفعل سائر العلوم. وهي أيضاً «الهيات» من حيث أنها في بحثها عن المبادئ الأولى والعلل الأولى لا تستمر إلى غير نهاية، بل ترى ضرورة التوقف عند موجود أول. (راجع شرح الاسكندر الأفروديسي على ميتافيزيقا أرسطو Alex-ander Aphrodisias: In Arist. Met. Comm., ed. M. Hayduck, 1891, I, P.161J. 5Sq). ويؤكد الاسكندر الأفروديسي أن الموجود بالمعنى الحقيقي هو الجوهر، بينما الصفات المقولية الأخرى تعد وجوداً بالمعنى الثانوي (الكتاب نفسه ص ٢٤٢ من ١٠).

واستعمل الفلاسفة الإسلاميون لفظ «الفلسفة الأولى» للدلالة على هذا العلم، منذ بداية الفكر الفلسفي في الإسلام. فنجد للكنتي رسالة تعد أهم رسائله الفلسفية، وعنوانها: «كتاب الكنتي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى». ويحدد الكنتي مكانة هذه الفلسفة الأولى على نحو ما فعل أرسطو ولكن باختصار فيقول: «وأشرف الفلسفة وأعلماها مرتبة: الفلسفة الأولى، أعني علم الحق الأول الذي هو علة كل حق. ولذلك يجب أن يكون الفيلسوف التام الأشرف هو المرء المحيط بهذا العلم الأشرف، لأن علم العلة أشرف من علم المعلول، لأننا إنما نعلم كل واحد من المعلومات علماً تاماً إذا نحن أحطنا بعلم علته، لأن كل علة إما أن تكون عنصراً، وإما صورة، وإما فاعلة أعني ما منه مبدأ الحركة، وإما مُتَمِّمة، أعني ما من أجله كان الشيء» (رسائل الكنتي الفلسفية ط ٢، القاهرة سنة ١٩٧٨).

وعلى نحو أدق يعرف ابن سينا موضوع الفلسفة الأولى فيقول: «الفلسفة الأولى موضوعها الموجود بما هو موجود، ومطلوبها الأعراض الذاتية للموجود بما هو موجود - مثل الوحدة، والكثرة، والعلية وغير ذلك. والموجود قد يكون

وهكذا نجد أن كتاب ديكارت: «مبادئ الفلسفة» يبحث في أسس المعرفة بوجه عام.

ينتهي ديكارت إلى تقرير أن الميتافيزيقا هي «معرفة الأمور المعقولة». ولهذا نراه في تصنيفه للعلوم يجعل العلوم بمثابة شجرة: جذورها هي الميتافيزيقا، وجذعها هو الفيزياء، وفروعها المختلفة هي المنطق، والأخلاق، والميكانيكا.

لكن لبيتس يرى أن ميتافيزيقا ديكارت من شأنها أن تحدث انشقاقاً في وحدة الميتافيزيقا، لأن تفسير ديكارت لطبيعة المبادئ يختلف اختلافاً جوهرياً عن تفسير أرسطو لها. ذلك أن أرسطو يطلق اسم «المبادئ» على البديهيات، أي على القضايا الأولية الأكثر عموماً في استعمال البرهان، بينما ديكارت يطلق كلمة «مبادئ» على الحقائق التي من نوع: «أنا موجود»، فهذه الحقيقة مبدأ، من حيث أنه ينبغي أن يبدأ التفكير منها، ولكن هذه الحقيقة تختلف عن مبادئ المعرفة مثل مبدأ عدم التناقض. إن القول: «أنا» هو نتيجة شعور مباشر، بينما مبدأ عدم التناقض لا يمكن أن يدرك إلا نتيجة سير تحليلي ارتدادي، يرجع بالبرهان إلى الافتراضات الأولى التي بدأ منها.

ويرى بيتس إلى إغناء ميتافيزيقا أرسطو بإضافة مبادئ عقلية جديدة. فإلى جانب مبدأ الذاتية أو عدم التناقض، يضع لبيتس مبدأ «العلة الكافية». ومبدأ «الاتصال» في أحداث العالم، وهذا المبدأ يقرر أن الطبيعة لا تقوم بالطفرة، بل كل ما فيها متصل ببعضه بعض دون أي انقطاع، ثم مبدأ «الأحسن» ويقرر هذا المبدأ أن الطبيعة تسلك أبسط السبل في إنجازها لأفعالها.

٥ - ثم جاء كنت فآثار مشكلة الميتافيزيقا نفسها وهي هل يمكن قيام ميتافيزيقا على أساس علمي؟ وقد خصص لهذه المشكلة كتاباً بعنوان: «مقدمة إلى أي ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تتجلى عليها» (سنة ١٧٨٣).

لقد أدرك منذ وقت مبكر أنه لكي تكون الميتافيزيقا علماً فينبغي أن تكون «فلسفة مؤسسة على المبادئ الأولى لمعرفة» (بحث في وضوح مبادئ اللاهوت الطبيعي والأخلاق» ص ٢٨٦).

أما منهجها فيجب أن يكون وتحليلياً، وهو في أساسه المنهج الذي أدخله نيوتن في الفيزياء وكان له نتائج مفيدة.

الجوهر، ووجود ما هو بالقوة وما هو بالفعل،

٢ - وهو إنما يبحث في الوجود المحض، غير المترج بأية مادة، أي وجود الله الذي هو فعل محض، وعقل محض.

فإن توجهنا إلى العصور الوسطى في الغرب نجد أولاً القديس أوغسطين لا يستعمل كلمة «ميتافيزيقا» ولا كلمة «الفلسفة الأولى»، بل يستعمل مكانها كلمة «حكمة» وهي أيضاً قد وردت عند أرسطو للدلالة على هذا العلم، إلى جانب كلمة «الفلسفة الأولى»، وفي إثره استعملها أيضاً ابن رشد، في تفسيره لكتاب «ما بعد الطبيعة»: أما أوغسطين فقد جعل موضوع «الحكمة» هو النفس والله.

أما القديس توما الأكويني فيقتل عن ابن رشد - دون ذكر اسمه - أن الرسم metaphysica مأخوذ من مرتبة هذا العلم في التعليم، إذ يتعلم بعد تعلم الطبيعة.

وظلت الميتافيزيقا تنمو في هذا النطاق الذي حدده أرسطو طوال العصور الوسطى وفي أوائل العصر الحديث، فعدها ديكارت جذر شجرة العلوم، وكتب تأملاته الميتافيزيقية، ومن بعده كتب لبيتس كتاباً بعنوان: «بحث في الميتافيزيقا Discours de la métaphysique».

فديكارت يدعو إلى البحث في الميتافيزيقا ليس فقط لأنها تبحث في الله ووجوده وصفاته وفي النفس وخلودها، بل وخصوصاً لأنها تبحث في المبادئ التي تقوم عليها العلوم وبالتالي تبحث في أسس المعرفة بوجه عام. ومن هذه الناحية فإن تعريف ديكارت للفلسفة بعامة، والميتافيزيقا بخاصة هو تعريف أرسططالي خالص. ذلك أن معنى الفلسفة عنده هو الحكمة، لكنه لا يقصد بالحكمة: القطنة التي يجب أن يتم السلوك في الحياة وفقاً لها، بل المعرفة الكاملة، والمعرفة الكاملة في نظره هي «الميتافيزيقا». ويسميتها أيضاً «الفلسفة الأولى» كما فعل أرسطو، وهو يعرفها مثله بأنها «معرفة العلل الأولى» أو «المبادئ الأولى». (راجع مقدمة كتابه «المبادئ»).

ويحدد ديكارت مضمون الميتافيزيقا بأنه «تفسير الصفات الرئيسية النسوية إلى الله، وتفسير كون أرواحنا لا مادية، وإيضاح كل المعاني الواضحة القائمة فينا» (نفس الكتاب).

أما منهج الميتافيزيقا فهو استنباط النتائج من المبادئ.

نقد العقل، الذي يحدد الحدود التي لا ينبغي للعقل أن يتجاوزها، والذي يُخضع للتقدم ما هنالك من تصورات قبلية يردّها إلى مصادرها الثلاثة وهي: الحساسة، والذهن، والعقل.

وهكذا نرى كنت يقرر أن الميتافيزيقا هي هي بعينها نقد العقل أو الفلسفة النقدية أو الفلسفة المتعالية.

[راجع كتابنا: امانويل كنت، ج٢: الأخلاق عند كنت، ص ٣-٢٧، الكويت سنة ١٩٧٩].

ولكن المثالية الألمانية، ويمثلها فشته وشلنج وهيجل، أعادت النظر إلى الميتافيزيقا بالمعنى القديم، وكان موضوعها عند هؤلاء هو نفس موضوعاتها التقليدية: الوجود، الجوهر، العلية، نظرية المعرفة، الله. لكن شلنج، من بينهم، حاول أن يجعل من الميتافيزيقا: فلسفة الطبيعة. وهي نزعة امتدت إلى شوبنهاور ونيتشه. كل ما هنالك أن هيجل جعل الديالكتيك هو الميتافيزيقا.

ونتيجة للتقدم الهائل الذي أحرزته العلوم الوضعية في القرن التاسع عشر، أصبحت موضوعات فلسفة العلوم مختلطة بموضوعات الميتافيزيقا حتى كادت الميتافيزيقا تفقد معناها القديم، كما هو ملاحظ عند برجسون وهويتهد. ومن هنا مال البعض - خصوصاً في فرنسا، إلى تسميتها باسم «الفلسفة العامة»، وأصبح هذا هو اسمها الرسمي في برامج الدراسة في جامعات فرنسا طوال النصف الأول من هذا القرن، وهو اسم لا معنى له ولنا ندرى كيف خطر ببال واضعيه أن يضعوه!

وإنما استردت الميتافيزيقا تمام معناها من جديد على يد الفلاسفة الوجوديين، وخصوصاً هيدجر، ويسبرز. فهيدجر ألف رسالة بعنوان: «ما هي الميتافيزيقا؟»، وأتبعها بكتاب عن «كنت ومشكلة الميتافيزيقا»، ثم توج هذا بكتاب كبير بعنوان: «المدخل إلى الميتافيزيقا». وكتابه الرئيسي: «الوجود والزمان» هو بحث خالص في موضوع الميتافيزيقا الأساسي، وهو: الوجود. كذلك عنون يسبرز الجزء الثالث من كتابه الرئيسي وعنوانه: «الفلسفة» بعنوان: «الميتافيزيقا».

ولنعرض رأي هيدجر في حقيقة الميتافيزيقا:

الميتافيزيقا تبحث في وجود الموجود وهي تسأل أولاً عن الموجود بما هو موجود، وفي هذه الحالة تكون «ميتافيزيقا عامة»

ويجب أن نتطرق من التجربة، لا من التعريفات. وستصل الميتافيزيقا بعد ذلك إلى معان أساسية كلية، بفضل هذا المنهج التحليلي؛ أعني أنها ستصل إلى مبادئ؛ ذلك أنه لا يحق للعقل أن يتجاوز التجربة. ومن هنا قرر أن مهمة الميتافيزيقا هي تحديد الحدود التي ينبغي على العقل ألا يتجاوزها. وبعبارة موجزة: «الميتافيزيقا هي العلم الباحث في حدود العقل الانساني» (مؤلفات كنت)، ج٢، ص ٣٧٥، نشرة هارتشتين).

ويقرر كنت أن الميتافيزيقا التي تريد أن تكون علماً هي تلك المستقلة إلى نقد العقل؛ هذا النقد الذي يحدد الحدود التي لا ينبغي للعقل أن يتجاوزها ويُخضع للفحص التصورات القبلية إبتغاء ردها إلى مصادرها المختلفة وهي: الحساسة، والذهن، والعقل. ومن هنا نجد عند كنت توحيداً بين الميتافيزيقا وبين الفلسفة النقدية أو المتعالية. وكان هيوم قد شكك في العلاقة بين العلة والمعلول، وما تبع ذلك من تصور للقوة والفعل، وتحدي العقل أن يفسر بأي حق يظن أن الشيء يمكن أن يكون بحيث أنه متى ما وضع، فيستج عن ذلك بالضرورة وضع شيء آخر، لأن هذا هو معنى العلة.

وكان لشك هيوم هذا الفضل في إيقاظ كنت من نومه اللوجماتيقي وتوجيه تفكيره في اتجاه آخر مختلف تماماً.

إذ رأى كنت أنه ليس فقط فكرة العلة، بل الميتافيزيقا كلها مؤلفة من تصورات من هذا النوع الذي كشف عنه هيوم. ووجد أن مشكلة الميتافيزيقا هي أنها لا تستمد علمها من التجربة، بل تتجاوزها. إذ الميتافيزيقا لا تستمد مبادئها من التجربة الخارجية، كالفيزياء، ولا من التجربة الباطنة مثل علم النفس، بل هي معرفة قبلية *a priori* مستمدة من الذهن المحض ومن العقل المحض. والمعرفة الميتافيزيقية يجب ألا تشمل إلا على أحكام قبلية، أي سابقة على التجربة.

إن الميتافيزيقا - هكذا يرى كنت - تعني بالأحكام التركيبية القبلية، وهذه وحدها هي هدفها. ومن هنا تنحصر مشكلة الميتافيزيقا في مشكلة إمكان المعارف التركيبية القبلية.

ومن أجل حل هذه المشكلة ألف كتابه: مقدمة إلى كل ميتافيزيقا مقبلة تريغ أن تكون علماً (سنة ١٧٨٣).

والنتيجة التي ينتهي إليها في هذا الكتاب هي أن الميتافيزيقا التي تريد أن تكون علماً هي تلك التي تستند إلى

- K. Jaspers: Philosophie, B. III: Metaphysik
- J. Wahl: Traité de métaphysique. Paris, Payot, 1953.
- G. Gusdorf: Traité de métaphysique. Paris, Colin, 1956.
- J. Foulquié: Métaphysique, Paris, 1965.
- Pears, D.F., ed.: The Nature of metaphysics. London, 1957.
- W.H. Walsh: Metaphysics. London, 1963.

### موسى (بن ميمون)

فيلسوف يهودي، وعالم لاهوتي بالديانة اليهودية، وطبيب، وصيدلي.

اسمه الكامل: أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي.

وعلى الرغم من مكاتبة العظيمة لدى اليهود، فإنه لم يعن أحد من اليهود المعاصرين والتالين بترجمة حياته. ومصدرنا الوحيد عن حياته هو المؤلفون العرب المسلمون، وعلى رأسهم (ابن القفطي) في كتابه «أخبار العلماء بأخبار صديقاً حياً» ليوسف ابن عقين الذي كان من أخص تلاميذ موسى بن ميمون؛ ثم ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنبياء في طبقات الأطباء» (ج ٢ ص ١١٧ وما يتلوها، نشرة مَلَس)؛ وكان لفترة من الوقت زميلاً وصديقاً لابراهيم الذي هو نجل موسى بن ميمون، وذلك في أثناء عملها معاً في اليمارستان الناصري في القاهرة، وكان اجتماعها في هذا اليمارستان (المستشفى) في سنة ٦٣١- أو ٦٣٢- كما ذكر ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ١١٨).

ولد موسى بن ميمون في مدينة قرطبة، حاضرة الأندلس، في ٣٠ مارس سنة ١١٣٥ الميلادية (وبعادل ١٤ نيسان سنة ٤٨٩٥ عبرية، وسنة ٥٢٩ هجرية). وكان أبوه - واسمه ربي ميمون - من أئمة اليهود وعضواً في المحكمة الربانية الخاصة بالطائفة الاسرائيلية في قرطبة.

ولما استولى الموحدون على قرطبة في سنة ٥٤٢ هـ خيروا اليهود والنصارى فيها بين الاسلام أو الهجرة. فهاجر ميمون عن قرطبة وتنقل بين بلاد الأندلس، ولما عزم على الإقامة بالمريّة، استولى عليها الموحدون. فارتحل إلى مدينة فاس

أو انطولوجيا. وهي ثانياً تبحث في الوجود الذي يجعل من موجود معين موجوداً؛ وحينئذ تسمى «ميتافيزيقا خاصة» بيد أن الميتافيزيقا لا تبحث في الوجود بما هو موجود إلا بعد أن تبحث في وجود موجود يمتاز هو في الفلسفات الدينية: الله، وفي فلسفة هيدجر والوجودية هو: الانسان.

إن الميتافيزيقا تبحث في إمكان الوجود أن يكشف نفسه، أي في التركيب الانطولوجي للموجود.

إن الميتافيزيقا تتعقل الموجود في وجوده. وتسال الموجود في مختلف مناطق الوجود عن وجوده وتتعلق الموجود بعامة وفقاً للقسيمات الأساسية لوجوده، وتميّز - مثلاً - بين ما هو الوجود Was- Sein وبين واقعه أنه موجود Dass- Sein. وهي تضع الانسان - مثلاً - في التاريخ وتبحث في وجوده على هذا النحو. والوجود يحتاج إلى أن يتأسس: في الحاضر، أو الماضي، أو المستقبل. وقد تؤسس الموجود في الإلهي. ولهذا فإن الميتافيزيقا لا تؤسس فقط الموجود في الوجود، بل وتؤسسه أيضاً في وجود أعلى.

والسؤال الجوهرى في الميتافيزيقا هو: «لماذا كان ما هنا وجود ولم يكن ما هنا بالأحرى عدم؟» وهو سؤال يرد على المخاطر ذات يوم لا محالة، وربما يرد على خاطر الانسان عدة مرات في أثناء حياته. إنه يطرأ على خاطره حين يشعر باليأس أو الملل أو القلق الشديد، وحين يغمض عليه معنى الحياة.

وهذا السؤال يحتل المرتبة الأولى من تفكيرنا، لثلاثة أسباب. لأنه أولاً أوسع الأسئلة، وثانياً لأنه أعمق الأسئلة، وثالثاً لأنه أكثرها أصالة. (المدخل إلى الميتافيزيقا، ترجمة فرنسية، ص ١٤، باريس سنة ١٩٧٢).

### مراجع

- Aristote: La Métaphysique.
- Leibniz: Discours de Métaphysique
- I. Kant: Prolegomena zu einer jeden künftigen Metaphysik, 1783.
- H. Lotze: Metaphysik.
- H. Bergson: Introduction a la métaphysique
- M. Heidegger: Was ist Metaphysik? 1929.
- M. Heidegger: E'inführung in die Metaphysik, 1953.
- M. Heidegger: Kant und das Problem der Metaphysik, 1929.



عبد الرحيم بن علي البيساني - وكان كاتباً في ديوان الخليفة العاضد. وسيصبح القاضي الفاضل هو الحامي والسند لموسى بن ميمون. وبعد وفاة الخليفة العاضد في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م استطاع القاضي الفاضل أن ينال الخطوة عند السلطان الفعلي في مصر وهو صلاح الدين الأيوبي؛ وصار القاضي الفاضل مستشاره المقرب ورئيس ديوان الانشاء لديه. وقام القاضي الفاضل بالتوصية بموسى بن ميمون لدى الخليفة العاضد أولاً، وبعد ذلك بقليل لدى السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان في حاشيته أطباء يهود أشهرهم ابن جَمِيع. وبعد ذلك صار موسى بن ميمون طبيباً خاصاً لابن صلاح الدين، وهو الملك الأفضل نور الدين علي، الذي حكم مصر لفترة تقل عن عامين (سنة ١١٩٨ - ١٢٠٠) بوصفه وصياً على ابن أخيه.

وقضى موسى بن ميمون في مصر ثلاثين سنة يعالج المرضى العديدين، ويؤلف كتبه في الطب والفلسفة وتفسير بعض أسفار التوراة والتلمود. وتوفي بالقسطنطين (مصر القديمة الآن) في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ ميلادية.

وله في الطب عشرة كتب، كتبها كلها باللغة العربية، وقد وصلتنا كلها. إما في نصها العربي، أو في ترجمة عبرية أو لاتينية. وقد ذكر منها ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ١١٨) الكتب التالية:

- ١ - اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس.
- ٢ - مقالة في البواسير وعلاجها.
- ٣ - مقالة في تدبير الصحة - صنفها للملك الأفضل علي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.
- ٤ - مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة.
- ٥ - كتاب شرح العقار - وقد نشره د. ماكس مايرهوف تحت عنوان: «شرح أسماء العقار» (مطبعة المعهد الفرنسي بالقاهرة، سنة ١٩٤٠) وقدم له بمقدمة ممتازة.

ويضاف إلى ما ذكره ابن أبي أصيبعة:

- ٦ - مقالة في الربو
- ٧ - مقالة في الجماع
- ٨ - شرح فصول أبقراط
- ٩ - فصول موسى في الطب - وموسى هو النبي موسى ابن عمران. وهو كتاب ضخم توجد منه عدة مخطوطات عربية. أهمها المخطوط الموجود في مكتبة جوتا (المانيا)

بالمغرب بدعوة من يهودا بن سوسان، الذي كان آنذاك الخبير الأعظم لليهود في مدينة فاس وكان انتقاله مع أولاده الثلاثة في سنة ١١٥٨ ميلادية على الأرجح.

وقد درس موسى أولاً على أبيه مبادئ الديانة اليهودية. وفي أثناء جولاته ببلاد الأندلس، وخصوصاً أثناء إقامته بالمغرب، قرأ - إلى جانب «التوراة» و«التلمود» - مؤلفات أرسطو وشراحه المسلمين: الفارابي وابن سينا، كما قرأ الطب في كتب جالينوس وإبقراط وعبد بن زكريا الرازي وابن سينا. لكننا لا نعلم على يد من قرأ هذه الكتب وتعلم الطب والفلسفة. وليس ثمة دليل على صحة ما ادعاه الحسن الوزاني (المشهور بلقب «ليون الأفريقي») من أنه تعلم الطب على ابن زهر وابن رشد.

ويبدو أن اشتداد الموحدين على اليهود (والنصارى) في المغرب حمل بعضاً من هؤلاء على الهجرة. وقد كان من ضحايا هذه الحملة على اليهود في مراكش ربي بن سوسان في فاس. وكان لمصرعه أقوى دافع لجعل والد موسى بن ميمون يهاجر للمغرب فركب مركباً أقلته من أحد الموانئ المراكشية في أبريل سنة ١١٦٥، وبعد رحلة حافلة بالأخطار دامت ٢٨ يوماً وصلت السفينة إلى ميناء عكا في فلسطين. لكن الحرب الطاحنة بين المسلمين بقيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي وبين الصليبيين في فلسطين جعلت الإقامة مليئة بالأخطار فهاجرت أسرة موسى بن ميمون، بعد زيارة للقلمس، إلى مصر، حيث كان اليهود ينعمون بالتسامح الديني الكبير في عهد آخر خلفاء بني العباس في مصر: الخليفة العاضد (١١٦٠/٥٥٠ - ١١٧١/٥٦٧). واستقرت أسرة موسى بن ميمون نهائياً في القسطنطين (مصر القديمة الآن)، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم في سنة ١١٦٦ م وفي نفس السنة توفي والد موسى بن ميمون، كما غرق أخوه الأصغر الذي كان يشتغل في تجارة الأحجار الكريمة ويوفر للأسرة معاشها، كما غرقت ثروته. فاضطر موسى إلى ممارسة مهنة الطب، كي يكفل معاشه ومعاش الباقين من أسرته. وسرعان ما نجح في الطب والمعالجة، وصار طبيباً مشهوراً في القاهرة. وفي الوقت نفسه علا صيته بين أبناء طائفته من اليهود في القاهرة فعينه رئيساً للطائفة اليهودية، نظراً إلى معرفته العميقة بالشرائع اليهودية وكتابات الرابانيين، لكنه رفض أن يتقاضى مرتباً عن هذه الوظيفة.

ولامتيازته في الطب لفت إليه نظر القاضي الفاضل -



## ١٠ - مقالة في بيان الأعراس.

أما في اللاهوت اليهودي فلموسى بن ميمون مؤلفات ضخمة عديدة، بعضها كتب بالعربية، والآخر باللغة العبرية. ونذكر منها:

شرح على «المشأ» - وهو بالعبرية، ومنه قسم يعرف بالأبواب الثمانية ويبحث في الأخلاق، وفيه أيضاً عرض للعقائد الأساسية في الديانة اليهودية كما يراها موسى بن ميمون.

٢ - «شنتوراه» ويسمى أيضاً: «باد حرقة». وقد كتبه بالعبرية. وفيه تضمين للشرعية اليهودية، والقسم الأول منه يتناول العلم، وفيه بعض الأفكار الفلسفية.

أما كتابه الرئيسي، والذي به اشتهر مفكراً دينياً وفيلسوفاً، فهو كتاب «دلالة الحائرين». وقد كتبه باللغة العربية، لكنه أمر بأن يكتب بالحروف العبرية، وعلى حد تعبير موفق الدين عبد اللطيف البغدادي فإنه «لأن من يكتبه بغير القلم العبراني» (ورد في ابن أبي أصيبعة). ولهذا وردت معظم مخطوطاته مكتوبة بحروف عبرية، ومع ذلك توجد مخطوطات منه مكتوبة بحروف عربية. وأول من نشره هو سلومون منك S. Munk مع ترجمة فرنسية وبحروف عبرية في ثلاثة مجلدات في باريس ١٨٥٦-١٨٦٦ بعنوان Le Guide des Égarés وقد أعيد نشر الترجمة الفرنسية وحدها في باريس سنة ١٩٦٠). لكن صدرت له نشرة بحروف عربية في تركيا.

## أرثؤه الفلسفية

كتاب «دلالة الحائرين» موجه إلى علماء اليهود «الحائرين» بين ما تقرره الفلسفة العقلية وبين ما أتت به التوراة وشروحها وأخذ به أحبار اليهود - أي الحائرين بين ما يقضي به العقل وما جاء به النقل.

وتمهيداً للغرض الذي توخاه من تأليف هذا الكتاب يبين موسى بن ميمون صعوبة دراسة الفلسفة وما تحتاج إليه من دراسات تمهيلية في المنطق، ومن تطهير للنفس بالأخلاق الغاضلة والتحرز من الشهوات.

ويبين الصعوبات القائمة في التوفيق بين الحكمة والشرعية. وأولها أن الكلمات التي وصف بها الله في «التوراة» (والمقصود كل أسفار العهد القديم) هي ألفاظ مشتركة المعاني لهذا يحتاج الأمر أولاً إلى تفسير هذه الألفاظ المشتركة.

ويلاحظ موسى أن علماء اليهود اتبعوا أحد مذهبين: مذهب المتكلمين المسلمين، ومذهب أرسطو والمشائين. ولهذا يستعرض آراء المتكلمين المسلمين من ناحية، وآراء الفلاسفة المشائين وأرسطو من ناحية أخرى. وفي رسالته إلى صمويل ابن طيون - الذي ترجم «دلالة الحائرين» إلى اللغة العبرية - يقول إن فلسفة أرسطو فاقت فلسفة أفلاطون، وصارت هي الفلسفة الحقة؛ ويشير إلى أنه ينبغي لفهم فلسفة أرسطو الاستعانة بشروح الاسكندر الأفروديسي وثامسطيوس وابن رشد. وكان ابن رشد معاصراً لموسى بن ميمون؛ لكن موسى لا يذكره في «دلالة الحائرين»، ولعله إنما قرأ تفسيرات وتلخيصات ابن رشد لكتب أرسطو بعد كتابته «لدلالة الحائرين». ومن بين الفلاسفة المسلمين إنما يشيد موسى بن ميمون خصوصاً بالفارابي وراين باجه، أما ابن سينا فإنه يأخذ عنه بعض الآراء، ولا نراه شديد الحماسة له.

فقوله إن الوجود عَرَضٌ مأخوذ من قول ابن سينا إن الماهيات يستوي لديها الأمر بذاتها فيما يتعلق بالوجود، وإنما الوجود عَرَضٌ يحدث لها. لكنه لا يوافق ابن سينا في قوله إن النفس الانسانية تبقى بعد الموت، وأنها خالدة؛ وإنما يأخذ بما قاله الاسكندر الأفروديسي وغيره من المشائين من أن العقل الفعال هو القادر على البقاء، والعقل الفعال مشترك بين الناس جميعاً وليس فردياً أو خاصاً بفردي. وهذا يدل على أن موسى بن ميمون لم يتقيد بالعقيدة الدينية حين رآها تتعارض مع ما يقضي به العقل.

وفما يتصل بصفات الله يأخذ موسى باللاهوت السليبي، أعني القول بأنه لا يمكن وصف الله بصفات ثبوتية، بل فقط بسلوب، لأن الله ليس كمثله شيء. لهذا لا يمكن وصف الله بأية صفة إلا إذا كان معناها يختلف تماماً عن المعنى المفهوم منها في الاستعمال اللغوي العادي الخاص بالإنسان. ولهذا ينبغي أن تفهم كل الصفات التي نسبها إلى الله على أساس أنها تختلف تماماً عن نفس الصفات منسوبة إلى الإنسان، وهذا ينطبق أيضاً على صفة الوجود، فالله موجود لا للموجودات. ويدعو ميمون إلى المضي في السبيل السليبي، لأن من شأنه استبعاد كثير من الصفات الزائفة التي تنسب إلى الله.

أما للمعرفة الإيجابية فيما يتعلق بالله فإنها تختص فقط بتدبير الله للكون، وما في الكون من نظام يكشف عن الحكمة الإلهية. ومثل هذه المعرفة هي التي منحها الله لموسى، حسب

1941.  
 - Z. Diesendruck: «Maimonides' Lehre von der Prophetie», in G. A. Kohut, ed. Jewish studies in Memory of Israel Abrahams, New York, 1927, pp. 74-134.  
 - Moses ben Maimon, hg. v. W. Bacher, M. Braun, etc. 2 Bde, 1908- 1914  
 - J. Münz: Moses ben Maimon, Leben und Werke, 1912.  
 - L. Strauss: Philosophie und Gesetz. Beitr. zum Verständnis Maimons und seine Vorläufer, 1935.  
 - I. Epstein, ed. Moses Maimonides 1135- 1204. London, 1935.

#### نشرات «دلالة الحائرين»

أول نشرة للنص العربي بحروف عبرية مع ترجمة إلى الفرنسية هي تلك التي قام بها سلومون مونك بعنوان: Le Guide des Egarés, 3 vols, Paris, 1856- 1866 وقد أعيد طبعها بالأوفست في سنة ١٩٦٠ في باريس.

وترجمه إلى الانجليزية حديثاً مع مقدمة وتعليقات: شلومون شلومون، Shlomo Pinés، بعنوان: The Guide of the per .plcxed. Chicago, 1963

ونشر النص العربي بحروف عربية (مع ترجمة للاقتباسات من العهد القديم) في استامبول سنة ١٩٧٣.

ما ورد في سفر الخروج (اصحاح ٣٣). وعلم الانسان هو في هذه الحدود. وأفعال الله هي الحوادث الجارية في الطبيعة. ومن شأنها ألا تهلم، بل هي بالأحرى تديم النظام الثابت للطبيعة، بما في ذلك حفظ النوع البشري وسائر الأحياء.

والله هو العلة الفاعلية والعلة الصورية والعلة الغائية للكون. والله فعل محض، وعقل محض. ويأخذ عن الفارابي قوله إنه ما دام الله لا يعقل إلا ذاته، فإنه هو العقل، والعقل، والمعقول في آن معاً.

ويقرر ميمون أن العالم حادث وليس قديماً، لأن القول بقدم العالم من شأنه أن يدمر الأسس التي تقوم عليها الشريعة، مما يدل على أنه لم يكن عقلياً إلا في الحدود التي لا تتعارض مع صريح الشريعة الدينية.

والنبي لا يد أن تتوافر فيه قدرة عقلية ممتازة وقوة تخيل ممتازة. فإذا ما وجدت هاتان القوتان واقترن بهما السلوك الصالح، كانت النبوة ظاهرة طبيعية، ولا يمكن حرمان صاحبها منها. والقدرة العقلية للنبي شبيهة، على الأقل في النوع، بالقدرة العقلية التي لدى الفلاسفة؛ وهي تمكن النبي من قبول الفيض الرباني من العقل الفعال، الذي يمكن من تحويل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل. والعقل الفعال هو آخر العقول العشرة؛ ومجال عمله هو عالم ما تحت فلك القمر.

#### مراجع

- H.A. Wolfson: Kalam Harvard Press, 1976.  
 - Salo Baron, ed: Essays in Maimonides. New York,







ناير

Jean Nabert

فيلسوف فرنسي معاصر

ولد في أيزو Izeaux [ باقليم الروفينيه في جنوب شرقي فرنسا ] سنة ١٨٨١ ، وتوفي في Lactudy ( في اقليم بريتانى ) سنة ١٩٦٠ . وكان أستاذاً في ليسيه سان لو Saint - lo سنة ١٩٠٨ ، و ليسيه برست Brest سنة ١٩١٠ ، و ليسيه متس Metz سنة ١٩١٩ ، و ليسيه هنري الرابع في باريس سنة ١٩٢٥ .

تأثر ناير بكنت من ناحية ، و بيرجسون من ناحية اخرى . وتتبع فلسفته من التأمل في الشعور ( الوعي ) . وفي كتابه « التجربة الباطنة للحرية » ( سنة ١٩٢٤ ) - التي كانت رسالته لنيل الدكتوراة نجد تأثير هاملان أيضاً . وفيها يقرر ناير أن التجربة الباطنة للحرية لا تقوم إلا على الشعور وحده . وليس هناك وسيلة أخرى لبلوغ الذات الفاعلة . ومقولات الحرية ، في التجربة الباطنة ، ليست مستعارة من أشكال المعرفة الموضوعية . والتجربة الباطنة للحرية ، وإن كانت تركز في تاريخ فردي ، فإنها لا تنفصل عن تاريخ القيم الانسانية - وإن كان ثمة تجربة باطنة للحرية ، فإنها تتأسس على واقع الفعل الذي يتخللها ويفسر أشكالها المختلفة . على كل حال ينبغي عدم قصر التجربة الباطنة للحرية على الشعور بحرية الإرادة . وإن كان الشعور بحرية الإرادة وهماً ، فإن الحرية لن تضار إلا في الحالة التي نبدأ فيها بالخلط بينها وبين حرية الاستواء indifference بأن نقل الى العلية ، التي تعطي الفعل ، الكيفيات النفسانية كشعور غير مستقر .

وفي كتابه « عناصر من أجل تكوين أخلاق » ( سنة ١٩٤٣ ) يقرر « أنه ينبغي أن يكون من الممكن للشخص أن يريد القانون الأخلاقي ، وليس ثم بحث أهم من البحث عن الدوافع المحضة للأخلاقية ، ونقصد بذلك تعيين الإرادة بواسطة اهتمام مباشر بالقانون ، الذي هو بمثابة انجذاب محض يمارسه العقل على الذات . ولا شك في أن هذا الاهتمام ليس حسيّاً ؛ إنه يعبر عن العقل المباشر لامثال القانون في شعور الانسان . لكن من الحق أيضاً أن ما في هذا الدافع من جانب ذاتي هو الذي يجعل العقل ذا فاعلية ، ويجعله ينزل في إرادة واقعية » ( ص ١٠٦ - ١٠٧ ) . والمطلوب في الأخلاق « أن نحصل من الطبيعة ، وفي الطبيعة ، ومع ميول الانسان - على مشاركة في السعي لتحقيق غايات ليست من الطبيعة » ( الكتاب نفسه ، ص ١٠٧ ) . والعقل المحض لا يستطيع الحصول على هذه النتيجة : بل الشعور بالاشباع والرضا الناجمين عن فعل مطابق للمقتضيات العقلية والرغبة في بث المزيد من العقلية في حياة الانسان - هما اللذان يهيان أنوار العقل الديناميكية المقترن إليها . والقهر المنتظم الأعمى للميول « يحرمان الوجود شيئاً فشيئاً من كل قوة ، وكل عصارة ، برده الأخلاقية الى الشعور بقانون لا يمكن بعد أن ندرك كيف يمكن أن يجب ويراد » ( الكتاب نفسه ص ١٠٧ - ص ١٠٨ ) .

وهكذا يريد ناير أن يخفف من تشدد القانون الأخلاقي عند كنت - بواسطة العاطفة والإرادة والمحبة . فالقانون الأخلاقي يجب أن يجب ويراد ، إلى جانب توقيره والالتزام به .

كذلك يطالب ناير بالألا تؤخذ الفضيلة لذاتها ، لأنها إن

الفلسفية بعنوان : « أعمال فلسفية » Philosophische Arbeiten .

كرّس ناتورب حياته للمنهج النقدي الذي وضع أساسه كُنْت، وأراد أن يطبقه على المثالية العلمية والأخلاقية والجمالية والدينية . وتأثر بهرمن كوهن واتجاهه الى تجديد الكنتية . وسعى الى تحديد موقفه من كوهن وحركة الكنتية الجديدة بعامة . فرأى أن ما هو مهم في كنت هو اكتشاف المنهج المثالي بوصفه أساساً نقدياً وتبريراً « للحقائق » الكبرى في العلم والأخلاق والفن والدين والمنطق . لكنه مع ذلك رأى أن في منهج كنت وفلسفته أموراً عديدة تحتاج الى تعديل أو إصلاح . كذلك لاحظ أن بعض آراء المدرسة الكنتية الجديدة في ماريبورج تشابه مثالية فشته وهيغل، ولكنه أبرز فروقاً عميقة فيما بين هؤلاء .

ولما توفي كوهن في سنة ١٩١٨ أخذ في استعراض ما قام به كوهن من تفسيرات لمذهب كُنْت، وما أسهم به في الكنتية الجديدة، فرأى أن في مذهب كوهن فجوات وأموراً غير يقينية فيما يتصل بهل ينبغي توحيد العلم عند الجذور أو في القمة .

على أن الكتاب الرئيسي لناتورب هو : « مذهب الصور عند أفلاطون ، مدخل الى المثالية » ( سنة ١٩٠٢ ) . ففيه عرض متعمق مستقصى لنظرية المعرفة والمشاكل الفلسفية عند اليونانيين ، مع بحث في نظريات المؤسسين المحدثين للعلم والفلسفة . وفيه يريد أن يحرر تفسير نظرية أفلاطون في الصور - من التأويلات النفسانية والميتافيزيقية التي خاض فيها مفسرو أفلاطون منذ أيام أرسطو حتى الآن . ورأى أن « الصور » الأفلاطونية ليست أشياء ، ولا أموراً من عالم آخر ، بل هي قوانين ومناهج ، إنها الأساس المنطقي للعلم . وهكذا فسّر أفلاطون تفسيراً كنياً ، أعني على ضوء مذهب كنت . وبهذا أثار الكثير من الجدل والمناقشات ، فقام بالدفاع عن وجهة نظره هذه في محاضرة ألقاها في جامعة برلين .

وفي كتابه « الأسس المنطقية للعلوم الدقيقة » ( ليتسك ، سنة ١٩١٠ ) بحث عن الأسس المنطقية للعلوم ، وحاول رد الوقائع العلمية إلى الصيرورة .

وبعد الحرب العالمية الأولى ازداد اهتمامه بمسائل التربية والاجتماع وفلسفة التاريخ والفلسفة السياسية . فأصدر في

صارت كذلك سرعان ما تنفذ ، لأن الأنا يتوقف حيثذ عن الشك في ذاته ، ويطلب له أن يستغرق نفسه في فكرة المزيد من القيمة . « إن الفضيلة ، إذا انفصلت عن الغايات التي تحمل القيم ، تصير غير مكترثة لمادة الأخلاق ، وترد الواجب كله إلى نية في الفضيلة . ويميل طبيعي يرى الأنا ، وقد صار مهتماً بذاته ووجوده الخاص أكثر من اهتمامه بالقيمة الذاتية لأفعاله ، نقول : يرى الأنا أن أفعاله تصفر شيئاً فشيئاً من المعنى . . . ويلوح أنه لا شك في أن الاهتمام الموجه الى الفضائل وحدها يصرف الوعي عن النظر في الغايات ، التي هي شروط تحقيقها ، ويحفزه على اعتقاد أن هذه الغايات هي في الحقيقة غير مكترث لها ، إذا ما قورنت بالفضائل التي تزودها فقط بالفرصة لكي تمارس . ولو كان على الفضائل أن تقبل أن تكون في خدمة الغايات وأن تفتى فيها ، إن صحّ هذا التعبير ، وأن تجرد هكذا من استقلالها الذاتي ، فذلك لأن هذه الغايات هي الترجمان الضروري للقيمة في العالم . واللحظة التي فيها يمكن الفضائل أن تدعي القيام بذاتها ستكون هي اللحظة التي تكون فيها الأخلاقية قد استنفدت مهمتها في هذه الدنيا » ( الكتاب نفسه ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ) .

وله أخيراً كتاب بعنوان : « بحث في الشر » ( سنة ١٩٥٥ ) يتناول البحث في الجانب غير القابل للتبرير في العالم وفي الحياة .

## ناتورب

### Paul Natorp

فيلسوف ألماني من مؤسسي الكنتية الحديثة .

ولد في دسلدورف في ٢٤ يناير سنة ١٨٥٤ ، وتوفي في ماريبورج في ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٤ . تعلم في جامعات برلين ويون واشترسبورج . وعين مدرساً مساعداً في ماريبورج سنة ١٨٨١ ، وأستاذاً مساعداً في سنة ١٨٨٥ ، وأستاذاً ذا كرسي سنة ١٨٩٢ حتى وفاته . وفي سنة ١٨٨٨ كان يدير تحرير مجلة « الكراسيات الشهرية الفلسفية » Philosophische Monatshefte . ثم تولى نشره محفوظات في الفلسفة التنظيمية « ( سلسلة جديدة ) في سنة ١٨٩٥ . واشترك مع هرمن كوهن في الاشراف على اصدار سلسلة من المؤلفات

## ندونصل

**Maurice Nédoncelle**

مفكر ديني فرنسي.

ولد في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٠٥، وتوفي في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٧٦ في استراسبورج.

وكان أستاذاً للفلسفة في «كلية اللاهوت الكاثوليكي» بجامعة استراسبورج منذ سنة ١٩٤٥.

وتقوم فلسفته على فكرة «الشخص» La personne. وقد عبّر عنها في رسالة الدكتوراه التي حصل عليها في سنة ١٩٤٣، وعنوانها: «تبادل الشعور» Réciprocité des Consciences. وآخر كتبه بعنوان: «ما بين الذوات والانطولوجيا» Intersubjectivité et ontologie.

ونذكر من كتبه الأخرى:

- «الشخص الإنساني والطبيعة»
- «نحو فلسفة في الحب والشخص»
- «الوعي واللوغوس»
- «استكشافات في النزعة الشخصية».

راجع عنه مقالاً تأييدياً في مجلة Les Etudes philosophiques، عدد يناير - مارس سنة ١٩٧٨ ص ١١٦-١٢٣، بقلم Jean Pucelle.

## النفس

في تحديد معنى النفس، وجد في تاريخ الفلسفة اتجاهان: اتجاه يحدد النفس من حيث علاقتها بالجسم، والآخر يحددها من حيث هي جوهر مستقل قائم بذاته.

وفي الاتجاه الأول نجد أرسطو يحدّد النفس بأنها: «كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة» وهنا نشور مشكلة العلاقة بين النفس والجسم: هل كل منهما جوهر قائم بذاته، وبجتماع معاً كجزئين من كل؟ أو النفس هي الصورة الجوهرية لجسم عضوي (آلي)، وتبعاً لذلك فإنها الصورة والهيولى لجوهر مركب واحد هو الكائن الحي؟ في هذه الحالة الأخيرة، وهذا رأي أرسطو، تكون الوحدة بين النفس والجسم شبيهة بالعلاقة بين الشمع والطابع المطبوع فيه. وفي

التربية كتابه «تربية الزمالة» (برلين، سنة ١٩٢٠)، وفي الاجتماع كتابه: «الفرد والجماعة» (سنة ١٩٢١)، وفي فلسفة التاريخ كتابه: «عصور الروح» (سنة ١٩١٨)، وفي فلسفة السياسة كتابه: «المثالية الاجتماعية» (سنة ١٩٢٠) وفيه يدعو إلى اشتراكية مثالية.

## أهم مؤلفاته

- «نظرية المعرفة عند ديكارت»
- Descartes' Erkenntnis theorie , 1882
- «الدين في حدود الإنسانية»
- Religion innerhalb der Grenzen der Humanität , 1894
- «التربية الاجتماعية»
- Sozial pädagogik , 1899
- «نظرية الصور عند أفلاطون»
- Platons Ideenlehre , 1903
- «الأسس المنطقية للمعلوم الدقيقة»
- Die logischen Grundlagen der exakten Wissenschaften , 1910
- «الفلسفة، ihr Problem und ihre Probleme»
- Philosophie , 1911
- «الفلسفة: مشكلتها ومشاكلها»
- «علم النفس العام»
- Allgemeine Psychologie , Bd . I , 1912
- «الألماني ودولته»
- Der Deutsche und sein Staat , 1924

## مراجع

- Die Philoso-hie der Gegenwart in selbstdarstellungen , Bd . I ( 1925 )
- فيه يعرض مذهبه بنفسه
- H . Bellersen : Die Sozial pädagogik Paul Natorps . Paderborn , 1928
- A . Buchenau : Natorps Monismus der Erfahrung und das Problem der Psychologie . Langens alza , 1913 .
- Ernst Cassirer : « Paul Natrop » , in Kantstudien , v . 30 ( 1925 ) , pp . 273 - 298 .



وإذا استقرينا الآيات القرآنية التي وردت فيها الكلمة «روح» والكلمة «نفس» - وجدنا أن «الروح» تستعمل بمعنى إلهي، كما في الآيات: ﴿وأيدينا بروح القدس﴾ (البقرة ٨٧، ٢٥٣)، ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (النساء ١٧١)، ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ (النحل ٢)، ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ (الاسراء ٨٥)، ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينزل يوم التلاق﴾ (غافر ١٥)، ﴿تخرج الملائكة والروح إليه﴾ (المعارج ٤)، ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ (النبا ٣٨) - ففي كل هذه الآيات الروح لا تدل على الروح أو النفس الانسانية، بل على كيان إلهي ينزل من الله، ويقرب من معنى الكلمة (اللوعوس).

وفي مقابل ذلك، نجد أن كلمة «نفس» تدل على معنى إنساني خالص، وغالباً بمعنى ذات الانسان، ومبدأ الحياة فيه - كما في الآيات: ﴿ثم توفي كل نفس ما كسبت﴾ (البقرة ٢٨١)، ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ (البقرة ٢٢٣)، ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ (المائدة ٤٥)، ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها﴾ (الأنعام ١٦٤)، ﴿يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ (النحل ١١١)، ولهذا فإن النفس مائة كما في الآيات: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ (لقمان ٣٤)، ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ (العنكبوت ٥٧).

وفي الاستعمال الاصطلاحي الفلسفي ميز بين النفس والروح، وجعلت صفة الروحية من صفات النفس في بعض المذاهب، بينما البعض الآخر يصف النفس بأنها مادية. وفي هذه الحالة يعنون بالروحية حين توصف بها النفس: اللامادية فالروحية تقتضي اللامادية.

لكن العكس ليس بصحيح، أي أن اللامادية لا تقتضي بالضرورة: الروحية. فمثلاً العلاقات بين الأشياء هي لا مادية، لكنها ليست روحية: مثل العلاقة بين العلة والمعلول، العلاقة بين الوسيلة والغاية.

وتتميز النفس بخاصيتين أساسيتين هما: الروحية، والجوهرية؛ ولكن من الصعب التوفيق بين كلتا الصفتين، لأننا في العادة ننظر إلى الجوهر في المقام الأول على أنه مادي.

ويمكن تعريف الروحية بأنها: صفة الموجود الذي وجوده وأفعاله مستقلة استقلالاً جوهرياً عن المادة.

هذه الحالة أيضاً، لا توجد نفس منفصلة عن جسم، مادامت هي صورته؛ وبالتالي هي تفتى بفناء بدنها.

أما في الاتجاه الثاني، ويمثله أفلاطون وديكارت، فإن النفس جوهر لا مادي، قادر على الوجود بنفسه مستقلاً عن البدن. وفي هذه الحالة توجد النفس قبل الجسم الذي تحل فيه، وبعد انفكاك صلتها به. ومن هنا يؤكد خلودها.

واللفظ: «نفس» سواء في العربية وفي اليونانية واللاتينية وما انحدر منها من لغات صوتية مأخوذ من التنفس، هوب الريح. فالكلمة اليونانية  $\Psi\chi\chi\tau\iota$  من الفعل  $\Psi\psi\chi\epsilon\iota\omega$  (يتنفس، يهب)؛ والكلمة اللاتينية المناظرة anima مأخوذة من الكلمة اليونانية  $\alpha\psi\psi\mu\sigma$  (= ربح). وتقال في صيغة المذكر animus بمعنى مبدأ التفكير بوصفه أسمى من الـ anima التي هي مبدأ الحياة. والـ animus هو أيضاً مقر الوجدانات والشجاعة. وفي العربية «الروح» قريبة من «الريح».

وهذه التفرقة بين anima و animus قد بعثها في العصر الحاضر كارل جوستاف يونج، العالم النفساني، وأطلق anima على العنصر المؤنث، و animus على العنصر المذكر في النفس العميقة التي يضعها في مقابل الشخص persona. وهو يفهم الشخص persona بالمعنى الاشتقاقي اللاتيني للكلمة أي: قناع؛ ويعرفه بأنه الطباع الخارجي للفرد. وهكذا فإن الـ anima والـ animus يمثلان الشخصية الباطنة اللاشعورية، وهي مكتملة للشخصية الخارجية.

ولما كانت النفس هي مبدأ الحياة، فإن الكائنات المتنفسه هي الكائنات الحية، وهذا أظهر في اللغات الأوربية حيث كلمة animal تدل على الحيوان.

وقد يميز في اللغات الأوربية بين (F.) âme أو Seele (G.) وبين esprit أو Geist، على أساس أن الـ âme (Seelc) هي مبدأ الحياة العضوية، وأن esprit (Geist) هي مبدأ التفكير العقلي أو العقل. ويفرق البعض بينهما على النحو التالي: «الـ âme هي âme من حيث هي مرتبطة بالجسم في وجودها وفعلها، وهي esprit من حيث ان من الممكن أن تكون منذ الآن مستقلة عن الجسم في أفعالها. والتميز بين anima و spiritus ليس يعني شيئاً آخر غير هذا» (A. Mager)، ذكره A. Marc في كتابه «علم النفس التأمل» ج ٢ ص ٢٦٤.

على المعرفة. ولما كان الفيلسوف ياكوب فريدرش فريس (١٧٧٣-١٨٤٣) هو أكثر من اهتم بإيضاح منهج كنت النقدي، فقد انكب نلسون على دراسة مؤلفات فريس. وقد جعل من فريس موضوعاً لرسالة للحصول على الدكتوراه. ثم أنشأ بعد ذلك «جمعية ياكوب فريدرش فريس» وهدفها تنمية الفلسفة النقدية. وفي الفترة من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩١٨ كان ينشر «السلسلة الجديدة لأبحاث مدرسة فريس».

وقد دافع نلسون عن «نقد العقل المحض» ضد اساءة تفسيره من جانبي نزعتين: النزعة المتعالية transcendentalism والنزعة النفسانية. فأخذ على الأولى أنها تضحي بالجانب المنهجي في نقد العقل، وأخذ على النزعة النفسانية اختناقها في إدراك طابع المسائل الفلسفية وحلؤها، وهي مستقلة عن التصورات النفسانية. وقرر هو أن مهمة نقد العقل هي بيان ترابط الأفكار في عملية المعرفة وبيان المعايير التي بموجبها تطبق هذه الأفكار بواسطة تحليل الخطوات العينية في المعرفة وإرجاع هذه الأفكار المترابطة إلى أصولها في مكانة المعرفة بواسطة النظرية النفسانية. إنه ليس من مهمة العقل إثبات الصدق الموضوعي للمبادئ التي يعبر بواسطتها عن هذه المعايير. وهذه المبادئ ذات طابع فلسفي أكثر منه نفسانياً.

وطبق نلسون منهجه النقدي في ميادين أخرى: في الأخلاق، والسياسة، والتربية وفلسفة القانون

#### أهم مؤلفاته

- Ueber das sogenannte Erkenntnis problem, 1908.
- Die kritische Ethik bei Kant, Schiller und Fries, 1914.
- Die Rechtswissenschaft ohne Recht, 1917.
- Die neue Reformation, 2 Bde, 1918.
- Volesungen über die Grundlagen der Ethik, 3 Bde, Leipzig 1917- 32.
- Spuk, Einweibung in das Geheimnis der wahrsagerkunst Oswald Spenglers, Leipzig, 1921.

#### مراجع

- Minna Specht und W. Fichler: Leonard Nelson zum Gedächtnis. Frankfurt, 1953.
- A. Kronfeld, in Abh. der Friessche Schule, N.F. 5 (1930), mit Bibliographie.

#### مراجع

- Maine de Biran: Nouvelles Considérations sur les rapports du physique et du moral de l'homme, 1823; in Oeuvres de Maine de Biran, ed. P. Tisserand, t. XIII, 1949.
- H. Bergson: Matière et mémoire, essai sur les rapports de l'esprit au corps, 1896.
- Hans Dreyer: Der Begriff Geist in der deutschen Philosophie von Kant bis Hegel, Erg. Heft d. Kantstudien, 7; 1907, IV- 106 P.
- W. McDougall: Body and Mind. London, Methuen, 1911, XIX- 384 p.
- L. Busse: Geist und Körper, Seele und Leib. Leipzig, 1903; 2. Aufl. 1913, X- 567 p.
- B. Russell: The analysis of Mind. London, Allen and Unwin, 1921, 310 p.
- John Laird: The Idea of the Soul. London, 1924, VII- 192 p.
- C.D. Broad: The Mind and its place in Nature. London 1925, X- 674 p.
- L. Klages: Der Geist als Widersacher der Seele, III Bde, 1929- 1932.
- L. Lavelle: De l'âme humaine. Paris, Aubier, 1951, 558 p.

#### نلسون

#### Leonard Nelson

فيلسوف نقدي ألماني، ومؤسس مدرسة فريس الجديدة.

ولد في برلين في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢، وتوفي في جيتجن في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٧. تدرّس الفلسفة والرياضيات وصار مدرساً في جيتجن سنة ١٩٠٩. وفي سنة ١٩١٩ صار أستاذاً مساعداً في جامعة جيتجن.

رأى نلسون في كتاب «نقد العقل المحض» لكانت بحثاً في المنهج، أهميته تقوم في الفحص النقدي عن قدرة العقل

حرب السبعين؛ وفي أكتوبر عاد إلى بازل، وفيها تعرف إلى أوفريك.

١٨٧٢: حضر حفلة وضع الحجر التأسيسي لمسرح بايرويت في مايو.

١٨٧٥: تعرفه إلى كيزلنس (بيتر جامست).

١٨٧٦: أقيمت الحفلات الموسيقية الأولى في بايرويت. وتعرف إلى زيه.

١٨٧٦-١٨٧٧: سنة إجازة. وفي سورتته عرف ملفيدا فون ميزنوج. آخر حديث له مع فجنر.

١٨٧٨: نهاية العلاقات بين فجنر ونيتشه. في يناير: أوبرا «برميفال» إلى نيتشه؛ في مايو أرسل «انساني، انساني جداً» إلى فجنر.

١٨٧٩: استقالته من التدريس بسبب المرض، وقضى الشتاء في سورتته مع ريه وملفيدا.

عهد التنقل:

١٨٧٩-١٨٨٩: صار أستاذاً على المعاش، يتنقل شارداً: ومن سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٨٨٨ كان يقضي الشتاء في نيس والريف في سلزماريا، وفي الربيع والخريف يتنقل بين عدة أماكن منها البندقية التي كانت أحب البلاد إليه. وفي سنة ١٨٨٨ أقام في تورينو.

١٨٧٩: في فيزن، وسان مورتنس، وناومبرج؛ وأصيب بمرض خطير؛ وترك كرسي الأستاذية في بازل.

١٨٨٠: في ناومبرج، وريفنا، والبندقية، ومارينباد، وناومبرج، وامستريزا، وخنوة.

١٨٨١: في جنوة، وريكوارو، وسلزماريا، وخنوة (وفيها يسمع أوبرا «كارمن» ليزيه).

١٨٨٢: في جنوة، ومسينا، وروما، ولوتسرن، وبازل، وناومبرج، وتاوتنبرج، وناومبرج مرة أخرى، ولييتسج، وريلو. وفي مارس سافر إلى صقلية ومن أبريل حتى نوفمبر سنة ١٨٨٢: كانت صلته مع لو سالوميه.

١٨٨٣: في ريلو، وخنوة، ونيس التي قضى بها أول شتاء له فيها، وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٨٣ توفي فجنر.

نيتشه

### Friedrich Nietzsche

فيلسوف ألماني، مؤسس فلسفة القوة، ومن أعظم الفلاسفة تأثيراً في القرن العشرين.

لوحة حياته

عهد الطلب:

١٨٤٤/١٠/١٥: ولد في ريكن (بالقرب من لُنين) بمقاطعة سكسونيا ابناً لأحد القساوسة.

١٨٤٩: توفي والده القس كارل لدفع نيتشه

١٨٥٠: انتقال الأسرة إلى ناومبرج

١٨٥٨-١٨٦٤: دخل مدرسة الشوليفورتا بالقرب من ناومبرج في أكتوبر سنة ١٨٥٨، وظل بها حتى ١٨٦٤/٩/٧.

١٨٦٠-١٨٦٣: دخوله في الجمعية الأدبية: «جرمانياء»

١٨٦٤-١٨٦٥: كان طالباً بجامعة بون (فصلين دراسيين في الفيلولوجيا واللاهوت) وتلميذاً لرتشل ويان.

١٨٦٥-١٨٦٧: في جامعة لِيْتْسِج (أربعة فصول دراسية في الفيلولوجيا)، وكان فيها تلميذاً لرتشل؛ وفي سنة ١٨٦٦ بدأت صلوات الصداقة بينه وبين روده.

١٨٦٧-١٨٦٨: قضى مدة الخلعة العسكرية في ناومبرج.

١٨٦٨-١٨٦٩: لِيْتْسِج. وفي خريف سنة ١٨٦٨ تعرف إلى رتشرد فجنر في لِيْتْسِج.

عهد الأستاذية:

١٨٦٩-١٨٧٩: صار أستاذاً مساعداً للفيلولوجيا القديمة في جامعة بازل في فبراير سنة ١٨٦٩ قبل حصوله على الدكتوراه.

١٨٦٩: صداقته مع يعقوب بوركهوت؛ وفي ٢٨ مايو ألقى درس الافتتاح عن «هوميروس والفيلولوجيا القديمة».

١٨٦٩-١٨٧٢: زيارته لفجنر في تریشن بالقرب من لوتسرن؛ وفي مارس سنة ١٨٧٠ صار أستاذاً.

من أغسطس إلى أكتوبر ١٨٧٠: ممرض متطوع في

واعتقد أن في وسعه أن يضمن، على نحو إيجابي، تاريخ الإنسانية الأوربية. وفي مقابل ذلك نجد نيتشه يقابل الماضي برفض قاطع ودون تحفظ؛ انه يرفض كل منقول ويدعو إلى تحول جذري. ومع نيتشه يصل الإنسان الأوربي إلى تقاطع طرق. وهيجل ونيتشه هما معاً الشعور التاريخي الذي يعود على نفسه ويتأمل في كل ماضي الغرب ابتغاء تقدير قيمته. وكلاهما يقف عن قصد في دائرة المفكرين الأوائل اليونانيين، وكلاهما يعود إلى الأصول، وكلاهما هيرقليطي النزعة. والعلاقة بين هيجل ونيتشه هي العلاقة بين «نعم» تقبل كل شيء و«لا» تعارض في كل شيء. وهيجل يفلح في القيام بعمل تصوري هائل وذلك بإعادة التفكير في كل أطوار الفهم الإنساني للوجود وتكميلها، وبالجمع بين كل الموضوعات المتناقضة في تاريخ الميتافيزيقا، جمعها في وحدة عليا من مذهبه، وابتعاد هذا التاريخ على هذا النحو إلى نتيجة. أما في نظر نيتشه، فإن هذا التاريخ نفسه ليس إلا التاريخ الطويل جداً لغلطة، وهو يحاربه بحماسة لا اعتدال فيها ويجدل عنيف، وهو في كراهيته الغاضبة ومرارته الساخرة شديد الاتهام وسوء الظن. إنه يتجلى لنا مليئاً بالعقل، لكنه أيضاً مسلح بكل ألوان المكر والدهاء المستورة التي هي من شيمة كاتب الرسائل الهجومية. ومن أجل نضاله، يستخدم كل الأسلحة التي تحت تصرفه: تحليله النفسي الدقيق، سخريته اللاذعة، حماسه، وخصوصاً أسلوبه. وهو في هذا يبذل ذاته كلها، لكنه لا يحرص على تدمير الميتافيزيقا بطريقة تصورية. فهو لا يحطم مستعينا بوسائل الفكر المجرد للوجود؛ إنه يرفض التصور concept، ويتناضل ضد النزعة العقلية، وضد انتهاك الفكر للواقع. ونيتشه يحارب الماضي على جبهة واسعة. إنه يتناضل ليس فقط ضد المنقول tradition الفلسفي، بل وأيضاً ضد الدين وضد الأخلاق التقليديين. ونضاله يتخذ شكل نقد واسع للحضارة، وهذا أمر بالغ الأهمية (اويجن فنك: «فلسفة نيتشه»، ترجمة فرنسية، ص ٩-١٠، باريس سنة ١٩٦٥).

ذلك أن نيتشه رأى أن الإنسانية قد عاشت حتى الآن على عبادة أصنام، أصنام في الأخلاق، وأصنام في السياسة، وأصنام في الفلسفة. لهذا رأى أن مهمته هي الكشف عن هذه الأصنام وتحطيمها في كل ميدان من هذه الميادين الثلاثة. ولنبدأ بالأخلاق.

تحطيم أصنام الأخلاق.

١٨٨٤: في نيس، والبندقية، وسلزماريا، وتسوريش، ومنتونا، ونيس مرة أخرى.

وفي أغسطس زاره هينرش فون اشتين في سلزماريا؛ وفي سبتمبر التقى بالشاعر كلر.

١٨٨٥: في نيس، والبندقية، وسلزماريا، وناومبرج، وليبتسج، ونيس.

١٨٨٦: في نيس والبندقية، وليبتسج، (آخر مقابلة له مع ارثن روده) وسلزماريا، وروتا، ونيس.

١٨٨٧: في نيس، وكانو بيو، وتسوريش، وكور، وسلزماريا، والبندقية، ونيس.

١٨٨٨: في نيس، وتورينو، وسلزماريا، وتورينو-محاضرات برنلمس عن نيتشه في جامعة كويتاجن بعنوان: «الفيلسوف الألماني فريدرش نيتشه»

١٨٨٩: تورينو

وفي يناير أصيب بالجنون، وأقام في مستشفيات بازل وينا.

١٨٩٠: في ناومبرج عند أمه.

١٨٩٧: وفاة أمه وعناية اخته به في فيمار.

١٩٠٠: وتوفي نيتشه في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٠٠ في فيمار.

#### فلسفته

«فريدرش نيتشه واحد من أعظم الشخصيات المصيرية في التاريخ الروحي للغرب، ورجل أقدار يرغمنا على اتخاذ قرارات نهائية، وعلامة استفهام رهيبية على الطريق - الذي حدده تراث الأوائل وألفا عام من المسيحية - الطريق الذي سلكه الإنسان الأوربي حتى الآن. وقد حاك في صدر نيتشه أن هذا الطريق سيكون طريق الضلال، وأن الفكر قد ضل طريقه، ولا بد إذن من العودة إلى الوراء، عودة تعني رفض كل ما كان يعد حتى الآن «مقدساً، وخيراً»، و«حقاً». واسم نيتشه يرتبط بنقد جذري للدين، وللفلسفة، وللعلم وللأخلاق. لقد حاول هيجل محاولة جبارة هي فهم كل تاريخ العقل على أنه تطور كل مراحل أعياد التفكير فيها وينبغي تقويم كل مرحلة منها وفقاً لقانونها الخاص بها.

إلى نظريته المشهورة في التفرقة بين نوعين من الأخلاق: أخلاق السادة، وأخلاق العبيد، أي الأخلاق التي كان مصدرها الممتازين من الانسانية، والأخلاق التي كان مصدرها رعاها والطبقات المنحطة فيها.

قال نيتشه: «في أثناء رحلاتي التي قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضيعة التي سادت العالم، والتي لا زالت تسوده حتى اليوم، لاحظت وجود عدة صفات معينة بدت مقرونة بعضها ببعض، وظهرت دائماً في وقت واحد، حتى إنني استطعت أن اكتشف وجود نوعين رئيسيين من الأخلاق مختلفين اختلافاً جوهرياً: فهناك أخلاق للسادة، وأخرى للعبيد... وذلك لأن تحديد القيم الأخلاقية قام به: إما جنس السادة المسيطرين الشاعرين شعوراً كاملاً والفخوريين بوجود مسافة طويلة تفصل بينهم وبين الجنس المسود المغلوب؛ أو قام بهذا التحديد جماعة الأتباع والرعية والعبيد المنحطين من كل الأنواع».

إذن ترجع الأخلاق في مجموعها إلى طابعتين أو صنفين رئيسيين: أخلاق السادة، وأخلاق العبيد.

ذلك لأن الحضارات الكبرى نشأت في البدء بأن قامت طائفة من الأرستقراطيين الممتازين، على شكل حيوانات مفترسة شقراء، تنزع الأرض في آسيا وأوروبا وجزر المحيط الهادي، مغيرة على كل الأراضي التي تمر بها. وعلى هذا النحو نشأت الحضارة اليونانية، والرومانية، والجرمانية.

فإذا مرت هذه الطائفة بشعب من الشعوب أخضعتهم وفرضت عليه سلطتها، واحتقرته وباعدت ما بينها وبينه من مسافات، مكونة طبقة خاصة متميزة من الطبقة المسودة والرعية. واخترعت لنفسها شرعة من القيم الأخلاقية تؤكد بها سيادتها واستمرار سيطرتها وسيطرتها. «فالأحكام الشرعية التي تصدرها الطائفة الحربية تقوم على قوة جسمية وصحية زاهرة، وتراها تعنى بكل ما يتصل بالقوة والغزو والحرب والمخاطرة والصيد والرقص والألعاب البدنية، وعلى العموم كل ما يكشف عن حيوية فياضة حرة مسرورة».

أما تحديد القيم الأخلاقية عند الرجل من أبناء هذه الطبقة فمتصل بطبيعته وأطماعه والمركز الذي هو فيه بالنسبة إلى الطبقات التي في مركز أخط من مركزه.

فهو يسمى «الجيد» من بين الناس من هو قرينه ومساويه في القوة والكمال؛ ويسمى «الردي» من هو أخط

وللقيام بهذه المهمة يتخذ نيتشه منهجاً للبحث خاصاً. فالمنهج الخاص بالبحث في الأخلاق له ثلاث خطوات: الأولى هي أن نصنف الأحكام الأخلاقية التي صدرت في الماضي عند مختلف الشعوب؛ ومن هذا التصنيف يتوافر لدينا تاريخ عام للأخلاق. فإذا انتهينا من إعداد هذا التاريخ، فعلى أن نفسر الوقائع الأخلاقية ونعرف ما تدل عليه، فنحدد أي نوع من الناس كانت عندهم هذه الأخلاق، وما الصلة بين طبائعهم وأحوالهم النفسية وبين هذه القيم الأخلاقية التي اتخذوها. ثم تلي هذه الخطوة خطوة أخيرة، هي خطوة الحكم على كل صنف من هذه الأصناف، فنعلم حيثما أي الأصناف أقدر على البقاء في الحياة والارتفاع بها والسمو بطبيعتها.

والخطوة الأولى قد قام بها الأخلاقيون الانجليز من قبل، أمثال استيورت ميل واسبنسر ولبوك وتيلور. وهؤلاء عرفهم نيتشه ودان لهم بالكثير من الملاحظات في هذا الباب. لكنهم لم يستطيعوا أن يخطوا الخطوتين التاليتين، فكان على نيتشه أن يخطوهما.

وأول نتيجة استخلصها نيتشه باستخدام هذا المنهج هي أنه رأى أن هناك أنواعاً عدة من الأخلاق، وأن لكل نوع منها طابعه الذي يميزه، وأن هذا الطابع الخاص إنما نشأ عن كون مصادر الأخلاق عديدة، وأن المعايير والقيم الأخلاقية يخلفها أناس مختلفون. واختلاف الأخلاق عند الناس يدل على أن مجموعة من الأحكام الأخلاقية بعينها لا يمكن أن يرجعها الإنسان إلى النوع الانساني في ذاته «وإنما هي ترجع إلى وجود شعوب وأجناس إلخ، شعوب تريد أن تؤكد ذاتها بإزاء شعوب أخرى، وطبقات تريد أن تجعل بينها وبين الطبقات الأدنى منها حداً قاصلاً».

ثم إنه يجب التفرقة بين الفعل الأخلاقي، وبين الحكم الأخلاقي. فالحكم الأخلاقي على الأفعال غير ثابت، ويختلف باختلاف الناس. وله دوافع عدة تؤدي إلى إصداره على النحو الذي يصدر عليه.

وهنا يجمل نيتشه على كل الأحكام الأخلاقية التي أصدرتها الانسانية، مبنياً في تحليل دقيق - الينايع التي منها استقيت هذه الأحكام، كاشفاً عن المصادر الحقيقية القوية معاً التي تصدر عنها، فاضحاً الأوهام التي وقعت الانسانية في أحيايلها حتى الآن، والتي أوقعت هي نفسها فيها عن طريق الغالبية العظمى منها، وهي الطبقة المنحطة. وانتهى من هذا

منه مكانة ومن يخضع له. ومن هنا فإن أحكام الخير والشر، وكل القيم الأخلاقية، تقع على الأفراد، لا على الأفعال الذين يأتونها.

وهذا الأرستقراطي محب للغزو، معتز بقوته، قاس على نفسه وعلى الآخرين. يحتقر الرحمة ويشمتر من الضعف والضعفة وجميع أنواع الاستخذاء. وأبغض شيء لديه الكذب ونحوه من نفاق وملق. ولا يتسامح، ولا يعرف أنصاف الحلول، والمساومة، والمداهنة.

لكنه مع ذلك يميل إلى العفو عن الآخرين، لا لأنه يحب العطف، لكن لأن قوته غزيرة، فتراها تفيض بنفسها على الآخرين. ومع هذا فإنه لا يقبل مطلقاً من الآخرين العفو، لأنه بقوته يأخذ ما له دون أن يتنظر حتى يفضّل به عليه الآخرون.

ولا يحفل بالحياة ولا نعمها، ولا بالطمأنينة والسلام؛ إنه يجد النعيم في الانتصار والقوة والتحطيم، ويشعر بسرور عميق وهو يعذب الآخرين. وما يقدم إليه من شر يقابله بالمثل، بل بأضعافه. وهو يقنن التقاليد والماضي، ويتخذ من ذكرياته مجالاً للتفاخر وينوعاً للقوة. لهذا فهو يوقر أجداده، ويقدم لأرواحهم القرايين. ولا يلبث هؤلاء شيئاً فشيئاً حتى يصبحوا آلهة التي يعبدونها. وفي عبادته لهم يقنن صفاته النبيلة هو نفسه، ويجعلهم رمزاً لكل الفضائل التي يتحلّى بها الأرستقراطي.

ولما كانت هذه الطائفة هي الأقلية دائماً، فإنها تعمل جهدها كي تحافظ على صفاتها، وتظل نقية لا يتطرق إليها الانحلال من جراء اتصال الشعوب المسودة أو الطبقات الدنيا بها. ومن أجل هذا تعنى بالتربية، ويكل ما يتصل بحياة الأسرة، حتى تضمن لنفسها استمرار السيادة والبقاء.

لكن، هل يرضى المسودون والرعية عن هذه الحالة التي وضعهم فيها الأرستقراطيون؟ كلا، بل يحاولون أن يثوروا عليها ويحرروا منها. ولما كانوا ضعافاً، لا يستطيعون أن يقابلوا عمل الأرستقراطيين بالمثل، فإنهم يخلقون قيماً أخلاقية جديدة تخالف القيم التي وضعها الأرستقراطيون: فيحلون شراً ما يراه هؤلاء خيراً، والعكس بالعكس. فإذا كانت صورة الرجل الجيد عند الأرستقراطيين هي صورة الرجل المحارب للغامر، الذي يريد السيطرة والغزو، ويفيض بالقوة، ويحتقر التواضع والجبن، ولا يعرف الرحمة والتلطف -

فإن صورة الرجل الخير عند الآخرين، عند هؤلاء العبيد والمسودين، هي صورة الرجل المسالم الوديع، المتواضع، الذي لا مطمع له في غزو ولا رغبة له في سيادة، والذي يحسب الضعف فضيلة، والتعاطف والرحمة أسمى القيم الأخلاقية. وبينما نجد الأرستقراطيين يقبلون على الحياة، يريدون أن يعلوا بها ويجعلوها خصبة مليئة، نجد العبيد يعزفون عن الحياة ويتشائمون منها، وينظرون إليها في شيء من الجزع وعدم الثقة، وكأنها شيء مخيف أمامهم، فالسود لا يتق، ويركن إلى الشك دائماً. وبينما كان الأرستقراطي يفرق بين «الجيد» و«الردئي»، ترى العبد والمسود يفرق بين «الخير» و«الشرير». ومن هو الشرير في نظره؟ الشرير هو بالطبع هذا الذي أخضعه وأثار في نفسه الخوف منه، هو هذا الأرستقراطي القوي السيد المسيطر. فالشر في نظره إذن هو القوة والبطولة، هو كل هذه الصفات النبيلة التي امتاز بها الأرستقراطي وكانت سرّ تفوقه وسيادته. وإذا كانت الصراحة هي الطابع الرئيسي في أقوال الأرستقراطي، نجد المسود لا يستطيع أن يكون صريحاً، بسبب جبنه وضعفه، فيلجأ إلى المكر والمداورة والمراوغة. والتناقض أظهر طابعه.

لكن المسود لا يستطيع أن يسمي هذه الصفات، التي يجلبها ويرى فيها الخير، بأسمائها الحقيقية، وإنما يقلب القيم ويسميها بعكس ما هي عليه في الواقع: فيسمي العجز: «إحساناً وطيبة»؛ ويسمي عدم قدرته على رد الفعل مباشرة وبالمثل: «صبراً»، ويعد هذا الصبر من أمهات الفضائل. ويسمي حاجته إلى الآخرين وعجزه عن الاعتماد على نفسه: «رحمة». ويسمي عجزه عن إدراك المطامع السامية والبحث عن المطالب العالية: «تواضعاً»! وهكذا، وهكذا، نجد يندر القيم الصالحة النبيلة، ويضع مكانها قيماً تدل على الضعف والذلة والخنوع والعجز، وتصدر عن طبيعة كطيعة النودة الزاحفة على الأرض، في مقابل طبيعة الحيوان المفترس القوي التي يتميز بها الأرستقراطي. وتراه يعارض هذه القيم «العليا» في نظره، بما لدى الأرستقراطي من قيم «شريرة»، فيقول: إن البائسين وحدهم هم الأخيار، والفقراء والعاجزين والحقراء هم وحدهم الصالحون. وهؤلاء الذين يتألمون ويتمذّبون، هؤلاء المرضى المعوزون المشوهون هم وحدهم أيضاً الطيبون الأبرار الذين ياركهم الله، وهم وحدهم الذين سيحفظون بالنعيم. أما أنتم، معشر النبلاء الأقوياء، فأنتم الأشرار، القساة؛ أنتم الظالمون، النهمون؛ أنتم الفجّار، وستظلون أبد الأبدن ملعونين قد يؤتم بغضب من الله.



يجيب نيتشه: «إن ثورة العبيد في الأخلاق تبدأ حين يصبح «الذحل» نفسه خالقاً، يلد القيم. هذا الذحل الصادر عن هؤلاء المخلوقين الذين حرموا من المقدرة على رد الفعل الحقيقي، وهو العمل الإيجابي، فلا يجدون عوضاً إلا في انتقام وهمي. فبينما تنشأ كل أخلاق اأرستقراطية عن توكيد لذاتها وقول «نعم!» لنفسها يسوده شعور بالانتصار، نجد أخلاق العبيد تبدأ بأن تقول «لا!» لكل ما لا يكون جزءاً منها وكل ما «يخالفها»، وكل ما هو «ليس إياها». ودلاً هذه هي عملها الإيجابي الخالق. وهذا القلب في النظرة التي تصنع القيم - تلك النظرة الموحى بها بالضرورة من العالم الخارجي، بدل أن تصدر عن الذات وتقوم على الذاتية - هو من خصائص «الذحل»: فأخلاق العبيد في حاجة دائمة وقبل كل شيء إلى عالم خارجي مضاد لها، كي تنشأ وتقوم.»

ولكي يبرروا شرعة قيمهم الجديدة اخترعوا شيئين هما: أولاً: وجود ذات وحقيقة منفصلة عن الجسم، ولها كيانها الخاص، ويسمونها «الروح». وثانياً: القول بحرية الإرادة، وأن الانسان يستطيع أن يخرج عن طبيعته وجوهره ويصبح عكسها تماماً. فمن طريق هذين الاختراعين تمكن الضعفاء والمضطهدون، من كل الأنواع، تمكنوا من أن يخدعوا أنفسهم، ثم غيرهم من بعد، فيزعموا أن الضعف بإرادتهم واختيارهم وليس مفروضاً عليهم، وأن هذا الفعل أو ذلك، مما يضطرهم إليه العجز، ميزة وفضيلة. وضاعفوا مخترعو هاتين الوسيلتين إيمان الناس بها عن طريق الملحقات التي بنيت عليها أو بالأحرى والأصرح بنيا عليها: مثل فكرة العقاب والثواب، والزهد، والتبتل إلخ.

تلك إذن ثورة العبيد، وقلبيهم للقيم الارستقراطية، وسيطرتهم بقيمهم الجديدة على القيم النبيلة؛ وهذا هو تاريخ الأخلاق جميعها على مرّ عصور الانسانية: صراع بين قيم السادة وقيم العبيد في الأخلاق، ومحاولة كل منها السيادة على الأخرى، ونضال بين هذين النوعين من القيم: «جيد وريء» من ناحية، و«خير وشريء» من ناحية أخرى.

ويرى نيتشه أن اليهود هم أول من قاموا بثورة العبيد في الأخلاق. فهم الذين تجاسروا على قلب معادلة قيم السادة: خير = نبيل = قوي = جميل = سعيد = محبوب من الله - إلى معادلة قيم العبيد: خير = وضع = ضعيف = مشوه = باتس = مملؤ بالخطايا. والشعب اليهودي هو الشعب الذي ذاع في نفسه الذحل في أعنف درجاته وأخطرها، لكثرة ما لاقاه من

ومصدر كل هذه القيم الجديدة التي يضعها العبيد وللسودون هو الشعور بالعجز، ثم الحقد العنيف الدفين على الأقوياء الأرستقراطيين النبلاء. ولا يلبث هذا الشعور والحقد أن ينقلبا إلى أشياء في قدرتها أن تخلق قيماً أخلاقية.

وهنا يكشف نيتشه ينبوعاً فياضاً استقت منه الأخلاق السائدة حتى اليوم ما لديها من قيم، ويسمي هذا ينبوع باسم «الذحل» *Ressentiment*، وهو الشعور المتكرر بإساءة سابقة لقيها الانسان، ولم يستطع أن يردّها ويتشفى من قلمها، لعجز فيه عن رد الفعل في الحال، فتراه يتذكرها من بعد، ويُجترها بين حين وحين، مما يزيد في قوة هذا الشعور؛ ويضاعف من طاقته، ولا يلبث حتى يتجمع، ويضغط بعضه بعضاً، ويغلي في نفس صاحبه غليان الماء من تحته نار قوية وهو مفلق عليه في مرجل، فيحاول أن يخدمصرفأله في قنوات أخرى غير القناة الأصلية الطبيعية، وهو رد الفعل المباشر ومقابلة العمل بالمثل. فيلجأ إلى طرق خفية غير مباشرة، يرد بواسطتها على الإساءة الأولى التي تلقاها ولم يستطع الاجابة عنها في الحال.

إن السادة يحترفون العبيد ويرهقونهم، ويجلون كل شيء مباحاً بإزائهم: من تنكيل بهم وتعذيب وقسوة، واعتداء على كرامتهم، وخط من مركزهم. ويعذبونهم ميداناً واسعاً لإبراز حب السطو والغزو، وإظهار السيطرة، وتصريف شعورهم القوي بفيض قوتهم. فالطابع السائد إذن في سلوكهم بإزائهم هو الاحترار والامتهان. وحيث يتولد عند العبيد، بإزاء هذه الاهانات القاسية والإساءات المتوالية، شعور «الذحل»: فهم، من جهة، لا يستطيعون أن يسكتوا عنها لأن الطابع الرئيسي في خلق الانسان هو القوة وغريزة السيطرة، ومهما حاول أن يكتبها في نفسه فلا بد أن يظهرها حين تتاح لها الفرصة للظهور. وهما بدورهما يدفعان الانسان دفعا قوياً إلى تهيئة هذه الفرص وإعداد الظروف الملائمة كي تتجا آثارها. وهو، من جهة أخرى، لا يقدر على أن يرد الفعل رداً سريعاً، ولا أن يجيب عن هذه الإساءات وتلك الإهانات في الحال، بسبب شعوره بعجزه. ومن هنا يكم عاطفة الانتقام في نفسه، ويظل على هذا النحو يخفي هذا الشعور من بعد مدة.

كيف تنشأ ثورة العبيد على السادة لكي يدمعوا الأخلاق النبيلة ويصنعوا القيم الارستقراطية، وليأثروا لأنفسهم بما احتملوه؟



مقصود: فمبادئ الفكر (الشيء، الجوهر، الذات، الموضوع، العلية، الغائية إلخ.) ليست غير أوهام ضرورية للحياة، نافعة مفيدة، وأدوات للظفر والامتلاك. وقام بتحليل ما يسمونه «قوانين الفكر الضرورية» (قانون الذاتية، قانون التناقض، قانون الثالث المرفوع)، فقال إن الذاتية (الهوية) شرط في التفكير، ولكنها ليست شرطاً في الوجود، لأن الوجود تغير مستمر وصيرورة دائمة. وقانون التناقض يقوم على قانون الذاتية، إنها مظهران لقانون واحد: أحدهما إيجابي (الهوية)، والآخر سلبي (التناقض).

٢ - وقال ثانياً إن العقل في حياة الإنسان لا حاجة إليه، وهو خطر، وغير ممكن. فلا حاجة إلى العقل في حياة الإنسان لأن عدم معقولة شيء من الأشياء ليست حجة ضد وجوده، بل بالأحرى إنها شرط لوجود هذا الشيء، لأن الوجود يتناقض مع العقل ويتناق مع المعرفة العقلية.. كما أن العقل خطر، لأنه يدعي معرفة كل شيء. ولو كان الأمر كذلك، إذن لما استطاع الناس أن يجيؤا طويلاً. يقول نيتشه: «لو كانت الإنسانية قد سارت حقاً على مقتضى العقل، أعني على أساس «أفكارها» و«علمها»، إذن لكان قد قضى عليها منذ زمن طويل». ذلك أنها في الواقع لم تعلم عن طريق العقل إلا الشيء الضئيل جداً، مما لا يكفي مطلقاً للوفاء بمتطلبات الحياة كلها.. والعقل هو أيضاً غير ممكن، لأنه ليس هناك عقل واحد، وإنما هناك عقول كثيرة تتميز، ومن هنا يختلف الرأي بين العقول المختلفة بإزاء الأمر الواحد. فلا مجال إذن للتحدث عن «العقل» بصيغة الإطلاق والعموم.

٣ - كذلك ينكر نيتشه ثالثاً ذلك الوهم الذي انشاق في تياره الفلاسفة، حين زعموا وجود عقل كلي يحكم الكون ويسوده، فتصبح الظواهر كلها والأحداث معقولة. «إن العقل الوحيد الذي نعرفه هو هذا العقل الضئيل الموجود في الإنسان».

ولهذه الأسباب حمل نيتشه على الفلاسفة كلها، أو بعبارة أدق: على كل الفلاسفة الذين قالوا بالوجود الثابت، بدلاً من القول بالتغير والصيرورة، والذين تصوروا العقل على النحو الذي بيناه. وكان نصيب سقراط من هذه الحملة النصيب الأوفى، لأنه أول من قبل العقل ودعا إلى عبادته في كل شيء، حتى ظن أن العقل وحده هو المعرفة (فالمعنى واحد) نستطيع أن نجعل المرء خيراً: فالفضيلة في نظره تقوم على المعرفة. ولهذا فإن نيتشه يحسب أن سقراط هو بدء انحلال

اضطهاد من سادوه منذ زوال دولتهم القديمة: فلما تجمع هذا الذحل ووصل إلى أقصى درجات غليانه، ثار على قيم سادته من الرومان. فكان بين اليهود والرومان كفاح قاس، بلغ أعنف صورته في المسيحية التي ليست في نظر نيتشه إلا صورة من صور اليهودية: فعنها أخذت التراث من القيم، وكان كبار رؤسائها من اليهود: أمثال القديس بطرس والقديس بولس. فالمسيحية هي خليفة اليهودية إذن.

حملت المسيحية لواء النضال ضد السادة، وكان لها النصر ولقيمتها الظفر في القرن الثاني بعد الميلاد. فسادت القيم المسيحية في أوروبا وفي الكثير من بقاع العالم التي دخلتها واستمرت هذه السيادة حتى اليوم. ولكن النضال ضدها استمر مع ذلك ولم يهدأ. ففي عصر النهضة الأوروبية بدأت المثل والقيم الأرستقراطية تستيقظ من جديد، وقام رجال النهضة يعارضون بالقيم القديمة: قيم الرومان واليونان الصادرة عن أخلاق السادة، ما أتت به المسيحية من قيم سادت طوال العصور الوسطى، وهي القيم الصادرة عن ثورة العبيد الأخلاقية.

وانتصرت قيم العبيد مرة ثانية بفضل حركة الإصلاح الديني التي قام بها مارتن لوتر في القرن السادس عشر، وهي حركة شعبية مبعثها الذحل الألماني والانجليزي.

ثم انتصرت مرة ثالثة انتصاراً حاسماً هائلاً عن طريق الثورة الفرنسية: حيث وقعت آخر طبقة من النبلاء والأرستقراطيين والسادة، وهي الطبقة التي عاشت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في فرنسا، صريعة للغرائز الشعبية المليئة بالذحل، فكانت الثورة الفرنسية ظفراً صاحباً لقيم العبيد. «ولكن حدث في الحال، ووسط هذا الصخب، شيء هائل جداً لم يكن متوقفاً مطلقاً: إذ قام المثل الأعلى القديم على قدميه في جلال وجسارة أمام أعين الإنسانية وضميرها... إذ ظهر نابليون كأخر إشارة إلى الطريق الآخر (طريق قيم السادة)... ولكن نابليون سقط سريعاً، وزال بزواله آخر شعاع من نور قيم السادة في أوروبا».

### أصنام الفلسفة

وبعد أن حطم نيتشه أصنام الأخلاق، توجه إلى أصنام الفلسفة. فوجد أن صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل. فهاجم العقل من وجهات نظر ثلاث:

١ - فقال أولاً إن المنطق، وهو ابن العقل البكر، وهم

الفلسفة اليونانية، وأن فلسفته هو ومن تلاه فلسفة اضمحلل.

وبعد أن حطم نيتشه الصنم الأكبر - وهو العقل - بقي عليه أن يحطم بضعة أصنام صغيرة، أولها هو القول بوجود عالم آخر بجانب هذا العالم، عالم يسمونه عالم الحقائق في مقابل عالم الظواهر، الذي هو عالمنا المدرك، وما يستتبع هذا من التفرقة بين ظواهر الأشياء، وبين الأشياء في ذاتها على حد تعبير كنت.

### إرادة القوة

وكان على نيتشه بعد هذا التحطيم للقيم السائدة في الأخلاق والفلسفة أن يقدم شرعة القيم الجديدة التي يؤمن بها:

«ما الخير؟ كل ما يعلو، في الانسان، بشعور القوة وإرادة القوة، والقوة نفسها.»

«ما الشر؟ كل ما يصدر عن الضعف.»

«ما السعادة؟ الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، - وبأن مقاومة ما قد قُضي عليها.»

لا رضى، بل قوة أكثر فأكثر؛ لا سلام مطلقاً؛ بل حرباً، لا فضيلة، بل مهارة...

الضعفاء المعجزة يجب أن يفنوا: هذا أول مبدأ من مبادئ جننا للانسانية. ويجب أيضاً أن يساعدوا على هذا الفناء.

أي الرذائل أشد ضرراً؟ - الشفقة على الضعفاء العاجزين.»

تلك شرعة القيم الجديدة التي أعلنها نيتشه. وكلها صادرة عن فكرة القوة وتقديس القوة، لأنه رأى أن إرادة القوة هي جوهر الوجود، وعن طريقها يمكن تفسير كل مظاهر الوجود.

فليس الوجود إلا «الحياة»؛

وليس الحياة إلا «إرادة»؛

وليس هذه الإرادة إلا «إرادة القوة».

ويعتقد شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود.

وعن طريقها فحسب، نستطيع أن نعرف ما الوجود:

فالوجود «تعميم لفكرة الحياة والإرادة والعقل والسيرورة».

ذلك لأن الحياة «تقويم»، وذلكي يحيا الانسان لا بد له من أن يضع قياً. وهذا التقويم نفسه هو الوجود أيضاً.

إن الحياة لا تستطيع أن تحيا إلا على حساب حياة أخرى، لأن الحياة هي النمو، وهي الرغبة في الاقتناء، والزيادة في الاقتناء. وما دامت الحياة نمواً ورغبة في الاقتناء وفي المزيد من الاقتناء، فإنها محتاجة إلى شيء آخر خلفها وخارجها كي تتحقق. فكان الحياة إذاً إرادة استيلاء على الآخرين، وإرادة سطو واستغلال.

إلا أن الحياة لا تحيا على حساب الآخرين فحسب، بل أيضاً على حساب نفسها. فالحياة لا بد أن تنتصر على نفسها، بأن تطرح دائماً من ذاتها شيئاً يريد أن يفنى ويموت. «لا بد للإنسان أن يريد الزوال، كي يستطيع النشأة من جديد... فالتطور: بأن يلبس المرء مثلاً الأرواح، هذا هو حياتك، وهذا ما قدر عليك».

ومعنى هذا كله أن الحياة «إرادة قوة» أي إرادة سيطرة واستيلاء، وتملك وتسلط واخضاع.

ولما كانت إرادة القوة لا يمكن أن تظهر إلا بواسطة الكفاح، «فإنها تبحث دائماً عن كل ما يقاومها». ولما كانت المقاومة صدىً ووقفاً في وجه الشيء المقاوم، أي معاكسة بمعنى عام، فإنها تستلزم، بالضرورة، الألم. فكان إرادة القوة، أي الحياة والألم لا ينفصلان. إن إرادة القوة تنزع نحو المقاومات، ونحو الألم. وفي جوهر كل حياة عضوية إرادة ألم. والحياة في حاجة ضرورية إلى الاستشهاد والمعارضة، ولا غنى لها مطلقاً عن الخصومة والعداوة.

وإرادة القوة هي مقياس القيم في الحياة: فتحديد المستوى وتعيين الطبقات، كل هذا تفصل فيه إرادة القوة. وليس في الحياة شيء ذو قيمة غير درجة القوة. وإن القيمة هي أكبر مقدار من القوة يستطيع الانسان أن يحصله ويستولي عليه. ولكن المهم ليس هو كمية القوة، بل كقيمتها.

وآيات فتشت في كل مرافق الحياة ومظاهر الوجود، فلن نجد غير إرادة القوة. فهي الدافع الحقيقي في النفس، وهي العامل الجوهري في الجماعة والدولة.

لكن من الضعيف، ومن القوي؟

الضعيف الشخصية هو المضطرب التركيب الروحي، العديم الوحدة، أما القوي فهو الذي «تتجه فيه كل القوى

للدورة السابقة عليها، ولا اختلاف مطلقاً بين الواحدة والأخرى. فكان الوجود كله صورة واحدة تتكرر بلا انقطاع في الزمان اللانهائي: «كل شيء يغتو، وكل شيء يعود؛ وإلى الأبد تلور عجلة الوجود. كل شيء يبدي، وكل شيء يجيا من جديد، وإلى الأبد تسيّرسة الوجود. وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل: «فكل الأحوال التي يمكن هذا العالم أن يصل إليها، قد وصل هو إليها من قبل، لا مرة واحدة، بل مرات لا نهائية. فهذه اللحظة التي أنا فيها الآن وجدت من قبل عدة مرات، وستعود من جديد وقد وزعت فيها كل القوى كما هي في هذه اللحظة بالضبط؛ وهكذا الحال بالنسبة إلى اللحظة التي سبقت هذه اللحظة، وتلك التي ستلوها. أيها الانسان! إنك، كالساعة الرملية، ستعود من جديد وستذهب من جديد دائماً أبداً.»

ونظرية العود الأبدي لا تقضي على الحرية، بل هي التي تخلصها من الحاجز الذي كان يحذ منها حتى الآن، حلجز ثبات الماضي. ذلك لأنه لما كان الماضي هو أيضاً المستقبل، فإن النفس حرة فيما خلقت وفيما لم تخلق. ومن يعرف العود الأبدي يشعر بأنه فوق كل استعباد للزمان. إن الآن ليس هو اللحظة الهاربة، بل هو التصادم بين المستقبل والماضي. وفي هذا التصادم يستيقظ الآن لنفسه ويعي ذاته.

### الانسان الأعلى

إن الغاية من القيم التي نضعها للانسانية ليست أن نوفر لها السعادة أو اللذة أو المنفعة أو ما شاكل هذه الغايات الهينة التافهة. فهذه أمور لا تستحق أن تطلب غاية، لأنها كلها تتحدث عن اللذة والألم وهما شيان ثانويان، لا أوليان، وتابعان، لا أصليان. وإنما ينبغي على القيم التي نضعها أن تعمل على السمو بمستوى الانسانية، والارتقاء بها في سلم العلاء على الحياة، حتى نصل إلى خلق نوع جديد، لا أقول: من الانسانية، وإنما من فوق الانسانية. فالانسان الحالي، أو الانسان عامة، لا قيمة له في ذاته، وإنما قيمته هي في أنه وسيلة إلى خلق هذا النوع الممتاز. ولهذا يقول زرادشت، لسان حال نيتشه، مخاطباً الشعب المتجمع:

«إنني أدعوكم بدعوة «الانسان الأعلى»، فإن الانسان شيء يجب أن يُعلي عليه. فماذا عملتم من أجل العلاء عليه؟ كل الكائنات حتى الآن قد خلقت شيئاً أعلى منها: فهل تريدون أنتم أن تكونوا جُزراً لهذا المد العظيم، وتفضلون

متوترة نحو غاية واحدة، وتتضاغط دون صعوبة على شكل نيره، أي أن قواه كلها مرهفة وموجهة إلى غاية واحدة، مكوّنة بذلك قوة دافعة ضخمة تسيطر عليه وتدفعه دفعاً.

الضعيف هو رجل التساهل والتوسط والمسلومة. أما القوي فهو من «يمثل الطابع المضاد للموجود الكائن أقوى تمثيل».

وليس للضعيف قدرة على مقاومة الإغراء؛ أما القوي فيحول الإغراء إلى طبيعته هو بأن يتمثله ويجعله جزءاً من قدره. ولهذا فإن الضعيف يهول في الإغراء تهويلاً شديداً ويصبح سلبياً بلزائه، لا يستطيع أن يرد فعله، ولا أن يحول دون سيطرته عليه. ولكن القوي يقابله برد فعل شديد، لا ليعلمه ويتجنبه، بل ليسوده ويخضعه لذاته، وتراه يقول: «ما لا يقتلني يزدني قوة»، أي أنه يقبل على أكبر الأشياء خطراً وينشد أعظم المخاطر، طالما لم يكن من شأنها أن تقتله وتقضي عليه؛ فإلى أن تكون قادرة على القتل والإفناء، يظل يطلبها ويقبل عليها. وهو بهذا يزداد قوة، لأن إرادة القوة قد اصطدمت بأكثر مقاومة وشعرت بأعظم انتصار.

وحياة الضعيف فقيرة جوفاء؛ أما حياة القوي فخصبة، كلها فيض وثراء. وكلاهما يتألم: الضعيف يتألم من العوز والإملاق، والقوي يتألم من الإفراط في الثروة والقبضان.

الضعيف يريد السلام، والوفاق، والحرية، والمساواة؛ يريد أن يجيا حياة المحافظة على البقاء. أما القوي فيفضل المشكلات والمائل من الأشياء. الواحد منها لا يريد أن يخاطر بشيء، بينها الآخر (القوي) يريد المخاطرة بكل شيء.

وتبعاً لمبدأ القوة ينبغي تقويم المعارف الانسانية: فبمقدار ما تعلق بالشعور بالقوة تكون درجة «الحرية» فيها؛ وبمقدار ما تكون وسيلة للحصول على القوة من أجل تشكيل الأشياء بحسب إرادتنا، تكون قيمتها.

### العود الأبدي

الوجود تغير وصيرورة. لكن الوجود ليس صيرورة مستمرة لا نهائية، وإنما تأتي فترة هي ما يسميه نيتشه باسم «السنة الكبرى للصيرورة»، عندها تنتهي دورة من دورات الصيرورة كيما تبدأ دورة جديدة. وهذه الدورة الجديدة تأتي عليها مستها الكبرى فتنتهي من جديد. وهكذا زمان الوجود: مقسم إلى دورات. وكل دورة من هذه الدورات تكرر تام

- Philologika : «أبحاث فيلولوجية» ١٨٦٦-١٨٧٧
- ١٨٦٩-١٨٧٢ : «مؤلفاته عن اليونان» (نشرت في ج ٩ من مجموع مؤلفاته) و«حول مستقبل منشآتنا التعليمية» Ueber die Zukunft unserer Bildungsanstalten (نشرت بعد وفاته)
- ١٨٧٠-١٨٧١ : «نشأة المأساة عن روح الموسيقى» Die Geburt der Tragödie aus dem Geiste der Musik (أول ما ظهر سنة ١٨٧٢)
- ١٨٧٢-١٨٧٥ : «الفلسفة في عصر المأساة عند اليونان» Die Philosophie im tragischen Zeitalter der Griechen (نشر بعد وفاته)
- ١٨٧٣ : «تأملات في غير الأوان»، ج ١ : «دافيد اشتروس» Unzeitgemässe Betrachtungen: David Strauss (أول ما ظهر في أغسطس سنة ١٨٧٣)
- ١٨٧٢-١٨٧٤ : «تأملات في غير الأوان»، ج ٢ : «فوائد التاريخ للحياة ومضاره» Vom Nutzen und Nachteil der Historie für das Leben (أول ما ظهر في فبراير سنة ١٨٧٤)
- ١٨٧٤ : «تأملات في غير الأوان»، ج ٣ : «شوبنهاور المرئي» Schopenhauer als Erzieher (ظهر سنة ١٨٧٤)
- ١٨٧٥ : «نحن الفيلولوجيين» Wir Philologen (نشر بعد وفاته)
- ١٨٧٥-١٨٧٦ : «تأملات في غير الأوان»، ج ٤ : «ريتشارد فاجنر في بايرويت» Richard Wagner in Bayreuth (ظهر سنة ١٨٧٦)
- ١٨٧٥-١٨٨١ : المجلد الحادي عشر من مؤلفاته : من عهد «انساني، انساني جداً» و«الفجر».
- ١٨٧٦-١٨٧٨ : «انساني، انساني جداً» Mens-chliches. Alzumenschliches (ظهر في مايو سنة ١٨٧٨)
- ١٨٧٨-١٨٧٩ : «أمشاج من الآراء والأمثال» Vermischte Meinungen und Sprüche (ظهر في مارس سنة ١٨٧٩)

الرجوع إلى الحيوانية على العلاء على الانسانية؟!

ما القرد بالنسبة إلى الانسان؟ أضحوكة وعارٌ مؤلم. وهكذا يجب أيضاً أن يكون الانسان بالنسبة إلى الانسان الأعلى: أضحوكة وعاراً مؤلماً...

إن الانسان الأعلى معنى الأرض. وعلى إرادتكم أن تقول: ليكن الانسان الأعلى معنى الأرض...

الحق أن الانسان نهر نجس. ولا بد للمرء أن يكون محيطاً كي يستطيع أن يضم في جوفه نهراً نجساً، دون أن يتدنس.

فأنا أدعوكم بدعوة الانسان الأعلى: فإنه هذا المحيط...

فالقاية من الانسانية إذا هي خلق هذا الانسان الأعلى. ومن أجل هذا كان لا بد للقيم الجديدة التي نضعها أن تكون عاملة على إيجاد هذا النوع، مهينة لظهوره.

وأول ما يمهد لوضع هذه القيم أن يكون الانسان حراً قد حطم كل القيود، وبدد كل «هذه الأوهام الثقيلة الخطيرة التي أنت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية»، ولم يعد يؤمن بالقيم التقليدية، وإنما يخلق تحليفاً حراً، دون خوف ولا وجل، فوق الناس والأخلاق والقوانين والتقويم التقليدي للأشياء.

فإذا تحرر من هذه القيود كلها فليتمد على نفسه وحده. لكن هذه الحرية ليس معناها السير على الهوى، وإنما «الحرية معناها أن لا يابه الانسان للعناء والقسوة والحرمان، بل والحياة نفسها؛ وأن تكون لغرائز الرجولة والنضال وحب الظفر السيادة على الغرائز الأخرى، مثل غريزة السعادة».

ومن أجل هذا يريد أن يمجا حياة الخطر، ولا يد له في كل حين أن يحيط به الخطر من كل جانب: فإذا لم يأت الخطر إليه، فليقدم هو من تلقاء نفسه ليووجهه. وإذا لم يجده مائلاً فيما حواليه، فليخلقه خلقاً. فهو يسير على هذه القاعدة السامية المتمثلة بحكمة وقداسة وهي:

«كي تنجي من الوجود أسمى ما فيه، عيش في خطراً»

#### مؤلفاته

١٨٥٨ - ١٨٦٨ : «مؤلفات الشباب» Jugendschriften (نشرت بعد وفاته).

١٨٨٨ : «قضية فجنر» Der Fall Wagner (نشر سنة ١٨٨٨). «شفق الآلهة» Götzendämmerung (نشر في يناير ١٨٨٩) «علو المسيح» Der Antichrist (نشر سنة ١٩٠٢) «نيتشه ضد فجنر» Nietzsche contra Wagner (نشر سنة ١٩٠١) «هذا هو الانسان» Ecce homo (نشر سنة ١٩٠٨).

١٨٨٤ وما يليها: «مدائح ديونيزوس»  
Dionysosdithyramben

### مراجع

- عبد الرحمن بدوي: نيتشه. ط١ القاهرة سنة ١٩٣٩؛ ط٥، الكويت، سنة ١٩٧٥.
- Charles Andler: Nietzsche, sa vie et sa pensée, 6 vols, Paris, 1920- 31.
- Lou Andreas- Salomé: Friedrich Nietzsche in seinen Werken, 1894.
- Alfred Bäumler: Nietzsche, der Philosoph und Politiker, 3 Aufl. 1937.
- Ernst Bertram: Nietzsche, Versuch einer Mythologie. Berlin, 1929.
- Martin Heidegger: Nietzsche. 2 Bde. Pfullingen, 1961.
- Eugen Fink: Nietzsches Philosophie. stuttgart, 1960.
- Karl Jaspers: Nietzsche. München, 1936.
- R. Lombardi: Nietzsche. Roma, 1945.
- Richard Ochler: Nietzsches Philosophisches Werden. München, 1926.
- Alois Rühl: Nietzsche, der Künstler und der Denker. Stuttgart, 193.

١٨٧٩ : «الرحالة وظله» Der Wanderer und sein Schatten (ظهر في ديسمبر سنة ١٨٧٩).

١٨٨١-١٨٨٦ : للمجلد الثاني عشر من مجموع مؤلفاته: من عهد «العلم المسرور» و«زرادشت» (نشر بعد وفاته).

١٨٨٠-١٨٨١ : «الفجر» Morgenröte (نشر في يوليو سنة ١٨٨١).

١٨٨١-١٨٨٢ : «العلم المسرور» ج١-٤ Fröhliche Wissenschaft (نشر في سبتمبر سنة ١٨٨٢).

١٨٨٣ : في فبراير الجزء الأول من «زرادشت» Also sprach Zarathustra (نشر في مايو سنة ١٨٨٣) وفي يونيو ويوليو الجزء الثاني من «زرادشت» (نشر سنة ١٨٨٣).

١٨٨٤ : في يناير الجزء الثالث من «زرادشت» (نشر سنة ١٨٨٤).

١٨٨٤-١٨٨٥ : الجزء الرابع من «زرادشت» (نشر سنة ١٨٩٢).

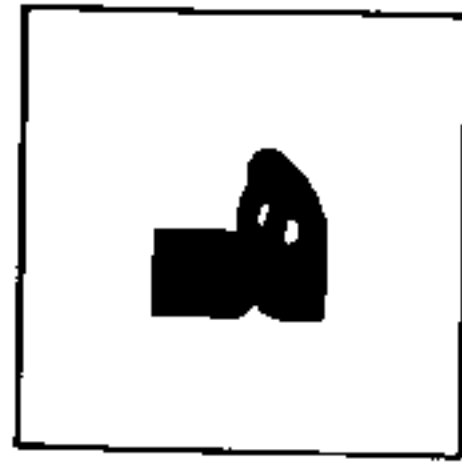
١٨٨٣-١٨٨٨ : المجلدات الثالث عشر إلى السادس عشر ومن بينها: «ارادة القوة» Der Wille zur Macht (نشر بعد وفاته).

١٨٨٥-١٨٨٦ : «عبر الخير والشر» Jenseits von Gut und Böse (نشر سنة ١٨٨٧).

١٨٨٦ : «مقدمات» Vorreden (نشر سنة ١٨٨٧)؛ «العلم المسرور» ج٥ (نشر سنة ١٨٨٧).

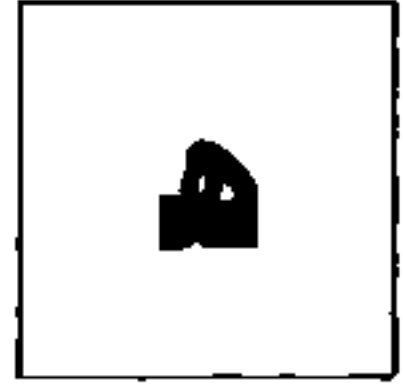
١٨٨٧ : «نسب الأخلاق» Genealogie der Moral (نشر في نوفمبر سنة ١٨٨٧)











هامان

### Johann Georg Hamann

مفكر بروتستنتي مناهض لنزعة التنوير في ألمانيا .

ولد في كينجسبرج في ١٧٣٠/٨/٢٧ ، وتوفي في مونستر في ١٧٨٨/٦/٢١ .

تعلم في كينجسبرج الفلسفة واللاهوت والقانون . وفي سنة ١٧٥٢ صار ناظر أملاك في بلاط البلطيق . وفي سنة ١٧٥٥ اشتغل بالتجارة . وعانى وهو في لندن أزمة روحية سنة ١٧٥٨ . وفي ظروف مجهولة وبعد قيامه بأعمال متعددة صار نساخاً في غرفة الحرب والدومين في سنة ١٧٦٣ . وفي سنة ١٧٦٤ اشتغل محرراً في جريدة كينجسبرج . ويتوسط من امانويل كنت عين مسكراً في Akzise- Regie وفي سنة ١٧٧٧ صار مديراً لمخازن الجمرک . وقيل وفاته ارتحل إلى اقليم مونستر ضيفاً على ياكوبي F. H. Jacobi والأميرة جلتسن Gallitzen . وكان صديقاً لكانت ، وهردر ، ولافاتر .

تمتاز كتاباته بالفموض الشديد والصعوبة في الفهم ، مما جعل الناس يلقبونه بلقب : « مجوسي الشمال » ( « حكيم الشمال ») . ومعظم كتاباته قطع موجزة كتبها بمناسبات . منها تأملات في أزمت مالية وروحية عاناها في رحلة له إلى لندن في سنة ١٧٥٨ . بعنوان : « تأملات في الكتاب المقدس » ( سنة ١٧٥٨ ) ، « أفكار في مجرى حياتي » ( سنة ١٧٥٨ - سنة ١٧٥٩ ) ، « شذرات » Brocken ( سنة ١٧٥٨ ) ، « ذكريات سقراطية » ( سنة ١٧٥٩ ) . وهذا الكتاب الأخير هو أول هجوم علني قام به ضد روح عصره ، وفيه يعقد مقارنة بين

سقراط والمسيح . وكان هامان يعتقد في نفسه أنه الموصل لعمل مارتن لوتر ، لكن بينما كانت المشكلة التي واجهها لوتر هي العلاقة بين الايمان وبين القانون أو النظام الكنسي والديني الذي استقر آنذاك ، كانت المشكلة التي واجهها هامان هي مشكلة العلاقة بين الايمان وبين الفلسفة ، بين المسيحية وبين الفلسفة .

ومثل سقراط ، رأى هامان أن المشكلة الأساسية هي مشكلة الانسان . وشبه معرفة الانسان لنفسه « بالنزول إلى دركات الجحيم » .

وعلى الرغم من صداقته مع أبرز رجال حركة التنوير في ألمانيا، كان يعتقد أن الصداقة تشبه جبل اتنا: « نار في الجوف ، لكن تليج على الرأس » - على حد تعبيره . لقد كان خصماً عنيفاً لنزعة التنوير :

- ١ - فقد أخذ على موزس مندلز زون تأسيسه الفلسفة على حقائق عقلية محضة ؛
- ٢ - وأخذ على كانت قوله بالعقل « المحض » ؛
- ٣ - وأخذ على المؤلفة دعوتهم إلى « دين طبيعي » ؛
- ٤ - وأخذ على هردر وغيره فصلهم قدرات الانسان اللغوية ؛
- ٥ - وأخذ على لسنج فصله معرفة الله عن أصلها في الوحي .

وقد استخدم في اعتراضه على نزعة التنوير تشبيهين جنسيين فقال إن النزعة العقلية في التنوير محاولة لتجريد الحقيقة من ثيابها ، أو محاولة لتطبيق ما جمعه الطبيعة معاً ، وذلك لأن هذه النزعة دعت إلى اطراح المنقول والتاريخ .

- R. G. Smith: J. G. Hamann, with Selections from his writings, London, 1960.

## هاملان

### Octave Hamelin

فيلسوف ومؤرخ فلسفة فرنسي

ولد في سنة ١٨٥٦ في Liond'Angers (Maine-et-Loire) وكُلف بالقاء محاضرات في كلية الآداب بجامعة بوردو؛ ثم صار مدرساً في مدرسة المعلمين العليا بباريس، ثم أستاذاً في السوربون. وهنا ألقى دورة محاضرات ممتازة عن أرسطو، وديكارت، ورنوڤيه، نشرت بعد ذلك في ثلاثة مجلدات مستقلة هي:

١ - «مذهب رنوڤيه»

Le Système de Renouvier (1927)

٢ - «مذهب أرسطو»

Le Système d'Aristote (1920)

٣ - «مذهب ديكارت»

Le Système de Descartes (1911)

وكانت رسالته الكبرى للدكتوراه بعنوان: «بحث في العناصر الرئيسية للامثال» وبعد مناقشتها في سنة ١٩٠٧ سافر إلى شاطئ اللاند Plage des Landes (غرب فرنسا قرب بوردو) للاستحمام والراحة، لكنه مات غرقاً في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٧ أثناء محاولته إنقاذ شخصين كانا على وشك الغرق. أما رسالته الصغرى فكانت «ترجمة وشرحاً للمقالة الثانية من كتاب الطبيعة لأرسطو».

كان هاملان متأثراً برنوڤيه Renouvier، حتى ان برونشك قال عنه (في مقال بعنوان: «اتجاه النزعة العقلية» نشر بمجلة ما بعد الطبيعة والاخلاق RMM سنة ١٩٢٠) إنه حاول إثبات مذهب رنوڤيه بواسطة منهج هيغل. والواقع أن هاملان أخذ عن رنوڤيه توكيده لحرية الإرادة بوصفها أهم الوقائع، كما أخذ عنه فكرة النزعة الشخصية-personna-lisme، وأخذ عنه ثلاثاً ما قرره رنوڤيه من ان قمة الفلسفة الأولى هي موضوع المقولات، وإن كان هاملان قد خالف رنوڤيه في طريقة وضعه للموحة المقولات.

لكن الحقيقة، في نظر هامان، إنما تتجلى على الوجه الصحيح «متجسدة»، وبالتالي متحققة في وحدة العقل والايمان والتجربة الحسية.

وكان هامان يشك في قيمة التجريد العقلي، ويرى في اللغة وسيلة من شأنها أن تحدث التشويش في العقل، وفي الوقت نفسه وسيلة للتعبير عما في العقل، وعلى حد تعبيره الجنسي: اللغة «مقررة» و«قوادة» في آن واحد.

لقد كان هامان يجد اللامعقول، وكان يقول إن: «طاعة العقل السليم هي موعظة تدعو إلى العصيان العلي». ومن هنا كان يقول بالوجدان Intuition بوصفه العضو الحقيقي القادر على المعرفة عند الانسان.

وكان يعبر عن أفكاره بصور وتشبيهات وأمثال على نحو ما كانت تفعل الانسانية في عصورها الأسطورية.

والوحدة بين الجسم والنفس والروح والحساسة تتجلى قبل كل شيء في اللغة: إن الكلام الانساني ليس إلا انعكاساً للكلام الإلهي الذي هو في الوقت نفسه خلق، والشعر هو اللغة الأولى للجنس البشري. ومن هنا هاجم فلسفة اللغة عند هرذر.

ويتجلى تأثير هامان في حركة «العاصفة والاندفاع»، وفي كيركجور، وفي شلنج واشليرماخر. كما أنه لقي بعضاً بعد الحرب العالمية الأولى في الأوساط الوجودية، وفي أنصار علم نفس الأعماق Tiefpsychologie

نشرة مؤلفه

نشرة مؤلفاته قام بها يوسف نادلر Joseph Nadler في ٦ مجلدات في فينا تحت عنوان: Werke سنة ١٩٤٩-١٩٥٧.

مراجع

- R. Unger: Hamann und die Aufklärung, 2 Bde, 1925

- J. Blum: La vie et l'œuvre de Hamann, 1913.

- W. Rodelmann: Hamann und Kierkegaard. Erlangen, 1922

- E. Metzke: Hamann Stellung in der Philosophie des 18. Jahrhundert, 1934

- Josef Nadler: Johann Georg Hamann, der Zuge des Corpus Mysticum. Salzburg. 1949

المضمون المتفاوت الغنى الذي يكون وإياه شيئاً واحداً ، لأن هذا المضمون نفسه رابطة ، والعالم نظام تصاعدي من الروابط المتزايدة في العينية حتى آخر حد تتعین فيه الإضافة . فالطلق لا يزال هو النسبي . انه النسبي لأنه نظام الإضافات ، وكذلك لأنه - بوصفه نهاية التقدم - فإنه في المقام الأول نقطة ابتداء التفهيم . ( بحث في العناصر ... ص ١٨ - ١٩ ) .

أما عن منهج التركيب ، فإن هاملان يشيد بكنة بوصفه « أول من أدرك بوضوح مشكلة التركيب ، وسماها باسمها » ( الكتاب نفسه ، ص ٢٧ ) . لكن الأستاذ الحقيقي ، في نظره ، للمنهج التركيبي هو هيجل ، لأنه كان لديه عنه تصور ثابت محدد ، لا مجرد شعور ، كما كانت الحال عند أسلافه . أما أن هذا التصور صحيح كله ، فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الشك في ذلك . والأمر المؤكد هو أن هذا التصور واضح كل الوضوح ومن السهل رسم خطوطه العريضة « ( ص ٢٢ ) .

لكن هاملان في منهجه التركيبي يختلف عن هيجل في أنه يضع التضاييف المشتركة Corrélation مكان التناقض Contradiction الهيجلي . فالمنهج التركيبي لا يسير على الطريقة الهيجلية في سلسلة من السلوب المتابعة ، بل ينبغي عليه - على العكس من ذلك - أن يسير بتفريعات يكمل بعضها بعضاً ، وآخرها يختلف تمام الاختلاف عما ينتهي إليه اللاهوت السلمي ، لأنه سيكون الموجود التام المحدد تحديداً كاملاً .

فاذا انتقلنا إلى الفلسفة العملية عند هاملان وجلبناه ينظر إلى النشاط الأخلاقي على أنه مركب النشاط الجمالي مع النشاط الصناعي technique . والأخلاقية عنده هي اللحظة العليا للفكر في ذاته ( الكتاب نفسه ص ٤٠٤ - ٤١٥ ) . وهو يربح إلى تجاوز الأخلاق الاجتماعية الوضعية ، والأخلاق الشكلية عند كنت على السواء ، ابتغاء الوصول إلى فلسفة أخلاقية عقلية . إن الضرورة العقلية في الأخلاق تتحدث إلى الحرية ، لأن الضروري ليس قاصراً ، إنه التزام خلفي مع حرية ذاتية .

وفيها يتعلق بالحقيقة الأولى ، فإن هاملان يعارض كل محاولة لتفسير الأعلى بواسطة الأدنى ، أي كل تفسير مادي . وفي الوقت نفسه يرفض كل وحدة وجود مثالية . ويعتق هاملان

ذلك أن هاملان أخذ على لوحة المقولات التي وضعها رونوفيه أنها لم تتخلص نهائياً من التجريبية ، إذ كان رونوفيه يعد الإضافة هي الواقعة ؛ كما يأخذ على رونوفيه أيضاً أنه اكتفى بسرد المقولات دون أن يسعى إلى استنباطها بعضها من بعض . لهذا جاء هاملان فسعى إلى إيجاد تفسير شامل للكون ، من شأنه أن يجعل الضرورة تشمل كل الواقع العمي ، بل وما هو ممكن عرضي contingent بوصفه حلقة ضرورية في سلسلة التركيب . وقد انتهى هاملان إلى لوحة مقولات جديدة ، مؤلفة من ثلاثيات ، كل واحد منها يبدأ من الأكثر تجريداً ليصل إلى الأكثر عينية ، على النحو التالي :

١- الإضافة	العدد	الزمان
٢- الزمان	المكان	الحركة
٣- الحركة	الكون	التغير
٤- التغير	التنوع	العلية
٥- العلية	الغائية	الشخصية

ويرى هاملان أن « العالم نظام مرتب من العلاقات المتزايدة في العينية ، حتى نصل إلى حد آخر فيه الإضافة تتحدد ، بحيث لا يزال المطلق هو أيضاً النسبي . إنه نسبي لأنه نظام من الإضافات ، ولأنه - بمعنى آخر - بوصفه نهاية التقدم هو نقطة ابتداء ممتازة للتفهم . وفي هذه النظرة ، حيث لكل شيء مكانه المعلوم وإضافته المحلدة مع الباقي ، وفيه - بتعبير أفضل - كل شيء هو مجموع علاقاته مع الباقي ، نهاية تقدم ، ونقطة ابتداء تحليل ، وكل ماهية تتحدد دون الوقوع في دور فاسد ، وتعثر بالتركيب على ما يجب أن يحتوي عليه ، كما تجد - من جديد - بالتحليل هذا المحتوى » ( بحث في العناصر الرئيسية للامثال ، ص ١٩ ) .

وهاملان يرى أن التركيب الديالكتيكي للتصورات يكون ليس فقط منهج الفلسفة ، بل وأيضاً موضوعها . وهذا الديالكتيكي التركيبي يفترض أن الموضوع these ونقيض الموضوع antithèse يصلان إلى التوفيق فيما بينهما في تركيب Synthèse ، لأننا من التركيب الذي صار موضوعاً نحضي من جديد إلى نقيض موضوع يؤدي بدوره - وفقاً لقانون التوفيق هذا - إلى مركب أعلى وهكذا حتى نصل إلى التركيب المطلق . وواضح تماماً أن هذا هو منهج هيجل الديالكتيكي . إن التفلسف معناه استبعاد الشيء في ذاته . والواقع الحقيقي ليس هو الواقع المزعوم الذي تقول به المدارس التي تنعت بأنها واقعية ، بل هو الرابطة ذات

الارادة ، بل هو الشرط العام لوجودها . إن الوعي علاقة بين عارف ( أو واع ) وبين موضوع للمعرفة .

وفي الإدراك نحن نملك معرفة مباشرة أولى من أن نملك معرفة غير مباشرة . في الإدراك أعرف الشيء مباشرة ، لا بواسطة شيء آخر غير موضوع الإدراك . فحين أرى قطة - مثلاً - فإنني أرى هذا الحيوان في ذاته ، وإدراكي هذا يختلف عن إدراكي لحادثة ماضية مثلاً ، إذ أحصل على هذا الإدراك الأخير عن طريق شهادات أو وسائل أخرى متميزة عن الحادث الماضي .

وفي الإدراك أشعر عياناً بالثنائية بين الأنا واللا - أنا . وهذا الشعور معطى أولى للوعي . وليس الإدراك استنتاجاً بأن نعي أولاً حالة من حالات الوعي ونستنتج منها بعد ذلك الوجود الحاضر لموضوع فزيائي بوصفه علّة للتغير الذي حدث في شعوري .

ومعرفتنا بالأنا وباللا - أنا هي معرفة ظاهرية Phe-nomenol محضة . فالذات تُعرف فقط بواسطة ظاهرة الوعي الباطن المباشر بمجرد التجربة . وفي الإدراك الخارجي نحن نعرف بالموضوعات الفيزيائية فقط كما تظهر لنا بواسطة الحواس . فالموضوع الفيزيائي بوصفه معروفاً لنا هو ما يظهر على أنه عتد ، صلب ، قابل للقسمة ، ذو شكل ، ذو لون ، ساخن أو بارد الخ . وهكذا فإن « المادة » أو « الجسم » اسم على مجموعة معينة من الظواهر ؛ لكن هذه الظواهر ينبغي أن ينظر إليها على أنها مظاهر لشيء ما . وهذا الشيء لا يمكن أن يدرك معزولاً عن مظاهره ، وعن الذات المدركة له .

والتفكير في شيء ما معناه إدراجه تحت تصور . إن الفكر يفرض شروطاً على موضوع تفكيره . ولهذا فإن المشروط هو الموضوع الممكن الوحيد للمعرفة . أما المطلق ، واللاشمي إلى شيء آخر ، واللامشروط - فلا يمكن أبداً تصوره ؛ كل ما نعرفه عنه أنه موجود ، لكتنا لا نعرف ما هو . وعلى الرغم من أن كثيراً من الأشياء لا يمكن تصورها ، لكننا مع ذلك نحن نعرف أن بعضها لا بد أنه حقيقي . ويقرر هاملتون أنه متى ما أقررنا بقانون التناقض وقانون الثالث المرفوع فإن كل تفكير يقوم بين طرفين كلاهما لا يمكن تصوره . والطرفان يمثلان ما هو مطلق أو غير مشروط . وأحد هذين المطلقين نحن نعرف أنه صحيح لا محالة ، لأن الطرفين متناقضان ، لكن لما كان كلاهما غير قابل للتصور ،

مذهب المؤلّمة Thésisme لأن هذا المذهب - فيما يقول هاملان - إذا فهم على الوجه الملائم ، يُرضي - أكثر من غيره - مقتضيات الفلسفة المثالية . ويتهي هاملان إلى القول بأن الله هو الروح ، هو المطلق ، أعني أنه هو الخير .

### مراجع

- L. J. Beck : La Méthode Synthétique d'Hamelin. Paris, Aubier, 1935.

A. Darbon «La méthode synthétique dans l'Essai d'o. Hamelin», in RMM, 1929, pp. 37- 100.

- D. Parodi: Du Positivisme à l'idéalisme, Paris, 1930.

### هاملتون

#### William Hamilton

فيلسوف ومنطقي اسكتلندي (بريطانيا)

ولد في جلاسجو في سنة ١٧٨٨ ، وتوفي في سنة ١٨٥٦ .

تعلم في جلاسجو وأدينبره ثم في كلية باليول بأكسفورد حيث حصل على درجة الليسانس B. A. في سنة ١٨١١ . وبعد أن ترك أكسفورد درس القانون وحصل على اجازة في القانون في سنة ١٨١٣ ، ومارس مهنة المحاماة في اسكتلندة . ثم عين أستاذاً للتاريخ المدني في جامعة ادنبره في سنة ١٨٢١ ، ثم استاذاً لكرسي المنطق وما بعد الطبيعة في جامعة ادنبره في سنة ١٨٣٦ .

وقد تأثر بكل من توماس ريد Reid مؤسس المدرسة الاسكتلندية ، وبامانويل كنت .

ولكن اسهامه الرئيسي هو في المنطق بنظريته في كم المحمول .

#### ١ - نظرية المعرفة :

يرى هاملتون أن الظواهر العقلية تتدرج بين ظواهر الشعور (الوعي) . فحين يعرف المرء ، يعرف أو يعي أنه يعرف ؛ وحين يستشعر انفعالاً فإنه يعرف أو يعي أنه يستشعر انفعالاً ؛ وحين يريد فإنه يعرف أو يعي أنه يريد . وليس الشعور (الوعي) شيئاً يضاف إلى المعرفة أو الاستشعار أو

Philosophy, 2 vols., London, 1865.

- J. H. Stirling: Sir William Hamilton, London— 1865

- John Veitch: Hamilton. Philadelphia and Edinburgh, 1882.

- S. V. Rasmussen, The Philosophy of Sir William Hamilton. Copenhagen, 1925.

### هيبس الايلي

#### Hippias d'Elée

سوفسطائي يوناني . ولد قبل سنة ٤٦٠ ق. م. في ايليا ؛ وكان لا يزال حياً في سنة ٣٩٩ ق. م.

وتولى السفارة لبلده عدة مرات . وأكثر التطواف في بلاد اليونان معلماً للخطابة والعلوم ، مكتسباً الأموال الوفيرة عن هذا الطريق .

وكان ذا اطلاع واسع على كل علوم عصره . وأنتج في كثير من فروع العلم والأدب . فألف قصائد مديح وماسي ومرثي وخطباً ، كما قام بتدريس الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان قوي الذاكرة لدرجة أنه كان يستطيع أن يسرد خمسين اسماً بعد سماعها لأول مرة .

ومعظم معلوماتنا عنه ترجع إلى أفلاطون الذي جعله المحاور الوحيد لسقراط في محاورتين ، كنا أدرجه بين المتحاورين في محاوره « برمنيدس » .

وينسب إليه اكتشاف رياضي لوصح نسبته إليه لامتاز عن سائر سوفسطائيين بأنه من العلماء الرياضيين ، وهذا الاكتشاف هو المنحنى المسمى quadratrix ( الفاعل للتربيع ) ، وكما يدل عليه اسمه أراد استخدامه في تربيع الدائرة ، كما استخدمه أيضاً لتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام متساوية أو لتقسيمها وفقاً لأي خارج قسمة ratio ، لكن برقلس حين ذكر ذلك لم يشفع اسم « هيبس » بالنسبة : « الايلي » ؛ مما يجعل الشك يحيط بحقيقة هيبس هذا الذي نسب إليه برقلس اختراع هذا المنحنى .

ويخلاف سائر سوفسطائيين لا يتهمه أفلاطون بإفساد الأخلاق أو الدعوة إلى السلوك الرديء الشرير .

فإننا لا نعرف أيها هو الصحيح . ويوضح هاملتون رأيه هذا بالمثل التالي : المكان إما أن يكون متناهياً ، أو لا متناهياً . وأحد طرفي هذه القضية صادق لا محالة ، ولا يمكن أن يكون كلا طرفيها صادقاً ، حتى لو كنا لا نستطيع تصور أيهما . وكذلك الحال في الزمان : نحن لا نستطيع تصور بداية له ، كما لا نستطيع تصور أزلته ، على الرغم من أن أحد هذين القولين ينبغي الإقرار بأنه صادق

٢ - المنطق :

وقد قلنا إن أشهر ما أسهم به هاملتون هو نظرية كم المحمول في المنطق . وتقوم هذه النظرية على أساس أننا لا نستطيع أن نفكر تفكيراً عقلياً سليماً إلا فيما نفهمه . وهذا بدوره يقود إلى القول بضرورة أن نستطيع التعبير بصراحة عما يجري في داخل الذهن ضمناً . ونحن حين نصدر حكماً فإننا نفهم ضمناً وجود كم محمول مثلها نفهم صراحة وجود كم للموضوع . وإذن فما دام المحمول يفكر فيه ضمناً في الذهن بأنه ذو كم ، ولما كان كل كم هو إما « كل » أو « بعض » أو « لا شيء » ، فإننا ننظر دائماً إلى المحمول في الحكم على أنه يصلق إما على كل ، أو بعض ، أو لا شيء من الأفراد الذين تنطبق عليهم الصفة المعبر عنها بالمحمول . فالقضية « كل الناس أحياء » تدل إما على أن كل الناس هم كل الأحياء ، أي أن الناس هم وحدهم الأحياء ، ولا حي إلا الانسان ، - وإما على أن كل الناس هم بعض الأحياء ، أي أن ثم أحياء غير بني الإنسان .

راجع تفصيل ذلك في كتابنا : « المنطق الصوري والرياضي » ص ٢٦٦ - ص ٢٧٨ .

#### مؤلفات هاملتون

- « On the Philosophy of the Unconditioned », in Edinburgh Review, Vol. I (1829), 194- 221

- Discussions on Philosophy and Literature, Education and University Reform. London, 1952.

- Lectures in Metaphysic and Logic, II. L. Mansel and John Veitch editors, 4 vols. Edinburgh and Boston, 1859-- 60

#### مراجع

- J.S. Mill: An Examinaton of Sir William Hamilton's

فوطد شهرته في الأوساط الفلسفية . ومن ثم نشر عدة مؤلفات فيها توسع في بعض موضوعات كتابه الأول هذا أو عدل في آرائه الأولى ، كما تناولت مسائل في الفلسفة والحضارة المعاصرة . وقبل وفاته أصدر المجلد الأول من كتاب ذي ثمانية مجلدات بعنوان : « موجز مذهب في الفلسفة » ( سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٩ ) ونشر الباقي بعد وفاته .

#### فلسفته

سعى ادورد فون هرتمن إلى تنمية فلسفة شوبنهاور التي اعتنقها في اتجاه يقارب بينها وبين الهيكلية . وقد تأثر أيضاً بكتب وشلنج ، خصوصاً شلنج في مطلع فلسفته ، وعنه أخذ فكرة اللاشعور .

يرى فون هرتمن أن الحقيقة النهائية هي لاواعية ، لكنها ليست ، كما قال شوبنهاور ، إرادة عمياء ، بل الإرادة والأمثال متضايقان . ويمكن القول إن المبدأ اللاواعي له وظيفتان متعاونتان : فيوصفه إرادة هو مسؤول عن وجود العالم ؛ ويوصفه أمثالاً هو مسؤول عن طبيعة العالم .

وعلى هذا النحو حاول فون هرتمن القيام بتوفيق بين شوبنهاور وهيكل . لقد رأى أن الإرادة عند شوبنهاور لا يمكن أن تتج عالمياً غائياً ، كما رأى من ناحية أخرى أن التصور Begriff عند هيكل لا يمكن أن يتموضع في عالم واقعي . ولهذا فإن الحقيقة الواقعية النهائية لا بد أن تكون إرادة وتصوراً ( أمثالاً ) في آن معاً . لكن لا يتج عن هذا أن الحقيقة الواقعية النهائية يجب أن تكون واعية . بل على العكس ، ينبغي أن نأخذ هاهنا عن شلنج فكرة وجود تصور لا واع خلف الطبيعة . إن للعالم أرجها عدة . إن الإرادة تكشف عن نفسها ، كما قال شوبنهاور ، في الألم والشر . لكن التصور اللاواعي ، كما قال شلنج في فلسفة الطبيعة ، يتجلى في الغائية والتطور العقلي والتقدم نحو مزيد من الوعي .

كذلك حاول التوفيق بين تشاؤم شوبنهاور وتفاؤل ليبنتس . إن العالم بوصفه إرادة يدعو إلى التشاؤم ، لكن العالم بوصفه تصوراً يدعو إلى التفاؤل . لكن المطلق اللاواعي واحد . ولهذا ينبغي التوفيق بين التشاؤم والتفاؤل . وفي سبيل ذلك يعدل فون هرتمن من تحليلات شوبنهاور للذة حين نعتها بأنها سلبية ، إذ يرى فون هرتمن أن بعض اللذات ، مثل التأمل في الجمال والنشاط العقلي ، ايجابية . لكنه مع ذلك

وقد ميز هيباس بين القانون وبين الطبيعة وجعل الأول في مقابل الثاني ، ويحد الطبيعة في مقابل القانون لأسباب انسانية وأخلاقية ، وليس لأسباب من الأناية . وقال بما يشبه نظرية العقد الاجتماعي إذ قرر أن القوانين ترجع إلى ما يلائم الناس وكثيراً ما تعدل ، وينبغي ألا ينظر إليها على أنها تقدم مبادئ ومعايير ثابتة للسلوك الانساني .

ويذكر لنا فلوطرخس ( بحسب ما أورده استوبوس ، راجع شفرة رقم ١٦ ، ١٧ ) أن هيباس قال إن الحسد حسدان : حسد صائب وحسد خاطيء . والحسد الأول هو الذي يشعر به الانسان حين يرى التشريف يتاله الأشرار ؛ أما الحسد الخاطيء فهو الذي يستشعره الانسان حين يرى التشريف يتاله أولو الفضل والأخيار .

#### مراجع

الشدرات الباقية من أقواله وآرائه موجودة في

- H. Diels und W. Kranz: Fragmente der Vorsokratiker, B. II. 10te Aufl. Berlin, 1961.
- Mario Untersteiner: Die Sophisten, Engl. Transl. Oxford, 1954
- Th. Heath: History of Greek Mathematics, Vol. I Oxford, 1921.
- Pauly. Wissowa: Real - Enzyklopedia, S. V.

#### هرتمن ( ادورد فون )

##### Edward von Hartmann

فيلسوف ألماني من أنصار شوبنهاور .

ولد في برلين في ٢٣ فبراير سنة ١٨٤٢ ، وتوفي في Grosslichterfelde في ٥ يونيو سنة ١٩٠٦ وكان أبوه ضابطاً في المدفعية البروسية . ولهذا دخل ولده مدرسة المدفعية ، لكنه أصيب في ساقه في سنة ١٨٦١ بالاضافة إلى الأم روماتزمية مما جعله يتخلى عن مهنته العسكرية ، وبقي طوال حياته شبه عاجز . فانصرف إلى دراسة التأليف في الموسيقى والرسم لمدة عامين ؛ بعدها تحول إلى دراسة الفلسفة فأكتب عليها إكباباً شديداً . ثم أخذ في التأليف في الفلسفة ، فأصدر كتابه الأول والرئيسي بعنوان « فلسفة اللاشعور » في برلين سنة ١٨٦٩ ،



ويعتمد فون هرتمن في دفاعه عن تشاؤمه على اعتبارات عصبية ونفسانية إلى جانب اعتبارات مستمدة من أحوال الإنسان في هذا العالم الشقي .

ويذهب إلى أن تشاؤمه هو الأساس الوحيد لقيام مذهب في الأخلاق ، وأنه يوقر الأساس لنظرة غائية يمكن تقدير الدين من خلالها . وفي كتابه « ظاهريات الشعور الأخلاقي » ( برلين ، سنة ١٨٧٩ ) حاول أن يبين أن كل المحاولات السابقة لايجاد أساس للأخلاق - مثل السعادة ، أو المنفعة أو الديمقراطية الاجتماعية - قد أخفقت كلها لأنها لا تعلق على الانسان والكون .

وعلى أساس هذه الفكرة ، تحولت أخلاق التشاؤم عنده إلى دراما كونية للخلاص . إن هدف الدين المطلق في كل المستقبل يجب أن يكون إنقاذ الله ، بوصفه إرادة ، من آلام التزع المتضمن في عمله في الخلق . وجوهر المسيحية الحيوية يقوم ، في نظره ، في تشاؤمها من الدنيا الحاضرة . ويقرر فون هرتمن أن البروتستنتية الحرة هي المرحلة الغائية الأخيرة للأخلاق المسيحية لأنها باعتمادها الإيمان بالتقدم الاجتماعي قد سقطت في المرحلة الأولى من التناؤل .

#### مؤلفاته

- « فلسفة اللاشعور »  
- Philosophie des Unbewussten, 3 Bde, 1869
- « المشكلة الرئيسية في نظرية المعرفة »  
- Das Grundproblem der Erkenntnistheorie, 1889
- « ظاهريات الوعي (الضمير) الأخلاقي »  
- Phänomenologie des sittlichen Bewusstseins, 1879
- « الوعي الديني للإنسانية »  
- Das religiöse Bewusstsein der Menschheit, 1881
- « ديانة الروح »  
- Die Religion des Geistes, 1882.
- « فلسفة الجميل »  
- Philosophie des Schönen, 1887
- « علم الجمال الألماني منذ كنت »  
- Die deutsche Aesthetik seit Kant, 1886.
- « مذهب المقولات »  
- Kategorienlehre, 3 Bde, 1896
- « تاريخ الميتافيزيقا »  
- Geschichte der Metaphysik, 2 Bde, 1899- 1900

يقر بأن القدرة على التألم تزداد بقدر ما يزداد النمو العقلي ، والشاهد على ذلك أن الشعوب البدائية والطبقات غير المتعلمة أكثر شعوراً بالسعادة من الشعوب المتحضرة والطبقات المتفككة . ولهذا فإن من الخطأ أن نتصور أن التقدم في الحضارة وفي التطور العقلي يجلب معه الزيادة في السعادة . لقد ظن الوثنيون أن من الممكن تحصيل السعادة في هذا العالم . وهذا وهم . والمسيحيون قالوا إن تحصيل السعادة في هذا العالم وهم ، ولهذا تطلّعوا إلى تحقيقها في السماء ، لكن هذا وهم أيضاً . لكن الذين يرون أن تحقيق السعادة في السماء وهم هو الآخر ، يقعون في وهم ثالث هو الظن بأن من الممكن تحقيق الجنة على الأرض عن طريق التقدم المستمر الذي لن ينتهي ؛ وهم في هذا يعتقدون عن حقيقتين : الأولى هي أن ازدياد الترف والنمو العقلي يزيد من القدرة على الآلام . والثانية هي أن التقدم في الحضارة المادية والرفاهية يصحب بنسيان للقيم الروحية وباضمحلال العبقرية .

وهذه الأوهام الثلاثة هي في النهاية من صنع المبدأ اللاواعي الذي يبدي عن خبثه من أجل الإبقاء على ذاته على الدوام . لكن فون هرتمن يتطلع إلى زمان يكون فيه الجنس البشري بعامية قد نمت وعيه بالواقع إلى درجة أن يحدث انتحار كوني . لقد أخطأ شوبنهاور حين زعم أن الفرد يمكن أن يبلغ الفناء بواسطة انكار الذات والزهد . ولكن المطلوب ، هكذا يرى فون هرتمن - هو بلوغ أعلى درجة ممكنة من الوعي ، إلى حد أن تدرك الإنسانية في النهاية حماقة الإرادة ، فتتحرر ، ويانتحارها تجلب نهاية العملية الكونية ، إذ في ذلك الوقت تكون إرادة المطلق اللاواعي ، المسؤولة عن وجود العالم ، قد انتقلت أو تموضعت في الإنسانية . وهكذا فإن انتحار الإنسانية سيؤدي إلى انتهاء العالم .

لكن هذا الانتحار الكوني مشروط بالوصول إلى أعلى درجة من درجات الوعي وانتصار العقل على الإرادة . وتلك هي الغاية التي يهدف إليها المطلق بوصفه تصوراً وعقلاً لا واعياً .

وقد ظن فون هرتمن أن كنت ، وليس شوبنهاور ، هو الملهم لتشاؤمه ، لأنه يرى أن هذا العالم ليس أسوأ عالم يمكن ، وذلك لأن الغائية اللانهائية الموجودة لدى الجزئيات في العالم تجعل منه أحسن عالم ممكن . ومع ذلك فقد كان سيكون من الأفضل ألا يوجد العالم أبداً .

القرن العشرين - وهي الكنتية الجديدة ، ممثلة خصوصاً في هرمن كوهن وباول ناتورب . ويتجلى هذا التأثير في كتابه الأول « منطق الوجود عند أفلاطون » ( جيسن ، سنة ١٩٠٩ ) . فهو فيه يفسر الصور الأفلاطونية بأنها فروض مطلقة ، بالمعنى الكنتي الجديد ، أعني : مواقف أساسية يتخذها الفكر في تكوينه وفهمه للحقيقة الواقعية .

لكنه ما لبث أن انصرف عن الفلسفة الكنتية الجديدة ، وبدأ يشق طريقه الخاص ، وكان ذلك بتأثير ظاهريات ادموند هسرل ، حتى انتهى الى مذهبه الخاص القائم على الأبوريات ( الأبوريا : هي أن يكون الانسان بإزاء موقفين متعارضين ، وكلاهما وجيه ، في الاجابة عن مشكلة واحدة ) ، والمؤدي إلى انطولوجيا واقعية ، فيها تعالج كل المشاكل الفلسفية ، بما في ذلك نظرية المعرفة ، على أساس أنها مشاكل وجود Seins-probleme . والفكرة الرئيسية في مذهبه هذا هي النظر الى الوجود على أنه مؤلف من طبقات Schichtung هي : اللاعضوي ، العضوي ، النفسي ، الروحي . وطريق المعرفة يقوم في تحليل المقولات ( وهي تحديدات أساسية للوجود مثل الزمان ، المكان والكيف والكم ، والباطن والظاهر الخ ) ، وكل طبقة من هذه الطبقات Schichten وعلاقتها المتبادلة . وإلى جانب مجال الوجود الواقعي ، ولكنه ليس تابعاً له ، يوجد مجال الوجود المثالي ، أعني الوجود الرياضي والقيم المثالية التي ينبغي أن ينظر إليها على أنها ذات حقيقة موضوعية مثل الوجود الواقعي .

ويستقل هرمن من دراسة مبادئ الوجود الكلية ، مثل السوحلة والكثرة ، البقاء والتغير ، إلى الانطولوجيات الإقليمية ، أعني إلى تحليل المقولات الخاصة بالوجود اللاعضوي ، والوجود العضوي ، الخ . وانطولوجيته تتخذ شكل تحليل فينومينولوجي للمقولات المتمثلة في الموجودات المعطاة في التجربة .

والموقف الرئيسي في فلسفة هرمن هو الكشف عن قوانين تركيب العالم الواقعي . وفي رأي هرمن أن الفلسفة التقليدية أخطأت في هذا خطأ كبيراً ، وذلك على نحوين : مرةً اعتقدت الفلسفة أنها أمام محرجة جذرية هي : إما الإقرار بمعرفة للوجود مطلقة ، أو افتراض الجهل التام بالأشياء في ذاتها . وفي الحالة الأخيرة تنكر إمكان معرفة الوجود الموضوعية بوجه عام ، وفي الحالة الأولى نصل إلى مذاهب ميتافيزيقية مغلقة ترفض كل لا معقولة للوجود وترى أن من

« علم النفس الحديث »

- Die moderne Psychologie, 1901

« النظرة في العالم عند الفيزياء الحديثة »

- Die Weltanschauung der modernen Physik, 1902

« مشكلة الحياة »

- Das Problem des Lebens, 1906.

« موجز مذهب في الفلسفة » ، ٨ مجلدات .

- System der Philosophie in Grundriss, 8 Bde, 1906 - 9.

### مراجع

- Arthur Drews: Edward von Hartmanns Philosophisches System in Grundriss, Heidelberg, 1902

- Otto Braun: Edward von Hartmann. Stuttgart, 1909

- Leopold Ziegler: Das Weltbild Hartmanns. Leipzig, 1910

- E. H. di Carlo: La filosofia della storia de Edward von Hartmann. Palermo, 1906.

- W. Rauschenberger: Edward von Hartmann. Heidelberg, 1942.

### هرمن (نقولاوي)

فيلسوف ألماني ، منشئ انطولوجيا واقعية .

ولد في ريجا ( في لاتفيا ، من دول بحر البلطيق ) في ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٢ وتوفي في جيتنجن ( ألمانيا الغربية ) في ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٠ . تعلم في سان بطرسبرج ، ودوربات Dorpat ، وجامعة ماريبورج ( ألمانيا ) . وصار في سنة ١٩٠٩ مدرساً مساعداً في ماريبورج ، ثم صار أستاذاً في ماريبورج في سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٥ ؛ واستاذاً في كيلين ( كولونيا ) في سنة ١٩٢٥ - الى سنة ١٩٣٠ ثم استاذاً في جامعة برلين في سنة ١٩٣١ ثم استاذاً في جامعة جيتنجن في سنة ١٩٤٦ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ .

توزع انتاج نقولاوي هرمن بين تاريخ الفلسفة ، وبخاصة الألمانية ، ومؤلفاته الخاصة التي أودع فيها مذهبه .

وقد بدأ حياته الفلسفية بالتأثر بالفلسفة السائنة في عصره آنذاك - أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من

الخطوة الأولى في البحث هي ظاهريات ( فينومينولوجيا ) للمعرفة . لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد . بل هو يتقد تقدماً حاداً أنصار الظاهريات الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يحلوا المشاكل بواسطة منهجهم الظاهرياتي . إن المنهج الظاهرياتي ليس قادراً على وضع المشاكل ، فبالأحرى لا يستطيع حل المشاكل . ذلك إن الفينومينولوجيا لا تستطيع أن تفعل أكثر من أن تصف الظواهر المحضة ، وذلك من ناحية أية وجهة نظر فلسفية . لكن المذهب الفلسفي ينبغي عليه أن ينظر إلى الأمور من وجهة نظر معينة تتوقف عليها طريقة حل المشاكل . ولهذا السبب ينبغي البدء بصياغة المشاكل . وهو ما لا تستطيعه الفينومينولوجيا .

وهنا يأخذ هرتمن بمنهج أرسطو في الأبوريات ؛ إذ وجد فيه تحقيق الخطوة الثانية للبحث في مشكلة المعرفة . إن المشاكل تتلقف الحلول . وهذا ما تعمل على تحقيقه نظرية المعرفة التي هي الخطوة الثالثة والأخيرة في ميتافيزيقا المعرفة . لكن ليس من المؤكد من أول وهلة أن المشاكل يمكن أن تجد دائماً حلولاً مناسبة ، فمثل هذا الادعاء حكم سابق عقلي . ومن هنا يقنع هرتمن بإثارة المشاكل أحياناً ، أولى من السعي لايجاد الحلول «بأي ثمن» . وفي نفس الوقت حاول أن يتعمق بحث الباقي اللامعقول ، أي ما هو «ميتافيزيقي» في المعرفة .

وفي كل معرفة توجد ذات عارفة في مقابل موضوع معروف . لكن الموضوع لا يدخل في نطاق الذات بكونه صار معروفاً ، بل يبقى دائماً عالياً تجاه الذات . لهذا يجب على الذات أن تترك نطاقها الخاص بها ( أي أن تعلق ) ابتغاء إدراك الموضوع ؛ لكن عليها بعد ذلك أن تعود إلى نطاقها كي تصير واعية بالموضوع . ولهذا فإن ادراك الموضوع لا يمكن أن يتم إلا بفضل صورة للموضوع تنطبع في الذات . غير أن الصورة نفسها لا تكون أولاً مشعوراً بها ، لأن المعرفة يجب أن تتوافق تماماً مع الموجود . وهذه الواقعة تنفذ في محايثة الظواهر ، فإلى الظواهر المحايثة للشعور تتسبب المعرفة بوصفها ظاهرة نافذة في هذه المحايثة . فمثلاً إذا فكرت في الجبل س فإن لدي في شعوري صورة امتثال له ، لكنني لا أفكر في هذا الامتثال ، وإنما أفكر في الجبل س الموجود . ومن هنا يقول هرتمن إن الموضوع القصدى intentional يعيش من «رعاية الفعل» ، ولكن الوجود يقوم مستقلاً عنه .

وللمعرفة نوعان : المعرفة البعدية ، وهي التي تبدأ من

الممكن إدراك كلية الموجود ، من حيث المبدأ . وهكذا أغفلت حالة وسطى ثالثة هي ادراك الموجود إدراكاً تصورياً جزئياً مع اعتبار الباقي اللامتاهي غير معقول .

والنحو الثاني من الخطأ هو نقل المقولات ( المبادئ ) من ميدان إلى ميدان آخر غير مجانس له ، مثلاً : تطبيق المبادئ الميكانيكية على حياة المجتمع واللولة ، أو بالعكس : تطبيق التراكيب النفسية الروحية على عالم الجمادات . ولهذا ينبغي التغلب على هذا التجاوز القوي للحدود بواسطة تحليل دقيق ، مع الإبقاء على المقولات في مجالها النسبي لكل ميدان أخذت منه في البداية . هنالك يتج عن وجه نظر الانطولوجيا التقليدية تقسيم معقد لمجموع الموجود ، غير ذلك الوارد في الصيغ التوحيدية الموجودة في الميتافيزيقا التقليدية .

والمعرفة تتسبب إلى أعلى الطبقات المعروفة لنا ، أعني طبقة الروح . ولهذا فإنه لا تيسر معرفة ماهية المعرفة إلا بواسطة انطولوجيا الوجود الروحي .

وعلى نظرية المعرفة أن تهيم الأساس لكل بحث انطولوجي ، لكنها لن تجد غايتها إلا في إطار انطولوجيا الوجود الروحي .

#### ١ - ميتافيزيقا المعرفة

قلنا إن نقولاوي هرتمن كان في مطلع حياته من أنصار الكنتية الجديدة . لكنه بعد ذلك تلقى تأثيرات عديدة من الفينومينولوجيا ، ثم حاول بواسطة دراسات عميقة في تاريخ الفلسفة في الغرب بحث مناهج خصبة - مثل منهج الأبوريات Aporetik عند أرسطو وديالكتيك هيغل - بعد تحديد لها .

وقد أخذ يتخلص من تأثير الكنتية الجديدة حينما وضع ميتافيزيقا المعرفة . فبينما الكنتية الجديدة تنكر وجود موجود مستقل عن الذات وعالم على الشعور ، وتقرر بالتالي أن كل معرفة هي من نتاج الموضوع بواسطة الذات ، حاول هرتمن أن يبين أن ماهية المعرفة إنما تقوم لا في إنتاج Erzeugen بل في إدراك Erfassen موجود قائم بذاته مستقل عن المعرفة .

وقد تأدى به إلى هذا الموقف تأثره بالفينومينولوجيا . إن ما ينبغي أن يكون أساساً للأبحاث ليس قضية واحدة سنة ، مثل الكوجيتو الديكارتي ، بل قاعدة للظواهر تكون أوسع ما يمكن أن تكون . فإن تعدد الظواهر يوجد معياراً متبادلاً تجاه الانحرافات عن الطريق القويم . ولهذا يجب أن تكون

يوجد آنية حيادية ، وإنما الأنية هي دائماً إما واقعية أو مثالية .  
والعلاقة بين الأنية وكيفية الوجود مترابطة ، أعني أنه لا يوجد موجود له الأنية فقط ولا يكشف عن أية كيفية وجود ، وكل كيفية وجود مرتبطة بآنية . أما الوجود المثالي والوجود الواقعي فيبينها انفصال جذري : إما واقعي ، وإما مثالي ، ولا جمع بينهما .

والتقابل بين الأنية وكيفية الوجود ليس تقابلاً مطلقاً ، بل نسبي أنطولوجي . فمثلاً كيفية وجود كرة حمراء هي آنية الحُمْرة فيها . وبالعكس : كل آنية لشيء ما هي كيفية وجود لآخر ، مثلاً : آنية الغُصن هي كيفية وجود الشجرة ، وآنية الشجرة هي كيفية وجود الغابة ، الخ .

وليس من السهل تحديد الوجود المثالي والوجود الواقعي . وكل ما نستطيعه هو أن نقول إن الواقعي هو الفردي ، وما حدث مرة ، والزمني ، الخاضع لعملية الصيرورة ؛ أما المثالي فهو ، على عكس ذلك : العام ، المجرد من الزمان ، الأبدى الأزلي ، غير الخاضع للتغير . وليس المثالي هو المنطقي ( أي القائم في الذهن دون الواقع ) ، بل المثالي موجود وجوداً حقيقياً . والدليل على ذلك أن العالم المائتي يخضع لقوانين رياضية .

ومن حيث الأحوال الوجودية Seinsmodi يميز هرتمن بين : الامكان ، والواقع ، والضرورة - تماماً كما فعل أرسطو ومن بعده الاسكالاتيون وكنت . وشرح هرتمن هذه المقولات الثلاث هكذا :

#### ١ - الضرورة على نوعين :

أ - ضرورة الماهية Wesensnotwendigkeit وهي ما يملكه الشيء على أساس بنيتة المثالية . وهذه مقولة إضافية relational ، تسيطر على الارتباط فقط ، لا على الأعضاء الأولى .

ب - ضرورة الواقع وهي حالة تبعية في العملية الزمانية ، وهي أشمل من الارتباط العلي لأنه يوجد أيضاً تحديدات واقعية غير عليّة .

#### ٢ - والإمكان على ثلاثة أنواع :

أ - مجرد الامكان Bloss- möglich sein ، وهو إمكان الوجود والعدم ، ولهذا يمكن نعته بأنه الإمكان المنفصل ، أو الإمكان السواء indifferente Möglichkeit .

الجزئيات ، والمعرفة القبّلية وهي مستغلة عن الجزئيات . وفي كلا النوعين يكون الموضوع قائماً في ذاته ومستغلاً عن درجة معرفته . ومن هذا يتجلى أن الموجود هو أكثر من الموضوع المُتْرَك وهذا الجزء عينه الموضوع لما يطلب معرفته يسميه هرتمن الموضوع العالي Transobjective ، كما يسمي الحدّ القائم بينه وبين الجزء المعروف : حدّ التموضع-Objektion-sgrenze . فإذا بدأت الذات تحاول معرفته ، ينشأ « علم اللاعلم » Wissen des Nichtwissens ، أي وضع المشاكل ، الذي هو تصبّي المعرفة للامعروف . وينجم عن هذا محاولة الذات لإدراك جزء أكبر من الموضوع ، أي بتجاوز حد التموضع . لكن قد يحدث أن تصطدم هذه المحاولة بحدود لا يمكن اقتحامها أو تجاوزها : حد إمكان المعرفة أو حدّ إمكان التموضع . ووراء حد إمكان المعرفة يقوم للعقول العالي Transintelligible أو اللامعقول . واللامعقول يلعب دوراً رئيسياً في معالجة هرتمن لمشكلة المعرفة . وهو يستند إليه في حجته الحاسمة ضد مذهب كنت .

وبالجملّة فإن المعرفة ممكنة ، لأن العارف والمعروف كليهما موجود ، وهما بهله المثابة عضوان في نفس العالم ، ولهذا تتحدد الذات بالموضوع . وأيضاً المعرفة ممكنة لأن القوانين التي تسود مجرى العالم الواقعي هي التي تعمل في مضمونات التفكير . بيد أن علو الموضوع المعروف في مواجهة الوعي العارف لن يزول عن هذا الطريق ، بل يبقى هذا العلو في حالة المعرفة الدقيقة . ولهذا السبب لا يوجد معيار مطلق للحقيقة ، لأن البنية تتناول دائماً مضمونات الوعي فقط .

#### ٢ - بناء الوجود

يتقسم الوجود إلى المزدوجات المتقابلة التالية : الأنية - كيفية الوجود - Dasein-Sosein ؛ الوجود المثالي - الوجود الواقعي .

وفيا يتعلق بالعلاقة بين المتقابلة الأولى ، والثانية ، يقرر هرتمن أن كيفية الموجود لا تكترث للمزدوجة المتقابلة : المثالية والواقعية . فالوجود المستدير لكرة يستوي لديه أن يتعلق الأمر بكرة مادية أو بكرة مثالية هندسية . ولهذا يمكن المرء أن يتحدث عن « كيفية الوجود » بوجه عام ، أو في « كيفية الوجود الحيادية » . ويتج عن هذا أن الثقل الوجودي للتقابل بين المثالي والواقعي يقع كله على جانب الأنية . إنه لا

المفردة . والعلاقة الرئيسية لهذه الروح هي التحرر من الاندماج في الغريزة والبيئة المحيطة .

والروح الموضوعية هي الأخرى حقيقة حية ، وهي تتجاوز الأرواح ( العقول ) الفردية . وهي تتجلى أولاً للنظر التاريخي . وهي تعلو على دائرة الوجود الحيوي البسيط . وحياتها تتحقق في مجالات مثل : اللغة ، الأخلاق القائمة ، الأخلاق الحقة ، القانون السائد ، حالة العلم ، أشكال التربية والتكوين الفكري ، الاتجاهات الفنية ، والنظرات في العالم السائدة بين الناس . ويتسبب إلى كل مضمون من هذه المضمونات الروحية ( العقلية ) طريقة خاصة به في التجربة ، والنمو ، والتحصيل عند أفراد الإنسانية . والروح الموضوعية تقوم في علاقة فريدة من الوجود الأعلى تجاه الأرواح ( العقول ) الفردية : إنها نجيا فيهم وحدهم ولا يحملها غيرهم ، لكنها مع ذلك تشكلهم من جديد حين تسيطر عليهم .

وفي تحليلنا للعلاقة بين الروح الشخصية والروح الموضوعية ينبغي أن نراعي ثلاثة أمور :

١ - الأول أن الروح الموضوعية لا تُورث ، بل تُنقل ، أعني أن الأفراد لا يحصلون على المضمون الروحي للماضي بمجرد الميلاد ، بل إن عليهم أن يكتسبوه خلال حياتهم وبارادتهم ؛

٢ - والثاني أن الروح الموضوعية ليس لديها وعي ولا شخصية ، على الرغم من هذه الواقعه ألا وهي أنها ، بوصفها روح الشعب ، تملك فردية تجاه سائر أرواح الشعوب الأخرى .

٣ - وينتج عن كون الروح الموضوعية ليست ذاتاً لها وعي ، أنها لا تجسد تمثيلاً واعياً لها إلا في الأفراد . لكن الفرد ناقص جداً ، لأنه لا يمكن أي ميدان من ميادين الروح الموضوعية أن يتحقق - ولا تقريباً - في وعي واحد : إذ لا يمكن إنساناً فرداً أن يحيط بمضمون كل العلم في عصره ، وهكذا الأمر في سائر ميادين نشاط الروح الموضوعية . ولهذا فإنه في ميدان الحياة الاجتماعية السياسة ينشأ عن هذا موقف كارث . فإن الشؤون العامة يجب أن تدبر ، ومن لحظة إلى لحظة لا بد من تسوية المسائل العامة ، وحل النزاعات ، وسدّ الذرائع ، ومن أجل هذا لا بد من قرارات وأفعال . لكن لا يستطيع القيام بهذا إلا وعي واحد . فلما كانت الروح العامة

ب- إمكان الماهية أو الإمكان المثالي ويقوم على عدم التناقض .

ج- الامكان الواقعي أو إمكان الواقع - Realmöglichkeit وهو الذي يفترض مقدماً توافر شروط التحقيق بالفعل ، توافرها كلها . فمثلاً الكرة الهندسية التامة خالية من التناقض ، وبالتالي ممكنة مثالية ؛ لكنها من الناحية الواقعية بعيدة عن إمكان التحقيق .

٣ - والواقع هو على ضربين :

أ - الواقع الماهوي Wesenswirklichkeit ويقصد به القيام في النطاق المثالي بوجه عام .

ب - الواقع الحقيقي Realwirklichkeit وهو المعطى لنا مباشرة من أحوال الوجود ، لكنه من حيث التصور يصعب وصفه جداً . ولا يستطيع المرء أن يشير هاهنا إلا إلى صلابة الأحداث ، والمصير .

والواقع وعدم الواقع أمران مطلقان ، أي أنها منفصلان عن كل ارتباط ، بعكس سائر الأحوال إذ هذه تكشف عن طابع إضافي Relational .

ويقرر هرمن الصلات التالية القائمة بين سائر الأحوال الوجودية :

١ - لا توجد حال حقيقية لا تكثر لحالة أخرى .

٢ - كل الأحوال الحقيقية الإيجابية (الإمكان، الواقع، الضرورة) تستبعد عنها كل الأحوال السلبية (عدم الإمكان ، عدم الواقع ، الصدفة) . ومن ثم تنشأ قوانين مختلفة تسم بالمفارقة ، مثال ذلك : وجود ما ليس بواقعي هو غير ممكن .

٣ - كل الأحوال الحقيقية Realmodi الإيجابية يتضمن بعضها بعضاً ، شأنها شأن الأحوال الحقيقية السلبية .

٣ - فلسفة الروح ( العقل )

والطبقة الروحية ( العقلية ) تمثل أعلى درجات وجود الحقيقي الواقعي . وما دام كذلك فهو لا ينحصر في عالم الوعي ( الشعور ) . ذلك لأن أحداث الشعور مرتبطة دائماً بأفراد ، بينما المضمونات الروحية ( العقلية ) ليست كذلك .

والروح ( العقل ) الشخصية هي أول ما يتجلى للنظرة الساذجة . فهنا الوحدات الروحية ( العقلية ) هي الأشخاص

وللمقيم الأخلاقية استقلال ذاتي. ويلاحظ أنها تتسم بالسمات التالية :

( أ ) القيمة الأخلاقية هي ، بالتوسط ، قيمة خير . وتبعاً لذلك فهي نسبة إلى ذات . فإخلاص الواحد خيراً للآخر ، والثقة خير لمن يفيد منها ، والمحبة خير للمحجوب ، والصدقة خير للصديق . ومع ذلك فإن القيمة الأخلاقية تكفي نفسها بنفسها : إذ تبقى قيمة ، بغض النظر عن كونها ستفيد خيراً للغير . إنها قيمة للشخص ، قيمة لسلوكه .

( ب ) والقيمة الأخلاقية تُصعد شخصاً أو جماعة من الأشخاص . وسواء أكنّا بإزاء نية أم فعل ، فإن موضوع سلوك الشخص هو دائماً شخص من جديد . فالفعل يتعلق بالأشخاص ، لا بالأشياء ؛ والنية تستهدف أشخاصاً ، لا أشياء . وهذه النسبية إلى شخص الغير تقوم في تركيب القيمة الأخلاقية هي نفسها . فقيمة الخير الموجود في الإخلاص لشخص آخر تقوم على الثقة التي يستشعرها الشخص نفسه وثبات نيته . وهاتان القيمتان ليستا متطابقتين ، فإن يضع المرء ثقته فيمن يثق فيه ، هذا يتعلق بسلوك الأول ، لكن الإخلاص هو سلوك للموثوق فيه .

( ج ) وثالثاً : توجه نسبة للقيمة تجاه الذات ، لأنه توجد علاقة بين القيمة وحاملها . والقيمة المعينة لا تتعلق بأي حامل كان : فثم علاقة جوهرية بين كليهما : وهكذا فإن قيم الأشياء تتعلق بالأشياء ، والقيم الحيوية تتعلق بالأحياء ، والقيم الأخلاقية ، بالذوات الشخصية . فلا يقدر على السلوك مسلماً أخلاقياً إلا الذات التي يمكنها أن تريد ، وتفعل ، وتضع لنفسها غايات ، وتتابعها ، ولها مقاصد ، وتشعر بقيم .

والقيم الأخلاقية ترتبط بالشخص كله ، لا بهذا الفعل أو ذلك من أفعاله ، لأن الشخص بكُله هو من وراء كل واحدٍ من هذه الأفعال .

وواضح من هذا أن هرتمن يأخذ بمذهب ماكس شيلر في القيم .

مؤلفاته الرئيسية

« منطق الوجود عند أفلاطون »

- Platos Logik des Seins. Giessen, 1909.

« ميتافيزيقا المعرفة »

تفتقر إلى الوعي ، فلا بد أن ينبثق الوعي المفرد كوعي نائب عنها . لكن الانسان المفرد لا يمكنه أبداً أن يعوض عن الوعي الشامل المُفتقر إليه . إنه ليس كفاءاً للوفاء بمطالب الروح الموضوعية ، إذ لا يستطيع أي عقل انساني أن يشمل بنظره كل الموقف السياسي ، كما يحيط بالموقف في حياته الشخصية .

ويرى هرتمن أن من بين الأخطاء الرئيسية التي وقع فيها هيجل أنه اعتبر حقاً وجوهرياً في الحياة الروحية ما كان يوماً ذا قيمة عامة ؛ ذلك لأنه بذلك غفل عن هذه الواقعة وهي أن الروح الموضوعية قد وقعت أحياناً في ضلالات . لهذا ينبغي أن نعتبر تحليل ما ليس صحيحاً في الحياة الروحية جزءاً مهماً من فلسفة الوجود الروحي .

والروح المتموضعة der objektivierte Geist هي الصورة الثالثة من صور الوجود إلى جانب الروح الشخصية ، والروح الموضوعية . وهذه الروح المتموضعة تشمل التموضعات الصادرة عن الروح ، مثل : القانون المسنون ، المعرفة العلمية المسجلة قولاً وكتابةً ، العمل الفني ، الخ . وبينما الروح الشخصية والروح الموضوعية روح حية ، فإن الروح المتموضعة ليست حية . ذلك لأن الأساس الواقعي ( الورق المطبوع ، الحجر المشغول ) ليس روحياً ، بل هو مادة .

وكل روح تاريخية . والماضي يمكن أن يكون صامتاً في داخل الحاضر ، كما هي الحال في الأعراف الماضية ، وأشكال اللغة ، والميول الأخلاقية ، الخ ، فهي حية فينا ، دون أن نشعر أنها ماضية .

#### ٤ - فلسفة القيم

وعني هرتمن بفلسفة القيم عناية بالغة ، خصوصاً القيم الأخلاقية .

يرى هرتمن أن القيم الأخلاقية هي قيم أشخاص وقيم أفعال ، وليست قيم أشياء . إذ هي تتعلق بالنية ، والفعل والإرادة . وعليها يتوقف الاحترام وعدم الاحترام ، والشعور بالمسؤولية ، والشعور بالخطيئة . إن القيمة الأخلاقية تتعلق بالشخص أو باحد أفعاله : فالاستقامة ، والأخلاق ، والثقة ، والأمانة ، وروح البذل وروح التضحية تحمل في داخلها قيمتها الأخلاقية .



سنة ٥٠٠ ق. م. ولا نعرف عن حياته غير أنه كان من الأسرة المالكة في مدينة أفسوس (بآسيا الصغرى). وما عدا ذلك من أساطير يبدو أنه مأخوذ من أقواله. فوصفه بأنه كان يعرف بلقب «الفيلسوف الباكي» إنما هو سوء تكويل لما نسب إليه ثاوفرسطس من «مالتخوليا»، وكانت تطلق آنذاك لا على الأحران بل على «الاندفاع». لكن شاع في العصر القديم القول بأن ديمقريطس كان «يضحك» من حماقة بني الإنسان، بينما كان هيرقليطس يبكي منها، فسمى ديمقريطس بالفيلسوف الضاحك، وهرقليطس بالفيلسوف الباكي.

كان هيرقليطس إذن من أسرة ملكية، ومن هنا تتجلى ارمستقراطية، وكبرياؤه. وهناك نادرة تقول إنه كان يلعب النرد ذات يوم مع الصبيان، فسأله الناس لماذا تفعل ذلك، فأجابهم: «وما يدهشكم في هذا أيها الأغبياء؟ أليس هذا أفضل من اللعب بالسياسة معكم؟!» (ديوجانس الاثري ٩: ٣). ومن أقواله في هذا المجال: «الرجل الواحد في نظري يكون ألف رجل، إذا كان هو الأفضل» (شذرة رقم ٤٩)؛ وقال أيضاً: «إن من القانون أيضاً أن يطيع المرء نصيحة شخص واحد» (شذرة رقم ٣٣).

وكان يكره الآراء القائلة بالمساواة بين الناس. قال: «إن على كل رجل ناضج من أهالي أفسوس أن يشتق نفسه ويترك المدينة للأولاد؛ لأن أهل أفسوس نفوا هرمودورس الذي كان أفضلهم جميعاً، قائلين: «لا يتفوق أحدٌ بيننا، وإذا تفوق فليكن ذلك في مكان آخر وبين أناس آخرين» (شذرة رقم ١٢١).

كذلك اشتهر هيرقليطس بالغموض، فقيل عنه: «الفيلسوف الغامض»، وشاع هذا القول في كل العصر اليوناني والروماني. والسبب في ذلك أنه كان يطيب له المقارقات والأقوال الشاذة، وكان يعبر عنها بلغة مجازية أو رمزية. ومن هنا لقبه تيمون الفليوسي (القرن الثالث ق. م) بلقب «صاحب الألغاز». ويقول عنه أفلوطين: «كان يتكلم بالتشبهات، ولا يعنى بإيضاح مقصوده، ربما لأنه كان من رأيه أن علينا أن نبحث في داخل نفوسنا كما بحث هو بنجاح» («التساغات» ٤: ٨).

وكان يزدري غالبية الناس. يدل على ذلك بعض أقواله التالية:

- Grundzüge einer Metaphysik des Erkenntnis, Berlin, 1925.

«الأخلاق».

- Ethik, Berlin, 1926.

«فلسفة المثالية الألمانية»

- Die Philosophie des deutschen Idealismus, I. Bd. Berlin, 1923, II. Bd. Berlin, 1929.

«أرسطو وهيجل»

- Aristoteles und Hegel. Erfurt, 1933.

«مشكلة الوجود الروحي»

- Das Problem des geistigen Seins, Berlin, 1933.

«نحو تأسيس الانطولوجيا»

- Zur Grundlegung der Ontologie, Berlin, 1935

«الامكان والواقع»

- Möglichkeit und Wirklichkeit, Berlin, 1938

«بناء العالم الحقيقي»

- Der Aufbau der realen Welt, Berlin, 1940

«فلسفة الطبيعة»

- Philosophie der Natur, Berlin, 1950

«المؤلفات الصغرى»

- Kleinere Schriften, 3 Bde, Berlin 1955 — 1957 — 1958

## مراجع

- H. Heimsoeth: N. Hartmann. Der Denker und sein Werk. Göttingen, 1952

- H. Hülsmann: Die Methode in der Philosophie N. Hartmanns. Düsseldorf, 1959.

- S. Breton: L'être spirituel. Recherches sur la Philosophie de N. Hartmann. Lyon-Paris, 1962.

## هرقليطس

### Heraclitus

فيلسوف يوناني سابق على سقراط، قال بالتغير الدائم.

من الصعب أن نحدد بالدقة تاريخ حياة هيرقليطس؛ والراجح أنه ازدهر (أي كان في الأربعين من عمره) حوالي



لكن المعنى الخاص يدل عند هرقليطس على العقل الانساني ، وعلى المبدأ الذي يحكم العالم ، أو القانون الذي وفقاً له يترتب العالم . وهذا اللوغوس شامل سائد في كل الكون . لكنه يتصوره تصوراً مادياً ، أي على أنه كيان مادي من عنصر النار ، لأنه يقول إن كل الأشياء متحولة من النار فالظهر المادي للوغوس هو النار . ولهذا فإن العقل الإلهي في أصنى أحواله حار وجاف . والنار في نظره تمثل أعلى وأصنى أشكال المادة ، ومنها يتكون العقل والروح . لكن كما يقول يحيي النحوي ( في شرحه على « في النفس » لأرسطو ، ص ٤٠٥ | س ٢٥ ) : « هو لا يعني بالنار : اللهب ؛ بل النار اسم أطلقه على البخار الجاف ، ومنه تتقوم الروح أيضاً » . ومن هنا يقول هرقليطس : « النفس الجافة هي الأحكم والأحسن » ( شذرة ١١٨ ) .

وإلى جانب القول باللوغوس ، قرر هرقليطس المبادئ الثلاثة التالية :

أ) الانسجام هو دائماً نتاج المتقابلات ، ولهذا فإن الحقيقة الأساسية في العالم الطبيعي هي الكفاح .  
ب) كل شيء في حركة مستمرة وتغير .  
ج) العالم نار حية دائمة البقاء .  
والمبدأ الأول له ثلاثة أوجه :

١ - كل شيء مؤلف من متقابلات ، ولهذا فإنه خاضع للتوتر الداخلي .  
٢ - المتقابلات في حالة هوية بعضها مع بعض ، أي أن المتقابلات واحدة .  
٣ - الحرب هي القوة المهيمنة والخلافة ، وهي الحالة السليمة للأمور .

أما المبدأ الثاني فيعبر عنه بقوله : « كل شيء في سيلان دائم »  $\kappa\omega\upsilon\tau\alpha \rho\acute{\eta}\tau\iota$  والقول المشهور جداً الذي يعبر به هرقليطس عن هذا المبدأ هو : « لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرتين » . ويضيف إليه فلوطرخس ( « المسائل الطبيعية » ٩١٢ ج ) التفسير التالي : « لأن مياهاً جديدة تتدفق فيه » . ويفسره أفلاطون ( « اقراطيلوس » ٤٠٢ أ ) بقوله إن هاهنا رمزاً لكل ما هو موجود بوجه عام ، ومعناه : « كل شيء يتحرك ، ولا شيء في سكون » .

أما المبدأ الثالث فيشرحه هرقليطس في قوله : « إن نظام العالم Kosmos واحد للجميع ، لم يصنعه أحد الآلهة ولا

شذرة ١ : « أناس آخرون لا يعلمون ما يفعلون وهم يقضى ، تماماً كما ينسون ما يفعلون وهم نيام »  
شذرة ١٧ : « كثيرون لا يفهمون مثل هذه الأمور ، بل كل الذين عثروا بها ، ولا يحفظونها غير أنهم تعلموها ؛ يبدوون لأنفسهم أنهم يحفظونها » .

شذرة ٣٤ : « الحمقى حين يسمعون يكونون مثل الصم . والمثل يصفهم فيقول : رغم أنهم حاضرون هم غائبون » .

شذرة ٩ : « الحمير يفضلون سقط المتاع على الذهب »  
شذرة ٩٧ : « الكلاب تنبح في وجه كل من لا تعرفه » .

شذرة ٧٨ : « الطبيعة الانسانية لا بصيرة لها ، أما الطبيعة الإلهية فبصيرة » .

شذرة ٧٩ : « الرجل طفل في أعين الإله ، كما أن الطفل طفل في عيني الرجل » .

شذرة ٨٣ : « أحكم الناس يبدو قرداً إذا ما قورن بالله : في الحكمة والجمال وسائر الأمور » .

شذرة ١٠٢ : « في نظر الله كل الأمور جميلة وحسنة وعادلة ، لكن الناس زعموا أن بعضها غير عادلة وبعضها الآخر عادلة » .

وكان هرقليطس يعتقد أنه امتلك ناصية الحقيقة الأبدية ، وأنه لم يأخذ عن أحد من المفكرين السابقين ، بل فكر بنفسه وتعلم كل شيء من نفسه ( ذيوجانس اللاترسي ٩ : ٥ ) .

ومن نظرياته الفلسفية الرئيسية القول باللوغوس Logos . وفي مستهل كتابه يؤكد وجود هذا اللوغوس . ماذا يعني باللوغوس ؟

يبدو أنه في بعض الشذرات يقصد باللوغوس معنى خاصاً ؛ لكنه في سائر الشذرات يستعمله بالمعنى الشائع . فهو يستعمله بمعنى خاص حين يقول : « كل شيء يحدث وفقاً للوغوس » ( شذرة ١ ) وحين يقول : « إن اللوغوس يرتب كل الأشياء » ( شذرة ٧٢ ) . لكنه يستعمله بالمعنى الجارح - أي بمعنى : القول ، في الشذرات التالية :

شذرة ١٠٨ : « لا أحد ممن سمعت أقوالهم  $\kappa\omicron\upsilon\tau\omicron\iota$  قد أنجز هذا ... » .

شذرة ٨٧ : « الأحق بتهيج لأي قول  $\kappa\omicron\upsilon\tau\omicron\iota$  » .

هذا الشيء الواحد لا يستقر لحظة واحدة على حال واحدة وإنما هو ينقلب دائماً وباستمرار من حال إلى حال؛ فالشيء يكون حاراً، ويكون بارداً، ويكون حاراً من جديد، وهكذا باستمرار. وهكذا في جميع الأشياء: لا تثبت لها صفة واحدة ثابتاً دائماً أو على الأقل ثابتاً لمدة غير قصيرة. ومن هنا يقول هرقليطس بأن كل شيء يشمل ضده ويحتويه، لأن كل شيء حين يتغير، يتغير من ضد إلى ضد، فلا بد له إذاً أن يكون حائزاً من قبل على الشيء الآخر لكي يمكن هذا التغير أن يتم. إلا أن هذا القول يجب ألا يفسر على النحو الحديث كما فعل هيجل مثلاً، وكما فعل لاسلر. فإن هؤلاء صوروا هرقليطس على أنه القائل بالمنهية الذي سيقول به هيجل من بعد وهو أن المتقابلات واحدة؛ ولم يكن مثل هرقليطس في هذا الدور من أدوار الفكر الإنساني أن يصل إلى هذا المستوى العالي من التجريد.

لكن، وعلى الرغم من هذا، يمكن أن يقال إن هرقليطس قد قال بأن الأضداد تتحول باستمرار الواحد إلى الآخر، وأن كل ضد مرتبط به ضده. وهنا - على طريقة الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط جميعاً - يصور هرقليطس هذا المبدأ القائل بأن الأشياء جميعاً دائمة السيلاان تصويراً حسياً فيقول إن هذا المبدأ هو النار، لأن النار هي العنصر الذي تتمثل فيه فكرة التغير الدائم المستمر. ولكن هنا تعترضنا مسألة هي: هل قال هرقليطس إن الأشياء جميعاً دائمة السيلاان، لأنه رأى أن أصل الأشياء هو النار، أم أن هرقليطس قال إن أصل الأشياء النار، لأنه رأى أن الأشياء دائمة السيلاان؟

إن الروايات والمنطق ينطقان بصحة الرأي الثاني القائل بأن هرقليطس جعل النار المبدأ الأول لأنه رأى أن الأشياء كثيرة التغير أو دائمة السيلاان. فأرسطو وسنبلقيوس في شرحه على أرسطو يقولان لنا إن هرقليطس قد جعل المبدأ الأول هو النار، لأنه رأى أن هذا المبدأ هو - من بين المبادئ كلها - الذي يتمثل فيه دوام السيلاان، أما المبادئ الأخرى فلا يتمثل فيها هذا الدوام في السيلاان. والنار التي قال عنها هرقليطس إنها أصل الأشياء، لا يجب أن تفهم بمعنى روحي وإنما يجب أن تفهم أيضاً بمعنى حسي مادي بوصفها هذا العنصر الذي يدركه الحس، وهذه النار هي مصدر الأشياء كلها، وعنهما تصدر الموجودات.

الناس، لكنه هو هو دائماً وسيكون كذلك أبداً: ناراً حية دائمة البقاء، أشعلت بمقاييس وأطفئت بمقاييس» (شلمرة ٣٠) ويشرح فيوجانس اللاطرسى (٩: ٨) هذا القول بأنه يعني أن «الكون ولد من نار وسينحل من جديد إلى نار، في عصور متوالية على التبادل، وهكذا أبداً».

### آثاره

راجع الشفرات الباقية من أقواله في:

- H. Diels: Herakleitos von Ephesus, griechisch und deutsch, 2. Aufl. Berlin, 1909

### تقويم مذهبه

إذا كان مذهب الإيليين قد قال بالوجود الثابت كما قال بالوحدة، فإننا الآن يلزم مذهب يعارضه تمام المعارضة: فيقول بالتغير الدائم بدلا من الثبات، ويقول بالكثرة المطلقة بدلا من الثبات، ويقول بالكثرة المطلقة بدلا من الوحدة. ولكن المذهبيين - مع ذلك - يسيران في طريق متواز تقريباً، لأن نقطة البدء عند الواحد هي نقطة البدء عند الآخر، كما أن نقطة الانتهاء عند كليهما واحدة.

يبدأ هرقليطس بحثه بالكلام عن معتقدات الناس، فيقول إن الناس يتبع بعضهم بعضاً ولا يفكرون تفكيراً حراً مستقلاً، وكل شيء يظهر عندهم بمظهر خاطيء، والطريق الذي يسرون فيه لا يدرون إلى أين ينتهي؛ وعلى وجه العموم، معتقدات الناس وأراؤهم العامة كلها خاطئة، بل والقلة القليلة من المفكرين ليسوا بأحسن حظاً كثيراً من عامة الناس. وهنا يجعل هرقليطس على هزيود، وهوميروس خصوصاً، وفركيدس والشعراء الذين سبقوه حملة عنيفة، وينسب إليهم تضليل الناس في الجزء الأكبر من معتقداتهم، لأنهم يتحدثون حديثاً خيالياً غير قائم على العقل، لأن حديثهم هذا قائم على الحس ومصدره الظن. والخطأ الأكبر الذي عند الناس في نظر هرقليطس هو أنهم يطلبون الوجود الثابت، والواقع أنه ليس ثمت شيء ثابت قط، وكل شيء في تغير مستمر، ولا يبقى شيء ثابتاً، بل الوجود يتحول باستمرار، ولا يقف لحظة واحدة عن التغير، لأن الوجود عند هرقليطس دائم السيلاان، على حد تعبيره

فالشيء الواحد لا يستمر على حاله والأشياء كلها تتحول باستمرار. وليس فقط الشيء الواحد يتحول إلى شيء آخر، بل أيضاً

العالم ، ويستمر هذا العالم في التغير والتطور حتى ينتهي تطوره إلى حد يقف فيه كل الوجود ، ثم يأتي من جديد وجود آخر يبدأ من حيث انتهى الوجود الأول ويكرر تمام التكرار الوجود السابق . وهكذا يسير الوجود في دورات ، وكل دورة مشابهة للأخرى . وهذا هو مذهب «العود الأبدي» عند هرقليطس . وعلى الرغم من اختلاف الناس في تصوير هذا الجزء من مذهب هرقليطس ، وعلى الرغم من أن هذا التصوير متأثر كل التأثر بمذهب الرواقين الذين تأثروا بهرقليطس في كل شيء تقريباً ، فإن من المسلم به نهائياً أن هذا المذهب قد قال به هرقليطس مع اختلاف في التفاصيل بحسب الروايات . فبعض هذه الروايات تفصل هذا المذهب تفصيلاً تاماً ، فتقول إن هرقليطس قد قال بأن هناك شيئاً اسمه «السنة الكبرى» ، وهذه السنة الكبرى تأتي في دورات معينة ، وفي هذه السنة الكبرى يحدث للعالم احتراق تام ، فيفنى العالم لكي تبدأ دورة جديدة مشابهة تمام المشابهة للدورة السابقة . وهذه الروايات التي تفسر لنا مذهب هرقليطس فيما يتصل بهذه المسألة تختلف في مقدار الزمن المقدر لكل دورة حتى تأتي السنة الكبرى : فيقول بعضهم إن مقدار الدورة الواحدة ١٠٨٠٠ ، والبعض الآخر يقول إن مقدار الدورة الواحدة ثمانية عشر ألف سنة .

والقول بهذه الأدوار يستخلص مباشرة من القول بالطريقين : طريق الصعود وطريق النزول ، وعلى هذا كان من المنطقي أن يقول هرقليطس بهذا المذهب ، إلى جانب أن هذا المذهب - كما قلنا - قد قالت به الروايات الصادرة عن أرسطو وشراحه فيما يتصل بهرقليطس والمعلومات التي لدينا عن الطبعيات عند هرقليطس معلومات تافهة أكثرها منتحل . ومن بين هذه المعلومات أنه قال بأن الشمس تقف كل يوم وتتجدد كل يوم ، وطبيعي أن يقول بمثل هذا المذهب ما دام يقول بالتغير الدائم ، وما دام يقول بأن الشيء الواحد يتغير تغيراً مستمراً من ناحية الكيف . وهنا نلاحظ أنه في قوله بالمبدأ الأول كان مختلفاً كل الاختلاف مع الفلاسفة الذين جاءوا بعده ، فبينما هم يقولون جميعاً عن المبدأ الأول إنه لا يتغير من ناحية الكيف وإن التغير لا يتم بالكيف بل بالكم عن طريق الامتداد والتقلص أو التخلخل والتكاثف ، نجده - على العكس من ذلك - يقول إن المبدأ الأول يتغير بالكيف باستمرار ، وإن التغير هو تغير استحالة ، أي تغير الأعراض بعضها إلى بعض باستمرار . ومعنى هذا أن هناك

والآن : فكيف يتم هذا الصدور ؟ هذا الصدور يتم عن طريق التنازع ، لأننا قلنا إن الأشياء تتحول الأضداد منها إلى الأضداد الأخرى ، فالأشياء المتقابلة أو المتضادة هي التي ينشأ عنها الوجود . وهكذا يلاحظ أن مصدر الوجود هو مبدأ التنازع ، إلا أنه يوجد إلى جانب مبدأ التنازع هذا ، مبدأ الانسجام ؛ فإن الأشياء لا تستمر في هذا التنازع ، بل تعود إلى شيء من الوحدة ، ولو أن هذه الوحدة ليست شيئاً نهائياً ، والأخرى أن يقال تبعاً لمذهب هرقليطس إن هذه الوحدة هي الفناء كما سيقول أنبادوقليس من بعد . فكان هناك إذاً ، يهيمن على جميع الأشياء ، مبدأ واحداً يجعلها تتغير باستمرار . وتبعاً لهذا المبدأ أو القانون تتحول الأشياء بعضها إلى بعض عن طريق هذا السيلان الدائم ، وهذا المبدأ يسميه هرقليطس باسم القانون أو باسم النسب المستمرة الثابتة ، أو باسم اللوغوس

هذا اللوغوس هو القانون العام الذي يسير عليه الوجود في تغيره من ضد إلى ضد . وهو الشيء الوحيد الثابت في هذا الوجود الدائم السيلان ، وهو الله ، وهو النار .

ونحن إذا نظرنا إلى مذهب هرقليطس في تغير الأشياء من حيث صدور الموجودات . وجدنا أن أرجح الروايات في هذا الصدد هي تلك التي تجعل هرقليطس قائلاً بعناصر ثلاثة ، هي النار والماء والتراب . فالنار عنده تتحول إلى ماء ، والماء يتحول إلى تراب ، والتراب بدوره يتحول من جديد إلى ماء والماء إلى نار . ومن السهل أن نفهم هذا في مذهب هرقليطس : لأن النار إن أصيبت بالرطوبة تحولت إلى ماء ، وإذا أصيبت باليبوسة تحولت إلى تراب ؛ كما أن النار عند هرقليطس ذرات ترابية حادة كتلك الذرات التي نجدها في أشعة الشمس . وهذا الطريق الذي تنتقل فيه الأشياء ، أولاً من النار عن طريق الماء إلى التراب ، وثانياً من التراب عن طريق الماء إلى النار من جديد ، يسميه هرقليطس باسم طريق من أعلى إلى أسفل وطريق من أسفل إلى أعلى . فالطريق من أعلى إلى أسفل هو الممتد من النار ، ماراً بالماء ، حتى التراب ؛ والطريق من أسفل إلى أعلى هو المتبقي بالتراب ماراً بالماء متبهاً عند النار . وهذا التعبير قد أخذه أفلاطون عن هرقليطس وأورده في «طيمالوس» .

وهنا نرى أن هرقليطس لما كان قد قال بهذين الطريقين المتضادين ، فإنه يقول بأن الوجود تأتي عليه دورات يقف فيها ثم يبدأ من جديد الوجود . وهكذا باستمرار : يوجد أولاً

يتبع العامة والمجموع . وكان من أجل هذا يحمل على الديمقراطية لأنها قانون العامة وأوساط الناس . لكن يلاحظ مع هذا أن الأخلاق التي أقامها هرقليطس لم تكن لتخرج كثيراً عن الأقوال الأخلاقية المتأثرة التي قال بها الفلاسفة السابقون ، فهي لا تكون مذهباً أخلاقياً بمعنى الكلمة ، كما أن نظرية المعرفة عنده لا تكون نظرية في المعرفة بالمعنى الحقيقي ، لأن نظرية المعرفة عنده لم يكن ينظر إليها على أنها الأساس التمهيدية الذي يجب أن يبدأ به الإنسان قبل بدء البحث في الوجود .

ونحن إذا نظرنا نظرة عامة إلى مذهب هرقليطس من الناحية التاريخية ، وجدنا أنه جديد كل الجدة ، لأنه أول مذهب قال بالتغير الدائم المطلق ، وجعل من التغير في الكيف تغيراً مستمراً ، الأساس في الوجود ، كما أن فكرته في الأضداد وفي أن كل شيء يحوي ضده وأن الأضداد هي هي نفسها ، تقول إن هرقليطس كان في كل هذا صاحب فكرة جديدة كان لها أكبر الأثر فيها بعد في تاريخ الفلسفة . وقد أثرت في كل الذين قالوا بالتطور ، وكان على كل فيلسوف أتى بعد هرقليطس أن يحسب حساباً للتغير الدائم للأشياء إلى جانب فكرة الثبات الدائم .

### نصوص ومراجع

- Werents: Heraklit und Herakliteer, 1927.
- V. Macchiero: Eraclito. Laterza, Bari
- W. K. C. Guthrie: A History of Greek Philosophy . vol. I, Cambridge, 1971, pp. 403 - 490
- J. Burnet: Early Greek Philosophy, 4 th ed. London, 1930
- O. Gigon: Untersuchungen zu Heraklit. Leipzig, 1935.
- H. Gomperz: «Heracitus of Ephesus», in Philosophical studies, Boston, 1953.
- E. L. Minar: «The Logos of Heraclitus», in Classical Philology, 1939, 323- 41.
- G. S. Kirk: Heraclitus: the Cosmic Fragments. Cambridge, 1954.
- A. Rivier: L'Homme et l'expérience Humaine dans les fragments d'Héraclite» in Museum Helveticum,

تغيراً بالكيف ، سواء في المبدأ الأول وفي كل ما يتم في الوجود من تغييرات .

والآن ، إذا نظرنا إلى الصلة بين القول بأن الأشياء دائمة السيلا ، وبين القول بأن المبدأ الأول هو النار ، وجدنا أن هرقليطس لم يصل إلى هذا الاستنتاج عن طريق استدلال منطقي بل عن طريق الخيال ، فكان نوعاً من الإدراك الوجداني استطاع أن يدرك فيه ، بنظرة واحدة ، الصلة بين دوام السيلا وبين النار بوصفها المبدأ الأول الذي يصلح وحده لأن يمثل دوام السيلا هذا . وفكرة اللوغوس قد أثار حوله كثيراً من الجدل فيما يتصل بمهية هذا اللوغوس : أهو نفس النسب التي على أساسها تتوالى التغيرات ، أم أنه العقل ، وأن هذا العقل هو العقل بالمعنى المفهوم فيما بعد بوصفه الوجود اللاعسوس ، أو الروح الكلية - كما سيقول الرواقيون من بعد . فهنا يذهب بعضهم إلى القول بأن اللوغوس عند هرقليطس هو نسب فحسب ونسب مادية ، بينما يتصور الآخرون اللوغوس على أنه مبدأ عقلي يهيمن على الوجود ، كما يهيمن الروح الكلية أو الله على الأشياء .

فإذا انتقلنا من مذهب هرقليطس العام في الوجود إلى مذهبه في المعرفة ، وجدنا أنه قد حمل على المعرفة الحسية - كما فعل برميندس من قبل - وقال إن المعرفة الصحيحة هي المعرفة العقلية وحدها ، وأما معرفة الحواس فليست معرفة حقيقية بل هي ظن ولا تؤدي إلى اليقين . وأقوال هرقليطس في النفس تجعل من النفس شيئاً نارياً ، وهذا طبيعي تبعاً لمذهبه العام . ولكن ، هل يجب أن نفهم من هذا أنه يتصور النفس جسماً نارياً كالنار الحقيقية سواء بسواء ، أو أنه يرتفع بها في درجة الوجود ، فيصورها تصويراً مجرداً لا حسيماً ؟ الواقع أن الاختلاف في هذه المسألة كالاختلاف في المسائل السابقة التي أشرنا إليها من قبل : فمن يجعلون هرقليطس يقول بمبدأ لاعسوس وباللوغوس بحسبانه العقل ، يجعلون النفس عنده شيئاً روحياً لا حسيماً ، والذين يذهبون المذهب المضاد يجعلون النفس ناراً كالنار المحسوسة سواء بسواء .

ومن نظرية المعرفة نصل إلى الأخلاق : فنجد أن أول بحث في الأخلاق بمعناها الحقيقي عند اليونان ، كان هرقليطس هو أول من قام به . فقد كان يطلب بالحرية الأخلاقية ، وأن يسير الإنسان على العقل في أفعاله ، وبألا

والخلق ، والخير ( ٢ : ١٢ - ١٧ : ٤ ؛ ٩ - ١١ ) . أما العالم فهو تارة الله نفسه ، وتارة ابن الله ، والإله الثاني ، والعالم حيّ ابدي ( ٨ : ١ ؛ ١٠ : ٢٢ - ٢٣ ) . أما الانسان فهو الموجود الذي في المرتبة الثالثة - بعد الله والعالم - من حيث مكانته وقيمته ، وهو موجز جامع للكون كله . والانسان « معجزة عظيمة » كما تقول محاورات « اسقلابيوس » ، وهو « كائن حيّ يستحق التشريف والعبادة » وهو « يكاد يكون الله » . والنفس الانسانية وقد هبطت من الأفلاك السماوية ، يمكنها أن تعود إلى هناك ، لا بفضل الطقوس السحرية التطهيرية ، ولا بفضل مخلص ، بل بقوة معرفتها *γνώσις* ( غنوص ) .

#### نشرات

من أحدث النشرات : نشرة W. Scott بعنوان Hermeti- ca ، في ٣ أجزاء ، اكسفورد سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٦ ؛ ونشر A. D. Fergusson جزءاً رابعاً بعنوان Testimonia في اكسفورد سنة ١٩٣٦ .

ثم نشرة A. D. Nock, A. J. Festugière بعنوان Her- mès Trismégiste في ٤ أجزاء ، باريس سنة ١٩٤٥ - ١٩٥٤ ، مع ترجمة إلى اللغة الفرنسية .

#### مراجع

- H. Reitzenstein: Poimandres, Leipzig, 1904.
- W. Kroll: Die Lehre des Hérmes Trismegistes. Leipzig 1914
- Pauly—Wissowa, VIII Coll. 792—823
- A. J Festugière: la Révélation d'Hermès Trismégiste, 4 vols. Paris, 1945-54.
- G. Von Mooyel: The Mysteries of Hermes Trismegistes. Utrecht, 1955.

#### هسرل

#### Edmund Husserl

فيلسوف ألماني ، مؤسس منهج الظاهريات .

ولد في ٨ أبريل سنة ١٨٥٩ في مدينة Prossnitz ( في إقليم مورافيا ) ، وتوفي في ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ في مدينة

1956, pp. 144-64.

- Zeller - Mondolfo: La filosofia dei Greci, 1, 2. Firenze, 1938

#### (الكتابات) الهرمسية

#### Corpus Hermeticum

نسبت إلى هرمس المثلث العظمة عدة كتابات ورسائل *Λογοι* ، مشكوك في مصادرها ، وتعود إلى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد . والمظنون أنها ألّفت في مدينة الاسكندرية ( بمصر ) . وتعكس في مجموعها جواً من التلفيق والتوفيق بين المذاهب الفلسفية والدينية ، اليونانية والشرقية المختلفة . وهي معاصرة لمجموعة أخرى من الكتابات تسمى « الوحي الكلداني » ، وبينها عناصر كونية مشتركة عديدة .

وقد بقيت لنا من مجموعة « الكتابات الهرمسية » ١٧ رسالة عنوان الأولى منها هو Poimandres ( = راعي الناس ) وقد امتد هذا العنوان إلى مجموعة هذه الرسائل كلها بسبب خطأ وقع فيه مرسليو فتشينو الذي ترجمها في سنة ١٤٧١ .

كذلك يتدرج فيها عمارة بعنوان « اسقلابيوس » Asclepius ( وهي ترجمة لاتينية لأصل يوناني مفقود كان عنوانه *Λογός τελειος* أي القول التام ) ، وقد بقيت منه شلرات .

ومن بين الكتابات الهرمسية أيضاً رسالة موجزة بعنوان : « لوح الزمرد » *Tabula smaragdina* بقيت لنا منها ترجمة عربية ولاتينية .

والآراء الفلسفية الواردة في هذه الكتابات هي خليط غريب من الأفكار الاورفية والفيثاغورية والأفلاطونية والرواقية والفزياء الأرسطية والتنجيم الكلداني . ولا يوجد فيها تأثيرات مسيحية ، ولا تأثيرات أفلاطونية محدثة . وهي تكون في مجموعها « غنوصاً » ( = عرفاناً ) حقيقياً إلى جانب التيارات الغنوصية الأخرى المعاصرة لها . ويزعم أصحاب هذه الكتابات أنهم ينطقون عن وحي إلهي وأن هدفهم هو خلاص الانسان . ويقررون أنه على قمة الوجود يقوم الله ، وهو لا يمكن معرفته ولا وصفه ، لكنهم ينظرون إلى الله تارة على أنه هو الكون نفسه ، وحيناً آخر يصفونه بأنه « الأب » ،

٣ - والثالث أنه أراغ إلى اتمام تحليل الأفعال النفسية عند برنتانو ، بواسطة مزيد من التمييزات الدقيقة ، لأن نتائج تحليلات برنتانو كانت تحفل بالاشتباكات ؛

٤ - والرابع أنه آمن للفلسفة منهجاً خصباً هو « رؤية الماهية ، Wesenschau .

### ١ - المنطق المحض

وكانت نقطة انطلاقه في الكفاح ضد النزعة النفسانية هي وضع فكرة عن منطق محض بوصفه علماً نظرياً . وكانت النزعة النفسانية تنظر إلى المنطق على أنه فن التفكير الصحيح ، وأن القوانين المنطقية هي القوانين الواقعية المكتسبة عن طريق التحليل التجريبي النفسي ، وأن الحق هو ما يتفق مع قوانين الفكر هذه . ولو كانت هذه القوانين من طبيعة أخرى - ويمكن من حيث المبدأ أن تكون كذلك - لكانت فكرة الحقيقة مختلفة تماماً .

فيبدأ هرل ويبين أن كل فن ينبغي أن ينظر إليه على أنه حالة خاصة من علم معياري ؛ لأنه لكي يمكن البحث عما يجب على الانسان فعله ابتغاء تحقيق هدف ( هو التفكير الصحيح ) ، كما يريد الفن ، فلا بد من تحديد المعايير الأساسية التي بموجبها يحكم على الأهداف . فمثلاً إذا وضعنا أن المحافظة على اللذة وزيلتها هما الخير ، أي المعيار ، فينبغي أن نتساءل : في أية ظروف يمكن أن نكتسب الموضوعات أكبر قدر من اللذة . بيد أن العلوم المعيارية تتأسس من جديد في العلوم النظرية التي لا يقال فيها ما يجب ، بل ما هو قائم فعلاً . ذلك أن العلاقة بين المعيار وما يطبق عليه المعيار هي مشابهة للعلاقة بين الشرط والمشروط . وهكذا فإن القضية المعيارية « أ يجب أن تكون ب » تفترض مقدماً القضية النظرية : « فقط الـأ التي هي ب لها الصفة جـ . وعلى العكس : لو صحت القضية من الشكل الأخير وقدمت جـ إيجابياً ، فإنه ينجم عن هذا القضية المعيارية : « فقط الـأ التي هي ب هي الخير » ، وهي نفس القضية المذكورة آنفاً : « الـأ يجب أن تكون ب » . فلو كانت لديّ مثلاً القضية النظرية : « الأحكام المقولة عن بيّنة هي وحدها المعارف » ، فإنه ينشأ في الحال ، لأن المعرفة تبدو ذات قيمة منطقية ، القضية المعيارية : « ينبغي أن تكون الأحكام بيّنة » . وحينئذ فقط يمكن القاء نظرة بمقتضى الفن على المقترضات السابقة النفسية التي ينبغي تحقيقها ، كما يمكن قيام أحكام بيّنة einsichtige Urteile .

فرايبورج - ان - برايسجاو Freiburg-in-Breisgau ( في جنوب غربي ألمانيا ) .

بدأ بدراسة الرياضيات في ألمانيا على يدي الرياضي الألماني العظيم فايرشتراس Weierstrass . ثم واصل دراسته في جامعة فيينا ، حيث وقع تحت تأثير فرانتس برنتانو ، الذي وجهه إلى دراسة الفلسفة .

وهو من أسرة يهودية ، لكنه اعتنق المسيحية البروتستنتية في سنة ١٨٨٧ .

وعين مدرساً مساعداً Privatdozent في جامعة هاله Halle في سنة ١٨٨٧ . ثم صار استاذاً في جامعة جيتنجن (Göttingen) في سنة ١٩٠١ . وابتداءً من سنة ١٩١٦ صار استاذاً في جامعة فرايبورج - ان - برايسجاو ، حتى سنة ١٩٢٨ .

وقد خلف بعد وفاته قدراً هائلاً من الصفحات المخطوطة التي لم ينشرها إبّان حياته ، بلغت أكثر من ٤٥,٠٠٠ صفحة ، والكثير منها معدّ للنشر ، والباقي غير مكتمل تماماً . ويجري العمل على نشر ما يمكن نشره منها في مدينة لاهاي في هولنده عند الناشر Nijmhof . وهذه المخطوطات محفوظة في لوفان في Husserl-Archiv ، وقد أنشئ مركز محفوظات آخر في كولونيا بألمانيا منذ سنة ١٩٥١ في مكتبة جامعة كولونيا Köln .

### فلسفته

كان هرل تلميذاً لفرانتس برنتانو ، وعنه أخذ فكرة أن الفلسفة علم دقيق . وتأثر به في التحول من الموضوع إلى الفعل النفسي . وكثير من أفكار برنتانو كانت نقطة انطلاق هرل في تفلسفه .

لكنه في مرحلة لاحقة أخذ يتأثر بكننت . ويمكن القول بأن هرل قد اختلف مع أستاذه الأول برنتانو في أربعة أمور :

١ - الأول هو أن هرل سعى إلى التغلب على ما في مذهب برنتانو من نزعة نفسانية Psychologismus ؛

٢ - والثاني أن هرل سعى إلى بيان أن التصورات الكلية توجد حقاً وفعلاً ، وليست كما زعم برنتانو مجرد اصطلاحات لغوية ؛ ولهذا ينبغي القول بوجود منطقي - مثالي ؛



والتكامل الخ هي ناتج نشاطات نفسية : الجمع ، الضرب ، الطرح ، القسمة ، التكميل ، الخ . لكن لن بقولن أحد إن الرياضيات تابعة لعلم النفس لهذا السبب ، وذلك لأن علم النفس بوصفه علم وقائع يبحث في أفعال نفسية خاضعة للزمان ، بينما الرياضيات تبحث في وحدات مثالية .

٣- والحكم السابق الزائف الثالث هو الزعم أن الحقيقة القائمة في الحكم لا يمكن أن تعرف إلا في حالة اليقظة Evidenz ، واليقظة شعور باطني فريد ، شعور بالضرورة ، فالمنطق - في زعمهم - إذن هو علم نفس اليقظة . والرد على هذا الزعم أن نقول إن القضايا المنطقية لا تصل إلى اليقظة إلا بإجراء تحويل . فمبدأ الثالث المرفوع يقول إنه بين تقيضين لا يوجد وسط . وبالتحويل فقط نصل إلى المبدأ القائل بأن اليقظة لا تتجلى إلا في واحد من الحكمين المتقابلين . وهكذا نرى أن اليقظة ليست شعوراً كسائر المشاعر ، بل هي تجربة حية فيها يلترك الحاكم صحة حكمه . والحقيقة نفسها هي الفكرة التي تصبح تجربة حية في الحكم اليقظة .

وهذا أبطل هرسل دعاوى أصحاب النزعة النفسانية الذين زعموا أن المنطق ليس إلا فرعاً من علم النفس يدرس فرعاً من الظواهر النفسية هي الخاصة بالتفكير ؛ وانتهى إلى تقرير أن المنطق علم محض ، أي لا يقوم على التجربة وليس علم وقائع نفسية ، بل موضوعه المبادئ والقواعد المعيارية للتفكير كما يجب أن يكون ، لا كما هو واقع . وللمزيد من البيان يراجع كتابنا : « المنطق الصوري والرياضي » ( القاهرة ط ١٩٦٢ ) .

## ٢ - ظاهريات الشعور

وبعد ذلك يبحث هرسل في بنية الشعور ، فيميز بين الأنا المتعالي ، أي الموجود في طبيعة العقل ، وبين الأنا النفسي . وفي سبيل ذلك يستخدم عملية ستلعب دوراً بارزاً في ظاهريات هرسل وهي عملية « الأيوخيه » أي تعليق الحكم . يقول هرسل : « بواسطة الأيوخيه الظاهريّة أردت أن أري الإنسان الطبيعة والحياة النفسية - وهما ميدان التجربة النفسانية الباطنة - إلى أناي المتعالي الظاهرياتي . والعالم الموضوعي الذي يوجد بالنسبة إلى ، والذي وجد أوميووجد بالنسبة إلى ، هذا العالم الموضوعي بكل موضوعاته يستقي من ذاتي ، كما قلت إنفاً - كل المعنى وكل القيمة الوجودية التي له بالنسبة إلى ، إنه يستقيها من أناي المتعالي الذي تكشف عنه

ونفس الأمر يصدق على المنطق بوجه عام . فيجب أولاً أن تكسب القضايا القبلية المؤسسة للمعاني : « حقيقة » ، « حكم » ، « تعريف » الخ ، أقول يجب اكتساب هذه القضايا في علم نظري ، كي يمكن بعد ذلك استنباط مبادئ منطقية معيارية منها ، واستخراج قواعد فنية عملية فيما بعد . ومجموع نظام تلك القضايا القبلية النظرية يسميها هرسل باسم : « المنطق المحض » .

أما النزعة النفسانية فلا تجد داعياً للاقرار بمثل هذا العلم ، لأنها تقرر أن الفكر والمعركة حادثان نفسيان ، وأن المنطق - تبعاً لذلك - عليه أن يستند إلى توافقات قانونية نفسانية . لكن هرسل يفند النزعة النفسانية على ثلاثة أنحاء : إذ يشير أولاً إلى النتائج الباطلة لهذا الرأي ، ويبين انتهاءه إلى شك جذري ثانياً ، ويكشف عن الأحكام السابقة الموجودة في النزعة النفسانية ثالثاً .

ذلك أن علم النفس هو علم وقائع ، والقوانين التي تضعها علوم الوقائع هي مجرد أقوال عن اطرادات ، ولا تدعي أبداً اليقين والعصمة ، بينما المنطق والمبادئ المنطقية وقواعد القياس الخ يقينية مطلقة الدقة ، وهو أمر لا يمكن بلوغه عن طريق التجربة . ولهذا لا نستطيع أن نتكلم في علم النفس إلا عن احتمالات .

والنزعة النفسانية هي شكل خاص من النزعة النسبية .

ومن طبيعة الواقعة أن تتحدد فردياً وزمانياً ، بينما قواعد المنطق كلية ضرورية عامة لا تخضع لتحديد في الزمان أو المكان .

كذلك تخفل النزعة النفسانية بأحكام سابقة زائفة :

١ - وأول هذه الأحكام السابقة الزعم أن كل القواعد الخاصة بضبط الفكر يجب أن تؤسس نفسانياً . وزيف هذه الدعوى هو أن القوانين المنطقية لا تتعلق بما يجري بالفعل أثناء التفكير ، بل بما ينبغي مثالياً أن يكون عليه التفكير .

٢ - وحكم سابق زائف ثان هو الزعم أننا في المنطق إنما نشغل بامتنالات وأحكام واستنتاجات وما شابه ذلك وهي كلها - زعموا - ظواهر نفسية فحسب . ويدل على فساد هذا الزعم ما بين المنطق والرياضيات من شبه دقيق . صحيح أن العدّ واستخراج حاصل الضرب ، وعمليات التفاضل



## القصدية

والقصدية Intentionalität من المعاني الرئيسية التي عني بها فرانتس برنتانو متأثراً بالاسكلايين (فلاسفة العصور الوسطى في أوروبا). وكانت الكلمة intentio تستعمل بمعنىين مختلفين: الأول بمعنى القصد أو المقصود وما ينوي المرء عمله؛ والثاني بمعنى تصور الماهية الذي يعطيه التعريف. والأول يتفق مع الأصل اللغوي اللاتيني للكلمة intentio؛ أما الثاني فقد أخذ عن الترجمة اللاتينية لكاتب الفلسفة العربية في ترجمتها لكلمة «معنى».

أما هسرل، وقد أدرك اشتراك للمعنى هذا، فإنه يطبق كلمة Intentionalität على «الأفعال المتعددة الدالة على قصد نظري أو عملي حرّ ومفهوم عامة» (هسرل: «مباحث منطقية» ص ٣٧٨).

وهو يرى أن القصدية هي الفكرة الأساسية في الظاهريات. ويعرفها بأنها «خاصية كل شعور» أن يكون شعوراً بشيء «Bewusstsein von Etwas»، وبهذه المثابة يمكن وصفه مباشرة. والشعور بشيء هو التضاييف المتواصل بين أفعال القصد بالمعنى الأوسع وبين الموضوع المقصود.

والقصدية تقول:

١- إن من الواجب أن تميّز في حياة الشعور بين المضمونات الواقعية reellen وبين المضمونات القصدية (غير الواقعية). والمضمونات الواقعية هي أفعال القصد الجارية في زمان. ويستعمل هسرل التعبير Noesis للدلالة على المضمونات الواقعية، بينما يستعمل اللفظ Noema للدلالة على المضمونات غير الواقعية الموجودة في الشعور. فالقصدية إذن مزيج من النوتيسيس (التعقل) والنوتيا (المعقول).

٢- والنوتيا (الموضوع المعقول) هو ناتج تركيب متعدد الدرجات، فيه تبلغ التعقلات المتعددة وحلة الشعور بالموضوع.

٣- ويحيط بالموضوع المعقول أفق من المقصودات الجانبية المقترنة.

٤- والقصدية، أخيراً، تعني اتجاه الشعور نحو إعطاء الذات أو اكتساب ذات الموضوع المقصود.

أما الشعور Bewusstsein فيمميز فيه هسرل ثلاثة معان:

الأبوحه الظاهرياته المتعالية « (التأملات الليكارقية» ، التأمل الأول).

ويعد أن ردّ الأنا هذا الرد، استخلص التراكيب الأساسية الخاصة بالأنا.

وهنا وجد أن التركيب الموحد في الأنا هو الاحالة المتبادلة، أو القصدية Intentionalität (التي هي وحلة بين من يفكر وما يفكر فيه).

والرد الظاهرياتي هو الشعور الأساسي التي بواسطته تفتح الذاتية المتعالية ميدان الأصول المطلقة لكل موجود، وتبعاً لذلك تجعل الموقف الظاهرياتي ممكناً. والردّ يتجلى أولاً على أنه تعديل جذري فيما يسمى «الموقف الطبيعي». ولا يقصد به «الموقف الطبيعي» الموقف العادي اليومي للإنسان تجاه الشمول الوجودي أو شمول العالم، كما لا يقصد به حال مهمة ومعينة وجودياً لوجود الإنسان، ولا نظرة في العالم، أو «صورة للعالم»، ولا تركيب ما يسمى باسم «التصور الطبيعي للعالم». وإنما المقصود «بالموقف الطبيعي»: الموقف الجوهرية الخاص بطبيعة الإنسان، الموقف المتقدم لوجود الإنسان نفسه، وجوده الموجود من حيث هو موجود في كل العالم، أو الوجود الطبيعي للإنسان في العالم وفقاً لكل أحوال الإنسان: أولاً تجاه الأشياء المعينة، ثم تجاه الأشياء بوجه عام، أي تجاه تركيب أساسي لتجربة الإنسان في العالم. إنه الحياة التجريبية بكل أشكالها: يدرك، يفعل، يضع نظريته، يشناق، يحب، يكره، يهتم الخ.

والتحليل الظاهرياتي يتصف بالصفات التالية:

١- كل تحليل ظاهرياتي هو في جوهره موقت؛

٢- كل تحليل ظاهرياتي هو في جوهره زمني؛

٣- كل تحليل ظاهرياتي يقتضي جوهرياً دليلاً هادياً.

ويقصد بالصفة الأولى، أعني أنه موقت، أن القبلي الظاهرياتي يحال إلى طابعه الخاص؛ وهو أنه صورة اجمالية على المستوى الارتدادي الذي توقف عنده.

وحين نقول إنه زمني فالمقصود أنه كشف عن تاريخ مترسب («منطق صوري...» ٩٧٤ ص ٢١٧ = ص ٣٢٨ من الترجمة الفرنسية لسوزان باشلار، باريس سنة ١٩٥٧).

وأما الصفة الثالثة فتقوم على موقف الرد.

اليومية ، أو عن العلم ، أو عن ميدان العقيدة الدينية .  
وينبغي ألا يتكلم إلا الشيء المعطى مباشرة .

ويقوم ثانياً في « الوضع الوجودي بين أقواس » ، أي الامتناع من كل الأحكام الوجودية وحتى من تلك التي تتجلى فيها البينة المطلقة مثل وجود الأنا . وبيننا العنصر الأول يؤدي إلى التخلص المطلق من كل الأحكام السابقة ، فإن هذا العنصر الثاني يقوم على أساس أن المعرفة الفلسفية يجب أن تكون معرفة بالماهيات ، لكنها لا يعنىها الوجود الواقعي للموضوعات المتأمل فيها .

لكن هذين العنصرين لا يكفيان لرؤية الماهية ، لأن الجزئيات لا تزال تتجلى جزئيات .

ولهذا ينبغي أن يضاف عنصران آخران « للوضع بين أقواس » ، عنصران يتوقف عليهما - في نظر هرسل - فعالية المنهج الظاهرياتي .

إن التمييز بين « الواقعة » *Tatsache* وبين الماهية *Wesen* (*Eidos*) يناظره الرّد الماهوي *eidetische Reduktion* الذي به يتم تحويل ما هو واقعي إلى ماهية ، مثلاً : من أنواع الأحمر المختلفة نصير إلى ماهية الأحمر ، من أفراد بني الإنسان كما هم في الزمان والمكان نصير إلى ماهية الإنسان .

ويتقاطع مع هذا التمييز تمييز آخر بين « الواقعي » و « غير الواقعي » . وينظره الرّد المتعالي *transzendente Reduktion* ، وهو الذي به نصير المعطيات في الشعور الساذج إلى ظواهر متعالية في « الشعور المحض » . وبهذا الاتجاه الجديد يتعد هرسل عن أستاذه برنتانو ليسير في اتجاه مذهب كنت والمثالية المتعالية ، ذلك لأن الوضع الظاهرياتي بين أقواس لا يبقى إلا على الشعور المحض ، وهو مطلق بمعنى أنه لا يحتاج في قوامه إلى أي شيء واقعي . لكن استقلال وجود الأنا المتعالي هو جانب سلبي من النظرة المثالية المتعالية التي وصل هرسل إليها . أما الجانب الإيجابي فيقوم في القول بأن كل موجود هو نسبي إلى الشعور المحض الذي وإن كان غير واقعي فإنه في نفس الوقت ضروري من حيث المبدأ ، وهذا يمثل علواً من نوع خاص في بطون تيار التجارب الحية .

وليس على الفيلسوف أن يخرج من « أناه » ابتغاء اكتشاف التراكيب الكلية المتسبة إلى كل « أنا » *Ego* . بل

١ - إذ يفهم منه أولاً الالتحام التجريبي للتجارب الحية النفسية من أجل وحدة تيار الشعور ؛

٢ - أو الإدراك الباطن للتجارب الحية الذاتية ( الاستبطان ) ؛

٣ - وثالثاً يدل الشعور على كل الأفعال النفسية أو التجارب الحية القصدية .

لكن هرسل يقتصر في أبحاثه على استخدام « الشعور » بالمعنى الثالث فقط . وعنده ، كما عند برنتانو ، أن ماهية القصد تقوم في أن فيه « يقصد » موضوع ، دون أن يكون الموضوع أو شيء يناظره قائماً في الشعور نفسه ؛ إذ ما هو موجود في الشعور كتجربة حية هو فقط فعل القصد نفسه . وفي هذا يقوم التمييز بين « المعنى » و « الموضوع » : إن الأفعال هي تجارب حية للمعنى المقصود ، أما الموضوع القصدية فإنه عال على التجربة الحية .

وإنما الفارق بين هرسل وبرنتانو هو في أن هرسل يفترض أيضاً انطباعات واقعية غير قصدية ؛ إن الانطباعات يُشعر بها ، لكنها لا تظهر أنها موضوعات ، أي لا تدرك . فمثلاً إذا رأيت قلماً أحمر ، فإن لدي انطباعاً بالأحمر ، لكنني لا أرى انطباعي هذا ، بل أرى ذلك الشيء الأحمر القائم خارجاً عن شعوري .

### رؤية الماهية

توجد ماهيات . لكن كيف نصل إلى إدراكها ؟ إن ذلك يتم - في نظر هرسل - عن طريق منهج الرّد الظاهرياتي ( الفينومينولوجي ) .

ويقوم هذا المنهج على أساس أن نبدأ بأن « نضع بين أقواس » العالم الطبيعي الخارجي الممتد في المكان والمتوالي في الزمان . لكن لا يقصد بهذا « الوضع بين أقواس » ما قصده ديكاوت في شكله المنهجي من الشك في حقيقة العالم الخارجي كله ، بل يقصد فقط عدم استعمال الاعتقاد الطبيعي في العالم ، إن معناه أن نطرح جانباً هذا الاعتقاد ، أو نصرف النظر عنه ، أو نجعله يكف عن العمل .

وهذا « الوضع بين أقواس » *Einklammerung* يتألف من عناصر عدة :

إذ يقوم أولاً في « الوضع التاريخي بين أقواس » ، وفيه نطرح جانباً ما هنالك من نظريات وآراء صادرة عن الحياة

- « المنطق الصوري والمتعالي »  
 - Formale und transzendentale Logik, Halle 1929  
 « أزمة العلوم الأوروبية والظواهرات المتعالية »  
 - Die Krisis der europäischen Wissenschaften und die transzendentale Phänomenologie. Eine Einleitung in die Phänomenologische Philosophie, in: Philosophia, Bd. I, 1936  
 « التجربة والحكم »  
 - Erfahrung und Urteil, Prag 1939  
 « مجموع مؤلفاته » :  
 - Husserliana, Edmund Husserl, Gesammelte Werke: Bd. I: Cartesianische Meditationen und Pariser Vorträge, Haag, 1950  
 « تأملات ديكارتية » و « محاضرات في باريس »  
 II: Die Idee der Phänomenologie, Haag, 1950  
 VII: Erste Philosophie, Haag, 1959  
 Méditations Cartésiennes, Paris 1932.

## مراجع

- G. Misch: Lebensphilosophie und Phänomenologie Bonn, 1931  
 - J. Kraft: Von Husserl zu Heidegger. Leipzig, 1932  
 - G. Berger: Le Cogito dans la Philosophie de Husserl. Paris, 1950  
 - A. Diemer: La Phénoménologie de Husserl comme métaphysique, 1954.  
 - A. Diemer: Edmund Husserl. Meisenheim Glan, 1956  
 - S. Bachelard: La logique de Husserl, études sur logique formelle et logique transcendentale. Paris, 1957  
 - M. Farber: The Foundation of Phenomenology. Cambridge, «Mass» 1943.

## هلباكنس

## Maurice Halbwachs

عالم اجتماع فرنسي .

ولد في رانس Rheims ( شرقي فرنسا ) في سنة ١٨٧٧

يعمل « الأنا » في ذاته بالتأمل ككيفية يكشف التنوعات الكفيلة بأن تكشف له عن صورة « الأنا ». وهذا تصبح الذات المتفلسفة هي الواهية الأخيرة للمعاني. إنها ليست شبيهة بشاهد أجنبي عليه أن يلحظ مقياس هذا المعطى المعتم ، بل هي في نفس الوقت محل أصل المعطى والعين التي تبصر كل ماهية .

ويلخص هسرل موقفه هاهنا هكذا : « إنني أنا يتأمل على طريقة ديكارت . وأسترشد بفكرة فلسفة ، مفهومه على أنها علم كلي ، مؤسسة على نحو دقيق محكم جداً أقررت بإمكاناته ، من باب المحاولة والتجريب . وبعد أن قمت بالتأملات السابقة ، تبين لي أن عليّ قبل كل شيء أن أتمّي ظاهريات ايدوسية ( تتعلق بالایدوس Eidos = الصورة ) ، وهذا هو الشكل الوحيد الذي عليه يتحقق ، أو يمكن أن يتحقق ، علم فلسفي ، الفلسفة الأولى . وعلى الرغم من أن اهتمامي يتعلق هنا خصوصاً بالرد المتعالي ، وبأناني المحض وتوضيح هذا الأنا التجريبي ، فليس في وسعي تحليله على نحو علمي معاً إلا بالرجوع إلى المبادئ الضرورية اليقينية التي تنتسب إلى الأنا بوصفه أنا بوجه عام . ولا بد لي من الرجوع إلى الكليات وإلى الضرورات الجوهرية التي بفضلها يمكن إرجاع الواقعة إلى أسس عقلية لإمكاناتها المحض ، وهو ما يمنحها المعقولية والطابع العلمي . وهكذا فإن علم الامكانيات المحضة يسبق في ذاته علم الوقائع ويجعلها ممكنة من حيث هو علم . »

## مؤلفاته الرئيسية

- « فلسفة علم الحساب »  
 - Philosophie der Arithmetik, Halle, 1891  
 « أبحاث منطقية »  
 - Logische Untersuchungen, 3 Bde., 1900  
 « الفلسفة علماً دقيقاً »  
 - Philosophie als strenge Wissenschaft, Logos Bd. I, 1911  
 « أفكار لايجاد ظاهريات محضة وفلسفة ظاهرياتية »  
 - Ideen zu einer reinen Phänomenologie und Phänomenologischen Philosophie, 1913  
 « محاضرات في ظاهريات الشعور الباطن بالزمان »  
 - Vorlesungen zur Phänomenologie des inneren Zeitbewusstseins, herausg. von M. Heidegger, in Jahrbuch für Philos. und Phänomenolog. Forschung, Bd. IX, 1928

وصفها لهذه الأماكن .

وفي السنوات الأخيرة من حياته ازداد اهتمام هلبفاكس بالورفولوجيا الاجتماعية وعلم السكان . وفي كتابه « نفسانية الطبقة الاجتماعية » ( سنة ١٩٣٨ ) فحص عن الدوافع القائمة في نفوس أبناء طبقة الفلاحين ، والبورجوازية ، وعمال الصناعة والطبقات الاجتماعية الدنيا .

وتوفي هلبفاكس في سنة ١٩٤٥ في معسكر اعتقال بوخنولد .

#### مؤلفاته

- Leibniz. Paris, 1907.
- La Classe ouvrière et les niveaux de vie. Paris, Alcan, 1913.
- La Théorie de l'homme moyen: Essai sur Quetelet et la statistique morale. Paris, alcan, 1913.
- Les Causes du suicide. Paris, Alcan, 1930
- L'évolution des besoins dans les classes ouvrières. Paris, 1933.
- Analyse des mobiles dominants qui orientent l'activité des individus dans la vie sociale . Paris, 1938
- La Topographie Légendaire des Evangiles en terre Sainte. Etude de mémoires collective. Paris, PUF, 1941
- La mémoire Collective.. Paris, PUF, 1949.

#### مراجع

- Jeanne, Alexandre: Maurice Halbwachs», in *Année sociologique* 3e série ( 1940- 48 ), 1,pp. 3-10.
- Georges Canguilhem: - Maurice Halbwachs ( 1877- 45)», in *Memorial des années 1939- 45*, vol. 103 pp. 229-41, Université de Strasbourg, Faculté des Lettres, Paris, les Belles- Lettres, 1947.

#### هوايتهد

#### Alfred North Whitehead

رياضي انجليزي أسهم في تكوين المنطق الرياضي وفي

ودخل ليسيه هنري الرابع في باريس حيث كان تلميذاً لهنري برجسون الذي أثر فيه تأثيراً كبيراً . ثم دخل مدرسة المعلمين العليا . وفي كلية الآداب ( السوربون ) درس على سيمييان ، وليفي بريل ودوركهيم . وحصل على الدكتوراه برسالة عنونها : « الطبقة العاملة ومستويات الحياة » ( سنة ١٩١٣ ) . وفيها بين أن المجتمعات الرأسمالية تحدد للطبقة العاملة مهمة السيطرة على المانة ، ولما كان أبناء هذه الطبقة على هذا النحو مقصورين على الاتصال بالأشياء ، فإنهم معزولون عن باقي الانسانية . ونظراً إلى عزلة الطبقة العاملة عن سائر الطبقات في المجتمع ، قويت فيهم الرغبة في التضامن والتكافل الاجتماعي ؛ ويفضل هذا الشعور الطبقي يقون مرتبطين بالمجتمع .

وفي كتاب آخر بعنوان : « تطور الحاجات في الطبقات العاملة » ( ١٩٣٣ ) طَبَّقَ نفس النظرية التي عرضها في رسالته ١٩١٣ طبقها على الجماعات القائمة في الأمم الصناعية في الغرب ، التي تشغل مكانات شبيهة بتلك التي تشغلها الطبقة العاملة القديمة .

وكان ذا ميل واضح إلى تفسير الحاجات بواسطة عوامل نسبية وذاتية . وقرر أن اتجاهات الرأي هي عوامل مهمة في تحديد الحاجات ، لكنه لم يحسب حساباً كافياً لكون بعض العناصر الموضوعية تدخل أيضاً في التجربة الذاتية للحاجة : مثل أن العمال يشعرون بالحاجة الفعلية للطعام أو الكساء حين يقارنون مستوى معيشتهم بمستوى الطبقة الوسطى .

وعاد هلبفاكس إلى دراسة الانتحار إكمالاً لكتاب استاذه دوركهيم في هذا الموضوع ، فألف كتاباً بعنوان : « أسباب الانتحار » ( سنة ١٩٣٠ ) . وبينما يرى دوركهيم أن العوامل الدينية مهمة جداً في تحديد مدى اندماج الفرد في المجتمع ، ويرجع ازدياد نسبة الانتحار إلى ازدياد النقص في اندماج الأفراد في مجتمعاتهم - نجد هلبفاكس يرى أن طبيعة وأهمية العامل الديني يختلف باختلاف السياق الاجتماعي والنفساني ، وهذا السياق يختلف ، بدوره ، باختلاف البلدان .

وعني بالبحث في تأثير الذاكرة الجماعية والنقول الخاصة بالمعتقدات ، وألف في هذا الموضوع كتابه « الطبوغرافيا الأسطورية للأناجيل في الأرض المقدسة » ( سنة ١٩٤١ ) . ويضع نظرية في هذا الموضوع مفادها أن الأماكن المقدسة تتغير وفقاً للحاجات والأمان التي شعرت بها الجماعات المسيحية في

فلسفة العلم . يقول هوايتهد في ترجمته لنفسه :

« ولدتُ في ١٥ فبراير سنة ١٨٦١ في رامسجيت في جزيرة ثانت بإقليم كنت . واسمى وجدني وأبي وأعملي وإخوتي كانوا يعملون في حقل التربة والدين والإدارة المحلية . . . وحوالي سنة ١٨٦٠ رسم والدي كاهنا من كهنوت الكنيسة الانجليكانية . وحوالي سنة ١٨٦٦ أو سنة ١٨٦٧ ترك المدرسة ( التي كان يديرها ) ليتفرغ للواجبات الكهنوتية أولاً في رامسجيت Ramsgate؛ ثم عين في سنة ١٨٧١ راعياً لأبروشيه القديس بطرس ، وهي منطقة معظمها زراعية ، وكانت كنيستها تبعد بمقدار ٢ أو ٣ أميال عن رامسجيت . . . وظل هناك حتى وفاته في سنة ١٨٩٨ . . . ولم يكن أي من أهل الفكر ، لكنه كان ذا شخصية . . . وفي سن الخامسة عشرة ، أعني في سنة ١٨٧٥ ، أرسلت إلى المدرسة في شربورن Sherborne ( - إقليم دورستشير Dorsetshire ) في أقصى جنوب إنجلترا . . . ومن الناحية العقلية ، كان تعليمي وفق المقياس العادي في ذلك الوقت . فبدأت تعلم اللغة اللاتينية في سن العاشرة ، واليونانية في سن الثانية عشرة . وباستثناء أيام العطلات ، أتذكر أنني كنت أقرأ في كل يوم ، حتى سن التاسعة عشرة والنصف ، بضع صفحات من النصوص اللاتينية واليونانية ، وأفحص تراكييها النحوية . وقبل الذهاب إلى المدرسة كنت أستطيع تكرار صفحات من قواعد نحو اللغة اللاتينية ، وكلها باللاتينية ، وأحفظ أمثلة عليها . وكانت الدراسات الكلاسيكية ( اللاتينية - واليونانية ) تتخللها دراسة الرياضيات . وطبعاً كانت هذه الدراسات الكلاسيكية تشمل التاريخ - ثوارينغ هيرودوتس واكسينوفون وثوكيديدس وسلوتس ، وليفي ، وتاكيثوس . . . وأذكر أن هذه الكلاسيكيات كانت تُدرّس جيداً ، مع مقارنة لا واعية بين الحضارة القديمة والحياة الحديثة . وأعفيت من نظم الشعر اللاتيني ومن قراءة بعض الشعر اللاتيني ، وذلك من أجل تكريس وقت أطول للرياضيات . وكنا نقرأ الكتاب المقدس باللغة اليونانية ، أعني الترجمة السبعينية للمعهد القديم . . .

وبدأت حياتي الجامعية في خريف ١٨٨٠ في كلية الثالوث بجامعة كامبردج؛ وهناك استمرت إقامتي بدون انقطاع حتى صيف ١٩١٠ . لكن عضويتي في كلية الثالوث ، أولاً بوصفي scholar وبعد ذلك بوصفي زميلاً fellow استمرت بدون انقطاع . ولن أبالغ في وصف ما أدين به للجامعة

كامبردج ، وخصوصاً لكلية الثالوث ، فيما يتعلق بالتدريب الاجتماعي والعقلي . . .

وكان التعليم الرسمي في كامبردج يتم بكفاءة بواسطة رجال مهمين ذوي قدرة من الطراز الأول . بيد أن الدروس المخصصة لكل طالب في المرحلة الجامعية الأولى ( مرحلة البكالوريوس ) كانت تشمل نطاقاً ضيقاً . مثلاً : خلال كل مرحلة البكالوريوس في كلية الثالوث كانت كل الدروس التي أتلقاها هي في الرياضيات : البحتة والتطبيقية . ولم أدخل أبداً أي فصل دراسي آخر . لكن المحاضرات لم تكن تزلف غير جانب واحد من التعليم . والأجزاء الناقصة كانت تكفلها المحادثات المستمرة مع أصدقائنا من طلاب مرحلة البكالوريوس ، أو مع أعضاء هيئة التدريس . وكانت تبدأ مع تناول طعام العشاء في السادسة أو السابعة مساءً ، وتستمر حتى العاشرة مساءً ، وقد تتوقف في وقت أبكر أو أشد تأخيراً . وفيها يتصل بي ، كنت أتبع ذلك بالعمل في الرياضيات لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات .

ولم تكن جماعات الأصدقاء تتكون وفقاً لاتفاق موضوع الدراسة . وكنا جميعاً قد أتينا من نفس النوع من المدارس ، ونفس النوع من الدراسة السابقة . وكنا نتناقش في كل شيء - السياسة ، الدين ، الفلسفة ، الأدب - مع ميل خاص إلى الأدب . وأدت هذه التجربة إلى قدر كبير من القراءة المتنوعة . مثلاً ، في الوقت الذي حصلت فيه على الزمالة في ١٨٨٥ كنت أعرف عن ظهر قلب تقريباً أقساماً من كتاب « نقد العقل المحض » لكنت . والآن نسينها ، لأن اليأس أصابني مبكراً . ولم أقدر أبداً على قراءة هيجل : وبدأت محاولتي معه بدراسة بعض ملاحظاته عن الرياضيات ، فأدهشتني وبدت لي لغواً تاماً . وكان ذلك حقاً من ناحيتي ، لكنني لا أكتب هذا لايضاح سلامة ادراكي .

وإذا رجعت بالذكرى إلى أكثر من نصف قرن ، أقول إن الأحاديث كان لها مظهر الحوار الأفلاطوني اليومي . وكان يشترك فيها هنري هد ، ودارسي تومسون ، وجيم استيفن والاختوة لولن ديفز ولودس ديكتسون ، ونلت ور ، وسورلي ، وغيرهم كثيرون - وبعضهم قد لمعت شهرتهم فيما بعد ، والبعض الآخر وكانوا مقتدرين أيضاً ، لم يجتذبوا اهتمام الجمهور فيما بعد . وتلك كانت الطريقة التي بها كانت ( جامعة ) كامبردج تربي أبنائها . لقد كانت صورة أخرى من المنهج الأفلاطوني . وكان « الحواريون » الذين كانوا يجتمعون

كذلك كان لكتاب سير وليم ردوان هاملتون : « الترابيع » ( سنة ١٨٥٣ ) وبحث سابق كتبه سنة ١٨٤٤ ، وكذلك كان لكتاب « المنطق الرمزي » ( سنة ١٨٥٩ ) لبول Boole تأثير مساوٍ في أفكاره . وكل عملي التالي في المنطق الرياضي مأخوذ derived من هذه المصادر . لقد كان جرسمن Grassmann عبقرية أصيلة ، لم تقدر أبداً التقدير الكافي . لقد كتب ليبنتس ، وساكيري Saccheri وجرسمن في هذه الموضوعات قبل أن يستطيع الناس فهمها أو إدراك أهميتها . بل إن ساكيري المسكين هو نفسه لم يفلح في إدراك ما قام به من انجازاته ، وليبتس لم ينشر أعماله في هذا الموضوع .

وكانت معرفتي بأبحاث ليبنتس تقوم كلها على كتاب لوي كوتيرا : « منطق ليبنتس » الذي ظهر سنة ١٩٠١ . . .

وأدى نشر كتابي « بحث في الجبر الكلي » إلى انتخابي عضواً في الجمعية الملكية في سنة ١٩٠٣ . وبعد ذلك بثلاثين سنة تقريباً ( في سنة ١٩٣١ ) صرت زميلاً في الأكاديمية البريطانية نتيجة لأبحاثي في الفلسفة ابتداءً من سنة ١٩١٨ . وبين سنة ١٨٩٨ وسنة ١٩٠٣ كنت أحضر المجلد الثاني من الجبر الكلي ، لكنه لم ينشر أبداً .

وفي سنة ١٩٠٣ نشر برترند رسل : « مبادئ الرياضيات » . وكان هو الآخر « المجلد الأول » . هنالك اكتشفنا أن مشروعنا لإصدار مجلدين ثانيين كانا عملياً يتناولان نفس الموضوعات ، لهذا اتفقنا على أن نتج عملاً مشتركاً . ورجونا أن نفرغ من هذا العمل في وقت قصير ، حوالي العام . لكن أفقنا اتسع ، وخلال ثماني أو تسع سنوات أنتجنا « المبادئ الرياضية » Principia Mathematica . ولا يدخل في مجال هذا المجلد مناقشة هذا العمل . لقد دخل رسل الجامعة عند بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشر . وقد أعجبت بنبوغه ، شأني شأن سائر الناس ، أولاً بوصفه تلميذي ، وبعد ذلك بوصفه زميلي وصديقي . لقد كان عاملاً فعلاً عظيماً في حياتي ، خلال فترة كمبريدج . لكن وجهات نظرنا الأساسية - الفلسفية والاجتماعية - كانت متباينة ، وهكذا رغم اختلاف اهتماماتنا وصل تعاوننا إلى نهاية طبيعية .

وعند نهاية السنة الجامعية ، في صيف سنة ١٩١٠ ، تركنا كمبريدج . . . وخلال الدورة الأكاديمية الأولى لي في لندن ( ١٩١٠ - ١٩١١ ) لم أشغل أي منصب أكاديمي . وكتابي

في أيام السبت في غرف بعضهم البعض ، من العاشرة مساء حتى أية ساعة من ساعات الصباح ، كانوا تركيزاً لهذه التجربة . وكان الأعضاء النشطون ثمانية أو عشرة من مرحلة البكالوريوس أو من شباب حملة البكالوريوس ، لكن كثيراً ما كان يشترك فيها بعض الأعضاء الأكبر سناً من « طاروا بأجنحتهم » . هناك كنا نتناقش مع ميتلاند Maitland المؤرخ ، وقرال Verrall وهنري جاكسون وسيدجوك Sidgwick وبعض القضاة أو العلماء أو أعضاء البرلمان الذين جاؤوا إلى كمبريدج لقضاء عطلة نهاية الأسبوع . وكان التأثير رائعاً . وهذا النادي قد بدأ في أخريات العشرينات ، بدأه تسون Tennyson وأصحابه . ولا يزال مزدهراً حتى اليوم .

وكان تعلمي في كمبريدج وما فيه من تأكيد على الرياضيات وعلى حرية المناقشة بين الأصدقاء أمراً من شأنه أن يرضى عنه أفلاطون . لكن مع تغير الزمن ، غيرت كمبريدج مناهجها . إن نجاح هذا التعليم في القرن التاسع عشر كان عارضاً سعيداً توقف على ظروف اجتماعية عني عليها الحسن الحظ . إن التربية الأفلاطونية كانت محدودة جداً في تطبيقها على الحياة .

وفي خريف سنة ١٨٨٥ حصلت على الزمالة في كلية الثالوث ، وأضيف إلى ذلك القيام بالتدريس فكان مزيداً من الحظ . وآخر منصب توليته هو محاضر قديم Senior Lecturer ، وقد استقلت منه في سنة ١٩١٠ ، حينما انتقلنا إلى لندن .

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٠ تزوجت بايفلين ولوي Evelyn Willoughby . وكان تأثير زوجتي على نظرتي إلى العالم أساسياً إلى حد أنه ينبغي ذكر ذلك بوصفه عاملاً جوهرياً في إنتاجي الفلسفي . . .

ولمدة ثماني سنوات تقريباً ( ١٨٩٨ - ١٩٠٦ ) سكنا في بيت الطاحونة القديمة في جونتشستر ، على ثلاثة أميال من كمبريدج . . .

ونشرت أول مؤلفاتي ، وعنوانه : « بحث في الجبر الكلي » A Treatise on Universal Algebra ، في فبراير سنة ١٨٩٨ ، وكنت قد بدأت تأليفه في يناير سنة ١٨٩١ . وما فيه من أفكار تقوم في معظمها على كتابين لهرمن جرسمن هما : « نظرية الامتداد » ، طبعة سنة ١٨٤٤ ، و « نظرية الامتداد » طبعة سنة ١٨٦٢ . وأولها أهم كثيراً . لكن لسوء الحظ لم يفهمه أحد حين نشر ، ذلك أنه سبق زمنه بقرن من الزمان .



من المجادلات السياسية والأكاديمية . لقد انفجرت فجأة مسألة تحرير المرأة ، بعد أن ظلت على نار هادئة طوال نصف قرن . وكنت عضواً في لجنة الجامعة University Syndicate التي كتبت تقريراً عن المساواة في الأوضاع في الجامعة . لكننا هُزِمنا بعد مناقشات عاصفة وشغب من جانب الطلاب . وإذا لم تخفي الذاكرة ، فلني أقول إن ذلك حدث حوالي سنة ١٨٩٨ ؛ لكن حدثت بعد ذلك ، وإلى قيام الحرب في سنة ١٩١٤ ، أحداث عاصفة في لندن وغيرها من الأماكن . وكان الانقسام في الرأي على وفق الانقسام الحزبي ؛ فمثلاً ، كان بلفور Balfour المحافظ مناصراً للمرأة ، بينما كان أسكوث Asquith اللي من حزب الأحرار ضد المرأة . لكن الحركة نجحت عند نهاية الحرب في سنة ١٩١٨ .

ولرأني السياسة كانت ، ولا تزال ، في جانب حزب الأحرار وضد حزب المحافظين ، وأنا أكذب الآن بحسب تقسيم الأحزاب في إنجلترا . لكن حزب الأحرار قد زال الآن ( سنة ١٩٤١ ) عملياً ، ولو أعطيت صوتي في إنجلترا لأعطيته إلى الجناح المعتدل في حزب العمال . لكن لا توجد الآن « أحزاب » في إنجلترا . . . .

ومؤلفاتي الفلسفية بدأت في لندن قبيل نهاية الحرب . وكانت جمعية أرسطو في لندن مركزاً ساراً للمناقشة ، وفيها عقدت صداقات حميمة .

وخلال عام ١٩٢٤ ، وأنا في سن الثالثة والستين ، تشرفت بدعوة من كلية جامعة هارفرد للانضمام إلى قسم الفلسفة فيها . وأصبحت أستاذاً غير متفرغ Professor Emeritus عند نهاية العام الجامعي ١٩٣٦ - ١٩٣٧ . ويعجز لساني عن التعبير الوافي عن التشجيع والمساعدة اللذين لقيتهما من جانب السلطات الجامعية ( في جامعة هارفرد ) وزملائي في الكلية وطلابي وأصدقائي . لقد غيرت أنا وزوجتي بالموته .

وما في كتيبي المنشورة من عيوب ونقائص ، وهي لا شك كثيرة ، ترجع إلي أنا وحدي وأنا أتجاسر على ابداء ملاحظة تنطبق على كل عمل فلسفي : « إن الفلسفة محاولة للتعبير عن لا نهائية الكون بعبارات قاصرة قصور اللغة » . ( « فلسفة الفرد نورث هوايتهد » بإشراف بول آرثر شلب ، ص ٣-١٤ ، نيويورك ط ١ سنة ١٩٤١ ، ط ٢ سنة ١٩٥١ ) .

وتوفي هوايتهد في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٧ .

« المدخل إلى الرياضيات » يرجع إلى هذه الفترة . وخلال الدورات الجامعية من سنة ١٩١١ حتى صيف سنة ١٩١٤ شغلت عدة مناصب في كلية الجامعة في لندن ، ومن سنة ١٩١٤ حتى صيف ١٩٢٤ كنت أستاذاً في الكلية الامبراطورية للعلوم والتكنولوجيا في كنسجتون . وخلال السنوات الأخيرة من هذه الفترة كنت عميداً لكلية العلوم في الجامعة ( جامعة لندن ) ، ورئيساً للمجلس الأكاديمي الذي يتولى الاشراف على الشؤون الداخلية الخاصة بالتربية والتعليم في لندن ، وكنت عضواً في مجلس الجامعة Senate . كذلك كنت رئيساً لمجلس إدارة كلية جولد سمث ، وعضواً في مجلس كلية الهندسة في الإقليم . . . .

وهذه التجربة في مشاكل ( التعليم في ) لندن ، وقد طالمت إلى أربع عشرة سنة ، غيرت آرائني في مشكلة التعليم العالي في الحضارة الصناعية الحديثة . وكانت العادة - وهي لم تمت بعد - اتخاذ نظرة ضيقة إلى مهمة الجامعات . لقد كان هناك نمط أوكسفورد - كمبردج ، والنمط الألماني . وأي نمط آخر كان ينظر إليه بازدراء جاهل . فجماهير العمال المضطربة التي كانت تنشأ الاستنارة العقلية ، والشباب من كل طبقة الذين كانوا يطلبون معرفة ملائمة ، وأنواع المشاكل التي جدت عن هذا الطريق - كل هذا كان عاملاً جديداً في المدنية . لكن عالم العلم كان غائصاً في الماضي .

وجامعة لندن هي اتحاد من المعاهد المختلفة ذات الأنماط المتباينة التي تهدف إلى مواجهة هذه المشكلة الجديدة في الحياة الحديثة . وقد أعيد تشكيلها حديثاً تحت تأثير لورد هولدين Haldane وكان هذا نجاحاً رائعاً . وجماعة الرجال والنساء - من رجال الأعمال والمحامين والأطباء والعلميين وعلماء الأدب والرؤساء الإداريين للأقسام - الذين كرسوا أوقاتهم ، بعضها أو كلها ، إلى مشكلة التعليم الجديدة هذه أنجزوا تحولاً كانت الحاجة إليه ماسة جداً . ولم يكونوا وحدهم في هذا العمل . ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي ظروف مختلفة ، كانت جماعات مماثلة تقوم بحل مشاكل مشابهة . وليس من المبالغة أن نقول إن هذا التكييف الجديد للتعليم والتربية كان واحداً من العوامل التي يمكن أن تنقذ الحضارة . وأقرب شبه له هو ما قامت به الأديرة قبل ذلك بألف عام . . . .

ولأعود الآن إلى جانب آخر من حياتي ، أثناء السنوات الأخيرة من عملي في كمبردج ، أقول إنني شاركت في الكثير



## فلسفته

من المعتاد تقسيم نشاط هوايتهد الفكري إلى ثلاث مراحل :

١ - المرحلة الأولى كرسها خصوصاً للأبحاث الرياضية والمنطقية ؛

٢ - والمرحلة الثانية كرسها لفلسفة الفزياء ؛

٣ - والمرحلة الثالثة كرسها للميتافيزيقا وللدور التاريخي للأفكار الميتافيزيقية ، في تكوين الحضارة .

لكن يلاحظ مع ذلك بعض التداخل بين المراحل الثلاث بعضها في بعض .

## ١- المرحلة الأولى (سنة ١٨٩٨-١٩١٤)

يمثل هذه المرحلة الأولى كتابان أساسيان هما : « الجبر الكلي » ( سنة ١٨٩٨ ) و « المبادئ الرياضية » ( سنة ١٩١٠ ، ج٢ سنة ١٩١٢ ، ج٣ سنة ١٩١٢ ) ، وإلى جانبها كتب هوايتهد أبحاثاً صغيرة مهمة نذكر منها : « التصورات الرياضية للعالم المادي » ( سنة ١٩٠٦ ) ، « بدبيبات الهندسة الاسقاطية » ( سنة ١٩٠٦ ) ، « بدبيبات الهندسة الوصفية » ( سنة ١٩٠٧ ) .

وبدل عنوان كتاب « الجبر الكلي » على محاولة هوايتهد تنفيذ جزء من البرنامج الذي وضعه ليبتس حين طالب بوضع علم كلي . يقول هوايتهد في مقدمة كتابه هذا : « ينبغي أن يكون المثل الأعلى للرياضيات هو انشاء حساب Calculus يسهل التفكير في أي ميدان من ميادين الفكر أو التجربة الخارجية ، يمكن فيه تقرير توالي الأفكار أو الأحداث وصياغتها صياغة دقيقة ، بحيث يصبح كل تفكير جاداً ، ليس فلسفة أو تفكيراً استقرائياً أو أدبياً تخيلاً . يصبح رياضيات تنمى بواسطة حساب » ( « الجبر الكلي » ص ٢ ) .

وفي الكتاب الأول من « الجبر الكلي » يحاول أن يحدد الأفكار الجبرية التالي : التساوي ، الجمع ، الضرب - على نحو يناسب أي جبر ، بغض النظر عن القوانين الأكثر خصوصية في الجبر وعن التفسير الذي نعطيه . فكان يرى مثلاً أن القوانين التالية :

$$س + ص = ص + س$$

$$(س + ص) + ع = ع + (س + ص)$$

$$س(ص + ع) = (ص + ع)س$$

هي قوانين مشتركة بين كل أنواع الجبر . لكن هناك

قوانين أخرى يمكن أن تختلف فيها أنواع الجبر المختلفة ، مثل القوانين التالية :

$$س ص = ص س$$

$$(س ص) ع = ع (س ص)$$

$$س + ص = ص + س$$

وأنواع الجبر التي تنتهك القانون : « س + ص = ص + س » بسميها عددية numerical ، ويصنفها بدورها إلى أنواع على النحو التالي : إن الجبر العددي من نوع ع هو الذي من عناصره نستطيع أن نكون الصف  $\infty$  ( ألفا اليونانية ) بحيث أن :

(١) أي عضوين في  $\infty$  يمكن أن يجمعوا ويضربا على

نحو مفهوم ؛

(٢) كل عنصر في كل الجبر هو ناتج عنصرين أو أكثر

من عناصر  $\infty$

(٣) كل شيء هو حاصل ع من أعضاء  $\infty$  إذا كان ،

وقط إذا كان يتسب إلى  $\infty$  .

وكان في نية هوايتهد في الجزء الثاني ، الذي لم يظهر أبداً ، أن يبحث في أنواع الجبر الخطي linear algebras ، أو أنواع الجبر الذي من الدرجة الأولى . أما في المجلد الأول الذي نشره فقد تناول أنواع الجبر التي من النوع العالي ، وذلك في الأقسام الخمسة الأخيرة من كتابه هذا المقسم إلى سبعة أقسام ( أو كتب ) . وفيها يبحث بالتفصيل الدقيق حساب الامتداد الذي أسسه جرسمن . أما في القسم الثاني فقد بحث في الجبر غير العددي ، أي جبر المتطوق كما وضعه جورج بول Boole . وفي القسم الأول يبحث في التكافؤ .

وهوايتهد ينظر إلى التساوي ( « = » ) على أنه يعبر عن إضافة تكافؤ ، هي أقل من الهوية identity . وحجته في ذلك أنه لو لم يكن الأمر هكذا لكات س + ص = ص + س بغير معنى تماماً مثل ع = ع .

كذلك يقرر هوايتهد في هذا الكتاب أن « تبرير قواعد الاستنتاج في أي فرع من فروع الرياضيات ليس جزءاً من الرياضيات : إنه مهمة التجربة أو الفلسفة . أما مهمة الرياضيات فهي أن تتبع القاعدة فقط » ( الكتاب نفسه صفحة و )

ويهاجم التصور التقليدي للرياضيات ، الذي ينظر إليها على أنها علم العدد والكم فقط أو علم الكم المنفصل والمتصل .

أما الكتاب الثاني : « المبادئ الرياضية » Principia

الرياضية « يتناول نظرية التكميم quantification. والتكميم الكلي هو خلع مكُمم كلي « (x) » [ أو «y» الخ ) ويمكن أن يقرأ : «أيا ما كان الموضوع س (أو ص الخ) ، خلعه على عبارة لها صورة التقرير لكنها تكشف عن تكرار (إنابة) للمتغير «س» (أو ص الخ) . فمثلا :

(س) (س يهَم كل انسان س يهَم سقراط)

أما التكميم الوجودي فيقوم في تطبيق البادئة «(x)» «(∃)» ويمكن أن تقرأ : «يوجد موضوع هو س بحيث أن ...». فمثلاً قولنا : بعض الأعداد الأولية زوجية « يمكن أن يعبر عنه هكذا

(∃x) (x is a Prime. x is even)

(-أس) (س عدد أولي . س عدد زوجي)

ويقال عن الأصناف إن لها نفس العدد الأصلي حين تكون المجال ومعكوس المجال لاضافة الواحد والواحد .

وكيفنا هذا القدر لبيان الموضوعات التي يتناولها هوايتهد ورسل في كتابها «المبادئ الرياضية» ، ونحيل القاريء إلى كتابنا : «المنطق الصوري والرياضي» لمزيد من البيان .

٢ - المرحلة الثانية (١٩١٧ - ١٩٢٥)

وتمثلها الكتب الأربعة التالية :

١ - «تنظيم الفكر» (سنة ١٩١٧)

The Organization of Thought

٢ - «مبادئ المعرفة الطبيعية» (سنة ١٩١٩)

The principles of Natural Knowledge

٣ - «تصور الطبيعة» (سنة ١٩٢٠)

The Concept of Nature

٤ - «مبادئ النسبية» (١٩٢٢)

The Principles of Relativity

يضاف إليها ، من المرحلة الثالثة ، الثلث الأخير من كتاب :

٥ - «العملية والواقع» (سنة ١٩٢٩)

Process and Reality

وفي تصور هوايتهد لفلسفته في الفيزياء تأثر بثلاثة عوامل :

١ - الأول ضرورة إعادة النظر في التصورات الأساسية

Mathematica ، فقد كتبه بالاشتراك مع برترند رسل ، وظهر الجزء الأول منه في سنة ١٩١٠ .

والنصف الأول من هذا الجزء عنوانه : «المنطق الرياضي» . ويبدأ هذا النصف بتحرير الجبر بول في أبسط تفسيراته القضائية (نسبة إلى : قضية منطقية) ، لكن دون اعتبار لـ «=» ، «صفر» ، و «أ» ، لأنه لا داعي إليها في هذا التفسير . واستعملت الحروف «ق» و «ص» «q» ، «p» ، وغيرها للدلالة على المتغيرات القضائية . وعبر عن عمليات السلب ، والجمع ، والضرب - أي : النفي ، والتبادل ، والعطف - هكذا :

$\sim p, p \vee q, p \cdot q$

ق ، ق ∨ ص ، ق · ص

وتقرأ هكذا : ق سالبة ، ق أو ص ، ق × ص

والاثنان الأوليان منها اعتبرت أولية Primitives أي غير محدّدة ؛ أما الثالثة فحددت باستعمال الأولى والثانية هكذا :

$\sim(\sim p \vee \sim q)$

(ق ∨ ص)

كذلك حددت «p>q» و «p=q» وحددت هاتان هكذا على التوالي «p∨q» و «q>p» وتقرأن : «ق تتضمن ص» ، «ق تكافئ ص» .

واتخذت القوانين كيدييات صورية وهي :

$(p \vee p) > p, q > (p \vee q),$

$(p \vee q) \supset (q \vee p) \quad (q \supset r) \supset [(p \vee q) \supset (q \vee r)]$

ثم استنبط منها حوالي مائتي قانون ، استنبطت من هذه البدييات بوصفها نظريات .

وطريقة الاستنباط المستعملة على نوعين :

١ - احلال تعبيرات ملائمة محل المتغيرات

٢ - الغاء الجزء الأول من نظرية أو بديية من الشكل «p>q» إذا كان هذا الجزء الأول هو نفسه نظرية أو بديية .

ورأى هوايتهد ورسل أن التعريفات هي اصطلاحات للاختصار . فمثلا «p>q» ، «p · q» و «p≡q» هي مجرد كتابة اختزالية للصيغ :

«(p∨q)» ، «(p∧q)» ، «(p∨q)» ، «(p∧q)» ، «(p∨q)» ، «(p∧q)»

والقسم التالي من الجزء الأول من كتاب «المبادئ»

المكان نسبي . وقد قام بهذا التوفيق بأن رفض نظرية اينشتين القائلة بأن المكان علاقة بين أشياء فزيائية ، وقال بدلاً من ذلك إن المكان علاقة بين أحداث مدركة بالحس مباشرة ، أي أنه أرجع نسبية المكان إلى الإدراك الحسي ، لا إلى الواقع الموضوعي في الطبيعة .

ومحاول هوايتهد أن يعرف ترتيب أجزاء المكان في المكان ، خلال مدة معينة ، عن طريق تصورات زمانية ، ليجمع بذلك بين المكان والزمان على نحو قريب مما فعله اينشتين . فبين أن المدد الخاصة بأنظمة مكانية مختلفة تتقاطع ، أي أن بينها أحداثاً مشتركة . وترتيب المكان في لحظة استمرار نظام مكاني ما يتحدد بتقاطعه مع لحظات مدد نظام مكاني آخر .

ويلخص Filmer S. C. Northrop فلسفة هوايتهد العلمية على النحو التالي : « لقد عمل على إيجاد فلسفة العلم عند هوايتهد ثلاثة عوامل :

- ١ - توكيد برجسون للكفاية الشاملة للعيان المباشر وأولية العملية Process ؛
- ٢ - الصعوبات الأيستمولوجية التي وقع فيها الفلاسفة المحدثون من جراء تمييز نوعين من الطبيعة ؛
- ٣ - إعادة بناء التصورات الأساسية في العلم المعاصر كنتيجة ضرورية للاكتشافات الحديثة ، خصوصاً لنظرية اينشتين في النسبية .

وفلسفته في العلم فيها قوة وضعف هذه التأثيرات الثلاثة . ويعدد ألوان الضعف في فلسفته هذه وهي : (١) نظريته في العلاقة الباطنة بين الأحداث المدركة بالحس ؛ (٢) نظرية غير سليمة عن الموضوعات العلمية وعن معادلات التحويل ؛ (٣) الاخفاق في تفسير العلية العلمية أو الزمان العام ؛ (٤) تنازع مبالغ فيه مع النتائج المقررة والمحقة للعلم المعاصر ؛ (٥) ميل عام إلى اعتقاد وجود تحرر للمعرفة في الوعي الحسي أكبر مما يكشف عنه فعلاً .

أما نقط القوة فهي في نظره : (١) نظرية هوايتهد تفسر بعض الوقائع التي لم يقدم لها اينشتين تفسيراً ؛ (٢) فلسفة هوايتهد في العلم تعالج مشاكل إيستمولوجية وعلمية لا تواجهها نظرية اينشتين . ( فلمر نورثروب : « فلسفة هوايتهد في العلم » ، فصل في كتاب « فلسفة ألفرد نورث هوايتهد » ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، نيويورك ط ٢ سنة ١٩٥١ ) .

في العلم كنتيجة ضرورية لنظرية اينشتين في النسبية . وهوايتهد يتفق مع اينشتين في بعض الأمور ، ويختلف معه في أمور أخرى .

٢ - والعامل الثاني هو الصعوبات الأيستمولوجية التي أوقعت النظريات التقليدية الحديثة الفلسفة الحديثة فيها . وهو ما أدى بهوايتهد إلى رفض التمييز بين الطبيعة من حيث هي مُدركة والطبيعة من حيث تصورها النظريات العلمية .

٣ - والعامل الثالث هو تأثير برجسون في هوايتهد ، وقد وقع تحت هذا التأثير بتوسط من صديقه هـ . ولدون كار II. Wilton Carr الذي كان يؤلف كتاباً عن برجسون في الوقت الذي كانت فيه فلسفة العلم عند هوايتهد بسبيل التكوين ، وكنا يتناقشان كثيراً في فلسفة برجسون . وبرجسون أيضاً تأثر هوايتهد في نظريته الخاصة بأولوية العملية ، وهي نظرية أساسية في فلسفته في العلم وفي مرتافيزيقاه على السواء . كذلك تأثر بصمويل الكسنتر كما يشير هو إلى ذلك في مقدمة كتابه « تصور الطبيعة » .

وتقوم فكرة هوايتهد الأساسية في فلسفة الطبيعة على رفض التمييز بين الطبيعة المحسوسة والطبيعة كما هي في ذاتها ، وهو التمييز الذي قال به جاليليو ونيوتن وعليه سار كثير من علماء الفيزياء . فمثلاً يميز جاليليو بين « الحرارة » كما نشعر بها بالحس مباشرة ، وبين « الحرارة » بوصفها حركة غير ملاحظة للذرات ، حركة هي من الضلالة بحيث لا يمكن أن تقع تحت الحواس ، تبعاً للنظرية الحركية للحرارة والغازات . وقد توسع نيوتن في هذا التمييز الثاني بأن طبقه ليس فقط على الكيفيات المحسوسة ، بل وأيضاً على المكان ، والزمان والحركة . ذلك أن نيوتن كان يرى أن الزمان والمكان اللذين نحسّ بهما مباشرة ليسا هما الزمان والمكان كما يتصورهما علم الفيزياء . كذلك يتفق اينشتين مع نيوتن في النظر إلى الزمان على أنه يمضي على سواء « flowing equably » ونيوتن يطبق على المكان ما قاله عن الزمان ، فيقول في كتاب « المبادئ » : « كل الأشياء موضوعة في الزمان وفقاً لترتيب التوالي ؛ وفي المكان وفقاً لترتيب الوضع إنه من طبيعتها أو ماهيتها أن تكون أماكن » ( نيوتن : « المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية » ) .

وقد حاول هوايتهد التوفيق بين نظرية نيوتن في المكان والقائلة بأن المكان مطلق ، وبين نظرية اينشتين القائلة بأن

## ٣ - المرحلة الثالثة ( سنة ١٩٢٥ - ١٩٤٧ )

## أ - الفلسفة العضوية ( أو فلسفة العضوية )

ويتجلى إسهام هوايتهد في الفلسفة بالمعنى المحدد في هذه المرحلة الأخيرة . ونبدأ بفلسفته العضوية التي أودعها في كتابه « العملية والواقع » ( سنة ١٩٢٩ ) Process and Reality .

في هذا الكتاب يسمى هوايتهد إلى أن يضع مكان فلسفة الجوهر التقليدية فلسفة عضوية . لأنه رأى أن الفلسفة العضوية Philosophy of organism هي التي تستطيع وحدها أن تزودنا بتفسير للكون تبدو فيها : العملية Process ، والفعل الديناميكي ، والاعتماد المتبادل ، والخلق - المعطيات الأولى للتجربة المباشرة .

وعلى طريقته في معظم مؤلفاته ، يستعرض هوايتهد استعراضاً تاريخياً الآراء التي قالها الفلاسفة في الموضوعات التي يتناولها ، ويصدر عليها أحكاماً تقويمية . فمن أحكامه أن فكر أفلاطون أشد حسماً من فكر كنت ؛ وأن برجسون أكثر إيماناً بالأفكار الخصبية من هيجل ؛ ويزعم أن لوك كان أقرب إلى الفلسفة العضوية من ديكارت ؛ ويفضل ليبنتس على أرسطو . ويعرف الفلسفة الغربية بأنها سلسلة من التعليقات على أفلاطون ! وهو يود إنقاذ بعض هذه التعليقات أو إعادة صياغتها ، بينما يود نحو بعضها الآخر . وكنت أقل الفلاسفة العظام حظاً من القبول عنده ! ويزعم أن فلسفته في العضوية هي عود إلى ما قبل كنت من آراء ، كما يزعم أن الثورة الكوبرنيكية التي قام بها كنت في نظرية المعرفة كانت أقل ثورية مما اعتقد أنصاره .

ويلاحظ على هذه الأحكام على المذاهب الفلسفية والفلاسفة أنها تتسم بالجهل الفاضح بهذه المذاهب وأصحابها ، مع الأدعاء المستعلي الكاذب من جانب رجل رياضيات كان قليل البصاعة من المعرفة بتاريخ المذاهب الفلسفية .

وفيما يتصل بالمنهج ، يرى هوايتهد أن المنهج الفلسفي يتضمن تعميماً ، يتجه من الجزئي العميق إلى الكلي . وهذا التعميم يقوم على الوصف أكثر مما يقوم على الاستنباط . وينبغي على بعض الفلاسفة اتخاذهم الاستنباط deduction محكاً للاختيار في البحث الفلسفي . إذ يرى أن الاستنباط ليس إلا وسيلة مساعدة للتحقق ، لا ينبغي أن تكون له

الأولوية في المناهج الفلسفية . والمنهج الذي يدعو إليه هوايتهد هو ما يسميه بمنهج التعميم الوصفي الذي يتخذ شكل وصفٍ للعملية الديناميكية أولى من أن يتولى وصف البنية الاستاتيكية . ويضع مكان الوصف المورفولوجي وصفاً للعملية الديناميكية للحياة .

والمعيار الإستمولوجي عنده هو على نوعين : معيار عقلي هو الإحكام المنطقي واتفاق الفكر مع نفسه ، ومعيار تجريبي هو قابلية التطبيق والموافقة adequacy . والمذهب الفلسفي ينبغي أن يكون محكماً ومنطقياً . ولا ينبغي تصور كيان مع صرف النظر عن سائر الكيانات ، كما لا يمكن فهم كيان إذا لم تتحدد علاقته بسائر الكيانات وفقاً لقواعد منطقية . لكن المعرفة تتطلب أيضاً تمييزاً تجريبياً . وينبغي أن تكون المقولات قابلة للتطبيق وموافقة . وهي تكون قابلة للتطبيق إذا كانت تصف كل التجربة الخاصة بها بوصفها تكشف عن نفس التركيب . وتكون موافقة إذا كانت تشمل على كل التجربة الممكنة في رؤيتها التصورية .

وعن طريق تطبيقه لمنهج التعميم الوصفي ، وضع هوايتهد ثبوت مقولات بالتصورات التي تحكم فلسفة العضوية . وقد صنف هذه المقولات وفقاً لتقسيم رباعي هو :

١ - مقولة الأقصى category of the ultimate ؛

٢ - مقولات الوجود ؛

٣ - مقولات التفسير ؛

٤ - الالتزامات المقولية Categorical obligations .

أما مقولة الأقصى فهي النشاط الإبداعي ، والنشاط الإبداعي هو كلي الكليات ، هو المبدأ الميتافيزيقي الأقصى الذي على أساسه تقوم كل الأشياء بدون استثناء . وكل واقعة في الكون هي - على نحو أو آخر - شاهد على النشاط الإبداعي . والله نفسه يتدرج تحت مقولة الأقصى . والنشاط الإبداعي بوصفه المبدأ الميتافيزيقي الأقصى هو أيضاً مبدأ الجدة novelty ، وهو الذي يزود بالسبب في انبثاق ما هو جديد .

وواضح من هذا أن هذا المبدأ هو نفسه مبدأ التطور الخالق عند برجسون . ولم يأت فيه هوايتهد بأي جديد سوى سوء التعبير !

أما مقولات الوجود فثمان : (١) الكيانات الواقعية ؛

وسبب قطبه العقلي يدرك موضوعات سرمدية . والله هو أيضاً يبدى عن بنية مزدوجة : إن له طبيعتين : طبيعة أصلية ، وطبيعة تالية *consequent nature* . وطبيعته الأصلية *primordial* تقوم في الاحاطة بكل الموضوعات السرمدية ، وفي الشوق إلى تحقيقها بالفعل ، وهي تناظر القطب العقلي للأحداث الواقعية . أما طبيعته التالية ، وهي نتيجة رد فعل العالم في الله ، فتناظر القطب الفزيائي للأحداث الواقعية .

والأحداث الواقعية ، والجماعات التي تؤلفها ، هي في عملية نموّ معاً حتى تصل إلى المرحلة النهائية التي تسمى « الإشباع » *satisfaction* . وهذه العملية من النموّ معاً ، والتي فيها تحدث إدراكات جديدة باستمرار ، يسميها هوايتهد باسم « النموّ معاً » *concrecence* . ويقول : « في عملية النموّ معاً يوجد توالد من المراحل تنشأ فيها ادراكات *prehensions* جديدة بالتكامل مع إدراكات في المراحل السابقة . . . وتستمر العملية حتى تصير كل الادراكات عناصر في إشباع تامّ عند » . وكل حادث واقعي من حيث هو متموضع في عملية النموّ معاً يكشف عن مطلب يتعلق بالمستقبل . والمستقبل هو ، بمعنى ما ، عنصر داخل في تركيب وجود كل حادث واقعي . ويعبر هوايتهد عن هذا حين ينعت الحادث الواقعي بأنه *subject- superject* ، ويمكن أن يترجم هذا بقولنا : موضوع تحتاني ، وموضوع فوقاني . إن كل حادث هو في نفس الوقت الموضوع التحتاني الذي يجرب ، والموضوع الفوقاني لهذه التجربة ؛ إنه المعطى التجريبي الحاضر ، لكنه أيضاً النتيجة المستقبلية أو الهدف لتجربته الحاضرة . وهذا الهدف أو المشروع المستقبل يسمى « الهدف الذاتي » *subjective aim* الذي يضبط حدوث الحادث الواقعي ويقوده إلى إشباعه النهائي . وهكذا يحدث كل تغير في نطاق متصل مكاني - زمني ، فيه كل الموجودات تعاني عضة الزمان . إن كل حدث *event* في الكون يتصف بالماضي والحاضر والمستقبل . وعلى الرغم من أن الأحداث الواقعية تفتي ، فإنها تدخل في التركيب الباطن لأحداث واقعية أخرى فيها تتموضع . وهكذا فإن كل واقعة حاضرة في الكون تتكون بواسطة كل المراحل السابقة . وكذلك كل واقعة حاضرة تتألف من إمكاناتها للتحقق في المستقبل عن طريق هدفها الذاتي . وهذا هو مبدأ العملية *process* .

وهوايتهد يقيم مذهبه كله على أساس أن كل الأشياء في

(٢) الادراكات *prehensions* ؛ (٣) العُقد *nexus* ؛ (٤) الأشكال الذاتية ؛ (٥) الموضوعات السرمدية ؛ (٦) القضايا ؛ (٧) التعلدات ؛ (٨) التقابلات *contrasts* .

ومعظم - أو كل - هذه المقولات هي مجرد مسميات أخرى لمعانٍ تقليدية . فالكيانات الواقعية هي الجواهر الجزئية التي يتألف منها العالم ، وهي الوقائع النهائية للكون . والإدراكات هي الوقائع العينية لوجود علاقات ، تكشف عن طابع متجه *vector character* ، وتتضمن الانفعال ، والعرض ، والتفويض ، والسببية . والعقدة هي واقعة جزئية لاجتماع كيانات واقعية معاً . والشكل الذاتي هو الكيفية المحددة لأمر واقعية خاصة . والموضوعات السرمدية هي الإمكانيات المحضة التي بها تحدد الوقائع في أشكالها الذاتية . والقضايا هي التي تحطي معنى للتمييز بين الحق والباطل . والتعلدات تدل على الانفصالات بين مختلف الكيانات . والتقابلات تدل على حالة التركيب الناشئة في إدراك أو واقعية عينية للكون في علاقات ، *relatedness* .

وإلى جانب مقولات الوجود هذه ، يتحدث هوايتهد عن سبع وعشرين مقولة للتفسير وتسعة التزامات مقولية .

والكيانات الواقعية تبقى في عملية فناء دائم ، وكلما فئت انجرت في التقدم الخالق ، وتنتقل إلى كيانات واقعية أخرى من خلال عملية الإدراك ، وتحقق خلوداً موضوعياً . ويقول هوايتهد أن عملية الفناء والانشاء الجديد هذا ينبغي أن تفهم على أنها شرح لعبارة أفلاطون في محاوره « طيمائوس » هذا نصها : « لكن ما يدركه الظن بمعونة الاحساس وبدون العقل - هو دائماً في عملية كون وفساد ، وليس موجوداً وجوداً حقيقياً أبداً » . إن الكون هو كون حدوث ، وتغير ، وفساد (فناء) . ومقولة الكيانات الواقعية تنطبق انطباقاً كلياً . إنها تنطبق على المادة غير الحية كما تنطبق على كل ضروب الحياة . وتنطبق على وجود الانسان ، كما تنطبق على وجود الله .

وهنا نجد هوايتهد يقرر أن الله ليس خارجاً عن هذا النظام . إنه في نطاق المقولات . ومع ذلك فإن الله يتميز من سائر الكيانات الواقعية بأنه لم يحدث عن شيء ، بينما سائر الكيانات حادثة . إن الله كيان واقعي ، لكنه ليس حادثاً واقعياً *actual occasion* . وكل حادث يكشف عن بنية مزدوجة تتألف من قطب فزيائي وقطب عقلي . والحادث الواقعي ، بسبب قطبه الفزيائي ، يدرك حوادث واقعية أخرى ،

وعك الاختبار في التجربة الدينية هو المحبة . وهو يضع ذلك في مقابل إله أرسطو ، المحرك الأول غير المتحرك ، الذي لا يعنى بخلقه . لكن إله المحبة عنده يخضع للمقولات والمبادئ الميتافيزيقية التي ذكرناها . إن الله هو الشاهد الرئيسي على النظام الميتافيزيقي . وعلى ضوء هذا يمكن النظر إلى طبيعة الله من وجهتي نظر اثنتين : أصلية ، وتالية : فمن وجهة النظر الأصلية الله إيمان لا متناه أو لا محدود . إنه وحدة وملاء المشاعر التصورية بغض النظر عن أية مشاعر فزيائية ، وتبعاً لذلك يفترق إلى ملاء الفعلية actuality . إنه بوصفه وحدة مشاعر تصورية وعمليات ، هو فعل خلاق حر . وهو لا ينحرف بالأحداث الجزئية التي تؤلف العالم الواقعي . إن العالم الواقعي يفترض الطبيعة الأصلية ، لكن الطبيعة الأصلية لا تفترض العالم الواقعي مقدماً . وكل ما تفترضه الطبيعة الأصلية مقدماً هو الطابع العلم المجرد للنشاط الخلاق الذي هو الشاهد الرئيسي عليه . والطبيعة الأصلية ، بوصفها إمكانات لا محدوداً ، تشتمل على الموضوعات السرمدية وتفسر النظام الكائن في أهميتها بالنسبة إلى عملية الخلق .

أما طبيعته التالية consequent nature فهي مشتقة ، أي ليست أصلية . إنها تعبر عن رد فعل العالم تجاه الله . وهكذا فإن الطبيعة التالية خاضعة لعملية التحقق الفعلي في العالم الواقعي . والله يشارك ، مع كل حادث وكل عقدة nexus ، العالم الواقعي . إنه بوصفه تالياً ، فإن الله يتكيف بواسطة العالم .

إن الطبيعة الأصلية حرة ، كاملة ، سمردية ، ناقصة ، التحقيق الفعلي ، ولا واعية . أما الطبيعة التالية فمعينة ، ناقصة ، باقية ، متحققة تماماً بالفعل ، وواعية . وبسبب هذه الطبيعة التالية يقيم الله مع العالم علاقة عناية . ومحبة ذات العناية يعبر عنها من خلال اهتمام رحيم بالأوضاع التي يحدتها . إنه ينجي كل شيء في العالم ، ويحافظ عليه في حياته هو . وعناية الله تتجلى في أعمال الحكمة الإلهية . والأحداث في العالم الزماني تتحول بواسطة محبة الله وحكمته ، ثم تعود محبة وحكمته بعد ذلك إلى العالم . والتعريف النهائي لله هو أنه الرفيق العظيم ، والزميل المتألم الذي يفهم .

### مراجع

- The Philosophy of Alfred North Whitehead, edited by Arthur Schilpp. New York, library of Living philo-

سيلان دائم ، وهو مذهب قال به هرقليلطس . وإلى جانب نظرية السيلان هذه يقول هوايتهد بفكرة مناقسة لها هي : بقاء كل الأشياء . وهاتان الفكرتان تؤلفان في نظره مشكلة الميتافيزيقا كلها . ويحاول هوايتهد - على عادته - التوفيق بين هاتين الفكرتين المتضاربتين ، وذلك عن طريق نظريتين : نظرية الهوية المكوّنة لذاتها ، ونظرية النظام الكوني . ويحاول الأخذ بفكرة الانسجام الأزلي ، التي قال بها لبيتس .

### ب - فلسفة الدين

وهذا يقودنا إلى الحديث عن فلسفة الدين عند هوايتهد ، كما تتجلى في كتبه التالية :

١ - « الدين في مراحل تكوينه » ( سنة ١٩٢٦ ، ص ١٦٠ )  
Religion in the Making

٢ - « العملية والواقع » ( سنة ١٩٢٩ القسم الخامس )  
Process and Reality

٣ - « مغامرات الأفكار » ( سنة ١٩٣٣ ، ص ٣٩٢ )  
Adventures of Ideas

ونبدأ بتعريفه للدين . يقول في كتابه « العلم والعالم الحديث » إن « الدين هو رؤية شيء يقوم غير ، ووراء ، وداخل ، السيلان الجاري للأشياء المباشرة ؛ رؤية شيء حقيقي ، لكنه يتنظر أن يتحقق ؛ شيء هو إمكانية بعيدة ، لكنها أعظم الوقائع الحاضرة ؛ شيء يعطي معنى لكل ما يمضي ، ومع ذلك يفلت من الإدراك ؛ شيء امتلاكه هو الخير النهائي ، ولكنه مع ذلك وراء كل تناول ؛ شيء هو المثل الأعلى النهائي ، والمسعى الذي لا أصل فيه » ( ص ٢٦٧ وما يتلوها ) .

ويقول في كتاب « الدين في مراحل تكوينه » : « إن البصيرة الدينية هي إدراك هذه الحقيقة وهي أن نظام العالم ، وعمق حقيقة العالم ، وقيمة العالم في مجموعه وفي أجزائه ، وجمال العالم ، ومنتعة الحياة ، وسلام الحياة ، والتغلب على الشر - هي أمور مرتبطة معاً ، لا غرضاً ولكن بسبب هذه الحقيقة وهي أن الكون يكشف عن نشاط خلاق creativity ذي حرية لا نهاية لها ، وعن مملكة من الأشكال ذوات إمكانات لا متناهية ؛ ولكن هذا النشاط الخلاق وهذه الأشكال عاجزة كلها عن انجاز الواقعية بمعزل عن الانسجام المثالي الكامل ، الذي هو الله » ( ص ١١٩ وما يليها ) .



زار فيرنس في سنة ١٦٣٦. ففكر في صياغة أفكاره الفزيائية في ثلاثة كتب: الأول «في الجسم» de corpore ويحاول فيه أن يبين أن الظواهر الفزيائية يمكن أن تفسر بواسطة الحركة، والثاني «في الانسان» وفيه يبين الحركات البدنية الداخلة في المعرفة والشهوة؛ والثالث «في المواطن» de cive وفيه يشرح تنظيم الناس في المجتمع.

لكنه حين عاد إلى انجلترا في سنة ١٦٣٧ اضطر إلى الانصراف عن التأملات النظرية الخاصة بالجسم والحركة، ليخوض غمار المعركة السياسية المشيوية الأوار آنذاك. فقد كانت هناك حملة شديدة على امتيازات الملكية في انجلترا، لكن هوبز رأى في انتقاص هذه الامتيازات ما يعكر صفو السلام في انجلترا، ورأى أن الحقوق والسلطات التي قامت المعارضة آنذاك للحد منها هي جزء لا يتجزأ من حقوق السيادة، وكان الكل يقرّ في ذلك الوقت بأن السيادة هي للملك. فألف هوبز كتاباً بعنوان: «عناصر القانون الطبيعي والسياسي»، وانتشر الكتاب مخطوطاً آنذاك. فيه يقرر بأن السلام الاجتماعي يقتضي وجود سلطة مطلقة ذات سيادة لا يشاركها مشارك. لكنه أغضب في نفس الوقت الطرفين المتنازعين: لقد أغضب القائلين بالحق الإلهي للملوك، لأنه حاول أن يقيم السيادة على أساس عقد اجتماعي، وأغضب البرلمانين لأنه دعا إلى قيام ملكية مطلقة.

ولما احتد النزاع في سنة ١٦٤٠ بمحاكمة إيرل استفورد ورئيس أساقفة لود Laud، رأى هوبز أنه في خطر، ففرّ إلى باريس، حيث التقى بلاجئين آخرين من انجلترا. وصار يغشى حلقة العلماء التي تحلقت حول الأب مرسن Mersenne، وأطلعه مرسن على كتاب «التأملات» لديكارت ولم يكن قد نشر بعد. وكتب هوبز بعض الاعتراضات على كتاب «التأملات» وعلى كتاب Dioptrique لديكارت، فكان هذا سبباً لغضب ديكارت، غضباً جعله يرفض أن يلتقي بهذا «الرجل الانجليزي» (= هوبز). وفي سنة ١٦٤٢ ظهر كتابه «في المواطن» de cive، وفيه يتوسع فيما قاله في القسم الثاني من كتابه «عناصر القانون»، ويختمه بفصل عن الدين والعلاقة بين الدولة والكنيسة، فيقول إن الكنيسة المسيحية والدولة المسيحية شيء واحد وهيئة واحدة، رئيسها الحاكم، ولهذا فإن من حق الحاكم أن يفسر الكتاب المقدس، وأن يفصل في المنازعات الدينية وأن يحدد أشكال العبادات العامة. وقد ظن هوبز بهذا أنه وضع الحل لمشكلة النزاع بين

sophers, 1st ed. 1941, 2nd ed. 1951.

وفي ذيله ثبت كامل بكل مؤلفاته .

- H. Johnson: Whitehead's Theory of Reality, 1952.

- D. Emmet: Whitehead's Philosophy of organism, 1932

- D. L. Miller and G. Gentry : The Philosophy of A. N. Whitehead, 1938

- V. Lowe, C. Hartshorn, A. H. Johnson: Whitehead and the Modern World, 1950

- I. Leclerc: Whitehead's Metaphysics, 1958.

- V. Lowe: Understanding Whitehead, 1962.

هوبز

### Thomas Hobbes

فيلسوف انجليزي ومفكر سياسي كبير.

ولد في وستبورت Westport (في اقليم Wiltshire) في ٥ أبريل سنة ١٥٨٨. وفي سن الخامسة عشرة دخل كلية مجدلين في أكسفورد. وحصل على شهادة التخرج في فبراير سنة ١٦٠٨، وبعدها صار مرياً خاصاً لوليم كفنديش Cavendish الذي صار فيما بعد الايرل الثاني للديفونشير، وبدأت بذلك علاقته مع أسرة كافنديش، وهي علاقة استمرت حتى آخر عمره، ولم تنقطع إلا أثناء الحرب الأهلية في انجلترا. وصحب تلميذه في رحلة إلى أوروبا، لما عاد منها. وكان قد برز بتدريس الفلسفة في أكسفورد. كرس اهتمامه للدراسات الكلاسيكية. وفي الفترة ما بين ١٦٢١ و ١٦٢٥ اتصل بفرنسيس بيكون، وساعده في ترجمة بعض «مقالاته» إلى اللاتينية. لكن أهم ثمار عنايته بالدراسات الكلاسيكية (اليونانية-واللاتينية) هي ترجمته لتاريخ ثوكيديدس (Thucydides)، وقد نشر هذه الترجمة في سنة ١٦٢٩، وقد اختار لنشرها ذلك الوقت كيا يكون فيها عميرة لبني وطنه إذ رأى هوبز في مصير أثينا القديمة تحذيراً مفيداً ضد الديمقراطية.

وقام برحلة ثانية إلى أوروبا في ١٦٢٩-١٦٣٠، في أثنائها تنبه إلى أهمية الفزياء. وفي رحلته الثالثة ازداد اهتماماً بالفزياء وصار متعمقاً فيها إلى حد أنه دخل في نقاش مع جماعة الأب مرسين Mersenne في باريس، ومع جاليلو حين



فرنسا. وفي الوقت نفسه أخذت عليه السلطات الفرنسية هجومه على البابوية، فأدرك هوبز أن مقلعه في باريس مهلك، ولهذا عاد إلى إنجلترا في نهاية سنة ١٦٥١. وتفاهم هوبز مع النظام الجديد في إنجلترا؛ وأقام في لندن.

فاستأنف العمل في كتابه «في الجسم». لكنه في سنة ١٦٥٤ اشترك في مساجلات سيكون لها تأثير كبير في الشطر الباقي من عمره؛ وتدور هذه المساجلات، التي أجراها مع جون برمهل John Bramhall أسقف لندوندي، حول مشكلة حرية الإرادة الانسانية؛ ودارت المساجلات أولاً على شكل مراسلات خاصة بينهما؛ لكن أحد المعجبين بهوبز اطلع على رد هوبز، ونشره، دون علم هوبز، تحت عنوان: «في الحرية والضرورة»، مما اضطر برمهل في سنة ١٦٥٥ إلى نشر كل المراسلات التي جرت بينه وبين هوبز، بما في ذلك ردوده على هوبز، وذلك في كتاب بعنوان: «دفاع عن الحرية الحقيقية ضد الضرورة السابقة الخارجية». فرد عليه هوبز في السنة التالية بكتاب بعنوان: «المسائل المتعلقة بالحرية والضرورة والبخت»، وفيه أعاد نشر المراسلات المتبادلة بينه وبين برمهل، مع تنبهات. فعاد برمهل إلى الرد بكتاب عنوانه: «تصحیحات لتنبهات هوبز الأخيرة»، وألحق به ضمیمة بعنوان: «صيد اللويثان أو الخوت الكبير»، وفيه اتهم هوبز بالاحاد؛ وقد رد هوبز على هذه التهمة بعد ذلك بعشر سنوات في كتاب لم ينشر إلا في سنة ١٦٨٢ بعد وفاة هوبز بثلاث سنوات.

ودخل هوبز معركة ثانية مع بعض أساتذة أكسفورد. وكان هوبز في كتابه «لويثان» قد هاجم نظام جامعة أكسفورد على أساس أنه أقيم في الأصل للدفاع عن البابوية ضد السلطة المدنية، ولا يزال هذا النظام مضرًا بالمجتمع لتمسكه بالتعليم القديم. فانتهز بعض أساتذة أكسفورد فرصة صدور كتاب «في الجسم» لهوبز في سنة ١٦٥٥ فهاجموه. لكنه رد عليهم برد عنوانه «سنة دروس لأساتذة الرياضيات في جامعة أكسفورد» وقد ظهر في سنة ١٦٥٦ ملحقاً للترجمة الانجليزية لكتاب «في الجسم».

وفي سنة ١٦٥٨ أصدر كتابه الثالث من مشروعه الثلاثي الذي ذكرناه، بعنوان: «في الانسان».

ودخل معركة ثالثة في سنة ١٦٦٠ حين أصدر ست محاورات بعنوان: «فحص وتصحيح الرياضيات المشروحة في

الدولة والكنيسة، التي كانت تعصف بمعظم دول أوروبا في القرن السابع عشر.

وأقصى هوبز السنوات الأربع التالية في تأليف الكتاب الأول من مشروعه المذكور، وهو كتاب: «في الجسم». لكنه حدث في سنة ١٦٤٦ أن لجأ أمير ويلز، الذي أصبح فيما بعد الملك شارل الثاني، إلى باريس، ودعا هوبز إلى تدريس الرياضيات له. فانصرف هوبز عن الفيزياء والفلسفة مرة أخرى وخاض غمار السياسة مع اللاجئين الانجليز الهاربين إلى باريس. وفي سنة ١٦٤٧ أصدر طبعة ثانية من كتابه «في المواطن» وقد أضاف إليها تعليقات للشرح ومقدمة موجهة إلى القاري، وظهرت هذه الطبعة في أمستردام.

وفي سنة ١٦٥٠ نشر مخطوط كتابه: «عناصر القانون» على شكل كتابين مستقلين: الأول بعنوان: «الطبيعة الإنسانية» والثاني بعنوان «في الهيئة السياسية».

وفي سنة ١٦٥١ ظهرت الترجمة الانجليزية لكتابه «في المواطن» de cive.

وفي سنة ١٦٥٢ أصدر كتابه الرئيسي بعنوان: «لويثان، أو مادة وصورة وسلطة الجماعة (الكومنولث) الدينية والمدنية» Leviathan, or the Matter, Form, and Power of a Commonwealth Ecclesiastical and Civil. وفي القسمين الأولين منه: «في الانسان» و«في الكومنولث» عاد إلى الموضوع الذي بحثه في كتبه السابقة؛ وفي القسمين الثالث والرابع: «في الكومنولث المسيحي» و«في مملكة الظلام» خاض في مناقشة عن الكتاب المقدس وهاجم هجوماً شديداً محاولات أنصار البابوية والكنيسة المسيحية presbyterians لبحث حقوق الملك.

وكان الملك شارل الأول قد توفي في سنة ١٦٥١، واستولى اليأس على أنصار الملكية؛ ولهذا نجد في خاتمة كتاب «لويثان» فصلاً بعنوان «مراجعة وخاتمة» يحاول فيه هوبز أن يحدد الظروف التي تصبح فيها الطاعة لحاكم جديد مشروعة. وكان من رأيه دائماً أن للمواطن الحق في ترك الحاكم الذي لا يستطيع بعد أن يحميه، وفي تحويل ولائه إلى حاكم آخر يكفل له هذه الحماية. لكن عرضه لرأيه هذا في تلك «المراجعة والخاتمة» ضايق مستشاري الأمير شارل، وظنوا أن هوبز يريد بذلك أن يستجلب رضا الحاكم الجديد في إنجلترا تسهلاً لعودته إلى بلاده. لهذا حجبه عن بلاط شارل المنفي في

المؤلفات اليونانية، فترجم «الأوديسا» لهوميروس، ونشرت الترجمة في سنة ١٦٧٣ - سنة ١٦٧٥، وترجم «الأياذة» ونشرت الترجمة في سنة ١٦٧٦.

وتوفي هوبز في هاردوك هول Hardwick Hall في مقاطعة دربي Derbyshire في ٤ ديسمبر سنة ١٦٧٩.

### فلسفته

كان هوبز مادياً مغالياً في المادية، إذ كان يرى أن كل ما هو موجود هو مادة، وكل ما يتغير هو حركة. والمبدأ الأول والأساس النهائي لكل شيء هو المادة والحركة، أو المادة التي هي في حركة. وحتى العمليات الفعلية هي أيضاً حركات في أدمغتنا وقلوبنا وسائر أعضائنا. والدولة، وكل النظم الانسانية هي تركيبات من حركات وكل حادث يجري في الكون هو حركة، أمر يمكن رده إلى حركة.

ولهذا فإن موضوع الفلسفة عند هوبز هو الأجسام وهي في حركة. ذلك أن الفلسفة هي «معرفة المعلولات effects أو الظواهر appearances، كما نحصلها بالتعقل الصحيح ابتداء من معرفتنا بأسبابها أو تولدها، وأيضاً معرفتنا بالعلل أو التولدات التي نحصلها من معرفة معلولاتها أولاً».

ولما كان الله لا علة له، ولما كان ما يعرف بالوحي لا يستفاد بالتعقل، فإن اللاهوت مستبعد، بحكم تعريفه، من مجال الفلسفة. وما بقي للفلسفة كموضوع لها هو «كل جسم يمكن أن تتصور تولده، ويمكن مقارنته بأجسام أخرى عن طريق النظر فيه، أو كل ما هو قابل للتركيب والانحلال، أعني كل جسم يمكن أن نعرف شيئاً عن كونه (تولده) أو خواصه».

وهناك نوعان من الأجسام: أحدهما من صنع الطبيعة، ولهذا يسمى جسماً طبيعياً. والثاني تضعه إرادات الناس واتفاقهم، ويسمى الدولة Commonwealth (هذا اللفظ كان له في القرن السابع عشر المعاني التالية: الهيئة الاجتماعية، الدولة، الجمهورية). والجسم الطبيعي هو موضوع الفلسفة الطبيعية، والدولة هي موضوع الفلسفة المدنية؛ لكن الأخلاق ضرورية للفلسفة السياسية (أو: المدنية)، لأنها تتناول استعدادات الناس ومسالكهم. ولهذا انقسمت الفلسفة عند هوبز إلى ثلاثة أقسام رئيسية: الفلسفة الطبيعية، الفلسفة السياسية (المدنية)، الأخلاق. ومن هنا قسّم هوبز كتابه الشامل في الفلسفة - وعنوانه: «عناصر الفلسفة» إلى ثلاثة

كتب جون والس، وفيها يهاجم روبرت بويل Boyle وسائر أصحاب والس Wallis الذين كونوا جمعية (سميت باسم «الجمعية الملكية» في سنة ١٦٦٢) للبحث التجريبي، معارضة للمنهج الاستنباطي في الفيزياء الذي دعا إليه هوبز في كتابه «في الجسم». ورد عليه والس برسالة ساخرة نشرت سنة ١٦٦٢، واتهم هوبز بأنه ألف كتاب «لويثان» للدفاع عن أوليفر كرومويل، وأنه غدر بسيد، شارل، حين كان في نيته. فدافع هوبز عن هذه الاتهامات في رسالة وجهها إلى والس في سنة ١٦٦٢ بعنوان: «السيد هوبز منظوراً إليه في اخلاصه، ودينه، وشهرته، وأخلاقه»، وفيها معلومات مفيدة عن حياة هوبز وأفكاره الخاصة كتبها هوبز بنفسه.

وخاض معركة رابعة ضد رجال الهندسة مبيّناً أن مؤلفاتهم فيها من الخطأ وعدم اليقين بقدر ما في كتب رجال الفيزياء والأخلاق من خطأ وعدم يقين. فألف كتاباً بعنوان: «تربيع الدائرة، وتكعيب الكرة، وتضعيف المكعب» (سنة ١٦٦٩) وفيه يقدم حلولاً لهذه المشكلات الهندسية المشهورة.

ولما عدت الملكية إلى انجلترا وصار شارل الثاني، تلميذ هوبز القديم، ملكاً على انجلترا، اعتذر لمربيه القديم موقفه من كرومويل، وشمله بعطفه، وقرر له معاشاً قدره مائة جنيه في العام. لكن لما كانت آراء هوبز مقترنة في أذهان عامة الناس بحرية الفكر والاحاد، فقد استغل خصومه هاتين التهمتين للنيل منه عند الملك. لكنه لم يشعر بالخطر الحقيقي إلا في سنة ١٦٦٦، لأنه في هذه السنة وضع مجلس العموم مشروع مرسوم ضد الاحاد والعلمانية Profaneness وذلك بتأثير الكنيسة وما أحدثه حريق لندن والطاعون من قزع في النفوس؛ وكلفت اللجنة المشكلة لدراسة مشروع المرسوم بفحص كتاب «لويثان».

غير أن البرلمان أسقط مشروع المرسوم ضد الاحاد. غير أن هوبز لم يستطع بعد ذلك الحصول على إذن بنشر أي شيء يتعلق بالسلوك الانساني.

وفي سنة ١٦٦٨ نشر مجموع مؤلفاته المكتوبة باللاتينية، في أمستردام، لأنه لم يستطع الحصول على إذن الرقيب الانجليزي لنشرها في انجلترا. ولم يتمكن من طبع بعض كتبه الأخرى فلم تنشر إلا بعد وفاته. ويبدو أن الملك قد تعهد بمنع نشر كتبه في مقابل حمايته له.

فراح هوبز يقضي بقية عمره الطويل في ترجمة بعض

مقتعة). وبعد ذلك نستبسط من هذه البديهيات - التعريفات، أعني أننا «نجمعها»، بالمعنى الواسع «للجمع» كما يفهمه هوبز. والهندسة، في نظره، هي أشد علوم الحركة تجريدًا، ذلك لأنه يرى أن الخط، مثلاً، هو الطريق الذي تتخذه نقطة متحركة، وليس الخط مجرد امتداد مكثف (استاتيكي). ومن هنا كانت الهندسة وكيفية الارتباط بعلم الميكانيكا، وإن كان هذا الأخير يحتاج إلى مزيد من المبادئ أو التعريفات الخاصة بالقوة، وكمية المادة، وأمور أخرى لا تكون جزءاً من الهندسة بالمعنى التقليدي.

ولما كان لا يوجد في العالم إلا مادة هي في حركة، فإننا إذا عرفنا قوانين الحركة، كمل علمنا من حيث المبادئ النظرية.

والأخلاق والسياسة هما - نظرياً - مزيد من التطبيقات للميكانيكا على نوع خاص من الأجسام (الإنسان، الدولة).

وهكذا يبنى العلم على الاستنباط من تعريفات؛ وما دام الأمر كذلك، فينبغي أن تنطوي التعريفات على العلة، من أجل أن يقوم العلم بالتفسير. ولهذا فإن المسألة الرئيسية في المنهج العلمي هي توفير التعريفات الوافية. بيد أن هذه التعريفات ينبغي ألا تكون اعتباطية، فلست أحراراً في تعريف القوة أو الكمية كما تهوى. ومعك الاختبار لمعرفة كون التعريف وافياً هو أن نقوم بتحليله ثم نستبسط النتائج المترتبة عليه. وهذا الاستنباط يعطي بعض النظريات theorems التي ينبغي أن تكون أوصافاً لما يحدث في ظروف معينة. وبالملاحظة نتبين ما إذا كان ما يجب أن يحدث - بحسب تعريفاتنا - قد حدث فعلاً. فإن كان قد حدث، فيها ونعمت؛ وإلا فلنحاول العثور على تعريف آخر.

وهكذا فإن ما يسميه هوبز بـ «التعريفات» definitions هو ما نسميه الآن ومنذ القرن الماضي باسم «الفروض» hypotheses. ومنهجه الذي ينعته هو بأنه مزيج من التركيب والتحليل هو المنهج الاقتراضي الاستنباطي في العلم - hypothetico-deductive method of science ومن هنا كان هوبز أول فيلسوف أدرك أهمية هذا المنهج.

والكشف عن العلة (الأسباب) هو عقدة العلم كله. والعلة هي «حاصل جمع أو مجموع كل الأعراض (الخواص، والصفات)، سواء في الفاعل وفي المتفعل، التي تسهم في إنتاج المعلول موضوع البحث، بحيث انه إذا وجدت هذه

أقسام: الأول: في الجسم؛ الثاني: في الإنسان؛ الثالث: في المواطن. وقد كتب الثالث أولاً، ويتلوه الأول، وآخرها الثاني.

والغاية من المعرفة هي القوة، هكذا يقول هوبز مع فرانسيس بيكون. وفائدة الفلسفة الطبيعية تقوم في النهاية على تطبيقاتها التكنولوجية. ولكن فائدة الفلسفة الأخلاقية والمدنية (السياسة) تقدر لا بمقدار المنافع التي نحصلها بمعرفة هذين العلمين بقدر ما هو بمقدار المصائب التي تصيبنا إذا لم نعرفها. ورأس هذه المصائب: الحرب، وأسوأ أنواع الحروب الحرب الأهلية، وهي تنشأ من «علم معرفة الواجبات المدنية» (واجبات المواطن).

والفلسفة بحث عقلي في العلة والمعلولات. ويقصد هوبز بـ «البحث العقلي» ratiocination: الحساب computation أي جمع المعاني وطرحها. وإذا كانت الحجوم والأجسام والحركات والأزمنة والنسب ودرجات الكيف قابلة للحساب لأنها يمكن أن تحسب بالعدد، والكل يقر لها بذلك، فقد زاد عليهم هوبز بأن طبق الحساب على أمور لا يرى جمهور العلماء والفلاسفة أنها قابلة لذلك، مثل: التصورات العقلية، الكلام والأسماء. فهو يقول مثلاً في تعريف الإنسان إنه «حاصل جمع الجسم والتنفس (الحَيِّ) والناطق (العاقل)». والرجل المفرد هو أيضاً حاصل جمع الساقين والذراعين، إلخ.

ويعرف المنهج method بأنه «أقصر طريق للعثور على المعلولات بواسطة علةها المعروفة، أو العثور على العلة بواسطة معلولاتها المعروفة». وهناك نوعان من المنهج يناظران عمليتي الجمع والطرح: أحدهما تركيبي، وبه يستطيع المرء أن ينتقل من المبادئ الأولى (التي هي تعريفات) إلى معرفة شيء مركب. والهندسة تركيبية كلها، وكذلك القياس. والنوع الثاني من المنهج تحليلي، وبه نصل إلى فهم الشيء بتحليل الفكرة إلى الكليات التي تتألف منها، والتي أسبابها واضحة ومتجسدة في مبادئ أولى.

ولتوضيح مقصد هوبز من هذا المنهج بنوعيه نقول إن العلم بنية من المعارف المنظمة، نموذجها ونقطة ابتدائها هما علم الهندسة. إذ في الهندسة نحن نبدأ من بديهيات هي في نظر هوبز تعريفات (وهو رأي سيتضح صوابه عند هنري بونكاره الذي قال إن البديهيات axiomes هي تعريفات

الأعراض (مثل اللون، الطعم، الرائحة، إلخ) ليست أشياء. والأجسام لا تتولد (لا تكون)، بينما الأعراض تتولد (تكون). ويمكن تدمير أي عرض في جسم دون أن يُدمر الجسم نفسه. والصورة أو الماهية هي العَرَض الذي بسببه يعطى اسم لنوع معين من الأجسام.

وكل تغير حركة. ولما كان لكل حركة علة تجعلها على النحو الذي هي عليه، فإن كل شيء متعين بالضرورة. أما الإمكان ففكرة ذاتية تسمى عن جهلنا فقط. وكل شيء ممكن فلا بد له أن يتحقق بالفعل. وكل علة هي علة فاعلة. أما ما يسمى «علة صورية» فما هي إلا علة معرفتنا؛ والعلل الغائية، وهي لا توجد إلا في الكائنات المزودة بالحس والإرادة، فإنها في الواقع علل فاعلية.

ويبحث هوبز فيما يجتد الفردية، فيبين أولاً أنه لا المادة، ولا الصورة، ولا مجموع الأعراض يصلح أن يكون معياراً عاماً للهوية الفردية، ويقرر: «إن علينا أن ننظر ما الاسم الذي يسمي به الشيء، حين نبحث في هويته». ذلك الرجل سيكون دائماً هو نفس الرجل الذي تصدر كل أفعاله وأفكاره عن نفس ابتداء الحركة، أي تلك التي كانت في ولادته وكونه؛ وهذا النهر سيكون نفس النهر الذي يجري من نفس المنبع، سواء كان نفس الماء أو ماء آخر أو شيء آخر غير الماء يجري من ذلك المنبع».

#### نظرية المعرفة

ومصدر كل معرفة إنسانية هو الاحساس ولأنه لا يوجد تصور في عقل الإنسان لم يتولد، كلياً أو جزءاً جزءاً، من أعضاء الحس. وباقى المعرفة مأخوذ من هذا الأصل «لويثان» (ق' ف'). والسبب في أي إحساس هو ضغط موضوع خارجي على عضو الحس، إما مباشرة كما في حالي الذوق واللمس، أو بطريق غير مباشر، كما في البصر والسمع والشم. وهذا الضغط على عضو الحس يبدأ حركة تستمر إلى المخ أو القلب، فتستجيب لها حركة من القلب بلون أو صوت أو رائحة أو إحساس بالحرارة أو البرودة أو الحشونة أو ما شابه ذلك. وعلى هذا فإن الاحساس هو ناتج في المخ عن مهيج من شيء خارج الجسم.

ومادام الأمر هكذا، فلا عمل للكلام عن أن الاحساس ينبغي أن يشابه الموضوع الخارجي الذي «يضغط» على عضو الحس. إذ ليس من الضروري أن يكونا متشابهين. وما دام كل ما هو

(الأعراض) كلها، فلا بد أن يوجد هذا المعلول؛ كما أنه لا يوجد إذا غاب واحد منها. وبعبارة أخرى، علة الشيء هي الشرط الضروري والكافي لحدوثه. ونحن في البحث عن العلة نحتاج إلى المنهج التحليلي كما نحتاج إلى المنهج التركيبي: نحتاج إلى المنهج التحليلي من أجل أن ندرك كيف أن الظروف تفضي إلى إنتاج المعلولات؛ ونحتاج إلى المنهج التركيبي من أجل أن نجتمع معاً ونخرج ما يمكن كل واحد منها بمفرده أن ينتج. ويتضح من كلام هوبز في هذا الموضوع أنه أدرك ما سماه ميل قيبا بعد باسم: منهج الاتفاق ومنهج الاقتراق.

وبعض المعاني في الفلسفة أساسية وبسيطة ولا يمكن تحليلها، وبالتالي لا يمكن وضع تعريفات علية لها. ومع ذلك ينبغي أن نوضحها، حتى يكون في ذهن السامع أفكار واضحة عنها. ومن هذه المعاني: الزمان، المكان، الجسم، العرض، الحركة، القوة.

ويطلب هوبز من القارئ أن يتصور أن كل ما في الوجود فني، ما عدا فيلسوفاً واحداً. فماذا يبقى له ليتقله؟ ذكرياته، بهذا يجيب هوبز. وهذا ما يحدث هنا فعلاً بين الحين والحين. «لأننا حين نحسب حجم وحركات السماء أو الأرض، فإننا لا نرقى إلى السماء كي نقسمها إلى أجزاء، أو لتقيس حركاتها، بل نفعل ذلك ونحن جالسون بهدوء في مكتبنا أو في الظلام». فتذكر شيء بوصفه وجد خارج الزمن يعطي الفيلسوف فكرة عن المكان. ومن هنا يعرف المكان بأنه «فنتاسيا - phantasm شيء موجود بذاته خارج العقل». كذلك يعرف الزمان بأنه «فنتاسيا القبل والبعد في الحركة». وليس من الواضح تماماً ما يعنيه هوبز بـ «فنتاسيا»، لكن يبدو أنه يريد بذلك انكار أن المكان أو الزمان جسم أو عرض لجسم.

ويعرف اللامتناهي في الزمان والمكان هكذا: «لا متناه في القوة الزمان أو المكان الذي فيه يمكن تصور عدد من الخطوات أو الساعات أكبر من أي عدد معلوم»، أي أن ثمة مقداراً أكبر من أكبر مقدار نتصوره للمكان أو الزمان.

فإذا تصورنا الآن أن شيئاً آخر - غير هذا الفيلسوف المشار إليه - قد خلق، فسيكون هناك شيء واحد مستقلاً عن ذهن الفيلسوف. ومن هنا يعرف الجسم بأنه ما يشغل حيزاً من المكان ولا يتوقف على عقلنا. والأجسام أشياء، بينما

الفكرة أحضرت فكرة تسليم المسيح لأعدائه؛ وهذه بدورها أحضرت فكرة الثلاثين بنساً التي كانت ثمن خيانة يهوذا وتسليمه المسيح إلى أعدائه؛ ومن هنا جاء هذا السؤال الغريب. وكل هذا جرى في لحظة قصيرة جداً من الزمن، لأن التفكير سريع.

لكن التفكير العقلي يمكن أن يكون منظماً ثابتاً تقوده رغبة وخطوة توجه مجراه إلى غاية معلومة. فمثلاً شخص فقد شيئاً، ويريد أن يعثر عليه، فيرجع ذهنه من مكان إلى مكان وزمان إلى زمان، ليعثر على المكان الذي عماه يكون قد فقده فيه والوقت الذي فقده فيه. ومثال آخر، رجل يريد أن يعرف نتائج فعل لو أقدم عليه، فيقارنه بأفعال مشابهة قام بها في الماضي. كذلك إذا أردنا الحصول على شيء، فإننا نبحث عن الوسائل المؤدية إلى تحصيله. أو قد نتخيل كل الآثار الممكنة أن يحدثها شيء متى ما حصلنا عليه. إن الحاضر هو وحده الذي له وجود في الطبيعة؛ أما الأشياء الماضية فلا وجود لها إلا في الذاكرة؛ والأشياء المقبلة ليس لها وجود مطلقاً؛ إذ المستقبل هو مجرد توهم من الذهن، يطبق تسلسل الأفعال الماضية على الأفعال الحاضرة، وهو أمر يقوم به من هو أوفر حظاً من الخبرة، لكن ليس بدرجة كافية من اليقين... إن أفضل متنبئ هو بالطبع أفضل متكهن؛ وأفضل متكهن *guesser* هو أكبر الناس تضلعاً في الأمور التي يتكهن بها، لأن لديه قدراً أوفر من «العلامات» التي يستعين بها في التكهن؛ (لوايثان ج<sup>١</sup> ف<sup>٣</sup>).

ولا يرى هوبز في الأفكار العقلية إلا حركات في المخ. كذلك يرى أن عمليات الإدراك والارادة هي أيضاً حركات في الجسم. وهناك نوعان من الحركات خاصان بالحيوان والإنسان، وهما: الحركة الحيوية، مثل جريان الدم، والتنفس، والتغذي، والتبرز، إلخ؛ ثم الحركة الإرادية مثل: عيشي، يتكلم، يحرك أعضائه على النحو الذي تتخيله في عقولنا. والتخيل هو البداية الأولى لكل حركة إرادية؛ أما آخر ما يجري في الجسم قبل أن يصير مرئياً في الخارج، فهو النزوع *Conatus*. والنزوع حين يتجه إلى شيء بسبه هو الاشتهاة *appetite* كما في الجوع والعطش، أو الشهوة *desire* كما في معظم الأحوال الأخرى. وحين يكون النزوع إشاحة عن موضوع ما، يسمى نفوراً وكراهية. والناس يجنون ما يشتهون، ويكرهون ما منه يتفرون؛ والفارق الوحيد هو أننا نقصد دائماً بالشهوة والنفور غياب الموضوع، بينما نقصد

موجود في العالم الخارجي هو مادة، وكل ما يتغير هو حركة، فليس للمادة من الخواص إلا تلك التي تعزوها الفزياء إليها. إذ لو كانت الحمرة خاصية من خواص الشيء الذي نراه أحمراً اللون، لما كان يمكن فصل هذه الحمرة عنه، كما يحدث في المرآة حين ينعكس عليها هذا الشيء. ولو كان الصوت جزءاً من الموضوع الصائت، لما كان من الممكن أن يسمع في مكان آخر كما هي الحال في الصدى. ولهذا يقرر هوبز أن اللون والصوت والرائحة والحرارة وما شابه ذلك هي إدراكات موجودة فينا أنتجتنا أدمغتنا استجابة لمهيجات واردة عن موضوعات مادية، وهوبز يدعوها إدراكات *feelings* أو «خيالات» *seemings* أو تخيلات *fancies*. إنها مظاهر *appearances* ذاتية. وكان من المفروض في هوبز - وهو الملحد الصريح - أن يقول عن هذه «الصفات الثانوية» (من لون، ورائحة، وحرارة إلخ) إنها مجرد حركات مادية في المخ. لكن يبدو من تسميته إياها «خيالات» أو «تخيلات» *seemings and fancies* أنه لا يعتقد أنها مجرد حركات.

ويحاول هوبز أن يفسر سائر العمليات العقلية على أساس مادي آلي خالص. فيقول عن التخيل *imagination* إنه «احساس منحل» *decaying sense*. ذلك أن الحركات الحادثة في المخ عن مهيجات خارجية تتضاءل وتشتحب، فتتشأ عنها الصور التخيلية *images*. والصور التخيلية تتميز من الإدراكات الحسية بسبب ما فيها من شحوب وذبول. وهكذا يضمحل الاحساس. والاحساس المضمحل الماضي هو الذاكرة *memory*. وشذرات من الاحساس المضمحل تتركب أحياناً في الخيال على نحو مختلف مما أعطي في الأصل، فيتولد عن ذلك الأحلام والرؤى. وبهذا يمكن أن يفسر أيضاً تصور الأشباح والعماريات: إنه ينشأ عن اضطرابات بين الاحساسات، يختلط معها الخيال بالاحساس.

كذلك ترابط المعاني في الذهن يرجع إلى حركات في المخ. وهذا الترابط قد يتم على غير هدى، كما يحدث في الأحاديث العارضة بين الناس. لكن هوبز يرى أن من الممكن حتى في هذه الأحوال العثور على ارتباط عليّ. ويضرب مثلاً لذلك ما جرى في عمادة دارت حول خيانة شارل الأول (ملك إنجلترا) أثناء الحرب الأهلية، إذ تساءل أحد المتحاربين: ما هي قيمة البس penny الروماني. ويفسر هوبز ذلك السؤال الذي يبدو خارجاً تماماً عن مجرى المناقشة بأن التفكير في الحرب الأهلية أحضر فكرة تسليم الملك لأعدائه؛ وهذه

الكهنة أن يستغلوا الدين لتحقيق مآربهم الشخصية الأتانية. والأديان تنحل إذا رؤي أن مؤسسيها أو زعمائها يفتقرون إلى الحكمة أو الاخلاص أو المحبة.

#### الفلسفة المدنية (السياسية)

أما في فلسفته السياسية فقد استعان هوبز بالمعاني الرائجة في عصره، مثل: المساواة، القانون الطبيعي، الحقوق الطبيعية للإنسان، العقد الاجتماعي، السيادة، العدالة، إلخ. لكنه يعالج هذه المعاني على نحو يختلف كثيراً عن معالجة فلاسفة السياسة السابقين عليه لها مثل أفلاطون وأرسطو، والقديس توما الأكويني، وجان بودان Jean Bodin، وهوجو جروتوس Grotius. كذلك تأثر هوبز بأراء مكياقي في الأتانية وحاجة الحاكم إلى السلطة المطلقة.

ونبدأ أولاً ببيان نظرية العقد السياسي عند هوبز. إنه يرى أن النظام السياسي أمر اصطلاحي وطبيعي في آن معاً: فهو اصطلاحي بمعنى أن الإنسان هو الذي أوجده؛ وهو طبيعي، مع ذلك، لأن الإنسان إنما صنعه وفقاً لميوله الطبيعية. لكن الإنسان عند هوبز ليس كائناً اجتماعياً بطبعه كما يقول أرسطو، وليس كائناً عقلياً مجرداً كما يقول فلاسفة عصر التنوير، أي في القرن الثامن عشر، بل هو كائن شرير حافل بالفتاوى، جبان، فاسد، خبيث، تدفعه المصلحة الذاتية، وتتحكم فيه الغرائز الأولية من أنانية وجشع. وهو لا يذعن إلا إذا خاف، ولا يضحى بمصالحه إلا مرغماً، ولا يجب السلام للسلام؛ بل فزعاً من نتائج الحرب. ويتلخص هذا كله في العبارة المشهورة التي قالها هوبز: «الإنسان للإنسان ذئب؛ والكل في حرب ضد الكل؛ والواحد في حرب ضد المجموع». والحياة إذن مجال للقوة الباطنة، بالنسبة إلى الأقوياء، وللخداع والمكر والتحاييل بالنسبة إلى الضعفاء.

لكن هذه الشرارة (صفة من: الشر) الإنسانية هي التي دفعت الإنسان إلى أن يبحث بعقله عن علاج: فراح عقل الإنسان يفتش عن أسباب هذه الحال الأليمة المتمثلة في حالة الطبيعة، وفي أسباب الحروب، والنزاع. وانتهى إلى أن العلاج هو في إيجاد مجتمع تسوده قوانين تحكم الجميع، فيزول الخوف والنزاع.

كيف يمكن إيجاد هذا المجتمع؟ لا يمكن أن يوجد مثل هذا المجتمع إلا بتخلي الأفراد عن حقوقهم الخاصة وشهواتهم الخاصة فيما يتصل بتوجيه النظام في المجتمع. وعلى الكل أن

بالحب والكراهية حضور الموضوع غالباً. وما يشتهي المرء يسميه خيراً، وما ينفر منه يسميه شراً، آياً ما كان هذا الشيء. والحواس إذا ما أدركت شيئاً، حدثت حركة تسري من أعضاء الحس إلى القلب، فيستجيب القلب بتزوع نحو الشهوة أو نحو النفور. فإذا أشبعت الشهوة أو النفور، شعرنا باللذة؛ وإذا حيل بيننا وبين الأشباع، سكرنا بالألم. وهكذا نجد أن هوبز يقرر أن الخير هو اللذة، والشر هو الألم. فهو إذن من أنصار مذهب اللذة. وأكثر من هذا هو من أنصار اللذة الأتانية، لأنه يجد الخير بالنسبة إلى الفرد فقط.

ويسمي هوبز آخر شهوة أو تطور في عملية الروية، وهي التي تسبق الفعل الخارجي مباشرة، باسم الإرادة Will.

وهكذا نرى أن هوبز يقرر أن كل العمليات العقلية والنفسية هي حركات لجزيئات مادية في الجسم. وهذه العمليات في جوهرها آلية (ميكانيكية)، ومادية في تركيبها. فالشهوة حركة نحو موضوع يسمى من أجل ذلك خيراً، والنفور حركة ابتعاد عن شيء يسمى من أجل ذلك شراً. وسائر الشهوات تتحد على نفس النحو: فالخوف نفور مع اعتقاد أن الموضوع سيؤذي؛ والشجاعة نفور مع رجاء تجنب الأذى. والغضب شجاعة مفاجئة. والدين، وهو وجدان مهم، هو خوف من قوى خفية؛ مسموح به علناً. أما إن كان الخوف غير مسموح به علناً فإنه يكون خرافة وتطييراً superstition ومجموع الشهوات والنفورات وتغيراتها إذا ما سار بها المرء حتى يفعل الأمر أو ينظر إليه على أنه مستحيل - مجموع هذا يسمى الروية deliberation.

ولما كانت الشهوات بغير نهاية، فإن السعادة ليست حالة سكنية (استاتيكية)، بل هي عملية اشباع شهوات. وكل دافع أتاني. والشهوة الأساسية في الإنسان هي الشهوة إلى القوة، وهي لا تنتهي إلا بالموت، شأنها شأن سائر الشهوات.

#### الدين

وفي إطار مثل هذه الفلسفة المادية المغالية، لا محل للدين بللمعنى المفهوم. وهوبز يعرض رأيه في الدين في كتابه الرئيسي «لويثان» فيقول إن الدين اخترعه الناس بسبب اعتقادهم في الأرواح، وجهلهم بالعلل، وعبادتهم لما يهابونه. وهذا يفسر لماذا زعم المشرعون الأوائل في الأمم الوثنية أن تعاليمهم جاءت من الله أو من أي روح، ولماذا استطاع



يخضعوا لإرادة واحدة.

أنهم بمجرد أن فوضوا له تولى أمورهم فقد سقط حقهم في مسألتهم. يقول هوبز إنه من أجل تأمين السلم ولا بد من تفويض الأفراد كل قوتهم وكل سلطتهم إلى رجل واحد أو إلى هيئة اجتماعية (أو جمعية) واحدة يمكنها أن تجعل من كل إرادتهم إرادة واحدة، بمعنى... أن كل واحد يقر بأنه فاعل لكل الأفعال التي يفعلها هذا الرجل، وأن يخضع إرادته لإرادة هذا الرجل وحكمه. وهذا شيء أكثر من مجرد الوفاق: إنه اتحاد الجميع في شخص واحد، وهذا هو ما يتم بتعاقد كل واحد مع كل واحد، كما لو قال كل واحد لكل واحد: إني أفوض إلى هذا الرجل أو هذه الجمعية كل سلطتي وكل حقي في توجيه نفسي، بشرط أنك أنت أيضاً تفوض له سلطتك وحقك في توجيه نفسك. فإذا تم هذا، فإن هذا الجمهور يصير شخصاً واحداً يسمى مدينة أو جمهورية» (لواياتان، فصل ١٧).

ويرى هوبز أن الناس، في حالة الطبيعة، متساوون تقريباً في القوة، والقدرة الفعلية، والخبرة، ولكل واحد نفس الحق الذي لغيره في كل شيء. فلو كانوا بدون حكومة، لآتى النزاع الناشئ عن شهواتهم وعدم ثقتهم بعضهم ببعض - إلى حالة حرب بين كل إنسان ضد كل إنسان، وفيها لن توجد ملكية، ولا عدل، ولا ظلم، وستكون الحياة «متوحدة، فقيرة، قدرة، متوحشة، وقصيرة». لكن لحسن الحظ فإن الوجدان - على شكل الخوف من الدين والرغبة في حياة سارة طويلة - وكذلك العقل - على شكل معرفة مواد السلام على هيئة قوانين الطبيعة - نقول إن الوجدان والعقل يتضافران لإيجاد أساس مجتمع مدني (سياسي) وللتخلص من النزاع الشامل.

وأول قوانين الطبيعة هو السعي إلى السلام والمحافظة عليه. والثاني - وهو وسيلة ضرورية للقانون الأول - هو أن يريد الإنسان، حين يكون الآخرون يريدون لهذا أيضاً، أن يحصل على الأمن والدفاع عن النفس اللذين يرى أنها ضروريان له، فيتنازل عن حقه في كل شيء، ويقنع بنفس القدر من الحرية تجاه الآخرين، الذي يسمح هو به للآخرين تجاه نفسه هو. وهذا يتم بالتعاقد مع الآخرين... والقانون الثالث للطبيعة هو أن يلتزم الناس بتنفيذ هذا التعاقد. لكن ليكون العقد نافذاً لا بد من وجود سلطة ذات سيادة من شأنها أن تجعل الظلم - وهو انتهاك شروط العقد - أشد ضرراً وأذى من العدل أي المحافظة على تنفيذ العقد. ذلك أن العقود بغير

لهذا اتفقوا على تفويض أمرهم إلى إرادة واحدة تتولى فرض نفسها على الآخرين، أي انتقال حقوق كل فرد إلى فرد واحد. ذلك لأنه إذا تخلى كل فرد - ما عدا واحداً - عن حقوقه الطبيعية، فمن الواضح أن حقوق هؤلاء ستذهب إلى هذا الواحد الذي لم يتخل عن حقوقه. وسيكون هذا الواحد أقوى من الباقي بمجرد تخلي هؤلاء عن حقوقهم. وسيستوى بما يقوم به من أعمال تؤدي إلى تحقيق الأمن والعدل لهؤلاء الآخرين. وهكذا فإن سلطة الحاكم ستقوم على أمرين: تخلي الأفراد عن حقوقهم، والغاية التي من أجلها تخلوا عن حقوقهم وهي السلام والعدل.

فالعقد فيما قد أبرم بين الأفراد وبين فرد (حاكم) وهم في حالة فوضى، وبموجبه تخلي هؤلاء الأفراد عن حقوقهم ليفوضوها إلى شخص يمثلهم ويقبل عنهم أن يتولى تصريف أمورهم بما يكفل لهم الأمن والسلام والاستمتاع.

والشيء المميز لهذا العقد هو أنه بين ثلاثة أطراف: الطرف الأول: متعاقد فردي؛ الطرف الثاني: كل أفراد المجتمع؛ الطرف الثالث: طرف لا يدخل في العقد إلا للاتفاق منه، دون أن يقدم شيئاً في مقابل ذلك وهو الحاكم. وهو عقد من نوع خاص، إذ فيه الحاكم يوافق على شروط العقد، لكن دون أن يلتزم بشيء تجاه الغير.

فهذا العقد، كما تصوره هوبز، يلزم الفرد بالعضوية، الدائمة غير القابلة للفسخ، في مجتمع سياسي مهمته الأولى والوحيدة بمجرد تشكيله هي أن يعين حاكماً (سواء أكان فرداً، أم قلة من الناس، أم جماعة ديمقراطية) له سلطة وضع القوانين، والفصل في المنازعات، وصياغة الأحكام والحقوق والواجبات. وإذا ما عُين الحاكم فعلى المواطن الخضوع له والطاعة المطلقان، في مقابل ما يحققه له الحاكم من حماية ضد مستهكي القوانين وضد أعداء الوطن. وهذا العقد صفقة رابحة للمواطن، لأنه يكفل له الأمن والسلامة في مقابل الموت المحتوم والظلم الذي لا بد سيقع عليه لو أنه استمر يعيش في حالة الطبيعة. وإرادة الحاكم ستكون بمثابة لإرادة المواطن، ولهذا فإن الحاكم يملك كل سلطة لتحقيق إرادته التي هي إرادة كل مواطن.

ولما كان الحاكم ليس «طرفاً» في هذا العقد، فإنه لا يجوز لرعيته مسألتهم عن الطريقة التي بها يؤدي مهمته، ذلك



هي مصلحة الرعية، وما هو خير للملك خير للشعب. والملك ثري، وماجد إذا كانت الرعية ثرية وماجدة، وهو غير ثري ولا ملحد إذا كانت الرعية غير ثرية ولا ماجدة. والمقربون لدى الملك أقل عدداً من أية جمعية نيابية. وهو أقدر على تلقي النصائح في السر من الجمعية النيابية. وقرارات الملك تصدر دون اختلاف في الرأي، فتكون بذلك أشد رسوخاً بعكس الحال في قرارات المجالس النيابية. والانقسام والتحزب والاختلاف شيعاً وأحزاباً لن توجد في الملكية، وكذلك ما ينجم عن هذه الأمور من حروب أهلية.

ويعترف هوبز بأن في النظام الكلي مشكلات تتعلق خصوصاً بوراثنة العرش، لكنه يقول إن من الممكن حلها بتابع إرادة الملك الجالس على العرش أو العرف أو عمود النسب.

تلك آراء هوبز السياسية، وهي آراء لم تلق تأييداً من أية جماعة في عصره. فالبيوريتان كانوا يقولون بحق الشعب في اختيار شكل الحكم الذي يريد، وفي تغييره كما يشاء. وآل استيورت (ملوك إنجلترا آنذاك) ومؤيدوهم كانوا يؤكدون حق الملوك الإلهي، وأن الملكية نظام مستمد من الله، لا من عقد بين رعية وحاكم. وجاءت ثورة سنة ١٦٨٨ - بعد وفاة هوبز بتسع سنوات - فأثبتت أن من الممكن للشعب أن يغير نظام الدولة ودستورها دون العودة إلى الاضطراب الكلي، وأن الحكام يمكن أن يكونوا مسؤولين معنوياً أمام رعاياهم، وأن من الواجب كفالة الحرية الفردية في أمور الدين والرأي والنشر وما سوى ذلك.

### مراجع

- G.C. Robertson: Hobbes, 1886.
- F. Tönnies: Hobbes der Mann und der Denker, 1912.
- Leslie Stephen: Hobbes, 1904.
- R. Hömigswald: Hobbes und die Staatsphilosophie, 1924.
- F. Brandt: Thomas Hobbes mechanical conception of Nature, Engl. transl. 1928.
- Z. Lubienski: Die Grundlagen des ethisch-politischen Systems von Hobbes, 1932.
- J. Laird: Hobbes, 1934.
- J. Vialatoux: La Cité de Hobbes, 1935.
- L. Strauss: The Political Philosophy of Hobbes, 1936.

سيوف هي مجرد كلمات جوفاء لا تضمن شيئاً ولا تؤمن شيئاً.

وهكذا فإن قوانين الطبيعة الأخرى، التابعة للقوانين الثلاثة الأولى هذه، تقتضي ممارسة الاخلاص، وعرفان الجميل، والحشمة والتأدب، والتزاهة والانصاف، والاعتراف بالمساواة الطبيعية، وتجنب الوقاحة والكبرياء والعجرفة.

ويمكن تلخيص نظرية القانون الطبيعي عند هوبز في هذه الجملة أو القانون العام: لا تعامل الناس بما لا تحب أن يعاملوك به.

وفي تقرير العلاقة بين الحاكم والمحكومين، يقرر هوبز أن على المحكومين - ويسمىهم الرعية subjects - أن يطيعوا الحاكم طالما كان قادراً على حمايتهم، إلا إذا أمرهم أن يقتلوا أو يجرحوا أو يتسروا أعضاءهم أو أن يجيبوا على أسئلة تتعلق بجريمة يكونون قد ارتكبوها. وهذه ليست قيوداً تحد من سيادة الحكم، بل هي فقط حريات يحتفظ بها المحكومون تحت قوانين الطبيعة. وفي مذهب هوبز أنه لا يجوز سياسياً ولا قانونياً وضع حدود قانونية على سيادة الحاكم. ولا يوجد مثلاً حق التمرد (أو العصيان)، لأن الحاكم غير ملزم بأي عقد، ما دام هو لم يكن طرفاً في العقد، كما أوضحنا منذ قليل. ولا حقوق قانونية (شرعية) للرعية إلا تلك التي منحهم إياها الحاكم. والحاكم هو المشرع الوحيد، وهو لا يخضع للقانون المدني، وإرادته - وليس العرف - هي التي تعطي القوانين سلطتها ونفوذها.

ومن حق الحاكم أن يراقب كل تعبير عن الرأي، وأن يهب ممتلكات خاصة للأفراد، وأن يحد ما هو خير وما هو شر، ما هو قانوني وما هو غير قانوني، وأن يفصل في كل القضايا والمنازعات، وأن يأمر بالحرب أو بالسلام، وأن يختار الموظفين في الدولة، وأن يمنح المكافآت ويفرض العقوبات، وأن يفصل في جميع المسائل الدينية والأخلاقية، وأن يفرض الأوضاع التي بموجبها ينبغي عبادة الله!

والحكم يتخذ ثلاثة أشكال فقط، في نظر هوبز، هي: الملكية، والارستقراطية، والديمقراطية. أما الأشكال الظاهرية الأخرى فهي، في رأي هوبز، مجرد انعكاسات لمواقف: فمثلاً: إذا كره انسان الملكية سماها: طغياناً tyranny.

وعلى الرغم من أن مذهب هوبز يؤيد أي شكل من أشكال الحكم المطلق، فإنه مع ذلك يفضل الملكية، لأنه يرى أنها أفضل وسيلة لتحقيق السلام والأمان، وأن مصلحة الملك

التاريخ. ومن رأيه أن نظرية التطور يجب أن تقوم على وقائع تجريبية. وفي كتابه الأول عن المنطق ونظرية المعرفة، بعنوان: «نظرية المعرفة» (سنة ١٨٩٦) قام بتحليل نقدي مفصل لطبيعة التفكير، واستنبط نظرية تجمع بين التجريبية والعقلية. ثم اهتم بعد ذلك بدراسة نموّ العقل في عالم الحيوان والانتقال إلى عالم الإنسان، وأودع ثمار آرائه في كتابه: «العقل في تطوره» (سنة ١٩٠١).

وفي كتابه «الأخلاق في تطوره» (سنة ١٩٠٦) كشف عن اطلاع واسع دقيق على معطيات الأنثروبولوجيا، وتاريخ القانون والأخلاق والدين؛ وأقام مذهباً بارزاً في علم الاجتماع.

ويفضل هذين الكتابين عين هوبوس أول أستاذ لعلم الاجتماع في جامعة لندن، كرسي مارتن هويت، وذلك في سنة ١٩٠٧.

ومن سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٢ أصدر هوبوس ثلاثة مؤلفات في السياسة ونظرية الأخلاق.

وفي سنة ١٩٢٤ أصدر كتاباً بعنوان: «التطور (أو: النمو) الاجتماعي» Social Development وفيه لخص جماع آرائه في الاجتماع، وحلل طبيعة التطور (النمو) الاجتماعي والعوامل الفعالة في التقدم أو التخلف، أو الانحلال. ويمكن تلخيص آرائه الرئيسية في التطور الاجتماعي على النحو التالي:

١ - قام بتضييق أنماط المجتمع وأشكال النظم الاجتماعية على أساس استقصاء واسع لمعطيات الأنثروبولوجيا والتاريخ.

٢ - حاول الربط المحكم بين مختلف أوجه التغير الاجتماعي وبين ما يناظرها من التقدم العام للمجتمعات، مستنداً إلى معايير عامة مستخلصة من طبيعة التطور العامة.

٣ - افترض وجود تضافر واسع بين التطور العقلي وبين التطور الاجتماعي.

٤ - قرر أن عملية التطور تتجه بوجه عام في اتجاه نظريته في الخير العقلي. ويقوم هذا الخير في التحقيق المنسجم للامكانيات الانسانية، ومن الواضح أنه لا يمكن أن ينجز إلا بالتعاون الإرادي بين الناس جميعاً. ولهذا فإنه - من الناحية النظرية - هناك غاية مشتركة بين التطور الأخلاقي والتطور

- C. Schmitt: Der Leviathan in der Staatslehre des Thomas Hobbes, 1938.
- J. Bowle: Hobbes and His Critics, 1951.
- R. Polin: Politique et philosophie chez Thomas Hobbes, 1953.
- R. Peters: Hobbes, 1956.
- Howard Warrander: The Political Philosophy of Hobbes, 1957.

## هوبوس

### Leonard Trelawney Hobhouse

فيلسوف اجتماعي انجليزي. ولد في قرية صغيرة قرب Liskeard (في إقليم كورنوال) في سنة ١٨٦٤. وتخرس في جامعة أكسفورد، وعين زميلاً في كلية مرتون في سنة ١٨٨٧، ثم زميلاً في كلية جسد المسيح في سنة ١٨٩٤. ومنذ مطلع حياته اهتم بالحركات السياسية والاجتماعية، حتى صار مسكوتياً لاتحاد النقابات الحر من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩٠٥، وأصدر عدة مؤلفات سياسية منها: «حركة العمال» (سنة ١٨٩٣)، «الديمقراطية والرجعية» (سنة ١٩٠٤) و«الليبرالية» (سنة ١٩١١). ومن سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٠٢ عمل في هيئة تحرير صحيفة «المانشستر جاديان». ومن سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٧ كان المحرر السياسي في جريدة Tribune التي كانت تصدر في لندن. وصار ذا نفوذ بين الأحرار الجنده الذين حاولوا المزج بين الليبرالية وبين درجة من العمل الجماعي المنظم. وكان يتعاطف مع حزب العمال، لكنه لم ينضم إليه. وقرب نهاية حياته غلب عليه اليأس من الحياة الحزبية، ومنذ سنة ١٩٢٧ لم ينضم إلى أي حزب.

وتوفي في سنة ١٩٢٩.

### آراؤه

اهتم هوبوس بدراسة تطور العقل بوصفه العامل الرئيسي في التطور التاريخي، ويتجلى ذلك في كتابه: «العقل في تطوره» (سنة ١٩٠١) و«الأخلاق في تطوره» (سنة ١٩٠٦). ولم يأخذ هوبوس بتطورية هيربرت اسبنسر ودارون القائمة على تنازع البقاء وبقاء الأقدر على التكيف، كما رفض فلسفة هيغل والقول بعقل مطلق يبلغ وعيه الذاتي في عملية

ولد في فيرنسه (إيطاليا) في ٥ مايو سنة ١٨٥٢. لكنه قضى معظم حياته في إنجلترا، وكتب باللغة الإنجليزية. وتوفي في ٢٧ يناير سنة ١٩٢٥ في لندن وهذه كنبه:

- The Mystical Element of Religion as studied in St. Catherine of Genoa and her friends. London, 1908

«العنصر الصوفي للمدين عند كثرينا الجنواية»

- Essays and adresses on the Philosophy of Religion. London 1921, and 1926.

«مقالات وخطب».

- The Reality of God. London, 1931.

«حقيقة الله»: نشر بعد وفاته

بعد فريدرش فون هوجل أهم كاتب ولاهوتي كاثوليكي - بعد نيومن J.H. Newmann في القرنين التاسع عشر والعشرين، باللغة الإنجليزية. وكان على صلة وثيقة بالأوساط الكاثوليكية الأرستقراطية، في إنجلترا، بفضل زواجه من الليدي ماري هيربرت التي تحولت إلى الكاثوليكية.

وعمل في سبيل إيجاد «فلسفة تجسدية» incarnational philosophy، تهدف إلى توكيد أهمية التجربة مع الله مباشرة والاهتمام بما هو عيني بوصف ذلك هو الطريق السليم المؤدي إلى الله. وكان من أنصار حركة التجديد modernisme التي حمل لواءها في فرنسا ألفرد لوازي A.Loisy الذي كان على صلة وثيقة به.

أما من الناحية الفلسفية فقد عارض المثالية، كما عارض الوضعية على أساس أن التجربة الحسية مصحوبة «بضغط قوي على عقولنا» تفرض وجوداً يتعدى الذات، ورفض هذا الضغط سيعني أن تتحول الوضعية إلى الشك، والشك يقضي على نفسه بنفسه. ولما كانت عقولنا هي ما نعيه مباشرة، فإن إدراكنا للحقيقة الواقعية سيكون أكثر يقيناً إذا لم يكن هناك محتوى ظاهري. وأدى هذا الموقف به إلى تبرير التجربة الصوفية وتوكيد أهميتها في المعرفة.

وميز بين معرفة الأفكار المجردة والعلاقات العددية والمكانية من ناحية، وبين معرفة الوجود الحقيقي من ناحية أخرى، وقال إن الأولى واضحة ومفهومة لقرورها، بينما الثانية لا تكون تامة الواضح، لأن أي قول عن موضوع حقيقي لن يستفد كل ما فيه. وكلما كان الوجود أعلى أو أكثر تركيباً، كان وضوح إدراكه أقل. ومن هنا كانت موضوعات الدين

الاجتماعي. وكل مجتمع يتطور، إن لم يكن في استقلال تام، لكن بطريقته الخاصة ويتفق مع خصائصه الذاتية وينابيعه الباطنة للتغير.

أما آراؤه الفلسفية فقد عرضها خصوصاً في كتابه: «التطور والهدف» (سنة ١٩١٣) Development and Purpose، وفيه يبين أن التطور يتم بإطلاق عناصر كانت غير مكرثة، أو في تنازع، بعضها مع بعض، وبإقامة أبنية متفاوتة الدرجات في المرونة والاحكام. والقوة التي وراء التطور (النمو) هي العقل. والعقل ليس هو الوجود الداخلي، بل هو مبدأ النمو المنتظم داخل الوجود. إنه محدود بالمواد التي يعمل فيها، وأهدافه أيضاً تمر بتطورات. ومبدأه الأساسي في التفسير هو «الغائية المشروطة».

#### مؤلفاته

- The Labour Movement, 1893.
- The Theory of Knowledge, 1896.
- Mind in Evolution, 1901.
- Democracy and Reaction, 1904.
- Morals in Evolution, 1906
- Liberalism, 1911
- Social Evolution and Political Theory, 1911.
- Development and Purpose, 1913.
- The Metaphysical Theory of the State. A Criticism, 1918.
- The Rational Good: A study in the Logic of Practice, 1921.
- The Elements of Social Justice, 1922.
- Social Development: Its Nature and Conditions 1924.

#### مراجع

- J.A.Hobron and Morris Ginsberg: L.T.Hobhouse, His Life and work, with selected Essays and Articles. London, Allen and Unwin, 1931.

#### هوجل

##### Baron Friedrich von Hügel

مفكر كاثوليكي له مؤلفات في فلسفة الدين والتصوف المسيحي، غساوي.

. Josophy and Social Science

وتتجلى في أبحاث تلاميذه رفضهم الفصل بين التحقيق التجريبي وبين النقد الاجتماعي والايديولوجي.

وفي كتاب «ديالكتيك التنوير» (وقد كتبه بالاشتراك مع أدورنو) أبرز التناقض بين النزعة العقلية التكنيكية الآلية، التي تهيمن على المجتمعات الصناعية وبين اللامعقولية العامة لظواهرها. وقد أكد هذا المعنى مرة أخرى في كتابه: «نقد العقل الآلي» (سنة ١٩٦٧) Kritik der instrumentalen Vernunft.

وقد جمع Alfred Schmidt مقالات هوركهايمر ونشرها في سنة ١٩٦٩ تحت عنوان: «النظرية النقدية» Kritische Theorie.

## هوزنجا

### Johan Huizinga

مؤرخ للحضارة هولندي.

ولد في ٧ ديسمبر سنة ١٨٧٢ في خروتنج Groningen (شمال هولندا). ودرس في هذه المدينة وفي ليبسك الفيلولوجيا واللغة السنسكريتية والتاريخ. وفي سنة ١٨٩٧ حصل على الدكتوراه الأولى برسالة عن «فيلوسوكا في المسرح الهندي». وعمل بعد ذلك مدرساً للتاريخ في هارلم وحصل على دكتوراه التأهيل للتدريس في سنة ١٩٠٣ من جامعة امستردام برسالة في تاريخ الحضارة والأدب الهندي القديم وصار في الفترة من ١٩٠٥-١٩١٥ أستاذاً للتاريخ في جامعة خروتنجن، ثم أستاذاً في جامعة ليدن في سنة ١٩١٥ حيث استمر فيها حتى اغلاقها في سنة ١٩٤٢ بقرار من سلطات الاحتلال الألماني. وسُجن، وظل ثلاثة أشهر معتقلاً في معسكر سان ميكيل (بالقرب من هرتوجنبوش) ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في مقاطعة خلدلند، وتوفي في دي ستيج De Steeg في أول فبراير سنة ١٩٤٥.

وكان في مطلع شبابه مهتماً بالفن، وخصوصاً الرسم، والشعر، ويرى أفضلية الفن على العلم، وامتياز حياة الباطن والحضارة الشخصية. ثم رأى أن «التعمق في التاريخ هو شكل من أشكال الاستمتاع بالعالم والاستغراق في تأمله». فأنتمه إلى تاريخ الحضارة. وتأثر خصوصاً ببعقوب بوركهوت وفنلنبد وركرت.

غامضة؛ والغموض دليل على ثراء محتواها. ومن هنا قال إن الدين لا يمكن أن يكون واضحاً إذا كان له أن يكون ديناً حقاً.

وفكرة اللامتاهي تلعب دوراً بارزاً في تأملاته. وهو لا يشك في صحة إدراك الانسان للامتاهي، ويرى أن إدراك اللامتاهي ممكن تماماً مثل المدركات الحسية.

ويرفض الفصل بين الجوانب العاطفية والإرادية، وبين الجوانب المعرفية في التجربة.

وحارب نزعة كيركجور إلى الفصل التام بين الله والانسان، لأن ذلك يعني امتناع الاتصال بينهما، كما حارب النزعات الواحدية لدى بعض الصوفية.

## مراجع

- L.V. Lester - Garland: The Religious Philosophy of Baron Friedrich von Hügel. London, 1938.

- Maurice Nedoncelle: La pensée religieuse de F. von Hügel. Paris, 1935

## هوركهيمر

### Max Horkheimer

أحد مؤسسي مدرسة فرانكفورت في الدراسات الاجتماعية.

ولد في سنة ١٨٩٥، وتوفي في ٧ يوليو سنة ١٩٧٣ في نورنبرج (ألمانيا). وكان أستاذاً في جامعة فرانكفورت، ورئيساً لها من سنة ١٩٥١ حتى سنة ١٩٥٣. وقد أسس، مع تيودور ف. أ دورنو (المتوفي سنة ١٩٦٩) في مدينة فرانكفورت، معهداً للبحث الاجتماعي، في سنة ١٩٣٠. واتجاه هذا المعهد هو ما سموه باسم «النظرية التقدمية». ويقوم على تجديد تحليلات كارل ماركس وفرويد، على ضوء نقد أخلاقي يستلهم مذهب كنت الأخلاقي.

واضطر إلى مغادرة ألمانيا، فهاجر إلى جنيف وباريس ونيويورك، واستمر في نشر «مجلة للبحث الاجتماعي» Zeitschrift für soziale Forschung، وفي الاشراف على نشر «دراسات في الفلسفة والعلم الاجتماعي» Studies in Phi-

- De Wetenschap der geschiedenis. Haarlem, 1937.  
«الانسان لاعباً»
- Homo ludens. Haarlem, 1938.  
ومن كتبه التي كتبها بالألمانية:
- Wege der Kulturgeschichte. München, 1930.
- Höllandische Kultur des 17. Jahrhunderts. Jena, 1933.
- Der Mensch und die Kultur. Stockholm, 1938.

## مراجع

- von Valkenburg: J. Huizinga: Zijn leven en Zijn persoonlijkheid. Amsterdam, 1946.  
(هورنجا: حياته وشخصيته)
- Werner Kaegi: Das historische Werk J. Huizinga's. Leiden, 1947.

## هوكنج

## William Ernest Hocking

مفكر أمريكي فونزعة دينية أخلاقية.

ولد في كليفلند Cleveland (الولايات المتحدة الأمريكية) في ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٣، وكان أبوه طبيباً من أصل كندي. وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفرد في سنة ١٩٠٤، وبعدها قام بالتدريس في المعهد الديني في أنلوفر ابتداء من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٠٦، ثم صار أستاذاً في جامعة كاليفورنيا من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٨؛ وفي سنة ١٩٠٨ صار أستاذاً في قسم الفلسفة بجامعة ييل Yale. وفي سنة ١٩١٤ عين أستاذاً للفلسفة في جامعة هارفرد، واستمر في هذا المنصب إلى حين تقاعده في سنة ١٩٤٣.

يقول هوكنج عن نفسه إن فكره الفلسفي مزيج من الواقعية والتصوف والمثالية؛ لكنه مع ذلك فكر موحد. وبعد حصوله على الدكتوراه من هارفرد، استمر يتابع الدراسة في جامعات: جتجن، وبرلين، وهيلبرج في ألمانيا. ودعي لالقاء محاضرات في أكسفورد وكمبرج، وفي كلية القانون في لندن (هولته).

ولما كان قد درس الهندسة، فإنه صار معلماً للهندسة العسكرية في هارفرد خلال الحرب العالمية الأولى. وفي سنة

وكتابه الرئيسي هو «خريف العصر الوسيط» (سنة ١٩١٩) الذي صار من أكثر الكتب في موضوعه انتشاراً. ففيه يدرس أشكال الحياة في القرن الخامس عشر في فرنسا وبورجونيا، واستند فيه خصوصاً إلى مصادر يغفل عنها المؤرخ العادي. وقد أراد بهذا الكتاب أن يقدم عن نهاية العصر الوسيط صورة مماثلة لتلك التي قدمها يعقوب بوركهردت عن عصر النهضة في إيطاليا. لكن الكتاب نشأ عن اهتمام هورنجا بفن فان ايك van Eyck ومعاصريه من كبار الرسامين الهولنديين.

وبعد دراسات عديدة (في سنة ١٩٢٠، وسنة ١٩١٢) لتاريخ عصر النهضة، نشر كتابه: «مهمة تاريخ الحضارة» في سنة ١٩٢٩. دعا فيه إلى ادراج القانون والفلسفة وتاريخ الموسيقى والأدب والفنون الجميلة تحت باب التاريخ. كذلك دعا المؤرخين إلى الاستفادة من مناهج علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

وفي كتابه «الانسان لاعباً» Homo ludens دراسة لعصر «اللعبة» في الحضارات: الغربية، والشرقية والبدائية، والقديمة والحديثة. وقد درس كل أنواع اللعبة: ابتداء من ألعاب الأطفال حتى ديالكتيك الفلسفة والمحاكم. ويربط بين اللعبة والحضارة الزمانية والمكانية التي يظهر فيها. لكن في الكتاب من الأسهاب والتشتت والمبالغة ما جعله هدفاً للنقد.

ومن بين الموضوعات الأخرى التي كتب فيها: الوطنية والقومية؛ أمريكا وميكنة الحضارة؛ انهيار الحضارة في الوقت الحاضر بوصفه ظاهرة روحية. لكن دراساته عن القوميات الحديثة تتسم بالنظرة الذاتية.

## مؤلفاته

نشر مجموع مؤلفاته في ٩ مجلدات في هارلم سنة ١٩٤٨ - ١٩٥٣

وتذكر من بين كتبه التي كتبها بالهولندية:

- «الانسان والجمهور في أمريكا»  
- Mensch en Menigte in Amerika. Haarlem, 1918
- «ارزمنس»  
- Erasmus. Haarlem, 1924

«في ظلال الغد»

- In de Schaduwen van Morgen. Haarlem, 1935

«علم التاريخ»

طابعها الأوسع يمكن أن تكشف عن كونها ديبالكتيكاً ديكارتياً للوجدانات Passions. كيف يحدث ذلك؟ لا أستطيع ها هنا إلا أن أبدي اقتراحات موجزة... بنفس المعنى الذي به يمكن أقصى القانون summa jus أن يصير أقصى الظلم summa injuria، فإن أوج الحضارة هو الحالة التي فيها يصير اليأس من أسعى الآمال يعني أعمق الضياع. إن اللحظة التي تتحقق فيها أعظم سيطرة على الطبيعة وامتلاك للأسرار النهائية والقوى القصوى، وأتم عجائب العلم، والآلة - التي يبدو - أنها - تفكر - هذه اللحظة هي في الوقت نفسه لحظة أشع خواء للروح، وأشيع خيانات للحساسية الانسانية: أقصى العقل هو أقصى الفساد Summa ratio summa corruptio.

إن ضياع الانسان المعاصر ليس هو الضياع الذي ابهظ كاهل كيركجور: إنه ليس الفزع من جحيم لا تفنى هو الذي يرهقنا. ولكن مصدر اليأس اليوم له موضوع مضاد لهذا: إنه ليس الامكانيات اللعينة لعالم آخر، بل الخطر المائل أمامنا في أن ما نشاهده في هذا العالم يمكن أن يكون هو كل ما لدينا أن نشاهده! إن ما نراه هو أن الحد من لحظة - إلى - لحظة لوجودنا، والعدم الذي يتم نفسه في الموت، موتنا نحن وموت الجنس البشري: في مثل هذا العالم، الحافل بالألغاز المحيرة والأحداث المليئة بالرعب - كيف يمكن لموجود متطلع ولا متناه أن يكون إلا بمقضيأ عليه باليأس والاحباط؟ لكننا نقضي علينا مع ذلك بالاندماج والعمل بوصفنا أناساً: فهل هذا ممكن؟

من أجل البحث عما، وكيف، يمكن هذه الصورة القائمة للعالم أن تدعو إلى أية حماسة للعدالة، على النحو الوحيد القادر على انقاذ عالم التكنولوجيا - وعما إذا كان من الواجب أن يحل محل نظام من الأسرار order of mystery، على حد تعبير (جبريل) مارسل، أقرب إلى الحق من نظام الطبيعة - أقول من أجل هذا البحث ينبغي أن يكون البحث الميتافيزيقي ذا أولوية على غيره من الأبحاث.

إن اليأس من العالم يبدأ بإدانة العالم على أساس وجود الألم وانعدام المعنى والعشوائية والخلو من العدل، مما يجعل فكرة العدالة العالمية كريمة. وشوبنهاور يشغل بالألم وحده، لا بأي مسألة تتعلق بالعدالة؛ ووجد أن الألم قرين لحياة الارادة لا يتفصل عنها، أدان العالم بأنه نتاج الارادة. وكان علاجه بسيطاً: اعكس إرادة الحياة، وهكذا لا تخلق العالم!

١٩٤٨ قام بالتدريس في ميونخ وارلنجن (بالمانيا) بتكليف من مكتب الحكومة العسكرية الأمريكية التي تولت إدارة ألمانيا بعد هزيمتها واحتلالها من قبل أمريكا وحلفائها.

وكان أول إنتاج فلسفي له كتابه بعنوان: «معنى الله في التجربة الانسانية» (سنة ١٩١٢). وفيه يهاجم النزعة والهووحدية، solipsism، التي تجعل الذات أحداً مفرداً. وقال بدلاً من ذلك بأن لدينا الشعور بأن الذات عضو في جماعة وليست قائمة بذاتها وحدها. إن التجربة الانسانية - في نظره - هي تجربة بين ذوات انسانية intersubjectivity. وقد ظن أنه بهذا القول قد تغلب على مشكلة الانشقاق بين التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي.

ونقطة الابتداء في تفكيره هي القول بأن للكون معنى؛ وإنكار هذا، كما يفعل العلميون، يعني التخلي عن كل حق في أن يكون المرء فيلسوفاً. إن هوكنج يرى أنه لا توجد وقائع غليظة brute facts، بل لكل شيء معنى أو قيمة. صحيح أن المعنى قد لا يكون دائماً واضحاً. لكن التجربة تدلنا، مع ذلك، على أننا لو وصعنا مجال رؤيتنا للأشياء، كما يعاوننا على ذلك: الشاعر والصوفي، إذن لا نبشقت أمامنا قيم لم نلتفت إليها من قبل.

وأن يجد المرء للكون معنى هو أن نراه أنه ذات. ولهذا فإن بصيرة الصوفي تحملنا إلى الاقتراب من الحقيقة أكثر مما يستطيع ذلك منطق المثالي المطلق. والذات هي في نظره «قيمة»؛ ولهذا فإن العلم عاجز عن تفسير الذات، وإن فعل شيئاً من ذلك فعل نحو سطحي جداً. وهكذا يكشف الميتافيزيقي عن القيم التي يغفل عنها العلم.

وفيما يتصل بالحياة، يقول هوكنج «إن المعنى الآسيان للحياة» الذي يتحدث عنه أونامونو، والذي تشهد عليه الفلسفة الوجودية، ينبغي ألا ينظر إليه على أنه نظرة بديلة للسرور الأساسي بالحياة: فكلا النظرتين صائبة. إن الجانب الآسيان في وجودنا هو إعداد ضروري للأمان الوجداني والحرية. ومن المهم جداً للفلسفة في العصر الحاضر أن تأخذ على عاتقها هذه المسألة بكل مقاسها؛ وإلا لما كان لديها ما تقوله للإنسانية. إن على الفلسفة أن تسلك سبيل الشك وعليها أن تفعل ذلك بإيمان مماثل - أو على الأقل بأمل مماثل - في أن يكون طريق الشك حين يبلغ مداه مصباحاً يلقي الضوء على الكشف الديالكتيكي عن اليقين. إن الحركة الوجودية في



وهذا الإدراك متضمن في تجربة اليأس. إن اليأس اقرار بأنه سبقه أمل؛ لكن لما كان يرفض أن ينظر إلى العالم «واقعيًا» على أنه واقعة مئة، فإنه يبقى على شبح هذا الأمل: إن اليأس *désespoir* ينطوي على «الرجاء» *espoir*. وإذا كان المرء يأمل، فذلك بسبب وجود قيمة فيما يؤمل فيه. كذلك لا يمكن المرء أن يأمل إلا إذا كان يحب. وهكذا يوجد في اليأس نفسه اقرار بالمحبة، التي تسند طبيعة الوجود - بوصفه - معاشاً. «أنا أشك، إذن أنا أفكر، إذن أنا موجود»، فلتقل الآن: «أنا أياأس، إذن أنا أمل، إذن أنا موجود بوصفي أحب». «تعليقة على اليأس»، مقالة في مجلة «الفلسفة والبحث الفينومينولوجي»، نشرها بعد ذلك ضميمة إلى كتاب: «هذه فلسفتي»، بإشراف Whit Burnett، لندن، سنة ١٩٥٨ ص ٣٠٤ - ٣٠٦.

#### مؤلفاته

- The Meaning of God. New Haven, 1912.
- Human Nature and its Remaking, New Haven, 1923.
- The Self: Its Body and Freedom, New Haven, 1928.
- Types of Philosophy. New York, 1929.
- Living Religions and a World Faith, New York, 1940.
- Science and the Idea of God. Chapel Hill, N.C., 1944.

#### هول

#### William Whewell

باحث في علم المناهج العلمية.

ولد في لانكستر سنة ١٧٩٤، وتوفي في سنة ١٨٦٦.

قضى معظم حياته في كلية الثالوث في جامعة كامبردج طالباً وزميلًا ومدرّساً، وأستاذًا في سنة ١٨٤١ حتى وفاته. ألف في العلوم («ميكانيكا اقليدس»، كامبردج سنة ١٨٣٧؛ «الفلك والفزياء العامة»، لندن ١٨٣٣؛ «كثرة العوالم»، لندن سنة ١٨٥٣)، كما ألف في الفلسفة الخلقية («عناصر الأخلاقية»، بما فيها الأدب» في مجلدين، لندن سنة ١٨٤٥؛ «محاضرات في الأخلاقية المنظمة»، لندن، سنة ١٨٤٦؛ «محاضرات في تاريخ الفلسفة الخلقية في إنجلترا»، لندن سنة ١٨٥٢)؛ وكتب في التربية («مبادئ»

والوجودية ترفض حسب الألم بوصفه حاسماً، كما ترفض العلاج بالتوقف عن الخلق، أو بأي شكل من أشكال الفرار من العالم. وسارتر يجد محققاً - وليس علاجاً - في سكرة (بوفوريا) الحرية التي تبني ذاتها، متغلباً على شكل التزعة الطبيعية القائمة على تسلسل العلة والمعلولات، الذي وفقاً له وعن طريق علم الانسان يجب أن نرى أنفسنا نتاجات للطبيعة: إن الانسان ليس نتاج شيء سابق - طبيعة كان أو مجتمعاً أو إلهاً - بل الانسان يصنع نفسه ويختار قيمه الخاصة به. وهذا الرفض لتصور الانسان كأنه يتعين بواسطة الطبيعة هو رفض في محله وصحيح تقريباً: إن الحرية الانسانية تتضمن هذه القدرة على تغيير التاريخ وتشكيل المصير. لكن الطيطانية Titanism (= الماردية) بوصف أنها جهد متوتر متواصل ليست عزاءً، ولا خريمة كلية: كما أنها لا تواجه مشكلة اليأس من العالم. والحل إنما يقوم في الفحص الأدق عن طبيعة الألم.

لو لم يكن هناك سعي وكفاح، لكان الألم قد تضاءل كثيراً. ولو كان الكفاح الإنساني أبدياً، فلا بد أن ذلك لكون حدوث الكفاح جزءاً لا يتجزأ من الاستمتاع بالحياة. إن ألم الفنان، وألم كل العاملين المبدعين، إنما يوجد بسبب الكمال الذي ينشده الانسان ويتألم من عجزه عن تحقيقه؛ ويمكن القضاء عليه فوراً بمجرد رفض هذا التطلع. لكن هذا التطلع vision، وليس هناك ضرورة بيولوجية له، هو هبة من الآلهة والغاؤه سيكون معناه إلقاء ما تعنيه الحياة لنا الآن. اننا نفضل دفع ثمنه، وثمنه هو قبول الألم.

وبعبارة أخرى، طريقة الانسان في الوجود يدخل في عناصرها امتصاص الألم، بل أكثر من هذا، نشدان الألم. وكل تيقظ للعقل على المحبة، شأنه شأن كل تفتح للعيون على الجمال، تشتمل على هذا - لا أقول: هذه المقارعة - بل أقول مع مارسل: على هذا السر؛ لأن موهبة المحبة تمارس سلطناً على متلقي الموهبة؛ إنه يبحث عن الفرصة ليخدم *serve* ما لا يستطيع أن يستحقه *deserve*. وينتج عن هذا أن «أحسن العوالم الممكنة» لا يمكن أن يقوم في مجموعة من «الخيرات»: إن المحبة من أجل المحبة (المحبة للمحبة) ينبغي أن يمكنها العالم الباقي من أن تسمى «الفرصة للألم». وفضلاً عن ذلك، فإن الإدراكات للمحبة والجمال مع تعطشها إلى الألم هما في الوقت نفسه إدراكات لطبيعة «الواقع»: إنها اللوامع التجريبية للتنفيذ إلى سر «السر الانطولوجي». إذ مهما تكن فكرتنا عن العالم، فإننا نعلم أنه عالم يمكن فيه أن نحب ونحب.



## مراجع

- I. Todhunter: William Whewell. An account of His Writings, With Selections from his literary and Scientific Correspondance, 2 vols. London, 1878
- M. R. Stoll: Whewell's Philosophy of Induction. Lancaster, 1929.
- Robert Blanché: Le Rationalisme de Whewell. Paris, 1935.
- Silvestro Marcucci: L'«idealismo» scientifico di William Whewell. Pisa e Cuneo, 1963.

## الهوية

Identité (F.), Identity (E.), Identität (G.), Identità (I)

١ - تطلق « الهوية » أولاً على العلاقة الفكرية التي ترفع كثرة المعاني في الموضوع فتردها إلى الوحدة في الإشارة . فمثلاً « أ في هوية مع ب » معناها أنه : على الرغم من الاختلاف في التعبير بين أ و ب فإن المقصود بهما شيء واحد .

فالهوية هي ما يجعل شيئاً ما متشابهاً تماماً مع شيء آخر . والفهم ، بوجه عام ، يقوم في « تهوية » معرفة جديدة مع ما كنا نعرفه من قبل . وقد رأى اميل مايرسون في رد كل معارفنا عن الكون إلى الهوية المثل الأعلى للعلم (راجع كتابه : « الهوية والواقع » ، مقالة : « فكرة ما هو في هوية » المنشور في مجلة « الأبحاث الفلسفية » . Rech. Philos. سنة ١٩٣٣/١٩٣٤ ص ١ - ١٧ ) .

٢ - وفي المنطق والرياضيات تدل الهوية على علاقة بين شيئين ( أو كميئين ) كل طرفٍ فيها يقوم برأسه . ويستخدم للدلالة على هذه العلاقة العلامة ( = ) هكذا : س = ص ( وتقرأ : س في هوية مع ص ) .

٣ - وفي علم النفس تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بوحدة ذات الطفل ، أو الشاب ، أو الرجل ، أو الشيخ ، رغم اختلاف أطواره وما يقوم به من أحوار .

٤ - وفي علم الاجتماع : تثار مشكلة الهوية فيما يتعلق بهوية الشخص في الإطار الاجتماعي ، بأن يشعر بالهوية مع

التعليم الجامعي الانجليزي ، لندن سنة ١٨٣٧ ؛ « التعليم الحر » ، لندن ، سنة ١٨٤٥ ) .

لكن أهم مؤلفاته وأصححها حجماً أيضاً كتابه : « تاريخ العلوم الاستقرائية : من أقدم الأزمنة حتى الزمان الحاضر » ( ٣ مجلدات ، لندن سنة ١٨٣٧ ) ؛ ويتلوه « فلسفة العلوم الاستقرائية ، مؤسسة على تاريخها » ( لندن سنة ١٨٤٠ ) ، وقد نقحه وتوسع فيه في الطبعة الثالثة ونشره في ثلاثة أجزاء بعنوانات مختلفة هي : « تاريخ الأفكار العلمية » ( في جزئين ، لندن سنة ١٨٥٨ ) ، « الأورغانون الجديد مجدداً » ( لندن سنة ١٨٥٨ ) ، « في فلسفة الكشف » ( لندن ، سنة ١٨٦٠ ) .

اهتم هوول بوضع نظرية في الاستقراء مستمدة من تاريخ العلوم التي اتفق العلماء على وصفها بالاستقرائية . فانتهى إلى أن تاريخ الاستقراء يدل على أن الاستقراء الذي يقوم به العالم ليس برهاناً يصدق بقوة صورته vi forma ، بل هو طريقة أخرى للوصول إلى الحقيقة : إنه مسلك مغامر يتخذ العقل وفيه يصنع صنيع من يحاول حل لغز : فيجرب ويحاول عدة فروض ، إلى أن يقع ، بحسن صائب happy guess على الفكرة الصائبة . فليست المسألة إذن مسألة ما هي الشروط التي بها يكون هذا المسلك صحيحاً - وهو لا يمكن أن يكون صحيحاً أبداً - بل فقط ما إذا كانت النتيجة سليمة . والعناية والتدقيق إنما يتعلقان بالرقابة التجريبية على القضية الاستقرائية ، لا بصياغتها ، مما يسمح للخيال بمجال واسع . ولا فائدة من وضع « منطق استقرائي » مناظر ومماثل « للمنطق الاستنباطي » ، وصياغة قواعد Canons للاستقراء مناظرة لقواعد القياس . وواضح من هذا أنه يهاجم قواعد جون استورت مل للاستقراء .

ومن ناحية أخرى لا يقوم الاستقراء في تعميم الوقائع الملاحظة ، بل يقوم في الربط بينها برباط عقلي من تصور جديد . والعتور على هذا التصور الجديد يحتاج إلى مبادرة العبقرية . أما التعميم فيأتي بعد ذلك ، والكشف الحاسم هو صنع الفكرة . ومتى ما علمتنا هذه الفكرة كيف نقرأ التجربة ، فإنها تندرج في التجربة . إن الحقائق نفسها قد تكونت بواسطة الأفكار ، وما نعدده حقائق ( أو وقائع facts ) اليوم كان فروضاً بالأمس ؛ إن وقائعنا ما هي إلا نظريات قد تحققت .

Oxford, 1967.

- E. Meyerson: Identité et réalité. Paris, Alcan, 1907.

- E. de Ferri: la filosofia dell' identità di F. Schelling fino al 1802 e i suoi rapporti storici. Torino, 1925.

## هيجل

### Georg Wilhelm Friedrich Hegel

#### حياته

نشأ هيجل من أسرة ترجع إلى أصول نمسوية ، رأسها كان من أولئك الذين أخلصوا للذهب « لوتر » في الإصلاح الديني ، فاضطر إلى مغادرة مقاطعة إستريا في النمسا في القرن السادس عشر ولجأ إلى مقاطعة « فورتمبورج » وهنا احتلت الأسرة مراكز مدنية ودينية . فكان منها القساوسة ، ومنهم من قام سنة ١٧٥٩ بتعميد الشاعر الألماني المعروف فريدرش شلر . أما أبو هيجل فقد استقر في عاصمة الولاية ، اشتجرت ، حيث كان موظفا في إدارة الولاية .

وهنا في اشتجرت ولد هيجل في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ ، وهنا أقام حتى سنة ١٧٨٧ وفي أثناءها تعلم في مدارسها الثانوية في المدة من سنة ١٧٧٧ حتى سنة ١٧٨٧ وفي سنة ١٧٨٨ دخل معهد « توننجن » الديني وهذا المعهد كان معهداً بروستنتياً لتخريج القساوسة الإنجيليين . أما الفترة التي قضها في اشتجرت فلم يكن فيها أمر فو بال فيما عدا فقدان أمه سنة ١٧٨٧ التي ظل يذكرها حتى نهاية عمره كما كان في أثناء دراسته في « اشتجرت » تلميذاً مجداً نموذجياً ممتازاً بين أقرانه ، لكن من حيث الخطابة كان متخلفاً فلم يكن على حد تعبير مدرسيه خطيباً مبرزاً . وقد بقي لدينا من حياته الأولى يومياته التي أخذ في كتابتها من سنة ١٧٨٥ - سنة ١٧٨٧ وقد نشرها روز نكرانتس في كتاب بعنوان « حياة هيجل » ( ص ٤٣١ - ٤٦١ ) وهذه اليوميات عبارة عن سلسلة من النقاط فيها سرد تسلسل حياته وخواطره عن قراءاته ، ويذكر فيها تأثيره بأستاذه ليفلر Laffler الذي نظر إليه هيجل على أنه ممتاز من حيث المذهب والخلق .

كذلك نجده في هذه الفترة يعكف على الدراسات الكلاسيكية ، ومن بين ما قام به أن ترجم وهو في هذه السن المبكرة « متن الأخلاق » لأيكستاتوس كما ترجم رسالة

أشخاص المجتمع الذي يعيش وينمو فيه ، وهو ما يسميه جورج ميد G. Mead باسم « تعميم الغير » generalized other واندماج الذات فيه .

٥ - وفي نظرية المعرفة مبدأ الهوية ، إلى جانب مبدأ (عدم) التناقض والثالث المرفوع هي القوانين الضرورية للفكر المنطقي ، ولا يكون الفكر سليماً من الناحية المنطقية إلا إذا التزم بها . وصيغته هي : « ما هو - هو » . وقد نقده لوك على أساس أنه تحصيل حاصل وخاو من المعنى ( وبحث في العقل الانساني ) لندن ط ٢ سنة ١٦٩٤ ، ق ٤ ٢٧٢ بند ٤ ، ١٠ الخ ) . وعلى العكس من ذلك يعزو لبيتس إلى هذا المبدأ قيمة كبيرة في المعرفة فقال عنه إنه مبدأ الحقائق السرمدية ( لبيتس : « مقالات جديدة » ق ٤ : ٢ ) . ويقول عنه فولف إنه مبدأ اليقين .

٦ - وفي الميتافيزيقا نجد أن شلنج جعل من الهوية المطلقة جوهر العقل وماهيته ، وتبعاً لذلك رأى أن الفلسفة لا يمكنها التخلص من المشاكل العويصة التي تردى فيها إلا بالرجوع إلى مبدأ الهوية . وذلك لأن جوهر الأشياء الأعمى هو الواحد . والكل الواحد يقوم في المعرفة وفي المعرفة الذاتية على وجه أدق . وخارجها لا يوجد شيء قابل لأن يعرف . ولهذا يتهدى إلى القول بأن العقل Vernunft هو والهوية المطلقة شيء واحد . والهوية المطلقة ليست فقط ماهيته ، بل هي صورته وقانونه . إن المطلق واحدٌ أخذٌ ، ماهية واحدة هي هي عينها .

والهوية هي الضروري مطلقاً ، ويقابلها : المستحيل مطلقاً . إنها تقوم في الوحدة المطلقة . بين الذاتي والموضوعي .

( راجع تفصيل ذلك في كتابنا : « المثالية الألمانية » ص ٣٢٨ وما يليها ، ط ١ القاهرة سنة ١٩٦٥ ) .

#### مراجع

- M. Heidegger: Identität und Differenz, 1957.

- R. Gödel: Die lehre von der Identität in der logikwissenschaft seit Lotze, 1935.

- W. V. O. Quine: «Identity, ostension, and hypostasis», in: From a logical point of view. Cambridge, Mass., 1953

- D. Wiggins: Identity and spatio - temporal continuity.

هيجل لم يكن شديد الحماسة مثل هؤلاء ، بل كان أكثر اتزاناً منهم حتى كان ينعت بينهم بالشيخ العجوز . لكن هذا كان نتيجة الميل السابق لديه للتفكير وعدم الحماسة الطاغية المفتعلة ، لكنه من الناحية الفكرية ، أي ، من ناحية الآمال التي اختلجت في نفسه هو وزملائه بقصد تمجيد الإنسانية وعبادة العقل ورفع الإنسان مكانة عالية ، كل هذا شارك فيه هيجل زملاء هؤلاء ، وإن كانت حماسه الظاهرة أقل منهم نتيجة لاختلاف طبعه عن هؤلاء .

ولدينا رسالة كتبها شلنج إلى هيجل تبين اتساق أخلاقهم ( هيجل وشلنج وهيلدرن ) قال شلنج : « إن الشعر سيصل إلى الدرجة التي يرى فيها الإنسانية ، لأنه لن تكون ثمة فلسفة ولا تاريخ بل الشعر وحده هو الذي سيعيش بعد وفاة سائر العلوم والفنون ، إننا في حاجة إلى « ميثولوجيا » جديدة ، لكن هذه الميثولوجيا ينبغي أن تكون في خدمة العقل ، وطالما لم نحول الأفكار إلى أعمال فنية ، أي إلى أساطير ، فإن هذه الأفكار لن تكون لها أية فائدة بالنسبة للشعب ، وأصحاب الكشف ينبغي عليهم أن يصفح بعضهم بعضاً ، والميثولوجيا ينبغي أن تصبح فلسفة ، والشعر ينبغي أن يكون ذا نزعة عقلية شعرية ، والفلسفة ينبغي أن تأخذ طابع الميثولوجيا ، ابتغاء أن تجعل الفلاسفة حاضرين في العالم الحسي . هنالك تسود وحدة سرمدية فيما بيننا ؛ وهنالك لن يزدي الشعب حكماً ولا كهنته ، ولأول مرة نستطيع أن نصل إلى النمو المتساوي لكل القوى ولكل فرد ولكل الأفراد . ولن تُكَبِّت أية قوة . وهنالك ستسود الحرية والمساواة بين العقول ، إن روحاً عالية مبعوثه من السماء ينبغي أن تتبنى هذا الدين الجديد ، الذي سيكون آخر أعمال الإنسانية » ( وثائق . . . من ٢٢٠ - ٢٢١ ) .

ولئن كان هيجل لم يرد على صاحبه المتحمس فإنه لم يكن أقل منه إيماناً بالعقل الذي ألهمه رويسير أما أساتفته في هذا المعهد فهم وإن هاجموا كنت فإنهم تأثروا به مع ذلك . ومن هنا أثروا في هيجل فجعلوه يعني بكننت وهيوم مما جعل هيجل يتعد شيئاً فشيئاً عن النزعة الدجاطيقية السائدة لدى أساتذته .

ولدينا . من هذه الفترة بعض ما كتبه هيجل ، وقد نشر جزءاً منه روزنكرتس في كتابه المذكور آنفاً ، ثم نشره كاملاً أحد كبار المختصين بهيجل وهو نول Nohl في كتابه « مؤلفات هيجل الدينية في شبابه » وقد ظهر سنة ١٩٠٧ .

لونجينوس . وبعض فصول المؤرخ نوكلديس وسرحيات سوفوكليس ويوريفيدس ، وقد ظل شديد الإعجاب بمسرح « سوفوكليس » حتى آخر عمره . وكان لهذا التكوين الكلاسيكي أثره البالغ في اتجاهات هيجل وفيما كتبه بعد عن علم الجمال ، فكشف عن معرفة وثيقة بالتراث الكلاسيكي وفي نفس الوقت أي في العشرين سنة الأولى من حياته ، كانت الحركة التنويرية قد بلغت أوجها ، وأخلت السبيل أمامها لحركة جديدة هي حركة العاصفة والاندفاع Sturm und Drang التي مهدت بدورها لقيام بحركة الرومانتيكية والثورة . وهكذا تجاذبت هيجل الشاب نزعتان متعارضتان : نزعة التنوير العقلية الخالصة ، ثم نزعة الثورة التي هي خليط من الصوفية والنزعة إلى الأسرار مما يتمثل في الحركة الرومانتيكية . وهنا نجده يتأثر بزعماء التنوير والعاصفة والاندفاع فتأثر من أصحاب نزعة التنوير بنقولاي Nicolai ولسنج Lessing وزولتز Sutz وفي أكتوبر سنة ١٧٨٧ دخل معهد توبنجن Tübingen وهذا المعهد مدة الدراسة فيه خمس سنوات ، فحظي هيجل بأساتذة ممتازين ، تركوا في تكوينه الفكري أكبر الأثر ، ولكن أكبر أثر هو الذي تركه فيه زميلان في الدراسة أولهما الشاعر الممتاز هيلدرن أكبر شعراء الحركة الرومانتيكية بعامه ، والألمانية بخاصة ، وكان شديد الحماسة للمثل الأعلى اليوناني والثقافة اليونانية ، عبر عن ذلك في قصائده الفريدة خصوصاً قصيدة « خبز وخمر » ثم في روايته « هيريون » « وأبناؤقليس » . فعلاً هيجل حماسة للروح اليونانية وأثار فيه نفحة شعرية جعلت هيجل يتجه في شعره الذي نظمه في مطلع شبابه اتجاهها قريب الأصل من اتجاه هيلدرن . أما زميله الآخر فهو الفيلسوف شلنج ، وهو وإن كان يصغر هيجل بخمس سنوات فقد كان مبكر النضوج والعبقرية إلى أقصى حد ، وقد أثر فيه شلنج من حيث رفضه النزعة الذاتية ، واتجاهه إلى إنشاء فلسفة جديدة تجمع بين الطبيعة والروح ، بين اسينوزا وكننت ، وبين روسو وفشته ، فلسفة يريد منها أن تكون بمثابة دين جديد للعالم الجديد الذي في حالة غليان .

هذا العالم الجديد هو عالم الحماسة لإصلاح أحوال الإنسان الذي أبدعته الثورة الفرنسية ، التي شبت في سنة ١٧٨٩ فتأثرت الحماسة في جميع مثقفي أوروبا خاصة الشباب ، حتى أن هيجل ، ونفراً من زملائه ، أنشأ نادياً يعمل لبث مبادئ الثورة الفرنسية بين الطلاب . غير أن

المسيح ، ومن الطبيعي أنه بهذا قد ابتعد بعداً ظاهراً عن المسيحية السُّنية . ومن ناحية أخرى نراه يكتب بحثاً بين سنة ١٧٩٥ ، سنة ٩٦ يبحث في مشكلة وجود الأديان الوضعية إلى جانب الأديان العقلية . ويبين كيف يمكن استخلاص هذه الأديان الوضعية ، والعكس : أي كيف يمكن أن تنشأ الأديان الوضعية عن الأديان العقلية . وهذا البحث كتب بلغة جيدة ، وفيه قام بحملة شعواء على أعالال الكنائس الرسمية .

ثم نجده في سنة ١٧٩٥ يكتب إلى شلنج قائلاً إنه استأنف دراسة كُنت واهتم خصوصاً برأي كُنت القائل بأهمية العقل العملي والقيم المطلقة للشخصية الأخلاقية ، لكنه مع ذلك في بعض هذه الرسائل يعود فيستخلم وجهة نظر فشته وشلنج .

ثم بدأ ينشر بعض مؤلفاته وهي في اتجاه فلسفة فشته ، وفيها تحلل من سيادة النزعة الكنتية . فتأثر هيجل بما كتبه شلنج تأثراً واضحاً حتى أعلن أنه من أتباع شلنج قائلاً « ما أنا إلا تلميذه » . وفي هذه المؤلفات يكشف شلنج عن نزعة إلى وحدة الوجود على أساس نقد « كُنت » ونقد « اسينوزا » وهذا هو ما تأثر به هيجل من كتب شلنج هذه .

لكن شلنج اتجه خصوصاً إلى فلسفته الطبيعية ، بينما كان هيجل أكثر عناية بفلسفة التاريخ ، ومن هنا رأى أن الشيء المؤثر قبل كل شيء هو التطور الذي يجري على مر الزمان . ولهذا رأى أن مهمته في مواجهة سائر الفلاسفة أن يعني بالظواهر التاريخية ، فنظر إلى مبدأ التاريخ على أنه يؤلف وحدة وأنه يقوم على أساس عقلي مطلق .

وقد ساعد على توجيه هيجل في هذا الاتجاه صديقه هيلدرن الذي كان شديد الحماسة لتمجيد الطبيعة والنظر إليها على أنها قبل كل شيء كل حي وقد عبر هيجل عن هذه الروح الجديدة في قصيدة له تعد خير ما كتب من قصائد على قلة ما نظم ، وقد أهداها إلى هيلدرن في أغسطس سنة ١٧٩٦ وعنوانها Eleusis : من حولي وفي داخل نفسي سلام ؛

والمهموم الدائمة ترفد في صدور المهمومين والمشغولين ،  
أما أنا فني نفسي حرية وسلام . ألا بوركت أيها الليل الذي  
حررتني . . . الخ » .

وفي أغسطس سنة ١٧٩٦ عرض عليه صديقه هيلدرن

درس هيجل الفلسفة في هذا المعهد عامين ، وأتم امتحان الفلسفة سنة ١٧٩٠ ثم أتم امتحان اللاهوت سنة ١٧٩٢ ، وبذلك أصبح ما كان يسمى باسم « حامل الأهلية اللاهوتية » .

لكن هيجل وقد حصل على أهلية اللاهوت لم يمارس مهنة القسيس لأنه لم يبد أي ميل إلى هذه المهنة ، بل أراد أن يسلك السبيل الذي سلكه كنت ويسلكه زملاؤه فشته وشلنج فاشتغل مدرساً خصوصياً ، وظل في هذه المهنة سبع سنوات حتى سنة ١٨٠٠ ، ذلك أنه بعد أن بقي فترة طويلة عند أهله قبل أن يشغل وظيفة مدرس خصوصي في مدينة برن Bern عاصمة الإتحاد السويسري في بيت من بيوت الأشراف هو بيت آل « شتيجر » ، وظل يدرس لصبي وفتاتين حتى سنة ١٧٩٦ ، وعلى الرغم من تفاهة هذا العمل فقد أفاد من مقامه في برن إفادة كبرى إذ استفاد من ملاحظة كيفية التركيب الاجتماعي والسياسي لمجتمع الأشراف في برن ، ولاحظ ألعيب السياسة في هذه المدينة ، وعرف عن قرب مناورات السياسيين ، مما سيكون له أثر فيما بعد في اهتمامه البالغ بالسياسة ، لقد كتب في ذلك إلى شلنج يقول إن المؤامرات والدسائس في قصر امبراطور ألمانيا لا تعتبر شيئاً أمام ما هنا في برن ، ولا بد لمن يريد أن يعرف هذا الدستور الأرستقراطي أن يمضي هنا فترة عيد الفصح ، وهي الفترة التي يتم فيها تجديد انتخابات مجلس المائتين . وهنا أيضاً في برن تابع دراساته اللاهوتية ، لأنه كان يعتقد أن دراساته الأساسية هي دراسة اللاهوت ، كما جاء في رسائل كثيرة بقيت لنا ، نشرها روزنكرانتس ثم نول ، وفي هذه الفترة كتب بعض الرسائل الدينية التي لا بد من أخذها بعين الاعتبار في كل دراسة لهيجل .

وفي هذه الفترة كذلك قام بنقد عنيف للنظم السائدة عند أسر الأشراف في برن ، ولاحتكار طبقة النبلاء للسلطة ، كما نقد الصراع العنيف بين برن والأقاليم التي تتكلم الفرنسية في سويسرا ؛ ثم كتب عن أحوال مقاطعة فورتمبورج وعن الوضع الروحي في ألمانيا في بحث بعنوان « الحرية والمصير » .

أما من الناحية الدينية فقد تناول حياة المسيح بروح علمية فاستبعد كل المعجزات ، وعرض حياته عرضاً بسيطاً اعتمد فيه على الحقائق المعقولة الواردة في « الأناجيل » ، وقد نظر إلى المسيح على أنه إنسان سام ظاهر مكافح من أجل الفضيلة والحقيقة والحرية ، أي أنه استبعد الجانب الإلهي في

بالتدريس إلى جانب فشته طوال فصل الدراسة ، وبعد رحيل فشته أصبح شيلنج الشخصية الرئيسية من الناحية الفلسفية في ينا ، وكتب هيجل إلى شلنج يطلب النصيحة ، ثم جاء إلى ينا Jena سنة ١٨٠١ وظل حتى سنة ١٨٠٧ ، وكانت جامعتها صغيرة الحجم . ولكنها بلغت شهرة كبيرة في نهاية القرن الثامن عشر ، حتى أصبحت بمثابة هيكل الفلسفة الكنتية . فقد أنشئ فيها كرسي للفلسفة الكنتية ، درس فيه راينهولد وفشته ؛ وهنا أيضاً في ينا قام بالتدريس الشاعر شلر الذي درس التاريخ ، وهنا كانت تصدر المجلة الفلسفية المخصصة لفلسفة كنت وكانت تسمى « المجلة الأدبية اليناوية » . ثم بعد رحيل فشته أصبحت الجامعة مركزاً للحركة الرومانتيكية ، فقد أقام فيها الأخوان شليجل وتيك وشلنج لكن هذه الجامعة أصابها شيء من التدهور بعد ان فارقتها فشته وشلر والأخوان اشليجل وتيك . ومع ذلك ظلت من الناحية الفلسفية قلعة للدراسات الفلسفية ، وهنا ظهر هيجل باجازه التدريس في اول اوجسطس سنة ١٨٠١ برسالة عن « أفلاك الكواكب » .

وفي شتاء سنة ١٨٠١ قام بالتدريس فألقى محاضرات في المنطق وما بعد الطبيعة . لكنه في صيف سنة ١٨٠٢ لم يجد طلاباً فاتقطع عن التدريس ، غير أنه استأنفه في الشتاء بعدد يتراوح بين عشرين وثلاثين طالباً ، واستمر أربعة فصول دراسية زميلاً لشلنج يزامله في التدريس والمناقشات الفلسفية التي تدور في الجامعة .

ترك شلنج الجامعة هو وعدد غير صغير من الأساتذة وانتقل إلى جامعة فور تسبورج Würzburg ولم يكن لهيجل ما كان لفشته وشلنج من التأثير على الطلاب ، وهذا ظل تأثير هيجل محصوراً في عدد قليل من التلاميذ لكنه بدا لهؤلاء كأنه كاهن يرطن رطانة بلغة لا يفهمها أحد ، وفي أثناء مقامه في ينا صادق أحد الفلاسفة المتأثرين بكنت وهو نيتهمر Nieth-amer وبعد رحيل فشته عين نيتهمر هذا أستاذاً للاهوت ، وقد ساعد نيتهمر هيجل (ساعات عديدة . وفي ينا ظهر لهيجل أول كتاب نشره هو ، وهو كتاب عن « الفرق بين فلسفة فشته وشلنج » وظهر في يوليو سنة ١٨٠١ ثم ظهر له بحث آخر هو رسالة أهلية التدريس التي ذكرناها من قبل عن الأفلاك والكواكب ، فيه يفسر نظرية كبلر التي تقول بوجود نظام معقول في حركات الكواكب وهو يرفض فكرة النظم الآلي في سير الكواكب ويريد أن يجد المسافة والسرعة والحركة

أن يقوم بوظيفة مدرس في فرانكفورت ، فوافق هيجل ، رغبة في العودة إلى ألمانيا فدخلها في مستهل سنة ١٧٩٧ ، وهنا أفاد من الاتصال المباشر بصديقه هيلدرن . وكان لهذا أثر بالغ في تكوينه الروحي وكان هيلدرن حسن المظهر ، وكان معلماً خصوصياً في بيت تاجر هو جونتارد وكان هذا رجلاً فقطاً .

أما هيجل ففي أثناء إقامته في فرانكفورت تابع دراسته السياسية والدينية واهتم خصوصاً بالدراسات السياسية ، وكتب شرحاً على الترجمة الألمانية لكتاب الاقتصاد السياسي تأليف ستوارت Stewart ، وهذا الشرح فقد وإن كان روزنكرانتس رآه بعينه . ثم ألف رسالة عن الدستور السياسي لفورتمبورج بين فيه مفاصد النظام الأوتوقراطي والبيروقراطي الذي كان سائداً في فورتمبورج وطالب بإيجاد هيئة منتخبة أمينة واسعة العقل لكنه أظهر شكاً في إمكان قيام مثل هذه الهيئة . والروح التي تشيع في هذا البحث هي روح النزعة العقلية والتأثر بأفكار الثورة الفرنسية وروادها .

ومن ناحية أخرى استأنف دراساته الدينية النقدية ؛ ولكنه كان أكثر عطفاً على الأديان الوضعية مما كان من قبل . فنظر إليها عن أنها لا ينبغي أن يحكم عليها بل أن تفسر فحسب . وتابع دراساته الفلسفية ، وأصبحت في نظره هي الرسالة الحقيقية التي يجب أن يعمل لها في حياته ، وكتب شرحاً على مذهب القانون ونظرية الفضيلة عند كنت . ولكن هذين الشرحين فقدتا . ودرس مذهب المثالية المتعالية لشلنج ، وتابع الدراسات الكلاسيكية ( أفلاطون وسيكوس أمبريكوس ) وتأثر في هذا الوقت الفيلسوف الصوفي ذا النزعة الكشفية فرانتس بادر Franz Baader وشرح بعض مؤلفاته ، واهتم تبعاً لهذا التأثير بدراسة كبار الصوفية الألمان وعلى رأسهم إكهارت ، كذلك وضع مجمل المذهب في الفلسفة والذي لم يبق منه إلا ثلاث صفحات وفقد الباقي .

وبعد النواة الأولى للفلسفة الهيجلية وفيه يقول : « إن أساس الأشياء هو الحياة ، أما الدين فهو رفع الحياة النهائية إلى مستوى الحياة اللانهائية » .

ثم بدأت مرحلة جديدة بوفاة والده في اشتجارث (يناير سنة ١٧٩٩) فقد أصبح ورثاً لمبلغ سمح له بالتطلع للدراسة الأكاديمية ، وكان شلنج قد سبقه في هذا الميدان وبلغ كأستاذ ممتاز ، بينما كان هيجل لا يزال مخموراً ، فقد عين شلنج سنة ١٧٩٨ أستاذاً للفلسفة في جامعة ينا Jena . وقام

التي لها .

وكذلك يتسبب إلى فترة بينا مجمل المذهب الذي رسمه هيجل ونشره كل من هايم وروز نكرانتس ولكنها نسباه إلى فترة فرانكفورت .

لكن أهم أثر لهيجل في هذه الفترة وأول كتبه الكبرى هو كتاب « ظاهريات الروح » ( أو العقل ) وقد أراد في هذا الكتاب أن يعطي مدخلا يبين فيه كيف توالت المراحل المختلفة للشعور من مرحلة الشعور البدائي الحسي إلى مرحلة الوعي الفلسفي الكامل الذي فيه يتبين للوعي أنه هو والمطلق شيء واحد ، وقد نشره هيجل أول ما نشره ( بوصفه القسم الأول من مذهبه في العلم ) أثناء معركة بينا ( في ١٤ أكتوبر سنة ١٨٠٦ وقد انتصر فيها نابليون على البروسيين ) وهذا الكتاب بدأ الخلاف في المذهب يدب بين هيجل وزميله وأستاذه شلنج . فانه في هذا الكتاب شرح مذهب شلنج ، ولكنه في المقدمة نبذ هذا المذهب حتى أنه حينما تلقى هذا الكتاب رد عليه برسالة باردة كانت آخر رسالة تبودلت بين الصديقين والزميلين ، وانتهت صداقتهما بل انقلبت إلى عداوة سافرة وتقاسمة بين كليهما ، ولم ير أحدهما الآخر إلا بعد عدة سنوات وبالصدفة في بلدة كارلزباد . ونشر « ظاهريات الروح » تنتهي الفترة التي تسمى باسم فترة بينا . ولقد كان مركزه في بينا من الناحية التدريسية مركزاً قلقاً ، إذ كان مجرد مدرس خصوصي ، واستطاع بفضل نفوذ جيته أن يعين أستاذاً بغير كرمي سنة ١٨٠٥ وأصبح يتقاضى مرتباً ثابتاً .

بيد أن الجيوش الفرنسية احتلت مدينة بينا سنة ١٨٠٦ ونهبتها ، فاضطر هيجل إلى اللجوء إلى منزل أحد تلامذته ( جيلر ) وبعد نهب المدينة أصبح هيجل في حالة من العوز والضييق التام حتى لجأ إلى صديقه نيتهامر كذلك تلقى المعونة من جيته وبالجملة فقد قضى فترة عصيبة . ومع ذلك عقد قرانه في هذه الفترة وأنجب ولدين ، ولكنه سرعان ما تبرم بجامعة بينا ، واتجه ببصره إلى مدينة هيدلبرج غير أنه لم يحظ حينئذ بمنصب أستاذ في جامعتها ، وإنما اشتغل بالصحافة وأصبح رئيس تحرير جريدة بامبرج سنة ١٨٠٧ ، وكانت جريدة بامبرج صحيفة يومية محدودة الانتشار ، ومع ذلك ظل هيجل يشغل هذه الوظيفة كما تدل على ذلك خطاباته إلى نيتهامر .

وبعد هذا تبرم له بفضل هذا الصديق الذي ينجده

دائماً أن يقوم بالتدريس في المدرسة الثانوية في نورمبرج على الرغم من قلة المرتب وضالة المركز ، وظل في هذه حتى سنة ١٨١٦ وهي فترة أبدى فيها نشاطاً غزيراً ، ونعم فيها بالراحة . وقد كان يدير منصبه بذكاء ودقة وتزوج في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨١١ ، وبالجملة فان هذه الفترة لا يتسبب إليها من ناحية التأليف غير كتاب « المدخل الفلسفي » الذي نشر على أنه الجزء الثامن عشر من مجموع مؤلفاته ، وهذا الكتاب هو الدروس التي ألقاها على الطلاب في مدرسة نورمبرج الثانوية . وفي سنة ١٨١٦ تحقق أمله المرموق منذ عهد بعيد ، وهو أن يصبح أستاذاً في جامعة هيدلبرج ، وهذه ما زالت حتى الآن من أهم الجامعات الألمانية في الدراسات الفلسفية والإنسانية بعامة . وقد بدأ دروسه في شتاء سنة ١٨١٦ . والفترة التي قضاها في نورمبرج تمتاز « بالمنطق الكبير » الذي نشره في مجلدين من سنة ١٨١٢ إلى سنة ١٨١٦ ، أما فترة هيدلبرج فكانت فترة إنتاج أغزر وأهم . فقد استقرت فلسفته في هذه الفترة وأهم ما كتبه فيها هو كتاب « دائرة معارف العلوم الفلسفية » وقد ظهرت سنة ١٨١٧ واتخذ منها أساساً لمحاضراته في تلك الجامعة ، وفيما عدا هذا فليس له غير مقالات نقدية بين الحين والحين في حويليات هيدلبرج . وعلى هذا فان فترة بينا تمتاز بكتيب « ظاهريات العقل » ؛ وفترة نورمبرج تمتاز بكتاب « المنطق الكبير » وفترة هيدلبرج تمتاز بكتاب « موسوعة العلوم الفلسفية » .

ثم أتاحت له فرصة أفضل هي الأستاذية في جامعة برلين عاصمة بروسيا ، وكان فشته أستاذاً مرموقاً المكانة فيها ، ولكن فشته توفي في ٢٧ يناير سنة ١٨١٤ وكان هيجل يكره العسكرية البروسية ، أما الآن وبعد احتلال نابليون فقد مال إلى العسكرية على أساس أن بروسيا هي التي حررت ألمانيا من نير نابليون . ومن هنا بدا له أن بروسيا هي المثل الأعلى للدولة الحربية . ومن ناحية أخرى ضاق ذرعاً بهيدلبرج لأنها على الرغم من مكانتها كجامعة فهي في وسط محدود لم يكن كافياً لنشر فلسفته ، فاتجه ببصره إلى العاصمة البروسية ، برلين ، بعد وفاة فشته سنة ١٨١٤ ظفر بهذ المنصب الذي ساعده فيه بعض زملائه وعين أستاذاً في جامعة برلين وبدأ دروسه في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨١٨ بمحاضرة نشرت فيها بعد مقدمات « لموسوعة العلوم الفلسفية » ( مجموع مؤلفاته المجلد السادس ، ص XL-XXXV ) .

وألقي خصوصاً محاضرات في فلسفة القانون واتخذ



رفض هذا الطلب . وبالجملة فإن هذه الفترة ، فترة برلين هي فترة تأسيس وتوطيد ونشر للمهيجلية ، أكثر من أن تكون فترة إنتاج لفلسفة هيجل .

وانتشرت الكوليرا في بروسيا صيف سنة ١٨٣١ وكان هيجل من ضحاياها فتوفي في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ ، وكان نجاحه قد بدأ ينهار بسبب موقف السلطات الرسمية منه ، والسلطات الدينية بوجه خاص ، فقد قالت الكنيسة الإنجيلية في قرار خاص أصدرته سنة ١٨٣٢ إنه خطر على الدين . ورفضت أكاديمية برلين أن يدخل فيها عضوا ، ولما مات لم يُسمح بالقاء تابين على ضريحه .

#### مؤلفاته

لم ينشر هيجل إبان حياته من مؤلفاته الكبرى غير أربعة مؤلفات رئيسية ورسائل صغيرة ومقالات في المجلات ، وبعد وفاته قام تلاميذه باعداد نشرة كاملة لمؤلفاته ، جمعوا فيها ما نشره هيجل نفسه قبل وفاته ، ثم ضموا إليه كل ما خلفه مخطوطا ، وعلى وجه التخصيص المذكرات التي كان يستعين بها لإلقاء محاضراته .

ذلك أن هيجل لخص مذهبه في «موسوعة العلوم الفلسفية» ، ثم قدم مدخلا لمذهبه في كتاب «ظاهريات الروح» . ولم يتوسع في جوانب فلسفته إلا في كتاب «المنطق» الذي استوفى فيه مذهبه الفلسفي ثم كتاب «فلسفة القانون» الذي استوفى فيه مذهبه السياسي .

ولكنه في محاضراته - وهو لم ينشرها تناول فلسفة التاريخ ، وتاريخ الفلسفة ، وفلسفة الدين ، وعلم الجمال ، وهي موضوعات اكتفى بالإشارة إليها إشارات قليلة غامضة في «الموسوعة» . ولهذا قام التلاميذ بنشر كل هذه المحاضرات الخطية التي تركها ، واستعانوا في هذا بما كتبه هيجل بخطه من مخطوطات لم تكن غير حافلة إلا بالتعليقات الهامشية مما جعل الحكم صعبا على أمانة هؤلاء التلاميذ في نشر مؤلفاته .

واستعانوا كذلك بالمذكرات التي نشرها أثناء الدروس ، فصححوا هذه بتلك إلى أن استطاعوا نشر الجزء الرئيسي من التعليم الشفوي الذي قام به هيجل فجانص Gans نشر «فلسفة التاريخ» وهو تو Hotho نشر علم الجمال وك. ل. ميشليه K. L. Michelet نشر تاريخ الفلسفة ، وفضلا عن ذلك فإن الكتب التي أعيد نشرها من قبل طبعت

«موسوعة العلوم الفلسفية» أساسا لدراسته ، ومن ثم انتشرت المهيجلية بل أصبحت البدعة الفلسفية السائدة في ألمانيا ، وبعد أن كان عدد طلابه محدودا توافد عليه المئات من الطلاب من كل أنحاء ألمانيا ، بل أصبح الإيمان بالمهيجلية مما يرشح للوظائف العليا في الإدارة البروسية ، وانتشر تلاميذه يلقون المحاضرات ويعقدون الندوات شرحا لفلسفته .

وابتداء من سنة ١٨٢٣ ، بدأ بعض المدرسين في إلقاء المحاضرات في الجامعات عن فلسفة هيجل ، ومن بين تلاميذه المشهورين في هذه الفترة ليوبولد فون هنتج وجانس Gans ومارهينكه Marheineke وبومان Boumann الذين عملوا فيما بعد على نشر مؤلفات أستاذهم بعد وفاته ، ولكن أشهر هؤلاء جميعا روزنكرانس (سنة ١٨٠٥ - سنة ١٨٧٠) وهو الذي نشر كتب وسيرة حياة هيجل ومؤلفات الشباب ، ثم إردمان (سنة ١٨٠٣ - سنة ١٨٩٢) وهو مؤرخ له في تاريخ الفلسفة كتاب مشهور ، ثم كونوفشر وهو من أشهر مؤرخي الفلسفة الحديثة إن لم يكن أعظمهم جميعا .

ومن ناحية أخرى ظهر تلاميذه الذين سيكون لهم تأثير ضخم فيما بعد ، ولكن في اتجاه اليسارية المهيجلية وهم أولا فريدرش اشتراوس Strauss صاحب كتاب «حياة المسيح» المشهور الذي أحدث ثورة في كتابة تاريخ المسيح وتاريخ المسيحية . ثم فويرباخ Feuerbach الذي حضر محاضرات هيجل سنة ١٨٢٤ - سنة ١٨٢٦ ورأى عدم إمكان التوفيق بين فلسفة هيجل وأية فكرة دينية ، وبالتالي اتجه اتجاها عقليا صرفا تجاه المسيحية . وقد عبر عن ذلك في كتابه «جوهر المسيحية» . أما كارل ماركس فتعلم على هيجل من خلال «فويرباخ» ، وسوء فهم ماركس لهيجل وتشويه المهيجلية على يد ماركس إنما جاء من تأثير فهم فويرباخ الفاسد للمهيجلية .

وبالجملة فقد كانت هذه الفترة التي قضاه في برلين فترة مجد وشهرة من ناحية وقلة إنتاج غريبة من ناحية أخرى ؛ فإنه في هذه الفترة لم يصدر عنه إلا كتاب أساسي واحد رغم طول الفترة ، هو كتاب «فلسفة القانون» سنة ١٨٢١ وفيه لخص وتَظَّم كل الأفكار السياسية التي بثها من قبل في مختلف مقالاته عن الأوضاع السياسية في ألمانيا ، ثم مقالات نافهة في مختلف مقالاته عن الأوضاع السياسية في ألمانيا ، ثم تصدر مجلة في برلين لنشر مذهبه ، وسعى لحمل وزير التربية على إنشاء مجلة رسمية للتعبير عن المهيجلية ، بيد أن الوزير



يضع المعيار للفرقة بين الحقيقة الواقعية وبين الوهم . وأصبح ينظر إلى معطيات الحس على أنه قد شارك في صنعها العقل بإطاراته الأصلية وأصبح ينظر إلى الحقيقة الواقعية على أنها امثال للوعي الأساسي الشامل ، وتبعاً لهذا لها قيمة موضوعية أما المظهر أو الظاهر فهو الامثال الذاتي الخالص الذي يتناقض مع القوانين العقلية التي تؤلف التركيب المنطقي للواقع ومن هنا جاءت المثالية المنبثقة عن كنت خصوصاً عند فشته فقالت بهذا المبدأ : العالم من خلق العقل ، على أساس ان معطيات الحس لا يمكن بنفسها ان تكون معرفة إلا من خلال إطارات العقل هذه .

تلك هي النقطة الأولى . اما الثانية فتتصل بالتنظيم العقلي للتجربة ، وهو ما يكون مبدا المثالية المتعالية ، فالتجربة ليست مجرد تجربة بمعنى الانعكاس السلمي مثل الحلم او الأوهام ، بل التجربة نفسها من خلق العقل بالمعنى الذي أوضحناه من قبل وهو ان معطيات الحس لا يمكن ان تدرك إلا بإدخالها في إطارات العقل ، ذلك ان التجربة تركيب منطقي مخلوق من الوعي فيه تتفق كل الأرواح الفردية . وكنت هو الذي استطاع أن يكشف عن مبادئ هذا التركيب المنطقي ؛ وبحث عن أصله فوجده في الأنا الخالص ، في الإدراك المتعالي ، في ذلك النشاط الذي يقوم فينا بتوحيد كثرة المعطيات الحسية وتعددتها ، وهو بالتالي يصنع ويشارك في صنع الامثال الذي لدينا عن الحقيقة الموضوعية ؛ وقد بين كنت أنه بغير هذه المبادئ العقلية الخالصة لا يمكن أن يكون ثمة تجربة . ثم أوضح نطاق هذا التنظيم الذي يقوم به العقل لمعطيات الحس ، وذلك بالمقولات الكنتية المشهورة ، وأن يربط هذه المقولات بالحكم أكثر من أن يربطها بالواقع الميتافيزيقي .

تأثر هيجل كنت في هذه المسألة الثانية أيضاً فرأى أن العالم كله من خلق العقل ، والعمل الأول لهذا العقل هو تأليف تلك القوانين العليا التي تخضع لها الحقيقة الطبيعية المادية كما تخضع لها الحقيقة العملية ، ويمكن أيضاً أن نجد في الصورة في مذهب هيجل كما يتمثل في «دائرة المعارف الفلسفية» بعض قسومات من مذهب كنت في المقولات وإن لم يأخذ به هيجل صراحة .

وفيما عدا هاتين المسألتين لا نكاد نجد لكنت شيئاً أثر به في هيجل ، لأن كنت وإن كان قد وصل إلى هاتين النتيجةين اللتين عرضناهما فإنه قد ترك عديداً من المسائل دون حل أو في

طبعة جديدة ، زودت بالتعليقات التي تركها هيجل ، ثم نشرت الطبعة الكاملة لمؤلفات هيجل على هذه الصورة المحررة في مدينة برلين من سنة ١٨٣٢ حتى سنة ١٨٤٥ في ثمانية عشر مجلداً ، وهذه النشرة الكاملة هي التي نشرت بمناسبة اليوبيل في اشتوتجارت في سنة ١٩٢٧ وما تلاها ثم إن رسائله نشرت سنة ١٨٨٧ . وقام مولات في سنة ١٨٩٣ ونول سنة ١٩٠٧ بنشر كتب الشباب «مؤلفات هيجل في عهد الشباب» ثم ظهرت طبعة نقدية ممتازة لمؤلفات هيجل قام بها لسون Lasson وهوفايستر Hoffmeister بدأت سنة ١٩٠٥ .

### فلسفة هيجل

أول ما يخطر بالبال فيما يتصل بهيجل أن يقال إنه من المشايخين المتابعين للمثالية الكنتية ، وإن ثمة سلسلة متصلة من كنت فقشته ، فشلنج فهيجل . ولكن هذا التصور لمكانة هيجل بين هؤلاء تصور زائف ، إذ الواقع أن هيجل ليس حلقة أخيرة في السلسلة ، بل يقوم مذهب مستقلاً عن المذاهب الأخرى ، لا يشترك معها إلا في قليل من الصفات ، وفيما عدا هذا فمذهبه أصيل لا يكاد يتدرج تحت أي اسم يمكن أن يطلق على مذاهب كنت أو فشته أو شلنج . ثم إنه تأثر خصوصاً بالنزعة الطبيعية اليونانية ، وبتزعة التنوير التي سادت في القرن الثامن عشر ، واتصل بكلتا الحركتين عبر كنت والمثالية الألمانية المتمثلة في فشته وشلنج فإذا أردنا أن نحدد الصلة بينه وبين كنت وجدناها تتعلق بأمرين :

الأول : هو في التصوير المثالي للحقيقة الواقعية المباشرة . فإن كنت قال بأن الحقيقة الواقعية هي من تصميم العقل أولاً على أساس أن كل المعطيات الحسية لا بد أن تدخل في إطارات من صنع العقل ، فالمبادئ الثلاثة الرئيسية للحساسية وهي الزمان والمكان والعلية هي إطارات عقلية قائمة في صحيح العقل وليست موجودة في الواقع نفسه وبالتالي لا توجد في معطيات الحس وإنما ترتب معطيات التجربة وفقاً لهذه الإطارات العقلية التي هي من نسج العقل نفسه . فإذا كان «كنت» قد هاجم «ديكارت وباركلي» فما ذلك إلا لأن مثاليتهما وهمية لأنها لا يستطيعان أن يميزا بين الواقع والظاهر لأن كلا منهما في نظرهما امثال . أما ابتداء من كنت فيقول به هذه المبادئ المتعالية أي التي لا توجد في التجربة ، ولكنها لا تتجاوز نطاق العقل بل توجد في طبيعته نقول إن كنت هذه الفرقة وهذه المثالية المتعالية استطاع أن

وفشته كما رأينا من قبل عنى بدراسة اسبينوزا دراسة خاصة فتركت هذه الدراسة التي قام بها فشته في مستهل حياته اثرأ بالغاً في نظوره الفلسفي . رأى فشته أن مشكلة النقد الكنتي هي في جوهرها مشكلة نظرية المعرفة ، ورأى أن حلها هو في النزعة الواحدية التي وجد لونها منها عند اسبينوزا ، فارتفع فشته فوق هذه الثنائية بين الذات والموضوع حتى بلغ الوحدة الأصلية الموجودة في الأنا الخالص ، وهذا هو مبدأ وحدة الشعور ومن هنا رأى فشته أن الأنا الخالص هو الحقيقة الأولية الأصلية التي ينبغي ألا نتجاوزها ، ولا يقصد طبعاً بالأنا هنا الأنا المفرد بل الأنا خالصاً من كل فردية ؛ فإن الفرديات المختلفة ليست إلا لحظات متآخرة لهذا الأنا الخالص ، إن هذا الأنا جنس عام يشمل الجنس البشري كله ، إنه الأنا الإنساني في وحدته الأصلية الكبرى ، ومن هذا الأنا يستنبط فشته سلسلة متصلة من الانفعال والحركات المتواصلة ، كما يستنبط نظام المقولات والقوانين الصورية للحقيقة الواقعية . إن كنت حين تصور المقولات تصورها على أنها سلسلة من التوفيقات بين الوحدة والكثرة ، أما فشته فقد رأى أن المقولات هي أفعال باطنة للأنا ذاته ، وهي قوانين تأليف هذا الأنا الخالص . إنها قوانين تنطبق على التجربة بوصفها تجربة الوجود ، كذلك يستنبط فشته من هذا الأنا مادة التجربة نفسها ، أي الموضوع ، بحيث يصبح الموضوع - أي المادة وبالتالي العالم الخارجي - يصبح في نظر فشته لحظة باطنة من لحظات الذات أو الأنا . والنتيجة الطبيعية لهذا الموقف هي أن يقوم فشته بإلغاء كل مادة وكل موضوع ، وبالجملة كل أثر بل كل إطار لقيام العالم المادي .

فكل شيء من الذات وإلى الذات يتسبب ؛ لا شيء خارج ، وما نسميه حقيقة خارجية وموضوعات لا يوجد في ذاته بهذا الوصف بل يوجد بوصفه لحظة من لحظات الأنا . إن الموضوع ما هو إلا الأنا حينما يضع بنفسه في مقابل ذاته جزءاً من طاقته ابتغاء أن يتغلب على ذاته وأن يستولي من خلال الكفاح والانتصار على امتلاء حياته ، أي أن يكتسب الحياة الجديدة بهذا الغزو المستمر الذي هو في الواقع غزو من الذات إلى الذات ، فهو يفصل في نشاطه شيئاً بسميه الموضوع ويحاول أن يتصر عليه ، ويتمثله كما تتحقق حياته الملية وواضح من هذا أن العالم الخارجي بالمعنى القديم قد اختفى وزال وأصبح الإنسان أمام عالم كله ذات خالصة ، لا محل فيه لأي موضوع ، وبالتالي سقطت الثنائية بين الروح

غموض . فمثلاً لماذا وضع هذا التمييز بين المعطي التجريبي وبين الشكل ؟ ومن أين يأتي المعطي التجريبي ؟ كما أن كنت من ناحية أخرى لم يحدد تحليداً واضحاً طبيعة النشاط الذي يقوم به الأنا الخالص ، بل هو بالأحرى كاد يوقع في أذهاننا أن نشاط الأنا نشاط مفتت وليس نشاطاً توجيهياً يتجه إلى توحيد معطيات التجربة في وحدة تامة . ثم لم يجب كنت عن هذه الاسئلة : لماذا يكسو الأنا المعطيات الحسية بصور الحس ؟ وكيف تتحول هذه الصور إلى صور عقلية ؟ وعلى أي ترتيب يتم ذلك ؟ ثم إذا ما تكونت التجربة فماذا يفيدنا من هذه التجربة ؟ وما هي العلاقة بين الأنا النظري والعملي ؟ وما هو ترتيب أنواع النشاط العملي ؟ .

لقد ترك كنت هذه الاسئلة دون حل فجاء أول تلامذته وهو Reinhold رينهولد فأولى هذه المسائل عناية خاصة إذ اتجه إلى بيان أن كل هذه العملية ذات طابع تركيبى ، وإلى بيان أن جوهر الروح الإنسانية نشاط تشكيلي يقوم بعمليات متوالية بها يشكل معطيات الحس في صور عقلية هي التجربة بالمعنى الحقيقي ، وعن طريق القيام بهذه العمليات يرتفع الأنا إلى بلوغ الغايات المثالية التي يتجه إليها .

إن كنت بحسب شرح رينهولد قد حلل التجربة الإنسانية على أساس أنها معطى واقعي ، وبين بالتحليل قيمة هذه التجربة ابتغاء أن يستعين بنتائج هذا التحليل ليكشف للإنسان عن أسس ما عليه من واجبات وعن الغايات الحقيقية من حياته . غير أن هذا البحث الذي قام به كنت لم يكن شاملاً ، لأن كنت لم يرتفع إلى العوامل الأساسية للامثال . فلو أن كنت قد حلل الواقعة الأولى للامثال لوجد أن الامثال يفترض مقدماً بعض الشروط الأساسية ؛ وهذه الشروط هي التي تكفل إمكان استنباط كل نتائج النقد الكنتي . وسرعان ما تبين سالميون ميمون وفشته ما في عمل كنت هذا من نقائص ذلك لأنه جعل الامثال هو العامل الأول ، ومعناه وضع ثنائية منذ البداية بين الذات والموضوع ، بين العقل وبين الشيء في ذاته ، ومثل هذا الثنائية لو حللت تحليلاً دقيقاً لوجدنا أنها تناقض روح النقد الكنتي ، ثم إنها تناقض خصوصاً النزعة الواحدية الإسبينوزية التي بدأت تغزو الفكر الألماني بقوة في أواخر القرن الثامن عشر ومستهل التاسع عشر ، فقد أخذت الإسبينوزية تغزو بقوة الفكر الألماني خصوصاً فيما يتصل بالواحدية . فالواحدية الإسبينوزية كانت العنصر المؤثر الأساسي لدى أولئك الذين تأثروا باسبينوزا .

ذلك لأن هيجل يسمي نفسه باسم المثالي ، ومؤرخو الفلسفة يضعون فلسفته تحت هذا الاسم . غير أن هذا اللفظ غامض ومعانيه مشتبهة ولهذا ينبغي أن نحدد مقدما المعاني التي ينبغي أن تفهم بها المثالية حين نطلق على مذهبه . وفي سبيل ذلك ينبغي أن نفهم المعنى الذي يعطي أحيانا للمثالي وهو أن المثالي هو المقابل للواقعي ، أو أن المثالي هو ما يجب أن يكون في مقابل ما هو كائن . إن هيجل يرفض هذا التفسير للفلسفة بأنها ما يجب أن يكون كما نجده عند فشته ؛ ذلك لأنه مثل هذا التفسير ينطوي على عدم الرضا أمام الواقع ، والدعوة إلى تجاوز الواقع إلى آفاق غامضة تتلفع بالغموض . فويجل يرى أن هذا التفسير الذي نجده عند الرومانيك عامة كما نجده عند فشته ينبغي عدم الأخذ به ، لأنه يرى أنه من الصحيح أن الإنسان يشعر بنفسه في البداية وقد قذف به في عالم غريب عنه معاد له يشعر بأنه ضائع فيه ، لكن مهمة الفلسفة ليست صرف الإنسان عن العالم الواقعي بل على العكس مهمتها أن تصلح ذات البين بين الإنسان والعالم الغريب الذي يشعر في البداية حين يقذف به فيه أنه غريب عنه . وإصلاح ذات البين هذا يتم بأن تبين الفلسفة للإنسان ما هنالك من تجانس بين ذاته وبين هذا العالم ، هنالك يدرك العقل ذاته وسط هذا العالم ، ويرى نفسه أنه فيه كما فيه غيره ، فلا يشعر بأنه غريب عنه بل يفهمه ويتعقله ، ويتعقله إياه يصبح أليفا لديه .

ومن هنا فتغاية الفلسفة الرئيسية هي فهم الواقع وجعله معقولا ، وبالتالي جعل الواقع والذات من جنس واحد . ومعنى هذا تعقيل الواقع ، وإذا عقلنا الواقع ، فقد أصبح كل شيء من الذات ومن الواقع معقولا ؛ ومن هنا فإن كلمة المثالية بالمعنى الذي يقصده هيجل هي « تعقيل الواقع » أي جعل كل ما هو واقعي معقولا وكل ما هو معقول واقعي ، أي الوصول إلى توحيد فيما بين الواقع والمعقول بالانتهاى إلى أن كل شيء معقول . وتلك هي المثالية بالمعنى الحقيقي - هذا من ناحية . كذلك ينبغي أن نحدد المثالية كما نطلق عند هيجل لكي نستبعد منها المعنى الذي يطلق عليها أحيانا وذلك بالقول بأن الكنتية مثالية متعالية أي أنها تتجاوز معطيات الحس عن طريق إطارات العقل من أجل تعقل معطيات الحس في إطارات عقلية منظمة . والمثالية بهذا المعنى حينما تطلق على المثالية الكنتية فمعناها أننا لا نعرف غير الأفراد والظواهر الخاصة لتكويننا العقلي وهذا يتعالى ، أي يتجاوز ،

والمادة ، بين الذات والموضوع . ولكن ليس الأنا المفرد الذي يخلق هذا التعارض ، فإن هذا الأنا المفرد لا يمكن أن يدرك دون هذا العالم ، عالم الموضوعات ، بل المقصود من الأنا أنه هو الأنا المطلق الذي يعمل بقوانينه الخاصة الذاتية في كل الموضوعات التجريبية ، بحيث أنه في كل منها يقوم التقابل بين الأنا التجريبي مع عالمه ، ثم يرفع هذا التقابل في الوحدة المطلقة للأنا الخالص الذاتي المطلق . فالعالم الخارجي هو مجرد مجال نشاط للأنا الفردي المفرد ، أما بالنسبة إلى الأنا الخالص فليس ثمة خارج ولا وراء ، بل كل شيء يندرج في داخل هذا الأنا الخالص المطلق . وعلى هذا فالطبيعة ليس لها وجود حقيقي بذاته بالنسبة لفشته ، وهو بهذا قريب الشبه بباركلي .

غير أن فشته لم يكن قريب الصلة بكنت على النحو الذي يقال عادة ، فإن « كنت » وإن كان قد قال إن المادة من خلق الروح فإنه مع ذلك لم يقل إن هذه المادة تأتي إلينا من الموضوعات الخارجية عن طريق الحواس ، لأن العقل هو وحده الذي يؤلف بين الموضوعات . وعند كنت أن كثرة المحسوسات هي لون وضيق من ألوان الشعور والمعرفة ، هي روحية من النوع السافل يتميز بعدم الإحكام ، وبالاختلاط ، ومضمونه هو نوع من الحقيقة يبدو لنا على أنه معطى من المعطيات .

وعلى كل حال فإن مذهب كنت ينطوي في هذا العرض كله على نوع من الثنائية الميتافيزيقية ، ذلك أن الإنسان بنوع من الخطيئة الأصيلة منغمس في المحسوس . وكثرة المحسوس هي في عملية المعرفة عنصر من عناصر الظاهر ، ومن الواقع غير الحقيقي . بيد أن هذه الثنائية عند كنت لم تتخذ طابعا مطلقاً لأنه يرى أن هذه الكثرة هي مرحلة دنيا ، وليست مرحلة عالية من مراحل الوجود . أما عند فشته فإن الثنائية لا تقوم إلا في التعارض الأولى فيما بين الأنا والللا - أنا . فلما جميع العمليات واللحظات التالية فعلية ضرورية بالللا - أنا يعود إلى الأنا . على أن فشته لم ينظر في هذه المسألة في المرحلة الأولى من تفكيره ، ولم يخصص لها بحثاً لأنه اهتم خصوصاً بمشكلة المعرفة كما وضعها كنت وخلفاؤه وعنى قبل كل شيء باستبعاد فكرة الشيء في ذاته التي تركها كنت صخرة غير مفهومه يصطدم بها كل مذهب مثالي لاحق عليه .

وهنا يحسن بنا أن نحدد معنى فكرة المثالية حينما تقال على مذاهب هؤلاء الثلاثة : كنت ، فشته ، هيجل .

الفكرة هي التحقيق الكامل للتصور إن الفكرة هي الوحدة المطلقة للتصور ولل موضوعية ، وهي الحق في ذاته ولذاته . الفكرة هي الحياة . وهي الخير في المعارف والأفعال . وهي المعرفة الكلية المطلقة التي يصل إليها فكر الفيلسوف . إنها الحق حين يعرف نفسه . ومن وجهة نظر الفكرة « التصور » يبدو مجرد لحظة تابعة ، ومع ذلك فالتصور يظل دائماً مبدأ الفكرة .

ويقول في « علم المنطق » محدداً الفكرة Idee بما يلي :

« الفكرة » هي التصور الموافق ؛ وهي الحق الموضوعي ، أو هي الحق بوصفه الحق . فحينها يكون الشيء حقاً يكون كذلك بما فيه من فكرة . والشيء يكون فيه من الحق بقدر ما يكون فكرة ، واللفظ Idee كثيراً ما استخدم في الفلسفة بمعنى التصور وأحياناً بمعنى الرأي ، فيقال مثلاً : ليس لدي أية فكرة عن هذه المسألة . وفي هذه الحالة تدل الفكرة على الامتثال . ولكن كنت استعمل الكلمة Idee بمعنى التصور العقلي . وهذا عند كنت ينبغي أن يكون تصوراً ليس مصحوباً بشرط ؛ وفيما يتعلق بالظواهر ينبغي أن يكون التصور العقلي عالياً ، وبعبارة أخرى لا نستطيع أن نصنع من هذا التصور العقلي شيئاً غريباً موافقاً له . وعلى هذا فكنت يرى أن التصورات العقلية تفيد في التصور ، وتصورات الذهن تفيد في الإدراكات . أما نحن فنحفظ بكلمة « فكرة » Idee للتصور الموضوعي الواقعي ونميزها من التصور نفسه . وأكثر من هذا نميزها من مجرد الامتثال ونحن ننبذ المعنى الذي تفهم به الفكرة على أنها شيء غير واقعي كما يقال عن التفكير الصحيح إن هذه ليست إلا مجرد أفكار .

والوجود يبلغ معنى الحق حينها تكون الفكرة هي الوحدة بين التصور والواقع ، فيصبح الوجود هو الفكرة ، ومع ذلك فإن الفكرة ليس لها فقط المعنى العام للوجود الحقيقي وللوحدة بين التصور وبين الحقيقة الواقعية ، بل لها معنى أدق هو وحدة التصور الذاتي والموضوعية ، ذلك أن التصور ، بوصفه تصوراً ، هو الهوية بين الذات والواقع الحقيقي لأن العبارة غير المحددة : « الحقيقة الواقعية » معناها فقط « الموجود المحدد » وهذا المعنى يوجد في التصور من حيث أنه مفرد جزئي .

وبالجمله فإن الفكرة هي أولاً الحياة ، هي التصور الذي إذا ميز بينه وبين موضوعيته نفذ في موضوعيته نفسها . -

مواد العيان الحسي ، أما الحقيقة العميقة للأشياء فتندُّ عنا ولا تقدر على الوصول إليها .

ومن هنا انتهت التقديرة الكتبية إلى وضع الشيء في ذاته في مقابل الظاهر ، أما هيجل ( وكذلك فشته وشلنج ) فيرى أنه لا يوجد شيء في ذاته ، ولا توجد حقيقة مستقلة عن العقل ، وإن كان هذا لا يدل على أنه لا يوجد كما يقول بركلي إلا كائنات مفكرة ، لأن هذه الصورة من المثالية ساذجة في نظر هيجل ، وهي المثالية التي تدعي أن الأشياء الحسية ليست إلا علماً ذاتياً هو عالم الشعور ، لأن هيجل ينكر هذه الدعوى ، دعوى أن المحسوسات لا وجود لها إلا في عالم الشعور والإحساس والوعي ، وقد قال هيجل في كتاب « علم الجمال » :

« إن ريش الطيور المتعدد الألوان يرفُّ حتى لو لم يره أحد ، وغناء الطير يتردد حتى لو لم يسمعه أحد ، وشجيرة كاراثوس التي لا تزهر إلا ليلة واحدة ، والغابات الاستوائية التي تشتبك فيها النباتات الجميلة الغنية ، تنبعث منها عطور فاغمة ، وكل هذا يفنى ويسقط دون أن يستمتع به أحد .»

وكل هذا يدل على أن هيجل يرى أن هذه المحسوسات وجوداً مستقلاً قائماً برأسه لا يتوقف على الامتثال الأساسي له . أما المثالية الهيجلية فتقول إن « الفكرة » هي المطلق ؛ و « الفكرة » هاهنا Idee تشابه « الصورة » عند أفلاطون وهي التي بالمشاركة فيها تتكون جميع المحسوسات . بيد أن ثمة تفرقة كبيرة بين « الفكرة » عند هيجل وبين « الصورة » عند أفلاطون ، لأن « الصورة » الأفلاطونية عالية . ومذهب أفلاطون ثنائي يقول بالثنائية بين العقل والمادة ، بين العالم المعقول والمحسوس . أما « الفكرة » الهيجلية فهي محايدة Immanente ، وفلسفة هيجل فلسفة عايشة . وعنده أن المطلق هو الذات الكلية التي تنتظم كل شيء . وكل الأشياء ليست إلا تطورا ونموا دياكتيكية عن الفكرة الأصلية . وهذه الذات الكلية هي عينها « الفكرة » أو « التصور » عند هيجل (Begriff) وكلمة « البيجراف » في الألمانية تعني الشمول أو الإدراك الشامل . ومن هنا فإن كلمة « التصور » معناها الشمول والكلية . وعلى هذا فإن التصور الهيجلي هو الكلي الذي ينتظم كل تعيناته ويشملها في تطور دياكتيكي .

وهذا المعنى التصور هو العيني عينية مطلقة . ويميز هيجل بين الفكرة وبين التصور ، مع ذلك ، على أساس أن

والعقل يدرك « الفكرة » على أنها حقيقة المطلقة ، وعلى أنها الحقيقة بذاتها ولذاتها . والفكرة المطلقة هي الهوية بين الفكرة النظرية والعملية . والفكرة المنطقية محتواها هو ذاتها . وهكذا نجد هيجل في الكتاب الثالث من « علم المنطق » يخصص فصلاً طويلاً لتحديد معنى الفكرة ، والفكرة المطلقة ، وكيف تتطور الحقيقة الواقعية ابتداءً من الفكرة ، ذلك أن الفكرة هي في نظر هيجل الكلي ، وهي علمية موضوعية . هي الكلي كما يدركه الذهن ، وهي الكل ثانياً بمعنى التصور ، أي بمعنى الإدراك المحدد العيني للمضمون .

إن الفكرة هي التصور من حيث يتحقق ، التصور حينما يمتلئ بذاته ، فمثلاً : النفس تصور ، وهذا التصور يمتلئ بحقيقة في داخل الجسم ، ومن هنا تنشأ الحياة ، وإذا انفصل التصور عن الواقع نشأ عنه الموت .

والفكر عند هيجل هو أولاً جوهر الأشياء الخارجية ، وهذا الجوهر يكون في الطبيعة على صورة عقل متحجر كما قال شلنج ، يتبدى على هيئة قوانين الجواهر والأجناس والأنواع . وثانياً : الفكرة هي الجوهر الكلي للعقل . ففي كل عيان إنساني يوجد الفكر ، كذلك الفكر هو العنصر الكلي في كل امثال ، وفي كل تذكر ، وبالجملة في كل نشاط عقلي وكل إرادة وكل رغبة . ولهذا ينبغي أن ننظر إلى الفكر على أنه المبدأ الكلي الحقيقي ، لكل وجود طبيعي وروحي ، إن الفكر يسيطر ويتنظم كل الأشياء ، وهو الأساس في كل الأشياء .

### مذهب هيجل

مذهب هيجل يتألف من ثلاثة معانٍ رئيسية :

( أ ) الفكرة ( ب ) الطبيعة ( ج ) الروح

وهذه المعاني الثلاثة ترجع إلى معنى واحد هو « الفكرة » Begriff فالفكرة هي المطلق ، وله ثلاث مراحل في ثلاث لحظات هي :

الوضع thèse ؛ النفي antithèse ؛ التوحيد والتأليف أو المركب synthèse ويمكن التعبير عن هذه اللحظات الثلاث بقولنا الموضوع ، ونقيض الموضوع ، ومركب الموضوع ونقيضه .

الفكرة هي أولاً الفكرة الخالصة ، أو الفكرة المحض ، وهي الأساس في كل وجود طبيعي وروحي . وتناظر في المذاهب القديمة الروحية : الفكر الإلهي قبل خلق العالم .

وهي ثانياً الفكرة المتخارجة ، أي التي تخرج عن ذاتها لتتبدى على هيئة الطبيعة في المكان والزمان .

وهي ثالثاً الفكرة حين تنطوي على نفسها وتدخل في ذاتها بعد هذا الخروج عن ذاتها ، وهذا الخروج عن ذاتها يسمى باسم *aliénation* ، أي أن يكون الشيء غير نفسه لكي يصبح روحاً أو عقلاً حقيقياً وفكراً شاعراً بذاته ، وتبعاً لهذه اللحظات الثلاث ينقسم المذهب في الفلسفة الهيجلية إلى :

المنطق وفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح أو العقل

وقد وحد هيجل فيما بين الفكر والعقل حتى ليتمكن أن يقول إن العقل في المذهب الفلسفي يدرس من نواح ثلاث :

فهو يدرس في حالة كونه مجرداً وذلك في المنطق ويدرس من حيث تحققه في الكون وذلك في فلسفة

الطبيعة

ويدرس من حيث أنه يتحقق عن طريق الفكر والنشاط الإنساني وذلك في فلسفة الروح .

والمنطق هو حجر الزاوية في فلسفة ( مذهب ) هيجل ، ويجب أن ننظر إلى المنطق نظرة مخالفة للنظرة التي اعتدناها ونحن ندرس المنطق الصوري ، فكما يقول هيجل : « المنطق هو وما بعد الطبيعة شيء واحد » : إنه هو نفسه العلم الذي يدرك الأشياء في الفكرة ، وهذه الأشياء تعبر عن ماهيات الأشياء ، وبعبارة أخرى المنطق هو العلم الباحث في الماهيات العقلية . ونحن نقول إن الفكر موضوعي وإنه يؤلف للمبدأ الباطن للكون ، فيبدو أننا نعزو إلى الأمور الطبيعية وعياً وشعوراً ، ولكننا نشعر بفور لتصور النشاط الباطن للأشياء على أنه فكر ، لأننا نقول عن الإنسان إنه يتميز عن الأشياء الوضيعة بالفكر ، فكيف نعزو إلى الأمور الطبيعية فكراً ، وهو الفاصل المميز للإنسان عن سائر الكائنات في الطبيعة ؟ ووفقاً لهذا يجب أن ننظر إلى الطبيعة على أنها أفكار غير مشعور بها ، وكأنها عقل متحجر على حد تعبير « شلنج » . لكن تجنباً لكل سوء فهم ينبغي أن نستخدم الكلمة « تحديد الفكر » بدلا من « الفكر » . وهذا المعنى للفكر وتحديداته تجلده معبراً عنه تعبيراً دقيقاً في الصيغة القديمة وهي العقل أو النوس nous الذي يحكم العالم ، ونحن نعبر عن هذه الصيغة حيننا نقول إن العقل يسكنه ويتقوم به أو هو محايث فيه يؤلف طبيعته الخاصة الباطنة ، ويكون الطبيعة الكلية .



الثلاث من موضوع ، إلى تقيضه ، ثم إلى المؤلف من كليهما أي مركب الموضوع . وفي هذا يقول : إن السير الديالكتيكي كما نفهمه هو إدراك التعارض في الوحدة ؛ أو إدراك الموجب في السالب وهذا السلوك هو سلوك الفكر النظري ، ويقول في موضع آخر : أطلق كلمة ديالكتيك على المبدأ المحرك للتصور من حيث أنه ليس فقط يحل تجزئيات الكل بل وأيضاً هو الذي يحدثها . واللفظ ديالكتيك لا يعني أن موضوعاً أو قضية أو شيئاً معطى للشعور أو العاطفة أو الوعي المباشر ينحل ويختلط من أجل أن نشق منه مضاداته فهذا هو الديالكتيك السليبي كما نجده عند أفلاطون ، لأن النتيجة الأخيرة لهذا الديالكتيك السليبي هي أن نقدم المضايد في أمثال ما ، وهو أمر يمكن أن يدرك على نحو ما أدركه الشكاك القدماء على أنه تناقض ، أو يدرك على النحو الفاسد الذي أدركه عليه المحدثون ، أي على أنه اقتراب من الحقيقة ، بينا الديالكتيك العالي للتصور فحواه إدراك التحدد ليس فقط على أنه حد ومضاد ، بل وأيضاً على أنه يُخرج من ذاته محتوى ونتيجة إيجابيين . وعلى هذا فالديالكتيك يمكن أن يكون نمواً وتقدماً باطنياً محايثاً ، وعلى هذا فالديالكتيك ليس نشاطاً ذاتياً لفكرة خارجية ، بل هو عينه روح المحتوى الذي يتج عضواً فروعه وثماره . إنه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقلها الخالص . والفكر الذاتي لا يفعل أكثر من أن يشاهد هذا التطور دون أن يساهم بشيء من جانبه ، والتعينات في تطور التصور هي من ناحية تصورات ، ومن ناحية أخرى ما دام التصور هو في جوهره الفكرة ، فإن هذه التعينات لها أيضاً شكل الوجود العيني في الحقيقة الواقعية . وسلسلة التصورات التي نحصل عليها هكذا هي في الوقت نفسه سلسلة من الأشياء الواقعية الحقيقية العينية ، والفكرة ينبغي أن تتحدد في ذاتها لأنها في البدء ليست إلا فكرة مجردة ، ومع ذلك فإن هذا التصور المجرد في البداية لا يترك أبداً ، بل يسري في داخل ذاته دائماً .

والتعين الأخير يكون أغنى التعينات . والتعينات التي كانت سابقاً موجودة في الداخل فحسب تصل بهذا إلى استقلالها الحر ، ولكن التصور يظل هو الروح التي تمسك بالمجموع وتستعيد امتلاكه لتفاضلها الخاص عن طريق عملية باطنية . وعلى هذا لا يمكن أن نقول إن التصور يصل إلى شيء جديد ، والتعين الأخير يصل إلى الأول في وحدته ، فإذا ابتداء التصور وقد انشق على نفسه مدة وجوده فليس هذا إلا

فإذا حق لنا بعد هذا الذي تقدم ، أن ننظر إلى المنطق على أنه نظام التعينات الخالصة للفكر فإن سائر العلوم الفلسفية من فلسفة الطبيعة وفلسفة العقل تبلو لنا على أنها منطق ، لأن المنطق هو الروح التي تشيع فيها ، ومعنى هذا إذن أن موضوع المنطق هو بعينه موضوع الطبيعة وفلسفة العقل ، ولكنه العقل عضواً في المنطق ، والعقل مطبقاً في حالة تخارج في فلسفة الطبيعة ، والعقل في حالة استبطان في فلسفة الروح أو العقل . والتعينات المنطقية للفكر عقول عضوة ، إن هذه التعينات هي أعمق عماتق الأشياء وهي في نفس الوقت الأمور التي تردد في أفواها باستمرار ، ولهذا السبب تبلو لنا شيئاً مألوفاً معروفاً ، والواقع أنها أبعد الأشياء عن المعرفة ، فمثلاً الوجود هو تعين خالص للفكر ، ومع ذلك فلا يخطر ببالنا أن نجعل اللفظ الدال على الوجود موضوعاً للبحث .

ونذكر عادة أن المطلق ينبغي أن يكون موجوداً في عالم آخر ، مع أنه هو في الواقع أرسخ الأشياء حضوراً فينا لأننا بوصفنا كائنات عاقلة مفكرة نحمله في داخل نفوسنا ، ونستعين به وإن كنا لا نشعر بذلك . ويقال عادة إن المنطق لا يعني إلا بالأشكال والصور ، بينما هو يستمد محتواه من غيره ، لكن الأفكار المنطقية ليست شيئاً جزئياً بالنسبة للمحتوى ، بل المحتوى هو الجزئي بالنسبة للأفكار لأنها هي الأساس الموجود في ذاته ولذاته بالنسبة لكل الأشياء . وهكذا يتحدد لنا المنطق عند هيجل على أنه في نفس الوقت علم الوجود ، فما دام الوجود مجرد صفة من صفات الفكر ، لا العكس ، فإن البحث في المنطق بحث في الوجود .

إن الواقع عقلي خالص ، وعلى ذلك فإن البحث في الوجود هو البحث في الفكر وقوانينه ، وما يبحث العقل من قوانين هو في الواقع قوانين الحقيقة الواقعية ، وعلى ذلك فإن مقولات الفكر هي بعينها مقولات الوجود . فإذا كان الفكر ديالكتيكي الطابع فما ذلك إلا لأن الوجود نفسه ديالكتيكي . فالديالكتيك الفكري ليس غير انعكاس للديالكتيك الواقعي ، والمنطق لا يتبع الواقع بل العكس . صحيح إن المنطق يبدو وكأنه ملكوت الظلال ، لكن هذه الظلال ما هي إلا الماهيات المجردة المعراة عن كل ما هو محسوس . وبهذه الماهيات يتألف الكون كله .

وهيجل يجدد في مواضع عديدة ما يقصده بالمنهج الديالكتيكي . وخلاصته أن نمو أو تطور الفكر يجري من الوضع إلى السلب ، إلى التأليف بينهما ، أي على أساس هذا

وإيجاب ، وإذا نظرنا الآن إلى الفكر فسرى أنه هو أيضاً في حالة هوية مطلقة مع ذاته . وهكذا نرى أن نفس التحديد يطلق على الوجود والفكر معاً . ومع ذلك ينبغي ألا ننظر إلى هذه الهوية للوجود والفكر على أنها هوية عينية ، وبالتالي ينبغي ألا نقول عن الحجر بوصفه كذلك إنه في حال هوية مع الإنسان المزود بالفكر ، واللحظة العينية شيء يختلف عن اليقين المجرد بوصفه كذلك . لكن حين نتحدث عن الوجود ليس ثمة مجال للتحدث عن شيء عيني لأن الوجود تجريد مطلق ومن هنا ترى أيضاً أن المسألة المتعلقة بوجود الله وهو أكثر الأمور عينية لا تقدم إلا فائدة قليلة من حيث التساؤل عن جلوى واقع المسألة . ولما كان التغيير هو أول لحظة عينية فإنه هو أول تعين حقيقي للفكر . وفي تاريخ الفلسفة مذهب هيرقليطس هو الذي يناظر هذه الدرجة من الفكرة المنطقية فحين قال هيرقليطس « كل شيء يسيل » فإنه وضع بذلك التغيير تحديداً أساسياً لكل ما هو موجود . وينبغي أن نقول إن التغيير في ذاته ولذاته هو تحديد فقير جداً وينبغي أن يُسمى من أجل أن يكتمل وأن يدخل في الطبيعة على نحو أعمق ، وهذا التحديد الأعمق للتغيير نجده مثلاً في الحياة ، فالحياة تغير ولكنها لا يستنفد معنى الحياة ، ونجد التغيير على نحو أعلى في الروح أو العقل لأن الروح تغير أيضاً ، لكنه تغير أشد وأغنى من مجرد التغيير المنطقي ، والملاحظات التي يؤلف العقل وحدتها ليست لحظات بسيطة مجردة للوجود واللاوجود ، بل نظام الفكرة المنطقية ونظام الطبيعة .

وزيد هيجل في تحديد معاني الوجود فيقول إن الوجود هو الوجود مع إمكان تحديده تحديداً مباشراً ليس فيه ثم غير الوجود ، وهذا ما يكون الكيفية ، والوجود في هذا التحديد للكيفية ينعكس على نفسه فيصبح الكائن الموجود . وفي كل شيء مزيج من اللاوجود والوجود . فالزهرة لو كانت زهرة فحسب لظلت إلى الأبد ولكنها تنكر ذاتها وتلدخض نفسها ، وذلك بأن تذبل كي تصبح ثمرة وخبثاً ، وهكذا كل موجود يحوي في داخله اللاوجود الذي بفضلته يتطور وينمو ، فلو لم يوجد نقي وسلب في الوجود لما حدث تطور ونمو . وهذا طبعاً يخضع للمبدأ الأساسي عند هيجل وهو أن « الوجود يحتوي في داخله على الوجود واللاوجود في وقت واحد معاً أي أن التناقض طبع الوجود ، وكل مقولات الوجود تنمو ابتداء من الصيرورة وتبسيط الديالكتيك الهيجلي يمكن القول بأن التغيير هو الانتقال من كيف إلى كيف آخر ، وكل الصفة تعين وجوداً

مجرد مظهر فحسب ينكشف على هذا النحو في التلقم ، لأن كل الخصائص الجزئية تعود في النهاية إلى جِصن الكل ، وفي العلوم التجريبية يحلل عادة ما هو موجود في الامثال ، فإذا ما أرجعنا الجزئي إلى المشترك كان هذا يسمى تصوراً .

ومن هذا النص يتبين أن الديالكتيك هو نحو التصور لكي يُعني ويُسمى ما يتضمنه ، وذلك بالسير وفقاً لهذه المراحل الثلاث من وضع ، إلى رفع ، إلى تأليف جامع بين الوضع والرفع .

### نظرية الوجود

منطق هيجل يتضمن ثلاثة أقسام رئيسية :  
نظرية الوجود ونظرية الماهية ونظرية التصور

أما الأولى فتدرس المقولات الأبسط والأقل تحديداً وهي مقولات المباشرة . وتبدأ هذه النظرية بفكرة الوجود أو الوجود Sein, Etre والوجود هو الفكرة الأكثر تجريداً والأكثر كلية ، وتبعاً لهذا هي الأكثر فراغاً من المحتوى ، والوجود الذي ليس هذا ولا ذاك ليس بشيء : إنه واللا موجود سواء . وهذا التناقض بين الوجود واللاوجود والصيرورة أو التغير هو الفكرة العينية الأولى . وبهذا هو التصور الأول ، بينما الوجود والعدم مجردات خاوية .

وفي هذا يتشابه هيجل مع هيرقليطس : يعني أن كل شيء في تغير ولا شيء في ثبات ، وليس المطلق إلا هذه العملية المستمرة للتغير . ومن هنا يقول هيجل إن المطلق عملية ، ويقول مرة أخرى بعد ذلك : « حينما نتحدث عن فكرة الوجود فإنا نريد بهذا أن نقول إن هذه الفكرة تقوم في التغير والصيرورة لأنها بوصفها الوجود هي اللاوجود الخاوي وبالتالي اللاوجود بوصفه لا وجود هو الوجود الخاوي ، وهكذا نجد أن لدينا في الوجود اللاوجود وبالعكس » .

وهذا الوجود الذي يبقى في ذاته في اللاوجود هو التغير أو الصيرورة وينبغي ألا نرفع الخلاف في وحدة الصيرورة لأنه بغير الخلاف نرجع إلى الوجود المجرد . فالصيرورة أو التغير هي وضع ما هو الوجود في الحق ، وتعبير أوضح : التغير هو حال الوجود على وجه الصواب . ونسمع كثيراً ما يقال إن الوجود مقابل الفكر ، ومن هذه الناحية ينبغي أن تساءل أولاً : ماذا يقصد بالوجود ؟ إذا أخذنا الوجود كما يحده التأمل فنقول عنه إنه العنصر الذي في هوية مطلقة وتوكيد



ولكن ليس لنا أن نهم بهذا الزعم القائل بعدم وجود تناقض ، ذلك أن التعبير المطلق للماهية ينبغي أن نجده في كل تجربة وفي كل حقيقة واقعية وفي كل تصور .

« وحينما تحدثنا ( مشيراً إلى قول سابق ) عن اللامتناهي ، وهذا هو التناقض كما يبدو في نطق الوجود ، فإننا قلنا نفس الشيء . » ويرد هيجل على كل الاعتراضات قائلاً : إن التجربة تدلنا على أن ثمة كثيراً من الأشياء المتناقضة وكثيراً من النظم والمؤسسات المتناقضة وتناقضها لا يوجد فقط في التأمل الخارجي ، بل يوجد أيضاً في نفس الأشياء . وكذلك ينبغي ألا ننظر إلى التناقض على أنه مجرد شذوذ لا يبدو كذلك إلا هاهنا وهاهناك ، بل التناقض هو السلب في تعينه الجوهرية ، هو مبدأ كل حركة تلقائية ، فما الحركة إلا مظهر من مظاهر التناقض ، فالحركة الحسية الخارجية بذاتها هي وجود التناقض المباشر نفسه ؛ فإن الشيء يتحرك ليس فقط بوصفه يوجد في لحظة ما هاهنا وفي الأخرى هاهناك ، ولكن أيضاً بوصفه في نفس اللحظة هنا ولا هناك ويوصفه هو في نفس الوقت ليس في نفس المكان . وينبغي أن نعترف مع القدماء الديالكتيكيين بالتناقضات التي كشفوا عنها في الحركة . لكن لا يتبع عن هذا أن الحركة لا توجد ، بل إن الحركة هي التناقض الموجود فعلاً في التجربة . كذلك الحركة الذاتية ، وهي الميل أو الاندفاع عامة ، معناها فقط أنه من ناحية واحدة الشيء يوجد في ذاته وفي نفس الوقت هو عدمه وإنكاره ، فالهوية المجردة مع الذات ليس لها أية حيوية ، لكن بحكم أنه الايجابي هو في نفس الوقت سلب ، فإنه يخرج من ذاته وينخرط في التغير . وعلى هذا فإن الشيء لا يكون حياً إلا بمقدار ما يتضمنه من تناقض ، فيملك قوة الامساك بهذا التناقض في نفس الوقت ، وحينما يصبح الموجود عاجزاً في تحلده الوضعي عن الانتقال إلى التحدد السلبي وعن الاحتفاظ بالايجاب والسلب معاً ، أو حينما يصبح عاجزاً عن أن يحتل في داخل ذاته التناقض ، فإنه لا يكون وحدة حية ، ولا يصبح أساساً بل يتداعى وينهار أمام التناقض . والتفكير النظري فحواه أنه يتبين التناقض ويحفظ بنفسه فيه بينما التفكير العادي يستسلم للتناقض ، ويجعله غير أو يقضي على تعيناته .

وإذا كان التناقض يتضح في الحركة بقناع البساطة فإنه في التعين الإضافي يتبين بكل جلاء الأمور المتضادة وهي الأعلى والأسفل ، واليسار واليمين ، والوالد والابن . . . .

تجريبياً أو أية Dasein والكائن الذي يتعين من حيث أنه يعارض كائناً آخر ، هو كائن لذاته Fur sich Sein فالحركة الديالكتيكية تقود من الكيف إلى الكم ، وبهذا نصل إلى المقياس ، والمقياس مقدار يتوقف عليه الكيف : فمثلاً الماء وفقاً لدرجة الحرارة يظل سائلاً أو يستحيل ثلجاً ، أو بخاراً .

ولقد أشرنا إلى أن هيجل يرى أن كل وجود ينطوي على لا وجود ، وأن هذا هو الأساس في كل وجود وقلنا إن معنى التناقض هو في أصل الوجود ، وعلى حد تعبيرنا « الوجود نسيج الاضداد » وهيجل يتوسع في هذه الفكرة في فصل طويل في كتاب « المنطق » ( القسم الثاني ص ٥٨ : ٦٢ ) فيقول إذا كانت التعينات الأولى العقلية ، وهي الهوية والاختلاف والتقابل تقرر بوصفها مبادئ فبالأحرى والأولى ينبغي أن ننظر وأن نقيم مبدأ التحدد الذي فيه تصبح هذه الامور في وضعها الصائب أعني أن التناقض ينبغي أن نصوغ مبدأه على النحو التالي : كل الأشياء متناقضة في ذاتها .

وهذه الجملة تعبير عن حقيقة الأشياء وماهيتها ، والتناقض الذي يبدو في التقابل ليس إلا العلم المتضمن في الهوية ، والذي يصبح ظاهراً في القضية التي تقول أن مبدأ الهوية لا يقول شيئاً وهذا النفي حين يستمر في تحديد ذاته يصبح اختلافاً أي يصبح تناقضاً موضوعاً . ومن المعاني السابقة الموجودة في المنطق التقليدي والتصور العام أن يقال إن التناقض ليس تعيناً محايثاً جوهرياً مثل الهوية . لكن إذا كان الأمر هاهنا ترتيباً تصاعدياً ؛ وإذا كان من الممكن النظر إلى هذين التحديدين ( التناقض والهوية ) على أنها مستقلان الواحد عن الآخر ، فبالأحرى التناقض ينبغي أن ننظر إليه على أنه التحديد الأعمق والأفضل بالجوهري . فالهوية بورتائه ليست إلا تعيناً للمباشر البسيط للكائن الميت ، بينما التناقض هو جذب كل حركة وكل حيوية . فالشيء يكون قادراً على الحركة والوثبة والنشاط بالقدر الذي به يتضمن تناقضاً والتناقض هو عادة ما ينبذ من الأشياء أولاً ، ومن الوجود ومن الحق بوجه عام . ويقال خصوصاً لا شيء متناقض ومن ناحية أخرى يلقي بالتناقض في التأمل الذاتي بأن يقال إن التأمل هو الذي يضع التناقض بروابطه ومقارناته . ولكننا لا نستطيع أن نقول إن هذا التناقض موجود في هذا التأمل لأن التناقض لا يمكن التفكير فيه ولا امتثاله ، سواء كان التأمل متعلقاً بالحقيقة الواقعية أو بتأمل المفكر ، لأنه بالنسبة للتفكير المعتاد ، التناقض بعد مجرد عرض أو حالة مرضية طارئة ،

قال هيجل : « اللامتاهي مأخوذ بمعناه العام حينما يترك على شكل تقدم لا متناه ، هو عملية تجاوز الحد الكيفي أو الكمي بحيث يصير هذا الحد إيجابياً ، ويظهر دائماً بعد نفيه . ولكن اللامتاهي الحقيقي هو نفي النفي بالقدر الذي به يتضمن الحد في النفي الحقيقي ، وفيه لا يضح التقدم عبر المتاهي حداً جديداً ، ولكن لتجاوز الحد يستعيد الوجود هويته مع ذاته . »

ويعقب على هذا في موضع آخر فيقول : « إن الموجود المحدد له حد لا في اللا وجود المعين ولكن في وجود آخر معين ، فالأشياء التي تتحدد بذاتها لها علاقة تبادلية إيجابية ، والواحد منها له نفس تحدد الآخر ، وعلى هذا فكل موجود معين هو محدد ومتناه ، أي أن كل موجود ينبغي أن يتجاوز بالتحديد ، وهذا نضح التقدم إلى غير نهاية ، والحل الوحيد لهذه التقيضة كما يلي : لا الحد ولا اللامتاهي المذكوران في هذه التقيضة صحيح في ذاته ، لأن الحد من نوع ينبغي أن يتجاوز ، والامتاهي هو ما يقترب منه الحد باستمرار ، والامتاهي الحقيقي هنا هو التأمل في الذات ، والعقل لا يتأمل المعاني في زمانه بل في ماهيته وفكرته . ووجوب الوجود بذاته يتضمن الحد ، والحد يتضمن وجوب الوجود ، وعلاقتها التبادلية هي المحدود نفسه الذي يتضمن كليهما في وجوده الباطن . ولحظات تعينه تتقابل كيقياً ، فالحد يتحدد على أنه سلب لوجوب الوجود كما أن وجوب الوجود يتحدد على أنه سلب للحد . وهكذا نجد أن اللامتاهي هو تناقض ذاته الباطنة ، فهو يتجاوز ذاته ويختفي . . . والامتاهي في تصوره البسيط يمكن أن يعد تحديداً جديداً للمطلق . إنه يوضع على أنه رابطة اللاتمين مع الذات بوصفه وجوداً وحيروية . وأشكال الوجود المتعين تستبعد من سلسلة التعينات التي يمكن أن ينظر إليها على أنها تحديدات للمطلق ، لأن أشكال هذا التعلق لا توضع لنفسها مباشرة إلا بوصفها تعينات أي أموراً نهائية . »

وهكذا نجد أن اللامتاهي هو المطلق لأنه يعين الوجود بوصفه نقياً للمتاهي . والخلاصة أن اللامتاهي هو :

- ( أ ) في تعينه البسيط يكون هو الموجب بوصفه سلباً للمتاهي .  
 ( ب ) لكنه بهذا في تعين متبادل مع المتاهي ، إنه اللامتاهي من طرف واحد مجرد .  
 ( ج ) اللامتاهي يتجاوز الذات لهذا المتاهي ،

وهكذا يتضمن كلا الطرفين المتقابلين في طرف واحد . هذه تحددات في حالة تضاد . فما هو فوق هو ما ليس تحت ، وما هو فوق معناه فقط ألا يكون تحت ، والفوق لا يوجد إلا بوجود تحت والعكس ، وعلى هذا فكل تعين يتضمن بالضرورة مقابله . والوالد هو غير الابن وبالعكس فكل منها هو غير غيره . وفي الوقت نفسه كل تعين من هذه التعينات لا يوجد إلا بالنسبة للآخر ، ووجوده هو مجرد وضع ، ولكن الأب هو في نفس الوقت أيضاً شيء خارج علاقة أو إضافة إلى ابنه لكن لن يكون الإنسان بوجه عام وليس أباً والمتقابلان يتضمنان إذن التناقض بقدر ما يترابط بعضهما بالنسبة لبعض في نقطة معينة ، أو بقدر ما يجاهد كل منهما الآخر ، أو بقدر ما يكون كل منهما سوبياً أو غير مكترث بالنسبة للآخر . والامثال حين ينتقل في لحظة السوية للتعينات ينسى وحدتها السلبية ، ولا ينظر إليها إلا كخلافات ، وهي تعينات فيها اليمين ليس هو اليمين واليسار ليس هو اليسار . الخ . لكنه حين يجد فعلا اليمين أمامه واليسار فإنه يجد نفسه بإزاء تعينات ينفي بعضها بعضاً وتظل سواء بعضها بالنسبة لبعض في نفس الوقت الذي ينفي فيه بعضها بعضاً .

#### ديالكتيك اللامتاهي :

حينما يتحدث هيجل عن المقولات يعرض نظريته المشهورة في ديالكتيك اللامتاهي ، وتصوره للامتاهي الحقيقي . يرى هيجل أنه ينبغي ألا ننظر إلى اللامتاهي على أنه تقدم المتاهي الذي يتقدمه يدفع حدوده باستمرار ، ولكنه بهذا إنما يعطي نفسه حدوداً جديدة فإن هذا التقدم اللا محدود هو اللامتاهي الفاسد أو الزائف ، بينما ينبغي أن ننظر إلى اللامتاهي الحقيقي نظرة ديالكتيكية على أنه ما يتحقق في المتاهي وبالمتاهي حيث يتبدى فرضاً على نفسه حدوداً ينفيها فيما بعد ، ونفي نفسه هذا هو إيجابه ، وبعبارة أخرى اللامتاهي الحقيقي عند هيجل هو « مجموع لحظات الوجود التي تحدد ذاتها بذاتها في كل حد يضمه التغير الكلي . »

ويمكن تصوير اللامتاهي الفاسد بأنه مستقيم يمتد إلى غير نهاية ، وتصوير اللامتاهي الحقيقي بأنه دائرة . فللمطلق يدور بمعنى أن اللامتاهي يتبدى ويعطي نفسه الوجود بأن يحدد نفسه ويصير واحداً ، ذلك أن الوجود غير محدد فيعطي نفسه حداً ، وكل حد هو نفي ، وعليه بعد هذا أن ينفي هذا الحد . فكأنه إنما يؤكد وجوده بنفي النفي ، وهكذا يستمر أبداً .

### الماهية

الماهية عند هيجل هي ما يستتر تحت المظاهر المتغيرة للوجود التجريبي . فمثلا مظهر الثلج والماء السائل وبخار الماء ، كلها مظاهر تجريبية خارجية تستتر تحتها ماهية الماء بوصفه في هوية دائما مع ذاته . وعلى هذا فلماهية هي في مقابل ما يقع تحت الحس أي الظاهر . ومن هنا يبدو الوجود مزدوجاً ، أي يبدو على وجهين ينعكس كل منهما في الآخر . وفي هذه الحالة نجد أن الحدود تتقابل هاهنا مثنى مثنى ، مثل الهوية والاختلاف ، الأساس والنتيجة ، الشيء والخواص ، القوة ومظاهر تحققها ، الداخِل والخارج . ومع أن كل مثنى يستبعد طرفه كلاهما الآخر فإن كلا منهما يدعو الآخر في نفس الوقت ، فالشيء مثلا لا يكون شيئاً إذا جردناه عن خواصه التي هي بمثابة انعكاس له في ذاته ، والقوة ليست إلا مقداراً خاوياً إذا فصلناها عن مظاهر تحققها . ومن هنا فإن تفسير الظاهرة بالقوة المحلثة لها هو مجرد تحصيل حاصل . ومعنى هذا أن كل مثنى رغم أنها متضادان فأنهما يؤلفان وحدة . فالتقابل بين طرفي كل مثنى تقابل وهمي فحسب ، وأشد هذه التقابلات وهماً التقابل بين الظاهر والباطن ، والداخِل والخارج . فالتأمل العادي ينظر إلى الماهية على أنها ليست شيئاً آخر غير باطن الأشياء ، والواقع أن الداخِل والخارج مضمونها واحد . فالإنسان في خارجه هو تماماً الإنسان في داخله ، أي أن الإنسان في أفعاله هو هو الإنسان في باطنه ، ولو قلنا إنه كذا باطناً فحسب ، أي من حيث النوايا والعواطف ، وليس باطنه في هوية مع خارجه ، فإن كليهما يكون خاوياً ، إذ لا معنى لفصل الباطن عن الخارج ، بل يجب أن نقول إن الإنسان ليس شيئاً آخر غير سلسلة أفعاله ، ولهذا فإن ما هو باطنه محض هو في الوقت نفسه وبهذا عينه خارج محض ، فعقل الطفل مثلا ليس في البداية إلا إمكانية باطنية ولا يتحقق حقاً إلا بالتربية باتخاذ صورة سلطة خارجية هي إرادة أبويه وتعليم معلميه ، فكأن الطفل أولاً في ذاته وبالتالي بالنسبة إلى غيره غير كذا فأصبح بالتعليم كذا لذاته .

ومن هنا ينبغي ألا نتق بالعبارات التي تتحدث عن النوايا الطيبة التي لا تترجم عنها الأفعال الطيبة . وبعبارة أوضح يرى هيجل أن الداخِل والظاهر كلاهما شيء واحد ، فلا يجوز أن نقول إنه في الداخِل كذا والظاهر كذا ، بل هو في الظاهر كما هو في الباطن ، لأنه لا معنى للظاهر إلا بالباطن ، ولا معنى للباطن إلا بالظاهر . على أن هذه الحدود المتقابلة

والمتناهي بوصفه كذلك عملية واحدة وحين ذلك يكون هو اللامتناهي حقيقة .

وبهذا نصل إلى تحديد متبادل للإثنين ، فالمتناهي متناه فقط في العلاقة مع وجوب الوجود ، واللامتناهي غير متناه فقط في علاقته مع المتناهي ، والواحد منها غير منفصل عن الآخر ، وهما غيران ، وإن كان كل منهما يتضمن الآخر في ذاته . وعلى هذا فكل منهما هو وحدة ذاته مع غيره ، وفي تعيينه يكون وجوداً متعياً ، أي لا يكون وجوداً على ما هو عليه غيره ، وهذا التعين المتبادل الذي ينفي ذاته وينفي سلبه هو ما يبدو أنه يتقدم إلى غير نهاية وهو الذي في كثير من الأشكال والتطبيقات يظهر أنه نهائي لا يستفاد منه . والفكر العادي يعتقد أنه بلغ الغاية حينما يصل إلى هذه العبارة : « وهكذا إلى غير نهاية » .

وهذا التقدم يبدو أينما دفعنا التعينات النسبية إلى مقابلاتها بحيث تصبح هي وهذه المقابلات وحدة لا تقبل الانفصال ؛ وفي الوقت نفسه تنسب إلى كل منها بالنسبة للآخر وجوداً مستقلاً ، فهذا التقدم هو إذن التناقض الذي لم يحل ، بل هو تناقض يعلم دائماً أنه حاضر . ومعنى هذا أن التناقض حاضر باستمرار ، واللامتناهي كذلك في جميع عمليات الوجود .

على أن هيجل يتناول بعد هذا جملة مباحث متصلة بالوجود لذاته والواحد والكثير فيقول إن الوجود بذاته بوصفه ذا علاقة مع ذاته يسمى المباشرة *Unmittelbarkeit, im-* أما بوصفه يؤلف علاقة سلب مع ذاته فإنه هو *mediatité* والوجود لذاته المعين أو الواحد . والواحد هو لحظة تستبعد كل اختلاف يختفي فيه الغير ، لكن العلاقة بين حد سلبي وبين نفسه هي علاقة سلبية ، وبالتالي الواحد يتفاضل ويتردد ذاته ، وهذا يضع وحدات كثيرة ، وهذه الوحدات في حالات مباشرة تكون موجودات متميزة يرفض بعضها بعضاً ويستبعد بعضها البعض .

غير أن هيجل يتابع تحليل فكرة الواحد والكثير تحليلاً ينتهي منه إلى أن الواحد هو الكثير ، وبالعكس . ويؤكد هذه الحقيقة على أنها نوع من التغير أو العملية لا على أنها الوجود كما يوضع في وحدة ساكنة في قضية . وبهذه المناسبة يتحدث كذلك عن بعض المقولات الكبرى ، وخصوصاً مقولتي الكم والكيف .

المباشر تجري المعرفة بالماهية ، وهذه الحركة التي تصور على أنها طريق المعرفة تبدو على أنها نشاط للمعرفة يبدأ بالموجود ويستمر متجاوزاً إياه كيما يبلغ الماهية ، ويبدو هذا النشاط خارجاً عن الوجود وبغير علاقة معه . غير أن هذا التقدم في المعرفة هو حركة الوجود ذاته ، وفي الوجود تكشف ، وأصبح ماهية هذه الحركة المتجهة إلى باطن ذاته .

والماهية وجود متجاوز ، إنها هوية بسيطة مع الذات بالقدر الذي هي به فهي لميدان الوجود . وهكذا نجد أنه في مقابل ويزاء الماهية يوجد الوجود المباشر بوصفه عنصراً يصدر عنها . والوجود مظهر ، ووجود المظهر يتألف فقط من الوجود الذي تجلوه الوجود في علمه . والوجود له صفة العدمية في الماهية وفي خارج هذه العدمية أي في خارج الماهية لا وجود للظاهر ، فالظاهر هو السلب للموضوع بوصفه سالبا ، والظاهر هو كل ما يبقى بعد من ميدان الوجود غير أنه يبدو وأن له مظهراً مستقلاً عن الماهية ، ويبدو أنه هو غير الماهية . والغير يتضمن عامة كلا وحدتي الوجود المحدد واللاوجود المحدد ، والجوهري ، لأنه ليس له بعد وجود لا يحتفظ بعد من الوجود إلا بمجرد لحظة اللاوجود فالظاهر هو هذا اللاوجود المعين المباشر . ومن ناحية الوجود الظاهر يوجد بحيث يكون له وجود صريح على هيئة الأنية فقط بالنسبة إلى شيء آخر في عدميته المحددة ، وعلى هذا فإن كل ما يبقى للظاهر ليس شيئاً آخر غير المظهر الخالص للمباشرة im-médiateté فالظاهر يوجد على أنه مباشرة منعكسة بمعنى أنه لا يوجد إلا بتوسط السلب وفي مواجهة المباشرة ليس شيئاً آخر غير التعيين الفارغ لمباشرة اللاوجود المتعين . وهكذا نجد أن الظاهر هو وجود مباشر ليس شيئاً ما ، أو ليس وجوداً سوبياً يوجد خارج تعينه في علاقته مع الذات . فلذا ما خرجنا عن مقولة الماهية التي فيها تقسم الوجود على نحوين ( ظاهر وباطن ) من أجل أن ندخل في نطاق التصور ، أي الكل المعقول الذي يضع تفاضلاته الخاصة منتظماً إياها وشاملاً عليها بوصفها لحظات ما ، وهو بهذا يظهر حرته في مقابل الضرورة التي كانت تسود في ميدان الماهية .

#### نظرية التصور Begriff

يدرس هيجل التصور من ثلاث نواح :

أ- التصور الذاتي الذي يشمل ثلاث لحظات : الكلي ، والجزئي ، والفردية . فالتصور هو الكلي منظوراً إليه

مثنى مثنى في نطاق الماهية نجد تركيبها في مقولة الحقيقة الواقعية ، فالحقيقة الواقعية فيها ينظر إلى الظاهرة على أنها تحقيق كامل مطابق للماهية ، والحقيقة الواقعية في مقابل الإمكان هي الوجود الضروري أو الواجب أو الضرورة العقلية . ومن هنا قال هيجل « إن كل ما هو عقلي هو حقيقي فعلاً ، وأن ما هو حقيقي فعلاً هو عقلي » . فالضروري أولاً هو الجوهر ، ومعنى آخر هو العلة التي تظهر بآثارها . ولكن هيجل يقول بتبادل في الفعل بين العلة والمعلولات ، فالعلة تؤثر في المعلولات وبالعكس . ومن هنا قال هيجل بما يسمى باسم العلية الدائرية ، وتظهر بأبلغ معانيها في الكائنات العضوية ويسمونها باسم الفعل المتبادل Wechselwirkung ولو نظرنا قليلاً في توضيح معنى الماهية عند هيجل لوجدناه يقول :

إن التصور Begriff يوضع في الماهية وضماً عضواً . وتعينات التصور لها في الماهية طابع نسبي خالص ولا تنعكس بعد تماماً على نفسها ، وبالتالي فإن التصور ليس له في الماهية شكل الوجود لذاته والماهية بوصفها ناتجة عن التعينات السلبية للوجود ليست في علاقة مع ذاتها إلا لأنها في علاقة مع حد آخر غير ذاتها ، وهذا الحد ليس هو الوجود المباشر بل الوجود الموضوع وضماً سابقاً عن طريق التوسط . والوجود لا يلقي في الماهية ، والماهية بوصفها لا تكون غير علاقة بسيطة مع ذاتها هي الوجود ، لكن من ناحية أخرى نجد أن التعينات الناقصة للكائن المباشر قد جعلت هذا الأخير ينزل إلى حالة النفي أو السلب ، وبعبارة أخرى أصبح ظاهرة . فالماهية ليست شيئاً آخر غير الوجود الذي يظهر دون أن يخرج عن ذاته ، وفي الماهية العلاقة مع الذات تتخذ شكل الهوية والانعكاس على الذات ، وهذا الشكل يحدث هنا مكان الحالة المباشرة للوجود ، وحقيقة الوجود هي الماهية ، فالوجود هو المباشر . والمعرفة ، وهي تسعى لمعرفة الحق ومعرفة ما هو الوجود في ذاته ولذاته ، لا تتوقف عند المباشر وتعيناته بل تتجاوز هذا المباشر مفترضة أنه وراء هذا الوجود يوجد شيء آخر غير الوجود ذاته ، وأن هذا الأساس هو حقيقة الوجود ، بيد أن هذه المعرفة معرفة متوسطة ، لأنها لا توجد مباشرة فيها وعندما ولكنها تبدأ بالوجود ، وينبغي أن تخترق طريقاً أولاً هو الطريق الذي يمضي متجاوزاً الوجود أو بالأحرى الطريق الذي يذهب في أعماقه . و فقط عن طريق عملية استبطان هي عملية توسط أيضاً ابتداء من الوجود

« عملية » في جوهرها ولا توجد إلا بذلك الديالكتيك الباطن الذي يرد كل لحظات تطور الموجود إلى الذات المطلقة التي تتجاوزها . ويقول هيجل : « إن ثمة صوراً مطلقة ثلاثاً :  
١ - صورة الحياة . ٢ - صورة المعرفة والخير . ٣ -  
صورة العلم والحقيقة نفسها . فالصورة المطلقة في شكلها المباشر هي الحياة التي فيها النفس تحقق التصور في الكائن العضوي ، وفي فكرة المعرفة يبحث عن التصور الذي ينبغي أن يكون مطابقاً لموضوعه ، وفي صورة الخير يأتي التصور أولاً ، وينبغي أن يحقق بوصفه غاية للفعل . والتصور الأعلى هو الفكرة المطلقة ، هو وحدة الحياة والشعور ، هو الكلي الذي يفكر في ذاته ، وفي تفكيره في ذاته يتحقق بنفسه فعلاً .

#### فلسفة الطبيعة

الطبيعة عند هيجل هي الصورة Idée على شكل غيرية بمعنى أنها الفكرة عندما تخرج عن ذاتها وتتخارج من أجل أن تصل إلى إنتاج الحياة الواعية ، ومن ثم إلى أن تدخل في نفسها وتستبطن في فكرة الإنسان . ولهذا فإن سيرورة الطبيعة في صعود نحو الروح . والفكرة تنفق في الطبيعة على الأقل من طريق القوانين التي تحكم هذه الطبيعة ، ولكنها لا تتحقق فيها أبداً ، أي الفكرة إلا على نحو غير مكافئ . وعجز الطبيعة هذا عن البقاء أمينة للتصور يفرض حدوداً على الفكرة فلا نستطيع أن نستبطن كل شيء ، أي أن تستبطن كل الظواهر الطبيعية من العقل أو الفكر ، لأنه يصطدم بالوقائع العرضية ، بالإمكان الخالص ، وحيث يوجد الإمكان والعرض لا يكون ثم قانون ، وبالتالي لا يكون ثم عقل . والعقل إنما تدل عليه القوانين في الطبيعة . وينبغي أن ننظر إلى الطبيعة على أنها تؤلف نظاماً متدرجاً تخرج فيه الدرجات بعضها من بعض ، ولكن ديالكتيك التصور الذي يوجه هذا التطور يظل في داخل الفكرة التي تظل في أساس الطبيعة .

وبحلول هيجل أن يستخلص ديالكتيك الفكرة المعاشة immanent في الطبيعة بأن يستبدل بمقولات العقل الإضافات العقلية للفكر النظري . وهو من أجل هذا يميز ثلاثة مستويات للوجود تتحدد في اتجاه العينية وزيادة الفردية : -  
أولاً : عالم الآليات ثانياً : العالم الفيزيائي الكيماوي ثالثاً : العالم العضوي .

فعالم الآليات هو عالم المادة الجامدة ، والحركة ، وفيه العناصر وهي خارجة بعضها عن بعض ، لا تفعل إلا

لا على أنه هوية مجردة وشكل خالص ، ولكن على أنه فكرة تصبح عينية وتعطي لنفسها محتوى ، وهي تعين ذاتها بأن تصبح جزئية . فالتصور بهذا المعنى هو الأساس في الحكم الذي ليس مجرد ربط بين موضوع ومحمول ، بل كما يدل عليه اشتقاق اللفظ في الألمانية Urteil . فالحكم بهذا المعنى من Urteíl الأصلي ، teil الجزء ، يدل على الانقسام الأساسي للتصور ، والانقسام الذي يفصل الجزئي . والكلمة العربية « فصل » بمعنى حكم ( فصل في قضية ) تناظر الكلمة الألمانية Urteil من حيث فكرة الإنقسام . فالحكم يربط وجود الأشياء بماهيتها الكلية ، فإذا قلنا « سقراط فان » فإننا نربط وجود سقراط بالمعنى الكلي الذي هو الماهية ، والبرهان يوجد بين هذين الطرفين عن طريق حد أوسط ، فالبرهان إذن يقوم بتوسط بين الكلي الفردي عن طريق الجزئي ، فهو يمثل الكلي كما يتحقق في الفردي حينما يتجزأ ، أو الفردي حينما يفهم في الكلي عن طريق الجزئي . والبرهان هو الأساس الجوهرية لكل حقيقة ، فعند هيجل أن كل شيء برهان ، كما أن كل شيء تصور ، وعلى هذا فالتصور ليس شيئاً ذاتياً محضاً ، بل هو يتحقق في الكلية العينية التي يشملها ، وبهذا يصبح تصوراً موضوعياً .

ب- التصور يتموضع ( يصبح موضوعاً ) على ثلاثة أشكال :

- ١ - الآلية التي توضع فيها الأشياء بعضها إلى جوار بعض .
- ٢ - الكيمائية التي فيها تتجاذب الأشياء وتتداخل .
- ٣ - الغائية أي الغائية العضوية التي فيها تسود الغاية وتوجه نشاط الأجزاء ، والغائية تمهد السبيل لمجيء الصورة بالمعنى الكامل ، التي فيها التصور يعود إلى ذاته باتحاد الذاتية والموضوعية . والصورة الكاملة Idee هي أعلى تحديد للمطلق . ويمكن أن تدرك على أنها العقل أو الذات والموضوع ، ووحدة ما هو تصوري وما هو واقعي وما هو متناه وما هو لا متناه ، النفس والجسم ، وعلى أنها الإمكان الذي يجد في داخله تحققه الفعلي . والصورة المطلقة هي الديالكتيك الذي يفعل دائماً ويفاضل ويميز الهويّí identisch, identique من المختلف والذاتي من الموضوعي ، والنفسي من الجسيمي ، والمتناهي من اللامتناهي .

الصورة الكلية ينوع دائم للحياة وروح سرمدية ، وإذا بدت الصورة الكلية مناقضة للذهن فما ذلك إلا لأنها



تلك الكلية المحررة ، هي التي تسلم الحي للموت ، بل السبب الرئيسي في الموت عدم التوافق بين وجوده الفردي وبين الكلية العينية التي يعلنها تصور الموت الذي يتسبب إليه الحي فعدم التوافق هذا هو العلة الأساسية والجراثومة الفطرية في الكائن التي تجعل الموت نتيجة ضرورية .

ولو نظرنا في مذهبه في الطبيعة لوجدنا التقاد يجمعون على أن فلسفته في الطبيعة هي أضعف ما في فلسفة هيجل . وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمذهب يرى أن الفكرة هي الكل في الكل ، ويفسر كل شيء استبطاناً ، صحيح إنه قام بدراسات علمية جيدة ، ولم يكن يحتقر التجربة بالمعنى العلمي ؛ ولكنه لم يكن يعنيه من التجربة إلا جوانبها الكيفية لا الكمية . وهيجل في رسالة الدكتوراه عن « أفلاك الكوكب » ( سنة ١٨٠١ ) بين أنه لا يوجد بين المشتري والمريخ كواكب أخرى ، ولكن جاء التنفيذ في نفس العام باكتشاف الكوكب ( سيريس ) فكان لهذا الاكتشاف الدامغ ولاستدلالاته أثر بالغ فيه ، فحاول أن يخفف من هجومه على نيوتن في طبعاته التالية من « موسوعة العلوم الفلسفية » .

ونظراً لهذا التخلف بين الاستبطان الفلسفي والاكتشاف العلمي فقد كان ينصح طلابه بأن لا يأخذوا من الموضوعات العلمية الخالصة موضوعات لرسائلهم حتى لا يحدث لهم مثل ما حدث له . ولكن موقفه من الطبيعة هو أن الطبيعة لا قيمة لها إلا بالقدر الذي يجعل من الممكن مجيء الشعور والفكر . فهو لم يكن مثل كنت Kant يعجب بالسما ونجومها اللامتناهية ، بل كان يرى أن النجوم ليست إلا طفقاً من البثور المضيئة في السماء ، وعلى الرغم من أن الأرض ليست إلا كوكباً صغيراً جداً ملحقاً بالشمس فإنها في نظره هي المركز الميتافيزيقي للعالم ، لأنها موطن الإنسان ، والإنسان حامل الروح ، فهو يرى المركزية ، من الناحية الروحية والعقلية ، على أساس أن الأرض وحدها هي التي فيها الإنسان . وعند هيجل أن أتفه ثمار الفكر ذات قيمة أكبر بالآلاف المرات من أكبر سير منتظم للأفلاك أو البراءة اللاشعورية للنبات ، أي أن هيجل يضع الفكر فوق أي شيء في الوجود .

ومذهب هيجل يتسم بالواحدية ، أي وحدة الوجود ، وهو لهذا مجد الواحدية أو وحدة الوجود في مواضع عديدة من كتبه وبخاصة في رسالته عن براهين وجود الله ، فمجد

بالجذب والطرده . والصورة المجردة للتقارب هي المكان ، والمكان وجود محسوس لا يدرك بالحواس أو على حد تعبيره « حس لا محسوس » . والصورة المجردة هي الزمان .

والزمان عند هيجل هو غير الموجود بوصفه موجوداً ، وهو الموجود بوصفه غير موجود ، أي الزمان بوصفه موجوداً هو غير موجود ، أو بوصفه غير موجود هو موجود ، أي أن الزمان هو السلب في ذاته ، هو الميلاد والاختفاء . هو Kbro- الذي يلد كل شيء ويقتل كل ما يلد ، لأن الزمان كما يرى أرسطو وأوغسطين لا يمكن إمساكه ، فالماضي مضى وزال ، والمستقبل ليس بعد ، والحاضر لا يمكن الإمساك به ، والزمان يقضي على كل لحظاته فإذا كان مؤلفاً من لحظات فهو يقضي على نفسه بنفسه ، ومن هنا فإن الميثولوجيا اليونانية تمثل « خرونوس » بأنه يأكل أبناءه .

أما الجاذبية فهي ميل المادة إلى الاستبطان ، إنها النزوع إلى الذاتية ، وحركة الأجرام السماوية تبن بكل وضوح رياضيات الطبيعة التي هي المظهر الأوسط للعقلية .

والفزياء عند هيجل موضوعها كل المظاهر الكيفية للعالم المادي كالضوء والصوت والحرارة والكهرباء حيث يتخذ كل شيء شكل الفردية في الأجسام . وفي عالم الفزياء تسود لحظة التعارض والتصالح التي بها يظهر الديالكتيك الطبيعي . والشكل الأبرز للفزياء هو الاستقطاب . والحد الأخير للعمليات الفزيائية هو الكيمائية ، والكيمائية هي التي تمهد لمجىء الحياة . فالفكرة التي كانت مغلوطة في الآلة تتحرر شيئاً فشيئاً في العمليات الفزيائية الكيمائية ، وتتحرر أكثر فأكثر في العالم العضوي الذي فيه يتعين التصور شيئاً فشيئاً في مروره في مراحل المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية . والكائن العضوي يجد في العمليات الكيمائية شروط وجوده ، ولكنه ينبغي عليه أن يقاومها باستمرار لكي يتيسر له أن يعيش . فالشيء لا يكون حياً إلا من حيث يتضمن في داخله التضاد والتناقض ، والشيء الحي هو الذي يملك القدرة على أن يفهم التناقض ، وأن يحتمله في داخله .

والصراع المستمر مع القوى الخارجية المعادية ، هذا الصراع الذي ينبغي على الكائن الحي أن يقوم به وينتصر فيه ، هو الذي يشيع في الحياة الشعور بعدم الأطمئنان وبالقلق . ومن هنا يسود القلق كل ما هو حي ، نتيجة طبيعية لضرورة الكفاح المستمر الذي يقوم به الكائن العضوي ضد القوى الخارجية المعادية ، ولكن ليست قوة هذه القوى الخارجية ،

الدينية ، ويقول : « إن الفكر هو الذي يميز الإنسان من الدابة ، ولا يشترك الإنسان مع الدابة إلا في الإحساس والانفعال الأولى » .

وتتصل بهذا مشكلة الحرية . ذلك أن الطابع الجوهرى للروح هو هويتها مع نفسها . ومثاليها هي أيضاً ما يكون حريتها من الناحية العملية ، فشعور الروح بوحدتها هو ينبوع حريتها ، والحرية هي ماهية الحد ، والتقابلات التي لا يمكن قهرها . ومن أجل هذا فإن تقدم الروح في طريق الوحدة هو أيضاً تقدم في الطريق إلى الحرية ، والحرية بالنسبة إلى الروح المتناهية المحدودة ليست إذن أن تتجرد عن الباقي ، أي في أن تعزل نفسها ، بل حريتها في أن تكون على وعي بالتقابلات من أجل التغلب عليها . إنها هذا الانتصار على المتقابلات الذي يرفع الروح إلى وحدة أعلى ، وبالتالي يرفعها إلى حرية أكمل ، ولهذا فإن الوحدة شأنها شأن الحرية ليست امتلاكاً ، بل مثلاً أعلى . إن الحرية غزو متواصل . وتطور الروح هو أيضاً تحررها ، وحياة الروح ، امتداد وامتلاك ؛ هي أن تضع في ذاتها الغير دون أن تفقد نفسها فيه . إنها تحقيق لذاتها في الغير بأن تجعل الغير ملكاً لها ، فالغير أداة لها من أجل أن تكون حياة أكمل ، إن الروح بالغير تعرف نفسها . ومن هنا فإن هذا الامتداد هو في الوقت نفسه رفع للذات نفسها على الرغم من أنه يجري في الغير ، ذلك أن الروح لا تكشف إلا عن ذاتها في كل هذا الغير . ويشبه هيجل كشف الروح بكشف الله في المسيح الذي هو إنسان ، لكن بالوحي الإلهي صار أيضاً لها في نظر هيجل .

والحد النهائي لهذا الكشف من الروح عن ذاتها بواسطة الغير هو وحدة الروح ، وصدقها هو المطلق . فالاعتراف بأن المطلق هو الروح ، تلك هي الغاية التي يهدف إليها العلم كله بل وكل التاريخ . ومن هنا فإن كل درجات الروح المتناهية ليست إلا مجرد تعبيرات غير مكافئة ، هي مجرد عمليات تقوم بها الروح من أجل توليد الروح المطلق ، هي مجرد حدود تضعها الروح لتقضي عليها من بعد ، ابتغاء أن تصل إلى كمال شعورها بذاتها . والغاية التي تستهدفها الروح أن تجعل مظهرها هو بعينه ماهيتها ، وأن ترفع وعيها بذاتها إلى مرتبة الحق . ومن هنا فإن هذه الدرجات المتناهية ليست درجات حقيقة بالمعنى الصحيح ، بل لا حقيقة لها في ذاتها . ومن هنا يقول هيجل إن المتاهي ليس شيئاً ، إنه ليس الحق بل مجرد عبور وتجاوز لذاته ، والروح إبطال للمتاهي ، والمتاهي مجرد

الواحد ، وتجد النظرة الشرقية لأنها تجتذ الواحد وردت إليه كل شيء .

### فلسفة الروح ( أو العقل )

فلسفة الروح هي التاج الذي يتوج مذهب هيجل ، كما هو طبيعي ، لأن الفكرة تبلغ أوج غوها في الروح ، وفي الروح تتعين الفكرة إلى أقصى درجة وتصل حقاً إلى واقعها وواقعيتها العقلية ، فالفكرة المنطقية والطبيعة هما شرطان لتحقيق الروح . وقد أخذ هيجل في استخلاص المعنى الأعمق والدلالة الأعم لكل مظاهر الفكر ، فأنشأ لذلك فلسفة في الحضارة الإنسانية ، ووضع الأسس الفلسفية للعلوم الإنسانية ، ولم يقتصر على دراسة تفسير الحياة الباطنة أي الروح الذاتية ، بل سعى إلى دراسة الروح في ضروب نتائجها الخارجية ، أي في أعمال الجماعات الإنسانية من تاريخ وقانون وأخلاق معنادة ( آيين ) ، وهو ما يكون الروح الموضوعية ؛ ثم في ألوان تحققها العليا التي تشعر الروح فيها بأنها في مكانها الطبيعي مثل الفن والدين والفلسفة ، وهو ما يدخل في نطاق الروح المطلقة ، فعلى هذا أن ندرس هذه الأنواع أي الروح الذاتية والروح الموضوعية والروح المطلقة .

أولاً : الروح الذاتية : تتجلى في مختلف المستويات التي هي بمثابة لحظات ضرورية للتطور الديالكتيكي لتصور الروح ، وتبعاً لهذا يميز هيجل بين النفس وهي موضوع الأنثروبولوجيا ، وبين الشعور أو الوعي وهو موضوع الفينومينولوجيا ، والروح وهي موضوع علم النفس بالمعنى الدقيق .

أما النفس فهي الروح بوصفها تقوم على أحوال طبيعية فسيولوجية من عنصر أو جنس ومزاج . . . الخ .

وأحياناً تتوقف على ظروف وأحوال فزيائية خالصة مثل المناخ . وهيجل يعارض النظرة التجريبية التي تجعل من الحياة الواعية مجموعة من الامتثالات ليس بينها من رابطة غير رابطة خارجية تقوم على أساس ما يسمى باسم قوانين ترابط الأفكار ، أو بعبارة أخرى القوانين المزعومة بترابط الأفكار المزعومة . والواقع أن الوعي النفسي كلية عينية مؤلفة من تعينات ، يشغل كل جزء منها مكانة ، على ارتباط بباقي الأجزاء . ويرى هيجل أن كل ما يرى في الروح أو العقل منشؤه في الإحساس وفي الأحوال الانفعالية الأولية ، ويرفض الإهابة بالقلب والعاطفة كمعايير للخير الأخلاقي والحقيقة



النفس الهيجلي . لكن ينبغي ألا نفهم علم النفس هنا بالمعنى المقهوم ، الآن ، ولا بالمعنى الذي كان جارياً منذ خمسين عاماً ، بل علم النفس بالمعنى الهيجلي هو النشوء الميتافيزيقي للروح الإنسانية منظوراً إليه من الناحية النفسية . ولكننا لا نستطيع التوسع في هذا القسم من فلسفة هيجل نظراً لما فيه من غموض وافتعال في كثير من المواقف . وعلى كل حال فعلم النفس موضوعه دراسة التطور الديالكتيكي المحايط في النشاط العقلي ، وينبغي أن تكشف الروح عن حريتها بأن تصل إلى أن تكون عقلية بنشاطها الذاتي الذي فرض عليها على أنه معطى مباشر ، فالروح النظرية تتبدى على أنها معرفة عيانية غامضة متصلة بالعاطفة . والوسط بين العيان وبين الفكر التصوري المنطقي هو الإمتثال الذي يظهر على هيئة الذاكرة والخيال ، والذاكرة اللفظية وهذه الصورة للذاكرة هي الأهم لأنها أداة الفكر وهي التي تيسر قيام جميع العمليات العقلية العليا . ومن هنا نجد هيجل يلح في توكيد أهمية اللغة ، ذلك أن اللغة هي التي تمكن الفكر الفردي من الاتصال مباشرة بالكلية ، فأشكال الفكر تتخارج وتحتزل في لغة الإنسان ، وما ينبغي أن يعبر عنه باللغة يتضمن - على نحو متفاوت في الغموض والوضوح - يتضمن مقولة ما - ومن هنا نجد هيجل كثيراً ما يلجأ إلى الإشتقاق من أجل تبرير ديالكتيكيه . وقد رأينا مثالا لذلك فيما يتصل بكلمة Urteil ، وهذه الطريقة في الاستعانة بالإشتقاق اللغوي من أجل بيان الأفكار سنراها إلى حد مبالغ فيه عند هيدجر ، كما سنجدها على نحو مخفف لدى شلنج ويظهر أنها عادة ألمانية ! .

وهذه الروح الذاتية تمر بثلاث مراحل في تطورها من أجل التكوين الواعي . وهذه المراحل الثلاث هي :

أ - النفس ب - الوعي ج - الروح

فالمرحلة الأولى هي التي فيها لا تزال الحياة مجرد روحانية غامضة متشعبة وكما أشرنا من قبل يسمى هيجل القسم الذي يدرس هذه المرحلة باسم علم الانسان .

والمرحلة الثانية هي التي فيها تتحقق الحياة الروحية في التعارض بين الأنا واللا أنا ، ولا يزال فيها الأنا ذاتاً فارغة تتلقى محتواها من العالم ، والعلم الذي يبحث في هذه المرحلة هو « علم فينو مينولوجيا الروح » ( أو العقل ) .

والمرحلة الثالثة هي التي فيها ارتفعت الحياة الروحية إلى مرحلة العقلية ، وعن طريق العقل والإرادة حصلت لنفسها

رؤية ناقصة للامتاهي . وأمور هذا العالم تبدو لنا متناهية لأننا نحن المتناهيين نضعها كذلك ، فمعرفة الروح بذاتها في الواقع أمر غير صحيح ومتناقض ، والعقل ليس نتيجة ولا حداً نبغاه في النهاية ، بل هو الحقيقة الأصلية التي لا تتحدد وتتأكد إلا بالقضاء على الحدود . وهذه الروح اللامتاهية ينبغي إذن أن تكون لها حقيقة في ذاتها إيجابية مقابلة للامتاهي . والروح كما يقول هيجل تتحرر تحرراً مطلقاً من الحد ومن الغير في نهاية الأمر كما تصل إلى الوجود المطلق بذاته وتصبح بهذا لا متناهية حقاً .

وواضح ما في هذه العبارات من وحدة وجود صوفية ، وقد أشرنا من قبل إلى أن هيجل مجد النظرية الشرقية في العالم ، لأنها تنطوي على فكرة وحدة الوجود ، التي ترى كل شيء في الواحد ، وهذا الواحد يتخذ مظاهره اللامتاهية في روعة هذا العالم الطبيعي والروحي .

### علم النفس الهيجلي

إن تطور الروح يتضمن ثلاث مراحل :

في المرحلة الأولى تخرج الروح بكبد *à peine* من الطبيعة التي تقابلها وتحددها ، وفعلها هو أن تغزو - عن طريق الصراع ضد هذا التقابل - الشعور بفرديتها العقلية الحرة وهذا ما يسمى باسم الروح الذاتية .

وفي المرحلة الثانية تثبت الروح النشاط العقلي في العالم الطبيعي الإنساني ، وذلك بأن تبدأ فتطبعه بطابع سيادة العقلية الشخصية في الإنسان ، وتنتهي بتكوين الوحدات الجماعية الكبرى للإرادات العاقلة ( الأسرة - المجتمع - الدولة ) وهذا ما يكون الروح الموضوعية .

وفي هاتين المرحلتين لا تزال الروح تضع الطبيعة في مقابل ذاتها وإن كانت تنقلها في ذاتها وتصورها بصورة مثالية ، ومن هنا لا تزال تضع الطبيعة حداً كاملاً للروح ، وبسبب هذا الحد لا تزال روحها مخلوقة .

وفي المرحلة الثالثة تتعرف الروح وحدة وجودها الباطن ، والحقيقة الروحية الموضوعية ، وتصل بذلك إلى حقيقتها الكاملة في الفن والدين والفلسفة ، وهذا ما يكون الروح المطلقة .

فالقسم الأول الذي يؤلف المرحلة الأولى يكون علم

والأخلاق عند هيجل يسودها تقابل أساسي هو التقابل بين الأخلاق الذاتية ، والأخلاق الموضوعية . فالأولى هي الأخلاق بالمعنى الكنتي أي التي تتحدد بمعيار شكلي صوري ، وذلك بالصدق الكلي لمبدأ الفعل . ولكن هيجل يرى أن هذا المبدأ مبدأ مجرد ، وبالتالي لا يؤدي إلا إلى شكلية جوفاء ، ولا يستطيع المرء عن طريق هذه القاعدة الشكلية أن يحدد في الواقع ما هي الواجبات وما هي الحقوق ، إنما الأخلاق الحقيقية هي الأخلاق الموضوعية ، وهي التي يكتسبها الإنسان في المجتمعات التي تقوم على تربية الأسرة والمجتمع المدني وخصوصاً الدولة .

وهنا نجد هيجل يجد الدولة لأنه يرى أن الدولة هي الكائن الاجتماعي الأكبر ، ويرى أن الإنسان لا يصل إلى الحرية الحقيقية إلا عن طريق الدولة ، وذلك حينها يعيش الإنسان القانون بدلاً من أن يخضع له خضوعاً سلبياً ، فإنه بهذا لا يصبح قهراً بل شكلاً من أشكال التحرير ، بأن يجعل الإنسان يضبط نفسه وفرديته العينية ووجداناته العمياء ومنفعته الانانية . وفي هذا يقترب هيجل من فكرة « الأوتونومي » Autonomie أي الاستقلال الذاتي عند كنت ، ولكنه يضع معياراً لهذه المشاركة في الروح الجماعية أي روح المجتمع ممثلة في الدولة ، لكن مثل هذا الوضع لا يتحقق إلا إذا كانت الدولة جيدة ، وأخلاق الناس متينة . وهيجل يرى أن تقدماً من هذا النوع يمكن عن طريق فعل الصفة المختارة من أبناء هذه الدولة ، غير أن عمل هؤلاء الصفة لن ينجح إلا إذا كانت أفكارهم ومشاعرهم ومصالحهم مطابقة للعقل خيراً من الأنظمة الموجودة ، وبالتالي تكون أصدق من هذه المؤسسات الموجودة وأقرب إلى الكلي . والذي يخلقها هنا قياً جديدة لا يؤثر في المستوى الأخلاقي بالمعنى الحقيقي ، وإنما في المستوى التاريخي . ومن هنا ينبغي التحدث عن فلسفة التاريخ عند هيجل .

### فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ هي أكثر أجزاء فلسفة هيجل شيوعاً بين الناس . وعند هيجل أن التاريخ الكلي ليس هو التاريخ الساذج الذي يقدمه من رواة الأحداث ، ولا التاريخ النظري الذي يريد تفسير الوقائع واستخراج العبر والدروس العملية من الماضي ، بل التاريخ الكلي الحقيقي هو التاريخ الفلسفي الذي يبين على الوقائع وينظر إليها من وجهة نظر غير مقيدة بزمان ، ذلك لأن العقل جوهر التاريخ . والعقل يحكم العالم

على الحرية ؛ وهذه المرحلة الثالثة هي التي يتولى دراستها علم النفس بالمعنى المشار إليه من قبل .

فما يسميه هيجل بالنفس ليس هو الذات أو الأنا ، إنما مجرد المثالية الأولى البسيطة التي تضطرب في حضن الطبيعة على أنها حقيقتها . ولهذا فإن هيجل يسمي النفس بأنها « نعاس الروح » ، لأن النفس مرحلة أولية غامضة للروح وبالتالي كأن الروح فيها في حالة نعاس ونوم . وهذه النفس ينبغي ألا ينظر إليها على أنها نفس العالم ، بل هي من نوع الجوهر الغامض الروحي الكلي الذي هو الأساس في كل فرد وتجزئته للروح فيما بعد ، ونحن في حياتنا النفسية لا نزال نشعر بتأثير هذه الروحانية الغامضة ، وذلك عن طريق ما يتأثرنا من أمزجة تتغير بتغير الأجواء والسن والأماكن والأحوال العضوية . فأحوالنا المزاجية المتغيرة تحت تأثير الأحوال الطبيعية الخارجية إنما تتغير بتأثير هذه النفس الغامضة العامة المنتشرة .

والنوم هو العود الدوري لوجودنا إلى حضن هذه الروحانية الطبيعية المنتشرة ؛ ولعله متأثر بالعود الدوري لليل والنهار . ويتساءل : هل هذه النفس لا مادية ؟ وبهذه المناسبة يتناول مسألة لا مادية النفس ، ويحل المسألة بالمعنى والاتجاه المثاليين فما دامت المثالية ترى أن الهولي ليست حقيقية بينما الروح هي وحدها الحقيقية ، فلا محل للقول بمادية النفس نظراً إلى أن المادة ليست حقيقية بينما النفس لها حقيقة . وفي داخل هذه الروحانية الغامضة المنتشرة تتطور شيئاً فشيئاً الذاتية أولاً على هيئة مركز غامض للفردية التي تبدأ ، فتضع محتواها في مقابلها ولكن لا يوجد بعد ذات تميز نفسها من العالم المادي الخارجي ، بل لا تزال الذات هي ما يحس . والنفس في هذه الحالة هي بمثابة مركز لكل إحساس . وهكذا نرى أن النفس بمثابة الشخصية الدنيا الهولانية التي لا بد أن تخضع فيما بعد للذات العاقلة العليا التي تمنحها الصورة الحقيقية .

### الأخلاق عند هيجل

لا تشغل الأخلاق بالمعنى المحدود غير مكان ضئيل في فلسفة هيجل ، وترتبط بنظراته في القانون والسياسة وفلسفته الدينية . ذلك أن هيجل يرى أن الغاية من الفلسفة ليست تحديد مثل أعلى للكمال من غير الممكن الوصول إليه بل فهم الواقع لإعادة بنائه ديكارتيكياً ، وتعرف الطابع العقلي منه ، ومن هنا فإن الأخلاق مهمتها أن تشاهد لا أن تحكم .

الجديدة في اليونان وروما حيث كان بعض الأفراد هم الأحرار .

ويقول هيجل إن الأمم الجرمانية هي وحدها التي ارتفعت لأول مرة إلى الشعور والوعي لهذه الحقيقة ، ألا وهي أن الإنسان حر بما هو إنسان ، وأن حرية الروح هي الطبيعة الخاصة الجوهرية بكل إنسان بما هو إنسان ، ولكن النظم السياسية لم تخضع لهذا المبدأ في أول الأمر وطوال العصور الوسطى الأولى . إنما بدأت الفترات الحاسمة من أجل إيجاد هذا الوعي بالحرية لأول مرة بعد ذلك في عصر الإصلاح الديني ، وهذا يعد بمثابة الثورة الجرمانية في مقابل الثورة الفرنسية .

وجاءت هذه فيما بعد ، هنالك أصبح الإنسان يتخذ رأسه أساساً أي اتخذ الفكر والعقل الأساس ، وحاول أن يصوغ الواقع على صورة العقل ، لقد كان ذلك مشرقاً رائعاً للشعس ، هنالك ساد انفعال نبيل ، وشاعت حماسة عقلية هزت الدنيا بأسرها ، وكأن الإنسان لم يبلغ إلا آنذاك مرتبة التوفيق الفعلي بين ما هو إلهي وما هو دنيوي .

وقد عني هيجل بالمسائل السياسية لأنه عاش في عصر تاريخي المعنى الكامل ، عصر الثورات والأمبراطوريات وعصر حقوق الإنسان . وهو بطبعه كان حريصاً على متابعة الأحداث حتى كان يقول إن قراءة الصحف نوع من الأوراد ترتل في كل صباح عملياً .

وكما أشرنا من قبل كتب هيجل رسائل سياسية ومقالات عديدة ، وكتب خصوصاً بحثاً عن دستور ألمانيا سنة ١٨٠٢ وإن لم ينشر إلا سنة ١٨٩٢ ، فضلاً عن أنه قام برئاسة تحرير صحيفة يومية هي « جريدة بلمبرج » مدة عام ونصف . ورسائله ومقالاته تدل على أنه كان كثير العناية بالمشاكل السياسية الوقعية العصرية ، فضلاً عن أنه كان يدعو إلى عدم الفصل بين النظري والعملي لأنه تبعاً لفلسفته يرى أن الإرادة ضرب من الفكر ، فالإرادة هي الفكر معبراً عنه في الواقع ، أما أولئك الذين ينظرون إلى الفكر على أنه ملكة جزئية منفصلة عن الإرادة ، فيذهبون إلى حد الزعم بأن الفكر يؤدي الإرادة وخصوصاً الخيرة ، أولئك يدلون بهذا على أنهم لا يعرفون شيئاً مطلقاً عن طبيعة الإرادة . غير أن كتابه عن دستور ألمانيا لم يكن إلا بحثاً من أبحاث الشباب لا يزال يحمل طابع فلسفة شلنج والرومستك . وإنما وضع هيجل نظراته

ولهذا يرى هيجل أن كل حدث من أحداث التاريخ إنما جرى وفقاً لمقتضيات العقل ، ومن هنا فالتاريخ تطور ونمو لمنطق باطن لم تكن الشخصيات التاريخية غير أدوات لتحقيقه دون شعورها بذلك ، إنهم يخضعون لأهوائهم ويرمون إلى تحقيق مصالحهم ، ولكن الذي يحدث في نفس الوقت هو أن غاية ما بعيدة المدى قد تحققت لم يكونوا على شعور بها ولم تكن قصداً من مقاصدهم ، وهذا هو ما يسميه هيجل « خبث العقل الكلي المسيطر على التاريخ » . فمن خبث أنه يستعين بهذه الشخصيات في سبيل تحقيق أهدافه وخططه ومقاصده ، دون أن يكون هؤلاء على علم بذلك ، وإنما الذي يجعل هؤلاء أقوى هو أن أهدافهم الجزئية الخاصة تحتوي على المحتوى الجوهرية الذي هو إرادة الروح الكلية . وهذا المحتوى قائم في الغريزة الكلية غير المشعور بها لدى الناس ، وهم مدفوعون لذلك بقوة باطنة . وفي بعض العصور نجد أن تركيب روح الشعب يتحطم لأنه عفي عليه وخبلي من جوهره ، ولكن التاريخ رغم من ذلك يستمر في سيره قدماً لا يتأثر بانحلال حضارة أو انحلال دولة ، ولكن في المراحل الكبرى تحدث الاصطدامات العظمى بين الأنظمة القائمة حتى الآن وبين الإمكانيات المضادة لهذه الأنظمة مما يؤدي إلى زعزعة الأنظمة القائمة ، ولكن هذه الاصطدامات نفسها تتضمن أمراً بعيداً بل وضرورياً ، وحيثما تصبح هذه الإمكانيات ذاتها ضرورية وتتضمن أساساً مختلفاً عن ذلك الأساس الذي كان حتى الآن أساساً للتنظيم الشعبي ، وهذا الكلي يستولي عليه عظماء التاريخ ويجعلون منه قصداً من مقاصدهم ، وهم حين يحققون أطماعهم يحققون في الوقت نفسه الغاية التي تتفق مع التصور الأعلى للروح . وعلى هذا النحو يتبدى منطق التاريخ ، فظروف التقدم التي حققتها الإنسانية عن طريق التناقضات والاصطدامات والحروب والثورات تؤدي إلى وضع للأمور أصلق وأفضل ؛ أما فترات الهدوء والرخاء والخلو من التناقض والسلام فهي ليست عصوراً تاريخية .

وقد توسع هيجل في هذه النظرية وفصلها في محاضراته في فلسفة التاريخ ، والفكرة الموجهة في هذه المحاضرات هي أن التاريخ الكلي هو تقدم الشعور بالحرية ، وهذا التقدم نجد دلائله أولاً في الانتقال من العليان الشرقي القديم الذي كان فيه فرد واحد هو الحر والباقي عبيد ( في مصر القديمة وقارس وبابل ) نقول الانتقال إلى الجمهوريات والأرستقراطيات

وثاني تحقق هو المجتمع المدني ، وفيه يتجمع الناس وفقاً لمصالحهم . وهذه التجمعات تدخل في علاقات وأحياناً في تصادم .

وهكذا ينشأ في الحياة الاجتماعية نظام خارجي ناجم عن الاتفاق بين الحاجات وعن تحلدها المتبادل مما يجعل هذه الحاجات يحدد بعضها بعضاً ، وفقاً لإمكان إشباعها وتوفيرها .

والتحقق الثالث هو الدولة ، وهذه هي التحقق الاجتماعي الأعلى . وهيجل يميز الدولة من المجتمع المدني . فعنده أن المجتمع المدني عالم فردي نفعي فيه تسود الفرية الاجتماعية ، أي أنه يتألف من أفراد على هيئة ذرات في هذا المجتمع .

والدولة في نظر هيجل ليس غرضها أن تكفل لأعضائها الرخاء المادي والحرية المجردة ، بل أن تجعلهم يقومون بتأدية وظيفتهم الرئيسية الحقيقية وهي أن يعيشوا في الكلي ، وبالتالي أن يرتفعوا بذلك إلى الحرية العينية .

وفي الدولة يصل الإنسان إلى الأخلاقية العليا والأكثر عينية ، فالدولة تربي الفرد وتخضعه لنظام جماعي يحوره من أعراض طبيعته الحيوانية وأنظاره العقيمة ، فالدولة لا تقلل من الفرد ، بل تسمح له بأن يكمل شخصيته ، وذلك بإدماجه في نظام أخلاقي أعلى من شأنه أن يتقدم في اتجاه ما هو كلي .

وقد اختلف في تفسير نظريات هيجل السياسية : فنجد أولاً أن جانص Gans الذي نشر « فلسفة القانون » مضيفاً إليها مذكرات مأخوذة من المحاضرات يقول : « إن هيجل لم يتنكر للمبادئ العظمى للثورة الفرنسية التي أشاعت الحماسة في نفسه أيام الشباب بل ظل دائماً يطالب للفرد في الدولة بالحقوق الأساسية للشخصية الإنسانية » .

ولكننا نجد شراحاً آخرين يفسرون نظريات هيجل السياسية في اتجاه مضاد ، فيعتبرونه بأنه ذو ميول محافظة لأن هيجل يرى أن الدولة هي تجسد للفردية الجوهرية ، ولما هو إلهي على سطح الأرض ؛ وينبغي على الفرد أن يعترف بأنه عدم بازاء الدولة ، ولهذا يشيرون إلى أن هيجل كان فيلسوف العرش الرجعي ، وداعياً إلى الملكية البروسية ، وموحيماً بالدعوة إلى القوة التي ترى في الحرب وسيلة لا غنى عنها للدولة في نموها .

الرئيسية في السياسة في كتاب ممتاز يعد آخر كتبه العظمى وهو « مبادئ فلسفة القانون » الذي نشر سنة ١٨٢١ ، وقد لخص الأفكار الرئيسية في هذا الكتاب في « دائرة معارف العلوم الفلسفية » ( ص ٤٨٢ - ٥٥٢ ) وفي عرضه للسياسة في الكتابين ربط ريباً وثيقاً بين السياسة والأخلاق وعلم نفس الإرادة وفلسفة التاريخ . وفي مقدمة « فلسفة القانون » يصرح بكل وضوح بأنه لا يرمي إلى بناء دولة مثل ، لأن مهمة الفلسفة هي أن تفهم ما هو قائم لأن ما هو قائم هو العقل ، والتفسير العقلي الذي يقدمه في هذا الكتاب هو بمثابة توفيق مع الحقيقة الواقعية . قال : « ليست مهمة الفلسفة أن تعلم ما ينبغي أن يكون ، وحتى لو حاولت ذلك فإنها تأتي في ذلك متأخرة لأنها لا تأتي إلا بعد أن يكون الواقع قد أتم عملية تكوين نفسه ، وحينها ترسم الفلسفة بلون رمادي على رمادي فإن صورة الحياة تكون قد شاخت من قبل . وهذا اللون الرمادي لا يمكن أن يستعاد شبايه بل يمكن فقط أن نتعرفه » . « إن بومة مينرفا ، لا تأخذ في الطيران إلا عندما يرتخي الليل سدوله » .

وهذه العبارة الأخيرة من العبارات المشهورة والشعرية الرائعة ، ويرمز هيجل ببومة مينرفا إلى الحكمة والفلسفة ، أي أن الفلسفة لا تأخذ في عملها إلا بعد أن يكون قد تم حدوث الحدث الذي تريد الفلسفة أن تفلسفه .

يرى هيجل أن القانون من ميدان الروح . ونقطة الابتداء هي الإرادة الحرة ، وهي حرة بوصفها علم تعين ، بتعين بذاته ، وبوصفه الأنا الذي يضع لنفسه محتوى مع بقائه في هوية مع ذاته ومع الكلية ، أما إذا لم تكن الإرادة غير الإرادة الطبيعية ، فإنها لا تفعل أكثر من أنها تطلق الرغبات والميول ويكون ميدانها حيثئذ ميدان الأهواء ، ولا تكون حرة إلا في ذاتها ولكنها تكون حرة لذاتها حينئذ تتخذ مضمون الكلي لا الجزئي ، أي حينئذ تصبح الإرادة فكراً .

وفي القانون تبلغ الإرادة الحرة الوجود المباشر . والفرد بوصفه ذا حقوق ويمارس حقوقاً يسمى الشخص Person ولذلك فإن الأمر المطلق في القانون هو : كن شخصاً واحترم الآخرين بوصفهم أشخاصاً .

وأول تحقق للروح الاجتماعية هو في الأسرة . ودورها الأساسي هو تربية الأبناء ، وهذه أول مظهر من مظاهر الأخلاق .

الموضوعية - والقوانين تبدو أولاً بالنسبة إلى الذات المباشرة وبالنسبة إلى إرادتها المستقلة الاعتبارية ومصالحها الجزئية ، تبدو وكأنها حواجز وحدود لكنها في المقام الثاني غايات مطلقة . وفي المقام الثالث تؤلف جوهر الإرادة الفردية التي تجسد في هذه القوانين حريتها ، بحيث تصبح هذه القوانين بمثابة عادات أخلاقية اجتماعية لها قيمتها في حقيقة هذه الشخصية .

والدولة بوصفها روحاً حية لا يمكن أن تكون إلا بمثابة كل يتفاضل إلى ألوان من النشاط الخاصة تصدر عن نفس الفكرة الخاصة بالحقوق ، والتشريع هو التوزيع العضوي لقوة الدولة ، وهو الذي يتضمن التعينات التي وفقاً لها الإرادة العقلية لا توجد في الأفراد إلا على سبيل الإمكان والقوة ، لكنها عن طريق التشريع تصل إلى الشعور والوعي بذاتها .

وهناك نصوص قليلة تجسد الحرب مثل قوله :

« في السلام تمتد الحياة المدنية وتستقر كل المجالات ، وفي النهاية يضيع الناس في بحران ، ذلك أن خصائصهم تتحجر شيئاً فشيئاً وتثبت . لكن الصحة تقتضي وحلة الجسم ، فإذا تصلبت الأجزاء حدث الموت . ففي السلام يحدث هذا التحجر الذي يؤذن بموت المجتمع . »

ولقد طالما نادى المفكرون بالسلام الدائم بوصفه المثل الأعلى الذي ينبغي على المفكرين أن يصلوا إليه . وكنت قد وضع مشروعاً من هذا النوع . ولكن الفرد والفردية يتضمنان بالضرورة السلب . لكن لو أن عدداً من الأمر كون الدولة فإن هذا الاتجاه بوصفه شخصية مركبة ينبغي أن يخلق لنفسه معارضة وبالتالي أن يولد عدواً له ، فالحروب لا مناص منها . والحروب عند هيجل تخرج منها الدول أقوى مما كانت ، ثم أن الأمم التي كانت تنقسم على نفسها تستطيع أن تحصل بواسطة الحرب في الخارج على السلام في الداخل . صحيح إن الحرب تؤدي إلى عدم الأمن بالنسبة للممتلكات ، لكن عدم الأمن هذا حركة ضرورية ، ذلك أن عدم الاستقرار من الوسائل التي تحفز على التطور والتقدم .

وهكذا نرى أن هيجل في نظرياته في الدولة قد حاول أن يطبق نظرياته الديالكتيكية ، وكان تطبيقه لهذه النظريات هو الذي حدا به أن يرى في الحرب ضرورة لا يمكن التخلص

وهناك موقف وسط يمثله خصوصاً فيكتور باش Victor Basch أحد الذين درسوا المذاهب السياسية للفلسفات المثالية الألمانية دراسة عميقة وافية . فباش يرى أن الدولة في نظر هيجل هي في مجموعها توفيق بين فلسفة السلطة والحرية . واتجاه فلسفة هيجل السياسية هو إلى إيجاد وسط بين الملكية المطلقة والديمقراطية المطلقة، بين الفردية المفرطة وبين السيطرة الكاملة للدولة .

والواقع أن السياسة عند هيجل لها وجهان متعارضان : فهو من ناحية يريد التوفيق بين ما يقضي به العقل وبين الواقع الخارجي الموجود ، ومن هذه الناحية جاء الجانب المحافظ في تفكيره .

ولكنه من ناحية أخرى كان يرى أن الديالكتيك يقتضي نوعاً من التعارض المستمر الذي يتطور عليه النظام في الدولة ، ولهذا فإنه يبرر قيام التقدم استناداً إلى ألوان التعارض التي يمكن أن تكون أسباباً للتزاع سواء بين الطبقات الاجتماعية ، وبين الدول ، مما يؤدي إلى الثورات في حالة الطبقات الاجتماعية ، وإلى الحروب في حالة الدولة . وتبعاً لهذين الوجهين اتجه اتباع هيجل إلى فريقين :

فريق اليمين الهيجلي ، وهم الذين اتجهوا اتجاها المحافظ . وفريق اليسار الهيجلي ، وهم الذين اتجهوا اتجاهاً ثورياً .

ومن النصوص الرئيسية في هذا الباب ما يلي :

أولاً فيما يتصل بنظرية الدولة :

« الدولة هي الجوهر الاجتماعي الذي وصل إلى الشعور بذاته ، وهي تجمع في ذاتها بين مبدأ الأسرة ، ومبدأ المجتمع المدني . والوحدة التي توجد في الأسرة على أنها شعور بالحمية هي جوهرها ، لكن الجوهر هاهنا ارتفع خلال المبدأ الثاني ، أعني من خلال الإرادة الحرة العاقلة ، إلى ما هو كلي . »

ويقول في موضع آخر : « الدولة هي تحقيق الفكرة الأخلاقية . والروح الأخلاقية هي الإرادة الظاهرة المتميزة الجوهرية التي تعقل ذاتها . والدولة هي تحقق الحرية العينية ، والحرية العينية معناها أن الجزئية الشخصية ومصالحها الجزئية لها تطورها الكامل واعترافها بحقوقها في نظام الأسرة وفي نظام المجتمع المدني . . والقوانين تعبر عن تعينات مفهوم الحرية

- Logik. Vienna, 1952.
- Cresson, A. Hegel, sa vie, œuvre Paris, 1949.
  - Croce, B. What is Living and What is Dead in the Philosophy of Hegel, translated by D. Ainslie. London, 1915.
  - Cunningham, G. W. Thought and Reality in Hegel's System. New York, 1910.
  - De Ruggiero, G. Hegel. Bari, 1948.
  - Dilthey, W. Die Jugendgeschichte Hegels. Berlin, 1905. (Contained in Dilthey's Gesammelte Schriften, IV; Berlin, 1921.)
  - Dulceit, G. Die Idee Gottes im Geiste der Philosophie Hegels. Munich, 1947.
  - Emge, C. A. Hegels Logik und die Gegenwart. Karlsruhe, 1927.
  - Findlay, J. N. Hegel. A Re- Examination. London, 1958.
  - Fischer, K. Hegels Leben, Werke und Lehre. 2 vols. Heidelberg, 1911 (2nd edition).
  - Foster, M. B. The Political Philosophies of Plato and Hegel. Oxford, 1935.
  - Glockner, H. Hegel. 2 vols. Stuttgart. (Vols. 21 and 22 in Glockner's edition of Hegel's Works mentioned above.)
  - Grégoire, F. Aux sources de la pensée de Marx: Hegel, Feuerbach. Louvain, 1947.
  - Études hégéliennes. Louvain, 1958.
  - Häring, T. Hegel, sein Wollen und sein Werk. 2 vols. Leipzig, 1929- 38.
  - Haym, R. Hegel und seine Zeit. Leipzig, 1927 (2nd edition).
  - Heimann, B. System und Methode in Hegels Philosophie. Leipzig, 1927.
  - Hoffmeister, J. Hölderlin und Hegel. Tübingen, 1931.
  - Goethe und der deutsche Idealismus. Eine Einführung zu Hegels Realphilosophie. Leipzig, 1932.
  - Die Problematik des Völkerbundes bei Kant und Hegel. Tübingen, 1934.

منها وما دام السلب هو أساس التحقق ، والحرب سلب ، فهي أساس في تحقق التطور .

وقد أثر هيجل تأثيراً كبيراً في مفكرين وسياسيين وجهوا مذهبه وجهات تتعارض أشد التعارض ، وما ذلك إلا لأن مذهبه حافل بالتناقضات ، وأنه جمع بين التقيضين كما يقضي منطق هيجل .

#### نشرات مؤلفاته

- Werke, Jubiläumausgabe, hrg. von H. G. Glockner, 26 Bde, Stuttgart, 1927- 1939.
- Sämtliche Werke, Kritische ausgabe, hrg. von G. Lasson und J. Hoffmeister, 27 Bde. Hamburg 1905-
- Sämtliche Werke, neue Kritische ausgabe, hrg. von J. Hoffmeister, Hamburg, 32 Bde.
- Hegels theologische Jugendschriften, hrg. von H. Nohl. Tübingen, 1907
- Dokumente zu Hegels Entwicklung, hrg. von J. Hoffmeister, Stuttgart, 1936.

#### مراجع

- Adams, G. P. The Mystical Element in Hegel's Early Theological Writings. Berkeley, 1910.
- Aspelin, G. Hegels Tübinger Fragment. Lund, 1933.
- Asveld, P. La Pensée religieuse du jeune Hegel. Liberté et aliénation. Louvain, 1953.
- Baillie, J. The Origin and Significance of Hegel's Logic. London, 1901.
- Balbino, G. Der Grundirrtum Hegels. Graz, 1914.
- Brie, S. Der Volksgeist bei Hegel und die historische Rechtsschule. Berlin, 1901.
- Bullinger, A. Hegelsche Logik und gegenwärtig herrschender antihégelische Unverstand. Munich, 1901.
- Bülow, G. Die Entwicklung der Hegelschen Sozialphilosophie. Leipzig, 1920.
- Caird, E. Hegel. London and Edinburgh, 1883.
- Cairns, H. Legal Philosophy From Plato to Hegel. Baltimore, 1949
- Coreth, E., S. J. Das dialektische Sein in Hegels



- Negri, A. *La presenza di Hegel*. Florence, 1961.
- Niel, H., S. J. *De la médiation dans la philosophie de Hegel*. Paris, 1945. (A study of Hegel's philosophy in the light of the pervading concept of mediation.)
- Nink, G., S. J. *Kommentar zu den grundlegenden Abschnitten von Hegels Phänomenologie des Geistes*. Regensburg, 1931.
- Ogiemann, H. M., S. J. *Hegels Gottesbeweise*. Rome, 1948.
- Olgiati, F. *Il panlogismo hegeliano*. Milan, 1946.
- Pelloux, L. *La logica di Hegel*. Milan, 1938.
- Peperzak, A. T. B. *Le jeune Hegel et la vision morale du monde*. The Hague, 1960.
- Pringle-Pattison, A. S. (=A. Seth). *Hegelianism and Personality*. London, 1893 (2nd edition).
- Reyburn, H. A. *The Ethical Theory of Hegel: A Study of the Philosophy of Right*. Oxford, 1921.
- Roques, P. *Hegel, sa vie et ses œuvres*. Paris, 1912.
- Rosenkranz, K. G. W. F. *Hegels Leben*, Berlin, 1844.
- *Erläuterungen zu Hegels Enzyklopädie der Philosophie*. Berlin, 1870.
- Rosenzweig, F. *Hegel und der Staat*. 2 vols. Oldenburg, 1920.
- Schmidt, E. *Hegels Lehre von Gott*. Gütersloh, 1952.
- Schneider, R. *Schellings und Hegels schwäbische Geistesahnen*. Würzburg, 1938.
- Schwarz, J. *Die anthropologische Metaphysik des jungen Hegel*. Hildesheim, 1931.
- *Hegels philosophische Entwicklung*. Frankfurt a. M., 1938.
- Specht, E. K. *Der Analogiebegriff bei Kant und Hegel*. Cologne, 1952.
- Stace, W. T. *The Philosophy of Hegel*. London, 1924 (new edition, New York, 1955).
- Steinbüchel, T. *Das Grundproblem der Hegelschen Philosophie*. Vol. i. Bonn, 1933.
- Stirling, J. H. *The Secret of Hegel*. London, 1865.
- Hyppolite, J. *Genèse et structure de la Phénoménologie de l'Esprit de Hegel*. Paris, 1946.
- *Introduction à la philosophie de l'histoire de Hegel*. Paris, 1948.
- *Logique et existence: Essai sur la logique de Hegel*. Paris, 1953.
- Iljin, I. *Die Philosophie Hegels als kontemplative Gotteslehre*. Bern, 1946.
- Kojève, A. *Introduction à la lecture de Hegel*. Paris, 1947 (2nd edition). (The author gives an atheistic interpretation of Hegel.)
- Lakebrink, B. *Hegels dialektische Ontologie und die thomistische Analektik*. Cologne, 1955.
- Lasson, G. *Was heisst Hegelianismus?* Berlin, 1916.
- Einführung in Hegels Religionsphilosophie*. Leipzig, 1930.
- Litt, T. *Hegel. Versuch einer kritischen Erneuerung*. Heidelberg, 1953.
- Lukàcs, G. *Der junge Hegel. Ueber die Beziehungen von Dialektik und Oekonomie*. Berlin, 1954 (2nd edition). (The author writes from the Marxist point of view.)
- Maggiore, G. *Hegel*. Milan, 1924.
- Maier, J. *on Hegel's Critique of Kant*. New York, 1939.
- Marcuse, M. *Reason and Revolution: Hegel and the Rise of Social Theory*. New York, 1954 (2nd edition).
- Mc Taggart, J. McI. E. *Commentary on Hegel's Logic*. Cambridge, 1910.
- *Studies in the Hegelian Dialectic*. Cambridge, 1922 (2nd edition).
- *Studies in Hegelian Cosmology*. Cambridge, 1918 (2nd edition).
- Moog, W. *Hegel und die Hegelsche Schule*. Munich, 1930.
- Mure, G. R. G. *An Introduction to Hegel*. Oxford, 1940. (Stresses Hegel's relation to Aristotle.)
- *A Study of Hegel's Logic*. Oxford, 1950.

لقد بدأ هيدجر إذن دراسته الثانوية سنة ١٩٠٣ في مدرسة كونستانس الثانوية . وهناك التقى بالدكتور كونراد جروربر Conrad Grober الذي كان آنذاك قسيساً في كنيسة الثالث ، وسيصير فيما بعد رئيساً لاساقفة فرايبورج ، وهو الذي وجه هيدجر إلى دراسة اللاهوت ، وأهدى هيدجر نسخة من رسالة فرانتس برنتانو التي عنوانها : « في المعاني المختلفة للموجود عند أرسطو » ، وكان لقراءة هيدجر لهذه الرسالة أثرها في توجيه هيدجر للبحث في مشكلة الوجود ، كما قال هو عن نفسه ( « في الطريق إلى اللغة » ص ٩٢ ) .

وتابع هيدجر تعليمه اللاهوتي في معهد فرايبورج الأسقفي حتى سنة ١٩٠٩ حيث كان طالباً داخلياً . وكان لهذه الدراسة اللاهوتية دورها في توجيه فكر هيدجر إذ استند إليها في محاضراته الأولى التي كرسها لتحليل حياة القديس بولس والقديس أوغسطين ، كما أنها أسهمت في تشكيل فكره الفلسفي والميتافيزيقي بخاصة .

ثم قضى عاماً في معهد اليسوعيين ، ودخل بعده جامعة فرايبورج - في - بريسجاو حيث أتم دراسته في اللاهوت والفلسفة . وأخذ يقرأ بنفسه مؤلفات هسرل في الفينو مينولوجيا ، ومؤلفات اميل لاسك Lask ، كما حضر سماعات هينرش ريكتر Rickert وكانت تدور حول المعنى الأخلاقي لفلسفة نيتشه .

وفي سنة ١٩١٥ ناقش الرسالة التي تقدم بها للحصول على دكتوراه التأهيل ( للتدريس في الجامعة ) Habilitation ، وعنوانها : « نظرية المقولات والمعنى عند دونس اسكوتس » وقد أهداها إلى أستاذه ريكتر . وقد استند فيها إلى رسالة لم تكن في الواقع من تأليف دونس اسكوتس ، بل من تأليف توماس الذي من ارفورت Thomas von E-rfurt ، كما أثبت ذلك فيما بعد مؤرخ فلسفة العصور الوسطى العظيم مارتن جرايبن Martin Grabmann .

وإلى جانب اهتمامه بمعنى الوجود ، نجده في ذلك الوقت نفسه يهتم بمشكلة الزمان ، فيلقي محاضرة - كجزء من امتحان دكتوراه التأهيل هذه - عن « معنى الزمان في علم التاريخ » ( نشرت في «مجلة الفلسفة والنقد الفلسفي » سنة ١٩١٦ ، ج ١٦١ ص ١٧٣ - ١٨٨ ) ، ويبدو فيها تأثره بآراء فلهلم دلتاي ؛ وفيها يحدد أصالة علوم التاريخ تجاه علوم

Teysse, B. L'esthétique de Hegel. Paris, 1958.

Vanni Rovighi, S. La concezione hegeliana della Storia. Milan, 1942.

Wacher, H. Das Verhältnis des jungen Hegel zu Kant. Berlin, 1932.

- Wahl, J. Le malheur de la conscience dans la philosophie de Hegel. Paris, 1951 (2nd edition).

Wallace, W. Prolegomena to the Study of Hegel's Philosophy and especially of his Logic. Oxford, 1894 (2nd edition).

- Weil, E. Hegel et l'état. Paris, 1950.

## هيدجر

### Martin Heidegger

#### المؤسس الحقيقي للوجودية .

ولد مارتن هيدجر في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٩ في مسكرش Messkirch ، وهي مدينة صغيرة في مقاطعة بادن ( ألمانيا ) ، لأسرة عميقة الجذور في هذا الاقليم . وكان أبوه فريدرش Friedrich صانع براميل وفي الوقت نفسه كان أميناً لخزانة كنيسة القديس مارتن في تلك المدينة ، وكانت ديوانته الكاثوليكية وكذلك زوجته يوهانا كمف Johanna Kempf .

ويقول هيدجر عن نفسه في ترجمته لحياته الملحقه برسالة سنة ١٩١٤ : « نظرية الحكم في المذهب النفاستي » :

« دخلت المدرسة الشعبية في بلدي ، ثم دخلت المدرسة الثانوية في كونستانس من ١٩٠٣ إلى ١٩٠٦ ، وابتداء من السنة قبل النهائية دخلت مدرسة برتولد Berthold الثانوية في فرايبورج - في - بريسجاو . وبعد أن حصلت على شهادة إتمام الدراسة ( الثانوية ) في سنة ١٩٠٩ ، تعلمت في ( جامعة ) فرايبورج - في - بريسجاو حتى الامتحان النهائي Rigorosum . وفي الفصل الدراسي الأول حضرت دروس اللاهوت والفلسفة ، وابتداءً من سنة ١٩١١ خصوصاً تابعت دروس الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية ، وفي الفصل الأخير تابعت أيضاً دروس التاريخ . »

## الطبيعة .

وبعد حصوله على دكتوراه التأهيل في سنة ١٩١٥ عين هيدجر مدرّساً Privat Dozent في جامعة فرايبورج . وفي سنة ١٩١٦ عُيّن هسرل أستاذاً في جامعة فرايبورج ، فلفت انتباهه ذكاء هيدجر الفائق ، وداعبه الأمل في أن يصبح هيدجر من أنصار مذهب الظاهريات ؛ فاتخذ مساعداً له إلى جانب يوجن فك E. Fink وأ. اشتين E. Stein اللذين سيكون لهما شأن أيضاً في فلسفة الظاهريات .

وفي سنة ١٩٢٣ عين هيدجر أستاذاً غير ذي كرسي للفلسفة في جامعة ماربورج Marburg . وهنا ألّف كتابه الرئيسي : « الوجود والزمان » الذي أودع فيه زبدة فلسفته كلها، وبعد من أعظم المؤلفات الفلسفية على مدى تاريخ الفلسفة .

وفي عيد العنصرة ( الأحد السابع بعد عيد الفصح ) سنة ١٩٢٩ أصدر هيدجر كتابه « كنت ومشكلة الميتافيزيقا » وهو يحتوي على تفسيره للمعنى الذي قصده كنت من « نقد العقل المحض » : هل هو كتاب في نظرية المعرفة العلمية ، كما يزعم أنصار الكتيبة الجديدة ( كوهن ، ناتورب ، ركرت ) ، أو هو تأسيس للميتافيزيقا كما يرى هيدجر ؟ وزبدة الكتاب كان هيدجر قد ألقاها محاضرات في الفصل الدراسي الشتوي ٢٨/١٩٢٧ وفي محاضرات ألقاها في سبتمبر سنة ١٩٢٨ في معهد هرند في ريجا ، وفي محاضرات ألقاها في مدرسة التجارة العليا في دافوس Davos ( سويسرة ) . في شهر مارس سنة ١٩٢٩ . وفي مارس سنة ١٩٢٩ انعقدت ندوات في دافوس ، اشترك فيها هيدجر كما اشترك ارنست كاسيرر . وعرض هيدجر تفسيره لمعنى كتاب « نقد العقل المحض » معارضاً تفسير الكتيبة الجديدة . فانبهرى له ارنست كاسيرر ، ودارت بينهما مناقشة حادة ( تجد نصها في ملحق الطبعة الرابعة من كتاب هيدجر : « كنت ومشكلة الميتافيزيقا » ) .

وكان هيدجر قد عين في سنة ١٩٢٨ أستاذاً ذا كرسي في جامعة فرايبورج خلفاً لهسرل وبناء على توصية منه . وفي ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ ألقى محاضراته الافتتاحية في جامعة فرايبورج بعنوان : « ما الميتافيزيقا ؟ » .

وبدعوة من المدير السابق لجامعة فرايبورج ، وتأييد من مجلس الجامعة وبناء على طلب جميع الأساتذة ، وافق هيدجر على ترشيح نفسه لمنصب مدير جامعة فرايبورج . وفي

٢٢ أبريل سنة ١٩٣٣ نشرت جريدة بريسلو أن هيدجر انتخب رسمياً مديراً لجامعة فرايبورج .

وفي ٣ و٤ مايو سنة ١٩٣٣ - وكان هتلر قد تولى الحكم في ألمانيا في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ - نشرت الصحف المحلية خبر انضمام هيدجر رسمياً إلى الحزب الوطني الاشتراكي ( النازي ) . وفي ٢٧ مايو سنة ١٩٣٣ ألقى هيدجر المحاضرة الافتتاحية ( التي استهل بها منصبه الجديد ) بعنوان : « التوكيد الذاتي للجامعة الألمانية » وفيها عرض برنامجاً مفصلاً لإصلاح الجامعة .

لكنه ما لبث أن وقع في خلاف مع السلطات ، وذلك أن مكتب ألفرد روزنبرج ، الموجه الفكري للنازية ، طلب منه فصل اثنين من العمداء في جامعة فرايبورج بسبب عداوتها للنازية ، وهما الأستاذ قواف والأستاذ مولندورف Mollendorf . لكن هيدجر رفض تنفيذ هذا الأمر ، وقدم استقالته من منصب مدير الجامعة ، وقبِلت استقالته ولما يمض عليه في هذه المنصب إلا عشرة أشهر . لكنه استمر أستاذاً يلقي محاضراته .

غير أنه صار هدفاً للمضايقات من جانب السلطات . فكانت الشرطة السرية S.S. تكتب تقارير منتظمة عما يدور في محاضراته ودروسه وتقدمها إلى ألفرد بيوملر A. Baumler ، مدير جامعة برلين ، وكريك E. Krieck مدير جامعة هيدلبرج ، وكلاهما كان واسع النفوذ عالي المكانة في الحزب النازي . كذلك مُنعت بعض دروسه ( السمنارات ) ومنها سمنار كان يدور حول كتاب « العامل Der Arbeiter » لآرنست يونجر . ومُنِع من اعانة طبع كتاب « كنت ومشكلة الميتافيزيقا » ومن نشر كتاب : « نظرية أفلاطون في الحقيقة » كذلك مُنِع من حضور مؤتمر الفلسفة المنعقد في باريس في سنة ١٩٣٧ .

وأثر هو من جانب عدم الاصطدام بالسلطات ، فاكتمى بالدروس ( السمنارات ) ، دون المحاضرات العامة واعتصم بالعزلة والاستغراق في التأملات الفلسفية ، وذلك في بيته الجبلي في قرية توتناويرج Todtnauberg في قلب الغابة السوداء ، حيث كان قد شيد هذا البيت في سنة ١٩٢٢ بصبره ومثابرتة كما قال :

« من أقام البيت ها هنا هو المثابرة على إدراج الأرض والسماء ، والأمور الإلهية والغاية بكل بساطتها ، إدراجها في

كثيراً من المحاضرات العامة ويشارك في مختلف الاحتفالات التذكارية .

وبدا ينشر محاضراته في كتب ضخمة عديدة ، أهمها كتابه الضخم عن « نيتشه » في مجلدين ( سنة ١٩٦١ )

وسافر إلى فرنسا في سنة ١٩٥٥ ليشارك في « أحاديث سريزي لاسال » التي دارت في قصر سريزي لاسال ( شمالي باريس ) وخصصت للدراسة فلسفة هيدجر ، وقد ألقى هيدجر هناك محاضرة في سبتمبر سنة ١٩٥٥ بعنوان : ما هذا الشيء المسمى بالفلسفة ؟ *Was ist das - die Philosophie?*

وسافر مرة أخرى إلى فرنسا في سنة ١٩٥٨ وألقى محاضرة في كلية الآداب بجامعة اكس- آند بروفانص (في جنوبي فرنسا قرب مرسلية) ، عنوانها : « هيجل واليونان » (في ٢٠ مارس سنة ١٩٥٨) .

وقام بأول رحلة له إلى اليونان في ابريل سنة ١٩٦٢ .

وفي العام الجامعي ٦٧/١٩٦٦ استأنف هيدجر ، وهو في السابعة والسبعين ، التدريس في جامعة فرايبورج حيث خصص سمناً للفيلسوف اليوناني هرقليطس .

وفي سنة ١٩٦٨ ألقى دروساً (سمناً) في تور Thor (في إقليم البروفانص جنوبي فرنسا) جعل موضوعها كتاب هيجل الذي بعنوان : « الفارق بين مذهبي هيجل وشلنج » ، وذلك خلال المدة من ٣٠ أغسطس حتى ٨ سبتمبر . وقد عاد إلى تور Thor في السنة التالية فألقى دروساً عن كتاب امانويل كنت وعنوانه : « في البرهان الوحيد الممكن على وجود الله » ، وذلك في الفترة من ٢ إلى ١١ سبتمبر سنة ١٩٥٩ .

وأقصى بقية حياته في بيته الجبلي في توتناويرج ، إلى أن توفي في ٢٦ مايو سنة ١٩٧٦ في مكرش Messkirch مسقط رأسه .

### فلسفته

هيدجر هو المؤسس الحقيقي للوجودية .

والموضوع الرئيسي الذي تدور حوله كل فلسفته هو الوجود . ومهمة الفيلسوف في نظره هي إيضاح معنى الوجود . والمنهج الذي يستخدمه هيدجر في سبيل ذلك هو « الإشارة » *Aufweisung* ، لأن الوجود لا يقبل البرهان للتليل عليه ، بل الايضاح والكشف ، وذلك بالإشارة إليه

الأشياء . وهذه القوة هي التي أقامت البيت على سفح الجبل ، في مامن من الرياح ، وفي مواجهة الجنوب ، بين المروج وبالقرب من الينبوع . وهي التي وهبتة سقفاً من الألواح بارزاً بروزاً كبيراً يحمل شحنات الثلج ويانحناء مناسب ، وهو ينزل إلى أسفل جداً ، فيحتمي الغرف من عواصف ليالي الشتاء الطويلة . ولم ينس « ركن الرب » خلف المائدة المشتركة ، وهياً في الحجرات مواضع مقدسة ، هي مواضع الميلاد و« شجرة الموت » - وهذا الاسم يسمون هناك النعش - وهكذا بالنسبة إلى مختلف الأعمار ، صور ، تحت نفس السقف ، أثر مرورها خلال الزمان » ( مقالات ومحاضرات » ص ١٩١ - ١٩٢ ، ترجمة فرنسية ، باريس سنة ١٩٥٨ ) .

وكان هيدجر قد تزوج في سنة ١٩١٧ من ألفريده بيري *Elfriede Petri* ، ورزق منها بأول ولد وهو يريج *Jörg* في سنة ١٩١٩ ، وبالأول الثاني هرمن *Hermann* في سنة ١٩٢٠ .

وفي خريف سنة ١٩٤٤ استدعي هيدجر للاشتراك في الميليشيا الشعبية *Volkssturm* ، لما كانت ألمانيا على وشك الهزيمة .

فلما هزمت ألمانيا نهائياً في أوائل مايو سنة ١٩٤٥ ، واحتل الحلفاء ( أمريكا وانجلترا وروسيا وفرنسا الخ ) كل ألمانيا ، أصدرت سلطات الاحتلال قراراً بمنع هيدجر من التدريس في جامعة فرايبورج . واستمر هذا المنع حتى سنة ١٩٥١ . وخلال هذه الفترة كان هيدجر يكتب مؤلفاته ويتحدث مع جماعات صغيرة من الطلاب أو المعجيين . فكتب رسالة صغيرة بعنوان : « وما فائدة الشعراء ؟ » ( سنة ١٩٤٦ ) . وألقى أربع محاضرات في نادي برمن *Bremen* ( ألمانيا الغربية ) في ديسمبر سنة ١٩٤٩ . وألقى محاضرة عن « الشيء » *Das Ding* في أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة في ٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، ومحاضرة عن « اللغة » في ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٠ .

وفي سنة ١٩٥١ أعيد هيدجر إلى منصبه أستاذاً في جامعة فرايبورج . وكانت دروسه ( سمناً ) الأولى عن : « أرسطو ، كتاب الطبيعة م<sup>٢</sup> ف<sup>١</sup> ، م<sup>٣</sup> ف<sup>١</sup> - ٣ » .

وامتد بعد ذلك في إلقاء الدروس ، التي تمخض عنها الكتابان التاليان : « لمعنى التفكير ؟ » ( سنة ١٩٥٢ ) ، « مبدأ العلية » ( سنة ١٩٥٥ - سنة ١٩٥٦ ) . وكان يلقي

الوجود - هناك )، أي الوجود في العالم ، وهذه العبارة لا تشمل فقط على المعنى المكاني ، بل وأيضاً وخصوصاً المعنى الانطولوجي . وهذا الوجود الانساني عام بين الناس جميعاً ، وإن بدأت تجريبي من وجودي أنا الخاص بي . ومهمة التحليل الانطولوجي ستكون إذن الكشف عن الوجود الانساني بعامة .

التركيب الجوهرية للإنسان هي تلك التي تلزمه ككل . فعل التحليل الانطولوجي أن يتناول إذن كل أحوال وجود الأنية Dasein .

وأول خاصية جوهرية لوجود الانسان هي أن وجوده لا يشبه وجود الشيء ، لأنه لا يبدو أبداً كنسخة من هذا الصنف أو ذلك . إن قانونه هو علم التعيين ، أعني أنه غير ثابت ، بل متغير من فرد إلى آخر ، ولكل الحق في أن يقول : أنا . ( « الوجود والزمان » ص ٥٣ )

وهذا الأنا ليس جوهرًا ، أي موضوعاً ثابتاً تجري عليه التغيرات . ذلك أن وجود الانسان يتجلى على أنه إمكان وجود Seinkönnen . إنه ينبوع للإمكانات ، واستعداد لتحقيقها . إنه يميل دائماً إلى أن يعطي نفسه المزيد . ولما لم يكن بعد ما سيكونه فيما بعد ، فإنه ما ليس إياه ، وبالتالي أكثر مما هو بالفعل . إنه إمكان نفسه باستمرار . إنه سبق على نفسه باستمرار ، ولهذا فإن آنيته مشروع يحقق نفسه باستمرار Entwurf . إنه يقدم نفسه في إمكانياته الخاصة . وفي هذا المشروع Entwurf ينكشف إمكان وجود الأنية . وتلك هي خاصيته الثانية ، أي أنه مشروع ذاته باستمرار .

والخاصية الثالثة الأساسية لوجود الانسان هي : الحرية . فالأنية حرة . وهذه الحرية هي تحديد تقوم به الأنية لتعيين ذاتها . فإنا الذي أقرر طريقة وجودي بنفسي ، وذلك باختياري لأحد أوجه الممكن المتاحة أمامي . وهكذا فإنني أختار نفسي في وجودي ، وأنا مسؤول عن ذاتي .

ولما كانت الأنية في سبق على نفسها باستمرار ، فإنها دائماً تسبق ذاتها Sich - vorweg - sein ذلك أن الأنية هي بالضرورة خارج ذاتها ، وبالتالي هي في العالم . يقول هيدجر : « إن ماهية الأنية تقوم في وجودها خارج ذاتها » ( « الوجود والزمان » ص ٤٢ ) Das Wesen des Daseins liegt in seiner Existenz . والوجود خارج الذات Existenz هو الحضور في العالم .

ذلك أن الوجود اسم مشترك بين كل الأشياء الأحياء . وهو يشمل السائل نفسه الذي يسأل عن معنى الوجود . ومن المستحيل النظر إليه من الخارج ، أو استنباطه من شيء سبق ، لأنه لا شيء سبق عليه .

أين تتجلى ظاهرة الوجود ؟ في الموجودات نفسها . إن الوجود هو وجود الموجودات التي تستمد كلها منه وجودها الخاص بها . فعلياً إذن أن نمضي من الموجود das Seiende إلى الوجود Sein . لكن الوجود نفسه ليس موجوداً من الموجودات . بل هو ما يعطي الوجود لكل ما هو موجود ، لا كعلة خارجية ، بل كمبدأ أساسي قائم في عمائق الموجودات ، ولهذا لا نستطيع أن ننته إلا بالقول بأنه « الوجود فحسب » das Sein schlechthin .

ومن هنا يقوم تمييز أساسي بين ميدان الوجود ، وميدان الموجود ، أو بين الوجودي ( الانطولوجي ) وبين الموجودي ontisch فالانطولوجي يرجع إلى ما يجعل الموجود موجوداً ، أي يرجع إلى تركيبه الأساسي . أما الموجودي فيشمل الموجود كما هو معطى .

والوجود في كل مكان ، لكنه لا يعطي الوجود على نحو واحد ، بل هناك أحوال عديدة للوجود وانماط مختلفة للموجودات : وجود الشيء ، وجود الأداة ، وجود الإنسان ، الخ . فبأي نمط من هذه الانماط نبدأ البحث ؟ والجواب عند هيدجر واضح حاسم : إنه وجود الانسان ، وجودنا نحن ، هو الذي ينبغي أن نبدأ به البحث ، إذ لا توجد نقطة ارتكاز أخرى أقوم من الانسان . فقطعة ابتداء البحث في الوجود ينبغي أن تكون إذن هي تحليل وجود الإنسان . وعلى هذا التحليل أن يوضح وجود هذا الموجود ( الانسان ) الذي يتساءل عن الوجود . إن الانسان ، بالنسبة إلى تجربتنا ، هو الموجود الوحيد الذي يستطيع أن يلقى موجودات أخرى ، وأن يوجه إليها انتباهه وأن يتصل بها . وبالنسبة إلى الانسان وحده تكون هذه الموجودات مفتوحة ، منكشفة ، وهو وحده أيضاً الذي يقدر على أن ينكشف لها . وهو الموضع الوحيد الذي فيه يظهر فهم الوجود ، وفيه لا يتوقف عن التكاثر والوجود . ولهذا يقول هيدجر : « إن ماهية الإنسان جوهرية بالنسبة إلى حقيقة الوجود » ( « الوجود والزمان » ص ١٢ ) .

وجود الإنسان يسميه هيدجر « الأنية » Dasein ( =

من نوع الشيء ، أي كموجود معطى Vorhanden . إن الوجود الخاص للأداة لا ينكشف إلا بالعمل وفي الأمور العملية وبالاستعمال . فالمطرقة لا يعرف حال وجودها إلا إذا استعملتها اليد . ولهذا فإن الأداة هي « الوجود - في - متلول - اليد » Zubandensein .

والأداة لا توجد مستقلة بنفسها («الوجود والزمان» ص ٣٥٣) ، بل هي تحيل دائماً إلى أدوات أخرى . ولهذا فإن الأدوات المختلفة تؤلف مركباً ، هو نسيج من الارتباطات التي تؤلف وجود الأداة الخاصة وفقاً لوحدة إحصائية منظمة . ولهذا لا يمكن فهم أية أداة إلا داخل المركب Zeug-ganzes الذي تؤلف هي جزءاً منه . وهذا المركب يتسع مداه إلى أن يشمل كل الأشياء . إن الأدوات تؤلف شبكة ينكشف فيها العالم في الشمول الانطولوجي لعناصره .

لكن العالم الذي أحيأ وأنطوّر فيه ليس مسكوناً فقط بأدوات ، بل هو يشتمل أيضاً على موجودات مشابهة لي . وهؤلاء الآخرون لا يتجلون كذرات منعزلة معطاة فقط ، إلى جانب الموضوعات الكائنة في العالم . بل هم كائنات مزودة بنفس التركيب الذي لي . ووجودها حاضر في الأدوات التي ألتقي بها في العالم . إنهم مثلي : كائنات في العالم .

لكن بينما الأدوات تخلفني ، فإن الآخرين بصحبوني ويرافقوني («الوجود والزمان» ص ١١٨) : إنهم معي . وأنا أصطلم بهم ، وعلى أن أقتاسم العالم وإياهم . هذا العالم الذي نحن نسكنه معاً هو عالم محيط Mitwelt (= عالم مع) ، عالم مشترك نحن موجودون فيه . ومتى ما وجدت وجدت مع آخرين . ومتى ما وجد الإنسان عاش في نوع من الانفتاح يدخل فيه الغير ويتجلى له . ولهذا فإن وجود الآخرين هو بالنسبة إليّ أصيل أصالة وجود الأدوات نفسها . إنني وجودي أنا أكون في الوقت نفسه مع الآخرين . إنني « وجود - مع » . « والوجود - مع » صفة جوهرية أساسية في كل آنية . وفهم الآخرين هو حال وجودية للوجود الذاتي . وحتى الوحدة والانفراد والعزلة هي أيضاً نوع من « الوجود - مع » .

أن يوجد ، بالنسبة إلى الإنسان ، هو أن يكون مع أناس آخرين . إنني « وجود - مع » ، مفتوح بالضرورة على الآخرين ، مشارك لهم في الوجود . « وبالوجود - مع » ينكشف لي وجود الآخرين . « والوجود - مع » يحيل إلى

وهذا الحضور في العالم أو الوجود في العالم هو أول ما يتجل لنا حين نلصق إلى الوجود الإنساني . إن الآنية توجد بحيث تفهم ذاتها ابتداءً عما هو ليس إياها . ولا يمكنها أن تضع العالم بين أقواس ، لأنها مرتبطة به ارتباطاً ضرورياً .

لكن الوجود في العالم ينطوي على ثلاث لحظات مقومة له ، هي : العالم ، الموجود الذي هو في العالم ، والحضور في العالم .

فلنتظر في هذه المعاني الثلاثة :

١) العالم : إن العالم يبدو لنا أنه ما تقيم فيه الآنية ، وما يجعل الموجودات في داخل العالم ممكنة . ولدى الالتقاء مع أي موجود ، فإن العالم يكون مفتوحاً ، وهذا الانفتاح يكشف عن الطابع العالمي (نسبة إلى داخل العالم) للموجود . والعالم هو ما يجعل ممكناً كل تحيل للموجود . وهذا الامكان يتسبب إلى الآنية نفسها .

لكن العالم ليس موجوداً من الموجودات . إنه ليس في الأشياء ، بل هو في أفق الأشياء . وهو يدل بالأحرى على حال وجود للموجود ؛ وهذه الحال أصيلة أصالة مطلقة . ذلك أن العالم ليس موجوداً أبداً ، بل هو صائر دائماً ، إنه يتحول Welt ist nie, sondern weltet (أو يتعولم weltet ، أي يصير عالماً ، على طريقة هيدجر في التعبير) . وهو صفة للآنية نفسها : إن وجود العالم هو نفسه تحديد لوجود العالم . والعالم هو في وقت واحد كشف شامل للموجودات وانفتاح للآنية على هذا المجموع .

وموقف الآنية من الموجودات غير الإنسانية التي تحيط بها هو نوع من الأناش الوائق ، ومظهرة الأكثر مباشرة هو مظهر عملي . فالحياة العملية تقوم في استعمال الأشياء . وأقرب الموجودات إلينا هي الأدوات أي كل ما يمكن أن نستخدمه أو نستعمله أو نستعين به في قضاء حاجة ما عملية . وبهذا المعنى الواسع جداً يمكن أن يقال عن القطار ، أو الصحيفة اليومية ، إنه أداة Zeug . ونستطيع فهم العالم عن طريق فهم وجود الأداة . إن الأداة تتجل لنا كموجود يتسبب بالضرورة إلى العالم .

ولكن الأداة ليست حاضرة في الأصل أمام الحياة العملية كما لو كانت مادة بسيطة للعالم ، أو كموجود غليظ ، يتخذ له شكلاً فيما بعد . كما أن الأداة ينهني ألا تعدّ موجوداً



من حيث أننا مرميون هناك ، متورطين في هذا المحيط دون إرادتنا . وهذا الشعور هو ما يسميه هيدجر Geworfenheit ، أي الشعور بأننا ملقى بنا ، مرميون هناك .

وهذا الشعور يتضمن أننا موجودون دائماً في العالم ، ومضطرون إلى أن نحسب حساب هذه الواقعة ، وتلك هي الواقعية Faktizität .

والشعور بالإلقاء أو الرمي هناك مصحوب بالشعور بأننا « متروكون » إلى مصيرنا بين الموجودات الذين يرغمونا ويضغطون علينا . وهذا الترك Ueberlassenheit لا يفصل عن وجودنا وحالنا الجوهرية .

نحن متروكون إذن لأنفسنا في هذا العالم . وهذه الواقعة صفة دائمة للوجود مرتبطة به . إنني متروك في الوجود . وبهذا يتجلى طابع العرضية في موقفي في العالم : إنني عارض فيه .

وفي الموقف أنا لا أرى فقط أنني موجود ، بل وأنني يجب أن أوجد ( « الوجود والزمان » ص ٤١ ) . إن عليّ أن أكون موجوداً ، وعليّ أن أحقق ذاتي ، وعليّ أن التزم بوجودي كمهمة لا أملك الأوقات منها . وعليّ أن أحقق ما لديّ من إمكانيات . ورغم شعوري بعجزتي ، فإن عليّ أن أصير ، أن أصير من أنا . إن وجودي أعطي لي كأنه « وجوب وجود » Zu - sein .

على أن هذه المهمة ليست أمراً خارجاً عني عليّ بلوغه ، بل هي دائماً متحققة في كل مسلك ونشاط تؤديه الآنية .

٢ - والآنية تفهم العالم ، وتفهم وجودها في العالم . ويتم هذا الفهم بتوترها في نزوعها إلى تحقيق امكانياتها . إن الآنية مستوفزة دائماً نحو المستقبل لتحقيق إمكانياتها ، بهذا تفهم نفسها ، إذ يتم الفهم بواسطة تحقيق الممكنات ، والسعي إلى الكشف عنها . ولهذا يقول هيدجر إن الفهم Verstehen هو مشروع Ent - wurf . والشروع ينجم عن إمكان الوجود الذي ينكشف في المشروع . والآنية تستشرع - إن صحّ هذا التعبير ( من الاسم : مشروع ) - نفسها ، أي تدرك مشروعات نفسها وتسمى إلى تحقيقها .

ولهذا فإن الآنية تتعين أساساً بواسطة ما يمكن أن تصير إليه . وتركيب المشروع ليس إلا الطابع التوقعي لوجودها . وبعبارة أخرى ، الآنية تتجاوز نفسها باستمرار في مشروعات

ذاتي ، في نفس الوقت الذي يحيل فيه إلى الغير .

ب) الوجود - في : إن وجود الآنية في العالم يتضمن ثلاث خصائص : الموقف ، الفهم ، السقوط . فلتتحدث عن كل منها :

١ - إن « الموقف Befindlichkeit هو الذي يكشف عن الحال الأساسية في الإنسان . إنه شعوره بأنه قائم هناك في العالم تجاه الغير . وهذا الموقف كشف وشعور عاطفي Gefühl معاً . إن الآنية تشعر آنذاك أنها موجودة ، وتشاهد وتحس بأنها كائنة . وفي الوقت نفسه يتضح لها موقعها من العالم بوصفها في وسط موجودات : أحياء وأشياء .

وفي « الموقف » ينكشف الوجود الشامل . إنه يكشف لي أنني كائن في موقف ، ذو فردية ، وأني في مكان يلتقي فيه العالم : الآخرون وأنا . و« بالموقف » يحال الإنسان إلى الموجودات التي يمكن أن تؤثر فيه ، لأن انفتاح الموقف يجعل الانفتاح الوجودي على العالم ممكناً .

إن « الموقف » شبيه بالينبوع ، والأساس ، بالنسبة إلى مشاعرنا الخاصة . ومن خلال علاقتنا مع الوجود ، نحن نستشعر دائماً عاطفة ما ، حتى إن الوجود هو بالنسبة إلينا « أن نتأثر » على نحو ما . وعلى هذا النحو تتأسس الآنية في وسط الوجود Bodennehmen ( = تتخذ أساساً ) .

لكن حضور العالم ، حضوره الشامل ، يفرض نفسه علينا بفضل بعض العواطف ، التي يمكن أن تسمى « كونية » ، مثل الملل ، الملل الحقيقي « المنتشر كالضباب الصامت في مهاوي الآنية » ( « ما الميتافيزيقا ؟ » ص ٧٨ ) ، الملل الجارف العميق الذي فيه كل شيء يُثقل علينا . وهذا الملل هو الذي يكشف لنا عن العالم . وكذلك السرور الذي يحدته حضور كائن محبوب لدينا . وأهم من هذين الشعورين ، هناك : القلق Angst ، الذي به يزداد انفتاح الآنية على العالم .

إن الموقف يضع الإنسان أمام وجوده ، فيكشف له عن حال وجوده هناك . والإنسان موجود في العالم بسبب وجوده نفسه . إنه « الهناك » Da الذي يفتح على العالم .

ويشعر الإنسان أنه هناك ، دون أن يكون هو الذي قرر ذلك . فيدوله وجوده كما لو كان ملقى به geworfen ، مرمياً هناك ، لا كنتيجة لفعل حر صدر عنه . ونحن لا نوجد إلا

للافلات من قبضة الوجود . إنني أهرب من ذاتي لأني أخاف من ذاتي ، من خطيئتي . وليس المقصود بهذه الخطيئة ما يعرف في الدين باسم الخطيئة الأولى ، بل المقصود هو اكتشاف أنني متله ، فإنني . إن الضمير يدعوني إلى ترك العالم المظلمين الذي خلقته لنفسه ، ابتغاء العود إلى الحقيقة العارية . وهذه الدعوة تقلقني وتجعلني أشعر بأنني غريب عن نفسي ، عن ذاتي الحقيقية .

أما الوجود الصحيح فهو الاستجابة لنداء الضمير الذي يقول إنني مذنب . يقول هيدجر : « إن الضمير يتجلى كصيحة للهيم : والسائل هو الآنية ، التي تقلق من سقوطها ، وتقلق على إمكانيتها الأخص ( وهي أن تشرع نفسها إلى الامام . . . ) . والآنية مدعوة من التساؤل الوارد من السقوط في الناس » ( « الوجود والزمان » ص ٢٧٧ ) . إن صيحة الهيم ، وهي تتزعني من أرض الوجود ، تكشف لي عن عدم تعيين وجودي . ذلك أن الخوف يتعلق دائماً بموضوعات جزئية : فأنا أخاف من شيء ما ، وعلى العكس من ذلك نجد أن القلق ليس له إطار محدد لأنه لا يتعلق بشيء . إن القلق هو الشعور بما هو مائل هاهنا ، والتوقع لكون الحضور يقع وراء الموضوعات الحاضرة . فالخوف هو إذن خوف من الخوف الذي يهرب من القلق .

وليس المقصود بالصحيح أو الزائف حين يطلقان هنا على الوجود أي تقييم أخلاقي . إن للوجود الزائف لغته وقانونه الخاص : إنه ليس مجرد ظهور للوجود ، بل هو بُعد حقيقي للوجود . ولا يمكن تجاوزه أبداً بواسطة الوجود الصحيح . والإنسان مجباً دائماً في تقاطع الزائف مع الصحيح ، والهيموم اليومية تخفي عنه همة الأساسي ، ومشهد العالم يحيل إلى جعله ينسى وجوده - في - العالم .

إن السبب في الزيف يرجع إلى كون العالم الحاضر في الآنية هو - الحياة اليومية - عالم « الناس » ، das Man أي أنه عالم من الكائنات غير المشخصة ، تنوب فيه إمكانية الوجود الحقيقي ، وجود الذات المشخصة الفردية أو الأنا . إن في « الناس » تنازل الآنية عن هويتها ، عن كونها وحيدة مفردة نسيج وحدها .

٣ - والضرب الثالث من اندراج الآنية في العالم يتحقق عن طريق القول ( الكلام ) بالمعنى الأوسع لهذا اللفظ ويقوم هذا الضرب في القدرة على صنع معاني Sinn ، وترتيب فكر .

إمكانياتها . ولهذا فإنها تستيق وجود ذاتها باستمرار .

وليس المقصود بالفهم للمعنى العقلي فقط . فإن نفهم موقفنا في الوجود لا يعني فقط أن نحدده ونشرحه أو نتأمله فحسب . بل ينطوي الفهم - عند هيدجر - على معنى عملي ، هو تحقيق الشيء والسيطرة عليه وصنعه . ومن يفهم شيئاً ما يمتلك إمكانيات خاصة بهذا الشيء . فإن يفهم الإنسان العالم معناه أن يعيش موقفه فيه . والفهم يلزم الإنسان كله ، ويوجه الآنية في مشروعها وفقاً لرؤية عينية للطرق المتاحة للحرية .

والفهم إذن ليس ملكة مستقلة عن وجود الإنسان ، إنه التعبير عن وجوده نفسه ، إنه تجليد انطولوجي وحال وجودية للآنية . والفهم يربط الآنية بالوجود رباطاً وثيقاً . ومعنى هذا أن الآنية ، هي الوجود الانساني .

وهنا يميز هيدجر بين ضربين من وجود الآنية ؛ الوجود الصحيح ، والوجود الزائف . وفي الحياة اليومية تعيش الآنية عامة على نحو زائف : إنها تتحصن وراء الكلام Gerede ، وتتغذى بحب الاستطلاع ، وتمارس الاشتراك المعنوي Zweideutigkeit ، فتري نفسها على صورة الأشياء التي تشاهدها ، ويصير العالم صورة مشوهة للواقع . وبدلاً من الالتصاق بالعالم ، يقفز الفهم إلى ما وراء الموقف : ولخوفه من فهم العالم الذي أمامه وليشيع الطمأنينة في نفسه ، فإنه يخلق لنفسه عالماً جديداً .

كذلك يصيب الزيف ميدان الالتقاء بالغير ، فلا يكون الغير هو الآخر الذي يؤلف جزءاً من همي ، بل نسخة أخرى من ذاتي ، « أنا آخر » alter ego حضوره الأصيل يتحطم لصالح الامتثال المسوي ( بين الناس ) . والموت يصبح مجرد فكرة تعني كل واحد ولا تعني أحداً في آن واحد : يموت المرء كما يتكلم .

وهذه الحياة الزائفة التي تجرد الآنية من إمكانياتها تعبر عن إمكانية أساسية للإنسان ، هي : السقوط Verfallen . وللسقوط طابعان : الحياة في المتوسط Durchschnittlichkeit والتسوية بين إمكانات الوجود Einebnung . هنا تدع الآنية نفسها تعيش في الزمان الذي يمضي ، بدلاً من أن تحمل ذاتها على عاتقها .

وهذا نوع من التلهية له دلالة الانطولوجية : إنه محاولة

الوجود ، كما أن القاضي يقول القانون . واللغة الصحيحة هي خصوصاً تلك التي ينطق بها الشاعر ، بكلامه الحافل .

أما الكلام الزائف فهو كلام المحادثات اليومية . إن هذا الكلام سقوط ، وانتيار ، بالمعنى الانطولوجي ، لا بالمعنى النفسي ، لهذا اللفظ . إن الآنية وقد أسلمت إلى العالم ، تضيع في الوجود - مع Mitsein . ولا يستطيع الانسان أن يتجنب الاختلاط بالموجودات ، عندهم Sein - bei . وهذه العنيدة تجر بالضرورة إلى نوع من الاستعباد العملي للكائنات التي نحن في حاجة إليها .

والانسان بسقوطه في العالم يتميز بلامح رئيسية هي : الإغراء ، الطمأنينة الظاهرية ، مغايرة الذات ، والمؤجل .

والإغراء أبرز هذه الملامح ، لأن السقوط معناه أن يُغرى الإنسان بالوجود السهل ، وجود الناس ، ورفض الذات ، والولوع بالثرثرة ، والتطفل والاشتراك المعنوي ( « الوجود والزمان » ، ص ١٧٥ ) . وفي الثرثرة لا يتم المرء بالموضوع الذي يجري الكلام حوله ، بل يتم بما يقوله الآخرون عن هذا الموضوع . والتطفل يرتبط بالكسل وانعدام الفعل . فحينها يكف المرء عن الفعل ، يتجلى التأمل ، ومعه التطفل الذي يؤدي بدوره إلى التلهية وعدم الانتباه ، والرغبة في اقتناء أكبر مقدار من المعرفة . أما الاشتراك المعنوي ( أي في المعاني ) فينشأ من كوننا نسعى قبل كل شيء إلى التضاهم مع الآخرين . لقد وضعنا أنفسنا ، لأتجاه الأشياء ، بل تجاه بعضها البعض ، هنالك لا نستطيع أن نميز ما رؤي على الوجه الصحيح وما لم ير كذلك .

أما الخاصية الثانية للسقوط وهي الطمأنينة *Beruhigung* فتشأن من كوننا قد استندنا إلى رأي الآخرين ، فأشاع ذلك الطمأنينة في نفوسنا ، لكنها طمأنينة ظاهرة فحسب ، ولا تُرضي ولا تقنع .

والخاصية الثالثة هي مغايرة الذات ، الناجمة عن توافقها مع العالم . إن الآنية قد قررت ضد نفسها بتوافقها مع الغير ، وبذلك فقدت إمكاناتها الصحيحة . لقد تخلت عن شخصيتها الحقيقية .

والخاصية الرابعة والأخيرة للسقوط هي : المؤجل ، أي الانفراس في وحل الآخرين .

ومع ذلك فإننا في الوجود الساقط لا نفلت من

والمعنى هو كل ما يتحدد في الفهم ، إنه مضمونه المتظم . وليس للكون معنى إلا بسبب وجود الآنية . لكن المعنى ليس معنى عقلياً فقط ، إنه ليس كلياً مستخلصاً ( مجرداً ) من حادث ، ينطبق على عامة الحوادث التي من نفس النوع . إنما هو ما يقوم فيه الفهم . إنه يعني بُعد المشروع الانساني ، وزاوية النظر التي منها يتجلى الشيء وابتداءً منها يمكن أن يفهم في إمكانياته ، التي هي أيضاً إمكانياتنا نحن . وهكذا تتخذ الأشياء معاني من حيث هي مادة لإمكانياتنا . إن الأشياء ، من حيث ذاتها ، لا تخلو من المعنى *sinnlos* ، ولكنها بلا معنى *unsinnig* ( « الوجود والزمان » ، ص ١٥٢ ) . والمعنى يكشف في - ومن أجل - آنية عينية محددة ، وينشأ عن الموقف الدقيق لمشروع في داخل مجموع حقائق واقعية أنا مرتبط بها بواسطة الاهتمام . ففهم معنى بيت ما ، هو رؤيته وفقاً لكونه يفيد في شيء ما ، أعني وفقاً لكونه أداة *Zeug* هي السكنى فيه .

والمعنى هو الذي يؤسس اللغة ( « الوجود والزمان » ، ص ١٨٧ ) أو القول الذي هو تحديد عيني للكلام وبه يُعبر عادة . وبدون اللغة لن تكون الأشياء أبداً هي ما هي عليه ، ذلك أن اللغة هي التي تستدعيها وتعطينا القدرة على استدعائها . وبهذا المعنى فإن اللغة هي التي تفتح لنا العالم ، لأنها وحدها التي تعطينا إمكان الإقامة بالقرب من موجود منفتح من قبل ، وأن نتوجه بالخطاب إلى الموجود بما هو موجود . وكل ما هو كائن لا يمكن أن يكون إلا في « معبد اللغة » . وفي هذا المعبد يقيم الإنسان دائماً ، لأن هذا المعبد هو الذي يجعل من الانسان موجوداً يعبر عن نفسه . إن اللغة هي بيت الوجود ، الذي يسكنه الإنسان ، وفيه يتخذ كل شيء مكانه .

والحوار هو الكلام الذي يتم فيه التعبير باشتراك الغير . وبالحوار نكون واحداً ، مترابطين في تركيباتنا الأساسية . أنا ما أقول ؛ ونحن معاً ما تعبر عنه كلماتنا . والآنية هي بالضرورة حوار ، لأن وجودها دياكتيكي ، متعلق دائماً بالآخرين الذين يكونون معاً عالم الآنية ( « الوجود والزمان » ، ص ١٧٠ ) إن الحوار يريد أن يوحد بيتنا في قصد مشترك ، دون أن نختلط بعضنا ببعض .

واللغة هي التي تؤسس كل ما هو كائن ، من حيث هو كائن . أو هذا على الأقل ما تفعله حين يكون الكلام صحيحاً ، يفتحنا على المعقولة الصحيحة . إذن اللغة تقول

الوجود . ذلك أن السقوط Verfallen هو نفسه وجود الآنية . إن الآنية بسقوطها تؤدي حركة تجري في داخل ذاتها : وهذه الحركة موجودة existential .

ولا آنية تبدأ بالوجود الصحيح . بل الإنسان ، أولاً وبالعادة ، مُسَلَّم إلى العالم وإلى اغرائته وغواياته . إنه منذ البداية ساقط . وابتداءً من هذه الحالة يجب على الآنية أن تغزو وجودها الخاص بها . إن الإنسان لا يصير ذاته حقاً ، إلا إذا تجاوز الوجود اللاشخصي الذي يتبدى دائماً أمامه كما كان يُغويه .

لكن لحظات الزمانية تكوّن - مع ذلك - وحدة لا تنقسم عراها ، ولهذا تستطيع الآنية أن تفهمها .

والمهم والزمانية :

ولقد كان « الحاضر » هو أوفر هذه اللحظات الثلاث عناية به لدى الفلاسفة . لقد رفعه البعض إلى درجة السرمدية ، لأن السرمدية حضور دائم ، فجعلوا الماضي والمستقبل في المقام الثاني . وهذا حرّموا الزمان من بُعدين من أبعاده ، مع أنه لا يوجد إلا بالثلاثة معاً .

والمهم والزمانية :

ويرى هيدجر أن اللحظة الأهم بين لحظات الزمان الثلاث هي المستقبل ، وأنه يسبق اللحظتين الأخرين : الماضي والحاضر . والمستقبل يقوم في قدرة الآنية على التوجه نحو إمكانياتها ، ويتولد بفعل التشريع ( أي تكوين مشروعات والسعي إلى تحقيقها ) . والآنية نفسها حاملة للمستقبل . إنها مستقبل في وجودها لأنها بتركيبها قادرة على الذهاب أو التوجه نحو ما هو آت . والفهم يقوم على أساس المستقبل ، وبه تتزمن الآنية كمستقبل .

والعناصر الثلاثة المكوّنة للآنية يوحد بينها المهم . والآنية ، من حيث هي هم ، تعرف هكذا : « إنها الوجود المستبق الملقى به والمتروك في عالم ضاع فيه » (الوجود والزمان من ١٩٢) والوجود المستبق Das-sich-vorweg sein هو الذي في سبق على نفسه ، وكل وجود هو في سبق على نفسه لأن فيه إمكانيات لم تتحقق بعد . وهذا الوجود المستبق يتعلق بالفهم . أما الوجود - من قبل - في - العالم - Das-sich-vorweg-schon-sein فيتعلق بالموقف ، وبالوقائعية .

ويكون المستقبل صحيحاً حين تتوجه الآنية إلى إمكانياتها القصوى ، التي هي موتها الفردي . ولا يقصد بالمستقبل هنا لحظة ليست بعد واقعة ، بل العملية التي بها الآنية تصل إلى ذاتها في داخل قدرتها الأصح .

والمهم هو الذي يربط الآنية بالعالم وبالأخرين . والمهم هو وجود الإنسان ، والعالم يولد ، بالنسبة إليه ، وهو متوقف على المهم . فسواء كانت تعرف ، أو تحب ، أو تفعل ، فإن المهم هو المبدأ لكل شيء .

ولما كان اليقين بالموت هو أعلى مراتب اليقين ، وكان يحدث في المستقبل ، فمن الطبيعي أن تتسلسل لحظات الزمان ابتداءً من المستقبل ، على الأقل حين يتعلق الأمر بالصورة الأصلية والصحيحة للزمان .

ولما كان المهم يعبر عن الجذر النهائي للشخصية الإنسانية ، فإنه يشمل كل أوجه الشخصية . فهو لا يتعلق بالجانب العملي فحسب ، بل وأيضاً بالجانب النظري ، لأن كليهما من إمكانيات وجودها .

بيد أن الآنية لا يمكن ان تنطلق نحو الموت إلا إذا كانت موجودة من قبل . ولكي تحقق وجودها الأنسب ، فعليها أن تتقبل - إلى جانب موتها - كونها مقدوفة هناك ، أعني موجودة بالفعل . وهكذا يرتبط المستقبل بالماضي ارتباطاً لا انفصام له . إن الوجود الصحيح يسبق موته ، ويولد إسلامه للعالم .

لكن المهم إنما يقوم على أساس معنى آخر مهم جداً للوجود هو « الزمانية » Zeitlichkeit ذلك أن الآنية وجود متزمن بزمان ؛ بل هي عملية تزمن Zeitigung ، لأنها تشير دائماً وبالضرورة إلى مستقبل ، وماضي ، وحاضر . والزمانية تتضمن هذه اللحظات الثلاث ، التي تؤلف أفق الآنية . وينظر كل لحظة منها عنصر من عناصر المهم .

والماضي يناظر الموقف ، وبه تتزمن الآنية بوصفها قد كانت . وفي الوجود الصحيح بخاصة ، تكون الآنية هي ماضيها وفقاً لكونها تتلقت نحو حالتها الأصلية في كونها ملقى بها هناك ، ومُسلّمة لمصير يتضمن قبولها أنها مستمرة في كونها

والزمانية هي صورة التخارج المحض . وأوجهها خارجية بعضها عن بعض ، ويستبعد كل واحد منها الآخر . ذلك أن الزمان هو ما ليس إياه ، إنه يتخارج s'exteriorise ،

يكون حقاً معناه أن يتطابق مع الواقع ، وأن يسيطر على الشيء تحت نظرة العقل . وهذه النظرة إلى مفهوم الحقيقة هي الأساس في النظرات الأخلاقية والتقويمية والعملية .

لكن هناك سؤالاً أساسياً يفغله هذا التصور : ما الذي يمكن من التواء الشيء مع العقل ؟ إذا كانت الحقيقة تقوم في التناظر بين التصور العقلي والشيء المعقول ، فلا مناص من التسؤل أولاً عن معنى هذا التناظر .

إن النظرة إلى الشيء تحول ظهور الشيء إلى مجرد مظهر . والفكرة الميتافيزيقية للحقيقة تقتصر على إقامة علاقة حيوية أو تطابق مع الظواهر الملاحظة . لكنها بهذا تفعل الظاهرة الأصلية للظهور . كيف يتسنى امتثال الموضوعات إذا لم يكن هناك موضع منه يمكن اضاءتها به . أن يرى الشيء معناه أولاً أن يكشفه ، أن يفتحه على شيء آخر غيره . وفي داخل هذه الفتحة الانطولوجية تكون كل نظرة ممكنة . إن الفتحة هي الوسط الذي منه ينبثق الشيء .

وليست نظرتنا هي التي تقيس الشيء ، بل أفق الشيء هو الذي يقيس نظرنا . ذلك أن الواقع يتجلى مليئاً بالمعاني التي لا يدرك منها العقل إلا الهيكل العظمي Gestell . والأرضية التي عليها ينكشف الشيء هي أولاً الوجود - في - العالم ، وكذلك عالم الوجود . فالحقيقة لا تقوم إذن في حالة العقل إلى الواقع ، بل في حالة العقل والواقع إلى الأفق الانطولوجي الذي يضيئها . إنها لا تقوم في المقياس الذي ينظم تطابق النظرة ، بل في الفتحة التي تكيف وتقوم شرطاً لكل أخذ لقياس . وبالجملة ، الحقيقة هي كشف الحجاب ἀληθεια ، الذي يخرج الوجود من النسيان

إن الحقيقة هي الفعل الديناميكي الذي يجعل الأشياء تنبثق على ضوء بقطة فكرنا ليفهم الوجود .

لا أحد يملك الحقيقة . لكننا نحن في الحقيقة ونسير على ضوءها .

والحرية هي القدرة التي بفضلها نفتح على الأشياء بكشفنا للوجود . والوصول إلى الأشياء ليس ممكناً إلا لأننا نملك ملكة الكشف عن الوجود .

« الحرية تنصب من الماهية الأصلية للحقيقة ، ومن علاقة السر في الخطأ » ( ماهية الحقيقة ، ص ٩٩ ) .

هذا الماضي . فالأنية تتجلى على أنها الوجود الذي قد كان ، وهي قادرة على أن تكون ماضيها مثلها كان ، أي في السقوط .

أما الحاضر فيتعين بالهدف من الفعل . إنه لحظة الانشغال . لكن الانشغال النشط ليس ممكناً إلا إذا استحضرت لنفسك مجموعاً يقوم نشاطي بالعمل فيه . ولهذا ينبغي عليّ أن أرى مستقبلي في ماضي ، وبهذا أحسب حساب الحاضر وفقاً لمختلف أحوال التزمّن .

وينظر الحاضر : السقوط ، حين يكون الوجود زائفاً . أما حضور الوجود الصحيح فهو الوجود - في موقف ، إنه موقف من يدرك المهام الملقاة على عاتقه ويؤديها بنزاهة .

والأنية تترمن بنفسها وبذاتها ك مسرحية يمثلها الزمان ، لا ك مسرحية تجري في الزمان . وتركيبها يتألف من هذا الزمان . والزمان ليس موجوداً من الموجودات ، بل هو تعبير عن واقعة الوجود ، وهو واقعة تحقق الوجود . أن يوجد هو أن يتزمّن sich zeitigen .

ولما كانت الأنية بطبعها متزمنة ، فهي في جوهرها تاريخية . والانسان وحده هو ذو تاريخ ، أما الطبيعة فليست ذات تاريخ . إن الأنية هي تاريخ . والتاريخ يتأسس وترتسم معالمة على أساس العلاقة مع الموجودات في شمولها .

ويفرق هيدجر بين الواقع التاريخي Geschichte ، وبين العلم بهذا الواقع التاريخي وهو علم التاريخ Historie . ويمكن أن نسمي الأول باسم « التاريخ » ( بدون همزة ) ، والثاني باسم « التأريخ » ( مع الهمزة ) .

وبين الوجود والزمان علاقة وثيقة ، إذ ينبغي النظر إلى الوجود من أفق الزمان .

الحقيقة :

الحرية هي ماهية الحقيقة . ولا يقصد من هذا جعل الحقيقة خاضعة للهوى أو لإرادة الاختيار . ذلك أن الحرية ليست ملكة خاصة ، بل هي قدرة الانسان على الانفتاح على العالم وسؤال الوجود .

لقد كانت النظرة الغالبة عند الفلاسفة إلى الحقيقة هي أنها التطابق بين القول وبين الشيء ، وهذا التطابق يقوم في التناظر بين الشيء وماهيته . ومن هنا كان يقرر : أن

و « الأعلى » و « المقدّس » هما في نظر الشاعر أمر واحد : إنهما السجور die Heitere . والسجور يبقى بوصفه ينبوعاً لكل ما هو سار ، « أشدّ الأمور سروراً » وفي هذا يحدث الاتضاح الأصفي « ( العودة » في « اقترابات من هيلدرن » ص ٢٣ ) . ويقدم هيدجر نموذجاً فريداً لمعنى المقدّس في الشعر ، قصيدة هيلدرن بعنوان : « كما في يوم العيد » فيقول إنها ليست انشودة شيء ، ولا انشودة للشعراء ، بل هي « انشودة المقدّس » . والكلام هو عجيء للمقدّس . وشعر هيلدرن هو من إملاء المقدّس .

ومهمة الشاعر هي « تأسيس الوجود بواسطة القول » ( « هيلدرن ... » ص ٥٢ ) . « وهيلدرن يبدأ بتعيين زمان جديد . إنه زمان الآلهة الذاهبين و زمان الإله القادم . إنه زمان البؤس ، لأن هذا الزمان « يتسم بنقص مزدوج ويسلب مزدوج : « ما لم يعد بعد » للآلهة الذاهبين و « ما ليس » للإله القادم .

وإذا كان الشاعر يؤسس الوجود بواسطة القول ، فإنه يعبر عن عصره تاريخياً . وبعاً لهذا يعبر ، بطريقة بسيطة ، مباشرة ، عن روح الشعب بوصفه كلاً بسيطاً ، وشمولاً لا تفاضل فيه ولا تفرقة بين طبقاته . إن الشاعر هو - على نحو ما - لسان حال الشعب ، إن لم نقل إنه مرشده .

والقول الشعري لغة أولية ، أصيلة Ursprache ، هي لغة الأصول . ولغة الأصول هذه هي التي تؤسس قرارات الشعب التاريخي ( ذي التاريخ ) . يقول هيدجر : « إن القول الشعري ليس إلا تفسيراً لصوت الشعب Stimm des Volkes » ( « هيلدرن ... » ص ٥٨ ) .

« وإذا كان العيد هو الأصل الجوهرى لتاريخ الإنسانية ، وإذا كان الشاعر قد نشأ هو نفسه عن هذا العيد ، فإن الشاعر بصير مؤسس تاريخ للإنسانية . إنه يعي « ما هو شعري ، أي الأساس الذي تقيم عليه الإنسانية لمقامها ، بالقدر الذي يكون لها به تاريخ . وعيد الخطبة هو الميلاد المحض للتاريخ ، أعني هاهنا تاريخ الألمان » ( « ذكرى » ، في « اقترابات من هيلدرن » ص ١٣٦ ) .

ويؤول هيدجر قصيدة هيلدرن المشهورة : « خبز وخر » ( راجع ترجمتنا لهذه القصيدة في كتابنا : « في الشعر الأوروبي المعاصر » ، القاهرة سنة ١٩٦٥ ) تأويلاً انطولوجياً لاهوتياً . يقول هيلدرن في هذه القصيدة :

وهيدجر يشير إلى أن الوقوع في الخطأ ضروري ، لكن في الإنسان القدرة على عدم الانهيار أمام الخطأ . فنحن في ترجيح مستمر بين السر وبين التهديد بالضلال .

### ماهية الشعر :

اهتم هيدجر بالبحث في ماهية الشعر وفي العلاقة بين الشعر والفلسفة . وأثر الشعراء عنده هو هيلدرن . وقد خصه بأول بحث في هذا الموضوع بعنوان : « هيلدرن وماهية الشعر » ( سنة ١٩٣٦ ) . وتلاه ببحث بعنوان : « كما في يوم العيد » ( سنة ١٩٤١ ) ؛ ثم « ذكرى ، عودة » ( سنة ١٩٤٣ ) ؛ ثم : « لم الشعراء ؟ » ( سنة ١٩٤٦ ) ؛ ثم « جورج تراكل » ( سنة ١٩٥٣ ) ؛ ثم « الانسان يسكن كشاعر ... » ( سنة ١٩٥٤ ) ؛ ثم « هيل ، صديق البيت » ( سنة ١٩٥٧ ) ؛ ثم « في الطريق إلى اللغة » ( سنة ١٩٥٩ ) ؛ ثم « سماء هيلدرن وأرضه » ( سنة ١٩٦٠ ) .

وهيدجر يرى أنه إذا كان الفكر والشعر من أصل واحد ، فإن ثم مسافة كبيرة بينهما مع ذلك . « إن المفكر يقول الوجود ، أما الشاعر فيسمي المقدّس ... ولا شك أننا نعرف الكثير عن العلاقات بين الفلسفة والشعر . لكننا لا نعرف شيئاً عن الحوار بين الشاعر والمفكر اللذين يسكنان قريباً كل واحد منهما من الآخر على أبعد الجبال بعضها عن بعض » ( « ما الميتافيزيقا » ، ضميمه ، سنة ١٩٤٣ ) .

وبحثه الأول عن هيلدرن ( « هيلدرن وماهية الشعر » ) يتجلى كشرح لخمس عبارات من شعر هيلدرن ، لكنه يخلص من هذا الشرح إلى بيان ماهية الشعر بعامه . لماذا اختار هيلدرن بالذات ؟ « لأنه ، بالنسبة إلينا ، ومعنى ممتاز ، شاعر الشعراء » ( « هيلدرن وماهية الشعر » ص ٤٣ ) .

إن في الشعر يتجلى وجود اللغة . واللغة ليست في المقام الأول وسيلة الاتصال ، وإنما هي أساساً « ما يضمن إمكان الوجود في وسط انفتاح الوجود » ( « هيلدرن ... » ص ٤٨ ) .

إن ما يقوله الشاعر هو « المقدّس » ، وما يسمعه في كلامه هو المقدّس . « والسجور die Heitere يمسك بكل الأشياء في كل ما هو بريء من الاضطراب وسليم . إن السجور يتخلص في الأصل ؛ إنه ما يتخلص ؛ إنه المقدّس .



« لما أشاح الأب بوجهه عن الناس  
وبدا حداد صادق يغزو الأرض »

وتأويل هذا أن إشاحة الله الأب بوجهه عن الناس قد أوجد المأساة على الأرض : فمنئذ عانى الانسان - وقد حُرِمَ من الصور المُطمئنة للمطلق - في الوحدة الخلو من الله Gottes Fehl. ونحت أقدام الانسان انفتح الطريق الخالي ، طريق الزمان . ويُفسر هيدجر هذا المعنى وجودياً بأن الوجود هو الذي أشاح بوجهه عن الناس الفاتين . فصار من العسير على العقل أن يسأل الوجود ، وأن يكون صورة عنه . فلم يبق للإنسان إلا أن ينصرف عن الأشكال التقليدية للمطلق . وصار بين الوجود الذي انسحب إلى سره وبين الآنية المُسلّمة لوحدها ، منطقة لا محدودة من العدم . وفي قلب هذا الاختلاف المُعْلم يجري التاريخ الانساني ، وزمان القلق والمهم .

والإشاحة التي يتحدث عنها هيدجر تؤدي إلى مشاهدة موت صورة الإله الأب ، الذي يعطف وجه الحنان على الانسانية . إن الله ترك الأرض ، والأرض في حداد على الله . لكن ، ألا يكون هذا الغياب - غياب الله عن الأرض - هو النحو الصحيح لحضور الله الحق ؟ .

#### الله والوجود

وهذا يقودنا إلى الحديث عن فكرة الله عند هيدجر . إن علينا - هكذا يقول هيدجر - أن نفكر في الله ابتداءً من الوجود . إن الوجود ليس هو الله ، لأنه إذا كان الله هو من يقدر وحده على أن يكشف عن نفسه ، أي العلي أو الغير - الكلي ، فإن الوجود هو ما به يكشف الموجود عن نفسه . والعبارة : « الله هو وجوده » ، لو أخذت بحروفها ، لما دلّت على شيء . إنها تعني القول بالهوية بين التجربة الفلسفية لانكشاف الوجود وبين التجربة اللاهوتية لانكشاف الله (بالوحي) . والمؤمن يستجوبه كلام الله ، أما فكر الفيلسوف فيطالب به الوجود . ولهذا فإن إله الإيمان ليست له حاجة إلى توسط الاختلاف الانتولوجي كيما يتجلى ويظهر .

كذلك لا يمكن الوجود أن يكون هو الله لأن الوجود ليس حقيقة لا زمانية ، بل هو معنى التاريخ . وفكرة زمان شبه بحالة انكشاف الوجود تضاد فكرة مطلق يوجد وجوداً سرمدياً .

وسبب ثالث يدعونا إلى رفض المعادلة الميتافيزيقية : الله = الوجود . وهذا السبب مستمد من تركيب الوجود نفسه ، وهو أن الوجود ليس ذاتاً ، ولا موضوعاً ، ولا شخصاً ، ولا شيئاً . إن الوجود - عند هيدجر - انفتاح محض ، وعلاقة محضة : فخارج علاقته بالإنسان ، فإنه لا شيء .

ولا تستطيع اللغة التعبير بطريقة ثبوتية عن وجود الله وعن هو الله . لكنها تستطيع مع ذلك أن تعبر عما ليس هو الله ، أي أن تعبر عنه بالسلب . إن الله ليس هو الموجود الأعلى ، أو الحلقة الأخيرة في سلسلة الموجودات . إن مثل هذا الإله المشبه بالعلة الأولى مجانس للموجودات التي يخلقها : « وإلى هذا الإله لا يستطيع الانسان أن يوجه الصلوات والأدعية ، ولا أن يقدم الذبائح . أمام علة ذاته (= الله) لا يستطيع الانسان أن يركع خوفاً ، ولا يستطيع أمام هذا الإله أن يعزف موسيقى ويرقص » ( « الهوية والاختلاف » ، ص ٧٠ ) . واللاهوت بدفاعه عن الله العلة ، قد أسهم في مجيء إله الفلاسفة . والمطلق الحاكم الخالق مسح آثار الوجود ، والوجود لا يتصور من حيث الفاعلية ، بل من حيث الحضور والمحاياة . والتحرر من صورة إله الفلسفة ابتغاء الاقتراب من الله الحقيقي بمساءلة الوجود - تلك هي مهمة الفكر ، وربما أيضاً مهمة اللاهوت .

وأشد خطراً من تصور الله على أنه الموجود المطلق - تصوره على أنه القيمة . وهذا التصور قد ساد الفلسفة الغربية من عهد أفلاطون ، الذي جعل صورة الخير في قمة عالم الصور ، إلى نيته ، فكان هناك تحالف بين الخير الأفلاطوني وإله المسيحيين . إن نيته حين هاجم الله إنما هاجم في الواقع - بحسب رأي هيدجر - الله الأخلاقي الذي تصورته المسيحية ، أي الله الذي تصوّر على أنه قيمة . والله المتصور أنه قيمة - مهما تكن أعظم القيم - ليس إلهاً . « إذن الله لم يمت ، إن ألوهيته تحيا . إنها أقرب إلى الفكر منها إلى الإيمان ، إذا كانت الألوهية ، فيما يتعلق بمهايتها ، تتلقى أصلها من حقيقة الوجود » .

إن الله إذا تصوّر على أنه قيمة ، يفقد سره ومعناه . وإله الوجود ليس شخصاً . إن الفكر حين ينعت الله بهذا النعت ، يطبق على الله مقولة موجودة واردة في الانثروبولوجيا الفلسفية .

- Holzwege, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1950.
- Erläuterungen zu Hölderlins Dichtung, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1951.
- Einführung in die Metaphysik, Tübingen, M. Niemeyer, 1953.
- Der Feldweg, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1953.
- Was heisst Denken? Tübingen, M. Niemeyer, 1954.
- Vorträge und Aufsätze, Pfullingen, G. Neske, 1954.
- Was ist das- die Philosophie? Pfullingen, G. Neske, 1956.
- Identität und Differenz, Pfullingen, G. Neske, 1957.
- Der Satz vom Grund, Pfullingen, G. Neske, 1957.
- Zur Seinsfrage, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1959.
- Unterwegs zur Sprache, Pfullingen, G. Neske, 1959.
- Gelassenheit, Pfullingen, G. Neske, 1959.
- Nietzsche, 2 bd., Pfullingen, G. Neske, 1961.
- Kants These über das Sein, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1962.
- La fin de la philosophie et la tâche de la pensée, texte adressé par Heidegger au colloque organisé par l'Unesco à Paris du 21 au 23 avril, dans Kierkegaard vivant, trad. J. Beaufret et F. Fédier, Paris, Gallimard, 1966, p. 164- 204.
- Wegmarken, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1967.
- Die Physis bei Aristoteles, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1967.

### مراجع

- V. Biemel: Le concept de monde chez Heidegger, Louvain- Paris, Nauwelaerts- Vrin, 1950.
- A. CHAPPELLE: L'ontologie phénoménologique de Heidegger, Paris, Ed. Universitaires, 1962.
- M. CORVEZ: La philosophie de Heidegger, Paris, P.U.F., «Initiation philosophique», 1961.
- O. LAFFOUCRIERE: Le Destin de la Pensée et «La Mort de Dieu» selon Heidegger, La Haye, M. Nijhoff, 1968.

والخلاصة إذن هي أن الله ليس موجوداً من الموجودات ، ولا علّة (أولى) ، ولا شخصاً . إن هيدجر يرفض وصف الله بأنه موجود من الموجودات ، لأن هذا من شأنه إخفاء ماهية الإلهية حقاً . «رفض نسبة الوجود إلى الآلهة ( وهيدجر يستعمل المفرد : الله ، كما يستعمل الجمع : الآلهة ، دون تمييز ) معناه أولاً و فقط أن الوجود لا يقوم «فوق» الآلهة ، وأن الآلهة ليسوا «فوق» الوجود . ومع ذلك فإن الآلهة في حاجة إلى الوجود ، كما هم في حاجة إلى خيرهم الذي فيه سيجدون ثباتهم . إن الآلهة في حاجة إلى الوجود من أجل أن يتسبوا إلى أنفسهم بفضل هذا الوجود ، الذي لا يتسبب إليهم . إن الوجود هو ما يحتاج إليه الآلهة ، وهو ما يكون ، وضرورة الوجود تسمي وجودها الماهية ، وهذا ضروري للآلهة ، لأنه لا يمكن أبداً أن يكون معلولاً مشروطاً . وتكون الآلهة في حاجة إلى الوجود يدفعها هي نفسها نحو الهاوية ( الحرية ) ويعبر عن رفض كل تبرير وكل برهان » .

### مؤلفاته

- Die Lehre vom Urteil im Psychologismus. Ein kritisch-positiver Beitrag zur Logik, Leipzig, J. A. Barth, 1914.
- Die Kategorien- und Bedeutungslehre des Duns Scotus, Tübingen, Mohr, 1916.
- Sein und Zeit, Halle, Niemeyer, 1927, 1941 (5<sup>e</sup> éd.), 1953 (7<sup>e</sup> éd.).
- Vom Wesen des Grundes, in Ergänzungsband zum Jahrbuch für Philosophie und phänomenologische Forschung, 1928, Bd. IX, 71- 100.
- Kant und das Problem der Metaphysik, Bonn, Cohen, 1929.
- Was ist Metaphysik? Bonn, Cohen, 1929.
- Die Selbstbehauptung der deutschen Universität, Breslau, W. G. Korn, 1933.
- Platonslehre von der Wahrheit, Bern, Franke, 1947, 1954.
- Vom Wesen der Wahrheit, Frankfurt a. M., V. Klostermann, 1943, 1949, 1954.
- Über den Humanismus, Berne, A. Franke, 1946.

وخصوصاً بآرائه في المسيحية ، فدفعه ذلك إلى دراسة الفلسفة . وسافر في سنة ١٨٦٨ - ١٨٦٩ إلى باريس حيث اهتم بدراسة المذهب الوضعي في فرنسا . وتوفي في سنة ١٩٣١ .

وإنتاج هيدلنج غزير ومتنوع :

فله في علم النفس كتاب اشتهر متناً في هذا العلم ، وعنوانه : «سرجز في علم النفس على أساس تجريبي» ( كوينهاجن سنة ١٨٨١ ) ، ويمثل علم النفس التقليدي الذي بمقتضاه تنقسم النفس إلى ثلاث ملكات : الإدراك ، الشعور ، الإرادة . لكنه يؤكد خصوصاً دور الإرادة بمعناها الواسع الذي يشمل : النزوع ، الامتناع ، السعي ، الحاجة ، الطلب ، الشهوة . وينظر إلى الإرادة على أنها لها الأولوية ، وأن المعرفة ترشد الإرادة ، أما الشعور فهو علامة الحاجة أو الشهوة وهما أيضاً عناصر في الإرادة .

وفي الأخلاق له كتاب : « الأخلاق : عرض للمبادئ الأخلاقية وتطبيقها على الأحوال الرئيسية في الحياة » ( كوينهاجن سنة ١٨٨٧ ) . وفيه دعا إلى أخلاق رفاهية ، متأثرة بمذهب المنفعة عند مل . إذ رأى أن القيمة الأساسية هي أكبر سعادة لأكثر عدد من الناس . وفي حالة التنازع بين الأخلاق الفردية والأخلاق الاجتماعية يأخذ هيدلنج جانب الأخلاق الفردية . والأساس النفسي للأخلاق في نظره هو التعاطف التزهي عن الأغراض .

وربما كان أشهر كتبه هو كتابه : « تاريخ الفلسفة الحديثة : من عصر النهضة حتى الوقت الحاضر » ( في مجلدين ، كوينهاجن سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٥ ) ، ولا يزال مفيداً حتى اليوم .

وفي الدين له كتاب : « فلسفة الدين » ( كوينهاجن ، سنة ١٩٠١ ) ، وفيه يتناول التجربة الدينية من وجهة نظر نظرية المعرفة ، وعلم النفس ، والأخلاق . وفيه يذهب إلى أن الأساس في كل الأديان هو الرغبة في الإيمان بوجود قيم ، وأن الأديان المختلفة تحدد بأنواع القيم التي يؤكدونها كل دين . أما هيدلنج نفسه فكان في الدين لا أدنياً agnostic ، أي لا يقرر شيئاً على سبيل اليقين فيما يتصل بكل العقائد الدينية .

- R. GUILLEAD: Etre et Liberté. Une étude sur le dernier Heidegger, Louvain- Paris, Nauwelaerts, 1965.
- N. KANTHACK: Das Denken M. Heideggers. Die grosse Wende der Philosophie, Berlin, de Gruyter, 1959.
- K. LOEWITH: Heidegger Denker in dürftiger Zeit, Göttingen, Vandelhoeck et Rupprecht, 1960.
- O. POEGGELER: La pensée de M. Heidegger, trad. par Simon, Paris, Aubier- Montaigne, «Présence et pensée», 1967.
- W. J. RICHARDSON: Heidegger: Through Phenomenology to thought, The Hague, M. Nijhoff, 1963.
- B. RIOUX: L'être et la vérité chez Heidegger et Saint- Thomas d'Aquin, Montréal- Paris, P.U.F., 1963.
- P. TROTIGNON: Heidegger, Paris, P.U.F., «Les philosophes», 1965.
- A. DE WAELHENS: La philosophie de M. Heidegger, Louvain, 3<sup>e</sup> éd., 1948. Chemins et impasses de l'ontologie heideggérienne. A propos de Holzwege, Louvain- Paris, Nauwelaerts, 1953. Phénoménologie et vérité. Essai sur l'évolution de l'idée de vérité chez Husserl et Heidegger, Louvain, Nauwelaerts, 1955 (4<sup>e</sup> éd.). «Heidegger», dans Les Philosophes célèbres, Paris, Mazenod, 1956, p. 336- 343.
- J. WAHL: La philosophie de Heidegger, Paris, C.D.U., 2 fasc., 1961.

هيدلنج

### Harald Höffding

مؤرخ فلسفة دانيمركي .

ولد في كوينهاجن في سنة ١٨٤٣ ، وفيها عاش طوال حياته . وكان أستاذاً للفلسفة في جامعة كوينهاجن من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩١٥ ، وكان قد حصل على إجازته العلمية في اللاهوت سنة ١٨٦٥ لكنه رفض الانخراط في سلك الكهنوت . ذلك أنه تأثر بمؤلفات مواطنه سيرن كيركجور ،

- «الشعور بالشخصية والشيء في ذاته عند كنت»  
(سنة ١٩٢٤)
- «المتافيزيقا والنقد عند كروسوس» (سنة ١٩٢٦)
- «المتافيزيقا في العصر الحديث» (سنة ١٩٢٧ -  
١٩٢٩ ؛ ط ٢ سنة ١٩٦٧)
- «مكاسب المثالية الألمانية» (سنة ١٩٣٤)
- «القوة والروح في فلسفة التاريخ عند نيتشه» (سنة  
١٩٣٨)
- «فكرة نيتشه عن التاريخ» (سنة ١٩٣٨)
- «فلسفة التاريخ» (سنة ١٩٤٨).
- «المقترضات والدوافع الميتافيزيقية في «لا أخلاقية»  
«نيتشه» (سنة ١٩٥٥)
- «دراسة في فلسفة امانويل كنت» (سنة ١٩٥٦)
- «دراسات في تاريخ الفلسفة» (سنة ١٩٦١)
- «الذرة، النفس، الأحاد: الأصول التاريخية  
لتنقيضة التقسيم عند كنت» (سنة ١٩٦١)
- «فلكيات ولاهوتيات في فهم العالم عند كنت» (سنة  
١٩٦٣)
- «الديالكتيك المتعالي: شرح على نقد العقل  
المحض» (سنة ١٩٦٦ - سنة ١٩٦٩).

هيوم (ديفيد)

### David Hume

فيلسوف ومؤرخ انجليزي.

ولد في ٢٦ أغسطس سنة ١٧١١ في مدينة أدنبره (اسكتلندة بشمالى بريطانيا) حيث كان أبوه يعمل محامياً. وتوفي هذا الأب في سنة ١٧١٤ أي بعد ثلاث سنوات من ميلاد ديفيد هيوم، فانتقلت أمه للإقامة هي وأولادها الثلاثة: جون، وكاثرين، وديفيد - في ضيعة تملكها الأسرة في قرية نينولز Ninewells في إقليم Berwickshire وهو إقليم رائع الجمال فيه الصخور والغابات، والينابيع البديعة.

وتولى تربيته الأولى عمه جورج، وكان راعي كنيسه في قرية مجاورة تدعى Chirnside. وكان هذا القسيس متشككاً في الدين والأخلاق، وكثيراً ما كان في مواعظه يشهر بالفتيات اللواتي يكشفن انتفاخ بطونهن عما ارتكبن من خطايا عمية.

وله في نظرية المعرفة كتاب: «الفكر الانساني: أشكاله ومشاكله» (كوبنهاجن، سنة ١٩١٠) وفيه يؤكد الجانب النفساني في المعرفة أكثر من الجانب المنطقي، ويتأثر في نظريته في المعرفة بهيوم وكنت، وذلك بقوله إن أشكال المعرفة الانسانية ومبادئها خاصة بالكائنات الانسانية، ولا يمكن البرهنة عليها وجودياً. ومن ثم ينتهي إلى التوفيق بين التجريبية وبين نقدية كنت.

### مراجع

- Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellungen, vol. IV Leipzig, 1923.
- Kall Sandelin, ed: Harald Höffding in Memoriam. Copenhagen, 1932
- وفيه ثبت واف بمؤلفاته ومقالات كتبت عنه.

### هيمزوت

### Heinz Heimssoeth

مؤرخ فلسفة ألماني.

ولد في كيلن (كولونيا) في ١٢/٨/١٨٨٦، وتوفي في سنة ١٩٧٥.

درس في جامعات هيلبرج وبرلين وماربورج وباريس ومينشن (ميونخ)، وعين مدرساً حراً في جامعة ماربورج في سنة ١٩١٣، ثم أستاذاً مساعداً في سنة ١٩٢٢ بنفس الجامعة، ثم أستاذاً ذا كرسي في سنة ١٩٢٣ في جامعة كينجزبرج، وفي سنة ١٩٣١ في جامعة كيلن وفيها انتهى حياته التعليمية.

تأثر خصوصاً بنقولاي هرمن. وله مؤلفات عديدة جداً، نذكر منها:

- «منهج المعرفة عند ديكرت ولييتس» (١٩١٢ -  
١٩١٤).
- «الموضوعات الستة الكبرى في الميتافيزيقا الغربية ونهاية العصر الوسيط» (سنة ١٩٢١ ؛ ط ٥ سنة ١٩٦٥)!
- وهو أشهر كتبه وترجم إلى عدة لغات.
- «فشته» (سنة ١٩٢٣)

تلاميذه آنذاك آدم اسمث-الاقتصادي والأخلاقي الكبير- فتعرف إليه هيوم وصاروا منذ ذلك الوقت صديقين حميمين. كذلك وجد له هتشون ناشراً ينشر الكتابين الثالث والرابع من «بحث في الطبيعة الانسانية» (ولم يكن قد نشر في المرة الأولى إلا الكتابين الأول والثاني منه) بيد أن هذا القسم الثاني لم يكن أوفر حظاً في النجاح من القسم الأول. وقد عزا هيوم في «ترجمته لنفسه» السر في هذا الاخفاق الى طريقة العرض الجافة الثقيلة، لا إلى مادة الكتاب كما قال *more from the manner than the matter*. هنالك قرر أن يعنى بالعرض وحسن الأسلوب ووضوحه، فأخذ يكتب مقالات قصيرة واضحة لماعة، ونشرها في مجلد واحد سنة ١٧٤١ في ادنبره تحت عنوان: «مقالات أخلاقية وسياسية». ونجح الكتاب لدى القراء، مما دعا هيوم إلى الثقة بنفسه، فتقدم بطلب لشغل منصب استاذ الفلسفة في جامعة جلاسجو. لكن اعترض على ترشيحه المتدينون من المسيحيين، فلم يعين.

وفي سنة ١٧٤٦ صار هيوم سكرتيراً خاصاً للجنرال سانت كلير Saint-Clair وكان من أقاربه الأبعد. وصحبه في مهمة دبلوماسية إلى فينا ونورينو (إيطاليا). وفي أثناء هذه الرحلة طبع لهيوم كتابه «مقالات فلسفية في العقل الانساني» (وقد عدل هذا العنوان فيما بعد إلى: «الفحص عن العقل الانساني»). وفيه أعاد عرض مادة الكتابين الأول والثاني من «بحث في الطبيعة الانسانية» لكن بأسلوب واضح لاعم وعرض مشوق. وفي هذه المرة نشر الفصل الخاص بالمعجزات والفصل الخاص بالعناية الجزئية وهما الفصلان اللذان تحرّز من نشرهما في الطبعة الأولى لكتاب «بحث في الطبيعة الانسانية» (لندن سنة ١٨٣٧). وصدرت هذه النشرة الجليدة الكاملة في سنة ١٧٤٨.

ولما عاد من رحلته هذه نشر الكتاب الثالث في صورة جديدة مشوقة ومعه «الفحص عن مبادئ الأخلاق»، وصدرت النشرة في سنة ١٧٥١: وكان لهاتين النشرتين أثر بالغ في ارتفاع شهرة هيوم. فدخل في مراسلات مع مونتسكيو بمناسبة كتابه الأخير: «روح القوانين».

وتقدم مرة أخرى في سنة ١٧٥١ للحصول على كرسي الفلسفة في جامعة جلاسجو، فأخفق في الظفر به هذه المرة أيضاً. لكنه عين محافظاً لمكتبة «كلية المحامين» (كلية الحقوق) في جامعة ادنبره ١٧٥٢. وفي هذه المكتبة وجد كل المراجع والوثائق التي يحتاج إليها في كتابة «تاريخ انجلترا» الذي عمل

ويطوح أن هذا التشدد الديني قد ولد في نفس هيوم كراهية المسيحية.

وفي سن الحادية عشرة (سنة ١٧٢٢) التحق ديقه هيوم بالمدرسة الثانوية في ادنبره، وهي مدرسة ممتازة ستتحول فيما بعد الى جامعة، هي جامعة ادنبره الشهيرة حتى اليوم. فحضر دروس «الفلسفة الطبيعية» أي علم الفزياء، التي كان يلقيها Robert Stewart وكان من أنصار اسحق نيوتن Newton الفزيائي العظيم، بعد أن كان قبل ذلك من أتباع ديكارت في الفزياء. لكن تكوينه الأساسي في تلك المدرسة (أو الكلية College) كان ادبياً كلاسيكياً لاتينياً. وأعجب الشاب الطلعة ديقه هيوم بمؤلفات شيشرون وشعر فرجيل. ومن بين مؤلفات أولها أثر فيه خصوصاً كتاب «في طبيعة الآلهة»، ويحتوي على مناقشات لأراء الرواقين والأيقوريين.

وفي سن الخامسة عشرة (سنة ١٧٢٦) عاد هيوم الى قريته ناينولز، حيث أكب على قراءة المؤلفين القدماء والمحدثين ومن بين الأخيرين خصوصاً: بيكون، ومالبرانش وبيل Bayle وملتون وبوب Pope وشيشرون.

وقد أرادت له أسرته أن يدرس القانون ليحترف مهنة آبيه. لكن هيوم كان يكره هذا اللون من الدراسة، مما أوقعه في أزمة نفسية، ونزاع مع أسرته.

ثم عمل لفترة قصيرة في التجارة عند تاجر في برستول، ما لبث بعدها أن قرر أن يسير على النهج الذي تملبه عليه مواهبه، أعني أن يشتغل بالفلسفة والأدب. ومن أجل أن يكفل معاشه سافر الى فرنسا في سنة ١٧٣١ وأقام في رانس Reims (حاضرة اقليم البرجون شرقي فرنسا) أولاً، ثم غادرها إلى مدينة لافلش La Flèche (في اقليم الأنجو Anjou غربي فرنسا) وأقام غير بعيد عن كلية لافلش اليسوعية التي قرّس فيها ديكارت. وهنا كتب أهم كتبه في الفلسفة وعنوانه «بحث في الطبيعة الانسانية»، وكان آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره. وعاد الى لندن في سنة ١٧٣٧، حيث وجد ناشراً ينشر كتابه هذا؛ لكنه رأى أن من الحيلة أن يحذف منه الفصل الخاص بالدين، فصدرت هذه الطبعة نخلواً من هذا الفصل. بيد أن الكتاب كما قال هيوم هو نفسه في «ترجمته لنفسه» خرج من المطبعة ميتاً إذ لم يحظ بأي نجاح يذكر. وفي الوقت نفسه تعرف- إلى هتشون Hutcheson استاذ الفلسفة في جامعة جلاسجو (اسكتلنده) وكان من أنه

واستقبلته في «صالوناتهن» كبار السيدات المثقفات: مدام دي ديفاند Mmc du Deffand ومام جوفران Geoffrin وماموازيل دي لسبيناس Mlle de Lespinasse - هذا على الرغم من هيئته البدنية غير الجذابة: فقد كان كبير الكرش، متعجن الوجه، وكانت لهجة اسكتلندية صارخة، ولهذا كانت مدام دي ديفاند تدعوه قائلة: «يا فلاحى العزيز!» mon cher paysan، ومام جوفران تدعوه: «يا مضحكي السمين، يا وغلي السمين» mon gros drôle, mon gros coquin. ويصف هيوم حاله في هذا الجو فيكتب الى صديقه الدكتور روبرتسون قائلاً: «إني لا آكل غير الامبروزيا، ولا اشرب إلا النكتار، ولا اتنسم إلا البخور، ولا أمشي إلا على الأزهار».

وفي سنة ١٧٦٦ وصل السفير الجديد، وهو دوق رتشمند Richmond فعاد هيوم الى انجلترا. وهنا حدث له حادث مع جان جاك روسو. ذلك أن الكونتيسة بوفلرز Boufflers - حامية هيوم - كانت قد أوصت هذا الأخير بقراءة روسو. وها هي ذي تكتب اليه طالبة منه أن يساعد روسو على الإقامة في انجلترا، بعد أن نفته مدينة جنيف، وصار ممنوعاً من الإقامة في فرنسا أيضاً. فاستجاب هيوم لطلبها واصطحب روسو معه، في يوم ٤ يناير سنة ١٧٦٦ فوصلا الى لندن في يوم ١٣ يناير. لكن روسو يكره المقام في المدن الكبرى وينشد الوحشة في الريف والغابات. فبقي في لندن الى حين وصول خادمتها ورفيقة فراشه تيريز لوفاسير Thérèse Le Vasseur فرحلا من لندن في ١٩ مارس سنة ١٧٦٦ الى Wooton حيث كان يوجد منزل ريفي لأحد أصدقاء هيوم (في مقاطعة دريشير Derbyshire).

لكن لم تمضِ ثلاثة أشهر لروسو في هذا البيت الريفي حتى شب نزاع بينه وبين صديقه هيوم. ربما كان السبب فيه مزاج روسو السوداوي القلب ونفسه الحافلة بوساوس الاضطهاد له والمطاردة.

وقد بدأت هواجس روسو ضد هيوم تنفث سمومها في نفسه منذ السفارة من باريس الى لندن. فقد نزل هيوم وروسو وصديق ثالث يدعى لوز Lutz وهو رجل أعمال سويسري كان في طريقه الى لندن - نزل الثلاثة في فندق بمدينة سنليس Senlis الواقعة على مسافة ٥٠ كيلومتراً الى الشمال من باريس، ونام ثلاثهم في غرفة واحدة على ثلاثة أسرة. ونام

في كتابته من سنة ١٧٥٤ إلى ١٧٦١ وهذا التاريخ يبدأ من غزو يوليوس قيصر لانجلترا (سنة ٥٥ قبل الميلاد) حتى جيمس الثاني (سنة ١٤٣٠ - ١٤٦٠ م)، ولكنه رتب في الكتابة مبتدئاً بآخره وصاعداً حتى أوله، ويقع في ست مجلدات، وابتدأ بحكم جيمس الثاني فالأول صاعداً به إلى غزو قيصر لانجلترا في سنة ٥٥ ق.م. وفي المجلد الأول تناول حكم جيمس الأول الذي حكم اسكتلند من سنة ١٤٣٤ إلى سنة ١٤٣٧ فأثار غضب الأوساط الدينية بهذا المجلد الأول.

ثم أصدر بعد ذلك «أربعة أبحاث» منها بحث عن التاريخ الطبيعي للدين وبحث عن الانتحار؛ لكنه ما لبث أن سحب هذا البحث الأخير.

ودعا سفير انجلترا في باريس، لورد هرتفورد Hertford ليشتغل سكرتيراً للسفارة الانجليزية في باريس. وهنا عرف هيوم أوج مجده وشهرته؛ وقد بقي في هذا المنصب من سنة ١٧٦٣ إلى ١٧٦٦. ولما استدعي لورد هرتفورد إلى لندن صار هيوم «قائماً بأعمال السفارة الانجليزية» في باريس إلى حين وصول السفير الجديد؛ وكانت تسنه الكونتيسة بوفلرز Boufflers.

أما أنه عرف المجد في باريس، فذلك لأن الصفوة من المفكرين الفرنسيين الذين كانوا يؤلفون «دائرة المعارف» L'Encyclopédie وعلى رأسهم دالمير وديدرو، كانوا قد قرأوا بعض مؤلفاته خصوصاً «المقالات» - Essays فوجدوا في صاحبها عقلاً متفتحاً مستثيراً يتصف بالسمع والنزعة العقلية. ولهذا سرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين هيوم وبين دالمير D'Alembert وديدرو Diderot ودوليك D'Holbach وهلفسيوس Helvétius. وحدث ذات مرة أن أقام البارون دوليك مأدبة دعا إليها بعض المفكرين المشتركين في تحرير «دائرة المعارف» وهيوم وجرى الحديث حول الدين، وكان هيوم مؤمناً deïste أي يقول بوجود إله ولكنه لا يؤمن بأي دين وضمي - فقال هيوم: «إني لم أشهد في حياتي انساناً ملحداً». فرد عليه البارون دوليك: «التفت الى من حولك على المائة تجد خمسة عشر ملحداً». كذلك احتفل به سيدات المجتمع الراقي في باريس، وحرصت دوقة لافالير Duchesse de la Vatière ذات النفوذ الهائل على الملك لويس الخامس عشر، على رؤية هيوم لدى وصوله الى باريس.



البريطانية تريد قتله عن طريق هيوم، ففر روسو من انجلترا وعاد إلى فرنسا في حماية الماركيز دي ميرابو de Mirabeau والأمير دي كونتي Prince de Conti.

ونعود إلى هيوم فنقول إنه صار وكيلاً للوزارة في سنة ١٧٦٧ بفضل حاميه القوي النفوذ، لورد هرتفورد.

وفي سنة ١٧٦٩ عاد هيوم إلى مسقط رأسه، مدينة أدنبره حاضرة اسكتلندة و«أثينا الشمال» كما كانت تسمى آنذاك، ليقتضي البقية الباقية من عمره فيها بين أصدقائه مثل آدم اسمث الاقتصادي العظيم، ولورد كيمز Kames رجل القانون والتشريع - وبين خصومه الذين كانوا مع ذلك يحترمونه ويحلمونه مثل جورج كامبل George Campbell، اللاهوتي الذي كتب نقداً عادلاً لبحث هيوم «عن المعجزات». وأمضى وقته في مراجعة مؤلفاته توطئة لإعادة نشرها متفحة مصححة.

ثم أصيب بقرحة في المعدة شديدة أيقن بعدها بقرب الموت، فكتب وصيته. وتوفي ديفد هيوم في عصر يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٧٦.

#### فلسفته

##### ١- نظرية المعرفة:

كان هيوم ذا نزعة حية مغالية. ويظهر هذا جلياً من أول عبارة يقولها في كتابه البكر والشامل لمذهبه وهو كتاب «بحث في الطبيعة الانسانية» حيث يقول: «كل إدراكات العقل الانساني ترجع إلى حسيين متميزين اسمهما: الانطباعات impressions والأفكار ideas. والانطباعات هي وحدها الأصلية، أما الأفكار «فما هي إلا نسخ عن انطباعاتنا، أي أن الأفكار هي مجرد انعكاسات باهتة للاحاساسات على مرآة أفكارنا. ولهذا فإن الانطباعات أقوى من الأفكار وأشد تأثيراً وحيوية. وباستخدام الذاكرة والخيال نحن نرتب أفكارنا. ويتكرر هيوم أن تكون لدينا أفكار عامة مجردة، بل يرى أن كل أفكارنا هي عن أشياء جزئية يمكن النظر فيها بطريقة جامعة وذلك عن طريق ألقاظ كلية.

واليقين يأتي من التعرف العياني للمشابهات أو الفروق بين الأفكار، أو من العملية البرهانية التي فيها نربط سلسلة من العيانات، كما هي الحال في الحساب والجبر.

ومعرفتنا بالعلاقات العلية ليس شيئاً آخر سوى عادة أن

هيوم ولوز بينها لم يستطع روسو النوم، وإذا به يسمع هيوم يقول بصوت عالٍ - وهو نائم يحلم: «إني قابض على جان جاك روسو» فأوجس روسو من هذه العبارة وتوهم أن هيوم يعني أن روسو قد صار أسيراً بين يديه، فيا لفرحة أصدقائه الملحمين من رجال الانسكلوبيديا وهم أعداء روسو الألداء. وكان روسو توهم اذن ان هيوم مشترك في مؤامرة دبرها هو وأصدقائه من رجال «الانسكلوبيديا» لأهاته واضطهاده، وأنه لم يساعده في السفر إلى انجلترا من باب الصداقة، والشهامة والتجدة، بل لمزيد من التنكيل!

وتسلطت هذه الفكرة على ذهنه طوال إقامته في لندن وفي ذلك البيت الريفي، مما ولد نزاعه مع هيوم الذي أنجده! لهذا كان روسو يشك في كل بادرة من بوادر الصداقة والمساعدة بينها هيوم. من ذلك أن هيوم كان يتولى احضار بريد روسو إليه من مكتب البريد، وكان ذلك - فيما شكنا روسو - بسبب تأخير وصول بريده إليه. لكن حجة هيوم هي أنه إنما كان يفعل ذلك لأن روسو كان دائماً يدعي أنه مقلس؛ لهذا كان يتولى هيوم سحب بريد روسو من مكتب البريد ودفع ثمن البريد حتى لا يضطر روسو إلى دفع هذا الثمن (وكان ثمن البريد في ذلك الوقت على المرسل إليه لا على من أرسله). - ومن ذلك أيضاً أن روسو قد ترك بعض أوراقه الخاصة بـ «اعترافاته» في فرنسا وأراد الحصول عليها. فكلف هيوم أحد أصدقائه وهو هوراس والبول Walpole بهذه المهمة، مع أن والبول كان عدواً لروسو وسخر منه بأن نشر رسالة مزورة زعم أنها دعوة من فريدريك الأكبر ملك بروسيا (ألمانيا) يدعو روسو إلى الحضور إلى بلاطه لينال من نعمه أو من «اضطهاده» لأنه علم أن روسو يفضل نيل الاضطهاد على نيل النعم!

ومهما يكن من أمر هذه الاتهامات فلا شك أن هيوم أساء إلى ضيفه روسو لما أن نشر «عرضاً موجزاً» لخلافه مع روسو، مما زود أعداء روسو - وما أكثرهم من بين الأدباء والمفكرين في ذلك الوقت - بمادة سمينة للتهكم عليه، والسخرية منه. وقد اعترف هيوم فيما بعد بأنه أخطأ في تصرفه هذا، لكنه برره بأنه خشي أن يصور روسو في «اعترافاته» هذا الحادث تصويراً شائناً هيوم. وعلى كل حال فإن روسو لم يفعل ذلك، لسبب بسيط وهو أن «اعترافاته» لم تصل إلى أحداث سنة ١٧٦٦، وان كان روسو قد توفي في سنة ١٧٧٨.

على كل حال خشي روسو من أن تكون الحكومة

على مجموعة من الأفكار الجزئية المشابهة التي اكتسبناها من التجربة.

## ٢ - العلية:

ولعل أبرز ما اشتهر به هيوم هو رأيه في العلية، وقد عرضه في الكتاب الأول (القسم الثالث، الفقرة ١١-١٤) من كتابه «بحث في الطبيعة الانسانية» فقال:

«إن فكرة العلية causation لا بد أنها مشتقة من علاقة بين أشياء، وعلينا الآن أن نحاول الكشف عنها. إن أجد في المقام الأول أن الأشياء التي تُعد عللاً أو معلولات هي متصلة contiguous فيما بينها، وأنه لا شيء يمكن أن يفعل في زمان أو مكان يُعد أقل بُعد عن وجوده. وعلى الرغم من أنه يبدو أن بعض الأشياء المتباعدة قد تتج البعض الآخر، فإن المزيد من البحث يكشف أن بينها اتصالاً لسلسلة من العُلال متصلة فيما بينها وبين الأشياء المتباعدة. وإذا لم نستطع اكتشاف هذا الاتصال في حالة معينة، فإننا مع ذلك نظل نفترض وجوده ومن أجل هذا نستطيع أن نعد علاقة الاتصال contiguity أساسية وجوهرية لعلاقة العلية.»

والعلاقة الثانية التي لاحظها جوهرية للعلل والمعلولات لا يعترف بها الجميع، بل نحتمل الجدل، وأقصد بها علاقة الأسبقية الزمانية من العلة على معلولها. ويرى البعض أنه ليس من الضروري تماماً أن تسبق العلة، بالضرورة، المعلول؛ بل قد يقع أن يحدث الموضوع أو الفعل في نفس اللحظة الأولى من وجوده، موضوعاً أو فعلاً آخر متزامناً معه تماماً. لكن إلى جانب كون التجربة في معظم الأحوال تناقض هذا الرأي، فإننا نستطيع أن نقرر علاقة الأسبقية بنوع من الاستنتاج أو البرهان.

لكن الشيء قد يكون متصلاً بشيء آخر مسبقاً عليه في الزمان، دون أن يُعد علة له، فلا بد من اعتبار وجود ارتباط ضروري بينهما، وهذه العلاقة أهم كثيراً من العلاقاتين السابقتين الذكر.

ويعتدل هيوم هذه العلاقات الثلاث: الاتصال، الأسبقية، الارتباط الضروري - وينتهي إلى أن «رؤية أي شيئين أو فعلين، مهما تكن العلاقة بينهما، لا يمكن أن تعطينا أية فكرة عن قوة، أو ارتباط بينهما، وأن هذه الفكرة تنشأ عن تكرار وجودهما معاً؛ وأن التكرار لا يكشف ولا يحدث أي

توقع أن نوعاً من الأحداث يتلو نوعاً آخر لوحظ ارتباطه بالأول بحيث انه كلما وقع هذا النوع الثاني وقع النوع الأول تالياً له. لكن لا توجد علاقات ضرورية بين الأحداث.»

ولدينا أسباب قوية للشك في صحة المعرفة الناشئة عن البرهان وتلك الناشئة عن الاحساس أيضاً.

ومن هذا يتبين أن حسيّة هيوم تنتهي إلى الشك، بعكس حسيّة لوك وكونديك التي تنتهي إلى اليقين. ومن هنا يمكن أن ننتج موقف هيوم من المعرفة أنه حسيّة شكية.

وتفصيلاً لذلك نقول إن هيوم، بعد أن ميز بين الانطباعات والأفكار، قسم كل واحد منها إلى نوعين: بسيطة ومركبة. فالبسيطة هي التي لا يمكن أن تجزأ إلى أجزاء أو أوجه؛ بينما المركبة مؤلفة من بسائط. وهناك تشابه كبير بين الانطباعات من جهة، والأفكار من جهة أخرى. ذلك أن الأفكار البسيطة تشبه تماماً الانطباعات البسيطة من كل وجه إلا وجهاً واحداً هو القوة والحَيوية. وفيما يتعلق بظهورها في العقل، فإن الانطباعات البسيطة تسبق دائماً الأفكار البسيطة.

والأفكار المركبة مؤلفة من أجزاء بسيطة تشبه تماماً العناصر البسيطة في الانطباعات التي جربناها، وإن كانت الفكرة المركبة يمكن ألا تكون بالضبط نسخة من أية انطباعات مركبة.

ويخلص هيوم من هذا كله إلى توكيد أن كل أفكارنا صادرة عن التجربة. وأنه ليست لدينا أفكار فطرية innate ideas - كما ذهب إلى هذا ديكارت - أعني أفكاراً لا تقوم على أساس الإدراك الحسي.

ويوجد لدينا ملكتان لمعالجة الأفكار هما: الذاكرة، والخيال (أو المخيلة) فالذاكرة تحفظ الأفكار وفقاً للترتيب الذي عليه دخلت العقل. أما المخيلة فهي حرة في التصرف في الأفكار على النحو الذي تريده. ومع ذلك فإن المخيلة لا تعمل اعتباطاً وحيثما اتفق وإنما هي تعمل وفقاً لتوالٍ منظم بحيث إذا جاءت فكرة تلتها فكرة أخرى معينة مرتبطة بها ارتباطاً ألياً وفقاً لمبادئ ترابط الأفكار وينتج هيوم بأنه «نوع من الجاذبية attraction له في العالم العقلي من الآثار المعجبية ما لقاتون الجاذبية من آثار في العالم الفيزيائي.»

والأفكار العامة المجردة ليست في نظر هيوم غير أفكار عن أشياء جزئية. فلفظ عام مثل «انسان» أو «مثلث» إنما يدل

العقل مع التعريفات التي وضعها. وهذا أظهر ما يكون في الحقائق الرياضية، مثل  $3 \times 5 = 15/2$ ؛ بيد أنها توجد أيضاً في القانون، مثل هذه القضية: «حيث لا توجد ملكية لا يوجد ظلم». إن كنا قبل ذلك قد عرفنا «الظلم» بأنه انتهاك للملكية.

وعلى خلاف هذا تماماً تكون الحقائق المتعلقة بالوقائع. فإذا كانت الانطباعات تفرض نفسها على عقولنا، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى النتائج التي نصل إليها ابتداءً من الوقائع. وهذه هي حال مبدأ العلية. ومن هنا شكك فيه هيوم، كما شكك في كل الاستقراءات المبتدئة من التجربة: إنها مجرد احتمالات. إن كل تأكيد يتعلق بالوقائع يجب أن يقتصر على الانطباعات، على التجارب الجزئية، لا على النتائج المبرهن عليها انطلاقاً من هذه الانطباعات أو التجارب الجزئية.

واكتشاف هيوم للمعنى النفساني المحض للعلية لا يقلمه هو على أنه انتصار للعقل التجريبي، بل على أنه قضاء على قيمة المعرفة الانسانية.

#### ٤ - الجمال والأخلاق والسياسة:

وهنا نصل إلى ميدان الأحكام التقويمية. وفي هذا الميدان أيضاً يطبق هيوم منهجه في المعرفة، فيقرر أن الأحكام التقويمية كلها ذاتية، ناشئة عن «الطبيعة الانسانية». فالجمال مثلاً ليس صفة قائمة في الشيء الجميل، ولا يقوم في علاقات موضوعية؛ وإلا لجعل منه إقليدس خاصية من خواص الدائرة. والحق هو أن الجمال لا يوجد إلا في نفس من يتأمل الشيء الذي ينعت بأنه جميل. إنه رد فعل عاطفي انفعالي صادر عن الطبيعة الانسانية إزاء ذلك الشيء. وينجم عن هذا أن القيم الجمالية ذاتية نسبية إلى الأشخاص، فما يراه الواحد جميلاً قد يراه الآخر قبيحاً. ومن شأن هذا أن يؤدي إلى الشك في قيمة الجمال. لكن هيوم يتدارك فيقول إنه إذا كان هذا صحيحاً من الناحية النظرية، فالأمر ليس كذلك من الناحية العملية الواقعية. ذلك أن الناس يتفقون تقريباً على ما هو جميل، وما هو قبيح، على تفاوت فيما بينهم مع ذلك. يقول هيوم: «نحن نقر بأنه لا يوجد لدى أورجيلي Orgilby من العبقرية بقدر ما عند ملتون». «وأورجيلي هذا (١٦٠٠-١٦٧٦) شاعر ضعيف سخيف، ترجم «انباتة»، فرجيل، أما ملتون فمن فحول الشعراء. كما أن علينا في أمور الذوق ألا نتق إلا بأهل

شيء في الموضوعات، وإنما يؤثر فقط في العقل بذلك الانتقال المعتاد الذي يحدثه، وأن هذا الانتقال المعتاد (من العلة إلى المعلول) هو القوة والضرورة، وأن هاتين هما إذن صيغتان للادراك، لا للموضوعات، وتشعر بهما النفس ولا تدركان خارجياً في الأشياء».

نحن لا نرى إذن غير الاتصال والتوالي. فما الذي يفسر القول بوجود ارتباط ضروري بين الوقائع المتصلة المتوالية؟ إنها العادة الناشئة عن التكرار المستمر لنفس الاتصالات المتوالية، وهي عادة قد خلقت لارتباطاً شبيهاً بالارتباط الموجود بين اللفظ والموضوع الذي يدل عليه، ويفضله تنتقل مباشرة من اللفظ إلى الشيء المدلول عليه. إن ضرورة الرابطة العلية لا توجد إلا في عقولنا، ونحن الذين نقلها ونخلعها على الأشياء الخارجية. «وليس لدينا أية فكرة عن العلة والمعلول غير فكرة عن أشياء كانت مرتبطة دائماً، وفي جميع الأحوال الماضية بدت غير منفصلة بعضها عن بعض، وليس في وسعنا النفوذ إلى سبب هذا الارتباط. وإنما نحن نلاحظ هذه الواقعة فقط، ونجد أنه تبعاً لهذا الارتباط المستمر فإن الأشياء تتحد بالضرورة في الخيال. فإذا حضر انطباع الواحد، كونا نحن في الحال فكرة زميله المرتبط به عادة.» (الكتاب نفسه، الكتاب الثالث، الجزء الثالث، فقرة ٦).

#### ٣ - الشك:

وهنا نتساءل: هل كان هيوم من الشكالك؟ وهو سؤال أثار الكثير من الجدل بين المؤرخين فنجد لابورت La Porte يؤكد أن هيوم كان من أتباع مذهب الشك المطلق، ولا يرى كومبايريه Compaire هذا الرأي، وبينهما نرى لوروا M.Leroy يرى أن نزعة هيوم هي «الاحتمالية» Probabilisme وليس الشك Scepticisme. لكن الجميع متفقون على أن هيوم يضع حدوداً لإمكان المعرفة. والخلاف إنما هو في حقيقة ومدى هذه الحدود.

ذلك أن هيوم يميز بين نظمين من المعرفة: العلاقات بين الأفكار، ثم الوقائع. ومن خصائص النمط الأول، أي العلاقات بين الأفكار، أن من الممكن «اكتشافها بواسطة عملية الفكر وحدها دون الاستناد إلى أي شيء يوجد في الكون». والحقائق الضرورية التي يمكن أن نضعها في هذا المجال هي حقائق صورية محض، ومعكمة لكنها خاوية. والنتائج التي نصل إليها هنا ليست ضرورية إلا بسبب اتفاق

الخبرة والتجربة، الذين كوّنت التجارب لديهم ملكة مرهفة لتقدير الجمال.

فإذا انتقلنا إلى ميدان الأحكام التقييمية في الأخلاق، وجدنا نفس النزعة الذاتية عند هيوم. إذ يقرر أن الخير والشر ليسا قيمتين موضوعيتين قائمتين في الأفعال الانسانية. ونحن لا نستطيع أن نؤسس واجباتنا على مبادئ موجودة في ذاتها، فمثلاً الإرادة الإلهية كما تعرفها الفلسفة لا يمكن أن تبرر إدانة الانتحار، إذ يقال عادة إن العناية الإلهية لا يمكن أن تسمح للناس بالتصرف في حياتهم. لكن هذا استدلال خطأ، لأن جميع ما يجري في الكون، بدون استثناء، «يمكن أن يقال عنه إنه من فعل الله القدير»، لأن كل شيء يصدر عنه من خلال ما منحه لمخلوقاته من قوة. «والبيت الذي ينهار من تلقاء نفسه قد دمرته العناية الإلهية تماماً مثل البيت الذي تدمره أيدي الناس.» ولا شيء يفلت من قوانين الطبيعة. والزلازل والسيول والعواصف والأوبئة، ونتائج أحكامنا وشهواتنا - هذا كله من آثار العناية الإلهية. فالإنسان الذي يتحرر لا يفسد نظام الكون بل يعبر عنه. ولو كان التصرف في حياة الإنسان هو من شأن العناية الإلهية وحدها، وفعلاً من اختصاص الخالق وحده، «فسيكون الجرم في تدمير حياة هو نفس الجرم في انقائها.» وإذن فمن وجهة النظر الانطولوجية لا فارق بين الانتحار والقتل، أي لا يجوز إدانة الواحد دون إدانة الآخر.

والهدف من البحث الأخلاقي هو الكشف عن المبادئ الكلية التي يقوم عليها المدح أو الذم الأخلاقيان - والاحسان ومدوح لسيين: التعاطف الانساني، والمنفعة الاجتماعية. أما العدالة فمدوحة لسبب واحد هو المنفعة وحدها. والمنفعة هي التي تبرر الفضائل التي مثل: الانسانية humanity، الصداقة، النزاهة integrity، الصدق veracity. ثم إن الحكم government إنما تبرره المنفعة. والنظريات التي تحاول أن تفسر كل سلوك انساني على أساس أنه نابع من حب الذات هي نظريات خاطئة. والأحكام الأخلاقية هي من شأن العاطفة، أولى من أن تكون من شأن العقل. يقول هيوم: «بعد معرفة كل طرف وكل علاقة، في الأحكام الأخلاقية، فإنه ليس ثم مجال كما يعمل العقل، ولا أي موضوع يمكن أن يتناوله. والمدح أو الذم الذي يتلو ذلك لا يمكن أن يكون من عمل ملكة الحكم، بل هو من عمل القلب، وليس قضية نظرية أو تقريراً affirmation بل هو شعور feeling فعال أو عاطفة sentiment. وهذا الرأي من

أوضح آراء هيوم في الأخلاق. والأحكام الأخلاقية.

كذلك لا يستطيع العقل أن يفسر الغايات النهائية؛ كما يتضح هذا من السؤال التالي: لماذا تمارس الرياضة؟ فإن قيل: من أجل الصحة، فيقال له: ولماذا الصحة؟ - فإن قيل: من أجل إمكان العمل؟ فيقال له: ولماذا العمل؟ فإن أجاب: من أجل الحصول على المال - فيقال له: ولماذا الحصول على المال؟ فإن أجاب من أجل إشباع اللذات - فإن السؤال هنا يتقطع لأنه لا يمكن أن تبرر عقلياً إشباع اللذات، وإنما العاطفة وحدها أو الشعور هو الذي يستطيع تبرير ذلك. وهكذا الحال في الأفعال الأخلاقية، لا تبرر بالعقل، بل بالشعور أو العاطفة.

٥ - الدين الطبيعي:

يمكن تحديد موقف هيوم من الدين بالنفي أكثر منه بالاججاب. فهو لم يكن هرطيقاً، ولا ملحداً، ولا مؤمناً بدين وضعي.

لقد كان في طفولته معارساً متحمساً للشعائر الدينية. فكان يقضي سحابة نهار الأحد في الصلاة والعبادة، على نحو سيحتج عليه ودينه بشدة فيما بعد.

لكنه بالقراءة والتأمل فيها قرأ، فقد ايمانه. ومن أهم الكتب التي أثرت عليه في هذا الاتجاه مؤلفات لوك وكتاب كلارك بعنوان: «برهان على وجود الله وصفاته» (سنة ١٧٠٤) فقد أحدث هذا الأخير العكس تماماً مما قصد إليه مؤلفه صمويل كلارك Samuel Clarke (١٦٧٥ - ١٧٢٩).

وكانت ثمرة تأملاته في الدين أن أصدر فصلاً (هو الفصل ١٠ من التحرير الأول لكتابه... Enquiry)، نشر بحثاً عن «التاريخ الطبيعي للدين» في كتاب بعنوان: «أربعة أبحاث» Four Dissertations. وبين عامي ١٧٤٩ و ١٧٥١ بدأ يكتب «محاويرات عن الدين الطبيعي» وراح يراجعها وينقحها بين الحين والحين، بيد أنه لم يحاول نشرها، بل أوصى أن تنشر بعد وفاته، وعهد بها إلى ابن أخيه فنشرها هذا في سنة ١٧٧٩ أي بعد وفاة هيوم بثلاث سنوات.

وقد جعل موضوع هذه المحاورات تحليل ونقد البرهان المعروف بالكوسمولوجي على وجود الله، القائم على أساس أن ما في الكون من نظام محكم يقضي بوجود علة عاقلة مدبرة هي صانعة الكون. فراح هيوم في هذه

- Three Essays («Of Natural Character», «Of the Original Contract,» and «Of Passive Obedience»). London, 1748.
- Enquiry concerning Human Understanding. London, 1748. Published as Philosophical Essays concerning Human Understanding as were all the early editions prior to that of 1758. Modern edition by G. W. Hendel. New York, 1955.
- Enquiry concerning the Principles of Morals. London, 1751. Modern edition by C. W. Hendel. New York, 1957.
- Hume's Enquiries, L.A. Selby Bigge, ed. Oxford, 1894. Contains both Enquiries.
- Political Discourses. London, 1752.
- Four Dissertations («The Natural History of Religion,» «Of the Passions,» «Of Tragedy,» and «Of the Standard of Taste»). London, 1757.
- Two Essays («Of Suicide» and «Of the Immortality of the Soul»). London, 1777.
- The Life of David Hume, Esq., Written by Himself, Adam Smith, ed. London, 1777. Reprinted in Mossner, E.C., The Life of David Hume and in Greig, J.Y.T., The Letters of David Hume. Often found under its original manuscript title, My Own Life.
- Dialogues concerning Natural Religion. London, 1779. Recent edition by Norman Kemp Smith. Oxford, 1935; Edinburgh, 1947; New York, 1962.
- History of Great Britain from the Invasion of Julius Caesar to the Revolution of 1688, 6 vols. London, 1754- 1762. More recent edition by R. Worthington. New York, 1880.
- Hume's Philosophical Works, T.H. Green and T.H. Grose, eds. 4 vols. London, 1874- 1875. Includes all works listed above except the Abstract and the History.

### مراجع

أ : عن حياته ورسائله :

- Greig, J.Y.T., David Hume. London, 1931.

المحاورات يفند هذه الحجة ويبين بطلانها. وانتهى إلى القول ببطلان كل الحجج التي قيلت للبرهنة على وجود الله. كما قرر أن الإيمان بوجود إله theism ليس أمراً طبيعياً في الإنسان.

وكان هيوم في بحثه عن «التاريخ الطبيعي للدين» قد قرر أنه لا توجد في الإنسان غريزة للتدين أو الإيمان بدين ما، والدليل على ذلك أن ثم اجناساً لا تؤمن بوجود إله. فلو كان الإيمان بالله فطرياً في الإنسان، لكان موجوداً في كل الشعوب. وفي كل الأحوال المعروفة كانت الأديان الأولى كلها مشرقة، وليست موحدة. وكانت تعبد الأوثان المقررة دون أن توحيها في إله أو قوة واحدة، ودون أن تكون لديها أية فكرة عن علة عاقلة مدبرة تدبر الكون كله. ولم يكن الإنسان البدائي مهتماً بتفسير النظام في وقوع ظواهر الطبيعة. بل رأى في كوارث الطبيعة: من فيضان وجفاف، وزلازل وبراكين، وعواصف وأمراض وأوبئة أفعالاً لقوى مختلفة متضادة لا يسودها أو يشملها شيء واحد يسيطر عليها جميعاً. وكان اهتمام الإنسان البدائي هو بكيف يستطيع أن يلدأ عن نفسه أفعال هذه القوى المجلدة مادياً في ذهنه - عن نفسه.

وإذا كان هيوم في «محاورات عن الدين الطبيعي» يرى أنه لا مانع من احتمال أن يكون هناك إله، فإنه يقرر في نفس الوقت أن هذا الاحتمال نفسه ليس من نوع الاحتمال العلمي، كما أن هذا «الاله» لا يشبه إله الأديان إلا من بعيد جداً. (راجع فصل ١٢ من هذه المحاورات). ولذلك رأى أن العناية الالهية، وخلود النفس، وسائر صفات الله، وكل قصة الخلق كما تؤمن بها المسيحية، وكل الأخرويات هي في رأيه مجرد خرافات.

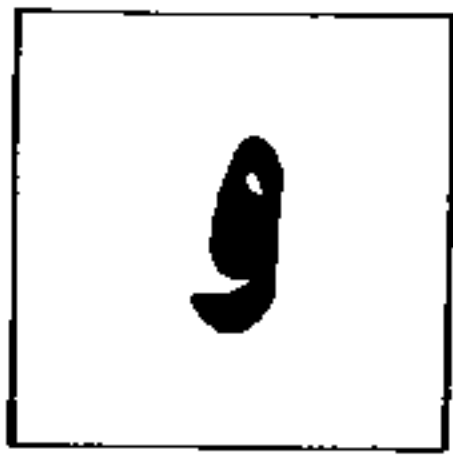
### مؤلفات هيوم

- A Treatise of Human Nature, Bks. I and II, 2 vols. London, 1739. Bk. III, London, 1740. Modern editions are by L.A. Selby Bigge (Oxford, 1888 and 1896) and by A.D. Lindsay (London and New York, 1911, 2 vols.) A recent edition of Book I only, by D.G.C. Macnabb (New York, 1962), also includes the Abstract.
- An Abstract of a Treatise of Human Nature. London, 1740. Modern edition by J.M. Keynes and Piero Sraffa, eds. Cambridge, 1938.
- Essays, Moral and Political, 2 vols. Edinburgh, 1741-1742.

- Laird, John, *Hume's Philosophy of Human Nature*. London, 1932.
- Leroy, andré- Louis. *David Hume*. Paris, 1953.
- Macnabb, D.G.C., *David Hume, His Theory of Knowledge and Morality*. London, 1951.
- Michotte, Albert Edouard, *La Perception de la causalité*. Louvain, Belgium, 1954. Translated by T.R. Miles and E. Miles as *The Perception of Causality*. London, 1962.
- Passmore, J.A., *Hume's Intentions*. Cambridge, 1952. A brief but acute analysis of the distinct but related trends in Hume's thought.
- Price, H.H., *Hume's Theory of the External World*. Oxford, 1940.
- Stewart, J.B., *The Moral and Political Philosophy of David Hume*. New York, 1963.
- Taylor, A. E., «David Hume and the Miraculous, in his philosophical Studies. London, 1934.
- Zabeck, Farhang, *Hume: Precursor of Modern Empiricism*. The Hague, 1960.
- Greig, J.Y.T., ed., *The Letters of David Hume*, 2 vols. Oxford, 1932.
- Klibansky, Raymond, and Mossner, E. C., eds. *New Letters of David Hume*. Oxford, 1954.
- Mossner, E.C., *The Life of David Hume*. Austin, Texas, London, and Edinburgh, 1954.
- ب : عن فلسفته :
- Church, R. W., *Hume's Theory of the Understanding*. Ithaca, N.Y., 1935.
- Flew, Antony, *Hume's Philosophy of Belief*. London and New York, 1961.
- Green, T.H., *General Introduction to Hume's Treatise*. London, 1874.
- Hendel, C.W., *Studies in the Philosophy of David Hume*, Princeton, N.J., 1925.
- Kemp Smith, Norman, *The Philosophy of David Hume*. London, 1941.
- Laing, B.M., *David Hume*. London, 1932.









# و

## الواحدية

### monisme

المذهب القائل بمبدأ واحد في الوجود، أو بجوهر واحد، أو بنوع واحد من الجواهر وإن تعددت أفرادها. ويستوي في ذلك أن يكون هذا الجوهر الواحد مادة أو روحاً. فالذهب الذي يقول إنه لا يوجد في الكون إلا مبدأ واحد هو المادة يعد واحدياً تماماً مثل المذهب الذي يقول إنه لا يوجد إلا مبدأ واحد هو الروح (أو العقل). ومن هنا فإن الواحدية إما أن تكون مادية محضة، أو روحية محضة. وأبرز القائلين بالواحدية في العصر اليوناني برميندس، وأبرزهم في العصر الحديث اسپينوزا.

والواحدية تقال في مقابل الثنوية، فهذه تقول بأن أصل الوجود أو الكون جوهران أو مبدآن؛ كما في مذهب المانوية القائل بأن الأصل في الكون مبدآن هما النور والظلمة، كذلك الحال في مذهب أفلاطون القائل بأن الأصل في الكون جوهران هما الهبولى والروح (أو النفس).

وتقال الواحدية أيضاً في مقابل الكثرية pluralisme وهي المذهب القائل بأن الأصل أو المبدأ في الكون جواهر أو مبادئ كثيرة مستقلة بعضها عن بعض ولا يرد بعضها إلى بعض. مثل مذهب أنبأقليس القائل بالعناصر الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار.

لكن المصطلح monismus مرّ بعدة معان منذ أن وضعه لأول مرة كرمستيان فولف (١٦٧٩-١٧٥٤) ليُدلّ به على المذاهب أو النظريات القائلة بمبدأ واحد للحقيقة

الواقعية، سواء أكان هذا المبدأ روحياً أم مادياً. فقد استعمله أحد تلاميذ هيغل وهو جيشل Goeschel للدلالة على مذهب هيغل، وذلك في كتابه بعنوان Der Monismus des Gedankens (1832). استعمله للدلالة على مذهب هيغل القائل بأن كل ما هو واقعي عقلي وكل ما هو عقلي واقعي. ثم جاء أصحاب مذهب التطور، وعلى رأسهم خصوصاً أرنست هكل Haeckel فاستعملوا هذا المصطلح هو وبعض من ساروا في اتجاه مذهب التطور الحيوي مثل اشليشر Schleicher للدلالة على مذهبهم، بل وأنشأوا جمعية بهذا الاسم Monistenbund (= رابطة الواحديين). والفكرة الأساسية في واحدية هكل هي القول بأن في الكون جوهرأ واحداً له صفات مادية وحيوية معاً. فالذرات ليست فقط مادية، بل لها إحساسات وإرادات أيضاً. وقد عرض هكل آراءه في الواحدية الطبيعية في كتابين رئيسيين هما: «لغز العالم» Die Welträtzel (سنة ١٨٩٩) و«التاريخ الطبيعي للمخلوق» Natürliche Schöpfungsgeschichte (برلين، سنة ١٨٦٨، ط ١٠ سنة ١٩٠٢).

أما في نظرية المعرفة فالواحدية هي الاتجاه الذي يردّ المعلوم به إلى الذات - وهذه هي المثالية المحضة، أو إلى الموضوع وهذه هي الواقعية في المعرفة.

ويخلط عادة بين الواحدية وبين وحدة الوجود، فينت مذهب برميندس أو مذهب اسپينوزا تارة بالواحدية، وتارة أخرى بالقول بوحدة الوجود. لكن من الواجب التمييز الحاد بين كلا المذهبين على أساس أن الواحدية تقول بمبدأ أو بجوهر واحد في كل تجلياته، كما هي الحال في المادية المحضة عند بوشنر وموليشوت وارنست هكل، وفي المثالية المحضة عند

ولهذا فإن الواقعة تتسم بالعرضية Zufälligkeit بينما الماهية تتصف بالضرورة Notwendigkeit. ومن هنا فإن الماهية لا يمكن أبداً أن تكون واقعة. والواقعة عند هسرل هي ما هو موضوع بواسطة الماهية.

### الواقعية

réalisme (F.); realism (E.); realismus (G.)

الواقعية، بوصفها مذهباً فلسفياً، تضاد المثالية idéalisme. فمن السؤال: «ما هو الموجود؟» تحيب المثالية: «الموجود هو إما الفكرة أو العلاقة مع الأفكلور، أو النشاط البنائي الفكري الذي يقوم به العقل؛ وتحيب الواقعية: «الموجود شيء إما روحي (لأنه توجد واقعية روحية) أو ملدي».

أما الواقعية الساذجة فهي الموقف التلقائي للانسان، الذي يدرك الأشياء ويعتقد أنها موجودة كما يدركها. لكن العلم يبدأ بالقضاء على هذه الواقعية الساذجة. غير أنه مع ذلك يقوم على مصادرتين:

- ١ - الأولى هي أنه «يوجد عالم واقعي مستقل عنا».
- ٢ - والثانية هي أن «العالم الخارجي لا يمكن معرفته بطريق مباشر، بل يدرك فقط ابتداءً من إدراكات الحواس».

ولهذا لا يمكن القول بوجود استمرار واتصال بين العلم والإدراك الحسي، بل ثم نوع من القطيعة، ومهمة العلم هي تصحيح معطيات الحس وتهذيبها.

### وحدة الوجود

#### Panthéisme

مذهب في الوجود يقول إن كل شيء هو الله، أو إن الله هو كل شيء. أي أن الله هو العالم، والعالم هو الله. وهذا يمكن أن يفهم بمعنيين:

- أ - الله وحده هو الحقيقي وما العالم إلا مجموع من التجليات أو الصدورات التي ليست لها أية حقيقة ثابتة، ولا جوهر متميز. وهذا هو مذهب اسبينوزا.

فشته. أما من يعزو إلى الجوهر الواحد مظهرين أو وجهين متقابلين، كما فعل اسبينوزا في القول بالله والطبيعة، العقل والامتداد، أو كما فعل أفلوطين في القول بالواحد وبالمهيول (مهما تكن درجتها) - فيجب أن ينسب إلى مذهب وحدة الوجود، لا الواحدية، لأنه بعد المبدأ الأول أو الجوهر الواحد مايلت أن يقول بالثنائية أو التعدد.

### واقعة

#### Fait (F.), Fact (E.), Faktum (G.), Fatto (I)

الواقعة هي ما له قوام موضوعي. لكن ما هو معيار القوام الموضوعي؟ يقول مورتنس اشلك Schlick إن الواقعة هي ما يسبق كل علم وكل تقدير، وهو من هذه الناحية يقيني. يقول: «لا معنى للتحدث عن وقائع غير يقينية؛ فقط تقاريرنا ومعرفتنا هي التي يمكن أن تكون غير أكيدة» (اشلك: «نظرية المعرفة العامة» ص ٤١، برلين سنة ١٩١٨) وهكذا فإن معيار القوام الموضوعي هو الاستقلال عن المعرفة.

وفي مقابل ذلك يقول نويرات G. Neurath إن الوقائع ليست يقينية يقيناً مطلقاً. إن الوقائع الغليظة يجب أن تتحول إلى قضايا اصطلاحية. وعلى هذا فالواقعة هي ما له قوام بالاصطلاح Konvention فقط.

ورأي اشلك يقوم على أساس التفرقة التي يضعها هو ومدرسته بين «الحقائق الصورية» في المنطق والرياضيات، وبين «الحقائق الواقعية» في العلوم التجريبية؛ بين التقريرات التحليلية والقبلية من ناحية، وبين التقريرات التركيبية النقدية من ناحية أخرى.

لكن أصحاب مذهب الظاهريات يرون إنه إلى جانب المعطيات التجريبية (التركيبات البعدية)، توجد معطيات ماهية وقوانين قائمة عليها (تركيبات قبلية). إن الوقائع التجريبية تتسبب إلى الحقيقة الواقعية، ولكنها لا تستفد كل مضمونها. ذلك أنه ينبغي أن يضاف إليها أو يميز منها، ما هو معطيات ماهية. إن الوقائع هي ما نجبرنا عنه الإدراك الحسي، ويمثل «الوجود» هكذا So-Sein العرضي؛ أما الماهية فهي «الوجود» هكذا الضروري notwendiges So-Sein. إن الواقعة يمكن أن تكون بخلاف ما هي عليه، أما الماهية فلا يمكن أن تكون بخلاف ما هي عليه.

(Causa, dial. II) لكنه يحذر من تصور الله موزعاً في الكون، ذلك لأن الله «هو الكل في الكل، وهو الكل في كل جزء، وهكذا نحن نتكلم عن أجزاء في اللامتناهي، لا عن أجزاء للامتناهي». ولما كانت كل الأحداث يحكمها القانون الإلهي، فإن المعجزات لا يمكن أن تقع، إذ كل ما يحدث إنما يحدث وفقاً للقانون الإلهي. وحررتنا تقوم في التوحيد بين انفسنا وبين مجرى الأمور.

وجاء اسبينوزا فقال بأنه لا يوجد إلا جوهر واحد أحد ولهذا لا يمكن اعتبار الله والطبيعة جوهرين منفصلين. ويتج عن هذا أنه لا يمكن وصف الله بأنه خالق الطبيعة، إلا بمعنى مختلف عن المعنى الموجود في اليهودية والمسيحية. وميز اسبينوزا بين الطبيعة الطابفة natura naturans والطبيعة المطبوعة natura naturata الأولى فعالة، والثانية منفعة. وذلك الجوهر ليس حادثاً. صحيح أن الله هو العلة الباطنة للعالم وللكائنات، لكنه لا ينبغي أن يفهم هذا بمعنى أنه يتج شيئاً خارج ذاته: بالصدور: أو الاشعاع، أو التحقيق. والعلاقة بين «الجوهر» وبين الجزئيات، أي العالم المحسوس، ليست علاقة خارجية وعالية لموجود يتج شيئاً آخر.

#### مراجع

- E. Namer: Aspects de Dieu dans la philosophie de Giordano Bruno, Paris, 1926.
- P. Siwek: Spinoza et le Panthéisme religieux, Paris, 1937.
- G. Fraccari: Giordano Bruno, Milano, 1951.
- Et. Vacherot: Histoire Critique de l'école d'Alexandrie, 3 vols. Paris, 1846-51.
- M. Heintze: Die Lehre vom Logos in griechischen Philosophie, Oldeaburg, 1872.

#### الوجود

etre (F.); sein (D.); to be (E.); ser (Esp.); essere (I).

١ - أول من بحث في الوجود بحثاً فلسفياً عميقاً هو برمنيدس الايلي (القرن الخامس قبل الميلاد). ذلك أنه رأى

ب - العالم هو وحدة الحقيقي، وما الله إلا مجموع كل ما هو موجود وهذا مذهب دوليك d'Holbach، وديدرو، واليسارية الميجلية. وكثيراً ما يطلق عليه اسم «وحدة الوجود الطبيعية»، أو «وحدة الوجود المادية».

(راجع «معجم لالاند»، تحت المادة).

أوليات هذا المذهب نجدها عند بعض الفلاسفة اليونانيين السابقين على سقراط، ونجده عند انكمندر في قول ب - «الايريون» αἰετον ، أي الواحد اللامحدود اللامخلوق اللافاني. وهو يشمل كل شيء ويحكم كل شيء. ومن بعده نجد اسكينوفان الايلي يرى أن الله هو الموجود الثابت سرمدي، وهو وحدة مزودة بعقل: «كله يرى، وكله يفكر، وكله يسمع»، ويحكم كل شيء بقوة عقله. وقال بوحدة كل شيء وسماها: الله. وتلميذه برمنيدس الايلي يقرر أن الوجود ثابت، لا يتغير، ولا يفنى، ريبقى دائماً هو هو، والعقل والوجود فيه متحدان.

ثم جاء الرواقية فقالوا بنوع من وحدة الوجود الديناميكية، فقالوا بأن العالم جسم σῶμα ، وأن الله هو النفس الحاملة به πνεύμα ويشرح ذلك فلوطرخس (de Stoic. 41) فيقول: «إنه موجود واحد هو نفسه يتجل مرة على شكل وحدة فردية (الله)، ومرة أخرى على شكل كثرة منقسمة (العالم)».

وعند أفلوطين نجد نوعاً خاصاً من وحدة الوجود فهو يقرر علو الله على الكون، ولكنه يقرر أن الكون «صدر» عن الله: ذلك أن العقل πους صدر عن الله، ثم صدر «اللوغوس» λόγος عن العقل وعبر عن نفسه خارجاً في شكل المدة المرئية، التي هي صلور بعيد عن الله. والطبيعة مملوءة بالأفكار الإلهية، والقوى الإلهية وكلها صدرت في النهاية عن الله. لكن الله لا يستند في فعل الصلور عنه، بل على العكس يظل هو هو مع صلور الكون عنه.

وفي العصر الأوروي الوسيط نجد يوحنا اسكوت اريجن الذي يقرر تارة أن الله هو ماهية كل الموجودات، ولكنه يقرر تارة أخرى أن الله هو مجموع الموجودات.

وفي عصر النهضة الاوربية وأوائل العصر الحديث نجد جورحانو برونو يقرر أن «الله في كل مكان، وهو الكل في الكل، كما يسمع الصوت في كل أنحاء الفرقة» (De la



الوجود من الأشرف فالأشرف حتى انتهى إلى الهبولى؛ ثم عاد من الأخص فالأخص، إلى الأشرف فالأشرف، حتى بلغ النفس الناطقة والعقل المستفاد (الكتاب نفسه ص ٦٧١-٦٧٢).

ويقول أبو البركات البغدادي: «الوجود... أظهر من كل ظاهر، وأخفى من كل خفي، بجهة وجهة. أما ظهوره فلأن من يشعر بذاته يشعر بوجوده. وكل من شعر بفعله شعر معه بذاته الفاعلة ووجودها ووجود ما يوجد عنها ويصدر من الفعل. فمن يشعر بذاته يشعر بالوجود، أعني وجود ذاته... وكذلك الزمان: يشعر به كل إنسان، أو أكثر الناس جملة... وإن لم يعرف جوهر الزمان وماهيته. وكذلك الوجود: يشعرون بذاته، وإن لم يشعروا بماهيته» (أبو البركات البغدادي: «المعتبر في الحكمة» ج ٣ ص ٦٣، حيدرآباد سنة ١٩٣٩).

٦ - وعند توما - للتأثر ها هنا بأرسطو وابن سينا - أن الوجود ليس معنى جنسياً، لأنه يحتوي في داخله على كل اختلافاته (De. verit., q. 1, a. 1; Sum. theol. 1, q. 4, a. 1; c. Gent. I, 25). إن الوجود يعلو على كل الأنواع، ولهذا نعته كما نعته أرسطو بأنه حد متعال، ولهذا transcendental. إنه يعلو على كل الأجناس والأنواع والفصول النوعية، ويشير إلى كل شيء، ويحتوي إذن على كل شيء. ولهذا أيضاً يقول إنه معنى متفق analogue، أي أنه ليس متواطئاً ولا مشتركاً: فلا وجود هو وجود على نفس النحو مثل غيره، فالوجود إذا أطلق على الجوهر غيره إذا أطلق على العَرَض، إنه وجود متفق، أي متردد بين التواطؤ والاشتراك. وكذلك نجد توما يقرر أن الممكن أن نصف الوجود بأنه «الهبولى»، و«الجذرة»، و«الأساس» لكل الموجودات، بمعنى أن حقيقة الوجود مشتركة بين كل الكائنات، لا بمعنى وحدة الوجود.

٧ - وفي العصر الحديث بدأت فكرة الوجود ترتبط بالشيء المجسم الطبيعي، وفقدت فكرة المشاركة وقياس النظر، حتى انتهى بها الأمر إلى الخلط بين فكرة «الوجود» وفكرة «الموضوع objet» وأصبح للموجود، هو «ما يمكن امتثاله» فامتزج البحث الانطولوجي (الخاص بالوجود) مع البحث الخاص بالمعرفة.

ف نجد كنت في «نقد العقل المحض» يشير إلى مقولتين تتعلقان بالوجود هما: «الواقعية»، و«الكينونة». والأولى تتعلق

هيرقليطس يؤكد أن كل شيء في ميلان دائم، ولا شيء ثابت، وحتى الأضداد يتحول بعضها إلى بعض. وبالجملة لا يوجد إلا التغيير. فجاء برميندس وأكد عكس ذلك تماماً فقال إن التغيير متناقض؛ والوجود وحده هو الحقيقي، والتغيير هو عدم. والوجود واحد ثابت دائم. ذلك أنه ليس ثم إلا الوجود، فإلى أي شيء يمكن أن يتغير؟ إنه لن يتغير إلا إلى وجود أيضاً. إن الوجود موجود، أما العدم فليس بشيء. وصفات الوجود هي إذن: أنه واحد، وأنه هو هو نفسه، وأنه ضروري (أي لا يمكن أن يكون بخلاف ما هو كائن)، وأنه دائم سرمدي، وأنه متصل، ومتجانس. والوجود والفكر شيء واحد.

٢ - وأمام هذا التناقض بين هيرقليطس وبرميندس جاء سقراط وأفلاطون فحاولا التوفيق، وذلك بأن قالا إن الجزئي هو المتغير، أما الكلي (أو التصور) فهو ثابت. وقرر أفلاطون أن الوجود لا ينبغي أن يكون متحركاً فقط، ولا واحداً فقط ولا غيراً فقط، ولا مادياً فقط ولا غير مادي فقط. إن من الواجب، هكذا يرى أفلاطون، أن نقول بوجود مبدئين: مبدأ هوية حقيقية بين كل الموجودات ويسميه *θαιτερον*، ومبدأ مقابل له يسميه *τοϋτοϋ* هو مبدأ التنوع والتغير. والوجود يقابله العدم أو اللاوجود.

٣ - وجاء أرسطو فقرر أن الوجود ينبغي ألا يدرك بالتواطؤ، أي بمعنى واحد. والوجود ليس جنساً، بل هو فوق كل الأجناس (وما بعد الطبيعة) م<sup>٣</sup> ف<sup>٣</sup> ص ٩٩٨ ب). والوجود يمكن أن يشتق من الوجود، أو من اللاوجود. ذلك أن للوجود حالين: الوجود بالقوة (= الامكان)، والوجود بالفعل. والتغير هو الانتقال من حال القوة إلى حال الفعل. فالإنسان المريض كان بالقوة مريضاً ثم صار بالفعل كذلك؛ وإذا صح من جديد، فإنه كان صحيحاً بالقوة وصار بالدواء صحيحاً بالفعل.

٤ - وعند أفلاطون يمتزج المعقول بالموجود. فالعقل الأعلى، الذي يتعقل ذاته، يتعقل ذاته بوصفه وجوداً أعلى، ويتعقل ماهيته بوصفها قابلة للتحديد في الموجودات المعقولة الجزئية.

٥ - وعند ابن سينا أن «كل موجود: إما واجب الوجود بذاته، أو ممكن الوجود بذاته» (الإشارات والتنبيهات» ص ٤٤٧، القاهرة، دار المعارف سنة ١٩٥٨). وقد «ابتدا

## الطبيعية في الدين .

ولد في Coton- Clasford في ٢٦ مارس سنة ١٦٥٩ ،  
وتوفي في لندن في ٢٩/١٠/١٧٢٤ .

وتلقى العلم في كلية سلفي مسكر في كمبردج من سنة  
١٦٧٤ إلى سنة ١٦٨١ . ثم صار مدرساً في مدرسة في  
برمنجهام في سنة ١٦٨٢ . ثم رُسم قسيساً . لكنه في سنة  
١٦٨٨ ورث القسم الأكبر من ثروة أسرته وذلك من ابن عمه  
وليم ولستون اوف شتون، مما مكّنه من الإقامة في لندن،  
و الزواج في سنة ١٦٨٩ ، وكرس بقية حياته للبحث والفلسفة .

وقد كتب كثيراً، لكنه مرق الكثير مما كتبه، لتبرمه به .  
ونشر ترجمة موسعة منظومة لقسم من سفر «الجامعة» ومن  
أسفار العهد القديم (في «الكتاب المقدس») في سنة ١٦٩٠ .

لكن أهم كتبه هو «رسم تخطيطي لدين الطبيعة»، وقد  
نشر، في سنة ١٧٢٤ . ويتميز بأناقة الأسلوب، وقد قسمه إلى  
٩ أقسام . في الأول منها شرح مبداء الرئيسي وهو أن «من  
يعمل كما لو كانت الأمور هي كذا، أو هي ليست كذا، يعلن  
بأفعاله أن الأمور هي كذا، أو هي ليست كذا» ويجعل «قوام  
الخير والشر الأخلاقيين في اتفاق أفعال الانسان مع الحقيقة» .

وفي نظره أن «الحقيقة هي الاتفاق مع الطبيعة»، إذ الله  
سمح بالطبيعة، إن لم يكن قد آتدها كل التأيد، حتى إن  
رفض الطبيعة معناه التمرد على الله . ويضع معياراً مميزاً  
بالتدريج للأفعال الشريفة، هو أن الفعل يكون فيه من الشر  
بقدر أهميته أو عدد الحقائق المتهكة .

وفي القسم الثاني يتناول السعادة، فيقرر «أن  
الطريق إلى السعادة وممارسة الحقيقة يؤدي كلاهما إلى  
الأخر» .

وفي القسم الثالث يجدد الدين الطبيعي بأنه «السمي  
إلى السعادة عن طريق ممارسة الحقيقة والعقل» .

وفي القسم الرابع يرفض الحجج المسوقة لاثبات حرية  
الارادة .

وفي الأقسام الخمسة الباقية يضع الحجج التي يسوقها  
أنصار مذهب المؤلّه theism، ويقرر أن المعجزات هي من  
آثار العناية الالهية؛ ويسوق برهاناً على ضرورة وجود الآخرة،  
على أساس أن الله حكيم عاقل . ويدافع عن الصلاة الشفوية

بالحكم بوصفه عملية عقلية؛ أما الكينونة فهي كون ظواهر  
الطبيعة معطلة . وكنت لا يزال يؤمن بوجود «أشياء في ذاتها»  
خارج العقل، ولهذا هاجم المثالية التوكيدية عند باركلي . لكن  
جاء فشته ففضى على وجود الأشياء في ذاتها، وقال إن الوجود  
هو من وضع الأنا .

٨ - لكن ازدهرت في القرن العشرين المباحث المتعلقة  
بالوجود، بفضل هيدجر وبييرز ونقولاي هرتن، كما برز  
التوكيد على التفرقة بين الوجود Sein والموجود Seinde .

فعند هرتن أن الوجود هو المعطى الأول والأساس  
لكل بحث ولكل مذهب في الفلسفة . والموجود ليس مجرد  
«موضوع للامتثال» بل هو معطى حاضر .

أما بييرز فجعل الأهمية للوجود، لا للموجود .

واهتم هيدجر بالبحث في العلاقة بين الانسان  
والوجود، أي بالبحث في الأنية Dasein التي هي ليست مجرد  
كينونة هناك . ورأى أن برمنيدس هو الوحيد الذي وضع  
مشكلة الوجود وضعاً حقيقياً؛ أما من بعده فإن الفلسفة  
الغربية عنيت بالوجود، وأغفلت الوجود . وهو يربط إلى  
العودة إلى ما فعله برمنيدس من الاهتمام بالوجود المطلق Sein  
selbst .

## مراجع

- G. Di Napoli: La concezione dell'essere nella filosofia greca. Milano, 1953.
- P. Aubenque: Le Problème de l'être chez Aristote. Paris, 1962.
- J. de Finance: Etre et agir dans la philosophie de St. Thomas. Paris, 1945.
- G. Di Napoli: La concezione dell'essere nella filosofia contemporanea. Roma, 1953.
- F. Alquié: La Nostalgie de L'être. Paris, 1950.
- L'Essere: Problema, teoria, storia. Roma, 1967.

## ولستون

## William Wollaston

مفكر أخلاقي ولاهوتي انجليزي، من أتباع التزعة

بها. وفي سنة ١٨١٤ رُسم قسيساً. وعين ناظراً لكنيسة القديس ألبان St. Alban Hall في أكسفورد في سنة ١٨٢٥. وصار أستاذاً للاقتصاد السياسي في جامعة أكسفورد سنة ١٨٢٩، كما أصبح رئيس أساقفة تبتلن في سنة ١٨٣٩. ومن أوائل أعماله وهو في هذا المنصب أن قدم متحة من ماله الخاص لإنشاء كرسي للاقتصاد السياسي في كلية الثالوث في دبلن. وقد لقي معارضة من الكهنوت التابع له ومن البروتستانت في أيرلندا، لأنه اشترك في محاولة وضع نظام للتعليم غير طائفي. وكرس نفسه لمسائل العصور الكنسية واصلاح الكنيسة الأيرلندية وقوانين الفقراء في أيرلندا. وأشهر كتبه: «عناصر المنطق» Elements of Logic (سنة ١٨٢٦). وله أيضاً كتاب في «الخطابة» Rhetoric (سنة ١٨٢٨). وله كتاب في الدين انتشر انتشاراً واسعاً، عنوانه: «البيئات المسيحية» Christian Evidences (سنة ١٨٣٧). وله في الدين أيضاً كتاب: «في استخدام وسوء استخدام الروح الجزئية في أمور الدين» (سنة ١٨٢٢). وفنذراي هيوم في المعجزات، بكتابه «شكوك تلويجية حول نابليون» (سنة ١٨١٩).

وقد قال عنه اوجستس دي مورجن في سنة ١٨٦٠ «إنه يستحق أن يلقب بلقب باحث دراسة المنطق في اتجطره».

يقول ويتلي إن «المنطق يقوم كله على اللغة»؛ ولا يستطيع المنطق دراسة البرهنة إلا باعتبارها معبراً عنها في اللغة.

ودافع ويتلي عن الهجمات ضد المنطق. فردّ على الاعتراض الذي وجهه لوك قائلاً إن الانسان كان يفكر تفكيراً سليماً قبل أن يسمع عن القياس - بأن قال: لكن وضع الحجج في صورة منطقية يزودنا بلادة للفحص عن صحة الحجة. وهذا الفحص ينطبق في كل الميادين. وليس هناك منطق خاص بالعلم، وآخر خاص بالدين أو غيره. والاستقراء يعني في المقام الأول صورة من صور الحجج؛ لكن الاستقراءات التي من هذا النوع قياسية الشكل. والاستقراء يعني ثانياً التعميم من الجزئيات؛ لكن هذا ليس من ميدان المنطق، والمنطق لا يستطيع أن يضمن صدق المقدمات التي نصل إليها عن هذا الطريق. وكون النتيجة في القياس لا تحتوي على شيء زيادة عما في المقدمات ليس من شأنه أن يجعل القياس عديم الفائدة كما زعم جورج كامبل وغيره.

والعامة. ويحدد القانون الطبيعي بأنه التوافق مع الحق. وفي القسم التاسع والأخير يبحث في النفس ويقرر أنها لا مادية ومخالفة.

وهكذا تجده في هذا الكتاب يحاول أن يبين، دون اللجوء إلى الوحي، ما ينبغي على الانسان العاقل أن يعده ديناً طبيعياً. ومن هنا كان اتجاهه قريباً من اتجاه لورد هربرت أوف تشربوري Lord Herbert of Cherbury الذي حاول تحديد المعاني العامة في الدين الطبيعي، وقريباً أيضاً من مذهب كلاك Clarke.

إن الانسان، هكذا يقول ولستون، فاعل ذكي وحر. والحقيقة هي التعبير عن الأشياء كما هي. والرذيلة هي رفض الحقيقة. وإنكار الأشياء كما هي في الواقع هو في مضمونه انكار لوجود الله. واتباع الطبيعة هو اتباع الله. لكن هذا لا يعني أن يتابع المرء ميوله الفردية. لأنه لما كان لا يوجد انسان عاقل كل العقل، فلا بد للمرء أن يراعي طبيعة الآخرين. والقانون الأكبر للدين هو بالنسبة إلى كل انسان ألا يناقض الحقيقة، وأن يعامل كل شيء بحسب ما هو عليه العقل. والسعادة تقوم على أساس مبدأ اللذة - والألم: فالألم هو الشر الحقيقي، واللذة هي الخير الحقيقي. والسعادة القصوى تقوم في زيادة اللذات على الآلام. وإن من واجب كل انسان أن يجعل نفسه سعيداً قدر الامكان، ومتلائماً مع سعادة الآخرين. ولهذا فإن السعادة والحقيقة صنوان.

مراجع

- Life of Wollaston, Prefixed to The Religion of Nature Delineated, 6 th ed. London, 1738.

- Clifford G. Thompson: The Ethics of William Wollaston. Boston, 1922.

ويتلي

Richard Whately

منطقي وكاتب لاهوتي انجليزي.

ولد في لندن في غرة فبراير سنة ١٧٨٧، وتوفي ٨ أكتوبر سنة ١٨٦٣.

تعلم في كلية أورييل بجامعة أكسفورد، واختير زميلاً

## مراجع

- E. J. Whately: *Life and Correspondance of Richard Whately*, 2 vols. London, 1866.

وبالأمثلة وبالبرهان حارب ويتلي الدعوى القائلة بأن المنطق يقوم في إدهاش المتعلمين بواسطة تدقيقات عابثة. وساق لتفنيد هذه الدعوى شواهد من العلم ومن علم الاجتماع ومن الدين؛ وبهذا بين فوائد المنطق العملية.









**Karl Jaspers**

كارل يسيرز من بين الفلاسفة الوجوديين المعاصرين أغزروهم إنتاجاً وأوضحهم تفكيراً وأوسعهم اهتماماً وأقربهم إلى التفكير الإنساني العام. ليس فيه غموض هيدجر، ولا جفاف لغته ولا ضراوة اصطلاحاته؛ وليس فيه عبث سارتر ولا دعاواه الفجة، وليس فيه أخيراً تملخل التحليل وتلهل التفكير اللذان يميزان جيريل مارسل. وهو قبل هؤلاء جميعاً أشدهم تأثراً بأبي الوجودية كيركجور: عني به منذ بداية اتجاهه الفلسفي الخالص، وأخلص له، وإن كان لم يطرق الموضوعات التي طرقها وبالطريقة التي لجأ إليها.

ولد كارل يسيرز Karl Jaspers في الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٨٣ بمدينة أولدنبرج في المانيا، وأمضى طفولة هادئة، مقياً معظم الوقت في الريف أو على شواطئ بحر الشمال. ورياه أبواه على حب الحق والاخلاص في العمل، دون الارتباط بمراسم دينية فيما عدا قليلاً من الطقوس البروتستنتية ثم درس في مدارس أولدنبرج، وفي سنة ١٩٠١ دخل الجامعة.

ولم يكن طريقه المعتاد الذي يسلكه أساتذة الفلسفة. فلم يتخصص في الفلسفة في الجامعة، بل في الطب، لأنه بدا له أن الفلسفة كالشعر لا يمكن أن تكون دراسة للتخصص يصبح المرء بعدها فيلسوفاً بيد أنه كان في عهد الطب مشغولاً بالمسائل الفلسفية وتبدت له الفلسفة رسالة الانسان العليا، بل الوحيدة في الوجود. لقد كان يرهب جلال الفلسفة فمنعه

هذه الرهبة وهذا الإجلال من اتخاذها حرفة في الحياة. ورأى أن مهنته الحقيقية يجب أن تتعلق بالحياة العملية. فقرر باديء الأمر أن يدرس القانون، ليكون محامياً؛ وفي الوقت نفسه كان يحضر محاضرات الفلسفة غير أن هذه المحاضرات في الفلسفة خيبت رجاءه؛ لأنها لم تعطه شيئاً مما رجاه من الفلسفة: فلم يجد فيها تجارب أساسية تتعلق بالحقيقة الواقعية، ولا دليلاً هادياً إلى الحياة الباطنة والتربية الذاتية؛ بل كل ما قلعت له كان خليطاً من الآراء الجدلية زعمت مع ذلك أن لها قيمة عملية. كذلك لم ترضه دراسة القانون، لأنه لم يكن يعرف الحياة التي يمكن أن تفيدها؛ ولم ير فيها غير طريقة شائعة غريبة للجدل والمراء والسفسطة بواسطة افتراضات جوفاء لا تثير الاهتمام. لقد كان يبحث عن نظرة في الواقع، ولم يجد في دراسة القانون ولا في محاضرات الفلسفة التي تلقاها آنذاك ما يعينه على إيجاد هذه النظرة في الوجود وفي الحياة.

واستبد به الضيق فراح يعزي نفسه بالاهتمام بالفن والشعر، وزار روما سنة ١٩٠٢ حتى يتملى بجمال هذه المدينة الخالدة وينعم بروائعها الفنية فعاد من هذه الرحلة مليئاً بنيل الانفعالات. ثم انتهت هذه الحياة الدراسية المضطربة بنهاية الفصل الدراسي الثالث في الجامعة، إذ قرر عثائياً التخصص في الطب. لقد أحس بالحاجة إلى معرفة الانسان معرفة تقوم على الوقائع. وعكف على العلوم الطبية والطبيعية المرتبطة بالطب، وأصبح وقته موزعاً بين العمل والمستشفى. وكان هدفه أن يصبح طبيباً، ولعله كان يطمح بصره إلى أن يكون استاذاً في كلية الطب، استاذاً لعلم النفس والأمراض العقلية. وفعلاً بدأ منذ سنة ١٩٠٩ ينشر أبحاثاً في الأمراض

يتعلق بالموضوعات الخارجية، فليس إلا تهيئة لتلك الفلسفة الحقة. في هذه الممارسة القيمة تصبح هذه فعلاً باطنياً أصبح به نفسي، وبه ينكشف وجودي، إنها تجربة عالية إيجابية يصبح فيها الوجود هو هو نفسه. وما يكتبه الفيلسوف هو محاولة لبلوغ هذه التجربة، ولكنه لن يبلغها أبداً.

ولما كانت الممارسة الفلسفية تنبثق عن الحياة، فإن صورتها على إرتباط بالموقف التاريخي. وهذا الموقف بدوره مرتبط بالتسلسل التاريخي الذي أفضى إليه. والمسائل الكبرى التي تعنيها هي تلك التي وضعها كنت:

- (١) ماذا أستطيع أن أعرف؟
- (٢) ماذا يجب أن أفعل؟
- (٣) ماذا أستطيع أن أمل؟
- (٤) ثم ما الانسان؟

وهذه المسائل الكبرى التي أثارها الفلسفة على مدى التاريخ أثارها يسيرز لنفسه فانتهدت به إلى البحث في المعاني الرئيسية التالية:

- (١) الوجود - ويقصد به الوجود الماهوي Existenz
- (٢) الاتصال بين الانسان والانسان
- (٣) التاريخية
- (٤) الحرية
- (٥) العلو
- (٦) راموز العلو
- (٧) الاخلاق

فلنوضح بإيجاز موقف يسيرز من هذه المعاني.

(١) الوجود الماهوي:

يميز يسيرز - شأنه شأن هيدجر والوجوديين بعامة - تمييزاً دقيقاً مفصلاً بين الأنية Dasein وبين الوجود الماهوي Existenz ويوغل في تحليل الفارق بين كليهما، وفي شرح معنى الوجود الماهوي. ويبدأ بتقرير واقعة أساسية، وهي أن الانسان هو الحقيقة الأساسية التي أستطيع إدراكها في العالم: فهو يتصف بالحضور والقرب والامتلاء والحياة. وفي الانسان وبه وحده يصبح كل ممكن واقعاً. لهذا فإن إهمال الوجود الانساني، أو تغافله؛ معناه الغرق في العدم.

والانسان ليس موجوداً يكفي ذاته بذاته وليس مغلقاً عليه في ذاته، بل الانسان هو الانسان بفضل ما يفعله

النفسي؛ وفي سنة ١٩١٣ حصل على دكتوراه التأهيل لتدريس علم النفس.

ولم يكن يسيرز يهتم بالسياسة ولا الأحوال الاجتماعية، بل كان يكرس كل تفكيره لأعمال الروح، أعني للبحث العلمي الخالص في ميدان العلوم النفسية والأمراض العقلية. إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فشر شعوراً عنيفاً بما للمشكلات السياسية والتاريخية والاجتماعية من أهمية بالغة التأثير في حياة الانسان. هنالك أحس بأهمية الفلسفة وكان عمله في التدريس في الجامعة مقصوداً على علم النفس، لكن تبين له شيئاً فشيئاً أن دراسته للنفس إنما هي تحضير للمخطوط العلمة لإيضاح الوجود. لأنه لم يفهم من علم النفس مجرد الدراسة التجريبية لوقائع الحياة النفسية وقوانينها، بل في المقام الأول دراسة إمكانات النفس ابتغاء معرفة ما الانسان، وماذا يستطيع أن يكون، وماذا يستطيع أن يفعل.

وحصل يسيرز في سنة ١٩٢١ على كرسي الأستاذية في الفلسفة، ولكن اتجاهه ظل برغم ذلك كما كان من قبل؛ واستمر كذلك حيناً إلى أن تبين له بكل يقين أنه ليس ثم في الجامعة فلسفة حقيقية، فأحس بضرورة البحث فيما هي الفلسفة الحقة وكيف يجب أن تكون ومن هذا التاريخ - وقد شارف الأربعين - كرس نفسه نهائياً للفلسفة فجعل منها واجبه وغايته.

أدرك يسيرز أن الفلسفة ليست إدراكاً لصورة العالم وشكله، فهذا من شأن مجموع العلوم في حركة تطورها المستمر. وليست الفلسفة نظرية المعرفة، فهذه فصل من فصول المنطق؛ وليست تحصيلاً للمذاهب والمدارس التي نشأت على مدى تاريخ الفلسفة، فها هذه غير نظرات موضوعية جوفاء للفكر الانساني. بل الفلسفة في نظر يسيرز تنبع من تعقيد الحياة نفسه؛ والفكر الفلسفي فعل، ولكنه فعل من نوع خاص. إنه عملية أصل فيها إلى الوجود وإلى ذاتي. والفلسفة بوصفها فعلاً وسلوكاً باطنياً لا يمكن إنزالها إلى مرتبة تصبح معها آلة لبلوغ أهداف تقنية، أو وسيلة لرفع الأخلاق أو لتبنيه النفوس من غفلتها، كلا، ليس هذا من شأن الفلسفة. بل الفلسفة ممارسة لما هو في داخل وجودي، ومنه ينبع تفكيري، ممارسة تنبثق من الحياة في أعماقها، لا من سطحها حيث تسعى إلى تحقيق أغراض عملية محددة. ومن أجل هذا لا تعد ممارسة الفلسفة حقة إلا في الأطراف العليا للفلسفة الذاتية أما التفكير الفلسفي الموضوعي، أعني الذي

والانسان يجد نفسه منذ البداية فيها يسميه يسيرز باسم المواقف النهائية Grenzsituationen، ويقصد بها تلك المواقف المفروضة على الموجود ولا يملك منها فكاً. الموقف النهائي بمثابة سور نصطدم به باستمرار، دون أن نستطيع الخروج منه ولا اقتحامه. فالميلاد في يوم كذا في بلد كذا من أبوين هما فلان وفلانة، هذا أمر لا فكاك منه، ولا يستطيع شيء أن يغيره، كذلك الموت، لا سبيل أبداً إلى تجنبه. والنضال أيضاً، لا سبيل إلى التحرر منه أو الامتناع، لأن مجرد الوجود ينطوي على النضال، وما يستلزمه من مخاطرة. ومن يعيش بمخاطر على درجات متفاوتة من المخاطرة، إذ كل عملية من عمليات الوجود تنطوي على مراعاة الوجود الانساني في الموقف الناشئ عنه.

ويقترن بالمخاطرة الاخفاق والخطيئة. ويقصد بالخطيئة هنا المعنى العام، لا المعنى الديني، إذ معناها نبذ الامكانيات وإدخال العلم شرطاً لتحقيق الوجود. فمن يفعل بخطيء لأنه إنما يفعل وجهاً من أوجه الممكن بالنسبة إلى الأمر الواحد، ويضطر إلى نبذ باقي الامكانيات؛ ولأنه يستولي على شيء مما للآخرين، ولأنه يتوسع في وجوده على حساب الغير. وكل هذه مواقف نهائية، لأنها فرضت على الانسان فرضاً. الموت والخطيئة والألم والنضال والميلاد والوطن والجنس. هذه مواقف نهائية تضيف إلى طابع القلق المتأصل في طبع الآنية طابعاً جديداً من الأسى والعنف في الوجود.

وفي مقابل هذه المواقف النهائية تقف الحرية، التي بها وحدها يستطيع الوجود أن يحقق إمكانيات وجوده الماهوي على هيئة الآنية. ومن هنا ينشأ «ديالكتيك» مستمر التوتر بين الموقف النهائي من ناحية، وبين الحرية التي هي الصفة الأصلية في الوجود الماهوي من ناحية أخرى، وفي هذا الصراع يقوم معنى الوجود.

وهذه العملية، عملية التحرر من آثار الضرورة التي تفرضها المواقف النهائية، يسميها يسيرز باسم إيضاح الوجود Existenzherhellung، وإيضاح الوجود يتجه إلى تحقيق الوجود، وذلك بأن يخترق نطاق المواقف النهائية، فيعلو عليها، وهذا هو العلو على الذات.

ومعنى العلو Transcendenz عند يسيرز يكاد ينحصر خصوصاً في هذا المعنى، أعني الخروج من حال الامكان إلى حال التحقيق. وفي هذا الخروج يتحقق معنى الحرية، لأنه ارتفاع عن حال إلى حال أخرى، بما يقدر عليها ما يريد فعله

ويتخله. والانسان، في كل مظهر من مظاهره، على علاقة بشيء آخر. ومن حيث هو موجود في مواقف عينية واقعية في الحياة، أي من حيث هو هناك da-sein فإنه على صلة بالعالم، عائله. ومن حيث هو شعور بوجه عام، فإنه على صلة بفكرة الكل من جهة ما يخلده. ومن حيث هو موجود فهو على صلة بالعلو. والانسان يصبح إنساناً من حيث يتقدم لما هو غيره، أعني أنه لا يصبح ذاته إلا بالاتصال بالموضوعات والأفكار والعلو.

نحن إذن في عالم، فيه نحقق إمكانياتنا وهذه الامكانيات إنما تصدر عن وجود ماهوي، كلما أحاول الإحاطة به بقلت من بين يدي. وهذا الوجود وإن ظهر في صورة الآنية، أي الوجود المتحقق العيني، فإنه في حال من الترحح المستمر بين الذاتية والموضوعية، إنه ليس في نفسه مظهراً لشيء يمكن أن يبدو على هيئة الموضوع. وهو لا يبدو إلا لنفسه و للموجودات الأخرى والانسان في الآنية هو وجود فلان أو فلان من الناس ومن الأشياء. والآنيات يتميز بعضها من بعض بصفات خارجية، أما الوجود الماهوي فيتميز بعضها من بعض بالحرية. والآنية زمانية، أما الوجود الماهوي فهو في الزمان أكثر من الزمان، أعني أنه بالنسبة إليه لا يوجد موت، بل يوجد فقط علو أو سقوط. وأتيتي شيء متناه، لأنها ليست حقيقة سائر الأشياء، بل حقيقي أنا فقط، والآنية تتحقق على شكل وجود في العالم؛ ومجموع الآنيات هو العالم في مجموعه هو آنية تتقدم إلى على هيئة موجود محدد الموضوع.

أما العالم بوصفه موضوعاً للعلم فهو شيء اجنبي عني؛ ورغم ذلك فإنني أستطيع إدراك العالم، لأنني فيه أحقق إمكانياتي. والعالم يجتذب الوجود الماهوي حتى يحقق فيه إمكانياته؛ ولكنه مع ذلك يرفعه أو ينبله، لأنه يقوم عقبة في سبيل سقوطه في الآنية التجريبية. وبين العالم والوجود الماهوي توتر مستمر فلا يمكن أن يتحدوا ولا أن يفصلا. وهذا التوتر هو مبدأ التفلسف في الوجود.

والوجود الماهوي حينما يتحقق يصبح فردياً تاريخياً، لكنه في ذاته لا يحيط به الفكر بل يكفي التفكير فيه للقضاء عليه. ومن هنا كانت الآنية في حال قلق مستمر بالنسبة إلى وجودها وتحقيقها. وهذا القلق أو عدم الرضا هو الشرط الذي يسمح بالنقوذ إلى حقيقة الوجود الماهوي، بأن يحررني من سلطان الوجود - في - العالم.

اجتماعياً وأدرك قيمتي في وسط الآخرين، فأصير آنية كسائر الآنيات. ومع ذلك فإنني في داخل هذا المجتمع أستطيع أن أتمرد وأن أعصي. وهذا يرثني إلى ذاتي، فأشعر من جديد بهذه الذاتية التي خشيت على فنائها بأنلعاها في الحياة الاجتماعية.

وفي مرتبة ثالثة يبدو الأنا حسبها يفعل. فالفعل مرآة تتعكس فيها نفسي. غير أنني لست ما أفعله؛ إذ يمكنني أن أضع نفسي في مقابل، وفي مصاد ما أفعله. والأفعال، بمجرد أن تتحقق، تنفصل عن ذاتي، وهذا يشعرني بذاتي في مقابل أفعالي، فأنا لست أفعالي.

ورابعاً أنا أعرف من أنا عن طريق تاريخي، عن طريق الماضي الذي تكلمت من خلقي، أجد نفسي فأعرف ماذا كنت، ومع ذلك فهذا الماضي ليس في نظري موضوعاً متحجراً ثابتاً، كذلك ليس الماضي مجموع الذات: ولو قلت إنني الماضي لأفني نفسي، لأنني بهذا ألقى بحاضري ومستقبلي في بحر ماضي.

وبالجملة، فإنني مهما حاولت إدراك نفسي على أنني صورة من الصور الأربع السابقة، أعني الجسم، والحياة الاجتماعية، وأفعالي، وماضيي - فإنني لا أجد نفسي متحققاً حقيقياً، بل أجد أنني وراء كل صورة من تلك الصور. على أنني أجد نفسي برغم ذلك قادراً على أن أعود إلى نفسي عن طريق التأمل فتصبح ذاتي موضوعاً لذاتها. ولهذا يمكن أن أقول عن نفسي إنني أنا الموجود الذي يقلق على نفسه، وفي هذا القلق على نفسي أقرر من أنا. وحينها أقول: نفسي - أزواج وأصبح في وقت واحد: واحداً واثنين معاً. ومهما حاولت التخلص من هذه الثنائية بيني وبين نفسي فلن أصل إلى شيء. كذلك أشعر أيضاً بأنني لا أكون نفسي حقاً إلا إذا امتلكت نفسي وهذا لا يكون إلا بتأملي لنفسي باستمرار. وهذا التأمل يستمر إلى غير نهاية (سوى نهاية الموت طبعاً!)، وفيه أضع ذاتي دائماً موضع الامتحان.

لكن ما ذا يحدث إذا أخفقت في محاولة استعادة نفسي؟ أي ماذا يحدث لي - رغم كل ما حاولت - إذا أردت أن أكون أنا فلا أجد نفسي؟ هل أكون مسؤولاً عن هذا الإخفاق؟

نعم أنا مسؤول عن نفسي لأن لدي اليقين بأنني الأصل في نفسي؛ وتلك هي المشكلة المحرجة في هذا التأمل. ولا سبيل إلى التخلص من هذا الإحراج. إن عليّ أمرين

وهو في هذا السبيل يوضح، لأنه يبين معاني الوجود الماهوي موضوعياً؛ بيد أن هذه الموضوعية قد تفسد عليه وجوده، وذلك بإيلاجه في الكلي والعام، والكلي أو العام هو في الوجودية بعامة مصدر من مصادر الفساد، لأن الأصل هو الذاتية الفردية، فكل ما يعتدي على حي الفردية ويفرض بها في هوة الكلية يعد افساداً وتزييفاً للذاتية، وبعد تبعاً لهذا تحطياً للوجود الماهوي، ولم يتوسع يسير في إيضاح معنى السقوط، إكتفاء بما فعله هيدجر في فصوله الطويلة عن سقوط الآنية Verfall des Daseins في كتابه: «الوجود والزمان».

ولكن كل محاولة يبذلها الموجود للتفوذ في حقيقة الوجود الماهوي سرعان ما ترتد لتشعر المرء بنقصه. ولهذا يظل الإنسان في قلق مستمر ابتغاء تحقيق هذا الإيضاح. إنه يسمى دائماً إلى الإيضاح الكامل دون أن يبلغه أبداً.

(٢) - الاتصال بالغير:

ولا يتم هذا التحقيق إلا إذا فتحت الذات نفسها على العالم، لتتحقق فيه إمكاناتها، إذ الذات توجد مغموسة في الأشياء والأحياء الذين يأخذون انتباهها، وشيئاً فشيئاً حينها ترجع الذات إلى نفسها تنبه إلى أصولها، فلا تدرك نفسها على أنها شيء خارجي، بل على أنها حضرة حقيقية تملأ ذاتها امتلاء كاملاً غير أنها في هذا السبيل إلى اكتناه نفسها يعز عليها أن تجدها. لقد وجدت نفسها أولاً بين أشياء وأحياء، ولأياً أدركت أن لها كيانها المستقل. فإذا أدركت كيانها أدركت في الوقت نفسه الصراع بينه وبين الغير في العالم. ومن هنا يقوم التوتر بين الذات والموضوع، بين الإنسان والعالم الذي يوجد فيه. وفي هذا التوتر يقوم المعنى الأعمق للحياة الذاتية.

إنه إذا بدأ فأدرك ذاته، اصطدم بحقيقة نفسه أولاً على هيئة جسم. إذ يجد أن له جسماً، وهذا الجسم يوجد في مكان. ويبدو لي أنني وجسمي شيء واحد؛ ومع ذلك أميز بين نفسي وبين جسمي. فأنا أحياء، ولكنني لست حياة فحسب، وإلا كنت ظاهرة من ظواهر الحياة الطبيعية، وأشعر أن لي جسماً، ولكنني أشعر في الوقت نفسه أنني أستطيع أن أقتل هذا الجسم؛ وهذا أثبت أنني لست بدني، وإن كان الأمر سينتهي في الواقع إلى فناء كليهما معاً: أنا وجسمي.

وثمة مظهر آخر من مظاهر الأنا، وهو الحياة الاجتماعية. في هذا المظهر أتساءل: ما قيمتي؟ فوظيفتي وأعمالي وواجباتي كلها تكوّن الصورة التي أدرك بها نفسي

أن يبحث فيها يسميه البواعث، بواعث الاختيار والعمل الحر، لكن نتائج بحثه هنا موضوع شك كبير. ذلك أن الاختيار ليس أثراً لقوة تسيطر عليه، بل الاختيار قرار به أكيح القوى التي تسيطر عليّ وأعطي به لدافع من الدوافع قيحة مطلقه. فليست الدوافع هي التي تفسر الاختيار، بل الاختيار هو الذي يفسر الدوافع. فأنا الذي أنتار الدافع نفسه. والسبب في هذا الاختيار هو أنني أريد أن يكون الأمر هكذا. فالإرادة إذن صلة بالذات، وشعور بالذات، به أكون فعلاً بالنسبة إلى نفسي. وفعل الأنا الذاتي الذي تدخل ها هنا هو خلق ذاتي. وهذا ما تنبه إليه كيركجور من قبل فقال: إنه كلما ازدادت الإرادة ازدادت الشخصية. والمعنى الذي يستخلص من هذا كله هو أن الإرادة قرار وتصميم، ينبذ بواعث ويستقي باعناً واحداً. فليست البواعث هي التي تحملني على الاختيار بل الاختيار قرار تلقائي مباشر ينبذ البواعث كلها إلا واحداً.

والأصل في السؤال عن الحرية وهل أنا حر هو أنني أريد أن أكون حراً. ولهذا فإن إمكان الحرية ناشيء من إرادتي للحرية. فالحرية ليست شيئاً يحتاج إلى برهان، بل هي قراري أنا أن أكون حراً. وإذن لا تأتي الحرية من خارج، ولا تحتاج إلى شيء لإثباتها، بل يكفي أن أقرر أنني حر كما أكون حراً.

وهنا يعترض بفكرة القانون. لكن القانون ليس إلا تعبيراً عن ضرورة معايير الفعل، تلك المعايير التي يمكن أن أسير عليها، وأن لا أسير. ولكنني أحيل الضرورة القانونية إلى حرية وذلك بأن أشعر بأن هذه المعايير تتساوى مع نفسي وإنما توافق نفسي، فأطع عمومها بطابع شخصي الخاصة، وأخلع عليها خصائص ذاتي. ولهذا فإن الحرية تفترض الخضوع للقانون، لكنها لا ترد إلى هذا الخضوع.

(٥) - العلو:

وهنا نصل إلى مسألة العلو، وهي من المسائل الغامضة الشائكة في مذهب يسيرز، لأن فكره هنا يشوبه غموض وقلق، لعل مرجعه إلى خضوعه هنا لاعتبارات غير فلسفية.

فهو يبدأ بإعلان أن كل محاولة لإثبات وجود العلو هي محاولة وهمية. فلا يوجد برهان موضوعي ولا حجة يقينية يمكن بها إثباته: لا بالعقل، ولا بالنقل. بل الوجود الماهوي، وحده بما فيه من حرية، هو الذي يفتح السبيل إلى العلو، العلو الذي يجلبه في نفسه؛ وهذا العلو هو الرغبة والسعي في تجاوز

متعارضين: أن أنقذ نفسي، وأن أسلم نفسي إلى العالم وإلى العلو. بوصفي حراً أكون أنا نفسي، لكن هذا لا يكفي، إذ لا يكفي الانسان نفسه بنفسه، لهذا لا مناص له من المشاركة في العالم الذي يوجد فيه.

(٣) - التاريخية:

يفرق يسيرز، ومن قبله هيدجر، بين التاريخ والتاريخ، بين الشعور التاريخي، وبين الشعور التاريخي فالتاريخ هو العلم بحوادث الماضي خلال التسلسل الزمني للعالم، أما التاريخ فهو شعور الذات بما حققته في مظاهر نشاطها المختلفة. والشعور التاريخي هو النور الذي يوضح تاريخية الآنية. ويتبدى في كل حالة أريد فيها أن أدرك العلو، أي أن أدرك أنني من خلال المواقف التي أوجد فيها أحاول الخروج عنها والعلو عليها ابتغاء تحقيق إمكانيات جديدة. ولهذا يعرف يسيرز التاريخية Geschichtlichkeit بأنها التضامن والوحدة بين الأنا التاريخي وبين الآنية. ويسمي الشعور بهذه الوحدة باسم الشعور التاريخي.

والتاريخية - من ناحية أخرى - هي الوحدة بين الضرورة وبين الحرية. فهناك مواقف نهائية مفروضة فرضاً، وهناك من جهة أخرى حرية تعمل في هذه المواقف. وعند نقطة التقاطع بين الضرورة التي فرضتها المواقف النهائية وبين الحرية التي تعمل في ضمير كل موجود - تقوم التاريخية الحقيقية.

والتاريخية هي أيضاً وحدة الزمان والسرمدية. ذلك أن الوجود الماهوي ليس هو الزمانية، ولا اللازمانية، بل هو كليهما معاً، ولا يمكن الواحد أن يوجد دون الآخر. ولفهم هذا يجب أن يستبعد المعنى التقليدي لفكرة السرمدية؛ فالسرمدية الحقيقية هي صورة من صور الوجود الماهوي، ومعناها تعمق الآن، أي ملء الحاضر بحضرة زمانية. والآن يلعب دوراً خطيراً عند يسيرز، كما كان عند كيركجور. إنه يجمع بين ما هو في الزمان وما هو خارج الزمان، بحيث نصبح في حاضر سرمدية.

(٤) - الحرية:

الحرية جوهر الوجود الماهوي. والآنية لها الحرية بمثابة تعبير عن إرادتها، لكن الإرادة ليست نشاطاً سابقاً، بل حرية الإرادة معناها أن أريد دائماً وقد حاول علم النفس التقليدي

ولهذا العلو لغات ثلاث في هذه الشفرة: الأولى مباشرة، وتأتي من التجربة، إنها الإدراك الحسي والعلمي للأشياء الزمانية المكانية، وللشعور بالذاتية والعمليات العقلية. والثانية هي لغة بني الانسان، ولها مظاهر ثلاثة: الأساطير، الوحي، عالم الفن. فعن طريق هذه المظاهرة تعبر لغة الانسان عن حقائق أبدية أزلية. واللغة الثالثة هي لغة النظر العقلي الذي ينشئ مذاهب ميتافيزيقية ويهدف بالتالي إلى العلو؛ بيد أن هذا النظر العقلي لا يمكن أن يؤدي لنا غير رموز مجردة، ولا يمكن أن يعرفنا بالعلو معرفة إحاطة.

#### (٧) - الاخفاق:

والمعنى الأخير في فلسفة يسيرز هو الاخفاق. وهو ينشأ عن ان الانسان يحاول دائماً أن يقرأ شفرة العلو وأن يجررها في صورة عقلية يقينية، بيد أنه يخفق دائماً في هذا الفهم. والاختفاق في كل مكان طابع يسود كل موجود فالأنية مصيرها إلى الموت، والانسان في حياته وتاريخه يدرك أن مصير كل شيء إلى الزوال؛ سيتهي هو، وسيتهي كل شيء. فأي عظم لم يزل! وأي بناء لم يتداع! وإذن فتوى التحطيم تفعل فعلها باستمرار ضد أعمال الانسان. لا شيء يبقى، وسرعان ما يأتي النسيان على كل شيء.

ولهذا فإن الاخفاق هو القانون الكلي الوحيد، سواء في عالم العقل، وفي الواقع الحي.

فمصير كل شيء إلى الغرق.

#### مؤلفاته

أ - في علم النفس المرضي وعلم النفس بعامة

«علم النفس المرضي العام»

- Allgemeine Psychopathologie, Berlin, 1913.

«نفسانية النظرات في العالم»

- Psychologie der Weltanschauungen, Berlin, 1919.

«اشترندبرج وفان غوخ»

- Strindberg und van Gogh, Bera, 1922.

ب - كتب في تاريخ الفلسفة

«نيتشه: مدخل إلى فهم الفلسفة»

- Nietzsche. Einführung in das Verständnis seines philosophierens, Berlin, 1936.

نطاق الواقع الراهن، وليس له معنى أكثر من هذا.

وهذا العلو معنى غامض، ولهذا فإن لغته هي الرموز (الشفرة)، أي لغة سرية غير مفهومة مهما حاولنا استجلاءها. ولقد أخطأت الفلسفة في بحثها في الله لما أن أدركت في العلو الثابت الباقي. وكل نظرة في الله - مؤهلة كانت أو قائلة بوحدة الوجود - تقع في الزيف والتناقض، لأن القول بالمحاية والبطون في وحدة الوجود يستبعد العلو، كما أن القول بالعلو في مذهب المؤهلة يستبعد المحايية immanence.

كذلك يجب ألا نجعل من هذا العلو أمراً يجاوز هذا العالم، وإلا انتهينا إلى معلوم لا يمكن أن يحقق معنى ولا يفسر شيئاً، وإنما الوضع الحقيقي في نظر يسيرز هو أن نقول إن العلو والبطون لا يتفصلان، وإنه ليس وراء العالم شيء، ويجب أن يكون العلو باطناً في الموجود نفسه.

والعلو في نهاية الأمر هو الحقيقة الفعلية التي ليس وراءها شيء، وأمامها لا أملك إلا أن أظل صامتاً فأنا أصطدم بالعلو في كل حالة أصطدم فيها بحقيقة لا يمكن أن تستحيل إلى إمكان، أي ليس فيها قرار ممكن، وذلك أن إمكان القرار أو الحرية يدل على نقص في الوجود الزماني. وإذا فالعلو هو الحقيقة المتحققة تحقاً فعلياً بحيث لا يوجد ثم مجال لأي قرار جديد، لأنه ليس ثم نقص. ولهذا فإن العلو يحيط بنا كالإطار، أي أنه منطقة الأشياء المتحققة فعلاً.

#### (٦) - رموز العلو (الشفرة):

قلنا إن هذا العلو ليس في متناول الإدراك أن يحيط به. ومهما اقترب الانسان منه تبلى له أبعد. ومهما حاول أن يقول إنه هناك فهو وراء هذا التصور. ولكنني في كل فعل من أفعال الحرية أشعر بأنه هو الحد، وأنه هو السبق لما يقع؛ وكل مظهر يمكن أن يكون راموزاً لهذا العلو. والأنية نفسها يمكن أن تصبح شفرة للوجود الماهوي. فإن كل وجود: مثل الانسان والحيوان، والوقائع التاريخية والحضارية - كل هذا يعبر عن شيء، بطريقة غامضة. وهذا الخموض هو طابع الشفرة الموجود في الأشياء. فحيث يبدو الشيء غير مفهوم، فإنه يتصف بطابع الشفرة. وعلى الانسان أن يسعى لقراءتها. إننا نجد الشفرة في كل مكان، لأنها ممكنة باستمرار، ولكنها غير قابلة لبينة واضحة أبداً، فلقراءتها لا بد من تجاوز مظهرها الرمزي؛ ومع ذلك يجب أن أرجع إلى الخيال كي أتصورها وأتوسمها على نحو ما تبدى عليه في الأشياء.



lichen Offenbarung. In: Philosophie und christliche Existenz. Festschrift für Heinrich Barth. Basel- Stuttgart, 1960.

«الايان الفلسفي في مواجهة الوحي المسيحي»

- Der Philosophische Glaube angesichts der Offenbarung. München, 1962.

«الايان الفلسفي في مواجهة الوحي»

«محاسبة وتطلع»

- Rechenschaft und Ausblick. Reden und Aufsätze, München, 1951

«الفلسفة والعالم: خطب ومقالات»

- Philosophie und Welt. Reden und Aufsätze. München, 1958.

«مقالات فلسفية»

- Philosophische Aufsätze. Frankfurt- Hamburg.

«تحديات: أحاديث ولقاءات صحفية»

- Provokationen. Gespräche und Interviews. München, 1969.

«شفرة العلو»

- Chiffren der Transzendenz. München, 1970.

د - كتب في التاريخ والسياسة

«الوضع الروحي في العصر الحاضر»

- Die geistige Situation der Zeit. Berlin, 1931

- Vom Ursprung und Ziel der Geschichte. Zürich, 1949.

«في أصل التاريخ وهدفه»

- Die Atombombe und die Zukunft des Menschen, München 1958.

«القبلة الذرية ومستقبل الانسان»

- Hoffnung und Sorge. Schriften zur deutschen Politik 1945- 1965. München, 1965.

«آمال وهم: كتابات في السياسة الألمانية ما بين سنة ١٩٤٥ - ١٩٦٥»

- Wohnt treibt die Bundesrepublik? Tatsachen- Gefahren- Chancen. München, 1966.

«إلى أين تمضي ألمانيا الاتحادية؟ وقائع - أخطار - حظوظ»

- Antwort. Zur Kritik meiner Schrift and Wohin treibt die Bundesrepublik? München, 1967

«ورد على النقد الموجه لكتابي: إلى أين تمضي ألمانيا الاتحادية؟»

- Descartes und die Philosophie. «الفلسفة» وديكارت Berlin, 1937.

«شلتنج: عظمة ومصير»

- Schelling. Gröse und Verhängnis. München, 1955.

«كبار الفلاسفة»

- Die grossen Philosophen. München, 1957.

«نقولا الكوزاني»

- Nikolaus Cusanns. München, 1964.

«اكتساب ومجادلة: خطب ومقالات مجموعة في تاريخ الفلسفة»

- Aneignung und Polemik. Gesammelte Reden und Aufsätze zur Geschichte der Philosophie. München, 1968

ج - كتب في منهج الفلسفي

«فكرة الجامعة»

- Die Idee der Universität. Berlin, 1923.

«فلسفة» في ٣ مجلدات (أهم مؤلفاته)

- Philosophie. 3 Bde. Berlin, 1932

- Vernunft und Existenz. Fünf Vorlesungen. Groningen, 1935.

«العقل والوجود: خمس محاضرات»

- Existenzphilosophie. Drei Vorlesungen. Berlin, 1938.

«فلسفة الوجود: ثلاث محاضرات»

- Von der Wahrheit. Philosophische Logik. Erster Band. München, 1947.

«في الحقيقة: منطقي فلسفي. المجلد الأول».

- Einführung in die Philosophie. Zwölf Radiovorträge. Zürich, 1950.

«مدخل إلى الفلسفة: اثنا عشر حديثاً في الإذاعة»

- Vernunft und Wiedervernunft in unsere Zeit. Drei Gastvorlesungen. München, 1950.

«العقل واللا عقل في عصرنا الحاضر. ثلاث محاضرات».

- Der Philosophische Glaube. Gastvolesungen. Zürich, 1948.

«الايان الفلسفي. محاضرات دُعي إلى إلقائها»

- Die Frage der Entmythologisierung. München, 1954.

«مسألة التجريد من الأساطير»

- Der Philosophische Glaube angesichts der christ-



## هـ - ترجمة ذاتية

- Schicksal und Will. autobiographische Schriften. München, 1967.

«مسير وإرادة».

## مراجع

- Paul Ricœur: Gabriel Marcel et Karl Jaspers, Paris, 1947.
- A. Caracciolo: Studi Jaspersiani. Milano, 1958.
- M. Crammer: Untersuchungen über Karl Jaspers' Philosophie. Dissertation. Innsbruck, 1952.
- L. Deimel: Die Existenz philosophie von Karl Jaspers. Diss. Münster, 1952.
- M. Dufrenne and P. Ricœur: Karl Jaspers et la philosophie de l'existence. Paris, 1947.
- H. Gottschalk: Karl Jaspers. Berlin, 1966.
- A. Kremer- Marietti: Jaspers et la Scission de l'être. Paris, 1967.
- G. Marcel: «Situation fondamentale et situations limites chez Karl Jaspers», in Du Refus à l'invocation. Paris, 1939, pp. 284- 326.
- L. Pareyson: La filosofia dell'esistenza e Carlo Jaspers. Napoli, 1940.

## اليقين

Certitude (F.), Certainty (E.).

هو ما يفيد شيئاً لا يتصور تغييره بحال

والقضايا اليقينية ، أو اليقينات أربعة أصناف :

- ١ - الصنف الأول هو «الأوليات العقلية المحضة ، وهي قضايا راسخت- في الانسان- من جهة قوته العقلية المجردة، من غير معنى زائد عليها يوجب التصديق بها... كقولنا: إن الاثنين أكبر من الواحد... وإن الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً معاً ، وإن السلب والايجاب معاً لا يصدقان في شيء واحد فقط... وهذا الجنس من العلوم لا يتوقف الذهن في التصديق به إلا على تصور البسائط ، أعني الحدود

## والذوات المفردة...»

٢ - والصنف الثاني هو المحسوسات ، كقولنا : القمر مستدير ، والشمس منيرة .

٣ - والصنف الثالث : التجربات ، وهي أمور وقع التصديق بها من الحس بمعاونة قياس خفي ، كحكمنا بأن الضرب مؤلم للحيوان ، وحز الرقبة مهلك ، والسقمونيا مسهل... ومن قبيل التجربات : الحدسيات : وهي قضايا مبدأ الحكم بها حدس من النفس يقع لصفاء الذهن وقوته وتوليئه الشهادة لأمر ، فتدعن النفس لقبوله بالتصديق له ، بحيث لا يقدر على التشكيك فيه . ولكن لو نازع فيه منازع - معتقداً أو معاندأ - لم يمكن أن يُعرف به ، ما لم يقو حدسه ولم يتول الاعتقاد الذي تولاه ذو الحدس القوي - وذلك مثل قضائنا بأن نور القمر مستمد من الشمس ، وأن انعكاس شعاعه يضاهي انعكاس شعاع المرآة إلى سائر الأجسام التي تقابلها ، وذلك لاختلاف تشكله عند اختلاف نسبه من الشمس : قريباً وبعدأً وتوسطاً . ومن تأمل شواهد ذلك لم يتوق له فيه ريبه « (الغزالي : معيار العلم ص ١٨٦ - ١٩١ ، القاهرة ، مطبعة المعارف) .

٤ - والصنف الرابع «القضايا التي عرفت لا بنفسها، بل بواسطتها وكان لا يغرب عن الذهن أوساطها، بل مهما (=متى) أحضر جزئي المطلوب، أحضر التصديق به لحضور الوسط معه، كقولنا: «الاثنتان ثلث الستة»، فإن هذا معلوم بوسط وهو أن كل منقسم ثلاثة أقسام متساوية فأحد الأقسام ثلث، والسته تنقسم بالإثنتين ثلاثة أقسام متساوية. فالاثنتان إذن ثلث الستة. ولكن هذا الوسط لا يغرب عن الذهن، لقلة هذا العدد وتعود الانسان التأمل فيه» (الكتاب نفسه ص ١٩٢).

لكن الشك في يقين هذه الأصناف الأربعة قد نازل لدى الكثير من الفلاسفة وفي نظريات المعرفة:

١ - فالصنف الأول وهو الأوليات «قد شكك فيه على نقاد الرياضيات المحدثون مثل بونكاريه (راجعته) ورسيل (راجعته) فقالوا إن ما يسمى بدديهيات هي في الواقع تعريفات مقنعة، فمثلاً: قولنا إن الكل أكبر من الجزء - ما هو إلا تعريف لما هو «الكل» وما هو «الجزء».

٢ - والصنف الثاني وهو المحسوسات قد شكك فيه كل

خاص من أشكال التجربة ، لا يشاركها فيه أي علم آخر .  
لكنه ما لبث بعد ذلك أن تفرغ لدراسة الانطولوجيا ،  
وخصوصاً ما يتعلق بطبيعة الوجود ووجود الكون . وهنا  
اختلف مع أستاذه هسرل الذي أفضى إلى مثالية متعالية ،  
بينما رأى ينجاردين أن الظاهريات لا تؤدي بالضرورة إلى  
مثالية متعالية . وقد كرس لبعض الموضوعات الانطولوجية  
كتابه الرئيسي وعنوانه : « الجدل حول وجود العالم » ( باللغة  
البولندية ، في مجلدين ، كراكوف ١٩٤٧-١٩٤٨ ، ط ٢ سنة  
١٩٦٠ - سنة ١٩٦١ ) . فدرس مشاكل الانطولوجيا  
الصورية ، والانطولوجيا المادية ، والانطولوجيا الوجودية :  
وهذا التقسيم الثلاثي يناظر فكرة أن كل موجود ينبغي أن  
ينظر إليه من ثلاث جهات نظر : التركيب الصوري  
( للجوهر الخاص بالفرد ، وللإضافة ، وللعملية ، الخ ) ،  
والأوصاف المادية ، وحال الوجود .

وقد ميز ينجاردين بين الانطولوجيا والميتافيزيقا وعدهما  
علمين متميزين : فالانطولوجيا تبحث في الموجودات الممكنة  
وعلاقتها الضرورية ، والميتافيزيقا تبحث في ماهية ما يوجد  
بالفعل وفي هذا الوجود الفعلي .

وفي كتاب « الجدل حول وجود العالم » يميز بين أربع  
لحظات وجودية هي :  
١ - الاستقلال الذاتي والتشريع الخارجي الوجوديان ؛  
٢ - الأصالة والاشتقاق ؛  
٣ - التميز والترابط ؛  
٤ - الاستقلال والاعتماد .

والمزج بين هذه اللحظات الوجودية يمكن من بناء  
ثمانية تصورات قبلية لأحوال الوجود ، أحدها - وهو الذي  
يتعين بالاستقلال الذاتي والأصالة والاستقلال والتميز - يقوم  
في تقابل مع السبعة الأخرى ، بما له من مظهر وجود مطلق .

كذلك يميز ينجاردين بين ثلاث لحظات وجودية من  
ناحية الزمان ، وهي : الفعلية *actualité* ، والتحديد ،  
والهشاشة الوجودية *fragilité existentielle* .

وتم جانب آخر في فكر ينجاردين ، وهو فلسفة الفن .  
وله في هذا المجال مؤلفات عديدة نذكر منها :

١ - « العمل الفني الأدبي » ، سنة ١٩٣١ ( ط ٢ سنة  
١٩٦٥ ) ، بالألمانية .

الذين هاجموا المعرفة الحسية من أفلاطون حتى العصر  
الحاضر ، خصوصاً الشكك اليونانيين ( راجع : الشك ) . . .

٣ - أما المجربيات فقد شكك فيها على أساس أنها معرفة  
جزئية ، لا تصلح للتعميم .

٤ - أما النوع الرابع وهو الحدسيات فالمعرفة فيه ذاتية  
توقف على من له ملكة قوية للحدس ، ولا يقربها إلا من  
يملك هذه القدرة .

### مراجع

- Descartes: *Méditations*
- G. E. Moore: *Philosophical papers*. London, 1959.

### ينجاردين

#### Roman Yngarden

فيلسوف بولندي من أنصار مذهب الظاهريات

ولد في سنة ١٨٩٣ ، وتوفي في ١٤/٦/١٩٧٠

تلمذ على تشاردوفسكي Twardowski وهسرل .  
وصار أستاذاً للفلسفة في جامعة لقوف Lwow وجامعة  
كراكوف Krakow ( في بولنده ) . وكان عضواً في الأكاديمية  
البولندية للعلوم .

واهتم خصوصاً بمشكلة المعرفة . ففي رسالة  
للدكتوراه ، وعنوانها : « الوجدان والعقل عند برجسون »  
( بالألمانية ، هله ، سنة ١٩٢١ ) أكد استقلال نظرية المعرفة  
عن سائر العلوم ( وخصوصاً عن علم النفس ) ودافع عنها  
ضد اتهامها بأنها تقوم على مصادر على المطلوب الأول ،  
وذلك في كتابه : « في خطر وجود مصادر على المطلوب الأول  
في نظرية المعرفة » ( بالألمانية ، هله ، سنة ١٩٢١ ) .

ويبحث في العلاقة بين نظرية المعرفة وسائر العلوم ،  
وذلك في كتابه : « في موقع نظرية المعرفة داخل مذهب  
الفلسفة » ( بالألمانية ، هله ، سنة ١٩٢٥ ) . وفيه يؤكد أن  
نظرية المعرفة لا تقوم على النتائج المتحصلة في العلوم الأخرى  
( علم النفس ، الفسيولوجيا ، الفزياء ، الخ ) ، بل ولا على  
نتائج العلوم الفلسفية الأخرى ، وخصوصاً الانطولوجيا .  
ذلك لأن المعرفة ، القبلي منها والبعدي ، تقوم على شكل

اويجن بلويلر Eugen Bleuler في مستشفى بوجولتسلي Burghölzli في زيورخ سويسرا بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٩. ونشر في هذه الفترة «دراسات في ترابط الكلمات»، وفيها ابتكر لأول مرة الاصطلاح «مركب» (أو «عقدة») الذي اشتهر اشتهاراً واسعاً جداً فيما بعد. ثم نشر كتابه «علم نفس الجنون المبكر» (سنة ١٩٠٦ - ١٩٠٧).

ثم التقى بسجموند فرويد في مدينة فينا في سنة ١٩٠٧. فتعاونوا على البحث معاً في ميدان الأمراض النفسية. لكنه ما لبث أن استقل بنفسه عن فرويد، وأخذ ينتقد مبالغة فرويد في أهمية الغريزة الجنسية، وبدلاً من ذلك عني بتعمق دراسة فكرته التي ابتدعها، أعني «المركبات» أو «العقد» النفسية، وأكد العقد الحالية وقال إنها أهم من عقد الطفولة في تفسير العُصَابَات (neuroses). ولما نشر كتابه «علم نفس اللاشعور» (سنة ١٩١١ - ١٩١٢) أدى ذلك إلى انفصاله عن فرويد في سنة ١٩١٣. واختير رئيساً للجمعية الدولية للتحليل النفسي من سنة ١٩١٠ إلى ١٩١٤.

ومنذ أن انفصل عن فرويد في سنة ١٩١٣ شق طريقه بنفسه، وكون آراءه الرئيسية في علم النفس، ونذكر منها: وصف الأنماط النفسية (النفس المنطلقة والنفس المنطوية / extraversion introversion) في سنة ١٩٢١، ونظرية الطاقة النفسية (سنة ١٩٢٨) التي أكد فيها الغائية تجاه العلية الفاعلية؛ تصوّر الرمز بوصفه محوّلًا للطاقة (سنة ١٩٢٨)؛ اكتشاف «اللاشعور الجماعي» بأنماطه الأولية بوصفه أساساً لللاشعور الفردي؛ فكرة الپسوخييه Psyche بوصفها جهازاً ينظم نفسه بنفسه، ويعبر عن نفسه في عملية الفردانية (الفرد individuation). وقد توسّع في دراسة الپسوخييه في الشطر الأخير من حياته وراح يتلمس تجلياتها في رموز الدين، وفي الأساطير، وفي علم الصنعة (الكيمياء القديمة).

وكان علم النفس عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد أدرج «اللاشعور» بين المعاني الرئيسية في علم النفس، بعد أن أكده وبين صوره إدورد فون هرتمن في كتابه «فلسفة اللاشعور» (سنة ١٨٦٩) ومن قبله كارل جوستاف كاروس Carus (١٧٨٩ - ١٨٦٩) في أبحاثه في اللاشعور. وحوالي نهاية القرن التاسع عشر قامت محاولات عديدة في وقت واحد تقريباً وفي استقلال بعضها عن بعض - من أجل فهم اللاشعور بواسطة التجريب. وكان الرواد في

٢ - «في بنية اللوحة الفنية» سنة ١٩٤٦، بالبولندية.  
٣ - «العمل المعماري»، سنة ١٩٤٦، بالبولندية.  
٤ - «مشكلة هوية العمل الموسيقي»، سنة ١٩٣٣، بالبولندية.

٥ - «أبحاث في انطولوجيا الفن»، سنة ١٩٦٢، بالألمانية.

وفيها يسمى إلى وضع انطولوجيا ظاهرية للفن. وهو في تحليله للعمل الفني يميز أربع طبقات:

- ١ - العلامات اللغوية؛
- ٢ - المعاني؛
- ٣ - الموضوعات الممثلة؛
- ٤ - المظاهر الاجالية schématiques لهذه الموضوعات.

وعنده أن الانسان على الحدود القائمة بين ميدانين للوجود: ميدان الطبيعة، والميدان الانساني الخاص. والانسان مضطر إلى العيش على أساس الطبيعة وفي الطبيعة، لكن ينبغي عليه أن يعلن عليها، ولا يحق له أن يقنع بها. وتلك هي مأساة الانسان، وفيها تتجلى طبيعته الحقة: إن وجود الانسان عبقرّي لكنه زائل نهائي.

وفي آخر كتبه، وعنوانه: «في المسؤولية: أسسها الموجودة» (اشتوتجرت، سنة ١٩٧٠، بالألمانية) يلخص أفكاره الرئيسية فيما يتعلق بتركيب الوجود الفردي، والزمان، والعلية، والقيم، والشخصية الإنسانية.

### مراجع

- Izydora Dambaska: «Roman Yngarden», in *Revue philosophique oct- decem.* 1970, pp. 503- 506, Paris

### Carl Gustav Jung

عالم نفسي سويسري أسهم بقسط وافر في بيان اللاشعور، وفي تكوين الطب النفسي.

ولد في ٢٦ يوليو سنة ١٨٧٥ في Kesswil وتوفي في ٦ يونيو سنة ١٩٦١ في كوسنخت بجوار زيورخ.

درس الطب في جامعة بازل، وعمل تحت اشراف

الاجتماعية ، والمتفائلة ، وبين الشخصية المتطوية ، التي هي أميل إلى الانسحاب من الواقع ، وأقل اجتماعية ، وأكثر انغماساً في حياتها الباطنة . ورافق هذا التمييز تمييز بين أربع وظائف للشخصية هي : الاحساس ، التفكير ، الشعور ، والعيان intuition ويقصد بالاحساس : كل ما نكسبه بالادراكات الحسية ؛ وبالتفكير : المعنى العادي لهذا اللفظ . أما الشعور فهو القدرة على تقويم الانسان لنفسه ولغيره من الناس . أما العيان - عنده - فهو إدراك الوقائع التي لا تدرك عن وعي ، وهو يعمل تلقائياً لحل المشاكل التي لا يمكن حلها بطريقة عقلية .

وهو يميز بين أنماط الشخصية وفقاً للوظيفة السائدة من بين هذه الوظائف الأربع ووفقاً لكون الشخص متفتحاً أو منطوياً . فمثلاً : المتفتح الذي تسود فيه وظيفة التفكير ينجذب إلى الوقائع ويتم ترتيبها ترتيباً عقلياً ، ويقبل من قيمة الانفعالات ، وبهذا يصير خاضعاً بين الحين والحين لانفجارات للانفعال لا يتحكم فيها وربما لا يتعرفها . أما النمط المنطوي الذي يسوده التفكير فلا يرى للوقائع قيمة في ذاتها ، وإنما قيمتها عنده هي فقط في علاقتها بقدرته الخلاقية على وضع النظريات وابداع الأفكار . وكلا النمطين من التفكير مصحوب بوظيفة شعور غير نامية ، لأن التفكير والشعور متضادان في جوهرهما ومتعاديان .

ومن رأي يونج أن من النادر وجود شخص هو نموذج خالص لواحد من هذه الأنماط . وإنما الغالب أن تسود إحدى الوظائف الأربع ، معدلةً بحضور واحدة من الثلاث الأخرى . وفي الشخصيات الأكثر تعقيداً يمكن أن توجد وظيفتان معاً مسيطرتين ، وأندر من هذا أن توجد ثلاث وظائف مسيطرة معاً ؛ لكن دائماً توجد وظيفة مهملة أو غير معترف بها .

اللاشعور الشخصي والجماعي : أما اللاشعور الشخصي فيقوم في المركبات ( أو العقد ) Complexes ، التي هي انسجة من الأفكار والانفعالات التي كُتبت في الشعور ، لأن الشعور وجدها مؤلمة في الاقرار بها ، وكذلك من إدراكات الواقع التي لم تشق طريقها أبداً إلى الوعي . وهكذا فإن كل لا شعور شخصي عند فرد ما يمكن - إلى حد ما - تفسيره عن طريق تاريخ حياته . لكن بعض ملامح اللاشعور الشخصي مشتركة بين كل الأفراد وليست مشتقة من تاريخ الفرد الشخصي .

هذا المجال هم بير جانيه Pierre Janet في فرنسا ، وسجموند فرويد في النمسا . واشتهر جانيه بأبحاثه في الناحية الشكلية ، وفرويد بأبحاثه في مضمون الأعراض النفسية التكوينية Psychogenic . فقام فرويد ، انطلاقاً من أعراض العصبانيات ، باتخاذ الأحلام وسائط للمضمونات اللاواعية . وقد خيل إليه - هكذا يقول يونج - أن عناصر اللاشعور قد كُتبت بسبب طبيعتها غير الملائمة أخلاقياً . وهكذا فإنها ، مثل مضمونات منسية ، كانت قبل ذلك شعورية ثم تسامت ، ومن غير الممكن استعادتها ، بسبب تأثير مارسه موقف العقل الواعي . . . وهذا الكشف الأولي أدى منطقياً إلى تفسير اللاشعور على أنه ظاهرة كُتبت repression يمكن أن يفهم بمعان شخصية . إن محتوياته كانت عناصر مفقودة كانت قبل ذلك ذات يوم شعورية . وأقر فرويد بعد ذلك باستمرار وجود بقايا عتيقة على شكل أحوال أولية للعمل ، وإن كانت هذه فُسرت على نحو شخصي . ووفقاً لهذا الرأي فإن الپسونيه اللاشعورية تبدو ملحقات متساوياً subliminal للعقل الواعي . والمحتويات التي رفعها فرويد إلى الوعي ( الشعور ) هي تلك الأسهل في الاسترداد ، لأن لها قدرة على أن تصير واعية ( شعورية ) وكانت في الأصل واعية . ( يونج : « روح علم النفس » في « هذه فلسفتي » ص ١٣٠ ، لندن سنة ١٩٥٨ ) .

ويوضح يونج أن اللاشعور ليس هو اللامعروف فقط ، بل هو بالأحرى « النفسي اللامعروف » unknown Psychic ، ونعني به ، من ناحية ، كل الأشياء الموجودة فينا ، والتي لو صارت مشعوراً بها ، من المحتمل ألا تختلف عن المحتويات النفسية المعروفة ، مع إضافة النظام شبه النفسي Psychoid system من ناحية أخرى . فاللاشعور ، معرّفاً على هذا النحو ، يمثل حالة غامضة تماماً غير محددة : إنه كل شيء أعرفه ، ولكنني لا أفكر فيه الآن ؛ وكل شيء كنت واعياً به ذات مرة لكنني نسيته الآن ؛ وكل شيء أدركته حواسي ، لكن لم يسجله عقلي الواعي ؛ وكل شيء أشعر به ، وأفكر فيه ، وأتذكره ، وأحتاجه ، وأعمله ، لكن على نحو غير إرادي ودون انتباه إليه ؛ وكل الأمور المستقبلية التي تتخذ لها شكلاً في نفسي وستبلغ مرة مرتبة الوعي : ذلك هو محتوى اللاشعور .

الأنماط النفسية : ويميز يونج ، مثل كرتشمير ، بين الشخصية المفتوحة extraverted type وهي الشخصية

ويضع يونج الذات self في مقابل الأنا ego. فالأنا هو المركز الفعلي للشعور، أما الذات فهي مركز اللاشعور. والرؤى الدينية، والأحلام، والشكل السحري الذي يسميه اليونج « مندلا » mandala كلها صور لوحدة ممكنة تكون فيها الذات في المركز. وتحقيق هذه الوحدة لدى أي إنسان مهمة تنتسب خصوصاً إلى النصف الثاني من العمر. أما في النصف الأول فإن الفرد مضطر إلى الانشغال بعمله، وبالزواج، وتربية أولاده. وحين تنجز هذه الأشغال، فإن على الفرد أن يتفاهم مع نفسه. ومن هنا نجيء الأزمة النفسية التي تحدث في أواخر الأربعينات من عمر الإنسان.

ويستخدم يونج فكرة اللاشعور الجماعي لتفسير ليس فقط ما يحدث في الأحلام، بل وأيضاً تكرار ظهور نفس الرموز والموضوعات، في أوقات مختلفة متباعدة وأماكن نائية، في الأساطير والأديان. لقد وجد يونج في أحلام ورسوم بعض المرضى مادة تشبه كثيراً ما يوجد في كتب الأديان الشرقية.

وزيادة الفهم العلمي أدت إلى تجريد العالم الطبيعي والاجتماعي من جانبه الإنساني. فمثلاً تفسير الرعد تفسيراً علمياً وليس على أنه صوت إله معناه إبعاد الإنسان عن الطبيعة الخارجية. وزوال الاعتقاد في الآلهة والجن قد أدى إلى انعدام إدراك الإنسان للقوى الموجودة في الطبيعة الإنسانية. ومن ثم صار الإنسان العصري فريسة للاضطرابات النفسية.

ولهذا يحتاج الناس إلى عقائد وتجارب دينية قوية، لأنهم في الشكل الديني يستطيعون أن يلتقوا بمضمونات اللاشعور الجماعي وأن يقبلوها. ويرى يونج أنه لا يمكن بيان أن العقائد الدينية صحيحة، وفي الوقت نفسه لا يمكن أيضاً بيان أنها باطلة.

#### مؤلفاته الرئيسية

« التحولات ورموز اللذة الجنسية »

- Wandlungen und Symbole der Libido, 1912 = Symbolé der Wandlung, 1952.

« الأنماط النفسية »

- Psydologische Typen, 1920.

« العلاقات بين الأنا وبين اللاشعور »

ويميز يونج بين « الشخص » persona و « الظل » sha-dow. فالشخص هو القناع المقبول عند الناس اجتماعياً والمفروض من الجماعة، والذي وراءه يقيم الأنا الحقيقي. ووجود هذا القناع ضرورة لا مفر منها، لكن الأنا قد يحقق في تحقيق ذاته إما بوضعه هوية قوية بينه وبين شخص، أو بعدم تنمية شخص موافق على الإطلاق. والمقابل للشخص هو الظل، ويتألف من مجموع الشهوات، والانفعالات، والمواقف، التي رفضت وحُجبت، والتي تشخصها في الأحلام على هيئة معادية أو كريمة. والظل في جوهره طقولي، لأنه لم تمسه عملية النضوج أو التربية. وعجز المرء عن تعرف ظله هو دائماً خطر محتمل على شخصيته، لأن الظل غير المتعرف وغير المقربه أقوى وأشدّ نزاء من الظل المقرب به المتعرف.

وعلى الرغم من أن لكل فرد ظلاً، فإنه لما كان الظل هو ناتج ما كتبه شعوره الخاص، فإنه ينتسب إلى اللاشعور الشخصي. لكن يوجد إلى جانبه في اللاشعور الشخصي قوة أكبر هي « الصورة » image، والصورة تكون المؤنت في الرجل، والمذكر في المرأة، ويسمى يونج باسم anima و animus على التوالي. والanima لا تتحدد بتاريخ الإنسان الخاص، بل تتحدد بالكيفية التي بها الجنس المضاد يدرك أو يساء إدراكه. والanima صورة جماعية موروثه للمرأة بما هي امرأة. وهكذا فإن ما يهم الطفل ليس فقط كيف تعامله أمه؛ بل إن تجربته مع الأم تتج من أمرين: السلوك الحالي للأم، والكيفية التي بها anima تتحدد نظرتة إليها وشعوره نحوها. وربط يونج بين anima ووظيفة التفكير، وبين anima ووظيفة الشعور، على أساس افتراض أن التفكير أكثر سيطرة في الرجل، والشعور أكثر سيطرة في المرأة.

والanima و anima يتسبان إلى اللاشعور الجماعي للإنسانية؛ وهما من بين الأنماط العليا archetypes، أي الميول الموروثة للعمل النفسي الموجود في اللاشعور الجماعي. ومن بين الأنماط العليا الأخرى الرئيسية: الشيخ الحكيم، الأرض الأم، والذات. والنمط العالي يلعب أدواراً متعددة: فهو ليس فقط يكتف الطرق التي تبعاً لها تتكون تجربة شعورنا، بل هو أيضاً يستطيع أن يظهر مباشرة في عدد من التقنعات في الأحلام والتهاول، وقد يسيطر على الشخص سيطرة تجعله يضع هوية بين ذاته وبينه. وإذا حدث هذا تكون الشخصية في خطر.

- « في جذور الشعور »  
 - Von den Wurzeln des Bewusstseins, 1953
- مراجع
- G. Adler: Entdeckung der Seele, 1934  
 - J. Jacobi: Die Psychologie von C. G. Jung, 2<sup>e</sup> Aufl. 1949 وفيه مراجع  
 - H. Schär: Religion und Seele in der Psychologie Jungs, 1946  
 «Frieda Fordham: an Introduction to Jungs Psychology, London 1953.  
 - E. Glover: Freud or Jung, London, 1950.  
 - Jolanda Jacobi: The Psychology of C.G.Jung, London 1942; revised 6<sup>th</sup> ed. New Haven, 1962.  
 - Jolanda Jacobi : Complex/ Archetype/ Symbol in the Psychology of C. G. Jung. New York, 1959.
- Die Beziehungen Zwischen dem Ich and dem Unbewussten, 1928.  
 « علم النفس والدين »  
 - Psychologic und Religion, 1939  
 « علم النفس وعلم الصنعة »  
 - Psychologie und Alchemie, 1944  
 « علم نفس التحميل »  
 - Die Psychologie der Uebertragung, 1946  
 « في الطاقة النفسية وماهية الأحلام »  
 - Ueber psychische Energetik und das Wesen der Träume, 1948  
 « رموز الروح »  
 - Die Symbolik des Geistes, 1948  
 « الدهر : ابحاث في تاريخ الرموز »  
 - Aion, Untersuchungen Zur Symbolgeschichte, 1951  
 « الرد على أيوب »  
 - Antwort auf Hiob, 1952





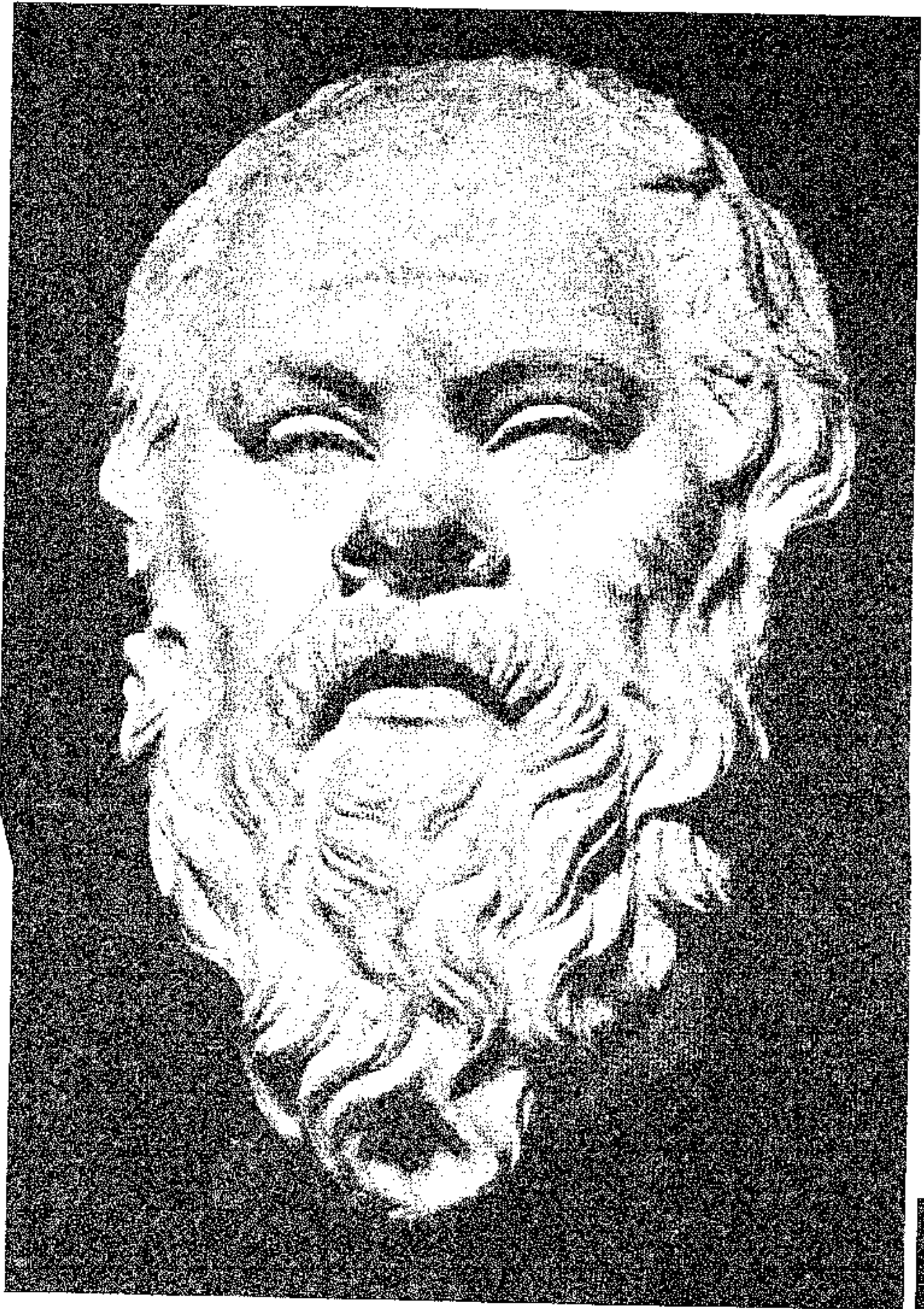


LITV

LITV











١٩٧٥



١٩٧٦



١٩٧٧





APR 1971

100-100000





۱۸۶ مویشکیو



۱۷۳ مارسل (جرجیل)



۱۸۱ لوتونی





۱۷۱ مالتیرایش



۱۷۱ مکافیل





11/15/57













